تاريخ العالم

وزارة المعارف العمومية
إدارة الترجمة
الإدارة العامة للثقافة

الناشر مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن ويوسف محمد وإخوتهما
٩ شارع عدلي باشا بمصر

تاريخ العالم

نشره بالانجليزية

السير جون ا. هامرتن

المجلد الثانى

ترجمته

إدارة الترجمة بوزارة المعارف العمومية

تنشره بتكليف من وزارة المعارف العمومية
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى باشا بمصر

محتويات المجلد الثانى من تاريخ العالم

الفصل الثالث والعشرون

امبراطورية الحيثيين

وصف للفترة الوحيدة ، فى خلال ثلاثة آلاف من السنين ، التى كانت فيها آسية الصغرى مركز الدولة امبراطورية .

بقلم جون جارستانج John Garstang

الدكتور فى العلوم ، وعضو جمعية العاديات ، واستاذ كرسى جون رانكن لعلم الآثار فى جامعة ليفربول والمدير السابق للمدرسة الأثرية البريطانية فى بيت المقدس ، ومؤلف كتاب «بلاد الحيثيين» .

كانت شبه جزيرة آسية الصغرى تمتد بين مناطق الثقافة فى آسية الدنيا ، وبين مناطق الثقافة فى الجزء الجنوبى الشرقى من أوربا ، أى بين العالم القديم والعالم الحديث ، فكانت بذلك برزخا وحاجزا بين الحضارات القديمة التى قامت فى سوريا وعلى ضفاف الفرات ، وبين الجماعات الناشئة الأكثر منها فتوة فى الجزء الجنوبى من روسية ، وعلى ضفاف الدانوب ، وفى البلقان .

على أن المصورات الجغرافية قلما تظهر لنا آسيا الصغرى فى الوضع الذى ينبىء عما كان لها من مكانة وشأن حقيقين فى التاريخ ، فهى تظهر فى هذه المصورات عادة ركنا من آسيا الغربية ، أو فيما كان يعرف بتركية آسية ، بينما كانت فى العصور القديمة جزءا غير ذى شأن من الامبراطوريات الكبرى ، الفارسية ، فالمقدونية ، فالرومانية ، ولا غرو أن خرائط آسية الصغرى التى لم تحدد معالمها الطبيعية تحديدا واضحا تكاد تؤيد الرأى القائل بانه لم يكن من الميسور أن يكون لشبه الجزيرة هذه تاريخ مستقل . وهى وان كانت لا تبلغ أكثر من تلثمائة من الأميال عرضا ، وذلك من خليج الاسكندرونة جنوبا الى سامسون شمالا ، الا أنها تمتد ضعف هذه المسافة شرقا بغرب ، مما هيأ لها من السواحل ما يبلغ طوله أكثر من ألفى ميل ، على ثلاثة من البحار الداخلية الصالحة للملاحة ، وكانت تقابلها فى فجر التاريخ سواحل تعج بالحياة البشرية ، وتزخر بالنشاط الانسانى . أما من الناحية الجغرافية ، فيبدو أنها لم تكن فقط الممر الطبيعى بين القارتين ، الذى يحتم على كل قبيل مهاجر ، أو جيش فاتح ، أن يعبره ، بل كانت تحت رحمة القرصان والآفاقيين والمستعمرين الذين تستهويهم أوديتها الخصيبة .

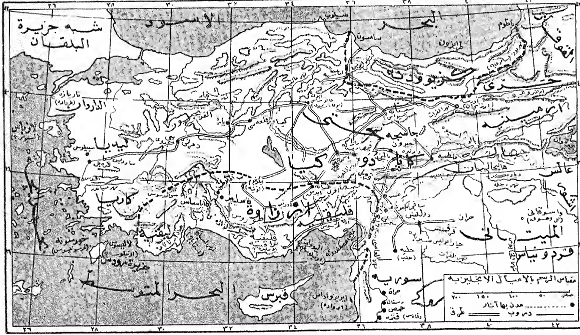
وكان هذا ، فى الواقع ، هو ما يتصوره الناس عن آسية الصغرى الى ما بعد الحرب العالمية الأولى ، وانما زاد تصورهم هذا رسوخا تلك السهوله التى أصبحت بها سواحلها مستعمرات يونانية فى غضون التاريخ ، هذا الى أنها كانت تحكمها من خارج حدودها فى أقرب موضع من أوربا الى آسية ، دولة شرقية مزعزعة الأركان ، بل حرجة المركز . وكانت آسيه الصغرى فى أثناء ذلك فى الواقع جزءا عاديا من أجزاء الدولة العثمانية ، لم يكن أحد يحس به الا حينما كان يفضى شىء من رد فعل الأحداث الأوربية الى طرد اليونانيين من مستعمراتهم القديمة حول الشاطىء ، أو حينما كان السيف يمتشق بدافع العداوات القديمة فى وجه هذه الطائفة أو تلك من طوائف أهلها الأصليين .

وبناء على ذلك ، فليس لدينا (اذا استثنينا التطورات السياسية الحديثة) الا معلومات قليلة تهيئنا لنكشف حقبة من حقب الاستقلال والتاريخ الحى ، نسيها الناس منذ عهد طويل . ومع هذا فقد كانت آسية الصغرى فى سنى الألف الثانى قبل الميلاد وبلادا قائمة بذاتها ،

عندما كانت آسية الصغرى مستقلة

كما هو شأنها اليوم الى حد ما ، تتولى مقاليد الأمر فيها حكومة من أهلها ، كما كانت قطرا منظما يتوسط عددا من الأقطار تسمل البلقان والقوقاز ومملكة بابل وأشور ومصر ، وتتأثر ، وتؤثر على أقدار كل من هذه البلاد القديمة التى نشأت فيها ، أول ما نشأت الحضارة والمجتمع الانسانى المنظم .

ولقد أظهرتنا الاستكشافات والبحوث الحديثة على أن الحيثيين جمعوا هذه البلاد فى وحدة سياسية وعسكرية ظلت طوال ألف عام وانتهت



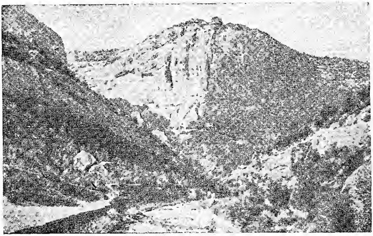
موطن قبيلة حتى والحلف الامبراطورى الذى كانت تهيمن عليه

المقصود من خريطة آسية الصغرى هذه ، هو اظهار العوامل الجغرافية التى أدت الى وجود مملكة حيثية مستقلة فى بلاد قلما عرفت الاستقلال . وبيان التوزيع السياسى للدول المختلفة فى حقبة بعينها من حقب التاريخ ، والموقع العسكرى لمدينة حتوساس ، عاصمة قبيلة حتى التى كانت تسود غيرها من القبائل ، وهذا فضلا عن تحقيق أسماء الأماكن المختلفة الواردة فى الفصل الذى ألحقناها به ، وسنرى كيف كانت الجبال الشامخة تحمى كلا من الحدود الجنوبية الشرقية وخط الساحل الطويل الا فى أقصى طرفه الغربى — وهكذا الحيثيون بمأمن الا من جهة أوربا .

سـنة ١٢٠٠ ق . م وبلغت من القـوة حدا لم تستطعمعه موجة منموجات الشعوبالمهاجرة، أو اى جيش منالجيوش الفاتحة أنتخترقها من احدىالقارتين الىالاخرى،وهو ماحدثمرة بعد أخرى بعد انهيار الدولة الحيثية . وفى غضون ذلك قامت فى الجانب الأسيوى دول بابل ومصر وبلاد النهرين وأشـور كل بدورها وحاولت اقامة الامبراطورية الشرقية . وفى جبال أرمينية نبين أن الحريين The Harri الاشـاوس ، غرماء الحيثيين منذ القـدم ، خطـر مسـتديم كانوا لا ينفكون يلتمسون الفرصة لاستلاب المغانم أو انتزاع الأراضى . وفى البحر ، كانت دولة كنوسوس الجزرية قد بلغت أوجهـا ؛ وكانت السفن تطوف بالشاطىء على الدوام ، الا أننا لا ندرى فيما نعلم ، أن أحدا سيطر ، أو حاول أن يسيطر على أزمة الحكم فى البـلاد نفسها باستمرار ، حتى أول ظهور الآخيين فى مطلع فجر التاريخ .

أما فى الجانب الأوربى فليس ثمة أيما دليل على قيام حركة منظمة منذ استقر الأمر للاشراف الحثيـين الى مجىء الآخيين . ومن الواضـح أن التطور الاجتماعى فى أثناء القرون الطويلة التى غمرها العصر البرونزى كان أقل نشاطا منه فى الجانب الأسيوى الأدنى ، ومع ذلك فقد كانت هـذه الشعوب المحدثة التى ظهـرت فى ذلك الجانب من أوربا فى ابان العصر الحديدى هى التى أجلت الحثيين آخر الأمر عن المواقع التى سيطروا عليها أمدا طويلا . ومغزى هذه الحقائق واضح جلى. فرأس المعبر الحيتى الذى دل على منعته فى جانبه الأسيوى قد أخذ بحالتـه من الخلف فماذا اذن فى طبيعة بلادهم مكن الحثيين عدة قرون من مقـاومة ممالك الشرق المنظمـة الطموح ، والوقوف فى وجه القبائل الأرمينية المغاوير ، وفى وجه دولة كريت الجزرية ... ثم اذا هم يستسلمون من غير مامقاومة واضحة بمجرد ظهور حركة شبه منظمة فى الجنـوب الشرقى من أوربة ؟

وبوسعنا ، اذا نظرنا فى خريطة طبيعيـة مضبوطة لآسية الصغرى ، أن نجيب على هذا السؤال من ثلاثة أوجه ، أولها سلاسل الجبال الصخمة التى تفصل البلاد الساحلية فى الشمال والجنوب عن الهضبة الداخلية .. صحيح أن سلاسل هذه الجبال تنخفض وبشتد تقطعهـا كلما اتجهت غربا ، الا أنها تكفى لتكوين حواجز طبيعية تكفل حماية الهضبة من الشمال والجنوب حماية جيدة ، يساعدها فى ذلك تقلب الأحوال فى البحار نفسها . والوجه الثانى ، أن سلاسل الجبال المتصلة فى الناحية الشرقية (طوروس



برج شرقى من خطوط الدفاع الطبيعية التى كانت تحمى الحيثيين

تصور لنا جيدا هذه الصورة الشمسية لاحدى الوهاد التىكان نهر بيراموس (سيها ؟ Seha) يندفق فيها خلال بلاد طوروس من منبعه فى جبال طوروس الخلفية ، نوع الأراضى التى كانت تقف سدا بين موطن الحيثيين من ناحية الشرق وتؤلف هذه الجبال الطرف الجنوبى من الحاجز المترامى الذى يبدأ بجبال أرمينيـة فى الشمال

وطوروس الخلفية ، ومقسم المياه فى أرمينية الشمالية) التى تمتد فى انحراف نحو الشمال الشرقى بين البحرين تقريبا ، أى من الاسكندرونة الى باطوم . تفصل بلاد الحيثيين عن سائر بلاد آسية . وتتخلل هذا الحاجز الضخم ممرات طبيعية قليلة كان الحيثيون يسيطرون عليها حينما وجدت من مراكزهم المنيعة على الهضبة المجاورة ؛ أو الهضبة نفسها فتتلاشى كلما اتجهنا نحو الغرب ، وبخاصة نحو الشمال الغربى ، حيث توجد أقرب أجزاء أوربا ، فى حين أن عددا كبيرا من مصبات الأنهار الآمنة ، والوديان المتسعة المحيطة بهذا الساحل ، من نهر الميياندر الى نهر سانجاريوس ، تجعل النفاذ الى داخل البلاد أيسر من هذه الناحية .

فهذا اذن هو الجواب على سؤالنا . فآسية الصغرى هى فى الواقع ممر طبيعى بين أقدم مناطق المدنية فى آسيا الغربية وشبه جزيرة البلقان ، الا أنه ممر ينهض فيه حاجز من جبال طوروس وما يتفرع منها من جبال أخر ، وكان الحيثيون يحتلون رأسى هذا الممر آمنين ولم يكشف لنا التاريخ بعد عن أحداث العصور الخوالى فى الجانب الأوربى . ومع أنه قد أتيح لنا الآن أن نميط اللثام الى حد كبير عن المعارك التى وقعت فى الجانب الأسيوى ، من قيام بابل الى سقوط طرواده ، فلابد أن غارات كثيرة عظيمة الشأن ، لا تزال سجلاتها خافية عن أعين التاريخ ، قد تحطمت على أسوار جبال طوروس . غير أنه ما برحت ثمة حقيقة واحدة جلية هى أن الدولة الحيثية فيما وراء طوروس ظلت حصن أوربا الحصين فى آسيا خلال قرون العصر البرونزى العصيبة ، بينما كانت الحضارة الغربية يبزغ نجمها وتستوى صورتها .

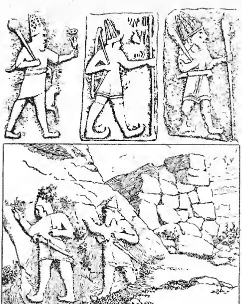
وحينما حل سحر التاريخ كانت آسية الصغرى آهلة بعدد من القبائل الحيثية التى كانت تتكلم بما لا يقل عن ست لغات مختلفة ، على أنه لم يتضح بعد الى أى حد يدل اختلاف طرق الكلام ، ولغات هذه القبائل ، على وجود تباين حقيقى بين أجناس الناطقين بها ؛ الا أن ثمة رأيا يذهب الى انها قد نجمت الى حد ما عن طريق التمازج بينها وبين لغة قوم آخرين سابقين للمستعمرين الحيثيين . وقد أظهرتنا الرسوم المصرية المتأخرة على أربع ، أو خمس سلالات من الفصائل التى حاربت فرعون وربما كان بعض هؤلاء من الدخلاء الطارئين بالنسبة الى غيرهم ، أو من الجنود المرتزقة الذين لا يمتون بصلة الى الأصل الحيثى ، ثم تسطع شمس التاريخ فتنجلى هذه الفروق .. بل ان آسية الصغرى مابرحت آهلة بأقوام غير متجانسة : منها الجراكس والأرمن والأكراد اليونان الذين لا يزالون ، تحت السيادة التركية ، يحتفظون بجنسياتهم ، ويتكلمون بلغاتهم الخاصة ، بالرغم من خضوعهم السياسى للأتراك . صحيح أن سطح آسية الصغرى الذى ينقسم بصورته الحالية الى هضبة وسطى ، ومرتفعات شرقية ، وسهول ساحليه ، تفصلها بعضها عن بعض معالم طبيعية واضحة ، ساعد دائما على انماء هذه الفروق ولعل اللغات التى كانت تستعمل أيام الحيثيين وفى شتى الأزمنة المتأخرة لم تكن فيما يحتمل

الملوك	التاريخ قبل الميلاد	ملاحظات وموافقات
لابرنا ..	قبل سنة ٢٥٠٠	ملك حثى ، حوالى زمن نرام سن ملك أكاد
حوسيليس ...	٢١٠٠ ؟	ملك حثى ، حوالى زمن أنطاس ملك كوسار
لابارناس ...	٢٠٠٠ ؟	ملك حثى ، مقر حكمه فى كوسار ؟
حاتوسيل الأول .	١٩٧٥ ؟	ملك حثى ، فتح حلب ، اتخذ حتوساس ؟
مرسيل الأول ..	١٩٢٥ ؟	مقر حكمه حتوساس ، فتح حلب ، [illegible]
[illegible] ..	١٧٧٥ ؟	مقر حكمه حتوساس ، حكم سوريا حتى دمشق فى زمن الهكسوس
تدحاليس الأول	١٤٧٥ ؟	أرسل هدايا الى تحتمس الثالث (١٤٧٨ ق . م)
شبيلوليوما .	حوالى ١٣٩٥	حكم ٤٠ عاما ؛ معاصروه فى مصر : من أمنحتب الثالث الى توت عنخ آمون — فى دولة الميتانى : دوشراتا وماتيوازا — ثم [illegible] الى تاريخ : [illegible]
أرنوانداس الثانى	حوالى ١٣٥٠	ابن ؛ فترة اضطرابات لا تقل عن خمس سنوات ، معاصره حور محب
مرسيل الثانى .	حوالى ١٣٤٥	أخ ؛ حكم ٢٥ سنة — معاصروه : فى مصر ، حور محب — (معاهدة) رمسيس الأول ؛ دولة الأخيين ، أندريوس و[illegible] صاحبا لسبوس
مواتالس ...	حوالى ١٣٢٠	ابن ؛ حكم ٢٥ سنة — معاصروه : فى مصر : سيتى الأول ، رمسيس الثانى (معركة قادش ١٢٩٦ ق . م) — دولة الأخيين : والاكساندوس ملك أو ويلوسه
حاتوسيل الثالث .	حوالى ١٢٩٥	أخ ؛ حكم ٣٥ سنة — معاصروه : فى بابل ، كدشمان إنليل — فى أشور : شالمنصر الأول — فى مصر : معاهدة مع رمسيس الثانى حوالى سنة ١٢٨٠ ، زار مصر حوالى سنة ١٢٦٧
تدحاليس الثالث	حوالى ١٢٦٠	ابن ؛ حكم ٣٠ سنة — معاصروه فى أشور : شالمنصر الأول ، توكولتى نينورتا الأول — الأخيون ، أتاريسياس
أرنوانداس الثالث	حوالى ١٢٣٠	ابن مشارك فى أبيه — طول مدة حكمه مجهولة — معاصره مرنبتاح
تدحاليس الرابع	حوالى ١٢١٠ ؟	سقوط الأسرة سنة ١٢٠٠ ق . م تقريبا جيوش [illegible] من [illegible] وبعض الحيثيين تغزو سوريا حتى مصر . فى زمن رمسيس الثالث ١١٩٠ .

الحيثيون وعلاقاتهم بالدول المجاورة

تربو بكثير على اللغات التى تستعمل اليوم ، كما أنه لا يمكن مقارنتها من حيث العدد وتنوع الألسنة باللغات المستعملة فى بعض أجزاء القوقاز والهيمالايا • ولم يتضح لنا كذلك الى أى حد يمكن حسبان هذه العناصر عناصر أصلية • ومن المحقق أنها كانت قد استقرت ، أو وكانت كانت فى سبيل الاستقرار بوصفها قبائل ، عندما تبلج عنهم سحر التاريخ ، ولو أنه يبدو أن طبقة جديدة من الأشراف تمت بالنسب الى الأوربيين ، كانت قد وفدت عليهم بحلول العصر البرونزى • ومهما يكن أمر ذاك ، فقد كانوا يجنحون أول ما ظهروا الى الاندماج فى حلف سياسى يؤلف بينهم ، وتبين أنهم ، بمرور الزمن ، وبعد طائفة من الفتن الداخلية ، قد خضعوا بصفة عامة لسلطان قبيلة حتّى Hatti المركزى ، التى كانت عاصمتها حتوساس Hattusas وهى تقع فى حوض نهر حالس Halys وتقوم فى مكانها اليوم قرية بوغاز كوى Boghaz Keui •

(يجب مراعاة أن الحرف الذى تبدأ به كلمة حتّى أو كلمة حتوساس .. الخ .. كان غليظ النطق • ولتيسير نطقه ينطق حاء مفخمة فى فى أول الكلمة ، فاذا وقع فى وسطها نطق خاء . هذا ولا ينطق الحرف س سينا تماما • ولتيسير نطقه يكتب غالبا ش بل يلحق غالبا بالحرف ز)



الماثلة فى الفن الحيثى

ان الغرض من هذه الرسوم (وهى أوضح من الصور الشمسية للصخرة التى لعبت بها أيدى البلى) هو الدلالة على أن الآثار الحيثية كانت ثمرة ثقافة متجانسة ، ولعل من الأصوب أن نسميها « حتية » باسم القبيلة المهيمنة بين قبائل الحلف الحيثى ، والصورة العليا من بوغاز كيوى (حتوساس) ، وقره بل وملطية ، والصورة السفلى من كيا ورقلعه سى •

ويمكن أن نستدل من موقع العاصمة ، ومن مجرى نهر حالس (واسمه الآن قزل ايرمق (Kizil Irmak) على أن بقعة الأرض التى تحيط بها ثنية هذا النهر قد تكون موطن قبيلة حتّى ، ولعل هذا هو الواقع • غير أن الأنهار لا تكون حدودا طبيعية الا حيث يصعب على الناس عبورها ؛ ونهر حالس ، على غزارة مائه ميسور العبور فى جهات شتى قبل أن ينعرج الى الشمال ، وعلى هذا فليس بمستغرب أن نجد الصقع الملاصق لجنوبى النهر داخلا فى نطاق الأراضى الحيثية • وهو ذلك الصقع المحيط بقيصرية (مازاكا Mazaca) والذى يمتد الى طيانه Tyana ، والسهل الذى ينبسط غربا تجاه قونية (ايكونيوم Iconium) • (الأسماء التى نستعملها فى هذا المقال هى أسماء المواقع السورية والأناضولية الأكثر شيوعا سواء أكانت قديمة أو تركية) والحقيقة أن هذه المنطقة التى تكون النصف الجنوبى الشرقى من الهضبة الوسطى تمتاز بعدد عجيب من الآثار التى تدلنا على نشأتها تلك الكتابة الهيروغليفية الخاصة التى شاع تسميتها باسم الكتابة الحيثية ، وتتشابه هذه النقوش بوجه عام من حيث سماتها المميزة تشابها كبيرا ، وان اختلفت اختلافا شديدا من سائر نقوش الاقليم الذى نتناوله بالدرس ، ولهذا فنحن ننسبها الى حضارة مشتركة • وتصور لنا هذه النقوش أنماطا عامة من اللباس والمعبودات ، والشعائر الدينية ، والكتابة ، وموضوعات فنية أخرى • وهى فى رأينا أساليب محلية فى التعبير عن ثقافة من الثقافات المركزية • وثمة آثار مشابهة لها فى كل مكان ،

الا أن معظمها موجود فى هذ الرقعة ، وهو من طراز بلغ أعلى مراتبه فى العاصمة الحيثية؛ومن ثم فان هذه الآثار ليست حيثيه خالصة ، بل هى آثار حتية .

ومن الأمور العظيمة الدلالة أيضا أن نجد أن الطريقين الرئيسيين الهابطين من هذه المنطقة الى الجنــوب والشرق ، والمؤديين الى قاعــدتى مرعش ثم الى ملطية ؛ تحددهما تحديدا بينا سلسلة من مثل هذه الآثار ، وآية على ذلك آثار اكــرك Ekrek وجــورون Gurun ودرنده Derende وبالانجه Palanga والبستان ، وكذلك منحوتات القصور فى مرعش وملطيــة نفسها ، ولهذا ، فلنا أن نستنتج أن ملوك حتى أنفسهم منذ أن وطدوا دعائم سلطانهم على مجموعه القبائل الحيثية ؛ قد استولوا على مركز حربى هام فى الأصقاع الجنوبية والشرقية من هضبة الأناضول ، يهيمن على ممرات ما وراء طوروس الممتدة فى هذه الجهات . وكانت سيطرتهم على هذا المركز من المسائل الحيوية لأمنهم ، وتحقيق أحلامهم فى انشاء امبراطورية .

فماذا كان من أمر الغرب اذن ؟ الآثار قليلة فى هذه الناحية ، غير أن توزيعها يمدنا بشاهد



حيثيون فى طوروس

لا تزال النقوش الصخرية فى اوريز Ivriz ، بجبال طوروس حيثية الطابع فى الغالب ؛ وان جاءت بها اختلافات قد يمكن ردهــا الى الأثر الأجنبى أو التاريخ الأحدث عهدا ؛ وهى فى ذلك تشبه أمثالها فى الشمال الأقصى ؛ مما نجد صورته فى الصفحة التالية . والصورة لملك يعبد ربا من أرباب الزراعة .

توسع الحيثيين نحو الغرب

أبلغ فى دلالته ، وذلك أن خطا بمفرده من الآثار يمتد فى أرض خالية تماما من المنشئات الحيثية وهو خط يمر بكاور قلعــة سى Giaour Kalese ، وياره Yarre ، ويعــبر فريجيه حتى الساحل قريبا من أفسوس بجوار ممر قره بل Karabel · وهذه الآثار مطابقــة للآثار الحيثية فى العاصمة وفى الشرق · ولعل الحيثيين كانوا قد استولوا على بقاع أوسع فى الغــرب ، أو سيطروا عليها ، دون أن يــتركوا فيها أثرا ظاهرا يدل على ذلك · وقد تلقى أعمال الحفر والتنقيب مزيدا من الضوء على منــازلهم ، بيد أنه مهما كانت النتائج التى تؤيدها النقوش الواردة بهذه الآثار فانها تدل على أن الجيوش الحيثية ، فى طور من أطوار سطوتها ، كانت تتحــرك الى ساحــل بحر ايجة وتعــود منه آمنة ·

وحســبنا الآن أن نقول ان جــيران الحيثيين الأدنين كانت تربطهم بالحيثيين وشائج من القربى لا تخفى على أحــد ، وهذا رأى توحى به أوجــه الشبه الاجمالية ، فضلا عن التفصيلات المختلفة الماثلة فى آثار تلك البقاع المتاخمة لحتى من جهة الجنــوب وجهة الغرب ، فالنقوش الحجــرية فى اوريز Ivriz · بمنطقــة جبال طــوروس ، العجائب المنحوته ، فى أفلاطون وفاسيلير بمنطقة البحــيرات غــربى قونية · ومجمــوعة المقــابر الفريجية كلها فى الاقليم المتسع غربى نهــر حالس ··· هذه كلها تشبه الآثار الحيثية شبها يفصح عن تأثرها بالطابع الحيتى ، وان كانت خصائصها ترجع الى حد ما الى زمن آخــر وظروف مختلفة .

أما فى الغرب فلا يمكن أن نجزم برأى عن توزيع القبائل الحيثية حتى نقوم ببحث مستفيض لهذا الاقليم وأعمال التنقيب التى تجرى فيه ، بيــد أنه يبدو أن آثار جنــوبيه الشرقى التى عرفناها من قبل ليست من أصل حتى فقط، لكنها فى رأينا تنبىء عن مواطن الحثيين بخاصة ، ذلك أن طبيعة هذه الآثار فى ذاتها ، سواء أكانت معالم حدود ، أو أماكن مرتفعة ، أو مزارات لأرباب الينابيع ، أو وجهات تصور لتدل على وجــود شعب مستقر أكثر مما تدل على أنهــا أنصاب أقامها أجانب لذكرى غزوة أو فتح ، وهى كما أسلفنا آثار محلية لحضارة لها قصبتها التى أعيــد تنظيمها فى حتوساس · والاســم التركى ، برغاز كيو ، ومعنــاه قــرية حلق الجبل ، يدل دلالة صحيحة على موقع عاصــمة الحيثيين ، وموقعها منيع بطبعه لما يعصمها من

الجانبين من وهاد عميقة ، وما يحميها من الشمال من صخور وعرة شديدة الانحدار ، وهي تنكشف الى حد ما من الجنوب فقط ، ولذلك قام أهلها في هذه الجهة بسد الثغرة في خطوط دفاعها فانشأوا سدا من الردم ممدودا رفيع الذرى مدعما بالحجارة ، توجه الحيثيون بأسوار ذات أبراج . وكانت صلاحية هذا الموقع لرد العدوان أبرز سماته ، لما في مسارقه من وعورة واستغلاق . وقد يبدو أنه كان أكثر صلاحية لأن يكون قاعدة ترتد اليها العصابات ، ومركزا لزعيم من زعماء القبائل المغيرة ، منه الى مكان وسط تدار منه شئون امبراطورية . ولعله كان كذلك في منشئه .

على أن موقع حتوساس الجغرافي كان عاملا له خطره في تقرير مصيره . وربما كان هو الذي جعل الغلبة لقبيلة حتى آخر الأمر . فان نظرة نائبة في الخريطة تبين أنها كانت في واقع الأمر نقطة التقاء عدد كبير من طرق المواصلات الطبيعية ، التي تقع فيها من الشرق والجنوب مراكز الطرق الهامة : أماسيه Amasia وسيواس ومازاقا قيصرية Mazaca-Caesarea وطيانة وقونيه .. وهي تلك المراكز التي تكون حلقة أولى من حلقات القواعد العسكرية . وهذه بدورها تتصل بطرق عرضية ، في حين تؤدي الطرق الأصلية الخارجة من ذلك المركز الى أهدافها الحربية فيما وراء تلك الطرق ، وهكذا يمكن الوصول من أماسيه الى مينائي سمسون وسينوب على البحر الأسود . ويمتد طريق المرتفعات الى القوقاز مارا بأرضروم (أرزن الروم) Erzerum ،

ويمتد الطريق العرضي عبر أرمينية الصغرى الى ملطية . ويمتد الطريق الرئيسي من مازاقا قيصرية عبر طوروس الخلفية الى ملطية وأرمينية ، بينما يمتد فرع رئيسي ودروب أخرى الى مرعش ، مفتاح سوريا . ويمكن الوصول من طيانه ومن قونيه الى ممرات جبال طوروس المؤدية الى موانيء البحر المتوسط ، وسواحل قليقية ، ومن ثمة تتصل ممرات أمانوس بسورية .



تمثال برونزي من مرعش

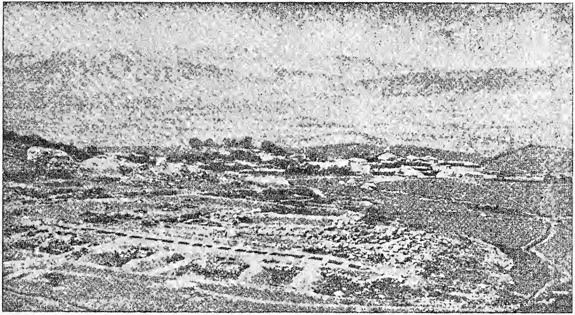
لم يصلنا من لطائف الفن الحيثي الا القليل ، الا أن هذا التمثال البرونزي الذي عثر عليه في مرعش يكشف لنا عن طرائق صناع المعادن .

وكانت هذه الطرق الرئيسية ، وما يتصل بها من طرق فرعية هبة من الطبيعة ، فقد زودت ملوك حتوساس بكل العناصر التي يمكن ان تتألف منها شبكة محكمة من الطرق الحربية . ولاشك في أن هؤلاء الملوك الذين كانوا مساعير حروب بحكم النشأة والضرورة قد أصلحوا المشارف المباشرة لعاصمتهم بعد الذي علمتهم التجربة . وألهمتهم حماستهم للامبراطورية من قيمة حربية لهذه المشارف .

على أن فتح الطرق المؤدية الى حتوساس جعلها عرضة لغارات الأعداء والثوار . وقد دلت العبر القديمة على أن الملك لا يخرج محاربا أو مغيرا على أطراف نائية من آسيا الصغرى ، مصطحبا معه حرس العاصمة الخاص ، دون أن تتعرض العاصمة نفسها لخطر الانتقام أو الانتفاض ، ولهذا دعمت خطوط الدفاع الصناعية للمدينة ، وشيدت المعاقل على شفا الهاويات الجبلية العسيرة المرتقى ، وأحيطت المدينة كلها بأسوار ضخمة من الحجر . تساير حافة الوهاد السحيقة تارة ، وأبراج الأسوار الضخمة في الأجزاء المكشوفة أكثر من غيرها تارة أخرى ، حيث ضوعفت حوائط الدفاع الى أبعد حدود المضاعفة .

وكان محيط هذه الأسوار يزيد على أربعة أميال ، ولا نزال في مقدورنا أن نتتبع آثارها التي هي شاهد صامت رائع على ما بذله الانسان من جهد ، وما اتصف به من نشاط خلال قرون من الزمان ، كما أنها هذا الشاهد الصامت الرائع على قلب امبراطورية توقف منذ أجل بعيد عن الخفقان . وكانت أبوابها تزدان بنقوش بارزة بروزا عاليا لسباع وآباء هول وآيات أخرى من آيات النحت . وكان في رحاب هذه الأسوار القصور والمعابد والمنشئات الأخرى العامة ... كما كان فيها ثكنات الجنود واسطبلات خيل الجيش ، والمصانع والمساكن الخاصة .

وعلى بعد ثلاثة أميال ، فوق منحدر تل سهل المرتقى ، كان يوجد المعبد الأكبر ، وهو كهف بدائي مكشوف رسم لربة الأرض ، زينت



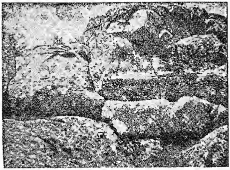
حيث كانت المدينة التى هيمنت على آسية الصغرى وسورية منذ ٣٣٠٠ سنة خلت

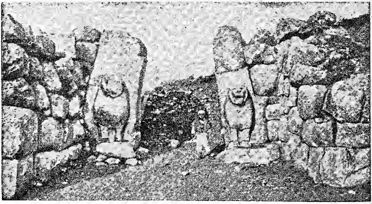
منظر لموقع مدينة حتوساس ، العاصمة القديمة لقبيلة حتّى ، وعاصمة الأسرة الحيثية الامبراطورية فيما بعد ، وهو منظر يتوجه بعين الناظر اليه صوب الناحية الشمالية نحو أعظم هياكله الملكية ، وقرية بوغازكيو الحديثة . ويمكننا أن نميز الى اليسار مخرج الوادى الذى يحمى هذا الموقع من جهة الغرب ، ويوجد مخرج آخر فى ناحية الشرق . أما الأسس الخربة فهى أسس الهيكل الملكى ، بينما استخرجت من تحت التراب فى الخندق الطويل الواقع أمام الخيمة الناقوسية ، تلك الألواح التى كانت تنقش فيها السجلات الملكية ، والتى استقينا منها الشىء الكثير من تاريخ الحيثيين .

جوانبه الصخرية بأشكال بارزة موضوعها احدى الشعائر الدينية التى يبدو فيها اله الحثيين الأكبر ، أو اله السماء ، محمولا فى موكب تصحبه آلهة محلية أخرى مع كهنتها ، وهم يسيرون الى حرم الربة الأم الواقفة فوق أسدها ، وقد حف بها زوجها وحاشية كبيرة العدد من الكاهنات • وقد كتبت بيانات الرسوم بالهيروغليفية الحيثية ، وتتألف منها المجموعة النموذجية التى يمكن أن نتعرف عن طريقها جميع آيات التحف الحثية الأخرى تقريبا ، وذلك بدراسة جميع الملابس والأسلحة ، بله الرموز الدينية الواردة فيها ، وموضوعها الرئيسى نفسه •

وامتدت رقعة المدينة ناحية الشمال ، فى تاريخ أحدث عهدا ، حينما ازدهرت الامبراطورية فشملت أراضى أكثر انخفاضا ، وأقل صلاحية للدفاع ، شيد فيها أعظم المعابد الرئيسية ، كما كشفت فيها يد التنقيب عن جانب من المكتبات الملكية التى تحتوى على سجلات الامبراطورية التى لبثت مفقودة زمانا طويلا •

وتتألف المكتبة من ألواح مكتوبة بثمانى لغات ، اذ كان ينبغى أن تضاف اللغة البابلية لغة المعاملات الدولية ، ثم اللغة الميتانية ، الى اللغات الحيثية الست • وموضوعات هذه الألواح مختلفة اختلافا كبيرا •• من رسالة واردة من احدى الدول الى بحث فى تربية الخيل • وقد استعين بالمعاجم فى تفسير الكلمات الأجنبية أو الغريب منها ، وقد ظلت هيئة من الخطاطين والكتبة دائبة فى نسخ هذه المخطوطات وتبويبها وترتيبها ، وذلك لكثرة عددها ، اذا استصلح منها حوالى عشرين ألف جذاذة • وبقدر ما وصل اليه البحث ثبت أن من بين تلك الجذاذات حوالى مائتين وستين • ولا جرم أن عدد هذه الألواح كان أعظم من ذلك





من أعمال البناء التى بقيت فى مدينة حتوساس الامبراطورية

أقدم حصون حتوساس التى يمكن ترسمها منحدر من التراب يغطى الطريق الجنوبية ، وقد شيدت جدران فوق هذا المنحدر فيما بعد ، وحتى مخارج الأودية قد بطنت ببنايات جبارة ، والبناء المشق (كالذى نراه فى الصورة الشمسية العليا) هو سمة خاصة من سمات الهيكل الملكى الكبير • ونرى فى الصورة السفلى أسدين رابضين على جانبى بوابة من بوابات المدينة الملكية •

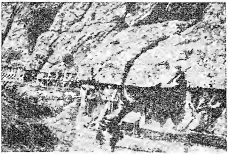
بكثير • وأن تنسيق محتوياتها لم يكن بالعمل اليسير • فقد بلغت الرسائل وحدها من الكثرة حدا أوجب أن يفرد لها فهرس تصنف فيه تحت أسماء مؤلفيها •

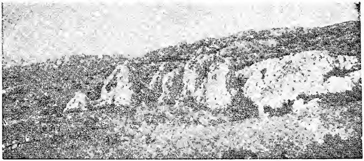
ومعظم الموضوعات يدور حول الحفلات الدينية والطقوس التى تؤدى فى المعابد واستكناه الغيب ، وما الى ذلك . وثمة مدونات قانونية ، وتنظيمات عسكرية تفصيلية ، كتنظيم المعسكرات فى ظروف مختلفة . بما فى ذلك عمق الحفر وطول الخوازيق وما هو من قبيل ذلك ، ومن بينها أيضا الكثير من قوائم الموجودات وسجلات الأراضى ، وأهم من ذلك كله المراسيم الملكية وخطب الملوك والوثائق التى تتصل بالشئون الدولية والامبراطورية • وأعظم من ذلك قيمة فى نظر المؤرخ هذا العدد من المعاهدات مع رجال الأقطاع والحلفاء الموالين ، والدول الأجنبية كذلك . تستهل هذه المعاهدة عادة بمقدمات تاريخية تتضمن موجزا مقتضبا للعلاقات القديمة بين الفريقين المتعاقدين •

ولا جرم أن ذلك كله يلقى على المجتمع الحيثى ، والحضارة الحيثية ، وأحداث حروب الحيثيين وأحوالهم السياسية ضوءا جديدا • بل ضوءا ساطعا صريحا . ولايمكن حتى الآن أن يبلغ تحليل شىء من محتويات هذه الوثائق أى صفة نهائية . الا أن عناصر معينة من بناء المجتمع الحيثى وحكومته قد بدت بوادرها الآن ، ومحاولة استعادة تركيب هذا البناء محاولة محققة •

وتكشف لنا الدراسة الأولية لهذه الألواح فى وضوح أن نظام الملكية الحيثية كان تطورا للزعامة القبلية ، وهى ، وان كانت ملكية وراثية الا أن السيف المشروع وحده هو الذى كان يحفظ لها سطوتها وجاهها ، وكان سلطان العرش يتوقف على شخصية الملك ، شأن الممالك القديمة كلها •

وتذكرنا النظرة الأولى الى طابع الملكية وبناء المجتمع الحيثى من بعض وجوهه بالأطوار التى مرت بها انجلترا فى تاريخها القديم . اذ لا نجد فى تاريخ الدولة الحيثية نظاما مشابها لنظام الاجتماعات الشعبية فى عهود الانجليز السكسونيين فحسب ، بل نجد كذلك جوهر لنظام الاجتماعات الشعبية فى عهود الانجليز





أرباب الحيثيين جميعا يشتركون فى حفل دينى

كان قدس أقداس حتوساس يتكون من ضريح فى العراء وكان موقعه هو هذا المكان المنعزل الطبيعى الى يسار ظاهر السفح الصخرى الواضح هنا ، ولم يكونوا يضيفون اليه أى شىء من أعمال العمارة ، الا أن جدرانه كانت تحلى بنقوش تحاكى أهم احتفال سنوى يجرى فى ذلك المكان ، فعلى الجانبين مواكب طويلة من الآلهة الصغرى (فى الصورة العليا) — وهذه الآلهة صور محلية من تيشوب اله الحرب عند الحيثيين، تحف بهم الكهنة ، وكلهم قد ولى وجهه نحو المنظر الرئيسى للزواج المقدس •

النظام الملكى . وفى بعض الأحوال نجد أسماء ادارات العمل هى بنفسها التى كانت عند الحيثيين ، وهذه أمور تجعل للموازنة أهميتها الخاصة ، بسبب تلك الأرومة الهندية الأوروبية القوية بين الحيثيين .

وكان الملك الحيثى هو رأس الجيش المدبر ، والكاهن الأكبر ، فضلا عن كونه الحاكم المدنى للدولة ، وكان هو الذى يمنح المناصب ويهب الأملاك مقابل قيام من يمنحونهابمهام عسكرية أو خدمات شخصية ، وربما كان من هذه الخدمات قيام الشخص ببعض أعمال النجارة والأشغال المعدنية أو الجلدية اللازمة للسراى ، أو زراعة الحقول الملكية . وقد تصبح هذه الأعمال من الوظائف الثابتة اذا نالت رضى الملك ، هذا الى ما كانت تتطلبه ادارة هذه الأملاك التى يمنحها الملك من قوائم الضبط ، وسجلات لأراضى ، وذلك الجيش من الموظفين الذين كانت هذه الأعمال تقتضى وجودهم .

وتعددت الأعمال الملكية فنشأت حول العرش هيئة منظمة من الموظفين ورجال التشريعات ، وحاشية من رجال البلاط الذين يتبعون الملك مباشرة ، فضلا عن الموظفين الحكوميين ، وذوى الألقاب ، وكحامل الصولجان الذهبى ، وكبير السقاة ، الدالة على أنهم كانوا يتفاوتون فى الدرجة والجاه والسلطان ؛ ونشأ كذلك عدد من الخدم والموظفين الذين يقومون بالأعمال المنزلية ، كأمناء المخازن والندامى والقصابين والطهاة ، وصناع الجبن وصناع الجعة ... ثم هؤلاء الذين يمارسون حرفهم بأمر ملكى وان كان هذا لا يقتضيهم أن يمارسوها بالضرورة فى رحاب القصر ، كالدباغين والحذائين وصناع العربات والنساجين والصاغة والسفائين ؛ وكانت القاعدة فى استخدام موظفى الملك الشخصيين منظمة موطدة الأركان ، فكان جميع هؤلاء الخدم والموظفين ، سواء أكانوا من خدم القصر أو موظفى الدولة يقسمون ، كل على حدة اليمين اليمين القانونية قبل تعيينهم فى وظائفهم المختلفة . أما رئيس الهيئة التنفيذية فالظاهر أنه كان يظل مجهول الشخصية الى حد ما ، لأن أحدا بمفرده ، على ما يظهر لم يكن ليستطيع أن يقوم مقام الملك ، الا حين يكون



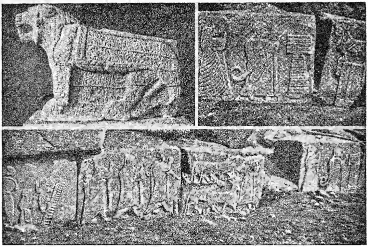
تيشوب يزف الى الالهة الأم

كان الزواج المقدس فى مزار حتوساس يرم بين تيشوب رب الحيثيين القومى والربة الأم الأصلية الهة الأناضول ، ويظهر تيشوب الى اليسار يحمله أربعة من الكهنة ، وترى الربة الى اليمين وقد حملتها لبؤة وتبعتها ربات صغرى حملهن نسر ، أما الشخص الآخر فيحتمل أن يكون ابنها ؛ وفى صفحة ١٧٦١ (الى أعلى اليسار) صورة للاله تيشوب يتجلى فيها بأوضح مما يبدو هنا .

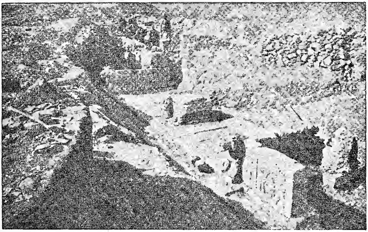
قاصرا أو مريضا ، وعند ذلك يعين وصى على العرش من أفراد الأسرة المالكة .

ولم يكن المجتمع يتألف ، بوجه عام ، فيما نرى ، الا من طبقتين ، هما : المدنيون ، وهم الذين كانوا يملكون العقار مقابل ما يقدمون به للملك خدمات ، ثم العبيد . وهم الذين لم يكن لهم كيان سياسى ،وربما كانوا فى الأصل أسرى حروب . وكان المدنيون يؤلفون ، أو ينتخبون جمعية عامة أهم اختصاصاتها النصح للملك فيما يتصل بالقانون أو الاجراءات الدستورية . وكان الملك نفسه رئيس هذه الجمعية ، ومما لاشك فيه أن مناقشة السياسة الوطنية ، وشئون السلم والحرب ، كانت من صميم اختصاصاتها ، بيد أنه لم يكن للجمعية على ما يبدو ، صوت فى انتخاب الملك ــ وذلك لأنه كان يعتلى عرشه بطريق الوراثة . وكان الملوك يعملون كل ما يمكن عمله فى سبيل المحافظة على سلامة العرش ، وذلك بلا شك ، لما علمنهم التجارب من تعرضهم للأخطار ، بوصف كونهم أولى الشأن فى البت فى الأمور وشغل المناصب بالموظفين .

واذا استثنينا أمراء البيت المالك فى البلاط أو فى الجيش ، فالظاهر أنه لم تكن ثمة طبقة



يستهر هذا السبع من آثار قصر مرعش بتلك الشرائط المنقوشة بالكتابة الحيثية الهيروغليفية التى تحيط به من طرف الى آخر ، والتى تحتذى بعض الكتابة البارزة الأشورية ، ونرى فى الصورة التى تحت السبع منظرا من مناظر عيوق Eyuk لموكب قربانى يرأسه الملك الكاهن وزوجته الملكة ، اللذان يقفان أمام المذبح ، ويقدمان فرائض الاجلال للثور المقدس (أنظر بقية المنظر فى الصورة العليا الى اليمين) والصورة ذات السلم الى اليسار صورة بنائين ينجزون عملهم فى حوائط القصر .



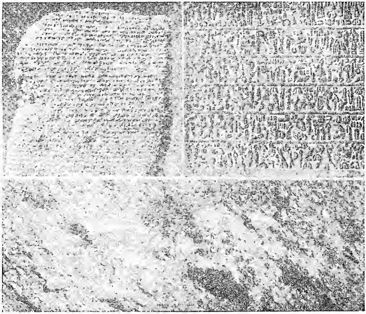
يتجلى تماثل ملحوظ فى بواعث انشاء بوابات القصور فى جميع البلاد الحيثية ، فالمدخل يكاد يكون منعزلا دائما ، وتزدان حوائطه الجانبية بنقوش بارزة ، وفى كل ركن من البوابة أنصاف سباع منفصلة رابضة كأنها الحراس . وفى هذا القصر الحديث العهدمن قصور ساقچة كيوزى Sakje Geuzi نرى أن المنعزل بالغ العرض حتى ليحتاج الى عمود أوسط ، ومن الطريف أن نلاحظ أن هذا العمود كان محمولا على قاعدة تتألف من تمثالين من تماثيل أبى الهول ، والقطع المنحوتة هنا تشبه منحوتات قرقميش شبها شديدا .

كيف كان ملوك الحيثيين يزينون مشارق هياكلهم الملكية

ممتـازة أو طبقة من الأشراف ممن يتوارثون الألقاب ، فكان يقوم مقامهم في نظام الدولة العام الأقيال وزعماء القبـائل الموالية الذين كان لبعضهم نفوذ سياسي وجاه شخصي عظيم ، والذين كانوا من بين أولئك الذين يمنحون المراتب العالية في مجلس البلاط الخـاص . وكانوا ينتهزون كل فرصة للاحتفاظ بهـذه الامارات لأبناء الملوك ، لكي يدخل في حاشية الملك على التـوالي أكبر عـدد من الأحـلاف والمناصرين ، ممن يجـرى في عروقهم الدم الملكي ، ويشاركون الملك أطماعه ، ويقاسمونه مصائر عرشه .

وقد بلغ الروح القومي ، بالرغم من جميـع هذه الاحتياطات مبلغا عظيما حتى أمكن الشعب أن يتنـازع حول من يرتـقى العرش ، فقـد سجل التاريخ تألب الكثير من الولايات جهرة عندما ولي مرسل الثالث Mursil III متحدية الملك الجـديد لصغر سنه . وقد كان لهـذه الولايات نفسها حق التمثيل بالطريقة العادية في الجمعية العامة . وذلك لخضوعهـا لأحكام جمع الضرائب والتجنيد . ولأن أقيالها كانوا تابعـين لوالد الملك الشاب ، ولعـل دعواهم الـتدخل في موضوع ارتقـاء العرش لم تكن دستورية ، الا أنها كانت حقيقة . ولم يكن منشـؤها ، كما شاهـدنا ، تحدي العـرش أو الأسرة المالكة ولكن عدم الثقة في شخص الملك .

واقتضى ذلك أن ينفق الملك عشر سنين في حملات حربية لبعيد تدعيم سلطانه الا أنه دل بذلك على أنه قائد مطبـوع ، وقد مـزق



مواد مقروءة وأخرى غير مقروءة لاستكناه التاريخ الحيثي

كان الحيثيون يستعملون طريقتين من طرق الـكتابة : طريقتهم الغريبـة الهيروغليفيـة . والطريقة المسمارية العالمية البابلية ، وقد بقيت الاولى الى اليوم لا يستطيع أحد حل رموزها . ولكنها لحسن الحظ راجت عند الجماهير في العهد الاخير نوعا ما ، ولهذا دونت سجـلات الدولة في الطور الامبراطوري الهام بخط جلي مقروء — وترى في الصـورة السفلى الألواح كما اكتشفت بالحالة التي كانت عليها — وفي أعلى (الى اليسار) نرى لوحا كتب بالخط المسماري ، والى جانبه كتف باب من قرقميس مغطى بالهيروغليفية .

اوصال واحدة من تلك الولايات فجعلها امارات عدة ، وجعل الزعامه فى كثير منها الى رؤساء العشائر المحليين ، الذين فرض عليهم شروطا جديدة من الخدمه الاقطاعيه محددة فى معاهدات قائمة بذاتها .

وعلى هذا ، فواضح أن الملك كان رئيس الحكومة الحقيقى . الا أن الادارة من الناحيه العمليه كانت فى أيدى موظفين شبه دائمين . وأنها كانت تجرى على أصول تراوح من الناحيه الدستوريه بين التمسك بالدستور والانحراف عن جادته . وثمه ما يثبت وجود جمعيات محليه . فضلا عن الجمعيه العموميه . تجرى على نسق هذه الجمعيه فى النصح لرئيس المدينه أو القريه فى شئون الادارة المحليه . وكانت الحكومه تسن القوانين التى تدور حول الملكيه والرقيق وحقوق المرأة وغير ذلك . وكانت تكل تطبيقها الى موظفين مختصين من رجال القانون ، وكانت التبعة فى هذا النظام جميعه تقع على مسئولية الملك الشخصية . لانه كان مصدر هذه الوظائف

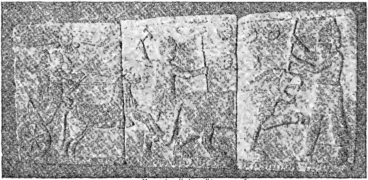


امرأة مسترجلة
ملك أم (أمازون) ؟

لامعدى من أن يثور النزاع حول هذا الرسم البارز الذى تزدان به بوابة فى حتوساس . هل هو لملك أو اله ؟ أو لأمازون كما قد ذهب البعض الى ذلك ؟ والسبب فى هذا ماينبىء عنه الرسم من الوظائف الكهنوتية التى كان يضطلع بها ملوك الحيثيين .

والسلطات كلها ، ولم تكن هذه الادارة الداخلية الا مظهرا واحدا من مظاهر حكمه وزعامته .

وكانت الشئون الخارجيه والسياسيه الامبراطوريه تفتقران الى كل من الوقت والفكر ، ولعلهما كانا من مظاهر النشاط الملكى التى عنى بها ملوك بعينهم من ملوك الحيثيين عنايه شخصية . ولهذا نلاحظ . فى خلال حكم ثلاثه ملوك متابعين . آثار سياسة واحدة مستمرة فى المعاهدات والحملات التى تمت فى تلك العهود . وذلك حينما ظهر خطر مصر ، وانشقاق ميتانى ، وقيام دوله آشور . التى كانت كلها مشاكل يأخذ بعضها بعضا بأذيال بعض . ومما لاشك فيه أن الخطوات التى كانوا يتخذونها لترتيب أولياء عهودهم فى صناعة الملك قد ساهمت بنصيب فى تلك النتيجه ، وهى تدلنا فى الوقت نفسه على اطراد فى تحقيق مسئوليات المنصب ، فالمعروف أن أكثر من أمير قد حصل تجاربه فى الحكم والادارة بقيامه على رأس الولايات القليلة



أمير مدينة ريفية يخرج للصيد

لعله لم يكن ثمة فرق فى المدن الريفية فى الامبراطورية الحيثية بين قصر الملك والهيكل الرئيسى ، والظاهر أن القصر الأعظم فى حتوساس نفسها كان له جانبه الدينى ؛ وعلى جوانب مثل هذه المبانى يرى الملك فى صورة كاهن اكبر ومحارب على حد سواء . وهذه الصورة البارزة الحية لصيد الأسد هى مما عثر عليه فى مدينة ساقجه كيوزى، ولعلها ترجع الى القرن العاشر قبل الميلاد .



رب الحيثيين الأعظم

يرى تيشوب، رب الحرب والزوابع . في الفنون الحيثية حاملا فأس وحربة البرق ذات الشعب . وقد وجدت هذه اللوحة في بابل التي لابد أنها حملت اليها سلبا من أسلاب الحرب .

الشأن ، فالتي تزيد عليها أهميته ، وهكذا دواليك .

وكانت هذه المناصب والالقاب مناصب والقابا حقيقية . الا أننا نستطيع أن نستثني من بينها لقبا واحدا هو لقب « أمير كسكه » الذي قد لا يصعب علينا أن ندرك أن الأعباء التي يضطلع بها من يلقب به كانت أقل أغراء من اللقب نفسه، وذلك أنه لم تكن ثمة ولاية هي أشد اضطرابا من تلك الولاية التي كانت تتاخم الفرات ، فيما أصبح يسمى بعد أرمينيا الصغرى ، اذ كانت منقسمة عدة ولايات صغيرة تسكنها قبائل شبه حيثية ، على تمام الأهبة دائما للاستفادة من موقعها السياسي على حدود المملكة الحيثية . ويشد من عضدها دولة الحري Harri القوية ، غريمة الحيثيين على الشاطيء الآخر . فلا تبالي أن تنكث عهودها ، أو تتحلل من تحالفها مع الحيثيين . . ولقد كان بعض الأراضي التي يقيمون فيها ووعورتها بسدان من أزرهم ، والظاهر أن اللقب قد بدأ باستعماله بعد قمع احدى تلك الفتن العامة .

وتصف لنا وثائق عدة ما كان في طوقه أن ينهض به فعلا من حيث هو قائد وكاهن . فلقد كان الملوك الحيثيون منذ أقدم العصور يجمعون في أيديهم الكهانة العليا لآلهة بلادهم . وكان حسن قيامهم على الشعائر الدينية مما يزيد في هيبة مراكزهم في روع الشعب الذي كان يؤمن بوجود عنصر الهي يسند السلطة الزمنية . وقد كان منزل القائد في الاقاليم والدول التابعة قصرا أو معبدا في وقت واحد، وكانت المناظر التي تزدان بها مشارف هذه القصور تجمع بين رسوم الصيد والحرب من ناحية، ورسوم الطقوس الدينية من ناحية أخرى ، ومما له دلالته أن رجال الدين لم يكن لهم حق تملك الأرض أو العقار الا أن تكون

هيبة شخصية من الملك . وكان اله السماء تيشوب Teshub ، الذي هو رب السموات والارض ، اله الحيثيين الأعلى ، مثله في ذلك مثل اله الشعب الحيثي عامة ؛ وكان الملك هو الكاهن الأعلى لهذا الاله . أما ديانة البلاد قبل الحيثيين فكانت ، على ما يظهر ، عبادة المظاهر الطبيعية ، التي تمت فيها جذور الايمان بقوى العناصر مجسمة في قوة الأرض الأم ، وقد اندمج هذان الفرعان في الوقت الملائم ، وذلك بابرام عقدة الزواج بين الالهين الرئيسيين (وربما كان هذا الاندماج من قبيل التسوية السياسية) وقد تركت لنا بدائع النحت في المزار الرئيسي صورة للاحتفال بهذا الزواج الذي كان يجري مرتين في كل سنة ، بوصفه شعيرة من شعائر الدين ، فنرى الملك مرتديا ملابس الكاهن الأكبر لأنه أعظم الشخصيات الموجودة . وليس ثمة من لبس في هذه الصورة ، لأن أحد النصوص الدينية يتناول بالتفصيل الطقوس التي كانت تجري في « مهرجان جميع الآلهة » وكان الملك هو الذي يتولى بنفسه أداء الشعيرة العظمى في كل من هذه المهرجانات كلها ، وذلك بتقديمه الطاس والخبز المقدسين ، على أصوات تلك النحية الحارة من المنشدين الدينيين الذين يرددون صلواتهم أو أدعيتهم المفروضة .



الآلهة الحيوانية في قرقميش

كان الحيثيون يتأثرون على مر الزمان ، في ديانتهم وفي أشياء كثيرة أخرى ، بثقافة أرض الجزيرة ، وهذه الجنة برؤوس السباع وحوافر الثيران ، والموجودة في قرقميش ، تذكرنا على الفور بالأختام البابلية ونقوش الجدران الآشورية البارزة .

بل لم تكن واجبات الملك الكهنونية محصورة فى أى شعيرة خاصة ، أو قدس معين • فقد زار الملك الشاب مرسل الثالث فى مستهل حياته العسكريه (حوالى ١٣٤٥ ق • م) قدس أقداس شعبه ، أو هيكل ربة الشمس فى آرنا Arinna ، التى هى ربة الحرب ، وذلك التماسا لبركاتها ، وكان فى أثر كل غزوة لا ينفك يقدم اليها ما ينبغى لها من الهدايا ، وآيات الاجلال والتمجيد ، ناسبا اليها ما حققته قيادته الباهرة من نجاح • وقد كانت هذه الربة على رأس الآلهة الحيثية ، كما كانت « منصبة الملوك وخالعتهم » • والوكيلة على الأيمان ، وراعية المواثيق ، وحامية اللاجئين •

وكان الدافع الذى يوجه مرسل دافعا وطنيا • والوثائق الحديثة العهد يسودها شعور دينى عميق ، وكانوا يعزون أسباب الأزمة الوطنية التى خطرها يزداد شيئا فشيئا منذ ذلك التاريخ الى اهمال واجبات آلهتهم الغضبى ، وقد التمس الملك حاتوسيل الذى

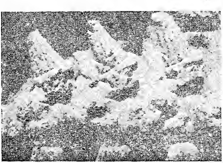
دوافع ملوك الحيثيين الدينية

ولى بعد مرسل ، معونة تيشوب بخاصة ، وذلك فى مزار محلى رسم فيه كاهنا أكبر ، ويصور لنا الخاتم الملكى لهذا العهد ، كما تصفه المراجع المصرية ، الملك الحيثى وقد عانقه الهه الذى هو كاهنه ، بينما توصف الملكة بأنها الكاهنة الكبرى لربة الشمس فى آرنا • وقد كان لكل من مرسل وحاتوسيل من الأسباب ما يدعوهما الى التماس الشفاعة الربانية لكشف الغمم التى كان يتعاظم خطرها على العرش الحيثى •

ويتطلب الوقف فى هذه المرحلة الفحص عن طبيعة الحلف الحيثى ونظامه بوجه عام ، وسننتفع فى هذا الصدد بالرجوع مرة ثانية الى خريطة آسية الصغرى الطبيعية • وقد رأينا أن الحد الطبيعى لآسية الصغرى من جهة آسية يميل الى الشمال الغربى من خليج الاسكندرونة محاذيا جبال طوروس ، وطوروس الحلقية ، والمرتفعات الواقعة شمال الفرات الأعلى قبل باطوم • وتوجد داخل هذه الحدود ثلاث رقاع رئيسية هى : الموقع المتوسط فى كابادوكيا القديمة والتى أردفناها بحتى • والطرف الأيسر لأرض بونطس ، والذى ألحقناه ، وفقا لنظريتنا ، بولاية كزوودنا Kizzuwadna الداخلة فى هذا الحلف ، ثم الطرف الأيمن لقليقية ، الذى تفصله من حتى جبال طورس الأصلية ، والذى يكون مملكة أرضوه Arzawa التابعة لحتى وان كانت منفصلة عنها •

ونعتقد أن اقليم أرمينية الصغرى الجبلى كانت تحتله قبائل كسكه المحالفة . أما فيما وراء الفرات فقد تجزأت هانيجالبات القوية السابقة ، وكان ذلك قبل عهد سبليوليوما (وبناءعلى ذلك فمن المحتمل أن يكون هذا قد حدث فى غضون القرن الخامس





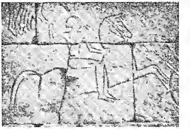
الحيثيون كما يرون أنفسهم وكما يراهم أعداؤهم المصريون

توجد طائفة من أوضح الرسوم الحيثية التى تتحدث عن نفسها فى المنعزل الداخلى لمزار حتوساس الواقع فى العراء (الى اليسار) وأشخاصها التى تلبس لباس الرأس التقليدى تحمل مناجل وتعدو كأنها منهمكة فى أحد أعياد الحصاد ، وقد تركت لنا مصر أيضا رسوما لأعدائها المخوفين كهذه الرسوم (الى اليمين) الموجودة فى معبد رمسيس الثانى عند أبيدوس . الا أننا لا نستطيع أن نتأكد أنهم حتيون خلص ، وأنهم لبسوا عنصرا حليفا فى جيش موتاللس ، وكل ما نستطيع ان نجزم به هو أنهم أناضوليون .

عشر قبل الميلاد) . أما الرقعة الشمالية ، أى أرمينيه الأصليه ، فقد كان يقطنها الحريون ، بينما كانت الرقعة الجنوبيه ، أو أرض الجزيرة ، تؤلف مملكة الميتانى التى كانت حليفه سياسية لمصر بضعة أحقاب ؛ وكانت أشور تحتل مركزا فى دجله الأعلى ، بينما امتدت مملكة بابل القديمة فى عهد ملوكها الكاسيين . من جهة الجنوب مع مجرى الفرات . ثم بعرض الفراتين .

وكانت سوريه ، التى ازدهرت فيها مدن العموريين والكنعانيين . والتى انتفعت مدنها هذه بثمرة تجارب الفينيقيين فى التجارة ، كانت سورية هذه منقسمة على نفسها سياسيا ، وكان ملوك المصريين والميتانى لا ينون يقتطعون من أطرافها ، كما كان ملوك الحثيين يرنون بأنظارهم اليها وكانت حلب وقرقميش ، فى شمال سورية ، مركزين قديمين منظمين لا ينفكان يطالبان لهذا السبب بأن يكون لهما ملكهما الخاص وحدودهما الخاصة ، أما الخط الفاصل بين سورية السامية والأراضى الحيثية فيحتمل كثيرا أنه كان على حالته فى العصر الحاضر ، أى الخط الفاصل بين شعوب الضاد . والشعب التركى ، بالقرب من عينتاب ، فيما بين مرعش ، وحلب أو قرقميش .

وكانت الممالك الثلاث التى نوليها جل اهتمامنا الآن ، وهى بلاد حثى وحرى والميتانى . تكون مجموعة تمتاز من مجموعة البلاد السامية المتاخمة لها من ناحية الجنوب بوجود عنصر آرى صريح فى كل منها ، ينبىء عن نفسه بطرق شتى . ولعل الفرق بين المجموعتين كان فرقا أصيلا ، لكونه ناجما عن أقوام منفصلين من مهاجرى الهنود الأوربيين الوافدين من أصقاع مختلفة وكانت حثى ومصر وبابل تؤلف ال « الثلاث الكبار » فى ذلك الوقت ، وكان كل منها يرسل بسفرائه الى بلاط المملكتين الأخريين . وكانت دولة الميتانى تشغل الموقع الوسط الذى لا تحسد عليه بين ذوى الأطماع من جيرانها الثلاثة ، وسرعان ما تلاشت بسبب نضال هذه البلاد فى سبيل تكوين امبراطورياتها . وكان الحريون ، فى معقلهم المنيع ، فى مركز أكثر حذرا . وكانوا وكانوا يضطلعون مع هذا الجانب أو ذاك ، حسب ما تقتضيه الظروف ، ثم ينتهزون فترات الهدوء فينزلون من حصونهم ، وينقضون على السهول ليصيبوا من أسلاب الحرب .



فارس حيثى على صهوة جواد

سواء أكان هذا الفارس الحيثى الذى حفره المصريون فى معبد الأقصر ، حثيا أو غير حثى . فانه يسترعى انتباها خاصا لأن الركوب على صهوة الجواد . بدل الركوب فى العربات لم يعرفه الشرق الا فى زمن متأخر ، وربما أفصح هذا عن العنصر الهندى الأوروبى فى الحضارة الحثية .

ويتجلى تطور الموقف فى آسية الدنيا عامة . فى مرآة السياسة التى كان الحكام الحثيون ينتهجونها فى أجيال متعاقبة . فقد اتقى الحثيون والحريون أول الأمر الخطر الذى كانت تتهددهم به مصر ، والذى قوى أواصر التآلف بين الميتانيين فى عهد تحتمس الثالث ، بأن

ثلاثة أطوار من خطط الحيثيين الحربية

عقدوا معاهدة فيما بينهم ، وسادهم التفاهم العسكرى . وقد وجد ملك الحثيين فى ذلك سببا مواتيا لنقض ما عاهدهم عليه لما رأى الفرصة قد واتته للتدخل فى شئون الميتانى ، وذلك عند ما انسحبت مصر الى حين من الميدان فى عهد ملكها أخناتون . ثم يأتى الطور الثانى أو الطور الوسيط ، من أطوار الموقف فى آسيا الدنيا ، فنرى الحثيين الذين تحالفوا الآن مع الميتانى والعموريين فى سوريا قد دفعوا أنفسهم سياسيا بين مصر التى أخذ نفوذها يتضاءل من جهة ، وبين دولة الحريين الناشئة وأشور الفتية من جهة أخرى . ثم تنعكس الآية فى الطور الثالث انعكاسا كليا . فنجد حثى ومصر تربط بينهما معاهدة ضد أشور وجاراتها ، بعد أن كانتا عدوتين من قبل ، وبعد أن اشتبكتا عند قادش فى معركة لم تكن أخف من سياستهما الماضية حدة . وكان خط النضال يمتد من الشرق الى الغرب قبل قرن من الزمان .. حينما كانت حثى حليفة لحرى ضد مصر (فى شمال سوريه) والميتانى . أما الآن فقد أصبح يمتد من الشمال الى الجنوب . بين حثى

ومصر ، المتحالفين ، ضد جرى ودولة أشور ، العدو الجديد من ناحية الشرق ·

وكانت العقلية نفسها ، أو الدافع نفسه الذى يوجه السياسة الخارجية للامبراطورية الحيثية متجها كذلك الى تصريف الشئون الداخلية ، فكانت صيانة خطوط المواصلات مع سورية ، وتعزيز الحدود العسكرية المشارفة لآسية ، من الأمور الحيوية التى يجب العناية بها فى الحال · وقد أظهر سبلبوليوما وخلفاؤه فى هذه المرحلة بالذات من المراحل التى قررت مصائر الحيثيين ما كان ينطوى عليه الملوك الحيثيون من عبقرية كاملة بوصفهم قادة من دهاقين الحرب ، والعارفين بفنونها ·

وقد كان كلا الموقف والظروف فى ابان الطور الاول ملائمين للقيام بمحاولة تقوية قبضتهما على البلاد التى كانوا يطمحون اليها فى سورية الشمالية ، وهو ما حاوله الملوك الأقدمون حقا الا أنهم لم يستطيعوا الاستمساك به . وقد ازدادت جيوش الحثيين عنفوانا بسبب مزايا موقع عاصمتهم العسكرى ، وذلك منذ الوقت الذى شاد فيه آباؤهم الأولون تلك العاصمة فى حتوساس (وهو الحدث الذى حقق سيادة الحثيين نهائيا على غيرها من القبائل الحيثية) .

وقد وجد الملك مرسل ، أول من تسمى بهذا الاسم ، أن فى مبسوره الانقضاض على حلب ، ففعل ذلك من فوره تقريبا . وبعث الى العاصمة بغنائم كثيرة · وقد أسكره هذا النصر ، فاندفع فى اقدام الى مدينة بابل النائية فافتتحها ، وقضى بهذا العمل الباهر على الأسرة الأولى التى تولت مقاليد الحكم من هذه المدينة فى مملكة بابل عامة · وكانت هذه هى الأسرة التى لا يزال حمورابى الى اليوم أبرز شخصياتها · ولابد أن التاريخ الذى وقع فيه هذا الحادث ، وان كان موضع خلاف ، يقع بين سنتى ١٩٥٠ و ١٧٥٠ قبل الميلاد ·

وليس هذا أول صراع سجله التاريخ بين هذه الأصقاع النائية ، فقد جاء فى الأساطير البابلية القديمة التى يرجع تاريخها الى قرون قبل ذلك الحادث ،

أقدم ذكر للحيثيين فى التاريخ

أن سرجون ملك أكاد قد أوغل فى آسية الصغرى ، محرزا انتصارات عظيمة على قبائلها المفككة ، وقد ورد ذكر الملوك الحيثيين فى هذه الروايات المتقادمة . الا أن الآية قد انعكست الآن ، فقد اجتمعت كلمة القبائل الحيثية تحت راية الملوك الحيثيين وذلك بعد صراع طويل ، ولم يكن من شأن نجاح الملك مرسل فى مغامرته تلك الا أن يزيد اتحادهم قوة ، ومن المحتمل كذلك أن التوسع الحيثى قد كان له صداه فى الوقت نفسه فى سورية ، الى أقصى الجنوب حتى فى فلسطين ، وعلى كل فقد أدعى تلبينوس Telibinus أحد ملوك حتى المحدثين . أن دمسخوناس ، والظاهر أنها دمشق ، تدخل فى حدود أملاكه ·

ثم تنطمس معالم التاريخ فى هذا الطور ، فى تلك الفترة التى ساد فيها الهكسوس ، بيد أن الحوادث التى لها علاقة بالملوك المتأخرين الذين كانوا يتأهبون للفتح أنئذ فحوادث واضحة تجلوها جلاء عظيما تلك الوثائق الجديدة ، والمستندات المعاصرة من المصادر المصرية والاشورية ·

وتدل شواهد الاطلال أيضا على ما كانت عليه العاصمة من التنظيم العظيم فى هذا الوقت ، وقد انتفعوا من طول التجربة بدروس حسنة ، فهذه هى المدينة تحيط بها أسوار لا تبارى فى قوتها بحيث تظل العاصمة تأمن من ضر يصيبها اذا ذهب عنها الملك وجنوده لغارة فى مكان بعيد ، ومهدت طرق المواصلات بالرغم من وعورة الأرض ، وبالرغم من توسط العاصمة اياها · حتى أصبحت صالحة لمرور العربات صلاحية تجعل الانتفاع من موقع العاصمة العسكرى انتفاعا تاما ، اذ كانت الطرق الرئيسية كما أشرنا آنفا تتفرع منها الى جميع الجهات ، ولا تزال هذه الطرق صالحة للسير ، بل لا تزال تستعمل الى يومنا هذا ·

وكانت الطرق ذات الاهمية الأساسية لمشروعات سبلبوليوما هى هذه الطرق الذاهبة من مازقا قيصرية الى ممرات طوروس الخلفية ، وتنحرف منها شرقا الى المعبر الرئيسى لنهر الفرات قرب ملطية . وجنوبا حتى مرعش ، مفتاح سورية الشمالية،وكان من الميسور جدا بلوغ ملطية فى الطريق الممتد فوق الهضاب الى سيواس ، غير أن هذا الطريق يمر وسط أراضى جاسجا ، حيث لم تكن القبائل وفية على الدوام للدعوة الحيثية ، وتشبه فى ذلك الدروب الذاهبة من قليقية الى سورية عن طريق ممرات أمانوس Amanus ذات الوعورة ، فهى

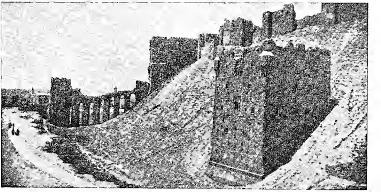
وان كانت طرقا صالحة الا أنه كان يعترض عليها نفس الاعتراض السابق من حيث قلة ثقة الحيثيين فى نوايا أحلافهم الأرزاوين فى أثناء تغيب الجيوش الحيثية الرئيسية فى بلد بعيد .

وكانت أضعف نقطة فى موقف الحيثيين تنحصر ،على التحقيق، فى الروابط السياسية وحدها التى كانت تربطهم بأحلافهم فى كلا الجناحين ، وكان الفصل فى حالتى الهجوم والدفاع رهنا بمشيئة الحكام الحيثيين طالما كانت هذه الروابط قائمة ، وان قلل من قيمتها بلا ريب . أمل حلفائهم فى المغانم التى ربما أفاءها عليهم انتصارهم أو خوف هؤلاء الحلفاء من بطش الحيثيين بهم فى فورة من فورات الغضب حين يطلبون تأرهم . وكيفما كان الأمر ، فشواهد الآثار ــ كما رأينا ــ تعزز وجاهة هذه الاعتبارات ، وتدل على أن الطرق الوسطى كانت طرق المواصلات الرئيسية . وكانت تلك الطرق الجانبية بين المراكز المتقدمة ، تؤمن سلامة الموقف الحربى ، وهذه الطرق هى اماسية وسيواس ومازاكا وطيانة ، كما كانت تؤمنها الدروب الجبلية التى تصل المراكز المتقدمة على المراكز المذكورة ، على طول تخومها الجبلية .

مواضع القوة والضعف فى موقف الحيثيين

وكان الأفق السياسى من ناحية الجنوب الشرقى مؤذنا كذلك بنجاح مشروعات سبليوليوما . فقد كان الحلف الذى جعل من أرمينية الغربية كلها ومن أرض الجزيرة دولة واحدة فى القرن السابق آخذا الآن فى الانفصام فترة من الزمان . وقد كانت هذه الدولة تدعى هانيجالبات Hanigalbat على ما جاء فى المصادر الحيثية ، وقد وصلت ، فى أقصى ما بلغته رقعتها الى ما وراء غربى الفرات ، وكانت تضع يدها على مركزى ملطية وحلب الهامين ، وهما مركزان منيعان حالا بالفعل بين الحيثيين وبين توسعهم فى تلك المناطق .

وعلى كل ، فقد وقع الآن الجزء الشمالى من ذلك الصقع ، شرقى الفرات ، فى أيدى الحربين وقد قام سبليوليوما ببعض الاجراءات العسكرية لبعيد جميع الولايات الصغرى على جانب الفرات الأدنى فى قبضة الحيثيين ، وذلك من أراضى كسكه فى أرمينية الصغرى ، حول المنعطف الكبير لذلك النهر من أرضروم ، أكبر الظن ، الى البحر عند طربزون . (أطرابزنده) وقد سكن من جأش النفوس



أحد ثغور الامبراطورية الحيثية ، أكمة المدينة عند حلب

أصبحت مدينة حلب ، التى كانت تعد من شمال سورية أكثر مما تعد من دولة الحيثيين . والتى كانت يوما ما عاصمة لامارة قوية مستقلة ، أصبحت حلب هذه ثغرا هاما من ثغور الحلف الحيثى فى العهد الأخير للامبراطورية ، وهذا الموقع العسكرى عريق فى القدم وآية ذلك حجم هذه الأكمة أو (التل) الذى يحدثنا عن أنقاض المدن المتتابعة ، والذى تشغله اليوم أطلال قلعة من العصور الوسطى .

المضطربة فى هذه الأراضى باطلاقه سراح اللاجئين والمسجونين الأولين ، بينما هيأت له معاهدته مع الحوريين قسطا موقتا ، وان لم يكن أكيدا ، من الاطمئنان على جبهته الشمالية .

وقد سقط فى الوقت ذاته ، فى أيدى الحكام الميتانيين ، الجزء الجنوبى من دولة هانيجالبات (أى سهول أرض الجزيرة الشمالية) . ولما أحس هؤلاء الحكام بالخطر الذى يتهددهم من ناحية الشرق من جراء التوسع الأشورى . ودولة عالس Alsa على نهر دجلة ، وهى أوغل فى الشمال من الدولة السالفة ، راحوا يلتمسون محالفة فراعين مصر الذين



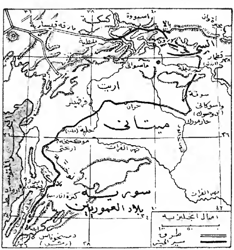
سورية فى فترة تل العمارنة

كانت سورية تفلت من قبضة مصر فى خلال الفترة المعروفة بفترة ألواح تل العمارنة . وقد سارع الحيثيون لانتهاز هذه الفرصة والخريطة ترينا المدن المذكورة فى السجلات الحيثية أو المصرية . وقد كتبت أسماء بلاد كثيرة اشتهرت اليوم بأسماء حديثة كما كانت تسمى فى الوثائق الأصلية .

كانت لهم سيادة موقوتة على أواسط سورية وشمالها، نتيجة لعدة حملات حربية ، فتحت لهم هذه المحالفة ، والظاهر أن تحتمس الثالث قد التحم فى احدى هذه الغارات بالفصائل أو الطلائع الحثية،وهو يذهب الى أنه قد تسلم الاتاوة أو الهدايا فى السنة الثالثة والثلاثين من حكمه ، وما بعدها أيضا ، من «خيتا» Kheta وقد انتفع الميتانيون على كل حال من موقفهم وحلفهم فى تأمين اشرافهم الفعلى على شمال سورية ، بما فى ذلك قرقميش وحلب ، بينما كانت مدن وادى نهر العاصى القوية نفسها تحتلها بالاتفاق مع المصريين فرق ميتانية . أما رؤساء العشائر لعمورية (ولعلهم كانوا يسكنون فيما يعرف الآن بجبل الدروز) هم ودويلات لبنان وشواطىء سورية فكانوا لا يزالون فى حكم حلفاء للمصريين أو بمنزلة أقيال يدينون لهم بالطاعة .

وقد أسفر التراخى الذى أصاب القبضة المصرية فى عهد أمنحتب الثالث . هذا الفرعون المسن ، وعهد سلفه أخناتون ، عن الموقف الخطير الذى كان له سبليوليوما بالمرصاد ... هذا التراخى الذى كان من علاماته زعزعة ثقة الدويلات السورية ثم ترك الميتانيين بلا معونة أو سند .

ولم تصادف التجربة الأولى التى قام بها الحيثيون للنزول فى سورية ، حتى اقليم نوخسه Nuckhass . بين حلب ونهر العاصى . قسطا كبيرا من التوفيق على ما يظهر،ومهما يكن شأن هذه التجربة فقد أرسل دوشراطه Dushratta ، ملك الميتانيين ، الى فرعون يخبره بأن هذه الغارة قد صدت ، ثم بعث اليه جانبا من الأسلاب التى استولى عليها . ولا جرم أن هذه المحاولة قد عرضت أصحابها لمخاطر بالغة ، فلم يك أمام سبليوليوما الا سبيل واحدة يسلكها للنزول فى سورية وهى طريق مرعش الرئيسية ، ولذلك تعرض جناح فيلقه وهو يزحف نحو الجنوب للهجوم من جانب قرقميش وحلب ، وهما المدينتان اللتان كانتا لا تزالان على ما يظهر خاضعتين لسلطان دوشراطة . وواضح أنه كان من المستحيل عليه أن



سبلبوليوما يضرب ضربته الموفقة فى سـورية

فى وسعنا أن نقف على أخبار الحملة التى أخضع بها سبلبوليوما الحيثى شمال سورية من سجلات الدولة . غير أن أطوارها الأخيرة غامضة . وجلى أنه بعد أن استولى على قطنه قام بجولة فى نوحسة ؛ الا أن القوات الميتانية هاجمته من قادش . فعاد اليها وحاصرها فى أبزوAbzu (حمص ؟) قبل أن يأخذ فى طريقه جنوبا .

يتحرك الى أبعد من هذا صوب الجنوب، فى مثل هذه الظروف ، دون أن يتعرض للخطر خط مواصلاته الذى لم يكن ينفك يزداد طولا .

واستغل اتفاقه مع الحريين فأخذ يرسم خططه على نطاق عسكرى أوسع أفقا ، فها هو ذا يعبر الفرات عند منابعه العليا . ولعل ذلك كان عند ملطية ، فيجتاح أرض عيسووة المقابلة التى كانت لا تزال تعترف بنفوذ دوشراطة على ما يظهر فأذل اهليها ، وأمن بإذلالهم على سلامة هذا الطريق البالغ الأهمية لزحفه العظيم ، وأنجز استعداداته فعبر الفرات بكامل قوته . ثم تعمد الزحف شرقا حتى بلغ بلاد عالس عند منعطف دجلة ، حيث اكتسح قلعة قطمر Kutmar (بالقرب من ارزن الحديثة) ، ثم انحدر بعدها جنوبا صوب السهول فظفر بمنفذ الى قلعة سوتا ، ثم انتهى به الزحف الى مشارف واسوكانى Wassukkanni عاصمة الميتانيين نفسها . وهى التى يظن أنها كانت واقعة عند منابع نهر الخابور ، ولعل تل وحشك Wahsnk قد سمى باسمها ، ويقال أن دوشراطة قد تجنب القتال ، الا أننا لا نعلم اذا ما كان غائبا فى سورية أو أنه أخلى هذه المنطقة قبل الزحف الحيثى .

ثم وجه سبلبوليوما زحفه ناحية الغرب فعبر الفرات أعلب الأمر جنوبى قرقميش ، وبعد أن فرغ من عملياته على هذا النحو سار قدما الى حلب فافتتحها .. وهكذا انفتح الطريق أمامه على مصراعيه .. فهذه قرقميش قد أصبحت معزولة ، وان تكن لا تزال فى فى أيدى الأعداء ... وهذا هو يندفع صوب وادى العاصى دون أن يضيع لحظة من وقته ، مكتسحا مقاومة زعماء العشائر الذين تحالفوا عليه ، وأخذت المدن الواقعة فى أكناف هذا النهر تتهاوى واحدة بعد أخرى تحت ضرباته ، أو تسلم نفسها له . ولم يكن فى نيته مهاجمة قادش ، مدخل البلاد العمورية ، الا أن قادة الميتانيين الذين كانوا لا يزالون يحتلونها هرعوا بأنفسهم ليلقوه فى الميدان بعجلاتهم الحربية ، وقد انتهت هزيمتهم الساحقة . بعد اكتساحهم ومحاصرتهم فى مدينة مجاورة ،

لعلها حمص ، بأن أصبح سبلبوليوما سلطان سورية الشمالية الذى لا ينازعه سلطان .

وقد أسفرت الحملة عن نجاح باهر ، اذ انفصمت عرى التحالف بين الميتانى ومصر ، وأصبحت دولة الميتانيين على شفا الزوال بعد عزلتها ، وتلقت هيبة مصر ضربة نكراء ، وأسرع رؤساء العشائر فى الأقاليم يعلنون ولاءهم ، بل دخل حكام العموريين الأقوياء فى مفاوضات من أجل التحالف مع سبلبوليوما ، وان كتبوا الى فرعون فى الوقت نفسه يؤكدون له ولاءهم الخالد على وجه الزمان . أما فى أقصى الجنوب ، حتى حدود فلسطين ، فقد ترك هذا الفتح دويا أيما دوى ، وما كان على فصائل الحيثيين الا أن تمضى فى سبيلها قدما ، لتسقط المدن ، الواحدة تلو الأخرى ، فى أيديهم أو أيدى العموريين .

وجاءت الكتب التى يشيع فيها روح اليأس ، تترى من سفراء مصر فى سورية ، لتحذير فرعون من الكارثة المداهمة .. ولكن .. لقد أسمعت لو ناديت حيا ! فقد كان الملك الشاب ،

أخناتون فى شغل بمثله العليا ، ولم نكن مصر المنقسمة على نفسها حول قضية دينها القومى ذات الخطر ، فى الوضع أو الحالة التى تسمح

حروب سبلبوليوما وسياسته

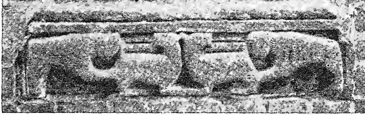
لها بالتدخل فى الشئون الامبراطوريه . وكان الحيثيون الآن سادة الموقف يفرضون ما يشاءون من شروط التحالف أو التبعيه فى معاهداتهم مع الدول والأمراء ، وكان سبلبوليوما هو الذى ينظر فيما يشجر بين الولايات وهو متربع على عرشه فى عاصمة الحيثيين ، وهكذا أصبح الملك المحارب امبراطورا ، وظهر فى الوجود نظام جديد قائم على أصول امبراطوريه .

اما فى البلاد الميتانية . فقد توفى عاهلها الملك دوشراطة ، ولاذ ابنه بالملك سبلبوليوما ينشد حمايته ، ويلتمس عونه ضد الحكام الحربيين الذين اغتصبوا العرش .. فأتاح هذا كله للعاهل الحيثى فرصة مواتية لانجاز ما كان يضطرب فى نفسه من مطامح . فنقض معاهدته مع الحربيين بعد أن استخار الآلهة . ثم انتصر لابن الملك دوشراطة فأعاده الى الملك على جزء من البلاد الميتانية الواقعة شرقى الفرات .

وكان انشاء دولة الميتانى من جديد . حتى فى هذا النطاق الضيق . عملا مقضيا عليه بالفشل . فلقد رأى سبلبوليوما ما وصلت اليه البلاد من تلك الحالة المحزنة من الفاقة فأرسل اليهاكل شيء . . حتى عماله من رجال الادارة ، مزودين بأزواد الخيل والأغنام والأنعام ، لمحاولة انتشالها من قبضة الموت . . ولكن . . لقدكانت أشور انشبت فيها أظفارها ، تجردنها من جميع الأسلاب التى استولى عليها دوشراطة فى حروبه السابقة ، وفى الجيل التالى ، لم يعد للحماية الحيثية أى قيمة ، حتى ظهرت قوات شلمنصر آخر الأمر ، حوالى سنة ١٢٧٥ ق . م أمام ملطية ، فلم تقض على كل أثر لاستقلال الميتانيين فحسب ، بل كانت خطرا جديدا يتهدد كيان الامبراطوريه الحيثيه نفسها ، ومهما يكن شأن هذه الأحداث فقد احتفظت فتوحات سبلبوليوما بسلامتها الى حين . وهو قد استولى على قرقميش ، واحتفظ بقاع سوريه الشمالية ، وكان من أصالة الرأى أن ينتقل عرش قرقميش الى اسرة حتى الملكية ، ثم يقدر له أن يظل قرونا مركز الدائرة فى دولة الحيثيين فى سوريه بعد اختفاء اسم الحثيين من الأناضول .

وبالرغم من الاحتياطات التى اتخذها سبليولبوما قبل زحفه بقواته الرئيسية فى





شواهد تدل على السيطرة الحيثية فى سوريةوفلسطين

لقد استفاد الحيثيون فائدة عظمى من ضعف مصر أيام اخناتون فى نفوذهم الى سورية وتنظيمها . وثمة مايدعو الى الظن بأن سيطرتهم هناك كانت قصيرة الأمد ، الا أنها قد دامت على التحقيق حوالى ثلثمائة سنة (أى منذ ارتقاء بيت ستيوارت عرش انجلترة الى اليوم) وآيات النحت الحيثية التى نراها هنا تدل على أن سيطرتهم هناك قد امتدت قرنين ، ولكن فى سورية ، والصورة العليا لأسد من دمشق ، والسفلى ، لسباع وغزلان من أقصى الجنوب طبرية القريبة من بحيرة الجليل .

أرض الجزيرة فى سورية فقد أثار تغيبه طائفة من المشاكل قرب بلاده وكان نقضه معاهدته مع الحربين بخاصة سببا فى تعريض ميسرة قاعدته الرئيسية لحملات غريمه السياسية التى كانت تصحبها فنن اقليمية تقتضى اجراءات عسكرية • وعادت المياه الى مجاريها بعد جهود شاقة عندما عاد سبليوليوما الى أرض الوطن • أو عندما « ارتقى التل » كما يقول الحيثيون ••• وبعد قليل توفى سبليوليوما فأصبح ابنه مرسل الثالث « الملك الأكبر » . سنة ١٣٥٤ ق • م •

وكان شباب مرسل ، كما لاحظنا ذلك من قبل ، سببا فى انتشار السخط الذى انتهى بمجاهرة الولايات الكسكية — على الفرات — بالعصيان ، كما جاهرت به ولايات آرزاوا جنوبى طوروس •• وشعر العاهل الشاب بالخطر الذى يتهدده فى عرشه ، لكنه دل بعبقريته على أنه ابن بجدتها ، فقد تولى أمور القيادة بنفسه ، وسار على رأس جيشه فى سلسلة من الحملات الجبارة ، فلم تنته سنوات عشر حتى توطد سلطانه ، بينما كان ، فى ذلك كله ، يتمسك كل التمسك ، كما يجب ألا ننسى ، بما فى المعاهدة مع الولايات السورية من التزامات •

ومن الممكن أن نطلق اليوم على خطط الملك مرسل الحربية الخطط النابليونية • فقد كانت ضربته الأولى (اذا كنا نفسر الألفاظ الحيثية الصعبة تفسيرا صحيحا) موجهة الى قلب ولاية كسكه ، وذلك بزحف سريع فى ممرات طوروس الحلقية بادئا من هازاكا ، التى خضد فيها ميسرة الثوار ، ثم انحدر بلاتوان ، فسار صوب الشمال مارا بمفرق الطرق الرئيسى لخط الدفاع حتى وصل الى سبوس ، حيث أنزل ضربته الثانية بميمنة الثوار • وسلم فى الحال معظم المدن والثوار الذين ناوشهم وأخذت مدن أخرى عنوة ، فلم يعد فى مقدورهم العمل المنسجم فيما بينهم •• وهكذا قضى على الفتنة فى مهدها •

بيد أن الموقف فى أرزاوا كان أشد خطورة ؛ فالظاهر أن هذه الولاية لم تكن قط ولاية حيثية خالصة فقد كان معظمها يقع فى قليقية تراقا ، وتمتد منها شعاب فى قليقية الأصنبة من جانب وتمتد الى ليقية من الجانب الآخر ، ولما كانت أرضها وعرة وتفصلها من هضبة حتى جبال طوروس ، فقد كانت لمحة من روح

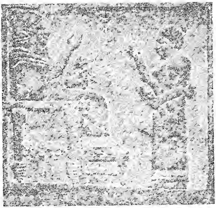


ما أعقب زوال سلطان الحيثيين

عندما انهارت الدولة الحيثية التى وقفت زمانا طويلا فى وجه الشرق ، أمام غارات الغربيين • كانت مراكز الثقافة فى سورية تحافظ على كيانها ، وبخاصة فى قرقميش ، حيث يزدان جدار أحد قصورها بصور هؤلاء الكهنة يحملون غزلانا .

الاستقلال تكمن فيها • وبالرغم من هذا الولاء الاسمى الذى كان يظهره ملكها خلال تلك الفترة من فترات الامبراطورية • حينما كان التحالف شد حتى عملا خطيرا .

وتدارك مرسل الأمر حتى لا يزداد سوءا ، فعاد الى حتوساس ليعبد تجهيز جيشه ، ثم عرج على هيكل ربة الشمس فى آرنا يلتمس بركتها ، ثم زحف بخيله ورجله على الثوار مباشرة ، وواضح أن غرضه كان منع اجتماع كلمتهم ، وقد أدرك من ذلك غايته كلها ، فقد عبر اقليم لواسه Lawasa الجبلى (ولعلها لورادوس القديمة Lauzandos ولاوزا Lauza الحديثة) حيث تفاءل بفأل شجعه هو وجنوده •• ويبدو أنه أثار الارتباك على الفور فى مواصلات الثوار • فقد كان الملك الثائر يترقب لقاءه فى أباساس Apasas ، فى بامفيليا) حيث كان شعث قواته ، الا أن مرسل أربك ابن هذا الملك الذى كان يتقدم بخيله ورجله يبغى الاتصال بأبيه • على ضفاف نهر أسساريا (وهو اسم يوحى بأنه هو نفسه نهر سبارنة الحديثة) حيث أوقع به مرسل هزيمة ساحقة طاردة بعدها .



مزيج من الفن الحيثى والفن السامى

لم تأتلف الطوائف الحيثية المتأخرة فى سورية قط بعد ائتلافها الاول ، وإن لم تكن ينقصها المظهر الحربى. بل تركت ليغلب عليها الأثر الاشورى يوما بعد يوم حتى ضاعت آخر الامر فى غمار الدولة الأشوريه والسمات التى تتجلى فى هذا الرسم البارز الذى عثر عليه فى سنجرلى هى سمات حيثية وراء مظهر اشورى شفاف ، الا أن اسم الملك اسم سامى هو باررِكوب Barrekub

ثم زحف مرسل بعد بلوغه هذه الغاية الأولى الى أباساس حيث وجد زعيم الثوار قد لاذ بأذيال الهرب نحو السهول ، بينما تراجع جانب من قواته فى ناحية مضادة الى بوراندة Burande وانقسم العدو الآن ثلاثة أقسام .

حملات الملك مرسل

وتقدم مرسل ليلقى كل منها على حدة . فبدأ بقص اثر الذين هربوا الى اقليم ارناناده Arinnanda الجبلى الذى رجح أنه فى جنوب لقمة الشرقى . وبعد أن أوقع بهم هزيمة نكراء أرسل منهم أسرى عديدين الى عاصمته ، وأقبل الشتاء فأقام مرسل خطا من التحصينات على نهر استاريا حتى لايضيع مريه الموقف الذى استولى عليه . ثم ذهب الى معسكره الشتوى .

ثم حل الربيع فزحف مرسل نحو السهول دون ابطاء ، جريا على سابق خططه .. وكان الملك الثائر قد هلك فى أثناء ذلك ، وتفرق أتباعه أيدى سبا ، فانقلب مرسل الى من لاذ منهم بمدينة بورنده Burnnada ، وضرب عليهم الحصار ، الا أن زعيمهم فر فى جنح الظلام وأخذ يجمع أشتات فصائله،ولكن الملك مرسل استطاع أن يسطر خطوطه فكان ذلك مسك الختام لانتصاراته ، وكان الملك الفاتح كلما تقدم فى زحفه بعد هذا وفد عليه سكان آخرون من أهل أرزاوا . رجالا ونساء ، مستسلمين خاضعين .

وانصرف مرسل بعد ذلك الى تنظيم الولايات التى أعادها الى حظيرته ونشر ظلال السلام فى ربوعها . وقد تم له هذا باستبقاء بعض رؤساءالعشائر السابقين من الوطنيين. وتنصيب آخرين . وكان كل منهم يرتبط على حدة بمعاهدة يقر فيها بتبعيته له ، وتعين فيها حدود اقليمه والتغييرات التى طرأت عليه . أما مملكة أرزاوا فقد مزقت أوصالها وحلت محلها طائفة من الامارات كان كل منها فى الواقع بمثابة اقطاع من صاحب العرش ; وتأيدت سيادة الملك الأعظم فى سورية كذلك ، وتجددت المعاهدات مع أميرى حلب وعمورية ، أعظم حكام هذه الامارات شأنا .

ولا يمكن أن تكون متاعب مرسل قد وقفت عند حد ؛ فقد كان الموقف فى الفرات بخاصة لا يزداد الا سوءا بسبب الزحف الأشورى ، ومع هذا ، فان ما قام به سبليوليوما ومرسل من مغامرات ليدل على عبقرية الملوك الحيثيين العسكرية وبراعتهم السياسية .

ويعود بنا آخر أطوار الشئون الامبراطورية الى سورية مرة ثانية ، لنجد مصر التى نفضت عنها غبار الخمول تحاول فى عهد سيتى الأول ورمسيس الثانى أن تستعيد مكانتها ، وقد نظمت بالفعل جزءا هاما من شمال فلسطين . وكان مما قضت به المقادير على موتالس ، خليفة مرسل أن يتدارك هذا الأمر ، فحشد كل موارد بلاده لهذه الغاية .

أما الأصقاع المشرفة على البحر الأسود والواقعة فى الشمال الشرقى للعاصمة ، والتى طالما ساهمت فى الفتن السالفة ، فقد سكنت الآن ثائرتها بعد أن منحت استقلالا جزئيا ، ثم أطلق على الولاية الجديدة التى كانت تجاور حتى جغرافيا اسم كزيووندة Kizzuwandna وبهذا التصرف وضع حائل مناسب بين حتّى وحرّى الشمالية ، وفى الوقت نفسه شغلت معاهدة التحالف قوات حكامها فى الحروب الحيثية . ثم عقدت معاهدة جديدة مع

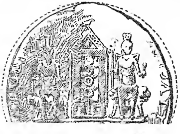
العموريين لوحظ فيها احتمال وقوع صدام مع مصر .

وانخرط محاربون جدد فى صفوف الجيش كان من بينهم نفر ممن شاعت أسماؤهم فى الملاحم الهومرية من حلفاء طراودة ، وتفزو المصادر الفرعونية سبب انخراطهم هذا الى الذهب الحيثى ، ومن الجائز أن الفريقين كانا يستعملان الجنود المرتزقة فى الصدام النهائى . وقد نشبت المعركة فى قادش على نهر العاصى الأعلى سنة ١٢٩٦ ق.م. الا أنها لم تسفر عن نتيجة حاسمة ؛ وآب كل من الجيشين مثخنا بجراحه . وبالرغم من أن فرعون رمسيس



الثانى اباهى ببسالته فى هذه المعركة فنقش احداثها على جدران أحد المعابد المصرية فقد احتفظ الحيثيون بتفوقهم فى ربوع سورية .. على أن ثمة من يذهب الى أن موتالس قد قتل ، ومهما تضاربت الأقوال فى هذا الصدد فانه لم يعش طويلا بعد تلك المعركة ؛ أما خلفه حاتوسيل ، الذى كان آخر الملوك الحيثيين ، فقد وجد نفسه أمام مشكلة جديدة أشد ضراوة .

وكان الخطر الجديد آتيا من قبل الغرب ، فقد كانت السياسة الحيثية تعترف باستقلال



الأثر الحيثى بعد ١٥٠٠ سنة

من الجائز أن تكون قصة الزواج الالهى البعيدة الصيت من ابتكار الحيثيين . الا أننا لايسعنا الا نقر بتأثيرهم فى عبادة مدينة هيرابوليس السورية كما وصفها لوسيان . وهذه القطعة من عملة تلك المدينة فى القرن الثالث تريبا الملك وقد استوى على عرش من الثيران . والربة وقد استوت على عرش من السباع .

ملوك احايا ولسبوس وبسباديهم . وهم اولئك الملوك الذين تتشابه أسماؤهم والأسماء الحيثية ، نحو : أندريوس وايتوكليز . مؤسسى دولة أورخومينوس Orchomenus وسواء تشابه الأشخاص كتشابه الاسماء أو لم يتشابهوا . فان الشواهد مجمعة على أن جماعات الآخيين قد ظهروا فى بحر ايجه . وانهم كانوا يرومون الاستيلاء على المواقع الجزرية فى شواطئ آسيه الصغرى الغربية . وكان العاهل الحيثى يلقب زعماءهم فى احلال فيدعوهم اخوته ؛ وفضلا عن فصائل الداردان الذين



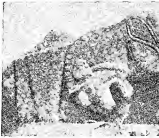
الرومان يعبدون الها حيثيا

لم يقتصر تراث الحيثيين على بلاد الاناضول . فقد حمل جنود الرومان الى أقصى الأصقاع الاوربية عبادة اله وجدوه فى دوليشة Doliche . وازن بين هذه الطرفة البرونزية الرومانية التى عثر عليها بالقرب من فرنكفورت وبين هذه الآية الحيثية من آيات النحت التى عثر عليها فى ملطية . الى اليمين)

حاربوا فى صفوف الحيثيين فى قادش . فقد ظهر فى عهد الملك موتالس أمير يدعى الاكساندوس Alaksandus ارتبط منذ عهد قريب مع الملك الحيثى بمعاهدة اعترف هذا فيها بأن الثانى متربع على عرش دولة جزرية قريبة من الشاطىء الجنوبى لقلقية تراقية .

تهديد الآخيين للدولة الحيثية

وقد يدل اسمها الحيثى ، أو يلوسه Uilusa كما يدل السياق ، على أنها هى اليوسه Elacusa التى تروى عنها روايات توحى بهذا الراى . وثمة تحقيق لهذا الاسم أكثر احتمالا يذهب الى أنها قد تكون ايالوسوس Talysus الواقعة فى جزيرة رودس ، وهى ذلك الجبل الممتد فى البحر قريبا من الشاطىء ، والذى كان يدعى أخايا Achaia فى التاريخ اليونانى القديم . بيد أن الاسم الاكساندوس يشعر بأنه طراودى أكثر منه آخى . وواضح أن الآخيين كانوا سادة البحر والجزائر ، ولا جرم أنهم كانوا يستعملون ذلك الجبل الممتد فى البحر أثناء غاراتهم على كاريا .



الأثر الحيثى فى الفن الفريجى

برز الفريجيون فى الفتنة التى اكتسحت الحيثيين فكانوا أعظم قوة فى الاناضول ، الا أنهم ورثوا كثيرا مما هو حيثى الأصل كما يرى فى رأس هذا الأسد المكسور الذى نحتوه فى دمرلى Demirli .

ومهما يكن من أمر ذلك فقد كانت أسباب الحرب الطراودية تمهد لنفسها . فها نحن أولاء نرى أن الفصائل الدردانية يسمح لها بدخول أرض شبه الجزيرة ، بوصفها فصائل أمة حليفة ، فى حين كان الآخيون يجدون فى الفوز بموطىء قدم عليها بالغارة عليها والتسلل فيها .

وفى الوقت نفسه كانت القوات الأشورية عند نهر الفرات .. فلما رأى حاتوسيل تطور الحوادث على هذا النحو ، وكان قد ارتقى عرش الحيثيين ، اقترح على مصر أن تبرم معاهدة معه ، بينما بذل جهودا سياسية مضنية فى سبيل التعاون الفعال مع بابل أيضا . وأبرمت المعاهدة مع مصر باحتفال بهيج بين عامى ١٢٧٦ ــ ٨٠ ق.م بوجه التقريب ، ثم دعمت بعد ذلك ببضع سنين بزواج أميرة حيثية من فرعون مصر الذى خطا الملك الحيثى فى سبيل التقرب منه خطوة ليس لها سابقة فى التاريخ ، حينما زاره بنفسه .

وهكذا كبح جماح الخطر الأشورى ، الا أن الغارات الآخية استمرت ، فحوالى سنة ١٢٥٠ ق.م. ، نزلت الى كاريا فصائل من مائة سفينة بقيادة أتاريزيياس Attarisiyas ويستدل على مكان هذا الحادث بالتشابه الواضح بين اسم المكان العجيب خورسوناسا Khursunassa الوارد فى النصوص ، وبين الاسم القديم خرسونيسوس Chersonesus ؛ وثمة أسماء كثيرة أخرى فى هذه الجهة لايبعد أنها بقيت منذ ذلك التاريخ .

وقد كانت الدولة الآخية فى هذا الوقت أكثر تقدما مما كانت بمراحل كبيرة . حتى كان ملكها فى زمن الملك الحيثى ددخالياس Dudkhalias (حوالى سنة ١٢٤٠ ق.م.) يقف على قدم المساواة من حيث المرتبة السياسية مع ملوك بابل وأشور ومصر . وبعد أن رد الآخيون على أعقابهم من كاريا مرتين ، استطاعوا تثبيت أقدامهم فى قبرص حوالى سنة ١٢٢٥ ق.م ؛ ومن قاعدتهم هذه أخذوا يغيرون على نطاق واسع ، تشد أزرهم فصائل من السواحل المقابلة ومن آسية الصغرى نفسها . وقد انقضوا على مصر ذاتها فى عهد مرنفتاح .

وبعد ، فكل ما يسعنا أن نحرر خاتمة هذا كله . لقد كانت ثمة حركة عظمى ، أو سلسلة من الهجرات ، فى سبيلها من أوربا ؛ وحوالى سنة ١٢٠٠ ق.م اجتيحت البلاد الحيثية ، ولم تكن قعقعة السلاح حول طراودة الا حادثا من حوادث الأزمة البالغة التى اكتسح طوفانها الأسرة المالكة الحيثية والامبراطورية الحيثية . وتروى لنا مدونات رمسيس الثالث أنباء الاضطراب الذى عم الجزائر ، وكيف هام الحيثيون ، وشعوب أخرى ، على وجوههم ، أو سيقوا زلفا ، فى غارة من الغارات الكبرى على سورية ، هددت مصر ، وتركت سهول فلسطين ليستقر فيها محاربو البدو . أما فى آسيا الصغرى ، فالظاهر أن الفريجيين قد ورثوا ما كان للملوك الحيثيين من ذكر ، وهو ما نستنتجه من غضون الأساطير الهوميرية .

وبعد ذلك ظلت الولايات السورية وحدها مستمسكة بالتقاليد الحيثية . حتى اذا كان القرن الثامن قبل الميلاد سقطت هذه الولايات هى الأخرى بين براثن آشور . الا أن قرقميس وحلب ، وولايات شتى على نهرى افرين Afrin والعاصى فداحتفظت بسلطان كبير . وكانت السنن الحيثية تظهر فى كثير من المحالفات التى عقدت خلال هذه القرون ، وكانت أصداء الشهرة الحربية التى نالها الملوك الحيثيون تتردد فى الآفاق حتى لقد ورد ذكرها فى أسفار الاسرائيليين . أما سمات الفن الحيثى فقد طغت عليها سمات الفنون الناشئة فيما وراء الفرات .

على أن عناصر الثقافة الحيثية القديمة لم تبق فى شىء بشكل ملحوظ بقاءها فى الدين . وهكذا ظل فى مدينة هيرابوليس السورية . بين حلب وقرقميش . ذلك المذهب الثنائى الذى يقول بتزاوج الرب والربة ، والذى كان من الشائع الرمز له فى أيام الحيثيين بالثور والأسد خاصة .. هكذا ظل هذا المذهب سمة رئيسية فى عبادة الأهلين فى عصر لوسيان . ونرى صورة الكاهن الأكبر على قطع النقود فى القرن الثالث الميلادى ، وهو لايزال يلبس القلنسوة المخروطية (الطرطور) ، التى كانت سمة مميزة للباس المحاربين الحيثيين . وفى موقع دوليشه Doliche المجاور نجد المعبود المحلى الذى يصورونه على نسق الاله الحيثى تيشوب Teshub . واقفا فوق ثور ، ممسكا بحربة البرق والفأس . وقد نقل المجندون الجدد عبادته الى الجيش الرومانى فلقيت بين صفوفه رواجا عظيما . وقد وجدت آثار هذه الديانة فى كل مكان حتى فى بريطانيا الرومانية نفسها .

ولا مشاحة فى أنه سوف يعثر على أدلة أكثر مما قدمنا على تأثر اوربا بالحيثيين كلما تقدم البحث . وان أمكن أن تكون بعض اوجه الشبه ناشئة عن الأصل الهندى الاوربى المشترك .

امارات يمكن تعرفها فى اليونان وايطاليا

ولا غرو أن التزاوج بين الآلهة فى الديانات اليونانية له أصول فى آيات النحت القريبة من العاصمة الحيثية . هذا بينما تنبىء السباع المنقوشة فى أنواط الضباط الميسينيين عن تأثرها الشديد بالفن الحيثى . وشعار الكاديكر Caduccus . وهو شعار دينى حيثى ، قد ظهر بين الاتروريين فى ايطاليا . حيث أصبح رمز الكهانة الحيثية هو الليتوس Lituus عند العرافين الرومان .

وثمة علائق أخرى أوسع مدى مما قدمنا يمكن تبيانها . فمعبود الشمس كان معبودا أنثى عند الحيثيين كما هو شأنه اليوم فى اللغة الألمانية . والرب تيشوب كما نراه فى الفنون والآداب الحيثية يذكرنا تذكيرا قويا بالرب ثور Thor معبود أهل الشمال . الا انه . ويالأسف ليس ثمة رسم للاله الثانى يمكن بوساطته عقد مقارنة أدنى الى الصواب . ومجرد ذكر تلك النبذة عن ايواء الملك مرسل الى قواعده الشتوية يعود بأذهاننا الى ماكان يصنعه يوليوس قيصر من مثل تلك الطرائق .

ومهما سردنا من أوجه الشبه هذه ، فان ما ورثته أوربا من حضارة الحيثيين لا ينتهى بانتهاء تعداد امارات هذه الحضارة الباقية الى يومنا هذا . فان ما يفيض به كثير من الوثائق من روح النظام والتمسك بأهداب القانون . وقدسية المعاهدات ، واحترام المرأة لآيات تميز المجتمع الأوربى ، على أننا لا يمكننا اقامة الدليل على أن الحيثيين هم أصحاب الفضل فى هذه المحامد من عناصر الحضارة الحديثة . أو أنهم هم الذين ابتدعوها ... الا أننا قد رأينا أن الحيثيين والأوربيين على السواء قد ارتقوا بعبقريتهم المضمرة من خلف هذا المأمن فى جبال طوروس الخلفية ، حيث كانت تأوى جيوش الحيثيين . وفى ظل مثل هذه الحوافز الآتية من قبل المشرق . والتى كانت عيون الحيثيين الساهرة لها بالمرصاد .

الفصل الرابع والعشرون

الانقلاب الديني في مصر

فرعون غريب الأطوار يحدث تغييرا قصير الأمد في دين بلاده العريق في القدم

بقلم ف . لولين جريفث F. Llewellyn Griffith

أستاذ علم الآثار المصرية في جامعة أوكسفورد ، ومؤلف كتاب أخبار « كبار الكهان في منف » وغيره من المصنفات

يتبين للذين توفروا على دراسة ما لدينا من اخبار مدونه عن دين المصريين الاقدمين ان تغييرات بعيدة الاثر قد دخلت عليه في أثناء الحقب الطوال من تاريخه ، من عهد بناة الأهرام الكبرى الى عهد قيام المسيحيه في مصر . فقد ظهرت هنا آلهه جديده . ومذاهب جديدة، وعلاقات جديدة بين العابد والمعبود . كما ظهرت اساليب جديدة في بناء المعابد وسنن جديدة في تقريب القرابين ، ومناسك للعبادة جديدة وتصاريف بأجساد الموتى جديدة ، وآراء جديدة عن الحياة الآخرة . وهذه التقلبات أتى بعضها من خارج مصر . ونشأ أكثرها في مصر نفسها .

وكانت هذه التقلبات في الأحوال العاديه من اثر التطور التدريجي أو من تدبير الكهان ، وكان الجديد على غرابته يمتزج بالقديم فيحصل منهما في نهايه الأمر خليط من الأفكار المتضاربه . وحفل لا آخر له من الآلهه بمظاهرها المتعدده المختلفه . غير أن العقائد الدينيه المصريه مهما اجتمع فيها من الفضول والسفساف تنطوى على ذخيرة وافرة لاشباع كل ما يقوم من رغبات طبيعيه بالنفس البشريه على الا تكون شديده النزوع الى النقد والفلسفة ــ فهى كفيلة بالرقى والتعاويذ للمرضى ، والحياة الآخرة للموتى ، والقوى الحافظه من الأخطار والمهالك ، والقوى المنتقمة من أهل البغى والعدوان ، فضلا عن المواكب والأعياد التى تملأ النفوس باللذة والحبور ، أو تحرك فيها روائع الشعور .

الا أن هنالك تغييرا من التغييرات التى طرأت على ديانه القوم كان يختلف كل الاختلاف عن سائرها ، ولم يندمج قط في جملة عقائدهم ومناسكهم . لقد كان هذا التغيير ظاهرة طلعت في لحظه ، واستمرت بعدها متقلقله غير مستقرة نحو خمسه عشر عاما ثم زالت . اذ عاد الشعور الديني المصرى كالعباب العرم الى مجراه المعتاد يمضي فيه قدما . وبعد هذا الاصلاح الذى أدخله اخناتون في أيامه انقلابا بعيد المدى لا يقل عن الانتقال من الوثنيه الى المسيحية ، وأبعد مدى من الانتقال بعدها من المسيحية الى الاسلام .

فثمة بلاد جمعت آلهة مدنها ، وآلهة الطبيعة عندها ، وسائر معبوداتها ، فجعلت منها مجموعة عظيمة ربطت بينها بالأساطير والخرافات . وثمة أمة طربت مئات الأجيال في الأعياد والمواسم التى كانت تقام للآلهة المحلية ودرجت على التماس الرعايه والعون من أرباب بعينها في ظروف وملابسات بعينها . وبينما هي كذلك اذا بالأمر يصدر اليها أن تنصرف عن هذا جميعه وأن تعبد في وسط مناسك فخمة واحتفالات منهللة الها واحدا أعلى هو الشمس في السموات العلى . وأحكمت الصلة بين هذا الاله وبين الملك والملكة فكانا ولديه وممثليه على الأرض .

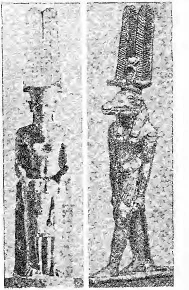
ولقد كان مركز عبادة « رع » اله الشمس في عين شمس بالوجه البحرى ، وظلت هذه العبادة قرونا لا تحصى من أظهر السمات في الديانه المصريه وبخاصة فيما يتصل بالملكيه . وكان « رع » بوصفه منظم الفصول ومقلب الليل والنهار ملكا في السماء ومثالا للملك على الأرض . وكان ملكهم الى ذلك يدعى « ابن رع » ويؤخذ من أبحاث الدكتور بلاكمان Blackman أن مناسك اله الشمس في عين شمس هي النموذج الذى وضعت على غراره المناسك في جميع المعابد المصريه .

شيوع عبادة رع اله الشمس

وكان يقال تعليلا لوجود معبود غير اله الشمس في بعض الأحوال كالاله التمساح « سبك » Sebek مثلا انه مظهر خاص من مظاهر رع ، فيضاف اسم رع الى اسمه . وأشهر مثال نعرفه لهذه

المعبودات هو آمون ، وهو اله محلى كان مغمور الشأن خامل الذكر فى طيبة فى عهد الدولة القديمه ، ثم علا شأنه وكبرت مكانته مع قيام الأسرة الثانية عشر ، فاذا به يصبح من فوره « آمون رع » ويصبح له معبد عظيم • فلما كان عهد الامبراطوريه دان القوم « لآمون رع » رب الحاضرةالملكية واعتبروه نصير الجيوش الفرعونية وواهبها الظفر والغلبة •

ومن ثمة خصوه بالنصيب الأوفى من غنائم الفتح وأسلابه حتى غطى بطائل غناه واستفاضة ذكره على سائر الأرباب فى مصر ، واستفحل ما دخل فى حوزة « آمون رع » من الاراضى والعبيد والماشية والحبوب فى جميع أرجاء مصر والبلاد الخاضعة لها ، ولا شك فى أن سدنة معابده فى طيبة وغيرها كانوا كثيرين يخطئهم الحصر • وكان كل فرعون حتى أيام أمنحتب



آلهة خلعها اخناتون

أخذ القوم يتبينون ما فى تعدد الأرباب من تعقيد حتى قبل تفكير اخناتون فى الاصلاح وأخذت الآلهة الصغرى تندمج شيئا فشيئا فى الكبرى • فهذا آمون رع (على اليسار) وسبك برأسه التمساحى Sebek (على اليمين) أصبحا فى اعتبار القوم مظهرين من مظاهر اله الشمس رع •

والد اخناتون يزيد أجزل الزيادة فى أملاك آمون رع والمعابد المرصودة له •

ولقد رأى الرحالون المصريون — وقد كان منهم قبيل عهد أخناتون أفواج وفدوا على الشام فى الشمال وعلى النوبة فى الجنوب ونطلع بعضهم فيما وراء حدود الامبراطورية الى بابل وآسية الصغرى وكريت — نقول

آراء الرحالة المصريين

ان هؤلاء الرحالين المصريين وجدوا الشمس مستعلية فى كل مكان يمموا شطره ، ولئن لم تكن دائما فى غير مصر مثلها فى مصر توهجا ووضاءة ، فانها على الأقل هى فى حدها بين النهار والليل والصيف والشتاء • ومع أن الرب المشترك آمون رع كان رب طيبة والدوله فان الرب الذى كانت تعظمه الطبقة المتعلمة وتؤثره هو رع لا آمون • فالى قرصها كان هؤلاء يتوجهون بدعائهم وصلواتهم ليل نهار، حين تبزغ الشمس فتنير الأرض • وحين تجنح فى روعة وجلال الى الغروب لتنير من وراء المغرب عالم أوزريس ، عالم الأشباح تحت الأرض • فالطريق كانت اذن ممهدة بعض التمهيد عند طبقة من الناس لذلك الاصلاح الدينى العاصف الذى جاء به اخناتون • الا أن صلواتهم وترانيمهم كانت حتى وقتئذ حافلة بالمعانى والألفاظ المأخوذة عن أساطير الأولين •

وثمة ترنيمة بديعة تستوقف النظر فى التسبيح بحمد « آمون رع » وهى منظومة فى عهد أمنحتب الثالث ، وتذكر آمون رع على أنه فى جوهره الشمس وتدعوه «رع خبرع Ra Khepera» و«حورس الأكبر » ، و « آتون » — وتوحد بينه وبين آمون نفسه ، وخنومو Khnumu بارىء الخلق ، وبتاح اله منف الصناع المتفنن • وهذه الترنيمة وان كانت تعتمد على أساطير الأولين فانها تجمع كثيرا من الصفات فى اله واحد ، وهى نفحة معجلة من فيض الحماسة وروح التوحيد اللذين فاضت بهما ترانيم آتون فيما بعد • ونحن نورد هنا فقرات منها :

(أيها الموجد الذى لا موجد له
أيها الواحد الأحد الذى يطوى الأبد
انك لتقطع على عجل مسيرة الملايين ومئات
الألوف من الفراسخ فى لحظة
حين تشرق فى البكور تتفتح العيون لاشعتك
وحين تغيب وراء الجبال الغربية
يغشى النوم البرايا كأنهم موتى
أنت الأم البارة للآلهة والبشر



رجل خيالي يسعى وراء المثل العليا ويحطم الأصنام

يرى المتأمل في هذه الصورة الجانبية لاخناتون بعض ظواهر الانتكاس ، فان اخناتون مع شدة حميته وغيرته في امضاء انقلابه الديني كان مبتلى بالأمراض ونشوه البدن ، وقد ظل طوال حياته واقعا الى حد كبير تحت تأثير المرأة .

والصانع الدؤوب الخالد في آثاره التي
لا يحيط بها حصر
والراعي ذو القوة والبأس يرعى رعيته
ولولاك ملاذهم ما تهيأت لهم حياة . »

وقبل ذلك بقرن من الزمان ورد على لسان أحد الشعراء يسبح بحمد آمون رع .

(طلعتك الفاتنة تفتر لها الأوصال ويذهل
اللب حين تتطلع اليك .
يا من يصدر عن عينيه البشر وتصدر عن
فمه الآلهة .
يا منبت الكلأ للماشية . وأشجار الثمار
لبني الانسان
يا من جعل قوام السمك في الماء ، وقوام
الطير في الهواء .
يا نافث الروح في الكائن المكنون في البيضة
وباعث الحياة في الوليد من الزواحف .
ورازق البعوض والدود والبراغيث
ومطعم الفيران في جحورها والطير على
الشجر
سبحانك بارىء البرايا كافة . أنت واحد
أحد ولكن أياديك كثيرة
يا من لا تأخذه سنة طوال الليل والناس
رقود ، البار برعيته يتحرى لهم الخير) .

وفي البيت الثالث اشارة صريحة الى الأساطير الاولى ، الا أن بقية القصيدة فيض من الالهام ، فهي تصف لنا الاله في حكمة تصرفه ، وأن لا شيء في الوجود مهما دق وهان الاله نصيبه من كرمه ورعايته .

وقد كان اسم آتون ـ وهو أخص الاسماء للاله الذي آثره أخناتون ـ معروفا منذ قرون عدة للدلالة على الشمس البادية للعيان . ومن أسماء اله الشمس الشائعة لذلك العهد اسم « رع » حورس الافق ، كما أن من أسماء الشمس أيضا « شو » . وقد اتخذت هذه الأسماء الثلاثة في تلقيب اله الشمس الجديد ، أما الاسمان الآخران وهما آتوم وخبرع وكلاهما جائز مشروع فقد أغفلهما القوم اغفالا تاما .

ولقد اجتمع لنا تاريخ الانقلاب الديني شيئا فشيئا . الا أن الكثير منه لما يزل غامضا غير محقق . والثابت لنا أن أمنحتب الثالث توفي بعد أن قضى في الحكم نحو ستة وثلاثين عاما ، وأما ابنه أمنحتب الرابع ـ وقد أصبح اسمه فيما بعد أخناتون ـ فالذي عليه العلماء أنه تبوأ العرش في الحادية عشرة من عمره ، وتدل صوره في أوائل عهده على حداثة السن ، بيد



دمامة الملك غير مستورة

من المأثور أن كرومويل ألح على مصوره أن يصوره على حقيقته بما به من ثآليل ، ولذلك نهى اخناتون عن ادخال أقل تحسين على صوره . ويلاحظ أن الحفار في هذا النقش البارز لم يقتصر على اثبات ما كان يتميز به وجه اخناتون من استطالة غير اعتيادية تدل على شذوذه ، بل عمد الى الاسراف والمبالغة .

أنه مع مظهره هذا قد يكون فى واقع الأمر رجلا مكتملا • ولقد امتد بأمه الأجل ، فكانت تعاونه فى الحكم ، ولعلها كان يظاهرها بعض الأوفياء المخلصين من وزراء والده • والظاهر أن مقام أخناتون حتى العام السادس من ملكه كان فى طيبه العريقة التليدة • وقد ظل اسم آمون حينا من الدهر مضافا الى اسمه وهو « آمون — حوتب » أى « آمون راض » ، ولم يزل مسموحا فى نقوش الملك •

ومع ذلك فالجلى الذى لا خفاء به ان الملك الشاب كان قليل الرعاية — أولا رعاية له البتة — لآله الدولة ، وأنه فيما نعلم لم يأت شيئا على الاطلاق يعود بالفائدة أو العظمة على آمون رع • وفى نقش من النقوش الأولى التى يرجع عهدها الى ما قبل بلوغه الخامسة عشرة تلقب الملك بالكاهن الأعظم (« رع » حورس الافق ، المتهلل الوجه فى صفحة السماء . فى جلال اسمه شو ، وهو آتون) • وهنا يقع لنا الاسم الكامل للاله الشمس الجديد الذى اتخذه اخناتون • ومع أنه لم يسبق لفرعون من الفراعنة ان تلقب بلقب كهنوتى فان هذا الملك الشاب انبرى فى خيلاء



السعادة الزوجية على العرش

كان من أثر استخفاف اخناتون بالمواضعات المشددة الملتزمة التى التزمها الفراعنة الأولون أن ظهرت للملأ كثير من الصور البديعة لحياة الملك بين أهل بيته • ومن أمثلة ذلك هذا النقش المنقول عن آثار تل العمارنة ، والمرجح أنه لواحد من زوجى ابنتيه اللذين خلفاه على العرش •



الملكة نفرتيتي

هذا التمثال الجليل الرائع المصنوع من الحجر الجيرى لزوجة اخناتون من صنع المثال تحتمس •

يجهر بهذا التحدى على رؤوس الملا ورجال الدولة وكهنة آمون • وقد صرف همته كلها الى اتمام بنيان معبد أو أكثر من معبد فى طيبه على الصورة التى ابدعها خاصة لاله الشمس متحديا جانبا على الاقل من بناء شيده والده امنحتب الثالث لبعض الآلهة الاخرى فأبدل أخناتون فى الاشكال والاسماء المحفورة على جدرانه •

وكان فى هذا الانصراف الى استحداث آله للدولة فى طيبه ، وفى اظهار الاهمال وما هو أدهى وأنكى من الاهمال لشأن آمون ، مدعاة ولا جرم لقيام النزاع بين الملك والكهنة ذوى السطوة والجبروت • وكان جواب الملك على هذا أن ترك هو ورجال دولته طيبه ، وحول الى آتون الأموال الموقوفة على آمون رع ، واقتطع اسم آمون وصورته حيثما وجدت على الآثار حتى فى طغراء أبيه • وكان اخناتون أقل تحاملا وأخف تكبرا على غير آمون من الآلهة ، ولعل ذلك لأن أمرها لم يكن يستدعى مثل هذه الشدة فى الاجراءات وان كانت جميعها عدا رع قد شملها ولا شك حكم الاعراض والمنع • ويقع هذا الطور الثانى من الانقلاب فى السنة السادسة من ولاية اخناتون حين نقل حاضرة ملكه الى موضع خلاء لم يسبق العهد باستعماله فى تل العمارنة • وخلع على هذه المدينة اسم أخناتون أى « أفق اتون » وأبدل اسمه من امنحتب « آمون راض » الى اخناتون « النافع (أو الخاشع) لآتون » •

وكان من الألقاب التى اتخذها أمنحتب الرابع حين تبوأ العرش صبيا لقب « الحى فى الحق » ، ولقد كانت هذه الكلمة الى حد بعيد شعار حياته كما قال السير فلندرز بترى Sir Flinders Petrie منذ عدة سنين ، فالبساطة والاستقامة ونبذ التقاليد القديمة كانت جميعا قوام العقيدة فى عهده ، الا أنها كانت مقترنة على وجه خاص بمواضعات جديدة وبأبهة ليس بعدها أبهة • ولقد كانت ملامح الملك وتقاطيع جسمه السقيمة

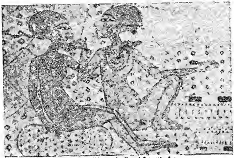
المشوهة ممثلة فى صوره الأولى دون مداراة لها وتستر عليها ، بل يحتمل أن يكون فيها مبالغة فى التشويه . ولقد أصبح ذلك مثال الأساليب المرعية فى الفن وعند خاصة الملك وأهل الدولة، معارضة من اخناتون «للملاحة» المتشابهة المكررة فى العهد السابق . ومن ثمة نحا الفن طوال عهده هذا النحو الذى لا يروق النظر ولا يتفق مع الطبيعة فى تصوير أشكال بنى الانسان ، وان كان قد أبيح فيما بعد ادخال بعض التحسين على رسم تقاطيع الأجسام . واخناتون فى هذا طراز وحده ، فلشد ما كانت عناية أسلافه الفراعنة الأولين فى ستر مثل هذه العيوب الجسدية ، وفوق هذا فان حياة الملك بين أهل بيته كانت تمثل على نحو من التبسط والحرية التامة — فثمة الملك والملكة متعانقان عناق الصبابة والحب ، وثمة الملكة جالسة فى حجر الملك ، أو الملك متبوأ مقعدا والملكة على وسادة أمامه وبناتهما على حسب أعمارهن متسلقات الى حجره أو واقفات أو قاعدات الى جانب الملكين . ولا شك فى أن تخليد مثل هذه المشاهد البيتية من حياة فرعون الشخصية فى التماثيل والتصاوير بدعة لم تكن لتسنح فى العهود الأولى فى بال ، أو ترد على خاطر .



أميرتان فى بيتهما وادعتا النفس خاليتا البال

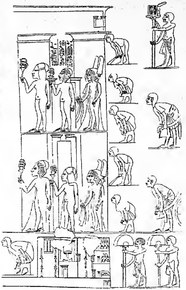
فى صورة هذا العهد مبالغة فى طول الرؤوس وهى الخاصة التى تبينها فى اخناتون فنانوه المتصلون به فعمموها اكراما له على جميع رعاياه ، بيد أننا مع هذا نرى حيوية عظيمة ومعانى لطيفة فى هذه الصورة الجيرية المرسومة على احدى حيطان الآثار وهى تمثل أميرتين من الأميرات جالستين عند أقدام والديهما الملكين .

ثم ان ملة اخناتون الدينية كانت تقريرا للحقائق الظاهرة البديهية أو التى كانت تبدو بديهية ، مقترنة بالنزر القليل من المعنويات مع خلوها من الروح التصوفية ومن الأساطير الأولى . وكانت لغة الكثير من نقوشه هى اللغة الجارية المتداولة على الألسن فى عهده ، وهى تختلف أشد الاختلاف عن العبارة الرسمية العتيقة فى نقوش العهود السابقة . وهذه اللغة « العامية » كانت مستعملة فى الكتابة منذ أجيال قبله لتدوين السائع فى ملاعب الصبية والحانات من حكايات على أوراق البردى كما كانت مستعملة فى المشاهد المرسومة على جدران المقابر عند تدوين ما يجرى على لسان الفلاحين من صياح وهذر الى جانب صورهم ، ومع أنه من الجائز أن أمنحتب الرابع كان عند ولايته الحكم رجلا بالغا



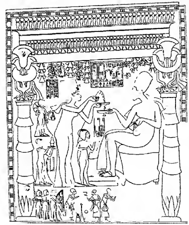
الحياة الخاصة فى القصر الملكى

يظهر كذلك استخفاف اخناتون بالسنن السابقة المقررة فى هذه القطعة من نصب المذبح فى قصره الملكى ، ويرى القارىء فيها اخناتون وزوجته وبناته الكبريات الثلاث يستمتعون استمتاع عامة الشعب تحت أشعة اله الشمس



أشده، فان الذى يبدو لنا نحن أنه كان فتى باكر النماء لا يعدو الحادية عشرة . وأنه خرج من مقاصير الحريم مباشرة ليحكم العالم المعروف وقتئذ ورأسه لا يزال عامرا بقصص الاطفال ، وقد أعرض عن جفاف التقاليد وخمود جذوتها ، وانبرى يفسر الكون كما يراه على الوجه الذى تلقنه عن أمه ومربيه . فالشمس هى صفر فى حقيقة الواقع « رع ، حورس الأفق » وكانت تدعى فى الغالب الأعم « شو » و « آتون » وكان اخناتون عليما بأن الشمس معبودة منذ أمد طويل فى بيت رع فى مدينة عين شمس ، وأن العجل الأسود من مظاهرها الطريفة الهيئة البديعة المثال ، ولكنه تجاهل من الأسماء الدينية التقليدية التى كان يطلق عليها عن شمس اسمى نوم وخيرع ، كما تجاهل المدلول الأسطورى والدينى لحورس وشو بن رع وشقيق الربة تفنوت Tefnut .

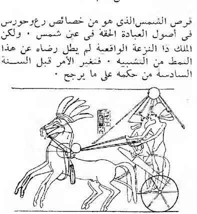
وكانت أسماء الاله الجديد فى السنوات الأولى لعهد أمنحتب الرابع فى طيبة تكتب فى داخل طغراء ملكية (خلافا لما كان متبعا قبله) وكانت الطغراوات فى هذه الحالة عظيمة الحجم كما يجب لمقام رب العالمين، فى حين كانت طغراوات فرعون وهو ولده وخليفته على الأرض أصغر حجما . وكان (رع ، حورس الأفق المتلألئ بشرا فى الفضاء فى اسمه شو وهو آتون) يمثل وقتئذ على هيئة الانسان ، له رأس الصقر ، يعلوها



دروس فى الاخلاص العائلى

يرى القارىء هنا اخناتون فى جوسق متكئا ، وكبرى بناته عند ركبته ، وزوجته تقدم له خمرا ، وبنته الأخريين تقومان بين يديه بالأزهار والأدهان . ويرى القارىء (على اليمين) الأميرات الأربع يجلجلن بالصنوج فى المعبد .

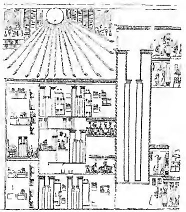
قرص الشمس الذى هو من خصائص رع وحورس فى أصول العبادة الحقة فى عين شمس . ولكن الملك ذا النزعة الواقعية لم يطل رضاه عن هذا النمط من التشبيه . فغير الأمر قبل السنة السادسة من حكمه على ما يرجح .



حمية وقوة

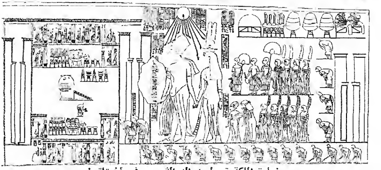
يرى القارىء فى هذه الصورة الحجرية الحية المنقوشة على جدار بعض الآثار بعد اصلاحها وترميمها اخناتون وهو يسوق عجلته ومعه الملكة نفرتيتى وهى تحدثه فى حماسة وعاطفة ومعهما ابنتهما الصغيرة لا تتجاوز رأسها حافة العجلة الا قليلا وعلى محياها امارات الاهتمام الشديد

وأصبح آتون من ذلك الحين ممثلا على الدوام في صورة قرص الشمس تحت قبة السماء، وتتدلى من حافة القرص أفعى كبرا Cobra ، وهي شارة للملكية كانت دائما رمزا لما للشمس وما للملك من القوى المهلكة ، ولكنها اقترنت لذلك العهد برمز الحيـاة البهيج • ومن ذلك القرص تنبثق أشعة عراض كالأذرع ، تنتهي بأكف آدمية هابطة من السماء الى الأرض تحتضن الملك ، وتضع رمز الحيـاة الى خياشيمه ، وتتقبل القـرابين المقدمة على المذبح • ثم انه لم يبق من الاسماء الالهية التي كانت مقترنة من قديم باسم الاله رع الا اسم واحد • وقد هيأ الملك في تخطيط مدينة اخناتون في السـنة السادسة من حكمه مدفنا لعجل منيفس Mnevis .



وفي حوالى السنة العاشرة من حكم اخناتون جرى تطهير جديد في مذهب آتون ، وقد لحق التطهير في هذه المرة بأسماء آتون لا بصورته • وذلك أن الملك الشاب كان قد أجاز وجود اسم حورس الأفق وشـو وغيرهما من أسماء الشمس المألوفة وقتئذ ، ولكنه حين تقدمت به السن نقم على ما تعنيه هذه الاسماء من معاني الشرك فحق عليهـا الذهاب • وأصبحت أسماء آتون بعد المراجعـة والتنقيح « البقـاء لرع ، سيد السموات متهلل الوجه على الأفق ، في اسمه رع ، الأب الذي انقلب الينا في صورة آتون » وهكذا تطهـر الدين من آخر شائبة • وذهب كل ما هو محلي وتقليدي وأصبح مذهب آتون عبادة للشمس خالصة جديرة بأن تكون دينـا للعالمين •

أما معلوماتنـا عن معـابد آتون ، وما كان يجري فيها من أوضاع العبادات ، فقليلة نادرة • وذلك أن جميع ما شـيد وزخرف من المعـابد لآتون في طيبة سواء في أوائل العهد بعبادة آتون أو في أواخره ـ قد هدم ـ فيما أعقب وفاته من ثورة وانتقاض على الدين الجديد ، واتخذ حطامها ليكون في باطن بناء المداخل والأسس في العمائر التي شيدت في عهد حور محب وسيتي الأول ورمسيس الثـاني • ويقـال ان مائة وسبعين ألفـا من كل هـذه الحجارة الضخام قد غيبوها في أسس قاعة العمد وحدها التي في الكرنك • ويستخرج المنقبون بعض هذه الحجارة من حين الى حين، على الرغم مما يقتضيه استخراجها من المشاق . وعليها الرسوم المجسمة والكتابات المنقوشة سليمة باقية •



زيارة الملكة تي لمعبد اله الشمس في أخيتاتون

يرى القارىء في الجزء الاسفل من هذه الصورة اخناتون آخذا بيد الملكة الوالدة « تي » في محبة وحنان . وتتبعه أخته الصغرى بكتاتون . ومن ورائهم موكب الاتباع والحشم • وفي الوسط من صحن المعبد الذي دخلوه مذبح يؤدي اليه درج •

ويرى القارىء في جزئها الأعلى المحراب أو « ظل الشمس » الذي يسيرون بالملكة الوالدة اليه • ويبدو في كلا الجزأين آتون مشرقا على البنيان المقدس ومشرقا على الملك والملكة الوالدة •

وقد دمرت هياكل مدينة تل العمارنة (اخناتون) تدميرا . الا أن الصورة المشعة التي صوروا عليها آتون ، والخطط الهندسية للمعبد المبينة في نقوش المقابر لا تترك شكا في أن معابد آتون كانت مختلفة كل الاختلاف عن هياكل الآلهة المصرية القديمة ، تلك الهياكل المظلمة الرهيبة المحوطة بالغموض . فقد كانت أهم الأجزاء في معابد آتون هي الأروقة المكشوفة تزدان بالعمد والتماثيل والنصب ويعكس فيها ضياء الشمس على المحاريب وعلى العابدين المصلين ، وحولها سقائف وأشجار وارفة بين ظلها الظليل ووهج الشمس الساطع في بهرة المكان ألطف تباين وأجمل مقابلة . وكانت قرابين آتون من الماشية والاوز والكعك والخضر كما هي الحال في المعابد الأصلية . وكانت ثمة المجامر المصنوعة البخور على المذابح ، وكانت الأزهار والرياحين كثيرة موفورة ، ويقترن بهذا كله نغم الموسيقى وأصوات التراتيل .

ويصح لنا القول — اعتمادا على الأناشيد الموجودة في المقابر — ان أهم الصلوات والمراسم الدينية كانت تقام في مطلع الشمس ومغربها .



التاريخ محفور على أنصاب الحجر القائمة على الحدود

هذا نصب من الأنصاب التي أمر اخناتون في الصخر لتكون معالم على حدود قاعدة ملكه الجديدة أخيتاتون . وهذا العمود من الحجر الجيري الصلد ، وسعته سبعون بوصة وارتفاعه مائة . ويرى القارىء الملك والملكة «يرفعان اسم آتون» .



نذر تقدم من أجل الأسرة المالكة

يرى القارىء الى شمال هذه الصورة طغراء اله الشمس تسندها الأميرتان ويرى طغراءه الى اليمين تسندها الملكة نفسها ويقدم الملك والملكة هذين التمثالين رمزا على اخلاص البيت الملكي كله لآتون .

وكان من أهم اركانها الدعاء للملك والملكة وأهل البيت الملكي بطول البقاء وفسحة العمر . وكان في كل دار كبيرة هيكل خاص في ساحتها ، وفي كل منزل لوحة صغيرة غير مهذبة الشكل أحيانا ، عليها صورة الملك والملكة من تحت آتون . وكان الملكان حقيقين بالعبادة مثل الاله الأعلى آتون، وكان الناس يتوجهون اليهما بالدعاء حتى في نقوش المقابر ابتغاء السعادة في الآخرة .

وهناك تسبيحة بحمد آتون موجودة في مقابر عدة ، والظاهر أنها من نظم الملك نفسه وقد جاء فيها :

(انت أفضت على القطرين حبك وبرك ، يا صاحب الأمر ، يا كريم ، يا موجود بنفسك ، يا فاطر كل أرض وما عليها بشرا وأنعاما وسائمة وجميع ما ينمو على وجهها من أنواع الشجر . هؤلاء كافة يحيون حين تشرق عليهم . فأنت لمن ذرأتهم الأب والأم ...

واذا أنت غربت في الأفق الغربي من السماء انطرحوا أرضا ، وأسلموا جنوبهم الى مراقدهم كالموتى الهامدين رؤوسهم ملفوفة وخياشيمهم خافتة الأنفاس مسدودة ، حتى تبزغ في اليوم التالي من المشرق فيرتفع أكفهم اليك يسبحون لوجهك . ان كل قطر في عيد حين ترسل أشعتك ، فالمنشدون والعازفون يرفعون العقائر

ويرسـلون الأنغام طربا فى سـاحة بيت بنبن Benbea (حجر على هيئة المسلة لشروق الشمس) وفى كل معبد فى أخيناتون هـذا المكان الزكى الذى رضيت عنـه والذى يقربون اليك فيـه كل طيب وسمين) .

وجاء فيها أيضا :

(بالنظر اليك يحيـا بنو الانسان عامة . ويجمع القطـر كله عنـد شروقك ، وأيديهم مرفوعة اليك تحيى بزوغك) .

ومنها :

(بنو الانسـان أجمعون ، والماشية ، وكل ما طار وخفق بجناحيه ، وكل ما دب على وجه الأرض من أنواع الزواحف، هؤلاء جميعا يبعثون الى الحياة حين يبصرونك، ويرقدون حين تغيب) .

وهناك تسبيحة أخرى رائعة الجمال ، والراجح أنها من نظم آى (وهو بعينه الذى خلف توت عنخ آمون على العرش بعد اندثار عبادة آتون) . وهذه التسبيحة تستغرق عدة صفحات لو شئنا ايرادها كاملة هنا . وهى تتغنى بعظمته، وتقابل بين الليل يغشى الأرض حين غيبته وبين النهار يعم ضياؤه عند مطلعه ، كما أنها تلهج بذكر بدائع خلقه وقدرته المبدعة .

(أنت الذى تنفخ فى الفـرخ وهو مضغة فى بيضته فتهبه الحياة ، أنت الذى تتم خلقته فينقف البيضة وهو فى باطنها . فاذا خرج عنها جعل يصيء بقوة تامة ، وهو يجرى على قدميه ساعة يخرج . أنت خلقت الأرض ، خلقتها وحدك لا شريك لك ، كما شئت وعلى ما أردت . الأرض بمـا فيهـا من بشر وأنعام وسائمة وكل ما دب فوق ظهرها على قدمين وطار فى جوها بجناحين ، وجميع الأقطار من الشام وكوش وربوع مصر « سبحانك » أحللت كل انسـان فى موضعه وقضيت له حاجته . كفلت له رزقه وجعلت لكل أجل كتابا . وقد اختلفت ألسنتهم كما اختلفت صورهم وألوانهم لأنك سـبحانك جعلتهم أمما مختلفة .)

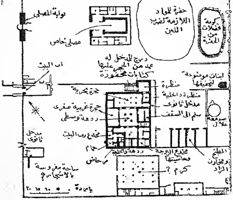
وآتون هو الذى أودع منابع النيل جوف العالم السفلى (من عيون فى باطن الأرض) برا منه بمصر . كما أودع نيلا فى السموات العلى ليجود البلاد الأخرى (بالمطر) وهو الذى رفع سـمـاك السموات حتى يعرج اليها ليشرف على خليقته جميعا . ثم ان جميع ما أبدعه آتون منذ وضع أسس الأرض وأقام أركانهـا قد وهبـه ابنه اخناتون والملكة نفرتيتى .

ومن الأمور التى لها ولا شك دلالتها تقديم ذكر سوريا وكوش على مصر باعتبارهما جميعا سواء . فليس المقام مقام وطنية هنا . وما مصر الا جزء من الدنيا ، واخناتون وزوجه من حقهما التشخصى أن يهيمنا على العالم بأسره وقد اصطفاهما لذلك اله الشمس .

ونشتمل تسابيح القوم وأدعيتهم لآتون على فقرات كالفقرة الآتية :

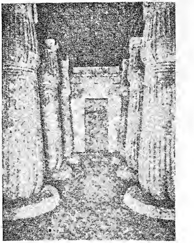
(الأقواس التسع (الأقاليم الأجنبية) ماثلة فى حضرة جلالته (اخناتون) ، وأقيالها جميعا تحت نعله وفلكك كله يا آتون تحت عينه ... أفض عليه مما يرتضيه قلبك وفيرا جما كرمال الـكثبان وحراشف السمك فى النهـر ووبر الأنعام . أقمه هنا حتى يسود عصفور الأرز ويبيض الغراب وتنهض الآكام ويغير مجراه . وانى لقـائم على خدمة الاله الأعظم حتى يأمر فأدفن الدفنة التى يرتضيها لى من عنده) .

ويتكرر فى سـياق من اللفظ غريب معنى انطراح الأجانب تحت قدمى الملك « حتى يجرى



رسم بيت لموظف بأحد المعابد

بناحبسى « رأس العاملين فى خدمة آتون فى أخيناتون » — ويرجح أنه كان المدير لأملاك المعبد ، والظـاهر أنه كان رجلا عصاميا لا نسب له. الا أن بيته بما فيه من الساحات البديعة والمصلى الخاص يعد من أبهى ما فى المدينة . ولعل فى هذا دلالة على أن اخناتون كان يصطنع المؤيدين بالعطايا الجزيلة .



مقبرة احتفظت على مدى الدهور بتسبيحة لآتون

هذه المقبرة التى لم يدفن بها أحد هى مقبرة آى Ay صاحب الخيل عند احناتون وقد اشتهر أمرها لاحتوائها على النص الوحيد للتسبيحة الرائعة التى تجلو لنا الشىء الكثير من مذهب آتون بوصفه نظاما دينيا • ويلاحظ القارىء فى هذه الصورة الأعمدة القصيرة الضخمة القبيحة المنظر •

البحر على قدمين وحتى تنهض الآكام وتتحرك مصعدة فى النهر » •

(الخلق كلهم يسعون اليك ، الشام وكوش وسائر الأقطار ، وأيديهم مرفوعة اليك بالتعظيم والتكبير ، يلتمسون الحياة ضارعين ، ويرفعون عقائرهم داعين « هبنا نسمة الحياة » • وقد انسدت خياشيمهم من خشيتك • وان قضاءك الجبار لينزل بهم مثل ضرب العصا ، وصوتك المرعد يوهن كيانهم كما تأكل النار الحطب • وأشعة آتون مشرفة عليك أبد الدهر • وهذه آثارك خالدة كالسماء وأنت المتجلى بينها على مدى الزمن • وما بقى آتون فأنت باق ، حى ، موفق الى أبد الآبدين •

ذراعك القوية تحمى حوزة القطرين وشجاعتك تكفل للناس البقاء) •

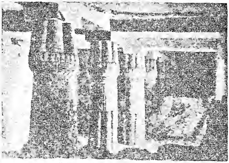
ولا شك فى أن الغرباء كانوا اذا دخلوا القصر راعتهم عظمته وبذخه وخشوع جميع من فى المجلس • الا أن تسابيحهم وأناشيدهم تتعارض معارضة محزنة مع ما جره تقاعد اخناتون وتفريطه فى تدبير الملك •

وقد جاء فى كلمة موجهة الى الملك « يا مقدر الاقدار » وخالق النشء ومولى الدهن ، ورازق الكهولة ، ومسبب الآجال) ــ وورد فى كلام آخر من بعض رجال القصر : (أنت حياتى ، وفى التطلع اليك عافيتى . يا ألف ألف نيل !) • وكان معظم موظفى القصر من النكرات ، وهم رجال محدثون لا تشوبهم شائبة الديانة القديمة ولا يجدون كراهة لمذهب الملك ويقبلونه عن طيب نفس •

(لك الحمد يا مولاى . يا من أقمت كيانى ، وأفضلت على ، وأدخلتنى فى زمرة المقربين اليك ، وجعلتنى ملحوظا من كل عين ، وصدرتنى بعد تخلف ، ومكنت لى بعد خمول) •

هذا مقال بناحيسى « رأس العاملين فى خدمة آتون فى أخيتاتون » • وتعد دار بناحيسى ومقبرته من أعظم وأفخم ما بنى فى تل العمارنه •

ويخاطب الملك فى كتابة أخرى بالعبارة الآتية (أيها النبيل الذى يفيد الناس الثراء والوفر بأمره ، أيها الحاكم البار الذى أقام كيانى ، وأوجدنى ونشأنى ، وأدخلنى فى زمرة الأمراء ، يا نور الذى أحيا برؤياه والمتطلع الى محياه !) •



نموذج من العمارة الصخرية

قلما توجد أمثلة من العمارة الصخرية فى مصر أقر للعين وأوقع فى النفس من هذا الضريح الناصع البياض البديع المتناسب الذى بنى لوال من ولاة اخناتون كان بفضل منصبه هذا على رأس كبراء الدولة • والضريح منقور فى جنادل من الحجر الجيرى على هيئة نصف الدائرة حول سهل تل العمارنه •

ولقد خلت مدونات رجال الدولة الحديثين من ذكر أنسابهم ، ولعلها كانت القاعدة المرعية وقتئذ . الا أن الزوجة والأولاد كان يندر أن يرد لهم ذكر في مقبرة من مقابر أخيتاتون . ويصعب علينا أن نتصور أن كبار رجال الدولة كلهم من الخصيان لا زوجة لهم ولا ولد . فلا ريب أن اخناتون قد سن سنة جديدة تقضى بأنه فيما عدا الأسرة المالكة يكون النسان للفرد ذاته . لكن والدى الملك وهما أبوه أمنحتب الثالث (وفى اسمه نبمارا Nabmara الذى لا يتعارض مع الدين الجديد وهو الذى كان يتسمى به على العرش) وامه تى . بل وحده تحتمس الرابع كانوا يحظون جميعا بضرب من العبادة .

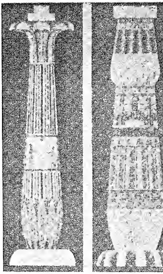
ولم يحدث مذهب آتون جديدا فيما يتعلق بالدفن والبعث وهما موضوع عظيم الشأن جليل القدر فى نظر المصريين الأقدمين . فقد ارتضى الدين الجديد معظم المراسم المتبعة لذلك العهد فى دفن الموتى ــ كالتحنيط ، والتابوت يجره البقر وأمامه المحنط وكاهن يقرأ الصلوات . وتقريب القرابين فى مذبح المعبد على روح الميت والطعام والعطايا التى يتعين على « أبناء البيت » الاستمرار فى تقديمها فترة طويلة بعد الدفن .

كذلك تقبل مذهب آتون الأفكار المتداولة عن الدار السفلى والحياة الآجلة . وذلك بعد تطهرها من الأساطير ومن سائر الآلهة الا اله الشمس . وتدعو الملة الجديدة للميت ان يظل اسمه مذكورا وأن تبقى جثته المحنطة مصونة محفوظة وأن تمضى الروح فى أطوارها ويبعث الجسد ويجتاز الميت بسلام أبواب الدار السفلى .



الأرض التى تطؤها أقدام فرعون

أنشأ اخناتون الى الجنوب من عاصمة ملكه الجديدة متنزها سماه مارو آتون أى رحبة آتون . ومن آيات هذه المنتزه ساحة البرك وجدرانها وأرضها منقوشة بأجمل الرسوم .

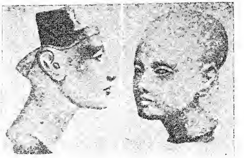


عمد من حديقة ملك

كان يزين ساحة المدخل الى حدائق اخناتون فى خارج عاصمته ستة وثلاثون عمودا ــ ويرى القارىء فى الصورة واحدا منها على اليسار . وكانت العمد القائمة فى حديقة المعبد (على اليمين) أكثر زخرفا من الأولى مع ما بهذه من زخرفة .

(اجعلنى أقر فى مقام الابد . وأبلغنى كهف البقاء . ووفقنى الى مفارقة مسكنى ودخول مثواى دون أن تعتاق نفسى شهواتها . وهبنى أن أسير ما طاب لى السير فى خمائلى التى أنبتها فى الارض وأن أرشف الماء من حافة غديرى كل يوم على الدوام) .

واننا لنجد حتى فى قبر اواوا Iuaa الذى يرجع عهده الى العام الثانى عشر من حكم اخناتون حين بلغت ملة آتون غاية استقلالها أن الدعاء كان للميت ليطعم ويشرب مما كان فى حوزته وليتلى على روحه صلوات آتون . ثم اننا لا نزال نجد القوم فى ذلك العهد يجرون على العادة العجيبة القاسية التى تقضى بأن يقدموا لجثة الميت كتفا ينتزعونها لساعتها من عجل حى وأمه المنكوبة الى جانبه . الا أنه على الرغم



نفرتيتي واحدى بناتها السبع

كان من أخص صفات اخناتون محبته الخاصة لزوجته وأولاده . وهذا التمثال النصفي من الحجر الرملي الأسمر للملكة نفرتيتي (على اليسار) وهذه الرأس الصغيرة الفاتنة لاحدى بناته السبع هما صورتان من صور عدة ما زالت موجودة لهذه العائلة الملكية التي كانت تربطها من أواصر المحبة ووشائج الرحم أوثقها وأوكدها . وكلاهما من تل العمارنة

من رغبة المتوفى في شهود الشمس في شروقها وغروبها فانه لم يرد في موضع من المواضع ذكر للفكرة القديمة التي تشير الى أن النفس قد تكون لها قوة روحانية في السماء فتلحق بركب الشمس .

وفي مقبرتين من المقابر العظمى اشارة صريحة بنسبة ملة آتون الى تعاليم اخناتون .

واذا كانت الشمس من أجدر الأشياء في السموات بالعبادة . فلأنها — على قدر ما وعته ذاكرة الانسان — لا يعتورها التغير في فلكها الرحيب، وهي مشهورة في جميع الأقطار التي كان للمصريين علم بها ، وهي تصرف الليل والنهار وتقلب الصيف والشتاء ، بنورها تستيقظ الخليقة وبدفئها يكون النماء فالشمس هي الاله المنظور ، وأكبر ظننا أن الملك الشاب وقد تأمل مطالع الحياة البهيجة على الخصوص قد انطلق فيض شعوره في تسبيحة صادرة عن مجامع قلبه بالحمد للشمس وتمجيدها . وهذه فيما نخال كانت دعوته وهي دعوة تتجاهل كل التجاهل جميع مطالب الحياة الانسانية التي تعدو هذه النظرة الصبيانية البسيطة .

ولما أن قضت كبرى بناته نحبها . كان رجاؤه ودعاؤه أن يشرق عليها آتون وأن يهبها السعادة . وأكبر الظن أنه اتبع ما جرى عليه السلف في أخص خصائصه . وذلك أن ملة آتون خلو في حقيقة الواقع من نظرية تواجه بها معالم الموت . ولا ريب في أن رعايا اخناتون كانوا كثيرا ما يرتدون بأفكارهم في مثل هذا المصاب الى الآلهة القديمة

اوزيريس وأيزيس ونفتيس وحورس وأنوبيس يلتمسون السلوة والعزاء .

وان الملكة نفرتيتي نفسها — وحبها لزوجها ظاهر بأجلى بيان في آثار الفن قد أحست ولا ريب أعمق الاحساس بأن شيئا ينقص تعاليمه ويجعل سعادتها بها غير كاملة . ولنا أن نتمثلها في ابان برد فبراير ورياحه القارسة تحن الى جو أبهج من جو اخناتون .

ومن المحقق انها ارتدت خلسة عن الدين الجديد بعد أن رسمت السنون على ملامحها الجميلة غضون الألم الذي طال بها . وقد يكون هذا الارتداد الى أشياع الدين القديم في طيبة بعد وفاة اخناتون .

ثم أزيل اسمها الذي كان قد نقشه زوجها من فرط حبه لها في داخل قصور أخناتون وحولها على أبواب الأبهاء والحجرات ونقروا موضعه اسم كبرى بناته ولية العهد الأميرة مرتاتون Mertaton وقد طمسوا اسم نفرتيتي أيضا من نصب في القصر ، وكان هذا الاسم قد ورد في سياق بيان لنسب



هل تزوج اخناتون بأخته

لم يصبح زواج الأخ بأخته بين الملوك سنة متبعة الى أن كان عهد البطالسة ، الا انه كان معروفا قبل ذلك . ومن شأن المقارنة بين هذه الصورة النصفية لاخناتون وصورة نفرتيتي المشهورة قبل هذه الصورة مباشرة أن تقيم الدليل على أن بين الزوجين الملكيين أوثق صلات الرحم وأوكد القربى . ويرى القارىء على اليمين قناع وجه اخناتون في موته .

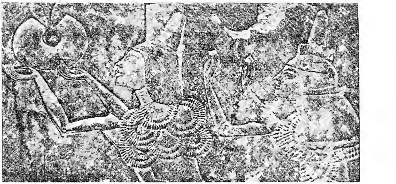
انخسباتون Ankhesenpaton ابنتها الأخرى التى عاشت بعدها • والمرجح أن هذا وقع فى العهد الأخير لمدينة أخيتاتون ، وذلك أن هذا المحو لاسم الملكة لم يمتد الى المقابر والأعمدة الخارجية فى الصخور ولا الى قبر الابنة النانبة « مريرة » وهو القبر الذى لم يتم حتى تولت مرناتون الملك •



آية من آيات الزخرفة على الجدران

تعد هذه الجماعة المنقوشه على قبر مريرة Merira أبدع قطعة فنية فى مدافن تل العمارنه من ناحية العرض الواقعى • وهى تمثل من المرتلين العميان فى يد أحدهم كنارة يعزف عليها على حين يصفق الآخرون على الايقاع وينشدون وهم على الأرض جلوس •

وكان التمرد على ديانة آتون والملك الداعى اليها قد شاع وقتئذ فى جميع أنحاء مصر • وفى الحق أن ديانة آتون كانت ضعيفة السلطان فى خارج حدود أخيتاتون ، وقد عانت أخيتاتون ذاتها قلاقل داخلية واعتداء مكررا على تماثيل آتون والملك وصورهما ، ولقد توفى اخناتون فى العام السابع عشر من حكمه وخلفه فيما يظهر أقصر الفراعنة حكما ونعنى به سمنخرع Smenkhara (ساكيرى Sakere زوج ابنته مرناتون الآنف ذكرها • ثم جاء بعده توت عنخ آتون الذى تزوج من أنخسنباتون ، ولم يلبث الزوجان أن استبدلا اسميها بتوت عنخ آمون وأنخسنامون ، ولحقا بالملكة الوالدة نفرتيتى فى طيبة • وانتهت بهذا بدعة التوحيد وعادت الى مصر ديانتها القديمة وجموع آلهتها الكبيرة ، وآن أوان الانتقام • فأزالوا أسماء وصور آتون واخناتون وأسرته من الآثار ، وعروا مبانيهم الفاخرة وعطلوها وأحالوها الى محاجر • وكان توت عنخ آمون وخليفته الشيخ آى يكنان بعض الاحترام لذكرى الراحل المبتدع ، فلما أن تبوأ الملك حورمحب عفى على كل ذكر للراحل وسلالته ، فاذا اقتضى الحال ذكر اخناتون فكم يكن يلفظ اسمه وانما يشار اليه اشارة الحفيظة والاحتقار بقولهم « مجرم أخيتاتون » •



فرعون يغدق نعمه الملكية على خلف له .

كان اخناتون فى صدر حياته متأثرا الى حد كبير بما توحيه اليه مربيته ولعل زواج آى بها هو الذى أدى به الى تبوأ مناصب عدة في الدوله ومنها منصب صاحب الفرس ومنصب حامل المروحه على ميمنة فرعون • ولقد تلقى آى وزوجته الكثير من الهبات ودلائل الحظوة والتكريم من الملك، ويرى القارىء فى هذا النقش المنقول عن مقبرة آى صورة لاحدى هذه المناسبات • وكان من نصيب آى الشيخ أن خلف توت عنخ آمون على العرش بعد وفاته •

ولقد دمروا معابد القبر القريبة من قرية العمال فى تل العمارنة تدميرا تاما ولم يبقوا الا بعض لوحات مهداة الى سد Sed وايزيس الالهين الحافظين من لذع الحياة والى آمو العدو الأكبر • وأكبر الظن أنها كانت من آثار المراحل الأخيرة من عهد البدعه • ويتبين من آثار المدينه نفسها أن تورتTaurt ، ولية الولادة « وبس Bes » اله المهزلة كانا من أكثر الأشكال شيوعا للأقراط والقلائد • ومن الجائز أن هذه الأشياء يرجع عهدها الى المرحلة الأخيرة نفسها . الا أنه لا يبعد أن النساء كن، وديانه آتون فى أوجها ــ يؤثرن من عهد الشرك هدين الالهين المحبوبين فى خدور النساء ومخادع الأطفال •

ويعترض البعض بأن ديانه اخناتون لم تكن التوحيد بل التغليب Henotheism • وأهل التغليب ــ على حد التعريف المتداول ــ يعبدون الهـا واحدا من عدة آلهه يجوز لهم الايمان بوجودها ، فى حين يعتقد أهل التوحيد أن الههم هو الواحد الأحد الذى لا اله غيره فى العالمين • وقد اصطنع اخناتون بالفعل لفظ « الله الواحد الأحد » ، أو « الله الذى لا اله غيره » الا أن هذا هو ما كان يفعله كل مصرى من أهل الشرك فى توجهــه بالدعاء الى الهه الخــاص المفضل وهو يريد بذلك أنه لا مثيل له • فهذا اللفظ كما رأينا لا يصح اتخاذه فى ذاته دليلا على أن ملةاخناتون هى التوحيد كما أنالديباجة المكررة على الدوام فى الدعاء لآتون والتسابيح له المحفوظة فى المقابر ليست صريحة فى هذا الشأن • ويلوح أن اخناتون نفسه وزوجته

هل كان اخنــاتون موحدا

قد أقاما نفسـهما مقام الأرباب المتوسـطة بـين آتون والشـعب وأنهما كانا موضعا لعبادته • ولكن المحقق أنهما كانا فى مسـتوى غير مسـتوى آتون وأنهما كانا فى ذاتهما من البشر ، كما أننا حين نرى تعاليم اخناتونتتجاهل سائر الالهه الأخرىوأساطيرها وأن صيغة الجمع « للآلهه » لا ذكر لها فى نقوشه على الآثار ، وأنه كان أحيانا يمحوها من الآثار الأولى ، يتضح لنا أن لفظ التوحيد هو خير ما يوصف به دينه •

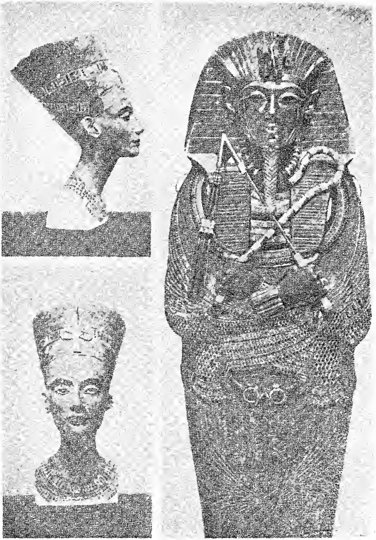
ولابد هنا من كلمة نسـوقها فى موضوع هذا الدين متسائلين هل اندثرت ملة اخناتون فى التوحيد والتعميم ولم يبق لها وجود ، أو أنها خلفت بذورا أخرجت شطأها فى بلاد أخرى ، فأما فى مصر فان التوحيد والتعميم كانا على ما يظهر غرسا غير مثمر من نزعات العصر كما تتمثل فى التســـابيح الأولى لاله الشمس • وعلى الرغم من أن هــذه النزعات ما برحت تظهر لها بعض الآثار فاننا لا نجد فى العقائد أو المراسم المتأخرة ما يصح نسبته الى اصلاح اخناتون الدينى • ولا شك فى أن المعابد كانت قد أقيمت لآتون فى جميع البلدان الخاضعه للدوله المصريه • الا أن الأثر الذى تركه دين آتون من شأنه أن يكون أثرا بغيضا لما اقترن به من الفشل السياسى خارج مصر ومن الانهيار الباكر فى داخلها •

واليهوديه أقرب أديان التوحيد المعروفة عهدا الى دين اخناتون• الا أنه يرجح أن الأنبياء اليهود دعوا الى التوحيد أول ما دعوا فى القرن الثامن قبل الميلاد أى بعد سقوط مله آتون بقرون سته • وعدا ذلك فان الملتين شديدتا الاختلاف فى معناهما وفى ملابساتهما • فاله اخناتون

ديانة آتون والديانة اليهودية : والفـوارق بينهما

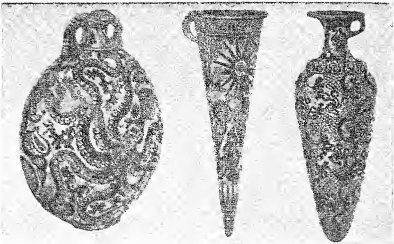
هو الشمس الطـاهرة السبح فى الكون قاطبه، وقد اتخذها فرعون مصر فى الوقت الذى كان أهل المعمورة يدينون بسلطانه • أما يهوه فكان الاله الخامل الضعيف السطوة لمملكه صغيرة قائمة بين دول عظيمه الشوكه ولا يمكن أن يتصـور يهوه على أنه رب العالمين الا شعب قوى الخيال شديد الايمان •

ويلاحظ أن الصورة التى يمثلون بهـا الله شبيها بالبشر فى كتاب العهد القديم ــ وان لم يتخذوا له صنما ــ هى صـورة مخـالفه لاله الشمس الذى تمثله اخناتون • ولقد كان يهوه رب اليهود ملوكا وشـعبا من جميع الوجوه ، وذلك أن نظـرتهم كانت مقصـورة على الحيـاة الدنيـا ، ولم يكن لهم مـذهب فى الحياه بعـد الموت • ففى هذه الأرض كان يهوه يثيب عـلى الفضـيله ويعـاقب على الكفر والرذيـله وكان جزاؤه يقع على الشخص وعلى ذريته الى رابع جيل • وكان يهوه راعى شعبه المختار يؤثرهم بعطفه ويؤدبهم ، ويقودهم الى النصر والغلبـة على الامم الكافرة أو يجـزيهم على عصـيانهم بالعذاب والنكال على يد الأشوريين أو البابليين وقـد يكون وجـود الافعى المقدسـة (الكبرا) مقرونه بعلامه الحياه فى صورة آتون منطويا على شىء أشبه بهذا المذهب ، الا أنه ــ على فرض صـحه هذا الـرأى ــ فان الدين المصرى كان بخلاف الحال فى اليهودية أبعد ما يكون عن الاطنـاب فى هـذا الجـانب غـير السار من ملة آتون •



صورة لبعض المتصلين باخناتون : زوجته وزوج ابنته

هذه الرأس الملونة المنحوتة من الحجر الجيرى (على اليسار) تمثل نفرتيتى زوجة اخناتون فرعون مصر الخارج على ملة قومه تعد آية الدهر وقد كشف عنها المنقبون فى مرسم المثال تحتمس فى مدينة أخيتاتون · ويصح لنا أن نتمثل الفنان وقد احتفظ بها هنا احتفاظه بأعز ذخائره بوصفها مثالا لاحكام الصنعة والكمال . أو لعله كره تحطيمها بعد سقوط صاحبتها لارتدادها مع من ارتد عن دين زوجها وطمس آثارها · ويرى القارىء على اليمين التابوت الفاخر المصنوع على صورة الانسان الذى أودعت فيه مومياء توت عنخ آمون ·

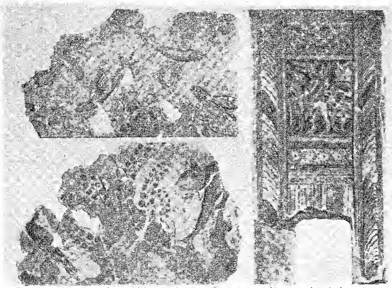


لم نبلغ صناعة الفخار فى شكلها أو زخرفتها فى العصر المينوى المتأخر ما كانت عليه فى العصر القديم من صفاء وقصد . الا انها تفوقها فى تصوير المناظر الطبيعية ، وبخاصة فى تصوير الحياة البحرية · وقد صور على الجرة (التى الى اليسار) أخطبوط وسط أصداف وأعشاب بحرية ، والكأس القربانية (المثقوبة القاع لصب محتوياتها) بها تصاوير لودع حلزونى، وعلى الزهرية أصداف حيوان النوتى سابحة بين الصخور والصحاصح ·

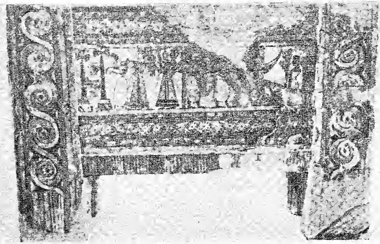


أمدتنا مجموعة من المقابر فى ميسينى ، معاصرة للمراحل المينيوية الأخيرة وممتـدة فى فترة النفوذ الميسينى (حوالى ١٣٠٠ ـ ١٥٠٠ ق·م) بكثير من الزهريات منقولة على ما يظهر عن أصول معدنية ، واللوالب مثلا تبدو كأنها تحاكى ألفافا من سلوك الذهب مكفتة فى أرضية من الفضة :

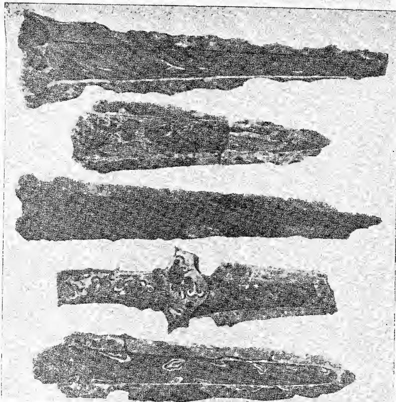
خواطر مختلفة سارت بصناعة الفخار فى كريت وميسينى فى طريق التقدم



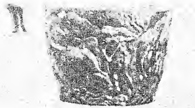
يتجلى فى مظلمات العصور الأخيرة المينوية ، وفى فخارها كذلك ، أثر من محاكاة الطبيعة ، فهذه النباتات المتموجة التى نراها فى القطعة التى تصور لنا قطة تطارد عصفورا ، صورت تصويرا رائعا • وهذا المنظر يذكرنا بصور الجدران المصرية، الا أن السمك الطائر فى القطعة العليا التى عثر عليها فى فيلاكوبى هى من نماذج الفن السكربتى • وعلى اليمين طرف من التابوت الملون الموضح فى الصورة السفلى •



يبدو أن هذا التابوت المصنوع من الحجر الجيرى من آثار عهد متأخر اذ يشيع الاهمال فى زخرفته . وقد عثر على هذا التابوت فى البيت الملكى الخلاوى فى هاجيا تريادا بالقرب من فيستوس وعلى ذلك فان العجول التى تقدم للميت والتى تقف الى اليمين أمام قبره مربوطة بالأشرطة قد صورت تصويرا نابيا فى ذلك الوضع المألوف الذى جروا عليه فى تصوير الخيل وهى تعدو •



كفتت هذه الخناجر البرونزيه بالذهب أو سبيكة من الذهب والفضة الا أن الزمن قد تغشاها بطبقة خضراء اللون وقد عثر على هذه الخناجر فى مداخل القبور فى ميسينى . وترى على الخنجر الثانى من أعلى قططا تصيد طيورا فى مستنقع من المستنقعات . وتكاد كل تدرجات الألوان بين لون الذهب الخالص ولون السبيكة من الذهب والفضة تتمثل فيه . وفى الخنجر الثانى من أسفل ترى أحد المقابض الذهبيه وقد نقشت عليه زهور السوسن . وكانت المسامير ذات الرأس تستخدم لتثبيت المقابض المصنوعة من الذهب .





هذان كأسا شراب من ذهب عثر عليهما فى قبر على هيئة خلية النحل فى فافيو التى تقع فى السهل الاسبرطى وهما يكشفان عن دقة فائقة فى الصناعة لعلها مستقاة من دور الصناعة الكريتية . ويبدو أن ما تجلى فيهما من فن قد تأثر بالتقليد الذى كان متبعا فى رسم الثور وهو يقفز فى الساحة المينوية . الا أنه من المحتمل أن يكون الفنان قد قصد الى صيد الثيران الوحشية . ويظهر على الكأس . وهى التى تراها الى اليمين . ثور منطلق حتى لكأنه يطير . وعلى الجانب الآخر من الكأس ترى رجلين نطحهما ثوران وثورا ثالثا قد وقع فى الشرك . وترى على الكأس الأخرى ــ الى اليسار ــ رجلا يقتاد الحيوانات التى قنصها .

كنوز ثمينة من الذهب وجدت فى قبور ميسينى وبلغت الغاية فى دقة الصنع

الفصل الخامس والعشرون

المينويون والميسينيون

بلوغ الحضارة أوروبا

تاريخ اجتماعي للعهد الذي بسطت فيه كريت أول مرة ثقافتها ثم سلطانها على اليونان ذاتها

للأستاذ ج. ل. ميرز J.L. MYRES

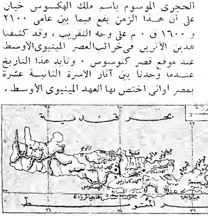
أستاذ كرسي ويكهام للتاريخ القديم بجامعة أوكسفورد ومؤلف كتاب «فجر التاريخ» وغيره .

رأينا في إلمامنا بالظروف التي نشأت فيها ثقافات العالم في الزمن القديم (انظر الفصل الرابع عشر) أن منطقة البحر المتوسط تنفرد بسمات لا يشاركها فيها غيرها من مهاد الحضارة وقد أثرت هذه الظروف الخاصة بين الحين والحين في مجرى التاريخ في مصر نفسها ، وكان أثرها أبلغ في كافة الأقوام الذين حفت أوطانهم بالبحر الداخلي (وقد أحصينا هؤلاء الأقوام ووصفناهم في الفصل التاسع عشر) .

على أن البحر المتوسط لم يكن فيما رأينا منطقة متجانسة . فقد انقسم عدة أحواض صغرى . وقديما بز أحدها ، وهو بحر ايجه ، سائر الأحواض في مستوى الثقافات التي نمت على شطآنه وجزائره . ولقد كشفنا في الفصل التاسع عشر عن بشائر هذا التقدم فبدت في خلوص الصنعة المحلية في الأدوات التي يستخدمها الناس كل يوم وتعدد ضروبها ، وبخاصة في كريت وجزائر السكلبد Cyclades والذي يعنينا في هذا المقام هو الوثبة التي توجت ذلك التقدم ، اذ يبدو أن كريت قد استطاعت على الرغم من تراخي صناعها بعض الشيء في تجويد الأشكال الفنية أن تنشيء ما يشبه الامبراطورية البحرية في عهد اختلطت فيه الشعوب وازدهرت الماديات ، وأن تبسط سلطانها على اليونان نفسها ، ثم انتهى الأمر باليونان الى انتزاع السيادة السياسية والثقافية على بحر ايجه بزعامة ميسين .

وتم الاتصال بين كريت ومصر في وقت من الأوقات ، ويسر ذلك بعض اليسر فأصبح في وسعنا أن نرتب عهود الحضارة المينوية المتعاقبة ترتيبا تاريخيا معتمدين في ذلك على الآثار المصرية المعروفة التاريخ التي وجدناها في بقاع كريت والآثار الكريتية التي وجدناها

في بقاع كريت والآثار الكريتية التي وجدناها في مصر . وان كان اعتمادنا على الثانية أقل . وقياسا على هذا يكون ما كشفناه في المقابر المينوية القديمة من أقداح الحجر والصحاف ومحفور الأحجار الجارية على النسق المصري ، وبعضها لا شك في مصريته ، من آثار الفن في الزمن الذي عاصر الأسر من الثانية الى السادسة . وفي هذه الحدود العامة يعيننا سياق الأنماط في كريت نفسها على تاريخ مراحل بعينها من مراحل النمط تاريخا أقرب الى الواقع وكذلك نستدل من التمثال المصري الصغير المنحوت على الطراز الذي كان سائدا في الأسرتين الثانية عشرة والثالثة عشرة ، وغطاء الآنية الحجري الموسوم باسم ملك الهكسوس خيان على أن هذا الزمن يقع فيما بين عامي ٢١٠٠ و ١٦٠٠ ق . م على وجه التقريب ، وقد كشفنا هذين الأثرين في خرائب العصر المينوي الأوسط عند موقع قصر كنوسوس . وتأيد هذا التاريخ عندما وجدنا بين آثار الأسرة الثانية عشرة بمصر أواني اختص بها العهد المينوي الأوسط .



خريطة كريت فيما قبل العهد اليوناني

كريت أكبر جزر أرخبيل ايجه والمرفأ الأخير بين أوربا ومصر ، وقد تهيأ لها بفضل ذلك شأن كبير في تجارة العالم في الأزمنة القديمة . وتبين هذه الخريطة أهم مراكز الحضارة المينوية .

ولا يتعدى ما ذكرناه بعد نطاق القصل التاسع عشر . أما العهد المينيوى المتاخر ، وهو العهد الذى أعقب ذلك ، فالشواهد عليه أوفر وأكثر دقة . ومن ذلك أننا ألفينا فى المظلمات التى فى مقابر حراس الملك تحتمس الثالث (الأسرة الثامنة عشرة) الذى حكم من عام ١٤٤٧ الى عام ١٥٠١ ق.م أوانى مينيوية ونحفا أخرى من تحف الفن حملها أناس من وراء البحار فيما حملوه الى البلاط المصرى من خراج. ويكمل هذا الشاهد التشابه الوثيق بين هذه المظلمات المصرية وبين مظلمات القصور المينيوية فى كنوسوس وتيرينز Tiryns وميسينى Mycenae وكان يتجر بالأختام المصرية والحلى والأوانى فى أرخبيل ايجه بعد ذلك بقرن ،

ومن هنا أصبحت لدينا خطة مفصلة فى تاريخ هذه الحضارة الايجية بأسرها . ونحن نفتقر الى هذا الضرب من الشواهد العارضة حينما تضمحل الحضارة الايجية والحضارة المصرية فى وقت واحد تقريبا ويقل ما بينهما من اتصال . ولا مفر لنا اذ ذاك من أن نعتمد الى حين فى معرفة العهد الغامض الذى يقع بين الحضارتين المينوية واليونانية على شواهد أضعف من ذلك . وهى شواهد النمط والصنعة فى أرخبيل ايجه . بيد أننا نستطيع فى هذه الحدود العامة أن نتتبع على الاجمال مجرى الحوادث فى هذا الارخبيل ومدى تأثير مصر فيه .

ويبدو أن المنازل القديمة من الطراز المينوى فى جزر ايجه لم تكن تختلف فى نظامها الاجتماعى



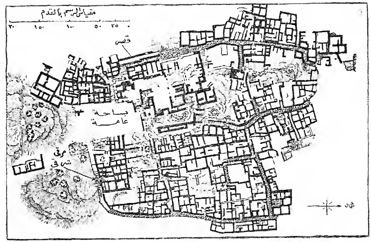
دليل يهدينا الى تاريخ العهد الأول للفن المينيوى المتاخر

يصور هذا المظلم المأخوذ من مقبرة عامل من عمال حتشبسوت يدعى سنموت السفراء الأجانب وهم يؤدون الجزية الى البلاط المصرى وما من شك فى أن هؤلاء السفراء كانوا من سكان جزائر ايجه . ونستبين ذلك من مقارنة هذا المظلم بالرسوم التى حليت بها أوانى العهد المينيوى المتأخر المصنوعة من الذهب والبرنز . وهى مجلوبة من ميسينى (١ ، ٣) ومن مقبرة فافيوم (٢) ومن كريت (٤) . ونخلص من هذه المقارنة بأن تاريخ مثل هذه الصنعة المينوية كان فى النصف الأول من القرن الخامس عشر قبل الميلاد . وقد حليت الأشكال اكثر مما هى فى الحقيقة زيادة فى اظهارها .

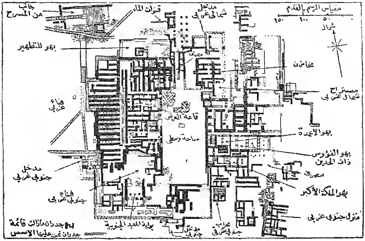
اى فى عهد أمنحتب الثالث من ملوك الأسرة الثامنة عشرة، وقد وجدنا هذه السلع فى رودس وكنوسوس وميسينى ضمن آثار مينيوية يمكن أن نسلكها فى مقامها الصحيح من تطور هذا النمط المحلى . ثم اننا وجدنا مرة أخرى فخار العهد المينوى المتأخر المصنوع على نمط مشاكل لهذا فى مقابر مصرية من عهد أمنحتب ، وفى أطلال قصر ابنه أمنحتب الرابع فى تل العمارنة وقد بنى هذا القصر حوالى عام ١٣٧٠ ق . م وهجر عقب وفاة مشيده الغريب الأطوار . ثم وجدنا آخر الأمر صور أوان مينيوية من طراز متأخر عن هذا فى الزمن مرسومة فى مقبرة رمسيس الثالث ، وهو ملك من ملوك الأسرة العشرين اعتلى عرش مصر عام ١١٩٨ .

اختلافا كبيرا من قرى شعوب اوربا والشرق الأدنى القديمة أو مدنهم الصغيرة . والحق أن خطة منازل مثل فيلاكوبى من أعمال ميلوس أو بالكسترو وجورينا فى شرقى كريت هى أشبه شيء بخطة القرية الكريتية الحالية بدروبها الملتوية ترقى الأرض الوعرة فى درجات حزون ويحف بها من الجانبين زحمة من المساكن نستدل من سلالمها الداخلية وجدرانها السميكة على انها كانت شامخة بالقياس الى رقعتها الضيقة .

أما ثغر فيلاكوبى وموقعه فى أرخبيل من جزائر أخرى ، فقد حصن من قديم فى عناية لدفع العوادى عنه . وكانت قرى كريت سهلة غير محصنة آمنة من العدوان كثيرة الصلات فيما بينها الا أنها كانت على الرغم من ذلك تعيش

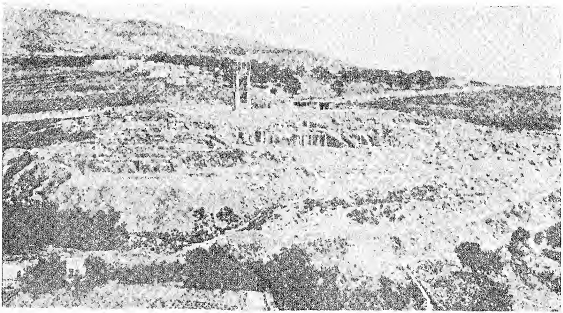


كان فى حورينا فى شرقى كريت على خليج مرابلو منزل غير حصين من العهد الميناوى المتأخر الأول . وقد بينا هنا خطة بنائه كما كشف عنها • وبشغل هذا المنزل جانبا من أخدود حجرى ازدحمت البيوت على جانبه الشرقى • وفى طرفه الجنوبى قصر صغير يواجهه صحن عام •



كانت المبانى الواسعة الرقعة المعروفة بالقصور الميناوية تمتاز بضرب من البساطة على الرغم مما فى خطتها الاجمالية من تعقيد فى تفصيلاتها • ففى هذه الصورة مثلا صحن رئيسى رحيب بكنوسوس يمتد شمالا وجنوبا • ويقوم على زاويتين قائمتين من هذا الصحن دهليز يفصل المصانع فى النصف الشمالى من الجناح الشرقى عن الأبهاء الكبيرة والغرف الخاصة • وفى الجناح الغربى دهليز مستطيل يفصل قاعة العرش عن بيت المال والمخازن •

الخطة العامة لأكثر مبانى العصور القديمة اشتباكا

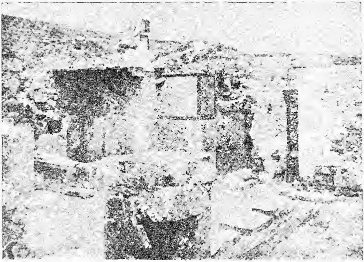


حين بلغت الحضارة المينيوية أوجها : كنوسوس وقد كشف عنها بعد ثلاثة آلاف عام

كانت محلة كنوسوس التى يرجع بها العهد الى العصر الحجرى الحديث فى سهل كريت الكبير الغنى وعلى مسيره أربعة أميال فقط من الساطىء السمالى للجزيره ومن ثم فقد تهيأت لها جميع أسباب التقدم فأصبحت قصبة بيت من بيوت الحكم منحصر عزيز الجانب له صلات وتجارة مع أقطار فيما وراء البحار . ومن هنا بنى القصر المينيوى بكنوسوس على الطبقات المتراكمة التى خلفتها جماعة الانسان فيما قبل التاريخ وعلى جوانب تل نيمبرز الى وادى نهر قيراطس . وموقع كنوسوس على مسيرة ثلاثة أميال ونصف تقريبا من جنوبى مدينة الخندق (جانيه) الحالية يقطعها السائر فى الطريق المار بينهما . وقد بنى السير ارثر ايفانز هيكل البرج المبين فى هذه الصورة ليمكن الناظر الى الحفائر من أن يراها جملة . وقد رممت سقيفة مسكن الملكة وسلمه فى مهارة

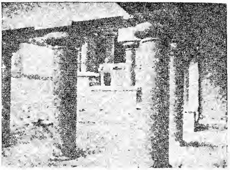


أخص ما يتميز به الجناح العربى من قصر كنوسوس هو رواق الحوانيت وطوله مائتا قدم وعرضه أحدى عشرة قدم ونصف ، ويحف به من أحد جنبيه عشرون مخزنا طويلا ضيقا بها جرار هائلة كبيرة . وكانت النفائس فى صناديق خفية تحت الأرض



فى الجناح الايمن غرفة منعزلة تعرف ببهو الملكة الكبيرة بها دكك واطئة وقاعدة ترقص عليها القينات ، ولعل هذا ينبىء بأن النساء كن يشغلنها . ويصل بين البهو ذى العضدين وبين الجناح الايمن ممر متعرج ، الغرض منه التستر فيما يظهر . وينفتح هذا المسكن عن حمام صغير وممر يؤدى على ما يلوح الى مساكن الخدم . وثمة باب آخر ينفتح عن سلم خاص يؤدى الى مسكن آخر فوقانى مشابه لهذا .

غرف متينة البناء أقام فيها الملوك المينويون وغرف أخرى كانوا يسكنون اليها .



آية من آيات عمارة القصور

ليس أروع فى خرائب كنوسوس من بهو الأعمدة. ويدخل الوالج اليه من ممر العمد الذى تراه فوق هذا بعد ترميمه، وكان هذا البهو جزءا رئيسيا من خطة بناء السلم الكبير الذى يرقى من البهو فى خمس قلبات فخمة (أنظر صفحة ٦٣٥ المجلد الأول) .

عيشتها الخاصة فى معظم شئونها ، وأخذت الصناعة فى كل منها تنفرد بخصائص وان كان يجمع بينها جميعا نمط واحد .

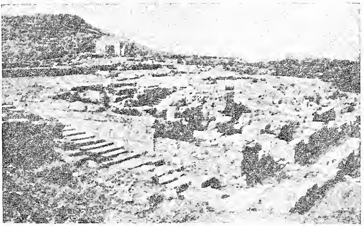
وطرأ تغير ملحوظ فى الشطر الثانى من العهد المينوى الأوسط . ذلك أن بعض المحال الكبرى وبخاصة كنوسوس وفيستوس فى المنخفضين الكبيرين بأواسط كريت قد تطورت تطورا كبيرا، فأصبح لها نظام محكم ومجتمع راق يختلفان عما يوجد فى غيرها اختلافا تاما . ويهجت المحال الصغرى فى حل شئونها السبيل الذى سلكته من قبل . وقد أطلق على نظام المحال الكبرى التى ذكرناها اسم مطابق لحالها وهو القصر . وان كان القصر هنا لا يسامى قصور البيوت الحاكمة فى المشرق من جهة ويفوقها من جهة أخرى . والسر فى ذلك أنه لم يكن مقصورا على مقام الملك وحاشيته ، وانما كان يسكنه أناس من العامة وأرباب الحرف والتجار ومن اليهم .

ووصف هذه المبانى بالقصور لا يدل الا بعض الدلالة على ما استخدمت فيه . وقد كانت تضم من غير شك سكن الملك وأهل بيته . وبيت المال ودار الصنعة وبيت ديوان محكم النظام . وكان فيها أيضا الأهراء والمخازن ومعاصر الزيوت وخوابيها مما يدل على تقدم كبير فى الصناعة والاقتصاد . يضاف الى هذه الساحات التى تصطرع فيها الثيران والملاعب ومسارح التمثيل والملاهى .



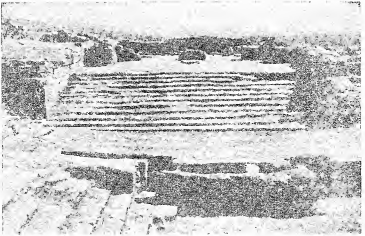
أقدم عرش فى العالم

عرش الملك مينوس كرسى بسيط جليل من الحجر الأبيض ظهره على شكل ورقة الشجر ومقعده مجوف . ونقش فى أسفله حنية مزدوجة تخرج من عمد مربعة محززة السطح وأقيمت على يمين الكرسى ويساره وبمحيط الغرفة دكك يجلس عليها أصحاب مشورة الملك وقد زينت جدران القاعة بمظلمات رسمت فيها العنقاوات (جمع عنقاء) على أرض من البردى والماء . وقد استبدلت الآن بصور حوكيت فيها الصور الأصلية .



قصر أمراء فيستوس الخلوى

وفى هاجيا ترايادا وعلى مسيرة ميلين تقريبا جنوبى غرب فيستوس قصر أصغر من قصر مينوس . ولعله كان مصيف الأسرة المالكة . ويمكن أن نستخلص شيئا عن خطته العامة اذا تأملنا هذا المنظر الخاص بالموقع الشرقى الذى نراه الآن مرمما . وظلت الجدران قائمة مرتفعة على الجملة ارتفاعا لا نشاهده فى أى موقع مينوى آخر . وقد بنيت الجدران من الحجارة المنحوتة الجيدة التربيع .



المدخل الرسمى لقصر فيستوس

كانت فيستوس على طرف طلال تشرف على مداخل سهل مسارى . ولربما كانت فى الاصل محله ثم أصبحت تنافس كنوسوس منافسة شديدة . وكان المدخل الكبير للقصر فى الجانب الغربى . وينفتح هذا المدخل عن صحن رحيب أو مسرح ثم يؤدى سلم ملكى كبير عرضه ٤٥ قدما الى قاعة الدولة ويهيء لنا هذا كله منظرا رائعا دونه أى منظر فى المشاهد المينوية جميعا . وربما كانت هذه الساحات هى التى أقيمت فيها ألعاب القفز فوق ظهور الثيران .

تفصيل خطة القصر

ومن الواضح أن الزعيم السياسى كان فى الوقت نفسه يقوم على شئون دبن يعنقد به الناس وأن معابد أصحاب الديانات الأخرى كانت تجد فى بلاطه منسعا ورعاية ·

وكانت هـذه القصور الشـابكة تتألف من طائفة من الحجر المعدة للسكنى بما فى ذلك الأروقة والدهاليز اللازمة لها شأنها فى ذلك شأن البيوت الخاصة فى القرى الأقدم منها عهدا ومن بنى أوسـع رفعة وأخص نفعـا كالبـاب الكبير المؤدى الى قصر كنوسوس من الشمال ، أى من البحـر ، والثغر الذى على مسيرة ثلاثة أميال منه. ومن طائفة من الحوانيت الممتدة فى الجناح الغربى للقصر بما فيها صنوف الجرار الفخارية الكبيرة المعدة للخزين وصناديق النفائس المقامة تحت الأرض . المستورة بالبلاط وقد أقيمت هذه البنى تبعا للحاجة وفى غير نظام حول ساحة تتوسطها ثم التأمت شيئا فشيئا · وعقد توالى التعمير الخطة التى قد تكون وضعت للبناء وجعلها غامضة مستغلقة وكان المشهد العام فى كنوسوس وفيستس مختلفا من ذلك . وهو غيره أيضا فى البيوت الخلاوية الملكية الصغيرة فى هاجياترياذا وماليا ·

ولم نتبين بعد ما اذا كان الخراب الشامل الذى دب فى القصور الأولى وما أعقبه من ترميم يرجع فى معظمه الى حدوث حادث ـ وليس هذا ببعيد لأننا نعلم علم اليقين أنه قد وقع زلزال شديد فى كنوسوس فى تلك الأيام · أو الى الاضطرابات السياسية · ولعل السببين كانا يفعلان فعلهما · على أننا اذا تغاضينا عن هذه العلة المعوقة للتقدم فان الأثر الذى يتركه هذا العهد فى نفوسنا هو أنه كان عهد عمران ورخاء ارتقى نظام الحكم خلاله سريعا فى بعض نواحيه ·

ونستبين من رفعة الحواضر العـامرة مثل كنوسـوس وفيستس ، بل من القرى مثل جورنيا وباليكسترو ان عدد السكان كان عظيما وأن نظام المجتمع كان محكما . ويتجلى هذا بأجلى بيـان فى استكبار القوم من الـكتابة فى العهـد المينوى الأوسط والعهـد المينوى المتـأخر · فقد ظهرت فى أول الأمر طريقـة للكتابة بالصور تشبه طريقة مصر أو شومر أو مملكة الحثيين فى آسية الصغرى وكانت هذه الطريقة رقيت أصولها من قبل رقيا كبيرا وهى ممثلة على خير وجه فى الأختام الحجرية الكبيرة ، وعلى هذه الأختام فى الغالب سمات خاصة من مقطعين أو ثلاثة أو أكثر لعلها أسماء أصحابها · وقد تزيد الكتابة على ذلك الا أنها لا تبلغ الحد الذى ييسر قراءتها ·

وثمت شـاهد من الدخيل لا يجـرى على القياس بلا شك ، وهو القرص الفخارى المجلوب

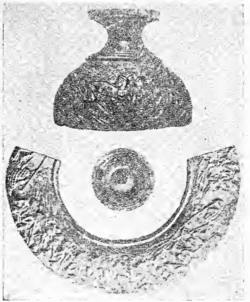


مراحل من تطور الكتابة المينيوية

كانت الكتابة الكريتية فى أول عهدها طريقة فجة من طرق ترجمة الأفكار بالصور، وقد ارتقت فى العهد المينوى الأوسط الى رموز هيروغليفية كالتى على وجهى الخاتم المصنوع من حجر العقيق والخاتم المصنوع من الخرز (انظر طرف الصورة الأيمن) ثم تطورت الى نوعين من الكتابة الخطية أحدهما يستعمله كافة الكريتيين · وهو ممثل فى الرقاع الفخارية المبينة فى طرف الصورة الأيسر والآخر لا يستعمله الا أهل كنوسوس وهو ممثل فى جريدة النسـاء المبينة فى طرف الصـورة الأيمن من أسـفل وقد استنسخت الدلالات الخطيـة العجيبة المنقوشـة فى القصعة وأثبتت فى وسط الصورة بنسقها المألوف ·

من قصر فستس ، وقد وصف فى الفصل التاسع عشر وأثبت صورته ونستدل من بعض رموزه على أنه قد يكون مجلوبا من بعض نواحى آسية الصغرى المشرفة على البحر .

وحدث بعد ذلك ما حدث فى مصر وسوريه من تبسيط هذه الصورة الرمزية واقتصارها واحالتها خطا لا يستغرق فى كتابته وقتا طويلا ، وغدا الخط على انماط شتى . وقلما تصادف حروفه على كسر الفخار Ostraco كما هو الحال فى مصر . على انهم قد حفروا على نقش هذه الحروف بمنقاش دقيق على ألواح من الصلصال قد يكبر حجمها بعض الكبر. ولكنها فى العادة لا تحمل سوى صيغة قصيرة تتركب فى الغالب من أعداد وصور مجملة لأشياء ورد ذكرها فى الكتابة كالخيل والمركبات والدروع والاوانى المختلفة . ولعل هذه الاشياء خراج حمل الى بيت المال . ومن هذه الألواح جرائد بأسماء رجال ونساء . وكثير منها حساب مئوى من وحدات تجمع على مائة .



آية من آيات فن النقش المينوى

نقش على وعاء هارقستر (قطعة من جزئه الاعلى) موكب من قرويين يسيرون على ايقاع المزارع ويحملون المذارى وغيرها من آلات الزراعة . ويبين لنا أوعية هذه الصفحة وأوعية الصفحة التالية ووعاء الملاكم المثبت فى صفحة ٦٢ غاية ما بلغ اليه النقش فى صدر العهد المينوى المتاخر

ونحن نستطيع أن نتكهن على هذا النحو بالغرض من هذه الكتابات وان نستشف من سياق الرموز شيئا عن قواعدها كمادة الأفعال ولواحقها. على أننا لم نستطع بالرغم من ذلك الكشف عن حركات اللغة أو فهم معانيها . وكل ما يسعنا قوله أن منها رموزا كانت فيما يظهر قاعدة بعض حروف الابجديات التى استقرت عليها اليونان ولغته وفينقيه (انظر الفصل الخامس والثلاثين) وأن منها رموزا أخرى بقيت فى الكتابة المقطعية العجيبة التى اصطنعت بعد ذلك فى قبرص واستعملتها من قبل المستعمرات المينوية التى نشأت بهذه الجزيرة فى عهد متاخر . وان تراكيب هذه اللغة يحملنا على الظن بأن قواعدها النحوية تشبه قواعد بعض كتابات لغة أخرى اصطنعت فى بريسس فى الأزمنة القديمة ونقشت بالحروف اليونانية الأولى . وبريسس هذه بلدة من بلدان شرقى كريت . ويوحى لنا التوزيع الجغرافى لأنواع من أسماء الأماكن فى بلاد أصبحت فيما بعد يونانية بأن اللغات الايجية الجنوبية كانت من فروع لغات الجنوب الغربى لآسية الصغرى . ولعل قرص فيستس قد جلب الى كريت من هناك . ويظن أن أهل فايستس كانوا يفهمون ما فيه .

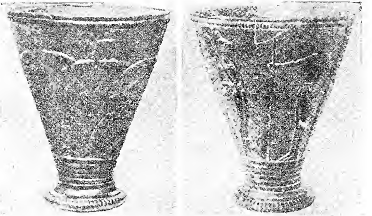
ونحملنا وفرة مادة المدونات على الظن بأن نظام الحكم كان محكما،وربما كان هذا هو حال الصناعة والتجارة أيضا . وليس من المصادفات ان نجد فى الشطر الثانى من العهد المينوى الاوسط شواهد على اتساع رقعة الاقليم الذى تسوده هذه الثقافة الكريتية . بل انا لنجد على الخصوص انه بينما بلغت ثقافة جزر السيكليد القديمة بلاد اليونان نفسها فى نواحيها الأقرب منالا من مجموعة الجزر الوسطى ونعنى بها الجهات المحيطة بالخليج السارونى المؤدى الى برزخ كورنثة اذ شرع الكريتيون يتقدمون خطوة جديدة صوب الجنوب بطريق خليج آرجوس ، وكانت هذه الجهة أقل تأثرا من غيرها بثقافة تلك الجزائر ، ومن ثم ظلت على حال أقرب مايكون الى الهمجية،كما ستتبين

من الطبـاق السفلى للآثار التى فى منازلهـا الهامة ·

وسنفصل الكلام عن هذه المنازل التى كانت فى بلاد اليونان نفسـها فيما بعد · أما الذى يستوقف نظرنا بالنسبة الى كريت فهو سرعة رقيها مدارج الفلاح غداة أن اسـتقام حالها ، واختلاف مدنهـا المنبسطة ومواقع قصـورها السـهلة من حصون اليونان الشامخة · ومن البين أنه لم يكن للمينويين بد من اصـطناع القوة لبسط حضارتهم والتمكين لها فى اليونان نفسها بين جيران يناصبونهم العداء . وتهيئة هذه الحضارة لما يكتنفها منظروفغير موانية·

سهل آرجوس قد انتفع به فى اطعـام أهل كريت الكثيرين · وقد بقى فى أخلاد العامة فى اليونان صـورة قائمة بغبضـة عن غلبة الكريتيين فى البحر ، وقد لا نجافى الواقع اذا التمسنا علة ذلك فى الغارات المنتظمة التى كان يشـنها هؤلاء على اليونان لجلب الرقيق الى أسواق العمل فى كنوسوس ·

على أنا لا نعلم الا القليل عن المظاهر الاجتماعية والسياسة للمجتمع المينوى، والسبب فى ذلك راجع الى افتقارنا الى الأسانيد التى يمكن قراءتها وتنبىء ضآلة المسـاكن الخاصـة بأن الوحدة الاقتصادية لم تكن تتعدى الأسرة ، وهى حال



تحفة مختارة من كنوز بيت ملكى

لقد تبين أن هاجيا ترياد ا كنز نفيس للتحف المينوية وخيرها هذه الكأس المنحوتة من حجر الصابون ، ولا يزيد ارتفاعه على أربع بوصات وتعرف بكأس الأمير . وهى تمثل سيدا واقفا وقفة السيد الآمر وقد أمسك بسيفه أمامه فى فخار يتقبل الطاعة من تابع من أتباعه ووقف فى جمع من المقاتلة يحملون التروس المرفوعة المأثورة عن المينويين .

وقد كان متاع بيوت العامة من الناس بسيطا قليل الزخرف ، على أن أمراء هـذه الحصون السوامخ وحماتها كانوا يجلبون من الصناعات الـكريتية صنوفا جميلة لا يعـوقهم فى ذلك عائق · ومن ثم نقول دون أن نخشى الزلل ان هـذه التحف كانت تدر على بلادهم خيرا كثيرا ·

ولسنا نعلم صفة ما كان الكريتيون يأخذونه مقابل ذلك ــ على أنه لم يكن بوجه خاص من المصنوعات . لأن آثار صناعات اليونان نادرة فى مواقع كريت وهى لم تكثر الا فى عهد متأخر · ولعل المحصول الوافر الذى كان يغله

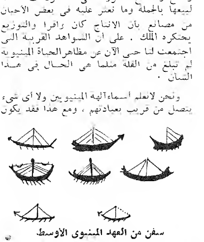
وجدنا عليها فيما بعد جل البلاد التى تتسم بميسم البحر المتوسط · ولم يكن للرعى وطلب الصيد شأن فى مثل هذه الظروف ، وكانت الزراعة لا تخرج فى الغالب عن فلاحة البساتين وجنى الثمار · ومن ثم شرف قدر المرأة التى تقوم بهذه الأعمال كما هو متوقع ، فكانت تظهر فى المجتمع من غير حرج ، وكان الفتيات يساهمن فى الرقص والألعاب التى كانت تدور فى القصـور ، بل لقد بلغ من أمرهن أنهن كن يشتركن فى الألعاب الخطرة كلعبة اثارة الثيران بالكلاب · ومع هذا فقد كان للرجال

عمل منتظم فى الحقول لا تشاركهن فيه النساء وهذا مشهود فى آنية هاغياترياده الجميلة • وكان هناك نظام لتدريب العسكر نلحظه فى آنية حجرية أخرى استخرجت من البيت الحلاوى نفسه فى هاغياترياده •

وثمت عمل آخر من الأعمال الجماعية تجلى لنا صور المراكب الكبيرة التى كانت تسير بمجاذيف كثيرة أو بشرع • وأضحى للمدن الصغيرة نفسها دواوين تسجيل الحسابات بفى بحاجاتها ، وفيه طوائف شتى من العمال يرتدون الجلابيب ويحملون العصى والمقارع وغيرها من شارات الحكم • وقد خطت قاعات الاستقبال الفخمة فى «القصور» بحيث تتسع للاجتماعات الكبيرة • مع أن قاعة العرش فى كنوسوس لم يكن فيها سوى مقاعد لنفر من أصحاب المشورة تحف بكرسى العرش •

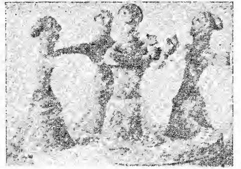
ويبين أن الأهلين كانوا متمدينين فى المحاضرة فى الوقت الذى بلغ فيه نظام القصر غايته • ويوحى الينا تفرق نماذج الفخار على نطاق واسع والسلع المخزونة فى المستودعات العامة لبيعها بالجملة وما نعثر عليه فى بعض الأحيان من مصانع بأن الانتاج كان وافرا والتوزيع يحتكره الملك . على أن الشواهد القريبة التى اجتمعت لنا حتى الآن عن مظاهر الحياة المينويه لم تبلغ من القلة مثلما هى الحال فى هذا الشأن •

ونحن لانعلم أسماءآلهة المينويين ولا أى شىء يتصل من قريب بعباداتهم ، ومع هذا فقد يكون



سفن من العهد المينوى الأوسط

تظهر صور السفن على الأختام منذ العهد المينيوى القديم •وقد كان للمراكب فى العهد المينوى الأوسط صار واحد كما تتضح من الصورة . وكانت مؤخرتها عالية ومقدمتها ذات نصلين ويسيرها فى كل جنب مجاديف تتراوح بين الخمسة والخمسة عشر •

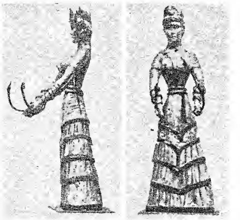


الرقص الريفى المينيوى فى الزمن القديم

اظهر ما فى المجموعة الطريفة من الأشكال المصنوعة من الفخار المطلى التى كشفناها فى باليكسترو الريفيات الثلاث اللاتى يرقصن على أنغام القيثارة وتجيش هذه الأشكال بالحياة برغم بساطتها ، وهى ترجع الى النصف الثانى من القرن الخامس عشر قبل الميلاد •

من المستطاع أن نكون فكرة عن معتقداتهم من صور معبوداتهم وشعائرهم • فقد كانوا يخشعون لظواهر الحياة وقوى الطبيعة وبعض الحيوان كالاسد واليمام والثعبان والثعابين وبعض الأشجار والنبات وقنن الجبال والصخور والينابيع • وانا لنلمح أيضا دلائل تنبىء بأنهم كانوا يرصدون الشمس والقمر • وكانت القوى الكامنة فى هذه الأشياء جميعا تجسد فى شكل انسان أو حجارة منتصبة أو عمد او محاريب ذات قرون أو صومعة • وثمت شعائر خاصة كانت تقام للفأس ذات الحدين، ولعلها كانت تقام أيضا للدرع الجلدى الذى يغطى الجسم • ومن المحتمل أن هذه الفأس كانت ترمز الى آلهة الرعد • وأظهر هذه المعبودات الهة أم عظيمة القدر تشاركها ربات أقل منها شأنا ، وشريك ذكر أصغر منهن يعرف بابنها جريا على مألوف العقائد فى آسية الصغرى •

وكانت القرابين تقدم للآلهة ويسكب دمها على الأرض أو فيها تصحبها نذور أخرى محروقة ، وكانت للآلهة معابد فى داخل «القصور» حيث تبدو شارات مقدسة من بينها صليب (انظر صفحة ٦٣٦ المجلد الأول) وتماثيل للعباد وهم يصلون ، وأوان للنذور من شراب وطعام • وكان الموتى يدفنون باحتفاء ويزودون فى الغالب بزاد وافر مما تحتاجه أجسادهم فى العالم الآخر ، ويتوسل اليهم بعد الموت كما يتوسل للآلهة الصغرى بما شابه ذلك



آية الآيات فى النقوش المينيوية على العاج

لا يكاد يخامرنا شك فى أن أنفس تحف الفن فيما قبل العهد اليونانى هو تمثال آلهه الحيات المصنوع من العاج . ذلك أنه قريب كل القرب من آيات فن النحت اليونانى حتى لقد ظن أول وهلة أنه منحول على المينويين · والبون شاسع بينه وبين التماثيل التى فى صفحة ١٣٦ (المجلد الأول) وقد رسم من هذا التمثال يد واحدة فقط .

من نذور وقرابين مصحوبة بالموسيقى والرقص· ويبدو أن الصبغة الدنيوية قد غلبت الى حد ما على كثير من وجوه حياة المينويين . ومع هذا فليس ببعيد أن تكون مصارعة الثيران والرياضات البدنية الأخرى قد نشأت كما هو الحال فى رياضات اليونان وحفلاتهم التمثيلية من المراسم التى كانت تقام للترفيه عن الموتى والآلهة . ولو أن تلك الرياضات المينوية مورست بعد ذلك للتسلية ·

ونستطيع أن نتبين هيئة القوم وزيهم المألوف من المظلمات التى كانت تزين قاعات القصور العامة وممراتها الرئيسية ومن لطائف النقش على الجواهر وعلى الأخص من التماثيل الصغيرة وألواح الخزف التى كانت تصنع فى أواخر هذا العهد · وظل الناس الى تلك الأيام لا يلبسون سوى قطعةمن القماش ممنطقة بشريط مشدود يسترون بها أصلابهم وحذاء مرتفع من الجلد الرخيص · وما زالت كريت تشتهر بين جاراتها الى اليوم . وكان السراة والشيوخ يلبسون فى بعض الأحيان عباءة كبيرة التضريب ويضعون على راسهم تاجا من الزنبق أو من الريش ·

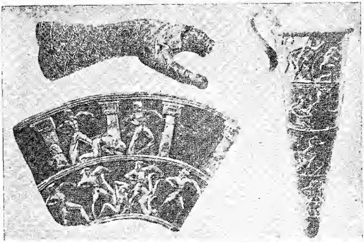
وفى النساء بلباسهن فكن يرتدين صدرة حديثة الشكل قصيرة الأكمام ولكنهن يجعلن لها فى الغالب نسقه منتصبة من الظهر · ويتدلى من الحزام البالغ الزركشة الذى كن يشددنه على وسطهن كما يفعل الرجال ازار فضفاض معرج من فوقه ذيول · وقد زركش بحشوات كثيرة وحفل برسوم الزهر وكن أيضا يتحلين بالجواهر الثمينة · أما فى البيت فكانت النساء تصفف شعورهن فى حلق وتعاريج وافرة تمسكها وتزينها دبابيس · ويلبسن فى خارج البيت قبعات واسعة ظليلة محلاة بالشرائط والوريدات فاذا نهضن للعبادة زدن تاجا مرتفعا تتدلى من تحته على الصدر جدائل طويلة ·

ونستطيع أن نقول أن الحضارة المينوية جملة قد دخلت فى عهد جديد بتعمير قصر كنوسوس وهذا العهد يشمل المرحلتين الأولى والثانية من العهد المينوى المتأخر . وظلت فيستس مدينة ذات شأن على الرغم من أن كنوسوس كانت قد غدت فى ذلك الوقت قصبة الجزيرة . وأشرفت على الريف شأن الحواضر الحديثة . وسايرت المنازل القديمة الجديدة فى الازدهار والرخاء · والمشاهد فى المنازل التى استكملنا كشفها مثل بالكسترو وجورنيا أنه ما زال بها بيوت مزدحمة ودروب ملتوية · ومن العجيب أن خطة البيت أيضا بقيت على حالها · فالمدخل تحف به بنى خارجية . وهو يؤدى الى صحن ينفذ الضوء منه الى غرف السكنى . وفى هذا الصحن درج يرقى بالصاعد الى الغرف العليا ·



بعض مناظر الآلهة الأم

رسمت ربة كريت الام فى الصورة التى على الخاتم الأيسر واقفة على قمة جبل كما هى الحال فى صورة ربة الجبال عندنا · أما فى الصورة الاخرى التى الى اليمين فتبدو الأم الكبيرة كأنها تستنزل من السماء الاله ربيبها



ان غرة تحف الفن المستخرجة من ماليا هي مقبض مقرعة كانت تستعمل فى المحافل ، وهى تمثل فهدا برقبته طوق مما يدل على أن القوم كانوا يستعينون به على الصيد ٠ ويبلغ ارتفاع وعاء الملاكم (الى يمين الصورة) الذى عثر عليه فى هاجياترياداً ثمانى عشرة بوصة ٠ وظهر فى القسم الأعلى منه ملاكمان يتبارزان وفى القسم الثانى الثيران تتواثب وبدأ فى القسم الثالث والرابع . وقد كبرا فى الجانب الأيسر من الصورة ، طائفة أخرى من الملاكمين يتجلى فيهم النشاط ٠



كان للألعاب التى تدور فى ساحة الثيران شأن هام فى الحضارة الكريتية ، وقد خلدت تحف كثيرة من تحف الفن ذكر هذه الألعاب ٠ ومن ذلك الآنية التى على شكل الثور (الى اليسار) والثور الصغير (الى اليمين) الذى عثر عليه فى بسيرا Pseira والأوانى التى تمثل رأس الثور فقط (فى الوسط) والتمثال العاجى الجميل الذى عثر عليه فى كنوسوس وهو يمثل فتاة تقفز فوق ثور ٠ وقد أثبتنا رأس الفتاة فى الصورة بمعزل عن جمعها٠وتلمح فى التمثال العاجى الصغير (فى اعلا الصورة٠الى الشمال) الذى عثر عليه فى باليكسترو التزاما للواقع ولم يراع فى الصورة الى فوق هذا الكلام اثبات هذه التحف بحجومها مقرونة بعضها الى بعض٠

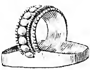
صناع بصيرون يسجلون الألعاب المينوية بما لا يجافى الواقع

وسمخت القصور الكبيرة فبلغت طبقتين بل ثلاثا ، وخصص الثالث منها للخدم والحشم وكانت الآبار والصهاريج وغيرها من لوازم البيوت توضع فى داخلها . ولو أن القوم فى كنوسوس كانوا يصرفون ماء المطر والماء القذر بمهارة فى بطون الوديان • وكان فى البيوت الكبيرة قاعة هامة ذات عمد يستقبل الضيوف فيها ، وبينها وبين الصحن دهليز ينفذ منه الداخل اليها • والغالب انه كان فى هذه البيوت أيضا حوض للاستحمام مكشوف يحيط به سياج ، وينزل الهابط اليه درجات قصيرة من غرفة مسكونة أو ممر •

أما متاع المنزل وأدواته بما فى ذلك اللباس والسلاح فلم تتغير فى جوهرها • على أن القوم انصرفوا عن نقش أوانى الزهر بالألوان المختلفة الزاهية واستعاضوا عن ذلك برسم خيالات سوداء على أرض فاتحة وجروا على صنع

تجميل الأشياء

أوانى الزهر بدوارة الخزاف وكانت هذه الأوانى فخمة لطيفة الصنعة نفيسة الزخرف ، بيد أنها لم تكن من حجوم شتى • وحاكت رسوم الزهور التى عليها الطبيعة ، وعدت مجموعة صناعية من أشكال قليلة مألوفة كالزنبق والسوسن والوريدة • وساعدت الزخارف اللولبية مما





خاتم مينيوى استخرج من أرض يونانية

عثر على الخاتم المصنوع من الذهب فى مقبرة على هيئة خلية النحل قائمة فى كاكوفاتس فى الموره (وكاكوفاتس هى بيلس نستور التى جاء ذكرها فى الياذة هوميروس ، وهو لا يشهد على تغلغل الثقافة المينوية الخالصة فى اليونان فحسب بل يشهد أيضا . بتأثر اليونانيين تأثرا كبيرا بمعتقدات المينويين فى العالم السفلى • ونرى فى أعلى الصورة حلق الخاتم وفى أسفلها الخاتم مكبرا •
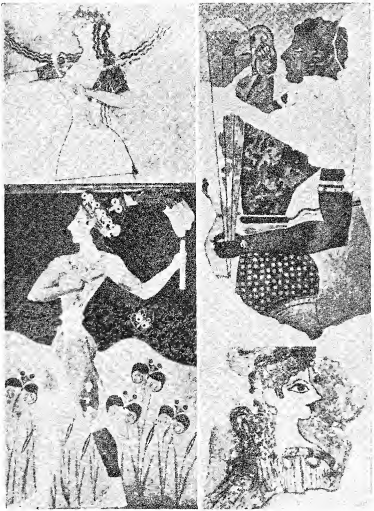
يسهل اقتباسه ونقله . وظل المينيويون يبدعون آيات أدنى الى الواقع ، فمن رسم مظلمات الى نقش فى العاج ونحت فى الحجر وترصيع بالجواهر . ومن الواضح أيضا انه كان لديهم تحف لطيفة من المعدن حاكوها فى غيره من المواد السائغة ، وان كانت نماذجها الاصلية قد اندثرت كما هى العادة •

وفى هذه البيئة الموائمة الميسرة درجت الصناعة والتجارة اللتان بلغتا شأوا عظيما فى الطريق الذى سارتا فيه خلال العهد السابق فاتجهتا قدما فى خلجان اليونان نفسها بل اتسع نطاقهما بفضل مشروعات المينويين فى البحار مما سبق الاشارة اليه • ونشأ من هذا الاستغلال أن بدأت اليونان نفسها تدخل آنئذ فى دائرة سلطانهم السياسى . ويجدر بنا ان ننتقل الآن الى بحث سير الامور فيها حتى ذلك التاريخ •

وكريت اقليم أوسع من غيره من الجزائر رقعة وأشد وعورة ، ومن ثم ليس لنا أن نعجب اذا علمنا انها كانت فى العصور القديمة تأخذ أكثر مما تعطى ، اللهم الا اذا استثنينا بعض المواد الاولية وازدهرت الجزر الصغيرة بطبيعة الحال قبل غيرها . ولم يطغ على ثقافتها الدخيل من معين بدائه بقدر ما طغى على ثقافة غيرها . وربما كانت قد ازدحمت بالسكان وبدأت تتطلع الى ملك سواها • ونخلص من هذا الى أن جزائر السيكليد لا كريت كانت على اتصال وثيق بشواطىء بحر ايجه الغربية . وكانت أيضا تتصل بشواطئه الشمالية من حين الى آخر • فقد كان لاهل هذه الجزائر منازل فى أتيكا Attica وايوبيه Eubolea كما أثروا فى جماعات السكان الاصلية فى ايجينه Aegina وعلى برزخ كورنثه، ومن أبدع آياتهم الفنية كأس من الذهب استخرج من اركاديه •

وحاز هؤلاء أيضا قصب السبق فى غير ذلك من ضروب الصناعة ، فعمدوا الى رسم الزخارف على فخارهم بدلا من نقشها • ولا نعلم من أين قبسوا ذلك . ولعلهم نقلوه من بلاد اليونان نفسها حيث كان يزاول فى تساليه Thessalyمن زمن طويل . وأدخل فى ناحية البرزخ قبل أن يظهر سكان جزائر السيكليد فيها •

ولم نتبين تماما بعد مدلول هذه الثقافه . ثقافة « السلع المطلية » فى بلاد اليونان نفسها . فاذا كانت من صنع الاهلين فانها تفصح عن قوة فى الابداع • أما اذا كانت تدل على توغل

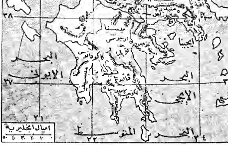


قطع من المظلمات الزاهية التى كان ينعم بها ملوك المينيويين

كان قصر كنوسوس فى العهد المينيوى المتأخر مزينا من الداخل بمظلمات زاهيه • على أن صلابة الجص الذى عملت منه هذه المظلمات ومتانته تحملاننا على القول بأن بعضها من بقايا العهد المينيوى الأوسط • وهذه المظلمات اما مستوية واما مجسمة كما هى الحال فى مظلم « الأمير » الذى أبيناه فى أسفل الصورة من اليسار • وتمثل السيدات اللباس المينيوى وتمشيط الشعر ، فالتى على اليمين منهن تعرف بالباريسية بالنظر الى شفتيها القرمزيتين ويمثل حامل الكاس الذى فى أعلى الصورة ناحية اليمين الجسم الكريتى فى عنفوانه • وكل هذه المظلمات قد رمم بعض الترميم •

ثقافة السلع المطلية الرومانية والأوكرانية جنوبا فى أواخر العصر الحجرى وهو الأرجح ، فان معنى هذا أن تلك الصناعة قد تغيرت تغيرا كبيرا فى البلاد الجديدة التى انتقلت اليها وتفرعت فيها مذاهب متمايزة كل منها خاص ببلد • ولم يقتصر المزخرفون السالبون على المشبكات والمبرقشات المألوفة فى مختلف أنماط الزخارف بل تعلم بعضهم رسم اللولبيات والزخرفة بالتخطيط ولعل أهل جزائر السيكليد قد قبسوا منهم مذاهبهم فى الفن ، غير انهم تفردوا فى تطبيقها ببراعة لا تجارى •

وتشابهت بين جزائر السيكليد وبين بلاد اليونان نفسها صلات كانت تبشر بامتداد السلطان لتجانس حضارة هذه البلاد آنئذ بل وتوحدها من البرزخ الى سفح جبل الأولمب ، على أنه قد أصابتها نكسة فى الوقت الذى بلغت فيه الجزائر أوج عزها • ذلك أن ثقافة جديدة نمت أو علمت على مكان بأواسط اليونان ، وكانت هذه الثقافة قليلة الحظ من الفن ، خلوا من أوانى الزهر المصورة ، لكن من الجلى أنها كانت أقوى من ثقافات البلدان المجاورة •



مهد الثقافة الميسينية

قد بينا فى هذه الصورة أهم المحلات اليونانية التى بدت فيها شواهد على ثقافة من ثقافات ما قبل التاريخ • ومرت هذه المحلات فى تقدمها بأطوار متقلبة تم عن المفاعلة بين مؤثرين أحدهما يونانى خالص والآخر سيكلادى ، ثم خضعت لسلطان كريت فى القرنين السابع عشر والسادس عشر ، وبخاصة عند رؤوس الأحوان المقابلة للجنوب الشرقى

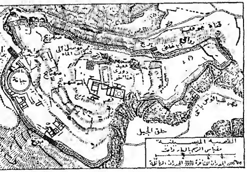
وكانت أرخومينوس ، وهى من أهم مراكز وأبقاها ، فى بيوطية Boeotia ، ولذلك نسبت هذه الثقافة الى بيت من بيوت الحكم ورد فى الأساطير ووعى ذكره العامة هناك فسميت بالحضارة المينوية • ويجب أن ينتكب فى هذا المقام الوقوع فى الأخطاء التى تنجم من استعمال اسم بيت من بيوت الحكم فى القرن الرابع عشر للدلالة على ثقافة قامت قبله بعدة قرون (انظر كذلك الفصل التاسع عشر) ، ويصدق هذا على كلمة مينوية Minoan •

نشأة الثقافة المينوية

وسرعان ما امتدت هذه الثقافة الجديدة من مهدها شمالا وجنوبا فنسخت أنماط تساليه الاصلية وكسفت صناعة اقليم البرزخ المتأثرة بالطابع الايجى ، وأبدلت أوانى الزهر المصورة بسلعها المصقولة الرمادية الخالية من الزخرف وجفانها البعيدة الغور البارزة العرى ، وأغلبها مرتفع القاعدة •

ولا نعلم الا النذر اليسير عن القوم الذين أحدثوا هذا التغير فى النمط • والذى نلاحظه أنهم شرعوا فى الجنوب فقط يخففون تدريجا من حدة عاداتهم ويتهيأون للعيش فى أوطانهم الجديدة وبين جيرانهم الجدد فى شمال المورة الشرقى فاستقروا فى منازل بسهول آرجوس ، فى ميسينى وتيرنز وآرجوس نفسها ، واتصلت هذه المنازل بكريت أكثر من اتصالها بجزائر السيكليد فكان اتصالها بالأولى حافزا رفع شأنها فيما بعد وأعز جانبها • ذلك أن شعب هذه الجزائر كان آخذا فى اضمحلال حلال هذه الفترة المينوية وأغلب الظن أن هذا الاضمحلال نشأ من اضطراب الأمور بينه وبين بلاد اليونان نفسها ، فغلب عليه شيئا فشيئا سلطان كريت فى الصناعات الفنية ، ولعل علاقاته السياسية لم تبرأ منه أيضا .

وما وافت أيام الفتوح الكريتية فى عهد العصر الثانى حتى كانت الثقافة المينوية قد تأقلمت تماما . وازدهرت فى اليونان نفسها ضروب من الحضارة الايجية حول سهول آرجوس بوجه خاص وحول البرزخ فى الخليج



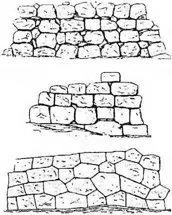
ما أبقى عليه الزمن من ميسينى الذهبية

كانت تيرينز محلة على طرف جون آرحوس ، وكان لها شأن في الزمن الغابر . ويظهر أن ظروفها لم تهيىء لها سبيلا الى التقدم الا فى ميدان واحد وهو التجارة التى تنقل برا . فقد كانت بين الجبال ، مشرفة على الطرق المؤدية الى البرزخ ، وكانت المقبرة فى أول الأمر خارج المدينة ثم دخلت فيها عندما امتدت أسوار المدينة بعد ذلك .

السارونى أيضا . وحوت هذه الحضارة أصولا مينوية وميتيوية وبلغت فيما يظهر مستوى رفيعا . وقد درست بعض المواقع الهامة دراسة مستفيضة مثل تيرنز وهو حصن قديم بالقرب من جانب الوادى المطل على البحر . وقد رمم الآن بل أعيد تحصينه ، وأسينه Asine وهو أمنع موقعا وأكثر انعزالا من سابقه ، وعلى مسافة يسيرة جنوبى الخليج ، وميسينى بالقرب من طرف سهل آرجوس الأعلى وهو يشرف على الممر الذى يسير بين التلال الى كورنثة والى الشمال .

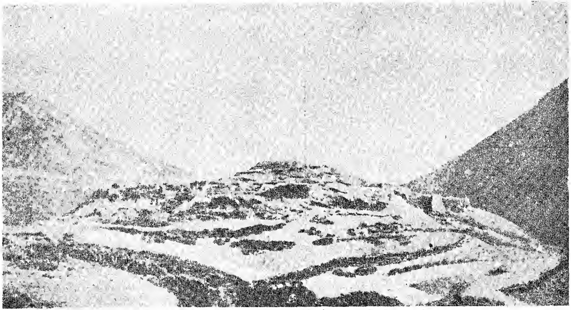
تقع «ميسينى الذهبية» «المشرفة على الطرق الواسعة» حاضرة أجاممنون ومقامه وقلعته خلال حرب طروادة فى « طرف آرجوس » على حد قول هوميروس من زمن بعيد ، وينفسح هذا السهل الذى كان واسعا خصبا فى يوم من الأيام الى الخليج المعروف باسمه على الساحل الشرقى من شبه جزيرة اليونان . ويبلغ طول الجانب المطل على البحر من هذا الساحل حوالى أربعة أميال،وهو يبدأ من حصن نوبليا Nauplia المنيع وثغرها ، القديم والحديث ، الى بطائح لرنا Lerna جنوبى مدينة آرحوس حيث ذبح هرقل الافعوان ذا الرءوس المتعددة المسمى (هيدرا) كما جاء فى أساطير اليونان ، وحيث ترقى سكة الحديد الى هضاب أركاديا فى عسر ويوغل السهل الى ما يقرب من ثمانية أميال من الخانق الذى يسير فيه الطريق والسكة الحديد شمالا فيمر بنيميا Nemea ويصل الى كورنثة .

ويقوم الى الشرق من هذا الطرف الأعلى للسهل طنف تكتنفه قنتان بديعتا التكوين ، وبفصلهعنهما مسيلان منفرجان. وهذا الطنف لا شأن له الآن ، ولكنه كان فى يوم من الأيام أشهر مواقع الناحية بأسرها . وهو يشبه قدم انسان يمنى بتركعبها وغرست فى الأرض بحيث تستند عقبها على جوانب الجبل وتشير أصابعها الى السهل. وتحت صدر القدم المسيل الكبير الذى عرّق المنحدر الوعر فجعله وهادا تراكمت فيه ضخام الحجر . ويلتف الطريق الكبير الذى يبدأ من البحر والسهل حول الأصابع الكبيرة الى ظاهر الكعب وينعطف



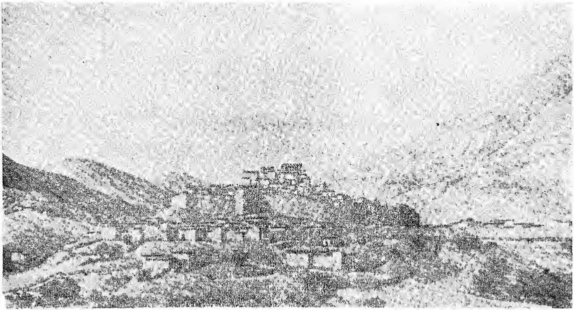
كيف حصنت ميسينى

من الملاحظ أن بناء أسوار ميسينى كان على ثلاثة أشكال : الشكل الأول وقد عرف بالدائرى لانه عبارة عن كتل حجرية (أنظر الصورة العليا) غير منحوتة تلتف بمعظم الدوران . والشكل الثانى عبارة عن كتل مستطيلة من حجارة منحوتة تبنى بها أبواب الأبراج . والشكل الثالث هو البناء الكثير الأضلاع من ناحية أو ناحتين . ومن الواضح أن الشكل الأول هو أقدمها .



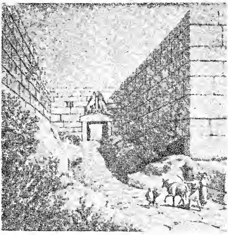
تل أجدب مزقه الآن معول عالم الآثار ، وكانت تتوجه يوما ما أبراج ميسينى

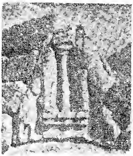
ينبسط السهل الذى على رأس خليج آرجوس شمالا ويتوغل فى التلال حوالى ثمانية أميال . ويهبط من ربض السهل الشرقى عند طرفه الأعلى ، ومن بين قنتين شماوين هما الياس وزارا مسيلان ينفرجان حول تل قائم برأسه . وفى هذا المكان المنيع تقوم أطلال ميسينى التى كانت عزيزة الجانب فى يوم من الأيام ، ميسينى قصبة أمير الحرب الآخى أجاممنون وحاضرة ملوك عفا عليهم النسيان من قديم ، بل غابوا عن ذاكرة الناس حتى فى أيام هذا الأمير . ويسير طريق واحد من اليمين الى الشمال أسفل المدينة فى هذا المشهد الشرقى وهو يبدأ من كورنثة والبرزخ . وثمت طريق آخر يرقى بين القنتين خلف المدينة .



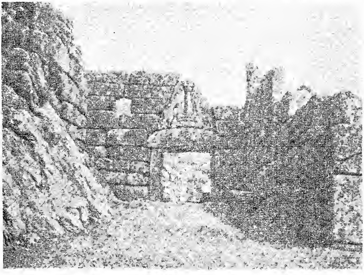
مشهد الى الشرق من سهل آرجوس تجاه ميسينى كما كانت تبدو فى عزها

جمع ملوك ميسينى ثروة بنوا بها المدينة التى استعدنا صورتها فوق هذا وكدسوا الذهب الذى أصبح مضرب المثل . ولعلهم حصلوا هذه الثروة من المكوس التى كانوا يجبونها على السلع التى كانت تنتقل فى المسالك الجبلية شمالا وجنوبا بين حواجز بووطية والمورة بطريق برزخ كورنثة . وهذا المشهد قريب كل القرب من الصورة الشمسية المقابلة له . فالحصن المربع البناء فى الوسط هو برج باب الأسد ، أما البرج الصغير الذى الى اليمين فقد استعملت فى بنائه الأحجار الكثيرة الأضلاع .





لعل العمود الذى فوق الباب كان شارة القصر الملكى والغالب أن الوحوش وبخاصه السباع، كانت تظهر فى رفقة الالهه الأم أوفى حراستها فى جميع البلدان من اليونان الى الأناضول ومن هنا نبتت فكرة حراسة الالهه فى ميسينى أو ملوكها ·



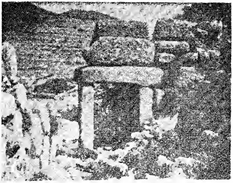
لم تكن العقود معروفة عند الميسينيين ، والغالب أن أسكفة الباب كانت عندهم بلاطة واحدة · وأزاحوا عن كاهل الاسكفة ثقل طبقات الحجارة المرصوصة فجعلوا ما فوقها خاليا ، وقد جروا على ملء هذا الفراغ بحشوة زخرفية لا شأن لها فى العمارة · ومن شواهد هذه الحشوة النقش المشهور الذى يعلو الباب الكبير المؤدى الى ميسينى ، وهو يمثل أسدين مما يرسم على الدروع يحرسان عمودا مقدسا · وقد بقى هذا الجانب من الحائط سليما ومن ثم لم تكن هناك حاجة الى التخيل عند استعادة صورته ·

باب الأسد الشهير كما كان وكما يبدو اليوم

فيدخل القلعة التى تشرف حصونها الوعرة على هذا كله كأنها حجل مارد ، وتضم فى رحابها بقايا قصر يرجع الى ما قبل التاريخ وآثار معبد يونانى بنى فيما بعد فوق أطلالها ٠

وانتشرت أحياء المدينةالآهلة بالسكان على المنحدرات التى لا تبلغ من الارتفاع مبلغا كبيرا ٠ وبين هذه الأحياء الطرق الواسعة تحف بها الحقول المدرجة التى استرعت عين الشاعر ٠ وفى هذه الحقول تغوص قباب الأهلين الرائعة بين الصخر الصلد فلا يكشف عن مكانها سوى أطواقها الموشاة ، وقد نهبت هذه القباب قبل عهد هوميروس مما حدا بهذا الشاعر الى أن يجعل ميسينى ال « مدينة الذهبية » التى تغنى بها فى شعره ٠

ولم يكن مستطاعا أن يقف دون ميسينى وقد تهيأت لها الأسباب ما يحول بينها وبين بلوغ الشهرة والرخاء اللذين حلا بها سريعا عندما بدأت اليونان نفسها تنعم بنصيب من الحضارة التى بزغ فجرها بكريت وجزائر ايجه فى مستهل العصر البرونزى خلال الألف الثالث من السنين السابقة للميلاد ٠ فموقع هذه المدينة فريد وثروة السهل فى يدها ، وبها حقول القمح ومراعى الجبول المشهورة وفى طرفها الأعلى تلتقى



باب خلفى فى سور ميسينى الشمالى

كان يشق أسوار ميسينى الممتدة التى بنيت فى زمن فى زمن متأخر بابان ٠ أحدهما باب الأسد الذى أثبتنا صورته فى صفحة ٦٩ ٠ والثانى هو هذا الباب الخلفى فى الجانب الشمالى من السور ٠ وكان يدعم البابين ويحميهما قنتان من الأبراج يشرفان بمحاذاة السور مما يدل على أن القوم كانوا يفهمون خطط الحصار فهما صحيحا ٠



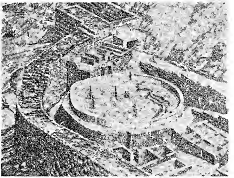
السلم الذى كان يرقى الى قصر ميسينى المشمخر

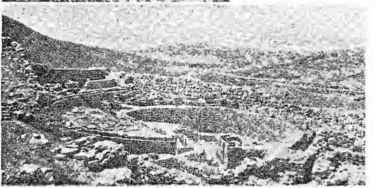
لم يبق الا القليل من آثار قصر ميسينى فيماخلا الأساس ومطلع السلالم كما نراها فى هذه الصورة من الشمال الغربى ٠ وفى ترتيب القصر من الداخل سمات البيت اليونانى فى العصور التاريخية ، على أننا نستدل من كسر الطنوف والوريدات والمعجون الأزرق التى وجدناها بين بقايا القصر على أن زخرفه الخارجى كان غريبا كل الغرابه عن مألوف القدماء ٠

الطرق الآتية من بلاد الوادى فى الداخل ، ومن الثغور وشواطىء خليج كورنثه الخصبة ومن الشمال الأقصى ، ونعنى بذلك الطريق الكبير المشهور ، طريق البرزخ • على أن مزايا ميسينى الحربية والاقتصادية لم تقدر الا بعد أن مضى وقت طويل على احتلال السهل الأسفل بقلعته الرائعة عند تيرينز ومحاله الأقدم من القلعة نفسها حول جبل لاريسا المنيف فى آرجوس . فقد أدرك القوم أنها تهيمن على البطاح التى تفصل أسافل آرجوس عن كورنثة وتلتئم فيها الجموع لدفع الواغلين من سكان التل أو المهاجمين من البحر ، وهى الى هذا وذاك معقل يخرج منه الجباة فيحصلون الضرائب من المنازل المجاورة ومخفر يرقب قوافل التجارة وهى تجتاز الطرق •

ولقد مرت ميسينى فى حياتها الطويلة بثلاثة أطوار هامة .

الطور الأول : وكانت القلعة خلاله لا تزال صغيرة ، وان كانت قوية التحصين ، وكانت مقابر أمرائها غائرة ضاربة فى الصخر خارج الأسوار بمحاذاة الجانب العلوى من مدخلها الكبير • والحق أن كشف هذه المقابر قصة من أروع قصص علم الآثار الحديث وفصل جديد فى حكاية ما قبل التاريخ • وبطل هذه القصة هنريش شليمان Henrich Schliemann ، فقد انكب على العمل فى حماسة لا يعتورها ملل أو كلال خلال عام ١٨٧٦ وما تلاه فكشف ما فى هذه المقابر من مكنونات تخلب الألباب فمن أوان وخواتيم وقلائد ذهبية الى حلى وملبسات من الذهب متداخلة الزخرف صيغت لتزيين الأثاث والملابس ، واستحال ما ناله البلى منها ترابا أو كسرا • ولا تدل هذه التحف على أن القوم كان لهم صناعة بارعة ذات رسوم كثيرة متداخلة فحسب بل تدل أيضا على أنهم كانوا يتفردون بفن كامل له تقاليده وأغراضه ، وليست هذه التقاليد والأغراض بريئة كل البراءة مما ساد





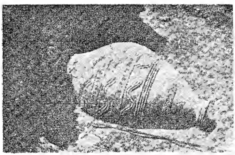
الدائرة التى كانت تضم النفائس الملكية فى القبور الغائرة

كان ملوك الميسينيين يدفنون خارج السور كما هو مألوف القدماء • فلما امتد السور فشمل مقابر أجدادهم لم ينسوا أن يحيطوا هذه المقابر بسياج لقداستها ، وقد أثبتنا فوق هذا منظرها اليوم والمنظر الذى يحتمل أنها كانت عليه عقب تمامها مباشرة • وبينا فى صفحه ٨٠ حجارة المقبرة • وهى من المقابر التى أزاح فيها شليمان الستر عن كنز الذهب المشهور • وتشمل هذه الصورة المستعادة داخل باب الأسد •

العهد السابق للعهد اليونانى ، ذلك أن هـذا العهـد ، عهـد الحضـارة الميسينية كان يمتد حوالى عام ١٨٠٠ ق ٠ م الى عام ١٥٠٠ ق ٠ م ، على أنها ليست يونانية فى شىء ، ولم تكن عند كشفها تمت بسبب ما الى أى أثر من آثار اليـونان التى يمكن أن تقـارنها بها ٠

ولم نستبن المدلول الحقيقى للمقابر الغائرة أو نعرف خباياها الا تدريجيا ، ذلك أن السير آرثر ايفانز-Arthur-Evans قد تمكن بفضل ما أظهره من جلد وما حباه الله به من ألمعية أن يفعل ما فعله كاشف ميسينى وبيزه فى هذا المضمار ، ومن ثم أدركنا أن هذه المقابر ومحتوياتها هى آيات فرع من الثقافة المينيـــوية زكا فى مســــتعمرة من مســتعمرات المينيـوين ، وأصــل فى اليونان نفسها على ساحل من سواحل وطن ابجه ، وما من شك فى أن هذا الوطن الذى يبدو فى أعين المحدثين صغيرا صغر سهل آرجوس وأرباضه كان وطنا مهولا مثل انجلترا الجديدة أو فرجينيـا قبل أن يكتشـفها روادها الشجعان ٠

وقد حدث فى تاريخ متأخر عن هذا ، وفى



مألوف العامة فى الدفن

لا شك فى ان المبانى كانت خارج ميسينى . ذلك أن هذه المدينة كانت مجرد قلعة او تزيد قليلا ، وفيما خلا المقابر لم نعثر الا على مبان من ذوات الحجر الواحد ٠ وحتى هذه المبانى اتخذت مقابر . والظاهر أن ذلك كان عقب تهدمها لان الجرة (مرسومة فوق هذا) التى وجدت فيها كان بداخلها عظام ٠

خلال اتساع رقعة ميسينى اتساعا لا نعلم عنه الا القليل أن أحيطت هذه القلعة هى ومقبرتها القديمة التى كانت قد نسيت أو كادت بسور اكبر من سابقه وأمنع.وغدا بابها الرائع المعروف بباب الأسد هو والبرج الذى يدعمه يسير منفذا جديدا قد تهيــأت له أسباب الدفاع أكثر من



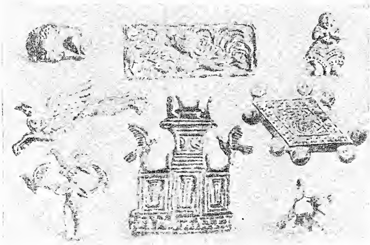
ربما كان هذا مجلس عمال أجاممنون وهم يتلقون الجزية

يمر دهليز باب الأسد بمحاذاة المقبرة التى لم يبد منها الا جزء بسيط فى يسار الصورة ٠ على أن مدخلها ظاهر فى صدر الصورة ، بين جدارين كل من ثلاثة ألواح من الحجر ٠ وخلف المدخل طائفة من المبنى تعرف بالأهراء لمشابهتها للحواصل التى فى قصور كريت ٠ ولعلهـا بنيت لتلقى الجزية التى كانت تمر من باب الأسد ٠

سابقة . ثم قام بعد ذلك نفر من أهل التقى أو المتعلقين بالخرافات ببناء سور من الحجر أحاط بكل ما يمكن أن يتعرف عليه من المقبرة القديمة ونقلوا اليها ما أمكنهم جمعه من أحجار المقابر الملكية ، وهناك عثر سليمان عليها كما عثر على مقابرهم تحتها . ولا أدل على الثروة العظيمة التى كانت تدرها أملاك هؤلاء الأمراء من هذه المقابر الغائرة القديمة أو قل الكنوز التى ضمت ما حوته المقبرة جريا على مألوف القـدماء مما سنصفه بعـد . وكان أثر جهاز الميت من الذهب ، مثال ذلك كؤوس الشراب والحلى التى يتزين بها الانسان ، والألواح المنقوشة التى كانت توشى بها الأبواب أو السجف أو تحلى بها الصناديق الخشبية التى اندثرت الآن . وقد وجد من هذا كله شيء كثير محلى برسوم شتى أغلبها لولبى . وان كان من بينها أيضا أشكال نبات وحيوان . وأحيانا مشاهد آناسى مثل مشهد صيد الأسد الذى كفت (طعم) فى سلاح خنجر واستعمل فى رسمه مزيج من عدة ألوان .

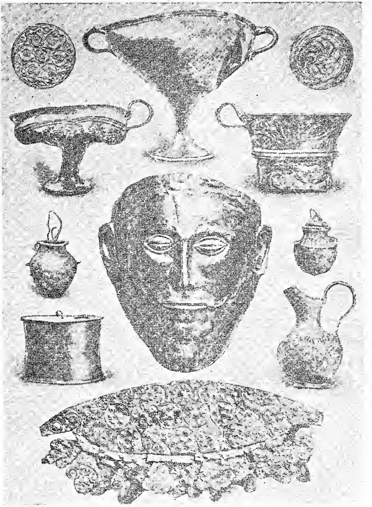
وكانت الفضة نادرة ندرة تثير الدهشة . أما الشبهان فكان متوفرا وقد صنعت منه أشكال بديعة تساعدنا على تفهم بعض خصائص فخار هذا العهد وتنبئنا بأن بعض الأوانى التى جلبت الى تحتمس الثالث ضمن الجزية كانت من صنع الميسينيين . وهكذا كانت الصدفة سببا فى تأريخ المقابر الغائرة فأضفناها الى القرن السادس عشر قبل الميلاد أو نحو ذلك . ويوحى لنا بعض فخار هذه المقابر بأن تاريخها أقدم من ذلك . ولكن من الواضح أن الكنوز الأصلية ترجع الى عهد طويل ممتد .

وتنتشر فى خارج القلعة ، فوق المنحدرات السفلى والى مسافة منها ، مدافن أخرى عرفت بالمقابر الخليوبة (نسبة الى خلية النحل) وهى أروع عمارة من أى مقبرة من المقابر الغائرة . ولعلها لا تقل عنها تجهيزا ، ولكن من المؤسف أنه قد تبين من الحال الراهنة لهذه المقابر الجليلة الذكر أن محتوياتها جميعا قد نهبت أو أنها جردت على أقل تقدير من كنوزها الأصلية بل استعملت فى بعض الأحيـان مرارا . وحتى واجهاتهـا المنقوشة لم تسلم من عبث اللصوص المتأخرين . ومن هـذه المقابر واحدة هى أكبرها برئت صناعتها من كل عيب وتحـدت الزمن وتبشت



حلى بديعة من ذهب لطيف مطروق

يكشف لنا الصائغ الميسينى فى مصوغاته المنقوشة عن صنعة دقيقة جدا . ففى هذه الصورة ، الى اليسار . نرى أسدا مقعيا لطيف الصنعة ، وعنقاء طائرة وتمثال الهة معها حمائم والى اليمين تمثال صغير لامرأة ، وصحيفة ذهبية ذات أزرار رائقـة . وثور تتدلى من أحد قرنيه كفنان . والبيت الصغير فى وسط الصورة من الطرافة بمكان لأنه يبين لنا الارتفاع الكامل لمبنى من المبانى وفوق هذا البيت صحيفة ذهبية مستطيلة تمثل أسدا يطارد ظبيا ، وهى واحدة من اثنتى عشرة صحيفة تغطى حقا خشبيا مسدسا .



شواهد جميلة من فن الصائغ الميسينى

من النفائس التى وجدت فى القبور الغائرة بميسينى تحف تستأهل التنويه بنوع خاص وهى هذا التاج الذهبى الرائع تزينه ثلاثة صفوف من الوريدات . والقناع الذهبى الثقيل الذى يغطى وجه ميت ، وكان فى المقبرة نفسها ٧٠١ صفيحة ذهبية منقوشة (أنظر الصورة الأعلى ويمينها ويسارها) ولعل هذه الصفائح كانت تستخدم فى تزيين الملابس • بين الكؤوس آنية لطيفة لها مقبضان (فى طرف الصورة الأعلى ووسطها) وآنية ذات مقبض واحد (الى اليمين) وكانت الأوانى الصغيرة التى الى مستدير نقش عليه صنفان من السمك (الى اليمين) وكانت الأوانى الصغيرة التى الى جانبى القناع من دقائق جهاز الميت •

للأحداث الى اليوم، وقد سماها المنقبون عن الآثار كنز أتريوس نسبة الى أبى أجا ممنون سيد الرجال فى قول هوميروس • وهى قبة عظيمة العمارة يبلغ قطرها حوالى خمسين قدما وارتفاعها نحوا من ذلك، وتزن أسكفة بابها نيفا وأربعين طنا وشكل هذه المقابر الخلويه جدير بالتنويه لأنه مثال لضرب من حجرة جهاز الميت التى اختصت بها كريت المينيويه القديمة ، ولعلها من تراثها اللوبى Libyan القديم •

ونستدل من تفحص المحدثين للأنقاض التى فى أرض هذه المقابر ولبقاياواجهاتها المنقوشه والمصورة على أنها مرحلة من مراحل تاريخ ميسين أوثق صلة بنظيرتها فى تاريخ المقابر الغائرة مما كنا نظن • وقد أثيرت النظرية القائلة بأن المقابر الغائرةنفسها هى المستقر الأخير لساكنى المقابر الخليوية وجهازهم الأول ، وتقوم هذه النظرية على عادة القوم الشائعة فى تكرار الدفن مما مكنهم من استعمال غرف الجهاز الكبيرة مرارا وتكرارا • والظاهر أن أبحاث هؤلاء المحدثين انتهت الى أن كنز أتريوس قد رمم وأن مدخله أصلح فى وقت أضحت الأرض فيه تحتوى على بقايا من جهاز المقابر الثمين • وعثر منقبون أحدث من هؤلاء على مقبرة سليمة فى ميديا ، وهى محلة صغيرة فى منتصف الطريق تقريبا بين ميسينى وثغرها نوبليا ، ووجدوا فيها حتنا وكنزا ذهبيا من طراز ما وجد فى المقابر الغائرة •

وبقى من قصر أصحاب هذه المقابر الخليوية أطلال كثيرة تتوج القلعة ، ويرقى القاصد اليها سلما فسيحا ثم يلج رواقا فى مدخلها ينتهى بصفة يصلها بالصحن الكبير دهليز ، وطليت أرض هذه الصفة وحوائطها بالجص الملون على نسق يذكرنا بزخارف قصر كريت، بل هو أقرب الى زخارف القصر المجاور فى تيرنز بالقرب من البحر ولعله أروع منها خطة وأسلم منها كيانا •

ومن البين أن قصور بلاد اليونان نفسها قد شيدت لقوم مينيويين الثقافة والعادات ، لكن خطتها تدل برغم ذلك على أن ساكنيها لم يروا



تحفة نفيسة من المعدن

من أروع التحف المستخرجة من القبور الغائرة رأس ثور بديع من الفضة • قرونه والوريدة التى على جبهته من الذهب ، وبهذا الرأس آثار ذهب مرصع •

بدا من رياضة أنفسهم على ظروف لم يألفوها • فأسوار القلعة المنيعة والأبواب المقامة لدفع المغير تفصح عن احساسهم بالخطر ، وليس هذا بعجيب من أناس يعيشون بين اقليمين أحدهما متحضر والآخر همجى لا يعرف الاستقرار • ومن هنا غدت القصور قلاعا متمايزة عن المدن، كل قصر يشرف على المدينة التى فى كنفه • والظاهر أن العمال كانوا يعيشون خارج القلعة ، وكانت حالتهم أعسر من غيرهم ومدخرهم من الثمرات أقل ، ولم يكن لهم حظ موفور من النعم التى ترفه عن الناس فتربط بين طبقاتهم جميعا وتوحد مصالحهم ومشاربهم •

أما أولئك الذين كانوا يعيشون فى القلعة ، ونعنى بهم الامير وبطانته ، فقد كان الصحن الكبير أظهر سمات مسكنهم ، وقوام خطة البناء كله • والمناخ فى هذه الناحية أشد تقلبا من المناخ الجزرى ، وأميل منه الى البرودة ، ومن هنا أقام أصحاب القلعة فى صحنها مدفأة ثابتة ، واستلزم هذا بطبيعة الحال سقفا به



الدفاع عن مدينة ميسينية

من أبدع النقوش التى تمثل الحياة الميسينية كسرة من آنية فضية تصور حصار مدينة • وقد اخترق القاذفون بالمقلاع ورماة السهام وأصحاب الحراب الحصار فى حين زحمت النسوة الشرفات قلقات يبدو ذلك فى ايماءاتهن •

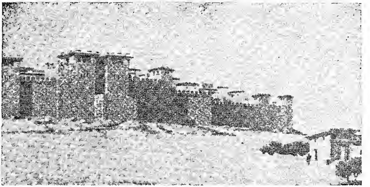
منافذ ينطلق منها الدخان . وكان بالبناء أيضا دهليز مغطى . على أنه لم يكن ثمت منفذ للضوء .

واستعاض أهل تيرينز عن أحواض الاستحمام المألوفة فى كنوسوس بغرفة مبلطة بالحجر مزودة بقصاع متنقلة متوسطة الحجم مما يسر ملأها بالماء الساخن ، وظل هذا حال الناس فى المجتمع الهومبرى .

وكانت الحياة فى هذه العصور المسينية خلال القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد مزيجا عجيبا من بساطة الأوائل وترف

لهم حظ موفور فى ضروب الطعن والنزال فكان الأبطال يتبارون وعدتهم فى ذلك سيوف عريضة ورماح لها مقبضان ، ودرع كبيرة لينه من جلد الثيران يقى الجسد وقد موهت حواشيه ووشى بالذهب أو بالشبهان المذهب ، وعلق فى حزام كتف المقاتله فتدلى على صدورهم .

وكان القوم أيضا يحبون خيولهم وكلابهم وثيرانهم المتراخية المترنحة ويميلون الى صيد الأسماك والطيور والظباء ،ولعلهم كانوا يؤثرون على ذلك كله لقاء الأسد التى هبطت مع غيرها من قطعان الحيوان الى اليونان ، وما زال هذا



قبل يحمى مسينى من الخطر الذى يهددها من البحر

اذا كان خير ما توصف به مسينى أنها قلعة فان أسوارها غدت تضم عمائر أخرى غير القصر الملكى أما تيرينز فالظاهر أنها كانت مجرد قلعة اقطاعية تتألف من عدة مساكن للأمير وحشده وبطانته شأنها فى ذلك شأن قصور كريت ولا تختلف عنها الا فيما يحيط بها من حصون هائلة . ونسمع بها أشعار هوميروس فقد جاء فيها أنها كانت تحت أمرة وجيه من وجهاء أجاممنون . ومع هذا فان موقعها كان أقدم شأنا من مسينى .

المحدثين . فقد كان هؤلاء القوم يسرفون فى تو شيه المبنى والأثاث والملابس والحلى بأشكال كثيرة حاكت الطبيعة حينا ولكنها جرت كل مجرى على غير قاعدة وأصبحت فنا جديدا عماده اللوليبات والزواويق . تتحر الأشكال حينا فى الأشكال ، وكان أصحاب هذا الفن أبرع فى تخيل الرسوم منهم فى ابرازها ، وامتازوا بتوقد الخيال وخفة اليد .

وكان هذا العهد عهد الصنعة اليسيرة التى تجنح الى البهرج . أما من حيث الرياضة البدنية فقد كان عند القوم ألعاب خطرة بل قاسية وعراك على جوائز ومطاردة الثيران كما هى الحال فى كنوسوس . وكانوا أيضا يصيدون الخنازير والأبقار فى الفلوات . وكان

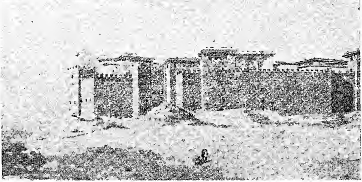
دأب الناس فى رودسيا الى يومنا هذا . أما نساؤهم فكن أهلا لهذه الضروب من الرياضة . كانت عيونهن واسعة وشعورهن مرسلة ، كن مخلوقات سليطات يلبسن أزارا معرجا مطرزا وصدارا قصير العنق قصرا مفرطا،وكن يرقصن ويلعبن والظاهر أنهن كن يخرجن للصيد كما يفعل الرجال ويشاركنهم فى الأعياد والعبادات ويلوحن بأيديهن توديعا لهم فى خروجهم للقتال وينحن على الترس خلا من صاحبه بعد انفضاض القتال .

كل هذا وأكثر منه نراه مصورا تصويرا ينبض بالحياة على مظلمات القصر وحجارة المقابر والزهريات المنقوشة ، وعلى الأختام المحفورة من الحجر والخواتيم التى يلبسها كل

منهم ، وقد جروا أيضا على أن يصونوا الزاد والنفائس فى خزانة كما نفعل اليوم عندما ندير المفتاح فى القفل ·

والظاهر أن خليج آرجوس كان أقدم المستعمرات فى بلاد اليونان نفسها ، وقد ظل دواما أهمها ، ومع ذلك فلم يكن المستعمرة الوحيدة فى هذه البلاد · ذلك أننا وجدنا فى مقبرة ڤافيو Vaphio من أعمال لاكونيا ، وهى مقبرة من الطراز الخلوى . زهريات بديعة على نسق ما وجدناه فى قصر كنوسوس ، وكأسين من الذهب عليهما صور تمثل مطاردة الثيران ، من آتيكا ، وفى بووطية وفى قصبة آرجومنوس المنوية القديمة ولهذه المقابر سقف رائع من الحجر المنقوش · وهو فى جملته تقليد بارع للصنعة المصرية ونجد هذه المقابر أيضا فى جهة قصية مثل جنوبى تساليا · وعثر على مقابر هذه الناحية فى الأكمة التى تكونت من موقع قرية من القرى ، وربما كانت هذه القرية قد هجرها سكانها وقتذاك واندرست معالمها ·

أما فى الجهات الأخرى فلا نعرف الحد الذى بلغه المينويون فى توسعهم ، ففى نهاية عهد القصر على الأكثر قامت المحلة الكبرى فى



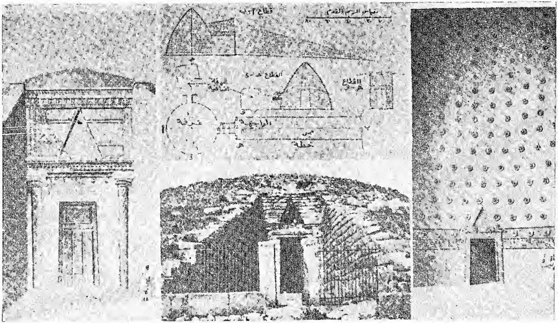
أسوار مكينة تحيط بالقصر الثاني بتيرينز

كان فى موقع تيرينز قصران متعاقبان وما لا يقل عن بنائين أقدم منهما لا نعرف لهما كنها · وهذا الرسم تصور بارع قديم لمظهر القصر الثانى فى طوره الأخير استند فيه الى أشياء من قبيل نموذج البيت الذهبى المثبت فى صفحة ٧٣ · والطريق اليه فوق المنحدر وقد بدا فى هذه الصورة من خلال الباب وكذلك الى اليسار بين السورين حتى باب المحافل وقد ظهرت أعمدته فى صفحة ٧٧ (أنظر أيضا الخطة الموضحة فى الفصل الثامن والعشرين) ·

وهذه التحف من آيات صياغة المعادن عند المينويين · وفى ميسينا ، عند كمپوس Kampos مقبرة أخرى من هذا الطراز ، وما فيها دون ما فى الأخرى ، بيد أنها جديرة بالاهتمام لاحتوائها على تمثال ملاكم مموه بالفضة ، ويعد هذا التمثال من أروع تحف الصياغة · وعلى مسافة بعيدة من كمپوس ، أى عند كاكوفاتس Kakovatos، وقد تكون بيلوس نسطور ، بالقرب من الشاطىء الغربى للمورة مقبرة ملكية وقلعة ألحقت هذه المقبرة بها ·

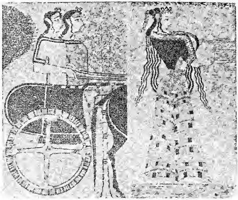
ولما تزل المحال قائمة فى مسينا ولاكونيا ولعلها لم تحصن ، ومن هنا سهل محوها من الوجود · وفى جزيرة أيجينا الى الشمال من آرجوليس مقابر خليوية وكذلك فى نواح مختلفة ايالسوس من أعمال رودس · وقامت المستعمرات المينيوية بقبرص فى الطور التالى · وثمت تشابه كبير فى أسلوب الصنعة بين مظلمات قصر كريت والمظلمات التى نقشت فى مصر أيام الأسرة الثامنة عشرة ، وان كان طراز هذه وموضوعها يختلفان عن تلك تمام الاختلاف ، لأن مظلمات كريت مينيوية خالصة ·

وقلما كانت تصل التحف المينيوية الى مصر · ومن أمثلة هذه التحف آنية زهر متميزة كانت فى مقبرة ماكت ، ويرجع تاريخ هذه المقبرة الى حوالى عام ١٥٠٠ ق·م · وكان فى بلاط تحتمس الثالث « عامل على جزائر وسط البحر » وليس لدينا مع ذلك دلائل تنبىء على الأقل بأنه زار ولايته أو أنه كان لمصر مصالح جوهرية فى هذه



تفصيل مقبرة من المقابر الخليوية دفن فيها ملوك بيت ميسينى

كان ميسينى فيما خلا المقابر الغائرة التى فى الفرافة مقابر خليويه عظيمة مستقرة فى كنف هضبة يرقى اليها بدرج ، وهذه المقابر مبانى من حلقات تستدق كلما ارتفعت • والمقبرة المعروفة بكنز أتريوس أفخمها جميعا ، وهى أيضا من أكبرها • وقد بيننا فوق هذا الكلام خطتها وصورتها الشمسية وصورتها المستعادة • والظاهر أن باطنها (وقد استعدنا صورته وأثبتناها الى اليمين) كان مزينا بوريدات من النحاس ، نستدل على ذلك من ثقوب فيها كانت تمسك بها ولا نزال نراها فى الصخر ، ولهذه المقبرة غرفة احتياطيه ، وهى فى هذا تخالف معظم المقابر الخليوية •

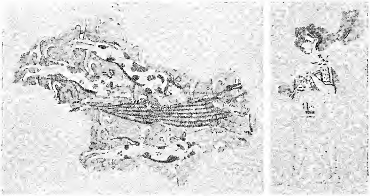


ملابس النبلاء والنبيلات الميسينين

سلمت مظلمات تيرينز أكثر مما سلمت مظلمات ميسيني لأن المدينة الأولى هجرت منذ عهد بعيدفي حين ظلت الأخرى مسكونة فى عصر اليونان الأقدمين · وقد رممت بطبيعة الحال هذه المظلمات وتلك ، على أن ترميمها كان أقل من غيرها · وتلبس الكاهنة التى الى اليمين الصدرة المفتوحة المعهودة والازار الفضفاض اللذين صنعهما نساء المينويين فى كريت ·

الانحاء · وقد سبق أن بينا أننا تعرفنا بعد ذلك فى ايالبسوس وميسينى على بضع خواتم مصرية وتحف أخرى نقشت باسم الملك أمنحتب الثالث وزوجة الملكة تيى · على أن عهد الارتباط الوثيق بمصر جاء بعد النهاية المفاجئة لنظام القصر ، ولعل لهذه النهاية صلة بذلك الارتباط ·

وكانت ميسينى تقوم حيث هى ثغرا للحضارة المينوية تجاه قلب بلاد اليونان نفسها ، وكان أهله أجلافا جفاة لم تصقلهم الحضارة بعد ، واحتفظت فيما يظهر بقوة مستثيها الأوائل واقدامهم · وليس من اليسير أن نعرف مدى افادتها من اختلاط دم أبنائها بدماء أبناء اليونان نفسها أو بدماء أنسال الغزاة المينويين الذين وفدوا من أواسط بلاد اليونان · والذى لا شك فيه أن ميسينى وغيرها من محال هذه البلاد تململت من وطأة نظام القصر الكريتى وأبهظ كاهلها فلم تعد تطيق احتماله · والظاهر أن ولايات اليونان نفسها كانت الاصل فى خراب قصر كنوسوس حوالى عام ١٤٠٠ ق · م · وفى صرف أهل الأرخبيل عن الطراز الكريتى وأسلوب الحياة الكريتية واصطناع الطراز الميسينى وطريقة الميسينيين فى الحياة ولعلنا نستطيع أن نعرف ما بقى فى أذهان العامة عن هذا الحادث الجلل من الأسطورة اليونانية التى



تزجية شاقة لأوقات الفراغ

كان وجوه الميسينيين يحبون تصوير بعض الأحداث ، واذا جاز لنا أن نصدق هذه الأحداث حكمنا بأنهم كانوا على ما يظهر يستغرقون وقتهم فى الصيد والاقتتال · وتمثل مظلمات من قصر تيرينز الثانى أقرب هاتين الرياضتين الى لسلامة وهى مطاردة كلاب خنزيرا وقد وقف صياد يحمل رمحين ، ولا شك فى أن الصنعة كريتية أو مينوية ·

تحدثنا بخبر نسوس بطل هذه الحياة من بلاد اليونان وكيف حرر وطنه من نيركوسوس الغاشم . وثمت رواية أخرى قد تلقى ضوءا على هذا الحادث وان تكن مستمدة من الاساطير ذلك ان قصة كريتية تحدثت عن حملة على صقلية استنفدت مصادر « قوة مينوس البحرية » وهي من قبيل الحملة التي شنتها أثينا في القرن الخامس ق . م فكانت السبب في خرابها .

وتحطمت قوة كريت البحرية فهب المسينيون على اسلائها ، وسرعان ما بسطوا سلطانهم على بحر ايجه فحلوا بجزائر ايجه وبالجزائر الوسطى وبأطراف الساحل حتى بانموس شمالا . ولم يقف المسينيون عند هذا الحد فقد نزلوا في الوقت نفسه بطول جبهة الاقليم المينوى القديم شمالى البرزخ ، ونحن نستطيع أن نتتبع محالهم في تساليه بل في مقدونية بالقرب من سلانيك . وكان هذا حالهم ايضا في البحار الواسعة وراء حاجز كريت المديد حتى قبرس شرقا وكورفو وجنوبي ايطاليا وشرقي صقلية وكان للدولة المسينية علاقات وثيقة بمصر أيام امنحتب الثالث ومن خلفه وبالدويلات الزاهرة المتحضرة التي كانت على ساحلي الشام وقليقية .

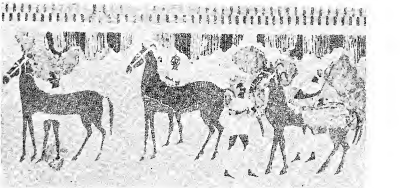
وليس من الهين أن نعرف الى أى حد تمركزت الحضارة المسينية من ناحيتها السياسية



لمحة عن الحرب عند الميسينيين

هذا رسم حجر من أحجار المقابر وجد في المقبرة المسينية التي نرى صورتها المستعادة على صفحة ٧١ . وهو يمثل مقاتلا في مركبته ورجلا عند رأس الحصان . واللولبيات من خصائص هذا الفن .

والاقتصادية في مسينى ، ذلك أن الطبقات العليا لارضها قد اضطربت اضطرابا عظيما من تداول السكان عليها ونزوحهم عنها الى غير رجعة . على أن مقابر عهد الفتوح هذا ، وقد



مظلم على الطراز المينوى كان يزين القصر في مسينى

استخرجت كسر كبيرة من المظلمات في موقع القصر المسيني . وليس من السهل تجميعها وحدات متناسقة . على أن تسونتاس الذي كشف هذه الكسر قد رممها ترميما يقبله العقل مستعينا بصور أخرى عثر عليها في أماكن أخرى . وكشف هذا الترميم عن حصانين يقودهما سائسان . ويظهر أن السائس الثالث كان ارفع منهما مرتبة لأنه يلبس درعا في ساقه ، ولعله رفيق المقاتل الذي الى اليمين . ويلبس المقاتل خوذة تغطى خديه وهي تشبه ما أثبتناه في الصفحة التالية .



منظر من مناظر الحروب الميسينية

يمثل هذا الخاتم المكبر المستخرج من المقابر الغائرة الأسلحة التى بيناها فى الصورة السفلى أثناء الاقتتال بها · ويذكرنا الترس المصنوع من الجلد الشبيه بالبرج بترس أجاكس (أياس) الذى ذكره هوميروس · وكان السيف لا يستعمل الا فى الطعن · أما الخوذات فكانت تصنع من أنياب الخنازير ، ولم يكن يحمى جسم المقاتل شىء ·

حوت بطبيعة الحال كثيرا مما تبدد فوق ظهر الارض ، تدلنا على أن ميسينى كانت مدينة عامرة كثيرة الصلات تزاول الفنون والصناعات التى درجت عليها من قديم ، الا أن القديم منها كان يتميز على الحديث من حيث متانة البناء وجودة الصنعة ولطف الذوق وسلامته · والحق ان رداءة أصناف كثيرة من السلع تدل على أن الانتاج كان وافرا متأثرا بظروف اقتصادية قاسية لم يعد العامل فيها سيد نفسه فكان يصنع ما يصنعه فى غير ما اكتراث طبقا لما بين يديه من رسوم ·

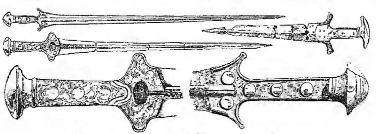
ونلمح فى تتبع الحملة وترميم سور القلعة ترميما سريعا ووجود سيف دخيل بين أطلال القصر صورة عابرة للحوادث السياسية المتصلة بالحرب والحصار لا نستطيع أن نتثبت منها الآن · على أنه لا يخامرنا شك فى أن ميسينى كانت تتقدم تقدما مطردا وأن صناعها كانوا يصنعون صنوفا شتى من السلاح والعتاد من مختلف الأنواع ·

وقد أوشك الجزء الثانى من عهد الفتوح الميسينية أن يدخل فى نطاق التاريخ الصحيح بفضل دقة تواريخ تحف



الفن المصرية القديمة بالنسبة الى غيرها والاتصال الوثيق بين شواطىء البحر المتوسط وبين مصر فى هذا العهد وكان الثغر الحثائى فى سياسة مصر الخارجية وشروط الحلف الدفاعى الذى عقده رمسيس الثانى مع الدولة الحثية فى آسية الصغرى حوال عام ١٢٨٠ ق · م ، فاتحة عهد جديد ، عهد بطش وفساد هددا البلاد من الشمال الغربى حيث « كانت الجزائر يسودها الاضطراب فى وسط البحر » فحلت على الحليفتين شرور الغارات من البر والبحر فى السنوات التى فى حدود عام ١٢٠٠ ق · م ·

وقد وضعت روايات اليونان حرب طروادة فى هذا العهد المضطرب وجعلت تاريخ وقوعها بين عامى ١١٩٤ ، ١١٨٤ ق · م زاعمة أنها نضال بين حلفين اثنين : الحلف الأول هو الحلف الطروادى ، وكانت قاعدة هذا الحلف الذى سنعرض له تفصيلا فى الفصل



أسلحة المحاربين الذين اقتتلوا فى سبيل السيادة على ايجه

ثبت أن القطع المترسرة من أنياب الخنزير (فى أعلى الصورة) التى كشفت فى ميسينى كانت تدعم الخوذة الجلدية ، وقد خيطت الآن بقلنسوة ذات لثام بين تركيب أجزائها الاصلية · وتحت الخوذة طائفة من السيوف استخرجت من مقبرة قديمة فى كنوسوس ترجع الى العهدين المينويين المتأخرين الثانى والثالث وليس عليها من الزخرف ما على السيوف المكفتة المستخرجة من ميسينى والمبينة فى صفحة ٤٩ · ومع هذا فهى تظهر صنعة الانسان أكثر من غيرها . وقد شاع استعمالها عند ما أخذت ميسينى تحل محل كريت

الناسع والعشرين على الدردنيل. وكانت جبهته البحريه تمتد من لبقيه الى خليج سلانيك كما تمتد أيضا على طول الساحل الشمالى لآسيه الصغرى . ونظن أنه كان يشمل أقاليم داخليه كبيره وراء هذه الشواطىء ، ولعله كان يمثل المدعى الغربى لتلك المجموعه من الشعوب التى شنت غارة سنه ١١٩٠ الكبيره فى البر ، وهى الغارة التى عانى فى صدها بعد ذلك بقرن ونيف جنود مصر فى فلسطين والأشوريون الى الشرق من الفرات .

وكان ينافس هؤلاء حلف آخر من جنود اقطاعيه جيشت من شبه جزيره اليونان وكريت ورودس ومن بعض الجزائر الصغيره الأخرى على طول الساحل الجنوبى الغربى لآسيه الصغرى ، وكان يقود هذه الجيوش أمراء من بيت اتريوس استقروا فى ميسينى واسبارطه

ويظهر أن رأس هذا البيت قد ذكر فى الوثائق الحيثيه قبل ذلك بقرن فقيل انه ملك دولة آخيه بحريه لها أمارات فى كاريا وبمفليا وقبرس بطول شواطىء الدولة الحيثية .

وقد ذكر الآخيون بين أعداء مصر الذين كانوا يغيرون عليها من البحر فى الجيل نفسه، ولذلك فمن المرجح أن الآخيين كانوا حلفا تاريخيا أو جماعات اقطاعيه من شعوب ايجيه وكان أجا ممنون ومنلوس وأجاكس وأخيل وديوميدس وأوديسيوس ، وهم أعظم أمرائهم شأنا ، من بيوت ظهرت فجأة وفى وقت واحد فى مختلف نواحى اليونان قبل حرب طروادة بقرنين ، ونستدل من هذا على أنهم كانوا فريقا غريبا من أولئك الواغلين الفريجيين الذين حصنوا طروادة فى القرن نفسه على حد قول الروايه واشتركوا فى حرب داخل آسيه



اضمحلال صنعة الفخار فى العهد الميسينى المتأخر

يدل على صناعة الخزف فى العهد الميسينى المتأخر دلائل بينة على انحطاط أشكاله وزخرفه . وهذا ملحوظ فى الآنيه الكبيرة (فى أعلى الصوره من اليسار) المستخرجة من أنكومى فى قبرس وعليها رسم حصان ومركبه وفى آنيه الركاب (أسفل الصوره الى اليسار وأعلى الصورة فى الوسط) المستخرجه من رودس . ومن شواهد فخار هذا العهد أيضا الأوانى (أسفل الصوره الى اليمين وأعلى الصوره فى الوسط) المستخرجه من جبانه كاليفيا بالقرب من فيستوس ، وآنيتا النذور المأخوذتان من مغاره زيوس على جبل دكته .

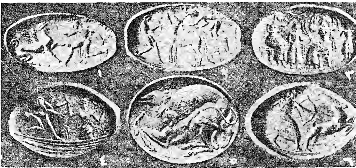
الصغرى بعبد ذلك ، قرابة الوقت الذى عقدت فيه معاهدة الضمان المشترك بين مصر والحيثيين سنة ١٢٨٠ ق ٠ م ٠ ونخص بالذكر من هذا الفريق بيلوبس أبا أتريوس فقد كان فريجيا بوجه من الوجوه وهو ابن تنتالس أحد أمراء تراقيه ، نزح من الشمال الغربى لليونان وكان أول ظهوره مغامرا فى غربى المورة ، ويظن أن هذا الاقليم قد نسب اليه ٠

ويستفاد من ذلك أن النظام الآخى الموصوف فى أشعار هومير وس كان مرحلة قصيرة متأخرة فى عهد الاضمحلال الميسينى ٠ فقد نهض هذا النظام حوالى عام ١٢٨٠ ق ٠ م ٠ وانهار حوالى عام ١١٠٠ ق ٠ م ٠ أمام الهجرات التاريخية للقبائل الدورية صوب الجنوب ٠ ويزعم الكتاب اليونانيون المتأخرون أن هذه القبائل نشأت فى مقدونيه وفى الهضاب التى الى الغرب منها وغزت المورة من الشمال الغربى كما فعل بيلوبس وأصحابه من قبلهم ٠

ونحن فى المامنا بالمجرى العام للحوادث قد تتبعنا أول من نزلوا اقليم ايجه وهم أناس مختلفوا المنبت والتقاليد والثقافة ، التأم شملهم وتحالفوا فيه بمعزل عن غيرهم من الشعوب وعاشوا فى بيئة طبيعية صالحة لنشوء لون جديد من الحضارة يناسب هذا الاقليم الفريد ٠ وكانت موارد كريت أغنى من موارد منافسيها الأقدمين فبزتهم هذه الجزيرة الكبيرة وتمكنت من فتح ما جاورها من النواحى فى شمالها الغربى ، وهو أمر صدعته غيرها ٠

وكان امتداد الثقافة المينوية فى هذا الاتجاه ميسرا على طول الساحل على أنها لم تستطع الغلبة فى الداخل بله فى الجنوب ، ولم تتأثر البداوة الشمالية القديمة بهذه الثقافة تأثرها بالحركة الوطنية المينوية التى قامت على تخومها الجنوبية ٠ وقد مهد الرواد المينويون فى النواحى الجنوبية من اليونان الطريق الى تطور من نوع آخر فى الولاية الميسينية ، ولعل هذا التطور هو الذى انتهى بانقسام العالم المينوى شطرين : بلاد اليونان وكريت ، وأدى الى انهيار كريت حوالى عام ١٤٠٠ ق٠م وربما كان ذلك على يد حلف ميسينى ٠

وأخفقت ثقافة اليونان هذه أو قل ثقافة المستعمرات المينوية ، نفسها فى بسط سلطانها على شواطىء البحر المتوسط من فلسطين الى صقلية بل الى الغرب من ذلك فتداعت أمام فتوح قوم من الهمج ، وهو شر برئت منه فيما نعلم القرون الطوال التى نهض فيها المينويون ٠



أختام تصل ما بين ميسينى والعهد القديم فى اليونان

تختتم بطائفة من النقوش استخرجت من فصوص خواتيم عثر عليها فى تسبه من أعمال بووطية ، وهى تصل القديم بالمستقبل ٠ وكل هذه الفصوص شاهد على الصناعة المينوية ومن هنا أهميتها سواء أكانت تمثل ملبس المينويين مثل (٣) (الالهة وأتباعها) أو حياة الحيوان كالصورة رقم (٥) ٠ على أن الصورة الأولى تمثل رجلا يقاتل أبا هول مما يذكرنا على الفور بالاسطورة البووطية عن أوديب ٠ أما الصورة رقم (٢) فتبدو كأنها لقاء أوديب لأبيه ٠ وتمثل الصورة رقم (٤) برسفونيه خارجا من العالم السفلى والصورة رقم (٦) الصيادة أرتميس ٠ أيكون مرجع هذه القصص اليونانية المعروفة الى العهود الميسينية ؟ ٠

الأقوام الجدد

بحث في حركات الشعوب

ويتتبع هذا الفصل أصول بعض القبائل الهامة التي أخذت تظهر على مسرح التاريخ .

بقلم ر . ا . س . ماكلستر R. A. S. Macalister

أستاذ علم الآثار الكلتية في كلية الجامعة بدبلن . ومؤلف « الكتاب المدرسي في الآثار الأوربية » ، « وأهل فلسطين وتاريخهم وحضارتهم » ... الخ .

كان المعنى المفهوم من لفظ التاريخ الى العصور الحديثة أو ما يقرب منها هو تسجيل أفعال الغزاة الطامحين أو المغيرين الشجعان من أمراء البحر الذين يقومون بمغامرات مجيدة يضيفون بها جواهر جديدة الى تيجان ملوكهم تدفعهم الى ذلك رغبة نبيلة في بلوغ المجد . أما الآن فقد تبدل الغرض المقصود من علم التاريخ . فلم يعد مجرد تأريخ للحوادث ، ولكنه أصبح أقرب الى المنهج المعقد المعروف « بالجغرافية التاريخية » . وأصبحت الطبيعة لا الانسان ، هي الأصل في الحملات التي تزدحم بها صفحات التاريخ . ولم يعد الطموح هو الباعث الأصلي عليها . ولذلك وجب علينا أن نقنع برد هذه الحملات نهائيا الى الرغبة الملحة في تزويد الحيوان الناطق بحاجياته الأولية .

وليست هناك أرض مهما اتسعت رقعتها أو خصبت تربتها تستطيع أن تحتمل أكثر من عدد محدد من الناس . فاذا زاد السكان عن هذا القدر تعين على العدد الزائد أن يختار بين أمرين لا ثالث لهما ، اما الهجرة واما الهلاك . ونجد وصفا لحالة مألوفة تنطبق على ذلك في الاصحاح الثامن عشر من سفر القضاة . وهو أن أرض بني دان ضاقت بهم . فخرج الرائدون منهم يبحثون عن شعب « وادع مطمئن » ، فلما وجدوه انقضوا على أفراده وضربوهم بحد السيف واحتلوا أرضهم .

ونحن نستطيع أن نصف هؤلاء الدانيين بكل نقيصة تمر بالخاطر فنقول انهم همج وانهم أنانيون وانهم .. وانهم .. ومن العسير علينا اعتمادا على الحقائق التي وردت في الاصحاح المذكور أن نصفهم بغير هذه الصفات فاذا فعلنا كان لزاما علينا أن نصف بالنعوت نفسها العدد الزائد من الانجليز الذين أبادوا أهل تسمانيا القدماء واغتصبوا أرضهم ، وأن نصف الذين ضاقت بهم رقعة أوربة فتوسلوا بأساليب لا تقل جورا عن تلك وجردوا الأمريكي الأحمر من تراثه القديم .

يضاف الى ذلك أن ثمت حدا للانتاج يستتبع حدا لعدد السكان . وليس ذلك الحد ثابتا أبدا ولكنه قابل للزيادة والنقصان لشتى الأسباب . ولا تقوم هذه التقلبات على الهوى اذ لا شيء في الطبيعة ينعت بهذا الوصف غير العلمي ، بيد أنها قد تكون كذلك من الناحية العملية مجهولة البواعث لا يمكن التنبؤ بها أو الاستعداد لها أو العمل على درئها أو تفاديها .

وقد يدمر زلزال من الزلازل بلا أدنى تدبر مدينة مزدهرة ، وقد يغمر بركان من البراكين أرضا باسمة النبت بفيض من الحمم مجدب . كما أن هناك دورات مناخية معقدة تطول آجالها أو تقصر لا نستطيع تفسيرها وان كنا نلاحظ نتائجها في تداول الجدب والخصب . ففي فترات الجدب ينخفض الحد الأقصى الذي يمكن أن يصل اليه عدد السكان ويصبح التناحر على البقاء أشد وأقسى . أما في فترات الخصب فالأمر على نقيض ذلك . ورخاء المجتمع البشري أشبه بآلة من آلات التسجيل شديدة الحساسة تتأثر بأقل اضطراب يقع في محيطها .

أسباب الهجرة الطبيعية

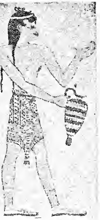
فقد أدى نقص محصول البطاطس عام ١٨٤٧ الى تغيرات دائمة في كافة المظاهر السياسية والاقتصادية لأيرلندة . وأمثال هذه العوامل هي التي يجب أن نفتش

عنها كلما أردنا أن نفسر حركات الشعوب في الأزمنة القديمة والحديثة على السواء .

والبواعث الاقتصادية لها آثار منها ما هو عارض ومنها ما هو أصيل. فالجدب يعمل عمله المباشر في سكان الأرض التي يحل فيها فيشردهم تشريدا ، وهؤلاء ينتزعون ملك جيران أحسن منهم مقاما كما فعل الشاردون من بني دان في اجلاء قوم لايش عن ديارهم . أما الذين يجلون ، او قل أما الذين يفلتون من براثن المطبقين عليهم فيبحثون عن ملك جديد ويخرجون جماعة أضعف منهم في موضع آخر من الأرض ، وهكذا يتفرق شمل الجماعات في دورات تأخذ في الاتساع رويدا رويدا .

وقد أظهرتنا الأبحاث التي قام بها روفائيل بمبلي Pumpelly في أثناء من أعمال تركستان على ما كان لهذا الجدب من خطر في حركات الأقوام في الماضي السحيق . فمن المقطوع به أن استبداد المناخ في تلك الربوع الاسيوية القريبة من أوربة قد دفع بقبائل المغل الضاربة فيها الى المغرب نحو أوربة فأدى ذلك الى القلقلة التي سادت اوربة في عهد « تحوال الشعوب Volkerwanderungen » وهي هجرات مختلف قبائل التيوتون التي كانت فيما يظهر تخبط في غير اتجاه ، وتنتقل من مكان الى مكان ، سالكة سبلا طوالا .

والأصل في هذه الفورات الاجتماعية في داخل البلاد والاستعمار في خارجها هو هذا النزاع الحقير بين من يملكون ومن لا يملكون ، فقد تحول حكومة الأقلية المنتفعة بين الجماعة وبين الترف الموموق اذا لم تحل بينها وبين ضرورات الحياة ، فلا يلبث أن يقع اضطراب بعد زمن يقصر أو يطول كما حدث في فرنسا في نهاية القرن الثامن عشر وفي روسية ابان القرن العشرين . وكثيرا ما يحتمي زعماء الثورة وراء اسم الديمقراطية الذي ساء استعماله لكي يقيموا حكومة أخرى من حكومات الأقلية المنتفعة . وهكذا يمهدون السبيل الى ثورة أخرى تحدث في الاجيال التالية ، وهكذا يعيد التاريخ نفسه لأن طبيعة الانسان تظل كما



الكفتيو في مصر

قد عثر في قبور طيبة لعهد الأسرة الثامنة عشرة على شواهد تدل على التبادل التجاري بين الكفتيو أو الكريتيين المينويين . وهذه الصفحة مثال للفن المينوى المتأخر .

كانت دائما ، وحاجات الانسان هي بعينها كما كانت في العصر الحجري . ولا تخرج الأرض مما يطلبه الانسان أكثر مما تحتويه .

وقد تبين لنا الآن كيف نمت المدنية في الشرق الأدنى خلال العصر البرنزي على أثر ما أسفر عنه الحفر والتنقيب في كريت وغيرها ، فقد حفظت لنا كتابات مصر وبابل كثيرا من مواد التاريخ بمعناه الضيق ، ترجع الى هذا العصر نفسه ، وأملنا أن نكمل هذه المعرفة عند ما تحل الرموز التي على ألواح كريت ، أما المواد التي حصلنا عليها بعد أن استقر العصر الحديدي فأوفر وأقرب الى الفهم ، وهو العصر الذي يسير ظلماته أدب اليونان ، بيد أنه قد قامت بين هذين العهدين المنيرين الواضحين فترة يسودها الابهام . ذلك أن ملاحم هوميروس على عظمتها لا يمكن أن تزيد هذه الفترة وضوحا ، وان زعمت أنها نزلت علينا من الضباب ، بل ان هذه الملاحم نفسها في حاجة الى كل ما نستطيع ان نسكبه عليها من النور المستمد من مصدر آخر .

ومن الواضح أن هذه الفترة الفاصلة بين عهدين ، والتي شغلت قرنين في مستهل الألف الأخير قبل الميلاد ، كانت فترة يسودها القلق والاضطراب . ومع هذا فقد نشأ منها العالم الحديث ، مثلها في ذلك مثل نشأة الأرض من العماء الأول . فقد أوصد الباب على الحضارات القديمة عندما أصبحت مصر وكريت وبابل في ذمة التاريخ ، أو قل انها على أكثر تقدير قد غربت أبد الدهر من المجد الذي كان لها ، وبذر في الحقول التي أقتلع منها سلطان هذه الحضارات على تلك الصورة بذور أنبتت نظر العبران الديني، وفن اليونان وفلسفتهم ومواهب الرومان في التشريع والسياسة . وفي هذه الفترة التي غلب عليها الاضطراب وضع الأساسان المتلازمان اللذان قامت عليهما الحضارات الأوربية وهما اصطناع حروف الهجاء واستعمال الحديد .

وكلما قلبنا النظر في هذه الفترة المضطربة وجدنا أقواما يتكاثرون تكاثر الفطريات ، وهذا أعجب العجب ، فان هؤلاء الأقوام كانوا يظهرون فجأة ، لا نجد ما يمهد لظهورهم فيما أثر عن

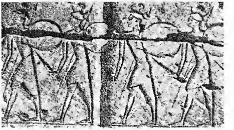
فراعنة مصر وملوك آسية الغربية .

اذ انصرف هؤلاء الملوك بكليتهم الى الأعمال المتصلة بالدفاع ولم يكلفوا أنفسهم مشقة البحث فى كيف ومتى ظهر هؤلاء الأعداء الجدد فى مجال سلطانهم . لكن هذه المسائل ذات خطر عظيم فى نظرنا .

ولو كانت معارفنا والدواوين التى وصلت الينا كاملة ، لاقتضى ذلك ان نقص الحوادث بالترتيب الذى يوجبه المنطق والتاريخ : ولكان فى مقدورنا أن نقول ان سكان اقليم « س » هاجموا قوم « ص » وأجلوهم عن ديارهم بسبب كيت وكيت ، وان « ص » غزوا « ط » ، دفعهم اليأس فلم يجدوا مناصا من المجازفة بأنفسهم والوقوف فى وجه مصر أو بابل . ولكن هذا بعيد الاحتمال . فليست لدينا أخبار مباشرة عن الحوادث السابقة ، ولم يدون لنا غير اصطدام « ط » بمصر وبابل أما بقية الأحداث فلا سبيل الى معرفتها الا بالاستنتاج . ويجب أن نعود فى عملنا الى الوراء فنبدأ بالسلسلة من طرفها الأخير .

ولعل غزو « شعوب البحر » مصر هو أسهل المراحل التى نفتتح بها هذا البحث ، فنحن نجد بين الحين والحين فى تواريخ بعض فراعنة مصر الاقدمين مثل (تحتمس الثالث وأمنحتب الثانى) اشارات الى « أهل الجزائر » الذين كانت لهم بمصر صلات أغلبها تجارية ودية . ويظهر أن هذا الاسم كثيرا ما يستبدل به « كفتيو » وهو الاسم المألوف الذى أطلقه المصريون على الكريتيين المينويين أو على الحضارة المينوية عامة ، ومما لا يخلو من مغزى أننا انما بدأنا نسمع عن « شعوب البحر » لما اختفى هذا الاسم من الكتابات المصرية .

وقد ظهرت قبل ذلك أسماء بعض هؤلاء « الأقوام » فى رسائل تل العمارنة ، ولكنها لم تذكر فى سياق نتوقع منه التطورات التى حدثت بعد ذلك . ويظهر أن « الشردانو » كانوا فى الواقع أحلافا لمصر أو جنودا مرتزقة للحزب الموالى لها فى بلاد الشام . ويقال مثل هذا عن « السيخلالى » وان كان اللوح الذى ظهر عليه اسمهم جد مشوه لا نستطيع أن نعرف منه على وجه اليقين مكانهم فى مجرى الحوادث . وقد جاء فيه أن الدانونة The Danuna أصبحوا قوما مسالمين بعد تغير البيت المالك ، والظاهر أن هذا



الشردانو يتسلحون بالحربة والدرع

والسردانو هم أول من ورد ذكرهم من الشماليين فى رسائل تل العمارنة ، ويرجع تاريخ هذه الرسائل الى حوالى عام ١٤٠٠ ق . م . وقد ذكروا مرة أخرى فى مدونات القرن الثالث عشر ق . م . بوصفهم من الجند المرتزقة فى جيش رمسيس الثانى .



صور وجوه بعض الذين غزوا مصر من الشمال

لقد ثار جدل طويل حول هوية شعوب البحر الذين ناصبوا مصر العداء عام ١٢٩٦ ق . م . وعقدوا فيما بينهم حلفا عسكريا بعد ذلك بحوالى سبعين عاما ، وجهزوا حملة على هذه البلاد لم يفوزوا منها بطائل اذ ردهم عنها مرنبتاح . وقد اتفق العلماء بوجه عام على أن الشردانو أو الشردن (الى اليسار) كانوا الشعب الذى عرف بعد ذلك بالسردينيين ، وأن للشكلاش (الى اليمين) كانت لهم صلة ما بمدينة سجلاسوس فى بسيديا .

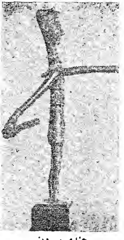
التغير لم يؤثر كثيرا في كاتب الرسالة أو فيمن كتبت اليه · ولم تبعث منهم الا صرخة واحدة هي شكاتهم من الغارات السنوية التي يقوم بها « اللوكي » على أطراف ملك « الأشيا » ·

ومن اليسير اثبات أن «اللوكي Lukki» هم « اللوسيون Lycians »فنحن نعود فنسمع عنهم في الحرب التي نشبت بين رمسيس الثاني والحيثيين · ذلك أنهم تحالفوا مع غيرهم من شعوب آسية الصغرى على فرعون مصر · ومن المستطاع أن نبين بين هؤلاء الذين عاونوا الحيثيين جماعات الميسينيين والدردان ، على الرغم من غرابة الكتابة المصرية · أما غيرهم فلا يمكننا التحقق منهم تماما · فالقوم الذين يطلق عليهم اسم « البداسة Pidasa » اما أن يكونوا هم البداسيين أو البسيديين Pisidians وثمة اسم أو اسمان آخران سنتركهما مؤقتا في ابهامهما ·

وإذن « فشعوب البحر » كما سموا بعد ذلك لم يعكروا صفو مصر ، وكان همهم الوحيد هو شن الغارات المحلية في شمالي بلاد الشام عام ١٤٠٠ ق · م · وهو على التقريب العهد الذي سطرت فيه رسائل تل العمارنة · ولكنهم في عام ١٢٩٦ ق · م ناصبوا مصر العداء وان ظلت حروبهم مقصورة على بلاد الحيثيين والشاميين فلما انقضى على ذلك سبعون سنة ، أي أيام مرنبتاح خاصموا مصر نفسها · وفي عام ١٢٢١ ق · م · تم التحالف بينهم وبين اللوبيين في شمالي افريقية على تمزيق أوصال مصر . فردهم فرعون الذي كان في أوج سلطانه وان تخطى الشباب ·

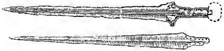
وكان الحلف يضم الليبيين الرحل الى جانب الشردانو والشكلاش Shakalash والاكيواشه Akaiwasha والطورشة Tursna · وقد مر بنا من قبل أول هذه الأسماء أما ثانيهما فله صلة من حيث الاشتقاق بجزيرة سردينية ، على أن هذا لا يعني أن غزاة مصر جاءوا من تلك الجزيرة · وانما قدر عليهم أن يشقوا طريقهم الى الجزيرة · بعد أن باءت غارتهم على مصر بالخيبة · ويقال بصفة عامة أن الشلاش ، ولا شك أنهم الشخلال Shikhlali الذين ورد ذكرهم في الوثائق القديمة ، لهم صلة بمدينة سجلاسوس Sagalassus أعمال بيسيديا · ثم ان الاكيواشة هم عين الآخيين الذين ظهروا فيما يبدو قبل ذلك في دواوين الحيثيين (أنظر الفصل الثالث والعشرين) · والتيرانيين Tyrrhenians هم الطورشة ، غير أنه ما من شك في أنهم لم يكونوا قد نعتوا بهذا الاسم في ذلك الوقت ، فهم القوم الذين سكنوا ايطاليا بعد ذلك وعرفوا بالتيرانيين ، مثلهم في ذلك مثل الشردانو الذين عرفوا فيما بعد بالسردينيين ·

وواجهت مصر بعد ذلك بحوالي ثلاثين سنة في أيام رمسيس الثالث تهديدا أشد وأقوى · ذلك أن كل ما حدث من قبل انما كان نذيرا بهبوب العاصفة توشك أن تبلغ أقصى شدتها · وتقص علينا النقوش والكتابات المحفورة على حوائط المعبد في مدينة حابو نبأ هذه الحوادث « فقد اضطربت الأحوال بين أهل الجزائر ، ولم تستعص عليهم أرض » وقد أورد أشعياء عبارة مشهورة تلخص مسير الجند الأشورية الى أورشليم (بيت المقدس) وشبيه به ما بينه أخبار الملك من سير شعوب البحر في أرض الحيثيين وقليقية وقرقميش وأرواد والاشية Alashiya وتغلبوا على كل مقاومة لقوها في سبيلهم · وتجمعوا



جندي سرديني

يمثل هذا التمثال البرنزي الصغير الذي عثر عليه في سردينية جنديا على شاكلة خصوم الفراعنة وجندهم المرتزقة وهو لذلك يؤيد الرأي القائل بأن الشردانو كانوا سردينيين ·



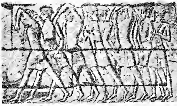
سيوف كريتية وسردينية قديمة

ويتميز السيف البرنزي الميتوى بأنه مستقيم طويل رفيع يشبه الخنجر أعد للطعن لا للقطع (وهو الأعلى) واستعمل الشردانو لذلك سيفا أثقل وزنا وأعرض حدا ، كما هو واضح من صورة التمثال السرديني المثبت في هذه الصحيفة · وقد حصلنا على نماذج بديعة من النوعين ، السرديني (الأسفل) يبدو فيها ضعف الكريتي طولا على التقريب ·

فى عمورية Amor ، وهى فلسطين « تعمر قلوبهم الثقة وتملأ نفوسهم الأطماع » ومهما يكن من أمر اقليم الاسيه فان القول الشائع بأنه عن قبرص مشكوك فيه ·

ولم تكن هذه الحركة مجرد حملة عسكرية فان الصور التى تصاحب الحوادث المدونة تظهرنا على المغيرين وهم يتقدمون ومعهم عجلات ، تحمل أزواجهم وأطفالهم · مما يبين أن غرضهم لم يكن الحصول على الأسلاب فحسب . بل تعداه الى البحث عن موطن جديد، ومن المحتمل أن يكون الباعث على ذلك أنهم أجلوا من ديارهم الأولى بوجه من الوجوه ·

ولكنهم لم يدخلوا فى حسابهم رمسيس الثالث . آخر فراعنة مصر العاملين · فقد كان متأهبا لدفع الخطر ، مدركا أن الهجوم خير دفاع. ولذلك هاجم المغيرين بشدة برا وبحرا · وكانت حربه البحرية التى صورت على جدران معبده (وهى الى التصوير الدقيق أقرب على خلاف السنة التخطيطية التى سار عليها الفن المصرى) أول حادثة من نوعها تدون فى التاريخ (أنظر صحيفة ٧٠٦ المجلد الأول) · وهكذا

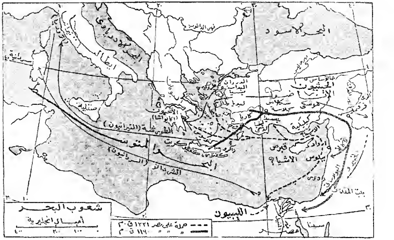


فلسطينيون يؤسرون فى الحرب

لم يستطع رمسيس الثالث أن يمنع الفلسطينيين . وهم شعب قوى نزاع الى الحرب . من الغلبة على جنوب فلسطين ، وان كان قد هزمهم وغيرهم من « شعوب البحر » كما هو واضح فى هذا اللوح ·

تمت هزيمة شعوب البحر فى البر والبحر ، وانقذت مصر الى حين ·

وقد أحصيت فى ديوان رمسيس أسماء القبائل التى كان عليه أن ينازلها . وهى تشبه أسماء القبائل التى تناولناها بالتعليق . وان لم تكن هى بعينها · وأولاها من حيث الاهمية البولساتى Pulasa ، ويرد ذكرها هنا للمرة



ديار الحلف الشمالى المناهض لمصر وحركاته

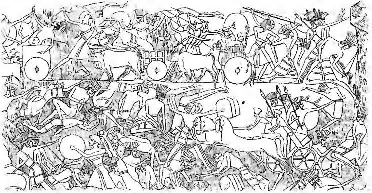
فى عام ١٢٢١ ق · م ، أجمعت القبائل المختلفة المعروفة فى حملتها فى الوثائق المصرية بـ « شعوب البحر » على التجهيز لحملة عسكرية للقضاء على سيادة الفراعنة · وبعد ثلاثين سنة من ذلك الوقت قام حلف آخر مشابه له ، بحركة أخطر من هذه فى وجه مصر ، وكان غرضه أن يبسط يده على هذه البلاد لاحتلالها أبدا · فلما هزمهم رمسيس الثالث انتشروا فى ربوع آسية الصغرى والشام ، واقليم البحر المتوسط ·

الأولى، يضاف اليها الزقاله والشكلاش والدانونه والوشاشه Washasha .

وليس من شك فى أن البولسانى هم عين الفلسطينيين الذين ورد ذكرهم فى التاريخ العبرى . ولو أن اسم الفلسطينيين لم يكن قد أطلق عليهم بعد ، فالبولسانى الذين ذكروا فى ديوان رمسيس هم القوم الذين سكنوا بعد ذلك فلسطينا ، لأنه لما حيل بينهم وبين غايتهم فى مصر ، استطاعوا النزول على ساحل فلسطين ، ونجد سائر تاريخهم فى دواوين اعدائهم الوارثين العبرانيين . ولم تحصد شوكتهم الا أيام داود (أنظر صموئيل الثانى .

بيد أنهم لم يكونوا بالضرورة كريتيين خلصا ، لأن هناك شواهد تدل على أن فى عروقهم دما من كاريا ، فى أرض القارة المجاورة .

أما الزقاله Zakkala فهم أكثر من هؤلاء غموضا من حيث أرومتهم . ففى كريت موضع اسمه الحديث ذكرو Zakro وفى هذا الاسم ما يوحى بأنه يتصل بهم ، بيد أنه لا يمكن اثبات أن هذا الاسم عتيق . وكان هؤلاء القوم فى سطوة أقربائهم الفلسطينيين على الأقل . ولم يكونوا أقل منهم من حيث المحضر . ويظهرنا بردية جولنشف Golenischeff المشهوره

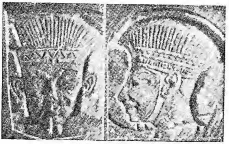


صورة ناحية اسير الفلسطينيين ووقوف الشردانو فى وجوههم

حدث عام ١١٩٠ ق . م ، غارة شديدة من قوم كانوا يزمعون الهجرة من الشمال ، وقد صدهم رمسيس الثالث . وكان بين جنده طائفة من مرتزقة الشردانو . ويظهرنا هذا المثال الذى عثر عليه فى « مدينة حابو » على جمع مسلح من الفلسطينيين ، وهم يشهرون سيوفهم وعمائمهم المريشة ، تصحبهم نساؤهم وأطفالهم ومتاعهم وقد حملوا فى مركبات ذات عجلات متينة يجرها ثيران أربعة . ويدل ظهور هذه الاثقال على أن هؤلاء الغزاة كانوا قد أحكموا التدبير لاحتلال مصر .

الاصحاح الخامس ، الآيات ٥ ، ١٧ — ٢٥) وعاشت بعضهم فى اشدود Ashdod الى عهد نحميا (أنظر نحميا الاصحاح ١٣٠ ، آيه ٣) .

وكان لهم نظام سياسى خاص بهم ، فحكومتهم من نوع حكومات دول المدن ، على كل مدينة أمير ، يسمى فى النصوص العبرية الواردة فى التوراة « سرن Seren » (والجمع سرانيم Seranim) وهم على خلاف غيرهم من الأقوام الذين تاولهم العبرانيون يختتنون . وثمت روايه متواترة تصل بينهم وبين كفتور أى كريت (كما هو الحال مثلا فى عاموس ٩ ، ٧) على أنهم وطدوا أقدامهم على ساحل بلاد الشام ، من دور Dor شمالا الى ببلوس . وقد كتبت هذه الوثيقة بعد هزيمة رمسيس الثالث للأحلاف بخمس وستين سنة . وهى تصف الأهوال التى لقيها رسول مصرى وجد نفسه بينهم . وكان مثلهم مثل الفلسطينيين يستقل بكل مدينة من مدنهم أمير ، وكان هؤلاء الأمراء يحتقرون مصر بحق وفراعنتها الذين تربعوا على عرشها كالخشب المسندة والذين تسموا بغير حق باسم رمسيس الكبير . وكان هؤلاء الأمراء حكاما قادرين يعتمدون على أنفسهم . وكان صاحب



رؤوس بوكسائية لا شك فيها

جاء فى الوثائق التى خلفها رمسيس الثالث أن الشعب المعروف بالبولساتى من أصل كريتى أوكارى ، وقد استطاعوا النزول على ساحل فلسطين بعد أن صدوا عن مصر ، والمحقق أنهم هم الفلسطينيون الذين سجل تاريخهم المتأخر فى أخبار العبرانيين .

بيلوس يعيش فى قصر لا بأس به يسجل أعماله على ملفات البردى .

ومن المحتمل أن هؤلاء « الأقوام » قد اندمجوا فى هذين الطرفين البارزين من حلفهم ، ففقدوا استقلالهم . لأننا لم نعد نسمع عنهم . ولعل الشكلاش من حيث أرومتهم هم السجلاسيون كما أسلفنا، ولعل الدانونه هم الدانوى Danaoi الذين ورد ذكرهم فى أشعار هوميروس ، واسم الدانوى هذا على جانب كبير من الأهمية . أما اسم وشاشه فمبهم ، وقد يكون علما على موضع أو قوم فى كاريا (الأواسيون) وفى كريت (الفاكسيوى) .

ونحن ندرك من هذه الحادثة ، ومن تحليل أسماء القبائل المتصلة بها ، أنه قد كان فى غربى آسية الصغرى وفى جزائر بحر ايجه فى أوائل القرن الثانى عشر ق . م ظروف على شىء من البأس ، اضطرت السكان الى الانتقال والبحث عن مأوى جديد . ولعل الغارات السابقة التى شنت فى عهد فراعنة مصر الأول ، كان مبعثها الرغبة فى السلب والنهب ، بيد أن وجود النساء والأطفال فى العجلات الفلسطينية يبين أننا بصدد هجرة من الهجرات . فإن أمرا قد حدث فى آسية الصغرى بمدلولها الشائع جعل الفلسطينيين وأحلافهم لا يطيقون المكث بها .

وهذا الضغط أيا كان شأنه . بل وهذا الضغط الذى دفع بشعوب البحر ناحية الجنوب ، قد ساق قوما آخرين الى الهجرة شرقا . فقد كان يسكن أحد المواضع غربى جبال طوروس قوم عرفوا فى دواوين آشور باسم المشكى Mushki وهم الذين ورد ذكرهم فى سفر التكوين باسم « المشك » وفى كتاب هيرودوت باسم « المسخوى » . ويظهر أن هؤلاء القوم لم يكن لهم شأن فى التاريخ حتى عام ١١٦٠ ق . م . أى ثلاثين سنة من مهاجمة مصر أيام رمسيس الثالث . فقد اندفعوا من تخومهم الجبلية حوالى هذه السنة واحتلوا ولايتين أشوريتين فى زحفهم نحو الشرق . وهاتان الولايتان هما الألزى (عالس فى دواوين الحيثيين) والبركرى عند رأس دجلة . وقد احتلوهما خمسين سنة ، حتى أوقع بهم تجلات بلصر الأول الهزيمة عندما عادوا الهجوم على الأراضى الأشورية .

حدثت حوالى ذلك الوقت هجرة أخرى نحو الغرب . ولعل الشعب العجيب شعب الاتروريين هو الذى استعمر وقتذاك أواسط ايطاليا . وخلف وراءه تراثا عامرا بالنفائس من مادية خطية وفنية وأثرية ، ومع هذا فنحن نعرف عنهم أقل مما نعرف عن الأمم القديمة الأخرى التى لم يبق منها سوى الاسم . وسبب ذلك أن ما ورثناه عن الاتروريين طائفة من الرموز ضاعت مفاتيحها وليس ثمة ما يدل على امكان العثور عليها . ونحن لا نعرف لغتهم ، ولا لغة شبيهة بها ، ومن ثم فنحن لا نستطيع أن نقرأ



حلفاء ملك الحيثيين العموريون

تمثل هذه الرسوم بعض أسرى الحرب الذين أخذوا من جيش أحلاف الحيثيين يوم وقعة قادش ، ونستطيع بالموازنة أن نقول انهم من العموريين الذين كانوا يعيشون فى وادى نهر العاصى ونواحى لبنان . وقد تحولت المعركة بعد ساعات حرج فى مصلحة رمسيس الثانى .

الأرومة الشرقية للأنوروبين

ما خلفوا من كتابات نفوشهم الكثيرة ، على الرغم من الجهود الجبارة التى بذلت فى فك هـذه الطلاسم • وليس لدينـا والحالة هـذه الا ما نجمعه عن دينهم من الرسوم المنقوشة على جدران معابدهم ، وهو دين غامض يظهر أنه كان ضربا من استعطاف شـياطين الليل المروعة خلاصا من شرها •

وكانت حكومة الأنروربين فى المحيط الهندى الأوربى الذى وحدوا فيه أنفسهم بايطاليا حكومة عربية ، بيد أن رؤساء دول المدن هذه كانت تسبه « سرانيم » الفلسطينيين شبها لا يخلو من مغزى • وكانت بين هذه الدويلات ودولة روما الناشئة عداوة شديدة ، ولكننا اذا صدقنا الروايات ، فاننا نرى أنها وهبت روما بعض ملوكها الأول ، الذين كان لهم من غير شك أثر فعال فى نمو حضـارتها الأولى • وأيا كان هؤلاء الأنروربون . فان من المجمع عليه أن آسية الصـغرى موطنهم : وهى البلاد التى نتوقع أن يحلو نورها المعضلات التى لا عداد لها المتصلة بهـذا الشعب عندما يتسع الحفـر والتنقيب فى أراضيها• وكان استقرارهم فى ايطاليا حادثا آخر من حوادث التفرق العام للشعوب من تلك البقعة فى القرنين الثانى عشر والحادى عشر ق • م • (أنظر كذلك ما ذكر فى الفصل الثامن والثلاثين) •

ولنوجه نظرنا الآن الى آسيه الصغرى نفسها لنرى هل تمدنا دواوينها القليلة بشاهد جديد على الاضطراب الذى قد نسـتنتجه من هـذه الهجرات • ولنبحث بنوع خاص عن امارات ضغط خارجى يفسر لنا هجرة أقوام كثيرين دفعة واحدة وقد كانوا الى ذلك الحين قانعين بأن يحيوا حيـاة الأعمار داخل حدود آسـية الصغرى •

وهكذا نواجهنا منذ البداية قصة طروادة المشهورة • وليس من الضرورى أن نصف هذه المدينة أو آثارها بشىء من التفصيل فى هذا المقام لأن ذلك من الموضوعات التى تعرض لها الفصل التـاسع والعشرون ، وليس من الضرورى كذلك أن نناقش صحة هذه القصة من الوجهة التاريخية كما فهمها الكتاب الهومريون ومن نهج نهجهم • ومهما تكن الحقيقة التى تنطوى عليها تفاصيل الحوادث التى قيل أنها مهدت لحلف يتزعمه الملك الميسينى اجا ممنون مهاجمة المدينة والاستيلاء عليها ، ومهما تكن صحة الاحداث التى وقعت فى أثناء الحصار وبعده ، فلا علينا اذا استخلصنا منها أن اقليم طروادة قد غزى على نحو ما فى الوقت الذى قبل أن طروادة نهبت فيه • وفى هذه الرواية من الاتسـاق والاتفاق مع آثار المدينـة مالا يجيز لنا اهمالها بحجة أنها من القصص الشعبى ، ويتفق تاريخ الحادثة كما تذهب اليه الرواية والشاهد الآخر فهو فى حدود خمسة وعشرين عاما من هجرة المسخوى •

الحبشيون حصن يصـد الغزاة

ومفتـاح المعضلة كلها فيما أصاب الدولة الحبشية من تصاريف الأقدار • فقد استطاع الحبشيون فى أوج سلطانهم أن يقفوا مع مصر على قدم المساواة ، وأن يحملوا فرعون على أن يبرم معهم معاهدة لا تضيرهم • ومع ذلك فليس فى مقدورنا أن نقول انهم غلبوا على آسـية الصغرى بأسرها ، ولكنهم تمكنوا ــ كما رأينا ــ بفضل هذه الحروب من ارغام عدد من الشعوب التى كانت تتمتع بشىء من الاستقلال فى هذا الاقليم على التحالف معهم أو الدخول فى طاعتهـم • وكان سلطان الحبشيين كافيا لرد الاستعمار الخـارجى ، فالحق أن دولتهم كانت أهم حصن وقى شعوب الأناضول الضعيفة شر غزو بلادهم وطردهم منها على يد الدخلاء المتهلفين الى الاستعمار •

ولم تكن بلاد اليونان بعيدة عن الأناضول ، فهى وراء بحر تتخلله جزائر يتنقل عليها اليه ، كما لم تكن أرضا بادية الخصب . فاضطرت الى أن تلفظ الزائد من سكانها • وكانت سواحل آسـية الصغرى الغربيـة تجابه المستعمرين اليونان بألوان من الاغراء لا تدفع . ولابد أن هؤلاء بدأوا يتسربون فى تلك المناطق منذ عهد متقدم بعض الشىء • والحق أننا اذا نظرنا الى حرب طروادة نظرة خالصـة من اضافات أصحاب الملاحم ، فانها تتضاءل حتى تصبح مجرد حادثة أعنف قليلا من الحوادث المألوفة فى تاريخ الاستعمار اليونانى لآسية الصغرى •

وكانت هذه المستعمرات أول أمرها مقصورة على الركنين الشمالى والجنوبى . أما الجزء الأوسط من الساحل الذى يفضل سواه من الناحية الاقتصادية فلم يقبل المستعمرون عليه الا بعد ذلك بأمد — اى عند سقوط الدولة الحيثية . ومن المحال أن نفصل احدى هذه الحوادث عن الأخرى ، وبخاصة لأن هذا الاقليم نفسه أعمر الأقاليم الساحلية بآثار الحيثيين من تماثيل ونحوها .

وكان ملوك الحيثيين بعيدى النظر عندما ناهضوا هذا الاستعمار ، ذلك أنه كان أكثر الأسباب فى تقويض سلطانهم . ولم تكن المضايق التى تفصل آسية الصغرى عن أوروبة صالحة لحجز الجماعات الصغيرة التى عبرتها من الشرق هنا وهناك ، فانتشروا على الأيام فى الجانب الشمالى من شبه الجزيرة . وأخذت أطراف الدولة الحيثية تتناقص شيئا فشيئا .

لقد كان سقوط طروادة باعثا قويا من بواعث الاستعمار غربا فى الركن الشمالى الغربى للاقليم وما يدعو الى الالتفات أن دواوين بوغازكوى الحيثية انقطع تسلسلها بعينه فى الوقت الذى سقطت فيه طروادة ، وأن مدينة بوغازكوى لم تعد عاصمة الدولة بعد ذلك بقليل . وقد بقى أن نكشف النقاب وحل الرموز مجرى

نتائج سقوط طروادة

هذه الأحداث . بيد أن الخلاصة التى ذكرناها لا تجافى الحقيقة كثيرا . ونحن نستطيع أن نستنتج من انتقال قصبة البقية الباقية من هذه الدولة الى قرقميش فى الجنوب الشرقى أن القوة التى حطمت شوكة الحيثيين قد جاءت من الشمال والغرب .

ونحن الآن أقدر على تتبع ما يكشف عنه البحث من الحوادث تتبعا منطقيا تاريخيا .

ولنبدأ بعام ١٤٠٠ ق . م . فقد بلغت مصر حوالى ذلك التاريخ أوج سلطانها . أيام أعظم فراعنتها امنحتب الثالث ، وبسطت رايتها على فلسطين حتى بلاد الشام ، فتاخمت بذلك مناطق نفوذ الدولة الحيثية . التى كانت وقتذاك قد بلغت شأوها أيام سبيلوليوما .

وقامت بين أعالى دجلة والفرات مملكة الميتانى التى لم نعرف اسمها الا منذ عهد قريب . وكان أهلها يتكلمون الهندية الأوربية . واتسعت رقعة هذه المملكة الى حد لم يأنف معه فرعون مصر الجبار من البناء باحدى أميراتها . وكانت كنوسوس قد أوهنتها الأحداث ، ولكنها

ظهور الآخيين أول مرة

ظلت تغلب على كريت ، وتبسط نفوذها السياسى والفنى على الجزائر المجاورة لها على سواحل بلاد اليونان نفسها . وقامت فى الركن الشمالى الغربى من آسية الصغرى مدينة طروادة القديمة ، وكانت وقتذاك قد بلغت أو كادت أن تبلغ ما تصبو اليه من السؤدد ، فى حين قامت فى المورة منافستها الغنية القوية ميسينى . التى أخذت تحل محل كنوسوس تدريجيا .

والظاهر ان العالم كانت ترفرف عليه فى تلك اللحظة ألوية السلام . ونحن نقول السلام تجوزا . على أن الميزان كان مترجحا . فما هى الا دفعة واحدة حتى يشيع الاضطراب فى كل شىء . وفى تلك الأثناء ظهر الآخيون الذين يجب أن نعدوا أهم أسباب ما وقع فى ذلك العهد من الحوادث . وأولها تخريب كنوسوس ويقال بصفة عامة انه تم على أيديهم . ولم يكن بد من أن ينشب هذا أهل كريت . واستتبع ذلك استعمارهم للجزائر وبلاد اليونان نفسها ، فزحموا السكان الأصليين ، أو ضايقوهم على الأقل . ثم جاء رمسيس الثالث بعد ذلك بقرنين تقريبا وأخذ يسرد علينا قصة مبهمة عن « اضطراب الجزائر » . وليس من شك أن هذا الاضطراب قد حدث فى الوقت الذى خربت فيه كنوسوس .

بيد أن سقوط عاصمة كريت لم يكن الاضطراب الوحيد الذى أفسد التوازن الذى كان قائما فى ١٤٠٠ ق . م . فقد نوهضت مصر بشدة فى احتلالها لفلسطين وبلاد الشام . وزاد فى قوة هذه المناهضة ما وقع بعيد ذلك من الأحداث العجيبة فى مصر نفسها . ذلك أن فرعون مصر أمنحتب الثالث مات والبلاد فى أشد الحاجة الى حاكم قادر عالى الهمة . وخلفه على العرش أخناتون ، ومهما تكن مواهبه فى الفلسفة والاصلاح الدينى فانه لم يكن يصلح لحكم البلاد فى هذا الوقت .

ومن الجلى أن تهديد مصر كان على يد عصابات آرامية عرفت فى رسائل تل العمارنة بالسوتو

والخبيرو ، ولسنا نعرف الى الآن القوة المحركة التى كانت توجه غاراتهم ٠وكان غزو البولسانى وأحلافهم مصر آخر حلقة في نقلة السكان ، وكذلك نستطيع أن نستنتج بحق

الضغط على فلسطين من ناحية الشمال

أن الخبيرو قد دفعتهم الى فلسطين قوة من هذا القبيل لا نعرف عنها شيئا الى الآن . وقد نرى متى حان الوقت هــذه القوة الدافعة العظمى قد ساقت أمامها الخبيرو كما ساقت البولسانى مما يبين أن هاذين الغزوتين كانتا بمثابة فصلين من رواية واحدة ٠

وأيا كان هؤلاء الخبيرو . ومهما يكن من أمر أصلهم ، فقد نستنتج من هذه الاحداث ومن ورود ذكرهم فى ألواح بوغاز كوى أنهم سكنوا أول الأمر بعض الأراضى شمالى فلسطين ، وأنهم سنوا غاراتهم من هذه الناحية ٠ ومن العسير أن نعرف ماذا كانت صلتهم بعبرانيى الكتاب المقدس ٠ وبعيد أن يكون هذان الفريقان من الغزاة . واسمهما يكاد يكون واحدا ، منفصلين احدهما عن الآخر تمام الانفصال ٠

واذا لم يكونا منفصلين ، فان قصة الخبيرو على قدر ما نستخلص من رسائل تل العمارنة تضاعف ما يوجه الى قصة الخروج الواردة فى الكتاب المقدس من نقد ، فيجب أن نستنتج من الرسائل أن استعمار الخبيرو فلسطين استمر بغير مقاومة تذكر ، وأن الكنعانيين اضطروا آخر الأمر (بالاستسامة الحلوة Dolce fer mente التى اطمأن اليها فرعون مصر الذى طلبوا عونه) الى قبولهم جيرانا ثقلاء لا مفر من جيرتهم ومن الصعب أن يكون هناك مدلول آخر للأحداث التى تظهرنا الرسائل على تسلسلها ٠

فاذا كان الأمر كذلك.واذا قلنا ان العبرانيين من نسل هؤلاء الخبيرو . فماذا يكون رأينا فى قصة الخروج من مصر ؟ وخيرما أجيب به الى الآن عن هذه المسألة العويصة لا يعدو أن يكون توفيقا بين الآراء المختلفة ٠ فهذا الجواب يذهب الى أن قصة الخروج لا تشير الى كافة الشعب العبرانى الذى نزل فلسطين ، وانما يشير الى شعب قليل العدد بالقيــاس الى غيره يعرف بالعبرانيين، ومهما يكن من شيء فان هذا الشعب غير متجانس ٠ وقد اتخذ كافة العبرانيين على مر الزمن هذه الروايات الجلية الخاصة بذلك الفريق الصغير وجعلوا منها تاريخهم الرسمى ٠

وتهددت مصر الحروب والدســائس فى فلسطين وبلاد الشام والميتانى ٠ وليس من شك فى أن الشعوب المحيطة بها افادت الى أقصى حد من اهمال اخناتون واجباته الحربية ٠ ولم يكترث سبليوليوما بأية دعوة الى السلام ، وانما وقف خير مواهبه على توسيع رقعة دولته وحارب قرقميش وبلاد الشام وأدخل الميتانى فى طاعته ٠

وكانت عظمة الدولة مستمدةمن عظمة عاهلها كما هو الحال فى كثير من الأحيان ٠ فلما مات سبليوليوما ، اقتتل والده على الملك . وفاز مرسل على خصمه آخر الامر ولم يكن هو الوارث الشرعى للعرش ٠ وما من ريب فى أن هذا النزاع قد أضعف سلطــان الدولة ومهد الســـبيل لسقوطها سقوطا لم تقم لها قومة من بعده ٠

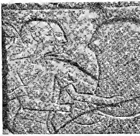
ومع هــذا فقد احتفظت الدولة بالكثير من حيويتها٠ واستمر التحاسد القديم بين الحيثيين والمصريين ٠ واحتفظ الحيثيون بما بينهم وبين فلسطين من صلات ، ولعل غرضهم من ذلك كان اتخــاذها قاعدة لهجــوم مدبر على بلاد خصومهم نفسها٠ولم يأت هذا الهجوم بما علق عليه من الآمال . وذلك بلا شك لضغط أعداء جدد على الحيثيين ٠ وفى عام ١٣٠٠ ق ٠ م ٠ أو حول ذلك كانت الدولة بين جماعتين

أفول الدولة الحيثية

متخاصمتين ــ معقل طروادة المنيع من جهة ، والاشوريين من جهة أخرى ، وكان هؤلاء يبدون حتى فى هذا الزمن المبكر ما يدل على الرغبة فى السيطرة على العــالم فهاجموا قرقميش ، وبلغوا مأربهم من ذلك على الرغم من المعونة التى بذلها الحيثيون للمدينة ٠

ولولم يكن نجم مصر ايضا آخذا فى الأفول لما استمر نضال الحيثيين معها كل هذا الوقت ٠ وما انتهى الى الفوز الذى انتهى اليه بوجه عام ٠ ومن المفيد أن نوازن بين مهــاجمة مصر أيام رمسيس الثــانى وأيام مرنبتاح ٠ فقد كان الحيثيون فى الهجوم الأول هم القادة . وانضم اليهم بعض القبائل الصغرى فى الاناضول ٠ أما الهجوم الثانى فقد كان البادئون به قوما أقل منهم شــأنا تحالفوا مع الآخيين ، وقعد الحيثيون عن القتال ٠

وكان نجم الآخيين وقتئذ فى صعود . فقد أخذوا يبسطون نفوذهم شيئا فشيئا ثم فوجىء



محاربون من أصل آخى

يقال ان ملامح أصحاب هذا الرسم ودروعهم تدل على أنها للآخيين المغامرين الذين جاءوا من جوار طروادة . وأصبحوا من المرتزقة فى جيش الحثيين ابان حروبهم فراعنة مصر ٠

الناس وقتئذ بسقوط طروادة ، وبعدها مباشرة سقطت حتوساس ، وهى المدينة التى يعرف موضعها الآن باسم بوغاز كوى ٠ ومزقت آسية الصغرى اربا ، فبادرت الجماعات بالخروج من مرجلها فى كل اتجاه ، تبحث عن مواطن أرفق بهم من عيش هذه البلاد ٠

وكانت يد الآخيين المستترة تعمل عملها من أول الأمر الى آخره ٠ ولعلنا نستطيع أن نتوسل بهم فى الرجوع خطوة فى سبيل اعادة تنظيم الحوادث٠ولنسائل أنفسنا عمن يكون هؤلاء الآخيون ؟ ٠

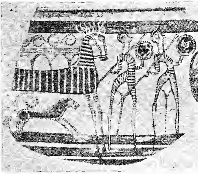
تذهب المصادر القديمة الى أن السكان الأصليين فى اليونان والبلاد المجاورة كانوا شعبا يعرف باسم « البلاسجيين » وقد طال الجدل حول مدلول هذا الاسم ، وكانت الآراء التى قيلت فيه تتراوح بين الافراط فى الشك والاسراف فى التصديق ٠ وتعقدت المسألة لأن الناس نفروا بحق من هذا الاسم بعد اذ استعمله المدعون والكتاب الذين ظهروا فى هذا العصر الذى لم تكن العلوم قد استقرت فيه بعد ٠

والاسم بعد هذا كله عنوان وضع لتمييز غيره من الأسماء ٠ وليس من دليل على أنه الاسم الذى سمى به ذلك الشعب ، والظاهر أن معناه « شعب البحر » ، وهو ليس الا اصطلاح أطلقه كتاب اليونان القدامى للدلالة على أن اليونان والشعب الذى ينتمون اليه لم يكونوا اول من سكن بلادهم ٠ وهذا الاصطلاح مبهم لا فرق بينه وبين قولنا « الذين سبقونا » ونحن نستطيع أن نسلم بمضمون ذلك ، ونقر من ثم الاسم الدال عليه ٠

وليس من شك فى أنه قد عاش فى بلاد اليونان وفى الجزائر المجاورة لها سكان أول ينتمون بصفة عامة الى الشعب الذى عرفه علماء الأجناس بشعب البحر المتوسط ٠ وهو الذى ينسب اليه تطور الثقافة المينوية ، مما يدل على أنه لم يكن شعبا فاتر الهمة ، وأنه قام بالكثير من الأعمال ٠ فاذا سميناه البلاسجيين ، فان ذلك لا يعنى أنه شعب متجانس ٠

ويظهر أن اليونان أنفسهم يعتقدون أن الغزو الآخى سبق حرب طروادة بثلاثة أجيال أو أربعة يدل على ذلك الشاهد المستخلص من أشجار النسب القديمة وغيرها ٠ ويجب أن نحتاط فى الأخذ بهذا الشاهد ، ومع ذلك فان لدينا من الاسباب ما يجيز لنا أن نستنتج أن قوما جددا ظهروا فى أرض اليونان قبل هذا الحادث ٠ وقد لا يكون من حقنا أن نحدد تاريخا لهذا الغزو ٠ وقد تمت قرابة عهد هوميروس

التاريخ وأساطير هوميروس



جنود من العصر السابق للعصر الميسينى

لا يزال العلماء مختلفين فى أمر العلاقة بين الحضارة الآخية وثقافة العصر الميسينى ٠ وفى هذه الكسرة من الفخار (وهى من الصناعة الآخية) التى عثر عليها فى « تيرينز » يرى الجنود وعلى صدورهم الصفائح ومعهم تروس مستديرة ، وكان المألوف عند الميسينيين أن يستعملوا تروسا برجية الشكل أو مثمنة الشكل ولم يكونوا يستعملون دروعا لأجسامهم ٠

الغلبة للآخيين على البلاسجيين فى احتلال بلاد اليونان • وأصبح البلاسجيون فى مرتبة الرقيق أو الأتباع ، وأصبح الآخيون هم الشعب السائد وانتهت اليهم مقاليد الشؤون العليا جميعا •

وقد نسلم بالأمور التى سنسوقها بعد وهى اخلاء البلاسجيين أيا كانوا ، السبيل للآخيين ، أيا كانوا ، فى وقت ما حوالى عام ٣٠٠ ق • م • وأن الحضارة الغالبة قبل ذلك التاريخ كانت حضارة بلاسجية ، أما بعده فكانت آخية • ذلك ما نسلم به • أما اذا ذهبنا الى أبعد من هذه الفروض البسيطة ، فاننا ننزلق الى مشاكل اشتد حولها الخلاف •

ورجع كل فريق من المتناظرين الى هوميروس ووجد فيه طلبته • فالفريق الأول يثبت بجلاء أن كل ما عمله هوميروس هو أنه استعاد الحياة الآخية ، ومن ثم لم يكن جهاز مسرحه من سيوف ودروع وسروج هو ما تتجهز به أبطاله فى الحياة الواقعة • وأصحاب هذا الرأى يشيرون الى الفروق بين الأسلحة وغيرها . مما وضعه هوميروس ، وبين ما وجد منها فى القبور الميسينية أو ما نقش منها على الجدران أو الخواتم فى كريت . ويظهروننا على أن عالم هوميروس متأخر فى الزمان عن العالم الذى حاول أن يصفه ومباين له • أما الفريق الثانى فينكر وجود هذه الفروق ، ويفسر أصحابه وجود الاختلاف فى المسائل الصغيرة،بما اعترى النص من ضروب التحريف عامة وما أضيف اليه من الحشو بنوع خاص •

وتقف الحقيقة فى منتصف المسافة بين طرفى الخصومة كما هو الحال فى مثل هذه المناظرات ذلك لأن هوميروس كان أقرب منا كثيرًا الى الأحداث التى وضعها من حيث الزمان والمكان • (ونستطرد هنا فنقول اننا نفترض فيما ذهبنا اليه وحدة الشعر وشخصية الشاعر) • وكانت عنده طائفة من مصادر الأخبار أوصدت الآن دوننا • فقد سمع بآذنيه روايات لن تصل الى آذاننا • وبديهى أنه عمل كل ما وسعه لنقل هذه الروايات الينا ، وتصوير حياة أبطاله كما نخيل وجودهم فى ضوء المعلومات التى كانت فى متناول يده ، ولا يستتبع ذلك أنه كان ، أو أن فى مقدوره أن يكون ، صادق الروايه على الدوام •

وقد كان حال هوميروس فى ذلك حال كاتب محدث يكتب روايه تاريخية عن عهد قريب من عهد تشارلس الثانى • وحرى بهذا الكاتب أن يتجنب التعرض لقطر السكك الحديدية أو البرق وأحرى به أن يكون على دراية واسعة بعلم الآثار فيتحاشى الوقوع فى الهنات التى وقع فيها مؤلف اتفق أن قرأت قصته قبل أن

شعر الملاحم وعلم الآثار

أكتب هذا الفصل بيوم أو يومين فقد جعل الزوجة « تعد الشاى » لبعلها عام ١٦٦٠ • ومهما كانت مكانة هوميروس فانها لا تمنعنا من أن نلومه على وقوعه فى مثل هذه الهنات • ومن ثم كان لزاما علينا أن ننقد بلا تحرج عمله بالآثار قبل أن نعمل على الافادة منه • ولا علينا اذا قلنا أننا لا نستطيع الافادة من عمله هذا ، بل ان علينا أن نستعين بعلم الآثار فى توضيح أشعار هوميروس •

وهناك رأى يقول ان الآخيين الذين وصف بعضهم بسمرة الشعر ، ان لم يكن بشقرته ، على خلاف البلاسجة من أهل البحر المتوسط ذوى الشعر الأسود ، كانوا جماعة من الغزاة غير اليونان يجرى فى عروقهم دم أهل الشمال• وقد نزل هؤلاء من الشمال ، ويقال انهم نقلوا معهم ثقافة الحديد وأحدثوا كل الانقلابات التى طرأت على حضارة البلاد الايجية وقتذاك • وسوف نرى بعد ، أن نسبة ادخال الحديد اليهم فيها تجوز غير قليل • وقد أصهروا الى البلاسجةففقدوا بذلك مقومات جنسهم واصطنعوا اللسان البلاسجى ، ويقال انه لهجة قديمة من لهجات اللسان اليونانى ، فزالت عنهم على الأيام خصائص جنسهم بالمصاهرة المستمرة ، وبقيت الخصائص البلاسجية ، ولا تزال غالبة على شعب يونانى •

وثمت رأى معارض يذهب الى أن الآخيين كانوا أول أمرهم من اليونان كما يؤكد اليونان أنفسهم وأنهم كانوا يعيشون شمالى بلاد اليونان ، وأنهم ظعنوا الى الجنوب وغلبوا على بقية اخوانهم من الهيلانيين • ويقول أصحاب هذا الرأى أيضا ان الانقلابات الجارفة التى وقعت فى ذلك الوقت لا تمت بصلة الى الغزو الآخى ، وأن مصدرها الشرق ، ولو أن قولهم هذا يشوبه الغموض •

ويظهر أن الرأى الأول أكثر تمشيا مع الوقائع

بوجه عام ، وهو يفسر أحداث تاريخ اليونان وبحر ايجه وشواطىء الأناضول فى عهد الاضطراب الذى يتناوله هذا الفصل تفسيرا وافيا بالغرض بل يذهب بعضهم الى أن هـذا الرأى يسرف فى التفسـير ، ويهدينا مثل هـذا الغزو على يد شعب قوى من أرومة شمالية مقدرة الى علة سقوط الدول فجاه فى آسية الصغرى فى الألف الأخير قبل الميلاد ·

ولا يبرأ هذا الرأى من المآخذ · فلم يثبت بعد ان البلاسجه كانوا يتكلمون اللغة اليونانية او لغة أخرى هندية أوربية ، وسيظل هذا غير ممكن التحقيق حتى تحل رموز الوثائق التى كشفت · ومن ثم وجب علينا أن نحجم عن الحكم على هذه المسائل وأشباهها · والمشاهد

اختلاف الآراء فى هذا الموضوع

أن الطفل الوليد يتبع لسان أمه دون أبيه · وليس من الوجاهة أن يعترض معترض على هذا الرأى بأن المؤرخين اليونان الذين ظهروا فى عهد متأخر لم يسجلوا شيئا يتصل بتلك الغزوة التى جاءت من الشـمال · ذلك لأنهم لا يميلون الى تخليد القصة التى تذهب الى ان الآخيين انحدروا من « الهمج » · ولعل ضحايا هذه الغزوة أنفسهم لم تكن لديهم فكرة واضحة عن أصول الفاتحين لبلادهم مثلهم فى ذلك مثل رمسيس الثـالث فى معرفته بأصل شـعوب البحر ·

واذا بلغنا هذه المرحلة فاننا نخلف وراءنا دون شك عالم الحقائق المؤيدة بالدليل وندخل عالم الحدس والتخمين ونحن نسمح لأنفسنا بعد هذا التحفظ بالنقلة من بلاد اليونان وبحر ايجة الى اواسط أوربة وشمالهـا · ولم نعثر فى مصنفات الأدب بشىء يشير الى ما وقع هنالك فى القرنين الثالث عشر والثانى عشر قبل الميلاد ولما يستقر الترتيب الزمنى الخالص للآثار التى لا مناص من الاعتماد عليها فى اعادة بناء التاريخ كما أنه لا تعوزنا الشواهد على حدوث انقلابات فى تلك الربوع حوالى ذلك الوقت · فنحن نلمح تغييرا يسيرا فى الفنون ، وفى أنماط الأدوات والأسلحـة . مما يدل على أن أواسط أوربة وشمالها قد غلب عليها الاضطراب كما غلب على البحـر المتوسط ، وان تجوالا بين الشـعوب قد حدث هناك ولم يجد من يؤرخ له ، وما كانت الغزوة الآخية التى افترضنا وقوعها سـوى حادث واحد من أحداثه ·

فاذا صح ذلك فان القياس يهدينا الى أن هذا الاضطراب كله ، وهو الاضطراب الذى حاولنا ترتيب أحداثه يعود فى آخر الأمر الى التركستان التى أقلقت بال أوربة من قديم · ذلك لأن أهل القبائل المتبدية الغليظة فى تلك الأراضى المجدبة القليلة الخير قد أرغمهم الى الجلاء سوء الأحوال الجوية والاقتصادية سوءا فاق المعتاد ، فانحطوا على شرقى اوربة وكان الناس فى تلك الربوع يعيشون فى دعة ، فساقوهم هنا وهناك سوقهم للأنعـام التى كانوا يعيشون عليها من مطلع التاريخ ·

ومهدت حركات الشعوب هذه ، السبيل الى قيام عالم جديد ، وهو عالم لا يزال تاريخه جاريا ، ويختلف اختلافا بينا عن سابقه ، ففيه من الأنظمة والسنن الدينيـة والاجتماعيـة ما لا يدخل تحت حصر ، وفيه من مرفهات الحضارة مالا عداد له ، منها ما هو خير ومنها ما هو شر ، مما لم يخطر على قلب بشر فى العالم القديم · وليس المقام هنا مقام التفصيل ، وحسبنا أن نقول ان علة تطورها كامنة فى ثلاثة أصول تفرق ما بين القديم والجديد ، وهى ثلاثة انقلابات بدأت فى هذا العهد من عهود الضيق · استعمال الحديد واصطناع حروف الهجاء وانتشار اللغات الهندية الأوربية ·

بدأ استعمال الحديد يعم فى مصر حوالى عام ١٣٠٠ ق · م · وان كانت قد وجدت فى تلك الديار نماذج قليلة متفرقة من الأدوات المصنوعة منه يرجع تاريخها الى زمن يكاد يكون قديما قدم استعمال البرونز · أما فى جنوب أوربة فقد بدأ ظهور الحديد فى موضع من المواضع عام ١١٠٠ ق · م · على التقريب · وذهب البعض الى وجود علاقة بين الفتح الآخى ودخول

بداية صناعة الحديد

الحديد الى جنوب أوربة ، بيد أنه اذا كان الأمر كما زعموا ، فلابد من وجود شـواهد على استعماله قبل ذلك فى أواسط أوربة وشمالها ، وليس من المنتظر أن نعثر على هذه الشواهد · بل اننا على العكس من ذلك وجدنا اليوم رسالة هامة ، تتصل بطلب فرعون مصر من حاتوسيل ملك الحيثيين أن يرسل اليه شيئا من الحديد ،

وفيها يعتذر ملك الحيثيين بعدم وجود هذا المعدن عنده • ويظهر أن هذه الرسالة التى يعود تاريخها الى حوالى عام ١٢٦٠ ق • م • هى أقدم الشواهد على استعمال الحديد حول بحر ايجة •

وكان الفلسطينيون يستخدمون هذا المعدن فى الوقت الذى بدأ العبرانيون فيه الخروج من عصر الشبهان ، والراجح أن الآخيين المتصلين بالفلسطينيين قد تزودوا به أيضا ، ولكننا حتى اذا سلمنا بالرأى القائل ان الآخيين كانوا فريقا من الغزاة انحدروا من الشمال للسبب المشار اليه، فليس ثمت ما يبرر الاعتقاد بأنهم هم الذين أدخلوا الحديد الى تلك الديار • ومن حسن الرأى أن نفترض أن الاضطراب العنيف الذى أحدثه دخولهم البلاد قد أدى الى انتشار العلم بخصائص المعدن واستعماله ، وربما جعله فئة من العارفين به سرا من أسرار الصناعة لم يبوحوا به لأحد •

ويكتنف الغموض أيضا الأصل الذى صدرت عنه حروف الهجاء • فقد عرفت الامبراطوريات الكبرى فن الكتابة فى العصر البرنزى وتوسعت فى استخدامه ، وكانت المقاطع التى اصطنعت فى الكتابة من الصعوبة والعسر (أنظر الفصل الخامس والثلاثين) بحيث أصبح فن الكتابة بالضرورة مقصورا على طبقة محدودة ، يستطيع أفرادها أن يقفوا وقتهم كله لتحصيله وتجويده وكان المتخصص وحده هو الذى يستطيع أن يعى فى ذاكرته آلاف الحروف التى لا غنى عنها فى التعبير باللغتين المصرية والبابلية فى الكتابات التى سطرت بها • وحتى الملك كان لا يستغنى عن كاتب يقرأ له أخص رسائل الدولة أو يكتبها، ولا شك فى أن الحاجة الى الكاتب العمومى الذى لا يزال يشاهد قائما على عمله فى مدن الشرق كانت أشد فى مصر القديمة وبابل •

وليس من شك أن حروف الهجاء المستعملة فى أوربة الآن ترجع كلها الى أصل واحد ، وأن هذا الأصل قد تحور بوسائل شتى ليلائم حاجة مختلف اللغات التى اصطنع لها • وهذا الأصل المشترك صورة قديمة من حروف الهجاء اليونانية كما هى ممثلة فى بعض نقوش القرن الثامن قبل الميلاد • وكانت هذه النقوش تكتب من اليمين الى الشمال ، وهى تشبه من هذه الناحية

ومن ناحية صور الحروف المختلفة ، النقوش السامية القديمة فى بلاد الشام وفلسطين مما لا يجعل مجالا للشك فى أن هذه أصل لتلك •

ومع ذلك فبين الكتابة السامية وحروف الهجاء اليونانية التى اشتقت منها ، فرق أساسى • فاليونانية حروف هجاء بحق ، للحروف فيها والحركات مقام واحد • أما الكتابة السامية فليست حروف هجاء بالمعنى الصحيح ، ولكنها مقاطع قصار من اثنين وعشرين حرفا ، كلها ساكن يلفظ به مستقلا عن غيره ، أو يتبعه مد مبسوط لا ضابط له • وعلم القارىء باللغة هو الذى يهديه الى كيفية وضع الحركات فى مواضعها ، وكثيرا ما يقع الالتباس وخاصة فى كتابة الاعلام غير المألوفة فى هذه

أصل حروف الهجاء

اللغات • وتعبر بعض هذه الحروف عن أصوات ساكنة تنفرد بها اللغات السامية ، ولا يحتاج اليها فى الكتابة باليونانية ، ولكن اليونان أخذوا هذه الحروف الساكنة وجعلوا لها قوة الحروف المتحركة ، حتى أن القارىء الجاهل باليونانية يمكنه أن يحزر نطق الكلمات اليونانية التى تعرض له على وجه معقول ، ولا يتأتى ذلك فى أية كتابة سامية •

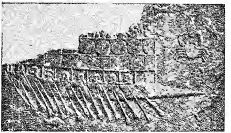
وتذهب الرواية اليونانية المتواترة الى أن الفينيقيين هم الذين علموا اليونانيين كيف يكتبون ، وذكروا أن رجلا اسمه قدموس Cadmus من الفينيقيين الذين استعمروا تراقية ، هو صاحب هذا الفضل الذى طوق به الانسانية • وكان الفينيقيون قد استقروا من قديم على السفوح الغربية لجبال لبنان ، وان كنا لا نصدق ما أضفوه على أصلهم ومدنهم من عراقة فى القدم لا يصدقها العقل • لقد كانوا شعبا ساميا، تربطه بالعبرانيين صلة رحم يتكلم لغة لا تختلف عن العبرية الا من حيث اللهجة . بيد أنه قد نمت فيهم على الرغم من هذه القرابة خصائص تميزهم عن غيرهم بشكل محسوس •

والذى لا شك فيه أنهم كانوا أكثر تحضرا من العبرانيين ، أيام سليمان على الأقل ، ذلك لأن هذا الملك اضطر الى استقدام الصناع من فينيقية لتشييد ما أزمع من مبان • على أن هذا

الشعب الذى يعزى اليه فضل ابتداع الحروف الهجائية لم يكن يحفل أيما احتفال بالأدب ، فلا يكاد ما خلفه يزيد على طائفة من النقوش، معظمها مجموعة من المظلمات لعلها أحفى من أية مجموعة أخرى فى العالم • ومن العجيب أنهم انفردوا بين بقية الشعوب السامية بالرغبة فى ركوب البحر ، خرج منهم من استعمروا شمالى افريقية ، ومنهم من غرّب الى اسبانيا ، ولسنا فى حاجة الى أن نأخذ مأخذ الجد ما روى عن خروجهم يبحثون عن معدن القصدير فى وقت من الأوقات ، حتى وصلوا الى كرنوول Cornwall • وظلت زعامة التجارة فى البحر المتوسط زمانا فى مدينة صور ، ولكن يجب أن يقال ان بحارتهم كانوا يمارسون فنا غير « أصيل » فيهم • فقلما جازفوا حتى فى أحوال رحلاتهم بالابتعاد عن اليابسة ، ويظهر أن سفنهم التجارية كانت تتحسس طريقها وجلة من رأس الى رأس •

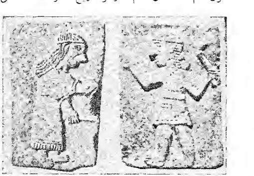
وتوحى لنا بردية جولنشف بعدة آراء فى تفسير هذه المناقضات • فقد ظلت فينيقية زمانا فى حكم الزقالة Zakkala وكان ذلك حول عام ١١١٥ ق • م • وهو تاريخ الحوادث التى سجلت على تلك البردية • وبين هؤلاء القوم وبين الفلسطينيين قرابة ، فهم يشبهونهم من غير شك فى الخصائص والمقومات • وكانوا من « شعوب البحر » حقيقة ، ومن ثم اعتادوا ركوب السفن،وكانت هذه السفن التى تتحدث عنها البردية سفن الزقالة فى الغالب لا سفن الفينيقيين أو الكنعانيين • وليس من دليل على احتراف الفينيقيين الملاحة قبل استقرار الزقالة على سواحلهم • ومن المعقول أن نستنتج أن الزقالة هم الذين علموا الفينيقيين فن الملاحة ، وأظهروا لهذا الشعب السامى المفطور على حب التملك ما يمكن أن يجنيه من تجارة ما وراء البحار • ولم يكن تاريخ فينيقية الى عهد الزقالة الا سجلا لمرور الفاتحين العظام مثل هؤلاء الذين نقشوا الألواح المشهورة عند نهر الكلب •

يضاف الى ذلك أن الوثيقة التى أشرنا اليها تظهرنا على ملك الزقالة يسجل حسابه على البردى ، والظاهر أنه كان قادرا على الرجوع اليها وحل رموزها بنفسه • ومن ثم لم نكتب هذه البيانات بالهيروغليفية أو الهيراطيقية المصرية المعقدة التى تتطلب استخدام كاتب خاص ، وانما كانت تسجل بأسلوب بسيط من أساليب الكتابة



تجار مغامرون فى الماضى البعيد

ان الخطوات التى خطاها علم الآثار فى تتبع أصل الفينيقيين فى بحر ايجه ليست بينة ، بيد أن ظهورهم فى بحار اليونان تشهد به الروايات المتواترة ووجود أعلام على بعض المواضع من أصل فينيقى • ويظهرنا هذا النقش الأشورى على سفينة فينيقية يرجع تاريخها الى القرن السابع قبل الميلاد



نحت ساذج فى فينيقية القديمة

كان بين الآثار التى عثر عليها المنقبون عند رأس العين جنوبى مدينة صور نماذج من الفن الفينيقى القديم ، التى كان فيها بوجه عام سمات من فن الشعوب المجاورة ، وليس فيها من الاصالة الا القليل • وقد عثر على هذه الألواح من الحجر فى مسكن شيد حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد تقليدا لقصور الحيثيين فى قرقميش وسنجرلى

يستطيع حتى الملك نفسه تعلم قراءته • وليست هناك ورقة عليها الكتابة المعروفة بالفينيقية أقدم من العهد الذى احتلت فيه الرقالة بلاد فينيقية .

الكتابة البسيطة التى يستطيع الملوك قراءتها

اللهم الا اذا استثنينا ضريح أهيرام Ahiram الذى اكتشف حديثا فى بيبلوس Byblus (أنظر الفصل الخامس والثلاثين) ويقال ان تاريخه يرجع الى أيام رمسيس الثانى •

وقد زاد البحث فى أصل الكتابة السامية تعقيدا لما عثرنا على النقوش العجيبة فى سرابة الخادم من أعمال شبه جزيرة سينا • فالواقع ان هذه الخطوط تدعونا من غير شك الى التحفظ والاحتياط . وهى تقنعنا على الأقل بأن فصل الخطاب فى الموضوع لم يقل بعد . فأكبر الظن أن المعلومات التى تساعد على اصدار الحكم الصحيح لم تصل كلها بعد • على أنه ما زال لدينا من الاسباب ما يجعلنا نتوقع أن مبلغنا من العلم لا يجيز لنا أن نعزو الى الرقالة أنهم علموا الفينيقيين الكتابة بالحروف الهجائية ، وأن العالم الحديث أخذها منهم • وليس من المعقول أن يكون الرقالةقد ابتدعوا هذه الحروف ابتداعا • فاذا سألنا أنفسنا من أين لهم هذه الحروف ــ كان الجواب الوحيد الذى نستطيع أن ندلى به الآن هو الاعتراف الصريح بالجهل • (أنظر كذلك الفصل الخامس والثلاثين ، حيث سلم الكاتب بالرأى القائل بأن أصل حروف الهجاء يعود الى نقش سرابة الخادم ، الناشر) •

أما فى العالم القديم فلم يكن للشعوب الهندية الاوربية شأن ملحوظ • فقد كان السلطان فى يد البابليين والآشوريين ، وهما من الشعوب السامية التى طعمت حضارتها بعناصر طورانية ، وفى يد المصريين الذين يقال على سبيل التيسير انهم حاميون ، وان كان هذا القول لا يقوم على أساس علمى صحيح • ومهما يكن من شئ فانهم لا ينتمون الى الشعوب الهندية الاوربية ، وفى يد الكريتيين والحيثيين الذين لا نستطيع الآن التثبت من أصول لغتيهم •

بيد أن الشعوب الهندية الأوربية قد غلبت على العالم الجديد • واختفى الساميون من الميدان ، اللهم الا ما كان للبهودية أو الاسلام من سيادة دينية • بل ان الجنس الحامى قد أصبح أقل شأنا حتى من الساميين • واحلت الألسنة التى تمثلت فى آسية الصغرى مكانها لألسنة أخرى شتى ، غلبت عليها الآرية • واحتفظت أوربة فى الباسقيين (الباسك Basque) بأثر واحد من آثار اللسان القديم ، وفى أوربة فوق ذلك عناصر دخيلة هى لغات الفنلنديين والترك والمجر . وفيما عدا ذلك تسود اللغة الآرية بقية المناطق والربوع • وكل من يتصدى للكلام على « الأقوام الجدد » لا يستطيع أن يغفل اللغات الجديدة التى ظهرت معها •

ولا يزال المكان الذى نشأت فيه اللغات الآرية ، بل لا تزال طريقة انتشارها من المعضلات التى لم نتقدم فى سبيل حلها خطوة واحدة • ولقد ظن روده Rohde منذ أكثر من قرن أن اللسان الآرى نشأ فى جبال اليامير • وجاء بعده طائفة من العلماء اختلفوا فى منشأ اللسان الآرى ، فقالوا على التعاقب انه فى أواسط

مشكلة اللغات الهندو أوربية

آسيه فى هضبة ايران وأرمينية وجنوب روسيا وجبال الكربات ووادى نهر الدانوب فى ألمانيا وأواسطها واسكنديناوة وجنوب البحر البلطى • وصعوبة هذه المعضلة فى عدم توفر أسباب حلها •

ولا ترجع الآثار التى وصلت الينا مدونة بهذه اللغات الآرية الى عهد أقدم بكثير من عهد الحوادث التى أرخنا لها فى هذا الفصل ــ وهى لا تشغل الا فترة قصيرة من تاريخ أوربة وآسية ــ أو من تاريخ اللغات الآرية نفسها • أما قبل ذلك فليس هناك شئ . ومن ثم لم يبق لنا الا استقراء الشواهد المستمدة من اللغات نفسها ، وهى قربها أو بعدها من اللغة الاصلية المفترضة . وطبيعة المفردات المشتركة بينهما ومقدارها ، ويمكن اعادة بناء هذه اللغة الأصلية الى حد ما بالاستعانة باللغات التى خلفتها • وليس المقام هنا مقام البحث فى هذه المشكلة ، فالذى يعنينا هو انتشار هذه اللغات فى أوربة وآسية ، لا الرجوع بالبحث فى أصل أسرة اللغات الآرية الى الماضى السحيق •

وضاعفت نتائج البحث من تعقيد المشكلة الى حد كبير . وليست هناك شواهد مباشرة تدلنا على أن اللغات الآرية كانت على ألسنة الناس فى آسية ابان العصر البرنزى ، وان كان من المعقول بداهة أنها موجودة وقتذاك • وقد

بقيت لغة البشقنس (الباسك) الى الآن شاهدا على أن لغات أخرى غير الآرية كانت من لغـات أوربة الأصلية . ومن المحتمل أن كثيرا من وجوه الخلاف فى الشكل بين مجموعات اللغات الآرية ، انما يعود الى أثر لغات أجنبية عنها أقدم منها .

مثـال ذلك رفض الكلت للنطق بالحـرف « پ P » رفضا يـكاد يكون آليا (وهـذا يترك ثغرات فى حديثهم نستطيع أن نشبهها بالثغرات التى تحدث فى الكتابة بفعل حرف مكسور فى الآلة الكاتبة) وقد يكون مرد هذا الى خلطهم بشعب بدائي ألف تشويه الشفاة «كالبوتوكودس Botocudos » فى أيامنا هذه ، ومن ثم أصبحوا عاجزين عن التلفظ بالحروف الشفوية . ونحن وان كنا نفيد من التفرقة بين الذين يتكلمون اللغات الآرية والذين يتكلمون لغات غير آرية من غـير أن ننظر الى الأجناس التى ينتسبون اليها ، فاننا نجد مع الأسف أن من الضرورى أن نقحم الـكلمة السـخيفة « ويرو Wiro » فى لغة العلم لكى نفى بالغرض .

اللغـة الآرية عند الميتـانى

ومهما يكن من أمر اللغات الآرية فى أوربة ، فان ألواح تل العمارنة أظهرتنا على أن لغة من هذه اللغات كانت على ألسنة الناس فى مملكه الميتانى حول عام ١٤٠٠ ق . م . وكان أقدم ما عرف من كتابة باللسان الآرى قبل ذلك العهد، هو التواليف الفيدية الهندية التى يقال انها سجلت حوالى عام ١٠٠٠ ق.م. ولعل انتقاله بالرواية الشفوية كان أقـدم من ذلك بما يزيد على ألف سنة أخرى . وأعجب من هذا ما انتهى اليه حل الرموز التى على ألواح بوغاز كوى . فقد كشفت عن لغات آرية السمات ، وذكرت آلهة آرية مثل اندرا Indra وفارونا Varuna.

أما اللغات التى كانت مستعملة فى كريت وبلاد الأناضول فلا تدخل فى مجموعة اللغات الآرية . وقد عثرنا على نقوش فى براسوس وكريت وفى كاريا وفى ليقية ، لم نسـتطع بعد تفسيرها ، وان كانت قد كتبت بحروف يونانية أو بغيرها مما يمكن قراءته ، ولا يمكن اثبات آرية هذه اللغات ، والراجح أنها تنسب الى مجموعة أو مجموعات من اللغات تباين الآرية مباينة تامة . واللغة الأترورية من هذا القبيل أيضـا ، وأغلب الظن أنها نشـأت فى آسية الصغرى . والثابت على كل حال أنها ليست آرية ، وهذه اللغات من آثار الألسنة فى أوربة وآسية .

وينبغى أن نرد اصطباغ جنوسوس بالصبغة الآرية الى هجرات ، أقدم من هجرة الآخيين ، التى أدت بالذات أو بالواسطة الى سقوط الدولة الجنبية . ولابد أن الهندوأوربيين الذين كانوا يتكلمون لغة آرية،أو قل عدة لغات آرية مختلفة ، كانوا يعبرون البواغيز الضيقة التى تفصل سـاحل آسيه الصغرى الشمالى عن أوربة قرونا كثيرة . ولابد أن هؤلاء الهندوأوربيين قد احتفظوا بلغاتهم الأصلية على الرغم من امتزاجهم بالدولة الجنبية .

المجموعتان الكافية والسينية

وتقسم اللغات الآرية بادىء ذى بدء قسمين أساسيين تبعا لما فعلوه فى حروف الحلق فى اللغة الأصلية . فالقسم الأول يحتفظ أصحابه بصوت الحروف الحلقية كما هى ، أما القسم الثانى فيحول حروف الحلق الى حروف الصفير . ولسهولة التفريق بين هاتين المجموعتين أطلق على أولهما « اللغات الكافية » ويطلق على الثانى اسم « اللغات السينية » والاسم الأول مشتق من الكلمة اللاتينية التى تدل على العدد مائة ، والثـانى مشـتق من الكلمة السـنسكريتية أو الزندية التى تدل على المعنى نفسه ، وذلك باعتبار الحرف الأول من الكلمتين . وتنسب الى القسم الأول اللغات الأوربية الحية ما عدا الصقلية والبلطية (اللتوانية) والألبـانية ، وينسب الى القسم الثانى اللغتان الآسيويتان المهمتان الهنـدية والايرانيـة . وقد عثر فى التركستان على لهجة شديدة التحريف يظهر أنها خليط من القسمين وقد أطلق عليها اسم اللغة الطخارية Tocharian ، ومن المجموعة السينية لغة الميتانى (مثل الأرمنية الحديثة) التى كانت فى آسية الصغرى والشرق الأدنى ، بيد أن اللغات التى أثبتت فى ألواح بوغاز كوى تنتسب الى المجموعة الـكافية . ومما يؤيد هـذا أن ما ورد فى ألواح بوغاز كـوى من اشارة الى الالهين « أندرا » و « فارونا » كان متصـلا بمعاهدة مبرمة مع الميتانى ، ولو ظهرت هذه الآلهة الهنـدية متصلة بالمجموعة « الـكافية » الخالصة لكان ذلك مما يدعو الى العجب .

وتقدم لنا فلسطين كما تقدم شمالي آسـية الصغرى شواهد على استعمار حدث فى زمن متقدم بعض الشيء وفى أماكن شتى . والظـاهر أن هذا الاستعمار لم يكن الا أحداثا فى هجرة الآريين شيئا فشيئا صوب الشرق . ونعلم من سفر التكوين (الاصحاح ٣٤) أن حكام مدينة « شكيم » المهمة لم يكونوا يختتنون فى الايام التى كان السلطان فيها لرؤساء العشائر ، ثم نجد بعد ذلك فى سفر القضاة (الاصحاح ٩٠) قصة نستخلص منها أن الاهلين كانوا يعبدون الههم فى معبد من المعابد ، لا فى المرتفعات التى عكف الساميون على العبادة فيها . ويتضح من هذا بجلاء أن عنصرا غير سامى كان يعمل عمله فى تلك الجماعة .

الأمير الآرى لأورشليم

وتعطينا رسائل تل العمارنة نتفا من الشواهد المؤيدة لهذا الاستنتاج كنا فى حاجة اليها . فقد كان يحكم أورشليم رجل يتسمى بـ « عبد ـ خيبا » اذا صحت قراءتنا و « عبد » اللفظ الأول فى بعض الأسماء السامية المركبة ، ومعناه أن صاحبه يخضع لله أو يعبده ، ولفظ الله هو الذى يتـألف منه اللفظ الثـانى فى الاسم السامى المركب ـ وازن بين هـذا الاسـم وبين الاسـم العبرى « عبد آدم » والاسم العربى الحديث « عبد الله » ولكن « خيبا » ليست اسما لاله من آلهة الساميين ، وانما هو اسم ميتانى . ونسمع عن سيدات فى البلاط الميتانى يتسمين باسم « جيلو ـ خيبا » و « تادو ـ خيبا » وفى هـذه الأسماء العنصر نفسه . وربما كان « عبد ـ خيبا » ترجمة سـامية لاسم ميتانى له المعنى نفسه ، ومن ثم كان الرجل الذى يتسمى بهذا الاسم أجنبيا ميتانيا . وهذا مما يؤيد الاعتراف الذى ورد فى احدى رسائله وهو « لم يقمنى أبى ولا أمى على هذا المكان وانما أقامتنى فى بيت أبى ذراع ملك (مصر) القوية »ويلوح أنه يقصد بهذا أنه هو وآباءه قبله من عمال ملك مصر وصنائعه . (وينبغى ألا يغيب عنا ونحن نتناول بالبحث فقرة كهذه ما فى سياسة تل العمارنة الخارجية من ملق وضيع) .

ويظهر على مسرح الحوادث بين الحين والحين رجل اسمه « شوار ـ داته » ويبدو أنه كان أول الأمر على مدينة « كيلاه » من قبل مصر ، ثم طرد لكراهية أهل البلاد له قبل أن تبدأ الحوادث الدنيئة التى تكشف عنها رسـائل تل العمارنة ، فقد كان له خصوم منهم « عبد ـ خيبا » وشوا به الى فرعون ، وقد رد عبد ـ خيبـا بوصم خصـومه بمثل وصموه به فى رسـائل بعث بهـا الى فرعون ، وقد كان فرعون يثق به ، فقد تلقى خيبا منه أمرا لم تكشف لنا الرسائل عن ماهيته ، ولكنه وعد بتنفيذه بأمانة واخلاص ، وهذا من الشواهد القليلة التى نرى فيها فرعون يرد على هذا العدد الكبير من الرسائل . وظاهر اسمه أقرب ما يكون الى الأسماء الآرية ، ومن اليسير أن يقال فى تفسيره انه اسم من الأسماء الكثيرة التى من قبيل « ثيودوتس » Theodotus أو « ثيودور » ومعناه « عطية الاله » وكان البعض بارعا فى الموازنة بين اسم الاله هذا واسم الاله الشمس الهندى « سورية » Surya » ، وثمت اسم مركب كهذا هو « ياش ـ داته » وصاحبه رجل أودى من أجل ولائه لفرعون .

أحجار الأساس فى الثقافة الحديثة

وتميل بنا هذه الأمثلة المتفرقة الى الظن بأن الألسنة الآرية انتشرت على الأيام بفعل التغلغل السلمى فى الربوع التى نجدها فيها الآن .

ولدينا من الاسباب ما يجيز لنا أن نعد مجموعة اللغات الآرية هى والحديد وحروف الهجاء من أحجار الأساس التى قامت عليها ثقافة العالم الجديد . ذلك لأن أهم ما يميز اللغات الآرية على غيرها خصيصتان هما المرونة والأحكام . فهى تعبر فى يسر عن أنبل المعـانى الشعرية وأدق البراهين الرياضية على السواء ، والفعل فى هـذه اللغات أداة محكمة عظيمة القيمة ، وهو يفضل كثيرا أزمنة الفعل المبهمة التى تدل على تمام الحدث وعدم تمامه . وهى الأزمنة التى يقوم عليها الفعل السامى . وتعرقل قواعد الصرف فى اللغات السامية من تقدمها على الرغم من طرافته وبراعة وضعه التى لا يختلف فيها أحد ، ومن ثم كان من الصعب أن تدخل فيها الكلمات الجديدة الدالة على المعانى الجديدة ، فى حين كانت قابلية اللغات الآرية لهذه الكلمات الجديدة عظيمة تحير الألباب ، واللغة الآرية لغة التقدم ، والتقدم شعار هذه المرحلة الجديدة من مراحل تاريخ المجتمع البشرى .

إسرائيل في ضوء التاريخ

تصور الأيام الأولى من تاريخ الأمة اليهودية مستقاة من الكتاب المقدس والمصـادر المعاصرة

بقلم تيودور . ه . روبنسن Theodore H. Robinson

الحائز على الدكتوراه في اللاهوت وأستاذ اللغات السـامية في كلية الجامعة بكارديف ، ومؤلف كتاب « النبوة والأنبيـاء في العهد القـديم » Prophecy and the Prophets in the Old Testament وكتاب « اضمحلال الممالك العبرية وسقوطها » The Decline and Fall of the Hebrew Kingdoms ···· الخ ·

تنقسم كتلة الأرض التي تتألف منها قارات العالم القديم بطبيعتها قسمين عظيمين · أكبرهما وهو يضم أوربة وآسية ، يقع برمته في نصف الكرة الشمالي ، اللهم الا جزائر الى شرقيه خارجة منه · ويمتد أصـغرهما الى المنطقة المعتـدلة الجنوبية وهو يشمل قارة افريقية · وهذان القسمان يتقاربان عند طرفي البحر المتوسط . ولكن البحر يجري بين القسمين في طرفه الغربي أما في الطرف الشرقي فيصلهما معبر طبيعي من الأرض · على ان هذا المعبر ضيق . فلا يجد المسافر الذاهب الى الشمال من افريقية حتى بعد عبوره برزخ السويس الا شريطا من الارض ضيقا بالنسبة الى غيره ، غربيه البحر وشرقيه صحراء الشام المترامية الأطراف ·

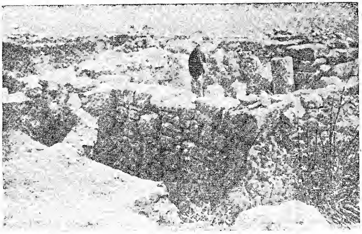
ونأتي الحديث أمتعهما ، على أن الهجرات الكبرى للشعوب لم تتخذ طريق البحر في الغالب ومن ثم أصبح اقليم فلسطين الصغير الجسر الرئيسي بين القـارتين الشـماليتين والقـارة الجنوبية طوال تاريخ الحضارة تقريبا ·

وكانت هذه البقعة من الارض ــ كما توقعنا ــ اعظم ما تكون خطرا في تاريخ الانسان · فقد تعرضت دائما للغزو من الشمال ومن الجنوب جميعا ــ ولم يحدث في تاريخها أن غزتها دولة جديدة من البحر الا مرتين اثنتين ، وقد تدفق عليهـا عشائر القوم الذين يعرفون باللوبيين في شمالي افريقية . وشعوب أواسط أوربة وآسية من المولدين ، وقبائل الرعاة والصيادين التي كانت تضرب في الاراضي الشبيهة بالصحراء أما أرباب الحضارة الايجية القديمة ، فقد أقاموا آخر منازلهم في هذا الموضع ليكون لهم شيء من الاستقلال السياسي بعد اذ أخرجتهم عن ديارهم موجة من موجات الهجـرة اليونانية الأولى · وقد احتل العموريون والحثيون والآراميون والفلسطينيون والعرب كل بدوره هذه البلاد . ومن هنا جاز أن نقول بلا تحفظ ان كل من استقر في هذه البلاد من الغزاة قد خلط دمه بدم هذا الشعب الخليط · بيد أن سكان هذه البلاد المختلفي الأصول قد وحد بينهم ما توالى عليهم من أحداث الغزو الأجنبي ·

يضاف الى ذلك أن ليس على سطح الأرض بقعة اقتتلت فيها الدول العظمى كما اقتتلت في فلسطين · فقد وقفت دولة أسيوية قامت في أرض الجزيرة مرة وفي الأناضول مرة أخرى . وكانت سورية حينا وتركية حينا آخر في وجه دولة مصر الافريقية مدى ثلاثين قرنا ، وكان النزاع ينشب دائما على فلسطين التي عدت مسرحا لأعنف الحروب · وتاريخ هذه البلاد سجل للمنازعات الهائلة التي لم يكن لأهلها فيها من الشأن الا قليل .

ميدان القتـال بين الدول المتنازعة

ويبدأ هذا السجل مذ قاد تحتمس الثالث فرعون مصر جيوشه في اوائل القرن الخامس عشر قبل الميلاد، الى النصر في المعبر الضيق المؤدي الى « مجدو » الى أن أبيد الجيش التركي عام ١٩١٨ وكانت بذلك المعركة العسكرية الفاصلة في الحروب الكبرى ومن ثم فان هناك ما يبرر قول صاحب سفر الرؤيا بأن المعركة التي سينتهي بها نظام العالم الحاضر ستدور رحاها فوق التلال المشرفة على مجدو ·



مجدو التى أصبحت مضرب الأمثال لكثرة ما جرى فيهـا من معارك والتى اشتهرت باسم آرمجدون تهيمن على مشارف سهل يزرعيل من ناحية الجنوب والمواجه مباشرة للممر الضيق الذى يرى فى الصورة السفلى ، وهو الممر الذى اجتازه تحتمس وترى فى أعلى الصورة أطلال معبدها المعروف باسم « المكان العـالى » وبينها اثنان من مذابحها وهما عمودان حجريان مما كانت تتسم به العبادة الكنعانية .



اذا استطعنا أن نطلق اسم مسرح الطاحن الأوربى على الأراضى الواطئة فانا لا نكون مغالين اذا أطلقنا على فلسطين اسم ميدان الطاحن العالمى . ففلسطين عبـارة عن شريط مستطيل الشكل قليـل الاتساع محصـور بين البحر والصحراء وهو الجسر الوحيـد من الأرض الذى يصل بين كتلتى اليابس لنصف الكرة الشرقى . وكانت مجازا فى جيئـة أغلب الجيوش المحاربة ورواحها منذ عهـد تحوتمس الثالث حتى عهد لورد اللنبى . وتعتبر مجدو احدى طرق فلسطين القليلة المطروقة .

منظر لمدن كثيرة سميت أرمجدون : معبد ووادى مجدو

ومن المحال على أهل هـذه البلاد أن يتمتعوا بالحرية الوطنية بأكمل معانيها ، ولم يحصلوا عليها الا فى فترات متقطعة كلت فيها الدولتان العظيمتان أو انشغلتا عنها • وسواء أحكم فلسطين أقيال تابعون لغيرهم أم عمال دولة أخرى ، فقد خضعت خضوعا حقيقيا أو اسميا لملوك ممفيس وطيبةونينوىوبابل واسوسوالاسكندرية وأنطـاكية ورومـة وبوزنطة وبغـداد والأستانة ــ ولندن على التعاقب •

ولسنا نتوقع بطبيعة الحال أن يكون لأمة لها مثل هذا التاريخ نصيب خاص فى رقى حياة البشر • فما من شك أنه لم يكن هناك فن فلسطينى • فقد كانت كل منتجات العالم القديم بأسره بل كنوزه تمر بمدن اسرائيل ، ذلك لأن هذه البقعة كانت ملتقى كثير من أهم الطرق التجارية حتى أصبحت منصرفة فى صناعات عدد كبير من الشعوب • ومن ثم لم تكن بها من حاجة الى ترقية صناعتها هى • ويدل ما كشف من آثارها على أنهـا استعارت كل خزفها وعمارتها وصياغة معادنها من بلاد أخرى •

وتدل أقدم طبقات الأرض فى فلسطين على ما كان لمصر من أثر ، فقد كانت تبسط سلطانهـا على فلسطين ، وان ظهـر أن المصريين لم ينشئوا محلات كبيرة فى هذه الديار • وتعقب هذه الطبقات مباشرة آثار فلسطينية ، تبدو عليهـا سمات الفن الايجى فى دور اضـمحلاله • وما نسـتطيع استخلاصـه مما بقى من أوصاف فن العمارة المتأخرة يتضح منه أن أصول هذا الفن ترجع الى مصر ، على أنه قد وصل الى بنى اسرائيل عن طريق فينيقيـة • أما السيطرة الأشورية أو البابلية على فلسطين فلم تكد تترك أثرا فى فنها ، ولعل البـاعث على ذلك أن الدولة المسـيطرة كانت بعيـدة عن فلسـطين وانهـا كانت أكثر احتفـالا بالجزية تأخذها من الأقيـال الوطنيين منهـا بتنصيب عامل من قبلهـا أو ارسـال حاميـة من جندها • ولكن فلسطين أنبتت اليهود ، وهم أعظم الشعوب جلدا وأكثرهم مقاومة لغيرهم فى تاريخ الانسـان • فما من أمة استطاعت



الفن الأجنبى فى الأرض الفلسطينية

كثيرا ما تدل كسر الفخار التى يعثر عليها فى بعض جهات فلسطين على تقليد محلى للأوانى الخزفيـة الأجنبيـة وقد نقلت فلسطين عن مصر أقدم النماذج (القطعتان فى أعلى الصـورة وهما من بيت شمس ــ من الأسرة الثامنة عشرة) كما وجـدت نمـاذج من الفن الايجى (القطعتان فى الوسط ــ حوالى سنة ١٣٠٠ ق.م) ثم يتلو ذلك خزف فلسطين (القطعتان فى أسفل الصورة وهما من بيت شمس) •

أن تعيش بمعزل عن غيرها وهى مفرقة فى بقاع الأرض كالأمة اليهودية ، وأن تحتفظ على الرغم من جميع الأمم والشعوب بقوميتها القوية ، التى عبرت عنها بما احتفظت به من قديم السنن والعادات، مع العكوف على دراسة لغتها وآدابها• وللأدب العبرى القديم على ضآلة ما وصل الينا منه مكانة خاصة فى الفكر الانسانى •

ففى هـذا الأدب آثار من أبدع ما أثمرته القرائح ، فللأغانى التى نجدها فى نشيد الانشاد مكانة رفيعة ، وسفر أيوب لا يضارعه شىء فى كل ما كتبه غيرهم أو نطقوا به ، وأجمل

القصص العبرى لا يجارى لروعة بساطته • أضف الى ذلك ، أن سلطان هذا الأدب العبرى لا يتناسب بحال من الأحوال مع مقداره أو مكانة أصحابه السياسية ، بل ان زعامة أنبيا الفكرية أقل مرتبة فى التاريخ من سطوة الدين اليهودى •

والأديان العظيمة التى تقول انها للناس كافة ثلاثة ، انحدر منها اثنان عن اليهودية مباشرة • فقد كان صاحب الدين المسيحى يهوديا ، وروح الأناجيل وتعاليمها لا تفهم الا اذا عرف أن أساسها يقوم على روح أنبياء العهد القديم وتعاليمهم •

الاتصال بين ديانتين عالميتين

أما الاسلام ، وان لم يكن كالمسيحية وثيق الصلة باليهودية ، فقد اعتمد على العهد القديم أكثر من اعتماده على أى كتاب آخر ، واستقى منها العقيدة الأساسية الأولى فى التوحيد ، كما استعار غالب الشواهد من قصص الآباء العبرانيين • ولا يستطيع من يتصدى لبيان تقدم الانسانية أن يغفل هذا الشعب الصغير العجيب •

وما أقل الموضوعات التى ينظر اليها التاريخ نظرته الخالصة فيجدها أغمض من نشأة اسرائيل وتذهب الروايات القومية كما دونت فى أسفار العهد القديم السبعة الأولى الى أن هذا الشعب قد انحدر من ابراهيم ، وهو زعيم آرامى من عشيرة كان موطنها الأول فى أقصى الجنوب من أرض الجزيرة باقليم أور • وهم ينسبون الى تارح أبى ابراهيم زعامة القبيلة فى هجرتها نحو الشمال ، وتضيف الرواية الى ذلك أن ابراهيم بعد وفاة أبيه قد أوغل على رأس بطن من هذه القبيلة فى ناحيتى الغرب والجنوب فبلغوا تخوم مصر ، وكانوا بذلك قد ساروا حول الهلال الخصيب بأكمله •

وظلت القبيلة رعاة خلصا أو يكادون عدة قرون ، وكانت تضرب فى أنحاء فلسطين ، تعيش طورا فى غرب الأردن وطورا فى شرقه • وتدلنا قصة يوسف على امتداد الهجرة الى مصر أو بعبارة أدق الى حدود مصر الشمالية الشرقية وقد أدت هذه الهجرة الى عبودية بنى اسرائيل التى رسفوا فيها أجيالا فى تلك البلاد • وانتهى هذا العهد بظهور موسى الذى خرج ببنى اسرائيل من مصر وعاد بهم الى طلاقة الحياة البدوية •

ويجب أن يعد موسى شيخا للأمة الاسرائيلية الأولى ، لأنه هو الذى وحد بين العشائر التى تراخت أواصر القربى بينها ، وجعل منها أمة واحدة أطلق عليها اسما جامعا وأدخلها فى دين واحد • وكان جوهر عمله كله تعريف هذه الأمة باله لم يكونوا يعرفونه فى مصر ، وجعل هذه العلاقة المتبادلة بين الله وشعبه متفقة مع آراء الشرق السامى القديم وشعائره • وقد ظلوا على بداوتهم زمانا ، حتى اذا مات موسى غزت هذه القبائل المتحدة غربى فلسطين وأدخلتها فى حوزتها ، وكانت هذه القبائل تنزل وقتذاك شرقى الأردن •

ومن المجمع عليه — وان كانت روايات التوراة تختلف فى التفاصيل — ان الفتح الذى بدأ بقيادة يوشع ، لم يصادف أول أمره الا نجاحا قليلا ، ولكنه استمر فى الواقع أجيالا وأجيالا • ولم يتم على وجه التحقيق الا باستيلاء الملك داود على أورشليم • ومن الجلى أن بنى اسرائيل قد كافحوا أشد كفاح فى الفترة التى انقضت بين يوشع وداود • تعذر على عشائرهم المنعزلة أن تثبت لأعدائها •

وقد انقسمت القبائل ثلاثة أقسام رئيسية . القسم الجنوبى أو اليهودى ، ويظهر أن قصبته كانت بجوار حبرون ، ويكاد يفصلهم عن القسم الشمالى الكنعانيون المستقلون ، وارشليم أكبر حصونهم • وقامت فى التلال الوسطى محلات تتصل بأسماء أفرايم ومنسى وبنيامين — وهم الذين يعرفون بأبناء « راحيل » ويفصل هؤلاء عن بنى عمومتهم جماعات الفلاحين التى تعيش

أقدم الجماعات التى انقسمت اليها هذه القبائل

فى سهل المجيد الخصيب ويسكن شمالهم أيضا بطون أخرى من بنى اسرائيل تمتد ديارهم الى البحيرة التى نعرف باسم بحيرة الحولة • •

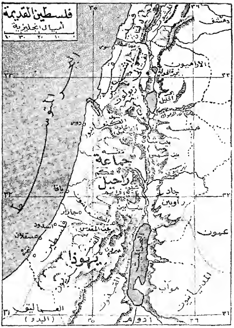
وطبيعى أنه لم يبلغنا « تاريخ » هذه الحقبة من الزمان ، بيد أنه قد وصلت الينا فى « سفر القضاة » طائفة من الروايات عن الحروب وفعال بعض الرجال ، وهى تجلو لنا الأحوال السائدة فيها وقتذاك • ولعل أشبعها وأنفعها ترنيمة دبوره «Deborah» فى الاصحاح الخامس من سفر القضاة • فهى نشيد يذكر نصر عظيم أحرزته قبائل الشمال التى تحالفت الى حين على أحد أمراء ناحية المجيد ، وهذه الترنيمة وان كانت لا تشير الى غزو هذه الناحية أو احتلال المدينة المغلوبة على أمرها ، فانها تومىء الى ازدياد قوة هذه القبائل •

ومن العجيب حقا ، أن هذا هو الشاهد الوحيد لمحاربة عدو كنعانى فى كل هذه الطائفة

من الروايات . أما الأعــداء الآخــرون فكانوا طغاةمن الخارجهم المؤابين والبدو وأهل مدين والفلســطينيون ، الذين كانوا خطرا على بنى اسرائيل كما كانوا خطرا على أهل البلاد قبل ظهور العبران وثمة رواية عن أبيمالك « Abimelech » تظهرنا على أمير من المولدين يحاول أن يقيم لنفسه ملكا ، فأدى ذلك الى احتلال بنى اسرائيل شكيم« Shechem » والغالب أن هذه الرواية لا ترمى الى القول بأن بنى اسرائيــل قــد غـــزوا بعض ديار الكنعانيين . وليس فيها ما يوحى بأن العبران أحرزوا تقدما حربيا كبيرا فى هذه الحقبة ، ويظهر أن الفلسطينيين قاموا بغزوهم بعد بنى اسرائيل فقــد اجتاحوا الناحيةالجنوبية الغربية فأرغموا بنى دان . على النزوح الى أقصى الشمال حيث لا يستطيع الفلسطينيون اللحاق بهم ، وذلك بعد أن استبسل الدانيون فى المقاومة .

ونحن نستخلص كذلك أن استقرار بنى اسرائيل لم يتم فى جوهره الا بعد أن فنيت القبائل الكنعانية فى العبرية أو فنيت هذه فى تلك . ومما هو جدير بالملاحظة أن قبيلة يهــوذا ترد الى أم كنعانية ، ولم يرو أن يفتاح أو أبيمالك من أصل اسرائيلى مولد . أما أن الاسماء الكنعانية قد اختفت بالفعل بعد أيام داود (وان كانت المصــادر المتأخــرة تحتفظ بأمثــلة منهــا) فلا يعنى أنهــا انعدمت ، وقد يعنى ذلك أن وجوب جمع الــكلمة على الوقوف فى وجــه الفلســطينيين وغــيرهم من الاعداء ، قد أدى الى انــدماج بنى اسرائيل فى الشعوب التى كانت موجودة فى هذه الديار .

ولعل ثقافة بنى اسرائيل فى القرن الثامن كانت فى أغلبها بابلية ، فاننا نجــد لشرائعها وسننها وعاداتها الاجتماعية نظــائر فى أرض الجزيرة أكثر منها فى أى بلد آخر . وليس من المعقول أن بنى اسرائيل استعاروا هذه الشرائع والسنن والعادات مباشرة ، وانما الأقرب الى المنطق فى تفسير هذه الحقائق هو أن الكنعانيين هم الذين انتقلت هذه الأشياء بواسطتهم الى العــبريين . الا أنه يظهر أن الحــزف والعمارة



فلسطين فى أوائل أيام اسرائيل

لم يكن الاسرائيليون وحدهم مطلقا فى فلسطين فى العصور الأولى التى حافظ الانجيل على انبائها وقــد احتــل الفلسطينيون الشاطىء الجنــوبى بينما كان حيــان كنعانيان يفصلان يهوذا فى الجنوب . وزيبولون ونفتالى ويساكر فى الشمال عن الوسط أو مجموعة قبـــائل راحيل .

وصياغة المعادن عند بنى اسرائيل قد تأثرت فى فلسطين ومصر . ومن عجب أن يكون أثر مصر قد لحقهم عن طريق فينيقية .

ومن ثم فاننا لانستطيع أن نعد بنى اسرائيل شعبا موحدا الا بعد أيام داود . وليس من شك فى أن هذا الشعب مختلط الأصول ، وأن دماء كثيرة قد كونته فى صورته الأخيرة ، ومع ذلك فان الروايات التى احتفظ بها شعب اسرائيل نفسه مقصورة فى الواقع على أصل واحد من هذه الأصول وهم الفاتحون الآراميــون الذين دخلوا البلاد من ناحية الشرق .

واذا درســـنا ما ورد فى الــكتاب المقدس دراسة الناقد البصير فاننا نجد السياق جليا

لا تعقيد فيه كما تتبعناه فى الصورة العامة التى رسمناها لك . بيد أن المسألة كلها تبدو فى غاية من التعقيد اذا حاولنا استنباط الشواهد

الحوادث كما وردت فى قصص الكتاب المقدس

المسايرة للحقائق الواردة فى المصادر غير الإسرائيلية .

فيجدر بنا أن نذكر بعض هذه الحقائق وأن أدى بنا ذلك الى الاقتصار على ذكر الصعاب التى تواجهها البحث التاريخى عند ما يعرض لهذه الحقبة البدائية . فلنذكر اذا طائفة قليلة من الحقائق المعروفة .

ففى مستهل القرن الثامن عشر قبل الميلاد تقريبا اجتاحت مصر قبائل سامية من ناحية الشمال الشرقى تعرف فى التاريخ المصرى باسم الهكسوس . ولعلهم كانوا من البدو . وقد احتفظوا بسيادتهم على مصر حوالى قرنين الى أن أجلوا عنها بعد قتال طويل مستمر . ويرى يوسفيوس أن قصة الخروج هى الرواية العبرية لهذه الحوادث ، وأخذ البعض برأيه أحيانا . بيد أن اختلاف التواريخ يبلغ من الكثرة حدا لا يجوز معه أن نقول بأن هذه الحادثة هى عين تلك . ذلك لأن مائتى سنة على الأقل قد انقضت بين اجلاء الهكسوس وفتح العبريين فلسطين . ومع أن الفترة لم تكن من الطول بحيث ينفى هذا القول الا أن غالب الباحثين لا يرى فى هذا الشاهد ما يقنع .

أضف الى ذلك أن فراعنة مصر كانوا يعملون فى بعض المناجم فى شبه جزيرة سيناء التى لا تبعد عن الموضع المشهور بجبل الشريعة . وفى هذا الموضع حلت طلاسم بعض النقوش التى خطت بحروف هجائية عبرية فى صورة بدائية (أنظر الفصل الخامس والثلاثين) ويرجع تاريخها الى عهد الملكة حتشبسوت حوالى نهاية القرن السادس عشر ق . م . وكان من أكثر الاسماء ورودا فيها الاسم الذى قرىء منسه Manassah فظن أنه عين اسم « موسى » بيد أن حل رموز هذه النقوش عسير غير محقق ، كما أن الصورة التى تلقيناها لهذا الرجل مباينة جدا لصفات موسى التى نعرفها فى اسفار موسى الخمسة . فهو عامل مصرى يعبد آلهة كثيرين ، وقد كان من المقربين الى الملكة . ثم ان القول بأن منسه هذا هو عين موسى يكتنفه الشك الكبير حتى لو تأكدنا من أن حل هذه الطلاسم مضبوط .

ونحن نجد فى الواح تل العمارنة المشهورة جانبا من رسائل بلاطى أمنحتب الثالث وأمنحتب الرابع (اخناتون) أى من ١٤٠٠ ــ ١٣٦٠ ق . م . بوجه التقريب . وقد كانت فلسطين وقتذاك خاضعة لمصر بالاسم ، وتشمل الوثائق تقارير كثيرة من الأقيال والولاة والعمال فى فلسطين . وعم البلاد كلها ارتباك شديد ، فقد بدر من الأمراء الوطنيين خيانات كثيرة وانتقاص مستور ، ونشبت الحروب والقلاقل بين أجزاء متعددة وتعرضت البلاد للغزو من الشمال والشرق . وشرعت القبائل التى يجمعها اسم « حبيرو » تهاجم المدن وعملت على احتلال البلاد مستعينة فى ذلك بالخيانة والغدر . الا انه لم يذكر بجلاء أكان هؤلاء غزاة من الخارج أم كانوا ثوارا من أهل البلاد .

وقد ظل الاعتقاد بأن هؤلاء الحبيرو هم عين العبريين ، يؤيد ذلك بعض التأييد التشابه فى الأسماء ، بيد أنه من العسير علينا أن نقول بهذا الرأى لعدم وجود شواهد أكثر من هذه تؤيده . وعلى الجملة ، فان أرجح تفسير لهذه الحقائق هو الذى ذهب اليه الأستاذ واردل Prof. Wardle فى مصنفه الحديث « اسرائيل وبابل Israel and Babylon » فقد أشار الى

أكان الخبيرو هم قبائل العبرانيين

ان مجىء الغزاة من الصحراء كان من الحوادث المألوفة فى تاريخ فلسطين القديم . وهو يفترض أن الشعبين الحبيرو والعبرانيين ليسوا شعبا واحدا ، وانما احتضن أحدهما الآخر . وكان بين الحبيرو طائفة عرفناها فيما بعد بالعبريين ولم يكونوا جميعا منهم ، أما حلفهم ، اذا جاز أن نسمى ما بينهم حلفا ، فقد كان أكبر بكثير من الشعب العبرى . ولعل هذا أوثق الشواهد المستخلصة من غير المراجع المتصلة بغزو الاسرائيليين أرض كنعان ، وحتى هذا الشاهد غامض مشكوك فيه .

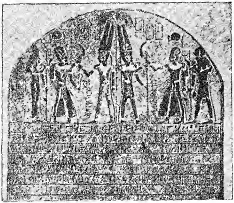
فاذا ما صدقنا تفاصيل الاضطهادات التى جاء بها الاصحاح الأول من سفر الخروج ، فان فرعون الذى سام بنى اسرائيل الخسف لابد أن يكون رمسيس الثانى (١٣٠٠ ــ ١٢٢٥ ق . م) لأن المحقق أنه هو الذى شيد المدن التى قيل أن بنى اسرائيل استخدموا فى تشييدها . ولعل ذكر بيثوم Pithom ورعمسيس تفسير متأخر من كاتب القصة ، وان القصة فى صورتها الأصلية لم تسم هذه المدن . ولكننا اذا افترضنا مؤقتا أن القصة بهذا التفصيل محققة من الناحية التاريخية ، فان فرعون الذى حدث الخروج فى عهده لابد أن يكون مرنبتاح ابن رمسيس الثانى . الا أننا نجد فى نفس سجلت عليه بعض الحوادث

التي وقعت في عهد مرنبتاح هذا منظومة فيها ذكر غزوة لفلسطين مع بيان بأسماء القبائل والشعوب التي غلبت على أمرها ومنها شعب اسرائيل ، وقد ذكر بطريقة توهم أنه كان مستقرا في البلاد قبل ذلك وان لم يكن في الواقع هو الشعب الوحيد في كنعان .

بقى علينا أن نضيف الى ما تقدم أن نقوش كل من رمسيس الثاني وأبيه سيتي الأول قد ورد فيهما ذكر بني « أسير » وهم كما نعلم من قبائل اسرائيل . ففي بداية القرن الثالث عشر كانوا مستقرين في الناحية التي عينتها التوراة .

وكل هذه المعلومات المستقاة من غير بني اسرائيل تزيد من الصعاب التي تواجهنا في اعطاء بيان محقق عن أصول بني اسرائيل . ويجدر بنا أن نواجه هذه الحقيقة ، وهي أن أخبار الكتاب المقدس جاءتنا من عهد متأخر جدا عن العهد الذي تصفه ، وأن قصاراها أن تمدنا ببيان ناقص مشوب بالهوى عن عنصر واحد من العناصر المختلفة التي تألف منها فيما بعد شعب اسرائيل ، وأن تاريخهم بأسره من عمل الخيال الى حد ما . بيد أننا لا نعدم في العهد القديم نفسه اشارات عن اختلاط دماء شعب بني اسرائيل ، وعن الشك فيما كانوا عليه قبل عهد داود .

ولدينا صنفان من الحقائق جديران بالبحث ، فمن الواضح أولا وقبل كل شيء أن شعب اسرائيل الذي يتحدث التاريخ عنه يشمل عشائر كثيرة لم تطأ أقدامها أرض مصر مطلقا ، بل ان الاصحاح الثامن والثلاثين من سفر التكوين قد يفهم منه أن يهوذا استقر في الجزء الجنوبي من كنعان ، وأن قبيلة أشير كانت قد أقامت في ديارها التي استقرت فيها عند ولادة موسى ، اللهم الا اذا رجعنا بهذا الفتح الى عهد متقدم . وتشهد أخبار الكتاب المقدس نفسها من ناحية أخرى بوجود عدد من القبائل تتراخى أواصر الصلة بينها وبين بني اسرائيل أو تشتد ، ولم يذكر مع هذا أنهم ينتسبون اليهم تماما . ويعترف بقرابتهم ولكنهم مع هذا خارج نطاق شعب



انتصارات مرنبتاح على بني اسرائيل

كانت ترنيمة النصر المنقوشة على لوحة عثر عليها في معبد مرنبتاح الجنائزي بطيبة أقدم اشارة وجدت حتى الآن لكلمة اسرائيل وكانت هذه اللوحة قد انتزعت من معبد امنحتب الثالث وثبت وجهها المنقوش الى حائط المعبد ثم نقش وجهها الآخر مرة أخرى .

اسرائيل نفسه . وهؤلاء هم القينيون والقنصيون وآل مدين (الذين أصهر اليهم موسى يضاف اليهم العمالقة اذا أخذنا بما ورد في سفر القضاة (الاصحاح ٥ ، ١٤) . ومن عجب أن كالب وأتنئيل ، وهما البطلان اليهوديان القديمان ، لم يكونا قط اسرائيليين وانما كانا قينيين .

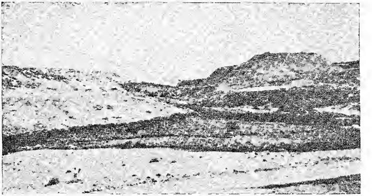
فلنحاول أن نستعيد أطوار بني اسرائيل بوجه عام ، وان كان ذلك أقرب الى الظن والاستنتاج ، ففي عهد من العهود قبل مستهل القرن الرابع عشر قبل الميلاد كانت جماعات من قبائل البدو والرعاة تزعم أن بينها آصرة من أواصر الدم واللسان تجوب الأرض بين مصر وفلسطين . ودخلت بطون من هذه القبائل في طاعة المصريين ، بيد أنهم في فترة من الفترات بين عامي ١٥٠٠ و ١٢٠٠ ق . م . فروا من مصر وعلى رأسهم موسى ، وكان موسى قبل ذلك قد عقد صلات بقبائل البدو ، ووفق الى جمع كلمة بعضها في شعب واحد متوسلا الى ذلك بدين جديد آمن به جميع الأحلاف عند الجبل المقدس الذي كان موسى يتردد عليه .

واستمروا على بداوتهم زمانا ، ثم شرعت جماعات منهم آخر الأمر تعبر الأردن وتشن

غاراتها على أرض كنعان الخصيبة . ويحتمل أن تكون هناك غارات أخرى قد شنت من ناحية الجنوب ، ولم يكن سلطان الفاتحين على البلاد قويا أول الأمر ، ولكنهم وطدوا أقدامهم فيها على ممر الأيام ، ثم أخذوا يخالطون الأقوام التى كانت تسكن كنعان تدريجا ، ولعلهم استعاروا اسمهم من أحد هذه الأقوام . وظهر فاتحون آخرون من البحر عند نهاية القرن الثانى عشر ، وساعد تهديدهم البلاد على توثيق أواصر القربى بين القدامى والمحدثين من السكان .

وأسس شاؤول مملكة بكل معنى الكلمة ، ولم يكن سلطانه يمتد على أواسط فلسطين وجنوبها فحسب . وانما انبسط على أجزاء من شرق الأردن كذلك . ولكن الفلسطينيين هزموه هزيمة منكرة وقتلوه . على أن خلفه داود فتح أورشليم ، وكانت آخر حصون الكنعانيين التى حافظت على استقلالها ، وجعلها قصبة ملكه . وسحق الفلسطينيين من ناحية وقبائل البدو من ناحية أخرى ، وبسط سلطانه على البلاد كلها من حدود مصر الى جبال لبنان . وأقل ما يمكن أن يقال أن العناصر المتعارضة فى البلاد قد توحدت فى الظاهر واكتسبت ما يشبه القومية المشتركة .

ولعل خير ما نقدر به عظمة صنيع داود هو أن نوازن بين مملكته ومملكة سليمان ، فقد كان الأول زعيما من أهل البلاد وصل الى السلطان ببسالته فى الحرب،ولم يكن نفوذه يمتد الا على جزء من الاقليم . ولم تكن دعائم مملكته قد توطدت بعد . وعلى الرغم من أن البلاد كانت تنتقل من حالة الفوضى والتفكك التى نراها واضحة فى القرون السابقة ، فان النظام الجديد لم يكن قد استقر بعد ، فلما جاء سليمان تغير هذا كله . ونحن لو أدخلنا فى حسابنا مبالغات العصر المتأخر الذى عظم دون شك من قدر سليمان ومملكته حتى ليبدو ذلك فى روايات الكتاب المقدس ، فاننا نجد أنه حكم رقعة من الارض أوسع مما حكمها ملك غيره من بنى اسرائيل ، وكان بلاطه فخما . وأصهر الى البيت المالك فى مصر وعنى بالتجارة ونشطت حركتها بفضل غلبة السلم على عهده ، وساد النظام وقام بتدبير شئون البلاد عدد كبير من العمال المدنيين يجمعون الجزية التى يحددها الملك ويديرون



منظر لرابية بيت شان حيث عرضت جثة الملك شاول

« وفى الغد لما جاء الفلسطينيون ليعروا القتلى وجدوا شاول ... ووضعوا سلاحه فى بيت عشتروت وسمروا جسده على سور بيت شان » (صموئيل الأول ٣١ — الآيات من ٨ — ١٠) وهذه هى الأكمة التى تقوم اليوم فى موضع مدينة بيت شان فى أسفل جبل جلبوع وقد أجريت فيها حفريات كشفت عن معبد عشتروت (اشتار) وقد عثر على الاناء المصرى الموجود فى صفحة ١٠٤ فى خرائبها .

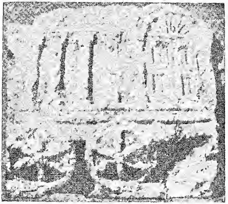
ما يلزم للصخرة التى لولاها ما نمت العمائر الفخمة التى شيدها . واتسعت مدينة أورشليم وازينت ولاح لهم أن حصونها دعمت . ولسنا فى حاجة الى اتهام سليمان أو أبيه بالنفاق (كذا) اذا قلنا انهما اصطنعا الدين فى سبيل أغراضهما السياسية (١) .

ومن الآثار المقدسة على اختلاف أنواعها التى اجتمعت حولها قلوب بنى اسرائيل التابوت القديم ، وهو أروعها جميعا . ولقد ذهبت الروايات الى أن موسى نفسه هو الذى صنعه فى الأيام الاولى من تحرير بنى اسرائيل . وأحضر داود هذا التابوت الى أورشليم بعد كثير من الأحداث ثم شيد له سليمان بناء يليق به . ولم تقم محاولة ما فيما نعلم لتغيير العبادات والنذور فى هياكل أخرى . بيد أنه يبدو أن المعبد كانت له فى قلوب الناس مكانة فريدة منذ أيام سليمان ،

رمز التابوت المقدس

وبعد ذلك بمائتى سنة استطاع عاموس حتى فى المملكة الشمالية أن يتضرع الى صهيون بوصفه البيت الحقيقى لاله بنى اسرائيل .

ولعل القرن العاشر قبل الميلاد هو الفترة الوحيدة فى تاريخ الشرق الادنى المعروف التى أمكن فيها تأسيس مثل هذه المملكة فى فلسطين ولم تكن احدى الدولتين العالميتين العظيمتين تستطيع أن تبسط سلطانها على البلاد . وكانت بابل فى عهد ملوك الكاسيين دائمة النزاع مع أشور . وعلى الرغم من أن وثائقنا الخاصة بذلك العهد من الندرة بمكان ، فمن الواضح أن كلا من الدولتين القائمتين فى بلاد النهرين كانت عاجزة عن القيام بالغزو على مدى واسع . وكانت مصر معرضة للفتح من البر والبحر جميعا . فمنذ عهد مرنبتاح المتقدم هاجم الليبيون حدودها الغربية ، ومع أنهم ردوا على



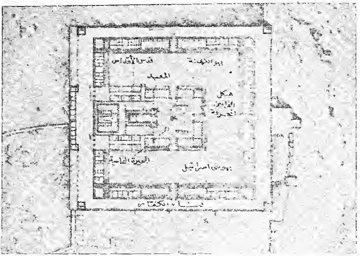
نصب تذكارى منحوت للتابوت

لم يصل الينا أى أثر عن تابوت العهد . وما جاء فى وصفه قليل تافه . بيد اننا نستطيع أن نزعم أن الروايات المتواترة عن مظهره قد عاشت طويلا . ومن هنا كانت هذه الكتلة المنحوتة التى عثر عليها فى معبد من العهد اليونانى الرومانى ذات قيمة عظيمة ،وهى تصور التابوت موضوعا على عربة ذات عجل .

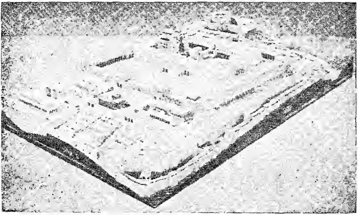
أعقابهم فان البلاد لم تتخلص من تهديدهم لها الا بعد قرون .

وقد دفع القضاء على الحضارة الايجية فى كريت وغيرها بجموع من شعوب البحر الى السواحل (أنظر الفصل السادس والعشرين) ولم ترسخ أقدام هذه الجموع فى هذه السواحل كما رسخت فى أرض فلسطين نفسها . الا أنهم كانوا خطرا داهما على مصر . وبلغ من أمرهم أنهم وفقوا الى اقامة ديار لهم فى دلتا النيل . يضاف الى ذلك أن البلاد انقسمت على نفسها من الداخل فاستقل القسم الشمالى عن الجنوبى من الناحية السياسية ، وكان فرعون الذى تحالف معه سليمان ملكا على مصر السفلى وحدها ولم يكن شعب اسرائيل هو الشعب الوحيد الذى أفاد من هذه الحرية النسبية البعيدة عن التدخل الخارجى .

(١) لم يكن ثمة ما يدعو الى هذا الاتهام الذى لم يقم عليه الكاتب أى دليل ، ولا سيما أن داود وسليمان نبيان من أفاضل الأنبياء الذين جمعت شرائعهم بين أمور الدين وشئون الدنيا لسعادة البشر فى الدارين ، وليس لأغراض دنيوية ظن الكاتب أنها هى التى كانت تدفع النبيين العظيمين الى حب السيطرة والتملك . « ادارة الترجمة »



اسد ساعد الدين والوعى القومى خلال عهد الاستعباد (البابلى) وكانت غاية الأسر الدينية التى كان حزقيال ينتسب اليها مواصلة شعائر الهيكل ـ وقد راى حزقيال فيما يرى النائم هيكلا مثاليا فوصفه وصفا دقيقا يكاد يصور سمات الهيكل الأصلى الحقيقية ، الا فيما يميل اليه الراوى من مراعاة التناسب فى ايراد التفاصيل .



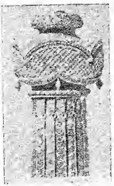
هيكل سليمان هو أصعب المبانى الأثرية الشهيرة قاطبة من حيث استعادة صورته . ولدينا ثلاثة مصادر عن المكان الذى كان يقوم فيها الا أن هذا المكان غير مكشوف بحيث يسهل التنقيب فيه ، اذ يشغله مسجد ، بينما نجد أن الأوصاف الواردة عنه فى سفر الملوك وأخبار الأيام أخبار مضطربة ، وحزقيال وحده هوالذى يمدنا بتفاصيل دقيقة كانت معوانا لنا على رسم خطة الأساس الموجودة فوق هذا الكلام ، والاجماع على أن ما ورد فى رؤياه هو وصف مثالى ، والصورة المستعادة هنا تصور لنا على وجه التحقيق معالم المكان نفسه ، الا أنها قد تشعرنا فى شيء من المغالاة بضخامة الهيكل وفخامته .

هيكل سليمان مخططا ومصورا وفقا لما ورد في رؤيا نبي .

أو يكاد ، قرابة عام ٨٥٠ ق . م وكان في وسع أخاب وخلفائه من ملوك اسرائيل الاســـتعانة بيهوشافاط Jehoshaphat وجنده .

ومن اليسير علينا أن نسرد قصة هاتين المملكتين فى كثير من الايجــاز . فقد كان الملك فى الجنوب يتوارثه الابن عن أبيه ، وهاك أسماءملوكه الأربعة،رحبعام وأبيام وآسا ويهوشافاط ، أما فى الشمال فقد قتل بعشا ناداب ولد يربعام كما قتل زمرى ولده ايله . وحكم زمرى Zimri أياما قليلة حتى خلعه عمرىOmri ، ثم خلفه ولده أخاب Ahab ، وحفيــداه أحزيا ويهورام .

والبيت الأخير هو أهمها جميعا، فقد عظم سلطـــان عمرى على معاصريه حتى سميت هذه البلاد فى دواوين آشــور فلســطين بـ « أرض عمرى » . ذلك لأن هذا الملك لم يكتف باخضاع يهوذا ، ولــكنه عزز الحلف بينــه وبين صور بزواجه من ابنة ملك أتبعل وفتح موآب وأدخل ملكها ميشع فى طاعته . وقد أشار نبى من الأنبياء لم يعش قبل القرن السابع ق . م . (ميخا . ٦ ، ١٦) الى « شرائع عمرى » ولعله يشير الى قانون سنّه ذلك الملك ولو أن هذا القانون يفسر من الناحية



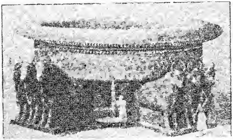
ياكين أو بوعز

ان الوصف الذى جاء فى ســـفر الملوك الأول ـ الاصحاح الســابع ـ عن العمودين النحاســيين المســميين ياكين وبوعز واللذين كانا مقــامين فى الهيكل ساعد على استعادة صورتهما كما هو واضح من الصورة

والشواهد التى فى أيدينا تميل بنا الى الظن بأن مملكة اسرائيل كانت فريدة بين ممالك الشرق القديم فى القيــود التى طوقت كواهل ملوكها . ذلك أن نفوذ شاول من حيث المظهر كان مستمدا من ميثاق قطعه على نفسه (ولو أن جانبا من الرواية قد يفسر بانه اقحام للمظاهر الحديثة فى العصور القديمة) . كانت هناك شئون يستطيع الملك النهوض بها وأخرى تعهد بالامتناع عنها . والحق أن هذا الميثاق كانت فيه مسحة من الدين قوية ، كانت تظهر دائما فيما يصحب تجديده أيام الملوك المتــأخرين من مراسم دينيــه ، الا أن اصطناع الحكم المطلق الذى ابتســم به الشرق القديم كان غريبا على عقل بنى اسرائيل فيما يظهر . ففى أواسط القرن التاسع عجز أخاب عن اغتصاب كرمة نابوت Naboth من صاحبها ، ولم يدر فى خلده أنه يستطيع تحقيق رغائبه بالعنف أو بالخداع . وكان ذلك ميسورا على زوجته الفينيقية وحدها فيما يظهر ، فعد صنيعها اثما لا يمحوه الا دماؤها .

واستشعر الناس وطأة سليمان فى حكمه ، فطالبوا خلفه بالتخفيف منه . فلما أبى رفض أغلبهم مبايعته ، وملكوا عليهم يربعام . وقد بقيت أورشليم والصقع الجنوبى موالين لبيت داود ، ولم تتحد المملكتان قط منذ ذلك ، الا أنهما ظلتا على اتصال وثيق فيما بينهما ، وما أعوزهما قط الشعور بالوحدة القومية والدينية .

وغدت المملكة الشمالية مسرحا لكثير من الفتن ، فشــهد القرن الذى أعقب هــذا الانفصال الخطير أكثر من أربعة بيوت تتداول الملك فيما بينها . أما المملكة الجنوبية فظل الملك فيها لبيت داود ، اللهم الا فترة قصيرة فى النصف الأخير من القرن التاسع . ولم تكن العلاقات بين المملكتين ودية دائما ، فنحن نسمع عن اقتتالهما بين الفينة والفينة ، وعن انتصار المملكة الشمالية دائما . والواقع أن دخول ملوك أورشليم فى طاعة أهل الشمال من الوجهة السياسية كان تاما،



البحيرة النحاسية التى صنعها حيرام لسليمان

كان حيرام الصورى الصانع الماهر الذى قام بعمل الأعمدة هو الذى أنشأ البحيرة النحاسية أيضا وهى عبارة عن حوض كبير من النحاس محمول على ثيران ، قصـــد به اقامة شعائر التطهير الدينية وقد رسمت هذه الصورة طبقا للأصل وهى على نسق الأمثلة الأخرى البسيطة الموجودة فى أمكنة أخرى .

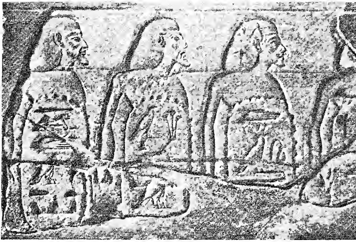
الدينيـــة بأنه نوطئـــة لعبـــادة بعل اله الفينيقيين .

وكانت اسرائيل فى حاجة الى بيت مالك قوى ، اذا طمحت الى الاحتفاظ باستقلال حقيقى وكانت دولة أشور تنتعش فى بطء ، حتى أصبحت مرة أخرى أيام أشور — نصير — بال الثانى (٨٨٤ — ٨٥٩ ق . م .) دولة عالمية قوية ، وبلغ ملكها بجيوشه سواحل البحر المتوسط نفسه . وجرد ابنه شلمنصر الثالث عام ٨٥٣ ق . م . حملة كبيرة على فلسطين لادخالها فى ملكه . وقد كان آراميو دمشق قد تخلصوا قبل ذلك بأمد بعيد من نير داود وآحد ساعدهم بشند على الأيام . ويظهر أن اسرائيل قاست الكثير من عداوة هؤلاء . فاتحد هؤلاء جميعا أمام الخطر المحدق بهم ، فجمع ملوك من الأحلاف جيشا عدته سبعون ألف مقاتل تقريبا تحت أمرة ابن حداد الدمشقى ، وكان أكثرهم ممن جندهم اخآب اذ أرسل عشرة آلاف راجل وألفى عجلة .

ولقى هذا الجيش الاشوريين عند كركر ، فمنى بخسارة جسيمة الا أن شلمنصر لم يتابع القتال (٨٥٣ ق . م) . وثمة أسباب تجعل وقعة كركر هى الذروة التى بلغها سلطان اسرائيل فى الحرب حتى ليستحيل علينا أن نذكر تاريخ اسرائيل السياسى منذ ذلك الوقت من غير أن ندخل فى حسابنا صلتها بآشور .

وأصبح دين اسرائيل فى هذه المرحلة عاملا فعالا فى التاريخ الداخلى لهذه البلاد وقد اتسم طوال عهد الملكية بما يعرف عند علماء الدين المقارن بالتوفيق بين المذاهب المتعارضة «Syncre-tism» . ذلك أنه كان مزيجا بين ضربين مختلفين من العقائد ، فغلب أحدهما على الآخر فى ظاهر الأمر ، وأخذ فى الوقت نفسه بكثير من سماته وحافظ عليها ، أو بتعبير أدق احتفظ أحدهما بجوهر الآخر وان يكن قد سماه بأسمائه هو .

ومن المتعذر علينا أن نصور دين بنى اسرائيل قبل دخولهم أرض كنعان ، اذ الواضح حتى الآن أن غالب ما وصل الينا من أسفار موسى



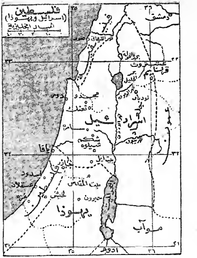
ممثلوا المدن الفلسطينية الذين شردهم شيشنق

الظاهر أن المصريين قد رأوا أن الفرصة سنحت لهم بعد موت سليمان وتقسيم ملكه لتحطيم الدولة الفلسطينية الخطرة . وعلى كل ، ففى السنة الخامسة من حكم رحوبوعام بن سليمان . وذلك حوالى سنة ٩٣٠ ق . م ، وصل شيشنق (أو شيشاق كما ورد فى التوراة) الى بيت المقدس وانتهبها ويؤيد هذا كله نقوش عظيمة بالكرنك ، فيما عدا أن قائمة المدن التى استولى عليها لم تذكر اسم بيت المقدس (ولا جرم أن هذه القائمة غير كاملة) . وواضح أن هؤلاء الأسرى يهود .

الخمسة انما يرجع الى زمن متأخر ، وهي تعود بنا الى الفترة التى تنتهى بعهد الاستقرار الزراعى وتبدأ بعهد البداوة . بيد أنه من الواضح كذلك أن المؤسس الكبير لدين اسرائيل هو موسى ، وأنه وحد قومه على عبادة اله اسمه يهوه لم يكونوا يعرفونه قبل ذلك . وليس ثمة ما يدعو الى الاعتقاد بأن ديانة موسى كانت تختلف كثيرا عن التوحيد السائد بين القبائل فى أيامه ، وكانت الصفة المميزة للدين الجديد قيامه على عهد أو ميثاق . أما الأديان الأخرى فقد نشأت نشأة طبيعية كما نستدل من الشواهد التى بين أيدينا الى الآن . ذلك أن آلهة هذه القبائل كانت من أهلها ، فهى اما أن ترتبط معها بروابط القرابة الصحيحة ، واما أن تكون عين المنازل التى اتخذها الناس موطنا لهم (أنظر الفصل الواحد والعشرين) . ولكن الصلة بين يهوه واسرائيل كانت نتيجة اختيار بين من جانب الرب وقبول

موسى صاحب شعائر بنى اسرائيل الدينية

بين مثله من جانب الناس . ولم يكن فى ذلك قط ما يخفف من ارتباطهم بهذا العهد . بيد أنه كان هناك بالضرورة عامل واحد لا يظهر فى الضرب المألوف من الديانات ، ولعل هذا العامل قد أغفل حتى فى الحياة العقلية العامة لبنى اسرائيل . ذلك أن وجود الاله الفعلى المعتاد من وجود شعبه وهو يقوم بينهم ، فان بادوا خلع من مقام الألوهية على الأقل ، أما يهوه فلم يكن وجوده يقوم ببنى اسرائيل ، فقد وجد بدونهم حينا وهو قادر على الوجود اذا حنث بنو اسرائيل بعهدهم . وهو لذلك أكثر استقلالا من الآلهة الآخرين وله على عباده سلطان مطلق يفوق سلطان الآلهة الآخرين وربما كانت ديانة بنى اسرائيل فى تفاصيلها بسيطة قبل غزوهم أرض كنعان ، ومن المظنون أنه قد كانت لهم رموز مقدسة يسهل حملها وقد أقر بنو اسرائيل فيما بعد (فى مواضع شتى) ثلاثة من هذه الرموز ، هى العجل والحية والتابوت ، وهذا التابوت عبارة عن صندوق بسيط ولعله كان يحتوى على أحجار ساذجة . ونحن نظن أنه اذا كان واحد من هذه الرموز يرجع الى عهد البداوة فهو التابوت . ونحن نظن أيضا أنه قد كانت هناك سقيفة قائمة بذاتها « قبة العهد » للتابوت المقدس ، يقوم عليها خدم وحراس وقفوا أنفسهم على شئونها ، هم الكهنة بعبارة أخرى ، وكانت وظيفتهم مزدوجة . يمثلون يهوه عند بنى



فلسطين فى عهد الملوك

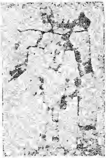
كانت التخوم بين الممالك الشمالية والجنوبية تجرى وفقا لما هو وارد فى الشكل المبين فى هذه الخريطة وذلك بعد أن انقسمت مملكة اسرائيل الى بيتين متنافسين عند وفاة سليمان وكانت المملكة الشمالية أكثر المملكتين أهمية من الوجهة السياسية .

اسرائيل وينقلون اليهم ارادته ويمثلون بنى اسرائيل عند يهوه ويرفعون اليه سؤل عباده . وليس من المحقق أنه كان هناك قربان يعترف به فان أنبياء القرن الثامن أنكروا ذلك فيما يظهر كل الانكار ، ولعل الفصح كان عيدا بدويا قديما قبل عهد موسى اقتبسه ليكون واسطة من الوسائط بين الله والناس . ومن المحتمل أن المستوى الأخلاقى كان راقيا . ذلك لأن البدوى فى حياته الساذجة لا يتعرض الا للقليل من المغريات التى يتعرض لها الانسان الذى يعيش فى نظام اجتماعى واقتصادى أكثر تعقيدا من النظام الذى يعيش فى كنفه البدوى .

ولما دخل بنو اسرائيل فلسطين وجدوا فيها عبادة مستمرة من قديم تشبه من بعض الوجوه عبادتهم وتختلف عنها من وجوه أخرى اختلافا بينا ، فقد استبدل الكنعانيون المزارعون بالاله القبلى روح الاخصاب الوطنية التى أطلقوا عليها الاسم الجامع « بعل » ، وقد عبدت الهة « على » مثل أداد وشماش (وأصلهما من بلاد الجزيرة)

فى العهد الذى كتبت فيه ألواح العمارنة ، وقد كان لكل مدينة أو قرية عامرة فى العهد الاسرائيلى الأول معبدها الخاص أو « مكانها العلى » وكان بعض هذه المعابد يتألف من مبان كثيرة ·

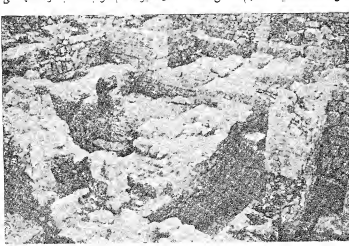
وكانوا يقدمون القرابين ، وكانت أحيانا من البشر ، وكانوا يؤدون دائما ما عليهم من مال على اختلاف أنواعه · وفى الأوقات المهمة من العام الزراعى ، أى عند بدء الحرث وعند بداية الحصاد وانتهائه تقام محافل مشهودة · وكانت كل هذه الشعائر والفرائض ترمى الى معاونة بعل فى القيام بعمله ، وكثيرا ما كان يساعد بشعيرة قوامها الفجور تنطوى على عناصر من السحر الذى يستحوذ على العاطفة ، ونحن نجد حتى اذا غضضنا النظر عن هذه السيئة أن المستوى الأخلاقى الذى رسمه الدين لم يكن رفيعا فيما يظهر ، وأنه كان قليل التأثير على ما بين الانسان وجيرانه من صلات عملية ، اللهم الا فى حالة



مزار من فخار

هذا الأثر أيضا فى بيت شان وواضح أنه صورة مبسطة لمزار عشتاروت المحكم الصنع الموجود فى الصفحة المقابلة ·

كحالة القسم الذى لا مناص من أن يكون لله فيه شأن بين مباشر وأوضح سمات الدين السورى والفلسطينى ما كان منها خارجا عن العبادات المنظمة المألوفة فى الهياكل · فقد كان هناك أشخاص تعتورهم حالة نفسانية غريبة نسميها نحن الوجد تشبه أعراضها أعراض الغيبوبة أو الصرع ، وهم يزعمون أن مرجع ذلك الى أن الشخص قد حل فيه اله ، ويزعمون كذلك أن الشخص الذى يصاب بها يوهب بصرا ثانيا وسمعا ثانيا ، ومن ثم فهو وسيط مباشر فى نقل رسالة الرب الى الناس · وهاتان الظاهرتان كثيرتا الحدوث فى بقاع شتى من العالم ، وأصبحتا مجتمعتين بعد ذلك مألوفتين فى منطقة البحر المتوسط بأسرها · ومما هو جدير بالملاحظة أنهما اذا اتحدتا على هذا النحو فانهما تتصلان بآلهة يمكن ردها الى سورية أو آسية الصغرى ، وتشير أقدم مراجعنا المباشرة عنها فى نهاية

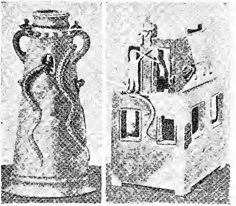


خرائب القصر الذى كان عمرى وأحاب يشرفان منه على شئون الحكم

انشأ عمرى ـ أول ملوك احدى الأسر القوية ـ مدينة سمرية قصبة المملكة الشمالية · فقد كشف تحت الأطلال العظيمة للمدينة التى أنشأها وجملها هيرود الأكبر عن الطابق الأول لقصر من القرن التاسع ، ويرجحون أن عمرى وولده آحاب كانا يسكنانه على التحقيق ـ وكانت اسرائيل فى عهدهما فى أوج عظمتها ·

القرن الثانى عشر قبل الميلاد الى مدينة بيبلوس Byblus • والانسان اذا اعتورته حالة الوجد هذه مرة كان معرضا لأن تحل به دائما • ومن العجيب أنها كانت حالة معدية قد تنتقل من شخص الى آخر • وقد نزع الأنبياء الواجدون الى التجمع وتأليف الفرق ، بل الجماعات المستقرة بعض الشيء ، وتعلموا كيف يبعثون هذه الحالة الخاصة بهم برياضات شتى كالرقص أو اصطناع الموسيقى أو تناول العقاقير (١) •

وقد رأينا فيما سبق أن بنى اسرائيل لما استوطنوا الارض الزراعية لم يجدوا مناصا من الأخذ بأسباب الحضارة التى كانت قائمة قبل مجيئهم • ومنها الدخول فى الدين الكنعانى ، وقد حاولت أول ما حاولت عبادة – البعول – الى جانب الهها الخاص يهوه أو استبدالها به • ولكن بنى اسرائيل أدركوا أنه يجب عليهم ألا يتنكروا لالههم القومى •



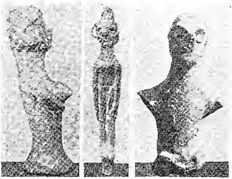
أدوات كانت تستعمل فى عبادة عشتروت

يحتمل أن تكون لبعض الأوانى الفخارية الغريبة التى عثر عليها فى بيت شان علاقة بشعائر عشتروت الدينية فهناك أفاعى تتحوى حول الحامل الذى يشبه الجرة وطيور راخمة على فتحاته بينما نرى سيدة يحتمل أن تكون عشتروت نفسها جالسة فى نافذة المزار ذى الطبقات الثلاث فوق رجال وحيوان •

وكان ذلك تمشيا مع منطق الحوادث قبل عهد الملكية وخضوعا لأثر الواجدين من عباد يهوه على ما نظن •

واذا فقد أصبح الآن الها زراعيا لا مجرد معبود بدوى ، والظاهر أنه قد انتقلت اليه كل الشعائر والافكار التى كانت متصلة بعبادة البعول من قبل • ولم يكن ينتظر أن يكون ثمة فرق كبير بين هيكل يهوه فى شيلوح ومعبد بعل فى جيزر •

ونحن نسمع دائما عن أنبياء يهوه فى صدر الملكية ، وكان شاؤل أبرز شخصية فى هذه الطائفة ، ونحن ندين بمعلوماتنا الواضحة الجلية عن صفة هؤلاء الأنبياء الأول الى ما ورد عنهم • وقد ازداد التفريق طوال عهد الملكية بين رجال الدين النظاميين – أى الكهنة المتصلين بالهياكل – وبين رجال الدين غير النظاميين كهؤلاء الواجدين



آلهة عبدها الكنعانيون

عشتروت هى الالهة التى كان الاغريق يطلقون عليها اسم استار وهى فى الأصل استار الربة البابلية ويتجلى هذا فى تماثيلها الصغيرة التى تبرز فيها صدورها كالتمثال الذى عثر عليه فى بيت شمس (الى اليسار) وتمثال استار ذو القرنين (فى الوسط) هو من التماثيل النادرة الوجود وقد عثر عليه فى جازر • والى اليمين اله منزلى من جازر •

---

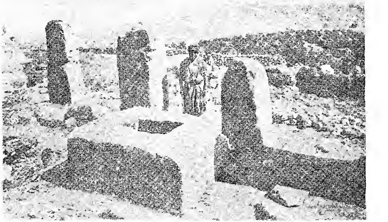
(١) وهكذا ينكر الكاتب الوحى بلا بينة ولا برهان مبين . ثم يتهم أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم بأنهم كانوا يبعثون حالة الوجد التى يتوهمها بهذه الأساليب الرخيصة ومنها العقاقير . ويكفى الرد على ذلك أن حياة هؤلاء الأنبياء خلت من الافك ، وتبرأت من الكذب ، وزخرت بالفضل . واتسمت بالسمو الروحى ، والتجرد من الدنايا التى تؤدى اليها تلك العقاقير ، وحسبنا أن نذكر أن الانكار الذى لا تسنده حجة يأباه العلم ويرفضه المنطق وينكره الخلق • (ادارة الترجمة)

الجوالين الذين لا يخضعون لهيكل من الهياكل ولكنهم يزعمون تلقى الوحى من فورهم بلا واسطة وكان فى السياسة الاسرائيلية كما رأينا عنصر ديموقراطى خلت منه فى الغالب أية بقعة أخرى من بقاع الشرق القديم • وانضم الكهنة ـ وكان ذلك فى شمال بلاد اسرائيل على أية حال ـ الى صف الاستبداد الملكى ، أما الأنبياء الواحدون فكانوا فى الغالب هم الذين يمثلون الشعب ويدافعون عنه •

ومن ثم كانت لهؤلاء الانبياء صفة مزدوجة ، فهم متدينون غيورون وقادة ديمقراطيون على السواء • ويظهر أن سلطانهم فى هاتين الناحيتين أخذ يسمو منذ القرن العاشر حتى اذا جاء منتصف القرن التاسع أصبحوا عنصرا من أهم عناصر الجماعة الاسرائيلية • وربما كانت لهم علاقات خارجية وصلات ، تقوى او تضعف ، بأضرابهم فى فينيقية ودمشق ، وان لم يقم على ذلك دليل قاطع • وعلى كل حال فقد وصل أنبياء بنى اسرائيل فى عهد أسرة عمرى الى درجة تهيئهم القيام بدور خطير . فقد أدى اتصال أحاب بصور وما عمدت اليه بيزابيل Gez.bel من البطش والعنف ومحاولة ادخال دين أجنبى الى قيام فتنة أثارها هؤلاء الانبياء ونظموها •

فقد انضم هؤلاء الى غيرهم ممن كانوا يناصرون الحياة البدوية الساذجة على النظام الزراعى المحكم فنجحوا فى القضاء على بيت « عمرى » بذبيح أفراده فى غير ما رحمة ولا شفقة وأقاموا





المكان العالى حيث كان الكنعانيون يرتكبون المعاصى

ألقت الحفريات التى عملت فى جميع أنحـاء فلسطين ضوءا كبيرا على الديانة المحلية التى جاء الأنبياء لمحاربتها • وكان من أبرز سماتها مراسيم الطهر ـ التى تسـمه مثيلاتها عند الاسرائيليين أنفسهم ـ ويحتمل أن يكون الحوض الحجرى الأجوف فى « المكان العالى » بمدينة جازر مغتسلا يقابل حوض سليمان النحاسى • ومن خلفه بعض الأعمدة المقدسـة وكانت المذابح فى العادة بسيطة ووثنية ويرى فى أعلى مذبح من الطين المحروق وحجر فى مدينة تناخ •

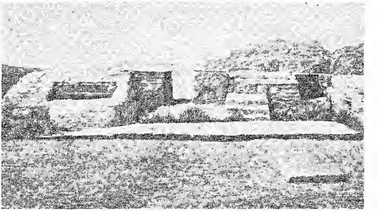
على العرش مرشحهم « يهو » فما كاد يرقاه حتى عمت المذابح فى كل مكان للقضاء على من يحاولون قبول النظـام الجديد للدين والدولة الذى حاولت بيزابيل أن تجيء به معها من موطنها .

وسقط كذلك احازيا ملك يهوذا بسقوط بهرام آخر أفراد بيت عمرى ، ووجدت أمه « أثاليه » بنت آخاب الفرصة سائحة لابقاء النظام الجديد فى المملكة الجنوبية ، فقبضت على أزمة الملك كما فعل « يهو » من قبل ولـكن ما انقضت ستة أعوام حتى أجلس على العرش طفل اسمه « يهواش » نجا من المذبحة التى نظمتها جدته ، ولم يكن ارتقاؤه العرش من عمل الأنبياء وانما كان من عمل كاهن يدعى « يهواده » .

وما كان « يهو » من طراز عمرى بل وما كان من طراز آخاب وكان من أول أعماله أن خضع لآشور وأدى لها الجزية عام ٨٤١ ق . م . وذلك أن شلمنصر قد عاود هجماته على دمشق ، ولعل « يهو » رأى أنه يستطيع أن يوطد ملكه بتجنب عداء الآشوريين والاعتماد على معاونتهم اذا ثارت عليه رعيته . ومما هو جدير بالملاحظة أن الملك ظل فى بيته أكثر مما ظل فى بيت سواه ، فقد خلفه عليه أربعة أجيال من نسله .

وظلت علاقات فلسطين الخـارجية من ذلك الوقت غامضة قرنا من الزمان . فنحن نسمع فى خلاله عن الجزية تدفعها فلسطين (وليس ثمة ذكر للملوك ولا الدول المسـتقلة) عام ٨٠٢ ق . م . وعن حروب نشبت فى الغرب ، كان فيها سلطان أشور هو السلطان الغالب ، ولكن هذا لا يساعدنا على تبين سياق الحوادث . والحقيقة أن أشور كانت ابان القرن الذى أعقب موت «شلمنصر الثالث» جد مشغوله بالاضطرابات على تخومها الشمالية ، ولم يكن لديها فسحة من الوقت لمعالجة شئون البلاد البعيدة الى جهة الغرب ، هذا الى أنها كانت تعانى المتاعب من نعافب الملوك الضعفاء عليها ـ لأن أمثالها من الدول لم يكن يجمع بين أطرافها الا شخصية الملك نفسه .

أما السياسـة الداخلية للدول الفلسطينية فمعلوماتنا عنها كبيرة ، نعلم أن اغتصاب أثاليه العـرش قـد أوهن التحالف القائم بين مملـكة اسرائيل ومملكة يهوذا ان لم يكن قد قصم عراه فسارت كلتاهما فى سبيلها فترة من الزمان .



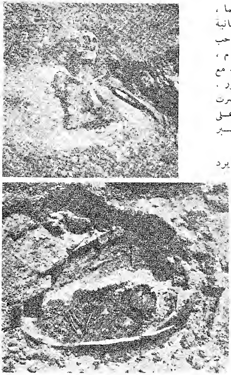
مذبح الـ « مكان العالى » فى مدينة بتراء المنحوته فى الصخر

ورد ذكر « الأمكنة العاليه » التى نسمع عنها فى طقوس الكنعانيين فى غير موضع من التوراة الا أننا لم نكن نعلم شيئا عنها أكثر من أنها تقع على قمم الجبال بصورة لا خفاء فيها ، وأنها كانت تتصل بسبب بالطقوس الدينية وذلك الى أن أخذ البحث يجلو لنا معالمها . وأقدم ما كان يعرف من هذه الأمكنة هو المصطبة العليا المشرفة على بتراء فى أدوم . ويصور لنا هذا المنظر المذبح المدرج المنحوت فى الصخر الموضوع فى ناحيـة من الجدار المحيط بالمصطبة ، أما الفتحة السوداء الموجودة الى اليسار فحوض ربما كانوا يغتسلون فيه .

ونجحت « موآب » و « ايدوم » فى ثورتهما ، ولم تخضع الأولى بعد ذلك قط • أما الثانية فقد أخضعها مرة أخرى « أمازيا » صاحب « يهوذا » فى موضع ما عام ٧١٠ ق • م ، وانشغلت المملكة الشمالية بكفاحها الشديد مع دمشق التى اشتد ساعدها بضعف أشور . واكتسح السوريون « جلعاد » وحوصرت « سمارية » نفسها حصارا كاد يقضى على استقلال مملكة اسرائيل • ولم يتغير سير الحوادث الا بعد قرن من الزمان •

واستطاع « يهواش حفيد « يهوه » أن يرد السوريين على أعقابهم وأن يقضى على محاولة قام بها « أماريا » صاحب يهوذا للحصول على استقلاله أو تفوقه أبنه » بربعام » الثانى العمل الذى بدأه أبوه • ويظهر أنه كان هناك شيء من التحالف أو الاتفاق بين » بربعام » و « أزياه » (أو اماريا) صاحب يهوذا . ومهما يكن من شيء فلم تصطدم مصالحهما • فقد مدت يهودا سلطانها ناحية الجنوب بينما اتجه يربعام نحو الشمال والشرق وغزا بلاد لبنان وتوغل فيها شمالا حتى حماه واستعاد المناطق المفقودة فى « جلعاد » وفيها نسمع اسم بلدين استولى عليهما وهما : « لودبار » ، « كارنايم » وظلت الاحوال الدولية أعواما كما كانت فى القرن الحادى عشر باشتغال مصر وأرض الجزيرة بنفسيهما ، فأدى ذلك الى تمتع الدول الفلسطينية بشيء من الحرية سمح لها بالنماء كما سمح لأقواها بنوع من الزعامة على الأخريات ولنا أن نقول بصفة عامة أن سنة ٧٥٠ ق • م • تعين الحد الأقصى لما بلغته مملكة اسرائيل من التقدم والازدهار منذ أيام سليمان •

وفى عام ٧٦٠ ق • م أو حوله وقعت حادثة لم يأبه لها الناس فيما يظهر وقت وقوعها ، ولكنها لم تكن من أبرز المعالم فى تاريخ بنى اسرائيل فحسب بل فى تاريخ الفكر الانسانى والحياة الروحية جميعا • ذلك أنه قد ظهرت على حين غفلة شخصية عنيفة فى الهيكل الملكى الكبير « بتل » تلك هى شخصية النبى «عاموس» الذي جاء من جنوب يهودا •



أدلة على القرابين البشرية

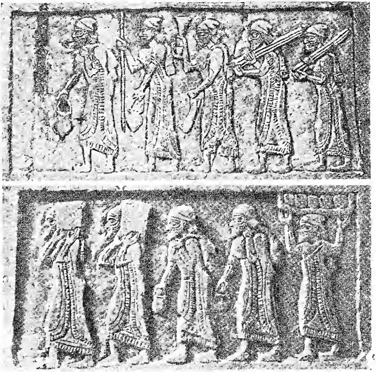
كان يوجد فى ديانة البلاد التى احتلها الاسرائيليون ــ وهى ديانة كانوا ينزعون دائما الى اتباعها ــ كثير من السمات البدائية ــ وقد وجد فى جميع جهات الربوة العالية فى جارر أطفال مدفونين فى جرار (فى الصورة السفلى) وفى حوض قريب منها هيكل فتاة تشر قسمين .

ظهور النبى عاموس

كان عاموس يشبه سائر الأنبياء فى ظاهر الأمر ولكن مما هو جدير بالملاحظة أنه كان يخالف أغلبهم فى تفرده • ففى الأيام الأولى احتفظ أمثال « ليشع » و « ميخا » بشخصيتهم المفردة ولكن هؤلاء كانوا دون شك شواذا ، وكان ليشع وصحابته ممن كانت النبوة مهنتهم مثلا لهم يحتذونه • ولم يكن « عاموس » يشبه ليشع وميخالا فى تفرده فحسب بل كان يشبهه فى فحوى رسالته أيضا • ولم يكن النبى العادى الا رجلا وطنيا شعبيا يتحدث عن الانتصارات

التى سيحرزها قومه على أعدائهم·ولعل التعاليم العادية فى صورتها المتطرفة قد عدلت لتلائم النبؤات السائدة المختصة بمصير العالم وبشرت بظهور يهوه المفاجىء الرائع على مسرح الحوادث يقضى بنفسه على أعداء بنى اسرائيل ويفتتح عهدا جديدا من السعادة والرخاء لا يتخلص فيه عباده من نير الأجنبى فحسب بل يقيمون فوق ذلك دولة عالمية كبرى · وقد يتحقق هذا على يد ملك من بنى الانسان . وقد يحققه يهوه بلا واسطة باستعمال قواه العجيبة الخارقة · ومهما يكن من أمر التفاصيل فمن الواضح أن النبى العادى فى بنى اسرائيل الأقدمين فى الشمال والجنوب على السواء ، كان نبى خلاص ورخاء وانتصار ·

وكانت رسالة عاموس تختلف عن هذا كله كل الاختلاف ، فقد جاء من أرض على تخوم الحضارة قاحلة ، غير ذات زرع تجد فيها الأغنام وحدها ما يقيم أودها من تافه العشب · وكان قد ورث سنن العهد البدوى الخلقية والدينية·فكان يرى أن المجتمع الزراعى التجارى المعقد فى شمال اسرائيل يحمل فى أعطافه بذور خرابه·فقد كان هذا المجتمع رخيا مزدهرا



كيف اعترف يهوه بسيادة آشور

« جزية ياهوا من بيت خومرى » هذا ما ورد فى نقوش على أحد أشرطة مسلة الملك شلمنصر والمسلة عبارة عن عمود مربع من الحجر الاسود رسمت على أوجهه لوحات مستطيلة أربع تحيط به على المستوى نفسه وتصور لنا القرابين التى أرسلها ياهوا (جيهو) الذى لم يكن فى الواقع من سلالة عمرى (خومرى) وان كان الاشوريين قد انتهوا الى اطلاق اسم بلاد عمرى على اسرائيل ـ والجزية التى ورد ذكرها فى هاتين اللوحتين تمثل أوانى ذهبية وفاكهة وهراوى ·

في ظاهره ولكنه كان في حقيقة أمره تغلي من تحته مراجل من الفساد . وكان لابد أن يورد الناس جميعا ان عاجلا أو آجلا موارد الهلاك .

وكان أســاس المجتمع الاقتصادي بأسره قد تعرض لثورة صامتة ابان القرن السابق . فلم تعـد الأرض يملكها ويفلحهـــا النواست ، وهم فلاحون أحرار يتوارثون حقول أجدادهم ويكفلون بعملهم المتواصل عيشا شريفا لأنفسهم وأسرهم . بل تحولت الملكيات الصغيرة الى ضياع واسعة ، وكان معظم من يفلحونها من العبيد . وهي صورة تبدو لنا بعد ذلك بجيل من الزمان من أقوال أشعيا وميخا — وتعرض لنا بين حين وحين اشارات تدل على الوسائل التي حدث بها هذا التحول . ويلوح أن ما فعلته « ايزابل » مع النابوت قد حدث بعد ذلك مرارا وتكرارا ، فأصبح المالك الحر ، وقد أثرت فيه الحروب القاسية التي نشبت على الحدود فأفقرته وأفلســـه ، فلاحا يستأجر الأرض من مالكها ثم أصبح في آخر الأمر مسترقا . وارتفع مستوى الترف بين الأغنياء وهبط مستوى المعيشة بين الفقراء ، وأخذت الفجوة بين هاتين الطبقتين تتسع على مر السنين .

يظهرنا التــاريخ كله على أن أحوالا كهذه لا يمكن أن تنتهي الا بأحد أمرين . فاما أن تحتفظ الطبقات الدنيا بشيء من الرجولة يثير حفيظتهم ويدفعهم في النهاية الى الانتقاض على استبداد الأقلية فيحدثون انقلابا يزعزع كيان النظام الاجتماعي في الداخل واما أن يفقدوا روحهم المعنوية فتتفكك أوصـــال الأمة وتقع فريسة سهلة لكل فاتح قوي جريء . والهلاك نهاية كل من الأمرين . وليس من الواضح أن « عاموس » فكر في الأمر على هذا النحو . أو أنه كان يفكر في عدو بعينه

انتقاض على مجتمع فاسد

يريد أن يغتصب البلاد ، ولكنه كان يرى أن الحضارة ممثلة في سماريه وبيت ايل قد قضي عليها بالزوال . ولم يكن يجد في الدين سندا ، لأنه كان في أحسن وجوهه طائفة من الشعائر لا تقوم على وازع خلقي . وفي أسوئها لا يبيح المفاسد التي يشــكو النبي منهــا فحسب بل يشجع عليها أيضا .

وكان الى جانب عاموس من يحس بأن ثمت عيبا في النظام الاجتماعي على أيامهم . وقد زعمت جماعات كالرشابية Rechabites كانت ذات شأن قبل ذلك العهد — أن الحضارة نفسها هي أصل البلاء وأن السلامة لاتكون الا بالرجوع الى عهد البداوة . وهذا مالم يقترحه عاموس ، فحسب الناس في رأيه أن يعرفوا « يهوه » كما عرفه الآباء في البرية وأن يفهموه كما تعلم عاموس أن يفهمه — والحق أنهم لم يكونوا في حاجة الى شعائر وانما كانوا في حاجة الى العدل وروح الانصاف بين الانســـان وأخيه الانسان .

وقد توسع هوشع في هذه الفكرة بعض الشيء بعد ذلك بقرن . اذ أصر بأن مطلب يهوه الأول هو « الحب الصادق » (وان كان مثل هذا التعبير لا يفي بالغرض المقصود) والاعتراف بالحقوق الشخصية انسانية كانت أو الهية والتقديس للفرد والجماعة تلبية لهذه الحقوق .

ولســـنا في حاجة الى افتراض أن عاموس أو هوشع أو غيرهما من الأنبياء قبل التشرد (ونستطيع أن نستثني منهم أرميا) أقاموا دينا على التوحيد الخالص—وكانت هذه المسألة عندهم نظرية محضة، ولم يحفلوا بغير الشئون العملية كان يهوه الهاسرائيل وعلى ذلك فينبغي أن تكون ارادته هي الارادة العليا في شعبه .

وقد يستطيع ضمير الانسان أن يقدر هذه الارادة الى حد ما . ولعل عاموس أول رجل في تاريخ الفكر الانساني قال بهذا المبدأ . وهو أن الله خير كالانسان على الأقل . وأن كل ما يزعزع عقيدة الانسان في الخلق الطيب لا يرضى الله بطبيعة الحال . وأعظم ما يعتور غالب الاديان العالمية القديمة من ضعف هو أنها تصور آلهة مستواهم المعنوي دون مستوى

آراء أنبياء ما قبل التشرد

الأخيار من الناس . وبعاموس يبدأ هذا التيار من الفكر الذي هدى الناس الى القول بأن المثل الالهية تفوق مثل الاخيار من البشر بما لا يقاس وأن رقي الضمير الانساني التدريجي مظهر من مظاهر معرفة الله التي تنكشف للانســـان شيئا فشيئا .

على أن الناس قد عدوا عاموس نبيا ثائرا لا غير . وكان وهو نبي لا تنتهك له حرمة ، ولا تمتد اليه أيد غاشمة . ولكنه طرد من هيكل بيت ايل . ولم يجد احتجاجه وتحذيره آذانا واعية في أي مكان . ولم يمض طويل وقت حتى تحققت أقواله . فقد عادت البلاد سيرتها الأولى بموت يربعام وقتل شالوم زكريا ولد يربعام فقتل مناحيم شالوم . وتغير حظ آشور عام ٧٤٥ بارتقاء تجلات — بلصر الثالث العرش ، فقد

بادر الى استعادة جميع الأراضي الى فقدها أسلافه ، وأخذ الجزية من مناحم عام ٧٣٨ ق·م·

وحكم مناحم فترة لا نعرف مقدارها (ومن الجلى أن تقدير الكتاب المقدس لهذه الحقبة مبلبل بعيد عن الدقة) ثم خلفه ولده بكحيا الذى وقع هو أيضا فريسة الاغتيال · وكان هذان الملكان قيلين لأشور،ويجب أن تعد هذه الثورة الجديدة انتقاضا على تجلاث بلصر · وكان الملك الجديد بكاح متحالفا مع دمشق ، ولعل جهودا قد بذلت لبعث الحلف القديم الذى وقف فى وجه الغزو الأشورى قبل ذلك بقرن ، وكان لزاما على يهوذا أن تنضم الى الحلف · وقد بذلت جهود لادخالها فيه بقوة السلاح ·

الظروف التي أحاطت برسالة أشعيا

وهنا بدأ عمل أشعيا فى الظهور ، وقد كان ينادى بعقائد قريبة جدا مما جهر به عاموس وهوشع ، وقد أصر على القول بأن يهوه اتخذ أورشليم موطنا خاصا به وأنه من ثم لا يرضى أن يرى المدينة فريسة للغازى الأجنبى · فلتثق يهوذا بيهوه ، فلا يستطيع لها أحد ضرا ولا نفعا · ولن تجد لسمعتها خيرا من الترفع وسياسة العزلة · وهو مذهب يبرره موقع المدينة الجغرافى البعيد وسط التلال بمعزل عن الطرق التجارية والعسكرية الرئيسية ، وان قام فى ذهن أشعيا على الصلة بين اسرائيل وربها ·

ولكن أحاز حفيد أوزيا لم يشاطر أشعيا ثقته والتمس العون من أشور · وسرعان ما لبت أشور نداءه ، وضرب تجلات بلصر مدينة دمشق عام ٧٣٢ ق · م ، وخلع بكاح ونصب مكانه رجلا يدعى هوشيا · ورحلت فى الوقت نفسه أفواج من أهالى جلعاد وسكان الشمال ، وظل الملك الجديد على ولائه ما عاش تجلاث بلصر · وفزعت مصر فعملت كل ما وسعها لتحريض أمراء فلسطين على الثورة · وما كاد يرتقى شلمنصر الخامس العرش بعد تجلات بلصر حتى نشبت الثورة ، وسيرت الجنود الأشورية الى الغرب مرة أخرى وأسر هوشع ، وسقطت سماريا نفسها عام ٧٢١ ق · م أثر حصار طويل · ولم يجل السكان عن المدينة بالكلية ، فقد سمعنا عن هجمات قام بها بعد ذلك الملك سرجون (وقد خلف شلمنصر قبل أن تحتل سماريا نهائيا) ومن الواضح الجلى أن البلاد لم تكن لتترك مقفرة تماما · والشواهد قليلة على نظام الحكم الذى أقامته أشور ، ولكننا نستطيع أن نظن أن بتل وغيرها من المواضع أقطعت الى أحاز مكافأة له على ولائه لأشور · ومهما يكن من شيء فان المحقق أن هوشع لم يكن له عقب ، وهكذا انتهت مملكة اسرائيل ·

وظل السلطان الأشورى فى الجنوب سائدا ، بل ان مظاهر العبادة قد حورت ، والظاهر أن ذلك كان من مقتضيات الخضوع لأشور · فقد وضع مذبح جديد فى معبد أورشليم ، وقد بنى هذا المذبح على طراز أشورى رآه أحاز فى دمشق عام ٧٣٢ ق · م · ومن الواضح أن ضربا من العبادات الأشورية قد أدخل الى المدينة ولعل من ذلك تمجيد الأجرام السماوية · ونسج حزقيا على منوال أبيه أحاز ، وظلت يهوذا على ولائها للمعاهدة الأشورية ما يقرب من عشرين سنة ·

بيد أن تقدم الأشوريين كان محققا ، وان أبطأت خطواته· وسقطت أشدود عام ٧١١ق·م· وأثار الخطر الداهم مصر فعادت الى تدبير المؤامرات السياسية ، حتى اذا مات سرجون عام ٧٥٠ ق · م اندلعت نيران الثورة فى فلسطين جميعا على خلفه سنحريب · ولم يبق على ولائه الا بادى ملك اكرون · فقبض عليه الأحلاف بمعاونة حزب فى المدينة وأسلموه الى حزقيا اتقاء لشره ·

وفى عام ٧٠١ ق · م · ظهر سنخريب بجيوشه وأخضع المدن الثائرة واحدة بعد أخرى وعاث فى أرض يهوذا فسادا، وقد زعم سنخريب أنه أخذ ستا وأربعين مدينة مسورة (ولعل منها بعض مدن اسرائيل الشمالية) وأسر ٢٠٠١٥٠ شخصا · وتفاصيل هذه الحوادث غامضة ، بيد أنه من المحقق أن سنخريب لم يستول على أورشليم وأنه قنع باعادة بادى واقامته على العرش وفرض جزية كبيرة على حزقيا · ولعل نازلة قد ألمت بجيش سنخريب وفى رواية أن الطاعون الدملى تفشى فيهم ــ وأنه كان سعيدا بالعودة دون أن يخرب أورشليم ·

وصحب الثورة اصلاح دينى خطا خطوات واسعة فى سبيل تحقيق مطالب فئة الانبياء وقد لا يكون فى قولنا ان أنظار حزقيا الدينية لها جانب سياسى فيه تجريح لها· فقد قضى على المعابد المحلية والعبادات الأجنبية بل على عبادة الحية القديمة فى أورشليم·وصحب الاستقلال السياسى عبادة يهوه الخالصة : فكان بقاء هذه العبادة رهينا بقيام هذا الاستقلال · وكان

سعيهم الى اقامة هذا الدين بعد عملا سياسيا مقصودا لذاته • وقد أخفق بنو اسرائيل في بلوغ هذين الغرضين جميعا عندما استسلم حزقيا لسنحريب فشاب عقيدة الأنبياء النقية الساذجة الكريمة غمامة حجبتها ثلاثة أرباع قرن من الزمان •

وليس لدينا غير القليل من المعلومات عن سير الحوادث في أرض بني اسرائيل بين عامي ٧٠١ ، ٦٣٩ ق • م • وقد وصم هذا العهد بأنه عهد رجعية دينية وطغيان ، وان كانت الروايات جد غامضة فلا نستطيع أن ندلي بحكم في تفصيلاتها • ويتحدث الأخباري عن فتنة قام بها منسه ، أعقبها أسر بني اسرائيل في بابل ثم ندم الملك على ما اقترفت يداه وأعيد الى عرشه • وربما كان ذلك تفسيرا متأخرا لزيادة قام بها منسه الى فينيقية عام ٦٧٥ ق • م حيث قدم هو وواحد وعشرون غيره من ملوك



سنحريب يجتاح بيت المقدس

لابد أن بيت المقدس قد كانت هدف سنحريب في حملته على فلسطين التي لم يكن عنها معدى بسبب الشغب الذي ثار عند ارتقائه العرش الا انه فشل في الاستيلاء عليها ، ولكن نقشا بارزا وجد في نينوى قد يصور اجتياحه للمدينة التي شوه اسمها في اللوحة فلم يبن فيه الا الأحرف الأخيرة الموسو alammu ... وربما كان هذا الاسم (Jerusalem)

الغرب فروض الولاء الى عزرهدون لمناسبة تخطيط مدينة ملكية بالقرب من موضع صيداء أما عن بقية الحوادث فليس ثمت شك في أنه ظل طوال حياته على ولائه في محالفة أشور وان ما اقترفه من « آثام » كان بضغط الحزب الناهض لأشور في يهوذا •

ومات سنحريب عام ٦٨١ ق • م • وقام خلفه بفتوح أوسع مدى ، ولم تكن السيطرة على العالم لتتم الا باخضاع مصر ، وقد لا نجافي الواقع اذا قلنا ان هذا العمل كان غاية كل ملك أشوري طموح • وكان عزرهدون أول من حقق هذا المطمح ، وهو وان حكم رقعة أوسع مما حكم أي ملك من أسلافه فقد وجه ضربة قاضية زلزلت كيان الامبراطورية الأشورية • ذلك أن مصر كانت أبعد من أن يبسط عليها سلطانه المباشر ، دون أن ينفذ اليها جيوشا جرارة ، كان الدفاع عن تخوم أشور الشمالية في حاجة اليها • وقد تبين بالاختبار الطويل أن المجهود الذي بذل كان هائلا حتى ليقال ان اخضاع مصر عام ٦٧١ ق • م هو بدء نهاية مملكة نينوى •

وكانت الفتوح الجديدة معرضة للخطر ، ومات عزرهدون في احدى حملاته التي كان يحاول بها استعادة سلطانه ، وكان الحرب فيها سجالا • وظلت سيادة أشور الى عام ٦٥٠ ق • م وخلف عزرهدون على العرش في نينوى أشور بانيبال ، وهو آخر ملوك أشور العظام • ولكنه على عظمته لم يكن كفوا للخروج ببلاده سليمة من الصعاب التي كانت تحيط به • ومن الحقائق التي تستوقف النظر — أننا وان عرفنا عنه قدر ما عرفنا عن ملك أشوري غيره — فلم يصل الينا خبر عن الحوادث التي وقعت بين عام ٦٣٩ ق • م • وعام ٦٢٦ ق • م • وهو العام الذي توفي فيه • وقد جرى المؤرخون على أن يستخرجوا من ذلك أن الامبراطورية كانت في طريقها الى الانحلال • فقد نشبت الفتن في بابل وفي مصر وفي أجزاء الامبراطورية بيد أن الخطر الداهم أطبق من الشمال • وهو يستحق شيئا من التفاتنا لتأثيره في يهوذا أيضا •

وقد تأثر تاريخ الحضارة في البحر المتوسط وفي جنوب غربي آسيا تأثرا

عميقا بالغارات التى كانت تأتى من الشمال من حين الى آخر . فقد تجمعت فى المرتفعات شرقى جبال هندكوش

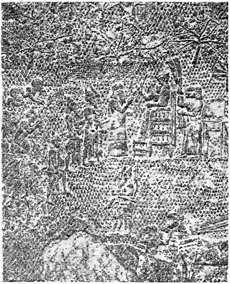
القبائل الشمالية تغير معالم الدنيا القديمة

وفى التركستان والتاى وفى البلاد التى على جانبى جبال أورال قبائل من المقاتلة العلاظ الأشداء ينتمون الى شعوب مختلفة وان جمعتهم خصائص اجتماعية مشتركة ، رأوا أرضهم تضيق بهم فهبطوا الأراضى الخصبة التى كانت تتمتع بحضارة أرفع .

وكانت حركة من حركات الشعوب هذه قد أدت من قبل الى استقرار الآريين فى الهند والايرانيين فى فارس . وكانت حركة أخرى هى حركة الدوريين (أنظر الفصل ٣٢) الذين قضوا على الحضارة الايجية التى خلفت تراثا زاخرا فى ملاحم اليونان الأولى وفى مدن كريت المطمورة وليس من شك أن يوليوس قيصر صد غارة من هذه الغارات بهزيمته لجيوش الهلفيتيين Helvetii كما هددت قبائل التيوتون والهون أوربا فى القرون الأولى لميلاد المسيح ، وشاهدت القرون الوسطى مقاومة العالم الغربى المجيدة لقبائل التتار .

وقد حدثت حركة من هذه الحركات فى النصف الأخير من القرن السابع قبل الميلاد . وقد عرف اليونان هؤلاء الغزاة أول الأمر باسم الأسكوذيين والسمريين ثم سموهم فيما بعد بالميديين وعرفهم أهل الجزيرة باسم « أمان ماندا » Umman Menda ولم تدم فتوحهم ، ومع ذلك فقد خلفوا بعد هجومهم عالما زالت منه الامبراطورية الأشورية زوالا تاما . وكان مجد الساميين آخذا فى الذهاب فقد خلفت بابل فى سؤددها أشور أمدا قصيرا . ولكن دنت الساعة التى تتزعم فيها الشعوب الآرية الحضارة وتستبقيها الى أن يرفع محمد العرب الى ذروة السيادة العالمية بعد ذلك باثنى عشر قرنا .

ودخل بابل شعب جديد . فقد جاء من سواحل الخليج الفارسى قوم يعرفون بالكلدان ، وسرعان ما أصبحت لهم الغلبة فى بابل . واستطاع أمير كلدانى اسمه نبوبولصر أن يرفع نير أشور بعد موت أشوربنيبال ، واتفق مع الميديين الذين يتاخمونه من الشرق وهاجم



مغانم لاكش Lachish بين يدى سنخريب

كان سنخريب قد أرسل عاملة رابساكه من لاكش الواقعة على بعد ٣٢ ميلا الى الجنوب الغربى من بيت المقدس . والتى كان قد افتتحها لطلب استسلام حزقيال . ومن ثمة أرسل حزقيال الجزية . وقد نقشت على هذا اللوح البارز العبارة الآتية : « سنخريب ... يتلقى مغانم مدينة لاكش » .

أشور . وأعقب ذلك عشرون عاما استعرت فيها الحرب . وتقدم الكلدان على الرغم من الهزائم التى حاقت بهم بين حين وحين ، وطلبت أشور العون من الأسكوذيين ، وقدمت مصر التى انتظمت أمورها من جديد فى عهد نخاو ما وسعت من معاونة وكانت مشغولة باقتلاع عدوها القديم .

بيد أن الأسكوذيين انحازوا الى العدو وأتبعوا على ذلك بنصيب من أسلاب الامبراطورية المتداعية ونهبت مدينة أشور القديمة عام ٦١٤ ق.م. وسقطت نينوى نفسها بعد عامين من هذا التاريخ

فلسطين بعد سقوط نينوى

وبذلت محاولة لمواصلة الكفاح فى حران ، ولكن الكلدان استولوا عليها عام ٦١٠ ق.م وبعد هذا آخر العهد بامبراطورية أشور ، وانتهت آخر محاولة قامت بها مصر لتكون لها الغلبة فى الشئون العالمية بموقعة قرقميش عام ٦٠٥ ق.م. وهزم فيها نبوخذرزر بن

نبوبولصر نخاو هزيمة منكرة . فنوطدت بذلك سيادة بابل بصفة قاطعة .

وكانت هذه الحوادث تتصل بشئون يهوذا الحيوية ، فقد كانت تدين بالطاعة لاشور كما كانت دويلة حاجزة بين مصر وبابل . ومات منسه عام ٦٤١ ق . م وخلفه عمون الذى اغتيل بعد أن حكم سنتين فخلفه ابنه الصغير يوشع . وفى عام ٦٢٦ ق . م أخذت عاصفة الأسكوذيين تنذر بالهبوب على البلاد . وليست لدينا شواهد مباشرة عن مدى الضرر الذى احدثه الغزاة . بيد أن نبوءات رفنياح وبعض تكهنات أرميا ، تنسب غالبا الى هذا العهد ، وهى ترسم صورة ريف خرب وفزع شامل . وأيا كانت الاحداث فقد ظلت أورشليم لا يلحق بها ضرر ، وبقيت الحياة القومية سليمة . وانقضت خمس سنين اشتد فيها عود الملك وقبض بيديه على أزمة الامور ، وشرع ينهض بالدين من جديد . وربما كان لهذا الاصلاح جانب سياسى كما كان لحركة حزقيا الدينية . ويقال ان هذا الاصلاح استرشد بكتاب من كتب الشريعة وجد فى الهيكل عند القيام بترميمه ، وقد أحدث يوشع فى الدين أعظم انقلاب شهدته أورشليم الى عهده . اذ طهر أورشليم من جميع العبادات الدخيلة . وقد تحققت معظم المثل العليا الدينية التى قال بها أنبياء القرن الثامن اللهم الا الابقاء على تقديم القرابين . ودنست جميع المعابد المحلية القديمة بما فيها من آثار العبادة الكنعانية واقتصر تقديم القربان على معبد أورشليم . وأصلحت بعض الشئون التى لابد من اصلاحها فى حياة الناس الاجتماعية ، وسمح لكهنة الريف بالعيش . حول المعبد . وسار الدين الطاهر والاستقلال السياسى جنبا الى جنب مرة أخرى .

ولم تكن أشور فى حالة تسمح لها بالانتقام من هذه الأعمال التى تعد فى الواقع ثورة موجهة اليها . ومع هذا فان فرعون مصر الذى كان

مصير يوشع عند مجدو

يعمل بالاسم لمصلحة أشور لم يكن يميل الى السماح ليوشع بالاستقلال التام . وبينما كان يقوم باحدى حملاته مارا بهذا الاقليم سنة ٦٠٨ ق . م استدعى يوشع للمثول بين يديه فى مجدو وقتله .

تلك هى الرواية التى وردت فى سفر الملوك الأول ، أما الرواية التى وردت فى سفر الأيام . وتحدثت عن وقعة كان للرماة المصريين فيها شأن حاسم فهى فى نظرنا تفسير متأخر للحوادث . ونصب على العرش ثانى أبناء الملك واسمه يحو أحاز وكان ذلك بالمبايعة العامة ، الا أن سياسته لم ترق فيما يظهر فرعون مصر نخاو ، فما انقضت ثلاثة أشهر حتى خلع عن عرشه وحمل الى مصر فجلس مكانه أخوه الأكبر يحوياكيم . وكان الملك الجديد يختلف عن أبيه اختلافا تاما ، ويفسر لنا سيرته وأخلاقه الى حد بعيد لماذا لم تتم السمعة له . ويبدو أنه كان يحتذى سلطانا من سلاطين المشرق كسليمان . فحاول أن يشيد المبانى الفخمة وأن يباهى أعاظم الملوك فى العالم ، بيد أن أعماله لم تكن لتتم الا بالسخرة وبالحيف على رعيته . ولعله بعد وقعة قرقميش قد حول وجهه شطر الكلدان يخصهم بولائه .

ولكن مصر وان هزمت فى ميدان القتال لم تيأس من الاستعانة على بنوبولصر بالدسائس وأغرى يحوياكيم بالثورة . وحل العقاب عام ٥٩٧ ق . م ، ومات يحوياكيم قبل سقوط أورشليم وأجبر ابنه يحوياشيم على التسليم بعد ثلاثة أشهر من حكمه . فخلفه على العرش ازدقيا ثالث أبناء يوشع تحقيقا لمصالح الكلدان وحاكت مصر الدسائس مرة أخرى حول هذا الضعيف وثارت لنفسها عام ٥٨٦ ق . م ، فخربت أورشليم وأحرق الهيكل ـ وقتل ذوو السلطان فيها أو نفوا ، وقضى على استقلال يهوذا ، وأقام الكلدان جداليا أحد أشراف اليهود حاكما على البلاد . ويبدو أن البلاد أخذت تنهض بيد أن جداليا اغتاله أحد أبناء البيت المالك القديم وفرت البقية الباقية (فيما عدا الفلاحين) الى مصر . أما ما حل بهم هناك فلا علم لنا به . ولعلهم امتزجوا بعامة السكان أو لعلهم أبيدوا عند غزوة نبوخذرزر لمصر ، أو لعلهم شقوا طريقهم موغلين جنوبا وأسسوا تلك الجماعة اليهودية العجيبة التى كشفت آثارها منذ وقت قريب فى جزيرة قبلة بالقرب من أسوان . ومهما يكن من شىء فان هناك أمرا واحدا محققا هو أنهم لم يعودوا الى فلسطين قط . ولم تترك البلاد مقفرة بغير سكان . فقد عمرت وزرع الفلاحون أرضها . ولكن هؤلاء لم يخلفوا على

صفحات التاريخ أثرا من آثار الاستقلال السياسى أو الدعوة الدينية ، ولما بعثت الحياة الوطنية من جديد فى أورشليم بعد قرنين من الزمان · لم يكن الذين قاموا بها من خلفهم غزاة الكلدان وانما قامت الحركة بفضل المنفيين البابليين ·

بقى علينا أن نذكر عملين لهما شأن خطير فى الفكر الانسانى الدينى والفلسفى ، حدثا فى السنوات الأخيرة من تاريخ الدولة العبرية · وينسب الى هذا العهد أربعة أنبياء فى رأى الجمهور · هم زفانيـــاح ــ الذى اتصل عمله اتصالا تاما أو يكاد بالمظاهر الدينية للغزوات الأسكوذية ، وناحوم الذى أخذ يتغنى بسقوط نينوى وما ينطوى عليه من ظفر مجيد ، وحبكوك ولعل نبوءاته من أيام يحوياكيم الأولى ، وارميا من ٦٢٦ ق · م الى ٥٨٥ ق · م والنبيان الأخيران أعظمهم شأنا ·

وقال أنبياء القرن الثامن ان يهوه عادل وانه يثيب العدل الانسانى بالرخاء ويعاقب على الشر الانسانى بالدمار · ولكن لم يمض وقت طويل أو قصير حتى أدرك الناس أن فلسفة الحياة السهلة هذه لا يؤيدها الواقع · اذ يشقى الخيرون وينعم الفاسقون وقد حزب الأمر عندما لقى يوشع خير ملوك اليهود ذلك المصير المحزن ، بينما نعم بالرخاء ولده القاسى الظالم يحوياكيم الذى كانت تؤيده مصر ·

مسألة مصير الانسان

ولعل حبكوك، هو أول من عرض لهذه المسألة فى صورتها المبسطة فيما نعلم وأنه ألقى هذا السؤال العويص : كيف أن الها عادلا ، منزها ، قادرا على الخلق يسمح بمثل هذا التناقض الخلقى ؟ ولسنا فى حاجة الى القول بأنه لم يتلق على سؤاله جوابا مقنعا . ولكن السؤال ظل على الألسنة وثار حوله جدل المفكرين المتأخرين فى مملكة اسرائيل · وأدى ذلك الى أن ظهر فى الوقت المناسب أعظم عمل أدبى أثمرته عبقرية بنى الانسان وهو سفر أيوب ، كما أدى ذلك بالمتأخرين من بنى اسرائيل الى أن ينشـــدوا حلا لهذه العقيدة فى حيـــاة أخرى بعد الموت ، تنكشف لنا فيها ما نصادفه فى هذه الحياة من معضلات خلقيـــة ونحل هـــذه المعضلات على خير وجه ·

وموقف أرميا أخطر كثيرا من موقف هؤلاء ، فقد كانت خصاله محببة جدا الى النفوس وان عاش فى عزلة من الناس · وكان له مزاج يرغب عن الشهرة وينشد السعادة فى العمل الاجتماعى



الديانة المصرية فى بلاد فلسطين

وجد هذا النموذج الصغير من الفخار فى معبد عشتروت بمدينة بيت شان فى مستوى من الأرض يرون أنه هو المســـتوى الذى كان موجودا أيام سيتى الأول (حوالى سنة ١٣٠٠ ق·م·) وهو ينم عن تأثر الفن هنا بفن مصر التى كان فرس النهر فيها الها شعبيا ·

الحقى · وقد كتب عليه أن يقف وحيدا طوال نبوته · فقد قاسى مدة أربعين سنة كل ما قاست البلاد من آلام وهى البلاد التى لا يفضل حبه لهـــا الا عبادته ربه ، وظل الى خاتمة حياته لا يجد فى قومه الذين أحب أذنا تصغى اليه · فقد حقروه ونبذوه وســـخروا منه وعذبوه وان لم يقتلوه حتى أصبح مثلا خالدا لعـــابد الله المتألم · ووقف منفردا بين قومه ، وكان فى عبادته لربه أكثر انفرادا ·

أرميا يكافح وحده

وكان الدين الى ايامه شأنا من شئون الجماعة لا من شئون الفرد · فالوحدة الانسانية فى الدين هى الجماعة لا الفرد · والمرء لا يستطيع أن يقوم بفرائض دينه الا بوصفه فردا من أفراد القبيلة أو الأمة : ويستحيل عليه أن يتصـــل بربه اتصـــالا مباشرا خاصـــا · وألبت طبيعة ما زاول أرميا من رياضة وتجربة جميع هذه العوامل عليه · واستطاع كسائر الأنبياء أن يتصل اتصالا سريعا مباشرا بربه الذى أوحى اليه ، ولكن أحدا منهم لم يواجه مثله الله وحيدا وكافح معه فى سبيل تحقيق رسالته ·

وتوضع رياضته مع أعنف الرياضات التى دونت فى تاريخ الروح الانسانى ، ولكنها آتت أطيب الثمرات · ذلك أن كل تعبد شخصى فى اليهودية المتأخرة وفى تاريخ المسيحية بأسره يقوم على عزلة العابد هذه ، ومن ثم وجب أن نرده الى حياة هذا النبى · وقد كان هو خير ما أهدى بنو اسرائيل الى العالم قبل تشتتهم ·

الفصل الثامن والعشرون

اليونان في عصر البطولة

بيان للحياة الاجتماعية القوية في عهد الاقيال الآخيين كما تكشف عنها الأبحاث الأثرية وتصورها الأشعار الهومرية .

بقلم ا . ا . جاردنر الدكتور في الآداب by E. A. Gardner Litt. D.

وأستاذ كرسي بيتس Yates للابحاث الأثرية في جامعة لندن ومؤلف « المجمل في فن النحت اليوناني » و « أثينا القديمة » و « الدين والفن في اليونان القديمة » وغيرها .

عصر البطولة في اليونان مباين أظهر المباينة للعصور السابقة عليه واللاحقة له . وذلك أن الحضارات المتقدمة والحضارات المتأخرة معروفة لنا كلها تقريبا من أعمال التنقيب والبحوث الأثرية ، في حين أن معرفتنا لعصر البطولة مستقاة في معظمها من الملحمتين العظيمتين الالياذة والأوذيسة وهما من أنفس المقتنيات الأدبية عند العالم المتحضر من عهد اليونان الى يومنا هذا . وعلى أن هاتين القصيدتين تجعلان في مقدورنا أن نتمثل حياة هذا الشعب وخلقه بما أبدعتا في وصفه على هذه الصورة الوافية الحية التي لا يدانيها وصف في الأدب القديم ، فان أخيل وهكتور وأودسيوس وهيلانه وأندروماك وتوزيكا ومن اليهم احياء في الاشعار الهومرية حياة مشرقة جلية عامرة بالشخصية أكثر من جميع من عداهم في التاريخ أو القصص ومن الواجب علينا قبل التعرض لوصف حياة اليونان في عصر البطولة أن نتحقق من مكان هذا العصر في تاريخ الشعوب الايجية . ذلك أن حضارة العهد المينيوى العظيمة الرائعة ، التي تقدم وصفها في الفصل الخامس والعشرين ـ كانت قد أصبحت أثرا من آثار الماضي ، وران عليها النسيان الى حد ما على الرغم من المدن المائة التي كانت في كريت وكان قصر مينوس في مدينة كنوسوس قد أتى عليه الدمار وانطمرت معالمه وقامت في موضعه أبنية تافهة لا شأن لها . ثم ان علاقة ما تفرع عن الثقافة الكريتية والفن الكريتي في أرض اليونان الأصلية بعصر البطولة الذي نحن بصدده ليست واضحة المعالم كل الوضوح . وليس في الالياذة أو الأوذيسة شيء عدا بعض الأخبار الباقية المتواترة تنبيء عن عظمة كريت الغابرة ، ولا شك في أن اشارات هومر الى ميسيني « الغنية بالذهب » والى قصر منلوس الفاخر في اسبارطه شاهدة على أن الشاعر كان على شيء من العلم بحال الحضارة والفن اللذين كشفهما لنا الباحثون في العصور الحديثة .

وما زال الباحثون مختلفين في الالياذة والأوذيسة ، لا في مكان نظمهما وزمانه فقط بل الى أي مدى يمكن اعتبارهما ممثلين للحياة في عصر الشاعر (راجع أيضا الفصل التاسع والعشرين) . أما القسم الأول من هذه الأسئلة فيعرض له الدكتور ليف Dr. Leef في مقدمته للألياذة فيقول :

(ونضيف في آخر الامر كلمة عن منشأ هذه الأشعار . فالقول بنشوئها في بلاد اليونان في القارة الأوربية قال به أول من قال مستر غلادستون Mr. Gladstone ، ثم أيده من بعده المستر منرو Mr. Munro فجاء الأثر أبلغ وان كانت الحماسة أقل ، وعندي أن هذا القول لا يمكن تفنيده والأجدر أن نتجه الى ساحات الاقيال الآخيين الذين كشف عن دورهم وبقاياهم العلامة الاثري شليمان Schlieman لننشد موطن الشاعر هومر . ولقد استصحب الشرد الآخيون في نزوحهم الى سواحل آسية الصغرى هذه الاشعار التي تعد أنفس مقتنياتهم) .

فاذا صح هذا الرأي ـ وهو رأي قمين باجماع العلماء عليه ـ لزم أن يكون نظم الالياذة والأوذيسة قبل نزوح الآخيين الى آسية الصغرى أمام الغزاة المغيرين من الدوريين ـ أعني قبل ١٠٠٠ تقريبا ق . م ، ولزم أن تكون الحياة التي تصفها هذه الأشعار حياة القادة الآخيين في كل هام خطير من الأمور . ونخلص من هذا أيضا الى أن الالياذة والأوذيسة كانتا موجودتين على ما هما عليه اليوم تقريبا قبل نزول الدوريين باليونان .

عصر الملاحم الهومرية

والواقع أن كثيرا من النقاد في القرن الماضي ذهبوا الى أن هذه الأشعار لم تجمع بعضها الى البعض على صورتها النهائية الا في وقت متأخر كما ذهبوا الى أنها أشتات في أسلوبها الأدبي وفي مضامينها • ولكن هؤلاء النقاد يستعصي

ظهور هومر قبل الفتح الدوري

عليهم أن يفسروا لنا كيف اتفق أن كانت الحياة التي وصفتها هذه الأشعار مطابقة من كل وجه للأحوال التي يرجح أن كان عليها الآخيون في اليونان ومخالفة أبعد الاختلاف لما جاءت به المصادر الأخرى عن الأحوال في اليونان في الأزمنة التالية لعام ١٠٠٠ قبل الميلاد • فمما لاشك فيه أن شاعرنا لم يكن مؤرخا ولا عالما في الآثار ولا يتأتى أن يكون قد اضطلع بدراسة علمية منتظمة لعصر سابق على عصره • ولقد صدق أندرو لانج Andrew Lang اذ يقول في كتابه الموسوم (عالم هومر) انه لا يمكن أن نتصور العقل الا يشير هومر أدنى اشارة الى تبدل الأحوال في زمنه وفي موطنه الجديد وهو في أشعاره يأتي على بيان واف متصل لحياة هذا السلف في أرض اليونان الأصلية •

ولا ننكر أن الشاعر كان ينظر الى الابطال الذين يحدثنا عنهم على أنهم أرقى وأقوى من أهل زمنه • فيقول ان ديوميد Diomed يقذف في سهولة ويسر « صخرة لا يقوى على رفعها رجلان من رجال هذه الأيام » بيد أنه لا يحدثنا عن وجود فوارق جوهرية في الحياة أو العادات ومن واجبنا أن ننظر بعد هذا في أمر هؤلاء الأبطال •

يختلف مدلول لفظ « البطل » اختلافا كبيرا باختلاف الأزمنة • فهو كثيرا ما يدل في عرف اليونان المتأخرين على أنصاف الآلهة أو على بني الانسان ممن أمدتهم الآلهة بروح من عندها • أما في أشعار هومر فلا يتضمن اللفظ شيئا من هذا فهو يسري على جميع المقدمين من أشخاصه تقريبا سواء أكانوا أقيالا أو من نسل الآلهة أوغير اولئك وهؤلاء • وهو لا يطلق على المحاربين عامة بل يطلق أيضا على المادين والمنشدين • ولقد أنصف • الأستاذ سيمور Pr. Seymore في قوله « ان العهد المسمى بعهد البطولة في اليونان لم يدم الا أجيالا قلائل » • وانه ليبدو لنا في واقع الأمر مقصورا على من ساهموا في حرب طروادة وبعض الحروب أو المغامرات الأخرى مما أشارت اليه الالياذة والأوديسة •

وبديهي أن هؤلاء الأبطال كانوا اغريقا في لغتهم وعاداتهم ، وانهم ينتمون الى جنس قدم

ولا ريب من الشمال ــ أو على الأقل من شمال اليونان ــ في تاريخ يتعذر تحديده ، ولكنه يقع على وجه العموم في الألف الثانية قبل المسيح • ولقد قدموا ومعهم معتقدات موطنهم الشمالي وعاداته ولباسه ، وكانوا يتكلمون اللغة اليونانية على صورة أولية قابلة للترقي والتطور الى لغة الملاحم في أشعار هوميروس • ولكنهم أصابوا في أرض اليونان حضارة وفنا أعلى منارا من فنهم وحضارتهم • واذا كانت كريت لم تنهض قط من النكبة التي عفت على قصورها في كنوسوس وغيرها فان تفاريع الفن الكريتي لم تزل باقية في ميسيني Mycenae واسبارطة Sparta وتيرينز Tiryns وغيرها من المواقع في أرض اليونان الأصلية • ولم يقض الآخيون النازحون على أهل اليونان الأولين وانما اصطنعوا بيوتهم ومدنهم على نطاق واسع واتخذوهم صناعا مهرة بارعين •

وعلى هذا تكون أحوال المعيشة التي أتى على وصفها هوميروس في أشعاره وليدة حضارة مختلطة ويكون النازحون ذوو البأس ومساعير الحرب قد أفادوا من تلك البيئة التي ألفوا أنفسهم بين ظهرانيها وهي أرقى من بيئتهم وأقدم أصولا • ولكن حياتهم كانت في جوهرها اغريقية روحا وخلقا حتى أن الذين جاءوا بعدهم من الاغريق كانوا يدرسون الالياذة والأوديسة ويتمثلون بهما على أنهما المثال المقرر للكمال المنشود عند الشعب الاغريقي ، وأصبحت الالياذة والأوذيسة من ذلك الحين معدودتين في الخافقين صورة للروح اليونانية •

وقد اختلف العلماء والمؤرخون الى عهد متأخر في مبلغ موافقة الحياة التي وصفها هوميروس في أشعاره للحياة الواقعية لمجتمع تاريخي ومبلغ انطباق أخباره على ما وقع لهذا المجتمع من الأحداث وما ساهموا فيه من الوقائع ومن هؤلاء من يذهب الى أن هذه الأوصاف هي صورة من نسيج الخيال لحال من الأحوال لم يكن لها وجود قط ، وان تفاوتوا في تقدير ذلك •

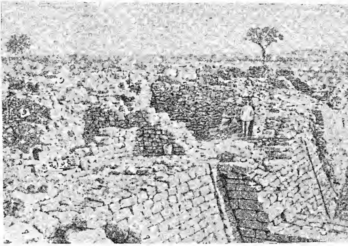
الأسس التاريخية لملاحم هومر

أو أنها على الأقل جماع الأحاديث المتواترة المتوارثة التي تتمثل فيها خواطر قرون عدة • أما اليوم وقد كشف الكاشفون عن ذخائر ميسيني الذهبية وعن أسوار مدينة طراودة الحقيقية فلا يكابر الا الأقلون في أن قصة طرواده في معظمها رواية لأحداث تاريخية حقيقية (راجع الفصل التاسع والعشرين) ، وان يكن هنالك محل للشك في مبلغ ما كان لخيال الشاعر من تصرف في التفاصيل •

والظاهر أن الأبطال الذين يروى لهم هوميروس قد كانت حيـاتهم أقرب من وجوه عدة الى الاغريق فى الأزمان القديمة منهم الى حضارة كريت أو حضارة العصور المظلمة التى أعقبت الفتح الدورى . بيد أنه لا يكاد يكون فى ذلك مدعاة للعجب ، فقد جاء الآخيون الى آسـية الصغرى بعاداتهم وموروثاتهم فبقيت خصائص كثيرة من صفات عصر الأبطال تناقلها عنهم سائر اليونان . غير أنه يجب أن يدخل فى اعتبارنا أن الاغريق فى العهـد القديم كانوا يذهبون الى مشابهة الأبطال لهم فى كل ناحية وعلى هـذا النحو كان تصويرهم لهم فى الفن والأدب . ولكن الظاهران الكثير مما أخمله الغزاة الدوريون أو عفوا عليه من خصائص الحياة فى عصر الأبطال قد عاد ثانية ، ودخل فى التراث المشترك للجنس الهيلانى .

ولا يخفى أن الالياذة والأوذيسة اللتين عليهما جل اعتمادنا فى التعرف على الحياة فى عصر الأبطال هما فى الواقع محدودتا المجال ، فالأولى تروى لنا حال حرب ثم أياما معدودات من حملة حربية – والأخرى تروى أسفارا فى أقطار عدة حقيقية وخيالية . بيد أن هنالك أيضا أوصافا دقيقة حية للحياة المنزلية فى قصر منلوس فى أسبارطه وحياة الكينوس بين الفيائيين وفضلا عن ذلك فان حالة الحرب كانت فى الأزمان القديمة معدودة من الأمور العادية أكثر مما هى فى العصور الحديثة – فهى حادث مألوف قد يدعى اليه أى رجل ليقـوم بنصيبه فيه .

والشخصيات الهامة فى الالياذة والأذيسة جميعهم أقيال ، ولكن الكثيرين ممن يقومون بين يديهم يكادون يساوونهم فى المرتبة الاجتماعية . بل ان الكثيرين من الأقيال انما يحكمون نواحى صغيرة ، وبعض هـذه النـواحى ضياع كانت تجعل لصاحبها ولا ريب بعض المكانة . ويلاحظ أن مملكة أوديسوس (عولس) التى لم تساهم



أطـلال الأسوار التى امتنعت على جيش الآخيين عشرة سنوات

كانت طروادة الوارد ذكرها فى أشعار هوميروس محصـورة بين جدران نخينة وبهـا طواب متنوعة الأبراج والأبواب ويرى القارىء فى هذه الصـورة الجدران الجانبية لبرج من الأبراج (ب و ج) بارزة من الجـدار الشرقى (مرموز اليه بحرف ا) . وعند حرفى د و ه أبنيـة عليا أقيمت بدلا من أخرى سابقة عليها كانت من لبن . ويرى القـارىء فى وضـوح موضع البـاب الذى يخترق السور الأعلى الى السطح ومنه الى البرج . أما جدار البيت عند حرف (و) والأسـاس الثخين عنـد حرف (ز) فيرجعان الى ما بعد ذلك .

بغير اثنتى عشرة سفينة فى حرب طروادة كانت جديرة بأن يخرج منها مائة خاطب يسمح لهم مقامهم أن يتطلعوا الى طلب الزواج من الملكة . على أن لهجة هـذه الأشعار عامة ولهجة القـوم الذين تصفهم كانت أرستقراطية متميزة .

أهم خصـائص الأرستقراطية

وهذه الخاصة أشد ما تكون ظهورا فى مشاهد القتال فى الالياذة . وهى تشتمل فى معظمها على وصف لشجاعة هذا البطل ثم ذاك ، ومرجع أمرهم جميعه الى قدرتهم على الطعـان بالرمح أو السيف وليس الى حسن توجيـه الكتائب أو تركيز الحركة . ولا شك أنه يحدث أحيانا أن يخف بطل الى نجدة بطل من قومه أعنته الخصم وشدد النكير عليـه . ولكنه لا أثر لاعتماد بطـل من الأبطال على تأييد جنـــده التابعين له . واذا تولى بطل فى بعض الأحيان قيادة احدى الهجمات على العدو كما وقع حين زحفت جموع طروادة وهى صفوف متراصـة وعلى رأسها هكتور ، فان عامة الجند لا يكون لهم أدنى أثر حاسم فى تقرير مصير الموقعة .

ومن يقرأ تطويفات أوديسوس يجد أن البطل يبادر المرة بعد المرة الى انقاذ رفاقه من مهاوى التهلكة ، الا أن الفرحة بعودته سالما الى موطنه لا يقلل منها أنه قد عاد وحده ، ولم يسلم معه أحد من جماعته . وهو اذ يعود يستطيع بمعونة ابنه واثنين من خدامه الأمناء أن يناهض مائة من الرجال الذين استقروا فى منزله يخطبون ود ربه . وليس الرؤساء فى زمن السلم بأقل من هذا سلطانا وسيادة . ومن الميسور أن نستخلص النظام الاجتماعى القائم على هذا من الاشارات الكثيرة فى أشعار هوميروس .

ونظام الحكم ملكى ، ولكن لادستور له على وجه التحديد ، ولا ينطوى على تقسيم دائم الى ممالك مستقلة . وجل الاعتماد فى تسيير دفة الحكم على خلق الملك وبسالته . واذا كان الاغريق من قبل طروادة قد دانوا لأجاممنون بالرياسة فهم انما لحقوا به على أنهم حلفاء أحرار لا رعية خاضعين . فقولهم « ملك » ، و « ومولى » ، و « سيد » (Basil ns, Anax, Koiranos) انما هى ألفاظ مماثلة مترادفة .

حقيقة ان أوديسوس يخطب الاغريق قائلا : «ان الكثير من السادة لا نفع فيهم ، فلنتخذ اذن سيدا واحدا ، ملكا واحدا » الا أن أوديسوس انما يقول هذا القول وهو يخاطب عامة الجند ، ولكنه يخاطب الزعماء الآخرين بلغة تختلف عن هذه كل الاختلاف . فهؤلاء من حقهم فى عرف الجميع أن ينصرفوا بعسكرهم ان شاءوا ويلحقوا بأوطانهم قافلين .

والظاهر أن كلمة « ملك » كانت لها معان مختلفة حتى اذا وردت فى موضعين متقاربين ، ونجد أوضح مثال على ذلك فى الجزء الأول من الاوذيسة اذ يزرى انطينوس على تلماك نبته القيام بعد أبيه ملكا على ايثاكا Ithaca فيقول تلماك فى جوابه : « ان ايثاكا التى يكتنفها البحر لا تعدم من الآخيين ملوكا كثيرين غيرى،ملوكا من الشباب والشيب . وسوف يتولى أحدهم ولاشك هذا الملك بعد أن قضى أوديسوس الصالح نحبه . أما أنا فسأكون رب بيتنا ورعيتنا » . ويتضح من هذا التفرقة بين الملك الذى لا يعدو أنه سيد أملاكه الخاصة والملك على الجزيرة كلها . وظاهر أن كلا الحقين وراثى . ولكن القارىء لهذه الفقرة يجد الاشارة الى امكان الاخلال بهذه الوراثة . ويبدو أن للملك الأعظم — اذا جازت لنا هذه التسمية — حقوقا استثنائية فيما يتعلق بتصرف الملوك التابعين له . فثمة أجاممنون يعرض على أخيه « سبع مدن حسنة العمارة » وثمة منلوس يحدث تلماك عما عرضه على أوديسوس قائلا : « وكان بودى أن أقدم له فى آرجوس مدينـة لسكناه — فأخلى احدى المدن التى حولى والداخلة فى نطاق أملاكى » . وان سلطانا كهذا يبـــدو استبداديا مطلقا . ولكننا نرجح أن هذا كان مقصورا على أحوال خاصة — ولعله كان فى البلاد المقهورة دون غيرها .

وكان المتبع أن كل ملك يشرف على العمل فى أملاكه وقت السلم . ونحن نرى صورة ملك على ترس أخيل وهو يشرف على العمل فى مزرعته . وفى وقت السلم يظل بيت الملك مفتوحا فيضيف تابعيه ويقربهم .

المجلس يحد من سلطة الملك

ويروى أن ملوك فوقيـة Phaeacia كانوا فى قصر الكينوس اذ قدم عليهم أوديسيوس مستضيفا . فقال ألكسينوس لضيوفه : « اصغوا اليـه ، أيها القادة وأصحاب الرأى من الفوفيين .. سندعو غداة غد للمأدبة عددا أكثر من شيوخنا احتفالا بهذا الغريب » .

فكان سلطان الملك يتكيف على مقتضى مشورة مجلس من الرؤساء أو الشيوخ أو رأى الأمة جمعاء . فاذا حزب الأمر جمعوا له مجلسا وأفصح كل واحد عن رأيه أو مشورته بكامل الحرية ، وكان الشأن فى هذا المجلس لقوة الحجة وأصالة رأى المتكلم لا لسلطانه . ولم يكن للموافقة الدستورية وجود عندهم . وكان الملك هو الذى يدعو عادة الى الاجتماعات أو يدعو اليها رسل من قبله . ولقد دعا تليماك ايناكا الى مثل هذا الاجتماع قبل تقلده مقاليد الملك . كما أن أخيل ، لا أجا ممنون ، هو الذى دعا الى المجلس الشهير الذى عقد فى بداية حرب طروادة ، الا أن أوديسيوس عمد الى استعارة صولجان أجا ممنون واصطناع سلطانه عند ما أراد دعوة مجلس آخر بتحريض من الربه أثينا ، على أن هذا كما هو الظاهر انما كان من قبيل الكياسة وحسن السياسة أكثر مما كان ضرورة والتزاما .

ولا سبيل لنا الى تبين من كانوا يملكون حق شهود هذه المجالس . فقد كان ترسيتيدز Thersites وهو من الأغفال النكرات ممن شهدوا مجلس اليونانيين وخطبوا فيه واذا كان أوديسيوس قد حمل عليه واشتد فى حملته فلم يكن ذلك لدعواه فى الكلام بل لفحوى كلامه وما يرمى اليه من الاغراض . ولم يقتصر الامر على هذا بل كان دولون Dolon أحد الأدلاء شاهدا مجلس الطرواديين الذى عقدوه فى السهل وفيه كان تطوعه فى غزوته المشؤومة . فالأوضاع الشكلية لم يكن لها وجود ومع ذلك لم يترتب على الامر أدنى اضطراب أو فوضى . وهذه شهادة باهرة على اتصاف اليونانيين بتلك العبقرية السياسية التى ظهرت جلية عندهم فى عصرهم التاريخى القديم .

ولم تكن الحروب الرسمية والرحلات بالموضوعات الأساسية الوحيدة التى تناولتها الالياذة والأوذيسة بل تناولت الى ذلك وصف الاغارات على الماشية وأعمال النهب برا وبحرا وهى معدودة من الأمور التى لا يرقى اليها الشك ولا يقدح فى صحتها . ونحن نطالع فى

ترس أخيل

وصف ترس أخيل صورة وافية لمشاغل القوم أيام السلم فى حياة المدن والأقاليم . ومهما يكن من ذهاب بعض الثقات من العلماء الى أن هذا الوصف من الزيادات المتأخرة على الالياذة فانه خال من المناقضات الزمنية الظاهرة واضطراب التسلسل التاريخى وهو موافق لوصف الحياة الوارد فى سائر القصيدة .

وتعتبر المناظر الموصوفة خير مثال على حياة المدينة والريف وبعض هذه المناظر يعرض لنا مدينة فى ابان الحرب كحصار منظم أو حركة هجومية أو كمين واغارة على الماشية ـ كما تعرض صورا فى زمن السلم . ونحن نرى فيها أول ما نرى وصف مأدبة وموكب عرس والنساء مطلات من أروقتهن ، ثم مشهد خصام ونقاش بين يدى الشيوخ وهم قعود فى ساحة السوق المزدحم . أما مناظر الريف فأكثر

صور من مناعم الأغنياء والفقراء

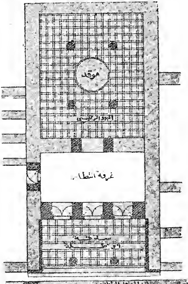
تنوعا ، فثمة منظر الرجال يحرثون الأرض ويتناولون قدحا من الخمر بعد كل أخدود يفرغون منه ، ومنظر الحصاد ونرى فيه الحاصدين وحارمى المحاصيل، والملك قائما الى جانبهم مبتهجا بما يشهد ، والمنادين يهيئون وليمة فى ظل شجرة والنساء يطبخن الشعير الأبيض للعشاء . ومنظر قطاف الكروم ، فنرى عناقيد الأعناب الوافرة يقطفها الفتيان والصبايا ويحملونها فى السلال وذلك على ايقاع رباب يعزف عليها غلام فى وسطهم ، ومنظر رعى الماشية ونرى فيه الرعاة وكلابهم ليدرأوا عنها عوادى السباع ، وكذلك منظر حظائر الأغنام وقطعانها وأبنية المزارع .

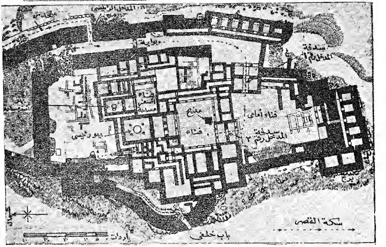
ثم هناك رقص المنشدين يشترك فيه الفتيان والصبايا وهم فى حلل الأعياد القشيبة بما يشبه ما ابتدعه ديدالوس «Daedalus» لـ « أريادن » Ariadne » فى كنوسوس « Cnossus » ، وأحد المطربين يعزف وفى الوسط بهلوانان يتقلبان وحول الراقصين جمع حافل ظاهر السرور مغتبط . وكل ما هنالك يشعرنا بحياة الخلوات المرحة ويزيد فى بهجتها وطلاقتها وقع المخاطر أو المغامرات كما يتفق والروح السائدة فى سائر القصيدة وهذا الوصف يمثل لنا من أوجه كثيرة ما كانت عليه الأحوال بعد ذلك فى حياة اليونان التاريخية القديمة .

وان المظاهر الخارجية للوسط الذى عاش فيه القوم حياتهم الحافلة القوية يمكن الاستدلال عليها الى حد كبير من الاشارات والأوصاف التى اشتملت عليها الالياذة والأوذيسة . فلدينا وصف واف لقصور ألكينوس Alcinos

في اقليم فوفية Phaeacia وقصور منلوس Meneiaus في اسبارطة وقصور بريام في طراودة . وقد جاء فيها ذكر بيت أوديسيوس Odyssus في ايثاكا Ithaca على بساطته وقلة بذخه بتفصيل أوفى وأتم كما ورد فيها وصف لما كان من أبنيـة في مزرعة ايميس Eumaeus راعي الخنازير . ويبدو أن هذه جميعا متماثلة في جوهر أمرها وجملة نظامها وان كانت تختلف اختلافا كبيرا في حجمها وتفصيلها . فقد كان فيها دائما فناء يفضي اليه باب خارجي ويؤدي هذا الفناء الى ردهة يتصل بها رواق وتقوم أمامها أحيانا غرفه انتظار .

ومثل هذا التصميم لا يشبه تصميم البيت اليوناني في العهود المتأخرة فحسب بل يماثل أيضا تصميم قصور كقصور ميسيني Mycenae وتيرينز Tiryns وهو من ناحية أخرى يختلف اختلافا جوهريا عن القصور الكريتية الأولى في كنوسوس Cnossus وفيستوس Phaestus ذات الصحون المبلطة التي يحيط بها مجموعه من الحجرات لها مناور او مساقط النور . ولاشك في أن مباني الطراز الميسيني القائمة على أرض اليونان الأصلية فيها الكثير من السمات والزخارف المقتبسة على مايظهر من كريت . الا أن تصميم البيوت كان منظورا فيه الى سد مطالب شتى . وتعليل ذلك أن هذه البيوت انما شيدت للغزاة





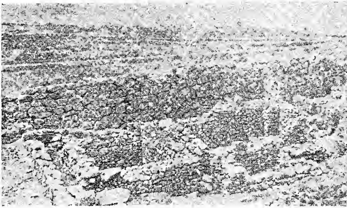
كيف كانت تخطط منازل الأبطال الهومريين الفخمة

يتضح من الأوصاف الواردة في شعر هوميروس أن المساكن كانت تطابق في طريقة بنائها العامة هذا التخطيط لقصر تيرينز Tiryns ، من قصور الحقبة السابقه مباشرة ، وكان قصر ميسيني من الطراز نفسه الا أنه كان أقل زخرفة ، وفي الصورة العلوية (تخطيط) مكبر للمبحارون .

الآخيين الذين جاءوا من الشمال ومعهم عاداتهم وتقاليدهم واستقروا فى اليـونان سـادة على أهلها الذين أخذوا فنهم عن كريت وكانت لهم مدنية أعرق من مدنية الغزاة وأرفع ٠

ويلاحظ أن الفناء المكشوف الذى كان دائما فى مقدمة البيوت التى نقرأ وصفها فى قصائد هوميروس انما هو ضرب من حوش الدوار فى البيوت البدائية البسيطة ، ولم يزل لها الكثير من هذه الصفة فى بيت أوديسيوس فى ايثاكا ، لتليماك بوصفه من أبنـاء الدار حجرة تشرع على هذا الفناء ٠

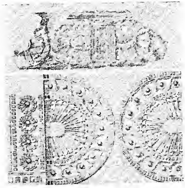
والدار الهومرية تتألف فى معظمها من قاعة لأهـل البيت وغرفة انتظار من دونهـا رواق المدخل ٠ وهذه الأقسام الثلاثة ظاهرة المعالم فى الالياذة وفى الأوديسة كما اننا نجدها فى دور ميســينى Mycenae وتيرينز Tiryns وكان رواق المدخل هو المكان الذى يحبب الى القوم الجلوس عنده فكانوا يضعون فيه أو الى



أطلال منزل خاص فى قلعة ميسينى

يوجد بجانب سور الأكروپولس مسكن كبير يطلق عليه الآن اسم بيت زهريات المحاربين ، لوجود تلك القدر المشهورة (التى تجد صورتها بصحيفة ١٣٨) فى احدى غرفه ٠ ويشغل هذا المسكن أكبر رقعة ممكنة بين هذا السور وبين سور دائرة المقابر (التى يرى منها جزء صـغير على يمين الصـورة) ٠ والأطـلال التى تشاهد الآن هى أسس الطابق الأصلى الذى كان يستعمل قبوا (بدروم) بقدر ما كان يسمح به مستوى الأرض ويرى سهل آرجوس على بعد

وذلك أن الحيوانات كانت تساق اليها بل كان فيها نحرها وتقطيعها وطبخها ٠ وقد جـرت العـادة بتقريبها على مذبح زيوس هركيوس (رب الحظيرة) القائم فى الفناء ٠ ولقـد كان لأخيل حتى فى معسكره أمام طراودة مثل هذا المذبح فى الساحة أمام خيمته أو سقيفته وكان المذبح سمة لازمة فى فناء المنزل الاغريقى فى الأزمان التـاريخية ٠ وكان الفنـــاء فى الدور الكبيرة والقصور متسع الأرجاء ولا تحيط به مرابط الخيل ومخازن المؤنة وحدها بل تحيط به أيضا حجرات تشرع فى الغالب على الأروقة ٠ ويدور حول الفناء سور وفى هذا السور مدخل يواجه مبنى البيت نفسه ٠ وفى دار أوديسيوس كان جانبه المقاعد الحجرية ٠ وفى وسط القـــاعة نفسها يقوم الموقد وهو مركز الحياة البيتية والاجتماعية ٠ فأوديسيوس Odysseus حين قدم الى قصر ألكينوس Alcinous ألفى الملكة أريته Arete جالسة عنده مجلس الشرف والتكريم ٠ ولقد كانت القـاعة حجرة عامة لأهل البيت يقضون فيها أوقاتهم كماكانت حجرة الاستقبال والضـيافة ٠ ولم يكن اليـوم الذى زار فيه أوديسيوس ألكينوس من أيام الولائم والأعياد خاصة ومع ذلك فقـد لقى شـيوخ الفوقيين Phaeacians فى القاعة يقصفون ٠ وكان طالبو الزواج ببنلوبPenelope وخاطبوا ودها يجتمعون الى المآكل والمشرب فى القاعة كل يوم فى بيت



أفاريز من ميسينى وتيرينز

كانت المراوح الأهليلجية المصنوعة من سعف النخل والمقسومة بشريط عمودى منالرسوم الميسينية الشائعة ، وهذه موجودة فىالافريز الفسيفسائى الذى وجد فىميسينى (الصورة العلوية) ، وفى افريز مرمرى فى تيرينز · وقدكفتت الأوساط والأسنان بزجاج أزرق·

أوديسيوس · وبديهى أن نتصور القاعة فى هذه الأحوال عظيمة فسيحة الأرجاء · ومع ذلك فالغالب على الظن أن البيوت المتواضعة لم تكن تختلف فى أساس تصميمها عما ذكرنا · ويروى أن أوديسيوس حين قدم على أبومايوس ايميس راعى الخنازير ألفاه جالسا فى رواق بيته · والمرجح أن مثل هذا البيت كان له سقيفة ولم يكن له حجرة انتظار · وكانت العادة أنتنصب السرر للضيوف فى السقيفة ·

ولا شك أن كبار المنازل كانت مزوده بغرف أخرى للعمل وللنوم وللاختزان · وكانت توجد فى بعض الأحيان حجرة كبيرة للنوم خاصة بصاحب الدار وزوجته ــ ونخص بالذكر منها ما كان فى بيت أوديسيوس وكانت احدى قوائمه من زيتونة فارعة · ويقال فى أحيان أخرى أن غرفة النوم كانت فى الجزء الخلفى المنعزل من المنزل ومعنى ذلك فى قول البعض أنها كانت فيما يلى القاعة نفسها · وكان يوجد فى بعض الأحيان طابق ثان تتوفر به للبيت حجرات عليا ·

وكان فى قصر بريام فى طرواده خمسون غرفة بنيت من الحجارة مخصصة لأولاده الذكور الخمسين ولزوجاته ، فضلا عن اثنى عشرة غرفة فى ساحة البيت لبناته وأصهاره · بيد أن هذا القدر من الاتساع والاستيفاء فيه ولاشك اسراف نادر غير معهود ·

أما القول بوجود مقاصير منفصلة خاصة بالنساء ففيه بعض الخطأ فى الفهم · ثم ان الدخول الى هذه المقاصير على كل حال ليس من باب فى مؤخرة القاعة الكبرى كما كان الشائع عند من تناولوا الكلام فى هذا الموضوع فاننا لم نقف على أثر لهذا فى أى دار من الدور الباقية الى الآن كما أن شيئا من ذلك لم يرد فى أشعار هوميروس · بل ان الوقائع التى ترويها الأوذيسة يصح وقوعها ــ على حد قول الأستاذ مايرس Professor Myres فى دار كتلك التى أشرنا اليها فى ميسينى حيث الدخول الى غرف النساء من الفناء المقابل للقاعة الكبرى · ولئن كانوا قد أفردوا بعض الغرف للنساء يتخذنها لحاجاتهن أو لأشغالهن المنزلية فان هذا لا يستوجب القول بأن مرافق الدار كانت مضاعفة · وليس ثمة دليل على أن الفناء الثانى والقاعة الكبرى فى تيرينز Tiryns كانا وقفا على النساء · بل أن زوار البيت ليجدون فى معظم الأحيان ربة البيت وجواريها جالسات أو مشتغلات ببعض العمل فى الغرف المشتركة بين الجميع رجالا ونساء وفى الغالب الأعم فى القاعة الكبرى · واما الحال فىقصر أوديسيوس فى ابناكا فكانت حالا استثنائية لتكاثر خطابها وطالبى الزواج بها ·

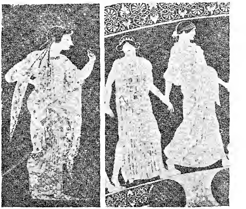
وتدل الشواهد على أن طرز الزخرفة وخصائص العمارة وذلك على الأقل فى الدور الفخمة الموصوفة فى الأشعار الهومرية انما هى مأخوذة عن سادات ميسينى الأول وبالتالى عن كريت وتحدثنا الأوذيسة عن « لألاء كشعاع الشمسأو القمر فى ذرى قصر منلوس المشهور» وجاء مثل هذا الوصف لقصر الكينوس Alcinous مضافا اليه « أن الجدران الممتدة فى هذه الجهة وفى تلك من وصيد الدار الى آخر حجرة كانت ملبسة بصفائح النحاس وحولها افريز أزرق والأبواب التى تغلق فى الدار الطيبة يعلوها الذهب · وكانت عضادتا الباب من الفضة تقومان على أسكفة من النحاس ، وتعلوهما عتبة من الفضة وخطاف الباب من ذهب · وكانت المقاعد فى الداخل مصفوفة تجاه الجدار ·

والحق أن هذا الوصف الرائع الفخم جدير بقصر من قصور الخيال • الا أن ما ورد فيه من صفة الزخرف والزينة يتفق تمام الاتفاق وما كشف عنه المنقبون فى ميسينى وتيرينز وكريت حتى فى نقوش الافريز الأزرق الدائر بالطنف فلما أن أجلى الغزاة الدوريون الأمراء الآخيين طوت الأرض هـذه النفائس جميعها واندرجت فى طى النسيان • فلا شك أن هذه الأوصاف يرجع تاريخها الى عهد اقامة هؤلاء الأمراء فى الاصقاع المنسوبة اليهم فى الالياذة والأوذيسة •

أما الأثاث المنقول والبيت فى العصر الهومرى فقد كان مظهرهما مثل البيت الاغريقى القديم مظهرا عاطلا فى رأى المحدثين • وكان للقوم الى جانب المقاعد المثبتة على طول الجدار مقاعد خفيفة منقولة يسمونها أرائك ومواطىء للأقدام

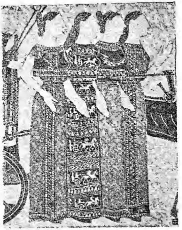
أثاث المنازل فى العصـور الهـومرية

يضـعها الأتبـاع كلما دعت الحاجة اليها • وكانت توضع أمام المدعوين فى الولائم مناضد صغيرة غير ثابتة • والاغريق فى عصر البطولة كانوا يجلسـون الى طعامهم ولا يتكئون كالاغريق فى العصر القديم •



ملابس النساء فى عصر البطولة

كان النساءيضعن علىجسومهن فى أبهة قطعا مستطيلة من القماش تسترها جميعا • وكن يربطنها عند الأكتـاف بمنجـد (بروش) بحيث تدع الذراعـين اما عاريتـين واما فى كمبهما الفضفاضين ، وكان الثوب أبيض بسيطا كثياب هؤلاء الراقصات (الى اليمين) ، وفى الغـالب كان يزين برسـم منسوج فيـه ، كهـذا الذى تلبسه بريسيز (الى اليسار)



رسوم دقيقة فى أقمشة مصبوغة

رسوم الزهريات الموجودة بهـذه الصحيفة ترجع الى زمن متأخر كثيرا ـ أو الى القرنين السادس والخامس ق • م • الا أنها قـد تصور نوع الأقمشة نفسها كما كان النساء يلبسـنها فى عصر البطـولة • والرسـوم المعقدة هى هنا منسوجة فى القماش •

والظاهر أن معظم السرر أيضا كانت مما يمكن نقله وكانت تجعل فى مخزن أثناء النهار ثم يضعها الخدم عند الحاجة فى الموضع المطلوب • ولا يسرى ذلك على فراش رب البيت وغيره من ذوى المقامات • فلهؤلاء حجراتهم الخاصة • وكانت السرر فى العادة عبارة عن اطارات من الخشب مثقوبة على حسب وصفهم لها فى معظم الأحيان ولعل هذه الثقوب كانت لادخال سيور متعارضة من الجلد فيها لتقوم مقام الخشبة الملولبة الهزازة وكانوا يفرشون على المقاعد والأرائك جلود الحيوان والملاحف • ولعل الملاحف كانت كالثياب سواء بسواء لأن اليونانيين لم تكن بهم من حاجة الى تفصيل الملابس تفصيلا أنيقا ولا خياطتها • وكانت هذه الأمتعة تحفظ فى صـناديق كبيرة . أما الثياب المستعملة فكانت عند خلعها تعلق على مشاجب •

ويظهـر أن ثيـاب عصر البطولة كما نتمثلها فى الأشعار الهومرية كانت قريبة الشبه بثياب الاغريق فى الأزمنة



جواهر تشبه منجد (بروش) أودسيوس

هذه الجواهر وان كانت من العصر الميسينى الا أنها قد يجوز أن نعد مشابهة تمام المشابهه ، بنقوشها الحبه التى تصور الأسد والظباء ، للمناجد التى وصفها هوميروس على أنها حلى شخصيه اغريقية من عصر البطوله ·

التاريخيه ، وأنها كانت مختلفه كل الاختلاف عما نراه فى الصور الملونه وغيرها من التصاوير الفنيه فى كريت وفى العصر الميسينى باليونان · وهذه التصاوير الميسينيه اذا لم تكن مستفادة فى الواقع من كريت فانها جارية على نهج الفن الكريتى بمآزرها ومحوكاتها الأنيقه · وأما أبطال الأشعار الهومريه فلا شك فى أنهم جاءوا معهم من الشمال بأزيائهم فى اللباس كما جاءوا بهندسة بيوتهم ·

وكانت الثياب التى يلبسونها على نوعين · ضرب من القمصان (يطلقون عليه عادة اسم الجلباب Tunic) يجذبونه حتى يغطى الرأس وازار فضفاض يشتملون به حول الجسد ويشبكونه بمشبك فى معظم الأحيان : ويختلف هذان الضربان من اللباس اختلافا بينا ، ويختلف اللفظ الذى يطلقونه على لبسهما · على أن هذا وذاك ثوب مستطيل يغلب على الظن أنه منسوج بالحجم المطلوب ولبس مفصلا من قماش بحال من الأحوال · وهو صالح لكل قامة قريبة من معدل القامات ، فقد كان الشائع بين القوم تهادى هذه الأثواب كما أن الشخص الواحد كان يرتدى أثوابا تختلف أحجامها على حسب ما يزاوله من عمل وبرد أحيانا وصف القميص أو الجلباب بأنه سابغ ينسحب ذيله على الأرض · ولاشك فى أن القميص كان أقصر من ذلك كثيرا فى الأعمال التى تلتزم الحركة ، وأنه كان يشد بحزام حتى لا يعوق نشاط العمل ·

وكان هذان النوعان من الثياب يتخذان من الكتان أو من الصوف كما تقتضى الأحوال وفصول السنة ·

قلنا أن نتمثل الرجال والنساء الذين يتكلم عنهم هومر فى ثياب غير مخيطة ينتفعون بها أجمل انتفاع ، وهى قريبة الشبه مما كان يلبسه اليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد · ويتضح من ذلك أن الأوانى التى بين أيدينا من ذلك العهد قد صدقتنا فيما تحكيه من المناظر الهومريه فى شأن الثياب وان كانت كذبتنا فى غيرها من الشئون · ولا يبعد أن يكون الآخيون الذين ذكرهم هومر قد احتملوا معهم حين اضطروا الى النزوح الى ايونيه وآسية الصغرى — أزياءهم فى اللباس فكان لها أثر فيما بعد على البلاد الأصليه ·

ولقد كان القوم ينسجون الثياب فى أحجام مناسبة على الأنوال وجرت العادة بأن يتولى العمل عليها السيدات وجواريهن · وقد نسجت هيلين فى نسيجها مناظر شتى للقتال بين الاغريق والطرواديين، كما نسجت أندروماك مثال زهرة ، ولا شك فى أن بنلوب كانت تفتن فيما تنسجه · ولم يكن هذا جميعه لعامة الثياب بل كان مقصورا على ثياب خاصة · وكان الغزل بالمغزل والمردن هو شغل النساء الذى يلزمنه ويعكفن عليه · وفى أسبرطه كانت هيلين تتخذ مغزلا من الذهب وسلة من الفضة لها حواش مذهبه ، على أن هذه كما جاء فى الأخبار كانت هدايا من الأمراء ويتضح من هذا أن الأهلين من أصحاب القصور الى أبناء الأكواخ كانوا يسدون بالغزل حاجتهم الى الثياب ولا يعتمدون فى ذلك على غيرهم ·

ومما لاشك فيه أن بعض أصناف اللباس مثل الأحذيه أو النعال كانت تحتاج فى صنعها الى آلات خاصة،ومع هذا فان ايومايوس Eumaeus راعى الخنازير تولى صنع النعال لنفسه من أدم



(خنجر مكفت يصور الدروع الميسينية)

كان الصناع الميسينيون يستعملون البرونز والقصدير والفضة والذهب جميعا فى عملهم العجيب فى تكفيت الأسلحة وعدة الحرب وهذه قطعة من خنجر وجدت فى قبر بميسينى ، وكان درع أخيل كما وصفه هوميروس مزدانا على ما يظهر بالطريقة نفسها ·

الثيران . والظاهر أن القصور والدور الكبيرة كان بها شتى المصانع — حتى أدوات الزراعة كانت فيما يظهر تصنع في المنازل كما كانت تشترى في الأسواق . وقد ورد أن أخيل أجاز بعضهم بكتلة من الحديد قائلا انها ستكفى الفائز خمسة أعوام « لأن راعى قطعانه أو حارث أرضه لن يضطر للذهاب الى السوق في طلب الحديد الذى يحتاجه فقد وفت هذه الكتلة بحاجته » . لقد كانت بعض فروع الصناعة تقتضى براعة خاصة ولكنها كانت مسندة الى الأجانب في معظم الأحوال . فكان القائم فيما يروونه — يصبغ ما في عدة الخيل من العاج امرأة ميونبوية أو كارية Carian ، على أن العاج المصبوغ قد يكون كغيره في الحلى في المستوردات المجلوبة . والظاهر أنه كان هناك مصدران لتوريد ما يحتاج اليه من أدوات الزينة وأول هذين المصدرين حرف الأهلين وهى بقية من العصر الميسيني احتذاها سكان البلاد السابقين—ويزيد في عدد هذه المصنوعات ما سبق صنعه منها وتوارثه القوم . والمصدر الثـانى المتاجر الواردة من الخارج والتى كان معظمها مجلوبا فيما يقال على أيدى الفينيقيين . وليس في الأشعار الهومرية تفرقة واضحة بين هذين المصدرين .

ومن ذلك ذكرها أن الكأس التى أهداها ملك صيدا الفينيقى الى منلوس كان من صنع بعض آلهة الاغريق هفستس Hephaestus (أو فلكان)

فهذا الاله الاغريقى بعد طرده من الأولمب والتجائه الى ذيتيسس Thetis عمد الى صنع الكثير من الحلى والمشابك واللوالب والأزهار والقلائد . ولاشك في أن هذه الحلى كانت من الذهب وان كانت أسماء الأدوات التى ورد ذكرها انما تطلق على صناع البرونز . كذلك كانت الأدوات المعروفة عندنا بأنها أدوات صناع البرونز هى التى يذكرها صانع المعادن الذى وكل اليه « نسطور » Nestor تصفيح قرون بعض الثيران بالذهب . ويقوم هذا دليلا فيما يظهر على أن الصانع نفسه كان يشتغل في كلا المعدنين وكانت هذه المصنوعات من حيث البراعة الفنية في صناعة المعادن وفى نقش الفصوص بالغة غاية اتقان حتى توارثتهـا الأجيال عن العصر الميسينى جيلا بعد جيل الى الأزمنة المتأخرة في تاريخ اليونان ، ومن ثمة فلا غرابة في أن يرد ذكرها في الأشعار الهومرية .

ومن الأمثلة الصالحة على ما قدمناه مشبك أوديسيوس الذهبى فعلى هذا المشبك صورة حية لكلب من كلاب الصيد وقد أنشب مخالبه في ظبى قنيص يكافح ويتخبط — وهو الموضوع الذى يكثر وجوده على الفصوص والحلى الذهبية في العصر الميسينى والعصر الذى تلاه . بيد أن الأوصاف الواردة عن ترس أخيل تطالعنا بفن أوفى وأكثر اتقانا . والذى يتمثل في الأذهان عنها أنها مزينة بطريقة التكفيت بما أنزل فيها من مختلف المعادن كالبرونز والقصدير والفضة والذهب . ويروى لنا الرواة كيف كان الصناع يمثلون أخدود المحراث في الأرض على صفحة معادنهم وكيف كانت مزارع الكروم مصورة من ذهب والعناقيد سودا والدوالى على عمد من فضة ، وحول هذا جميعه خندق من الميناء الزرقاء يدور حوله سياج من قصدير . وهذه هى على وجه التحقيق أصول الصنعة التى نجدها على خناجر ميسينى برسومهـا المشجرة وما بين معـادن الترصيع من مباينة . ولعل هذه الصنعة الفنية قد عرفها هومر من الذخائر المتوارثة التى بقيت بعد أن زال كل الزوال أو بعضـه ما يقتضيه صنعها من البراعة الفنية ، ولعل هذه الذخائر هى التى أوحت للشاعر ما أتى به من أوصاف وان كان ولاشك قد أطلق لخياله العنان وتجاوز في أطنابه كل ما وقعت عليه عيناه .

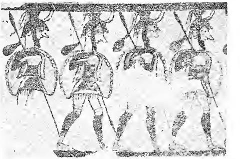
تراث الفن الميسينى

وأما المصـدر الآخر للمصنـوعات اليدوية وهى المستوردة من الأمم الأخرى فانه أقل شأنا بكثير من المصدر الأول . وقد جرى القول بأن للفينيقيين أثرا كبيرا على اليونان في عصر البطولة . ولقد كثرت الاشارة الى أنهم كانوا تجارا وصياد رقيق ولكن ما ينسب اليهم من طرائف الصنعة قليل . ومن أمثال ذلك القدح الفضى المقدم جائزة من أخيل والذى صنعـه الصناع الصيدونيون وأتى به من وراء البحار التجار الفينيقيون فقدموه الى ملك لمنوس Lemnos ثم الثياب الفاخرة المزركشة من صنع النساء الصيداويات وهى الثياب التى أحضرها باريس معه من صيدا الى طرواده .

بيد أنه لم يرد في أشعار هوميروس اشارة الى شتى المصنوعات ومعظمها أكواب معدنية — من طراز شرقى مولد وهى التى نشرها الفينيقيون خارج بلادهم من قبرص وكريت الى اتروريا Etruria وليس في الامكان ورود مثل هـذه الاشارة لأن هذه المصنوعات يرجع تاريخهـا في أغلب الأحوال الى القرن السابع قبل الميلاد أو ما بعد ذلك . ومصداق ذلك أن ترس أخيل كما ذكرنا آنفا لا يمكن توضيح أمره على الوجه الأمثل الا بوصف أنه أثر من آثار الصناعة الميسينية . أما القول بالتماس أشباه المناظر المنقوشة عليه في الأكواب الفينيقية فقول انما

كان يجوز ترديده قبل الوصول الى تحقيق التاريخ الذى نظمت فيه الأشعار الهومرية ٠

وكما أن النساء كن مشتغلات بالفنون المنزلية كالغزل والنسج فى عقر دورهن فكذلك كان العهد بالرجال فيما يظهر أن يشتغلوا ببعض الحرف اليدوية التى تستدعى البراعة والحذق فنرى أوديسيوس يصنع لنفسه سريرا بل يعدو ذلك فيتولى بناء مركب وحده لا يستعين فى بنائه بغيره ٠ ويؤثر أن أحد أبناء بريام قد أسر وهو يقطع عيدانا من شجرة تين بريه لينخذ منها قضبانا لعجلته ٠ ومما لاشك فيه أن بعض الحرف كالحدادة والدباغة كانت تحتاج الى



(الجنود الاغريق فى اسلحه العسكريه)

كانت تشمل عدة الجندى اليونانية القديمة الحربية ، كما هو واضح على زهرية المحارب ، الشهيرة ، خوذة مصعوطة ذات ترس وريشة ، ثم درعا مزرودة شديدة الالتحام تلبس فوق قميص طويلة ، ووقاء للساق الى أدنى الركبة ٠ أما ترسه فكان دائريا فيما عدا قطاعه الاسفل ، وكان المحارب يحمل حربه ٠

آلات خاصة ومكان خاص ٠ ولكن الدليل ضعيف او لا وجود له على قيام طبقة من الصناع المختصين وليس فى هوميروس اشـــارة الى النحت أو التصوير ٠ أما حملة المشاغل المصنوعة من ذهب والكلاب المصنوعة من ذهب وفضة فى قصر الكينوس وكذلك تماثيل جولدى الاله هيفستس Hephaestus (فلكن) الذهبية فانها كما لا يخفى أدخل فى باب السحر منها فى باب الفن ٠

ولابد أنه كان لصناع السلاح شأن عظيم فى عصور البطولة ، ويليهم فى بعض الأحوال المتخصصون من أبنـاء الصنعة ، وان كان من المحقق أن البطل أو أتباعه كانوا قادرين على اصلاح ما يطرأ على السلاح من خلل عادى ٠ وفى عصر البطولة الاغريقى كان طراز الأسلحة ومادة صنعها فى طور الانتقال ، فكان من جراء ذلك تناقض فى الاداء يرجع بعضه الى ما بقى من الأحوال القديمة كما يرجع الى اختلاف الطرز ٠ فالحديد مثلا معروف ومنه تتخذ شتى الأدوات وصلاته كانت قد جرت فى ذلك الحين مجرى الأمثـال ، ومع ذلك فأسلحتهم على اختلافها موصوفة بأنها من البرونز لا من الحديد ٠ بيد أنهم يصفون سحر الحديد بقولهم « الحديد يجذب اليه الناس » ٠ ويتضح من هذا أن المعدنين كانا ولاشك مستعملين على السواء فى مختلف الأغراض ٠

وكان أهم الأسلحة فى الهجوم الرمح والسيف والرمح سنانه من البرونز ويتخذ للرمى والطعن والسيف من البرونز كذلك ويتخذ للطعن أو القطع ٠ وأما غير ذلك من الأسلحة المعهودة عندهم فالقوس والسهم ، وقد كره اتخاذ الأبطال لهما مثل أوديسيوس نفسه فقد عمد اليهما لقتل طالبى يد زوجتـه ٠ وقد اشـتهر توكر Teucer بالرماية ، وجرح منلوس بسهم رماه بندارس Pandarus ٠ أما أهم أسلحة الدفاع فالخوذة والترس ٠ وكانت الخوذة فى العادة من البرونز ولها ذؤابة عالية من شـعر الخيل ، على أنهم يتخـذون فى بعض الأحيان خوذة من أدم، وبخاصة فى غارات الليل تفاديا من انعكاسات الضوء ٠

أما الترس فكان على نوعين ــ الترس الكبير ويحجب الجسم كله من العنق الى القدم ، وهو فى العادة اما مقوس على هيئة الأسطوانة أو مسطح ثم الترس الصغير المستدير وهو أقل وقاية ولكنه أخف وأسهل محملا ٠ وقد شاع النوع الصغير فى عصور اليونان المتأخرة وقد أشير الى فترة الانتقال بين هذين النوعين من التروس فى الملاحم الهومرية ولم تكن التروس المتخذة على غرار واحد بطبيعة الحال . وكان لكل رجل مطلق الاختيـار فى تقلد ما تعودته عشـيرته أو ما يلائم أسلوبه فى القتال ٠أما أغطية الأرجل وهى التى يتردد ذكرها عند الكلام عن خصائص الآخيين فان المقصود بها على الأرجح وقاية الكعبين من الكدمات حين اتخاذهم التروس الكبيرة ٠ بيد أن أغطية الأرجل أصبحت جزءا ملازما من شكة الدفاع فى عهد الترس الصغير المستدير ٠

وآراء العلماء مختلفة فى أمر الدرع أكانت من أسلحـة الدفاع فى العهد الذى يتحـدث عنه هوميروس أم لم تكن ٠ وتدل الكثير من أوصاف القتال بأجلى بيان على أنه لم يكن للمقاتل درع

تدفع عن جسده غير الترس ، الا أنه وردت في بعضهـا اشـارة الى الدرع ظاهرة الدلالة واضحة • وليس ثمة ما يوجب عدم الأخذ بهذه الاشارات بزعمها مدسوسة على الأصل في العهود المتأخرة • ولعل الذي يمكن أن يخلص من هذا أن لبس الدرع كان مسألة يرجع فيها الى الميل الشخصي كالحال في شكل الترس • فالبعض من المقاتلة كانوا يؤثرون التوقي السابغ بالدرع والبعض يؤثرون عليه حرية الحركة •

ولم يكن بين أبناء المدينة الواحدة أو جنود الفرقة الواحدة اتفاق في طراز السلاح • فقد كان رمح أخيل أثقل محملا من أن يستعمله غيره من الآخيين • ولما انتزع هكتور شكة أخيل عن بتروكلوس وكان يلبسها ، شكا أخيل من أنه لا يجد ترسا من السعة بالقدر الذي يناسبه غير ترس أياس Ajax وقد جاء في وصف هـذا الترس أنه كان كالبرج المشيد وهو متخذ من جلود ثيران سبعة ومصفح بالبرونز • وهذا وغيره من التروس كان يصنعها صناع مهرة في الجلود والمعادن معا • الا أنه يلاحظ في أمر الترس الجديد الذي صنعه هيفستوس Hephaestus لأخيل أنه لم يرد ذكر في مادة صنعه لغير المعدن ، اذ قيل عنه انه كان مكونا من خمس صفائح موحدة المركز بعضها فوق بعض ، لأن ذلك أصلح الأوضاع لتوزيع المساعد المنقوشة على الترس • وقد ورد أن أينياس أهوى على هذا الترس برمح « فنفذ في طبقتين وبقيت ثلاث ، فقد كان من خمس صفـائح اثنتين من برونز واثنتين من قصدير وواحدة من ذهب » • بيد أن هذا الترس كان من صنع أحد الآلهة وليس من الهين على قوة بشرية أن تنفذ فيه •

وهذه التروس الثقيلة لم تكن لها مقابض تمسكها الأيدي كالتروس في العصور المتأخرة بل كانت تناط الى الكتفين بحمائل تدع الذراعين مطلقتين عند الاقتضاء ، وكان في الامكان وضعها الى أحد عطفي المحارب أو وراء ظهره بحسب الحاجة — ونرى هذه الهيئة جليا في بدائع الفن الميسيني •

أما الطعام ولا سيما اللحم فلم يبد من اليونان في عصر البطولة شيء من الزهادة التي اشتهرت بها حتى اليوم الشـعوب القائمة على البحـر المتوسط والتي عرف بها اليونان في الأزمنـة التاريخية • ولابد اذن من أن يكون الآخيون قد أتوا معهم من أوطانهم الشمالية بعادة أكل الكثير من اللحم وهو أمر يناسب أجواء أبرد من جوهم الأخير •

فنراهم في عصر البطولة يذبحون الأفواج من الثيران أو الأغنام أو الخنازير في كل مناسبة وكان الضيوف في أكثر الأحيان يأتون عليها أكلا وان قل عددهم ولم تكن هذه العادة بين الأقيال وحدهم • فقد روى عن ايومايوس راعي الخنازير انه كان اذا أراد أن يأدب لغريب ذبح له خنزيرا بلغ من العمر خمس سنوات وفرقه جميعا بين زمرة قليلة من المدعوين وخص أكبر الضيوف بظهر الخنزير كله • كذلك احتفل أجاممنون بالبطل أياس على أثر مبارزته لهكتور فأولم وليمة اختص أياس فيها بالظهر أكمله من ثور عمره خمس سـنوات •

اللحم غذاء الانسان الرئيسي

وكان توزيع اللحم يجري هذا المجرى في جميع المناسبات • وليس يخفى ما كان سائدا في الأوهام من أن شهية الأبطال كانت مثل قوتهم تزيد على المعهود في الناس ، الا أن وصف طعام القوم مع ذلك يتفاوت في دلالته على عادة العصر •

وتلوح لنا الولائم الهومرية خالية من التنوع في الطعام وأنها كادت تكون مقصورة على اللحم ومن الجائز اشتمالها بطبيعة الحال على غير اللحم من الملحقات والحواشي مما لم ير الشاعر ضرورة لذكره ، الا أن الأوصاف المختلفة يؤكد بعضها بعضا • وكان الغالب أكله لحم البقر أو الخنازير أو الضأن • وكانوا في بعض الأحيان يأكلون لحم الماعز • وكثيرا ما يرد ذكر القطعان من هذه الأنواع من الحيوان جميعا في معرض الكلام عن مال رجل من الرجال • ولقد كان السمك يدخل أيضا في أصناف المأكولات عندهم وذلك في النادر القليل ، الا اذا لم يجد القوم خبزا منه وهم يختلفون في هذا اختلافا بينا عن المتأخرين من الأثينيين الذين كانوا يرون الترف في طعام السمك •

وكان المعتاد اشتغال الأبطال بالطرد والقنص وكان ما يصطادونه من ظباء والماعز الوحشي والخنازير والأرانب البرية يؤكل ولا ريب ، ولكن الظاهر أن القوم كانوا يؤثرون لحم الحيوانات المستأنسة • ويلاحظ أنهم كانوا يربون الأوز للهو والزينة ، ولم يؤثر عنهم أنهم كانوا يأكلون لحمها أو بيضها وكانوا يجهلون الدواجن • كما أنه لم يرد ذكر الخضر على أنهـا طعام الا الحبوب ، ومع أن الخضر كانت تزرع في بساتين الكينوس Alcinous وليرتيس Laertes بيد أن الأصل في نتاج هذه البساتين وقطافها هو الفاكهة من كمثرى وتفاح ورمان وتين • والمرجح أنهم كانوا يأكلون العنب أيضـا ولا يقتصرون على اتخاذ الخمر منه • وكانوا يزرعون البصل أيضا ويأكلونه مع الخمر • ولكن الذي تواترت الروايات عليه أن الحبوب من بين سائر ألوان الأطعمة هي التي كانت تقترن بأكل اللحم وبخاصة الشعير أو الحنطة سواء أكانت مذرورة على اللحم أو متخذة كعكا • وهنا

أيضا يختلف القوم عما أصبحوا عليه فى عهود اليونان التاريخية اذ أصبح الخبز مادة الطعام الأساسية وصارت أنواع اللحوم والخضر اداما له لا أكثر ٠

وكانت الخمر مشروب الاغريق العام فى عصر البطولة ، وكانت تمزج بالماء قبل شربها على الدوام تقريبا بنسب مختلفة ٠ وكان ثمة صنف من الخمر خاص بالغ الحد فى القوة حتى لقد كان يمزج عادة بعشرين ضعفا من حجمه ماء ٠ وقد أهدى هذا الصنف الى أودسيوس فأعطاه للسيكلوب پوليفيموس Polyphemus ليجرعه ، وسرعان ما غاب صواب السيكلوب حينما شربه صرفا ، وكان من الطبيعى أخذ امداد الحملات الحربية بمؤونة من الخمر ، الا أن الادمان لم يكد يكون معروفا تقريبا ٠

وقد كانت نوزيكا نفسها تأخذ معها زقا من الخمر حينما تخرج مع صويحباتها فى نزهة للاغتسال يوما بطوله ، وكان يومايوس Eumaeus راعى الخنازير يدخر فى كوخه خمرا يسقى الغرباء منها : ولم يذكر الماء قط على أنه شراب للنـاس الا اذا كان ممزوجا بالخمر ، لكن كاليبسو أعطت أودسيوس قربة كبيرة من الماء كما أعطته زقا من الخمر عندما أزمع رحلته الطويلة ٠ وربما بحث القائمون بالرحلات البرية أو الطوافات الساحلية عن مدد من الماء يلتمسونه من العيون القريبة ليمزجوا الخمر به ٠ وكانت الخمر تمزج بالشهد والتوابل ليحصلوا منها على كأس خاصة ٠

استعمال لبن الغنم والماعز

وقد كان لكل الأقاليم اليونانية تقريبا كرومها التى كانت تكون جزءا أساسيا من أى ضيعة ريفية وكانت بعض الضياع تنتج كميات أكثر أو أحسن مما تنتجه ضياع أخرى ويقال ان جيش الاغريق أمام طروادة قد استورد الخمر بكميات كبيرة من ترافيا ومن لمنوس ٠

واللبن هو المشروب الوحيد الآخر الذى ورد ذكره فى هوميروس ٠ وكان يشربه السكالبة الذين كان لديهم قطعان من الغنم والماعز : وربما كان الناس يشربونه أيضا ٠ ولم يكونوا يستعملون لبن البقر ٠ ولا يزال يعد هذا اللبن غير صحى فى البلاد اليونانية ٠ وكان لبن الغنم والماعز يستعمل خاصة فى صنع نوع من أنواع الجبن الذى كان اللون الشائع الوحيد من ألوان الطعام ، خلا الحبوب واللحم التى ورد ذكرها فى ملاحم هوميروس ٠ وكانت هذه القطعان ترعى فى التلال طول النهار ، ثم تحلب صباحا ومساء فى الحظائر التى كانت تأوى اليها فى أثناء الليل ، وكانت حراستها من الحيوانات المتوحشة ومن المغيرين ، من أهم واجبات أصحابها أو واجبات الرعاة ٠

ولدينا معلومات طيبة نسبيا عما كانوا يتخذون من استعدادات للولائم ٠ والطريقة التى كانوا يخدمونها بها ، وذلك فى أوصاف مختلفة أوردها هوميروس ٠ ولم يكن اللحم ليحنجز أو يؤخر قط قبل أكله بل كان يحضر الحيوان أو الحيوانات من الحجم المطلوب حية ثم تضحى حسب الطقوس المرعية فى مذبح عادة ، اذا تيسر وجوده ثم يقطع بعد ذلك اربا ، فتحرق بضع خاصة فوق المذبح ، ثم تنتظم بقية البضع الأخرى فى سفافيد وتترك فوق النار حتى تنضج ثم تقدم للضيوف ، وكانت شرائح كاملة تعطى لبعض الأفراد تشريفا لهم ٠

ولم يرد ذكر الطهاه أو غيرهم من الخدم فى أوصاف هذه العملية ٠ وكان الأبطال أنفسهم أو أتباعهم يصنعون كل شىء وكان أكبر الحاضرين مقاما يهيىء اللحم فى الغالب ٠ وكان كعك القمح أو الشعير الذى يصحب اللحم توزعه عادة على الأسر النبيلة خادمة خاصة أو مشرفة على تدبير المنزل ذات مركز كبير المسئولية ٠ وكان بتروكلس يتولى مثل هذه الوظيفة فى المعسكر بين أضياف أخيل ، وكانت الخمر تمزج بالماء فى آنية المزج المعدة لهذا الغرض وكان يديرها الندامى عادة تحت اشراف ملاحظ من الشمال الى اليمين ــ أو مع الشمس : كما هى العادة اليوم فى ادارة الشراب ٠

ولم تكن عادة الاضطجاع أثناء الأكل التى كانت عادة شائعة فى اليونان بعد اذ وضحت معالم تاريخها ، معروفة فى الأوقات الهوميرية كما ذكرنا ذلك قبل ٠ وكان الرجال يجلسون متحلقين فى بهو على مقاعد أو أرائك أمامهم موائد سهلة الحمل ٠

العادات الاجتماعية المرعية فى الولائم

وليس من الواضح تماما مدى مشاركة النساء فى هذه الولائم ولم تكن الظروف عادية فى المعسكر أمام طروادة، وفى بيت أودسيوس الذى اقتحمه العشاق ٠ الا أنه قد ورد أن الملكة أريته Arete كانت تجلس بجانب المدفأة عندما كان الفوقيون Phaeacian يولم لهم فى قصر زوجها ، وكانت هيلين ٠ بعد عودتها من طروادة ، تساعد منلوس Menelaus فى الحفل الذى أقامه للترحيب بتليماك Telemachus فى أسبرطه ٠ وكان يؤذن للأطفال كذلك بشهود تلك الولائم ، ولعلهم لم يكونوا يجلسون الى الموائد ، بل كانوا يعطون اللحم والأكارع ليطعموها والخمر ليشربوها ، ويبدو أنه لم يكن يهيأ لهم طعام بعينه ٠

والظاهر أن تمكن المحاربين من تضميد الجروح التى تصيبهم فى المعركة كان جزءا من تدريبهم ، الا أن ازدياد خبرتهم بالتطبيب ، وبالأعشاب الطبية خاصة ، كانت قاصرة على الجراحين ، خصوصا أبناء اسكيولابيوس Aasculapius ، الذين لم يأتوا لمزاولة مهنة التطبيب، بل أتوا ليكونوا فى صفوف المحاربين وكان المعتقد أن أبا هؤلاء قد تقف هذا الفن عن السنتور خيرون ، وقد أرسل فى طلب ماخاون Machaon ليعالج جرح منلوس ٠والغالب أن الجرحى من المحاربين سرعان ما كانوا يعودون الى حومة الوغى ، ولكن مما لاشك فيه أنهم كانوا يظنون أن الأبطال كانت لهم قدرة طبيعية خارقة على الشفاء ، يضاعفها غالبا اله ودود ٠

وكان مركز المرأة فى الحياة الاجتماعية فى عصر البطولة يباين أشد التباين مركزها فى عصور اليونان المتقدمة والمتأخرة ، ولاشك فى أن ملكات هوميروس النبيلات والرفيعات القدر كن أبعد كل البعدمن السيدات المتبرجات المتطريات فى بلاط مينوس ، ومن ربات الخدور المحجبات فى أثينا البيركليزية ، ومما يزيد فى أهمية تلك الملاحظة الدور الذى كانت النساء تلعبه فى قصتى هوميروس ، وذلك لأن موضوع الالياذه هو الحرب بوجه خاص ، ولأن موضوع الأوذيسة هو الأسفار ، وكلا الموضوعين من الموضوعات المقصورة على الرجال ٠

احترام النساء وتبجيل اليونانيين لهن

ولقد لاحظنا من قبل وجود النساء فى الصالونات وفى الأماكن العامة الأخرى فى البيوت أو القصور أثناء المآدب ٠ ولم يكن وجودهن من أجل ما يقمن به من الأعمال الخاصة المقصورة عليهن فحسب ، من مثل الغزل والنسج ، بل كن يحضرن المآدب أيضا ٠ وقد بذلت النصيحة لأودسيوس مرتين بالابتهال الى الملكة آريته خاصة ، اذ هى جالسة بجانب المدفأة حينما وفد الى قصر الكينوس متوسلا ، وكان سلطانها يفوق سلطان الملك نفسه ، ويعود اليها معظم الفضل فيما تزود به أودسيوس من هدايا وما قدم اليه من حرس يصحبه الى ايثاكا ، وكان الكينوس يجلها كما لم يكن أحد من الناس يجل واحدة من النساء ممن يدعن مقاليد بيوتهن اليوم رهن اشارة بعولتهن ، ولهذا تمتعت ، ولم تفتأ تتمتع بكل تقديس صادر من أعماق قلوب أطفالها الأعزاء ، ومن مولاها الكينوس ، ومن جميع الشعب الذى كان ينظر اليها نظرته الى احدى رباته ، ويحييها بعبارات الاحترام حينما كانت تجوس خلال المدينة ٠٠

أجل ٠٠ انها لم تكن تفتقر الى حسن الفهم قط ، وكانت اذا أولت بعطفها أحدا من الناس كف عن الخصام وان كان رجلا وفى الحق ، لقد كانت أريته احدى قريبات الكينوس ، وكانت تنتسب الى أسرة ملكية ٠

وقد لاحظنا من قبل تلك الحفاوة البالغة الأنيقة التى قوبلت بها هيلين فى أسپرطه ، ويبدو أنه كان أمرا عاديا أن ينيب الملك ملكته عنه فى ادارة شئونه اذا كان على سفر طويل يعاونها فى الغالب كاهن متقدم فى السن مستشارا لها ٠ وهكذا تركت كليمنسترا لتدبر شئون ميسينى حينما كان أجاممنون فى طروادة ، وجعل ايجيستوس نفسه سيدا على المملكة ، وذلك باغرائها بأن تأوى الى داره ٠ وكانت هيلين وارثة أبيها الذائع الصيت على عرش أسپرطه وكان منلوس انما يحكم بصفته زوج الملكة ٠ وكان يحدث فى أحوال أخرى ، كما فى حالتى پيلوپس وبللروفون أن يتزوج أحد الغرباء من ابنة الملك ٠ فيخلفه على الملك ليوطد ذلك من مركز الملكة وسلطانها الا أن النساء ، حتى النبيلات منهن ، لم يكن يستخففن بالواجبات المنزلية ، فلقد كن يشرفن على أعمال خدمهن وحشمهن ، وعلى الغزل والنسج فى أبهاء منازلهن ، بل كانت الأميرات أنفسهن يأخذن بنصيب فى جلب الماء من الينابيع ، وان يكن ذلك العمل أدخل فى اختصاص العبيد وغيرهم من الخدم٠وقد كانت نوزيكا ووصيفاتها يضطلعن بغسل ملابس الأسرة ، وكن يقصدن الى النبع لهذا الغرض ، وحينما لقيت أوديسيوس ، هذا النازح الغريب ، رثت من فورها لحاله وقدمت اليه الغذاء والكساء : الا أنها رأت من الفطنة أن تنبئه بألا يصطحبها فى عودتها الى المدينة ٠ بل أن يعود اليها فى آثارها وحده ، وذلك اتقاء للشبهات ، وقد آخذها أبوها لتقصيرها فى اكرام مثوى أوديسيوس وذلك لأنها لم تعد به فى صحبتها الى المنزل ، الا أن أوديسيوس دافع عنها بقوله انه الذى اقترح أن يعود هو بمفرده ويصور لنا هذا كله أحسن تصوير حرية المرأة وبراءتها مما ترمى به من الحياء الكاذب ٠ ولعله يقفنا على مركز المرأة فى عصر البطولة أكثر مما يقفنا على ذلك أى شىء ، غيره ٠

وليس ثمة مثال للمحبة بين الزوجين فى جميع الآداب أشجى وأقوى اثارة للعواطف من مثال هكتور وأندروماك ؛ وقد صار وفاء بنلوب لزوجها الغائب مضرب الأمثال ٠ ومما هو جدير بالملاحظة أنها تركت لتكون ربة بيتها المسيطرة عليه ٠ يعاونها فى ذلك ناصح مسن ٠ وان اقتحم العشاق أبوابها متطفلين،مما جعل وجودها فيه خلال النهار متعذرا ٠

ويقول هيرودتس فى فقرة كثيرا ما كان يستشهد بها بأن هوميروس وهسيود قد أنشآ لليونانيين شجرة بأنساب آلهتهم وهما اللذان أضفيا على الآلهة اليونانية ألقابها وخصصا لكل منهم مرتبته وعمله كما ميزا صورهم ، وهــذه رواية مبالغ فيها الى حد ما . فلقـــد كان من المستحيل على الشاعر أن يصف الآلهة وأفعالهم على هذا النحو مالم يكن سامعوه مؤمنين بوجودهم محيطين بصفاتهم الا أنه ربما كان من الصعب المبالغـة فى تأثير الملاحم الهوميرية فى عقائد الأجيال التالية وتصوراتها . وكان يونانيو عصر البطولة يبتدعون آلهة مشـابهة لهم ، ولعلهم ذهبوا فى ذلك الى حد أبعد مما ذهبت اليه من أية أمة أخرى فكان لهذه الآلهة مثل ما للناس من عواطف ، ولها مثل ما لهم من نواحى الضعف والمعايب ، وكانت لهم القدرة على محاباة فئة من الناس خاصة ، ومحاباة أفراد من الأبطال أو الاضطغان عليهم وربما جاز القول بأنهم كانوا لا يختلفون من الرجال أو النساء فى أى وجه من الوجوه الا من حيث أنهم فوق طبيعة البشر قوة وعرفانا فكانوا يصورون روح الحقد التى أظهرتها حيرا ضـد طروادة ، أو التى أبداها بوسيدون ضد أوديسيوس فيردونها الى استخفاف شخصى أو رغبة فى الانتقام .

الا أن سبب هذا الانتقام ، سواء أحل بفرد أو بأمة بأكملها ، هو فى الغالب اهمال طقس من الطقوس الدينية ، أو التعدى على بعض الامتيازات التى تمتاز بها الآلهة . ومن قبيل ذلك هذا الخنزير الكلدانى البرى الذى أرسلته أرتميس ليعيث فى الريف فسادا لأنها لم تتسلم نصيبها الذى تستحقه من قربان شعبى ومن هذا أيضا الطاعون الذى سلطه أبوللو على الاغريق والذى ورد ذكره فى أوائل الالياذة ، لأنهم لم يحترموا الالتماس الذى قدمه اليهم كاهنه . الاحترام الذى كان جديرا به . وعلى العكس من ذلك ، اذا قام الناس بجميع الطقوس الدينية المفروضة عليهم كان لهم على الآلهة حق الحماية والرعاية الخاصة ويعظم هذا الحق فى الغالب اذا قام العبـد لأحد الأرباب بصـلاة يلتمس بها معونته . وحينما يحرص أبوللو على الابرك جثمان رجل مثل هكتور بين يدى أخيل ليعبث به ، فانه يرد ذلك الى سبب خاص ، وهو أن هكتور قد كان مستمسكا دائما بتقديم قرابينه وأداء شعائر دينه فيوافق زيوس نفسه على هذا ويؤيده . والعلائق بين الآلهة وبين الناس مشابهة فى الحقيقة للعلائق بين الملوك الهوميريين وبين رعاياهم .

وثمة اعتبارات تستميل الآلهة غير ما ذكرنا فحينما تدافع أثينا عن أوديسيوس أمامهم ليأذنوا له بالعودة الى وطنه من جزيرة كاليبسو Calypso تراها تدلى ببرهانها على هذا النحو فلا تجعلوا منذ اليوم ملكا ذا سلطان يكون مفطورا على الرحمة ، لطيفـا من كل قلبه ، لا يعنيه أن يقيم ميزان القسط ، ولكن دعوه دائما يكون رجلا فظا غليظ القلب محبا للجور .

فها أنتم ترون كيف لا يذكر أحد أديسيوس الرفيع القدر الذى كان ملكا على قوم يعاملهم ألطف معاملة كأنه كان أبا لهم ، وهكذا يمكن أن نستنتج أن الآلهة لم تكن تحب أفعال التمرد بقطع النظر عن محاباتها لبعض الناس أو اضطغانها عليهم ، الا أنها كانت تمجد العدالة والفعال الحميدة . ومن المؤكد أن السبب فى صدق أثينا فى مساعدتها أوديسيوس وولده تليماك ورعايتها لهما كلما حزبهما أمر فى مغامراتهما هو ود محض وتقدير حقيقى لسجايا أوديسيوس ، ولم يكن مجرد جزاء على ما كان يقدم باسم الربة من هبات وقربات .

والظاهر أن مستوى الأخلاق المعزوة الى الآلهة كان دون المستوى الأخلاقى عند البشر بكثير ، وهكذا كان كل عبث بقدسية الزواج صادر عن شخصية مثل كليتمنسترا جريمة تؤدى الى نهاية مفجعة ، فى حين كان يعد مزاحا اذا صدر عن شخصية مثل أفروديت . أما مسئلة هيلين فمسئلة خاصة ، اذ كانت نصف ربة . ولذلك لم تكن شرائع بنى الموتى من البشر لتنطبق عليها انطباقا كليا ، ثم هى فى فرارها مع باريس لم تكن الا ألعوبة فى يدى أفروديت . ولهذا لم تكن مسئولة عن أفعالها ، وبعد عودتها الى أسپرطة ملكة وزوجة لبعلها كانت تشير اشارة خفيفة الى الزمن الذى تقول فيه بلسانها : ومن أجلى ، ان هذه المرأة التى لا حياء عندها ، أهرعتم أيها الآخيون الى طروادة بقلوب ثابتة تتشوف الى الحرب .

النواميس الأخلاقية للجنسين

وفى هذه الحالة لم تكن الشرائع الأخلاقية واحدة للرجال والنساء ، فلم يكن تعدد الزوجات معروفا أبدا ، الا فى حالة پريام الذى لم يكن ملكا يونانيا ، والظاهر أنه قد كان لأمهات عدة من أبنائه الخمسين مرتبة الزوجة الكاملة ، وان تكن هكيوبا هى المعترف لها بأنها الملكة ، الا أنه كان من المعتـاد كلما فتحت مدينة أن توزع نساؤها على المنتصرين ، وقد كان ما شجر من الخلاف بين أجاممنون وأخيل ، وهو الخلاف الذى يعد موضوع الالياذة الرئيسى ، بسبب اثنين من مثل هؤلاء السبايا . أما فى حالة بريسيز فقد وعدها پتروكلوس بأن أخيل ربما أخذها الى بلاده وجعلها زوجة له ، أما مسئلة أوديسيوس فمسئلة فريدة فى بابها ، لأنه لم يكن فى وسعه أن يغيب عن انتباه ربات مثل سيرس وكاليپسو ، ثم هو لم يرفض الزيجة فحسب ،

بل رفض الخلود أيضا ، وذلك ليعود أدراجه الى بنلوب ، زوجته الوفية ·

وكان الايمان بالآلهة من بعض الوجوه يضفى على الالتزامات الاجتماعية قداسة دينية · وكان هذا هو الشأن فى الايمان والعهود التى كان يصحبها دائما قربان يستنزل اللعنة على الذين ينقضونها · وهكذا كان قانونهم العام يرتكز على دعامة دينيــة · وكان واجب اكرام الضــيف ذا صبغة دينية أيضا · فعندما جاء أودسيوس ، متخفيا فى مزقة الى ايومايوس ، قال هذا له : (ياصديقى : ان الاستخفاف بأحد الغرباء هو عندى أمر من أمور المنكر ، حتى لو جاءنى رجل أدنى منك ، لأن الغرباء والشحاذين جميعا يأتون من عند زيوس) ·

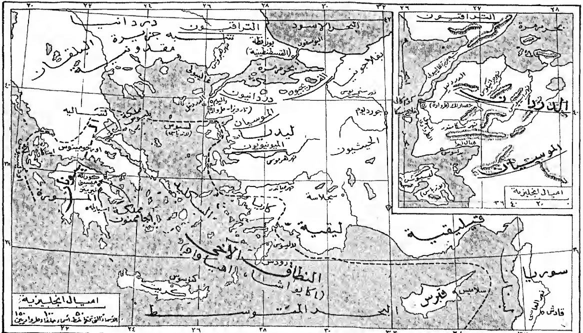
وثمة حالات كثيرة فى ملحمتى هوميروس عن وصول غرباء أو ضيوف الى بيت ما ، وكانوا يتفاوتون فى الاحتفاءباستقبالهم وكانوا يقدمون اليهم الطعام والشراب قبــل أن يسألوهم عمن يكونون أو عما أتوا من أجله · وأشهر أمثلة ذلك هو هذا الكرم العظيم والهبات الجمة التى أغدقها ألكينوس والفوقيــون على أودسيوس · حتى قبل أن يعرفوا من هو · بل ان أودسيوس يستميل پوليفموس الهمجى نفسه بهذه الكلمات : وانا لنسجد بين قدميك اذا أمكن أن تعطينا بعض ما يعطاه الغرباء · أو ان أنت أهديت الينــا ما هو حق للغرباء · كلا يا مولاى ! اعمل حسابا للآلهة ، لأنا ضارعون اليك ، وزيوس هو المنتقم للضــارعين والمغتربين ، زيوس رب الغريب . الذى يسير فى صحبة الغرباء الجديرين بالرعاية

والناس كافة ، من أى جنس أو أمة ميالون الى أن يستجيبوا فيما بينهم الى داعى الكرم الذى يقيم رابطة بين المضيف والضيف يتوارثها الأبناء عن الآباء ، مثال ذلك ما كان من أمر ديوميد وجلوكز اللذين حارب كل منهما أخاه فى ســاحة الوغى تلقــاء طروادة فى جيشــين متخاصمين ، ثم افترقا بعد أن تبادلا هدايا الصداقة، لأن جديهما كانا قد استضاف أحدهما الآخر · فصارت هذه الرابطة بينهما أدنى من القرابة وقد يكون من الصعب أن نغلو فى تقدير قيمة هذا النظام فيما له صلة بالعلائق الاجتماعية لا بين الأغارقة فى مختلف الأقاليم اليونانيــة فحسب · بل بينهم وبين سائر الناس فى الأمم الأخرى على أن مسئلة القومية لا تشغل حيزا ذا بال فى الملحمتين الهوميريتين · والظاهر أنهم قلما كانوا يميزون بــين اليونانى والأعجمى (أو الاجنبى) ، وهو هذا التمييز الذى تجلت آثاره فى اليونان فى عهدها المتأخر · ولا يلحظ أى فارق فى اللغة لا بين اليونانيين والطرواديين ولا بين مختلف الاناسى الذين زارهم أودسيوس ومنلوس فى أوبتهما الى أرض الوطن · وان كان ثمة فرق ما بين اليونانيين وبــين الطرواديين فى الامور الاخرى فهو فرق بسيط ، فآلهتهم نفسها واحدة · وقد كان أپوللو ، وهو على وجه التخصيص اله يونانى ككل الآلهة الاخرى، ينحاز الى جانب الطرواديين فى جميع المناسبات · وكانت الآلهة تكاد تكون منقسمة بالعدل بين الفريقين · بل كان زيوس نفسه ينحاز طورا الى هذا الفريق ، وطورا الى الفريق الآخر ، تبعا للظروف وكان الشاعر يقول صراحة عن أودسيوس « انه رأى الكثير من الناس فى مدائنهم وأخذ عنهم حكمتهم » · أما كيف عرف الشاعر . أو عرف سامعوه ، هؤلاء الناس الآخرين ، وكيف عرفوا بلادهم ، فمسئلة فيها نظر · ولعل المسيو برنار

معرفتهم المحــدودة بالعالم الخارجى

كان يرد معظمهــم الى أقاصيص البحــــارة الفينيقيين الا ان روايات كثيرة ربما ترد الى العهــد الذى كان فيــه الكريتيون سادة البحار · فبينما تدل الأبيات التى تشير الى بلاد اليونان الأصلية أو بلاد طروادة على معرفة تامة صحيحة بأنحاء هذه البلاد اذا بالأبيات التى تتناول ما وراء هذه الأقطار ، شرقا وغربا ، تصف عالما خياليا مليئا بالاغوال الغريبة والعجائب الاخرى ولهذا نرى أنه اذا أمكن الآن أن نقص أثر ابطال الملاحم اليونانية على خريطة فى حدود الصقع الايجى ، فان كل محاولة من سبيل ذلك لقص آثارهم فى تطوافهم فى تلك الاقطار الخارجية تؤدى الى اضطرابات ومناقضات مخيبة للرجاء، فالاغريق فى عصر البطولة يبرزون بروزا جليا · فى أكناف معروفة معرفة جيدة ، وسط أناسى وأماكن أسطورية · وقد حاول الكتاب المتأخرون فى كل من العصور القديمة والحديثة · ان يحددوا كثيرا من هؤلاء الناس ومن منازلهم ، الا أن محاولاتهم تلك لا تمدنا بعون كبير فيما اذا حاولنا استعادة المناظر التى كانت تدور فى خلد الشاعر ·

(يعبر منشىء هذا الفصل عن شكره للأستاذ سيمور صاحب كتاب الحياة فى العصر الهوميرى · وللأســتاذ أندرولانج صــاحب كتاب دنيــا هوميروس) ·



موقع طروادة المسيطر على الدردنيل وعلى مواقع أعدائها الجغرافية

يتبين هنا الموقف السياسي فى زمن الحرب الطروادية بقدر مايمكننا استخلاصه من أشعار هومر ، ومن المصادر المعاصرة لتلك الحرب ، كالوثائق المصرية والحيثية مثلا ، ومما وصل اليه المنقبون عن الآثار . والظاهر أن طروادة فدكانت مركزا لحلف شمالى يشمل سواحل آسية الصغرى ، ويمتد داخل أوروبا ، بينما لم يكن الآخيون يسيطرون على اليونان الأصلية وجزائر بحر ايجة فحسب ، بل كانوا يسيطرون على البحر كذلك ، (وهو الأمر الذى كان بلا شك عاملا حاسما فى هذه الحرب) وفى الزاوية اليمنى الشمالية رسم مكبر لتوضيح الأرباض المحيطة بطروادة .

طــروادة

منزلتها في الأدب والتاريخ

الأدوار الهامة التى لعبتها اثنتان من المدائن التسع
التى يعلو بعضها بعضا فوق « أكمة حصارلك » .

للاستاذ ا . ج . ب . ويس A. J. B. Wace

مدير مدرسه الآثار البريطانيه بأثينا سابقا ، والأمين المندب لمتحف فكتوريا والبرت — ومؤلف « تساليا قبل التاريخ » ، « حفائر مسينا » الخ .

لقد كان للبهــاء المنبعث من طروادة ، ومن تاريخها ، أعظم الأثر في أخيلة الناس ، كما كان لهوميروس ومشكلته أعظم الأثر فى ألبابهم . فلقد أثارت المشكله الهومريه والتراجم الكثيرة لقصة طروادة بين العلماء حربا كلاميه شعواء عدة أجيال . وقد احتفظ غير هومبروس من المؤلفين بهذه القصه كاملة أو بأجزاء منها متفرقة وقد ظلت هذه المشكله الهوميريه معضلة دائمة منذ أيام العلماء الاسكندريين ، بيد أنها لم تبلغ طورها الحاد الا فى القرن الثامن عشر ، وذلك بفضل نظريات ولف Wolf ، الذى ذهب الى أن الالياذة والأوديسه ، انما كانتا أمشاجا من « أغان سائبه » اندمجت كلها حتى انتهت الى هــذا الوضع من أوضاع الملاحم ، وذلك بعد انشائها بقرون طويلة . ولقد تراكمت حول هذا المبحث مقادير هائلة من الكتابة الأدبيه ، كثير منها لا غناء فيه . على أن السير آرثر ايفنز Sir Arthur Evans ، حين أثبت معــــرفه اليونانيين للكتابه قبل هوميروس بأحقاب عدة قد سـفه النظريات التى كانت تزعم استحـــالة تدوين الملاحم الهوميريه ، اذا صح أنها أنشئت فى القرن العاشر قبل الميلاد . وأبلغ من ذلك فى الأهميـــة ما كشفه شليمان من آثار طروادة الحقيقية ، وما قام به فى مسينا من الحفائر التى دحضت كل الأقوال المبنية على مجرد افتراض أن القصة كلها أسطورة من الأساطير .

اذن لم يعرف تاريخ أكمة حصارلك ، التى قامت فوقهــا طروادة ، الا فى أواخر القرن التـــاسع عشر ، وكان الاغريق أنفسهم يعدون كتابات هوميروس ، ثبتا شعريا للأحداث التى اندثر ما رواه التاريخ عنها . وقد اجتاح النقد الهوميرى الحديث ، لا سيما فى أوائل القرن التاسع عشر طائف من الشك الشديد ، أدى الى انكار هوميروس جمله ، واعتبار كتاباته مجرد أساطير شعريه . فلم يمتد طوفان التكذيب الى أحداث الحرب الطرواديه فحسب ، بل ضمت مدينة طروادة نفسها الى طائفة المدائن الأسطوريه ثم تبدلت الحال غير الحال فجأة . . . وتم هذا التبدل بفضل ايمان رجل واحد ، وبفضل تفكيره الثاقب . . . ذلك الرجل ، هو هنريخ شليمان Heinrich Schliemann فقد كان يؤمن بأن هوميروس قد وجد حقا ، وأن طروادة كانت يوما ما قائمة على عروشها ما فى ذلك شك . ولا سيما أن موضعها منذ الأدهار السحيقة ظل مذكورا غير منسى قط ، ولكن هذه الرواية المتواترة التى تبدأ بهوميروس ، وتظل على الأقل الى حكم جوليان المرتد Julian tne Apostate ، قد جحدها النقاد والنظريون وعدوها مجرد وهم وخيال . ثم جاء شليمان فظل ينقب بين عامى ١٨٧٠ — ١٨٩٠ فى أطلال حصارلك التى يتفق موضعها والموضع الذى ورد فى الأثر . فبرهن بأدلة ماديه من التحصينات والدور والأدوات المنزلية والمنقولات الأخرى أن طروادة لم تقم ثمة مرة واحدة فحسب بل قامت تسع مرات كاملة .

تحقيق الرواية القديمة

فلقد قامت فوق تلك الأكمة منذ أقدم أيام العصر البرونزى الى صميم العصر المسيحى حصون تســعة متعاقبة تمثل تاريخ حقبة من الزمان تنيف على ثلاثة آلاف من السنين . على أن الذى يهمنا أكثر من أمكنة طروادة التسعة المتعاقبة هذه، انما هى السنة الأولى فقط وان دراسة قصيرة لتدرج الناس فى استعمار ذلك الموضع ، لتضع بين أيدينا أدلة جديدة نعين بها المكان الذى كانت تشغله طروادة الهوميرية، فنتصل بذلك حلقات التاريخ الذى ينبغى أن

يدون من جديد ، على هدى من ربط المواد الأثريه المبعثره ·

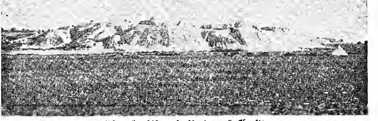
ان الدردنيل والبسفور كليهما يكونان نهرا يفصل أوربا من آسيا ، وقد تولد هذا النهر أول ما تولد فى الأزمنة الجيولوجية السحيقة حينما كانت القارات والبحار آخذة فى التكون على هون ويمكن عبور هذا النهر عند الطريق الضارب من البلقان الأعلى الى صميم آسيا الصغرى ، ذلك الطريق الذى وصف وقتا ما بأنه يمتد من برلين الى بغداد · ثم هو يكون طريقا بحريا يمكن أن تصل به المتاجر من البحر الأسـود والدانوب وأنهار جنوب روسيه المندفقة من أعماق القارة الأوربية ، الى بحر ايجه وشرقى البحر المتوسط وهما مهاد التجارة والثقافه من أقدم الأزمان ·

فهذه الاعتبارات الجغرافيه،وضرورات المخالطه الانسانيه ، تقتضى أن تقوم في كل حقبة من أحقاب الحضارة مدينة ما ، قوية عتيدة البنيان أما على البسفور ، واما على الدردنيل لتشرف على أمور التجـارة ، ومن ثمة تصبح مسـتقر الحكام الأقوياء· وليس يصح أن تقوم مثل هذه القلعة فى فجر الترقى الانسانى البطىء من ثقـافة العصر الحجرى الحديث الى ثقـافة العصر البرنزى ، بالرغم مما كان هناك من اتصال عبر المضيقين أو خلالهما ، بما تحفز الانسان اليه نفسه من المغامرة منذ الأزل · لذلك كان من المحتمل جدا أن يشهد فجر العصر البرنزى أول مقام الناس فى موضع طروداة التاريخى ·

قيمة البسـفور من النـاحية الفنية الحربية (الاستراتيجية)

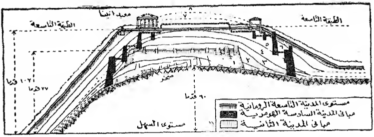
فاذا كان لدولة أن تقوم على شاطىء الدردنيل مع توافر هذه الظروف المسلم بها جدلا ، كان موضع حصارلك أوفى مكان لهذا الغرض ، وربما كانت شبه جزيرة غاليبولى أكثر تحصينا، الا أنه لا توجد وراءها أرض متاخمة تستمد منها ميزتها أما طروادة فعلى العكس من ذلك، اذ أنها موصولة الأسباب بغابات ابدا ومناجمها، وأودية سكمندر وغرانيقوس ، وأسيبوس ، والآكام الواطئة التى تؤتى حفافى المضيقين ، وهى الى هذا تواجه طريقين ضاربين فى هذه البلاد ، فهى تشرف على الطريق الموصل الى المضيقين مارا بكومكيل Kumkale ، وتطل من وراء التلال المنخفضة المحيطة بخليج بسيكا على بحر ايجه · ثم ان الدفاع عنها ميسور جدا من جهة البر لأنها فى أحد أركان شبه الجزيرة ، وهى أقل من غيرها تعرضا لسطو القرصان لأنها ليست واقعة على البحر مباشرة ، كما تكسبها المستنقعات الواقعة عند مصب سكمندر حماية طبيعية من الغزو من جهة البحر · فلو أن مدينة قامت على البسفور فى ذلك الوقت ، حينما كانت الطريق بين أوروبا وآسيا تعج بالقبائل المهاجرة باحثة عن أرض جديدة تغزوها ، أو قطر أقل تعرضا لوثبـات الأعداء ··· لتعرضت للخطر على الدوام ، ولمـا استطاعت الاحتفـاظ بمكانهـا الا لوقت قصير ··· لذلك كان الدردنيل فى الزمن القديم ، كما كان البسفور بعد اذ تقدمت فنون الحرب،وبعد اذ أصبحت الروابط السياسية أشد توثقا، المستقر الطبيعى للدولة التى تحرس المضيقين ·

ولم يكن من المستطاع أن نستغل مزايا هذه البيئة الطبيعية المناسبة على أتم الوجوه ما لم



منظر أكمة حصار لك ذات الذكريات الخالدة

لا يمتاز سهل طرواده بجماله الطبيعى ، فهو سهل كثير المستنقعات التى يأوى اليها بعوض الملاريا ، منحصر بين سلسلتين من التلال القاحلة · وأكمة حصار لك التى صورت هنا من ناحيتها الشمالية ، والتى تركزت فيها كل أهمية هذا السهل · هى جرف غير واضح المعالم تناولته اليوم يد الانسان بالحفر والتنقيب ، ممتد وسط السهل الغرينى عند التقاء واديى سكمندر وسيمويس وعلى بعد ثلاثة أميال من مصب الأول فى الدردنيل ·



رسم مقطعي لتوضيح مواقع حصارلك التسعة

كانت الأجيال المعاقبة من السكان الجدد تكاد تضـــاعف ارتفاع أكمة حصـــارلك ، وذلك بماكانت تقوم به من تسوية أنقاض المستعمرات السابقه ، وجلب مواد جديدة لمبانيهم الخاصة . ولم تكن هـــذه الأكمة فى أول أمرها سوى مرتفع صـخرى يعـلو فوق السهل بمقـدار ستين قدما تقريبا ، ويوضح هذا الرسم البيانى كيف كانت كل طبقة بعد الطبقة الأولى تحيط تقريبا بالطبقة التى تقدمتها ، وقد جرد الرومان الذين حـولوا القمة الى حى للمعـــابد جميع المساحة الوسطى للطبقة السادسة الهامة مما كان بها من المبانى .

يكن أهل طرواده وما حولها شعبا ذكيا قويا . واذا لم يدل أمورهم قاده ممتازون من أساطين السياسه ، وأشاوسه الحرب .... لذهبت كاباتهم أباديد، وعلى هذا، فقد كان الطرواديون حكماء بالنسبه لزمانهم ، بعيدى النظر حينما اختاروا حصارلك حصنا حصينا لهم . انهم فلما

خلال السلالة الطروادية

كانوا يحلمون بأن قلعتهم سوف تصل الى هذا الحد من المنعة والثراء، بل انهم فلما دار بخلدهم أن تكون قلعتهم كلمة الخلود المدوية فى أسماع الأحقاب المستقبلة . أو أنها لن تدين بشهرتها لثرائها أو قوتها..بل..لموسيقا أعظم الشعراء الأوائل الخالده ... المنشد الاعمى من جزيرة سكيو الصخرية وبناء على ذلك ، فنحن حينما نتناول مسئلة « أهمية طرواده » انما نبدؤها بقاعده مقررة هى المزايا الطبيعية الجغرافية وغير الجغرافيه التى نعود عليها من قيامها فى موضع حصارلك ... ثم يلى ذلك افتراض أن يكون محتلو هذا الموقع بالضرورة ، شعبا راقيا ذكيا فى وسعه أن يدرك مزايا موقع بلاده وينتفع بها ، ولا مناحه فى أن تكون النتيجة الحتمية لهذا الافتراض هى أن تفود ذلك الشعب سلسلة من الحكام ، ملوكا بطبيعتهم ، ذوى حيلة وتدبير وكد ، فى زمن السلم وفى زمن الحرب على السواء ، وبعد، فهاهم أولاء قوم فياضون بالحياة تجار ومقاتلة تسوسهم أسرة أوتيت حظها من البأس وتوقد الذهن ، تهيمن على حصن قوى يتحكم فى طريقين رئيســـيين من طرق الشرق الأدنى .

لقد كان من غير المحتمل ، ابان الحضـــارة الأولى فى البحر المتوسط،أن تنهض دوله ما ، فتتحـــدى السلطـــان الطروادى فى البلاد الواقعة حول البحر الأسود ، أو فى أى مكان يمتد اليه هذا السلطان ، الذى نستطيع ادراك مداه على خير وجه من ثبت أحلاف بريام الملك الوارد ذكره فى الياذة هوميروس ... أولئك الأحلاف الذين تمتد أملاكهم من « لوكيا » فى أقصى الجنوب ، الى بافلاجونيا على الأقل فى الشمال ، بما يقع بينهما من الأقطار التى تتاخم البحر . غربى آسيا الصغرى ، كما كان حلفاء بريام على الشاطىء الأوربى ، يشملون قبائل تراقيا ، الضاربين على الشاطىء الشمالى لبحر ايجه ، حتى نهر احزيوس فى مقدونيا . ولقد كانت تراقيا الشمالية ، كما كانت كل بلدان البحر الأسود عامة ، أقاليم (منبربرة) لا يخشى أن تنازع طرواده سلطانها منازعه ذات بال ، ذاك ، مع ما كانت تفيده طروادة من تجاره تلك الأقاليم . على أن قبائل ذات بأس شديد فى هذه الأقاليم نفسها ، كانت حريه بالانتقاض بين الفينة والفينة ، وكثيرا ما كانت تنقض على شبه جزيرة البلقان ، أو تعبر المضيقين الى آسيا الصغرى ، أو الى ما هو أقصى من ذلك مما يلى بحر الخزر،طمعا فى مغانم ينتزعونها من جيرانهم فى الجنوب واستغلال لضعفهم . فمن هـــذه الأصقاع المظلمة وثب السمريون Cimmerians الذين اجتاحوا ليديا ، والأسكوذيون Scyths الذين عصفوا بقورش الأكبر ، ثم الغالة الذين دوخوا مقدونيا،والذين لم يكبح جماحهم الا عند ترموبيل

أما أهل فريجيا Phrygians وذوو قرباهم الذين يكونون الشطر الأكبر من أحلاف بريام

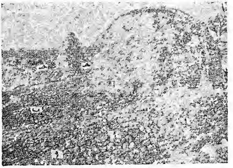
على الجانب الأسيوى ، فكانوا قبيلة من ترافيا انسلخت من قومها فى أوربا ، ثم تجولت عبر الدردنيل الى صقع فى آسيا الصغرى أعدل مناخا وأخصب تربة ٠٠٠ ولابد من عودة الى هذه النقطه عندما نبحث أحوال الطرواديين الذين عاشوا فى طروادة هومبروس ٠

لقد كانت طرواده ، صاحبة السيادة المطلقة فى الطرف الشمالى من بحر ايجه ، كما كان لها نفوذ قوى فى البلاد الممتدة من البحر الأسود جنوبا الى شاطىء آسيا الصغرى الغربى ، وذلك لوقوعها فى ملتقى الطريقين العظيمين الممتدين من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب، وقد كان موقعها من المنعة بحيث لا يستطيع أن يقوم فى الاقليم الشمالى الذى تبسط عليه سلطانها من ينافسها فيه ٠ أما اذا قامت جنوبى بحر ايجه دوله طموح ذات بأس وثراء فلم يكن بد من اصطدام الدولتين ٠ وذلك هو الذى حدث آخر الأمر ، ففى مطلع العصر البرنزى . كانت طروادة تدعم مركزها بالتدريج ، عند المنفذ الشمالى لبحر الأرخبيل ، وتدل على نهضتها أطلال « المدائن » الخمس الأولى فى حصارلك وفى ذلك الوقت نفسه كانت كريت الرابضه جنوبى الأرخبيل ، قد أصبحت دولة جزرية ، يسوس أهلها ، المهره فى الفنون والصناعات ، طائفه من أقدر الأمراء ، تعترض مدخل بحر ايجه من الجنوب ، ولم يكن ميسورا أن يكون ثمه شىء من التنافس بين طرواده وبين كنوسوس ، فى تباشير العصر البرنزى ، أولا ، لأن كلا منهما كانت تنشر سلطانها على مهل ، وثانيا ، لأنه عندما كانت كريت قد بلغت ذروة حضارتها الأولى،كانت طروادة تقاسى عقابيل نكسة شديده من أثر التخريب الذى أصاب مدينتها الثانيه ٠ ولم تستعد مكانتها الا بعد أن قامت على انقاضها ثلاث مدن أخرى ٠

وكذلك كانت كريت تطل على مصر من الجنوب لا من الشمال ٠ ومع أنها كانت على اتصال بجزائر السيكليد Cyclades وبجنوب آسيا الصغرى الغربى ، فالظاهر أن تأثيرها على

عزلة كريت الرائعة

اليونان الأصلية كان طفيفا فى هذا الحين٠وبالرغم من تقدمها السريع فى مضمار الحضارة ، وما لأهلها من مواهب فنيه ، فيبدو أنها كانت تؤثر العزله عن العالم الخارجى ، منصرفة الى نفسها عما عداها من الأمم . هذا اذا استثنينا علاقاتها بمصر ٠ فقلما كانت ترغب فى نشر حضارتها فى اليونان



أطلال لم تنطمر من طروادة الثانية

يوجد هنا ، على جانب حصار لك الجنوبى ،جزء من طرواده الثانيه (ا) وعند ب جزء من سور واه من عهد الفترة الأولى ، ويشير ج الى أساس القصر فضلا عن الكومه الهرمية من الرواسب التى نرى كذلك فى الصورة التاليه ٠

بل قلما أبدت استعدادها لذلك ٠ ثم تغير كل شىء فى مستهل القرن السادس عشر (ق ٠ م) لأن عاملا جديدا،لا يمكن تحديده بالضبط كان قد دخل أرض اليونان فى أوائل الألف السنة الثانية (٢٠٠٠ ق ٠ م) ٠ ولقد كان هذا العامل سريعا وفعالا ، اذ أنه بمجرد اتصاله بكريت ، راح يرتشف الثقافه المينيوية بسرعة تثير الدهش ٠ ثم أخذ الانحلال يعتور كريت رويدا رويدا ، وذلك عندما ضعفت الأسرة الثامنة عشره المصريه هى الأخرى تحت حكم الأماتبة (جمع أمنحتب) المتأخرين ، حتى اذا كان عام ١٤٠٠ (ق ٠ م) سقطت كنوسوس وذهبت حضارتها أباديد ٠

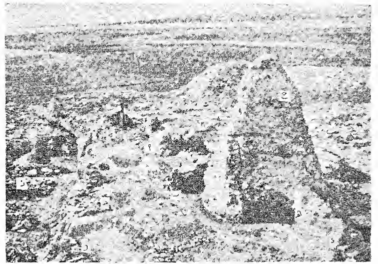
ولقد ورثت القوة الجديده الناشئه فى اليونان الأصلية تراث كريت،وسرعان ما امتد سلطانها بفضل أمراء ميسينى ٠ وقد نشروا ، هم وسائر الأمراء الذين دانوا لسلطانهم، الحضارة المينيويه التى أكسبوها الطابع الميسينى ، شرقى البحر المتوسط ٠ ولأول مرة نرى أنهم يولون وجوههم نحو الشمال ، شطر تساليا وشواطىء مقدونيا وهكذا مهدوا للحرب الطروادية ، وهى المرحله الأولى فى الصراع التاريخى الطويل بين أوربا وآسيا ٠

أما أقدم أمكنه طرواده فكان قلعه صغيرة متواضعه ، يحميها على ما يظهر سور دائرى يحيط بمنازل صغيرة قائمة الزوايا ، شيدت جدرانها باللبن ، على أسس من حجارة صغار ٠ وكان أهلها يستعملون الأسلحة الحجرية ، وآنيه الفخار المصقولة يصنعونها بأيديهم ، ويطلونها بالسواد ، ويزخرفونها أحيانا برسوم بسيطة

باللون الأبيض · ونستطيع أن ندرك من أشكال آنيتهم أنهم كانوا يحيون على هامش العصر البرنزي · ولو أن من المشكوك فيه أنهم عرفوا البرنز أو أي معدن آخر · وعلى هذا يكون في الامكان أن نحدد التاريخ الذي أنشئت فيه طروادة الأولى ، بمطالع الألف الثالث قبل ميلاد المسيح (٣٠٠٠ ق · م) · ولقد ساروا قدما في مدارج الارتقاء الاجتماعي ، وعنوا في منازلهم بالحيوانات المستأنسة ، كالغنم والماشية والماعز والخنازير ، كما كانوا يعرفون صيد الأسماك ·

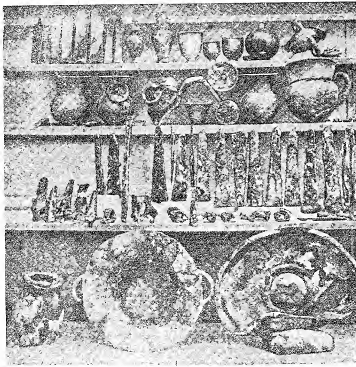
هذا ، وقد أقيم في مكان الحصن الهزيل الأول، قلعة عظيمة ذات خطر · · وان لم يجمل بعد أن نسمي مدينة ، اذ لم يكن قطر رقعتها يزيد كثيرا على مائة من الياردات · أي أن مساحتها كانت تقرب من فدانين ونصف الفدان وعلى هذا فخليق أن ندعوها قصرا ، أو معقلا حصينا يقيم فيه الأمير مع الصفوة من ضباطه ، بينما يقيم عامة السكان خارجه ، وان جاز أن يجتمعوا داخله ليحتموا به كلهم ·

أما طروادة الثانية هذه فقد شيد حولها سور من الحجر كان عرضه عشرة أقدام على الأقل ، وارتفاعه مثلها ، وربما كان بأعلاه سياج من الطوب النيء · أما التحصينات فكانت ذوات أبراج ، وبها بوابتان رئيسيتان ، مرصوفتان ومنقوشتان نقشا جيدا ، وكان يصعد اليهما بحدور · أما البوابة الرئيسية ــ الجنوبية ــ فكانت مسقوفة . وتؤدي الى الطابق الأرضي لبرج الزاوية العظيم ، ومنه البناء الرئيسي مباشرة ، وهو البناء الذي يحتل وسط القلعة ، ويؤلف قصر الحاكم . وكان للفناء مدخل معروش يؤدي الى مسكن رئيسي ذي مدفأ في وسطه · وكان بناؤه من اللبن المقوى بأعواد الخشب ورباطات مستعرضة ، قائمة جميعا على أسس من الحجارة ولا غرو أن بقايا الأبنية ، بل بقايا السور نفسه قد تبدو هزيلة قليلة ، الا أننا حين نضع نصب أعيننا تلك الأدهار السحيقة ، وأدركنا أن تلك الأطلال ترمز الى رقي عظيم في سلم الحضارة ، وذلك لأن تصميم مثل هذه التحصينات وتلكم المنازل وتشييدها يتطلبان مهارة فائقة لا تتأتى الا من تجارب سنين طويلة ·



قصر مبني من الطوب لأمير من قبل هومر

كان ثاني قصور طروادة يتألف بخاصة من بهو عظيم يبلغ عرضه خمسا وثلاثين قدما وطوله خمسا وستين ، وكان موقعه تقريبا في وسط باحة مسورة · ويمكننا أن نرى جزءا من سوره الشرقي عند ا ؛ ونشير ب ، ج الى موضع السور ذي الباب الذي كان يفصل القصر من الرواق الذي تبدو جدرانه المبنية من اللبن المجفف في الشمس على قاعدة حجرية عند هـ ، و ؛ وقد ضحي بنصف أساس القصر (أنظر ص ١٣٢) في عمليات التنقيب المشار اليها عند ز ؛ أما ح فمكان لم ينقب فيه بعد ·

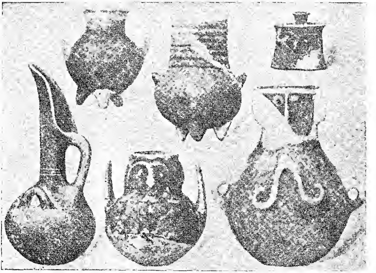


كنوز من الذهب والبرنز من مستودع ظل مخبوء زمنا طويلا

لقد برز أهالى طروادة الثانية تبريزا خاصا فى صناعة المعادن ، وكان كثير من هذه المصنوعات ، ولا سيما المدعو كنزبريام ، مخبوء فى بنية الأسوار ، وبهذا نجا من أن تقع عليه أعين الذين هدموا القلعة وظل كذلك حتى اكتشفه شليمان الذى ظن خطأ أن الطبقة الثانية كانت هى طروادة الهومرية . ونرى فوق هذا الكلام الكؤوس الذهبية والخناجر البرنزية الكبيرة التى عثر عليها فى هذا المستودع ، مع طائفة أخرى من الخناجر التى تكاد تكون غير معروفة الأصل .

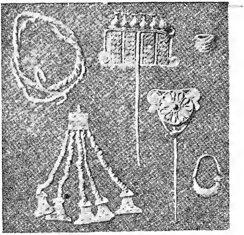
وآية ترقى شعب طروادة الثانية من ناحيتيه الاجتماعية والمادية هى آثار السلع التى عثر عليها فى دمن مساكنهم . ويرجع بعض الفضل فى بقاء الكثير من آثار هذا الحصن ، الى النار التى دمرته . والتى ربما أشعلتها أيدى الأعداء . فقد حالت تلك النار بين أولئك الأعداء وبين انتهاب ما فى الحصن انتهابا تاما . وفضلا عن ذلك . فمراحل الترقى الثلاث التى قطعتها هذه المدينة تدل على حياة متصلة دامت عدة أجيال ، لأن مساحة رقعتها قد زيدت مرتين على الأقل ، ولأن منازلها قد أعيد بناؤها مرتين أيضا ، على مقياس أكبر . وهكذا تنطق الأطلال بما ظفر به أهلها وصاحب الأمر فيها من رخاء متزايد طويل ، يشهد به أيضا تلك الثروة المعدنية الطائلة التى كانوا يملكونها ، فقد عثر ثمة على ما لا يقل عن سبعة عشر كنزا من الذهب والفضة والبرنز وأشياء ثمينة أخرى ، كما عثر على كؤوس وآنية من ذهب ومن فضة . وأكاليل وحلقان وأنواط وحلى ذهبية أخرى ، وخناجر من البرنز ورؤوس بلط ... بينما احتوت غير ذلك أحرازا من اليشب واللازورد والبلور والعقيق . ولقد كانوا عباقرة فى صناعة المعادن . بيد أنهم لم يجيدوا صناعة الخزف ، وعلة ذلك أنهم لم يأخذوا فى استعمال دوارة الفخار الا بعد ردح من الزمن فى ذاك العصر . على أنهم حاولوا أن يقلدوا بأبدع آنيتهم فى ذاك العهد الخلق

الانسانى ، فجعلوا لها بطونا مستكرشة مستديرة ، وأوجها كأوجه البوم ، وأذرعا فى هيئة القرون ، وعلى كل قمة مجموعة كبيرة من الأنماط ، يستلفت النظر منها تلك الأباريق ذوات الميازيب الطويلة ، المصنوعة فى هيئة اليقطين، ثم تلك الكؤوس ذوات المقبضين، وهذه المواعين ذوات الأرجل الثلاث التى ربما كانت تصنع لأغراض الطهى . من أجل ذلك . وجب ألا نستهين بهذه الآنية ، فنجافى بينها وبين آنية المتمدينين لمجرد خشونة مظهرها ، اذ أنه كثيرا ما يحدث ألا يجارى التفوق فى الصناعات المعدنية ، صناعة خزفية قيمة أو حتى متقنة . والعكس . والثابت هو أن الطرواديين قد برعوا أيما براعة فى الصناعة المعدنية — واذا جاز أن نحكم على هدى من قوالب صب البرنز التى اكتشفت حديثا ، فانها تثبت أنهم كانوا خبراء فى حفر الأرض للبحث عن المعادن ، واستخلاصها بأنفسهم . ومن المحتمل أنهم جابوا مناجم ابدا التى كانت مصدرا من مصادر الثروة ، لا سيما فى الفضة ، كما كانت مصدرا من مصادر القوة وذلك لما تفتقر اليه القوة من الأسلحة الفتاكة — وصناعة الذهب عندهم وما يتصل بها من لولبيات وما تدل عليه من احساس فنى دقيق ، لا تفوقها نظائرها مما كان شائعا منها فى ذلك الوقت فى البلاد الايجية ، وتوحى هذه الحلى اللولبية بوجود صلة بين هذه البلاد وبين ثقافة بلاد السيكليد . وثمة روابط أوثق من هذه تدل عليها مدقات من الحجر والبرنز ، فمن هذه نوع من الحجر الأخضر ، أحكم نحته ، وأبدع صقله ، حتى لقد كان يبدو كأن به عقدا بلورية فى مقابضه ، ولعله كان يتخذ اما شعارا واما سلاحا ملكيا — والزخرف والشكل يترجمان عن وشائج القربى التى بينهم وبين شعوب الدانوب . وقد وجدت فعلا بعض الأنماط التى تشبه أنماطهم فى رومانيا . أما آنيتهم الخزفية ، فمبلغ ما عندنا من المعلومات عنها فى الوقت الحاضر ، أنها كانت ذات صلة بآنية آسيا الصغرى الغربية فى العصور الأولى ، ولنا أن



نماذج فخارية خاصة من طروادة الثانية

فوق ، من اليسار الى اليمين : زهرية ذات أرجل ثلاث ، وميازيب على الجوانب ، وثقوب عند الحافة حيث تعلق بالحبال ؛ زهرية ذات أرجل ثلاث وعنق محزز وميازيب جانبية وقد ثقبت لتعلق بالحبال؛ غطاء زخرف برأس يشبه رأس البومة قصد به أن يحاكى وجه الانسان . تحت ، من اليسار الى اليمين : ابريق زجاجى أحمر دقيق دقة متناهية ذو عنق طويل وثلاث أيد ؛ زهرية زجاجية حمراء فخمة أيضا تحاكى الوجه الانسانى بذراعين مرفوعتين تقومان مقام اليدين ؛ زهرية لعلها تحاكى امرأة اذ أشير الى النهد بشعار يشبه الراء اليونانية المثلوغة .



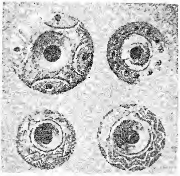
نماذج مزركشة من الحلى الطروادية

كان من بين الحلى الشخصية من عهد طروادة الثانية أساور من محواة من ذهب ذات أطراف منثنية أيضا (الى اليسار) ودبابيس برؤوس ذات اطارات مصورة عاينها زهريات دقيقة ، ودبابيس أخرى ذات رؤوس لولبية ؛ وخواتيم ثعبانية (فى أعلى اليمين) ؛ وحلقان ذات سلاسل مثناة ودلايات ، وبعض الجلاجل التى تحدث رنينا ٠

نستنتج من هذا أن سكان طروادة الثانية كانت تربطهم وشائج القربى بسكان آسيا الصغرى الغربية الغابرين أيا كانوا ، وأنه كانت لهم تجارة واسعة فى الوقت نفسه مع الشعوب الضاربة على الجانب الأوربى ٠ وتشير قطع اليشب واللازورد الى روابط تجارية مع أواسط آسيا ربما كان سبيلها الطريق الواصلة من بحر الخزر وقفقاسيا ولا يكاد يوجد شك فى أن هذه الروابط كانت غير مباشرة وقد ظلت طروادة الثانية أجيالا عدة ذات رخاء وسطوة اذا حكمنا عليها بموازين ذلك الوقت ، ولو أننا لانستطيع أن نجزم ، حتى تتم استكشافات أكثر فى الأقاليم المجاورة ، هل كانت قد فرضت سلطانها على جيرانها المباشرين ، أو أنها كانت مجرد عضو من أقوى الأعضاء فى حلف كبير ٠ ومهما يكن من أمر فلا بد أن يكون تأثيرها قد انتشر فى البلاد الممتدة ، من الدانوب الى صميم آسيا الصغرى ، ومن الأصقاع الايجية الى جزيرة قبرص ٠ ولا جرم أن مهارة سكانها فى صناعة المعادن وتعليم الناس استخراجها وسبكها قد أثرت فى مجرى المدنية كله فى البلقان وفى آسيا الصغرى.فأقل ما يقال عن طروادة الثانية أنها كانت خير سلف لطروادة السادسة التى خلدت اسمها على وجه الزمان ٠

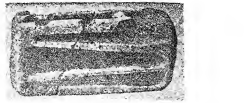
أما متى سقط هذا المعقل ، فلسنا ندرى على وجه التحقيق ، وأما تدميره فيبدو أنه حدث فى أول الألف الثانى قبل الميلاد (٢٠٠٠ ق٠م) هذا ، وقد ترك مكانه يبابا شطرا من الزمان ، ثم قام فيه محلتان ليس بخلق أن نسمى احداهما معقلا فضلا عن أن نسميها مدينة ٠ ويلوح أنهما كانتا قريتين عبر محميتين ، ويسكنهما الفلاحون والرعاة ، أما أطلالهما فقليلة ، وهى توحى بفترة الانحطاط الطويل الذى أصاب طروادة الثانية ٠

ثم تدب الحياة من جديد بقيام طروادة الخامسة ، فها هو ذا سور مشيد يشعر على نحو ما بما سوف يكون عليه سور طروادة السادسة من فخامة وضخامة ، ثم ها هو ذا قد احتل مساحة أكبر من المساحة التى كان يحتلها سور طروادة الثانية ٠ ولسنا نعرف من شاد هذا المعقل ، اللهم الا ما تدل عليه مبانيهم وآنيتهم الخزفية من أنهم يمتون الى أحلافهم ، أهل طروادة السادسة أكثر مما ينتمون الى أسلافهم القدماء ٠ وثمة أمارات تدل على قيام نهضة ما يوحى من عصر جديد ٠ وهنا لابد لنا من وقفة نقطع بها قصة هذه المعاقل المتعاقبة ، لنرى ما هذا



رؤوس مغازل قديمة

حفلت الطبقة الثانية من طروادة بعدد عظيم من رؤوس المغازل المصنوعة من الصلصال مزخرفة برسوم كثيرة ـ دوائر وأنصاف دوائر ، ومخاريط مزدوجة (هذا هو أكثر الأشكال شيوعا) ، وحلقان وأسطوانات وأقراص ٠



قوالب الصب قبل العصر الهومرى

يدل ما اكتشف من قوالب صب البرنز فى طروادة الثانية على أن أهلها كانوا خبيرين بصناعة المعادن ، وكانت هذه قوالب فجة تشكل ناحيــه فقط من الشيء المصبوب ، أما الناحية الأخرى فكانت تصنع باليد .

الشعب الجديد الذى استطاع أن يوطد أقدامه فى ذلك العصر ، فى هـــذا الركن من أركان آسيا الصغرى .

قد استمد حلف بريام قواه ، على ما ورد فى الياذة هوميروس ، من أهل آسيا الصغرى ، لكنه مع ذلك كان يشمل أهل تراقيا من الجانب الأوربى ، بينما برز فى صفوف الأحلاف جيش الفريجيين بقيـــادة فورســـز وأسكانيوس . وعلى هذا تكون هجرة الفريجيين وأهل تراقيا ، الذين يخبرنا هيرودوتس بأنهم من أصل واحد ، قد بدأت قبل حرب طروادة ، ولو أن سترابون يقرر أنها انما حدثت بعدها وفيما خلا هذا . فليس لدينا أى أثر يونانى عن تكوين المملكة الفريجية ، التى يبدو أنها ازدهرت فى آســـيا الصغرى بين سقوط الحيثيين وبين قيام ليديا ... أى بين عامى ١٢٠٠ . ٨٠٠ ق . م .



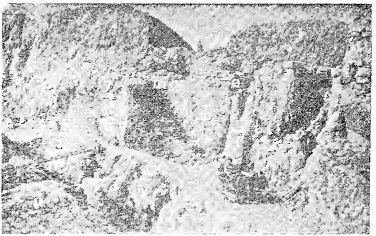
تمثال ربة مصنوع من الرصاص

من الأشياء المعدنية المشهورة التى عثر عليهـا فى الطبقـة الثانية من مدينـة طروادة هذا الشكل البارز العارى لصنم أنثوى مصنوع من الرصاص .

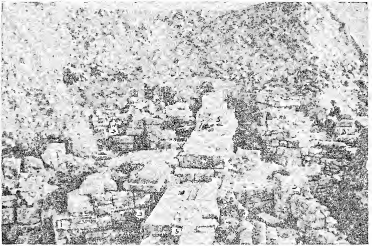
فاذا كان اعادة انشـــاء الدولة الطروادية الذى تم مع بنـاء المحلة الخامسة ناشئا عن وصول عنصر جديد اذن . يكون ثمة سبب معقول يؤيد ربطه بهجرة التراقيين ــ الفريجيين عبر الدردنيل الى آســـيا ، وعلى هـــذا تتفق هـــذه الهجرة التى حدثت قبل الحرب الطروادية ، وازدياد ضعف الامبراطورية الحيثية ، التى يظهر أنها كانت فى أوج عزتها تهيمن على شطئان آسيا الصغرى الغربية ، ولو بطريق غير مباشر . فلما وهنت تلك القوة السائدة ، شجع وهنها تدفق الفريجيين

وقد كشفت فى بوغاز كوى نصوص حيثية حلت رموزها أخيرا تشير الى حوادث وقعت فى أواخر القرن الثالث عشر ، وقد ورد فيها ذكر دولة سميت طاروارة . لا يبعد أن تكون هى طروادة نفسها . وتدل الشواهد المستمدة من علم الآثار على أن طروادة فى ذلك العصر كانت قد استعادت قوتها وثروتها ... ولهذا ، فلا حق لنا فى عدم الأخذ بالسند الحيثى .

ولا يمكن بالطبع أن تحدد تاريخ الهجرة التراقية ــ الفريجية الى آسيا . ولا نستطيع أن نقطع بصحة ما ذكر هيرودوتس عن التراقيين والفريجيين لقلة معلوماتنا عنهم ، وان كان من السفه عدم الأخذ بروايته ما لم ينهض ما يدحضها وليس يدل هذا على أن الطرواديين كانت تربطهم أسباب القربى بالتراقيين والفريجيين ، بيد أنه توجد بعض الأدلة التى تشير الى هذا ، فقد قيل ان البيثينيين Bithynians الذين كانوا يسيطرون على الجانب الآسيوى من البسفور فى الأحقاب اليونانية القديمة قد جاءوا من تراقيا بعد الحرب الطروادية ــ وذلك متفق وما جاء فى سترابون ــ وتقع الى الجنوب منهم ايالة فريجيا على ساحل الدردنيل ويعد الميسيون Mysions أحلاف طروادة فيما أورده هوميروس ــ أقرباء الموزيين Moesians فى أوربا . ويأتى اينياس والداردان من ابدا فى مقدمة أحلاف بريام . والعلاقة المبينة بين اسم داردانوس وبين طروادة صريحة يعلمها المشتغلون بالأدب الهومرى . وقد كان يوجد صقع يسمى داردانيا فى أوربا فى العصور اليونانية القديمة بين موزيا Moesia وبأوونيا Pa.onia وعلى هذا . فليس مما ينبو عن العقل أن نعد الطرواديين أنفسهم فرعا من فروع الجنس التراقى ــ الفريجى العظيم وان لم ينهض على ذلك دليل قاطع ، ويمكن أن ينظر بعين الاعتبـــار الى الافتراض القـــائل بأن التراقيين ــ الفريجيين هم الذين أعادوا بناء طروادة من جديد استنادا الى ما قيل من هجرة الفريجيين الى آسيا . فقد كانت طروادة هى الموضع الطبيعى الذى يقوم عليه حصنهم القومى حينما تجمعوا حول الدردنيل ــ وحينما انهارت امبراطورية الحيثيين بعــد ذلك ، فقد اندفع الفريجيون الى قلب آسيا الصغرى وأنشأوا حاضرتهم فى جورديوم Gordium

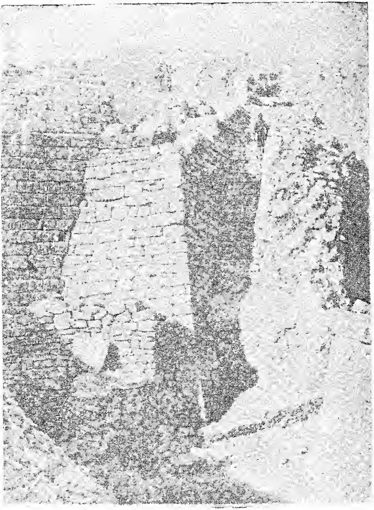


يوضح هذا المنظر للجزء الجنوبى الغربى من الأكمة توضيحا حسنا الصعوبة التى تواجه المنقبين فى الفصل بين العصور الطروادية • و ا فى هذه الصورة يرمز الى أحد أبراج طروادة الثانية ؛ و ب و حـ و د جدران منزل من المستعمرات الثالثة والرابعة والخامسة ؛ وتشير هـ الى أسس المدينة السادسة ؛ بينما السور الذى وقف رجل خلفه هو سور المدينة السابعة •



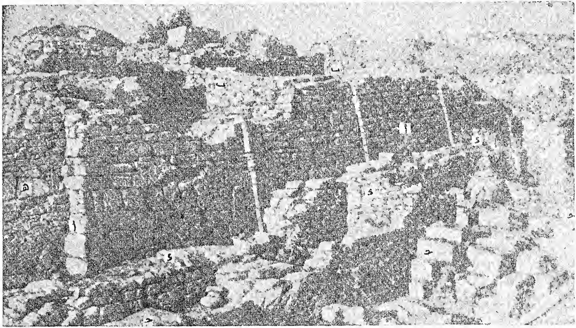
حجبت المبانى الرومانية التى أقيم بعضها فوق بعض البرج والبوابة العظيمين الموجودين على الجانب الجنوبى لطروادة السادسة فساء منظرهما • فنرى هنا مثلا أن جدران البرج البارز ظاهرة عند ا و ب بينما نرمز حـ الى سور المدينة والمدخل الرئيسى للبرج ؛ الا أن البرج يشقه الجدار د من جدران بناء رومانى ؛ وترمز هـ الى سور المسرح الرومانى ، وربما الى البوليتريان، أو مجلس الشيوخ ؛ وتشير و و ز الى صخور مفككة من طروادة السادسة •

آلاف من سنى التاريخ مشيدة من نؤى وأحجار



برج مائى فى قلعة طروادة الهومرية

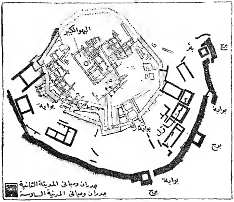
كانت أبراج ثلاثة عظيمة تقوم مقام الحصون الجانبية للأسوار الرئيسية لقلعة طروادة السادسة ، وكان أهم هذه الأبراج يقع فى الركن الشمالى الشرقى من القلعة : وكانت أطلاله التى يبلغ ارتفاعها حوالى ثلاثين قدما ، ولا يقل عرضها عن ستين قدما ، احدى أعجب المعالم القائمة بين تلك الخرائب • وفى وسطه بئر عميقة أو خزان كانوا بلا شك يحتفظون فيه بما يلزم لحاميته من الماء فى أيام الحصار •



أطلال التحصينات العظيمة التى كانت تحمى عاصمة يريام

كان السور العظيم المحيط بقلعة طراودة السادسة مبنيا من كتل الحجارة الجيرية المربعة (ح) المائلة الى السمال بحيث تبرز القاعدة عن حافة السور العليا بمقدار ست أقدام فى مجموع ميل السور كله ، ويبلغ متوسط ثخانة هذه الحافة حوالى ست عشرة قدما ، وحول القمة متراس يبلغ ارتفاعه ست أقدام وسمكه مثلها ومن حوله ممر عرضه عشر أقدام للحامية التى تتولى الدفاع ؛ وفى هذه الصورة الشمسية للجزء الجنوبى نرمز ا ، ب الى أكتاف وجدران داخلية لبناء من طراودة السادســة داخل نطاق الحصن ، ونرمز د . ه الى جدران منزل من طراودة السابعة -

ومهما تكن جنسية بناة قلعة طروادة السادسة فقد ظلت هذه القلعة حتى أيام الرومان أكبر أبنيـة الأكمة وأكثرها روعة ، كما كانت أسـوار طروادة الخامسة طلائع تلكم التحصينات العتيدة التى كانت تسور المعقل فى ذلك الوقت وكان يبلغ سمك السور ست عشرة قدما • أما ارتفاعه فكان يرقى فى بعض مواضعه الى عشرين • وكان له سند بارز ، كما كان يتوجه سور رأسى من اللبن يبلغ سمكه فى أول الأمر نحو خمس عشرة قدما • ثم اسـتبدل به بعد ذلك جدار من الحجـر يبلغ ارتفاعه ست أقدام وسمكه ست مثلها ، وبهذا كان وراء الجدار على السـور ممشى عرضه عشر أقدام • والسور كله يوفى على الغاية فى جودة البناء . وان كانت بعض أجزائه لم يعن بها ما عنى ببقيـة الأجزاء • ثم هو أثر أبدع ترسـيمه على أحسن صـور المعمار الدفاعى ، وهو بعد هذا نموذج من أروع المبانى الحجرية المنحوتة المعروفة فى العالم القديم •



خطتا أساس لقلعتين من قلاع طروادة

يمكننا أن نميز فى عمليـات التنقيب ثلاث فترات من فترات مدينة طروادة الثانية ، وقد ميزنا الفترتين الثانية والثالثة فى هذه الخطة بالتظليل ، أما الأولى فقد تركناها بيضاء • وقد ميزنا أطلال المدينة السادسة الكبرى باللون الأسود • أما الأطلال التى خارج هذا السواد فتشير الى سناد الأسوار التى كانت تحيط بالمدينتين •

وثم ثلاث بوابات ضخام تؤدى الى المعقل ، اثنتان منهما على نمط بوابة الأسد فى ميسينى Mycenae ، ويصعدان بطريق مائل بين الجدران • أما الثالثة فتؤدى الى الداخل بطريق مسـتقيم ويحميها

الحصن النموذجى

من جهة اليسار برج قوى من أبراج الحراسة الجانبية العظيمة التى أضيفت للأسوار الرئيسية لحماية جناحيها ، والتى تدل على مبلغ العناية التى بذلت فى تصميم المشروع كله من وجهة النظر العسكرية • ومما هو جدير بالملاحظة بنوع خاص ذلك البرج الشمالى الشرقى الهام الذى يحلق فوق مدخل بئر عميقة ، ربما كانت المعين الوحيد الذى يستمد منه الماء فى حالة الحصار •

وليس لدينا الا اليسير مما نستطيع أن نورده عنا من الأبنية الداخلية ، الا ما تدل عليه البقايا القليلة من المهـارة الفنية التى دلت على مثلهـا الأسوار من قبل ، ومنشأ ذلك الطريقة المنظمة التى أتى بها الأعداء الذين وقعت فى أيديهم القلعة ، على بنيانها ، وما حدث من أعمال التمهيد فى أيام الرومان حينما أقيمت طروادة التاسعة •

على أنه من العسير بمكان استقصاء تاريخ طروادة السادسة هذه ، وذلك أنها حين سقطت تعمد غزاتها أن يأتوا على بنيانها من القواعد ، فدكوا حصونها ، ونهبوا كل الذى كان فيها ، حتى لم يبق فى أيدينا من آثارها غير الشواهد الخزفية لنقدر بها ثقافتها ولنحدد بها تاريخها • وجميع هـذا الخزف هو من صـناعة محلية ، وهو يدل على أن هذا المعقل السادس لم يكن قط ايالة ميسينية ، بل كان المعقل الأساسى للشعب الطروادى الذى له صلاته الواسـعة بالخارج وقد عثر على شقف بعض الآنيـة التى يبدو أنها وردت من كل من شمالى اليونان الأصلية وجنوبها ، غير أن القطع المستوردة هى بلاشك أعظمها قيمة وهى تشهد بما كان بين طروادة من جهة ، وبين كريت وميسينى من جهة أخرى بل قبرص البعيدة ، من أواصر • وعلى قلة هذه البقايا ، فهى لسان صامت على المدى الشاسع الذى وصل اليه النفوذ الطروادى •

أما المعقل فلم يكن قطره يزيد على مائتى ياردة ، وكان يسـوج من الأرض ما مساحته خمسة أفدنة تقريبا ، لكنه مع ذلك كان يتسع لحامية عددها ألفان أو ثلاثة آلاف من الكماة مع من تستدعيهم الحال من الصناع والعبيد •• هذا فضلا عن قصر حرى بالملك ، ومساكن يأوى

اليها أمراء جنده ، وذلك ما قد يتفق والصورة التي أوردها هوميروس عن الجيش المدافع المكون من الطرواديين ، ومن أحلافهم الذين عسكروا في ظل القلعة في أثناء الحصار ، اذ كانت الرقعة التي بداخلها لا يمكن أن تتسع لهذا العدد الضخم الذي أورده هوميروس ،والذي اجتمع ليقاوم جحافل أجاممنون •

ولشد ما تختلف التواريخ الواردة في المصادر اليونانية حول حصار طروادة ، فهي تتراوح بين عهد ديوريس سنة ١٣٣٤ ، وعهد افوروس أما الرواية البارية Parian سنة ١١٣٦ • فتجعل تاريخ تلك الحرب سنة ١٢٠٩ ــ ١٢٠٨ ق • م • وهذا جد قريب من التاريخ

تاريخ الحرب الطروادية

الذي أورده تيماؤوس وهو (١١٩٤ ــ ٩٣) ــ ولما كان ذلك كله يتفق الى درجة كبيرة مع فترة «القلق الذي ساد الجزائر » على ما جاء في التاريخ المصري في عهد رمسيس الثالث . فنحن نرى أن نؤرخ للحرب الطروادية بأوائل القرن الثاني عشر (ق • م) فهذا التاريخ يوائم الدليل المستمد من علم الآثار عن تدمير طروادة السادسة ، التي تنهض أسوارها العتيدة حجة لا تدحض على صدق ما تنطوي عليه الرواية الهوميرية • فأقدم الآنية التي عثر عليها في أطلالها يمكن تعيين تاريخها بسنة ١٥٠٠ ق • م وعلى هذا فيمكن القول بأن طروادة السادسة ــ طروادة الهوميرية ــ قد خلفت طروادة الخامسة خلال القرن السادس عشر (ق • م) • وعلى هذا تكون طروادة بريام وأسرته من أحفاد داردانوس قد حافظت على منعتها لمدة تقرب من أربعة قرون ، وهي مدة مماثلة للمدة الواقعة بين عهدي هنري الثامن وجورج الخامس في تاريخ انجلترا •

وبعد سقوط إليوم الهوميرية ، الذي يحتم نهاية العصر البرنزي ، احتل المكان ، على ما يظهر ، أخلاف سكانها الذين استقروا بين أطلالها • ثم خلف من بعدهم دخلاء شادوا مساكنهم على نمط مختلف ، واستعملوا آنية من طراز جديد ، من بينها نوع محلي بعقد ، ثم آنية موشاة برسوم هندسية تحكي تلك التي تستكشف في كل مكان تقريبا في بحر ايجه من فجر العصر الحديدي • أما الأدوات المعدنية التي خلفوها ، كفؤس البرنز والخواتم والمطارق ، فقريبة الشبه من تلك التي عثر عليها في حوض الدانوب الأدنى ، ويبدو أنها ترمز الى هجرة جديدة من أوربا • ويتفق هذا وما ذهب اليه سترابون من أن الفريجين قد دخلوا آسيا بعد الحرب الطروادية ، وربما تعرفنا في هؤلاء على الطبقة الثانية من سكان طروادة السابعة . المهاجرين البينيين •

وأما طروادة الثالية فانها تدنينا من عصور تاريخية ، وذلك بسكنى المستعمرين من اليونانيين فيها ، وهم الأيوليون Aeolians الذين نزحوا ثمة حوالى القرن الثامن ، أثناء استعمار اليونان لسطئان آسيا الصغرى • وليس لدينا من آثار هذه المدينة الصغيرة الا النزر اليسير ، لأن الرومان سووا بالأكمة الأرض حينما حولوا القلعة الى بقعة مقدسة • على أن طروادة الثامنة أو اليونانية لم تكن في ذاتها شيئا مذكورا ، الا بوصفها استمرارا لتاريخ سابقتها ذائعة الصيت ، بيد أنها كانت تضم هيكل أثينا ، ذلك القدس الذي كان دار حج عالمية بما تفرد به من وراثة عصر الفروسية • ومكان هذا الهيكل لا يزال معروفا ، بالرغم من دروس أصوله من زمن بعيد ، ويؤثر أنه كان يقوم في نفس مكان الهيكل الذي كان يحتله البالاديوم •

وهنا ••• وصل خشيرشا Xerxes قبل أن يغزو اليونان في أوائل القرن الخامس عشر (ق • م) كما قدم الاسكندر قرابينه في المكان نفسه بعد خشيرشا بقرن ونصف قرن من الزمان قبيل فتوحه الباهرة حينما اتجه تيار الغزو كرة ثانية قبل المشرق ••• ولو قد عاش

الفصول الأخيرة من قصة طروادة

الاسكندر لكان من المحتمل أن يجعل من طروادة مدينة عظيمة ، ومع ذلك فقد دأب خلفاؤه السلوقيون ، والأتالدة ، يؤدون للمدينة من فروض التكريم ما هي خليقة به • وربما أفادت المدينة من قلة شأنها ومن خلود اسمها تجانبها مما اجتاح غيرها من شرور الحروب المستمرة . وقد سارعت رومة عندما تم لها حكم المشرق أول الأمر ، الى وطن اينياس تفيء عليه من خيراتها •• ومع ذلك •• فقد وقعت كارثة أخرى ، اذ احتل مراديتس المدينة التي كان قد هاجمها العاسق فمبريا (٨٥ ق • م) وانتهبها من قبل •• ثم نهضت من الأطلال طروادة يافعة •• طروادة التاسعة •• والأخيرة •

هذا وقد زار يوليوس قيصر المدينة الدارسة ذائعة الصيت ، ووضع مشروعا لاحيائها ، وقد ترك مشروع قيصر لخلفه أوغسطس لتحقيقه ، وذلك لأنهما ، بوصفهما من أسرة يوليوس ، تقصيا انحدارهما من أصل طروادي • وقد سوى

المكان جميعه ثم عضد بجدران لتقويته وذلك لتدبير مساحة من الأرض يقام عليها هيكل أثينا ، وبينها المقدس ، وبعض المبانى الأخرى ، وخاصة مسرحان زين بهما الرومان المدينة ٠٠ ويقول المدينة، لأن طروادة قد أصبحت آنئذ مدينة حقا ، اذ أخذت تمتد فوق الأكمة الى الشمال الشرقى ، بينما كرست القلعة العتيقة لمعبد أثينا ٠ ثم أيد الأباطرة الرومانيون المتلاحقون امتيازاتها وزادوها ، وكان يسرهم أن يبتكروا الوسائل لتمجيد المدينة التاريخية ، فمن ذلك ما اعتزمه قسطنطين أول الأمر من جعلها قصبة ملكه ، حتى لقد شرع يبنى المنشئات فى السهل الطروادى، ثم اذا هو ينصرف عن ذلك فجأة فراح يعيد بناء بيزنطة بدلا منها ٠ وقد بقيت طروادة فى العصر المسيحى ، اذ استمرت أبرشية اليوم عدة قرون ٠٠٠ ثم تتبدل الحال ، فتأخذ المدينة فى الاضمحلال على ما يظهر ويشرع أهلوها يهجرونها ، وهذا بلا ريب من أثر الحروب التى اجتاحت آسيا الصغرى على يد أباطرة بيزنطة المتأخرين ، ثم للمغريات الفائقة التى اكتظت بها القسطنطينية ٠

وقد أسلفنا القول أنه ان لم تكن قد أنشئت طروادة ، فقد كانت مستلزمات الاختلاط البشرى تقتضى أن تقوم مدينة ذات شأن اما على البسفور واما على الدردنيل ٠ وقد انتزعت بيزنطة مكانة طروادة فى أيام اليونانيين القدماء ، أى خلال حياة طروادة الثانية ، وذلك لصلاحية موقعها للتجارة بين الشرق والغرب كصلاحية طروادة نفسها ، ولأنه أكثر ملاءمة للمتاجر الآتية من البحر الأسود ٠ ولا مشاحة فى أن الدور الذى لعبته بيزنطة فى التاريخ اليونانى القديم لم يكن بالدور الذى لا يعتد به ، بيد أنها قد طغت عليها شهرة القسطنطينية فيما بعد ٠٠٠ فقد قلل انشاء الامبراطورية الرومانية من أهمية بيزنطة التى قاست الأمرين من جراء ما ربطت به أسبابها

القسطنطينية تنسخ طروادة

بأسباب ليسنبوس نيجر ، ومن جراء غزوات القوط التى تلت ذلك وشيكا ، وذلك أنها آوت ليسنبوس خصم قسطنطين ، فلما صحت عزيمة قسطنطين نهائيا على اتخاذ بيزنطة حاضرة لملكه ، وقضت القسطنطينية الى الأبد



آنية طروادية من المدينة السادسة

تشمل الآنية الفخارية التى عثر عليها فى الطبقة السادسة أوانى مستوردة وأوانى وطنية من نفس الفترة ، ومن النماذج الوطنية حوامل تشبه الساعة الرملية (الى اليمين) كؤوس من ذوات المقبضين (أعلى اليسار) وكؤوس من ذوات المقبض الواحد مزدانة بنتوءات ٠ وكان لبعض المقابض النموذجية رؤوس كرؤوس الثيران ٠

على هذا المكان المهيمن الخالد « طروادة » ومن ذلك الحين ، أخذ مد التاريخ البشرى وجزره ، يعلو ويهبط حول البسفور ، ولبس حول الدردنيل وتلك حجة تؤيد قاعدتنا المقررة ، التى تحتم أبدا قيام مدينة عظيمة على المضيقين الفاصلين بين آسيا وأوربا ٠ وقد ظلت القسطنطينية مدى ستة عشر قرنا من الزمان مستقر القياصرة ، مسيحيين ومسلمين ، فلا بأس علينا اذن من تلك السحب المتلبدة فى سماء سعودها الى حين أن تكون قلعة حصارلك السادسة هى بعينها طروادة الهوميرية، ولو لم ينهض على ذلك برهان حازم ، وكذلك تؤيد وجهة النظر التاريخية ما ذهبنا اليه ، اذا وقفنا لحظة نستعرض الموقف السياسى فى آسيا الصغرى حوالى سنة ١٢٠٠ ق ٠ م ، فكل شىء يؤيد ما افترضناه ، من أن طروادة فى الشمال الغربى ، كانت الدولة السائدة فى شبه الجزيرة لذلك التاريخ ٠ ولا تزال أقدم العهود التاريخية لآسيا الصغرى غامضة أشد الغموض ، وذلك لندرة ما تم من الحفائر العلمية فى أطلال مدنها المخضرمة ، التى شهدت ما قبل التاريخ وما بعده، ومع ذلك فتوجد أمائر تدل على مؤثرات قوية ، سامية ،

فى كيادوشـــــبا ، وتوحى بما كان قائما من الصلات المباشرة مع امبراطوريات الشرق الأدنى القديمة قبل نهاية الألف الثانى (ق . م) .

وحين يرتفع الستار عن فصل آخر ، فان سجلات بوغاز كوى الفخارية الهامة ، كوى التى ظلت أعواما عدة حاضرة الامبراطورية الحيثية (انظر الفصل الثالث والعشرين) . تصور ملوك الحيثيين فى أواسط القرن الســـادس عشر سادات على شرقى آسيا الصغرى ، وذوى نفوذ طائل فى كل من سورية وبطاح أرض الجزيرة العليا . وثمة أدلة مستمدة من مصـــادر عراقية ومصرية

العلاقات الدولية

تشير فى صورة ما الى الحيثيين وتؤكد ما ذهبنا اليه بشأنهم ، فلقد كانت الدولة الحيثية قوة عسكرية تهيمن بسلاحها وبهيبتها الذائعة على اقطاعيات عدة جنوبى آسيا الصغرى وغربيها ، ثم فى سوريا على وجه الخصوص ، حيث كانت تطغى على دائرة النفوذ المصرى . ولما تضعضعت الأسرة الثامنة عشرة المصرية على يدى أخناتون الخاتريين . كانت النتيجة أن استفحلت قوة الحيثيين فى عهد حاتوسيل ، وصبليليوما ، حتى أصبحت دولتهم ثالثة ثلاث أقوى دول العالم القديم . على قدم المساواة مع مصر وبابل . ثم ازداد مركز هذه الدولة توطدا عندما انحطت الدولتان الأخريان ، وفى سنة ١٢٩٦ ق . م . تحـدى موتاللس ، ملك الحيثيين . جبروت رمسيس الثانى فى معركة قادش ــ وقد كان من بين أحلاف الحيثيين فى هذا العهد ، داردنوى Dardenui واليونا Ilunna واذا كانت قراءتنا لهذا الاسم الثانى صحيحة فهذان الاسمان يتفقان مع الداردانيين والايليين Ilians ، كما يتفق اسم طروادة مع اسم طاروازا فى سند حيثى آخر ، أحدث قليلا .

ثم تنقطع أخبار الحيثيين بعد معركة قادش بأقل من قرن . ويذكر رمسيس الثالث فى سرد غزوات شعوب البحار وأهل الشمال فى سنتى ١١٩٤ ــ ١١٩٠ ق . م ، أن الحيثيين لم يصبروا للقائه ، وعلى هذا تكون الدولة الحيثية قد تداعت عروشها بعد فترة انحلال تدريجى فى مطالع القرن الثانى عشر ، أى فى نفس التاريخ المأثور للحرب الطروادية ، وقد نجم عن تداعيها اختلاط كبير ، وكان من نتائج انهيار هذه الدولة تكوين تلك العصبة القوية من الأمم البحرية غربى آسيا الصغرى ، مع ذوى أرحامهم فى تراقيا ومقدونيا الشرقية بزعامة طروادة .

ويوافق ارتقاء طروادة ذروة قوتها الذى أشار اليه هوميروس أتم الموافقة ، سقوط الحيثيين الذين كانوا من قبل سادة الداردنوى Dardenui والأيليونا Iliunna فى ظاهر الأمر . والآن فلنول وجوهنا شطر محاصريها ... شطـر أجاممنون وجحـافله من الآخيين Achaeans والدانان Danaans ، لكى نستعرض برهة وجيزة الظروف التى أبرزت الى الوجود هذا التحالف العتيد . لقد كانت كريت وعاصمتها كنوسوس زعيمة الحركة الثقافيـة ، تذيعها وتنميها فى دائرة بحر ايجه ، منذ أوائل العصر البرنزى . وقد كانت كريت ذات صلات وثيقة بمصر منذ القدم ، ويبدو أنها كانت تؤثر الاتجاه ببصرها نحو الجنوب ، على أن توليه شطر الشـمال ، نحو اليونان الأصلية . وكانت لها علائقهـا المباشرة بغيرها من جزائر الارخبيل ، ولا سيما مع السيكليد Cyclades ، كما يبدو أنها كانت على اتصال بلوقيا وكاريا .

ولشد ما يختلف تاريخ الحضارة فى اليونان الأصلية . موطن أجاممنون . عنه فى كريت فقد احتل المورة (البلوبونيز) فى مشارق العصر البرنزى ، قوم تجمع بينهم وبين أهل كريت والسـيكليد وشـاطئ القريبى ، ويختلفون من السكان الأصليين فى العصر الحجرى الحديث ، وفى أواسط العصر البرنزى ، حينما بلغت كريت ذروة رخائها الأولى ، حدث أن تأثرت اليونان الأصلية بعنصر جديد لا يزال أصله مجهولا ، ولم يكن ثمة غير صلات طفيفة

الثقافة الكريتية فى بلاد اليونان

بين كريت وبين اليونان الأصلية ، هذا ان كان بينهما صلات على الاطلاق ، فى حين كانت هنالك علاقات بين اليونان وبين السيكليد ، ولم يحدث أن اتصلت كريت باليونان حتى أواخر منتصف العصر البرنزى ، حتى اذا ما حدث هذا الاتصال تحضر أهل اليونان ، وكانوا بطبيعتهم مهرة قابلين للتأثر بغيرهم ، حتى ليصح أن نقول انه قد تمت للجزيرة الغلبة الثقافية والروحية على اليونان الأصلية .

وفى أواخر القرن السابع عشر (ق . م) أصبحت ميسينى التى كانت مدينة غير ذات خطر منذ بدء العصر البرنزى مقرا لأسرة حاكمة من أصل يونانى اذا جاز أن نصدر فى حكمنا على هدى من طريقتهم فى الدفن . وذلك بالرغم مما عثر عليه فى مقابر أمرائها المتأخرين من أشياء ثمينة من كريت . أما هذه الأسرة ــ

أسرة مقابر السراديب ــ التى أطلق عليها هذا الاسم لأنها كانت تدفن الموتى من حكامها فى مقابر سردابية اكتشفها شليمان سنة ١٨٧٦ ــ فقد استمرت فى الحكم الى آخر القرن السادس عشر (ق · م) ، ثم خلفتها أسرة عرفت باسم ــ أسرة مقابر خلية النحل ــ وذلك ، لأن أمراءها كانوا يدفنون فى مقابر خلية النحل المشهورة التى تشبه جبانة ميسينى ــ المعروفة باسم : كنز أتريوس · وقد كانت هذه الأسرة قوية الشكيمة موفورة الثراء ، وعند ما انهارت كريت بعد تدمير كنوسوس ، فى ختام القرن الخامس عشر أصبحت ميسينى بطبيعة الحال الدولة المهيمنة جنوبى بحر ايجه ·

ومما يؤثر ، أن أحد ملوك هذه الأسرة ، هو الذى أعاد بنـاء القلعة ، وبوابة الأسـد فى ميسينى ، كما أنه هو الذى شاد الأسوار السيكلوبية والقصر المنيف الذى يتوج القلعة ، ويرجحون أنه هو أيضا الذى أنشأ مقبرة كنز أتريوس ، لتكون رمسه الملكى الخاص · وبفضل زعامة هذا الملك وخلفائه انتشرت الثقافة الكريتية شرقى البحر المتوسط انتشارا واسعا ، تلك الثقافة التى تقبلتها اليونان ، وحورتها ، حتى عدت ثقافة ميسينية ، ويصدق هذا بنوع خاص فى أطواره المتأخرة بعد سنة ١٣٠٠ ق · م ، حينما كان التأثير الميسيني يعمل فى مداه الواسع الذى لم يبلغه التأثير الكريتى حتى فى أوج كنوسوس ·

فهذه صقلية فى الغرب . وتلك شطئان فلسطين فى الشرق ، وسواحل البحر الأدرياوى وجنوبى مقدونيا ، وغربى آسيا الصغرى ···

انتشار الثقافة الميسينية الشاسع

كل هـذه تعج بالآثار الميسينية · بل ان قبرس نفسها ، التى كانت تصلها الواردات اليونانية منذ أواخر القرن السادس عشر ، يبدو أنها أخذت تتلقى جالية ميسينية ، وتلك رودس التى كانت تعد نقطة وثوب أمامية صالحة ، دخلت هى الأخرى فى الدائرة الميسينية دخولا تاما ، كما أصبحت تساليـا ، وجزائر الأرخبيل قاطبة تابعـة لميسينى من الناحيـة الثقافية ·

وتدل الشواهد المستمدة من علم الآثار ، على أن البـاعث على انتشار الثقـافة المينوية ــ أو الميسينية ــ شرقى البحر المتوسط ، لم يحدث الا بعد سقوط كنوسوس حوالى سنة ١٤٠٠ ق · م · ومن عجب أن كريت لم يكن لها فى جاراتها الا هذا الأثر الطفيف ، كما يدلنا على ذلك ما لدينـا من المعـلومات ، وذلك بالرغم مما بلغته الحضارة الكريتية من شأو بعيد قبل



حطام من أخربات العهد الذى ازدهرت فيـه طروادة

كانت الخطط التى وضعها الرومان للنهوض بطروادة تشمل على المسارح بطبيعة الحال؛ وقد كشف عن بقايا بنائين من هذا النوع شرقى البرج والبوابة الكبرين وغربيهما فى الجانب الجنوبى من القلعة السادسة ؛ على أنهم يرجحون أن المسرح الشرقى ، الذى نرى صورته هنا · هو الى البوليتريون (مجلس الشيوخ) أقرب منه الى المسرح التمثيلى . أما موقعه بالنسبة الى البوابة الجنوبية السابقة فموضح فى الصورة الشمسية السفلى فى صفحة ١٥٤ ·

ميسينى ، حقا لقـــد كانت كريت هى التى استحدثت هذه الثقافة ، بيد أن ميسينى هى النى خلفت كنوسوس ، وتجمعت فيها معظم الثقافه الكريتية ، فأساغنها وصيرتها عاملا من أعظم عوامل التمدين فى جميع أصقاع الشرق الأدنى · ولشد ما تصح مقارنة العلائق النى كانت بين كل من كريت وميسينى ، بالعلاقات النى بين انجلترا وأمريكا اليوم · ففى القرن الثامن عشر (ب·م) كانت أمريكا تنلقى الثقافة الانجليزية فى شىء من التحوير يسير ، كماكانت ميسينى تتلقى الثقـافة الكريتية فى القــرن السادس عشر (ق·م) حتى اذا أشرف القرن التاسع عشر على الانتهاء ، كانت أمريكا قد بزت انجلترا فى العبقرية الانشائية والفنية ، بل انها استقلت استقلالا روع الانجليز وجعلهم يجأرون بالشكوى من أنهم أوشكوا أن (يتأمركوا) ·· ولهذا ما يماثله فى تاريخ ميسينى وكريت ·

وانا لنجد أثر انتقال الحضـــارة من كريت الى اليونان ظاهرا فى أسناد مصرية ، وأخرى حيثية ، ففى أوائل أيام الأسرة الثامنة عشرة ، فى عهد تحتمس الثالث ، وأمنحتب الثانى : تذكر أناسى الجـزائر ، وأهــل كفتيو Keftiu وأكبر الظن أن لهذا اللفظ صلة بلفظة كريت (وقد ورد ذكرها فى التوراة باسم كافتر Caphtor)

تفوق مسينا

وفى ألواح تل العمارنة (التى يرجع عهدها الى أوائل القرن الرابع عشر) نصادف ذكر « أناسى البحار » ومن بينهم الدانونا ، وهم الدانان أنفسهم Danaans — وبعد هذا — فى سنة ١٢٢٥ (ق · م) — أى فى حكم منفتاح — نصادف من بينهم ذكر أخيواشا Akhaiwasha ، وهم الآخيون Achaeans وقد عد رمسيس الثـالث سنة ١١٩٤ الدانونا Danuna والبولاساتى Pulasati من بين شعوب الحرب التى غزت الدلتا ، وقد ألقى البولاساتى عصا التســيار بعد طردهم من مصر ، فى شواطىء فلســطين وأصبحوا بذلك هم الفلسطينيين ، وعلاقتهم الوطيدة بالدانونا ، اذا صح أن الدانونا هم الدانان ، تنطق بها حقيقة المشابهة التامة التى بين نماذج الخزف الفلسطينيه ، وبين تلك التى كانت تستعمل فى ميسينى قريبا من الزمن الذى دمرت فيه ·

وكانت شعوب البحار الرحالة هذه ، الأخيواشا والبولاساتى ، تتصل بميسينى واليونان ، فى حين لم تكن تتصل كريت وكنوسوس ، وذلك أنها ظهرت فى التاريخ ، فى الوقت الذى كانت فيه كنوسوس ظلا من ماضيها فحسب ، أى حوالى التـاريخ المأثور لحرب طروادة ، حينما كان أجاممنون ، « ملك النـــاس » لا ايدومينوس Idomeneus .

ومثل قبرس فى ذلك مثل هــذه الشعوب تماما ، فجفانها الكبيرة ذات الصور الأنيقة الغريبة من رجال وعربات وثيران وجياد ، هى من نمط الصور الرودسية ، والتيرينية Tiryns والميسينية وهى لا تشبه صور الخزف الاقريطشى بأى حال من الأحوال · وقد ورد ذكر ملك · أهيــافا Ahhiyava فى الألواح الحيثية التى يرجع تاريخهــا الى سنة ١٣٠٣ ، فنعتته بأنه كان « ملكا عظيما » وأنه « أخو ملك الحيثيين » ولدينا من المصادر الأخرى ما يشير الى نشاط ملك الأهيــاقا التى كانت تقع على ســواحل آسيا الصغرى فى القرن الرابع عشر ، ويستشف من ذكر لازباس Lazbas (لسبس Lesbos) فى هذا المصدر ، ما كان من نشاط فى الدائرة الطروادية · وبعد سنة ١٢٥٠ هاجم أطاريزياس Attarisiyas (أنظر أيضـا صحيفتى ٨ ، ٢٩) — (وربما كان هو الملك أتريوس Atreus ملك أهياقا) ، هاجم كاريا ، ثم هاجم بعد ذلك قبرس حوالى سنة ١٢٢٥ ، التى يبدو أنها كانت تخضع اذ ذاك للحيثيين ، لا للمصريين · فاذا كانت الأخيواشا والأهياقا والدانونا هى الآخيين والدانان ، فان الأسانيد المصرية والأسانيد الحيثية يؤكد بعضها بعضا ، كما تشترك فى ذلك التأكيد الروايات الاقريقية المأثورة والألواح الحيثية تورد ذكر الآخيين منذ القرن الرابع عشر · لأننا لو أقررنا بأن أهياقا سنة ١٢٥٠ هم الآخيون ، لاستلزم ذلك اقرارنا أيضا بأن يكون أهيافا سنة ١٣٣٠ هم الآخيين كذلك ، لتساوى الدليل فى كلتا الحالتين ·

وكثيرا ما يظن أن آخيىى ، العصر الهوميرى انما كانوا غزاة شماليين ، نزحوا حديثا الى هيلاس (أرض اليونان) ، ومحوا منها نظاما سياسيا قديما ، بيد أن الغزو الآخى هو ثمرة من ثمار النقد الحديث ، وان كنا لا نعرف بالضبط أول من وضع قصة هــذا الغزو ،

منشــأ الآخيين

ومع ذاك فلا يوجد ما يؤيد هذه النظرية فى أى مرجع يونانى ، بل ان هيرودتس ، وبوزانياس قد اعتبرا الآخيين من أهل المورة ، ولا توجد أية أشارة لا فى هوميروس ، ولا فى أى من قصائد العصر الهوميرى على أن الآخيين كانوا غرباء عن اليونان كما كان أمراء النورمان غرباء بالنسبة لانجلترا واذا كان حق أجاممنون فى زعامة اليونان ، لا يفضل حق وليم الأول فى التاج الانجليزى

لكان من المؤكد أن يعيره بذلك أحد أبطال طروادة ، أو أن يعيره أخيل نفسه فى لحظة من لحظات غضبه ٠

واذا غضضنا النظر عن الدليل السلبى المستمد من الأسانيد اليونانية ، لم نجد فى علم الآثار ما يشير الى غزو آخى ، ولنا اذن : أن نذهب الى ما ذهب اليه هوميروس من اعتبار الآخيين ، والدانان والآرجوسيين على رأس الشعوب الافريقية فى زمن أجاممنون وهو استنتاج يتفق والأسانيد المصرية والحيثية على السواء ٠

والآن تخرج من هذا الاستعراض الطويل للبينات ، بصورة جلية عن أهمية طروادة التى ورثت دولة الحيثيين بما كان لها من السيطرة شمالى بحر ايجة وشرقيه ، وقد كان لها ند قوى البأس مثلها يسيطر على الناحيتين الغربية والجنوبية من هذا البحر ، ناشرا نفوذه مع ذلك فى شطئان آسيا الصغرى الجنوبية ، ومهيمنا على رودس وقبرص ، وربما على ساحل فلسطين وقد كان پريام ، ملك طروادة ، انما يعتمد قبل كل شىء على الأحلاف ولعلهم كانوا فى الغالب من سلالتهم ، مع جواز استثناء الكاريان Carians واللوقيين Lycians ، الذين كان من المرجح أن يضلعوا مع الكرينيين ضد الدولة الجديدة الناشئة فى اليونان الأصلية ، لما يرتبطون به وأياهم من وشائج النسب ، غير أن أجاممنون بعكس ذلك كان « ملك الناس » بحق يكاد يكون هو الحق المقدس ، ومع أنه لم يكن أحسن محارب ، ولا ألبق سياسى ، فان سلطانه كان معترفا به من الجميع ، ومن أخيل نفسه فى أعنف حالات غضبه ٠ ويبدو أن سلطانه كان يشبه سلطان امبراطورية الدولة الرومانية المقدسة فى العصور الوسطى ٠

ويستشف ، من الناحية الآثارية ، أن حلف طروادة ربما كان أضعف الحلفين ، وذلك لأنها كانت متخلفة كثيرا فى تسلحها ، وفى الحاجيات المادية التى تتطلبها الحرب ٠ وقد كان حلف أجاممنون أقوى الحلفين فى البحر كذلك ، اذ استطاع أن يغير على السواحل الأسيوية

نمزيس تتعقب الفاتحين

قبل أن يبدأ هجومه الحقيقى على طروادة ، وذلك على الصورة التى أغار بها أطاريزياس على شواطىء الحيثيين سنة ١٢٢٥ فان اجتراء أجاممنون على القيام بمثل هذه الحملة ، فى أرض بعيدة عن قاعدته كل هذا البعد ، وتهديده



آيات منحوتة من هيكل أثينا

كان معبد أثينا (ميترڤا) أعظم آيات الفن فى طروادة التاسعة كما أعاد الرومان بناءها ، مستبدلينه بالمعبد اليونانى السابق الذى كان موجودا فى طروادة الثامنة ، وقد كشف عن بعض المنحوتات التى كان يزدان بها ، ومنها تاج المدخل الذى كان يحمل هذه الصورة البارزة الحية لرب الشمس يسوق عربته ٠

پريام فى عقر داره ، كل ذلك يقتضى قوة عسكرية وقوة سياسية على حد سواء ٠

ولسنا نعجب للصدام بين پريام وبين أجاممنون لأن ميسينى التى كانت تهتم بتوسيع دائرة نفوذها فى جميع أصقاع بحر ايجه ، والتى كانت من قبل سيدة الجنوب ، كانت تعتزم الآن فرض سيادتها على الشمال أيضا ٠ وهنا ، اصطدمت بطروادة ٠٠ ونشبت الحرب الطروادية وبعد نضال طويل هلك پريام ودكت قلعته ، ومع ذلك ، فيبدو أن قوة أجاممنون قد عدت طورها فى هذا الصراع ، فلحقت به الكوارث كما حلت بالغالبية من لهاذم أبطاله ٠ ويظهر أن بيت أتربوس قد انهار قبل مضى قرن ، وأن عودة الهوفليدا مع الغزو الدورى قد غير مستقبل اليونان الثقافى والسياسى تغييرا تاما ، ومع ذلك فقد ظلت الحرب قائمة وسوف تظل قائمة الى ما شاء الله بين القوتين الكبيرتين القائمتين فى بحر ايجه فى العصر البرنزى وهى الجولة الأولى فى الصراع الطويل بين أوربا وآسيا ٠ ومع أن القوة الآخية قد انهارت بعد سقوط طروادة بزمن غير بعيد فان ازالة العقبة الطروادية تركت السبيل مفتوحة أمام اليونانيين ليستعمروا غربى آسيا الصغرى ، وأدى هذا فيما

بعد الى فتوح الاسكندر التى لم يكن منها بد ٠

ذاك ، وقد خلد هوميروس الحرب الطروادية على وجه الزمان ، وكان له أعظم الفضل فى تخليد ذكرى طرادة ومبسينى على السواء ٠ ولكن هوميروس لم ينفرد من بين الشعراء بتلقى الهامه من هذا الموضوع ، فقد روى شعراء مجموعات الملاحم القديمة أجزاء أخرى من الملحمه ، كما قص كتاب مثل دكتز الكريتى Dictys ، ودارز الفريجى Dares ، قصصا مستقلة عن هذه الحرب ، وهما اللذان لم يبق من شعرهما الا أجزاء غير كاملة، فان لم تكن ملحمة هوميروس هى وحدها التى عرفت بهذه الحرب العظيمة ، فلا جرم أنه هو الذى أسبغ عليها ثوب الخلود أكثر من غيره ٠ وكان الاغريق القدماء يعدون هوميروس نبيا يسجل حوادث أسلافهم وأحوال أمرائهم ، وكان نسب أحدهم الى هوميروس مساويا لانتماء الرجل الانجليزى الى الدم النورماندى فى العصر الحديث ٠

وهكذا كان شعر هوميروس يعد تاريخا ، ويدرس على أنه كذلك ، وكانت قصيدتاه أعظم ما أنتجه الأدب اليونانى قاطبة ، كما كانت آثار هاتين القصيدتين فى تطور التعبير الأدبى بأجمعه عميقة أشد العمق ، وسرعان ما وصلا الى أعلى المراتب بنقلهما الى مراقى الكتب المدرسية والقصص الهوميرية هى من آثر الموضوعات للأداء فى الفن اليونانى ٠

أعظم نصب تذكارى للشعر

وقد استمد يوريبيدز أعظم الشعراء اليونانيين انسانية، بعض مآسيه من قصة طروادة ، ومن أمثلة ذلك مأساة هيكوبا والنسوة الطرواديات ٠ ولم تكن قصة طروادة أقل شيوعا فى الأدب اللاتينى ، بعد أن سيطرت اليونان على قاهرتها روما ٠ وأكبر السبب فى ذلك ما تفيض به من ألوان المآسى ، وضروب الابتداع ٠ كما يتجلى ذلك فى انياذة فرجيل ، ولا يخفى ما للأسطورة القائلة بأن روملوس منحدر من اينياس الطروادى من مشاركة فى هذا الباب ٠ ونقول استطرادا ان القصة التى جاءت باينياس والطرواديين الى حفافى التيبر قد يكون لها نصيب من الصحة ، لأن الاتروريين الذين رقى منهم عدة ملوك الى عرش روما نزحوا على وجه التحقيق تقريبا من آسيا الصغرى ٠

ولما انحطت الآداب والفنون أثناء انحلال الدولة الرومانية وسقوطها وقيام المسيحية ، قل تأثير القصة الطروادية التى نظمها هوميروس وان استمرت ماثلة فى الوجود ، وعندما أزدهر عصر الفروسية لأول مرة فى القرون الوسطى ، صار أبطال هوميروس أمثلة يحتذيها فرسان شارلمان الخصوصيون ٠ وكانت بولكسانا أيضا تمثل كأنها (العذراء الشهيد) ، ثم أقبل الناس اقبالا عظيما على القصص الغرامية ، أمثال القصة التى كتبها بنوادى سانت مور حوالى سنة ١١٨٤ على أساس من دكتز ، كما كانت تلك القصص مصدرا جنى الثمرات يستلهمه الفنانون ٠ فمن أفخم مظاهر ذلك ، تلك المجموعات من الأقمشة المزركشة التى أصابها العطب ، والتى تصور جميع مشاهد حرب طروادة التمثيلية ، من الحكم على باريس، الى تدمير المدينة ٠ ولقد كانت مجموعة من هذه تزين يوما ما قاعة وستمنستر المصورة ، ومع أنه لا توجد فى الوقت الحاضر مجموعة كاملة من هذا النوع ، فان رقما منها واحدا محفوظ فى متحف فكتوريا والبرت، وكان فى وقت ما يزين قصر دى بايار Crâeau-de-Bayard ومن الممتع أن نعرف أن آخر ما أنتجه عصر البطولة من تحف فنية وهى تحفة « الفارس بلا خوف ولا تثريب» The chevalier sans peur et sans reproche قد تأثرت بما صور من فعال البطولة أمام طروادة .

وقد ازدادت أهمية طروادة الأدبية والفنية ، كما ازدادت أهمية تاريخها ، منذ عصر النهضة (الرينيسنس وحركة احياء العلوم) حتى فاقت كل ما كان يدور بخلد الانسان ، ففى الأدب الانجليزى وحده قد ظهر أثرها منذ شوسر الى الوقت الحاضر ، فيما أخذ من الموضوعات الهوميرية ، ومن مشاهد القصة الطروادية جميعا فترويلوس وكرسيدا ، وباريس وأونون ، وأجاممنون وكليتمنسترا ، وجميع الحادثات التى يرجع أصلها الى النضال الرائع بين طروادة ومبسينى ، كل هذا كان من حين الى آخر موضوع تفكير الكتاب والفنانين الانجليز ٠ فسقوط تلك الدولة العظيمة ، والخاتمة المروعة التى طاحت بقاهرها ٠٠٠ كلها موضوعات تمثيلية من الطراز الأول ٠٠٠ فجمال هيلين ، وحكمة نسطور ، وخيانة باريس٠٠ قد أصبحت جميعا مضرب الأمثال ٠ أما اسم هكتور ونبل سجاياه فقد شوهته اللفظة التى اشتقت من هذا الاسم فى اللغة الانجليزية ، وسوف يخلد دهاء أودسيوس ، ووفاء بنلوب على الزمان ، وما دامت الأرض السموات ، أما فراق هكتور وأندروماك ، فلن يستطيع شاعر بعد أن يصور مشهدا أكثر منه اثارة للعواطف ٠

ومهما يكن من انصراف الأدب الحديث عن هذه الموضوعات وثورته على الأدب اليونانى القديم ، فقد استقرت قصة طروادة فى أغوار

آيات عبقرية خالدة

أفهامنا ، حتى لتطيف بنا دائما بعض مناظرها ٠ ولا يزال الفنانون جميعا ، مصورين أو كتابا ، يستوحون الهامات جديدة ودروسا جمة من هذا السجل الأول للحروب الأوربية ٠

أما الأسباب السياسية والأسباب المادية لهذه الحرب ، فقد سحب النسيان عليها أذياله منذعهد بعيد ، وان عجائب التاريخ قد نسختها بمناظر أكثر جدة فأصارتها معتمة كالحة • فان تكن سجايا القادة وفعالهم ، وكل من شارك فيها بنفسه أو تأثر بها عن بعد ، من رجال ونساء . قد أثقلت طويلا بهذه الأكداس من صنوف الأدب وألوان الأساطير ، فمانعتأصبابابهم وأتراحهم وأفراحهم ، طبيعية فياضة بالحياة ، وقد ضـــاع كثير من أنبائهم بالتصحيف أو بالنسيان ، بيدأن أرواحهم ، خبيثة كانت أو طيبة لاتزال تحيافي ذكرى أوطانهم طراودة وميسيني العظيمتين اللتين طال صراعهما ، كما انهم يحبون في سناء قادتهم ، وأجل من ذلك وأسمى أنها تحيا •• في عبقرية الشعراء الخالدين ، أمثال فرجيل وهوميروس •• وان القيمة الأدبية لهذه الحيـــاة بعد الموت لهي أجـــدى للنـــوع الانساني من الحياة المادية الدنيوية •

هذا وقد قرر بعض العلماء أن أجاممنون ان هو الا أسطورة من الأساطير الشمسية الرمزية وانتزع بعضهم هكتور من وطنه ونقله الى اليونان ، ودعاه : صدى من أصداء الحروب القبلية اليونانية التي لايعتدبها ، وشرح بعضهم الالياذة تشريحا وردها الى (أغان قديمة أصلية) لاحصر لها ، بل ان قصائد هوميروس قد تناولها التصحيح وامتهنت كما تمتهن كراسات الصبية في المدارس ، واستخدم مافيها من تناقض وتكرار للتدليل على عدم وجوده • ولايكاد يوجد مؤلف على درجة من النبوغ ، سلم من التناقض ، فقد أخطأ دكنز وثاكري ، وقد أخطأ في زماننا نحن غيرهما من المؤلفين . لكن التقـــدم المستمر في الاستكشافات الأثرية ، وماحاولناه هنا من اعادة انشاء الماضي المادي والتاريخي لكل من طراودة وميسيني وبيئتها في الدنيا القديمة ••

كل ذلك ينقل قصـــة طراودة الى عالم الحقائق التاريخية شيئا فشيئا • ولا ريب في أن المدنية التي صورها هوميروس ، مع شيء من التحفظ ان هي الا خلاصة موجزة للطور الأخير من أطوار الثقافة المينيويه والميسينية ، وللنقاد في كل يوم أسس يبنون عليها آراءهم ولذلك فمذاهبهم غير جديرة بالثقـــة • لقد وجدت طراودة وميسيني ، وأكبر الظن أن يكون بريام وأجاممنون

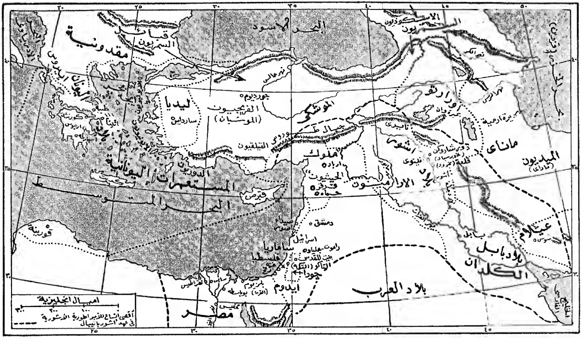


خلود قصة طراودة

ليست هذه اللوحة التي تصور الملك بريام وهو يتلقى من بنتيزليا الراكعة بين يديه ما تعرضه عليه من خدمات قبلها من الأمزونات الا برهان من البراهين التي لا حصر لها على الالهام الأبدي لقصة طراوده ـ واللوحة من القماش المزركش الفلمنكي في القرن الخامس عشر •

قد عاشا كذلك ••• أما هوميروس الذي تعود الدنيا أدراجها اليه بعقيدة سليمة من أباطيل النقد فلسوف يبقى حيا في أذهان الناس يمثل لهم كل ما قيل من الشعر في جميع العصور •

« لقد درست معالم اليوم Fuit Ilium » ولكنها وان دالت دولتها ، ودكت أسوارها ، وقتل حماتها ، ستبقى حية الى الأبد على ألسنة الناس وفي أذهانهم •



رقعة كبيرة من الأرض كانت مسرحا لحوادث التاريخ التى وقعت فى الصبح من عهوده

اختص الخبر الثالث بتناول الحوادث التى وقعت فى مدى ثلاثة قرون ونصف ، وقد انتقل مسرح التاريخ الانسانى فى هذه المدة من مصر وبابل الى الرقعة الفسيحة التى بيناها فوق هذا وقد انصرفت جهود الانسان فى النصف الأول من هذه المدة الى الصراع الذى خاضته أشور لبسط سلطانها على بابل ثم على مختلف الشعوب التى كانت تسكن الى الغرب من مجموعة أنهار أرض الجزيرة . على أن توسع اليونان الاستعمارى قد بدا فى الوقت الذى أخذ فيه الميديون (أهل الجبال) والأسكوذيون والسمريون والنربريون يتأهبون للظهور على مسرح الحوادث .

الخبر الثالث

الصبح

(٩٠٠ — ٥٥٠ ق٠م٠)

حينما نصل الى القرن التاسع قبل ميلاد المسيح ، يكون أفق تقويمنا قد اتسع ٠ وتكون مواد هذا التقويم قد استكملت ، وأصبحت أقل قابلية للخلاف ٠

فقد ضم الصقع الايجى نائيا الى العالم المعروف وقتئذ وقد كان من قبل مقصورا على أقاليم النيل والفرات وما بينهما ، وبدأ هذا الاقليم يتصل مجرد اتصال بالشرق (من الناحيه السياسيه) وشرع يترك لنا عن قصد شواهد نتعرف بها أحواله ٠

وقد بلغت الهجرات الآرية منتهاها الى الشرق ٠ واستوطن الفرع الايرانى، خلال قرون عده ، الأرجاء المجهوله فيما وراء الآكام الواقعه شرقى دجله ، والتى نعرفها الآن باسم فارس ٠ بيد أنه لم يكن قد سلك نفسه فى ممالك منظمة ٠ وثمة فرع آخر نفذ الى البنجاب ، مخترقا أفغانستان ، وجبال هندكوش ، ثم من البنجاب الى حوض الجانج ٠ وكان يخضع خلال ذلك ، السكان القدامى . من الدرافيد والمغل ، وقلما كان يعفى عليهم ، بل كان يدعم سلطانه فى كل مكان ، غير حريص أبدا على أن يظل عنصره نقيا ٠ وقد انتشر الى الجنوب فى جميع أرجاء شبه الجزيرة ٠ وكان ذلك بسبيل الانسياب أكثر منه بطريق الغزو ٠ أما الهند فلم تزل ، فيما يتعلق بالعالم الخارجى ، مملكه من السحر والخرافه ، وراء قناع لا يرتفع الا للحظات عابرة فحسب ٠

أما فى الغرب ، فقد حلت أجناس آريه أخرى محل الأناسى الأسبقين ، أو هيمنت عليهم ٠٠ فالفريجيون يجتازون الأناضول من الغرب ، واليونانيون سادات الأصقاع الايجية فى البر والبحر ، واللاتين والأوسكان يندفقون فى ايطاليا حيث يصطدمون بحشد آخر من الغزاة غير الآريين الذين قدموا من وراء البحار ، هم التيرانيون أو الاتروريون ٠ وقد شرق

المد والجزر فى الشرق والغرب

مد من الفلتيين وغرب ، من طريق أكثر اتجاها الى الشمال ، عبر أوربا ، ويحتمل أن يكون قد عبر القناة الانجليزية الى الجزائر البريطانية ، وجبال البرانس الى أسبانيا

الا أننا لن نسمع شيئا أكثر من هذا ، لا عن هؤلاء ، ولا عن الهنود، فى هذا الخبر ـ اذ لا محيص من تأجيل الكلام عليهم الى الفصل الثلاثين ٠

ولا جرم سنسمع عن قبائل أخرى ، لم تزل رحاله ، تستوطن الأقاليم الواقعه حول بحر الخزر ، والبحر الأسود: كالأسكوذيين والسمريين الذين صبغوا بصبغة آرية قويه ٠ وسيكون لتطور الايرانيين ومن يلونهم غربا شأن هام فى قصتنا ، غير أنها ما تفتأ تتركز فى حيز الامبراطوريات القديمة ، وفى أشور خاصة ٠

ولم تكن ثمة ، فى أرض الجزيرة ، ولا فى الأصقاع السورية طوال القرن الحادى عشر ، والنصف الأول من القرن الثانى عشر ، أية حكومة لها بالفعل سلطان على غيرها من الحكومات أو يخشى أن يكون لها هذا السلطان ٠ وذاك أن الصوالح التجاريه كانت العامل المسيطر فى بابل ، كما كانت أيضا فى فينيقية ٠ أما التفوق السياسى فأكبر ما كان له من قيمة هو المحافظه على أن تظل الطرق مفتوحه للتجارة مع الغرب ، فلم تحاول بابل بصفة جديه ، أو على الأقل باستمرار ، فى أيه فترة من تاريخها انشاء امبراطوريه بقوة السلاح ٠ أما فى أشور فلم يبد أى ملك منذ طجلاط بيلزر الأول ميلا ما، أو أية مقدرة ، على المبادأة بالعدوان ، وفضلا عن ذلك فقد شغلت الدولتان باستمرار بدفع غارات سكان الآكام فيما وراء دجله ٠

وقد ساعد ضعفهما حركة الآراميين الساميين من أهل الجنوب ، وكانوا أول أمرهم بدوا فى طباعهم ، وكان فى أعلى الفرات وفى بلاد النهرين القديمة امارات عمورية أو حبثية تمتد نحو الجنوب حتى جبال لبنان ودمشق ، فحل هؤلاء محلها أو استغرقوا أهلها أو اختلطوا بهم ، أو زحفوا صوب وادى الفرات الأدنى أو وادى دجلة الأعلى ، وانتقصوا بذلك من سلطان بابل وأشور الفعلى وان لم ينتقصوا من سلطانها الأسمى ٠

ومن جهه أخرى ، لم توجد دولة أو امارة فيما بين الفرات والبحر المتوسط ، استطاعت

أن تهيمن على جاراتها الا هيمنة وقتية ، أو أن تضم بعضها الى بعض بحيث تكون منها دولة متحدة . وقد أنشأ اليهود تحت امرة داود ، ملكهم المحارب ، مملكة شاسعة الا أنها لم تدم طويلا بعد انحلال غالبية قبائل بني اسرائيل الذى بدأ فى حكم سليمان ، وعندما أشرف القرن على الانتهاء كان زعماء دمشق الأقوياء قد أصبحوا ذوى الصدارة بين السوريين . أما مصر فقد انتكست بعد أن ظهرت فيها علائم نهضة محتملة فى عهد شاشانق .

استيقاظ أشور

على أن النهضة التى بدأت فى أشور منذ منتصف هـذا القرن كانت نهضة حقيقيـة . ولما صار الملك أدادنيرارى ملكا سنة ٩١١ ق.م وحد أداة للحكم أعاد تنظيمها أسلافه الأقربون ، فلم يأخذ نفسـه بالتوسع ، ولـكن بترسيخ دعائم ملكه فى حيطة وحذر ، وذلك بأن يرد الى رقابته الفعلية أقاليم شرقى دجله والحدود الشـمالية ، والتخوم الغربية التى غلبت عليها الصبغة السورية على طول نهرى الفرات والخابور .

ومن أجل هـذا ، كانت توجه أشد الحملات باستمرار الى الشمال ، وانتهى اخضاعه بالطريقة الأشورية المألوفة . وذلك بابعـاد من بقى من السكان الى أصقـاع نائية ، وبعد ذلك لم تكن ترمى حملات أدادنيرارى فى بلاد السواد الى ضم ممالك جديدة بل كانت مظاهرات يقصد بها اشـعار رعاياه الخاضـعين له بالاسم بحقيقة سلطانه . وقد وجد أدادنيرارى نفسه مرتين فى صراع مع بابل من جراء ولايات متنازع عليها . وهزم البـابليون فى كلتـا المرتين ، وانتهى النصر الأخير بمعـاهدة حدود اعترفت بسيادة ملك أشور على أرض السـواد . من الخـابور فى الغـرب ، الى الفـرات فى الجنوب ، الى ما يجاور بغداد الحديثـة فى الجنـوب الشرقى .



القسوة المجسدة

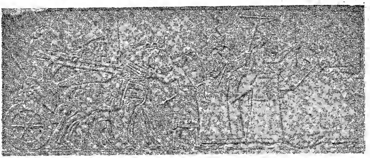
انتهج أشور ناصر بال الثـانى الذى تربع على العرش سنة ٨٨٤ ق . م . سياسية فى الفتح كانت سلسلة من أعمال التوحش الذى لا يعرف الرحمة ، وكانت ثمرتها هـذه الامـبراطورية الأشورية المترامية الأطراف

أما عمليـة التوسع الحقيقى فلم تكد تبـدأ الا فى السنوات الست التى وليها توكولتى نترتا الثانى (٨٨٩ ــ ٨٨٤) الذى كان يبحث فى الشمال عن حدود يسهل احتلالها أو الدفاع عنها حسب مقتضيات الموقف الحربى ، وقد أدى به هذا الى الاشتباك فى حـروب ناجحـة ، ضم بها بلادا جديدة . أما أشور المعتـدية فقد كشفت عن نياتها فى عهد أشور ناصربال الثانى . بعد أن كان نظام الحكم فيها قد وصل الى مسـتواه المرجو .

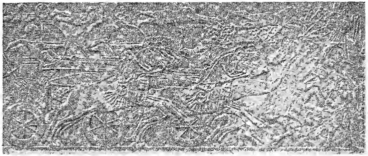
وكان أشور ناصر بال يدين لأسلافه بذلك الجيش المدرب تدريبا عاليا على حرب الآكام ، المزود بآلات الحرب والخيل ، المسـلح الى حد الكفاية ، وكانت خطة الفتح التى باشرها اما من سياسته هو ، أو امتدادا لما كان يهدف اليه أسلافه من حيث اعادة تنظيم مملكتهم على أسـاس حربى ، وكان حتما على أشور ومن حولها الأعداء من كل صوب يتربصون بها الدوائر أن تجعل نفسـها مرهوبة الجانب ، وأن تهاجم قبل أن تهـاجَم . وكان اخضـاعها لكل عدو من أعدائها يزيد فى حدودها فتنساق بهذا الى أعداء جدد ، مما يتطلب العلاج نفسـه ، فكان هـذا منهاجا من الفتح المنظم لا حد له ، ولم يكن الأمر مجـرد غارات مظفرة فحسب .

وكانت سوريا هى الغرض المنشود ، وذاك أنها كانت ، يوما ما خاضعة للفاتح الأشورى طجلاط بيلزر الأول ، ولأنها كانت تسيطر على طرق التجارة الغربية . بيد أنها قبل أن تفكر فى الغارة على سوريا كان عليها أن تتقى الغـارة عليها من خلفها .

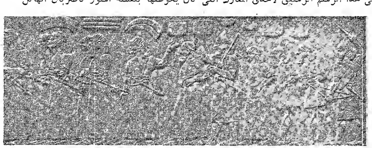
ويحق أن يطلق اسـم « الهائل » بجدارة على أشور ناصر بال ، لأن وسائله كانت مروعة حقا ، وذلك لخلوها من الرأفة . وكان هو نفسه مثالا للضراوة التى لا تعرف الرحمة ، والتى لم يكن يهذبها الا الضرورة السياسية من حين



أشور ناصر بال يتلقى خضوع أعدائه وقد ترجل من عربته الحربية والمظلة الملكية تحميه من أشعة الشمس . وقد وقف أمامه أحد هؤلاء الأعداء . ولعله يقدم للملك ولاءه أما الآخر الذى انبطح عند قدميه فلعله يأمل بهذه الضراعة الذليلة أن يفلت من الانتقام المجرد من الرأفة الذى اعتاد هذا الأشورى الفظيع ايقاعه بكل من تحداه .



كانت الخيل والعجلات الحربية تؤلف جزءا هاما من قوات أشور ناصر بال ، كما كان شأنها فى جميع الجيوش الشرقية ، الا أن منعة الجيوش الأشورية التى دامت لهم طويلا كان مردها الى حد كبير الى ربطهم بين الرماة وبين المشاة المدججين بالسلاح الذين يمنازون هم أيضا فى هذا الرسم الرئيسى لاحدى المعارك التى كان يخوضها بنفسه أشور ناصربال الهائل .



كان من ثمرة انتصارات أشور ناصربال أن وقعت فى يديه مغانم ضخمة وأسرى لا يحصيهم العد . ومن بين المنافع الأخرى التى كان ينتفع بهم فيها . تسخيره اياهم فى اعادة بناء قالة حيث شيد لنفسه قصرا فخما ، اذ كان بنـاء عظيما كما كان فاتحا عظيما ، وقد تقدم الفن فى عهده تقدما كبيرا ، كما يدل على ذلك هذه النقوش الحائطية التى تصور حياته والمنقولة عن قصره .

الى حين . وقد أصبح ذلك طابعا للامبراطوريه الأشوريه التى يعتبر هو منشئها ، فكان من دأبه أن يسلخ جلود الزعماء الذين يترأسون الثورات وهم على قيد الحياة ، فاذا تحدته المدن، وعنفت فى مقاومه قوانه ، فعندها يتعرض سكانهـا للمجازر العامة التى تستباح فيها كل ضروب الوحشيه ، لم يبقى أهالى الولايات المغلوبه على أمرها أفرادا وجماعات ، فحيثما مر بجحافله التى لا تقهر،لم تكن تنهض بعدها مقاومه ما .

وقد روع ملك الأشوريين فى الغزوات الأولى ابان حكمه ، سكان الآكام الضاربين فوق العدوة اليسرى لنهر دجله الى الشمال مما يتاخم الاقليم المسمى نايرى ، الذى يحد أرمينيا حيث ينبع النهر . ومن ثم ، أهوى على الآراميين الثائرين بين الخابور والفرات، فاضطرهم ، على الفور ، الى الخنوع الذليل السريع . وأدى ما فى نظام الحكم الجديد من غلطة الى ثورة جديده شملها ملك بابل المسلح بعطفه، فأرسل كتيبة قوية يسند بها العصاة، ومع ذلك فقد سحقهم رماه الأشوريين ومشاتهم المدججون بالسلاح الذين امتازوا على الخيالة والعجلات الحربية، التى كان من دأب الجيوش الشرقيه أن تضع فيها جل اعتمادها . . . وقد تم سحقهم فى معركه دامت يومين .

وكادت المعركة أن تتم اخضاع جميع بلاد السواد مما يلى المملكة البابلية ، وعندما عبر الفرات أشور ناصر بال ، لم يكن يقصد فتح الامارات الواقعة بينه وبين البحر المتوسط ، بل كان ذلك ليتلقى منها استسلامها ، ولم يفكر هذا الفاتح طيلة الخمس عشرة سنة الأخيرة من حكمه فى التوسع ، ثم خلفه ابنه شلمانصر الثالث سنة ٨٥٩ ق . م .

وكان أشور ناصر بال قد أشفق من مقارعة القوة العظمى الواقعة وراء الفرات ، والتى كان قوامها ذلك التحالف المفكك المكون من الدويلات السوريه ، والذى كانت زعامته الى ابن حداد الدمشقى ، ولم تكن تؤلف بين أعضاء ذلك الحلف تلك الرابطة القوية الكافية لتكوين امبراطورية هجومية ، وان استطاع أن يؤلف عصبة قوية للدفاع . كما تبين ذلك شلمانصر بعيد ذلك . عندما أحيا سنة السياسة الأشورية فى التوسع . وقد ظلت دمشق أجيالا عدة الحصن الذى يحمى الجنوب من اعتداء الأشوريين ولو أنها فى الوقت الذى لم تكن تتجرع فيه الغصص على أيدى الأشوريين كانت فى معظم أوقاتها تحارب الاسرائيليين والامارات القبلية الأخرى ، التى كانت تتناسى أحقادها لتواجه مجتمعة ما يتهددها من الشمال .

وقد حدث هذا النضال الذى ظفر فيه أهاب ملك الاسرائيليين، بنجاح جوهرى عندما هاجم شلمانصّر بقواته سوريا فى العام السابع من حكمه سنة ٨٥٣ ق . م ، الا أن أهاب ، هو وحشد من الأمراء الأقل منه شأنا ، قد انضموا الى ابن حداد فنشبت معركة طاحنة عند قرقر، وقد خلدها الأشوريون فى سجل انتصاراتهم المبينة ، الا أن السوريين ، وان ذهب شملهم أباديد ، قد أذاقوا شلمانصَّر الأمرين، حتى لقد تصرمت خمس سنين قبل أن يفكر فى غزو أعدائه الألداء .



مثبت أركان أشور

شالمانصّر الثالث ، بن أشور ناصربال الثانى الذى خلفه سنة ٨٥٩ ق . م . والذى نهج نهج أبيه فى سياسة التوسع الأشورى . وقد هدت هذه اللوحة فى الكرخ على ضفة نهر دجلة

وانتهز أهاب ، الفرصة السانحة للانضمام الى رعموث ـ جيليد Ramoth Gilead، ضد ابن حداد ، فكان كالساعى الى حتفه بظلفه ، فلم يمض غير سنين قلائل بعد هذا ، حتى قضى على بيته (بيت عمرى Omri) على يدى جيهو Jehu ، ولكن هجمات شلمانزر التى تجددت طوال الثلاث سنوات التالية قد استنفدت كل جهود ابن حداد . وباءت بالفشل هذه الحملات جميعها ، وذلك بالرغم من أن شلمانصر كان يقود فى الحملة الأخيرة منها قوة كبيرة الشأن

لم يسمع بها من قبل ، اذ قدرت بما لا يقل عن عشرين ومائة ألف مقاتل . ولا جرم أن ابن حداد كان مقاتلا من الطراز الأول ، وان تجاهل عظمته الأشوريون واليهود على السواء .

وقد تاحت الفرصة كرة ثانية لشلمانصر ، عندما اغتال ابن حداد خلفه حزائيل Hazael وبعد ما تفوض بيت عمرى فى بنى اسرائيل . ففى سنة ٨٤٢ أوقع شلمانصر هزيمة ساحقة بحزائيل ، وان أخفق مع ذلك فى سحق دمشق بالرغم من تضاؤل قوتها ، وضعف نفوذها الى حد خطير . وسهلت بذلك مهمة بسط السيادة الأشــورية على جميع الاقليم الواقع شــمالى دمشق ، فيما بين الفرات والبحر .

ولم يكن توسط شلمانزر بـين الأخوين المتنازعين على عرش بابل أقل أثرا فى تثبيت دعائم الامبراطورية الأشورية ، اذا كانت النتيجة الطبيعية لذلك ، أن يصبح أحد الأخوين ، الذى يدين بتاجه لشلمانزر ، خاضعا لسلطانه ، وعلى العموم فقد كان البابليون راضين عن طواعية بدفع ثمن السلامة التى استمتعوا بها فى تجارتهم فى ظل السيادة الأشورية ، بينا كان الأشوريون أنفسهم يجنون ثمار ما يبذلونه من الجهود لتنمية ثروة بابل التابعة لهم .

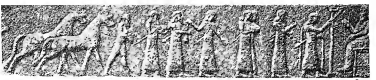
ومنذ بدء عهــد شلمانزر ، الى أن توفى سنة ٨٢٤ ، كانت قواته ما تفتأ ، فى الفينة بعد الفينة ، تصطدم بالدولة الوانية Vannic (وقد سميت باسم بحيرة وان) التى كانت توطد دعائمها فى الآكام الشمالية . وكانت تعرف كذلك باسم أورارتو (أرارات) وقد وقعت عليها لأول مرة عين أشور فى أيام أشور ناصربال



اصطدم شالمانصر الثالث مرة بعد أخرى خلال عهده بأهل أرارات (أو رارتو) من سكان الجبال الذين كانوا يؤلفون من أنفسهم دولة ، كان من أسمائها كذلك المملكة الوانية ، من اسم بحيرة وان ، امتدت فى الأيام الأخيرة وكونت حلفا مع المبديين، وتصور هذه الشقة الوانيين وهم يهبطون من جبالهم ليلتحموا فى معركة مع الأشوريين .



ويرى الأشوريون ، فى هذه الشقة التى هى تكملة لما فوقها ، وهم يحاصرون أرساشو ، احدىمدن أرارات الكبيرة التىافتتحها شالمانصر وسباها ثم خربهــا ، وترى المدينة وألسن النيران تنبعث من أعلى حصونها ، وتتجلى الفظاعة الأشورية فى الجثة التى قد أطيح برأسها وان تكن المعركة لا تزال ناشبة .



ومع ذلك فان شقة أخرى تسجل احتلال وتخريب مدن بارجا وآدا وفرفر ، وقد صور شالمانصر المنتصر فى الجزء الموجود منها هنا وهو جالس على العرش يتلقى الغنائم التى تشمل الخيل من رجال قرقر . وكانت هذه الرقائق تحلى أقواس النصر التى أنشأها شالمانصر لبخلد بهافتوحه وهى أمثلة فائقة لمهارة الأشوريين فى الصناعة المعدنية .

والطاهر وأنه لم يكن بين الواميين وبين الآرية فى ذلك العهد وشائج قربى ، بالرغم مما اتسمت به لغتهم من السمات الآرية فيما بعد • ولم تكن مصادماتهم بذات بال حينذاك ، الا أنها كانت تنذر بشر مستطير •

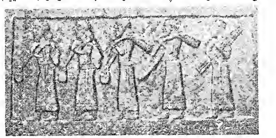
وقد تضاءلت قوة شلمانصر فى أواخر أيامه من جراء الثورة التى أضرمها ابنه الأكبر أشور دانين بال بسبب ما هضمه حقه فى ولاية العهد ، وتخطيه الى أخيه الأصغر شمشى أداد الخامس الذى حكم من (٨٢٤ – ٨١١ ق • م •) ولم تخمد تلك الثورة نهـائيا الا بعد الثلاث السنوات الأولى من حكم هذا الملك كان يحكم فيها بالاسم فقط • ونتيجة لذلك لم يقض شمشى أداد بقية عهده فى توسيع الامبراطورية ، ولكن فى اعادة سيطرته داخلها ، تلك السيطرة التى تزعزعت خلال الحرب الأهلية الطويلة – فلم يكن بد من اخماد الثورة شمالى سورية •

أما الحزب المنـاهض لأشـور فى بابل فكان قد انتهز فرصة ضعفها ، واستعاد نفوذه فيها ، ولم تنشب المعركة النهائية الا سنة ٨١٣ • ثم توفى شمشى أداد بعد عامين من تلك السنة ، فحكم من بعده ابنه أداد نيرارى الثالث ، ولو أن مقاليد الحكم كانت فى الواقع بيد أمه سموراامات (وهو الأصل الذى اشتق منه اسم سميراميس الشـهيرة) وقد كان أداد نيرارى هـذا آخر الحكام الأكفاء من هذه الأسرة ، فلم تفقد أية ايالة فى عهده ، وثبت دعائم سلطانه فى طول الولايات المتحدة وعرضها ، كما كان يقتضى الجزية ممن لم يفتح ولاياتهم من أمراء سوريا حتى ايدوم Edom فى أقصى الجنـوب • ولعل الكثيرين من هؤلاء الأتباع كانوا ينظرون الى العاهل الأشورى نظرتهم الى محررهم من ربقة دمشق – ولم تكن طاعتهم له اذ ذاك تكلفهم رهقا • اللهم الا اعطاءه الجزية التى لم يستطيعوا





يصور الجزء العلوى من هذه اللوحة ، فى الجانب الشرقى من العمود تقديم أهل بلاد موسرى (فى سوريا) الجـزية المؤلفة من الفيـلة والنسانيس، أما الجزء السفلى فيمثل جزية العاج والأخشاب النادرة التى أرسلها مردوك – أپال – أُسَر ملك بلاد السوخو (الآراميين)



المسلة السوداء من قصر الملك شالمانيزر فى قاله

أقام شالمانصر الثالث فى قصره المتوسط فى قاله (نمرود) عمودا من المرمر الأسود نقش على جوانبه الأربعة وصفا لحملاته فى الاحدى والثلاثين السنة من سنى حكمه ، وبالعمود عشرون لوحة بالنقش البارز تشرح المتن ، ومن بين الأمراء المغلوبين على أمرهم چيهو الاسرائيلى الذى صور فى صحيفة ١٢٠ وشالمانصر يتسلم منه الجزية فى أثناء حملته الحربية على حزائيل ملك دمشق سنة ٨٤٢ ق • م •

قطعها عن حزائيل ، أو عن ولده ابن حداد الثالث ، وكانت الغيرة من الدولة القريبة القوية عاملا أقوى فى هذا الخضوع من الخوف من دولة أبعد ظلت دمشق حتى ذلك الوقت قادرة على صد أشد غاراتها •

وكان فى وسع أداد نيرارى أن يفخر وهو مطمئن بأن أصبح ملكا على شعوب كثيرة لم تخضع لأسلافه قط • أما دمشق التى ظلت على عنادها وان هجرها أحلافها أو انقلبوا عليها بالفعل فقد كانت عدوه اللدود الذى كان عليه أن يناصله فى الجنوب • ثم استسلمت سنة ٨٠٢ • وأما فى شمال سورية • فى فينقية والسواد ، بما فى ذلك بابل ، فلم يكن عليه الا أن يوطد ما تم على يدى شمشى أداد •

ومما هو جدير بالتقدير أشق أعماله ـ بل أشدها غموضا ، فى البطائح الشمالية والبطائح الشرقية ، حيث كانت دولة أورارتو ـ المملكة الوانية ـ توسع أملاكها ، وتحالف فى الشرق الميديين والمانويين ، وربما كان هؤلاء أشبه بطلائع الميديين • ويزعمون أن أدادنيرارى قد وصل الى شواطىء بحر الخزر ، على أنه لم يفتح أية ولاية جديدة بالرغم مما كان لابد منه من خوض حومة القتال ، وبالرغم مما عصفت به يده من مدائن الميديين •

وقد هوت أشور عن أفقها السامى بعد موته سنة ٧٨٢ ، وذلك فى عهود خلفائه الثلاثة الذين امتد حكمهم طوال السبع والثلاثين سنة التى تلت • ذاك وقد باء هؤلاء الملوك بالفشل فى حروبهم باستمرار • أما فى النجد المختلف عليه فقد استقر فيه سلطان ساردبوس وأرجستوس صاحبى أورارتو ، ولم يجد الأشوريون مندوحة من الارتداد الى وراء ، وأما بابل التى أخلدت الى الراحة طويلا ، فقد ثارت واستردت استقلالها



الملك شمشى أداد الخامس

أنفق شمشى أداد الخامس ، الابن الأصغر لشالمانصر الثالث ، والذى خلف والده سنة ٨٢٤ ق • م • معظم عهده فى سحق الحرب الأهلية التى أشعلت نارها ثورة أخيه الأكبر

ثم ثار أمراء شمالى سوريا كذلك ، وهزموا الحملات التى أرسلت لتأديبهم • وأما فى أقصى الجنوب ، ومنذ أن قصت أطراف دمشق ، فقد كان ملوك بنى اسرائيل يمدون سلطانهم على حساب خصمهم القديم •

وقد أغرق عجز الملكية أشور غمسها فى طوفان من الثورات والحروب الأهلية التى ربما أججها ذلك الشغف الذى أحدثه كسوف سنة ٧٦٣ وكان مرجعه المعتقدات الخرافية • ووقعت المملكة العظيمة فى حال من الفوضى لم تنته الا سنة ٧٤٥ ، حينما استأصل ضابط يدعى بول (اذا أخذنا برأى أغلب المؤرخين) شأفة الأسرة الملكية ، واستأثر من دونها بالتاج لنفسه ، باسم طجلاط بلاسر الثالث ـ ذلك الاسم الذى يعيد الى الأذهان ألوانا من العظمة القديمة ذات البهاء •

وقبل الاستطراد بهذا التقويم الى الطور الثانى من أطوار الامبراطورية الأشورية ينبغى أن نعود بذاكرتنا الى تلك الدولة الجنوبية التى كانت قوية يوما ما والتى أخنى عليها الدهر طويلا ، كما ينبغى أن نتذكر النزعة القومية السارية وقتئذ خارج الرقعة التى كانت معظم قصتنا المتصلة المتصلة الحلقات مقصورة عليها الى ذاك الوقت فقد كانت روافد المدنيات القديمة والحديثة تقترب الآن من نقطة التقائها •

وقد تركنا مصر عند مختتم القرن العاشر ، عند ما كانت تنبثق منها تباشير انتعاش جديد لم يقدر له أن يستكمل فى عهد شاشانق اللوبى (أو شيشاق حسب ما جاء فى الكتاب المقدس) مؤسس الأسرة التى كانت تعرف باسم (الأسرة البوباسطية) سنة ٩٤٧ ق • م • والتى كانت قصبتها فى (بوبسطة) شرقى الدلتا • على أن نشاطها المؤقت قد تضاءل ، بالرغم من محالفة فيلستيا Palistia لها ، لكى تستنفد

نفسها من الخصومة اليهودية فلم تقم بأى عمل حربى فى آسيا منذ غزوة سنة ٩٣٠ التى عاد فيها شاشانق بالأسلاب من بيت المقدس، ولم يكن حكم البوبسطيين الا حكما خاملا فى بلاد خاملة، بينما كان أمراء البيت المالك الذى انتزع منه شاشانق السلطان، يحكمون دولة نوبية مستقلة فى أقصى الجنوب، عند نباتا ٠ وبينما كان الأعيان المصريون لا يأبهون كثيرا بفرعون ٠

وفى سنة ٨٦٠ انفصل كل من الوجه البحرى والوجه القبلى من جديد ، وذلك بتنصيب أسرة أخرى فى طيبة ، وبعد حوالى مائة سنة من هذا الوقت ، حينما كان تجلاط بيلزر يعمل على اغتصاب التاج الأشورى ، جاء ملك آخر يدعى كاشطا ، ملك نباتا ، وكان الى حد ما نوبيا أو اثيوبيا، فاستخلص لنفسه ملك طيبة، وكانت زوجته بنت ملك بوبسطة ٠

أما فى الآكام الواقعة خلف العدوة من دجلة الأدنى ، فقد كانت ــ عيلام القديمة تضطلع بدور خطير فى الحوادث الأولى من تاريخ بابل ، بيد أنها ظلت قرونا كبيرة لا تظهر على مسرح الحوادث الا حينا بعد حين ٠ ولم تستطع فرض سلطانها على بابل زمنا طويلا ، فكان كل همها موجها الى المحافظة على كيانها من غارات القبائل الايرانية التى كانت تواصل ضغطها فى الأراضى الواقعة من خلفها طوال ألف سنة ٠ لكنها كانت لا تزال



رجل المقادير الأشورى

فتح تجلاط بيلزر الثالث الجندى العظيم الذى كان اسمه بول Pul كما ورد فى العهد القديم ، والذى ارتقى عرش أشور سنة ٧٤٥ ق ٠ م بلاد بابل وسوريا ٠ ووسع امبراطوريته قبل موته سنة ٧٢٧ حتى بلغ بها تخوم مصر ٠

تؤدى واجبها بالوقوف فى وجه هذه القبائل ٠ ولو أن الموعد الذى أوشكت فيه أن تندمج فى الفرس ، بعد أن خضض الأشوريون شوكتها ، كان قاب قوسين، كما كانت دائبة فى مد يد المساعدة الى الثائرين المطالبين بتاج بابل ، واحتضانهم من وقت الى آخر ٠

قدوم الميديين والفرس

ولم يكن الايرانيون ولا الميديون ولا الفرس قد أنشأوا بعد حكومة منظمة، بل كانوا يقيمون فى ذلك الاقليم الواقع خلف (عيلام) ويمتلكون سلاسل الجبال التى انقضت منها أقوام الجوتيين والقاصيين Gutians & Kassites على بلاد السواد فى العصور الحالية ٠ والى هذا الوقت لم يكن الفرس قد ظهروا بوصفهم جنسا مستقلا على مسرح الحوادث ، أما الميديون (ماداى Madai) فقد ظهروا على وجه التحقيق أثناء الحروب التى شنها أدادنيرارى الثالث فى الشمال ، وقد بدأت شئونهم ترتبط الآن عن طريق الماننين بالدولة الأرمينية المنظمة فى أورارتو ٠ ولم تكن المملكة الوانية من القوة بحيث تهجر معاقلها الجبلية لتجرب حظها مع أشور فى سهول السواد ، لكنها كانت قد أصبحت خطرا داهما فى مؤخرتها ، كلما ولت وجهها شطر الجنوب أو الغرب ٠

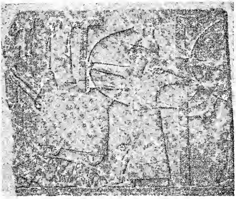
ومنذ انهيار دولة الحيثيين القديمة ، لم تقم دولة أخرى تماثلها فى القوة بالأناضول ٠ على أنه قد قامت على أنقاض الدولة الحيثية سيادة الفريجيين الذين كان الأشوريون يطلقون عليهم اسم (الموشكى Mushki) وهم طبقة ثانية من أسياد الغزاة القادمين من الغرب الذين أثاروا القوات التى كبح رمسيس الثالث جماحها من قبل ٠ ولا نستطيع الا أن نحدس فيما يتعلق بقصة نشوء هذه السيادة ، وذلك فى حدود النظرية التى تعارفها علماء الانتشار الآرى ٠ وذلك أن بلاد الأناضول لم تكن قد غزتها من قبل أقوام مهاجرة تسلب سكانها القدامى أملاكهم ، لكن المهاجرين الفريجيين كانوا قد أنشأوا على مر الزمان أسرا عظامية، فلما تقدموا نحو الغرب أطلق اسمهم على المملكة التى استقروا بها وتولوا مقاليد الحكم فيها ٠ ولاشك فى أن جمهور السكان فى البلاد التى كان اليونانيون يطلقون عليها فريجيا من ذلك الأصل الذى اشتهر بين الشعراء الهوميريين باسم الفريجيين ، بيد أنه من المحتمل كثيرا أن يكون أمراؤهم منحدرين من أصل فريجى ٠

وفى القرن الثامن (ق ٠ م) كان معظم الأناضول مما يلي أراضى السواحل واقعا تحت حكم المملكة الفريجية التى كانت قصبتها فى جروديوم، والتى كان أمراؤها ينسمون دائما باسم جورديوس أو ميداس، وكلاهما من الأسماء الشائعة فى الأساطير اليونانية فى آخر أيامهم٠ أما الأسانيد الأشورية فتسمى ملك الفريجيين باسم« ميتا ملك موشكى »٠

وكان أهل السواد ينظرون الى الميديين والوانبين والفريجيين نظرتهم الى أقوام همج أحط منهم مستوى ، فقد كان لأولئك تقاليدهم التاريخية وثقافتهم المتصلة التى ترجع الى ألفين من السنين على أقل تقدير ٠ ومع ذلك فقد كان وراءهم برابرة الشمال من تراقية فى الغرب ، الى بحر الخزر فى الشرق ، وكانوا أشد انحطاطا من هؤلاء أنفسهم ، بل كانوا همجا فى نظر الميديين والوانبين والفريجيين ، اذ كانوا من القبائل الرحل التى تنقسم بوجه عام الى سكوذيين وسمريين (أنظر الفصل الثلاثين) وسرعان ما أصبح أولئك وهؤلاء من عوامل القلق فى شئون العالم المتمدين ٠ أما فى الغرب فكانت توجد الشعوب التى لايكاد يعرف عنها الشرق شيئا ، وكانت قد تركت طور الهمجية ، ولو لم تدرك بعد ما كان فيه الشرق من التبربر اذا قيس الى الجنس اليونانى ٠ وذاك ان العالم ، بالنسبة اليهم ، لم يكن ينقسم الى همج ويونانيين ٠

التطورات فى العالم اليونانى

حينما استهل القرن العاشر كانت هيلاس قد تم نماؤها ، وكانت كل البلاد الأوروبية التى ينصرف اليها تفكيرنا اذا ذكرت كلمة اليونان Greece بما فى ذلك جميع الجزائر ، ومعظم ما تبقى من الشواطىء الشمالية والشرقية لبحر ايجه ، قد احتلته طوائف هيلانية (يونانية) وقد استقرت أقوام منهم فى شواطىء آسيا الصغرى الشمالية والغربية وأطلقوا عليهم اسم أيوليس Aeolis ، وكانت الهجرة الدورية قد وصلت الى منتهاها٠وأدت هذه الهجرة الى استعمار ايونيا فى الأصقاع الوسطى من شاطىء آسيا الصغرى ، بينما احتل الجنوب الدوريون أنفسهم ، وفى وسعنا أن نقول بوجه عام ان كل طائفة قد أخذت بنظام دويلات المدن (وان لم تكن كل دولة مقصورة بضرورة الحال على مدينة واحدة) وكان يحكمها ملك وراثى



آلة الحرب الأشورية الضخمة أثناء القتال

كان طجلاط بيلزر الثالث يستعمل الوسائل الحربية التى ابتدعها أشور ناصربال الثانى بعد مائة سنة من موت هذا الأخير . ولاحظ هذا الحجر (البلاطة) الرخامى من قصره فى قاله ، فهو يصور بعض أسرى مدينة يحاصرها الأشوريون وقد صلبوا على الخوازيق وراح الرماة يقتلونهم بالسهام وبالمدقات .

يساعده مجلس من الأعيان ٠ ثم انحدر الملك بالتدريج الى مستوى الأعيان ، وانحدرت الملكية القديمة الى عطامية متوارثة ، وسارت الدول على هذا المنهاج واحدة فى أثر واحدة مع اخلاف قليل فى التفاصيل ٠

وتم هذا التبدل فى جميع المدن اليونانية قبل أن ينتصف القرن الثامن اذا استثنينا أحوالا قليلة ٠ أما أهم هذه الاستثناءات فهى أسبرطة (ليسديمون Lacedaemon) التى ظل نظامها الفذ ، القائم على الملكية الثنائية قرونا عدة ٠ وكان الملوك وقتئذ لا يزالون يحكمون آرجوس المنافسة القوية لمدينة أسبرطة فى البلوبونيز (المورة) وفى الأقاليم الجبلية الأكثر بداوة ، فى الشمال وفى الغرب ، كمقدونيا وأبيروس ، لم يكن نظام المدن قد نشأ بعد ، اذ ظل الملك أشبه ما يكون برئيس أعلى بين عدد من زعماء العشائر ٠

وكان نظام دويلات المدن ، قد استقر فى كل مكان من زمان بعيد ، فكل المدن العظمى (أسبرطة وكورنثه وأثينا وطيبة وما اليها) التى كان عليها أن تقوم بدور هام ، مستديم أو مؤقت ، فى تطورات الأربعمائة السنين التالية كانت دويلات ملكية معروفة مدى قرون عدة من قبل ، والى هذا الوقت ، كانت أكثرها تقدما هى المدن الواقعة على الساحل الأسيوى بيد



ملك بابل الكلدانى

كان الملك مرودك بلادان ، ملك بل (من سنة ٧٢١ — ٧٠٩ ق ٠ م) كلدانى الأرومة وهو فى هذه اللوحة يعطى (بل — آخ — اريبا) وهو وجيه بابلى ، وثيقة بقطعة من الأرض وهبها له ٠

أن نوسع هيلاس الكبرى عربا فى البحر المتوسط ، لم يكن قد بدأ بعد ٠

ومهما كان الأمر ، فلم تكن هيلاس (اليونان) حقيقة ملموسة أكثر منها فكرة مجردة ، وكانت مجموعة الدويلات الهيلانية العظيمة بدون وحدة سياسة ، لقد كانت ثمة وحدة فى العاطفة ٠٠ وشعور بالقرابة العامة ، والتفوق على الأجناس الأخرى ٠٠ يرتكز ذلك كله على تقاليد مشتركة وأفكار دينية مشتركة ومعبودات مشتركة ولغة مشتركة وأدب مشترك ٠ بيد أن هذا العدد الجم من الدويلات المستقلة كان يرتبط عادة بعضه ببعض ، بهذا الرباط النحيل من العاطفة ليس غير ، فمن وجهة النظر السياسية ، كانت القوة الرابطة فى تلك العاطفة أقل بكثير من القوة المفرقة ، الصادرة عن تضارب المصالح ، والتنافس فى الأطماع ٠

أما الآن فينبغى ، لأول مرة أن ننجه بأنظارنا هنيهة الى الأفق الغربى ، وذلك أنه قد قامت مدينتان فى النصف الأول من القرن الثامن ، احداهما على الشاطىء الافريقى ، والأخرى فى ايطاليا ، كان لهما فى ذمة المستقبل شأن خطير فحوالى سنة ٨٠٠ ق ٠ م ، أنشأ الفينيقيون من أهل صور مستعمرة تجارية فى قرطاجه ، وفى عام ٧٥٣ ق ٠ م ، على ما ورد فى الأثر أنشئت رومة ٠

رأينا أن أشور استردت قوتها التى كانت قد اضمحلت ، لا بسبب الانحلال الذاتى بل لعجز الملوك الأواخر من الأسرة القديمة ٠ وبعد سنة ٧٤٥ ق ٠ م ، تجاوزت طور هذا الانتعاش على يد طجلاط بيلزر الغاصب المقتدر الثالث من حملة هذا اللقب ، وان أطلق عليه اسم الرابع عادة ، فكانت الحرب الأهلية قد مزقت أوصال أشور من جراء ما أصابها من كوارث مدلهمة فى السنين الأخيرة ، فأفلتت سوريا من قبضتها ، وأذنت لأورارتو بفرض سلطانها على البطائح الجبلية ، فى الشمال والشمال الشرقى ، أما فى الجنوب ، والجنوب الشرقى فقد استردت بابل استقلالها وان لم تسترد قوتها ، وهى التى ظلت حماية أشورية فى واقع الأمر مدى نصف قرن من الزمان ، وقد هيمن طجلاط بيلزر ، غير منازع مدى الثمانى عشرة سنة من حكمه على وطنه ، وأعاد السلطان الاشورى فى ربوع سوريا ، ورد أورارتو الى الوراء ، ودعم حدوده ، وفرض حمايته من جديد على نابونصر البابلية ، ثم ضم اليه تاج بابل آخر الأمر ٠ وتبين أن الجحافل الأشورية ، اذا أوتيت القيادة الصالحة ، كانت لا تقاوم كد أبها ٠

رجل الأقدار الأشورى

وكان أهم ما تعجله من شواغل الحكم عند ارتقائه العرش ينحصر فى شئون الدولة البابلية وفى دجلة الأدنى ، لضعف الحكومة المركزية التى لم تقو على حكم طوائف الكلدانيين ، الذين كانوا بدوا تسربوا الى البلاد كما فعل الآراميون من قبل ٠ ووجهت أولى حملات طجلاط بيلزر لكفالة السلام فى بابل ، وذلك بتدعيم سلطان أشور ، وهو القوة التى كان يستند اليها الملك نابو نصر وأصبح هذا الملك الأداة التى يهيمن بها الأشوريون على البلاد بعد انسحابهم منها ٠ وأمضى الملك بعد ذلك فترة قصيرة فى التلال القائمة شرقى دجلة ، أعقبتها حملة على حلف سورى فى الشمال ، اثاره ، ان لم يكن قد نظمه ساردي‌وس أمير أورارتو ٠ وقد كسر الاحلاف ، أما ساردي‌وس الذى كان حاضرا ، فقد اضطر الى الفرار من ميدان المعركة ، جارا وراءه أذيال الخزى ، وبعد حروب أخرى دامت عامين كاملين أصبح طجلاط بيلزر صاحب السلطان مرة ثانية على سورية الشمالية كلها بما فيها دمشق ٠

شبت ثورة أخرى فى سورية فى عام ٧٣٩ فكانت سببا فى ابطاء العمليات الحربية ضد

أورارتو أو اعتراض سبيلها ، وربما كان موقد نار هذه الثورة هو الملك الهرم جواده (أظيه Uzzih) أما مملكة اسرائيل فقد وقف تقدمها فجأة من جراء سلسلة من الثورات . ثم كانت الحملة الرئيسية على أورارتو . التى أصابها الوهن زمنا ما . وان تكن جميع المحاولات التى بذلت للاستيلاء على عاصمتها قد أخفقت وأمضيت السنوات الثلاث التالية فى غزوات سورية فهرت فيليسطيا خلالها واستسلمت ، وسحقت دمشق نهائيا ، وكادت سورية كلها تدفع الجزية لأشور وتبذل لها خدماتها .

طجلاط بيلزر فى ذروة مجده

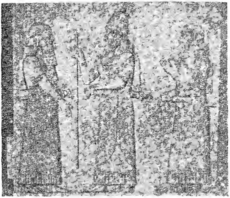
وفى خلال هذا الوقت ساد الاضطراب فى جنوب بابل من جديد ، وتنازع التاج مدعوه ــ بحق أو بغير حق ــ عقب موت نابو نصر سنة ٧٣٤ . ومن بين الأمراء الكلدانيين، مردوك أبال الدين الثانى (الوارد فى التوراة باسم مرداك بالادان) والذى يذكر هنا لأول مرة ، وسنتلوها بعد ذلك مرات ، وقد قبض طجلاط بيلزر من فوره على زمام الأمور ، فأخمد أنفاس العصاة بلا تحيز ، وأرضى بذلك عامة أهل مدينة بابل ، الذين لم يساهموا فى الشغب ، وأبعد أكثر من مائة ألف من سكان الأقاليم الى أصقاع نائية ، كما ترك بابل بلا ملك ردحا من الزمن ، تحت ادارة حكام من الأشوريين ، حتى اذا وافت سنة٧٢٨ تقلد تاج المملكة البابلية وخلع على نفسه ألقابها وتسمى باسم (بول Pul) . ومات بعد ذلك بسنة واحدة .

وكان عهد خلفه شالمانصر الخامس (٧٢٧ ــ ٧٢٢ ق . م) قصيرا . فقد ثار بنو اسرائيل فى عهد هوشيا Hoshea آخر ملوكها ، كما استمر حصار ساماريا ذلك الحصار الذى مات خلاله شالمانصر فى العام الخامس من حكمه ، ويحتمل أنه راح ضحية المؤامرة التى أتاحت لسرجون الثانى ارتقاء العرش الأشورى سنة ٧٢٢ دون أن ينازعه عليه أحد .

ونحسب أنه لم يكن لطجلاط بيلزر حجة فى العرش الذى اغتصبه خير من أنه كان الرجل الذى هيأته الأقدار لانقاذ الدولة . أما هو فقد كان يدعى أنه من سلالة الأسرة الملكية القديمة . وربما كان اسمه ، كما كان اسم طجلاط بيلزر قد اتخذ لتذكير الأشوريين بالأمجاد القديمة التى اجتمعت حول سرجون ملك أكاد Agade . ويبدو أنه قد سلم بارتقائه بغير ما تردد. على أنه قد لقى مقاومة من القوات المعادية منذ أن ولى الأمر .

وكان جيش من جيوشه يعمل للقضاء على ملك بنى اسرائيل العنيد ، أما فى بلاد بابل فقد امتشق الكلدانيون السلاح مرة ثانية ، وانقضت سياسة مروداك بالادان الذى لاذ بالفرار فى الفتنة الأخيرة ، تزويدهم بأكفأ فصائل عيلام . وقد كان روزاس ــ خليفة ساردبوس على أورارتو ــ يؤلف حلفا مع المديين فى جانب . وحلفا ثانيا ــ فى جانب آخر ــ مع ميتا صاحب موشكى (وهو ميداس ملك فريجيا) وكان يثير الفتن فى الاقليم الذى يصح أن نسميه من الآن قليقية . وكانت مصر هى الأخرى على وشك أن تتظاهر بالتدخل مرة أخرى فى الأمور الأسيوية . وكان هوشيا قد اعتمد من قبل عمدا على المساعدة المصرية عندما أبى دفع الجزية الى شالمانصر .

عندما وطد كاشطة الاثيوبى دعائم سلطانه فى طيبة سنة ٧٤٥ ، كانت الأسرة البوبسطية تضطرب اضطرابا شائنا فى الدلتا ، فلم تكن الا رؤساء بالاسم على عدد من الأقيال الذين لا شأن لهم . ولم يلبث أقوى هؤلاء ، تافنخت



الملك سرجون وكبير وزرائه

كان يتربع فى أرفع مناصب الهيئة الاجتماعية الأشورية وهو المنصب الذى يلى منصب الملك رجل أشبه بكبير الوزراء . وكان يدعى الطارطان Tartan ، أو القائد العام للجيوش الملكية . ويرى دائما وهو يواجه الملك فى وقار واجلال .

ملك صا الحجر ، أن دعا الى الاعتراف به فرعونا وقد أمكن بسهولة اقناع بيانخي، خليفة كاشطه بالتدخل ، وذلك استجابة لاستغاثة أحد الأمراء المتمردين فأرسلت حملة لم يرض عما أسفرت عنه من نتائج ، فنزل الى الميدان بنفسه ، وأجبرْ أمراء الشمال على التسليم • واعترف له الجميع بلقب فرعون (سنة ٧٣٢) • ثم عاد أدراجه الى النوبة ، بعد أن أقام نائبا له فى الشمال ، ولعل هذا النائب هو شباكه الذى خلفه على العرش •

مصر تحرض سوورية على الثورة

أما القواد الأشوريون الذين كانوا يرابطون أمام سماريا فقد اقتحموا المدينة ، وخلعوا هوشيا الثائر من فورهم بعد وفاة شالمانصر وانصرف سرجون نفسه أول الأمر الى اخضاع مروداك بالادان وأحلافه العيلاميين — بيد أن هؤلاء ردوه على أعقابه واضطروه الى الانسحاب من أرض بابل واستوى الكلدى الظافر على عرشها •

وأرجأ سرجون تدخله فى شئون بابل ، بما كان لديه من شواغل أكثر خطرا • فقد ابتعثت الثورة المصرية آمالا جديدة فى سورية ، حيث اندلعت نيران الثورة من الجنوب الى الشمال من غزة ، الى حماة وأرباد ، وانقض سرجون على الجنوب ، ناركا بابل وشأنها ، ثم سار نائب الملك المصرى لمساعدة الفلسطينيين الا أنه اندحر اندحارا تاما مخزيا فى رافيا سنة ٧٢٠ • وأغضى سرجون عن موقف مصر منه ، وأنزل بالثوار عقابه الذى كان يحل بهم عادة ، وهو تشتيت شمل أهل البلاد الثائرة ومنهم سكان المملكة اليهودية الشمالية ، فجىء اليها باخلاط من الناس • ومن ثم احتفت (القبائل الضائعة) عن الأنظار ، وانتهى بذلك أمر مملكة اسرائيل • أما يهوذا فلم تكن قد اشتركت فى الثورة •

وظل سرجون — سنوات عدة — لا يجد من الوقت ما يصرفه فى غير معالجة الخطر الذى كان يتهدده من أورارتو فى الشمال • وأقدم الأمراء أو الزعماء فى شرقى وان وهم الذين كانوا يؤدون الجزية ، لسرجون ، على مهاجمة من بقى منهم مواليا لأشور بتحريض من روساس • وكان لابد من حملات صارمة عدة قبل أن يجبر العصاة على التسليم • ويبرز من بينهم اسم دايوكو الميدى Daiukku الذى أخذ أسيرا الى حماة ، ولم يثبت على وجه التحقيق أنه هو ديوسيز Deioces الذى تقول الرواية أنه مؤسس المملكة الميدية • وقد تعددت طرائق سرجون فى معاملة العصاة ، فمنهم من كان يسلخ جلده حيا ، ومنهم من كان يصفح عنه ، وينصبه أميرا محليا •

واتبع ميتا — صاحب مشكى — خطة مشابهة لخطة روساس فأشعل نار الثورة فى قيليقية الا أنه كان يعمل على ألا تصل اليه يد سرجون • وكان من نتيجة هذه القلاقل أن اختط سرجون خطة تغاير ما كان متبعا فى عهد أسلافه فعهد الى الضباط الأشوريين بتصريف شئون الولايات ولم يتركها كما كانت فى أيدى الأمراء الوطنيين ويمكن أن يعزى معظم ما كان لأشور من قوة ، الى كفاية هذا الطراز الجديد من الحكام •

لعل الدلتا استعادت تافنخت من التفوق القصير الأجل فى الوجه البحرى ، وقد خلف على هذا الجزء من البلاد بوكرانف Bokenranef (المعروف عند الاغريق باسم بوكخوريس Bochoris) كان نتيجة الكارثة التى حلت بالجيوش المصرية فى رافيا لكن بوكنرانف هذا لم يلبث أن خلعه شبكة سنة ٧١٢ بالرغم من شهرته البعيدة فى الحكمة ، وكان شبكة قد خلف بعنخى وشرع يستعيد سيادته على مصر كلها •

الاضطراب فى مصر

فاذا صح أنه هو القائد الذى هزمه سرجون فى رافيا ، يكون على هذا قد أخذ نفسه ، منذ بعيد ، بسياسة مضادة للسياسة الأشورية • غير أنه لم يجسر على عمل شىء طالما كان سرجون على قيد الحياة • وقد كان الشعب العقيم الذى ثار فى فلسطين سنة ٧١٥ ، مجرد نذير بأن أشور ذات بأس لا يستهان به •

وقد وجه سرجون عنايته الى بابل مرة ثانية بعد أن هزمه العيلاميون بانتنى عشرة سنة • ولم تخف عيلام هذه المرة لنجدتها • فعزل مروداك بالادان دون عناء • ومن العجب العاجب أن يسمح له باستبقاء احدى الامارات القبلية، بينما استرجع سرجون التاج دون أن يسترجع الألقاب الملكية كاملة •

بيد أن عاصفة أخرى كانت تنذر بالهبوب وراء الحدود الشمالية • ففى سنة ٧٠٧ واجه أرجستس ملك أوررتو فتنة قامت بها جموع السمريين ودارت عليه الدائرة • وفى سنة ٧٠٥ سقط سرجون نفسه فى معركة لعلها كانت مع هذه الجموع نفسها ، فخلفه ولده سنخريب ولا غرو أن الحملة كانت ظافرة لأن السمريين انكفئوا شطر المغرب ، وتدفقوا فى الأناضول ، حيث انتهى الأمر بأن طغى سيلهم على ميتا صاحب مشكى ، فقضوا من فورهم على ما كان يدبره لأشور من دسائس •

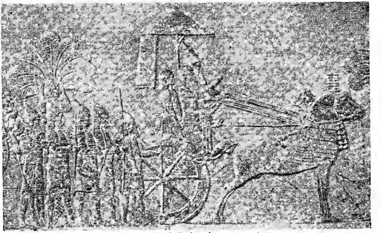
وقد شجع موت سرجون مروداك بالادان — هذا الرحل الصعب المراس — على الفوز بتاج

بابل مرة ثانية ، لأن سناخريب لم يعن بتوكيد حقه فيه ، وقد ضم الى جانبه ملك عيلام ثانية وفى الوقت نفسه حرض يهوذا وفلسطيا على الثورة التى تأخرت لأمر ما . الا أن مدينة بابل كانت على الدوام تؤثر الأشورى على الكلدانى . وفى سنة ٧٠٣ خضد سنخريب شوكة العيلاميين وطرد مرداك بالادان ، وان يكن قد أقام بابليا آخر ملكا فى مكانه . ثم شبت الثورة جنوبى سورية وانضمت اليهـا فى ذلك صيداء ، على أمل وصول المعونة من مصر . لكن ذلك لم يفد مروداك بلادن شيئا ، فقد جاء كله بعد الأوان .

هذا ، وقد نجحت الحملة التى تلت نجاحا تاما، فقد هرب ملك صيداء لدى زحف سنخريب الذى انقض على الجنوب ، واجتاح فلسطيا ، ومزق فى الكتة ، شمل القوات التى أرسلها شبكة ملك مصر ، لشد أزر العصاة ، ثم أخضع جميع فلسطين ، فيما عدا مدينة القدس المنيعة، التى استسلم ملـكها حزقيا استسلاما كاملا مع ذاك ، عندما ارتد سنخريب صوب الشمال لأسباب غير معروفة . وقد حدث هذا سنة ٧٠٠ وحسبما جاء فى السند الأشورى . لم يكن ثم ما يستدعى زيارته للجنوب مدى الخمس عشرة سنة التى بقيت من عهده .

ومهما يكن من الامر . فنحن مضطرون الى الشك فى تمام القصة الرسمية . فقد وصلتنا رواية ، عن مصدرين منفصلين أنه ، فى وقت ما ، قد حلت بجيش سنخريب كارثة فادحة قرب الحدود المصرية ، وتعزى فى كلا المصدرين الى بلاء من عند الله . وبعد ذلك بأكثر من قرنين من الزمان يقص المصريون على هيرودوتس أن سنخريب هاجم بلوزيوم . الا أن الآلهة سخرت جيشا من فيران الحقول فأتلفت أوتار القسى وصنوف العتاد الأشورية الأخرى حتى سهل تمزيقهم اربا . يقول المؤرخ اليهودى فى وصفه المسرحى ، انه حالما كان سنخريب يحاصر لبنه Libnah اذا ملك الله يحوم فوق جيشه ليلا « وعندما هبوا فى بكرة الصباح اذا هم جميعا جثث هامدة » (٢ ـ الملوك ١٩ ـ ٣٥) .

ويمكن التوفيق بـين هاتين الروايتين المتضاربتين بافتراض أن طاعونا فشا فى الجيش الأشورى بسبب الفيران ، التى هى من نقلته الخبيثه . وفى الحق أن حدوث طاعون ، يحتمل كثيرا أن يكون أقعد سنخريب عما كان يعتزمه من المضى فى حملته التى تحققت أغراضهـا الرئيسية من قبل ، وفوق هذا فان ذلك يفسر انسحاب جيشه الرئيسى على جناح السرعة من الجنوب . لكن القصة المصرية لم تكن الا رواية



سنخريب على رأس كوكبة باهرة من جنوده

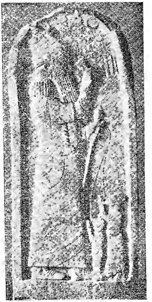
كانت رغبة الأشوريين فى تذكير أحفادهم بمآثرهم سجية بارزة من سجاياهم ، فكان ملوكهم يستعملون النقاشين لتسجيل كل عمل من أعمال حياتهم ولا سيما ما يظهرهم غزاة فاتحين ، وتمثل هذه الصورة الملك سنخريب فى صورة القائد العام على رأس جيشه . والمجموعة الطويلة من الـكتابة البارزة التى تغطى جدران القصر الملكى هى ايضاحات للتاريخ الذى متنه هى هذه النقوش المسماريه .

فحسب ، كما كانت القصة العبرية مضطربة من وجهة السياق التاريخى . ويوضع الغزو الأشورى ، على ما يبدو ، عقب العام الثامن من سقوط سماريا ، فى أوائل عهد سرجون ، ويليه مباشرة اغتيال سنخريب الذى حكم خمسا وعشرين سـنة عقب وفاة سرجون ، وعلاوة على هذا فالملك المصرى الوارد فى القصة هو طرهاقة ملك أثيوبيــا ، بدلا من شبكة ، الفرعون أحد ملوك هذه الأسرة الذى كان يحكم وقتئذ .

ويلوح أن قصد سنحريب الأول كان الاحتفاظ ببابل دولة منفصلة ، وان تكن غير مستقلة بيد أن مروداك الهائم على وجهه ، لم يفلع عن دسائسه ، ولم يكن بل ــ ابنى Bel-ibni على شيء من الكفاية ، ولهذا ، وبعد غزبة فقط أقيم على عرش بابل ابن أصغر من أبنــاء سنخريب ، وليس ولى عهده ولما كانت عيلام لا تزال تؤوى العصــاة فقد وجهت حملة سنة ٦٩٤ للقيام بهجوم جانبى على جنوبها ، عارضته عيلام بغزو بلاد بابل واقصاء ملكها الأشــورى وتنصيب بابلى مكانه عزله الأشوريون هو الآخر . واستمر هــذا الاضطـــراب حتى انقض سنخريب سنة ٦٩٠ على بابل نفســها فانتهبها ، ثم جعل عاليها سافلهــا . أما اسر حدون Esarhaddon ــ ابن سنخريب ــ الذى أراد أبوه أن يخلفه على العرش ، فلم ينصب ملكا بل أقيم نائبا للملك فى بابل .

أما سائر أسانيد عهد سنخريب فغامضة ، فقد اغتاله سنة ٦٨١ ولدان من أكبر أبنائه ، ربما ساءهما اختيار اسرحدون لوراثة العرش بيد أن الملك الجديد استطاع أن يقضى على القتلة قضاء مبرما . وكان اسرحدون ــ أول الأمر ــ قد اختــط فى بابل ســياسة التوفيق وتهدئة الخواطر ، واعادة المياه الى مجاريها فى بابل ــ اذ كان أكبر ما يبتغيه فى حياته فتح مصر .

ولقد مضت بضع سنين قبل أن يستطيع اسرحدون انفــاذ مشروعه . وذلك لأن حبل الأمور كان مضطربا فى عيلام ، وان لم تسفر متاعبها فى الواقع عن حرب ذات بال . واقتضت الحركات القبليــة فى الآكام الشرقيــة حملات عسكرية يقصد منها الارهاب قبل أى شيء . وكان الاسكوذيون فى الشــمال يقفون أثر الســـمريين الذين كانوا يجتاحون الأناضول ، وقد أدى بهم هــذا الى اقتحام ممرات طوروس . أما الميديون فكان زحفهم شطر المغرب ، ولم يكن يرجى أن تستطيع أورارتو النهــوض بالعبء الذى ألقتــه الظـروف على كاهلها ، فنكون حائلا بين البرابرة وأشــــور . ولم يضرب اسرحدون خصــومه ضربة قاضية ، بل اكتفى بصــد الاعتداء الموجه اليه حتى حين ، وكبح جماح الثورات المحليــة التى كان لابد أن يثيرها الاعتــداء على حدود بلاده . وكان فى أثناء ذلك يستعد لغزو مصر حيث كان طهرقه (طرهاقة الأثيوبى) يحكم البلاد .



آسر حدون الآشورى

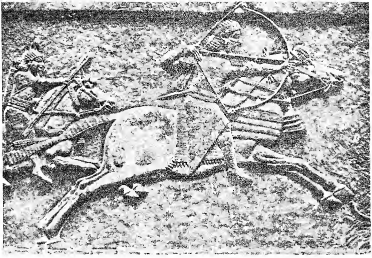
يتضمن هـــذا النصب المشـــتمل على صورة آسر حدون تفاصيل فتحـــه لمصر سنة ٦٧١ ق . م . وقد أقامه فى شامال (التى تعرف فى العصـــور الحديثة باسم سنجرلى) شمالى سوريا

ولم يؤد الفتح نفسه الى متاعب جديدة ، فقد لقى الجيش الأشــورى فى أولى حملاته سنة ٦٧٥ صدمة من أثر ريح صرصر ، وهو حادث لا نرى ما يمنع من أن نعده هو النقمة الالهية التى حلت بجيش ســــنخريب ، ذلك الحادث الذى لا يؤيده أى سند أشورى . بيد أن القوات الأشورية غزت الوجه البحرى فى السنة التالية، وفى سنة ٦٧١ غزته بعد هذه الحملات التجريبية قوات كبيرة . فمزق جيش طهرقة شذر مذر . وسقطت ممفيس بعد ذلك بأسبوعين ، وأصبح اسرحدون سيد مصر السفلى ، وأقيم الضباط الأشـــوريين ــ أو أعيان مصريون تســـندهم الحاميات الأشــورية ، ــ حكاما على الأقاليم أو المراكز ، ومن بين هؤلاء نبكو (نيخو) أمير صا الحجر . ثم انسحب اسرحدون ، ولم يكد يخرج من البلاد ، حتى رفع طهراقة لواء الثورة وكان قد ترك وشأنه فى الجنوب، وعاد اسرحدون مغاضبا يريد القضاء عليه لكنه مات فى الطريق (٦٦٩) وكان يريد أن يولى ابنه الأكبر شماش

شوم أو كين ملكا على بلاد بابل يحكم فيها تابعا لأخيه الأصغر أشور بانيبال وارث عرش أشور ، وأسرع أشور بانيبال الذى يعرفه اليونان باسم ساردا بالوس Sardanapalus الى مصر لاخماد الثورة بها ، ولم يقس على الثوار قسوة لا موجب لها ، وهزم طهرقة مرة أخرى • أما ممفيس التى كانت قد فتحت له أبوابها فقد احتلت مرة ثانية • بيد أنه لم يكد ملك أشور يولى دبره حتى عاد طهرقة أدراجه الى الدلتا ، وأخذ يأتمر مع نخـاو وغيره من الحكام الأشـوريين منهم والمصريين • ولكن المؤامرة قضى عليها فى المهد ، اذ صد طهرقة الى نباتا ، وسيق نخاو الى نينوى مصفدا فى الأغلال • ومن أعجب العجب • وهذه هى الحال ، ألا يكون حسبه الصفح عنه عند وصـوله ، بل يعاد تنصيبه حاكما فى صا الحجر •

وبعد خمس سنوات من هذا الوقت (٦٦٣) شق تانوتا من Tanutamen (ابن أخى طهرقه) عصا الطاعة ثانية ، ويقابل فى طيبة بالترحاب أما نخاو ، الذى يبقى على ولائه فيقتل ، الا أن أشور بانيبال ينتقم انتقاما عاجلا فى هـذه المرة ، فتنهب طيبة وتخرب ، وتصبح أثرا بعد عين ، وينصب أبسمانيك (أبسماتيخوس) بن نخاو ، نائبا للملك فى مصر كلها ، ويؤذن له فى انتحال الألقاب الفرعونية جميعا ، مما كان له ، فيما تلا من السنين ، أخطر العواقب ، اذ أنه كان عدوا أشـد دهاء للأشـوريين من الاثيوبى غير أن السلطان الأشورى فى ذلك الوقت كان يبدو أرسخ أركانا مما كان فى أى وقت مضى •

وبينـا كان الملوك الأشـوريون يوسعون امبراطوريتهم ، كان السمريون وذوو قرباهم التريريون Treres ، قد أتوا على فريجيا من أساسها ، ولعل هؤلاء الغزاة قد دخلوا آسية الصغرى من تراقيا الا أنهم لم يحولوا دون قيام أسرة أخرى فى الغرب هى أسرة المرمنـاد Mermnad الليدية • وقد طلب جيجز Gyges ملك ليديا ، وكان منهمكا فى ملحمة مستيئسة مع البرابرة ، المعونة من أشور ، تلك المعونة التى لم تبذل على الاطلاق ، أو بذلت فى غير تحمس ولا اقتناع ، وعلى هذا ضاعت على أشور بانيبال فرصة الاتحاد الذى ربما نهض الدليل على عظيم قيمته عندما طرد السمريون نهائيا من الأناضول على يد ارديس بن جيجز •



الملك أشور بانيبال فى برية الصيد

كما كان أشور بانيبال قاسيا فى الحرب ، ولا يتعب من الصيد ، فقد كان كذلك راعيا للآداب والفنون ، فقد أنشأ فى قصره بقويونجك Kouyunjik دارا للكتب هى الآن ثروة لعلماء التاريخ الأشورى لا يعد لونها بثمن ، وقد زان جدرانها بكثير من النقوش البارزة الأنيقة • وقد بلغ الفن الأشورى فى عهـده مستوى لم يبلغه من قبـل • والصـورة التى تصف حملته ضـد العيلاميين ورحلاته للصيد هى صور فياضة بالنشاط ولا سيما فى أجزائها التى تمثل الحيوان •



تخريب مدينة خامانو Khamanu في عيلام

وان يكن هذا الرســم فجا ، فان اللهب المنبثقة من الأبراج ، والحجارة والأخشاب التى تتهاوى الى الأرض تحت معاول فرقة التخريب ، والرجال الخــارجين من هذا الباب الخلفى محملين بالأسلاب . كل أولئك يعطينا صورة حية لدك أشور بانيبال عروش خامانو حــوالى سنة ٦٤٠ ق٠م ٠

وكان فى وسع أشور بانيبال خلال الخمس عشرة سنة التالية أو نحوها أن يفاخر بأن قوة أشور كانت فى ازدياد مطرد ، ففلما منيت الجيوش الأشورية بهزيمة فى ساحة الوغى ٠ وكانت الاضطرابات داخل الامبراطورية يقضى عليها دائما وان اختلفت معالجتها لها بين الشهامة والصرامة ٠ واســتقل ابســماتيخوس بمصر استقلالا تاما دون أن يظهر بمظهر صريح من مظاهر عدم الولاء ، وكل ما فعله الملك الأشورى أن غض الطرف عنه ، وكانت الحملات الحربية فيما وراء الحدود ناجحة فى بلوغ ما كانت اليه الدولة من أهــداف ٠ أما فى الغرب فقد صــد الأشوريون من فورهم غارة قام بها السمريون المتقهقرون أمام الليديين ٠

الا أن أروع انتصارات أشور بانيبال، وهو قهر عيلام، كان عاملا خطيرا فى سقوط الامبراطورية العسكرية الوشيك الوقوع ٠ فقد كانت عيلام حتى ذلك الوقت تكبح جماح العشائر الايرانية من ورائهــا ٠ ووصلت الى الحد الذى يصبح التوسع من بعده عاملا من عوامل الضعف لا من عوامل القوة ٠

وكانت عيلام فى هذه الحرب المشئومة هى البادئة بالعدوان ٠ فقد انتهز ملكها تى أمان Te—Umman فرصة انشــغال أشور فى حملته الأخيرة على مصر ، فغزا بلاد أشور ، الا أنه هزم وضرب عنقه ، وضمت بعض بلاد عيلام ، ثم نصب عليها ملك خاضع له ٠ أما المرحلة التالية فكانت تمرد شماش ــ شوم ــ أوكن Shamash—shum—ukin ملك بابل وأخى أشور بانيبال،الذى انحاز اليه الكلدان. كما انحاز اليه ملك عيلام سنة ٦٥٢ ٠ على أن الأحلاف أنفسهم تفرقوا شيعا . فداهمهم أشــور بانيبال سنة ٦٤٨ ، ورد الكلدان، الى عيلام ، وطوق شماش ــ شوم ــ أوكن فى بابل حيث أضرم النار فى قصره، وهلك هو فى اللهب ،وزحف الأشوريون الى عيلام فافتتحوا عاصمتها سوسه ، ودمروها (وقد تبين أن ذلك لم يكن عملا حكيما منهم) وقضى على استقلال عيلام الى الأبد ٠

وفى سنة ٦٤٢ ، أقام أشور بانيبال حفلا مبينــا فى نينوى احتفاء بأمجاد عهــده ، وكان مما صنعه فى لحفــل أن شد أربعة من الملوك الأسرى فى عربته الحربية ، ولا يروى لنــا المؤرخون الأشــوريون أعمــالا أخرى ٠ وجل ما نعلم هو أنه فى خاتمة عهده ، اجتاح جيش سكوذى عرموم غربى الامبراطورية والايالات الساحليــة ، فتركها قاعا صفصفا ، دون أن يلقى مقاومة تستحق الذكر ٠ وكانت تلك الامبراطورية تحتضر فى سنة وفاته ــ أى فى سنة ٦٢٦ ، ولم تمض أربع عشرة سنة حتى قضى عليها وأراح الله العالم من شرها ٠

أما الحلقة الواصلة بين الشرق القديم والغرب الناهض ، فهذه هى الأناضول ــ أو آســية الصغرى ــ وهى تلك البلاد الواقعة بين جبال طوروس شرقا والبحر غربا ٠ ففى وسط هذا الاقليم وشرقيه ، كانت فريجيا ، وكانت لا تزال تعرف فى الشرق باسم ــ موشكى ــ قد ورثت بعض أملاك الحيثيين ، وظلت صاحبة السلطان مدى قرن من الزمان قبل الغزو السمرى الكبير الذى بدأ والى الوقت الذى توفى فيه سرجون ٠ وقد اكتسح هذا السيل الجارف فريجيا التى لم يكن لها وقتئذ نصير ، وانتحر آخر ملوكها ــ

ميداس ــ بيده ، اذا صحت الرواية التى أوردت هذا النبأ ، وقد غلبه اليأس على نفسه ، بينما كان اسرحدون يدبر الخطة لفتح مصر • وهكذا وقع عبء كبح تلك الأرجال الرحالةعلى عاتق امارة ليديا الناهضةالتى انفصل تاجها ، على ما جاء فى الأسطورة الاغريقية،عن أسرة الهرقليد Heraclid القديمة ، على يدى جيجز •



فرعون داهية

حاول أبسمانيك الأول الذى نصبهأشور بانيبال نائبا عنهعلىمصر معمنحه لقب فرعون تحرير نفسه من أشور سنه ٦٥١ •

وقد رأينا أن جيجز كان فى صراعه يتلهف على معونة تأتيه من أشور ، وسواء أكان قد تلقى منها العون أو لم يتلقه ، فقد أوقع الهزيمه بالسمريين ، لكنه لم يلبث أن هزم وقتل • وقد استمر الصراع على يدى ولده آرديس ، الذى نجح آخر الأمر فى الايقاع بالبرابرة ، وصدهم بمعاونه المدن الأيونبوية ، وجلا البرابرة نهائيا عن الأناضول جميعا ، تاركين ليديا ، أقوى الدول شكيمة فى آسيا الصغرى •

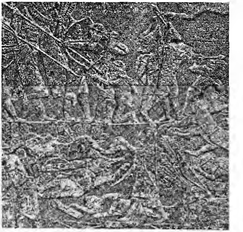
ومع أن المدن الايونيوية اتحدت مع آردبس فى القضية المشتركة لمنازلة الخطر المشترك الذى تهددهم كما تهدد ليديا على السواء ، فقد كانت هذه المدن نفسها الغرض المنشود من الهجمات الليديه قبل هجمات السمريين وبعد أن ردوا على أعقابهم ، وذاك أن خلفاء آرديس (الذى قضى نحبه وقت أن مات أشور بانيبال) لا جرم كانوا يرمون الى السيطرة على آسيه الصغرى كلها • ولعل آرديس نفسه كان يرمى الى ذلك •

وقد رأينا أندويلات المدنقد انتشرت قبل منتصف القرن الثامن ، فى هيلاس الأصليه كلها (اليونان) ، وفى جميع الرقعة الايجية ، أسيويه أو أوربيه على السواء ، وأن ملكيةعصر البطولة القديمة والملوك المنحدرينعنالآلهةكانوا يفسحون المجال للحكم الارستقراطى • فى ذلك الوقت كانت توجد أوفر هذه الدويلات ثروة ، وأكثرها رخاء ، فى أبوليس ، وفى ايونيا خاصة • ولم تكن أسبرطه قد خاضت غمار الحروب المسينيه بعد ، تلك الحروب التى أكسبتها فيما بعد سطوة حربية فذة ، والتى خرجت منها بنظام سياسى قد أيضا نافذ فيها ، يعزى الى ليكورجوس ، المشترع الأسطورى •

وقد شهدت الحقبة التاليـه امتداد هيلاس الكبرىوتأسيس المستعمرات فى ايطاليا وصقلية ،على شواطىء البحر الأوكسينى (البحر الأسود)والبروبونتس أو بحر مرمرة ، وساحل تراقية ومقدونية شمالى بحر ايجة ، ولم يكن هذا الساحل قد أصبح يونانيا بعد ، كما شهدت التطور السياسى الأكمل لكثير من الدويلات اليونانية •

وكان انشاء المستعمرات مغامرة تقوم بها دولة واحدة ، (وفيما ندر رابطة من دولتين أو ثلاث) وكانت المستعمرة نفسها دولة مستقله فى مدينة ترتبط بالمدينة الأصلية برابطة قوية من العاطفة ، ولكنها لا تخضع لقوانينها •

وكانت مدائن جزيرة ايوبيا ــ ومدائن جزيرة خالقيس خاصة طلائع الاستعمار ، واتخذت اثنتان منها فى زمن غير معروف مع كيمى Cyme فى ايوليس ،بغية انشاء كيوماى Cumae بعيدا على شاطىء كمبانيا Campania ــ وربما لم تكن



سوء طالع تى ــ امان ملك عيلام

لم يكن تى ــ امان ملك عيلام يعتلى العرش حتى اشتبك فى نزاع مع أشور بانيبال ، وقد قبض على تى ــ امان فى المعركة التى نشبت بينهما ثم قطعت رأسه ورأس ابنه الأكبر . وتصوره هذه اللوحة راكعا جريحا وولده يذود عنه .



(البلاد التى غمرتها موجة المدنية بعد سقوط أشور)

بعد انقراض الامبراطورية الاشورية وضعت الامبراطورية الكلدانية يدها على نصف رقعتها الغربى بما فى ذلك قصبتها بابل ، أما القسم الشرقى فقد تملكته الامبراطورية الميدية · واختفت مصر من الميدان فى الواقع ، وتنتقل فصول الرواية الهامة غربا باستمرار الى أشباه الجزائر الأوروبية حيث يبلغ التوسع الاستعمارى اليونانى مداه ، وحيث يظهر الأتروريون واللاتين فى ايطاليا · وكانت ليديا فى الشرق فى أوج قوتها ، فقد كانت تفرض سلطانها على المدائن الساحلية اليونانية بينما كانت فليقية مستقلة · أما عيلام فقد تملكتها القبائل الفارسية

هــذه هى أول مرة يظهر فيهــا اليونانيون فى ايطاليــا ــ بيد أنهــا على التحقيق كانت أولى المستعمرات المنظمة ·

وانا لا ندرى لمــاذا عرف الايطاليون هؤلاء المستعمرين باسم جراى Graii (التى حورت الى جراسى) ولعلهم هم الذين علموا اللاتين أن آلهتهم هى نفسها مجموعة الآلهة اليونانية · ويتجلى التأثير العجيب الذى تركوه فى الأسطورة

تفرع بعضها عما أنشىء من قبل ، على طول شاطىء صقلية الجنوبى ، وعلى شاطئها الشمالى كذلك ، ومنها ، فى أقصى الغرب ، سلينوس وهيميرا ، وقد أنشأ الآخيون واللوكرويون (من أهالى كورنثه) مستعمرة سيباريس مضرب المثل فى النعيم المخنث ــ على خليج تارنتوم ، كما أنشأوا كرونون وغيرها من المدائن الأقل شهرة على شواطىء ايطاليا الجنوبية ، وشواطئها



كيوميه ــ أقدم الحصون الاغريقية فى ايطاليــا

كانت كيوميه التى اشتهرت بأنها أمنع المستعمرات التى أنشأها اليونانيون فى ايطاليا تبعــد عن كومه Cyme الايوليوية بأربعة عشر ميلا غربى نابولى ، التى تكونت منهــا ومن بوتيولى وغيرها من مدن الشاطىء فيما بعد · وقد كانت كيومه لهذا السبب احدى مصــادر الحضارة اليونانية فى ايطاليا · وصخرة الأكروپوليس حافلة بالكهوف كخلية النحل ، ومن أحد هذه الكهوف أحضرت سيبيل ــ على ما تذكر الأساطير ــ كتبها السيبيلية الى رومة ــ هذه الأطلال من العهد الرومانى ·

الرومانية المعروفة باسم سيبيل (النبية الكيومية) وفى الكتب السيبيلية ــ هذا ، وقد بدأت حقبة النشاط الحقيقية فى النصف الثانى من القرن الثامن ·

وتقدمت خلقيس غيرها فى طريق التوسع الغربي بانشاء ناكسوس أولى المستعمرات فى صقلية ، على الشاطىء الشرقى فى مواجهة اصبع ايطاليا تقريبا ، وذلك فى سنة ٧٣٥ ، وتلا ذلك وقبل أن ينصرم القرن، انشاء مستعمرات كتانا، وليونتينى ، وزانكل (التى اشتهرت باســم مسانا) ، وريجيوم الواقعة على الجانب الايطالى للمضيق · وتلا ذلك انشاء كورنثة ثم كورسيرا (فى جزيرة كورفو) ثم أنشئت سرقوســة سنة ٧٣٤ اذا صدقت التواريخ المأثورة · وفى خلال القرن التالى ، أنشئت مستعمرات أخرى ،

الغربية وأنشأت اسبرطة مستعمرة تارنتوم ــ أو تاراس حوالى ســنة ٧٠٨ فكانت مجهودها الاستعمارى الوحيد ولعل فوكايا الأيوليوية لم تنشىء ماساليا على شاطىء بلاد الغالة القاصية الا فى أواخر القرن السابع ، وكانت فوكيا هذه تتحمل ضغــط الليديين ، وسرعان ما أنشأت ماساليا مستعمرات لها فى بلاد امتدت الى شبه جزيرة ايبريا نفسها ·

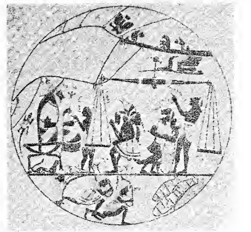
على أنه كان للهيلانيين فى صقلية أنداد آخرون ينافسونهم فى البحر · وذلك أن الفينيقيين كانوا قد أنشأوا من قرطاجة مستعمرتهم القاصية محطات تجارية فى غرب الجزيرة ، وفضلا عن ذلك فان السيردانو ، والترشو ، الذين عرفناهم فيما قصصنا عن مصر ، كانوا قد بحثــوا عن أوطان لهم جديدة غربى البحر المتوسط قبل

وكان فى بلاد الاغريق الأصلية ثلاث مدن ربما تميزت باكتساب مركز الدول دوات الأملاك ، فقد أصبحت أسبرطه صاحبة السلطان على نصف المورة ، واتحدت انيكا مع أثينا ، وهيمنت طيبة على بووطية وكان الاسبرطيون سادة على شعب مقهور واندمجت دويلات انيكا برغبتها فى أثينا وأصبحوا مواطنين آثينيين . أما الدويلات البووطية فكانت مستقلة بالاسم غير أنها لم تكن تقوى على الوقوف خارج الحلف البووطى الذى كانت طيبة منه فى الواقع بمثابة الحاكم بأمره .

وقد ظلت أسبرطة متفوقة مدة طويلة فى لاكونيا ، وكانت الجنسية الأسبرطية وقفا على القليلين الذين كانوا ينتسبون الى قبائل أسبرطة ، أما بقية السكان فكانوا أحرارا ، وان خضعوا سياسيا لأسبرطة ، وكان يطلق علىهؤلاء اسم البريوسى أو سكان الأطراف . وكان يوجد كذلك عدد كبير من السكان الأرقاء ، ومنهم الهيلوت — Helots وأسلاف الدوريين الذين غلبوا على أمرهم، ثم استعبدوا .

ولم تكن أسبرطة فى القرن الثامن الا واحدة من جملة دول قوية ، من بينها آرجوس ، وسيكون ، وكورنثة ، كان لا يزال من المحتمل أن تنتهى الزعامة النهائية لاحداها وقد لا تنتهى لواحدة من بينها . وقد هيأ لأسبرطة تطور نظامها العسكرى فى الحرب المسينية فى ذلك القرن الثامن ، التفوق أو الأخذ نهائيا بزمام القيادة طوال القرن التالى ، على أن مسينا وحدها قد أضيفت الى أملاكها الخاضعة لها مباشرة . ولم يمس استقلال الدول الشمالية،كما كانت منافستها لأسبرطة لا تزال محتملة ، لقد كان نظام الدولة الأسبرطية يهدف الى الكفاية العسكرية ، ولهذا أصبح روح النظام الأسبرطى مضرب الأمثال .

ويلاحظ فى هذا المقام أن أسبرطة انما تدين بتفوقها العسكرى ، الى حد ما (على الأقل) الى المرتبة العالية من الكمال التى رفعت اليها مشاتها المدججين الى أخمصهم بالسلاح ، حملة الرماح ذوى الدروع السابغات الذين كان يطلق عليهم الاغريق اسم Noplites أى الجنود



مغامر من تجار قورينة

يصور لنا هذا المنظر المرسوم داخل كأس من لاكونيا التجارة التى كان يضطلع بها المستعمرون اليونانيون عبر البحار ، والكأس من آثار الربع الثانى من القرن السادس ق . م . ونرى أرسيسيلوس صاحب قورينة جالسا فوق سطح السفينة يرقب وزن البضائع فى ميزان معلق فى السارية .

اليونانيين بزمن طويل ، ولم يكونوا قد فقدوا ميلهم الغريزى الى القرصنة . ونميل نحن الى الاعتقاد بأنهم هم أصل السرديينين ، والاتروريين الذين أوشكوا أن يصبحوا أو أصبحوا بالفعل ، الطائفة السائدة فى ايطاليا ، وان نازعهم اللاتين الآريون والسابليون هذه السيادة ، وسيطروا عليهم فى النهاية .

وقد وجهت مدينتا أيوليس وايونيا معظم جهودهما الاستعمارية الى بحرى الايوكسين (الأسود) والبروبونتيز (مرمره) خاصة ، بغرض التجارة حتى كادتا تحتكرانها فى هذا الاقليم ، ولو أن ميجارا ، على برزخ كورنثة ، هى التى أنشأت بيزنطة ، وقد أضاف الايوبويون الى خطط خلقيس الجريئة استعمار الشمال . وخصوصا هذا النتوء البحرى المثلث الذى أصبح يعرف باسم خالقيدس وان تكن كورنثة قد ساهمت هنا بنصيبها فأنشأت بوتيدايا وفى النصف الثانى من القرن السابع أنشئت برقة ،وهى احدى الجزائر فى أقصى جنوب أرخبيل السكلبدز مستعمرة قورينة على الساحل اللوبى ، وانشئت نوكراتيس حوالى ذلك الوقت ، عند مصب فرع النيل الكانوبى . لتكون قاعدة تجارية لمليتوس الا أنها صارت سوقا لليونانيين عامة .

الـكماة) وهم الذين أحرزوا الفوز تلو الفوز لليونان مرات عدة فى الملاحم التى دارت رحاها مع الجيوش الشرقية ·

وكانت وحدة أتيكا هى أساس الدولة التى كانت أثينا بسبيل الوصول اليها · وكانت أثينا على النقيض من أسبرطة دولة بحرية ، الا أنها لم تكن فى ذلك العهد ، الا واحده من بين دول كثيرة تســـاويها فى المنزلة ، ليس لها أى سلطان خاص ، فكان لها أنداد قريبون منها فى ايجينا وميجارا ، ومدائن ايوبيه وقد أفقدها ما بينها من منازعات ذلك التفوق الذى كان يبدو أحيانا أنهم بالغوه · وقد أجلت المعركة الفاصلة مع ايجينا الى حين ، لكن حربين مع ميجارا من أجل الاستيلاءعلى جزيرة سلاميس فى الربع الأخير من القرن السابع والربع الثانى من القرن السادس قد أكسبتا أثينا التفوق النهائى على ذلك المنافس ، وان ظلت فى ذلك الوقت بعيدة من أن تصبح دولة بحـريه · أما الحربان فقد ابتدأت كل منهما بهزيمة أثينا ثم انتهتا بانتصارها ·

ولم تكن كورنثه لتدخل فى منافسة من أجل الزعامة السياسية وذلك لأنها كانت قائمه على البرزخ الذى يصل ، شمالى اليونان بجنوبها



نماذج لكماة مسلحين من الأغارقة الأسيويين

اكتشفت فى باطن الأرض بأسـبرطة آنيـة ضخمة تحتوى عظـاما محـروقة ، وتدل تفصيلات السلاح ، وأخبار المغازى الهومريه فى نقوش القوالب التى بقيت منها هذه الكسر على أن الاران (جرة دفن رفات الموتى) قد صنعت وفقا لأصل ايونيوى ·



زهرة الجيش الأسبرطى

يرجع أكبر الفضل فى ازدياد نفوذ أسبرطة فى البر الى كفايه مشاتها المسلحين بالرماح الثقـال · ويصور لنا هذا النقش الموجود داخل كأس اثنين من هؤلاء الكماة يحملان محاربا مقتولا على كتفيهما ·

أو يفصل أحدهما عن الآخر ، وكانت هى المهيمنة عليه · وكان من العسير الوصول اليها بطريق البر ، كما كانت فى مركز صـــالح للتوسع البحرى فى كل من الشرق والغرب على السواء ، وان يكن جد منعزل عن الشمال والجنوب · ولم تكن ثمة ، شمالى بووطيه والخليج الماليوى مدائن تعدل هذه شهرة ، بل كانت توجد عصب مفككة وأحلاف لا رابطة بينهم · أما فيما وراء تساليا فقد كانت قبائل مقدونيا تدين بالطاعة لملك يزعم أنه يونانى ولكنه كان يلى أمر بلاد من العسير أن يطلق عليها اسم مملكة منظمة ·

وليس لدينا من العلم المفصل عن تطور مدائن ايوليس وايونيا ودوريس من مدن الشاطىء الايجى الشرقى مثل ما لدينا عن المدن المعاصرة لها على الشاطىء الغربى · والذى نعلمه حق العلم أن هذه المدائن الشرقية ، ربما كانت من كلتا الوجهتين الذهنية والمادية أرقى من دول اليونان نفسها لا متخلفة عنها . فقد صدت عن نفسـها غارات السـمريين ، وكان حكماؤها وشعراؤها ذائعى الصيت فى هيلاس (اليونان) كلها ، غير أنها كانت أعجز من أن تتحد فيما بينها ، كذوات أرحامها من الدول الأوربية ،

ولما فشلت هذه الدول فى ادراك الخطر المشترك حينما كانت تهاجمها فرادى دولة أجنبية ، فقد اصطرت كل منها على حدة ، أن تخضع لسلطان ليديا الذى كان أبعد من أن يكون سلطـانا استبداديا ، وذلك فى عهد خلفاء آرديس ٠٠٠ وهم سادياتيس والياتيس ، ثم ، كروسوس ، الملك الذى بسط سلطانه فى الربع الثانى من القرن السادس على آسيا الصغرى كلها ، الى نهر هالس ٠

ان كل طبقة تهيمن على حكومة أية دولة ، تميل الى اخضـاع مصالح الطبقـات الأخرى لمصالحها ، ولا يستثنى من ذلك الأشراف أبناء الأسر العريقة فى النسب ، الذين كانوا يحكمون الدول اليونانية كلها تقريبا ، فى وسط القرن الثامن ، وقد طالبت الطبقات التابعة بالتحرر من الأعباء الاقتصادية الملقاة على عاتقها ، كما أنها طالبت بحقوقها السياسية كذلك، وكان الصراع يتطـور فى الدولة بعـد الدولة فكان الأشراف يكتفون بالتشبث بموقفهم أحيـانا ، وأحيـانا كانت الثروة تنجح فى الحلول محل النسب وكان رجـال الحكم الأشراف يقـومون بعض الأحيان باصلاحات أدت فيمابعد الى الديمقراطية ، كالاصـلاحات التى أدخلها فى أثينـا « أشهر حكمائها » صولون فى سنة ٥٩٣ ، أو اصلاحات

بتاكوس ، وهو أقل شهرة من صولون ، فى ميتيلين فى العهد نفسه تقريبا ٠ وفى الفصـل السادس والثلاثين (ضمن فصول الحقبة التالية) بحث فى هذه التغيرات الاجتماعية والسياسية أكثر من هذا تفصيلا فعليك به ٠

وكان من المراحل المألوفة فى هـذا الصراع ظهور النظام الذى أطلق عليه الاغريق اسم الـ ـ تيرانيز ـ وهـو لون من ألوان الحـكم الاستبدادى يتولاه زعيم شعبى قد قهر طبقـة الأشراف ونصب نفســه بطلا للديمقراطية ، ثم ثبت سلطانه بكتائب من الجنود المرتزقة ٠ وقد أخرج نظام الـ ـ تيرانيز حكاما كثيرين كان عسفهم سببا فى اكساب كلمة « حاكم بأمره » معنى بغيضا أشد البغض ، ومن هؤلاء من كانوا فى الواقع أمراء نابهين ، مثل برياندر صاحب كورنثة وكلستنين أمير سيكون ، وبيزاستراتوس الذى جعـل من نفسه حاكما بأمره على أثينا سنة ٥٦١ ، وقد وطد كثير من هؤلاء الحاكمين بأمرهم سلطانهم فى مدينتى ايونيا وايوليس فى ختام الفترة التى نحن بصددها ٠ وكان الأمراء الليديون يؤيدون بوجه عام نظام التيرانيز ٠

عنـدما ولينا وجوهنا شطر المغـرب للمرة الثانية رأينا أن ايطاليـا قد اتصلت بالعـالم



آثار من تلك الأيام التى كانت ليديا تهيمن فيها على أغارقة آسيا

تذكارات الامبراطورية الليدية التى كانت تبدو عظيمة الأطراف فيما وراء الأراضى التى كان يقطنها اليونانيون فى آسيا قبلة ، وأهم أسباب ذلك ضآلة التنقيبات عن هذه الآثار ، وأظرف هذه الآثار قطع النقود اذ الظاهر أنها أقدم ما ضرب من نوعها ، أما طريقة الأوزان فبابلية ، الا أن فكرة صنعها على هيئة (ميداليات) ذات رسوم حيوانية قد تكون فكرة ليدية لا غير ٠ ووجود رؤوس السباع والثيران بشكلها الحبشى بين هذه الرسوم له أهميته كأثر من الآثار ، والمادة التى صنعت منها هذه النماذج سبيكة من الذهب والفضة ٠

اليونانى، وذلك بامتداد اليونان الى ماجنا جراشيا (اليونان الكبرى) • بيد أننا اذا صرفنا النظر عن المستعمرات اليونانية وجدنا أن مركز نمو الوطن الايطالى كان فى الأرض المحصورة بين الأبنين والبحر الغربى ، أى منخفضات اتروريا ولاتيوم ، التى كانت مستعمرة كيوماى أول خطوة فى سبيل الاقتراب منها • بيد أن اتروريا ولاتيوم قد أصبحتا فى أفق بحثنا وان لم نحط بهما علما بعد •

التطورات فى المغرب الأقصى

ولسنا نعلم الا القليل عن سكان شبه الجزيرة الأولين ، أولئك الذين كانوا بلا ريب النواة الأولى للشعب الايطالى • أما الشعوب التى تقدمت فى سلم الحضارة فكانت صنفين : أولهما الغزاة المتأخرون من الأتروريين الذين جاءوا اليها من البحر ، ولعل ذلك كان من الشرق ، ومهما يكن منشؤهم فهم غير آريين ، وثانيهما الآريون الذين جاءوا اليها عن طريق ممرات الألب أو حول البحر الأدرياوى الأعلى • وينبع نهر التيبر من التلال فى الشمال ويسير رأسا الى البحر فى الجنوب فيقسم هذه المنخفضات الى قسمين • وعندما يبزغ فجر تاريخ هذه البلاد فى القرن الثامن نجد الاقليم الغربى (اتروريا) يحتله الأتروريون (التسكان) — أما الشرقى — وهو سهل لاتيوم — فيحتله اللاتين الآريون ، والى خلفهم ، مما يلى الجنوب عبر الجبال — كانت طائفة آرية أخرى من الأوسكان أو السابليين (وهو اسم يظهر فى صيغة أخرى هى السابيين Sabines السامنيتيين Samnites فيما بعد) تدفع هؤلاء وأولئك من خلفهم أو تخترق بلادهم فى سيرها من الجبال صوب الجنوب • وقد أنشأ كل من التسكان واللاتينيين نظام دويلات المدن وما فتئوا يتنافسون منافسة حارة ، فى الوقت الذى كانوا فى خلاله يصدون هجرة الأوسكان من الجبال •

أما التاريخ الذى يذكر عادة لدخول رومة فى مسرح تلك الحوادث فهو سنة ٧٥٣ • وكانت رومه بموقعها على التيبر ، تشرف من الوجهة العسكرية الفنية على المجاز بين اتروريا ولاتيوم ، وكان الاستيلاء عليها سببا للخلاف الدائم بين اللاتين والسابيين والتسكان ، وقد ظل الروح السائد فيها لاتينيا مع وجود عناصر قوية سابيينية وتسكانية • وقصة الملكية فى رومة أسطورية فى معظمها ، بيد أن الأسرة الحاكمة (فى القرن السادس — فى رومة على وجه التأكيد وفى بعض المدن اللاتينية الأخرى) كانت تسكانية ، فى حين كان أعيانها — ودهماؤها من سائر الأجناس الثلاثة • وقد كان موقعها ، سببا فى توجيه نظام الحكم فيها وجهة عسكرية ولم تلق عن عاتقها نظام الحكم الملكى وتنشىء الجمهورية الأرستقراطية الا فى آخر القرن السادس قبل الميلاد •

اضمحلال الامبراطورية الأشورية وسقوطها

اضطربت سنو أشور بانيبال الأخيرة بما اعتراه من مرض وما قام فى أسرته من خلاف • ومع أن هيرودوتس يذكر ما كان من صد هجوم قام به الميديون صدا ساحقا ، فانه لم يبق على ذلك شاهد من المدونات الأشورية • وما من شك فى أن أشوربانيبال قد عجز عن صد الهجمات الأسكوذية الباغتة ، فقد استنفدت الحروب المتواصلة قوة الجيوش الأشورية الوطنية ولم يكن للكتائب المؤلفة من الشعوب الخاضعة لهم ، من الكفاية ما للجيوش الأشورية • وقد تحررت مصر من اشراف الأشوريين فى عهد ابسماتيخوس ، ولم تعد المدن السورية ولا الفينيقية بعد غزوة الأسكوذيين تعترف بالسيادة الأشورية •

وكان مركز خلفاء أشور بانيبال فى أشور نفسها مزعزعا ، فلم يكد يتوفى حتى ثارت بابل ونصبت ملكا كلدانيا هو نابوبلصر ووقف الملك الأشورى أمام ذلك مكتوف اليدين • وكانت مملكة قوية ميدية فى خلال ذلك قد توطدت دعائمها على يد ديوسيز Dioces وفراورتس Phraortes (كما يقول هيرودوتس) أو على يد أرباسيز — كما رواه اكتسياز وقد كان كل من الميديين والبابليين على حد سواء ، يتربصون فى لهفة كى يرثوا أشور — التى لم يكن لها أحلاف ، الا من الأسكوذيين ، وكانوا أحلافا ينسك كبيرا فى ولائهم • وذلك أنه عندما زال الخوف من أشور ، لم يعد يرتجى أن يبقى رعايا تلك الامبراطورية المشئومة على ولائهم •

وفى سنة ٦١٢ ، وليس فى سنة ٦٠٦ ، كما تدل على ذلك الشواهد التى اكتشفت حديثا ، تضافر نابوبلصر وسياجزارس الميدى ،

على تقويض سلطان الدولة الأشورية،وقد هلك آخر ملوكهـا سن ــ شارشكون ، فى حريق نينوى ، كما هلك شاماش شوم أوكن فى حريق بابل قبل ذلك بست وثلاثين سنة ، اذا كانت الرواية الاغريقية التى تصف خاتمة ساردا نابالوس صـادقة الا فى اضطراب الأسماء ، وهكذا قضى على دولة أشور الهائلة ، رمز القوة



فرعون غير محبوب

كان آبريس ملكا على مصر من سنة ٥٨٨ الى سنة٥٦٩ ق ٠ م ٠ وقد ساقه تهوره فنسجع شعبا على بختنصر فاستمن آثاره الأمرين كل من يهوداو وصور ويصور لنا هذا اللوح الملك آبريس وهو يقدم الى أحد الآلهة آنيتين من الخمر ــ وهو من آثار أبيدوس ٠

البهيمية الخالد التى تجرد نظام الحكم فيها من الرحمه ، ولم يبق منها الا شرذمة فرت الى حران وحافظت على كيانها سنين قلائل وزال بزوالها الكابوس الذى كان يجثم على صـدر العالم فاستنشق الناس عبير الحرية ٠

امبراطوريتا ميديا وبابل

انقسمت الامبراطورية بين كل من نابوبلصر وسـباجزارس فاسـنولى البابلى على أرض السواد (أرض الجزيرة) وسورية ، وتملك الميدى كل الأراضى الواقعة شرقى دجلة وشماليه ٠

وفى سنة ٦٠٨ احتل شمالى سورية ، الملك نخاو ــ خليفة ابسماتيخوس مدعيا أنه يناصر بذلك أحد المطالبين بعرش أشور ، ولم يكن سلطان سادانها الجدد قد ثبت دعائمه ٠ ولعله قد قضى على يوشع ملك يهوذا فى معركة ثانية عند مجدو ، والحوادث هنـا غامضة ، لكن المعروف أن نخاو ، قد هزم هزيمة منكرة فى قرقميش سنة ٦٠٥ على يدى بختنصر خليفة نابوبلصر ، وقد تعقبه بختنصر حتى حدود مصر حيث جاءته الأنبـاء بموت أبيـه فارتد الى الشـمال ٠ ولم يقم نخـاو بعمل آخر ضـد الامبراطورية الجديدة ، ولعل هذه الامبراطورية لم تهاجم مصر بعد ذلك ٠

ولما كانت الدولة الميدية تزحف غربا فى عهد سباجزارس ، فى حين كانت الدولة الليدية تزحف شرقا فى عهد آلياتس ، فقد اصطدمتا شرقى الأناضـول ، ثم انتهت الحرب بينهما سنة ٥٨٥ ٠ على أن معركة عظيمة كانت ناشبة فى الواقع ، وأن عطلها الكسوف الشمسى (الذى تنبأ به طاليس الميلتوسى) وهو حكيم آخر من حكماء الاغريق ــ والذى أفزع المتحاربين فى كلا الجانبين حتى لقد عقدا هدنة على الفور ، واتفق الخصمان على توسيط ملكى بابل وقليقية فأبرمت معاهدةرسمية بينهما جعلت نهر حاليس فاصلا بين مملكتيهما٠وكانت ميديا قد استولت بالتدريج على أورارتو قبل ذلك ٠ واشتدت أواصر الحلف الجديد بزواج أسـتياجس ــ ولى عهد ميديا ــ من ابنة آلياتس ٠ أما ليديا فأطبقت على اليونان فى الغرب ، وصارت الآن على اتصال وثيق بميديا ، الدولة الناشئة فى الشرق ٠ وقد أصبح الصراع بين الاتجاه الى اليونان (أو الهيلانزم) وبين الاتجاه الى الشرق (الاورينتالزم) وشيك الوقوع ٠

كان نابوكادرزر ملك بابل أو (نابوكودرسر) كما ورد فى النوراة ، ضابطا ألمعيا (وهذا شىء غير عادى بين الكلدان)واداريا قديرا ، ومهندسا معماريا وآليا عظيما ٠ بيد أنه كان من الطبيعى أن ينبع الوسائل التى كانت المنوال المقرر فى أشور منذ أقدم العهود ، فعندما ثارت يهوذا سنة ٥٩٦ أخمد الثورة ونفى جانبا من السكان

سجايا بختنصر النـابوليونية

اليهود ٠ ولما ركبت رأسها سـنة ٥٨٧ ، وثارت كرة أخرى (ضالعة مع صور ــ وصيداء) بالرغم من انذارات ايرميا المتكررة قتل بختنصر أبناء الملك أمام عينيه دون ما شفقة

ثم سمل عينيه ، واسترق معظم السكان استرقاقا قاسيا ، ولجأ معظم الباقين الى مصر بيد أنه أنشأ فى طول بلاده وعرضها نظاما لم يكن هو الارهاب الخالص — وكانت حدائقه المعلقة فى المدينة الفخمة التى خلق بها بابل خلقا جديدا احدى « عجائب الدنيا » .

ولم يحدث اصطدام مع ميديا أو مع مصر ، عندما كان نخاو ، وابسماتيخوس الثانى من بعده — يحكمانها . غير أن خليفة أبسماتيخوس أيوهبرا Uahibra ، الذى تسميه التوراة هوفرا Hophra ، ويسميه الاغريق — آبريز Apries — أثار النزاع مرة أخرى بتحريضه يهوذا وصور على ثورتهما الثانية ، لقاء وعود لم يحققها لهما ، وان اخضاع صور ، وان يكن قد تم بعد حصار دام أكثر من عامين فقط — لشهادة ناطقة على مهارة بختنصر الحربية ذلك أن موقع صور قد أكسبها قوة لا مثيل لها فى مقاومة عمليات الحصار .

وقد بدأ هوفرا ثورته بغزو فينيقية ، بيد أنه ارتد على عقبيه فى الحال عندما تحرك بختنصر . أما الفكرة الشائعة التى تزعم بأن البابليين ، فيما بعد ، قد دخلوا مصر وفتحوها ولبثوا فيها زمنا قصيرا ، فتقوم على أدلة ضعيفة مشكوك فيها . ولقد كان هوفرا مبغضا الى قومه أشد البغض ، وذلك لما حبا به من محبة فصائل الأيونيين والكاريين المرتزقة التى كانت فى الواقع لباب الجيوش المصرية . من أجل هذا لم يجد أحمس ، القائد المحبوب وان لم يكن كريم المحتد (وكان يعرف عند الاغريق باسم أمازيس (أية صعوبة فى خلعه وتنصيب نفسه فرعونا سنة ٥٦٩ . ومع هذا فقد واصل أمازيس فى أثناء حكمه سياسة محاباة الأجانب الغربيين . فقد أنشئت فى عهده نوكراتيس ، لتكون مركزا تجاريا اغريقيا ممتازا ، ومصنعا للسلع اليونانية أكثر منها مستعمرة بالمعنى المألوف .

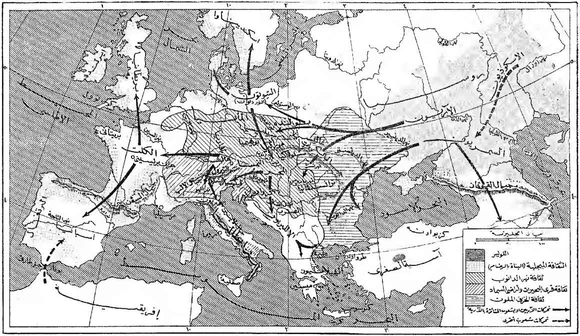
وقد قضى بختنصر سنة ٥٦٢ ، ولم تكن أسرته الكلدانية ترتكز الى أى أساس ثابت ، اللهم الا شخصيته فحسب . لذلك أنزلت عن العرش بست سنوات من هذا الوقت . ونصب البابليون على عرشهم نابونيدوس المحبوب ، والخبير فى الحفائر الآثارية الذى لم يلبث أن صار مكروها من طائفة الكهنة .

مانت أشور موتا أبديا . وتلاشى بأس مصر ، ان لم تفل حيويتها ، وهوى نجم بابل الجديدة بموت بختنصر . غير أن اليونان كانت فتية كما كانت ليديا وميديا ، وكان فى وسع كل ذى بصيرة أن يرى أن المستقبل لهذه الدول . وكان من وراء الميديين ذوو أرحامهم من قبائل الفرس . وبينهم من القرابة ما بين الاسكتلنديين

نهاية النظام القديم

والانجليز ، لا يختلفون فى شىء الا أن حياتهم كانت أكثر متنقة وأن بلادهم كانت أشد جفوة وقد تهيأ لهم أن يستولوا بالتدريج على عيلام المحطمة ، والتى كانت يوما كثيرة الاضطراب والقلق ، ثم جعلوا عاصمتها العتيقة سوزا ، مدينتهم الكبرى ، وان لم يكونوا من سكان المدن ، وأكبر من هذا أنهم فى خلال القرن السابق ، قد أقاموا نظام مملكة يتولى عرشها ملكان ينحدران من ابنى تيسبيس Teispes أو — خسپس بن أخيامينيس (كما يكتب اسمه فى اليونانية) .

أما قورش ، الذى تؤكد الاخبار أن أمه كانت ابنة آستياجس الميدى ، فقد أصبح الملك الرابع من سلالة الابن الأكبر لمملكة انشان (عيلام) — وذلك حوالى سنة ٥٥٢ . وقد طالب بتاج آستياجس وفاز به بتأييد من مواطنيه الفرس . ويلوح أن الميديين قد قبلوا تغيير الأسرة الحاكمة بدون اعتراض . وكان هذا الحادث الضربة القاصمة للنظام القديم .



الحركات الرئيسية للشعوب والثقافات ابان العصور المظلمة لأوربة فيما قبل التاريخ

كانت جماعات نهر الدانوب أول الجماعات الزراعية فى أوربة الوسطى ، وكانت هذه من سلالة سكان البحر المتوسط الذين نزلوا وادى الدانوب حوالى عام ٣٠٠٠ ق٠ م٠ الا أن زراع تريپولجة الذين تدل سلعهم الملونة على أن لهم صلة بالشرق قد يكونون علىوجه التقريب معاصرين لهم٠وكانت هاتان الثقافتان تنتشران انتشارا ، فالتقتا فى اقليم هنغاريا ٠ وأدى امتزاج الدانوبين فى الغرب بمن سبقهم من جامعى القوت الى ظهور ثقافة سكان البحيرات الألپية٠ أما ثقافة بناة الرضام فيلوح أنها قد استمدت بواعثها من الصلات البحرية التى قامت بينها وبين أهل البحر المتوسط ٠ ويمكن تتبع انتقالات الشعوب التى نشأت عن التوغل الآرى بواسطة السهام المرسومة وان كانت هذه السهام لا تدل بحال على حركات شعوب من عصر واحد ٠

الفصل الثلاثون

نشأة الثقافة فى أوروبا الهمجية

(خلاصة عن تقدمها البطىء خلال العهد البرنزى الى ضحى العصر الحديدى الأول)

بقلم ف . جوردون تشايلد

عضو جمعيـة الأثريين واستاذ كرسى أبركرومبى للآثار فى جامعة أدنبره
ومؤلف كتـاب« فجر الحضارة الأوربية » و « الآريون » وغيرهما)

بدأت الحضـارة والتاريخ المدون فى جنوب سلسلة الجبـال العظيمة الممتدة من الشرق الى الغرب والتى تقسم أراضى أوراسيا قسمين ، وقد ظلت الاصقاع التى فى شمال هذا الحاجز غارقة فى الهمجية والجهالة حتى أوائل العهد الذى نعيش فيه ، وظل معظمها على هذه الحال الى زمن متأخر عن ذلك كثيرا ، ومع ذلك فان سكانها ـ كما بينـا فى الفصـل العشرين ـ قد اقتبسوا أشياء من حضارات الجنوب رفعتهم من حالة الوحشية الخالصة الى حالة الهمجية . وقد عدلوا ما تلقوه ليوائم ظروفهم الخاصـة ، فهمج الشمال كانوا على حظ من الرقى يسمح لهم بأن يتأثروا بسيرالحضارة فى الجنوب بل بتغيير مجراها ، ويجدر بنا فى هذا المقام تكوين فكرة عن هذا العالم الهمجى من حيث هو أساس للتاريخ اليونانى والرومانى القديم .

ومن الطبيعى أن تكون معلوماتنا عن الجماعات البشرية التى عاشت يوما ما فى شمال جبال الألب والقوقاز والهيمالايا أشتـاتا متفرقة ، وذلك لعدم وجـود مدونات من أى نوع كان . ولكن مع هذا فان الجهود التى تبذل فى جمعها والموازنة بين ما تبقى من آثارها المـادية تمكن عالم الآثار من رسم صـورة تقريبية لرقيها وثقافتها . ولا مناص من أن تكون هذه الصورة ملأى بالفجوات فقد فقد الكثير فقدانا لا سبيل الى استدراكه وتلافيه ، كمـا أن التفصيلات تعتورها الشكوك الى حد معين ،وقد بلغ هـذا الشك حدا يحتم علينا أن نبدأ كل جملة فى هذا الفصل بالعبـارة الآتية « ربما كانت الموازنة بين الاحتمالات المختلفـة تؤيد الرأى القـائل بكذا » ولكننا سوف لا نشق على القارىء بأمثال هـذه الشكوك ـ وسنمضى فى محـاولة معرفة كيف نشأت ثقافة أسلافنا الذين لم تصقلهم الحضارة وكيف عاشوا فى الفترة التى دخلوا فى ثناياها الى نطاق التاريخ باحتكاكهم باليونان والرومان . وسـنكون جل عنايتنا بأهل أوربا الهمجيـة ، لأن هؤلاء قد سـاهموا فعـلا فى الحضارة الغربية واضطلعوابدور بارز فى قصة تاريخ العالم التى كان من فصولها تاريخ اليونان والرومان .

والواقع أن الطبيعة نفسهـا قد ميزت شبه الجزيرة الأوربيـة واعدتها لتكون مهدا لطراز موفق من الثقافة ، فقد كانت تستمتع بمنـاخ معتدل بالقياس الى شدة المناخ القارى المعهود فى آسـية العليـا ، وسطح الأرض فيهـا من التنـوع بحيث يمكن القـوم الذين يتبعـون أساليب مختلفة فى حياتهم من أن يعيشوا جنبا الى جنب . وقد يسر ذلك سبيل التفاعل الدائم بين الثقافات المختلفة الأنماط .

الوطن المـواتى لثقافات خاصة

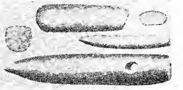
وكانت البحار التى تحدها وسـلاسل الجبـال التى تقسمها تقيم العقبات فى سبيل حياة الترحل والنقلة ، وأرغمت سكان أوربا الأولين على أن يتلبثوا ويقيموا . وقد حمت الغابات والبقاع الجبليـة المتسعة شـبه الجزيرة الأوربيـة من غارات الجموع الجوابة ، تلك الجموع التى حال تنقلها الدائم فوق أراضى الكلأ فى آسية العليا دون نشوء الصناعة والحضارة المستقرتين .

وكانت أوربـا فى نفس الوقت مجـاورة لمراكز الثقافة الأولى فى شرق البحر المتوسط ، وكانت الثغرات التى تتخلل سلسلة الجبال مما يسمح بتدفق تيارات مزهرة مقبلة من هـذه الشواطىء . وكان نهر الدانوب جزءا من درب طبيعى يؤدى من نواحى بحر ايجة عبر البحر

الاسود الى صميم أوربا الوسطى . وكانت هناك ممرات عدة تفضى من البحر المتوسط الى أعالى واديى الدانوب والرين ، وأخيرا كانت البحار التى تغشى مياهها الشواطىء الشمالية والغربية تتيح طريقا ممهدا للملاحين المخاطرين المهرة الذين كانوا يتدربون فى شرق البحر المتوسط من حوالى خمسة آلاف سنة مضت .

وقد كان تحقيق الممكنات من عمل انسان ما قبل التاريخ ، فهو لم يجد أوربا موحدة مهيأة له ، وقد تعلم بالتجارب وبذل المجهود كيف يلائم بين حياته ومستلزمات بيئته ، وقد كشف مسالك التجارة والهجرة التى تسير فيها الطرق والسكك الحديدية اليوم ولكن مثل هذه الفرص لم تكن على الدوام ميسورة .

وقد عانت منطقة شبه الجزيرة الأوربية عصرا جليديا (راجع الفصل الخامس) كما عانته سائر أراضى أوراسية ، وكان ذلك فى نفس العهد الذى أخذ يخطو فيه الى الحضارة



معازق الأوربيين البدائيين

مما يثبت أن الدانوبيين كانوا يمارسون الزراعة اثباتا حاسما وجود قواطع قوالب الأحذية فى منازل اقامتهم وقد كانت هذه القواطع مسطحة من ناحية ومنحنية من الناحية الأخرى وفى بعض الأحيان مثقوبة لوضع المقبض،فهى فى الواقع نوع من المعازق

الخطوات الأولى القوم الذين حلوا أماكن أحسن موقعا فى شمال افريقية وآسية الدنيا ، وقد مكنهم من ذلك استئناس الحيوانات وزراعة النباتات ، ولم تكن أوربا فى هذا الوقت صالحة الا لثقافة من طراز ثقافة الاسكيمو التى يمثلها سكان الكهوف وصائدو الوعول فى العصر الحجرى القديم وقد استمر الجو الجاف الذى كان أقل برودة من جو القطب الشمالى فى معظم أوربا الى ما بعد العصر الجليدى الأخير بقرون عدة .

لكن مناخا أدفأ وأكثر رطوبة نشأ من الحركات التى طرأت على سطح الأرض فحل فى آخر الأمر محل المناخ البارد السالف الذكر وارتفع متوسط الحرارة فى أوربا الشمالية الى ما فوق المتوسط الحاضر ، وكانت الرياح الدافئة المشبعة بالرطوبة المقبلة من المحيط الاطلسى تهب على شمال ألمانيا وتحمل الى هذه الأصقاع مطرا أغزر مما يصيبها اليوم ، وقد نجم عن ذلك تكاثر الغابات المليئة بالأشجار التى تزكو بالرطوبة وذلك فى البقاع التى كانت قبل ذلك صحارى جليدية أو أحراج صنوبرية .

ووجد صيادو الوعول وغيرها من الحيوان الذين كانوا لا ينفكون يجوبون السهول المكشوفة القارسة فى العصر الحجرى القديم أن الغابات الملتفة من أشجار البلوط والشجيرات المتكاثفة قد أخذت تعاق حركاتهم حتى حصرتهم فى النهاية فى الأراضى الشاطئية على ضفاف المستنقعات والبحيرات أو البقاع الرملية فى وسط الغابات . وقد ظلوا فى عزلتهم يعيشون شراذم قليلة على أسلوب لا يفترق كثيرا عن أسلوب حياتهم السابق يصطادون الحيوان والأسماك ولا يتقدمون بل يتقهقرون تحت ضغط الجهود التى يبذلونها للملاءمة بين أنفسهم وبين الأحوال المستجدة .

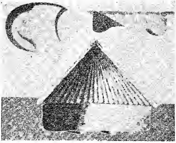
غير أن فى أوربا الوسطى مساحات واسعة يغطيها الطين اللازب وهو التربة الناعمة التى خلفتها الرياح خلال أدوار الجفاف فى العصر الجليدى (أنظر ص١٤٧ من المجلد الأول) ، وهذه التربة غيرصالحة لنمو الأشجار الضخمة ، ولكنها فى نفس الوقت ملائمة للزراعة أشد الملاءمة ، ولذلك أصبحت أراضى الطين اللازب هذه اقليما لا نظير له فى صلاحيته لأن يستقر فيه منتجو الطعام الأولون ومن ثم كان من الطبيعى أن يبادر شعب من المزارعين الى احتلال سهول وسط أوربا المغطاة بهذا الطين .

وأكبر الظن أن هؤلاء الأقوام قد قدموا من الجنوب الشرقى وأنهم ينتسبون الى فرع قديم من فروع شعب البحر المتوسط القصير القامة الأسمر اللون ، ومن المؤكد أنهم كانوا يملكون نوعا من القوارب ويبحرون فى الأنهار ، ولهذا فمن المحتمل أنهم وصلوا أول الأمر الى أوربا الوسطى بحرا قادمين من البحر الأسود عن طريق الدانوب . وقد وجدوا فى شمال

الصرب وفي سلوفاكيا وفي السهل السفلى أراضي صالحة مغطاة بالطين مكشوفة أعلى مستوى من المستنقعات والغابات المشبعة بالماء التي كانت تتاخم ضفاف الدانوب وقتئذ . فأنشأوا أول مستعمراتهم في تلك الأراضي الخالية غير المعرضة للفيضانات ، ويمكننا أن نطلق عليهم لذلك اسم الدانوبيين لأننا لا نجد لهم اسما أفضل من ذلك .

ومن المؤكد أن هؤلاء الدانوبيين هم أول من نقل حضارة انتاج القوت الى داخل أوربا . وكانوا يعيشون في أول أمرهم على ما تغله الأرض التي كانوا يفلحونها قطعا صغيرة مستعينين على ذلك بفؤوس نصالها من الحجر . وكانوا يزرعون القمح والشعير في حدائقهم المقسمة قطعا صغيرة ، وكانوا يقتنون ايضا الحيوانات الأليفة مثل الخنزير والماشية والغنم والمعز ، وكانت كلها من أنواع مختلفة عن الأنواع التي نربيها اليوم . ولم يكن للصيد شأن يذكر في حياتهم المنزلية الاقتصادية ، وكانت علاقتهم بعضهم ببعض علاقات سلمية

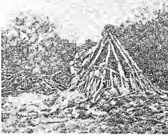
وكانوا يعيشون مجتمعين في دساكر صغيرة ، وكانت أكواخهم حفرا مستديرة أو بيضية مسقفة بالجلود والحشائش تقوم على هيكل من العصى مخروطي الشكل أو في شكل خلية النحل ، وفي مثل هذه الأعشاش الحقيرة كانت تعيش الأسرة كلها متكدسة ويرقد أفرادها حول رماد موقد في الوسط ، وكان

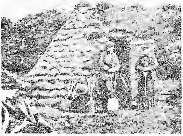


أكواخ العصر الحجرى الحديث

كانت الأكواخ الدانوبية حفرا مستطيلة أو بيضية مسقفة بالجلود أو بجذور الحشائش القائمة فوق قضبان مخروطية الشكل وأعلاه قطاع صورة مخيلة لأحد هذه الأكواخ وفي أعلاها رسم تخطيطي وقطاع كوخ آخر

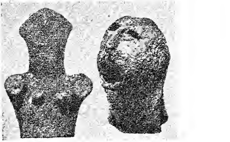
ذلك كافيا لوقايتهم من البرد والرطوبة . وقد بقى هذا الطراز من المساكن في أوربا خلال العهد السابق للتاريخ ثم هو لا زال موجودا الى اليوم في اماكن غير مطروقة ، بل ان أكواخ صانعى الفحم في غابة ايبنج Epping، وهي قريبة جدا من لندن وكانت مستعملة الى أوائل هذا القرن لتحتفظ هي الأخرى بصورة الأكواخ البدائية القديمة في العصر الحجرى الحديث ، وقد أدخل الدانوبيون فن الفخار وعمل السلال والنسيج فضلا عن الزراعة والحيوانات الأليفة ،





مساكن من عهد ما قبل التاريخ لا يزال الناس ينسجون على منوالها في القرن العشرين

لا توجد أمثلة أبعث على الاهتمام بالأنماط الباقية التي تمى بالغرض المقصود منها بالرغم من كونها بدائية من تلك الأمثلة القليلة الأخرى التي تزودنا بها أكواخ المشتغلين في مناجم الفحم بغابة ابنج ، وهي مطابقة تماما في تخطيطها وبنائها لأكواخ الفلاحين الدانوبيين في العصر الحجرى الحديث . وفي الصورة اليمنى نرى الهيكل الخشبي المقام فوق حفرة ، والصورة اليسرى كوخ كامل مسقف بجذور الحشائش وهو لا يختلف عن تلك الأكواخ التي كانت تتخذ منزلا لأسرة بأسرها منذ خمسة آلاف سنة



رموز عقائد لم يتلقنها معتنقوها عن أحد

كان مزارعو اقليم الدانوب يعبدون الهة أما وكانوا يمثلونها فى أشكال من الصلصال صغيرة الحجم ، ربما كانت تتخذ تعويذة للخصب ، وهى من طراز كسر التسبوع ، ونماذجها القديمة ساذجة الصنعة الى حد كبير

وكانوا يعبدون ربة أما وقد صنعوا لها تماثيل فجة من الطين . ومن المحتمل أن يكون هؤلاء الأقوام هم مصدر بعض الاعتقادات الخرافية مثل الاعتقاد بمصاص الدماء والتصديق بالأشباح التى تنبعث من القبور لتمتص دماء الاحياء .

ولم تقتض طريقتهم فى الزراعة – أو بالأحرى زراعتهم للحدائق – شيئا مثل الاقامة المستديمة ، فهم لم يقيموا بأى مكان اقامة متصلة لمدة طويلة ، وسرعان ما كانوا ينقلون مكان اقامتهم الى مكان آخر قريب منه اذا ما لاحظوا أن خصوبة الأرض قد تناقصت أو عندما تبعث المنايا والمصائب معتقداتهم الخرافية .

وعلاوة على ذلك كانت كل جماعة ترسل من أنسالها من يذهبون الى انشاء مستعمرات جديدة تخفيفا لضغط السكان أو لمجرد تبرم الجيل الناشىء بالقيود التى يفرضها عليه الجيل القديم ، وهكذا استعمر الدانوبيون بالتدريج كل الاراضى ذوات التربة الصفراء فى وادى الدانوب وفى أحواض الفستولا والأودر والألب والرين . وفى كل مكان من غاليسيا الى شمال فرنسا ظهر المزارعون بمظهر الرواد لطور الثقافة الذى يسمى العصر الحجرى الحديث وهى تسمية فيها كثير من التجوز .

ولم يكن هناك شىء يستحث الدانوبيين على تجويد صناعاتهم وأساليبهم ، فقد كانت الأرض الصالحة موفورة ولم يكن فى ذلك الوقت من ينازعهم امتلاكها ، ولذا اعترى الدانوبيين الجمود ، والواقع أن ثقافتهم أصابها الانحطاط حتى بين تلك الجماعات الرائدة التى شقت طريقها خلال الغابات التى تفصل بين أنحاء الاراضى ذات التربة الصفراء وأصبحت بذلك مبتورة الصلة بدرجات متفاوتة بقبيلتها ، ومن ناحية أخرى كان الدانوبيون فى أثناء انتشارهم يحتكون بجماعات أخرى ، وكان لذلك أثره فى الحد من الجمود والانحطاط الذى كان قد أخذ يتطرق اليهم ، وكان بعض هذه الجماعات من بقايا جامعى القوت الذين عاشوا فى العصر الحجرى القديم وكانت ثقافتهم أقل منزلة من ثقافة الدانوبيين ، ومع ذلك فان احتكاك هذين الطرازين من الحياة استلزم استحداث ملاءمة جديدة للبيئة . ففى المناطق الألبية مثلا كان الجبليون الأشداء يستمدون حضارة سكان البحيرات الموصوفة فى الفصل العشرين مقتبسين من الدانوبيين .

وواضح من هذا أن الدانوبيين هم الذين وضعوا أساس الثقافة فى أوربا الوسطى ، وبطبيعة الحال قد اشترك فى ذلك أقوام آخرون خلاف الباقين من جامعى القوت . وكان يقيم فى السهول المرتفعة فى روسيا الجنوبية حيث توجد رواسب عميقة من التربة الصفراء قبيلة من المزارعين كانت حضارتها من بعض النواحى أسمى من حضارة الدانوبيين ، فقد كانوا يعرفون بوجه خاص الفن المنقوش على الزهريات وبناء المنازل القائمة الزاوية ، وكان لهذه المنازل دعائم تسند حيطان المدر والأغصان المتشابكة ، وكانوا مدينين بثقافتهم لبلاد ما بين النهرين وعيلام ، وقد نشأت هذه الجماعة على الأرجح فى آسيا الوسطى ، وفى النهاية عبرت جبال الكربات واحتكت بالدانوبيين فى المجر ، وفى نفس الوقت كانت هناك جماعات أخرى من المزارعين المنحطين تنتشر فى غرب أوربا ، وقد قدمت من افريقيا بطريق مضيق جبل طارق ، وهذه الجماعة تلحق بشعب البحر المتوسط ، وكان المنظور أنها تنتشر بطريقة تدريجية كما فعل الدانوبيون تماما .

ولكن سرعان ما جاء تيار حضارة مختلف كل الاختلاف وأثر فى شواطىء أوربا ، وذلك أن الناس فى الشرق القديم كانوا يجدون فى البحث عن موارد جديدة من المعادن والمواد الثمينة ، وأنشئت مستعمرات فى مراكز مختلفة فى غرب البحر المتوسط ، وارتاد هؤلاء

السائحون الشجعان جهات أبعد ، وأبحروا من مضيق جبل طارق وساروا فى محاذاة شواطىء الأطلسى حتى انتهوا الى الجزائر البريطانية ، وعبروا بعد ذلك بحر الشمال الى اسكندبناوة ، وأقام بعض هؤلاء السائحين فى مراكز مختلفة على الشاطىء وبوجه عام فى جوار مستودعات المعدن الخام أو الذهب كما حدث فى بريطانيا وايرلنده أو على مقربة من موارد الكهرمان فى الدانماركة ·

وقد اقتبس هؤلاء الملاحون من غير شك قدرا صالحا من ثقافة الشرق القديم ونقلوا عناصر منها الى سلالة السكان الأصليين جامعى القوت القدماء ، وقد اصطدموا بهم على الشواطىء ولابد أنهم قد ظهروا فى نظرهم بمظهر انصاف الآلهة وأبطال الثقافة ، ولكن هؤلاء الزائرين كانوا أقل من اولئك عددا ، ولهذا سرعان ما انحطت الثقافة التى نقلوها وغلبت عليها الهمجية ، وربما حملوا معهم حبوبا وحيوانات منزلية ومعادن ، ولكن الذى أثر فى السكان الأصليين تأثيرا بعيد المدى هو رأيهم فى الحياة المقبلة وعقيدتهم فى الموتى ·

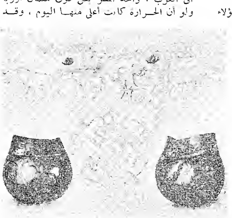
وأبقى الآثار التى تدل على وفود هؤلاء الملاحين من الجنوب هى الحجرات الواسعة المستديرة المشيدة بالأحجار الضخمة التى أقيمت لتكون مقابر للموتى ، ولذلك كان من المناسب أن ندعو هؤلاء الملاحين البناة بالرصام ، ولكن يلزم ألا ننسى أن معظم هذه المقابر وبخاصة المقامة فيما

جوابو البحار من أهل الجنوب

وراء الشاطىء لم يشيدها هؤلاء الوافدون وانما شيدها السكان الأصليون الذين اقتبسوا الفكرة اقتباسا لم يستكمل أسبابه ، وكانوا يجتهدون فى تقليد النماذج التى شاهدوها اجتهادا أخطأهم فيه التوفيق ، وكان هؤلاء القوم من الاستغراق فى عقيدتهم وما تتطلبه من أعمال بحيث لم يجدوا الفرصة ليتقدموا تقدما حقيقيا فى الفنون التى هى أدخل فى الفنون العملية ·

وقد وصفت أعمالهم فى البناء بالأحجار الضخمة فى الفصل العشرين ، ومن ثمة فلا داعى الى تضييع الوقت فى تناولها مرة أخرى ، وبقى أن نتحدث عن جماعة أخرى قدر لها أن تلعب دورا عظيما فى تكوين الحضارة الاوربية · ففى السهول العظيمة فى شمال أوربا وشرقها ، وبخاصة فى الأراضى المكشوفة المغطاة بالحشائش الممتدة شرقا من ناحية شواطىء البحر الأسود الشمالية كانت تقيم قبائل من فرسان البدو والرعاة ، وكانوا قد أخذوا بطرف من حضارات ما بين النهرين والايجيين الراقية ، وذلك لأن المستكشفين من بابل وأشور ذهبوا الى القوقاز للبحث عن المعادن والأخشاب والأحجار الكريمة ، على حين أن رجال أسطول الأرجو القدامى أبحروا خلال الدردنيل وأسسوا مراكز تجارية على شواطىء البحر الأسود ، وقد اقتبسوا منهما بعض أوليات الثقافة · ومن المحتمل أن سكان السهوب هؤلاء هم الآريون الذين انبثقت من لغتهم اللغات الانجليزية واللاتينية واليونانية والفارسية واللهجات الهندية ولغات أخرى كثيرة ·

وحوالى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد بدأ عصر جفاف أرغم بعض الآريين على البحث عن مراع جديدة وحملهم هذا الجفاف المتزايد الى الغرب ، وأخذ المطر يقل فوق شمال أوربا ولو أن الحرارة كانت أعلى منها اليوم ، وقد



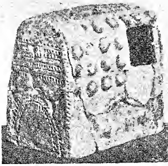
كيف جاء أول حصان الى أوربا

أهم ما أضافه الآريون الى ثقافة أوروبا هو الخيل ، وقد وجدت عظامها فى قبور الربى فى سهوب روسيا الجنوبية . والأنواع المرسومة على هذه الزهرية الفضية (الى يسار الصورة) قد وجدت فى ميكوب فى بلاد القفقاس ويرجع تاريخها الى حوالى سنة ٢٥٠٠ ق · م – وهى الأمهار المغلية التى لا تزال موجودة – حصان برزفالسكى (أنظر صفحة ٢٣٥) ·

انتقص ذلك من أطراف الغابات البدائية وأفسح المجال للمروج ونباتات السهول ، وأصبح السهل الممتد من القوقاز الى بحر الشمال أقرب منالا وأيسر عبورا ، فهاجرت جماعات من الآريين غربا ومعهم قطعانهم وعرباتهم مجتازين الغابات المتصوحة ، وغزوا في النهاية الأراضي ذات الغرين الأصفر في وسط أوربا وشواطىء بحر الشمال .

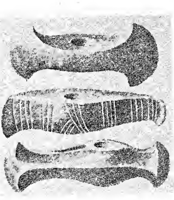
وكانت ثقافة هؤلاء الغزاة أقل مستوى من الثقافة السائدة في أوربا الوسطى من نواح عدة ، وكان جل اعتمادهم على انتاج قطعانهم وعلى الصيد ، ولم تكن لهم منازل مستديمة للاقامة بها ، وانما كانوا يلوذون بالكهوف ويقيمون في خيام متنقلة ، ولعلهم كانوا يقيمون في العربات . ولكنهم مع ذلك كانوا يبادرون بدفن موتاهم ويقيمون كومة فوق القبر .

فاذا استثنينا ادخال الخيل والعربة ذات العجلات — وهما من الحوادث العظيمة الأهمية — فان مجيء الآريين لم يكن له سوى أثر زهيد في انماء ثقافة أوربا المادية ، والحقيقة أن هؤلاء الغزاة كانوا طفيليين الى حد كبير ، فقد كانوا يتجمعون حيث مهد لهم الغير أسباب الحضارة ، وكانوا يفرضون الاتاوات على المستعمرات الساحلية القائمة حول مستودعات الكهرمان في الدانمارك ، ونزلوا بمزارعي الدانوب الى



هيئة العربة الآرية

أدخل بدو الآريين القادمين من الشرق الى أوربا مع الخيل العربات ذات العجلات . وربما كانوا يتخذونها للسكنى ، وهذا الأنموذج المصنوع من الصلصال الذي يمثل الجزء الأعلى من عربة عثر عليها في مقبرة في أولسكي بالقوقاز



بلطات الآريين الحجرية

رؤوس بلطات حجرية مثقوبة لادخال النصل وهي نماذج من الصور المعدنية الأصلية وتوضح الطريق الذي قطعه الغزاة الآريون في أوربا جميعها ، وقد عثر على النوعين اللذين في أسفل الصورة في سيليزيا ، والأعلى عثر عليه في سنوشل بجلوسترشاير

مرتبة التبعية لهم . وأشعلوا الروح الحربية في أصقاع قد ازدهرت بها فنون السلم ، ثم انتشروا حتى بريطانيا وسويسرا وايطاليا والبلقان اما وحدهم واما متزعمين جموعا أخرى أقدم منهم ، وكانوا حيثما اتجهوا يخلفون في طريقهم آثارا من بلطات فاخرة مصنوعة من الحجر وهي نماذج للأصل المصنوع من المعدن .

وبالرغم من ذلك فان مجيء هؤلاء المحاربين كان خطوة لازمة للكشف عن مجاهل أوربا ، وقد حطم احتكاك أساليب الحياة المختلفة ومذاهب التنظيم الاجتماعي المتنوعة انماط المجتمعات القديمة الجامدة ومهد السبيل لانماء روح الفرد واستيعاب أفكار جديدة . واستمرار حالة الحرب بوجه خاص جعلت حاجتهم الى أسلحة أفضل للدفاع والهجوم تزداد زيادة مضطردة . وكان الاتجار مع الحضارات الأعرق في القدم في الجنوب هو الذي سد هذه الحاجة .

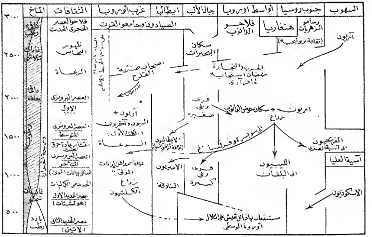
وبطبيعة الحال كان يقوم بين الأقاليم المختلفة في أوربا نوع من تبادل المحاصيل استمر زمنا طويلا . وحتى في العصر الحجري كانت الأصداف المجلوبة من المحيط الهندي تحمل الى ايطاليا ، وفي العصر الحجري الحديث كان تبادل المحاصيل قد أصبح أمرا عاديا مألوفا .

وكان المزارعون الدانوبيون حتى فى موراقيـا وجنوب ألمانيا يزينون أنفسهم بأصداف البحر المتوسط ، وكان الكهرمان يحمل من البلطيق الى بلاد البرتغال : وكان الصوان الجيد يستخرج ويصنع فى جـراند برسينى فى غرب فرنسا ويتـاجر به حتى بـلاد البلجيـك وفى قـرى البحـيرات السويسرية ، وكان حجر الأبسيد المجرى يستعمل أحيانا فى كرواتيا وسيليزيا ٠

ولـكن نقل المحصـولات لم يكن بحال من الأحوال يقوم على الاتجار المنظم المطرد ، وانما الذى كان يحدث فى الغالب أن يتبـادل أحـد المجتمعات هـدايا المجتمع الآخر مما تقضى به المجاملات كلما زار أحدهما الآخر ، ومن المحتمل أن البحث عن المعادن والمواد الثمينة كان هو الحافز على الرحلات الأولى على شاطىء المحيط الأطلسى ، فاذا تحققت آمال القائمين بهـــذه الرحـلات كان من المرجح أن يعـودوا ببعض هـذه الثروة الى بلادهم ، ولـكن الأرجح على ما يلوح هو أن البنـاة بالرضـام انما كانوا يقـــدرون الذهب والـكهرمان لخصـــائصهما السـحرية المزعومة فـكانوا يستعملونهما فى الشعائر الجنائزية أكثر من استعمالهما بصائع يصدرونها ويقايضون عليها ، أما المزارعون فى الأراضى ذات الغـريـن الأصفـر فانهـم كانوا يجنحون الى العيش مكتفين اكتفـاء تاما بمـا لديهم ، فكانوا يزرعون ما يقتاتون به ويصنعون بأنفسهم ملابسهم وقدورهم وأدواتهم المنزلية ٠

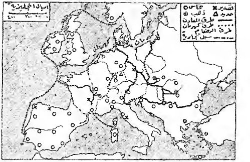
وكان المحارب من ناحية أخرى لا يـى يتطلع الى أسلحة جديدة للموت ، وكان يرحب ببلطة جيدة من النحاس أو خنجر ، وفى نفس الوقت الذى ظهر فيه المحارب على مسرح الحوادث أخذ سـكان الشرق القـديم يرغبون فى المواد التى تستطيع أوربا أن تزودهم بها ، وكان قد أصبح معروفا أن اضافة القصدير الى النحاس تخفض درجة الانصهار وبذلك يسهل صبه ، ومن ناحية أخرى كذلك تزيده صلابة ، وكان القصــدير معدنا نادرا نسبيا وكان فى مقدور أهل الشرق القديم فى أول الأمر أن يستحضروا ما يلزمهم من بلاد العجم أو نيجـريا ومن توسكانيـا أو أسبانيـا ، بيد أنه كان يوجـد فى لورنول وبوهيميا عروق معدنية أوفر بكثير من البلاد السابقـة ، ولم تلبث بعـد سنة ٢٠٠٠ قبـل الميلاد أن أصبحت ميسرة للاستغلال ٠

وربمـا يكون البنـاة بالرضـام هم الذين



رسـم تخطيطى يوضح تطور الثقافات الأوروبية

فى صفحة ١٩٢ من المجلد الثانى خريطة توضح التوزيع الاقليمى للحركات التى يمكن الكشف عنها فى أوروبا خلال العصر الذى نتناوله بالبحث ، وهذه الخريطة توضح تسلسلها الزمنى وتجعلها موافقة لانبعاث أطوار من الثقافات واسعة النطاق مثل العصر البرنزى وما اليه ٠ وهى من بعض الوجوه تكملة للخريطة المماثلة لها صفحة ٢٣٠ من المجلد الأول والعصر الحديدى الثانى لا يدخل فى حدود هذه الخريطة ، وقد كتب عنه فى الفصل الخمسين



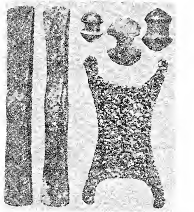
موارد التجارة ومسالكها فيما قبل التاريخ

بينا فى صفحة (٦٥٠ من المجلد الأول) طريقى التجارة الرئيسيين القديم والمتأخر بين البلطيق والبحر المتوسط. وهذه الخريطة توضح على وجه الاجمال شتى الطرق التى كانت مستعملة مع بيان مواقع أهم المواد التى كان يتجر بها ، ولما اكتشف الحديد كانت تجارته تسير بخاصة فى مسالك النحاس الأحمر القديم .

اكتشفوا فى أول الأمر قصدير كورنوول ، ولكن نمو الحضـارة التى ظهرت قبـل أوانهـا والتى استعملت البرنز فى الجزائر البريطانية كان معاصرا لقدوم أول فوج من الغزاة الآريين حوالى سنة ١٩٠٠ قبل الميلاد ، وقد لعب أصحاب طروادة (وهى غير المدينة الهومرية وانما هى أقدم عهدا منها وهى ثانى مدينة تقوم فى الموضع المعـروف بهـذا الاسـم) دورا رئيسـيا فى استخراج القصدير فى بوهيميا ومن المحتمل أن يكونوا قد أرسلوا حملات الى أعالى الدانوب ، وكان هدف هذه الحملات بلا ريب هو حقـول الذهب فى ترانسلفانيا ، وكانت هذه الحقول أغنى ما فى أوربا اذا استثنينا ابرلندة ، وربما يكون بعض هذه الجمـاعات قد عثر بالمعـــدن النفيس الجـديد ، وكان فى وسـعهم أن يغروا الرئيس المحلى على تكليف رعيته بأن يجمعوا ما تغله بلاده من المعادن وذلك باهدائه خناجر وحلى ايجية جيـدة ، ولابد أن بعض هـــؤلاء الزائرين قد أقاموا هناك ليتوفروا على العمل فى اسـتخراج المعادن لقـاء ضريبة يدفعونها لرئيس الجماعة ، وشحن المحصولات هابطـين فى الدانوب ، ولما سقطت طروادة وحرم هؤلاء المهاجرون من سوقهم الأصلى أخذوا ينتجون سلعا معدنية للاستهلاك المنزلى .

وفضلا عن ذلك فان نتاجا آخر من منتجات أوربا الشمالية أصبح له شأن يذكر فى عالم البحر المتوسط حوالى هذا التاريخ ، وذلك أن كهرمان البلطيق شق طريقه كما رأينا الى شبه جزيرة أيبريا،وبذلك عرف فى البحر المتوسط . وعلاوة على ذلك فقد عرف المحاربون الآريون قيمة الراتينج الحفرى بوصفه تميمة ، وحملوا خرزات منه الى بوهيميا ، بل الى الجزء الأعلى من ايطاليا ، ولما استقر بهم المقام فى الاقليم الأخير ظلوا يستمدون الحـلى التى تعودوها ، وهكذا تهيأت الأحوال التى تدعو الى قيام التبادل التجـارى المنتظم مع العالم المتحضر . فمن ناحية أحس رؤساء المحـاربين فى وسـط أوربا وفى شمالها بالحاجة الى المنتجات الايجية ومن ناحية أخـــرى وجـدت هناك منتجات يمكن عرضها فى أسواق شرقى البحر المتوسط ، وبقى بعد ذلك البحث عن وسـيلة مـناسبة وطريق صالح لهذا التبادل .

وقد اسفر الانجار مع طروادة عن اكتشاف قصدير بوهيميا ونحاس ترانسلفانيا وسلوفاكيا

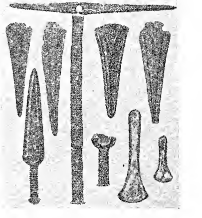


أشكال بدائيـة للعملة

كان الأوربيون يتخذون سـبائك نحاسيه ايجية على شكل جلد الثور وحدة للعملة فى الأغراض التجارية ، وكانوا فى الأعم الأغلب يستعملون السـبائك النحاسـية المصنوعة على شـكل البلطـات المزدوجـة وخـرزات الكهرمان ، وتبدو السبيكة هنا فى خمس حجمها والخرزة فى نصف حجمها

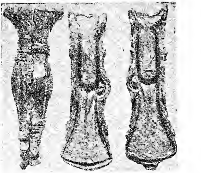
وكان معنى ذلك ابتداء استغلال هذه الموارد استغلالا منظما ، ومما لا شك فيه أن أول من قام بهذا الاستغلال المشتغلون باستخراج المعادن من الاجانب ، وقد أوجد ذلك رباطا بين المطعّمين المهجرين ، ولكن المحافظة على الاتصال الدائم مع أقرب مراكز الحضار على طول الدانوب وعبر البحر الأسود كان شاقا ، وحوالى سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد خربت جموع من البرابرة — كما رأينا — مدينة طرواده ، وبذلك قضى على هذا السوق قضاء مؤقتا ، ثم استعيض عنه بطريق جديد أقصر من الطريق الأول الى البحر المتوسط لتجارة الكهرمان ، وكان الذى فتح هذا الطريق جماعة من التجار جاءوا الى مستقرهم الأخير من اسبانيا .

وهذا الطريق الممتد من أعالى الألب الى السواحل الشمالية للبحر الأدرياوى قد وصفناه فى الفصل العشرين ، وهو موضح على الخريطة صفحة ٦٥٠ من المجلد الأول . ولما كانت بوهيميا فى ذلك الوقت متصلة بالفعل بمستودعات الكهرمان الدانماركية عن طريق الألب فقد وجدت رابطة منتظمة بين البحر المتوسط



نماذج تدل على براعة صناع المعادن القدامى

تتجلى البراعة الكبيرة التى وصلت اليها صناعة البرنز فى هذه الأشياء الموضحة . وهى من ابونهيلبجن فى سكسونيا البروسية . وفى الوسط أنبوبة من البرنز عبارة عن غلاف لقبضة رمح له رأس البلطة مثل القطع الأربع فى الصف الأعلى وفوقها سبيكة أو لعلها معول

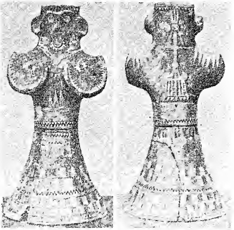


قالب برنزى لعمل الأسلحة

هذا القالب البرنزى لصب البالستيف ، (نوع من الأسلحة القديمة) (انظر صفحة ٣٠٠ من المجلد الاول) وقد عثر عليه فى ولترسدير وقد صب فى أنموذج من الصلصال مثبت حول صورة فيها التواء (وقد ظهرت صورته فى المعدن) ، وقد بينا هنا نصفيه كلا على حده والى شمال الصورة نرى النصفين وقد التأما

واسكندناوه ، وكاد يهجر طريق التجاره القديم على طول الدانوب فترة من الزمن فيما عدا القسم الذى يربط حقول القصدير فى بوهيميا بمناجم النحاس فى المجر . وأنشئت مراكز لصناعات المعدنين على طول الطريق التجارى الجديد فى تورنجيا وبوهيميا وايطاليا العليا ، وكانت التجارة نفسها فى أيدى صناع المعادن المتنقلين أو (السمكرية) ، وكانوا يحملون معهم فى تطوافهم مجموعة من العدد والأدوات والأسلحة والحلى المصنوعة من البرنز ليقايضوا بها على انتاجات الديار التى يمرون بها وبخاصة لأجل الحصول على الكهرمان .

وكانت أمثال هذه الرحلات التجارية محفوفة بالخطر ، فقد كان هناك جبال تتخللها غابات تأوى اليها الدببة والذئبان وممرات عالية لا معدى عن سلكها وأنهار سريعة التيار لا بد من عبورها . ولم يكن هناك لا قانون دولى ولا نظام سياسى مستقر واسع المدى يحمى هؤلاء التجار . وكانوا يستهدفون من الحين الى الحين لهجوم الأعداء من انسان أو حيوان ، وكانوا عندما يحسون الخطر يبادرون الى طمر ما يحملون من البضائع وفى مأمولهم أن يستردوها بعد زوال الخطر ، ولكن فى الأغلب الأعم كان يعجز التجارة عن العودة ، وظلت سلعهم مخبأة فى باطن



صورة الأم الـكبرى مرتدية ثيابها

هـذا التمثال الصلصالي عثر عليه في مقبرة كلبسيفالك في سيبيريا وفكرته مستمدة من الأم الـكبرى عنـد الايجيين ، ويرجع تاريخه الى منتصف العهد البرنزي وله أهمية خاصة لأنه يرينا لباس النساء في ذلك العصر والطريقة التي كانت تلبس بها الحلي المعدنية التي عثر عليها في المستودعات المعاصرة .

الأرض حتى كشف عنها علماء العاديات المحدثون . والحقيقة أن مثل هذه الكنوز بتوالي الكشف عنها فيمكننـا ذلك من معرفة طرق التجـارة قبل التاريخ .

وعلينا أن نذكر أيضا أنه لم يكن ثمة نظام مستقر للعملة ، وقـد كان الآريون يتخـذون الماشية معيارا للقيمة حتى في العصور التاريخية وقـد كان الايجيون ــ وهم أرقى حضـارة ــ يستعملون في المبادلة بلطـة ذات رأسين من النحاس الأحمر ، وكانت البلطة رمزا مقدسا عند الميـنويين ، ولذا كانت منـاسبة بوجه خاص للتجارة ، وذلك أنهم في أوائل عهدهم بالتجارة يتوسلون بالـكائنات العليا لتشهد مبايعاتهم فيكسبها ذلك القوة التي تكتسبها بالقانون الآن وشق بعضها طريقه الى أوربا الوسطى ولـكن الناس لم يقبلوا عليها الاقبال الذي يجعل منها عملة مستقرة .

وكان النحـاس الأحمر الخـام ينقـل من سلوفاكيا في شكل حلق كانت تلبس أيضـا كالحلي حول العنق ، وكانت من غير شك تتخذ لذلك معـايير للتقـويم في المعـاملات التجارية بين المشتغلين بصناعة النحاس الأحمر والمشتغلين بصناعة القصدير ، ولكن لم يعم استعمالها ، ولذلك كانت معظم المعـاملات في بادىء الأمـر تتم بطريق المقايضة البسيطة ، وبرغم هذه الصعوبات كلهـا فقد استقرت الحركة التجارية المنظمـة بين البحر المتوسـط واسكنديـناوة وانتشرت انتـاجات الايجيين وذاعت أفكارهم نتيجة لذلك في مسـاحة متسـعة الأرجاء بأوربا الوسطى .

وكان تعميم استعمال المعادن بطبيعة الحـال عملية بطيئـة ولم يغير مظاهر الحياة تغييرا يذكر ، ففي حوض الدانوب والألب كانت الناس لا تزال تقيم في قرى صغـيرة نسبيا أكواخا بدائيـة مستديرة ، وكانوا يزرعون الأرض مثلما كانوا يفعلون في العهـد السابق ، غير أنهم ربمـا كانوا يشدون الثـور الى المحراث . وكانت قبائل البدو والرعاة تقيم على التلال وما يليها شمالا ، وهي لم تبدأ تكثر من استعمال المعادن الا في تاريخ متأخر . واستعمال المعادن برغم ذلك أحدث انقلابا اقتصاديا تاما ، فاكتفاء مجتمع القرية القديم بنفسه ولى زمنه وذهب الى غير رجعة ، ولم يكن يضطر رجال العصر الحجري قط الى الاعتمـاد على الواردات من أي نوع . وكانت أراضي القرية تفي بكل ما يحتـاجون اليه احتياجا شديدا ، ولم تكن المعادن من ناحية أخرى ميسورة الا في أماكن قلائل ، ولم يكن استخراجها مستطاعا الا عند العـارفين به ، وكانت البلطات البرنزية والأسلحة قد أصبحت من الضروريات التي يلزم استيرادها على الدوام .

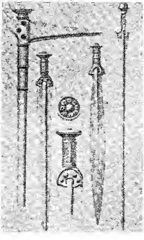
وفضلا عن ذلك كانت صناعة المعادن تستلزم التخصص الى درجة لم تكن معهودة من قبل ، وكان عمل الآلات من الحجر والصوان وصنع الغزل والخـزف مما يمـكن الجمع بينـه وبين العمل المضطرب في الحقول ، وكانت العمليات من قبيل اقامة قرية على أوتاد أو تشييد قبر بالرضـام عمليات اجتماعية تتضافر عليها جهود المجتمع كله . ويقتضي استخراج المعادن وعملها اتقان عمليات كبيرة معقدة ، ولابد أن يصحب معرفة ركازها الوقوف على خواصهـا الثانوية لا تلك

الخواص التى يمكن رؤيتهـا على سطحهـا مثل الصوان . وعمل البرنز فن .

وكان صـناع المعـادن الأوربيين القـدماء يشكلون منتجـاتهم كلهـا بطريق الصب ، ولا يسـتعملون سـوى المطرقة لاتمام عمل السـلعة ، وكانوا يصنعون لأجل ذلك قوالب مكونة فى الغالب من جزئين أو ثلاثة أو أربعة ، وكانوا يستعملون طريقة « الشمع الذائب » فى صب أشياء خاصة ، وكانوا يصنعون أنموذجا من الشمع للشكل المطلوب ويغلفونه فى قالب من الطين،وكان الشمع يذوب والقـالب شـديد التماسك وينصب المعـدن المصهور فى الفراغ المتروك. وكان القالب بطبيعة الحـال يكسر عندما يبرد المعدن . ولذا كانوا يصنعون قالبـا جديدا كلما أرادوا صب بلطة حربأو سوار بهذه الطريقة. ولم يكن فى وسع أى انسان عادي أن يباشر بنجاح هـذه العمليات المتوالية الى جانب قيامه بفلاحة الأرض أو الرعي ، وكانت صناعة المعادن مهنة ، وكان صناع المعادن فى أول الأمر قليلين ، أما فى القارة فيلوح أنهم كانوا فى أول أمرهم صناعا متنقلين فى الغـالب ، يجمعون بين وظيفتى صانع المعـادن والتـاجر ، وكانوا يسافرون فى طريق تجارة الكهرمان وفيما بين بوهيميا وسلوفاكيا والمجر .

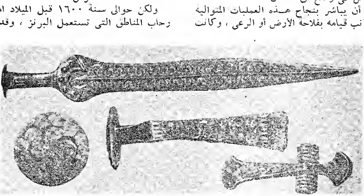
وهكذا كان أول قوم استعملوا البرنز فى القـارة الأوروبيـه هم الذين كانوا يقيمون على جوانب هـــذه الطرق التجـارية ، وكان معظمهم من المزارعين الذين يمـلون خليطـا من الآريين والدانوبيين القدماء، وكانت القبـائل التى تغلب عليهـا صفـة الرعاة لا تزال فى النجود متبعة أساليب الحياة فى العصر الحجرى . وحتى فى المجر وجنوب الروسيا كان النحـاس الأحمر والحجر يسـتعملان معا ردحا من الزمن .

ولكن حوالى سنة ١٦٠٠ قبل الميلاد امتدت رحاب المناطق التى تستعمل البرنز ، وقد فتح



حرفة واسعة الانتشار

المصنوعات البرنزية المحلية القديمة موجودة فى أنحاء أوربا جميعهـا، والرمح المشهور الذى له رأس بلطة الموضح فى يسـار الصورة ألمانى ، وقد أنتجت حتلاند السـيوف بعد ذلك وكان لهـا مقبض كالموضح تفصيلا ، والسيفان الآخران أحدهما مجرى والآخر ميسينى .



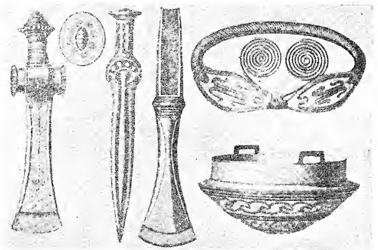
آيات من صناعة البرنز فى العصر البرنزى الأوسـط

ساعدت التقاليد الدانوبية القديمة فى المجر التى لقحتها مؤثرات ميسينية على خلق فن جليل فى العصر البرنزى الأوسـط . والسيف الموضح ، وهو من أقدم أنواع السيوف القواطع ، تتجلى فى النقوش المحفورة على نصله (فى أعلى الصورة) براعة الحفـر الحلزونى وكذلك فى البلطتين وهما جزء من كنز كشف عنه فى حاجو سمسون فى شمال شرقى المجر

تجديد طروادة وامتداد الاستعمار الميتيوى نحو الداخل أسواقا جديدة لذهب ترانسلفانيا ، ولذا أعيد فتح طريق التجارة المحاذى للدانوب ، وعاد بذلك ورود منتجات الحضارة الى سكان وادي الدانوب الأوسط ، وأثرى من البضائع الأجنبية سكان القرى الواقعة على ضفاف الطرق المائية العظيمة وهي الدانوب وتيزه والماروس ، فأصبحوا حينذاك يستطيعون ان يستوردوا القصدير من بوهيميا مستبدلين اياه بالمنتجات الابجية أو بنماذج محلية لها ، وأسسوا صناعة تعدين خاصة بهم أو أحيوا هذه الصناعة .

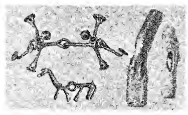
ولم يكن صناع البرنز المجرى فى ذلك الوقت من التجار الصناع المتنقلين وانما كانوا من أصحاب الحرف التى تستلزم الاستقرار الطويل ، وكانوا يقيمون باستمرار فى القرى الأكثر أهمية ، وكانوا يقومون بصنع أنواع مختلفة من الأسلحة الحسنة الشكل والحلى التى تدل على سلامة الذوق ، وينقشونها برسوم لولبية وكتابات زخرفية . وقد قامت هذه الصناعة المجرية من ناحية على تقاليد العصر السابق ، ومن ناحية أخرى على نماذج ميسينية ، وكانت منتجاتها تصدر عن طريق بولندة الى البلطيق والى أعالى الدانوب حتى بافاريا . وحوالى هذا الزمن استطاع أهل اسكنديناوة وألمانيا الشمالية أن يستخدموا صناع معادن مدربين بالقوة أو الترغيب ، وأخذوا يصنعون محليا المعادن التى مكنهم استيلاؤهم على مستودعات الكهرمان من استيرادها ، وكان من نتائج ذلك بعض مصنوعات البرنز الضخمة فى عهد ما قبل التاريخ ، وكان سكان الشمال هؤلاء فى الغالب من سلالة الغزاة الآريين ، وهم يمثلون أسلاف التيوتون الذين انحدر منهم الألمان المحدثون والدانماركيون والانجلو سكسونيون وغيرهم ، وكانوا فى هذا التاريخ المبكر قد غدوا بالفعل ملاحين جريئين مثل قرصان الشمال الذين جاءوا بعدهم بألفى عام .

وفى جنوب غربى ألمانيا وشرقى فرنسا كانت تعيش جماعة من الناس من أنسال الآريين البدو ممتزجين بقبائل أخرى ، وبطن



من منتجات الصناعة السويدية المحلية فى العصرين البرنزيين الأول والثانى

بدأ العصر البرنزى فى اسكنديناوة متأخرا واستمر الى عهد متأخر أكثر مما فى سائر أنحاء أوربا . وفى خلال تلك الفترة وصلت صناعة البرنز المحلية قمة الكمال ، فمن اليسار الى اليمين نرى فى الصورة بلطة ضخمة وخنجرا وازميلا ، وفوق الخنجر الى اليسار الجزء الأعلى من عقدته ، وكلها من صناعة العصر البرنزى الأول . والبنيقة اللولبية والمشكاة المعلقة (وهما الى اليمين) من العصر البرنزى الاسكنديناوى الثانى ، وهو يوافق العصر الحديدى القديم فى أوربا الوسطى ، والخنجر قد أعيد شكله الأصلى أكثر من بقية الاسلحة



أجزاء من اللجام مصنوعة من البرنز ومن القرون

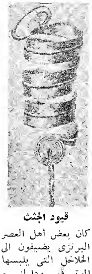
أجزاء اللجام المصنوعة من الجلد أو من المعدن ومعها قطع كانت تناط بصدغى الخيل مأخوذة من قرون الوعول بعد ثقبها لتتخذ عنانا (الى يمين الصورة) وهى لم تبتدع الا فى العصر البرنزى فى المجر — وتعد أقدم الادلة على ملابس الخيل فى أوربا ، وفى العصر الحجرى كانت القطع البرنزية (الى يسار الصورة) قد استعملت لأول مرة

بوجه عام أن هؤلاء هم أسلاف الكلتيين ، وكانوا لا يزالون محتفظين بعادات أسلافهم الريفية فى العهد الحجرى ، وفى ذلك العهد كانت مساحات كبيرة من النجود قد خلت من الغابات بسبب فترة الجفاف الطويلة . ولذا استطاع هؤلاء البدو أن ينتقلوا فى طلاقة وحرية من الألب والرين الى السين ، واستخدموا هم كذلك عمال معادن مدربين ، ومكنهم فتح طرق فرعية لطريق تجارة الكهرمان الممتد عبر بلادهم من الشمال الى الدانوب الأعلى وأخيرا بمحاذاة الرين ، أقول مكنهم ذلك من الحصول على المعادن الخام ، ولذا أسس الكلتيون مدرستهم الخاصة فى صناعة المعادن مثل التيوتون .

ولكنهم بالرغم من ذلك ظلوا بدوا يتفاوتون فى بداوتهم ، ويلوح أنهم كانوا يعيشون فى أكواخ مؤقتة دون أن ينشئوا قرى مستديمة ، ولكنهم كانوا يدفنون موتاهم فى أماكن أكثر استقرارا وأحسن اعدادا ، وكان الكلتيون غير متعودين على الحفر شأن الرعاة ولذا كانوا يجمعون حول بقايا الميت كومة من الحجارة بدلا من مواراته فى قبر محفور ، وكانت المقابر هى المحور الذى تتجمع حوله حياة الأسرة أو القبيلة ، وكانوا فى العادة يختارون لها أخاديد تشرف على منظر جميل رحب النواحى ، وكانوا يتشبهون فى ذلك أقرباءهم فى بريطانيا ، وكانت الروابى تقوم فى الغالب على أحد جانبى مدارج التلال التى كان يستعملها الرعاة والتجار .

وهكذا لم يحل عام ١٥٠٠ قبل الميلاد حتى كان يشغل معظم أوروبا الوسطى قوم يصنعون البرنز ، وغلب على المقيمين بالأودية الاشتغال بالزراعة والتجارة ، أما أهل البلاد التى كثرت فيها التلال ، وأهل الشمال فكانوا أكثر اشتغالا بشئون الرعى ، وكانوا بوجه خاص محبين للحرب ولو أن القتال غير المتصل كان مستمرا فى كل مكان ، وكانت ثمة قبائل أدنى مرتبة تعيش فى مشارف هذه المقاطعات الهمجية التى كان بها صناع المعادن ، أما الغابات فى أقصى الشمال فكان يقيم بها قبائل من صيادى الوحوش والأسماك لا يزال مستوى معيشتها أقل من القبائل السالفة ، وفى سهوب روسيا الجنوبية كان يتنقل الرعاة الذين كانوا لا يعلمون من صناعة التعدين سوى مبادئها الأولية .

وشرع سكان وسط أوربا وشمالها يظهرون ابداعهم وقدرتهم على الابتكار برغم همجيتهم وحالة الحرب التى لا تنقطع ، وكان المينيويون فى منطقة ايجة قد استعملوا السيوف الطويلة الواخزة فترة من الزمن ، ومن ناحية أخرى كان المحاربون فى العصر الحجرى بالمجر وألمانيا قد تعودوا الضرب بالبلطة أو برمح فى طرفه بلطة ، فلما وصلت اليهم السيوف الايجية الطويلة بالوسائل التجارية وتعلم صناع المعادن عندهم أن يصنعوا لها نماذج محلية استطاعوا تحسين الأصل وجعلوها أسلحة قاطعة لها وزن النصل .



قيود الجثث

كان بعض أهل العصر البرنزى يضيفون الى الخلاخل التى يلبسها الموتى قيودا لمنع أرواحهم من العودة

وابتكر نفس هؤلاء الناس أسلوبا أجدى فى رياضة الخيل ، وقد قدر لهذا الأسلوب أن يجعل الخيالة سلاحا عمليا فى الحرب . والغزاه الآريون هم على الأرجح الذين أدخلوا الخيل

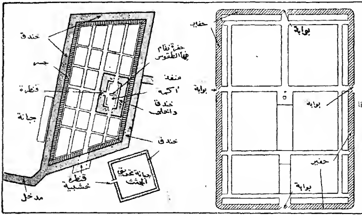
الأليفة الى أوربا والى آسية الدنيا وذلك فى الألف الثالث قبل الميلاد ، وفى أول الأمر كان يملك زمام الجواد برسن وحلقة فى أنفه ، ثم عرف فى بلاد المجر أن الجواد ، ذلك الحيوان الجموح ، يمكن أن يراض وبسيطر عليه بقضيب أو بسير من الجلد يمر خلف أسنانه ويثبت فى مكانه برصيعتين بارزتين تتصل بهما الأعنة ، وقد كانت هذه الطريقة مستعملة فى أوربا الوسطى ، حوالى سنة ١٧٠٠ قبل الميلاد وأدخلت الى بلاد اليونان بعد ذلك بخمسمائة سنة .

وحدث فى هذا العصر نفسه تطور هام فى الأفكار الخاصة بالحياة المستقبلة ، وقد شغلت مسألة مصير الروح بعد الموت بال الأقوام البدائيين جميعهم منذ العصر الحجرى ، وقد كانوا يعنون عناية كبرى ببقايا الراحلين سواء أكان مصدر هذه العناية الحب أو الخوف .

وقد كان للاعتقاد بالموتى شأن عظيم بين البناة بالرصام ، فكان الناس جميعهم يعملون على اعداد منزل للميت وأن يزودوا الراحل بمتاعه الشخصى والطعام والشراب ، وكان يظن أن الروح تحيا حياة ناقصة فى عالم تحت الأرض وانها ربما صارت مصدر خطر ، وكانت تقام الطقوس الدينية لالتماس خيرها ودفع غضبها ، وكانت الأرض أو الغطاء الحجرى بمثابة حاجز يفصلها عن الأحياء . وفى العصر البرنزى كانت تقيد سيقان الجثث فى بعض الأحيان زيادة فى الاحتياط .

وحتى فى العصر الحجرى كان يحرق الجسد أحيانا ، والأرجح أن ذلك كان لمنع عودة الروح الشريرة منعا تاما ، كما كانت تحرق أو تشوه فى العصور الوسطى أجساد من كانوا يظنونهم من مصاصى الدماء . ثم حدث فجاءةفى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد أن أصبح حرق الأجساد عادة متبعة فى أكثر نواحى أوربا الوسطى والشمالية وفى ايطاليا وبريطانيا ، وذلك بدون أن تهمل مراسم دفن الموتى اهمالا تاما ، وقد كان حرق الجسد فى ذلك الوقت على ما يلوح قد أصبح متصلا بتصور جديد للروح مقتضاه أنها تقيم بعد الموت فى قصر سماوى بعيد تصعد اليه مع دخان الحطب المحروق مع الجثة ، ونلمح هنا أن الشعائر الدينية قد سبقت الفلسفة التى ترمى الى شرح هذه الشعائر كما هى العادة .

وقد نشأ المذهب الجديد بين بعض الجماعات



تخطيط المدن الايطالية فى العصر البرنزى وتطورها فى عصر الرومان

كانت القرى الايطالية القائمة على أراضى السماد الصفراء شبيهة بالمربع المنحرف يحف بها حاجز من الأرض المحفورة لكى تكون خندقا متسعا ، وكان هناك جسر واحد يوصل الى هذا السياج . وفى داخل هذا السياج كانت الأكواخ المبنية على الاكوام متكتلة على حذاء الشوارع موازية لخطوط الاتجاه الرئيسية ، وقد كانت هذه القرى فى تخطيطها العام تمهيدا سابقا لظهور المعسكر الرومانى بعد ذلك. والتصميم الموضح هنا (الى اليمين) يرجع عهده الى القرن الثالث قبل الميلاد ، وقد اثبتناه ليمكن القارىء من المقارنة

ومن المحتمل أنهم من الآريين المقيمين في المجر ومورافيا الذين كانوا يحرقون موتاهم بالفعل من الحين الى الحين .

ويعزى سبب انتشار هذه العقيدة السريع في أوربا الى نوع من ذيوع الدين بالدعاية التبشيرية لا الى هجرة الأقوام ، وكان أتباع هذا الدين الجديد منبثين في كل قرية وفي كل مجتمع تقريبا . ولكنهم كانوا يعيشون على وئام تام مع الذين يدفنون موتاهم ويستعملون نفس المقبرة .

أما الفوران العقلي الذي يبدو أثره في هذه العقائد وغيرها من التطورات في عالمي الدين والصناعة فقد صحبه أوجاء بعده حركة عامة بين الأجناس ، وفي الألف الثاني أخذ عصر الجفاف الذي بدأ في الألف الثالث يشتد ويطرد ، وقد تبع ذلك تغيرات جوية أدت الى انتشار السكان . ونجم عن ذلك اختلال التوازن الدقيق بين قبائل الرعاة والقبائل المشتغلة بالزراعة ، وهكذا حدثت انتقاضات شعبية قرابة نهاية ذلك العهد لم تؤثر في أوربا الوسطى وحدها وانما شملت عالم البحر المتوسط وآسية الصغرى .

وكانت الظروف المباشرة لحركات هذه الشعوب والمراحل التي اجتازتها من الأمور التي تخرج بالضرورة عما يأخذ به عالم الآثار نفسه من بحوث ، ولكن قد يستطاع أحيانا الربط بين الظواهر الناشئة عنها وبين سوابق لها معينة بالذات ، وعلى ذلك فليس ثمة الا

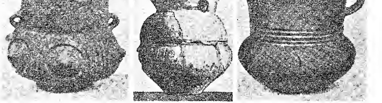


فخار مستودعات السماد الممتاز

يمتاز حزف ساكني القرى الايطالية في أثناء العصر البرنزي بمقبضه الذي له شكل القرن أو الهلال ، وكانت الزهريات التي تلصق بهأعده المقابض رمادية أو سوداء وجيدة الصقل ، وكانت الكأس المفلطحة ذات المقبض العالي هي الشكل المألوف .

قليل من الشك في أن جماعة غريبة من المستعمرين الجدد الذين ظهروا في وادي البو في أثناء العصر البرنزي كانوا غزاة قادمين من حوض الدانوب .

وكانت ايطاليا أول من شقي بذلك . ففي العصر الحجري كان بقدم شبه الجزيرة المتسللون عبر جبال الألب . وحوالي سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد انضم الى هذه الجماعة الضالة المشتتة من الداخلين المقبلين من القارة جماعة أخرى تستعمر بطريقة منظمة ، وكان هؤلاء الغزاة من أرومة ألبية يقودوها آريون ، وقد بدأوا جنوبا



جرة لحفظ رماد الموتى من تلال المقابر الصربية والألمانية

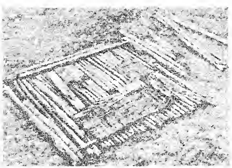
كان حرق جثث الموتى منتشرا في أوربا خلال العصر البرنزي ، والجرار التي كان يحفظ بها الرماد فاخرة ومنوعة فعجينة الطراز اللوستزي منها (وهو الى اليمين والى اليسار) ملساء صفراء ، وزخرفه في الغالب مكون من حزوز مفلطحة وعقد مخروطية الشكل ، ومن المحتمل أن تكون هذه السنة قد حملها الى ايطاليا عبر جبال الألب سكان قرى مستودعات السماد ، والجرة التي في الوسط ، وهي من الضرب علي مابيدو ، هي الأنموذج الأصلي للجرار التي حملوها معهم

من المجر أو النمسا السفلى ، وانشعبوا فى الطريق شعبتين ، فأقام فريق منهم على ضفاف السان والدراف وعبر فريق آخر جبال الألب وتدفقوا على وادى البو ٠

وأقام هذا الفريق الثانى هناك وأنشأوا قرى عجيبة تسمى ترامارى Terremare وكانت تقام على أرض جافة نوعا ما ، وكان يحمى هذه المستعمرات خندق ، ويحيطونها بسور من الشوك ، وكانت تقسم أربعة أحياء بواسطة أربعة شوارع منتظمة متقاطعة قائمة الزوايا ، وفى الشرق من وسط القرية تماما كان يقام تل من الأرض ليكون بمثابة قلعة ومعبد ، وكانت المقبرة فى خارج الخندق تجمع بها بقايا الموتى وتوضع بعناية فى قوارير تصف على افريز خشبى ، وكان تخطيط هذه القرى العجيبة يطابق المعسكرات الرومانية فى العصور المتأخرة ٠ ويتضح من هذا أن بناة هذه القرى هم من أسلاف الرومانيين القدامى ، وهم فى العادة يعرفون باسم الايطاليين ٠

ويمكن أن نستنتج وجود مثل هذه الحركات فى ناحية الاناضول وابجة ، ولكنا لا نستطيع أن نقتفى آثارها بما اقتفينا به الآثار السالفة من اطمئنان وثقة ، وقد أحدثت حركة الاستغلال الاقتصادى التى كانت السبب فى ابتداء العصر البرنزى رد فعل ، فتتبع الغزاة الهمج آخر الأمر التجار الذين كانوا يستنزفون موارد القارة من المعادن ، وربما من الرقيق كذلك ، أقول تبعوا هؤلاء الى بلادهم ، وربما كان انتهاب طروادة الثانية حوالى سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد نتيجة لرد فعل من هذا القبيل ، ومهما كان الأمر فاننا نجد بعد ذلك بثلاثة قرون فى كل من مقدونيا وآسية الصغرى آثار مهاجرين من المجر ٠ ومن المحتمل أنهم الفريجيون الذين يلوح مع ذلك أنهم لا يمثلون أول طبقة من طبقات الغزاة القادمين من شمال البلقان ٠

وقد كانت تلك القوة المركزية الطاردة المتولدة فى السهول الوسطى هى كذلك السبب

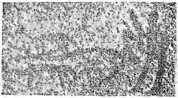






قرى جزرية محصنة مبنية بالأخشاب يرجع عهدها الى ثلاثة آلاف سنة

قدمت لنا سويسرا العليا انموذجا بارعا للمستعمرات المحصنة التى ظهرت من القوائم الخشبية (الى اليسار) وهو مكون من نيف وخمسين ألف جذع من جذوع شجر الصنوبر مغروسة فى قاع البحيرة وبارزة فوق سطح الماء ٠ أما الأخشاب الضخمة التى كانت تبنى على طريقة التكميل (الى اليمين) فكانت تستعمل للأسوار الخارجية لجميع المبانى ٠ أما فى الداخل فكانت تستعمل الحيطان المتخذة من الأغصان المجدولة ، وقد بدا جزء محطم منها بأعلى الصورة



محراث سويدى من عهد ما قبل التاريخ

لم يكن لأقدم المحاريث سن ــ كما توضح ذلك الصورة المنحوتة فى الصخور ــ وانما كانت المحاريث مكونة من قطعة من الخشب معقوفة ، وأحد فرعيها كان يتصل بالنير والفرع الآخر يقلب الأرض ، ولاحظ فى الصورة الثورين

فى دفع القبائل الهيلينية التى كانت تقيم فى شبه جزيرة البلقان جنوبا الى صميم بلاد اليونان ، وقد حل محلهم بطون من الاليريين قادمة من حوض الدانوب الأعلى وراء جبال الكربات الصغرى وجبال الألب المساوية ، وأمثال هذه الحوادث فى أطراف البلاد دليل الاضطراب العام فى أوربا الوسطى نفسها ٠

وكانت القبائل المشتغلة بالزراعة فى الأراضى الواطئة قد اتحدت فى ذلك الحين تحت قيادة زعماء أقوياء ، وأخذت تبحث عن مخرج لعدد سكانها المتزايد ، وأرض جديدة لتضيفها الى حقولها التى لفحتها حرارة الشمس ، وموارد مضمونة للمعادن تمكنها من تحقيق هذه الأهداف بحد السيف ٠ وعاد سيل من المهاجرين الذين بدأوا ممـا بين أعلى الألب والأودر فى سكسونيا وسيليزيا الى استعمار سهل مورافيا برمته ، ومدوا سيطرتهم الى مناجم النحاس الأحمر فى سلوفاكيا ، وقد أوضحت المدافن الكبيرة المشتملة على القوارير التى تحمل رماد الموتى معالم طريق الغزو . وقد أوغلت جماعات متفرقة منهم فى الاغارة وخلفوا آثار التخريب فى سهل الدانوب والتيزا وعبروا البلقان من طريق موراقا ــ فاردار ، ودمروا فى مقدونيا القرى الميسينية المتأخرة حوالى سنة ١٠٥٠ قبل الميلاد ، وظلوا أقلية غازية بين المقدونيين الذين جاء ذكرهم فى التاريخ ٠

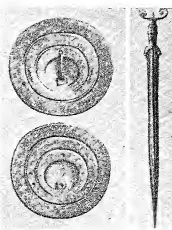
وكان من الطبيعى أن يثير اختراق هؤلاء الواغلين فى المجر من الشمال الغربى حركات أخرى ٠ والظاهر أن بعض الأقوام الذين دفع بهم جانبا قد أوغلوا حتى القوقاز ، وربما كان هؤلاء هم السمريين الذين عرفهم هيرودوت ٠ أما فى ناحية الغرب فقد دفع بجماعة جديدة من الايطاليين عبر جبال الألب ، وهؤلاء هم الذين عرفهم التاريخ باسم الأمبريين ٠ ولم تتم هذه الحركات الا بمرور قرنين بعد ذلك حينما عادت فجاءة الأمطار الى غزارتها وجعلت الأقاليم المنخفضة غير صالحة للاستقرار ٠ وفى ذلك الوقت هبطت الدانوب جموع من التراقيين من بنات Banat وخربوا غرب آسيا الصغرى وكان اسمهم البريريين ٠

وبعد أن ملأت حركة الهجرة مورافيا وسلوفاكيا بمدافن القوارير التى تحمل رماد الموتى امتدت الى الغرب ، وعاد الى استعمار أودية الدانوب العليا والرين جماعة من الناس يشبهونهم (وكان عدد السكان فى هذه النواحى قد أخذ يتناقص منذ سنة ١٦٠٠ قبل الميلاد) ثم شقوا طريقهم الى جبال الألب حتى سيطروا على مناجم النحاس الأحمر فى التيرول وسالسبرج وملاحات سالز كامرجوت ، وفاضت جموعهم أخيرا على غرب سويسرة



آلات كثيرة الاستعمال فى العالم كله

أحجار الطحن المبينة فى هذا التمثال الصغير من تماثيل الأسرة المصرية الثالثة (الى اليسار) توجد فى أنحاء العالم جميعها ٠ أما المناجل البرنزية فى أعلى الصورة فأن المنجل الذى تشبه يده القبضة مصدره قرية من قرى بحيرات سويسرة ، والمناجل الاخرى من القوقاز وايرلندة وكروسليت



أدوات حربية اليرية

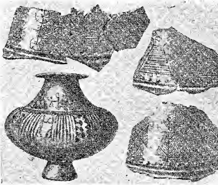
كان الاليريون يحملون دروعا مستديرة من الجلد المرصع بالبرنز أو كلها من البرنز مثل الدرع الموضحة بوجهيها الأمامى والخلفى ، وكانوا يحملون فى أيديهم سيوفا قاطعة كبيرة من البرنز ، وكان لهذه السيوف مقبض له شكل قرون الاستشعار ·

وفرنسا وفى الغرب احتك الغزاة المزارعون الذين كانوا يدفنون موتاهم فى مدافن القوارير بالرعاة القدماء قاطنى التلال الذين كانت تقام قبورهم فى أسفل الربى ، ولم يفقد أحد الفريقين خصائصه الذاتية تماما وان كان قد تأثر قليلا بالفريق الآخر . ولذا فان العلاقات بين الاجناس فى منطقة جبال الألب فى هذا التاريخ مما يصعب تمييزه ومعرفته ·

وقد تمت حركات الهجرة التى وصفناها فى زمان طويل بطبيعة الحال ، ولابد أن يكون انتشار هذه الأقوام من الشمال الشرقى قد بدأ قبل نهاية القرن الرابع عشر . ولم يحدث توازن مؤقت فى نواحى جبال الألب الا حوالى سنة ٩٠٠ قبل الميلاد ، ولا نزال فى موقف لا يسمح لنا مطلقا باطلاق أى من الأسماء على المهاجرين ، ومعظم علماء العصر يميلون الى أن يطلقوا اسم الاليريين على هؤلاء القوم المشتغلين بالزراعة والصناعة الذين هجروا مناطق مدافن القوارير ، على أنه ليس ثمة من أسماء الأجناس اسم يجوز أن ينطبق عليهم ، فالذين كانوا شرقى الألب وعلى ضفاف المارش ربما كانوا من السلافيين ، والذين استعمروا وادى الرين وجبال الألب ربما كانوا من الكلتيين ، وفى هذه الحالة يكون اسم الاليريين مقصورا على بناة المقابر فى البوسنة وكارنيولا وستيريا ، ويكون انتشار الاسماء الاليرية أبعد من ذلك شمالا مما يمكن تفسيره بهجرة قامت بها هذه القبائل بعد ذلك · وبالرغم من هذا التحفظ فاننا سنسلك أهل مناطق مدافن القوارير تحت اسم الاليريين العام ، وليس ثمة الا أمر واحد نعرفه عنهم على وجه التحقيق ، وهو أنهم كانوا أول من استعمل الحديد فى قارة أوربا ، ولذا كانت ثقافتهم جديرة بالدراسة الدقيقة ·

وقد كان الاليريون منظمين جماعات صغيرة متماسكة تحت زعامة رؤساء أقوياء ، وكانوا يعيشون فى قرى منظمة يحميها فى بعض الأحيان خندق وحصون ، وكانت المنازل فى داخل هذه الحصون مبنية البناء قائمة على قوائم أفقية من الخشب يعلوها سقف هرمى الشكل مثل أكواخ رواد القارة الأمريكية ·

وفى سويسرة ، حيث كان الاليريون أقلية غازية ، كانت القرى القائمة على آكام صناعية لا تزال موجودة ، ولكن فى العصر البرنزى



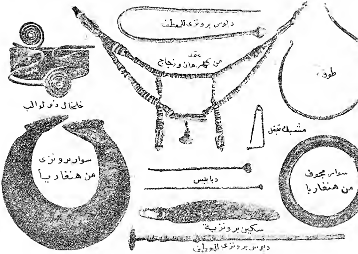
سجدت صنعت محليا ولها مظهر اليرى

قطع من الزهريات محفور عليها زخرف من كومه فى أودنبرج فى المجر ، وهى تعطى فكرة موجزة عن الملابس والعادات خلال الأيام الأولى من العهد الحجرى ، ونرى فيها مركبة لها أربع عجلات يجرها جوادان (من المحتمل أن تكون من عربات الجنائز) ونساء فى سراويل هفهافة طويلة ·

الأخير كانت المستعمرات أكبر كثيرا من ذى قبل ، وفى العصر الحجرى كانت المساكن تنتشر على امتداد شواطىء كل بحيرة،وقد حشد الالبريون الذين قدموا حوالى سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد السكان الموجودين فى نطاق كل بحيرة فى قرية كبيرة واحدة أو قريتين . وكانت القرى لا تزال تقام فوق أكوام على الطريقة

دورات زراعية ، وقد استدعى ذلك انشاء حقول جديدة من وقت الى آخر ، وكان الشباب الناشىء متأهبا على الدوام للانفصال وانشاء قرى جديدة . ولذا كان الناس يبادرون الى اتباع رؤسائهم فى الغارات التى يبغون بها فتح أراض جديدة .

وكان الزعماء وقادة المحاربين يتسلحون



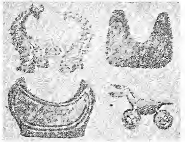
العناية بالمظهر الشخصى فى عهد حقول قوارير الموتى

كان الالبريون يفرطون فى تزيين جسومهم ، وكان هناك دبابيس برنزية بعضها مستقيم والبعض مقوس ويمكن تمييزها لأول وهلة فى الصورة وكان هناك دبابيس ذات مشابك وأساور مستديرة وعلى شكل الحدوة وعقود للجيد وخلاخل تنتهى بلوالب دقيقة الصنع وعقود كالموضحة فى الوسط من الكهرمان والزجاج ـ وكان للكهرمان قيمة كبيرة من حيث هو حلية وتعويذة

القديمة ، وأصبحت البحيرات السويسرية التى كانت فى خلال العصر البرنزى متخذة الحضارة مراكز للصناعة والتجارة .

وكان الالبريون قبل كل شىء مزارعين . وقد شدوا الثور الى المحراث ، وكانوا مزودين بمناجل برنزية لحصد الحبوب ، ولو أنهم فيما بعد كانوا يطحنونها على كتلة من الحجر ويفركونها بحجر آخر على الطريقة القديمة ، وبالرغم من انتعاش زراعتهم ومن بيوتهم المتينة فانهم لم يعمروا طويلا هناك ، وقد كانت أساليبهم فى الزراعة لا تتحرى الاقتصاد ، ولم تكن عندهم

بسيوف ثقيلة قاطعة . وكانوا يتخذون للدفاع تروسا مستديرة من البرنز أو من الجلد المزرد بقطع من البرنز ، ولكن لم يكن لهم من ملابس الحرب التى تقى الجسم سوى غطاء للرأس وسترة مصنوعين من الجلد ، وكانوا يخوضون المعركة على ظهور الخيل وفيما ندر على عربة ذات أربع عجلات ، وكان لباسهم الرئيسى عباءة من الصوف أو من الكتان تشبه الملحفة ، وكانت تلف حول الجسم وتزرر بدبوس من البرنز من ناحية العنق ، وكانوا يثقلون الذراع الأيسر بالأساور الضخمة ، وحتى السيقان كانت



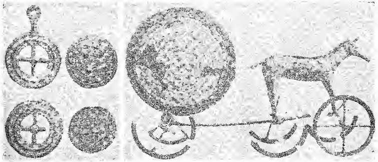
صورة من الرموز المقدسة

فى حوض البحر المتوسط كانت القرون رمز الفحولة (الأعلى الى اليمين من كريت) وانتشرت الفكرة فى أوربا (الاسفل الى اليسار من بحيرة بين Bienne)حيث كانت تضاف الى أطراف القرون رؤوس لها قرون (الأعلى الى اليسار من أودنبرج) وكان البجع فى عينة عربات رمزا آخر من الرموز (من ايطاليا)

تحلى بخلاخل مصنوعة من لفائف أسطوانية مكونة من شرائط البرنز ، وكان يشد الرداء الى الخصر بمنطقة من الجلد مرصعة بعقود من البرنز ، وكان النساء يحملن خلاخل من البرنز أثقل وزنا . من خلاخل الرجال ، وكن يتزين الى جانبها بقلائد أو عقود من خرز الكهرمان أو الزجاج حول العنق ويحلين بها نحورهن وشعورهن .

وكان من الأشياء التى يستحب التحلى بها قرط فى شكل عجلة صغيرة ، وكان يتخذ تميمة لأن العجلة كانت رمزا للشمس ، وربما كانت الشمس فى ذلك العهد أعظم الآلهة شأنا وقد كانت لها مكانة سامية بين آلهة الايبريين العدامى وبين البناة بالرضام ، وكان الحصان مقدسا عند هذه الآلهة ، وقد كان الاسكندناويون يستعملون فى حفلات خاصة تماثيل تذريه من الخيل مصنوعة من البرنز وحولها اطار من الذهب ، وكانت تكسر بعد ذلك وتلقى فى مستنقع مقدس قربانا للآلهة . وكان الثور رمزا للعقيدة بين الكثير من الشعوب الآرية وفى أقاليم بحر ايجة وآسيا الصغرى ، أما فى عالم البحر المتوسط فربما كان تقديس هذا الحيوان يقصر على جزء منه وهو القرنان ، وقد أصبحت القرون رمز عقيدة عند المينيويين والعبرانيين ، وكان هذا الرمز شائعا عند الايبريين فى آخر العصر البرنزى وكانت تصنع نماذج خزفية للقرون توضع على جانبى المدفأة ، وكان موضع المدفأة بصفة خاصة مكانا مقدسا دائما .

وكانت التجارة والصناعة منتعشتين بالرغم من استمرار حالة الحرب ، وكانت طبيعة الصناعة تتغير تغيرا سريعا ، وكان صانع المعادن الطواف القديم يتحول تدريجيا الى تاجر فى الحديد الكسر (الخردة) ، وكان يطوف بالفلاحين ومعه أهل بيته ويصلح الأدوات التى طال استعمالها والحلى القديمة أو يجمعها



رموز للشمس كانت كثيرة الذيوع فى العصر البرنزى بأوربا

لم تكن جميع الحلى فى ذلك العصر تلبس بدوافع الرغبة فى الزينة ، وكثير منها كان يتخذ تعويذة وعلى الأخص العجلة الذهبية الصغيرة وكانت رمزا للشمس ، والنماذج المصمدة هنا من ايرلندة . والنماذج المثقوبة من أورديامارى فى رومانيا ، وكان الحصان رمزا للشمس ، وفى أسكندناوة كان الرمزان منحدين فى هيئة حصان برنزى يجر مركبة فوقها قرص ذهبى (الى اليمين من زيلاند)

لاذابتها وصبها من جديد ، ومما له دلالة أنه كان يحمل معه دائما عددا كبيرا من المناجل ضمن بضاعته التى يتجر بها ، وكان صانع المعادن بالقرية شخصا له مكانته الملحوظة ، وكانت ورشته مزودة فى ذلك العهد بكورمكين بنفخ بمنفاخ له أنابيب من الصلصال ، وكان عمل السيوف الصقال القاطعة يستلزم براعة ممتازة ، وقد ساعد هذا على التخصص فى صناعتها بقرى معينة ، وكان ذلك خطوة تمهيدية لظهور القرية الصناعية .

وكانت الأسر أو الجماعات ذات البراعة الخاصة فى الصناعة أو التى تشغل موقعا تجاريا حسنا تقوم بعملية تصدير منتجاتها بانتظام الى الأسواق الاجنبية ، ومن أمثلة ذلك عمال المعادن فى قرية فلم ستتفيد القديمة فى المجر (وهى ملاصقة لحدود النمسا فى العصر الحاضر) فقد كان فى ورشهم قالب لعمل البلطات من طراز كان لا يستعمل قط فى بيئتهم ، وانما كانت تصدر الى بسات أو الى ترانسلفانيا لتجد سوقا لها هناك ، ولقد كانت الصناعة التى يقصد بها اجابة طلبات العملاء سببا شيئا جديدا فيما يبدو ، وفى نفس الوقت كان النزوع الى التخصص يزداد قوة ، فكان يشتهر صناع معادن قرية من القرى أو مجمع من المجتمعات بالتفوق فى صناعة أحدى السلع ، ومن أمثلة ذلك أن نوعا من المدى كان يصنع فى قرى سويسرة الواقعة على البحيرات ويصدر الى سيليزيا وما وراءها ، ولكن أدق وأنسق منتجات صناعة المعادن الأوربية كانت تلك التى صنعت فى أعالى ايطاليا — كما كان الحال من قبل .

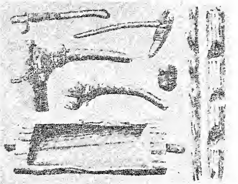
وعلاوة على القرى التى بلغت فيها صناعة التعدين مستوى انتاج الطعام تقريبا ، فقد أخذت مستعمرات التعدين تتضاعف آنئذ ، وكان الاليريون يستغلون بالفعل مناجم النحاس الأحمر ومستودعات الملح شرقى جبال الألب قبل سنة ١٠٠٠ ق . م . ، وقد أصبح هؤلاء الذين اشتغلوا بالتعدين من عهد ما قبل التاريخ متمكنين فى صناعتهم ، فكانوا يستطيعون أن يحفروا مداخل غائرة وممرات تحت الأرض بطول المناجم ، وكانوا يعرفون كيف يقومون بعملية التهوية وذلك باشعال النيران فى احدى فتحتى المنجم المتصلتين ، وكانوا يستعملون النيران كذلك فى شق الممر وتوسيعه وجعل الصخور تتصدع ، وكانوا يسندون الفتحات والممرات بالأخشاب اذا استلزم الأمر ، وكانوا يتبعون فى ذلك الطريقة الحديثة بحذافيرها ، وكانوا يستحضرون السلالم لتمكين المشتغلين فى المناجم من الهبوط اليها والصعود منها ، وكان المشتغلون فى المناجم يرتدون فى أثناء عملهم بها أردية جلدية ويعملون فى ضوء المشاعل .

ولا شك أن هذا العمل كان شاقا ومرهقا



قطاع لمنجم فى العصر البرنزى

هناك أدلة مادية لجميع أعمال هؤلاء المشتغلين فى المناجم فى العصر البرنزى ، ونحن نعلم أنهم كانوا يحفرون مداخل عميقة ، وأنهم كانوا يكسرون الركاز ويغسلونه فى أحواض خشبية قبل جذبه الى الخارج ، وأنهم كانوا يستعملون النيران لتهوية المنجم (وفى بادىء الأمر لتكسير الصخر) وكانوا يشعلونها فى سرداب خاص .



جهاز كان يستعمله المشتغلون البدائيون فى مناجم النحاس الأحمر

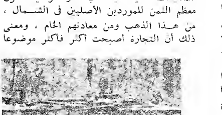
فى أسفل الصورة حوض لغسل النحاس الخام كما يبدو فى الصورة المحددة السابقة ، والى اليمين منظران للسلم الذى كان يصعد عليه المشتغلون فى المناجم ، وفوقها نماذج للمعاول والمطارق التى كانوا يستعملونها وفى الأعلى أمثلة وطنية حديثة استرالية والاسكيمية للمقارنة ·

للغاية · وقد كانوا يحفرون نفقا خلال الصخر الصلب كالذى يحفره حيوان الخلد فى الأرض ، غير مستعينين فى ذلك الا بأدوات فجة كالمعاول والأزاميل ، وأكثر الأعمال التمهيدية لصهر المعادن كانت تعمل تحت الأرض كذلك ، ولاجل أن يتفادوا بذل مجهود كبير فى شد أحمال المعادن الخام الثقيلة عند الفتحة ، كانوا يكسرونها ويدقونها تنقية أولية ، وذلك بغسلها فى أحواض خشبية قبل نقلها الى السطح فى أكياس من الجلد أو أوعية خشبية ، وبعد اخراجها من الفتحة كانوا يعيدون عملية التطهير ثم يصهرونها فى أفران عميقة الى جانب التل ·

وكل فتحة من الفتحات كانت تمتلكها وتستغلها - على ما يبدو - أسرة واحدة يساعدها فى ذلك عبيدها ، وفى مستعمرة مناجم الملح العظيمة فى هولشتات لم يعثر على قرية ، ولكن كان للجماعة مقبرة مشتركة وكانت مستعمرة المشتغلين بمناجم الملح من أكثر المستعمرات ازدهارا فى شمال الألب حوالى سنة ٩٠٠ قبل الميلاد ، ولكن حتى فى ذلك العصر قلما كان عدد سكانها الأحرار يجاوز المائتين اذا استندنا فى ذلك على عدد القبور ·

وكان وجود مراكز اخصائية فى الصناعة والتعدين يقتضى بطبيعة الحال وجود نظام محكم للتجارة ، ولذا نجد أوربا فى ذلك الوقت قد تخللتها شبكة من الطرق التجارية وعلاوة على الاتجار بالمعادن وصخر الملح كان الكهرمان من لوازم المعيشة ، وقد ضاعف من طلبه اقامة قوم فى حوض البحر المتوسط تعودوا استعمال الصمغ · وبعد سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد سرعان ما أصبحت موارده شرقى بروسيا صالحة للاصدار المنظم ، وكان الكهرمان المستورد من هذه المستودعات يأتى من الطريق الأخير من الطريقين الموصوفين والمرسومين فى الخريطة بالفصل العشرين ، وقد فتحت فى نفس الوقت طرق مستحدثة لاستيراد الكهرمان الدانماركى فى محاذاة الراين وعبر سويسره ·

وقد كانت تجارة الكهرمان فى الأصل - الى حد كبير - فى أيدى التجار المتنقلين الذين كانوا ينقلون نقل المحصولات من الأمم المستهلكة - بأعالى ايطاليا وبوهيميا - الى مصدر التوريد ، ولكن هذا النوع من التجارة العابرة كان فى تناقص ، وما وافت نهاية العصر البرنزى حتى كانت قبائل من الأقاليم التى تمر بها الطرق التجارية قد أخذت تتدخل وتفرض وساطتها فرضا بين المنتجين والمستهلكين ، وكانوا يحتفظون بالجزء الأكبر من المنتجات الايطالية لاستعمالهم الخاص أو يرسلونه الى المجر للمقايضة عليه بالذهب ، وكانوا يدفعون معظم الثمن للموردين الأصليين فى الشمال ، من هذا الذهب ومن معادنهم الخام ، ومعنى ذلك أن التجارة أصبحت أكثر فأكثر موضوعا



أربعة مدافن فى هلشتات

كان المشتغلون فى مناجم الملح فى هلشتات يمارسون حرق الموتى ، ثم لجأوا الى دفنهم بعد ذلك ، وكان عددهم لا يتجاوز المائتين فى وقت من الأوقات اذا جاز لنا الحكم على ذلك من عدد قبورهم

للمقايضة بين الأمم المجاورة بدلا من أن يكون معظمها في يد التجار المتنقلين ·

ومثل هذا الاتجار العظيم يستلزم بطبيعة الحال وجود طريقة معترف بها للموازين والمقاييس . ولذا نجد في هذا العصر الذي نحن بصدده الموازين ، وكانت توافق طريقة المضاعفات عند الفينيقيين ووحدة الموازين عند المصريين الايجيين المسماة منا Mina

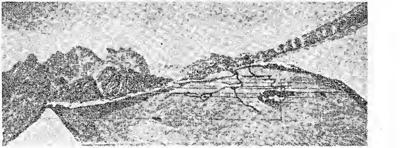
وقد كانت تجارة الكهرمان في جميع الأزمان أهم أسباب انتقال الأفكار والاختراعات الجديدة الى الأمم في شمال جبال الألب · وقد مكنت تجارة الكهرمان في ذلك الوقت الأوربيين الهمج من معرفة معدن حديد يستخدم في الصناعة · وقد عرف الحديد في الشرق القديم منذ عصور سحيقة ، وقد عثر على خرزات مصنوعة منه في قبور مصرية سابقة لعهد الأسر ، كما وجدت آلات مصنوعة من الحديد في قبور مدينة أور الكلدانية ، ولكنه لم يستعمل قط للأغراض الصناعية استعمالا منتظما قبل سنة ١٤٠٠ ق·م ، ولا شك في أن ركاز الحديد كان أكثر شيوعا من غيره ، واستخراجه من مناجمه أسهل بالطبع من استخراج النحاس الأحمر الذي لا يكون الا في عروق دقيقة ، ولكن عملية استخلاصه غاية في الصعوبة لأن معدنه سريع التأكسد ·

ولكي ينافس الحديد البرنز منافسة فعالة كان لابد من اتباع طريقة لصهر مقادير كبيرة منه في نوع من الفرن الهوائي البدائي ، وكان الجهاز اللازم قد استكمل في أرض كيزوادنة في ناحية من نواحي مملكة الحيثيين ، وما أن حلت سنة ١٣٠٠ قبل الميلاد حتى كان الحديد يصدر من هناك في مقادير كبيرة ، وكان فرعون يكتب الى ملك الحيثيين يسأله أن يرسل اليه شحنة من المعدن الجديد ، ويصف هومر بريام بأنه صاحب مستودعات من الحديد، على حين كان هذا المعدن لايزال نادر الوجود عند اليونانيين ·



جراب المشتغلين في مناجم الملح

كان الملح يحمل من مناجمه في هلشتات في أجربة جلدية يحملها العمال على أكتافهم ويثبتونها عليها بما يشبه عدة الخيل ·



كيف كان عمال مناجم الملح في هلشتات يحصلون على معاشهم ؟

آزدهرت مستعمرة في هلشتات بالنمسا العليا في ابان العصر البرنزي ، وكان سبب ازدهارها استغلال منشئيها لمستودعات الملح ، وهذا القسم يوضح أعمال العمال في جزء من المنجم قد مده العمال الى جيد الجبل (السراديب الأفقية حديثة) وقد مكنتهم مناجم الحديد في نوريكوم القريبة منهم من أن يفيدوا من المعدن الجديد عند ما عرفت فوائده ، ولذا نرى هلشتات تمنح اسمها للعصر الحديدي الأول في أوربا ، وقد طغى الماء بعد ذلك على المناجم ولكن العاملين فيها تعلموا تبخير الينابيع الملحية ·



موازين من الرصاص والحجر

اقتضى تقدم التجارة وجود الموازين ، وهذه الموازين الالبية من سويسرة من الرصاص ومعابضها من البرنز ما عدا الموضحة فى الناحية اليسرى من أسفل الصورة فان مقبضها من الصفيح والتى فى الوسط فكلها من الحجر

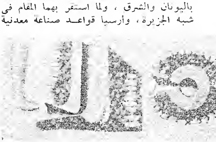
وانتشر سر صناعته سريعا فى آشور وفينيقية وبلاد اليونان . وسرعان ما اقتبست القبائل الهمجية التى كانت تغزو آسيا الصغرى حوالى هذا الزمن هذا الفن الجديد ، أو بالأحرى قبضوا على العمال المهرة فى صهر الحديد . فقد كان هذا المعدن الجديد معينا قويا لهم فى حملات السلب والنهب التى كانوا يوجهونها الى مصر وغيرها من الدول المتحضرة ، ولعل بعض هؤلاء الصناع كانوا يقضون مدة تعليمهم فى صناعة الحديد عبيدا أو مأجورين لدى الحيثيين ، وقد كان ادخال صناعة الحديد الى أوربا من بعض نواحيه نتيجة لمجهودات هؤلاء البرابرة .

وبين القبائل التى كانت تظهر على حدود الامبراطورية المصرية تارة غزاة وأخرى جنودا مأجورين قبائل السيردانو وشكلش وتورشة ، ومن الواضح أن هذه القبائل كانت من سردينيا وصقلية واتروريا ، على أنه لاتزال مسألة مجيئهم من هذه النواحى فى غرب البحر المتوسط موضع الشك . ومهما يكن من أمرهم فانهم بعد أن ردوا عن السواحل المصرية على أعقابهم عادوا الى الجزائر الغربية وايطاليا وقد حملوا معهم الأسلحة الحديدية التى استعملوها وهم حلفاء للملوك الحيثيين أو الفراعنة .

وعلاوة على ذلك كان الفينيقيون فى الوقت نفسه يجدون فى آثار الميسينيين لاستكشاف غرب البحر المتوسط، وكانوا يبحثون فى سردينيه واسبانيا عن الفضة وغيرها من المنتجات المعدنية التى جعلتها الامبراطورية الأشورية وغزوات الهمج من الأشياء المتعذر استحضارها من آسيا ، وقد جاءوا مستعمرين وتجارا ونخاسين قد حملوا معهم شحنة مما سماه هومر « الحديد الأغبر » مع بضائع أخرى ، وقد كانت هذه العوامل سببا فى ذيوع استعمال الحديد فى شبه جزيرة ابنين .

ثم اكتسحت الجزء الشمالى من ايطاليا قبائل آرية قادمة من خلف جبال الألب ، كما عرفنا ذلك من قبل ، على أن هذه الغزوات انما قوت الروابط التجارية التقليدية التى كانت تربط ايطاليا بداخل القارة ، وحوالى سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد كانت السيادة فى شمال ايطاليا ووسطها للأمبريين ، وكانوا لا يزالون فى دور الهمجية ، وكانوا يقيمون فى قرى صغيرة من أكواخ مستديرة حول تل حصين ، وكانت الاضطرابات الداخلية المريرة تستنفد قوتهم .

وكان قوم فسى وراء الأمبريين ، والفنتى شعبة من الالبريين عبروا جبال الألب من ناحية الشرق وغلبوا على الجبهة المشرفة على البحر الادرياوى حول البندقية ، وقد سميت باسمهم ، وهم كذلك من الهمج ومستواهم الثقافى فى مثل مستوى الأمبريين ، وكلا الأمبريين والفنتى أدخلوا الى ايطاليا دقائق صناعة البرنز الدانوبية . وورثا فى ايطاليا نفسها تقاليد صناعة التعدين العظيمة والصلات التجارية باليونان والشرق ، ولما استقر بهما المقام فى شبه الجزيرة ، وأرسيا قواعد صناعة معدنية



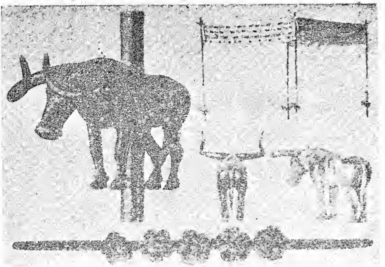
كيف كانت تصهر المعادن الخام

كان سكان وسط أوربا الذين يستعملون المعادن قد عرفوا استعمال الفرن الهوائى لصهر النحاس الأحمر ، مثل الفرن الافريقى الموضح هنا قطاع منه وتصميمه وهو على نمط قمين حرق الكلس وله أنابيب مقوسة من الصلصال (الى اليسار) للتهوية ، وعندما اكتشف الحديد الخام كان عندهم الوسائل لاستعماله .



أوربيون من العصر البرنزى الأوسط وأسلوب حياتهم

هناك دليل مادى يؤيد هذا التصوير بكل تفصيلاته للرجل وللمرأة فى الألف الثانى قبل الميلاد ، والجرة التى تحملها المرأة وجدت تحت رابية دفن فى ورتمبرج مع هيكل عظمى نسوى ، والعقد والمنطقة والدبابيس جميعها من نفس المقبرة ،وسيف الرجل من النوع الذى أوضحناه فى صفحة ٢٠٣ من المجلد الثانى، والعباءات الشبيهة بالملاحف والسترة القصيرة والحذاء المصفى الذى لا تزال بقايا منه موجودة جميعها من نفس هذا العصر .



الثقافة المعدنية بين الآريين فى جنوب السهوب الروسية سنة ٢٥٠٠ ق٠ م٠

هذه الأصناف البديعة من المصنوعات المعدنية وجدت فى ميكوب فى وادي كوبان ، ويرجع تاريخها الى الألف الثالث قبل الميلاد والثيران الذهبية والفضية تخترقها قضبان ، وربما كانت هذه القضبان لتحمل تعريشة فوق الجثة كما يبدو فى الشكل المجدد (فى الأعلى الى اليمين) واكليلان من الذهب مطعمان بالوريدات على مقربة منها ٠



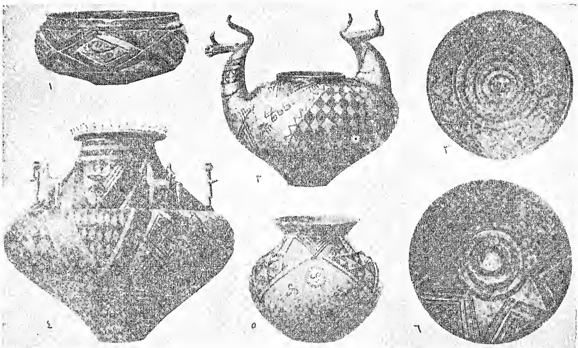
الأسكوذيون كما صورهم فن صائغ أجنبى فى القرن الرابع قبل الميلاد

فى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد كانت هناك تجارة قائمة بين اليونان وأسكوذيا ، وكان أصحاب الخزف الوطنيون والأجانب يصنعون أوانى من الذهب والفضة ذات قيمة فنية سامية ، ويغلب عليها الأشكال البشرية التى تمثل حياة الأسكوذيين الدينية والاجتماعية والحربية ، والزهرية الموضحة من كول أوبا وبها مناظر واقعية للمعسكرات ، منها رجل تعصبت ساقه الى (اليسار) ورجل آخر يركب وترا للقوس قصيرة تترية ، وصورة الرجل الراكع الواضح فى أقصى اليمين تمثله وهو يخلع سن زميل له ٠



الفن القومى الأسكوذى وطريقته فى تصوير الحيوانات (من القرن السـادس الى القـرن الثالث قبل الميلاد)

يمتاز الفن الأسكوذى الوطنى بأسلوب الزخرف الحيـوانى ، وفى هـذا الأسلوب يقصد الى الزخرفة أكثر مما يقصد الى الدقة فى تصوير الحيوان ، بل هو فى الغـالب يصوره تصويرا خياليا ، ومن الأمثلة الحسنة لذلك الوعل النافق (١) وصورة اسد وهى من قطعة زرد لوقاية الصـدر (٥) ومشبك المنطقة المتـأخر فى الزمن (٦) والبلطة الحديدية المموهة بالذهب وعليها فصوص من الكهرمان والذهب (٤) ، (٣) ، (٧) رؤوس قضبان مزخرفة ، والمشبك الذهبى (٢) تصوير عجيب لرجلين من الأسكوذيين يشربان من نفس الـكأس



فن الفخارى فى العصر الهلشتانى : نماذج جميلة من الخزف الملون

فى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد وصلت صناعة الفخار فى العهد الهلشتانى أو العصر الحديدى الأول لفن الفخارالى مستوىعال ، فالصفحتان (٣ ، ٦) نماذج من خيرة أنواع الفخار الذى يجمع بين الألوان والأشكال الهندسية المحززة والكأس (١) وصناعتها مشابهة لها وقد استحضرت من نفس المدفن القديم فى دجنفلد بورتمبرج ، ومن الزخارف التى كانت شائعةالدائرة التى تحف بها نقاط وتحتوى على صليب مثلث الأذرع كما فى القطعة (٥) وهى قارورة من مدافن القوارير فى سيليزيا وربما كانت تمثل اله الشمس ، وتمثل الأشياء الطبيعية بالرجال والنساء والخيل وطير الماء كما فى قارورة الرماد ذات المقبضين على صورة قرون الحيوانات رقم (٢) وفى الزهرية رقم (٤) من مقبرة فى حمبين لبارن فى النمسا السفلى لم تظهر الا فى الجنوب الأقصى نتيجة لتأثرها بالمؤثرات الايطالية .



خنجر توت عنخ أمون الحديدى

أقدم الأمثلة المعروفة لاستعمال الحديد بدلا من البرنز فى أسلحة الهجوم أحد خناجر توت عنخ أمون الشهيرة (١٣٥٨ الى ١٣٥٣ قبل الميلاد) ومقبضه من الذهب المغشى بالجوهر وبه عقدة من البلور . ولكن النصل من الحديد وحديده من النوع الجيد الذى يسوغ لنا أن نسميه صلبا .

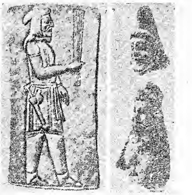
عظيمه على أسس محكمه حقا ، واستطاعا بالتجارة والقرصنة أن يحتازا نماذج شرقية صالحة . ومن المحتمل أنهم أسروا بعض صناع المعادن الفينيقين أيضا ، وأصبحت قراهم الكبرى مراكز عظيمة لصناعة المعادن ، وكانت تصنع بها الأوانى البرنزية الرائعة والدلاء والخوذات والتروس والمناطق بكميات وافرة ، وحصلوا على الحديد تدريجيا ، وفى بادىء الأمر كانوا يستعملون هذا المعدن الجديد فى الأغلب الأعم حلية لترصيع مقابض السيوف والمناطق المعدنيه . على أنه ما وافت سنه ٨٠٠ قبل الميلاد حتى كانوا يصنعون السكاكين والسيوف والرماح من الحديد .

وكانت أعالى ايطاليا قد أصبحت فى ذلك الوقت ، كما رأينا ، متصلة اتصالا وثيقا بداخل القارة عن طريق التقاليد وبروابط التجارة . وكان يرد الى ايطاليا الكهرمان من البلطيق ، والقصدير من بوهيميا ، والنحاس الأحمر من سلوفاكيا والنمسا العليا ، والذهب من المجر ، فمغذى مصانع أمبريا وقسنى ، ويتخذ منها الرؤساء والأميرات الحلى ، أو يقايضون عليها بسلع الفينيقين ، وكانت ايطاليا لقاء ذلك لا تكتفى بأن ترسل الى داخل القارة الصحاف النحاسية والاوعية ، وانما ترسل كذلك السبائك ومصنوعات أخرى جاهزة متقنة من المعدن الجديد. ولكن كان فى ستوريا وكارنيا ونوريكوم الرومانية مقادير ضخمة من معدن الحديد لم تستغل بعد ، وسرعان ما أقبل اليوم الذى شرع فيه الاليريون المقيمون فيما يلى السواحل يستغلون هذه الموارد الهائلة بمساعدة أقربائهم



الدليل على التجارة بالمعدن بين ايطاليا وداخل أوربا

الظاهر أن صناع المعادن فى ايطاليا اقتبسوا معرفة الحديد من الشرق بعد تفرق «شعوب البحار» وتقلوها بعد ذلك الى وسط أوربا ، ونحن نعلم أنهم كانوا صناع معادن بارعين وأنهم كانوا يحتفظون بالعلاقات التجارية مع ما وراء السواحل الأوربية ، والجردلان البرنزيان والكأس من المجر ، وقارورة رماد الموتى (أعلى الى اليسار) من اسكندناوة ويظن أنها جميعها ايطالية الصنع والشىء الذى يشبه الطائر من سلوفاكيا وهو نهاية (عريش) عربة



لباس الأسكوذيين وسلاحهم

كان الأسكوذيون قبائل بدوية من أعالى آسيا قد اقتبست عناصر خاصة من الآريين . فاللوحة الذهبية (الى اليسار) التى عثر عليها بجانب نهر سيحون توضح توضيحا باهرا الملابس الأسكوذية ، ولكن الرجل نفسه من الجنس الايرانى ، والرأسان من القرن الخامس من مصر ، وهما يمثلان ملامح الأسكوذيين

المغيرين على الشواطىء أو بدون مساعدتهم ، وكانوا قد عرفوا دقائق صناعة التعدين ، وكان الفرن الذى يستخدمونه لصهر نحاسهم يصلح كذلك لصهر الحديد الخام ، وكان كل المطلوب هو كشف نوع هذا المعدن الخام ، فلما تم ذلك بدأ انتاج الحديد وأشرق فجر العهد الحديدى فى أوربا .

وبهذه الطريقة توطدت فى ايطاليا العليا صناعة الحديد التى كانت قائمة فى القارة الأوربية ، على أنه قد ساعد على تقدمها عامل آخر ، وذلك أن القرنين التاسع والثامن قبل ميلاد المسيح كانا من القرون التى عم فيها الاضطراب قبائل البدو فى أعالى آسيا ، وأخذ البرد المتزايد الذى أثر فى أوربا حوالى نفس هذا الوقت يدفع بالصيادين من الشمال الى الجنوب ، ودفعت هذه الهزات فى السهوب الواسعة نحو أوربا بقوم ممتازين يعرفهم التاريخ باسم الأسكوذيين . وفى الوقت الذى وصلوا فيه الى أوربا كانوا اخلاطا من البدو ، وكان يمكن ان نميز منهم العناصر الايرانية المشابهة للفرس والعناصر المغلية .

ولقد ما بذكرنا فهم بذلك الفن الذى كان سائدا بين القبائل المستوحشة التى كانت تعيش على الصيد ونطوف بمناطق القطب الشمالى منذ العصر الحجرى الحديث ، واحتفظت بأسلوب حياتها ، وبالفن الطبيعى الذى اشتهر به صائدو الوعول فى العصر الحجرى ، وذلك خلال العصر الحجرى والعصر البرنزى . واقتبس الأسكوذيون فى تقدمهم صوب الغرب من الايرانيين ثم

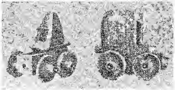
القوقازيون كثيرا من عناصر الحضارة الأشورية البابلية . ومن ذلك صناعة الحديد ؛ وفضلا عن ذلك أنشأوا علاقات تجارية مع المستعمرات اليونانية الحديثة على شواطىء البحر الأسود .

ولما تدفقت جموع الأسكوذيين على روسيا من الشمال الشرقى ، وجدت قبائل مختلفة متخلفة مستولية على البلاد ، فأجلوا بعض هذه القبائل وعبر السمريون



فخار من صنع صاهرى الحديد فى أوربا

لم يبزغ فجر العصر الحديدى الأول أو العصر الهلشتاتى الا بعد أن بدأ رجال الثقافة الهلشتاتية يصهرون الحديد لانفسهم بدلا من اقتباسه من عملائهم الايطاليين فى مقابل الملح والمعادن والكهرمان المنقولة من أنحاء قاصية ، وقوارير رماد الموتى الموضحة فى الصورة من مقبرة قديمة فى المجر والنمسا السفلى ، وهى تبين الفخار المعاصر (انظر الصور صفحة ٢١٨ من المجلد الثانى)



عربات اتخذها البدو مساكن

كانت عربات الأسكوذيين توضح صفة البداوة الغالبة عليهم ، وعندنا منها نماذج صغيرة كانت تتخذ لعبا من مقابر في كرتش Kertch وهي تبدو بيوتا صالحة قائمة على عجلات ولها نوافذ في بنيتها وفي جزئها الأعلى

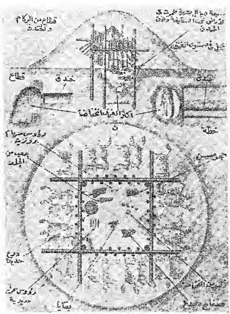
جبال القوقاز هربا من الأسكوذيين — وهؤلاء السمريون هم الذين كانوا في عهد هومر مقيمين على شواطىء البحر الأسود الشمالية ، ثم انقضوا على الامم المتحضرة في جنوب القوقاز ، ومالت بعض القبائل في جنوب روسيا الى الاعتراف بسيادة الأسكوذيين ، وربما كانت هذه القبائل قد أنزلت الى حضيض العبودية ، وعمل الاسكوذيون في النهاية على ايجاد حكومة مركزية ثابتة تضم مختلف الأقوام تحت زعيم واحد في نوع من النظام الاقطاعي ·

وظل الأسكوذيون الاصليون بدوا خلصا . وكانوا يسكنون في عربات ، ويقضون معظم وقتهم على ظهور الخيل الى حد انهم كانوا يتعثرون في المشى ولا يحسنونه اذا تركوا ظهور جيادهم ولم يكن الحصان حيوانا للحمل وحليفا في الحرب فحسب وانما كان قطب حياتهم الاقتصادية جميعها ، وكانت الأفراس تمدهم باللبن ويقدمون من أنواعه المختلفة غذاء لزعمائهم ·

وكان الأسكوذيون يتبعون نظام تعدد الزوجات على خلاف سكان غرب أوربا الهمج · وكانت زوجاتهم يلزمن العربات على نحو أشبه بحياة الحريم ، وكانوا يتخذون الكثير من الخدم والعبيد ، ويزعم المؤرخ اليوناني هيرودوت أنهم كانوا يسملون عيونهم في أغلب الأوقات حتى لا يستطيع المشتغلون منهم في خض اللبن أن يلحظوا أفضلية اللبن الخاثر على مصل اللبن (الشرش) الذى كان يقدم لهم طعاما ·

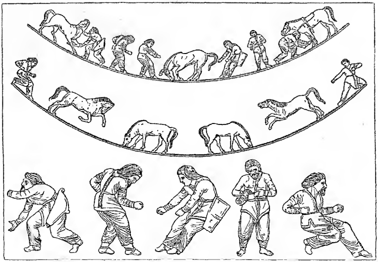
ولكن اذا كان الاسكوذيون الخلص رعاة يعيشون على اللبن والصيد فقد كانت بعض الأمم الخاضعة لهم مزارعين موفقين ، وخصوبة الأرض السوداء في جنوب روسيا تفوق المألوف ، وانتاجها كبير ، وكان يسلم منه جزء وافر بلا ريب للسادة الرعاة ، وكان هؤلاء السادة يحتقرون الأطعمة النباتية ولذا كانوا يبيعون نصيبهم للتجار اليونانيين بالمدن الساحلية ، والحق أن الحبوب المصدرة أصبحت مورد ربح وافر حتى أن بعض الأسكوذيين انقلبوا مزارعين ، ولم يزرعوا الغلال لاستهلاكهم وانما لتصديرها ·

ولم يكن أشراف الأسكوذيين يباشرون الأعمال الصناعية بأنفسهم وانما كان يقوم بها عبيدهم وأتباعهم ، وكانوا لذلك يقفون أوقاتهم على القتال والصيد ، والواقع أن القتال كان العمل الرئيسى لهؤلاء القوم المتوحشين ، وكان

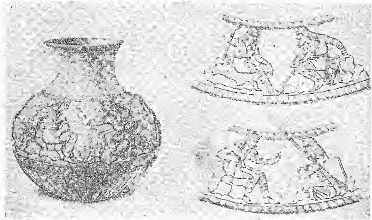


منظر مذبحة حول قبر أسكوذى

كان الأسكوذيون يدفنون الموتى من رؤسائهم في حجرات محفورة ، فوقها مظلة خشبية ، وفي الثرى فوق الحجرة كانت توضع جثث أهل منزل الرئيس المذبوحين ، وعلى أرض المظلة كانوا يحفظون لوازمه الخاصة ، وكان يطوق الجميع بعد ذلك بقرابين الخيل وتقام فوقها ربوة ·



هذا الافريز حول الزهرية الشرتومليكية يوضح مناظر حية للرجال والخيل ، وهى تذكرنا بأن الأسكوذيين كانوا يعيشون معظم حياتهم على ظهور الخيل ، وخمسة من المناظر الموضحة قد اختيرت وكبرت لتبين ملابسهم بالتفصيل ، مثل السراويل المسترخية التى اقتبسنها بعد ذلك القبائل الكلتية .



الأشكال التى من شرتوليك (فى أعلى الصورة) والزهريات من فورونيز لبس المقصود بها توضيح فن ذاك الزمن ، لأنها ترجع الى القرن الرابع والقرن الثالث قبل الميلاد ، حينما كان الأسكوذيون قد تأثروا باليونان تأثرا كبيرا ، وربما كان الصناع اليونانيون قد قاموا بصنعها استجابة للذوق الأسكوذى ، ولكنها توضح توضيحا فخما طراز الوجوه الأسكوذية ولباس الأسكوذيين الخاص ، لاحظ القوس بوجه خاص فى جرابها الدقيق الصنع ، وهاتان الزهريتان مصنوعتان من الفضة المذهبة

عادات الأسكوذيين كما صورت على زهريتين مشهورتين

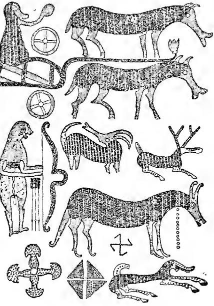
كل فرد من الأسكوذيين يدرب منذ شبابه على أساليب القتال واستعمال السلاح القومي وهو القوس ، وكان لا يقال أن رجولة أحدهم قد اكتملت الا اذا قتل عدوا وكانت رؤوس الأعداء تجمع وتحفظ تذكارا للنصر وكان ينزع منها الجلد ويلبس بعناية وكان المحاربون البارزون يشتملون بألفعة مصنوعة من هذا الجلد الرهيب ، وكانت الجلود المنتزعة من أيدي الأعداء المقتولين تستعمل أغطية لكنانات السهام ·

وكانت ديانة الأسكوذيين مشوبة بالوحشية أيضا ، وكان بعض آلهتهم يطلب الضحايا البشرية ، وكانوا يذبحون في جنازة الزعيم نساءه وحظياته وخدمه عند قبره ليقوموا على خدمته في الحياة المقبلة ، وكانت تقدم كذلك الذبائح من الخيل وتعلق أجسامها على قوائم تنصب حول حجرة الدفن ، وكان القبر نفسه حجرة واسعة من الخشب على نمط خيمة البدوي ، وكان يحفظ به رفات الرئيس ورفات نسائه وحاشيته ثم أسلحته وممتلكاته ثم يغطى ذلك بكومة عظيمة وأمثال هذه العادات الوحشية دحط من شانه بالقياس الى سائر أهل أوربا ولكن برغم ذلك كانت حضارتهم المادية في مجموعها أرقى مستوى من حضارة جيرانهم في أقصى الغرب ، وكا عندهم مقادير وافرة من الحديد والمعادن الأخرى وكانوا يستطيعون أن يكثروا من استعمالها في عمل اللوازم المنزلية مثل المراجل وكذلك الأسلحة والأدوات ، وكان مما يعينهم على ذلك اتساع رقعة الدولة فقد كان ذلك أكبر معين لهم على الاتجار في مدى واسع ، كما أن تركيز القوة جعل جمع الثروة ميسورا ·

ومما يدل على ثراء الأسكوذيين اسرافهم في استعمال المعادن النفيسة ، وكان أشرافهم يرفلون كساويهم بالذهب وكانت البنيقات والأساور وأدوات المائدة كلها من الذهب المصمت وكانت مقابض السيوف وأغمادها والكنانات وأيدي المرايا وسروج الخيل وأقل لوازم الأثاث قيمة كان ذلك كله يغشى بطبقة سميكة من الذهب ، ولم تعرف في أوربا قبلهم ثروة كهذه حتى في أيام ازدهار كنوسوس ميسينى ، ولابد أن الذهب كان يتدفق على أسكوذيا تحمله القوافل جزية من الطاى القاصية ·

وفضلا عن ذلك كان الأسكوذيون يقدرون مصنوعات اليونانيين المقيمين على شواطئهم ويكبرون ابتكاراتهم وفنونهم ، ولكي يحصلوا على السلع اليونانية كانوا يتاجرون مع مدن الشواطىء بفائض الغلال ثم بالفراء الذى يرد اليهم من الأراضي الواقعة وراء الشواطىء وانتاجات الشرق التى كانت تحملها اليهم القوافل من وسط آسية ، وقد تخصص الجوهريون والصناع اليونانيون في عمل السلع التى روعى في صناعتها أن ترضى أذواق الأسكوذيين ·

وقد ساعد تكاثر الثروة على ايجاد ألوان من الفن لم تكن معروفة عند الهمج في الغرب وقد كان الفن الأسكوذى في جوهره قائما على تصوير الحيوانات ، على حين كان الزخرف في



تصاوير تخطيطية من عمل السمريين

كان فن الغرب في ذلك العصر هندسيا في الأعم الأغلب ، أما سكان الروسيا الجنوبية السمريون وبعدهم الأسكوذيون فقد حاولوا أن يصوروا الأشياء كما يرونها ، وهذه الخيل وما اليها المحفورة في مناطق برنزية من روسيا الأرمنية وهي على ما بها من غرابة طبيعية في جوهرها ·

غرب أوربا ـ ما عدا اليونان وابطاليا ـ بكاد بكون مقصورا على الأشكال الهندسية ، وكان الصناع الأسكوذيون يستطيعون أن يصنعوا صورا للحيوانات مطابقة للواقع مطابقة تثير الدهشة ، لـكنهم كانوا بظهـرون فى الوقت نفسه نبرعات فائقة باستعمال نماذج لهـذه الاشـكال لمجرد استخدامهـا فى الزخرفة ، واذا استثنينا بلاد اليـونان فانه لم يكن فى أوربا لعدة قرون ما يقرن الى نقوشهم وما كانوا يصنعونه من البرنز ·

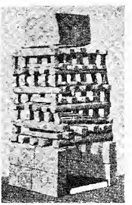
ولـكن هذه الحضارة البـاهرة فى جنـوب روسيا لم يكن لها سوى تأثير قليل فيما وراء الكربات فقد كانت شرقية فى جوهرها ، غريبة عن الروح الاوربية ، وكانت الأيام التى تأثر فيهـا الهمج الأوربيـون بآسية قد انتهت ، وكانت الغابات قد أخذت تتكاتف فى شمال السـهوب وفى شرقهـا ولم يتوطد سـلطان الأسكوذيين قط فى هذا الاقليم وحقيقـة أن الاجاترسى ـ وهم قـوم من تراقيـة هبطـوا ترانسلفانيا ـ صاروا حلفاء الأسـكوذيين بل لعلهم دانوا لهم بالطاعة وتعلموا منهم صناعة الحديد ولكنهم فيما عدا ذلك لم يتـأثروا بهم فى قليل ولا كثير ومن المحتمل أن يكون عدد قليل من مغبرى الاسـكوذيين قد اقتحموا الطريق الى المجـر وسـيلزيا ولكنهم لم يستقروا هنـاك على أن بعض أفـكار الاسـكوذيين قد تسللت الى الغرب وقد أخذ الكلتيون فى فرنسا عن الأسكوذيين استعمال الأوتار (البنطلونات القصيره) ·

والعـوده من أسـكوذيا الى الدانوب والرين معناها الانتقال الى مناطق عمتها الهمجية فليس بهـا حكومات مستقرة واسعة النفوذ ولاسلطه موحدة مستديمة ولا ثروة باذخة وكان تنـازع البقـاء والحـروب المسـعرة بلا انقطاع قلما يتركان فراغا من الوقت لحضـارة أسمى وأخذ استعمال الحديد فى الذيوع والانتشـار وراج فى بادىء الأمر بين الاليريين فى وادى الدانوب وسـويسرة ثم عنـد الكلتيين فى فرنسا وجنوب ألمانيا

وكانت المصنوعات الحـديدية تظهر جنبـا الى جنب مع المصنـوعات البرنزية فى المقـابر والمستعمرات ·

ولكن حدث قبيل سنة ٧٠٠ ق · م · وفى الوقت الذى أخذ فيه استعمال الحديد ينتشر وبخاصة فى الأوديه أن أخذ جو أوربا الوسطى والشمالية يسوء وانتهى المناخ القارى بأصيافه الدافئـة الجـافة وأعقبتـه حقبه باردة رطبـة وأصبحت أوربا أبرد جوا وأكثر رطوبة مما هى الآن وساعد تزايد الأمطار بطبيعة الحال على نمو الأشجار الضخمة وطغيان الغابات على البساتين والأراضى الخضراء طغيانا سريعا وصارت الثلوج تغمـر المراعى فى الشـتاء وزاد المطر الغـزير المتساقط منسوب ميـاه الأنهـار التى تصب فى البحيرات الألبية فارتفعت مياهها الى مستوى لم تبلغه من قبل وغمرت قرى الروابى القائمة على شطآنها ، وأصبـح من المتعذر اسـتخراج النحاس الأحمر والملح بحفر المداخل المكشوفة كما كانت العادة المتبعة وذلك لأن المطر والثلج الذائب كانا يتدفقـان ويغرقان المنـاجم ولذا هجر أكثرها ·

وقد وجـد المشتغلون بمنـاجم الملح فى هلشتـات ما يعوضهم من الخسـارة ، فهناك انبجست الينـا بيع من جديد فى جانبى الجبل وكان المـاء المتقطر خـلال الصخر هنـاك مشـبعا بالملح الذائب بحيث يسـهل استخراجه بالتبخير وظلت أحوال المستعمرة منتعشة لأن أصحابها أصبحوا يحصلون على الملح من طريق تسخين الماء بدلا من حفر المناجم ،وكانت المياه الملحية تبخر فى أحواض فخارية مكشـوفة ثم تسـكب فوق أسـطوانات من الصلصـال مسخنه ومصفوفه بمهارة فيتبلور فيها الملح ويخرج منها ، ولكن لم يعـد فى استطاعه هلشتات أن تدعى احتـكار الملح ، فقـد انبجست ينابيع من الماء المالح فى بافاريا وورتمبرج ووسط ألمـانيا واللورين وغير ذلك ، وبعض هذه الينابيع كان يسد حاجات لمنتجات هلشتات أى تفوق خاص ·



طريقة فى بلورة الملح

كان الهلشتاتيون يبلورون الملح الذى لا يسـتطيعون أن يسـتخرجوه بأن يتركوا جزءا من الماء المملح المتبخر ينسكب فوق كومـة من الاسـطوانات الصلصالية المحماه ·

ولكن أحل نتائج زيادة البرودة والرطوبة خطرا هى الحركة التى أثارتها بين السكان ، فالقبائل التى كان الرعى قوام حياتها والتى كانت حتى ذلك العهد تطوف بالبساتين والأراضى المغطاة بالاعشاب والحشائش رأت الغابات تزداد تكاثفا وتصبح مأوى للدببة والذؤبان ، ولم يكونوا قد اعتادوا عملية احتثاث الأشجار ببلطاتهم التى كانت لا تزال فجة .

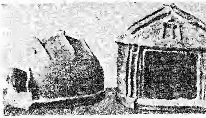
مجالدة التغيرات الجوية

ولذا أخذوا يرمقون بعين الجشع الأراضى الصفراء المنبسطة الى جانبهم .

وفضلا عن ذلك كان الثلج يغمر مراعيهم آنئذ فى الشتاء ، وكانت الأودية تقيم بعض الوقاية من لفحات الثلوج ، وقد كان ذلك مدعاة الى نزول سكان التلال بقرى المزارعين فى الأودية . وانتهت المستعمرات القائمة على شواطىء البحيرات السويسرية وأحرقت قبل أن ترغم الفيضانات المتزايدة أهلها على هجرها الى غير عودة ، واندثرت الدساكر المزدهرة التى كانت قائمة فى منحدرات النمسا وجنوب ألمانيا اندثارا مفاجئا .

وبطبيعة الحال لم يهلك أهلها ، فقد لاذ بعضهم بالهرب . وربما كانوا قد التجأوا لهذا السبب الى بريطانيا فى بادىء الأمر عن طريق مصب نهر الرين ثم انتشروا من وسط فرنسا الى أسبانيا ، أما فى سائر الجهات فكان المزارعون يعيشون خاضعين للغزاة من الرعاة ، والواقع أن هؤلاء الرعاة امتزجوا بالسكان القدماء امتزاجا تاما واتخذوا أسلوبهم فى الحياة بحذافيره ، ولكن الرعاة فى كل مكان كانوا يميلون الى فرض سلطانهم على عنصر المزارعين ويقومون مقام السادة منهم حتى عندما كان هؤلاء وأولئك يندمجون فى قبيلة واحدة .

ولم يكن انتشار السكان هذا حادثا عارضا وانما كان عملية طويلة استغرقت العصرالحديدى الأول كله ، وطال بها الزمن فى جهات كثيرة حتى أدركت العصور التاريخية ، وحتى سنة ٤٠٠ ق٠م لم تصل جماعة واحدة الى شىء يقارب الوحدة القومية ، ولم يظهر شىء يشبه الحكومة وكانت تسكن أوربا قبائل غير مستقرة متعادية لا يجمعها نظام ولا تتماسك الا تماسكا يسيرا وتنطلق على المسرح كأشباح الحلم . ونحن نستطيع أن نحرز الأسماء التاريخية لبعض هذه الجماعات . وقد كان الكلتيون يحتلون شرقى فرنسا وجنوب غربى ألمانيا وربما أجزاء من بوهيميا والنمسا ، وكانت الهضاب الأقصى من ذلك جنوبا كلها فى حيازة الأليريين وكان أسلاف السلاف الحاليين أو فرع آخر من الأليريين يعيشون على ضفاف المارش ونهر الأودر الأعلى والألب الأعلى . وظلت أسكنديناوة وشمال ألمانيا بلا شك مستزادا للتيوتون الذين لم يكونوا ينفكون عن الزحف الى الجنوب ، ومن المحتمل أن المجر كانت لا تزال تراقبه . ولكن



حيث كان يسكن بناة رومة

توضح لنا قوارير رمادالموتى الصلصالية من مقابر ما قبل التاريخ فى تلال ألبان Alban الأشكالالحقيقية للمنازل اللاتينية عند انشاء رومه، وهى لم تكن أكثر من أعشاش من الطين وجزء منها محفور فى الأرض ، ورعاة الماعز فى كامبانيا Campagna الرومانية يعيشون اليوم فى أكواخ سقفها من القش مستديرة مشابهة لهاكل المتشابهه .

كلا التراقيين والتيوتون لم يستخدموا الحديد بانتظام قبل سنة ٥٠٠ ق٠م .

وكل هؤلاء الأقوام انشعبوا قبائل متعادية كثيرة ، وحتى هذه القبائل كان ينقصها الاستقرار ، وكانت القبائل فى أثناء رحلاتها العديدة تتحرك كتلة واحدة ، ولكن عندما كانت تستقر كانت تجنح الى التفرق فى قرى متعددة . ولا ريب فى أن نوابا من كل قرية من قرى القبيلة كانوا يجتمعون اجتماعات دورية لاقامة الحفلات الدينية وكان هذا نواة التحالف السياسى . ولكن مضى زمن طويل لم يظهر فيه نظام للحكم يجمع شمل القبيلة ويوطد السلم الداخلى .

والوقائع أن القرية كانت هى وحدها الوحدة المستقرة ، وكانت على الدوام صغيرة ، ولا بد

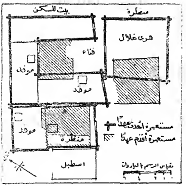
أن هلشتات كانت حتى فى ذلك الوقت مجتمعا له أهمية ممتازة ، ومع ذلك كان عدد سكانها الأحرار لا يكاد يتجاوز مائتين وخمسين نسمة ، وفى أواسط الرين كان بعض القرى الكلتية يبلغ عدد منازلها الأربعين ، ولكن يظهر أن عدد المجتمعين فى مركز واحــد كان لا يتجــاوز الثلثمائة شخص ، وكانت نزعات الانفصال القديمة لا تنفك تعمل ، وفى مواقف خاصــة كان الكثيرون من الجيل النــاشىء يجنحون الى الانفصال ·

وكانت القرى نفســها مجرد أكواخ حقيرة مجتمعة ، وكان النــاس غالبا يتقون تقلبات الطقس بالاقامة فى أكواخ حقــيرة مســتديرة نصفهــا محفور فى الأرض كما كان الحال فى العهد الحجرى ، وحتى أقدم المقيمين فى التلال السبعة التى بنيت فوقهــا روما وأقاربهم من اللاتين فى تلال « ألبان » كانوا يسكنون فى أمثال هذه الأكواخ ، ولكن الاكواخ المتخذة من كتل الخشب كانت لا تزال مستعملة فى أقصى الشمال ، وكان الرؤساء المحدثون من الرعاة يكلفون أتباعهم ببناء أكواخ مثلها لهم ، ودخل على طريقة اقامتها تعديل يلائم مقتضيات العصر ولم يكن فى الامكان ترك الماشية فى أمان طول ليالى الشتاء ، وحتى درس الغلال كان لا يتم فى مكان مكشــوف ، ومن ثم أنشىء نوع من المزارع أكثر احكاما ، فكانت تقام ثلاثة أكواخ



المسكن فى العصر البرنزى المتأخر

يمكننا أن نستعين بالبقايا المحفوظة فى أراضى قاسربرج بوخاو البور المســتصلحة فى سوابيا العليــا (أنظر صفحة ٢٠٨) على اعادة بناء أنموذج المساكن التى كانت تبنى فى أوروبا حوالى سنة ٨٥٠ قبل الميلاد فقد كان المسكن عبارة عن ثلاثة أكشاك من الخشب متجمعة حول فناء قائم الزوايا وأمام هذا المسكن كانت الأهراء ·



خطة القرية الجزرية

كان هنـــاك نوعان من المســتعمرات فى قاسربرج بوخاو ، المستعمرة السفلى ويرجع تاريخها الى سنة ١١٠٠ قبل الميلاد وتشمل أكواخا صغــيرة مكونة من غرفة واحــدة ، أما فى المستعمرة المتأخرة عن ذلك فى الزمن فكانت المساكن الفسيحة متلاصقة بعضها بجانب بعض

خشبية حول ساحة مسورة ذات جوانب ثلاثة ، وكان البناءان اللذان يتكون منهما الجنــاحان يستعملان مخازن على حين أن الحيوانات تحتمى بالساحة ·

وكانت القــرى فى بعض الأوقات تحــاط بخنادق واسعة وفى أكثر الأحيان كان يعمد الى تل مناســب فى النــاحية المجــاورة ويحصن ليكون مــلاذا يلجــأ اليــه الفرويون ومعهم قطعانهم وماشيتهم عنــدما يبدو الخطر ،

تطــور التحصينات

وكان الــكلتيون فى فرنســـا قد شرعوا يتعلمون تحصين هذه الثكنات القائمة فوق التلال برفع أســوار من الحجر الجاف ، وكان الأليريون الجنوبيون فى البوسنه ودلماشيا قد غبر عليهم زمن وهم يبنون مثل هذه الأسوار ·

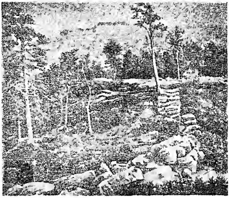
وكان ضعف السلطة القبلية سببا فى اســتمرار الحــرب بين القــرى المختلفة ، وكانت الخصومات الدموية والتنازع على المراعى والطرقات وعيون المياه مصدرا للصدام لاينقطع ، وكانت كل قرية تسوغ ما تظنه حقوقها ضد

جيرانها بقوة السلاح ، وفي كل صيف كانت تشن غارة تنهب فيها الماشية وتحرق الحبوب ويؤسر بعض الأعداء أو يقتلون ولذا كانت الحياة غير مستقرة ، ولم يكن تجميع الثروة الضخمة ميسورا لأن المحصول الذي يأتي بعد ما يبذل من الجهد في خلال العام كان مهددا في كل وقت ، وكان اتلاف المحصول أو فقدان الماشية يعرض الجماعة للمجاعة وكان لا يمكن المحافظة على سلامة القرية وصيانة حياة أفرادها وحرياتهم الا باليقظة الدائمة .

على أن هذه المنازعات المستمرة والعزلة المزمنة كانا من الأسباب التي مهدت السبيل لتركيز السلطة ومن ثم لظهور الدولة ، وكانت الأسلحة الثمينة التي لا تستخدم الا في الحروب قد أصبحت عاملا حاسما في الانتصارات الحربية ثم في حياة الجماعة نفسها ، وكان السيف الضخم العريض المصنوع من الحديد هو السلاح الرئيسي في ذلك العصر ولكن الحصول عليه لم يكن في مستطاع القرى العادية ، وكان صانع المعادن والحلي تنقصه البراعة في طبع نصل طوله ثلاثة أقدام ثم سقيه ، وكانت نوريكوم هي المركز الصناعي وكان لا مناص من أن تستورد منها أحسن الأسلحة ، وكان لايستطيع استحضار السلاح سوى الرئيس ، أما سائر الناس فكانوا في العادة — على الأقل بين الكلتيين — لا يحملون من السلاح سوى القسي والرماح والخناجر أو البلط التي يمكن استعمالها أيضا في الصيد والصناعة .

وكانت حيازة خيول الحرب امتيازا تستمتع به الأقلية وكانت رمزا على رفعة الشأن ، وكان الفرسان يراعون ذلك في تزيين خيلهم بدقيق الزخارف ، وكان استعمال عربة الحرب في أوربا محصورا أول الأمر بسبب عدم استواء الأرض ، في أغلب أنحائها ، وكانت السرعة والخفة اللازمة للآلة الحربية لا يتوفران الا في العربات الخفيفة وكانت العربات ذوات العجلات الأربع تستعمل من الحين الى الحين في الصيد والحرب ، ولم يكن استعمال العربة ذات العجلتين معروفا عند الكلتيين حتى سنة ٥٠٠ ق.م. وكان أنموذج هذه العربة قد أحكم صنعه في أعالي ايطاليا واقتبس الكلتيون الفكرة من جيرانهم الأليريين وباصطناع العربة حل السلاح القصير الملائم للاشتباك في الحرب محل السيف الطويل ولم يكونوا يلبسون الشكة كثيرا في شمال الألب ، وكان الاليريون يلبسون من الحين الى الحين خوذات من البرنز مستوردة من ايطاليا ، وكانوا يلبسون في البوسنة درعا لوقاية الرجلين ومجنا لوقاية الصدر وكانا يستوردان من بلاد اليونان أو يصنعان على طراز المستورد منها وكان ذلك مقصورا من حسن حظهم على الرؤساء ، وكانت الدروع المصنوعة من البرنز قد أخذت في الذيوع .

ولهذا يمكننا أن نسمي العصر الحديدي القديم بعصر البطولة عند الكلتيين والاليريين لأن الفارس الحسن التسلح كان من أهم مقومات الحياة في المجتمع وكان الجيش القائم لونا من الترف لا تستطيعه الجماعة ، ولم يكن هناك فائض من الثروة — كالطعام مثلا — لاعالة عدد من الاشخاص مشتغلين بأعمال لا تغل شيئا ، وكان كل فرد من أفراد المجتمع جنديا في الواقع ، ولكن سلاحه كان في أغلب الحالات من آلات الصيد والمزارع ، ولذا أصبح وجود الرئيس الذي يستطيع التخصص في الامور الحربية وأن يملك الخيل والسيف ضروريا لحياة الجماعة تزداد قيمته بمضي الأيام

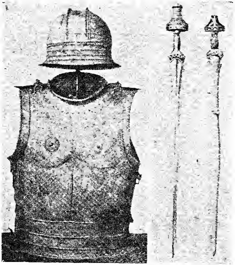


التحصينات الكلتية المنيعة

كانت البساطة والقوة هما أهم مستلزمات الأسوار الحجرية التي كان يقيمها الكلتيون حول قراهم دون أن يستعملوا الملاط — وهذا الأسلوب في البناء لا يزال متبعا الى الآن في تعيين حدود الميادين . والجزء المعرى من السور وقد كشف عنه في سنت أوديل بفرنسا يبين بوضوح طريقة تعشيق الأحجار .

وكان عليه أن يضطلع بعبء الدفاع وأن يتولى القيادة فى الهجوم ، وكانت المعركة تكاد تصبح سلسلة من المبارزات يسبقها التراشق بالسهام من صفوف الجيش ، وازدادت تبعا لذلك سلطة الرئيس ·

على أن تركز السلطان فى يد الرئيس لم يصب الا تقدما طفيفا فى هذا التاريخ ، ولا نجد عند الكلتيين أو الاليريين أو النيوتون أى شىء يدانى الترف والأبهة الشرقية التى تدل على مقدار ما بلغه حكم ملوك الأسكوذيين من الاستبداد ، ولم يكن هناك الا فرق قليل ، أو لم يكن هناك فرق مطلقا بين لباس الرئيس ولباس الرعية من حيث النوع اذا جاز استعمال هذا التعبير ، وكان الرداء العادى جلبابا تلبس فوقه عباءة تضم عند العنق بدبوس من البرنز ، وكانت الأقمشة جميعها تصنع محليا ، وكان الرئيس يظهر ثراءه بالاستكثار من الزخارف والحلى ، على أن هذه الزخارف نفسها كانت تصنع كلها تقريبا من البرنز أو الحديد ،



الدروع والسيوف الهلستاتية فى العهد الهلشتاتى الأخير

لم يكن فى وسع صانع معادن القريه ولا سائر عامه الشعب أن يصنعوا الخوذة الحديدية والدرع اللتين يمكن أن نعزوهما الى نوريكوم حوالى سنة ٥٠٠ قبل الميلاد ومن المحتمل أنهما خاصتان بزعيم من الزعماء الذين كانوا يستوردون الخوذات البرنزية من ايطاليا · والسيفان العريضان الى اليمين كانا كذلك من ممتلكات أحد الأعيان البارزين ·

وكانوا يقتصدون أشد الاقتصاد فى لبس الذهب ، وكانت الصورة العامة للملبس تنم على الهمجيه المفرطة ، فمن بنيقات معدنية أو خيوط من الزجاج وحبات الكهرمان حول العنق الى اثقال السواعد والسيقان بالأساور الضخمة والخلاخل الكبيرة وأقراط وعلائق مختلفة مدلاة من سلاسل فوق النحور . وكانت النساء يفخرن بلبس مناطق من الجلد مغشاة بصفائح من البرنز بارزة دقيقة الصنع ·

لوازم المائدة

وكانت لوازم المائدة كذلك متواضعه فى كل ناحيه ، وكانت أكثر الأوانى من الخشب أو الفخار ، وكان لا يستطيع استعمال الصحاف البرنزيه سوى خاصه الخاصة من سادة هلشتات ، وكان أكثرها يستورد من ايطاليا ، ولكن كانت تصنع أصناف على نمطها لا بأس بها فى شمال الألب ، وكانوا يتبعون فى صنعها طريقة الشمع الذائب فى بعض الأحيان وذلك بدلا من طرقها كما كان الحال فى ايطاليا . أما الأوانى الذهبية فكان يحتفظ بها لخدمة الآلهة فما أبعد الفرق بين هذا وبين ما كان متبعا فى اسكوذيا ·

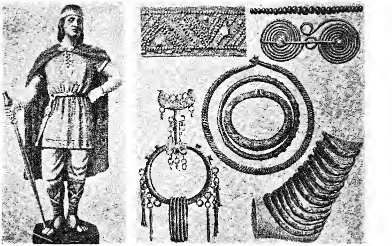
وقد كان توزيع القوة السياسية نتيجة لعزلة الوحدات العديدة من الوجهة الاقتصادية ، وكانت كل قرية تنزع الى الاكتفاء بنفسها ، وبطبيعة الحال كان الطعام ينتج أو يستولى عليه محليا ، وكانوا يتخذون ملابسهم من الصوف والجلود ثم الكتان أو النيل الذى ينمو فى حقول القرية ، وكان الغزل والنسيج واعداد الجلود من الأعمال التى تقوم بها أفراد الأسرة ، ومن المحتمل أن النساء كن يصنعن القدور ، ولو أن بعض القرى كانت تفخر بوجود خزاف مقيم فيها ، وكانت كل الزهريات تعمل بالأيدى لأن دوارة الخزف لم تكن قد تغلغلت الى ما وراء الألب ، وعادت الحياة فى ذلك العصر الى فن زخرفة الأوانى ، ومن المحتمل أن يكون ذلك تحت تأثير جنوب ايطاليا . ولم تصنع فى شمال جبال الألب زهريات عليها رسوم منذ حوالى سنة ٢٥٠٠ ق٠ م٠

وكانت الأدوات المستعملة كلها من النوع البدائى ، فالمحراث كان من الخشب كما كان الحال فى الماضى ، وكانت المقصات

والملافط المعدنية غير معروفة ، وكانت الحبوب تطحن بالفرك وحكها الى الأمام والى الخلف بين حجرين لأن الرحى الدوارة لم تكن قد اخترعت بعد ، وكانت العربات العادية لا تزال تصنع كلها من الخشب على وجه التقريب وعربات الحرب التى كان الرؤساء يركبونها ومركبات الحفلات للأصنام المقدسة وحدها كانت تصنع لهما اطارات وعوارض معدنية .

وكان صانع المعادن هو الصانع الذى لا تستغنى عنه قرية ذات شأن ، فهو الذى يصنع أو يصلح البلطات الحديدية والسكاكين والفؤوس والمناحل وما الى ذلك من الأشياء التى تستخدم فى الأعمال اليومية ، ولكن المعادن فى الواقع كانت تستعمل باقتصاد شديد .

وبالرغم من ذلك فان استعمالها هو الذى قضى على عزلة القرية الاقتصادية المطلقة واضطرها الى استيراد الحديد والبرنز على الأقل ، وبطبيعة الحال كانت التجارة أنشط مما كانت ، فالباعة المتجولون أصبحوا تجارا محترمين ، واعترف بنفعهم اعترافا عاما وانعقد الاجماع على حماية أشخاصهم أو ربما كان سبب ذلك أنهم أصبحوا يتنقلون جماعات قوية مسلحة وذلك بالرغم من الخصومات التى كانت لا تنتهى بين القبائل والقرى ، ولم يكونوا من ثم مضطرين الى طمر سلعهم من الحين الى الحين والوقوف موقف المدافع ، وأصبحت آثار مرورهم لا يستدل عليها بأكداس البضائع المودعة فى جوف الأرض والتى كانت لا تسترد أبدا . وفى نفس الوقت كانت المبادلة بين الجماعات المتجاورة مستمرة . وعلينا أن نتصور أن الأسواق المنظمة والمواسم كانت تعقد فى أماكن مناسبة بكل ناحية وفى أوقات معينة كانت تسمى المشاحنات وتتوجه المزارعون الى السوق المجاورة ومعهم غلتهم وغيرها من السلع للمبادلة بها على الأدوات والحلى . وحتى الخزف كان يتاجر به فى رقعة واسعة وقد وصلت الأوانى المصنوعة فى سيليزيا الى بافاريا .



الملابس الحربيــة وأنمــاط الحــلى فى العصر الهلشتانى

كانت الجلباب والعباءة المصنوعتان من النسيج البلدى الخشن هما لباس جميع الطبقات . وكان الرجال والنساء يلبسون الحلى ، فالرجال يلبسونها لاظهار ثرائهم وكان النساء يلبسنها بطبيعة الحال للزينة والتحلى . وفى صورة الجندى المحددة الموضحة ترى على رأسه طاقية من الصوف ومعه السيف والخنجر . والحلى الموضحة تشمل جزءا من منطقة بها خرزات معدنيــة ودبوس لولبى على شكل عوينات وخرزات من الكهرمان (الى أعلى الصــورة) وأســاور وأطــواق (فى الوسط) ودلايات سلسلية كبيرة محلاة بأشكال طيور وطوق ذو حلق (فى أســفل الصورة الى اليسار) وخلاخــل وأساور (الى اليمــين فى أسفل الصــورة)

وأصبح عدد طرق التجارة كثيرة حتى تكون منها شبكة حقيقية فوق أوربا بأجمعها وتضاعفت مراكز الانتاج والأسواق الخارجية ، ولم يقتصر استخراج الحديد على نوريكوم وانما أصبح يستخرج من اللورين وشرق فرنسا ، وتضاعفت كذلك عدد الأماكن التى كان يستخرج منها الملح وغيره من المعادن ، ومن ناحية أخرى أصبحت هناك مراكز استهلاك جديد للحاجيات التى تصدر من داخل البلاد وكثر الطلب على منتجات القارة .



دلو هلشتاتى من البرنز

من الطراز الايطالى (القرن الثامن قبل الميلاد) وقد عثر عليه فى أحزاء مختلفة من أوربا ، ويحمل هذا الدلو الهلشتاتى فى أعلاه وأسفله رموز الشمس .

وكان أكثر المشترين اقبالا على الشراء فى ايطاليا هم الأترورين ، وقد أوجدوا حضارة غنية مزدهرة تستطيع أن تدفع بسخاء فى سبيل شراء الكهرمان والقصدير والرصاص والحديد ، ولم تعد المدن الصناعية العظيمة فى اليونان مثل كورنثه وأثينا تستطيع أن تدعى الاكتفاء بنفسها ، فوجودها نفسه صار متوقفا على تجارتها مع البلاد الأجنبية وأصبحت سياستها التجارية موجهة الى الشمال بصورة لم تعهد فى بلاد متحضرة قبل ذلك ، وكانت قد أنشئت مستعمرات يونانية عند مدخل البحر الأدرياوى وفى ايطاليا وصقلية وعلى خليج ليون لتكون متنفسا لعدد السكان المتزايد فى المدن اليونانية وقد حذت هذه المستعمرات القائمة على هذه الشواطىء الهمجية حذو تلك المدن فى التجارة والصناعة ، وأصبحت المستعمرات اليونانية مركزا هاما لا لجمع الكهرمان والمعادن فحسب بل لجمع محصولات داخل القارة الأخرى مثل الفراء والخشب والرقيق ولعلها كانت مركزا لجميع المحصولات الزراعية أيضا .

وتبعا لذلك اخذت طرق جديدة للتجارة تربط ما بين داخل أوربا واليونانيين المقيمين على الشواطىء أو بالحرى بالحضارة وذلك علاوة على الطرق التجارية القديمة التى كانت تؤدى الى ايطاليا ورأس البحر الأدرياوى وكانت هناك متاجرة محدودة بين كوركيرا (وهى كورفو الحديثة) والاليريين فى البوسنة وكانت هذه التجارة تسلك طريق شاطىء البحر الأدرياوى تسمو صعدا الى وادى تارنتا الوعر الشاق ، وقد أسس الفوقيون حوالى سنة ٦٠٠ ق.م . مدينة مساليا وهى مرسيليا الحديثة عند أحد طرفى طريق التجارة القديم الذى يؤدى الى اقليم السفن الحافل بالمعادن وشواطىء الأطلسى ، وبطبيعة الحال أصبحت المستعمرة اليونانية الجديدة مركزا لتجارة فرنسا جميعها ، وقد أدى الاحتكاك باليونان وتقوية الروابط التجارية القديمة بايطاليا الى ذيوع الأفكار الجديدة ومنتجات الحضارة فى أوربا ذيوعا أبعد مدى وأكثر شمولا وبخاصة فى فرنسا فهناك أقبل الكلتيون اقبالا شديدا على السلع اليونانية وكانوا يستبدلونها بالحديد وغيره من منتجاتهم القومية ، ولا يقتصر الأمر على هذا بل أنهم أثبتوا أنهم تلامذة بارعون بسرعة اقتباسهم لاختراعات اليونانيين ، فهم أول قوم فى شمال الألب اقتبسوا دوارة الخزاف وما اليها من وسائل الحضارة .

وزادت التجارة بين الشرق والغرب تقدم أوربا الغربية ، ومن المحتمل أن طريق الانصال بينهما كانت تنتهى فيما نظن عند مناطق القصدير فى مقاطعة بريطانيا (الفرنسية) وكورنول ومراكز الذهب فى أرلندة ، وكانت المصنوعات البريطانية أو مصنوعات مقاطعة بريطانيا (الفرنسية) تنقل الى بولونيا شرقا من هذا الطريق ، ولابد أن نذكر أن طريق البحر القديم المحاذى للشواطىء الغربية كان لا يزال حلقة اتصال بين بريطانيا واسكنديناوة من ناحية وعالم البحر المتوسط من ناحية أخرى ، ولو أنه كان طريقا غير مباشر .

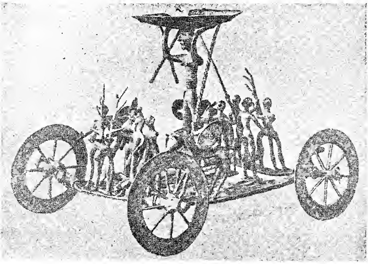
وفى نفس الوقت يلزم أن نضع نصب عيوننا الأخطار والمتاعب التى كانت التجارة تتعرض لها فى هذه الأيام السالفة ، ولم يكن ثمة طرق أنشأها الناس فى ذلك الزمان بل كانت الطرق التجارية فى أول أمرها ممرات ودروبا شقها الناس والحيوان خلال الأخاديد ، ولابد أنها

قد أصبحت آنئذ طرقا ذللها طول الاستعمال ، ومن غير المحتمل أن تكون قد أقيمت جسور عبر مجارى المياه فى تلك الأيام ، ولو أنهم كانوا يصنعون من جذوع الأشجار طرقا يسار عليها فى النواحى الملأى بالمستنقعات وهى نوع من الرصف والتمهيد كان يستعمل فى شوارع القرى القائمة فى الأرض النز حتى فى العصر الحجرى الجديد .

ولابد أن التجار فى هذه الظروف كانوا فى أغلب الأحيان عاجزين عن استعمال العربات وأنهم كانوا مضطرين الى الاعتماد على الحمالين ، ولكن لا شك أن العربات ذوات العجلات أو الزلاجات كانت بالرغم من ذلك تستعمل بكثرة ، وفى أسكنديناوة كانت الزوارق المعدة للملاحة تنقل على زلاجات مسافة ما الى الداخل وتتخذ الملاذ الأخير لرؤساء الملاحين ، وكانت الأنهار قنوات صالحة للتجارة عبر القارة ، وكانت الزوارق المنحوتة تستعمل كثيرا ، وكانت سفن البحر المتوسط بلا ريب تقوم بعبء التجارة البحرية ، ولكن سكان أسكنديناوة ولو أنهم كانوا لا يزالون فى العصر البرنزى — كان عندهم سفن ضخمة تسع الواحدة منها حوالى خمسين ملاحا ، وليس فى ذلك ما يدعوا الى الاستغراب وبخاصة عندما نعرف أن الزورق الحربى المورى كان يستطيع أن يحمل مائة محارب .

ومما يلاحظ أخيرا أنه لم يكن هناك نقود مسكوكة مستعملة فيما وراء جبال الألب ، وما وافى العصر الحديدى التالى حتى كانت هناك عملة من أعواد الحديد منظمة مستعملة فى المناطق الكلتية ، ولكن فى طلائع العصر الذى نكتب عنه عند ما كانوا يستعملون معيارا غير الثور كانوا يتخذون حلقانا من الذهب والنحاس .

وبالرغم من كل هذه العقبات كانت التجارة مستمرة كما رأينا ، وكانت بمثابة عامل ثان من العوامل التى تتجه الى درجة من التوحيد ربما تمخضت عن تكوين الدولة ، وكانت المراكز التى تقام فيها الأسواق وتعقد المواسم فى طريق تحولها الى مدن ، وانتظام التجار ساعد على ايجاد تجانس فى الثقافة وعلى التساند



كيف كان يحمل الصنم فى حفلة قربانية

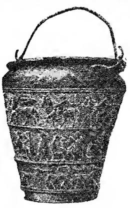
كانت ديانة العصر الحديدى فى أوربا تتضمن عبادة ربة أم . وكان تمثالها على ما يظهر يحمل مرة فى كل عام من الدغل المقدس فى موكب حافل . وعربة ستر تفج Strettweg المشهورة وهى مصنوعة من البرنز فى ايطاليا وعثر عليها فى ستيريا تمثل لنا مثل هذا المشهد . وأركان العربة محلاة برؤوس الخيل وفى وسطها يقوم التمثال يحرسه المحاربون بخوذاتهم ومعهم خيلهم وفى كل طرف وعل للضحية يحف به رهط من الكهنة المتجردين

الاقتصادى الذى كان يمكن أن يجد له صدى فى مجال السياسة .

وكان العامل الثالث المتجه فى نفس الطريق هو الدين فأعضاء القبيلة الواحدة كانوا بلا ريب مرتبطين بعضهم ببعض فى ظل عقيدة مشتركة . وهم فى الحقيقة لم يكونوا يعلمون كيف يبنون معابد ومزارات متينة البناء باقية على الحدثان وانما كانت عيون المياه والادغال مراكز العبادة وكانوا من وقت لآخر ينحتون من الخشب أصناما تمثل الآلهة . وقد عثر فى سيريا على وعاء من صنع الأتروريين ــ وهو عجلة ستترتوج Strettweg وهو يريـنا منظرا من مناظـر العقيدة الدينية يمثل هـــذه الأشكال،وكان التمثال المقدس الذى يمثل صورة الربة الأم فى حجم يفوق حجم الانسان يحرسه من جانبيه حارسان مدججان بالسلاح . وخدم من (الطواشى) يقودون الضحية وهى وعل يتأهب كاهن عار لذبحه ببلطة . ومن المحتمل أن التمثال كان محفـــوظا فى دغل من الأدغال المقدسة وكان يسحب منه مـرة فى كل عام ويحمل ويطاف به حول البلاد فى عربة .

وعلاوة على هذه الأصنام التى يتجسد فيها الاله كانت رموز العقيدة القديمة مثل القرص والعجلة والزورق والحصان والبجعة التى تمثل الشمس والقرون المقدسة ... الخ .. لا تزال تقدس .

وقد خلفت عقيدة الموتى آثارا كثيرة ، وكان الراحلون ــ كما هو الحال فى جميع الازمنة ــ يخشى بأسهم ويجل ذكرهم ، وتتخذ احتياطات دقيقة لدفع أذاهم وتوفير الراحة لهم فيما وراء القبر ، وقد أخذت المذاهب القديمة التى تقول بحياة مستقبلة تحت الأرض تؤكـــد وجـــودها وتدافـع الاعتقاد بمـنزل فى الســماء الذى تعبر عنه عقيـدة حـرق المـــوتى وكان البريطـانيون والتيـــوتون من أهل الشـــمال لا يزالون يأخذون بعادة احراق أجسام الموتى لكى تعرج الروح الى السماء على متن الدخان ، وفى غير ذلك من الجهات كانت هنـــاك نزعة تسمـو بالتدريج ــ وان كانت عامة شاملة ــ الى العودة الى عادة الدفن القديمة ومن العجيب أن عـكس ذلك





مشاهد لحفلات الأعياد والحياة الدينيـة مرسومة على جردل برنزى

كان ثمة تقدم باهر فى الفن فى أواخر العصر الهلشتاتى . وكان هذا التقدم فيما يلوح بين القبائل الكلتيه أو القبائل الالبرية التى احتكت بالتجار الأيونيوين وثقافات ايطاليا الأسمى من ذلك شأنا . وهذا الجردل البرنزى ، الذى عثر عليه فى واتشن فى كرينولا ، يبين الفن الذى كان منتشرا فى شمال الألب . والحلقــة الأولى من الحلقات الثلاث حول الجردل تمثل حفلا دينيا والحلقة الثانية تمثل الاحتفال بوليمة (الى اليسار) ومباراة فى الملاكمة والحلقة السفلى تمثل صفـا من الحيوانات للزخرفة

كان يحدث عند الالبرين فى البوسنة وترافيا ، فالمقابر القديمة تحوى عظاما غير محروقة والمقابر المتأخرة عن ذلك تحوى بقايا الجثث المحروقة . ولـكن القبور فى كل مكان على وجه التقريب كان يعلوها ربوة فى ذلك الوقت .

وكان مأتم الزعيم من الزعماء حدثا عظيما ، اذ يقبل الوجوه والأعيان من الجهات المجاورة ليقدموا له التوقير والاجلال ، وكانت الجثة تحمل الى جانب القبر أو الى كومة الحطب على مركبة يجرها جواد يتبعها المعزون باكين وكان الميت يدفن أو يحرق وهو فى كامل سـلاحه بل أن عجلته الحربية أو مركبته كانت فى بعض الأحيـان توضع فى القبر معه وتنحر جياده لـكى تصحبـه أرواحهـا ، وفى أسكنديناوه كان الرئيس فى بعض الأوقات يـدفن فى سفينته ، ولـكننا لا نرى فى أوربا أثرا لمذبحه من مذابـح العبيد والحظيات كالمذابح التى كانت على الدوام

جنازة زعيم كبير

تصحب مآتـم النبـلاء عنـد الأسـكوذيين ومن الجـائز أن الزوجة كانتفى بعض الأوقات تتبع سيدها الى القبر وكانت توضع فى القبر قدور الطعام ويغطى القبر بعد ذلك برابية ضخمة .

وكان المأتم مناسبة لعمل وليمة عظيمة ، اذ كان يسمح لهم فرصة المباريات التى يولع بها الهمج . فكانت تعقد حلقات للملاكمة ويتنافس المسابقون تكريما للميت وكان ورثته يجنون الشهرة له ولأنفسهم بنفاسة الجوائز التى تقدم للفـائز ، وكانت قطع السـلاح مثل الخـوذة أو الأوانى البرنزية على ما يبدو تعتبر تذكارات لائقة فى مثل هذه المناسبة .

وكانت أمثال هـذه الحفلات والألعـاب جد شائعة بين الهمج القدماء فى أوربا كما كانت معروفة عنـد القوم الأحدث عهدا الذين كانوا فى نفس المسـتوى الثقـافى ولـكن استمرار حالة الحـرب كانت بطبيعة الحـال لا تجعل هذه الحفلات ممكنة الا عندما تصطبغ بالصبغة الدينية لأن الدين كان يفرض فى هـــذه الحالة هدنة مؤقتة يسر نقضها غضب الأرواح أو الآلهـــة ، وكان لهذه الاجتماعات كذلك معـنى سـياسى . فقـد كان المضيف يسـتطيع بكرمـه وسخائه أن يزيد مكانته ويمد سلطانه الىماوراء دائرة أتباعه المبـاشرين حـتى اذا ما حان الوقت للعمـل فى المفـاصلة القبلية كانت قدمه قد وضعت على السلم الذى يؤدى الىالملك .

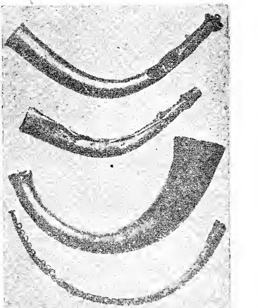




بعض نمـاذج من أبدع ما أنتجه الفن الهلسناتى المتأخر

هذا الجردل من القرن السادس ـ أى أنه متأخر فى الزمن قليلا عن جردل واتش . وجد فى كوفارن فى النمسا السفلى وهو يوضـح نفس المشاهد ولكن بطريقة فنية أرقى ـ لاحظ وثبة جياد السباق وما فيها من رشاقة ، ثم الدقة فى رسم الملاكمين ، ولا شك فى أن التلاكم بالـكرات الحديدية الصماء (التى على هيئـة البنية) للحصول على جائزة عبارة عن خوذة كان من أهم خصائص الألعاب الدينية . ولم يعمد الفنان الى ملء الفراغ بالحيوانات والطير كمـا فى منظر الملاكمـة السـابق

وكان الفن في العصر الحديدي الأول فقيرا وهمجيا مثل أي شيء آخر ، وكانت دوافعه الطبيعية قليلا ما تستعمل ، وعندما كانوا يحاولون رسم الانسان أو الحيوان كان الأداء يجيء فجا والنتائج جامدة فاقدة الحياة . وليس في أعمال الصناع الاسكوذيين ما ينم على شعور بالطبيعة ، ولم تكن الرسوم الهندسية البارزة على الصفائح المعدنية أو المحفورة على الأواني الخزفية حسنة الذوق أو مؤثرة كالرسوم التي أنتجتها عصور أعرق في القدم ، وقد كانت المصنوعات البرنزية في المجر وسكنديناوة في القرن الخامس عشر قبل الميلاد مثلا أسلم ذوقا وأدق صنعا ، ولكن استعمال الألوان العديدة أفسح المجال للخزاف ووفق في ابداع رسومه روحا فنية لطيفة .



أبواق من العصر البرنزي المتأخر

في العصر البرنزي والعصر الحجري كانوا يثيرون حمية المحاربين بدوي الأبواق البرنزية . وقد بقيت عدة أنواع مختلفة منها . والموضح في أسفل الصورة (من الدانمارك) هو والاثنان اللذان فوقه ، ينتهيان بفوهة للنفخ ، وما بها من سلاسل العقد مصنوع للعلائق ، على أن البوق الذي في أعلى الصورة له فوهة جانبية .

وكانت الحلي التي يتخذها الأشخاص في هذا العصر جد ثقيلة بوجه عام وتنقصها الرشاقة التي عهدناها في آيات العصر البرنزي الخالص .

ومن المحتمل أن الموسيقا كانت أميل الى اثارة الرعب منها الى تسكين الجأش ، وكانوا يستعملون أنواعا مختلفة من المزامير البرنزية كانت تهيج جنونهم في الحفلات الهمجية الصاخبة التي كانت تقام في أدغال البلوط حيث يخيم الظلام والوحشة ، ولتوقع الرعب في قلوب الأعداء ، وكان الكلتيون يتقدمون الى المعركة على دوي الأبواق ، ولما غزوا ايطاليا فيما بعد أربك الطنين المخيف المفزع الجنود الرومانيين ، وكان عمل النفير البرنزي والأبواق شاهدا على براعة مدهشة في صب المعادن وصنعها ولكنه لا يدل بحال على براعة خاصة في ذوق الذين يستخدمونها .

ومن ثم شاهد العصر الحديدي الأول تخلفا في بعض نواحي الثقافة ، ومرد ذلك الى أن هذا العصر كان عصر انتقال وتهيئة الأسباب للاستقرار ، ولأول مرة أخذ تأثير ضغط السكان يظهر ظهورا بينا ، ولم يكن معنى ذلك أنهم لم يكونوا قد استغلوا كل ما يمكن أن تجود به التربة أحسن استغلال ، وكان لا يزال في العهد البرنزي الكثير من الأراضي الخالية الصالحة للاستعمار ، وقد كان ذلك من الأسباب التي أغرتهم أو قل حملتهم على حياة فيها شيء من السرف ، ولكن في العصر الذي نحن بصدده أخذت الغابات هي والجليد يطغيان ، فضيقا من رقعة الأراضي الصالحة للاستعمار ، وفي أثناء العصر الحديدي الأول كانت هناك محاولة لتطبيق وسائل الزراعة القديمة الفضفاضة على الأحوال الجديدة التي ازدادت سوءا .

على أنهم كانوا يسيرون بخطى بطيئة نحو تسوية أفضل ، وقد قدر أن يقوم الكلتيون بأعظم الخطوات في ذلك ، وكانت الحروب المستديمة مؤدية الى فناء احدى القرى في القرية الأخرى وظهور رؤساء مسيطرين ، وكانت التجارة خليقة بالقضاء على روح العزلة في القبائل بالمعاونة على تركيز السكان والصناعة في المواقع الملائمة ، وكان الدين أيضا خليقا بأن يوحد بين القبائل ، وهكذا عندما أقبل العصر الحديدي الثاني كانت القبائل الكلتية في

طريقها الى اقامة دويلات صغيرة لهـا حكومات منظمـة ونواة من الحيـاة المتحضرة ، وفى مقدورها أن تتحد فى تحالف أوسع نطـاقا ، ولـكن لم ينجم من ذلك قط حكومة قوميـة ، وأصبحت مواطن الكلتيين ولاية رومانية ٠

وبالرغم من ذلك كان الكلتيون فى القرن الخامس قد ترقوا بحيث استطاعوا أن ينتشروا غزاة فوق أوربا الوسطى جميعها ، وحقيقة أنهم ظلوا همجا ، فقد كان انقضاضهم على ايطاليا هادما مخربا ، ولكنهم حملوا ثقافة أسمى الى وسط أوربا ، وقد مكنهم احتكاكهم باليونان وأهل ايطاليا من اقتباس فنون كثيرة جديدة ، وقد حملوا معهم الى وسط أوربا اسـتعمال دوارة الخزاف والملاقط والمقصات المصنوعة من الحديد واختراعات أخرى كثـيرة أصبحت اليوم جد مألوفة ولكنها كانت ابتداءات مدهشة فى شمال الألب قبـل سنة ٤٠٠ قبل الميلاد ، وتمثـل الحضارة التى نشرها الكلتيون فى القرن الخامس والقـرون التالية أسـمى ما قامت بـه أوربا الهمجية ٠

وقد أطلنا الحديث بما فيه الكفاية عن الهمجية التى كانت غالبة على داخـل أوربا فى الوقت الذى كانت فيـه الحيـاة الحضرية والـكتابة والقـوانين المسـنونة وما الى ذلك من علامات الحضارة قد ازدهرت بالفعل فى بلاد اليونان وايطاليا ، والواقع أن هؤلاء الهمج لا يستحقون منا الرثاء عنـدما نراهم قد خضعوا لسلطان روما الشديد الوطأة بعد وقائع مجيدة ، وقد كان الشـقاق المستحكم بينهم السبب الأول لهذا المصير ، وهو لم يكن سـوى عارض من عوارض الثقافة المنحطة ، على أن هذا الانحطاط لم يكن بالضرورة فى الـكفاية وأنما كان فى القدرة على الاداء والانجاز ٠

ولكن اذا كنا لا نستطيع أن نسمو بالكلتيين القدماء والتيوتون الى مرتبة رواد الثقافة وقادة حركة التقدم فليس عندنا ما يدعو الى أن نخجل من أسلافنا الهمج ، فهم وان كانوا همجا ـ الا أنهم كانوا يمتازون امتيـازا عظيما من معظم الشعوب الهمجية ، فقد كانوا سريعى الاقتباس للاختراعات التى تنقل اليهم من الأقوام الذين سـاعدتهم ظروفهم الجغرافية والجوية على أن يسبقوهم فى مضمار الحضارة بآلاف السنين ،

وقد استغرق التقدم من العصر الحجرى الى مرحلة اتقان صناعتى الحديد والبرنز ألفى سنة ، وفى أرض الجزيرة ومصر طويت هذه المرحلة فى مدة تبلغ ضعف هذا الزمن ٠

ولم يكن هؤلاء الهمج الأوربيون أيضا بمجرد مقلدين خاضعـين لغـيرهم فيما يقـلدون كل الخضوع ، وها قد رأينا بالفعل أنهم فى العصر البرنزى قد زادوا تراث العالم الثقافى زيادة لها شأنها ، وعلاوة على ذلك فمن الانصاف عندما نزن قدراتهم أن نلقى بالنـا الى تلك القبائل القارية التى فاضت جموعها على مواطن الثقافة الأقدم عهدا ، وقد كان من شأن هذه الموجات من الغزو أنها تحدث بالفعل صدوعا وقتية فى بنـاء الحضـارة ولكن النتيجة النهائية لهذه الغزوات لم تكن فى أية حالة من الحالات غير ذات أثر ٠

وقد اسـتوعب الغزاة ثقافة الامم المغلوبة بسرعة مدهشة ، دون أن يكون لها الغلبة التامة عليهم ، ولم يكن مجرد مصـادفة أن يشـهد عصر غزو الهمج الأوروبين لآسـيا الصغرى بين سنة ١٤٠٠ وسنة ١٠٠٠ قبل الميلاد نهضة فجائية فى صنع المعادن وفنونها ، ولقد كانت الحضـارة الهيـلانية فى اليونان القديمة فى الحقيقـة أثرى وأعمق من الحضـارة المينيوية الميسينية التى قضت عليها القبائل الهيلانية الغازية ، ولقد كان تدفق السـلالات الأوربية فى هذه الأحوال فيضا منعشا بالرغم من قوته الهادمة ، ومن ناحية أخرى نرى أنه من الصعب أن نزعم أن غارات المغل على الصين ثم على أوربا نفسـها بعد ذلك كان لهـا مثل هـذا التأثير النافع ٠

وقد كان مصـدر ضعف الهمج ـ كما رأى اليونانيون ـ هو انصداع وحدتهم الذى لازمهم وأعجزهم عن القيـام بعمل مشترك ، ومع ذلك

نواحى الضعف والقوة عند الهمج

فان هذه الحالة كان لها مزايا خاصـة ترجع بها الوحدة التى كانت تفرض فرضـا والتى نمت فى ظلالها حضارة مصر والعراق والتى ألفينا بها فى أوربا ذاتها بين الأسكوذيين ٠ واذا كانت الغزلة قد جعلت مستوى الحياة خفيضا فانها كذلك حمتها من

الركود ، والجهات التى كانت موفورة الثروة المادية وعمالها خاضعين مستذلين لم يكن بها ما يحفز على أبتكار وسائل آلية لحماية العمل والاقتصاد فى المادة ، واذا نظرنا من هذه الناحية وجدنا أن صناعة المعادن الأوربية كانت تفوق عند الموازنة صناعتها فى أى بلد من البلاد الشرقية منذ سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد الى ما بعد ٠

واوربا ــ على عكس ذلك ــ قد تخلصت بوجه عام من الخطر المقابل لهذا الذى كان يهدد الجماعات الهمجية ، خطر شدة المحافظة والنفور من التجديد بضاعفها المخاوف الوهمية وهى من أكبر موانع الابتكار فى الكثير من الجماعات البدائية ، والظروف الجغرافية هى التى تفسر لنا تفوق الهمج الأوربيين كما أوضحنا فى مستهل هذا الفصل ، وتفسره من بعض نواحيه الأخرى كذلك مزايا اللسان الآرى وهى اللهجة التى كان يستعملها الجميع وذلك أن الكلام هو الأداة الجوهرية للتعبيرعنالأفكار المجردة ، ومهما يكن من الأمر فانه كان من حسن الطالع أن معظم الشعوب الهمجية التى كانت تعيش فيما وراء سواحل البحر المتوسط كشفت عن أمثال هذه الصفات ٠

الفصل الحادي والثلاثون

حياة نينوى وبابل في عهدهما الامبراطوري

وهو يشتمل شرحا موجزا لما يدين به العالم لحضارة بلاد ما بين النهرين في العلوم والفنون ·

بقلم . ر . كامبل طومسن R. Campbell Thompson

الزميل في كلية مرتن ـ اكسفورد ؛ومؤلف « السحر السامي » الخ · · ·

بعد انقضاء حكم الكاسيين Kassites في بابل سنة ١١٦٩ ق · م دق فيها نبض الحياة مرة أخرى ولكنها مع ذلك لم تقو على مجاراة مملكة أشور المتحفزة في الشمال · وقد كان الأشوريون من جنس البابليين نفسه الا أن بعض صلات أولئك بأقوام الشمال جعلت عقليتهم أسمى قليلا ، وجعلت لغتهم أقل غلظة وطباعهم أشد قسوة ، ولذلك فانا نكون أقرب الى الصواب اذا قلنا ان تطورهما حدث في وقت واحد ولم يسبق أحدهما الآخر ·

أما الطابع المميز لهم فيمكن تلخيصه في كلمة واحدة وهي الكفاية · فقد كانوا جادين في جميع ما زاولوا من شئون ، وما عملوا من عمل الا بذلوا فيه غاية جهدهم وعنوا حتى بتفاصيله المضنية . وكانت قدرتهم ، تلك القدرة التي بلغت فيهم حد العبقرية ، على تحمل الصعاب ، هي التي أدت الى نجاحهم في بناء الامبراطورية·ولكن تأسيس الامبراطورية استنزف في النهاية قواهم بتشتيت رجالهم في خارج وطنهم مما سبب زوال دولتهم في عنفوانها دون أن يخلفوا أية بقية من مجدهم الغابر ·

وقد كانت مملكة اشور الشمالية مدينة بالكثير من أسباب حضارتها لامبراطورية بابل الجنوبية حتى ليتعذر على الذي يوازن بينهما أن يرسم فوارق ظاهرة بين العادات في البلدين · وقد اندمج معظم تراث الآداب البابلية (التي تلقوا الكثير منها عن السومريين Sumerians) في المكتبات الأشورية حتى لكأنه تراثهم من قديم ، وقد ترتب على هذا أن جميع نظراتهم الدينية في نينوى وكلخ وآشور (Nineveh, Calah, Ashur) غلب عليها طابع الطقوس والأناشيد والملاحم البابلية ·

وكان الأشوريون يعتمدون على البابليين ويأخذون بآرائهم في خلق العالم اللهم الا أنهم استبدلوا اله وطنهم أشور باله بابل ماردوك Marduk وردوا معظم الأمر اليه ، كما أسسوا علومهم على القواعد التي كشفها من قبلهم البابليون ، وهكذا كانت الحال في جميع شئونهم العلمية التي يمكننا أن نقول انها قد ارتبطت بعرى لا انفصام لها بأسلافها البابلية فلا غرابة ولا تعسف حينئذ اذا ما بدأنا بشرح الأصول البابلية تقدمة للكلام على اشور ·

وقد بلغت أشور في خلال النصف الأول من القرن السابع قبل الميلاد أوج عظمتها فتسلقت جيوشها الجبال المتاخمة لها شرقا وعبرت حدود بلاد الفرس منحدرة الى ميديا وعادت منها ظافرة بالغنائم من اللازورد وغيره من الاحجار الكريمة · ثم اندفعت غربا نحو قليقية Cilicia وفونيقية وهناك لبسوا الثياب الأرجوانية التي ابتاعوها من تجار صور وامتطوا متن البحر الى قبرص ومن ثم بلغوا منتهى فتوحهم عندما وصلوا الى أبي الهول Sphynx (مصر) ·

بيد أن هذه الدولة الجبارة كانت تدب فيها عوامل الانحلال حتى في عصر عظمتها الى أن تداعت وانقضت قبيل سنة ٦١٢ فأصبحت أثرا بعد عين اذ تحالفت عليها بابل وميديا فأجلوا بقيتها الباقية عن نينوى فتراجعت وراء دجلة الى حران Harran ثم خلفتها بابل في امبراطوريتها نحو ثلاثة أرباع القرن الواحد كانت في أثنائها قوة غالبة مرهوبة الجانب · ثم لعبت بابل دورها الامبراطوري فترة من الزمن في عهد مليكها

نبوبولصر وبختنصر . ولكن فترة الانتعاش هذه لم تطل كثيرا بسبب مؤامرات رجال الدين واجلاسهم على العرش أشخاصا عديمي القيمة في سبيل تحقيق مآربهم الشخصية . وقد ختموا هذه الحماقات باجلاس نابو ـ نايد (نابونيدس) ذلك الملك المتهاون المنهمك في البحث عن الآثار ، وقد خرت بابل صرعى أمام سلطان الفرس الغلاب سنة ٥٣٩ ق٠ م٠ وفقدت استقلالها ؛ ومع ذلك فقد ظلت بها بعض الأسر المتمسكة بأهداب حضارتها وتقاليدها الدارسة تمسكا يتجلى فيه روح المحافظة الشديدة المأثورة عن البابليين ، ويفصح بأجلى بيان عن حضارتهم العظيمة التي لم تنشأ طفرة .

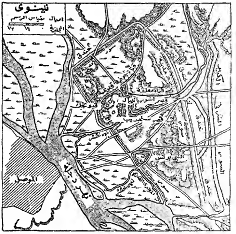
بابل تخلف نينوى

وقبيل نهاية القرن الثامن أصبحت نينوى وهي مدينة الملوك العظام ـ والمعقل الحصين للقوة التي لا تقهر ـ عاصمة لامبراطورية أشور ، وآل اليها تراث أسلافها من العواصم العديدة الغابرة ، فعلى مسيرة يومين للراكب منها جنوبا كانت مدينة أشور مقرا للحكومة حقبة طويلة من الزمن ثم تلتها كلخ Calah على مسيرة يوم واحد ، ثم نحت هذه بدورها خضوعا لضغط الشعب المتجه شمالا ضغطا لم يكن في الامكان وقفه ، وكانت تقوم في داخل دائرة العشرة الأميال المكونة لسور مدينة نينوى الربوتان العاليتان يعلوهما القصر بفخامته والمعبد بجلاله ، وهنا كان يجلس العاهل العظيم فوق السطح ليطالع جميع أنحاء المدينة وشوارعها المكتظة .

وكانت ترى عن كثب وراء تخوم نينوى الشمالية والشرقية آفاق سلاسل الجبال العالية وقد جللها الجليد شتاء حتى في نينوى نفسها وقد كانت درجة الحرارة فيها أدنى منها في بابل بعشر درجات ولذلك أصبحت عرضة لأن يشتملها دثار جليدي اذا اشتد البرد في بعض السنين بالرغم مما تقاسيه من حر المناطق المدارية صيفا ، أما من جهة الغرب فقد انبطحت فيها سهول حقول الحنطة مغمورة بالبسط السندسية تسابق أمواجها الرخية أمواج السماء اللانهائية الى أن تصل الى الضفة القصوى لدجلة وهو النهر المطيف بغربي المدينة حاسرا قليل الغور في وقت الجفاف غامرا جياشا بمائه الطاسي في زمن الفيضان . أما في الربيع فكانت المدينة جزيرة قائمة وسط بحر من حقول الحنطة الزبرجدية المترامية في جميع الأرجاء التي لاتحدها الأبصار تزينها هنا وهناك أزهار الخشخاش وشقائق النعمان بحمرتها القانية ، وأزاهير الخردل البري الذهبية النضرة وتطيب أنفاس الهواء بعبق البرسيم الفياح .

المنظر الذي كانت نينوى تشرف عليه

وقد شيدت أفخم مباني المدينة على الربوة الشمالية ، فقام قصر سنحريب شامخا في الركن الشمالي منها في قصر أشور بانيبال الى جانب معبد نابو Nabu كما قام في الركن الجنوبي على مقربة من مباني معبد عشتروت Ishtar القديم ، وعلى الجانب الشرقي من الربوة على السفح المنحدر الى نهر خسر وعلى مسافة لا تكاد تزيد على مئتى ياردة شيد معبد ملكي باسم سنحريب ، ويبعد هذا الكثيب الذي يطلقون عليه الآن قوينجك Kouyunjik عن الكثيب



خريطة تقريبية لمدينة بابل

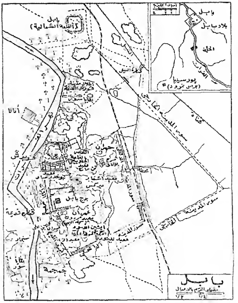
كانت مدينة نينوى تقوم على الشاطىء الأيسر لنهر دجلة تجاه المكان الذي تقوم عليه الآن مدينة الموصل . وكانت تحيط بها أسوار طولها ثمانية أميال وتتوسطها الكثيبان التي يسمونها الآن قوينجك والنبي يونس Kouyunjik, Nebi-Yunus على مقربة من السور الغربي وهنالك شيدت القصور الملكية الفخمة .

الأصغر المسمى الآن نبي يونس Nebi-Yunus بمسافة ميل ، وفي هذه الأخيرة كان يقوم قصر عزرهدون Esarhaddon .

وقد كان ملوك أشــور من حماة الفنون الجميلة . واسعى الذهن ، الذين يجمعون نتائج جهود الفنانين ويدخرونها ويكملــون ما نقص في بعض نــواحي محاسن الطبيعــة بما توفر منهــا في نواح أخرى . فمثلا أراد ســنحريب الذي كان يعيش في القرن السابع أن يتخذ من قصره آية للفن والبهجة ، وأن يجعل منه متعة للناظرين ، وسجل عمله هــذا على ألواح من الصلصال ، ليتيح للخلف الاطلاع على ما فعله السلف . وقد كان له ما أراد . فان القصر القديم القائم على النصف الجنوبي من الربوة لم يكن في نظره شيئا مذكورا ، ولذلك كانت رغبتــه في الانشـــاء والتعمير شديدة ملحة .

وكان واجبا عليــه قبل كل شيء أن يعيد توطيد الأسس التي دهمتها مياه نهر جارف ، وأن يحشد رؤساء العمال المسخرين ، وأن يجلب جحافل الأسرى من الـكلدان والآراميــين والفلسطينيين ليحملوا الطين على ظهــورهم المتصببة عرقا وينقلوه الى حيث نصب القوالب اللازمة للمشروع . ثم هــدموا القصر القديم ، وحولوا مجرى النهر الجارف وردموا مجراه الأصلي ، ورفعوا مستوى الأرض كثيرا عن مستواها القديم ، ثم جنــد مهــرة الصنـــاع ليصقـــلوا أخشاب الاســمندان والبقس والتــوت والأرز والسرو والصنــوبر والفســتق ويقطعـــوها ، وليخرطوا العاج وينحتوا الرخام من محاجره القريبة ، فرادوا في النقوش على الجدران وأقاموا السباع الحجرية المطوقة بالنحاس على الأبواب الـكبيرة الى غير ذلك من النفــائس اللائقـــة بالملوك . ثم غرســوا حديقــة فيحاء فجعــلوا المنطقة شبيهة بجبال أمانوس The Amannus Mountains (المشرفة على اسكندرية Alexandretta) التي كان يرد منها خشب الأرز) .

وكان عليــه أن يوفر ميـــاه الري المنتظمــة للوادي ، فضاعف امداد نهر خسر Khosr من نهيرات نائية عنه في التلال ، كما ضبط تصريف مياهه ثم حفر بركة كبيرة يغذيها النهر وغرس

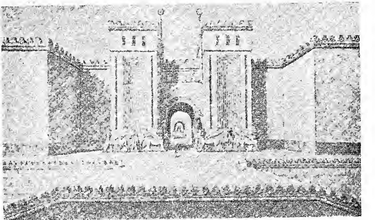


أطلال خريطة مدينة بابل

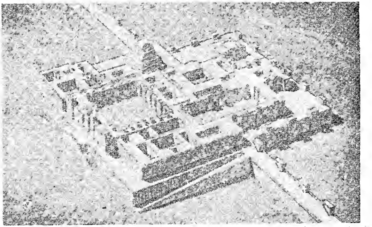
كانت بابل واقعة على الضفة اليسرى لنهــر الفــرات ، محوطة بســور ضخم مزدوج طول محيطه أحــد عشر ميلا ونصف ميل وكتب القصر القائم في وسط هــذه المساحة يمثل موضع القصر الحصين ، وكان يقــوم في جنوبيــه برج المعبــد (ا ــ تمين ــ آن ــ كي) E-Temen An-Ki وهو برج بابل الحقيقي .

فيما نبات الغاب الذي آوت اليه قطعان الخنازير البرية وأسراب اللقالق ، وأخــيرا زرع نبات القطن العجيب الذي كانوا يســمونه شــجر الصوف ، والذي كان يجز كما تجز أصواف الأغنام ويعد لصنـــاعة الأقمشة ، وأخيرا لم يفتــه أن السور العظيم لا بد أن تناله يد الاصلاح وأن تنشـــأ فيه أو يجدد خمسة عشر بابا عظيما ، وجملة القول أنه وضع نصب عينيه ألا ينقص مدينة نينوى مرفق حيوي ولا كمالي ، وأن يسجل المالون هذه الأعمال العظيمة ، حتى اذا دالت دولة نينوى تبقى هذه الآثار من بعدها ناطقة بمهارة مهندسي أشور العظيمة .

كما أن محاجر الرخام التي كانت المعين الذي لا ينضب لملوك أشــور أصــبحت قبلة البابليين لاستنباط المادة التي يزخرفون بها قصورهم وهي المادة التي لم تتوفر في بلادهم .



من هذا النموذج التخيلي المستنبط من الآثار وهو من عمل فيلبكس توماس Felix Thomas يمكننا أن نتصور شكل وأهمية تماثيل السباع أو الثيران الضخمة ذوات الأجنحة والرءوس البشرية . بدعائمها الشبيهة بما تصفه الأساطير وجميعها متناسقة ومتناسبة الأجزاء ، وقد كانت تقام عادة فى مداخل الأبواب الكبيرة ، وتلك المرسومة بجوار الباب الرئيسى من الواجهة الجنوبية الشرقية الرائعة فى قصر سارجون الثانى فى خورسباد (دور شاروكين Dûr-Sharrukin) هى تماثيل لثيران ذوات أجنحة ، وقد كانت تعاويذ آلهية أريد بهـا دفع الأرواح الشريرة .



وقد أعطانا فيلبكس توماس بأنشائه الرسم المخيلى المستنبط لقصر سارجون الثانى فكرة عظيمة عن هندسة ذلك القصر واتساعه ، وتمتاز الخطة العامة بالمتانة والبهاء ، وقد تضافرت العمد الملتصقة بالجـدران والأفاريز فى أعالى المبانى والدعامات على اظهار تناسق فكرة هذا الملك الفاتح بتصوير العظمة الملكية المناسبة للقصر لحصين فى فترة فتوح خارجية عظيمة ، ويمكن تمييز عظمة فن العمارة الآشورية فى حكم سارجون الثانى وتمييز البـاب الخارجى العظيم المبين فى الرسم العلوى بجناحى السلم ودرجاته الظاهرة فى الجانب الأيسر من الرسم السفلى .

ومع هــذا كله فقد أعقبــه سقوط نينوى سنة ٦١٢ ق ٠ م حينما انتهى وجود الأشوريين السياسى ، وأخــذت بابل تدرك قمة مجدها وبذل عاهلهــا بختنصر Nebuchadrezzar أقصى جهده ليحقق قول الأشوريين القديم « بابل ثمرة من جنات دلمن Dilmun بزت حلاوتها كل ثمر آخر » ٠

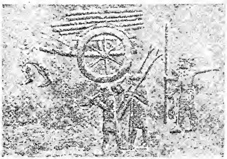
الا أن هذه المدينة العظيمة لم يكن لديهــا من آثار النحت والحفــر ما استطاعت أن تفاخر به مثل ما فاخر به ملوك أشور ، وليس ثابتا لدينــا هل كانت محاجر نينــوى قد تعطلت أو كان نقل أحجارها الى بابل على متن دجلة السريع متعذرا ، وســواء أكان هذا أم ذاك فان أعمال الحفــر جميعها لم تثبت نجــاح أهل الجنــوب الا فى نقلهم الحجر الجيرى وقطع الرخام الزاوى من الفــرات الأعلى ٠

وهنا ــ ونحن فى صــدد الفن ــ يلاحظ الفرق العظيم الملمــوس بين مــدينتى بابل ونينوى ، فان فنــانى نينوى حذقوا نحت الألواح الرخامية الكبيرة التى خلدت مجدهم على جدران القصر ٠

أما البــابليون وقد عافهم دون رقيبــة فنهم عدم وجود الأحجار الضرورية لذلك ، فكل ما استطاعوا أن يعملوه بدافع الغيرة فقط هو منشئات حاكوا بها منشئات نينوى ، ولكنهم صنعوها من قوالب الصلصال ، وكسوا الجدران الضخمة التى بنوها من الآجر بصور بارزة للثيران أو السباع الطائرة ، وجميعها خالية من الزخارف ومجصصــة بمــادة شــبيهة بالزجاج طليت بها الواجهات الثقيلة ٠

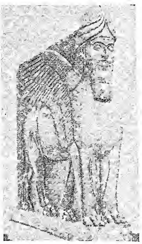
وقد لجأ ملك بابل بسبب قلة مــوارده من الأحجــار الى جعل عاصمته المحبــوبة غاية فى البســاطة ، وكانت رغم ذلك بدعة من الآجر الأصفر ، والزعفرانى والعنبرى يتحدى بها أولئك الأوفر منه حظا لوجود أنواع الأحجار المختلفة لديهم ، وأعظم بها من آية لم تستنكف أن تبرز عارية عن الحــلى والزخارف غنيــة بآجرها المتــواضع البديع ٠ وظلت رغبتــه هــذه صــامدة للزمان حتى أننا لنشهد الآن أطلالهم تمثل العظمة والبطولة ولم يضرها أنهــا مبنيــة من الصلصال الحقير ٠

وقــد ربضت بابل كمـــا ربضت نينوى يحميهــا نهر عظيم من جهة الغرب (وتمنعها الأسوار العظيمة من الجهــات الأخرى (واعتصمت فى منطقة يزيد طولها على أحد عشر ميلا) وكان يقع فى الجهة الشمالية منها ذلك الكثيب المسمى الآن بابل Babil حيث كان يقوم أحد القصور الذى يلوح لنا أنه قصر بختنصر Nebuchadrezzar وشيدت فى وسطها طائفــة من المبانى الفــاخرة والمعابد وقصر العاهل العظيم ٠ وأهم من هـــذا بابا عشــتروت العظيمان اللذان بقيا ليومنــا هــذا بارتفــاع يبلغ حــوالى أربعين قدما تزينهما رســوم



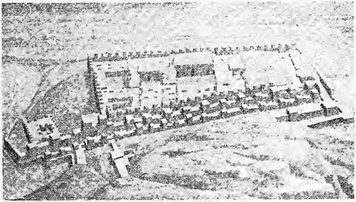
العمال فى خدمة سنحريب

بعد أن رجع سنحريب من غزوه لمصر ، شرع ببنى مدينة نينوى مسخرا فى بنائها عمالا مجلوبين من الشعوب المختلفة التى دانت له ، ويرينا هــذا الرسم البــارز المستخرج من أطلال قونجك عمالا شــدوا فى النير كما تشد الدواب فى العربات وذلك لنقل الأخشاب والحبال ٠

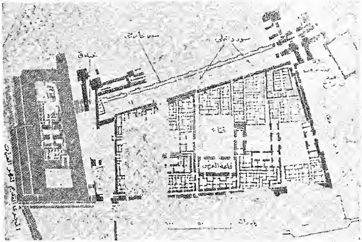


وحش مهول لحراسة باب كبير

كانت تماثيل الســباع الضخمة ذوات الأجنحة والرءوس البشرية تقام على جانبى الأبواب الكبيرة فى قصر أشور ناصربال Ashur-Nasir-Pal ويرى للوحش ثلاثة أرجل أمامية وقد صنعت أحداهما بمهارة فنية جعلتهمــا تبــدو كأنهــا اثنــان اذا شوهدت من الجانب أم من الأمام ٠



لايختص ناريخ واحد بنسبة « القصر » أو « القلعة الجنوبية » اليه ، وهو ذلك البناء الذى كان معظمه قصرا ملكيا . ذلك لأنه ينسب الى عدة عصور متعاقبة أهمها عصر بختنصر فهو الذى أكسبه الطابع المميز له • ومع أن أعمال التنقيب لم تتم بعد ، يمكننا أن نتصور ارتفاعه ونظامه من هذا النموذج التخيلى الذى نرى فى أقصى اليسار منه معبد نين ماحك Nin-Mahk وباب عشتروت • أما المبنى المتوسط ذو المداخل الثلاثة المفقودة فهو حجرة عرش بختنصر •



ويتوسط موقع القصر ثلاثة أبهاء كبيرة محوطة ببيوت لعلهـا كانت لتصريف أمور الدولة ، ولا نستطيع أن نعثر على مايستدل منه على أثر للنوافذ فى أى ناحية من نواحيه ، والراجح أن سكان القصر كانوا يقضون ليالى فصل الصيف الحارة فوق الأسـطح المستوية ، ويوجد وراء القصر ذاته خندق امجربل Imagur-Bel وبناء فى الجهة الغربية لم يتم كشفه ، ولم يبين هذا الجزء الآخر فى الرسم (العلوى) لأن هذا الرسم يظهر الواجهة الخلفية لهذه الصورة الثانية •

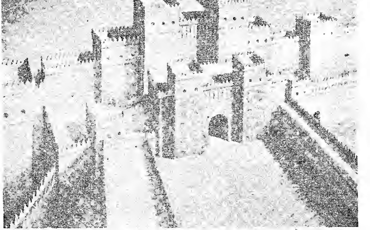
تعويذية بارزة منقوشة فى تسعة صفوف من التنينات والثيران الطيارة ، ثم فى جهة الجنوب شيد برج المعبد الضخم المرتفع المشرف على كل بناءآخر ، وهوالبرج المسمى أ ـتمن ـآنـ كى . « E-Temen-An-Ki »

وهذا هو البرج الحقيقى لمدينة بابل ـ وهو الذى حيكت حوله القصص التى بقيت على مر الأجيـال ، وقد شـيد على قطعة أرض مربعة تقريبا طول ضلعها الشرقى ١٣٤٢ قدما (ويمكن الاطلاع على نموذج محدد له ص ٥٩٧ من المجلد الأول) .

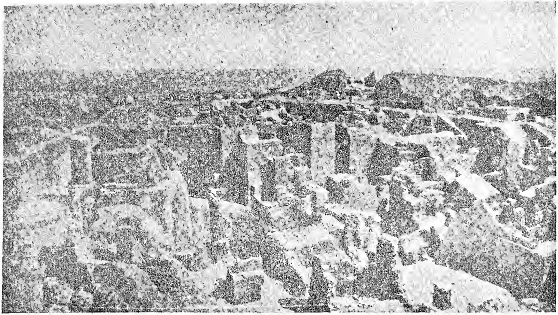
ويتبيـن من هـذا أن بختنصر فى بابـل وسنحريب فى نينوى كلاهما عنى بتجميل مدينته على الطريقة التى اختارها ، ولكن واحدا منهما لم يبلغ فى عبقريته مبلغ أشور بانيبال ، أعظم ملوك أشور ، هذا الذى أنشأ بهجة الأبصـار وراحة الأفكار . وبالرغم من فخامة قصر آشور بانيبال فى النصف الشـمالى من الربوة فان قيمته لتتضـاءل اذا ما قيست بالمكتبة ذات القوالب المسمارية التى جمعها من كافة الأنحاء والمصادر ، والتى يوجد فيها صورتان من خطاب كان قد بعث به الى أحد عماله يخول له فيـه التحـرى عن كافة الألواح المـكتوبة بالخـط المسمارى حيثما وجدها وفى أية مكتبة من تلك الأصقاع المجاورة لهم ، ويقول فيه « ولا يجوز لأى انسان أن يمنع شيئا من الألواح عنك ، واذا كنت تعثر على أى لوح أو رقيمة لم أذكرها لك ، وتجد فيهـا صلاحية لقصرنا فلتبحث عنهـا ، ولتستول عليها ثم ترسلها الى » .

وهـكذا كانت متعتـه العظمى فى جمـع المخطوطات ، وقد نجح فى ذلك نجاحا عظيما ، حتى أن المنقبين عثروا على بقايا ما يقرب من عشرة آلاف أو اثنى عشر ألف قطعة مبعثرة على الكثيب الأكبر ، وتكاد تكون جميعها الآن فى المتحف البريطانى . وتحوى هذه الآثار كافة صنـوف الأدب وقد لا نسـتثنى الا الاغانى الغرامية ـ وقد وقفنا على عناوين بعضهـا من مصادر أخرى ـ وكذلك الروايات التمثيليـة اللهم الا اذا كانوا قد قاموا بتمثيل الأساطير .

وتحوى هـذه المـكتبة المعاجم والأناشـيد والتعـاويذ ، أما الألواح التى حوت طقوسـا دينية فقد فصلت بدقة كل ما كان يجب على الكهنة أن يقوموا به من الطقوس فى المعابد .

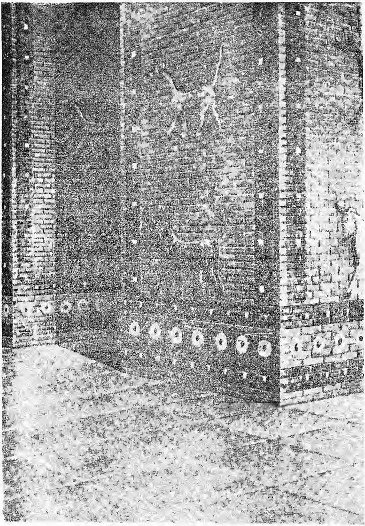


نموذج تخيلى مستنبط من آثار باب عشتروت عـندما كانت فى رونقهـا أعظم آثار بابل وأكثرها روعة ، وهو باب عشتروت الذى شاده بختنصر فى الركن الشـمالى الشرقى من قلعته الجنوبية ليهيىء به مدخلا فخما الى طريق المواكب الذى كان يتجه جنوبا الى معبد مردوك Marduk وقد كان البـاب طريقا مزدوجا ممتدا بين ملحقات جدران القلعة الشبيهة بأجنحة الطير ومنتهيـا الى بابين أحـدهما خلف الآخر ويشرف عليهما برجان بارزان مرتبطان بقنطرة معلقة بقصره فأصبحا بذلك كأنهما كتلة واحدة .



المنظر العام كما يشاهد من غربي أطلال باب عشتروت

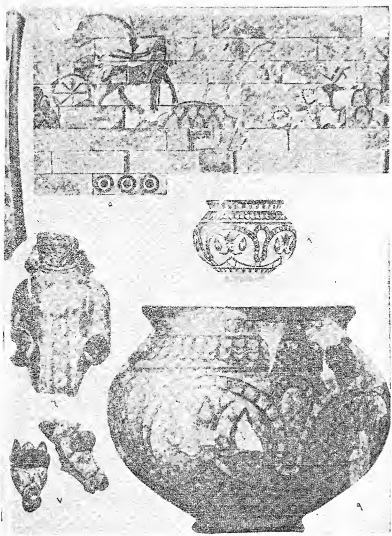
تريبا هذه الصورة الشمسية الطبيعة المنيعة التى كانت عليها حصون قصر بختنصر الحصن الذى كان باب عشتروت جزءا منه ، فهو يرينا كيف كان الطريق الى الباب نفسه محفوفا بمبان خارجية على مسافة بعيدة من الجهة الشمالية ، أما العمود المستدير فى يسار الصورة فهو أحدى قواعد التمثال البرونزى الهائل المركب من الثيران والثعبان التى أقامها بختنصر فى مداخل البوابة لحراسته ، وهذا العمود من الآجر المحروق ومقام فوق قاعدة من اللبن مجوفة فى شكل البئر ومردومة بالتراب بطريقة يمكن بها تحويل العمود الأصلى من قاعدته دون أن يميل الى أى جانب من جوانبه



الآجر المطلى بالميناء الذى جدد به بختنصر باب عشتروت

يرينا هذا الرسم الصورة الناطقة التى تحلت بها واجهة باب عشتروت المشيد من الآجر المطلى بالميناء .

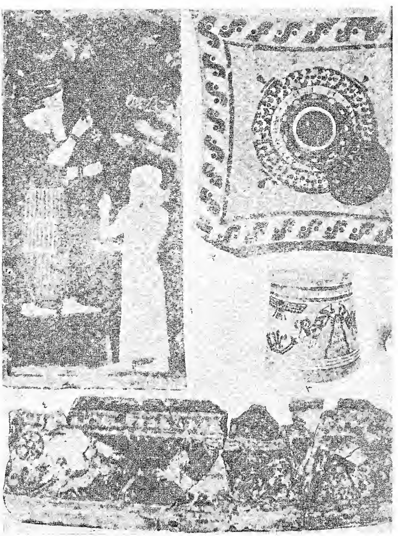
وهـذا الجزء يقـابل ذلك المبين فى الصـورة المشمسة على صحيفة ٢٥١ ولكن المقابلة بينهما غير تامة وذلك للسبب الآتى : لم يكن الباب فى بدء بنائه مطليا بالميناء وعند ماقام بختنصر برفع مستوى الطريق المقدس أو « ابور شابو Aiburshabu » أنطمر بسبب هذه التعلية نحو أربعين قدما من مبنى الباب القديم غير المطلى بما عليه من رسوم بارزة وهذا هو ماكشف عنه التنقيب ، والآن لم يبق من الباب المبنى أخيرا والمطلى بالميناء الا أسافله



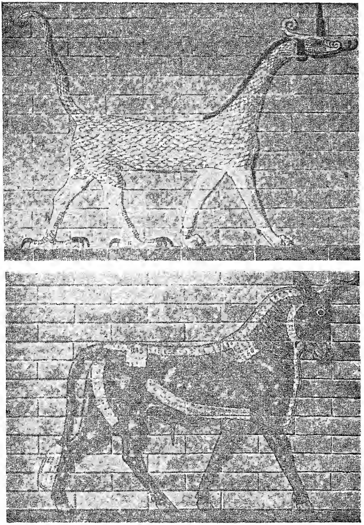
شــاهد عظيم على مهـــارة الفنانين والصـــناع في بلاد ما بين النهرين

ان أعمال التنقيب في بلاد مابين النهرين قد تترك في الأذهان صورة خاطئة عن حضارتهم بأنها لم تكن حضــارة زاهرة ، ومنشأ ذلك طبيعة الأرض المالحة الرطبة غير الملائمة لحفظ الآثار المدهونة بالمينـــاء الزجاجي اللامع اذا قيست بطبيعة أرض مصر مثلا .

وقد حصل عند ماتعرض للضوء كثير من الآثار التي عثر عليها في أشور عاصمة البلاد الأسورية أن حالت ألوانهـــا وهي لم تزل بعد بين يدي الكاشفين عنها ، ولكن الرسوم التي نقلها الرسامون بالألوان المائية عند كشفها مكنتهم من عمل الرسوم المجددة المســتنبطة منهـــا وهي المرقومة برقم ٣ ، ٨ . تأملها وقارنها بالأشياء ذاتها في رقم ٤ ، ٩ .



يتجلى فى أشــياء عثر عليها فى أشور العاصمة القديمة للامبراطورية الأشورية
لم يقطع أحد بالتواريخ التى تنسب اليها هذه الآثار ولكننا نستطيع أن نعلم من نقوش القطعة رقم ٥ أنهـا ترجع الى زمن متقدم وأن القطعة ٩ متأخره لاحتوائهـا على زهره اللوتس التى كانت شعارا مصريا ٠ أما القطعة (١) فهى لوح رسم عليه كاهن يشكر للأله أشور نجاته من غاره الجراد ـ والقطعة (٢) لوح ذو مقابض وهو طراز محلى لنقش الجدران ٠
والقطعة (٥) تصور جيشا يعبر مسالك جبليةوقد رسمت على آجر أخذت من بناء تغلت فيلاصر الأول حوالى سنه ١١١٠ ق٠م ثم أعيد تنسيقها بصــورة خاطئـة فى قاعدة معبـد أشور ـ والقطعة (٦) صورة جذع امرأة والقطعة (٧) هى صوره رأس حصان فى وضعين مختلفين



صور حيوانات من المتخذة شعارا ـ نقشت على طريق الاحتفالات فى بابل

كانت تربة أرض بابل أكثر صلاحية لبقاء الطلاء من تربة أشور (ومع ذلك فان الرقعة الزرقاء التى رسمت عليها النقوش البارزة فى باب عشتروت حال لونها الى الأخضر القاتم ، ولم يبق منها الا بقع ساعدت على وضع هذا النموذج المجدد الى ما كانت عليه أصلا · أما الثيران المقدسة ـ اذا كانت الرسوم تمثل الحيوانات الحقيقية وليست من خيال الفنانين ـ فيبدو لنا أنها كانت تجز كما تجز الكلاب الصغيرة ، واما التماثيل المسماه سبراش (وهى الصورة العلوية فى هذه الصحيفة انظر كذلك الصحيفة المقابلة رقم ٢٥١ فهى لرسم خيالى مركب من صور التنين والنسر والأسد ووحيد القرن ·

وأما الملاحم الطويلة فقد أسهبت في تدوين أنباء خلق العالم . كما خلدت رحلات بطلهم العظيم جلجامش Gilgamesh وقصت خبر رحلة اتانا Etana الى السماء على متن النسر ، وكذلك رحلة أدابا Adapa وكيف سيق أمام قاضي السماء لتحطيمه جناحي ريح الجنوب ، واحتوت أيضاً على بعض النصوص الكيميائية كتعليم الكيميائي طريقة صناعة الزجاج وتلوينه وتركيب الوصفات الدوائية ، كما اشتملت على عبارات الفأل والتكهنات وبعض النصوص التنجيمية والسجلات الاحصائية ، وكان من بينها وثائق التاريخ مدونة على اسطوانات ضخمة ، أما الاتفاقات والمراسلات فانها تعد بالمئين ، وبالجملة فهذه المكتبة مصدر كثير من معلوماتنا عن الاشوريين ، ونستطيع أن نجعل ألواحها أساس وصفنا في هذا الفصل .

ولكن تعليم الملك استغرق زمنا طويلا حتى أصبح فخورا بما اكتسبه من العلوم ، فها هو ذا يقول عن نفسه « فضلا عن التدريب الرياضي اللازم لتكوين الرجال كافة ، فاني قد حذقت القنص بالقوس وركوب الخيل وقيادة العربات وضبط الزمام » كما زعم أنه تعلم خفايا كنوز الأدب . بل انه قد اهتدى الى حل مسائل رياضية لم يسبقه غيره الى حلها .

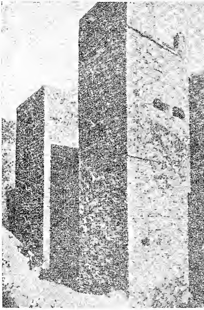
وسواء أكانت أقواله هذه صادقة أم كانت مجرد تفاخر بعيد عن الحقيقة ، فالثابت أن حبه للكتب أدى به الى جمع هذه المكتبات التي يجب أن تعتبر من أعجب مكتبات العالم .

ومع ذلك لم تكن هذه المجموعة النادرة من الكتب القديمة الا مجرد هواية وتسلية ركن اليها الملك للترويح عن نفسه ولتخفيف أعباء المهام الأخرى ، أما بوصفه رئيسا للدولة فقد كان مثال الملك المستبد ، ولكنه بالرغم من ذلك لم يكن مطلقا من كل قيد يكفل عدم طغيانه في الحكم . ومنشأ هذا التقييد هو المعتقدات الدينية التي كان لها في جميع العصور أقوى تأثير في نفوس الساميين حتى أن الملوك كانوا يؤمنون ايمانا جازما بأن الآلهة هم مصدر التوفيق والسداد في الأمور الحربية ، ولذلك كانوا يولون وجوههم شطر معابدهم مستلهمين منهم طوالع مشاريعهم الحربية ، ونجم عن ذلك

(كما حصل عند بني اسرائيل حينما كان أنبياؤهم يردون الملوك عن المحاولات غير الرشيدة في الشئون السياسية الخارجية) ان الكهنة في بلاد أشور بوصفهم المعبرين عن كلمة الآلهة استطاعوا أن يحولوا الملوك عن مقاصدهم بمساعيهم السياسية .

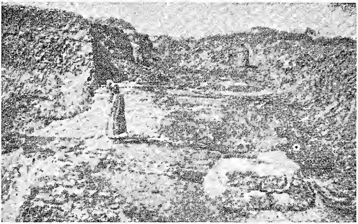
أما طريقة ادارته للامبراطورية ، فهي أنه أقام حكاما على الأقاليم ناط بهم كثيرا من المهام والمسئوليات على الطريقة التي كان يدير بها (قائم المقام) الذي كان بقيمه الأتراك قبل الحرب العظمى الأولى في بلاد العراق .

وكان الشعب منقسما الى ثلاث طبقات : طبقة الأشراف ، وقد كان ينتخب منهم كبار الموظفين المدنيين وقواد الجند . ثم رابطات

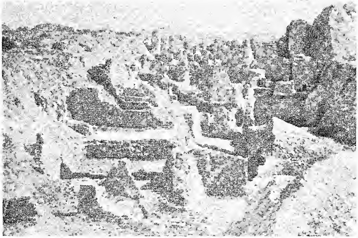


البروج الشرقية من باب عشتروت

اردانت بها جدران باب عشتروت ، وقد كانت منسقة في سطور أفقية يتألف السطر منها من الثيران يتلوه سطر آخر من التنينات وهكذا دواليك .
وكان تنين بابل هذا ويخيل لنا أنهم أطلقوا عليه اسم (سيرش Sirrush) هو الحيوان المقدس للاله مردوك Marduk



رصيف من الآجر فرشوه بالأسفلت واتخذوامنه درجة أسفل من رصيف آخر من الحجر فى طريق المواكب المسمى « ايبورشابو » Aiburshabu الذى بناه بختنصر ليسلكه موكب الاله مردوك . وقد فرش جزؤه الأوسط ببلاط واسع من الحجر الجيرى وحشيت جوانبه بمربعات صغيرة من قطع الرخام الزاوى (Breccia) الأحمر يخترقه باب عشتروت ممتدا الى داخل معبد مردوك .



من هذه الكتل من الآجر التى يخيل الى ناظرها أنها حطام مشوش ، ما زال الأثريون جادين فى استنباط رسوم مجددة لتلك المبانى الدارسة التى كانت مفخرة مدينة بابل حين كانت أعظم مدن العالم ، والأطلال الظاهرة فى الصورة السفلى متخلفة عما كان يسمى « القصر » وهو « القصر المحصن » ذو الحدائق المعلقة العجيبة الذى شاده بختنصر على الربوة الكبرى وراء المجرى القديم لنهر الفرات .

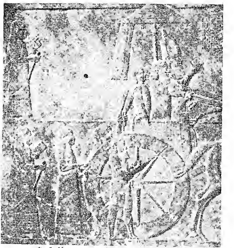
أطلال محطمة من أعظم مدائن العالم القديم (بابل)

أرباب الحرف • والكتبة ، وصناع الخزف والنحاس ، وقد اتخذ أفراد كل رابطة مساكنهم في حي خاص في كل مدينة من المدن المختلفة ، وأخيرا طبقة السوقة أو الصعاليك « الخبشي Khubshi والظاهر أن هؤلاء الآخرين لم يحرموا من حقوق خففت من وطئة فاقتهم •

على أنه اذا لوحظ أن نسبة كبيرة من السكان كانت منحدرة من أصول أجنبية ، وأن كثيرا من الولايات المتطرفة لم تكن الا بلادا محكومة بقوة السلاح ، اذا لوحظ ذلك كله فهمنا مقدار عظم المسئوليات الملقاة على حكام الأقاليم في ذلك العصر • فكان الواحد منهم يجلس في مكتبه خلال ساعات العمل كما كان يجلس (قائم المقام) التركي) ـ ويستمع لأحاديث الزعماء التي لا نهاية لها ثم يستخلص منها الأنباء التي يضمنها التقرير الذي يرفعه الى الحكومة المركزية باسم الملك •

ثم ان الحاكم كان فوق ذلك مطالبا بتقدير الخراج على غلات البلاد ـ كما حصل في الاقليم الذي حول حران Harran حيث أحصيت الحدائق والبساتين والمزارع الشاملة لشجرة السربانو Sarbatu وهي في الغالب شجرة الصمغ العطري (الميعة) التي تكلم عنها بلينى Pliny في تاريخه الطبيعي (في القرن الأول المسيحي) وكذلك عن تلك الأقاليم الجبلية الواسعة التي كانت تكسوها أشجار البلوط القصيرة التي تثمر العفص المستعمل في الدباغة • وقد يطلب اليه فوق ذلك أن يجمع الخيل اللازمة للمناوشات الحربية الصغيرة في المراكز النائية عن عاصمة اقليمه •

وكان الملك هو القائد الأعلى للجيش ، وكثيرا ما تولى القيادة بنفسه في الميدان ، فاذا لم يتولها عهد بها الى ابنه ولي العهد أو لقائد الجيش ، وكانوا يسمونه التورتانو أو تارتان Turtanu - Tartan وقد بقيت حتى الآن بعض رسائل سنحريب الى والده الملك سرجون ، وهي التي بعث بها اليه حين كان وليا لعهده ومتوليا قيادة الأعمال الحربية في الحدود الشمالية ، وانها لتحوي موجزا دقيقا عن المعلومات التي



الملك أشور بانيبال في عربته الملوكية

ولو أن الملك في هذا الرسم يعرف لأول وهلة بتاجه ومركزه الخاص تحت المظلة الملكية ، فان الملوك لا يمتازون عادة عن الرعية في النقوش الأشورية الا بقامتهم الطويلة ولحيتهم الفخمة • وكانت اللحية شعار الطبقة العسكرية ، اما الحليقون المشاهدون في هذا الرسم فقد يكونون من خصيان القصر •

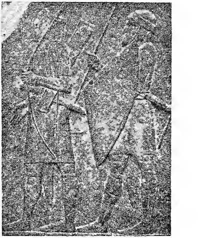
جمعها ممن هم تحت قيادته ومن رؤساء القبائل القريبة من الميادين •

ويتضح من هذه الرسائل ان الاشوريين كانوا بارعين في الاستطلاع ، وأن قلم مخابراتهم كان قديرا على كشف أشد المسائل الحربية تعقيدا وأثقلها عبئا •

وكان الجيش في ذلك الحين يتكون من طبقتين هما طبقة الجيش النظامي وطبقة الجيش المرابط (الميليشيا) ثم ينقسم الى فرق العربات والخيالة الخفيفة والمشاة والمهندسين وفرق الحصار • وقد كان زي الجندي من المشاة النظاميين يتكون من جلباب ومناطق وخوذة ذات ريشة على الطريقة اليونانية فوق ثوب

تعبئة الجيوش

نصفي يغطي أسفل الجسم وحذاءين عاليين ، فكان أشبه مايكون بانكشارية السلطان العثماني التي جاءت بعد ذلك بزمن طويل ، وهؤلاء هم حرس الملك ، وكانوا يستخدمون في وقت السلم في ملاحظة الأسرى العاملين في المباني الملكية وفي حفظ نظام الميدان حينما كان مولاهم الملك يتصيد



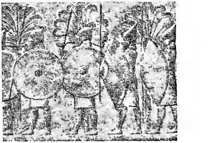
جنود الآشوريين تسير صفا صفا في العرض
كان كل صف من صفوف كتيبة المشاة يتكون من الرامي بالقوس والمثقل بالرمح والترس الذي كان يلازم رفيقه في القتال وكان كلاهما يلبس جلبابا ويشد حول وسطه منطقة عريضة تتدلى من حافتها الأهداب الجميلة .

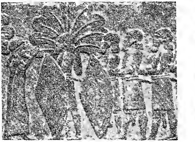
الأسد الأسيرة في ساحة اللعب القريبة من المدينة .

أما في زمن الحرب فكانت نعبأ أيضا الجنود المرابطة ، ونرى بعض رجالهذا في الصور والنقوش قد ميزوهم بخوذاتهم المخروطية الشكل ، وكانت كتيبة المشاة تتكون من خمسة وعشرين صفا مقسمة الى جماعات ، كل جماعة تتركب من خمسة صفوف برأسهم جاويش Sergeant ، والظاهر أنهم كانوا يسيرون في تشكيلات كل واحدة منها مكونة من خمسة رجال من بينهم رام بالقوس ، وآخر مثقل بالرمح والترس ، ومهما تكن وطأة القتال شديدة على الكتيبة مبددة لشملها فقلما يفترق الرامي بالقوس عن زميله حامل الرمح .

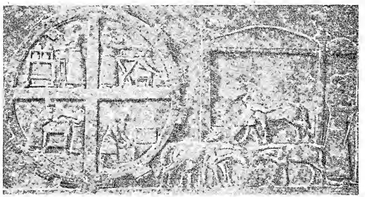
أما التشكيلات الكبيرة العدد فلم نقف على بيان أكيد عنها ، وان كنا متأكدين من وجودها غير أننا لانستطيع أن نجزم أكان لديهم تدريب للكتائب والفرق الكبيرة أم لا .

وكانت الحملة الحربية أمرا ذا بال حتى في نظر ملك أشور ذي الجيش النظامي البديع . وكانت تبدأ بالتهامس عن التذمر وشائعات القلق على الحدود تلوكها ألسن التزنارين في الأسواق نقلا عن حداة القوافل وسائقي البغال الذين يروون أنباء القبائل التي دب فيها عدم الولاء والتوقف عن دفع الجزية أوما هو أوهى من ذلك ، وهو عدوان الدول المجاورة . ثم تأخذ هذه الهمسات في الذيوع والانتشار ، حتى تروج رواجا لا حد للمبالغة فيه ، وينتهي الأمر بأن ترسل الحكومة المركزية لقائد الجهة المجاورة لمنطقة الخطر تستخبره عن الحقيقة ، فيبعث هذا بدوره بعيونه يبثهم في عواصم الأقاليم القلقة ، وبعد أن يستوفى تقريره

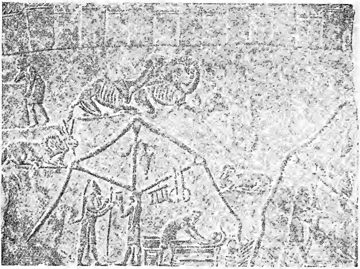




أشكال أزياء وخوذات حملة الرماح الأشوريين
بينما كان حملة الرماح الأشوريون تحمل رماحا متشابهة كانت التروس في زمن سنحريب على الأقل متشابهة وكانت جميعها ذات شكل مستدير ومحدب ، أما أغطية الرأس فكانت متنوعة ولعل هذا الاختلاف كان تابعا لاختلاف الكتائب التي كانوا يوزعون فيها ، فبعضهم مثلا يلبسون خوذات مخروطية الشكل وآخرون ملابس ضيقة مستديرة كما يشاهد في الصورة العليا ، وغيرهم يلبسون خوذات عليها ريش منتشرة كالحلقات .



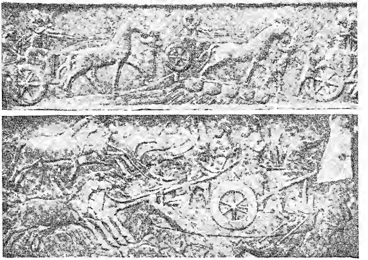
ترينا هذه الألواح صورا ناطقة لمظاهر النشاط فى أحد معسكرات أشور ناصربال ، فنرى فى اليسار الطهاة يجهزون طعام الجيش فى مطبخ ميدان كامل العدة والنظام ، يصح أن يكون مثالا للعناية التامة التى كانوا يوجهونها حتى الى الجزئيات فى الجيش الأشورى ، ونرى فى اليمين الخيل تستاس وتسقى ويصح أن تكون نماذجا لدراسة التشريح والحركات ·



وتحتوى هذه اللوحة على رسوم تريتا مبلغ اهتمام نحاتى الملك بتصوير المناظر والحوادث المتصلة بتقدم مليكهم وما من شك فى أنهم كانوا يرافقونه فى سيره بوصفهم المسجلين لأعمال الملك ، فنرى فيها ضابطا يعود الى مركز القيادة ويتقدم اليه خادم بالماء ليروى به ظمأه ، وخادم آخر يهيىء الفراش فى خيمة منصوبة ، وجثم خارج الخيمة على رقعة قماش حملان صامران كأنهما يتنازعان التعيين المقدم لهما كما يفعل أهل هذه الأيام ·

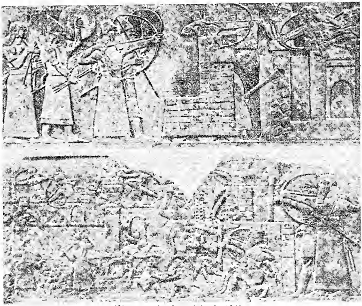
مناظر من حياة المعسكرات حينما كان آشور ناصر بال يخرج للميدان

بالمعلومات التى يتصيدها من المصادر المختلفة ، وكلها تدور حول الاحتمالات الحربيـة ، وعلى محالفات العدو مع بعض البلاد المجاورة لمملكته ، وعلى ما توفر لديهم من الرماة وحاملى الرماح لخوض المعارك صده . ينقش كل هذا على قالب من الصلصال ثم يرفعه الى العاهل الأكبر مستخدما البريد الراكب السريع ، الذى يُبدَّل فى كل مرحلة على طريقة الفرس فى استخدام المكارين Angaroi وهى الكلمة المشتقة مباشرة من الكلمة البابلية أجير أو مكار « egiru » وعندما نشبت الحرب استحوذ القلق على الملك ، ونرى ذلك شاخصا فى سجلات اللوحات التى سجلت عليها ضراعتـه للآله أن يوحى اليه بطـالع الحرب المقبلة متسائلا « هل يعود الملك حيا من هذه الحرب ؟ وهل يعود فيمشى على قدميه فى قصره فى نينوى » فيردد الكهنة الاجابة المطمئنة له التى يتلقونها من مهبط الوحى ، حقـا ان البشائر مشجعة فقد سمع كاهن مشهور عن آية عجيبة فبادر بنقلها الى القصر ، وذلك أن خنزيرة ولدت خنزيرا صغيرا مزدوج الأعضاء ذا ثمـانى أرجل وذنبين ، فلشـدّ ما كانت دهشته منه اذ حنطه بالملح لأنه رأى فيه بشيرا بصعود نجم أمير البلاد . وبمثل هذا التشجيع كانت تقوى الروح المعنوية عند الجيوش ، ثم ها هو ذا الجيش النظامى قد استعد آخر الأمر ووقف على أهبة القتال ، وحشدت فرقـة من الجيش المرابط وجهزت بالخيول والمركبات المعدة للنقل ، وعجت شوارع نينوى بالنساء يولولن ويلطمن الخدود ويشققن الجيوب هلعا من رحيل الجيوش الى الميادين ؛ ثم هيئت المركبات الملكية بما يكفل رفاهية العاهل العظـيم ، وراحت تضرب بسنابك خيولها الطرق المرصوفة ، على مرأى من قسطل الجيش المندفع ، وقد سنحت الفرصة لممثلى الملك وهو أيضا أمين سره أن يتغنى ببطولته فى التقارير التى يضعها عن الحرب والتى يراد حفظها فى تاريخ الحملة ببيان أحوال مولاه ، وكيف كان يترجل من مركبته وكيف أصعدوه على المنحدرات الوعـرة فى



عبور الأنهار الجارية فى طريق الغزاة

قد وضحت وسائل عبور الغزاة الأشوريين للأنهار مفصلة فى نقوش عديدة من طراز النقش البارز ، أما الشريط الأعلى فمنقول عن باب شالمـانصر Shalamansar البرنزى فهو يمثـل عربات تعبر النهر فوق جسر مؤقت . ومما يسترعى الأنظار قبضة السائق على زمام الخيل ، ثم حذر الرجال وعنايتهم بتروس الجياد ، أما الشريط الأدنى فترينا أشور ناصربال وقد جلس فى عربتـه يحملها مِعْبَر نهرى ومن خلفهـا تسبح الجياد ويقودها الفرسان بالأعنة وبجوارهم جندى يسبح معتمدا على مثانة منفوخة .



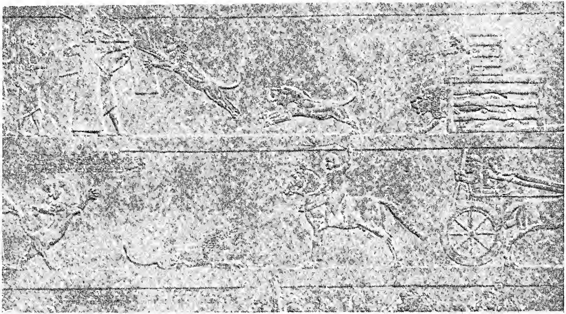
تصوير ناطق لعمليات الحصار عند الأشوريين

مما يسترعى النظر فى الرسم الأعلى صورة آلة التدمير ذات العجلات الستة الشبيهة بالدبابة والبرج المتنقل ليصعد عليه الرماة بالقوس الى مستوى أسوار العدو ، ويتكرر هذا المنظر فى الرسم الاسفل ، ومما يثير الاهتمام فيه السلاسل المتينة يشدها الجند المدافعون لمقاومة الآلة وكذلك تلك الخراطيم لاطفاء النيران التى تصب على آلات الحصار ، كما تمثل الجهود الجبارة التى تبذلها فرقة الأشغال الأشورية لنسف أسوار العدو ، كما يلاحظ أشور ناصربال نفسه يشترك فى العمليات الحربية ·

هودج خاص ، فاذا ما تعذرت هذه الطريقة كان يترجل ويتسلق المنحدرات على قدميه · وكيف كان الملك يروى ظمأه فى الميدان مثل الجندى البسيط سواء بسواء من قربة من جلد ، وهكذا تمثل فى بلاد الشرق حكايات حاجى بابا التى لا تخلق جدتها الأيام · ثم ماذا يحدث اذا ما اقتضى الامر أن يعبر الجيش نهرا ؟ كان يجب قذف قربان لاله النهر من ضروب الهدايا المتنوعة استرضاء له لعله يعدل عن ابتلاع نصيبه من رجال الجيش الباسلين المقبلين على عبوره · ثم تأتى فرقة الأشغال العسكرية فتمد فوق النهر قنطرة من القرب ، فيستطيع الجنود العتاة أن يسلكوا هذا الطريق المركب من المثانات المشدودة مجدفين بأرجلهم أثناء عبورهم · ثم ماذا يحدث اذا قصرت بهم الميرة فى الطريق ؟ وهل حدث فى زمن ما أن جيشا من جيوش المشرق زحف على بلد ما دون أن ينهب فلاحى ذلك البلد ؟ لقد كانوا يبعثون سرية صغيرة من الجند الى مساكن الفلاحين فى القرى المجاورة ، وناطوا بها تقليب ترابها ، والبحث فى كل مكان عن مخازن القمح المطمورة فى الأرض ·

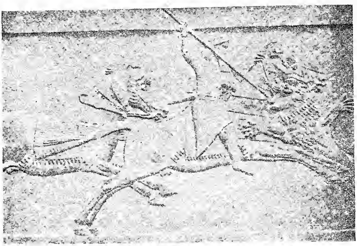
وبعد فهل العدو الآن على مسافة تمكن من منازلته وضربه ؟

اذن فليقم الجيش معسكرا محصنا بالأبراج ، ولينصب فيه الخيام لتقيه الشمس والريح والمطر كى تأوى اليها الجنود بعتادها ، ولتخصص أمنع بقعة فى المعسكر للملك وآلهته ومذابح القرابين ··· وأما الأعداء فسيركزون جموعهم فى أمنع مدنهم المحصنة ، ويسخرون منكم من



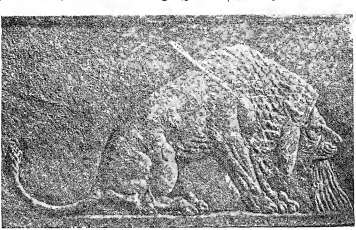
النحات يتملق مولاه أشور بانيبال بتسجيل مهارته وبراعته فى صيد الأسود

كان أشور بانيبال فخورا متباهيا بشجاعته فى الصيد ولذلك كانت مناظره فى الميدان وهى المنقولة عن الرسوم البارزة التى ازدان بها قصره مثيرة للاعجاب والاهتمام ، وترى فى أعلى الصورة من يمين رجلا مطلا من قفص خشبى فوق قفص آخر ليطلق منه أسدا حبيسا به ، ويقابل هذا المنظر فى يسار الصورة الملك مترجلا رمسلحا بالقوس والترس يفتك بالأسد الضارى الهاجم عليه غير مكترث البتة بالأسد المهاجم له فى اثر الأسد الأول . وأشد من هذا اثارة للعجب ما يبينه المثال فى الصورة السفلى حيث الملك أشور بانيبال وقد توارى توا من المنظر فى الجهـة اليسرى من الصـورة ليقبض على أسد صحراوى من طرف ذيله .



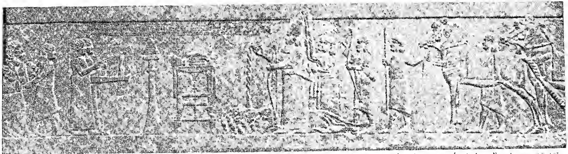
ليس ميسورا التحقق من عدد الأسود التى اقتنصهـا أشور بانيبـال أما تغـلات فيلصر Tiglath Pileser فيفخر فى أحد النقوش بأنه قنص ٨٠٠ أسدا ٠ والراجح أن أشـــور بانيبال لم يكن أكثر تواضعا من تغلث فى أحصا قنصه ٠

وكانت القوس والبلطة والرمح كلها على السواء أسلحة ماضيةفى أبدى هذا الملك الذى هو أمير صيادى الأسود ٠ ونراه هنا بلقم الأسد حربة فى حلقـه وقد التحما لا يفصلهما فاصـل ٠

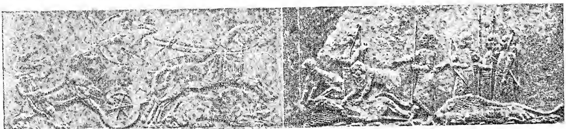


اشتهر نحاتو الآشوريين بتصوير الآساد وامتازوا بتفننهم فى رسم أوضاعها وطبائعها المختلفة وأجادوا ملاحظتها وتصويرها ٠ وما أبدع دراسة هـذه الصورة لأسد وقد أصيب اصابة قاتلة من سهم ما زال فى جسمه ، وقد نفذ السهم الى شريان رئيسى فـترى الدم يتـدفق من فم الوحش وهو يُسلم الروح ، وقد ربض رافعا كتفيه وتحامل بأربعه على الأرض بجميع قوته ليقاوم السقوط ٠

الأسود صرعى القوس والرمح سـددها أشور بانيبـال ٠

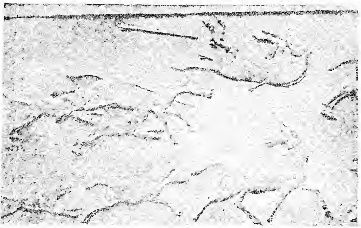


« أنا أشور بانيبال عاهل أشور وملك الشعوب والجحافل المزود بقوة الالهين أشور وبليت قد صوبت نحو الآساد التى أرديتها قوس عشتروت سيدة الحروب ، وقد قدمت لها القرابين وسكبت عليها الشراب المقدس » . ذلك ما نطق به هذه النقوش على المذبح وقد تقدم نحوه الصياد المتعاظم بدوس تحت أقدامه جثث أربعة من السباع وفى حاشيته حملة المراوح وحامل قوسه وساسة خيله والموسيقيون يعزفون على بعض الآلات الوترية .

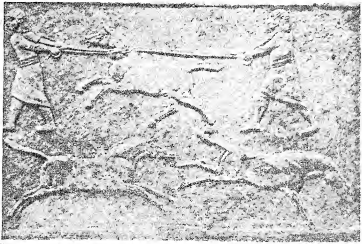


ليس صيد الأسود بأقل خطرا على راكب العربة منه على المهاجم المبارز على قدميه ، خصوصا اذا أطبقت الوحوش والتحمت كما نراها فى الصورة حيث نشاهد الملك أشور ناصر بال ولم يكد يفرغ من صرع أسد بين يديه حتى استدار يصدّ بقوسه أسدا يلطم العربة من خلفها بمخلبيه الجبارتين ، وفى نهاية يوم القنص يجمع الصيد الخدم المنوطون به (كما نراهم فى يمين الصورة) ويضعونها تحت اقدام الصيادين حيث يوجد ما لا يقل عن ثمانية عشر أسدا وضحت صورها فى مجموعة واحدة من هذه الرسوم البارزة منها أحد عشر قتلى وسبعة مصابة أصابات خطيرة .

ملك الوحوش ملهاة الملوك — نينوى فى أوج عظمتها

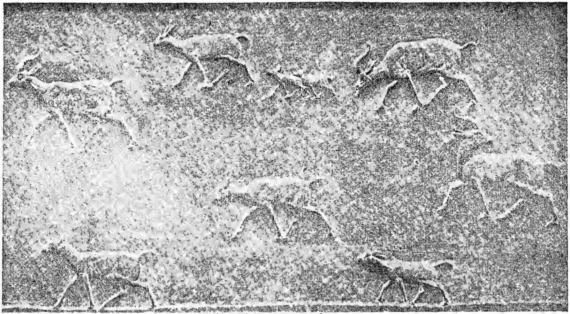


قطيع من الحمر الوحشية وقد فاجأها المفاجئون وسننها كلاب الصيد المنبعثة من حظائر أشور بانيبال فولت هاربة ، بعضها نفذت فيها السهام والبعض أدركتها الكلاب الضوارى تنبح فى أعقابها ، ويسترعى النظر والدرس بصفة خاصة منظر الحمار الرشيق الذى انثنى يتأمل الحمارة الصغيرة التى حان حينها ، فهو من خير الدراسات المستمدة من الحياة نفسها ·



لن نجد مدرسة من مدارس الفنون العصرية شيئا جديدا نعلمه لذلك المثال المجهول الذى نقش هذه الحمر الوحشية ، فقد أوفت على الغاية فى دقة الملاحظة وسلامة المواقف والحركات · وأقل الثلاثة الوحوش المرسومة فى الصورة السفلى نجاحا هى صورة الحمار المشدود فى الوثاق ولعل ثلاثتها كانت مطلوبة للعمل فى معرض أو ملهى سباق ، فقد كانت العادة وقتئذ فى بلاد الشرق استخدام البغال فى هذا الغرض . أما أكثرها اتقانا فهى صورة الحمار الظاهر فى يمين الصورة الذى فر ضاربا بساقيه الخلفيتين للوراء كأنه يقصد صد مطارديه ·

صيد الحمر الوحشية فى أشور : وهى من روائع فن النحت

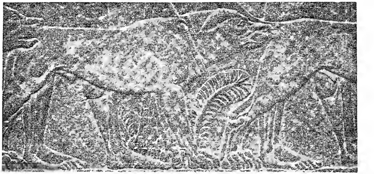


دراسة بديعة من الحياة : غزلان وادعة قبل أن يداهمها الصائد

ومما يثير الاعجاب أيضا سواء أكان بالنسبة لتكوين المجموعة أو اخراجها فى النقش ، هذا النقش البارز المنقول عن قصر أشور بانيبال وهو يمثل ظباء وشوادن ترتع وترعى وادعة قبل أن يداهمها الصيادون ولعلها أبدع مناظر الصيد المنقولة عن قصر أشور بانيبال • ويبدو أن الظبية الأخيرة دون سواها هى التى شعرت بدنو الخطر ـ فنلاحظها وقد أدارت رأسها تتشمم الريح قبل أن تنذر باقى السرب بالفرار ، وتليها أخرى مازالت ترعى الكلأ ، وثمت ظبيتان ترتعيان خلف أمهما والأخريات يوالين السير لم يكدر صفوهن معتد بعد • وفى هذا التمثيل واقعية لا تتيسر الا لمن راقب هذا المنظر فى الحياة نفسها •

وراء هـــذه الحصـــون الراســخة ، فلتحدقوا بأسوارهم يتقدمكم الرماة بتروسهم الغليظة ، فتحبسوا العدو وتتخطفوا أشرارهم من مشارف صـياصيهم ، ثم يظاهر الرماة من خلفهم رماة آخرون بالمقاليع ، يقذفون بالأحجار الى أبعد من مرمى القوس ، فيصبون على المدافعين وابلا من القذائف ٠

ولا شك فى أن ملك أشـور اذا ما فرغ من عناء الحملة العسكرية ــ يقول كما قال الملك فرانسيس ــ حينما تسلط على فكره أن الحرب هى خير وسيلة لقضاء الوقت ، فاذا لم تنوفر فالسلوى الوحيدة عنها هى « هيا بنا لمشاهدة سباعنا » لأن صيد الأسد فى الحلبة المجاورة لقصر الملك وحدائقـه كان من أبهج رياضـات



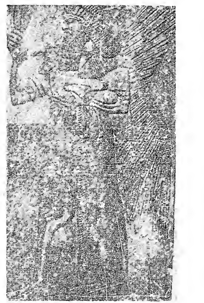
الى الصيد : الكلاب فى مقاودها تطلق من الأوجرة

تحوى نقوش كثيرة صورت على الحجر والآجر صورا ناطقة لكلاب الصيد التى كان يستعملها أكابر الصيادين الذين غامروا بصيد الوحوش الكبيرة فى الصحارى والمستنقعات مثل الخنزير البرى والضبع والنمر وأحيانا الأسد ٠ وهـذه الكلاب هى من سلالة كلب الراعى قوى البنية ذى الخصائص البارزة التى يميل بعض الطبيعيين الى تأكيد مطابقتها لنوع خاص من الكلاب ما زال موجودا فى آسيا الوسطى ٠ وان لم تتوافر الآن لكلاب بلاد العراق ٠

ثم لتدفعوا بعد ذلك آلات الحصار النسلق تحت حماية غلالة من النار لدك أبواب العدو الهائلة غير مبالين بمحاولاتهم صدكم ، واقامتهم العوائق من السلاسل وعبرها يقذفون بها من عل لوقف سير آلات الدك المهاجمة ، ويجب أن يقوم رجال فرقة الأشـغال بنقب ثغـرات فى الأسوار، ليهيئوا مسالك للأبطال الذين يفوزون بقصب السبق الى حيث يظفرون بالأسـلاب والغنائم ، « أشعلوا الحرائق فى مدائن العدو . انشروا الدمار فى الســهل والحضر « والويل للمغـلوب » ٠ ولتعـذبوا الزعماء ، ولتقتـلوا الثائرين ، ولتسبوا الغانيات ، ولتنفوا الباقين الى مكان سحيق حتى يحال بينهم وبين احداث الفتن ، حرقوا وانهبوا وعودوا ظافرين بأسلابكم مما كدّ العــدو التعيس فى جمعـه فى ابان ســعادته ، فيـا لشقاء من يســتوجب غضب عشتروت أشور » ٠

ملوك أشور فى فترات السلم ٠ وربما كان قفز الثيران رياضة محببة الى أهل جزيرة كريت ، أما نحن فرياضتنا الحقة هى منازلة الأسد فى الميدان فهـاتوها لنا ! ولابد أن يتـولى حرس مسلحون اخلاء ميدان اللعب وحفظ النظام فيه ، وأن يتأكد هؤلاء الحراس من وجود الأسد داخل أقفاصها.ويجاء بالوحوش فى الأقفاص، ثم تطلق فى الحلبة حينما يقبل الملك متأهبا فى العربة أو على ظهر الجواد ، وقد شد قوسه ووتر سهمه، وأسعد الأحوال عند الملك أشور ناصربال أن يتمكن من اختطاف أســـد من ذيله ، ويؤكد النحات المتملق المرافق للملك أنه قد فعل ذلك حقا ، ثم تجمع جثث الصيد لأن الملك يريد أن يبتهل بالشكر لعشتروت على ما وفق اليـــه فى الصيد ٠

وحســبنا ما أوردنا عن الصيــد وسـفك الدماء ٠ ولنعد الى سُنَنِ الحياة السلمية فى الشعب غير المحارب ٠



تقديم القربان على المذبح

بين زخارف قصر أشـور ناصربال في كلخ Calah هذا الرسم البارز الذي يمثل جنيا ذا أجنحة وربما كان يمثل كاهنا متسربلا بثيابه الرسمية يحمل عنزا وسنبلة من هذه القرابين

دوّن الأشوريون القوانين قبيل القرن الثاني عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد ، ويبدو لنـا من مبلغ معلوماتنا عنها أنه لم تكن ثمت علاقة بين القوانين الأشورية والبابلية، ودليلنا على ذلك أولا أن العقوبات التي قررتها القوانين الأشورية كانت أشـد صرامة من نظائرها في البـلاد الشقيقة ، بابل . فالأشوري الذي يوقعه سوء الطالع في خرق القوانين كان عرضـة لعقوبة الاعدام ، وضروب مختلفة من بتر الأعضاء ، والجلد الى مائة جلدة ، والأشغال الشاقة بالعمل على ظهور السفن ، أو الغرامات التي قد تبلغ وزنتين من الرصاص . واذا تسببت امرأة في اجهاض نفسها كانت تثبّت على (الخازوق) ، وكانت لديهم مجالس تحكيم مشـكلة من شيخ البـلد وبعض الأعيان ، يعهد اليها فض النزاع الذي يقتضي فحصا وتحقيقا .

وقد كان لـكل شـاب مجـال فسـيح في الوظائف الكهنونية ، فضلا عن فرصه الأخرى في الانتظام في الجيش أو خدمة القانون ، فان كان ذا موهبة كتابية فتحت أمامه أبواب كثيرة لا نكاد نحصى . واذا صح تقديرنا تكون الفترة بين عصر حمورابي وبين القرن السابع ، مدة نضجت فيها التجارب نضجا عظيما ، مما ترتب عليه أن الأعمال في كافة سبل الحياة ارتقت من طور البساطة الى طور التفنن والتركيب الكثير . أما العـلم والفلك والفنـون والآداب مسـتقلة عن الدين ، ثم الطب والجـراحة والـكيمياء بتطبيقها على الطب والفنون وهندسة العمارة ، فكانت جميعها متاحة لرجال الدين يمارسونها كيف شاءوا (ذلك أنه لم يكن قد وجد بعد مبرر للخوف من أن تحـد بحوث أصحاب العقـول النافذة من سلطان رجال الدين) .

وبجب أن يتوافر لطالب الانتظام في سلك رجال الدين — بوظيفـة شـماس مثـلا — شرط



صورة الشيطان تخيله الأشوريون

تخيل الناس كثيرا من الشياطين في أشباه الآدميين . وكانوا في رعب دائم منهم ولكنهم لم يعبدوهم قط ، وقد أضحت القدرة على مقاومة شرورهم من خصائص بعض الناس ولا سيما المعروفين بجماعة أشـبو Ashipu Class من الكهنة الذين كانوا يتولون طرد السحرة وشـياطين الليل الى غير ذلك من الأرواح الشريرة

الصحة الكاملة • ويبدأ تدريبه بتعليمه القراءة والكتابة بخط مسمارى كهنوتى على الألواح الصلصالية مبتدئا بالتخطيط بقلمه العظمى على كل صلصالية مستوية ، فيكتب الصفوف الطوال من الرموز بأوضاعها الصحيحة ، فاذا ما تقدم فى هذه الخطوة قليلا يدرب على كتابة مقطوعات مختارة من الكتب ، وكانت مهمة تعلم القراءة والكتابة شاقة للغاية تشغل السنين العديدة ، ولم يكن قسط الخط الدقيق الرقيق من الزمن قليلا ، وقد كان كل كاتب يحرص كل الحرص ويفخر كل الفخر باحرازه هذا النوع من الكتابة الذى ما زال يصادفنا فى الألواح الدينية فى حروف دقيقة للغاية ، يتعذر قراءتها قراءة صحيحة بدون الاستعانة بمجهر • وبعد هذه المرحلة يشترك فى الطقوس المتبعة فى داخل المعبد حيث يتعلم كيف يستغفر الاله ويسترضيه ، منضما الى صفوف الكهنة الطويلة وفى مقدمتهم أحيانا الملك نفسه يؤم المتعبدين •

وهناك فى الدهاليز الضئيلة النور ، الموصلة الى المعبد، يتقدم الملك بين خوار العجول الصغيرة المعدة خارج المعبد ليضحى بها على المذبح • فيتقدم الملك بوقار الى تمثال الاله المصور فى صورة رجل، وقد حفلت المائدة بالطعام، وبجواره النضد الذى حمل عليه الشراب اللذيذ ، والمباخر العالية تحرق فيها الصموغ العطرية ، فعبقت منها الروائح ذات الشذى الغزير • وقد تعلم الملك الأوقات المناسبة لرفع يديه فى الصلاة وللركوع والسجود ولترتيل الأغانى بغنة ثابتة على نغمة واحدة مصحوبة بالعزف على القيثارة وغيرها من آلات الموسيقى الوترية ، والضرب على الدف والرقص تبعا لحاجة الطقوس المتاحة • وما أكثر الكهنة وأكثر أنواعهم ، فمنهم من يطهرون الناس من الآثام التى يقترفونها فى حياتهم ، ومنهم العرافون الذين يستطلعون المستقبل معتمدين على مجموعاتهم القديمة من التنبؤات أو من كافة الظواهر والحوادث الجارية المتعاونة من الشمس الى الدواب الدنيا • وكانوا يركنون على الدوام الى الكهنة لشفاء المرض وتفريج الهموم النازلة بالناس جزاء آثامهم ، وكانوا يعزون الأمراض الى أسباب كثيرة ، فضلا عن الأشباح Ghosts التى بحثناها فى الفصل الثامن عشر ، كانوا يؤمنون بجيوش



شكلان من أزياء كهنة الأشوريين

تمثالان خزفيان صغيران يرجعان الى القرن الثامن ق • م يلقيان فى روع الناظر البهما أثر المذاهب الدينية فى شكل الأزياء والمظاهر فالتمثال المرسوم فى اليسار ذو اللحية قد لبس كامل مسوحه أما الآخر فقد لبس ما يشبه فى مجموعه صورة سمكة

الشياطين القادرة على اغتيال الانسان مبتدئة من لابارتو Labartu عدو الأطفال الى الشياطين السبعة التى وردت فى الرقية الطويلة التى اعتادوا تلاوتها على المرضى •

انهم سبعة ، حقا انهم سبعة !
يسكنون قرار المحيط . وأنهم لسبعة !
ليسوا بالذكور – ولا بالاناث !
انهم الريح الجارية !
ليس لهم زوجات ولا ولد !
لا يعرفون الرحمة ولا يحسون بالحنان !
فلا يرقون لتوسل ولا ضراعة !

وعدا هذه الشياطين والأشباح ، كانت توجد كائنات أخرى مركبة – نصفها شيطان ونصفها انسان ، فهى وليدة الأغوال الماصة للدماء • كما تولدت أنصاف الآلهة من اجتماع الآلهة

بالعذارى الآدميات . وفوق هــذه الأعداء من القــوى غير البشرية يوجــد أعداء آخرون من السـحرة والساحرات ، من الآدميــين الذين لم يكونوا أقل خطرا على الناس من الطائفـة الأولى ، فكانوا يرسلون تعاويذهم على شانئيهم بعد أن يصطنعوا لهم تماثيل من الشمع يضعون عليهــا بعض جزئيـــات المجنى عليهم من شعورهم أو بصـــاقهم أو ملابسهم :ـ

« أولئـــــك الذين اصطنعوا التماثيل فى صورتى

وأتقنوا مشابهتها بخلقتى

واختلسوا بصاقى أو قصاصة شعرى

وانتزعوا قطعة من ثيــابى .

وجمعوا التراب من تحت أقدامى »

واذا دعى الــكاهن لاخــراج الشــياطين من شــخص وقع فى سلطانها فأول مايعمله هذا الكاهن أنه يفاجىء الشيطان بأنه على علم بحقيقة اسمه وجميع خصائصــه . ولكى يقنعه بذلك يأخذ فى سرد سلسلةطويلة من أسماء الشياطين؛ وكان يعتقد أن هذا كاف لاقناع الشيطان بأنه قد وقف على حقيقته وان لم يكاشــــفه بشخصيتــه وباسمه ؛ ثم يستنجد بأحد الآلهة ، وذلك بتلاوة تعويذة معينة تحت عون الالهين اى وماردوك Ea & Marduk وهذا نصها :ـ

لقـــــد رآه (أى المريض) ماردوك ثم دخـــل بيت والده اى Ea وخاطبه « يا أبتاه ! لقـد ظهر شيطان الصراع من العالم السفلى (أو يذكر أى اسم آخر من الشياطين يريد اخراجه من المريض) ثم قال له مرتين ـ انه لا يعلم ماذا فعل هــذا الشخص . وبماذا ينجو من هذه الاصابة ؟ ـ » فجاوب اى Ea ولده ماردوك « أى شىء لا تعلمه يا بنى ؟ وماذا أســتطيع أن أعطيك اياه أكثر مما أعطيتك ؟ ايه يا مردوك ، أى شىء لا تعلمه ، وماذا أستطيع اضافتــه الى علمك ؟ انك تعلم جميــع ما أعلم ، فلتنصرف يابــنى ماردوك »



اله العلوم

يتمثل جلاله فى مســوحه المسْبَل ولحيتــه الكبيرة وقلنسوته المسنَّمة واسمه (نابو) أو (نينو) Nabu or Neto فهو عنــدهم اله الحكمة .

ويتــلو ذلك وصف العــلاج اللازم لشفاء المريض ، والذى سيكون بعد هذه الاجراءات ذا بركات قدسية شافية .

ومن الوسائل الشائعة فى السحر الأشورى لكشف الضر تقديم بعض الكفارات من جسم أو شىء يحل محل المصــاب فيضطر الشيطان الى الحلول فى هذا العوض ويتحرر منه المريض . ففى احدى الرقى لاخراج الشيطان نعثر على خنزير صغير مقدم لهذا الغرض ، فيتلو الكاهن عليه ما يأتى :ـ

قدمــوا الخنــزير بدله وليكن اللحم عن اللحم ـ والدم عن الدم

لكى يكون الخنزير بديلا منــه

حــتى تنمــحى الروح الشريرة والشيطان الشرير !

وبعد هذا الوصف الوجيز عن واجبات الكاهن الراقى ـ الذى هو مفضل بالطبيعة على الطبيب العادى نســتطيع أن نفكر فيما ندين به لهؤلاء الكهنة فى ميدان العلوم . فهم الذين اســتبقوا منار الآداب ســاطعا ، وفضــلا عن اهتمامهم بجمع المؤلفات حيثما وجدوها وموازنتها بعضها ببعض للتأكد من صحتهــا فقــد كان من أهم واجبات الهيكل أن يعنى بتنسيق المــكتبات وصيــانتها حيث كان المدينون من أهل بابل يقدمون صورا من كتبهم بل مجاميع من نفس الكتب وفاء لنذورهم ، ومما لا شك فيه أنه كانت توجد مكتبة من هذا الطراز فى معبد نابو Nabu فى نينوى ، والتى هى على الأقل فى أواخر عهــدها وبقدر ما وصل اليــه علمنا كانت من غرس يد الملك آشور بانيبال ذلك المولع بانشاء المكتبات .

وليس ثمت شك فى أننــا مدينون بكثــير مما علمناه عن علوم البابليين لجهود الــكهنة ، وآن لنا أن نتدبر ثمار هذه الجهود فى فروع العلوم المختلفــة : فأولى محــاولاتهم لتحقيق الملاحظات العلمية ـ وهى التى كانت الأساس

لجميع البحوث الصحيحة — نراها ماثلة فى مفردات اللغة البابلية فى عهودها الأولى منذ الألف الرابع قبل الميلاد • وهى المفردات التى تشمل أسماء الآلهة والحكام وأدوات الحياة اليومية التىصورهاكتابمدينة شروباك Shuruppak وهى المكان الذى عينته أساطيرهم لحادثة الطوفان فهذه الملكة التى استطاعوا بها جمع وترتيبالأسماء والمسميات وتحديد مدلولاتها تحديدا صحيحا تصور لنا نشاطا علميا كبيرا ارتقى الى كفاية عظيمة فى دقة ملاحظة التجارب العلمية السديدةمع التعبيرات الواضحة الدقيقة فى جميع نتاجهم الأدبى لا سيما فى تحضير الوثائق الرسمية • وفى الحق أن وضع قواميس اللغة فى عهد المتأخرين من ملوك بابل وأشور قد بلغ شأوا بعيدا من العناية حتى يصح القول بأنه كان هواية ملوكهم لدرجة لم تجارهم فيها أمة معاصرة لهم ، وهذه الميزة راجعة فى الأصل لوجود شعبين متجاورين مع أنهما متغايران فى لغتهما تغايرا كليا لأن الساميين لم يفتقروا الى القواميس فى فترة بقاء اللغة السومرية حية فقط ، بل كانوا أشد افتقارا اليها بعد ذهاب هذه اللغة لمسيس الحاجة لترجمة مخلفات اللغة السومرية ، فان الساميين كانوا مدينين بالكثير للسومريين لاسيما فى الآداب الدينية ، واستمر الناس الى العصر المسمارى المتأخر يعتبرون تقديم قاموس للمعبد هدية نفيسة • وقد احتوت هذه الاثبات على جميع ما يتطلبه مؤلف القاموس اذ أنها تكونت من المفردات ومرادفاتها باللغتين السامية والسومرية وحوت كتبا جمعت تراكيب من اللغتين والمترادفات فى السامية الأكادية Semitic Akkadian كما ضمت — بمقادير قليلة جدا — قواميس من مفردات اللغات الأجنبية مع مرادفاتها الأكادية ،



قاموس أشورى

قطعة من لوح يحتوى على جدول موضح للكلمات مع مرادفاتها ، دونت لتستعمل فى مكتبة أشور بانيبال •

مثل لغة الحيثيين ، والكاسيين ومن لغة المصريين أنفسهم ، وفوق هذا كانت توجد جداول بأسماء الآلهة والمعابد والكواكب والأقطار وبالأشياء المصنوعة من المعادن والخشب والقماش وأبدع من هذا ذكر أسماء الحيوانات والأحجار والنباتات •

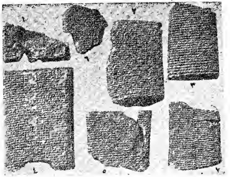
وتهمنا بصفة خاصة هذه الأنواع الثلاثة الأخيرة لما لها من الأثر الواضح فى العلوم الأشورية وقد قسموا المملكة الحيوانية الى دواب وطيور وأسماك وثعابين وحشرات وحوت مجموعة الأحجار أسماء كثيرة لمستخرجات كيمائية دخل الكثير منها فى تراكيب العقاقير وفى كتب صناعة الزجاج • ولكن أكبر هذه المجاميع الثلاثة ما حوته جداول المملكة النباتية التى دلت على المام تام بالمستخرجات النباتية • ويوجد فى المتحف البريطانى من جداول النباتات ١٢٠ قطعة من ألواح مكتبة أشور بانيبال كما يوجد فيها لوحان من هذا النوع يغلب على الظن أنهما من حفريات أشور Ashur وقد ترجعان الى تاريخ أقدم بقليل من الطائفة السابقة وجميع الجداول



المادة الطبية الأشورية

يحتوى هذا اللوح الصلصالى المنقولة صورته عن مكتبة أشور بانيبال (حوالى ٦٥٠ ق•م) مكتوب بالخط السومرى المسمارى مع ترجمته الأشورية على أنواع مختلفة من الغذاء وغيرها التى تستمد منها العقاقير المفيدة لعلاج الأمراض المختلفة

النبـاتية تدل على أن علمـاء النبـات الأشوريين قد نسقوا المملكة النباتيـة فى أبواب مميزة واضحة أو على الأكثر (من حيث أنه من المتعذر التوفيق بين الأشياء المختلفة التى تعرض) فى بابين اثنـين ، حقا ان فـكرتهم عن تبـويب الأنواع والاجنـاس ليست بحـال من من الأحوال مطابقة لفكرة هذا العصر ، الا أن جداولهم لتثير الاعجاب من حيث فائدتها العملية وقد أصابوا أيما اصابة اذ بـدأوها بالحشـائش والقصـب ، وأشجار الفصيلة السوسبية Euphorbia-ceae وفيما عدا ذلك يلوح لنا أن الترتيب تحكمى لا يسير على قاعدة فمثلا الفصيلة الخشخاشية والفصيلة القرعية نجدهما متداخلتين . وقد يكون السبب فى ذلك أن الـكتابة المسمارية لـكلتيهما تبدأ بعلامة واحدة وهى « خَلْ Khul» التى تشير حقا الى التشابه بين وعاء بذور الخشخاش وبين الخيار الشرقى الصغير بل القرع نفسه .



أساطير البابليين عن خلق العالم

الالواح البـابلية تروى أساطير خلق الدنيـا فى سـبعة فصول : ــ

(١) نشوء كتلة المحيطات البدائية . (٢) ثورة الآلهة . (٣) مجلس الحرب الالهى . (٤) الاله مردوك فى صورة بطل يقتل طيامات Tiâmat (أنظر ص ٢٧٢) (٥) خلق النجوم (٦) خلق الانسان (٧) أنشودة تمجيد مردوك .

وبلغ عدد المفردات التى أوردها الأشوريون فى أنواع المملـكة النباتية على وجه التقريب



خريطة العالم كمـا وضعها البابليون

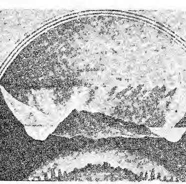
الدائرة الـكبرى تمثل المحيط ، والدوائر الصغرى تحتوى على بابل وغيرها من المدن ، وفيما عدا ذلك توجد الجبال وغياض الدلتا البابليـة ، أما الكتابة فهى سجل لحملات سارجون ملك أكاد Sargon of Agade .

للمائة كلمـة وحسبنا ايضـاحا لمبلغ دراية الأشوريين بالعقاقير أن نسوق على سبيل المثال تسميتهم لنبات القنب الذى أسماه الأشوريون « نبات الغزل » أو « نبات الحبل » أو « نبات العلف » والمهم هو تسميتهم له أيضا « نبـات الهموم » اشارة الى ما له من أثر مخدر عرف فى الشرق القديم بأزالة الهموم ، نبات « الخربق » الذى سموه « أتاشو Ataishu » أى نبات المعطس Sneeze plant ، والخشخاش الذى قيل عنه أنه يعادل اللفاح (نبات يشبه الباذنجان) Nandrake فى خصائصه المخدرة ، وأن نساءهم وأطفالهم كانوا يجمعون عصير الخشخاش مثلما يفعلون فى هـذا العصر ، واللفاح هو المسمى عندهم نمطريرا أو نمطرجيرا Namtar gira وكان اليونانيون يسـمونه « المـاندارجورا » محرفين لأسـمه الأشورى كما وقع فى آذانهم . وأخـيرا نذكر لك الصموغ على اختلاف أنواعها من المر Myrrh الى الجاوى Styrax . ثم الأقحوان الذى اعتبروه مثل سائر المؤلفين القدماء نباتا مقدسا مرموزا به للزهرة Venus أما الفواكه فأجـدرها بالذكر المشمس المسمى عندهم أرمانوا التى نقلعنها الرومان لفظة ارمنياكا ، والمسكانوا أوالتوت، ومن أسمه الاشورى اشتق أسم التوت القديم سكامين Sycamine . ومع ذلك فهذه المفردات منقولة عن

الجداول النباتية البسيطة • ويلى ذلك فى الأهمية جداول العقاقير وقد رتبوها تحت ثلاثة عناوين وهى اسم النبات ، ثم المرض لذى يعالج به ، ثم طريقة تعاطيه فقالوا « العرقسوس لعلاج الكحه ، يدق ويشرب مع البيرة » والصفصف (ثمره حمضيه قابضة) لدواء الاسهال ـ والصبر دواء للصفراء ، يدق ويشرب ـ وأخيرا كان لديهم نبات يسمى « أرتو Urtu يمزج بالزيت ويدهن به الجسم لطرد الهوام فلا يعلوه القمل • ومن هذه المذكرات لارشاد الأطباء نستطيع أن ننجه الى النصوص الطبية ذاتها فنجدها مكتوبة على بضع مئين من الألواح أو شقف محتوية على وصفات علاج الأمراض المختلفة مع التشخيص الكامل لها تليها طريقة تعاطى الدواء • فقالوا مثلا :

اذا امتلأت عينا أنسان بالصديد الأصفر يسحق قشر الرمان ويستعمل ، فهو مطهر عظيم ، واذا التهبت عيناه يسحق نراب النحاس المأخوذ من أناء نحاس وتوضع عجينة عليها وهو علاج مشهور • ولعلاج قراع الرأس والحكة يسحق الكبريت ويتخذ دهانا مع زيت الأرز Cedar ولا يزال هذا العلاج مستعملا فى عصرنا • أما اذا سال اللعاب بغزارة فليعط المريض مسحوق القرض ولعلهم أضافوا اليه عقاقير أخرى ـ مثل صمغ الغنه والتربنتينة المستخرجة من السنرين والصنوبر • وهذه أمثلة قليلة من آلاف الوصفات التى وصفوها لمختلف الأمراض صغيرها وجسيمها ، من لدغ العقرب الى الولادة العسيرة • ومع ذلك فلم يكن الطبيب بمنجاة من السحر ، ولم تخل وصفة طبية بالغة ما بلغت من أن تقرن برقية • واليك هذه الرقية البديعة لاخراج الديدان المسببة لمرض الأسنان :

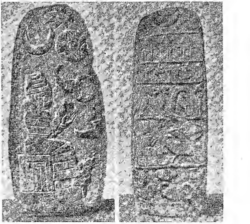
« بعد أن خلق آنو Anu السموات ، خلقت السموات الأرضية ، ثم خلقت الأرض الأنهار والأنهار الجداول ، والجداول كانت المستنقع الذى سبب الديدان Worms فجاءت الدودة باكية الى شمش Shamash ، ثم تقدمت الى أى Ea بدموع حرّى متوسلة « ماذا تعطينى لغذائى ماذا تعطينى لأفسده ؟» « أعطيك التين الجاف والمشمش » « صدقنى هذا التين الجاف وذلك المشمش أيضا ليسا بمجديين فلتنزلنى بين الأسنان ، واسكنى فى اللثة حتى أفسد دماء الأسنان ، وألوك لباب اللثة ، وعلى ذلك أقبض على مزلاج الباب ! » « ما دام هذا هو قصدك أيتها الدودة فلتبطش بك قبضة اى Ea القوية » • واذا كانت المهنة المطلوب هى مهنة الكيمياء العملية وجب على طالبها أن يلم بفروع مختلفة من المعرفة شأنه فى ذلك شأن الطبيب • ولا بد للطالب من نفحه من الكاهن فان فرن صناعة الزجاج ما كان ليوقد دون تقديم القربان لأرواح الأجنة المولودة قبل وقتها لعل أشباح هذه المخلوقات الصغيرة التعيسة غير الكاملة التكوين فى ذاتها تتلطف شرتها فتكف عن صب شؤمها المفسد للمركبات الكيمائية فى أثناء تحضيرها • كما يجب على الطالب أن يكون ملما بطبقات الأرض لأن المركبات التى دلته عليها كتب صناعته تتطلب ضروبا مختلفة من الأتربة والمواد الأرضية ولابد له أيضا من الالمام بشىء



العالم كما تخيله البابليون

لم تكن أفكار البابليين عن العالم مخالفة لأفكار قدامى اليونان ، فكانوا يفهمون العالم على أنه البسيطة المستوية تتوسطها الجبال الشاهقة حيث ينبع نهرا دجلة والفرات ، ويحيط بهذا الكون المحيط من جميع جهاته ومن وراء المحيط سلسلة الجبال التى تحمل قبة السماء المثلثة الأركان •

وفى طرفى سلسلة الجبال يوجد بابا شروق الشمس وغروبها • وتحت المعمورة توجد مدينة الموتى ذات الخمسة الأسوار •



مبلغ علم البابليين القدماء عن السموات

حجران يحتويان على نقوش لتسجيل عقد هبة (في اليسار) ، وفي (اليمين) هبة بختنصر الأول الى الاله ربى مردوك Ritti-Marduk لرعايته له في حرب العيلاميين Elamite (انظر ٧٠٨ من المجلد الأول) وفيه عرض للشمس والقمر والزهرة والعقرب وهي رموز بدائية لعلم التنجيم الذي هو أصل علم الفلك الحديث ·

من الطب وبخاصة عن السموم · ثم يجب عليه آخر الأمر أن يكون فنانا ماهرا في تلوين مايصنعه من الزجاج الملون · وعلى ذلك كان الكيمائي الأشوري طليعة لكيمائي العصور الوسطى الا أنه سلم مما اتصف به الأخير من نزوع مادي تجلى في الدأب ليل نهار على محاولة ايجاد الاكسير الذي يخرج الذهب من المعادن الخسيسة · ولا شك في أن تدريب الكيمائي كان يبدأ في كنف رجال المعبد حيث تتاح له دراسة كتب الأحجار والمواد الكيميائية ، فقد كان لديهم كما أسلفنا معاجم المواد المستخرجة من بطون الأرض يتعلم منها كيف كان الحجارون يرمزون بزيادات مختلفة في أواخر الكلمات للدلالة على درجات الصلابة المتفاوتة لأنواع الحجارة البيضاء والزرقاء واتخاذهم ذلك وسيلة لتحديد هذه الأنواع · وقد لا يكون هذا في درجة كفاية الطرق الحديثة ولكنه طريقة عملية لتحديد الفرق بين حجر الطباشير والكالسيدوني (حجر نصف شفاف) مثلا وبين اللازورد ، والياقوت الأزرق ، ويمتاز الأخير بصلابته حتى سموه الحجر الخادش لذلك استعملوه لحفر الأختام ·

ويجب على طالب الصناعة أن يتعلم من حفارى الأختام طريقة تمييز الأحجار من ألوانها فالأحمر عقيق ، والأزرق لازورد ، والبلورى هو حجر أبيض متوسط الصلابة (حجر جيرى) والحجر النعباني الأخضر (الحجر الجيرى الأخضر أو المتعرج النعباني) ، ومع ذلك فاذا تقدم الطالب في معلوماته قد يعلمونه أن بعض الحجارة تفور اذا ما عولجت بالأحماض وهذه وسيلة أخرى من وسائل الاختبار ، وبعد ذلك يستطيع أن يتعلم الصلة بين حجر الختم الصلب الأسود وبين تراب الحديد والمغناطيس العجيب وأكسيد الحديد · وأن بعض مركبات الزرنيخ (سم الفار) كانت تصلح للتذهيب ، وكيفية اختبار الزرنيخ أنه اذا عرض للنار انبعثت منه ريح تشبه ريح الثوم · وأن كبريتات الزئبق الحمراء التي كانت تخرج من مكان قريب من منابع البترول التي تشتعل اشتعالا عجيبا بقرب بلدة كركوك Kerkuk كانت تهيء للطالب استخراج الزئبق اذا طبق ماسبق أن نعلمه فجمع الأبخرة المتصاعدة من حرقها في قدر مستمر الغليان · وأنه اذا عالج الرصاص بحمض أعطاه دهانا أبيض يستطيع أن يكسبه اللون الأحمر بتعريضه للنار · كما عرف أيضا طريقة

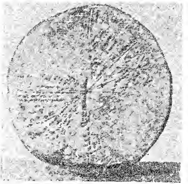
تحقيقهم للأحجار الكريمة

استخراج حامض الكبريتيك (أو كبريتات المعادن اطلاقا بمعناها القديم) مثل « الموزو Muzo » وهي كلمة كانوا يطلقونها على كبريتات الحديد (أو النحاس دون جزم منهم بأيهما) ، وكذلك كلمة « سيخرو Sikhru » لكبريتات الحديد التي نقلوها الى « Sori سورى » ·

وكذلك كان على الطالب أن يعرف كبريتات الحديد « أو الكبريتات الخضراء » تتشكل في صورة عناقيد العنب ، وأن البللورات الجميلة لكبريتات النحاس (أو الكبريتات الزرقاء) كانت تسمى في لغتهم « بالأزرق السماوى » ــ جميع هذه الحقائق كانت مهيأة له في كتب الدراسة · ثم يأتي بعد ذلك دور تطبيق هذه المعلومات على صناعة الزجاج فعلا · وكان الفرن يبنى بطريقة تجعل اللهيب ينبعث من

اشتعال الخشب الجاوى أسفل الفرن وينفذ اللهب من ثقوب علوية تسمى العيون · فتصل الى القسم العلوى حيث تصهر المركبات المعـدة لصناعة الزجاج من رمل خاص مع مادة قلوية من النبانات المحتويه على الصودا ومن الطباشير أو الجير ثم تصب فى قوالب خاصة · وأخيرا تصب عليها كيمائيات أخرى لاحداث الألوان المختلفة · وأكثر الأمور لفتا للنظر هو أن الكيمائى الأشورى عرف كيف يضيف نسبة صغيرة من الذهب على المركبات لاعطائهـا لون اليـاقوت أو كما كانوا يقولون « المرجان » الذى هو الأصـل للون المعـروف « بأرجوان كاسـياس » والذى يظنـه البعض من اختراعات عصر متأخر عن عصور الأشوريين · وفضلا عن ذلك فقد اهتدى الزجّاج الأشورى الى صناعـة نوع من الزجاج سـماه الـزجاج الأحمر المرصع أو بلغتهم « ساندومار خشتو » وهى مطابقـــة لكلمة « ســندراستى » التى يطلقها « بيلينى Plinis » على المعدن المزركش البراق المعروف بأسم « أفنترين Aventurin » والذى يظن الناس أنه من أختراع البندقية فى القرن الثالث عشر ·

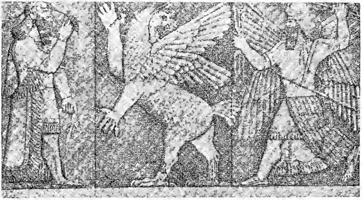
والآن وقد ألممنـا بهـذا القدر عن معارف الأشوريين فى الشئون الأرضـية نستطيع أن ننتقل الى آرائهم فى السـموات والأفـلاك · اسـتلفتت العلوم الرياضية أنظار أهل مابين النهرين من أقدم الأزمنة ، وهو أمر طبيعى فى قوم دأبوا على رصـد النجوم وعنوا بالأعمال المختلفة كما عنوا بعلوم المساحة والقياس · وكان فى وسع التلميذ من أقدم العصور البابلية أن يجد كتبا بالخط المسمارى تحوى جداول الضرب وما مائل ذلك ، ثم استطاع فى العصور التالية أن يجد جداول الجذور التربيعية والتكعيبيه ، وقد عثر على الكثير من هذا فى ألواح ترجع الى الأسرة الثالثه فى أور (حوالى ٢٤٠٠ ق·م) بل وجدت فى عصر الأسرة الأولى البابلية حوالى (٢٢٠٠ ق·م) قوانين رياضية كافية لاعداد البابلى بما يجعله مشرفا قديرا على المزارع · ومن سنة ٢٤٠٠ ق·م عرف البابلى حسـاب مساحة الشكل المضلع غير المنتظم بدقة ليست بالقليلة ، وما وافت سنة ٢٢٠٠ حتى كان فى وسعه أن يتعلم قانونا على قدر كبير من الدقة لحساب وتر المثلث القائم الزاوية بل لقد وجد كتاب متقدم فى الرياضة العالية يحوى مسائل لايجاد المساحات جاء فى أحداها مثلا :



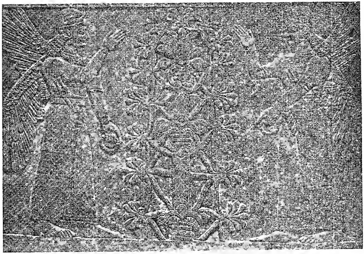


اسمجيم مقدمه لعلم الفلك

عزز الأشوريون والبابليون الأساطير التى توارثوها عن أسلافهم بالأرصاد العلمية فلم يجدوا تضاربا بين أنباء ديانتهم وبين نتائج هذه الأرصاد · وقد كان عصرهم طورا من أطوار الثقافة كانوا يستخدمونه فى حساب النجوم · أما تلك ·م·وبشاهد فى اليسار صورة اصطرلاب أشورى التى استمرت منتشرة لغاية القرن السادس ق·التى فى اليمين فهى لوح سطرت عليه نبوءات تنجيمية استنبطوها من رصدهم القمر



أصبح الأله آشور (وفى بابل الأله ماردوك) بطل جميع الآلهة فى مبـارزة الالهة المجنحة للتنين طيامات Tiâmet وهى التى خلقت الوحوش الضوارى لتثأر لها من أبسو Apsû الذى تآمر على قتل أبنائها ، ولكن طيامات نفسها ذبحت فانشقت الى قسمين ظهرت منها الأرض والسـماء · والصـوره التى الى اليسـار هى لكاهن · وقد عثر على هذه النقوش البارزة فى نمرود Nimrûd .



عثر على هذا النقش البارز على لوح من المرمر فى قصر بنمرود ، وهو يمثل فى الغالب « الأم الـكبرى » (عشتروت أو بلبت) وهى تقوم ببعض مراسم صلاة الخصب أمام شجرة مقدسة وقد وجدت شجرة الحياة وهى المرسومة بمثل هذه النقوش الرمزية على آثار عديدة لذلك العهد والراجح أنها تصوير اصطلاحى لنخلة البلح التى كانت ينبوع الرخاء فى أرض الجزيرة ، وقد حدت بالفنان رغبة فى الاحتفاظ بتماثيل الجانبين الى تكرار الرسم

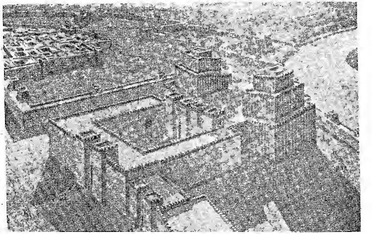
« فى داخل مربع أبعاده كذا وكذا رسمت ثمانية مثلثات (متساوية الساقين) فاحسب مساحة هذا الحقل ؟ » فاذا ما بلغنا القرن السابع ق·م وجدنا معلوماتنا الفعلية عن الرياضيات عند الأشوريين أقل مماذكرنا ، ومع ذلك فما نستنبطه عن علمهم فى الفلك ليس بالقليل ·

والواقع أن علمهم عن النجوم كان فى معظم الأحوال قاصرا على التنجيم ، ولكنهم مع ذلك استطاعوا أن يستخدموه فى حياتهم العملية فى تقدير طول الشهر ، وقد وصلوا الى هذه النتيجة على النحو الآتى : اهتدى البابليون من أقدم العصور الى الفرق بين السنتين الشمسية والقمرية ، ولكى يوفقوا بين السنتين عمدوا من حين الى آخر الى اقحام شهر نسىء فى السنة القمرية لتجارى السنة الشمسية · ولا بد أن هذ الحساب قد نشأ أولا عند السومريين، غير أن البابليين أنفسهم لم يصلوا الى قاعدة ثابتة لكيفية ادخال هذا الشهر لغاية عصر حمورابى ، وترتب على ذلك أن طول السنة كان غير ثابت ،

وقد شاع فى القرن السادس استعمال دورة زمنية قدرها ثمانى سنوات ليضموا بعد تمامها شهر النسىء · أما فى سنة ٣٨١ ق·م فاستعملوا دورةأساسها تسع عشرة سنة أضافوا فى خلالها الى السنة شهرا هو آذار الثانى فى كل من السنوات الثالثة والسادسة والحادية عشرة والرابعة عشرة والسابعة عشرة من كل دورة ثم أضافوا شهر أيلول الثانى فى كل سنة تاسعة منها ·

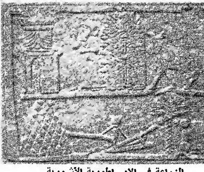
ومن ملاحظة القدماء لهاتين السنتين الشمسية والقمرية وتقسيمهم مدار الفلك الى اثنى عشر برجا تكاد تتفق مع المتعارف عليه الآن ، نشأت طريقة التقسيم الستينى التى اشتهر بها السومريون ، والتى ورثناها عنهم واتبعناها فى تقسيمنا للزمن ·

وبينما هم مهتمون بمسألة تحديد طول السنة الشمسية اعترضتهم مسألة أخرى هى تحديد الطول الصحيح للشهر الواحد ، وليس ذلك لمحض العلم الفلكى بل لخدمة المصالح والأعمال ، فاتخذوا الطريقة المتبعة الآن فى الشرق الأدنى



هندسة الهياكل فى عاصمة الأشوريين القديمة

اتخذ الهيكل الذى أقامه شالما نصر الثالث فى مدينة أشور للاله أنو وأداد من حيث ارتفاعه ومساحته طراز العمارة التى شادها شامشى أداد الاول Shamshi Adad I منذ ألف سنة خلت من قبله وهو الذىجدده تغلث فيلصر وكلا الهيكلين كان مثلا لابراز ذلك التقليد المتأصل المأثور عن الملوك الغزاة الذين فكروا فى الجمع بين فخامة الملكية وقدسية الآلهة فى أساليب حكومتهم الدينية ، وليس تخصيص مسكن وبرج لكل من الآلهة الا دليلا على هذا التقليد



الزراعة فى الامبراطورية الأشورية

المحرات والبذارة اللذان نشاهدهما فى النصف الأسفل من هــذا اللوح المتخلف عن القرن الســابع ق ٠ م ٠ يعطيــانا فكرة عن أساليب الزراعة عند الآشــوريين ، أما النخلة القائمة بين هذه الآلات فهى اختيار موفق بديع ، أما فى النصف الاعلى من الرسم فنشاهد شجرة مقدسة وثور كما نشاهد أيضا ثور ورجل واقفين أمام ضريح مقدس ٠

لتعيين مبــدأ الشهر وهى لحظة ميــلاد الهلال الجديد ، الا أنه لماكان طول الشهر على هذه الطريقة يبلغ ثمانية وعشرين يوما ونصف يوم ، ترتب على ذلك أن تــكون بعض الشهور ٢٩ يوما والبعض الآخر ٣٠ يوما ، فــكان من واجبــات الأرصاد الأشورية أن تفصل فى هذا التحديد فى آخر كل شهر ثم ترفع قرارها للملك ٠ وأخيرا اهتدوا بطريقة بارعة وعمليــة فى الوقت نفســه وهى أنهم استطاعوا من ملاحظة الأوضاع المختلفة للشمس والقمر ، كل منهما بالنســبة للآخر ، من تحديد طول الشهر أهو ٢٩ أو ٣٠ يوما ؟ واستطاعوا حساب ذلك قبل بلوغ نهــاية الشهر فعلا وبذلك عرفوا أطوال الشهور قبل حلولها ٠

واجبات الفلكيين

وقدأسفرت طريقة التقسيم الستينى عن ايجاد وحدات الزمن الصغرى مثل البرهة Bêrê أو الساعة المزدوجة التى يستدل على وجودها عندهم من تقرير وضعه منجم قديم عن يومى الاعتدالين جاء فيــه أن فى الســنة يومين معينين يستوى فى كل منهما الليل والنهار ، فيكون كلاهما ست برهات أو (ساعات مزدوجة) ٠ وقد أدت هذه الحقيقة الى اختراع الساعات المائية التى يرجح أن البــابليين قد اســتخدموها فى القرن الســابع قبل الميلاد ، ومن المؤكد أنهم استعملوها فى عصر السلوقيين حوالى سنة ٣٠٠ ق م ، وكانت كمية المياه التى تعد للتقطير من ثقب الجهاز تساوى تلنتا واحدا (والتلنت Talent « أى الوزنة » يساوى٦٠ منا والمن يعادل ٥٠٥جرام) ـ تتقطر فى اليوم الكامل أى مجموع النهار والليل ، وهذا بمتوسط ٦ قطرات فى الثانيــة الواحــدة على وجه التقريب ، وقد تواترت رواية الساعة المائية البابلية الى أن ســجلها ســكتوس أمبريكوس Sectus Empericus فى القرن الثالث الميلادى ، بل ان هيرودتس يعزو اليهم



الموسيقى فى عهد أشور بانيبال

كان رجال الدين يرتلون على نغم القيثــارة والدف ٠ ونشاهد فى هذا اللوح من المرمر المستخرج من قوينجك Kouyunjik القيثــارة ذات الاثنى عشر وترا ٠ بينما المعزف العبرى الثلاثى المسمى أزور لم يحتوى الا على عشرة أوتار ٠

اختراع المزولة وهى نوع من الساعة الشمسية وكذلك المزولة المقعرة لتعيين ساعات اليوم ·

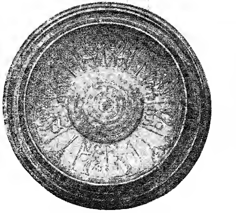
وقد سبق القول فى الفصل الثامن عشر أن العلم لم يزعزع عقيدة رجال الدين فى ذلك العصر ، ولم يكن لديهم ما يدعوهم لأن يجعلوا دينهم وبحوثهم العلمية منفصلا كلا منها عن الآخر تمام الانفصال ، فقد استطاعوا أن يستمسكوا بالعقائد القديمة لسببين مهمين أولهما أنهم كانوا بطبيعتهم أمة محافظة ولم يطرأ بسبب البحوث العلمية التى وصلوا اليها لغاية ذلك العصر ما يتعارض مع ديانتهم المتوارثه . ويمكن أن يقال مثل هذا القول فى الأمور الدينية عن القرن السابع ، وأيضا عن الامبراطورية البابلية المتأخرة فى القرن السادس ، وهى الامبراطورية التى تأخر بها العهد الى الزمن الذى يسمح لنا باطلاق هذا القول على سبيل الجزم والتأكيد ، فمبلغ ما أهم البابلى أو الأشورى من الأجرام السماوية التى قلب وجهه نحوها مستلهما بها ارادة الآلهة ، هو اعتقاده أن هذه الأجرام وسيرها وأفلاكها ، جميع ذلك من صنع الآلهة وتدبيرها الحكيم ·

أما عن قصص خلق الكون عند الأشوريين فلا تزيد عن تلك الروايات التى توانرت اليهم من أقدم الأزمنة ولا سيما تلك التى أثبتتها الألواح السبعة ، وكان الأشوريون يتقبلون الحكايات الواردة فى نصوصها القديمة قضية مسلمة لا يعتريها الشك ولا الظنه بعد أن أدخلوا على نصوصها الأصلية تغييرات جوهريه قطيعة ·

وقد نقلوا هذه الأسطورة عن بابل حيث كان بطلها ماردوك Marduk اله بابل المحلى ، فلما نقلها الأشوريون استبدلوا ببطل بابل هذا بطل اقليمهم وهو أشور ، وكان هذا بالفعل انتحالا مألوفا عند طائفة من القسس ·

وقبل خلق العالم حينما لم تكن سماء ولا أرض بل كان أبسو Apsu فى الأعماق والتنين تياماط Tiâmat ومعهما ممو Mummu المنفذ لأوامرهما ، وكان ثلاثتهم هم جميع الموجودات ، ثم تولد من تزاوج هذين الالهين الهان آخران يدعيان لخمو ولاخامو Lakhmu and Lakhamu ثم تولد من هذين الأخيرين الهان آخران هما أنشار وكيشار Anshar & Kishar وأخيرا أنتج هذان الأخيران بدورهما أنو Anu أى السماء التى انشق منها اى Ea اله الأرض السفلى وبخاصة المياه الجاربة من تحتها ، بيد أن هذه الآلهة بعد أن تولدت بهذه الكيفيه ضايقت أباها الأول أبسو فاستشار تياماط فى أمر اهلاكهم جميعا لكن تياماط لم تكن لترضى عن هلاك جميع نسلها أما ممو فقد وافق على خطة أبسو وشجعه عليها ، ثم بلغ تآمرهما مسامع أى الذى استطاع بقوى سحره أن يلقى على أبسو سباتا عميقا ، وتمكن بذلك من قتله وأخذ ممو اسيرا عنده ·

وأخيرا جاء دور ولادة الاله المحلى Marduk ابن اى Ea كما ترويه الأسطورة البابلية بخلاف أسطورة أشور التى تقول أن الآله المحلى هو أشور بن لخمو ولاخامو ·



الفن الأجنبى فى بلاد أشور

نشاهد على هذه الكأس المستخرجة من نمرود تصميما أصوله مصرية فينيقية اذ نرى الدوائر الملتفة حول مركزها المشترك وقد أحيطت باطار من رسوم أبى الهول ذوات الأجنحة ورءوس الصقور يطأ كل منها أحد الأعداء وقد حليت جميعها بتاجى الشمال والجنوب كما عملت فواصل الوحدات المكررة فى هذه الزخرفة من جعران خبيرا Khepera-beetle .

على أن تياماط التى فوجئت بانتزاع زوجها دبرت الثأر له ، ولكى تحقق ذلك ولدت كثيرا من الضوارى مختلفة الأنواع وجعلت على رأسها كنجو Kingu ثم تأهبت لمحاربة الاله ، فلما سمع الاله أى بهذه المؤامرة اضطرب لها عقله واستصرخ أنشار Anshar فنصح له هذا بوجوب محاربة التنين لكن شجاعته خانته فلم ينفذ النصيحة ، لذلك أمر أنشار ابنه أنو بالاضطلاع بالمهمة لكن هذا أيضا لم يكد يرى التنين حتى تراجع من هول منظرها ، وانتهى الأمر بهم جميعا أن تضرعوا الى ماردوك ليتولى الأمر بنفسه فقبل راضيا قريرا ، وصمدت له الربة تياماط فنشبت بينهما حرب شعواء خرج منها الاله ماردوك ظافرا بعد أن شق التنين نصفين وأخذ كنجو أسيرا ·

وكانت هذه الحادثة بداية خلق الكون ، ذلك أنه حينما شق الاله ماردوك التنين نصفين كانت من أحدهما السماء ومن الآخر الأرض ثم تكونت الأجرام السماوية ونشأت مقاييس الزمن الخ ثم رأى أن يخلق الانسان لكى يعبد الآلهة حق عبادتها ، فعمد الى الطاغية كنجو وذبحه واستخدم دمه فى خلق الانسان ·

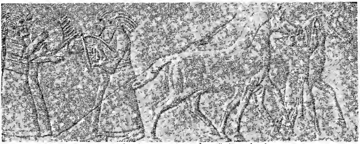


مثقال ميزان أشورى فى صورة أسد

وجد هذا المثقال فى نمرود ويرجع تاريخه الى ما بين سنتى ٧٤٥و٧٠٥ ق‌م تقريبا ويد المثقال (السنجة) مصبوبة على جسم الأسد المصنوع من البرنز وقد نقش وزنه على أحد جانبيه فالثلاثة خطوط القصيرة تمثل ثلاثة أسنان (والمن رطلان عربيان تقريبا)

هذه كانت أسطورة خلق العالم عند المتدينين منهم · ولم ير الأشوريون ما يدعو الى تشككهم فيها ، كما لا يرى الأعرابى الآن ما يدعوه الى الشك فى تعاليم معلميه · وهناك مجموعة من النصوص المختلفة التى تخلفت عن تلك العصور تدل على أنهم كانوا يعتبرون السموات طباقا ثلاثا فوق الأرض المستوية التى يحيط بها المحيط من جميع الجهات ؛ والشمس تشرق من كوة فى جبل الشرق وتغمر الكون كل يوم حتى تصل الى مغربها فى كوة أخرى فى الغرب · وامتدت تحت الأرضين ظلمات العالم السفلى التى تشمل موطن الموتى ذا الجدران السبعة ·

ومع أن ما وصل اليه الأشوريون من حقائق العلم كان محدودا ، فانه يمكن أن يقال انهم بدأوا بالفعل وضع علم الفلك على أسس مكينة · وان كانت غايتهم من جميع ما رصدوا تنجيمية فى معظم الأحيان · وكانوا يقولون بطبيعة الحال



العزف والرقص كما يشاهدان فى نقش بارز

وهو نقش على حجر المرمر من القرن السابع مستخرج من نينوى يتضح منه أن الأشوريين كانوا ذوى حساس مرهف بالجمال يستطيعون التوقيع خلال العزف والرقص ، ولم يكونوا فى تصوير أفكارهم بأقل نجاحا منهم فى هذا الفن الجميل ، ويسترعى النظر فى هذا الرسم من جهة اليسار جوقة من نافرى الدف وضاربى الصنوج ونوعان من المزاهر ، ويرى الراقصون يتابعون النغم بالخطى الرشيقة التى يمكن ادراكها من الحركات الدقيقة البادية فى الجسم والشعر والقدم معبرة عن وجدانات الراقصين

بوجود سبع كواكب وهى : الشمس والقمر والزهرة والمشترى وعطارد والمريخ وزحل ، ويصف أحد فلكييهم هذه الأجرام بقوله « انها نجوم تسبح فى مساراتها كل منها فوق الآخر » ولعلهم قد استطاعوا فى القرن السابع ق م أن يتنبأوا بخسوف القمر مستعينين على ذلك بدورة الثمانية عشرة سنة الزمنية — التى تتكرر فيها حوادث الخسوف — ولا شك فى أنهم استطاعوا التنبؤ بحوادث الخسوف المتوالية فى القرن الذى جاء من بعدهم وان كانوا لم يستطيعوا على الدوام أن يجزموا بأنها يمكن مشاهدته فى سماء بابل ٠

وقد أدى بهم شغفهم بالتنجيم الى اثباتهم وجود الكواكب فى نطاق هالات القمر الصغرى والكبرى ، كما أنهم قسموا منذ أقدم العصور مسار الشمس فى فلكها الى اثنى عشر برجا ، وقد رصدوا الزهرة بعناية عظيمة من عهد الأسرة الأولى البابلية (أمى زادوجا Aumi Zadoga) حوالى سنة ١٩٧٧ قم ٠

وقد بدأ وضع علم الفلك السليم بعد سقوط بابل سنة ٥٣٩ قم ، ثم أخذ ينموا ويتكون من ذلك الحين لغاية العصر المسيحى كما أثبته العلماء الذين سجلوا أرصادهم بالكتابة المسمارية ٠

ولم يبق علينا الا أن نلخص الفصلين اللذين ديجناهما عن البابليين والآشوريين بتتبع نمو العقل والكفاية فى الجنس السامى والأثر الباقى من ذلك الرقى فى الحضارات التى خلفتهم ٠ ثم نبحث عن أسباب رفعة الشعب السامى الذى سكن أرض الجزيرة وتلك التى آلت بهم الى الانحطاط ٠

والاجابة الصحيحة على هذين السؤالين تتطلب أولا استعراض الخلق السامى من حيث قدرته على التوسع وضيق أهدافه ٠ وجملة القول فى هذا أن هناك عاملين قد ضاعفا من نقائصهم حتى أصبحت أخيرا عائقا قويا حال دون وصولهم الى أوج العظمة وحرمهم من تسنم المكان اللائق بهم بين الشعوب المتحضرة ، وهذان العاملان أولهما خارجى وهو مناخ اقليم بابل الموهن للأعصاب، وثانيهما داخلى وهو تحفظهم الطبيعى، ومن المتعذر فى هذه الفصول توكيد الفروق الواضحة بين البابليين والآشوريين وابراز

مظاهر تقدمهم على كر العصور المختلفة ، اذ أننا لا نكاد نرى فى مدى الالفين أو الثلاثة الآلاف من السنين التى عمر فيها الساميون أرض الجزيرة الا النزر اليسير من معالم التقدم الانسانى المتفاوتة مع توالى العصور ، ولكن هذا الدهر الشاسع الذى كان يستطيع أن يوقفنا على الاستنباطات والحقائق وليدة تجاربهم فى مضمار العلوم المادية والعملية فدخلاخلوا تاما من الفلسفة النظرية التى ظلت الى سنة ٧٠٠ ق٠م جامدة على ما كانت عليه سنة ٢٠٠٠ ق ٠ م

أما اذا حاولنا أن نقول شيئا عن خلق الساميين القدماء ، فلا يفوتنا أن نثبت لهم صفة الأخلاص الشديد لآلهتهم ، دون أن يقضى هذا أنهم كانوا متعصبين لهم ، ثم اتصافهم بالوفاء لجنسهم أكثر من وفائهم لوطنهم وتحليهم بالشفقة والرحمة والاخلاص لأهليهم وأصدقائهم٠ أما فى الأعمال فانهم كانوا تجارا ماهرين وفى الحروب بواسل حكماء ، كما أوتوا تذوقا عظيما للموسيقى ويستدل على ذلك من الجانب الثقافى وأشعارهم المليئة بالخيال والجمال ، وأخيرا ادراكهم لدقائق الآداب ، وقد توفرت فيهم فى جميع ما باشروه من الأعمال نظرات عملية وكفاية عظيمة ، وكانوا على خلاف ذلك فى المعنويات المجردة الخاصة بما وراء الطبيعة ، فانهم لم يعنوا بالاتجاهات الفكرية المبتكرة وغلب عليهم الجمود فلم يقبلوا آراء جديدة فى الدين اللهم الا أنهم انتحلوا لآلهتهم أساطير الآلهة الاجنبية وجروا فى هذا الانتحال على عرف مقرر مألوف ، ومع أنهم تحرروا كثيرا فى ترجمة الملاحم الشعرية الأجنبية نراهم فى غاية التحفظ فيما نقلوه من طقوس الأمم السالفة قبلهم وصلواتها ٠ وقد عاقهم جمودهم هذا من حيث لا يشعرون عن أن يطبقوا تطبيقا صحيحا نتائج بحوث علمائهم الممتازين على عالم الطبيعيات التى لم يكن ليزيل ما علق بها من الأوهام التى لا نهاية لها الا ابتكار جرىء قادر على ازالتها ، وقد نشأت هذه الأوهام عند الأقدمين الهمج السذج ذوى التصديق الأعمى ، وتواترت حتى أصبحت عند أعقابهم عقائد لا يجرؤ أحد أن يتصدى لها لم تعهدها من بعدهم قساوسة زادوها رسوخا لأنهم لم يقبلوا فيها هوادة ولا تأويلا ٠

وقد آل الأمر بنتائج جهود علمائهم الى الفناء

الذاتى والانقراض بسبب ما فرضه عليهم الدين من قيـود شديدة لم يفـكر أحد فى محـاولة تحطيمها بل لم تبد من أحد الرغبة فى ذلك .

وقد أثبتت جميع أعمال الحفر المنتشرة فى بلدان الشرق الأدنى جمودهم هذا وافتقـارهم الى التجديد والابتكار ، فلا نجد مثلا فى أطلال فلسطين الا مخلفات أمة فى منتهى الفقر الفنى ، والعجيب الذى يناقض هذه الحقائق هو أن هذه المخلفات (كما فى جيزر Gezer مثلا) ترفع عقيدتهـا عاليـة بأن الاسرائيليـين كانوا هم الفلسطينيين حقا فى التفكير الفنى .

وقديما اسـتعار صانع المعـادن الفينيـقى رسومه من مصر ، ويخيل الينا أنه كان مثل عربى هـذا العصر انحصرت قـدرته فى اسـتعارته لمستحدثات الأسلحة أو آلات التلغراف مثـلا وهو يعتقد أن هذه الاستعارة هى ملكة الاختراع .

وكذلك يتجلى افتقار الساميين الى الابتكار طوال سيادتهم على بابل حيث كان السومريون هم المؤسسين لكل جديد ، أما الساميون فقد أخذوا عن غيرهم كل آدابهم تقريبا ، ولم يؤد بهم الخيال الى الابتكار الا فى النقوش التاريخيـة وفى تراجمهم الحـرة للاحم الأبطـال ، أما فى النحت فقد كان فنهم مستعارا من السومريين وان كان ذوقهم الفنى سـاعدهم على تحسـين ما تلقوه عن أسـلافهم . ثم استمروا الى آخر عهودهم يسـتخدمون ثمار الأفكار السومرية المقبـولة فى الرسم المنظور ولا ينكر عليهم أن ما اتصفوا به من كـفاية عملية قد أدى بهم الى التفوق فى سن الشرائع ، ومع ذلك فالراجح أنهم حتى فى هذه الناحية المستثناة كانوا على صلة بشرائع السومريين . ومما لا نزاع فيـه أن الساميين على اختـلاف مواطنهم مدينـون لجيرانهم دينا كبيرا وباقيا على ممر الزمان ألا وهو الحروف الهجائية التى استعاروها منهم .

على أنهم بالرغم من تحفظهم الشديد وهو الخصلة التى عرف بهـا معظم شعوب الشرق ، استطاعوا بقوة ملاحظتهم أن يفتحوا كثيرا من مغاليق الطبيعـة ، وها نحن أولاء مدينون لهم بكثـير من التراث الذى نقلته القـوافل منهم الى أوربا .

الفصل الثانى والثلاثون

الفتح الدورى والهجرات الأيونية

وهى فترة أضطراب وشدة حاقت بالعالم الاغريقى فى العصور المظلمه بعد حرب طرواده

تأليف و . ر . هاليداى W. R. Halliday

رئيس كلية الملك بجامعة لندن وأستاذ كرسى راثبون للتاريخ القديم بجامعه ليفربول سابقا
ومؤلف كتاب نمو دولة المدينة وغيره .

يرى اليونانيون أنفسهم أنه قد برز فى أخبار ماضيهم حدثان عظيمان لا بد أن تبدأ بهما أيه محاولة ترمى الى التعرف على هـذا الماضى . أحدهما « حرب طرواده » والآخر « عودة أسرة هرقل » التى يقال انهـا حـدثت بعد سقوط طرواده بنحو ثمانين عاما . وقد صيغت قصة « أطفال هرقل » صياغة تنم عن رغبة فى تبرير اعتلاء حـكام أرجوس الدوريين أريكه الحكم ، فاصطنعت لهم نسبه موروثه ليس لها أساس تاريخى صحيح ، ولكن مما لا شك فيه وقوع الحادثه التى تصفها هذه القصه .

وتروى القصـة أن هرقل التحق بخدمه ايجيموس الزعيم الدورى فى تسـاليا وقاتل اللابيثيين من أجله فكافأه على ذلك باقطاعه ثلث مملكته ، كما أيد أمـلاك هيللوس بن هرقل للأرض التى أستولى عليها أبوه وتبناه ايجيموس وساوى بينه وبين ولديه بامفيلوس وديمان . ومن ثمة جاءت نسبة القبائل الثلاث هيلليس وبمفلوى وديمانيز وتشـعبت منهـا جمـاعات الدوريين فى كل مكان .

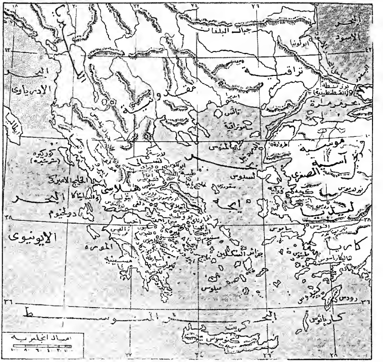
وقد بذلت محاولة فى الجيل التالى لاسترداد أملاك هرقل فى البليبونيز باءت بالفشل ، ولكن هذه المهمه تركت الى حفدة هذا البطل : تمنوس وكرسفونتيز وأرستود يموس ، فعبروا خليج كورنثة من مكان لبناء السفن يسمى ناوپكتوس بارشـاد زعيم أيتولى أعـور يدعى أكزيلوس واجتاح أكزيلوس وقومه ايلس وأقاموا فيها . أما باقى الجهـات المفتـوحه من البليبونيز فقد وزعت بالقرعة بين الأخوة المنتصرين ، فكانت أرجوس من نصيب تمنوس ، ومسينا من نصيب كرسفونتيز ، ولاكونيا من نصيب أرستودبموس على أن المنية أدركت أرستوديموس ، وخلف ولدين توأمين همـا أوريسـثينز Eurysthenes وبروكليز Procles اشتركا معا فى حـكم ملك أبيهما . وهـذا هو القول الذى ذهبت اليـه الأسـاطير فى تفسـير تلك الظاهرة العجيبة الا وهى قيام ملكية ثنائية فى تاريخ اسبرطه القديم .

احتلال البليبونيز

وهاجر الدوريون من أرجوس واسـتوطنوا سيكيون وفليوس وابيدوروس Epidaurus فى الشمال الشرقى من البليبونيز كما استوطنوا فيما بعد ايجينا Aegina أكبر جزيرة فى الخليج السارونى ، وفى هذه المنطقة انفردت كورنثه بروايات تنبىء بوقوع غزوة مستقلة من البحر قام بها « رحل جوال من أولاد الفرسان » (أليتيز Aletes ابن هيـوبوتيز Hippobotes) ومـكن لنفسه هنالك .

ولـكن كيفما كان مصـدر هـذه الغزوة فان كورنثة كانت خاضعة فى فجر تاريخهـا لسيادة أرجوس ، وربما كانت خيلاء الأثينيين قد دفعتهم الى المغالاة فنشأت من ذلك القصـة التى تقول بحدوث غزوه أخرى اجتاحت خليج كورنثه من الجنوب وشتت شملها الملك الشجاع كوردوس على حدود أتيـكا المنيعه الجـانب . ومما لا شك فيه أن ميجارا اجتيحت من جانب كـورنثه وصبغت بالصـبغه الدوريه فى زمن متأخر الى حد كبير عن الجهات الشماليه الشرقية من البليبونيز .

وعلى ذلك احتلت القبائل المغيره أجود أراضى البليبونيز جميعها ، ولـكن ماذا كان مصـير سكانها الأصليين ؟ لقد أنزل بعضهم الى مرتبة العبوديه وأصبحوا يعملون فى فلاحه الأرض لأسـيادهم الجـدد ، بينما هرب البعض الآخر بلا شك الى المنطقتين اللتين نجتا من الغـزو . وقـد انصرف الدوريون عن هضـاب أركاديا الجدباء الى فتوح أخرى أجدى عليهم كما تخـلوا



توزيع الدويلات الاغريقية بعد الغزو الدورى

يجدر بنا أن نسمى ما عرفه اليونان بعودة أسرة هرقل أو بالغزوة الدورية . هجرة عامة من مقدونيا أو شمال اليونان الى العالم الآخى قام بها قوم غلاظ يتكلمون اليونانية ، وليس ثمت ما يدعونا الى الجزم بأن هؤلاء جميعا كانوا من الدوريين الخلص • ذلك أن دخول البيوطيين والايتوليين مثلا فى النواحى التى نسبت اليهم فيما بعد كان بلا شك جزءا من هذه الحركات المجتمعة التى قامت بها الشعوب • وتبين هذه الخريطة بلاد اليونان فى شكلها الجديد الذى صاغه الدوريون • قارن هذه الصورة بالصورة التى فى ص (٦٥)

عن الشق الضيق الممتد بين جبال أركاديا وخليج كورنثه أى عن الاقليم الذى كان يطلق عليه آخايا Achaea فى الأزمنة التاريخية • على أنه سيتبين لنا أن اجلاء السكان من بلادهم ، وهو أمر استتبعته هذه الغزوة الواسعة النطاق ، كان له بلا شك آثار أبعد من الآثار المحلية التى نجمت عنه • ثم ان أركاديا وآخيا لم تكونا خليقتين باستيعاب جميع الهائمين على وجوههم لانهما أفقر المناطق فى بلاد لا تستطيع أن تعول فى أية ناحية من نواحيها حشدا عظيما من السكان •

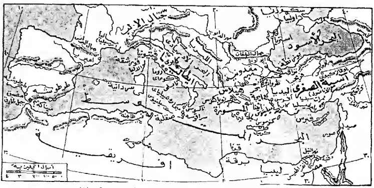
وقد حدثنا الرواة أن القسم الأكبر من السكان الأصليين آوى الى أتيكا • على أن عصمة أتيكا من الغزو وهو ما فاخرت به ، كان معظم الفضل فيه راجع الى فقر تربتها • فقد كان من المتعذر اقتصاديا أن تسع أتيكا هذا العدد الزائد من السكان الذى اندفع اليها وتسد حاجياتهم ، فتعين عليهم أن يبحثوا عن منفذ آخر • ومن ثم أبحر اللاجئون من البلبونيز قبل العصر الدورى صوب شاطىء آسية الصغرى حيث وجدت منطقة متوسطة بين مستعمرات الأيوليين شمالا والدوريين جنوبا ،

ولم يكن قد احتلها الاغريق بعد . ويعرف هذا الطور ، وهو آخر أطوار الاستعمار الاغريقى لشاطىء الأناضول الغربى بالهجرة الأيونيوية .

واذا كانت الهجرة الأيونيوية هى الطـــور الأخير من أطوار استعمار الساحل الأناضولى فكذلك يعد الفتح الدورى آخر حلقة فى سلسلة الهجرات التى غيرت أحوال العالم الاغريقى، كما تصورها الأشعار الهوميريه، الى تلك الأحوال التى سادت العالم فى الأزمنة التاريخية . وقد يكون من المناسب أن نطلق على بلاد الاغريق الهوميرية (أنظر الفصل ٢٨) أسم بلاد الاغريق الآخيـة ولكن صفة هؤلاء الآخيين ما زالت موضع نقاش لسوء الحظ . وكل من النظريتين الرئيسيتين فى هذ الشأن على شىء من الوجاهة كما أن كلا منهما تثير مشاكل خاصة بها . وقد يجنح كل دراس لهـذا العهـد الى تأيد هـذه النظـرية أو تلك ومع ذلك فان من العسير أن نزعم أن الأدلة التى بين أيدينا الآن تقطع ببطلان أحدهما بطلانا تاما وصواب الأخرى .

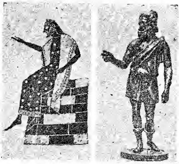
ونحن نميل فى الوقت الحاضر الى الزعم بأن اللغة اليونانية ربما كانت مستعملة فى شبه جزيره البلقـان فى زمن موغـل فى القـدم . ولا ينكر أحـد أن الفترة المتقـدمه من العصر الذهبى الميســينى التى تعرف بعصر القبــور البئريه قد استوحت أسباب المجد من كريت ، ولـكن بعض العلماء يرون أن الحكام المينوين العظام قد مدنوا آنئذ قوما يتكلمون الاغريقية ، وأن الآخيين كانوا قد استوطنوا بلاد الاغريق الشماليه وأنهم استولوا على الحكم فى وسطها وجنوبها فى بداية الفترة الثانية الكبيرة من العصر الميسينى . وقـد كان الملوك الآخيـين طبقا لهذا الرأى هم الذين بنوا المقابر التى على هيئه خلايا النحل وحكموا ميسينى التى ورثت مركز الزعامة للحضارة الايجية بعد ســقوط كنــوســسوس Cnossus التى كانت مـوئل السلطان المينيوى فى منتصف الألف عام. التالية قبل الميلاد . ويصف هوميروس فى ملاحمـه الحضارة الماضية بميسينى الزاهرة التى عرفت بالمقـابر التى على هيئــة خلايا النحل وبوابة الأسد وقد تكلمنا عنهما فى الفصل الخـامس والعشرين .

ويميـل علماء آخرون الى الشــك فى أن الميسينيين كانوا يتكلمون اللغة الاغريقيه وقت سقوط كنوسسوس، وأنا أوثر هذا الرأى لانى رجل من ذوى الميول العتيقه ، وهم يعتقدون أن الآخيـين كانوا غزاة وفدوا من أقصى الشمال



حركات يونانية كبيرة حدثت فى عهد التوسع اليونانى

مر التوسع اليونانى بمرحلتين متميزتين ـ المرحلة الأولى هى ما أعقب الفتح الدورى من تدفق المهاجرين تدفقا لا يتسم بنظام هم وغيرهم من المغـــامرين المشردين مما أفضى الى اقامتهم مستعمرات فى آسية الصغرى . أما المرحله الثانيه فهى ما وقع بعد ذلك فى القرن الثامن قبل الميلاد ، وكان الدافع اليه أسباب تتصل بالاقتصاد أكثر من اتصالها بضغط الغزاه على السكان ذلك أن الدويلات التى ازدحمت بالسكان فى اليونان نفسها وفى آسية الصغرى قد بدأت توفد من أهلها أناسا لاقامة مستعمرات خارجهما. وقد تناولنا هذه المرحلة بالتفصيل فى الفصل ٣٤ ، وهاتان الخريطتان تشيران الى هذا الفصل.



القميص الاغريقي القديم (الشيتون)
كما كان يلبسه الرجال

كان الاغـريقي في العصـور القديمة وفي الحفلات الرسمية يلبس شملة مخيطة ذات وشاح أو من غـير وشاح (الى اليسـار) وكانت الشـملة الدورية يلبسـها الرجال والنساء (الصورة السفلى) على السـواء وكانت قصيرة (الصورة اليمنى) لتناسب الرياضة – وكان الارقاء يلتفعون بها حـول أحد الكتفين

ذلك بسبب توغلهم توغلا تدريجيـا الى حد ما وقد نقلوا معهم اللغة الآرية وأسلوب الآريين في التنظيم الاجتمـاعي وطريقتهم في حـرق جثث موتاهم ومعتقداتهم الدينية التي كانت سببا في اختلاف أصول الآلهـة اليونانية في رواية هوميروس التي لا نستطيع أن نخـرج منها الا بمعلومات قليلة عن عقائد الميسينيين الدينيـة ·

ولكن سواء أكان هذا الرأى أو ذاك صحيحا فلا شك في أن بلاد الاغريق في عهد هوميروس كانت مختلفة تماما عن بلاد الاغريق في العصور التاريخية · وقد عرف هوميروس الحديد ولو أنه كان لا يزال نادرا · والآخيـون الذين وردوا في شعره هم الممثلون الحقيقيون لعصر البرونز · وحتى لو كنا على حق في اعتقادنا أن الآخيين غزاة وفدوا من الشمال فان اتصالهم الثقافي بالعصر الميسيني العظيم أقـرب من اتصـال الاغريق في عصر الحديد به ، مثال ذلك أن قصر الملك الكينوس Alcinous الفوقي Phaecian أفخر من أي بناء آخر قد نجده في بلاد الاغريق في عدة الأجيال التالية . كما أن زخرفته يتجلى فيها الطراز الميسيني بصفة عامة · ثم ان سلاح الجند في حرب طروادة ينم عن وجود فترة انتقال ، فقد كان يقاتل الى جانب محارب الشمال الذى كان يتسلح بزرد ودرع بقيانه ، أبطال تحميهم دروع صافية تعوق حركتهم أخذوها عن فرسان

النـظريات المتضاربة في أصل الآخيين

واجتـاحوا الحضـارة الميسينية في أطـوارها المتأخرة ، ولمـا كانوا أقليـة متسلطة فقـد طبعوا هذه الحضـارة بطابع الهمجية ولكنهم لم يهدموها ، وقد يكون



أقدم أزياء النساء في بلاد الاغريق في العصور التاريخية

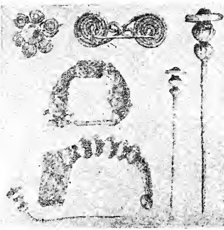
كان القميص الدورى القـديم (الشيتون) عبارة عن قطعة مستطيلة من القماش المصنـوع من الصوف أطول قليلا ممن ترتديه وضعف طول ذراعيها تقريبا واذا طوى كما في الشكل الذى الى اليسار انسدل على الجسم وترك الذراعان عاريين (الشكلان في الوسط مأخوذان من صندوق للزينة) · وكان يلبس عادة حزام لكي يبقى طرفا القميص مضمومين · والقميص الأيونيوى (الى اليمين) كان يمتاز بأنه فضفاض من الـكتان اللطيف الشـفاف وله أكمام واسعة وحزام في الوسط ·

الايجيين ، وكانت تغطى أجسامهم من الرقبة الى الكعب ·

ولا يزال العالم الاغريقى فى أوربا كما جاء فى أشعار هوميروس وحدة غبر متماسكة ، وان تجانس كله أو كاد فى الحضارة ، كما أنه قادر على الائتلاف فى سبيل القيام بمغامرات تحقق مصلحته، على حين نرى بلاد اليونان بعد العصر الهوميرى منقسمة كما كانت فى الماضى دويلات حدث فيها حقا تطور مماثل ولكنه تطور يمتاز فى كل من هذه الدويلات بطابع محلى متميز · أما فى آسيه فلم يكن الاغريق فى عهد الملك بريام Priam قد استوطنوا بعد على الاراضى الساحلية ، وكانت ملطية Miletus مدينة كارية · غير أن تقدمهم شرقا كان قد بدأ · وفى الشمال كان يحكم جزيرة لمنوس Lemnos أحد أبناء جاسون Jason وجاسون هذا هو قائد الأبطال الذين أبحروا فى سفينة الأرجو من ايولكوس Iolcus فى خليج پاجاسيا الى كولخيس Colchis ليجلبوا الى وطنهم الثروة الذهبية · أما فى الجنوب فقد بلغ الآخيون جزيرة قبرص بينما وصل الدوريون الى شرقى كريت ، والى رودس على ما يظهر ·

وقد تشير هذه الحقيقة الأخيرة الى أن الحركة الكبرى التى قدر لها أن تمزق الحضارة الآخية كانت قد بدأت ، والظاهر أن هذا هو الذى حدث فعلا · ويحتمل أن تكون حرب طروادة التى فرضت عبئا باهظا على نظام متداع قد عجلت بالكارثة · وتجمع الروايات على أن الزعماء الآخيين عادوا الى بلاد الاغريق وهى نهب للفتنة والاضطراب ، ومع أن الحملة قد تكللت بالنصر بعد عشر سنين لقيت فيها الشدائد والمحن ، فان قصة عودتها لم تكن نشيدا من أناشيد الظفر ، وانما كانت مأساة لم ينكشف عنها الستار بعد ·

ولعل اليونانى القديم كان يفهم من عبارة « الغزو الدورى » « عودة أطفال هرقل » الى البليپونيز وكان يفهم من كلمة « الدوريين » الأفراد الحاكمين لعدد محدود من جماعات بعينها يوجدون غالبا فى البليپونيز والجزر الجنوبية فى بحر ايجة، ويشهد على جنسيتهم وجود القبائل



مشابك القميص الدورى

كانت الدبابيس ومشابك الصدر شائعة فى بلاد الاغريق منذ عهد مديد حينما استعمل القميص الدورى · ويرى الى اليمين نموذجان من النوع الأول البالغ الطول أما المشابك فكانت ذات أشكال متعددة ولكنها كانت فى الغالب حلزونية (أعلى) أو مقوسة قليلا أو كثيرا (الوسط) وتشبه أحيانا دبوس الأمان

الدورية الثلاث المتميزة فى صلب نظامهم الاجتماعى · على أن تيسير بحثنا يقتضينا أن نستعمل عبارة الفتح الدورى فى نطاق أوسع بحيث يشمل السلسلة المتصلة لحركات الأجناس التى ختمت بفتح البليپونيز ، والتى قامت بها مجموعة من الشعوب وثقت بينها اللغة ، وكان الدوريون شعبا منها ، ذلك أن القرون الأخيرة من الألف الثانى ق·م · شهدت شعوبا يحتمل أن يكون موطنهم الأصلى فى اللليريا ، تغزو جنوب شبه جزيرة البلقان من الشمال ·

سلاح الغزاة ولباسهم

وكان هؤلاء المحاربون من ذوى البأس والعزم المكين ، وكانت لهم الغلبة والقهر بفضل تفوقهم فى السلاح · وكانت سيوف الطعن الآخية المصنوعة من البرونز والتى تنكسر اذا أصابتها ضربة مباشرة لا تماثل سيوف أهل الشمال القاطعة المصنوعة من الحديد · وكان مما تميز به هذا العصر أيضا ذلك الضرب الجديد من اللباس الذى أدخله الغزاة الوافدون من بلاد أكثر برودة من البلاد التى فتحوها ·

وكان الدثار الخشن لا يخاط أو يفصل بحيث

يناسب الجسم ، أو تركب له أزرار ، وكان يلفع به بطول حافته العليا بحيث تمتد طيته من العنق الى الخصر تقريبا ، ثم يلف حول الجسم ويثبت فوق كل كتف بمشابك أو بدبابيس الأمان . وقد تطورت من هذا الدثار البسيط فيما بعد كل الأنواع المختلفة المهذبة للشملة الاغريقية .

وقد استعملت في أثينا مشابك الصدر الكبيرة التي هي من أخص خصائص عصر الحديد في بلاد الاغريق ، وظلت النساء الدوريات في أرجوس وأسبرطة وكورنثة وايجينا يستعملنها بعد استعمال الشملة الأيونيوية بزمن طويل ، وهذه الشملة لم تكن في حاجة الى مثل هذه المشابك ويقص علينا هيرودوتس قصة تغيير الزي في

وكان لا مفر من أن تصيب تساليا الصدمة الأولى من الغزوات لأن سهلها أكثر بلاد الاغريق خصبا وأفسحها رقعة ، ومن ثم كانت غنيمة يطمع فيها الطامعون ، فتبادلتها الأيدي أكثر من أي بقعة أخرى فيما قبل التاريخ ، وتوجد في أشعار هوميروس أشارات تنبيء بأن ساكنيها قد بدأ شملهم يتشتت قبل حرب طروادة وأن كان احتلالها على يد أهل تساليا لم يتم الا بعد سقوط طروادة .

وطبيعة الشواهد التي بين أيدينا لا تسمح لنا بأن نستعيد على نحو محقق تفاصيل هذا الغزو ، وسوق الحديث في ترتيبها الزمني ، على أن الشك لا يساورنا فيما انتهت اليه النتيجة التي ترتبت على تقدم الغزاة من الليريا Illiria



پليوس يصطاد الخنزير الكاليدوني

كانت الجبال في صميم ايتوليا تحوي كثيرا من الحيوانات المفترسة وقد اشتهرت في الأساطير القديمة بصيد الخنزير الذي أرسلته الالهة ارتيميس Artemis لافساد حقول كاليدونيا لأن أونيوس Oeneus ملك كاليدونيا أهمل تقديم القرابين اليها . وكان صيد هذا الخنزير موضوعا شغف به الفنانون والنحاتون الاغريق ومن ثم رسم على الجزء الأعلى من رقبة الآنية التي عرفت « بزهرية فرانسوا » في فلورنسا والتي رسمها كليتياس Clitias حوالي منتصف القرن السادس قبل الميلاد .

أثينا ، وهي قصة قد لا تكون تاريخية بالمعنى الدقيق ، ولكنها تفسر كبر حجم هذه الدبابيس . وقد أنفذت حملة من أثينا لغزو ايجينا Aegina ولكن رجالها أبيدوا عن آخرهم ، ما عدا رجلا واحدا بقي على قيد الحياة فأعيد الى وطنه ليروي قصته ، فلما بلغ أثينا قابلته زوجات رفاقه وأمهاتهم ، فطعنته بدبابيس مشابكهن طعنات قضت عليه ، ذلك أن كل واحدة منهن كانت في طعنها له تسأل عن مصير زوجها ، ومن ذلك الوقت اضطرت نساء أثينا كما يحدثنا هيرودوتس الى ارتداء الشملة الأيونيوية التي لم تكن مثبتة بدبابيس ، ولكنه يقرر أن الارجيفيين Argives والايجينتيين Aigintans صنعوا مشابكهن في نصف الحجم الأول .

ولعلنا نذكر أن ايجيميوس Aegimius كان ملكا في تساليا حينما التحق هرقل بخدمته .

ذلك أنهم غلبوا على جميع السهل الأوسط الكثير الخيرات ، ونزلوا بعض سكانه الأصليين الى مرتبة رقيق الأرض ، وبقي هؤلاء في موطنهم على حين طردت منه طوائف كثيرة . وكان البووطيون على حد قول الروايات الاغريقية من بين هذه الطوائف التي دفعها التساليون فيما بعد الى وسط بلاد الاغريق فنسبت اليهم بووطيا

واذا كانت هذه الرواية صحيحة فلا بد أن يكون البووطيون الذين تؤيد لهجتهم احتمال وفودهم من جبال بوون في الليريا ، قد مثلوا الموجة الأولى للغزاة الذين نجحوا في انشاء مستعمرة موقوتة في تساليا ، الا أن موجة غزو تالية طردتهم منها . ويظهر أن قبائل أخرى طردت غربا وراء جبال پندوس الى مولوسيا

Molossiaوالاقليم الواقع حول خليج أمبراكيا Ambraciaبينما سمح لغيرها من القبائل أن تستقر فى مكان بذاته لا تريم عنه فى التلال المحيطة بالسهل الخصيب ، ومثال ذلك شتى السكان فى الاقليمين اللذين عرفا فيما بعد باسم آخيا فثيوتيس Achaca Pathiotis وماليس Malis

أما فى جنوب تساليا فيظهر أن الموجة الكبرى للغزو كانت تنساب صوب سلسلة جبال پندوس • وكان اقليم دوريس الصغير فى أواسط بلاد الاغريق يزعم أنه دورى أصيل وأنه موطن دوريى الپلپونيز ومن ثم فان هذه الموجه الكبرى قد اكتسحت دلفى حتى شواطىء خليج كورنثه حيث يحتمل أن تكون قد التقت بموجه فرعيه أخرى لم تكن فى معظمها من الغزاه بل من ضحايا الغزو •

والى الغرب من دلفى تقع ايتوليا التى تحتل مركزا هاما فى الأساطير الاغريقيه ، ففيها على ما يقال اكتشف الكرم ، كما أن مجموعه القصص التى تدور حول صيد الخنزير الكاليدونى تشهد بأهميتها فى عصور ما قبل التاريخ ، ثم أن ايتوليا كانت الى ذلك قد اشتهرت بسمعه قبيحه ، هى أنها أكثر أقاليم بلاد الاغريق تأخرا وأقلها مدنيه ، وربما أمكن تفسير التباين البارز بين ايتوليا كما وصفتها الاساطير وايتوليا كما وصفها التاريخ بتلك الغزوات التى شنها الالليريون Illyrians الهمجيون والتى لم يفق منها قط هذا الاقليم الاغريقى الذى لم تتوافر فيه المميزات الطبيعية التى توافرت لغيره من مراكز الثقافة القديمة •

ومما لا شك فيه أن الايتوليين Aetolians وأغلبيتهم من المهاجرين الذين جردوا من ممتلكاتهم ، قد أبحروا مع الدوريين واحتلوا ايلس Elis وقد تكون الرواية القائلة بأن الاسم توپكتوس يذكرنا برحيل غزاة الپلپونيز روايه صحيحة ، ولكن هناك مجالا كبيرا للشك فى الروايه التى تقول بابحارهم رأسا عبر الخليج وانمامهم غزو الپلپونيز برا من ناحيه الشمال • ومن الارجح أن جماعات متفرقة التفت فى أوقات مختلفه حول سواحل البلپونيز لمهاجمه لاكونيا Laconia وأرجوس وكورنثة من ناحيه البحر ، كما يحتمل أن يكون بعض دوريى كريت وغيرها من الجزر قد أنشأوا أيضا مستعمراتهم بطريق البحر من خليج كورنثه فى هذه المرحلة من مراحل الهجرة •

والحق أن الهجرة التى تبدو فى الروايات القديمه كالسيل المتدفق من الجبال كانت بلا شك أبطأ من ذلك وأقل انطلاقا الى الهدف الذى ترمى اليه ، ويحتمل كل الاحتمال أنها قد استغرقت وقتا طويلا فى بلوغ هذا الهدف كما شملت رقعه واسعة تعدت سبيل الهجرة الرئيسى • الا أن هذا السبيل تجاوز غرب أتيكا بكثير • وقد زعم الأثينيون أن بلادهم هى المنطقة الوحيدة فى أواسط بلاد الاغريق التى بقيت على حالها ولم يمسها غزو • وقد زعمت مثل هذه المزاعم أركاديا القائمه فى الپلپونيز وهى بلاد لم تكن لتغرى الغزاه نظرا لشدة وعورتها وفقر تربتها ، والحق أن هذه الحقيقة الكبرى تدعمها الشواهد المستمدة من توزيع اللهجات الاغريقية •

تقسيم اللهجات الاغريقية

تقسم اللهجات الاغريقيه غالبا الى ثلاث مجموعات كبرى هى : الايوليسيه والايونيوية والدورية • وهذه الأسماء هى صدى لنتائج استعمار الاغريق للشاطىء الأسيوى حيث توجد ايوليس فى الشمال وايونيا فى الوسط ودورس Doris فى الجنوب ، فاللهجة الايوليسية Aeolic أو قل مجموعه اللهجات الأيوليسيه قد تكونت فى معظمها من خليط من اللغة الاغريقيه التى كان يتكلم بها ضحايا الغزو الالليرى ومن لهجة تنتمى الى نفس الأصل الذى تنتمى اليه اللغة الدوريه • ويعزى تعدد هذه اللهجات اجمالا الى اختلاف درجة اختلاط السكان فى المناطق المتعدده ، مثال ذلك اللهجه التساليه فهى تدل على أن الغزاه كانوا يهملون لغتهم الأصليه ثم اصطنعوا فى الواقع لغه سكان البلاد المفتوحه.أما بخصوص اللهجه البووطيه فان لغه السكان الأصليين قد تأثرت الى حد كبير بذلك الخليط العظيم من لغات الفاتحين • وكان السكان فى جميع انحاء شمال بلاد الاغريق ووسطها يتكلمون أنواعا مختلفه من اللهجات الأيوليسية الاغريقيه ما عدا منطقة واحدة هى أتيكا التى كان لها وحدها لهجة مختلفة عن لهجه هؤلاء ولا تتصل اتصالا وثيقا الا باللهجة الأيونيوية •

أما فى الپلپونيز فقد كان أهل أيلس التى أستقر فيها الايتوليون يتكلمون كما كان يتوقع بلهجه من اللهجات الايوليسيه ، وقد انتشرت اللهجة الدوريه فى الأراضى التى غزاها الدوريون • على أن اللغة الاركاديه تخرج عن نطاق التقسيم الثلاثى المصطلح عليه ، فهى ليست أيوليسية

أو دورية أو أيونيوية بل هي في الواقع فريدة في نوعها اذا استثنينا حالة ظهورها ثانية في جزيرة قبرص حيث نقلهـا المهاجرون في زمن بعيد جدا كما تدل على ذلك الشواهد ٠

مشكلة اللغـة الأركادية

ومن العسير أن نتحاشى القول الذي يقرر أن اللغة الأركادية كانت لغــة البليوبنزيين قبل العهد الدوري ، ونقلها جماعة منهم الى جزيرة قبرص قبل الغزو الدوري ٠ أما في موطنها الأصلي فقد بقيت هذه اللغة مستعملة بعد ذلك في منطقة من المناطق التي لم يمسسها الغزاة على حـد قول الروايات ٠

وكان لا مفر من أن تنشأ عن ابغال أهل الشمال في شبه جزيرة البلقان حركات أخرى بين السكان ، ذلك لأن بلاد الاغريق الشمالية والوسطى لم تكن أكثر استعدادا من البليبونيز لايواء مثل هذه الزيادة العنيفة المفاجئة في عدد السكان ، ثم ان قيام عهد طابعه العنف يحدث بعض الآثار النفســية فضلا عن أن معقبـاته لا تقتصر على تخليف لاجئين مستيئسين جردوا من أوطانهم يبحثون عن أوطان ، بل تشمل أيضا غزاة لا يقنعــون بفتوحاتهم ومحاربين فقــدوا رغبتهم في الاستقرار ومغامرين تدفعهم روحهم الثائرة الى احتقار حياة اللين والدعة ٠ ومن أمثلة هؤلاء الصورة التي رســمها هوميروس لجواب من الجوابين في القصة التي أبتدعها أودسيوس Odysseus لاشباع فضول راعي الخنازير الأمين اذ لم يكن قد رغب أن يكشف له بعد عن حقيقة شخصيته ٠

فقد أدعى بأنه كان الابن غير الشرعي لزعيم كريتي غطت بسالته الفائقة على ماكان يشينه من وضاعة النسب وأكسبته مالا وشرفا «وكذلك كنت أنا في الحرب ، ولكني لم أكن أحب قط العمل في الحقول أو الاقتصاد المنزلي أو تنشئة الأطفال ، على أن السفن بمجاذيفها كانت محببة الى نفسي هي والقتال والسهام الصقيلة والنبال ، تلك الأدوات المهلكة التي أعتاد غيري أن يرتجف منها » ويستمر في ذكر فعاله خلال تلك السنين الطويلة في طروادة ، وكيف عاد الى وطنه سالما ولكنه « لم يستقر في مسكنه الا شهرا واحدا ينعم بأولاده وزوجه وكل ما كان يملك » لأن روحه الثائرة دفعته مرة أخرى الى الســياحة فأعد أسطولا من تسع سفن لغزو أراضي مصر الخصبة ٠

وبعد رحلة أستغرقت خمســة أيام كانت الرياح فيها شمالية تســاعد السفن وتدفعها من الخلف ، وصلنا الى مصب نهر النيل « وأنقض بحارتها على حقول المصريين فأتلفوها رغم جمالها الفاتن وســاقوا أمامهم زوجاتهم

أودسيوس مثال جواب البحار

وأطفالهم وذبحوا رجالهم » ولكن القراصنة كما حدث لأودسيوس في اسماروس أضاعوا وقتا طويلا فلم يستطيعوا الافلات بغنائمهم قبل أن يجمع الأهالي جموعهم ، وقد فتكت هذه الجموع بالغزاة فتكا ذريعا الا أن بطلنا أفلت والتحق بخدمة ملك مصر ٠

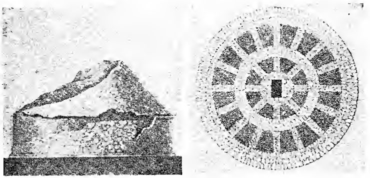
وقضى أودسيوس سبع سنوات يخدم فرعون مصر خدمة شريفة ، ثم أغراه محتال فينيقي بترك مصر وغرر به آخر الأمر للقيام برحلة الى ليبيا ، ولكنه كان في الحقيقة يقصد أن يبيعه فيها عبدا ٠ الا أن غرق السفينة أنقذه من هذا القضاء الذي كان ســيحل به ، ذلك أنه تعلق بســارية السفينة الغارقة فألقت به الأمواج على شاطيء تسبرتيا Thesprotia حيث أحسن الملك استقباله وأنزله في سفينة تقصد الى دوليخيوم Dulichium وما ان أبحرت السفينة حتى عزم بحارتها على خطف راكبهم ليبيعوه عبــدا ٠ ومع هــذا فان السفينة لما رست في اثاكا Ithaka أسرع البحارة الى البر تاركين أسيرهم لا يستطيع فكاكا كما ظنوا لأنه كان موثقا بالحبال ، الا أنه نجح في أن يحرر يديه ويفك قيوده ويزحلق الصقاله في الماء ويسبح في صمت الى البر حيث أختفى في الأدغال حتى زال خطر القبض عليه مرة أخرى ، ثم أتجه صوب مسكن أيومايوس Eumaeus

وقصة أودسيوس قصة خيالية الا أن خيالها كان مستلمحــا الى حد أنه خدع أيومايوس وهي تزودنا في الواقع بصورة صحيحة عن طراز من الرجال كان معــاصرا لهــذا الجواب الذي أرهصت مغامراته بالهجرات التي وقعت من بعد على نحو ما أرهص الغزاة القوطيون الذين عاشوا في القرن الثالث بعد الميلاد بالحركات الجنسية الـكبيرة التي قوضــت أركان الامبــراطورية الرومانيـــة ٠ وقد أطلق أبطال هوميروس على أنفسهم أسم « ناهبي المدن » وكانت القرصنة حرفتهم المشرفة ٠

وقد أقيمت البلدان على التــلال بعيدة من الشاطىء وقاية لها من المغيرين ، وكان جواب البحار يستطيع أن يرسو فى البقعة التى تحلو له ، وينفذ رجاله لجمع الأسلاب وسبى النساء ، وكان فى مقدوره أيضـــا أن يبيع فى الأسواق الأطفال والأسرى من الذكور ، على أن الاحتفاظ بالبالغين من الذكور كان يكتنفه لأسباب لا تخفى

جماعة من الجماعات هيئة منظمة من المستعمرين تحت امرة قائد تحقيقـــا لغرض معين • ولو أن حملة من هذه الحملات وهى حملة استعمار سخريا Scheria قد ذكرت حقا فى أشعار هوميروس • وأحرى بالمرء أن يعلم أن الذين قاموا بهذه الحملات الأولى هم جماعات

جماعات مختلطة من المهاجرين



أثر حضارة من حضارات آسية الصغرى فقدت منذ زمن بعيد

أشهر آثار الحضارة قبل الهللينية التى قامت فى اقليم سيبيلوس Sipylus فى آسية الصغرى بين خليج أزمير Smyrna ومانيسا Nanissa الحديثة هو الأثر الذى عرف بمقبرة تانتالوس Tantalus (الى اليسار) • وكانت الــكومة التى تعلوه تكون دائرة كاملة شـــيدت بالحجر المبنى بالملاط • ونحن نرى من تخطيط الأساس (الى اليمين) أن ســـتة عشر حائطا تتفرع من الدائرة الخارجية الى دائرة داخلية ثم امتـــدت الى المحور مكونة ثمانية أقسام مسورة ، وفى سرتها حجرة مستطيلة لدفن الموتى

على أحد ضياع للوقت ومشقة ، ومن ثم كان من الأوفق فى غالب الأحيان التخلص منهم والمبادرة الى قتلهم • أما بقية رجال الجواب فــكان ربان سفينتهم المحنك يقيمهم لمراقبـــة تجمع العدو وتقدمه وحماية مؤخرة رواد الأسلاب فى عودتهم بها الى الســـفينة ، لأن النجاح فى ذلك منوط بافلاتهم قبل أن يجد السكان متسعا من الوقت للتكتل جمـــاعات غفـــيرة لا يمكن الصمود فى وجهها •

والقرصان الذين قادوا الهجرات فوق متن البحـــار كانوا من نفس طراز (ناهبى المدن) الذين ورد ذكرهم فى أشعار هوميروس ، وكانت فى الجملة هجرات وليست حملات اســـتعمارية كتلك الحملات التى تمت بعد ذلك حين أرسلت

مختلطة من رجال مغامرين وآخرين بائسين وكان الأتباع فى أغلب الأحيان من الشـــعوب المغلوبة • أما الزعماء فكانوا من الدوريين ومثال ذلك الروايات الخاصـــة بالاســـتعمار اللاكونى Laconian لجزر كيكلاديز Cyclades وكريت •

وامتدت حركات الشعوب فى تساليا وأواسط بلاد الاغريق الى ما وراء البحـــر • وقد ذهب البعض الى أن الدوريين الذين يبدو أن هوميروس كان يعرفهم فى كريت ورودس فى أيام حروب طرواده كانوا قد أبحروا من تساليا المفتوحة حديثا ، ويؤيد هذا الرأى أسماء الأماكن فى شرق كريت • ومن الواضح أنهم لم يـــكونوا يستطيعون النزوح من أرجوس أو اســـبرطة قبل غزو الدوريين للبلبونيز رغم أن مستعمراتهم عزت فيما بعد بهجرات أخرى من أسبرطة



فن دينى تقليدى

يتمثل فى هذه الشقفة البووطية ذات الرسم الهندسى المسحة التى أصبحت تقليــدا فى الفن الدينى ، وهذه الشقفة تصور الآلهة البووطية يحف بها من الجـانبين اسدان ٠ وهذا الأسلوب فى تزيين الأشكال برسوم هندسية هو أول مبتكرات الفن الاغريقى

وآرجوس ، على أن المغامرين واللاجئين القادمين من شمال بلاد الاغريق ووسطها سلكوا فى الغالب طريقا آخر كان قد ارتاده الأرجونوت Argonauts من قبل ٠ ونخلص من هــذا الى أن الايوليين Aeolians استوطنوا الجزر الشمالية والشاطىء المقابل لها واتجــه تيار الهجرة الرئيسى ناحية الشرق على طول خط العرض نفسه تقريبا ٠

وبعد فتح البيلبيونيز خرجت هجرة مماثلة من أرجوليس Argolis ولاكونيا Laconia فى اتجاه الجنوب والشرق ، واحتلت جماعة من السكان الزائدين تحت قيادة زعيم دورى جهات كيكلاديس Cyclades الجنوبيــة وكريت وكاربانوس Carpathus ورودس والركن الجنوبى من الشاطىء الاسيوى ، وأخيرا وفد الأيونيون على المنطقة الوسطى كما رأينا ، وكانوا خليطا كبيرا من النــاس لم يقتصر على مهـاجرى البلبونيز وزعمائهم الأثينيين ، بل انضم اليهم قوم كثيرون من أهالى أواسط بلاد الاغريق ٠ ومن ثم فان الذى حدث هو أن الايونيون لم يتوجهوا بعبادتهم فى أول الامر للآلهة الحـارسة لأثينا بل انصرفوا الى عبادة رب من الأرباب البووطية هو بوسيدون هليكونيوس Poseidon Heliconius

وعلى هــذا فنحن نتســاءل أكان من قبيل الصــدفة أن تترك هــذه البقعة الصالحة ذات الموقع المتوسط ليحتلها آخر المهاجرين جميعا ٠ الحق أن من العسير أن نذهب هذا المذهب ، ذلك أن الشواهد الأثرية التى قد نميط يوما اللثام عن الكثير من هذه المعضلات ما زالت لسوء الحظ مطمورة تحت الثرى ، ولم يكشف بعد الا عن

عدد قليل من الأماكن القديمة الواقعة على هذا الشاطىء ، بل ان التنقيب الذى جرى فيها كاد أن يقتصر فى جميع الأماكن على سطح الأرض فحسب ٠ ولعلنا نطلق القول على عواهنه اذا ذهبنا الى أن ممرات أبونيا البـــارزة ــ حيث تهبط الطرق الطبيعية الرئيسية من آسية برا الى البحر مارة بأودية الأنهار ــ لم تكن كلها خافية عن أعين المغامرين الأوائل ٠

ولعل هناك سببا سياسيا يفسر ما أبداه الوافدون الأول من تردد واضح فى الاستيلاء على أصلح البقاع ملاءمة لهم ، ذلك أن مزاياها الحقيقية قد حدت بمستوطنيهــا الى التمكين لأنفسهم فيها بفضل ما قام بينهم من حضارة وطنية مكينة ، ومن ثم كان غزوها أكثر صعوبة ٠ ويؤيد هذه النظرية على الأقل الآثار السابقة للعصر الهلليني ، والتماثيل المنحوتة من الصخر ، والمقابر المعروفة باسم مقابر تنتاليد Tantalid

وتتحدث الأساطير الأصلية وما اشتملت عليه من قصص تروى أخبـار المحاربات المسترجلات Amazons وقصص تــروى أخبـــار التلخينيز Telchines والسحرة صناع المعادن الــكريتيون



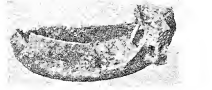
تسوية البووطيين للأشكال تسوية فجة

أغلب التمـاثيل الصغيرة المـكتشفة فى الدساكر الحقيرة فى بووطيا القديمة عبــارة عن صور نساء معظمهن ثقيلات الردف ، وتنم هذه الأشــكال فى صنعتها على أنها فى أول مراحل البدائيــة ٠ وترجع هــذه النجارب الفجة الى ما بين القرنين السابع والسادس قبل الميلاد ٠

عن الشاطىء فتجعله موضوع التقاء الثقافتين المينوية القديمة Late Minoan والحيثية Hettite وهناك رواية قوية السند تقول بوجود حضارة قومية هى الحضارة الكاروللجية Caro-Lelegran امتزج فيها هذان المؤثران .

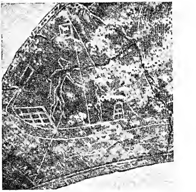
لم تكن القواعد الاغريقية المتصلة اتصالا مباشرا بحروب طروادة قائمة على هذا الشاطىء بل كانت متوغلة توغلا أبعد من هذا ناحية الجنوب الشرقى حيث يعتقد الناس أن الأبطال المتجولين أمثال العراف موبسوس Mopsus قد أقاموا مراكز أمامية للحضارة الهللينية فى أراضى المتبربرين . أما الشاطىء الغربى فيظهر أن قوات وطنية قد سيطرت عليه فعلا سيطرة تامة ، الا أن الهجرات الأوربية اتسع مداها وبلغت من الشدة والبأس بحيث عجزت هذه القوات عن الصمود فى وجهها ، ولم تقم أية مستعمرة من مستعمرات الاغريق الرئيسية فى موقع جديد . كما أشار الى ذلك الدكتور هوجارث Hogarth – بل كانت جميعها مسكونة قبل قدوم الاغريق بوقت طويل .

وغلب الاغريق فى جهات متعددة وبأساليب متباينة ، وأمثال ذلك ما حدث فى كيمة الايلية Aelian Cyme فقد استقر المهاجرون الاغريق الأوائل بادىء الأمر فى معقل قريب عند الحصن الجديد Neon Teichos ثم هجروه عندما آنسوا فى أنفسهم القدرة على الاستيلاء على المدينة . وقد تمت لهم هذه الغلبة فى معظم الأحيان بالتسرب التدريجى أكثر مما تمت بالهجوم العنيف المفاجىء ، فالمستعمرون كانوا كما رأينا



قوارب صيد قبرصية

أبقت لنا النماذج الكثيرة المصنوعة من الطين المحروق فى أماثوس Amathus بقبرص على شكل قوارب الصيد الاغريقية التى ترجع الى أواخر القرن السادس قبل الميلاد . يلاحظ هنا مؤخر السفينة المرتفع المعدلدير الدفه .



اليخوت الاغريقية القديمة

ولم يقتصر اليونان القدماء على بناء السفن التجارية الكبيرة بل ابتنوا أيضا قوارب صغيرة رشيقة الشكل مثل القارب المرسوم على مشبك من بووطيا وكان لكل قارب سارية واحدة ومقدم ومؤخر مرتفعان وسطحان صغيران وممرات شبكية

قوما من أصول متباينة كل التباين ، ومع ذلك فان الاستعمار استتبع فوق ذلك اختلاط الأجناس فى معظم الحالات ، ويحدثنا هيرودوتس حديثا حازما بأن الاغريق فى ملطية Miletus تزوجوا من زوجات كاريات . ويجوز لنا أن نظن أن الوافدين الجدد قد جلبوا معهم نساءهم فى قليل من الأحيان . والحق أن الجنس الاغريقى قد استطاع فى معظم مراكز الحضارة الاغريقية الجديدة هذه أن يؤلف طبقة حاكمة من الأشراف بين مواطنين أكثر منهم عددا .

وقد سبق أن لاحظنا أن الغزوات الالليرية لشبه جزيرة البلقان غيرت الخريطة الجنسية والسياسية لبلاد الاغريق الآخية ، فانقطع بذلك حبل الثقافة المتصل الحلقات ، وأصبح من الضرورى أن تقوم الحضارة من جديد تقريبا . ولم تولد الثقافة التى تسمى بحق ثقافة اغريقية الا فى العصر المظلم الذى تلا هذا الاضطراب الذى أصاب السلالات البشرية .

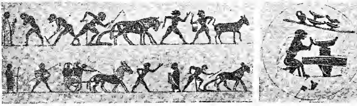
ومن حسن الحظ أن الحضارة لا يمكن أن يقطع حبلها انقطاعا تاما فى وقت من الأوقات ، فالمواهب الموروثة والغرائز النزاعة الى الجمال قد بقيت بلا شك حية بين الشعوب المغلوبة ،

وقد كان لهذه الشعوب نصيب فى اختلاط الأجناس الذى أسفر عن تكوين سكان بلاد الاغريق فى العصور التاريخية . ويحتمل أن يكون ما ورثناه أو أعدنا كشفه بطريق الصدفة من الآيات الفنية للعصر البرونزى قد أثر فى فن حرف بعينها أو فى المذهب الفنى الذى سلكته . وقد بقيت فى الفنون الدينية بواعث تقليدية معينة مثل وضع إلهة من الآلهة أو معبود من المعبودات بين طائرين أو حيوانين، واستمرت هذه البواعث حتى دخلت العصور التاريخية . ومع ذلك فمما لا شك فيه أن فى عقائد الاغريق الدينية وشعائرهم أشياء كثيرة أخذت من سلالة البحر الأبيض المتوسط الداخلة فى تكوينهم الجنسى ، وقد حافظت الأشعار الهومرية على صور من ذكريات الآخيين متصلة دقيقة الى حد كبير ، ونعنى بها ذكرياتهم عن المجتمع فى الأطوار الأخيرة من عصر البرونز .

والأماكن التى تجمعت حولها روايات الاغريق عن عصر البطولة الغابرة هى كلها أمكنة أثبت التنقيب الأثرى أنها كانت عظيمة الشأن كبيرة الأهمية فى بلاد الاغريق فى العصر الميسينى ولا يستثنى من ذلك الا ايتوليا وحدها . ثم ان هنالك روايات متواترة عن مينوس Minos ملك كريت الذى كان يسيطر على البحار ويسكن قصرا زانته زخارف أبدعها فنان أسطورى ماهر هو دايدالوس Daidalus ، وقد كان هذا الرجل من الحذق بحيث أن آيات فنه كانت تنبض بالحياة والحركة . وكان لهذا الملك أيضا تيه يبعث اليه ضحاياه من الذكور والاناث ليصارعوا وحشا رأسه كرأس الثور . ولا يمكن أن يخامرنا الشك فى أن هذا القول ما هو الا صورة مشوهة بقيت فى الأذهان عن مصارعة الثيران فى ملهى كنوسوس .

ومن أهم واجبات علم الآثار فى الوقت الحاضر بطبيعة الحال تتبع الشواهد على استمرار تلك الحضارة ، وتدعيم هذه الشواهد بقدر ما نستطيع جمعه من أدلة قاطعة . على أننا حين بستنفد كل ما يقال فى هذا الموضوع سوف نذهب الى أن الغزو الدورى قد عاق سير الحضارةعلى نحو ثابت محقق، وأن كل ما نعرفه عن حضارة عصر البرونز العظيمة قد ضاع اللهم الا صورا باهتة من الذكريات بقيت فى الأساطير والخرافات اليونانية .

ولم يكن لدى الاغريق أنفسهم معرفة تامة بقيامهذه الحضارة فىالعصور التاريخية،اذ لولا الحفريات التى عملت فى الأزمنة الحديثة لما استطاع عالم أن يستدل بحق على وجودها أو يستخلص سماتها من المصادر الأدبية ، وبلغ من جهل الاغريق بالمغزى الحقيقى لأساطيرهم الخاصة بالملك مينوس Minos أنهم حين حاولوا أن يتبينوا أصول حضارتهم لم يتجهوا الى كريت وميسينى بل اتجهوا الى مستعمرات فينيقية افترضوا وجودها فى عصر ما قبل التاريخ فى اليونان . كما زعموا أيضا أنهم استقوا أصول هذه الحضارة من مصر مباشرة أو نسبوها الى هجرة أولاد تانتالوس الفريجى ليحكموا البليبونيز فيما قبلالعصر الدورىوقد



مناظر من الحياة الوضيعة التى تغنى بها هزيود

الحياة الريفية ببلاد الاغريق القديمة كما وصفها هزيود فى شعره تكملها الصور الكثيرة والنقوش البارزة على الزهريات . وهذه القطع المأخوذة من كأس ملونة أشكاله باللون الأسود ترينا منظر فلاحين يحرثان الأرض ويد كل منهما قابضة على محراث والأخرى ممسكة بمنخس للثيران ، ومنظر فلاح آخر منكبا على العمل بفأسه وثالثا ممسكا سلة تحوى بذور الحبوب فى حين أخذ آخرون ينقلون جرارا من الخمر وزيت الزيتون على عربات والى اليمين منظر من القرن السادس لخزاف جالس يسوى الصلصال على دوارته .



جنى محصول الزيتون

كانت الكروم واشجار الزيتون تدر على المزارع الاغريقي القديم ارباحا أكثر مما تدره الحبوب ٠ وهذا الاناء الملونة أشكاله باللون الأسود والذي يرجع الى القرن السادس يبين الطريقة البدائية الفجة التي اتبعها اليونان لجني محصول الزيتون ، فالرجال والأولاد ينفضون الأغصان بالعصي فيسقط الثمر على الأرض بينما يقوم صبي بجمعه في سلة ٠

سمقوا بهذه النسبة الحوادث وأفصحوا عن دينهم الحق للشرق فيما بعد ٠

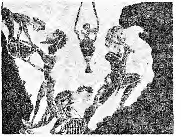
وليس لدينا سجل تاريخي بالقرون التي تلت الغزو الدوري مباشرة،فهو عصر مظلم أعقب جائحة الغزو البربري وفترة بلا شك طويلة متصلة من الاضطراب والقلق ، ثم هدأت الفورة شيئا فشيئا بعد وقوع الهجرات ، فلما انقشع الظلام ثانية وجدنا العالم اليوناني الذي نعرفه عبارة عن مجموعة دويلات تتكون في الأغلب من مدينة تحف بها أرباض صغيرة الرقعة الى حد ما صالحة للزراعة لا تغل الكثير ٠ وكانت معظم هذه الجماعات يفصلها عن جاراتها جبال وبحار ، ومن ثم نما بين كل جماعة اعتزاز بشخصيتها اعتزازا فيه صلف وكبرياء تولد مما أثر في الاغريق من نزوع الى الاستقلال السياسي ، ومما يقابل ذلك من نفبصة التفرد التي أستحال معها أن تقوم بينهم صورة مستقرة من صور الاتحاد أوسع نطاقا من دولة المدينة ٠

على أن عصر الغزوات كان قد انتهى في ذلك الوقت ، ومع ذلك فان أرض اليونان سرعان ما ضاقت بفائض من السكان دفعتهم الحاجة الى طلب المغامرة فيما وراء البحار ٠ ذلك أن هذه الأرض التي لم تكن تتميز بالخصوبة في أية ناحية من نواحيها أصبحت أفقر من أن

نتائج أكتظاظ اليونان بالسكان

تمد بالقوت هذا العدد المتزايد من الناس ، وهي حالة لا مفر من قيامها في رقعة محدودة،فكيف سكانها المتزايدين بأسباب الحياة المستقرة المطمئنة،ومن ثم كان الفلاح المكدود يجد ما يغريه بترك ما يلاقيه من جهود ونصب في زراعة أرضه الصغيرة والاتجاه الى مغامرة أخطر وأعظم تحقق له مغانم مضمونة أوفر وأكبر تهيئها له التجارة البحرية،وبذلك أصبح الاغريق شعبا من التجار ٠

وهذه هي المرحلة التي صورتها مؤلفات هزيود والأيام التي عاش فيها « ويحتمل أن تكون هذه المؤلفات قد كتبت حوالي عام ٨٠٠ ق٠م وما بقي من الآثار الأدبية اليونانية القديمة التي تلي في الزمن الأشعار الهومرية ٠ وتروي لنا قصيدة هزيود تفاصيل حياة الفلاح الشاقة فموضوعها العمل، العمل ، العمل ، وقد لا يؤتي هذا العمل في النهاية الا الجزاء فليلا على ذلك الكد المتواصل ، جزاء في خير حالاته يقيم الأود فحسب ، بل أن هذا الجزء كثيرا ما يجور عليه امعان كبار الأشراف في الظلم٠وكان هزيود يبتهل بقوله « باليتني مت قبل أواني أو ولدت



تعدين النحاس في ايتوليا

يشتمل الفخار الكورنثي القديم على لوحات من الصلصال وكانت هذه اللوحات نذورا تصور مناظر من الحياة اليومية وتعلق في المعابد ٠ وترى في هذه الصورة شكلا يبين معدني النحاس يستخرجون المعدن الغفل وينقلونه في سلال وتدلى اليهم الخمر بالحبال

بعد زمانى » « فالقوم يعيشون الآن فى تسابق على الحديد فهم ينفقون نهارهم فى كد متواصل وشقاء مقيم ، حتى اذا جاء الليل اضمحلت قواهم وهلكوا ، ذلك أن الآلهة تسوق عليهم الويلات نهاراوليلاوتصب عليهم النكبات» ولم يكن هزيود يجهل أخطار الضرب فى البحر ، فقد كان محافظا بطبعه شديد التعلق بالأرض ، ولكنه لم يجد بديلا من حياة الاستقرار فى مزرعة صغيرة يشقى فيها ويكابد بلاأمل الا تلك الحياة المحفوفة بالمكاره ، حياة البحار ، فقد أدرك المغريات التى تجتذب المرء الى الانخراط فى زمرة التجار المغامرين والمخاطرة بحياته وحظه فى مغامرة جريئة .

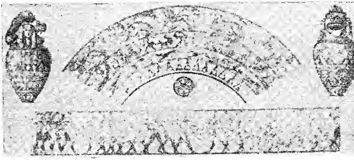


زهرية ديپلونية لطيفة

تملأ سطح هذه الزهرية الديپلونية الفاخرة نماذج واشكال مختلفة وهى أروع الزهريات التى بقيت زخرفة

وهكذا رأينا أن الضرورة دفعت الاغريق الى البحر وآل اليهم فى مدة وجيزة نقل تجارة شرق البحر المتوسط ، وقد ساعد هذا التطور فى التجارة على تخفيف الضائقة الاقتصادية ولكنه لم يقض على أسبابها جميعا . ومن ثم أصبح القرنان الثامن والسابع عصر مهاجرة منتظمة ، وحفلت سواحل البحرين الأسود والمتوسط بجاليات من المستعمرين بعثت بهم دول بلاد الاغريق عينها ومحلات اليونانيين على الشاطىء الآسيوى (أنظر الفصل ٣٤) وقد كان للبواعث السياسية والتجارية فى الأطوار المتأخرة شأن فى توجيه مجرى هذا التوسع ومع ذلك فان أقدم مراحله قد تأثرت فى الغالب بازدياد السكان وانتشار القحط فى الولايات الأصلية .

ثم ترفع الستار عن توسع آخر قامت به الشعوب الاغريقية وكان سببه فى هذه المرة ضيق اقتصادى أكثر منه ضغط جنسى والقرون التى تتخلل هذين التوسعين يتغشاها الظلام الدامس كما أن علم الآثار ليس فى جعبته معلومات كثيرة يزودنا بها اللهم الا ما يؤيد الالمامة العامة التى كوناها فى هذه الحضارة . ذلك أننا نجد فى هذا المقام أيضا شاهدا على انفصام أصاب صلة اليونان بالماضى ، ثم نجد تطورا بطيئا أخرج حضارتهم من طورها البدائى



آية قديمة من آيات الصور المنمنمة

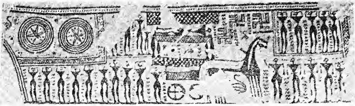
بدأ يظهر فى العصر الهندسى نوع من الزهريات صنعت بالقرب من كورنث وغلب عليها اسم الزهريات الكورنثية الأولى وقد بقى هذا النوع حتى نهاية القرن السادس . ومن أنفس هذه الزهريات هذا الاناء الصغير الخاص بالطيوب يبلغ ارتفاعه أربع بوصات ولكنه مغطى بتصاوير وأشكال غير وفيرة . وترى على الشريط الرئيسى جنودا يحاربون كما نرى على الأشرطة التى فى أسفله : سباق عجلات ثم افريز محلى بحيوانات أظهر ما فيها أسد يقاتل ثورا ثم صيد الأرانب



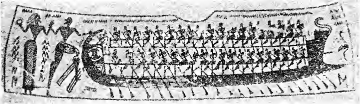
أباريق من كورنث [illegible] رسوم للحيوان مأخوذة من سجاد شرقى

تطور الفخار الاغريقى بعد الغزو الدورى

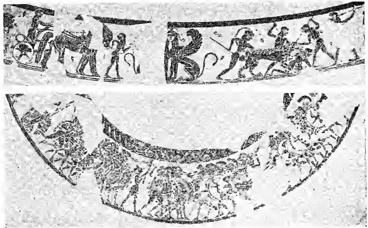
الفخار الهندسى هو أول آثار الفن الاغريقى الوطنى . ويتمثل هذا الفن خير تمثيل فى الخابية الجنائزية التى وجدت فى مقابر بوابة ديبيلون فى أثينا · وكانت الرسوم الهندسية تغطى فى أول الأمر سطحها كله ثم أضيفت الى هذه الزخارف منطقة أساسية مزخرفة برسوم آدمية أو حيوانية كما هى الحال فى الأنموذج المأخوذ من أثينا (وسط الصف الأعلى) وفى أعلى اليسار أنموذج متأخر يقترب من الطراز الكورنثى الأول · ويظهر أثر الفن الايونيوى المستقى من الشرق والذى يتجلى فى أزهى صوره فى الزهرية المصنوعة فى ايجينا



مناظر الحيـاة اليومية هي الصور الغالبة على الفخار الهندسي ولا سيما ما يتصل منها بتمثيل موضوعات الجنائز التى أثرت عن الزهرية الديپلونية ونحن نشاهد هنا مثلا موكبا جنائزيا لميت مسجى على نعشه المغطى بالقماش وقد حمل النعش على عربة الموتى فى طريقه الى المدفن والنساء من حوله محتشدات رافعات اذرعهن حزنا وأسفا · لا حظ الصلبان المعقوفة فوق الجياد



انما تبدأ الأساطير فى الظهور فى صور الزهريات الاغريقية فى الايام الأخيرة للعصر الهندسى وهذا منظر سفينة مسافرة مرسوم على كأس من طيبه ولعله يمثل اختطـاف باريس Paris لهيلين · ونحن نتبين فيه أن الزخارف الهندسية لا تزال تملأ كل الفراغ الذى لا تشغله الصور الآدمية الظلية



يتميز ما يسمى بالابريق الشـيجى Chigi باتقان رسومه وازدهار ألوانه المتعددة وهو مثال فاخر للطراز الكورنثى الأول فى صناعة الفخار الاغريقى الذى كشف فى مدينة قلى Veli بايطاليا · ومن المنـاظر المصورة عليـه منظر جيشين يسيران الى المعركة (وفى أعلى) عجلة حربية وخيول ومنظر صيد سباع

التقدم الزخرفى فى الفخار الهندسى والفخار الكورنثى الأول

الأول · وهو تطور متشابه فى صفاته العـامة فى كل شبه الجزيرة الاغريقية ولكنه امتاز بظهور بعض شـخصيات هامة فى بعض أنحائها ، ثم نجد أخيرا أى حـوالى القرن الثامن فيضـا قويا مفاجئا من مؤثرات خارجية فعلت فعلها فى هذه الحضارة ·

ويسـمى العصر الـذى تلا الفتـح الدورى بالعصر الهندسى فى غالب الأحيان والسبب فى هذه التسمية هو ما امتازت به زخرفته من طابع خاص · واختفى كل الفخار الميسينى المتأخر فجأة من معظم جهات العالم الاغريقى، وخلفه نوع آخر من الفخار يختلف عنه اختلافا تاما فى صفاته المميزة ، والزخارف التى تتحلى بهـا الأنواع المتـأخرة من الزهـريات الميسينية زخارف منحطة تقليدية · فلم يـكن ثمت معـنى لمـا فيهـا من لفلفـة كما أن أشكالها المغالية فى الزخرف هى نتيجة لانحطاط الفن ـ وكان الفن فى العصر البرونزى قد تحول من محاكاة الطبيعة الى مغالاة فى ايثار الأشكال على هذه المحاكاة ، وكان هذا الايـثار لا يقوم على منطق سليم ، ثم اجتاز الفن أوج مجده الى مرحلة انحطاط أخذت رسوم الفخار فيها تنحدر شيئا فشيئا الى التكرار الآلى والتقليد وأصبحت خالية من الفن · أما زخارف السلع الميسينية المتأخرة فزخارف أكل الدهر عليها وشرب ، وأما التقاليد الفنية فقد أصبحت عتيقة بالية · وكان طراز الزخرفة الهندسية الجديد الذى تلا ذلك طرازا يختلف عن سـابقه تمـام الاختلاف · كان فجا يقوم على الزوايا فضلا عن حوشيته الا أن عيوبه ترجع الى أنه كان فى طور الطفولة لا فى طور شيخوخته ، وهو يشبه فن أوربا الوسطى وهذا شاهد آخر يدل على أنه دخل فى بلاد الاغـريق عـلى يد غـزاة من الشمال ·

وكان الأسلوب المألوف فى الزخـرفة يقوم على سلسلة من أشرطة أفقية مختلفة الاتساع ، تشتمل على أشكال هندسية ذات زوايا مرتبة فى صفوف ووحدتها الزخرفية أشكال معينة وأشكال متعرجة وغير ذلك ، ثم أدخلت على هذا الأسلوب تحسينات مطردة بدأت بتحديد منطقـة أو منـاطق رئيسـية أوسـع من سائر المناطق ، ثم بتقسيم هذه المناطق الرئيسية بخطوط رأسية الى سطوح قائمة الزوايا ثم بادخال أشكال الحيوان ثم بتصوير مناظر مستقاة من الحياة اليومية ·

وخير الأمثلة على صناعـة الفخـار الهنـدسى وأروعها فنا الزهريات التى يطلق عليها اسم ديبيلون Dipylon لأنها كشفت فى مدفن بالقرب من بوابة ديبيلون فى أثينا · وقد حرم فى بلاد الاغريق وروما القديمة دفن جثث الموتى



تأثير الشرق على الفن الاغريقى

هذه القطعة من العاج ذات النقش البارز والتى ترجع الى القرن السـابع وجدت فى معبـد ارتميس أورثيـا Artemis Orthia فى أسبرطة وهى تمثل وداع قائد لزوجته ، ويشبه تصميمها اجمالا الرسوم الموجودة على الزهرية الهندسية الوسطى التى فى الصفحة المقابلة · ولو أن رسم هـذه الزهرية يفسر عادة بأنه يمثل فرصـانا وأسيرا ولكن الفرق واضح فى معالجة الموضوع ·



لوحات من العاج الاسبرطى القديم

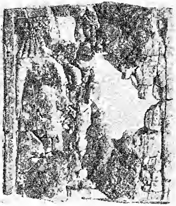
لقد صنعت أشور النماذج الأولى التى احتذاها الفنانون الاسبرطيون القدماء فى صنع اللوحات العاجية لاستخدامها زخارف للقلائد الدورية الكبيرة فى ذلك العصر وكذلك فى الأغراض الأخرى ـ وهذا الأسد العاجى (الى اليسار) وكذلك الجريفون (وهو حيوان خرافى جسـمه جسم سـبع ورأسه وجنـاحاه كرأس النسر وجنـاحيه) (الى اليمين) يتجلى فيها ما أثر فى الشرق من بدائع الخيـال ·

أو بقاياهم داخل أسوار المدينة ، ومن ثم فان الطرق خارج هذه الأسوار كانت تكتنفها صفوف من القبور على نحو ما نشاهده الى اليوم في المدن الاسلامية في الشرق الأدنى ، ويذكرنا بذلك عادة استجداء المارة التي ظلت تقليدا من تقاليد شعرنا الذي يقال في المقابر ، وأقيمت أواني كبيرة زخرفت بالطريقة التي كنا نتكلم عنها في المقابر ، وكان في أسفل الكثير منها ثقوب يمكن أن ينسكب منها شراب الى الميت المدفون في المقبرة التي تقع تحتها ·

وفخار هذه الزهريات ثمين في صنعته الفنية ، ومع أن أشكالها أحفل بالزخرفة من الزهريات الميسينية الا أنها متناسقة الأجزاء ذات صلابة تكسبها شيئا من الرصانة ويغلب على موضوعات زخرفتها مناظر البحار أو جنائز العظماء · وهي تمثل لنا منظر الرجل الميت مسجى في تابوت محمول على عربة ، تكتنفها من الجانبين صفوف المشيعين ، وكثيرا ما يرسم في شريط آخر الى أسفل صف من المحاربين في مركباتهم على أهمية الاشتراك في الألعاب الجنائزية · ويلاحظ أن اليونان كانوا لا يزالون يحتفلون بجنازات عظماء الرجال احتفالا فيه اسراف بالغ ، وكان يعقب ذلك – كما جاء في وصف دفن باتروكلوس Patroclus في الالياذة – مباريات في ألعاب القوى تقام تكريما للميت ·

أما عن المزايا الفنية لهذا الطراز من الفخار فان أول ما يلفت نظر المشاهد له ما فيه من تقليد، وكانت الأشياء تمثل عليه برسوم فصصية رفيعة ذات زوايا أشبه بالرسوم التي يخططها الأطفال،والمشاهد خليق أيضا بأن يلاحظ خوف الفنان من أن يترك فراغا في رسوماته ،







الامتزاج التدريجي بين التقاليد الفنية الشرقية والغربية

بقيت آثار من طراز الزخرفة الهندسي القديم مدة طويلة بعد أن بلغت أشكال الفن الاسيوي بلاد الاغريق الاصلية · والاسلوب الفني واضح كل الوضوح في اللوحة العاجية من اسبرطة (في أعلى الصورة) التي تظهر فيها نائحات واقفات الى جانب جثة ميت محمولة على نعش · وهو منظر جنائزي كالمناظر التي كانت تزين المنطقة الرئيسية في الأواني الديبلونية·وواضح كذلك في الرسم المتأثر بالطابع الشرقي على اللوحة المكسورة (أسفل) وقد أعيد تكوينها في الشكل الأيمن

وقد حشدت الزخارف الهندسية التى لا تتفق وموضوع الزخرفة داخل أرضية الصورة فى كل فراغ متخلف مهما كان صغيرا • على أن انعام النظر فيها يدل على أن هذه الزهريات تفصح فى جملتها عن ادراك حقيقى لمعنى التناسق وتجميع الرسوم بحيث تؤثر فى النفس ، كما أنها تبشر بصنع أدوات منبه أرقى وأعظم بوحى من الأفكار القديمة القمينة باطلاق الفنانين من اسار هذه التقاليد المحدودة الأفق •

وقد هبت نفحة الحياة الجديدة من الشرق ففى القرن الثامن بدأت الأقطار الشرقية تؤثر تأثيرا واضحا فى صناعة الفخار الاغريقى ، ذلك أن الفنانين الاغريق تزودوا فى فنهم بمبتكرات الخيال الشرقى كالسباع وآباء الهول وغيرها — وقد أوحى اليهم زهر اللوتس والنخيلات بأشكال جديدة من منحنيات متكررة بدلا من الزوايا غير المنظمة والملفلفات المعقدة التى درجوا عليها ، وكانت أقل رشاقة من هذه الأشكال الجديدة • على أن فتنة الفن الجديد قد عصفت بعقولهم ، كما أن الميل الى الأساليب الشرقية المصنوعة كان خطرا أوشك أن يذهب بعبهم الوطنى ، الا أن المران الطويل على التقاليد الصارمة التى قد أنجبت فنانى الطراز الديبيلونى كان أقوى وأمكن من أن يجعل الفخاريون الاغريق مجرد مقلدين تافهين للفنانين الأجانب ، وقد استوعب الفن الاغريقى كل ما فى جعبة الفن الشرقى الذى سبقه وتحكم فيه واستخدمه فى أغراضه الخاصة •

وقد وجهنا نظرنا حتى الآن الى بلاد الاغريق الأصلية حيث نستطيع أن نستشف من خلال الظلام الذى أعقب الفتح الدورى جهودا مطردة وئيدة لتجديد بناء الحضارة من بداياتها الفجة حتى ظهر حوالى نهاية القرن الثامن تقدم فجائى عندما هبطت شواطىء بلاد الاغريق نفحة جديدة تحمل الحياة والنشاط وكانت هذه النفحة آتية من الشرق بعث بها الاغريق القاطنون فى آسية رأسا الى الاغريق فى وطنهم الأصلى •

وقد وجدت فى حفريات هيكل أرتيميس أورثيا Artemis Orthia فى أسبرطة مجموعة من اللوحات العاجية، كان أغلبها قد صنع لبلبس مشدودا الى قلائد دورية كبيرة • وقد تداخلت هذه الألواح فى طبقات الأدوات الفخارية الهندسية والأدوات الفخارية المتأثرة بالطابع الشرقى • وثمت نقش من أواخر النقوش الاغريقية لا شك فى ارتباطه بالفخار المتأثر بالطابع الشرقى وهذا النقش يحيى رسما ديبيلونيا Dipylon بأسلوب جديد وروح جديدة • ونحن نشاهد السفينة بمحاربيها جالسين بعرضها بينما يسير ربانها على سطحها ويتضح من ذلك أنه يودع محبوبته أو زوجته ولا يجر الى السفينة امرأة أسيرة • ومما لا شك فيه أن القطع العاجية الاسبرطية القديمة تنتمى الى نهاية العصر الهندسى ولكن أوثق الآثار شبها بها هى قطع العاج التى وجدت فى الطبقات السفلى لمستقرات أفسوس Ephesus وهذه بدورها وثيقة الصلة بقطع العاج التى كشفت فى مدينة نمرود Nimrud فى أشور (أنظر الفصل ٣٣)

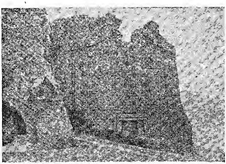
وسرعان ما تفوق أغريقيو آسية على اغريقى البلاد الأصلية وأسباب ذلك شتى • فقد كان



تماثيل صغيرة أنيقة من أفسوس

يتمثل فن الاغريقيين الشرقيين على الطراز الشرقى فى هذه التماثيل العاجية الصغيرة أيضا المنتسبة الى أفسوس فالى اليسار تمثال كاهن يسبح بحياته ولهذا التمثال نظير ضخم فى نينوى والى اليمين تمثال كاهنة

موئل الحضارة الاغريقة حتى منتصف القرن السادس هو شاطىء الأناضول وكانت ميلتوس Miletus لا أثينا هي مدرسة هلاس Hellas أما هوميروس فيحتمل أنه ينتسب الى الشاطىء الشرقي لبحر أيجة ، بل لقد كان هزيود ابن رجل عاد الى بووطيا من هجرته الى كيمة الأيوليوية Aaolian Cyme وكان معظم الشعراء الغنائيين من أهالي الشاطىء الأسيوى وجزائره ويعود الفضل في أهم ما بلغه اليونان الأقدمون من شأوفي النحت والهندسة الى الخيايين Chians والساميين Samians وكذلك كتب أول نثر اعريقي في أيونيا حيث نشأت الفلسفة الاغريقية ، وكانت الجغرافيا والفلك والهندسة وعلوم الطبيعة مما كشف عنه العقل الايونيوى (أنظر الفصل ٣٤) ·

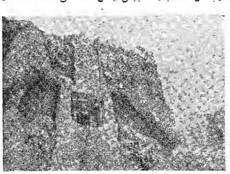


مقبرة ميداس ملك فريجيا

أشهر آثار مملكة فريجيا القديمة هو قبر الملك ميداس وقد لحقت به هذه التسمية لأن هذا الاسم يظهر في الكتابة المحفورة في أعلى السقف الهرمي وهي عبارة عن لوحة مستطيلة يعلوها أفريز منحوت على سطح صخرة رأسية ومغطى بزخرفة ملفلفة

وليس من العسير أن نعلل بعض أسباب ذلك النبوغ الباكر الذي تجلى على يوناني الأناضول وترد هذه الأسباب الى ظروف المستعمرة الأولى التي أقاموها في الأناضول ثم الى ظروف العلاقة الوثيقة التي قامت بينهم وبين القوات الاجنبية السابقة عليهم في الزمن والأكثر منهم مدنية · وأول ما نقوله في هذا الصدد أنه كان هناك ضرب من الاختبار الطبيعي يفعل فعله في هذه الهجرة كما هي الحال في الهجرات المماثلة لها · وجملة القول أن اليونانيين الذين تتملكهم نزعة المغامرة هم الذين كانوا خليقين أن يبحروا الى أراض جديدة ، على أن هؤلاء كانوا على أية حال من بين الذين يهاجرون مختارين لا مدفوعين بحاجة ملحة · ومن بين هؤلاء أيضا أصحاب الهمم العالية الذين ترفعهم كفاياتهم الى الصف الأول وتهيىء لهم أسباب السلطان · والحق أن هذه المغامرات والفتوح تتطلب الهمم العالية وتساعد على وجودها · كما أنه ليس بعجيب أن نرى مثل هذه النزعة المتطلعة الى ارتياد المجهول التي نمت على هذا النحو ماثلة في الحياة العقلية ومتجلية في ميدان الفنون ·

وقد نتذكر كذلك أنه لم ينتسب الى الغزاة المتبربرين أى فريق من المستعمرين الذين أبحروا من بلاد الاغريق فقد كان هؤلاء ينتسبون الى الآخيين Achaeans وقد حملوا معهم على الأقل أصداء من المدنية القديمة · ولعل الصلة بالماضي لم تنقطع تماما على الجانب الأسيوى لبحر ايجة كما كانت الحال في بلاد اليونان الأصلية فقد كان المهاجرون هم الذين حفظوا الأغاني التي تروى أخبار الأبطال السابقين ونقلوها معهم الى آسية حوالى



صخرة السباع فى ايازين

هناك قبر آخر مشهور في أحد مدافن فريجيا يقع بالقرب من قرية ايازين Ayazeen وتوجد مسلة فوق عتبة باب صغير منحوت في واجهة الصخرة تكتنفها سباع منقضة تشبه الى حد كبير تلك السباع الموجودة على بوابة السباع في ميسيني (أنظر صفحة ٦٩) وتحت كل أسد شبل صغير منحوت ·

سنة ٩٠٠ ق٠م٠ فجمع هوميروس شتاتها ونسج منها ملحمته الشعرية الكبرى ٠

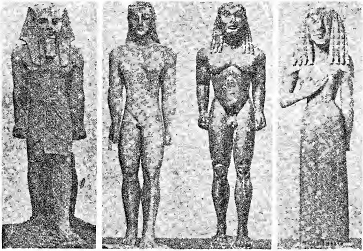
وكذلك احتل الغزاة الاغريق كما رأينا أماكن كانت مسكونة قبل ذلك وكان سكانها الأصليون قد بلغت حضارتهم الوطنية حظا من الرقى لا بأس به والراجح أن الأثر المباشر لهذه الثقافة الوطنية القديمة كان كبيرا ، ثم ان الجنسين الاغريقى والوطنى قد أنتج فيما يظن نضوجا مبكرا مثمرا لا يعد نادر الوقوع فى الأحوال التى يحدث فيها تزاوج موفق بين أرومتين من جنسين مختلفين ، وقد يضاف الى هذه

نضوج أغريقى آسية المبكر

الأمور الظروف المواتية التى نشأت فى ظلها معظم المستعمرات الجديدة ذلك أنها على وجه العموم قد امتازت على دويلات بلاد الاغريق الأصلية بمناخ أكثر اعتدالا وأرض أشد خصوبة وموانى ليست بأية حال دون موانى النوعين أهميه ٠ وقد تمكن أغريقيو آسية بفضل الميزات الطبيعية أن يحققوا بأسرع مما حقق مواطنوهم فى أوربا أسباب الرخاء المادى والثروة الطائلين ، وهما أمران لازمان للتقدم الثقافى ٠

وقد كان لكافة دويلات ساطىء الأناضول نصيب على نحو ما فى هذه المزايا التى عددناها ولكن أقليم أيونيا أمتاز عنها جميعا بما حبته به الطبيعة من مزايا وما كان ينعم به من ظروف سياسية موانية ، ثم ازدهرت فيه أسباب الرخاء المادى والترف ووصلت فيه الحضارة الى أوجها

ويتبقى بعد ذلك النظر فى علاقة أغريقى آسية بالسلطات الأجنبية وبالحضارات السابقه عليها فى الزمن ٠ واذا ألقينا نظرة على الخريطة لوجدنا آسيه الصغرى معقلا سددته قارة آسيه نحو أوربا ٠ وهى تتكون من هضبة مستطيلة الشكل تقريبا ترتفع ارتفاعا كبيرا عن مستوى البحر الا أن سطحها مستو الى حد ما ، وجوانب هذه الهضبة شديدة الانحدار ، وعرة فى الشمال وتزداد ارتفاعا ومناعة فى الجنوب أما فى الغرب



الأصل المصرى للتماثيل الاغريقية الأثرية

أثرت التماثيل المصرية ـ مثل تمثال رمسيس الثانى فى الأقصر (الى اليسار) ـ تأثيرا واضحا فى الفن الذى انتج تمثال الاله ابولو الضخم من سونيوم وهو التالى للتمثال الأول وهو آية من آيات النحت الاتيكى ٠ وكذلك التمثال المجاور له من دلفى لأحد ولدى الكاهنة كيليبه Cylippe وهما كليوبيس Cleobis وديفون Bifon ـ ويتجلى التأثير المصرى أيضا فى تمثال سيدة (الى اليمين) وهو نموذج لطراز النحت القديم فى كريت الاغريقية وتقول الروايات أنه انتقل منها الى البلپونيز

فتنحدر تدريجيا نحو البحر وتكون وديانها لا سيما وديان نهرى هرموس Hermus ومندروس Maender طرقا تجارية طبيعية سهلة المسلك ، ونعد الهضبة كلها ممرا يتجه من الشرق الى الغرب ومن ثم تتضح لنا المزايا التجارية للأماكن الواقعة على البحر عند نهاية وديان أنهار الشاطىء الغربى •

وكان يسكن السهل المرتفع — فى معظم مراحل عصر البرونز — الحيثيون الذين كانت عاصمتهم تقع فى مكان يعرف الآن باسم بوغاز كوى Boghaz Keui على نهر حالس Halys وبظهر أن الحضارة الميثيوية لم تقم فى أى مكان من شاطىء آسية الا فى نهاية عصر البرونز تماما كما يستدل من الشواهد الأثرية الضئيلة التى بين أيدينا الآن • وقد يكون التفسير الصحيح لذلك هو أن سلطان الحيثيين على سواحل آسية كان من البأس بحيث لم يسمح بدخول أية مدنية غريبة • ولكن معقل الحيثيين كان قد انتقل شرقا الى قرقميش على أعالى نهر الفرات حوالى نهاية عصر البرونز كما أن نفوذهم على الغرب كان قد زعزعه اندفاع الفريجيين التراقيين Thraco Phrygian من أوربا وهو ذلك الاندفاع الذى بلغ بالفريجيين الآريين الى ما وراء الدردنيل ليستوطنوا فى آسية •

وكان من أثر هذا الضعف الذى أصاب سلطان الحيثيين على القسم الغربى من امبراطوريتهم أن استطاعت الحضارة الايجية فى أطوارها الأخيرة أن تجد لنفسها مقاما على الساحل وأن تساهم بنصيبها فى حضارة الليجيين الكاريين التى وجدها المستعمرون الاغريق هناك • ولما وصل الاغريق الى آسية كان الكاريون والليجيون والميثيويون وغيرهم فيما يظهر لا يزالون يدينون بشىء من التبعية لامبراطورية الحيثيين على أن قوة الحيثيين كانت فى طريقها الى الزوال كما أن الحضارة الأشورية كانت قد أخذت تطغى على الثقافة الحيثية نفسها رويدا رويدا • وأقدم دولة أسيوية أشار اليها المؤرخون فى أخبارهم هى دولة ميداس ملك فريجية الذى ورث حكم ممتلكات الحيثيين الغربية بعد زوال دولتهم • ثم حدث فى القرن السابع أن مغتصبا من ليديا يدعى جيجيز Gyges أطاح بدولة فريجيا المضمحلة وأصبحت آسية الصغرى الغربية مملكة ليدية اتخذت عاصمتها فى سرديس •

ويبدو أن ملوك فريجيا وليديا كانوا بصفة عامة يحبون الاغريق ، وصحيح أن ليديا أخضعت المدن الاغريقية بقوة السلاح وفرضت سلطانها على سواحلها ، الا أن نير الاستعمار الليدى كان هينا رفيقا ، وكانت سياسة ملوكها تقوم بصفة عامة على الوفاق مع المدن الاغريقية الواقعة على الشاطىء ، وتنميه أواصر الصداقة مع أقربائهم فيما وراء البحر • وكانت امبراطورية ليديا امبراطورية مهلهلة النظام • ويظهر أنها



الفن فى آسية الصغرى — منظر غزلان ترعى مصورة على نقش ليدى بارز

كان الليديون — وهم من أهم الاجناس التى وجدها المستعمرون الاغريق فى آسية الصغرى — فخاريين وجواهرية مهرة الا أنهم لم يخلفوا لنا الا نماذج قليلة من نحتهم • ومعظم السبب فى ذلك راجع الى أنهم استعملوا الآجر بصفة خاصة فى عمارتهم — وهذا النقش المحفور على رخام يدل على مهارة فنية ولكنه عتيق • والشكل يشبه صفوف الحيوانات المرسومة على الزهريات الاغريقية العتيقة •

لم تكن تتطلب من الدويلات الاغريقية الا خضوعا ضئيلا لسلطانها ، وكانت الرابطة بين هذه الدويلات وبين الامبراطورية هى رابطة التبعية أكثر منها رابطة الرعوية .

ومن ثم كان الاغريق أحرارا فى استغلال مراكزهم التجارية الممتازة أحسن استغلال دون أن يضحوا بحريتهم السياسية أية تضحية جدية . ففى فريجيا وليديا عرف الاغريق لونا جديدا من حياة الترف كما بهرتهم الفنون التى لم يكونوا قد عرفوها من قبل ، فقد جلبوا من وادى نهر الفرات العاج وأقمشة الشرق المزركشة عن طريق ممرات فليقية وعبروا السهول المرتفعة الى نهاية الطرق التجارية الطبيعية ، أى الى الموانى البحرية عند مصبات أودية الأنهار . وهكذا عرف الاغريق لأول مرة منتجات فن بلاد الجزيرة . ومن ثم فليس بعجيب أن تذكرنا آثار افسوس Ephesus العاجية القديمة بآثار نمرود Nimrûd .

ولم يكن أكثر القطع الفنية التى انتقلت على هذا النحو من الشرق الأوسط على طول طرق التجارة الى سواحل بحر ايجة ــ هو الوسيلة الوحيدة التى بلغت بها المؤثرات الشرقية الى بلاد الاغريق فى آسية ، فقدكانت السلع يحملها التجار وكان التبادل التجارى ينطوى بالضرورة على قيام وشائج من الصلات الشخصية بين الأفراد ولابد أن يكون تجار ايونيا قد اتصلوا اتصالا شخصيا بالثقافات المتفرعة من حضارتى ليديا وفريجيا ولابد أن تكون طائفة قليلة منهم قد غامرت بالشخوص الى منابع هذه الثقافات وشاهدت عجائب مدن بلاد الجزيرة .

ثم ان الدول العظمى فى الشرق قد عرفت قدر المحاربين الايونيويين والكاريين وبراعتهم فى القتال كما أن كثيرا من النفوس التى تملكها حب المغامرة قد استجابت لداعى الانخراط فى زمرة الجنود المرتزقة فى بلاط أحد حكام الشرق . وقد استخدمت ليديا بطبيعة الحال جنودا منالأغريق أما الايونيويون فقد ذهبواالى أبعد من ذلك . ومن هنا نظم الشاعر الغنائى الكايوس Alcaeus فى أوائل القرن السادس قصيدة يهنىء بها أخاه الذى كان قد التحق بخدمة ملك بابل فأنعم عليه بسيف تشريفا له .

وقد حدث قبل ذلك أى فى منتصف القرن السابع ، عندماتخلص أبسمنيك الأول ملكمصر من نير الاحتلال الاشورى أن كان قوام قواته الحربية جنودا من مرتزقة أيونيويين وكاريين ، وقد ظل هؤلاء فرقةدائمة فى ظل خلفائه . وتلا هذه الصلة مشروع تجارى ، فقد خصصت نقراطيسميناء منموانى مصر للتجارة الاغريقية وظل الايونيون فى هذا الميناء ، وأوشكوا أن يحتكروا تجارته . ومن بينما أخذه الأغريق عن المصريين فكرة صناعية تماثيل بالحجم الطبيعى قائمةبذاتها . وممالاشك فيهاطلاقا أن التماثيل الاغريقية القديمة للمصارعين من الذكور والتى تسمى أحيانا باسم كورورى Couroi هى من أصل مصرى .

والحق أن الهجرة الأيونيوية قد انتهت الى وضع ثمار الحضارات القديمة فى متناول المواهب اليونانية الفذة . وكانت هذه المواهب لحسن الحظ أعرم وأقدر على الابداع من أن تقتصر على ترديد ما وعته من هذه الثمار أو محاكاة آيات الفن والعلم الشرقى محاكاة باهتة اللون خالية من الروح . ذلك أنها اتخذت مما استمته مادة صاغتها فى أغراضها الخاصة ، والحق أن الأغريق عامة والايونيين خاصة هم الذين لم يقتصروا على خلق أساليب جديدة للتعبير الفنىمستوحين الفن الشرقى بل ابتكروا أيضا ما اصطلحنا على تسميته بالعلم بتناولهم ما تراكم من معارف الشرق بروح جديدة .

وقد توسل المصريون بالحساب التقريبى فتمكنوا بعد أجيال من الدأب والصبر الى استنباط طريقة عملية لمسح الارض مدفوعين الى ذلك بفيضان النيل الذىكان يحلكل عام . وقد أخذ الايونيون عنهم هذه الطريقة واقاموا منها علم الهندسة . وكذلك جمعت حضارات بلاد الجزيرة على مر القرون نتائج الملاحظة الدقيقة لحركات الأجرام السماوية ، الا أن الايونيويين أيضا هم الذين استطاعوا بفضل تحريهم للنواميس الكونية الكامنة وراء بعض المظاهر من أن يقيموا علم الفلك على أساس هذه الحقائق التجريبية (أنظر الفصل ٤٨) .

وقد تمتع الأيونيون بميزات حرم منها الأغريق المقيمون فى بلاد اليونان الأصلية كما كانوا أدنى منهم موطنا الى الشرق وأسبق الى

الاتصـــال بفمه وثقافته ومن ثم تسنموا مقعد الزعامة فى تطور الحضارة الاغريقية · ولكن لماذا لم يحتفظوا بهذه الزعامة ؟ الحق أنه ليس من العسير أن نهتدى الى الجواب على هذا السؤال ذلك أنه لم تكن لهم حيلة ازاء الظروف الجغرافية التى تكنفهم من أن يكونوا تحت رحمة السلطة السياســـية التى تهيمن على الأراضى المتاخمة للساحل ، فقد كان نهرا هرموس ومندروس طريقين ميسرين لمرور الجيوش كما كانا ميسرين لمرور قوافل التجارة سواء بسواء ·

ولو شاءت هذه السلطة أن تعزز قوتها فان الدويلات الأغريقية الصغيرة الواقعة على الشاطىء المنقسمة على نفسها والمنفصلة بعضها عن بعض بحواجز جغرافيـــة جبليـــة معترضـــة لم تكن فى حالة تسمح لهـــا بالمحـــافظة على استقلالها فى وجه قوات أكبر منها · وكانت فرصتهم الوحيدة فى التحرر هى السيطرة على البحر الذى يليهم سيطرة لا ينازعهم فيها أحد ·

القوة البحرية والسيادة

وفى منتصف القرن السادس غزت فارس بلاد آســـية الصـــغرى وكانت حكومتهـــا الامبراطورية أحسن نظاما بكثير من حـــكومة ليديا وفريجيـــا · على أن الايونيين انقضوا عليهم فى بداية القرن الخامس ، ومع أن الشروط التى فرضت على الهجرة بعد فشل هذه الثورة لم تكن موسومة فى جملتها بطابع الانتقام ، فان قوة ميليتوس Miletus « فخر أيونيـــا » ـ كما كانوا يسمونها ـ قد انهارت وتنقل فريق من سكانها الى آمبة Ampe على البحر الأحمر · وقد أعقبت هذه الثورة الفاشلة من أجل الحرية تحطيم سفن الدويلات البحـــرية · والحق أن الثورة الأيونية مهـــدت فى أواخر الحـــروب الفـــارسية الطـــريق لأثينـــا كى تمثل مـــكانة ميليتوس وتصبح أول دولة بحرية فى العالم الأغريقى والزعيمة المعترف بها للحضارة الاغريقية ولكن هذه الحوادث الأخيرة تدخل فيما يتناوله الجبر الرابع ·

الفصل الثالث والثلاثون

مصر في صحوة انحلالها

كيف انتعشت تحت حكم فراعنة صا الحجر وكيف أثرت في الشعوب المحيطة بها حتى حلول العهد الروماني

د ه . ر . هول H. R. HALL

(دكتور في الآداب ، وعضو الأكاديمية البريطانية وعضو الجمعية الأثرية)

أمين قسم الآثار المصرية والأشورية في المتحف البريطاني ومؤلف تاريخ الشرق الأدنى القديم الخ ....

تناولت فصول سابقة وصف الدور الجليل الذى قامت به مصر فى العالم القديم ، وظهر فى الفينة بعد الفينة ما كان لثقافتها المتميزة من تأثير فى تقدم الحضارات الأخرى • على أن هذا التأثير قد لا نستطيع تقديره تماما الا اذا بلغنا فترة انحلالها ، وقد أدركنا الآن هذه الفترة .. فقد فعل الزمن فعله ، وظهر الآن ما تراكم من تأثير ذلك السلطان الثقافى الذى ظل يتدفق من النيل الى البلاد المحيطة به مدى ثلاثة آلاف عام • وكانت مصر دولة من الدول الموطدة الأركان فى العالم القديم ، فاستطاعت أن تحتفظ بعزلتها عن غيرها من مراكز الحضارة بفضل موقعها الجغرافى المتميز ، وصعوبة الهجوم عليها واحتلالها ، وما امتاز به شعبها من سجايا ، وما جبلت عليه حضارتهم من خصائص يستحيل بازائها على فاتح وطد أقدامه فى وادى النيل ثنى الشعب عن السنن التى درج عليها ، بله القضاء عليه أو استغراقه فى الأمة الفاتحة • وفى الوقت نفسه أثرت مصر فى جميع الشعوب التى اتصلت بها •

ولا زالت مصر تحتفظ بطابع العزلة الذى طبعها منذ القدم ، لأن الحقائق الجغرافية لا يعروها التغير ، فوادى النيل الطويل هو ، بما تفرد به من مناخ وزرع وما اليهما من ظروف الحياة التى تسود جزءا كبيرا منه ، ولا زال البحر الذى يحمى مصر من الشمال ، والصحارى التى تحميها من الشرق والغرب ، تقوم اليوم كما قامت بالأمس • وما زال الشعب على حاله يعيش على سننه القديمة • وفلاحو اليوم يحيون كما كانوا يحيون فى عصر بناة الأهرام • ولو أن مصريا من عهد خوفو بعث اليوم حيا ، لوجد نفسه فى بيئة عرفها وألفها تماما — لولا ما طرأ على اللغة والدين من تغير ، ولما وجد الا القليل الذى ينبىء بأن مصر قد سلخت من عمرها خمسة آلاف عام •

ولا يمكن أن يقال هذا عن أمة أخرى فى الخافقين ، وقد يصدق على الصين الى حد ما ، ولكن الصين أحدث من مصر بألفى عام • ولقد فتح الاجانب مصر واحتلوها من آن لآخر كما فعلوا بالصين — وان كان الهجوم على مصر أشق بكثير من الهجوم على الصين — وعرفت مصر كيف تستغرق فاتحيها كما فعلت الصين •

مصر وغزاتها

وكما غزا الهون والترك والمغل والمنشو والصين واحتلوها ، واندمجوا فيها ، فكذلك غزا اللوبيون ثم الاغريق ثم العرب مصر ، واحتلوها ، واندمجوا فيها ، واستوطنوها ، كما استوطن الصين غزاتها ، وكان اندماجهم فيها أمرا لا مندوحة عنه ، وثمة فرق بين مصر والصين ، هو أن جميع الغزاة الذين فتحوا الصين استوطنوها فعلا ، ولولا ذلك لاستحالت عليهم السيطرة على الصين أما مصر فظروفها الجغرافية المخالفة كل المخالفة لظروف الصين ، جعلت هذا ميسورا فيها الى اجل فحسب • وكان الفاتح الذى يتمكن من عنق مصر فى منف (القاهرة) عند رأس الدلتا ، يستطيع اخضاعها

زمنا ، حتى اذا تطرق اليه الوهن تراخت قبضته عليها ، فانتهز الوطنيون الفرصة وانتقضوا عليه وطردوه • وقد حدث هذا للهكسوس (الملوك الرعاة) والاشوريين والفرس • أما حكم الرومان فكان مختلفا ذا طابع خاص، فقد كان الرومان يحكمون مصر فى الواقع بواسطة الاغريق الذين استوطنوها قرونا من قبل ، وامتزجوا بالوطنيين امتزاجا بلغ من أمره أن سكان المدن الخليط من الاغريق والمصريين ، الذين كانوا يعبدون الآلهة المصرية ويختلطون بالوطنيين الخلص من أهل الريف فى شتى مرافق الحياة ، ما كانوا يحسون اطلاقا بانهم يخضعون لحكم أناس أجانب عنهم وقد طردت الرومان آخر الأمر بفضل هجوم عارض مفاجىء شنه الفرس من جديد على مصر ، ولكن أثر هذا الهجوم تلاشى بعد سنوات قليلة جدا ، ثم انتهى أمر مصر بأن فتحها العرب المسلمون الذين استوطنوها فعلا ، وأفلحوا بعد أن حكموها قرونا عديدة فيما أخفق فيه سواهم من الفاتحين أعنى فى تغيير لغة البلاد واستبدال العربية بها •

ولم يتيسر هذا التغيير فى اللغة الا لأن المسيحية كانت من قبل قد قلبت ديانة مصر رأسا على عقب • أما وقد غيرت مصر ديانتها مرة ، فلم يكن يستعصى عليها أن تغيرها مرة أخرى ، ولكن هذا التغيير لم يكن تغييرا شاملا كسابقه ، ودخلت مصر فى الاسلام اللهم الافريق صغير من سكانها • والذى حدث فى الحالين ، هو أن الايمان السامى الجارف حطم الدين الأضعف الذى تصدى له • وقد استطاع أتباع النبى المسلم بعد الفتح العربى أن يغيروا الدين واللغة نهائيا بفضل

التغييران الدينيان فى مصر :

ما أوتوا من مضاء العزيمة واجتماع الكلمة ، ولم يكن فى الامكان احداث مثل هذه الانقلابات فى العصور القديمة بمصر ، ولم يتيسر ذلك فى هذا الوقت الا لأن الحضارة الوطنية كانت قد انحلت • ولم تنتصر المسيحية فى مصر الا بعد كفاح طويل ، ولم يكتمل هذا النصر فى الجنوب الا قبل الفتح الاسلامى بأقل من قرن ، وقد اقترن ذلك بانحلال مصر انحلالا تاما يرجع الى توطن الاغريق فيها •

وقد أسس الاسكندر الاسكندرية ونصب عينيه القضاء على عزلة مصر عن العالم الخارجى ، فأسفر عمله عن نتائج ما كان يحلم بها • فقد كان تحول « راقوده » الى الاسكندرية بمثابة التوقيع على الحكم بموت مصر الفرعونية • ولكنها ظلت فى حشرجة هذا الموت زمنا أطول مما يعقل • فلقد كانت شخصية مصر القومية من القوة بحيث أن الحميرة الاغريقية لم تستطع حتى بعد أن دعمها سلطان روما من التأثير فى مصر تأثيرا فعالا الا بعد قرون عدة • فقد بقيت حضارة مصر مصرية الطابع ما بقى دينها الوطنى القديم قائما ، وان شابت هذه الحضارة الأفكار الداخلية وشوهتها بشكل عجيب قبل مجىء الاسكندر • ولكن ما أن دخلت المسيحية فى مصر وعقد لها الفوز النهائى فى ظل الدولة الرومانية المنتصرة ، وانتهت عبادة الآلهة القديمة التى كان قد عراها الضعف والوهن ، حتى طرأ على مصر تغير منقطع النظير من تاريخها السابق وان كان هذا التغيير قد حدث تدريجا • أما وقد تم هذا التغيير الأول فلم يعد هناك حائل يحول دون حدوث التغيير التالى •

على أن التغير لم يصب المصريين فى مقومات حياتهم رغم ما طرأ من تبدل على لغتهم ودينهم • فالوادى • والنهر والصحارى ، والفصول ، والمحاصيل ، كلها ظلت كما كانت فى عهد بناة الاهرام • وبقيت شخصية الأمة ولا تزال باقية ولو فرضنا أن سلطان الاسلام فى مصر سوف يضعف فى المستقبل ،وهو أمر يبدو محتمل الوقوع ، وان الوشائج الدينية التى تربط مصر اليوم بالشعوب الاسيوية المجاورة لها سوف تهن ، فان مصر خليقة بأن ترتد الى هذه الشخصية وتؤكدها • فمصر هى مصر أبد الدهر ، على أنها مع احتفاظها بشخصيتها ، لن تستطيع التأثير على غيرها اليوم كما فعلت أيام كانت تتمتع باستقلال ثقافى تام فى عهدها الخالى • ولم تنقل عنها روما ، ولا اليونان الرومانية ، سوى بعض عبادات دخيلة كانت تعد ــ فى روما على الاقل ــ ضربا من الدجل • وبعد انقضاء عهد الاسكندر لم تؤثر مصر تأثيرا عظيما فى غيرها من الشعوب سوى مرة أو مرتين ابان حكم المسلمين ، وذلك فى القرون الوسطى على عهد الفاطميين ، وصلاح الدين ،

وبكوات المماليك العظام ، ولم يتح لها هـــذا التـــأثير الا بفضل ما أصابت حينـــا من قوة وما قامت به من فتوح . اما في العصور الحديثة. فلم يتح لمصر أن تفتح فتوحا الا على يد محمد على وذلك حين بلغت الجيوش المصرية الاناضـــول واحتلت كريت ، ولكن هذه القوة العـابرة لم تقترن بسلطان ثقافي رفيع ، وهي على أي حال فورة لم يحدثها مصري ، بل أحدثها ألباني تركي طموح ·

فاذا شئنا أن نرى مصر تبسط نفوذا حقيقيا على حضارات غيرها من الشعوب ، كان علينا أن نعود الى العصر السابق للاسكندر · فهـــذا النفوذ ، الذي بدأ أول ما بدأت مصر نفسـها تدرج معـارج الرقي ، اعني قبل عصر بنـــاة الاهرام . تراكم وبلغ ذروته في القرون السابقة للفتح الاسكندري مباشرة ، حين كانت بـذور الانحلال في الواقع قد بذرت من قبل لتـؤتي ثمارها تحت حكم اليونان المتأخرين والرومان وكانت صحوة الموت هي التي جعلت نفوذ مصر المتراكم قوة ثقافية عظمى في عهد الفراعنـــة الصاويين · فقد أثرت مصر في اليونان لأنهـا كانت دولة قديمة في حين كانت اليونان بعـد في شبابها ثم لأنها احتفظت آلاف السـنين بحضـارتها المطبوعة بطابعها الخـاص ،

متى بلغ نفوذ مصر قصاراه

في حين أن الحضارة الاغريقية التي عرفتها مصر قبل ألف سنة بل ألفين أو يزيد ، كانت قـــد بادت منذ أمد طويل ، واحترقت كما يحترق الهشيم ، وعفت يد الزمن على أبطالها ، ولم يبق للاغريق الذين بعثوا واتصلوا بمصر من جديد في عهـد الفراعنة الصـاويين سـوى روايات مضطربة عن أيام الابطال الخوالي ، أيام كوسوس وميسيني ، أيام مينوس وأغا ممنون ولم يـكن هؤلاء الاغريق يرون من فاصل يفصل بينهـم وبين آلهتهم سوى أجيال قليلة فقط ، في حين استطاع كاهن طيبة أن يخبر « هكتيه » أن في أمكانه رد نسبه ثلاثمائة وخمسة وأربعين جيلا وكلهم رجل وابن رجل (وهو بالطبع مبالغة في القول فاحشة) · ولم يكن الاغريق على صـلة بماضيهم · أو قل انهم لم يكونوا مدركين لهذه الصلة ، فوقع في نفوسهم أبلغ موقع ما امتازت به مصر من عراقة في التـاريخ كان المصريون أنفسهم في ذلك الوقت يفاخرون بها مفاخـرة واهية كليلة ·

كذلك تأثرت فارس بمصر ، على طريقتهـا الخاصـه ، تأثرا تجلى تاره في غضـبة قمبيز المصرية التي غضبها على آلهة مصر السحرة ، وتارة في عناية دارا واهتمامه بصيانة ثقافتها · ولم يشـذ عن هـذه الشـعوب غير بابل التي استطاعت أن تظل مترفعة ، لا تقنع بما اجتمع لها من مال ، تنقش على لوحاتها الصلصالية في عجله كما كانت تنقش أيام السومريين · فبابل دون غيرها لم يكن بهـا من حاجـة الى التأثر بمصر ، وهي في مسـتوى مصر عمرا — ان لم تزد — وفي مثل اتصالها بماضيها · ولم يسبق لها أن تأثرت تأثرا غيرمباشر .

بابل تترفع

وفي وسـع بابل ، دون سائر الشعوب القديمة ، أن نزعم أنها صمت أذنيها عن سماع ملق حية النيل العجوز · كذلك لم تدن بنتها أشور — وكانت في ذلك الوقت قد دالت دولتهـــا أو كادت — بأي دين مبـــاشر للحضارة المصرية أبان القرون التي حاربت فيها مصر وهزمتها ·

ولم يكن هذا حال فينيقية · فقد ســـمحت لمصر منذ البداية أن تبسط على شواطئها الضيقة نفوذا اقترن منذ عصر بناة الاهرام بســـيطرة سياسية لم تزل مصر ، حتى في هذه الفـــترة التي نحن بصددها ، تعززها من جديد ، بأعضاء فينيقية ، كلما سـنحت لها الفرصـة · وكان في فينيقية على الدوام خليطا فجا ومسخا ملفقا من فنون الأمم العظيمة المحيطة بهـا ،

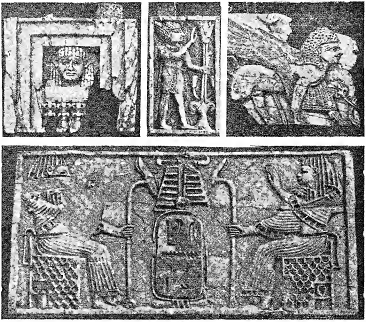
فن فينيقية القائم على التقليد

لاسيما الفن المصري · وفي المصنوعات الفينيقية الخالصة فن مخلط تغلب عليه ، في جملتـه ، عناصر مصرية ، يشتد ظهورها بطبيعة الحـال في الفترات التي يتغلغل فيها سلطان مصر في فينيقية ، كما هو الحال في العصر الصـاوي · وحـين نجد في أشـور قطعا فنيـة ذات طابع مصري . كقطع العاج الشهيرة التي وجدت في نمرود والمحفوظة الآن بالمتحف البريطـاني ، فاننا نعرف انها صناعة فينيقية لا أشورية · وانها انما صـدرت الى أشور · أما الفنانون الوطنيون من أهل أشور فكان لهم اسلوبهم الخاص الذي يدين لبابل بالكثير ، ولا يدين لمصر بشيء ·

أما عن مملكتى اسرائيل ويهوذا ، فالحق أن علمنا بثقافتها المادية يبلغ من الضآلة مبلغا يستحيل معه الحكم على مدى اصطباغ ثقافتهما بالصبغة المصرية مثلا . وعلمنا بفنهما لا يعدو القصص العجيبة التى وصلتنا عن هيكل سليمان ، ذلك الهيكل الذى يرجح أنه أبرز كثيرا من الأفكار المصرية منقولة على يد الفنانين الذين شيدوه ولا شك فى أن الديانة اليهودية قد استعارت من مصر كثيرا من الشعائر ، كتابوت العهد مثلا . كذلك كان العجل الذهبى والحية النحاسية ، معبودين مصريين . ولم يكن الأول سوى حتحور ، الآلهة البقر ، حامية شبه جزيرة سينا فى زعم المصريين ، وقد تكون الثانية بوتو آلهة الدلتا ، وهى الحية «ودجت» .

ولا ريب فى أن نفوذ مصر على اسرائيل كان كبيرا وقت طرد الهكسوس من مصر ، وهو على الأرجح الأصل التاريخى لقصة الخروج ، كما ظن يوسفوس . وكان الهكسوس قد عاشوا فى مصر أجيالا طويلة فتشربوا بلا ريب كثيرا من الثقافة المصرية .

ولا بد أن النفوذ المصرى كان عظيما فى عهد الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة وهو العهد الذى كانت مصر تسيطر فيه بحكامها وحامياتها على فلسطين . ولا شك فى أن هذا النفوذ كان غالبا فى عهد الصاويين ، وهو العهد الذى كان يحكم فيه مصر بسمتيك ونخاو . ولكنا قلما نجد لهذا النفوذ أثرا بعدو الأسلوب تمتاز به بعض المقابر فى سلوان (أورشليم) وفى



موضوعات الفن المصرى تقلد تحقيقا لأغراض تجارية

كشف فى أشور عن آثار مصرية الشكل ولكن الفنانين الفينيقيين ، لا الفنانين الأشوريين ، هم الذين صنعوها ، ثم جلبت بعد ذلك الى أشور . وهذه الصور تمثل أربعا من أمثال هذه النسخ ، مصنوعة من العاج ، وجدت فى نمرود . وفى رأس الرجل ذى الشعر المستعار ، والملك الذى يلبس الصل على جبينه ويحمل زهرة كبيرة من النيلوفر بيده ، والشخصيتين الوحيهتين اللتين تتعبدان للاله الشمس تقليد يفتقر الى الخيال وان كان فيه شىء من الأمانة . ولكن لأبى الهول سمات أشورية ومصرية .

بطرة Petra الى الجنوب • والظاهر أن اليهود القدماء لم يكونوا أمة من الفنانين • فالمتزمتون في الدين لا يبدون ميلا كبيرا لفنون الحضارة ، وغير المتزمتين من اليهود لم يستطيعوا سوى ان يحاكوا بعض ما يصنعه فنانو الشعوب المحيطة بهم التى بلغت من دونهم شأوا بعيدا في الحضارة فقلدوا الصور والتماثيل الدينية ، تقليدا أوهى من تقليد الفينيقيين أنفسهم • ذلك ان الفينيقيين قد أنتجوا على الأقل انتاجا وافرا الى حد عجيب ، واتجروا بالبضائع المقلدة التى صنعوها فى أصقاع نائية بلغت أطراف البحر المتوسط •

أما الكلام عن تأثير مصر فى الحيثيين وغيرهم من شعوب الشمال فلا سبيل الى الحديث عنه الآن ، فقد عصف الدهر بهم كما كان يعصف فى ذلك الوقت بالأشوريين ودالت حضارتهم قبل ان تولى حضارة الأشوريين بزمن طويل •

أما على الجانب الآخر من مصر فان النفوذ المصرى لم يجد تربة ينمو فيها • فلم تكن الصحراء الكبرى بالمكان الصالح لنشوء ثقافة تتأثر بغيرها من الثقافات وان كانت وطنية أو قل انها لم تكن المكان الصالح لنشوء أى ثقافة على الساحل المجدب حتى دخل الاغريق قورين Cyrene فى القرن الثامن ق•م وكان اللوبيون همجا حتى اذا قسناهم بالفلسطينيين ، ولا ريب فى ان ثقافتهم كانت منذ البدء متأثرة بمصر ، ولكننا لا نعلم عنها شيئا • ويبدو ان



الثقافة النوبية مصطبغة بصبغة مصرية

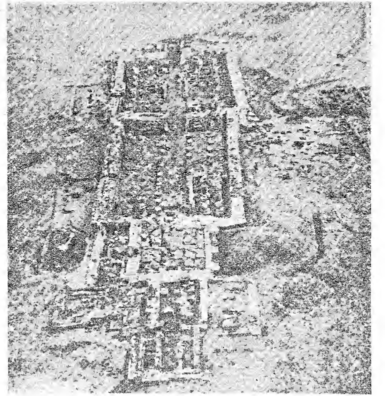
تمسك فراعنة الأسرة الخامسة والعشرين النوبيون بالتقاليد المصرية مع أنهم غزاة أجانب وتمثال طهارقة الزنجى الى اليمين (حكم من ٦٨٩ ـ ٦٣٣ ق•م) وتمثال اسبلته ملك اثيوبيا (حكم حوالى ٥٦١ ق•م) الذى عثر عليه بجبل هرقل ، كلاهما من النمط المصرى المتواتر

هؤلاء الهمج دخلوا مصر أفواجا بعد طرد الهكسوس ، ويلوح أنهم دخلوها بطريقة سلمية • وقد قاوم هذا التسلل فراعنة الأسرة



اهرامات تذكر برخاء النوبة

يبدو ان الطابع المصرى ظل غالبا على حضارة النوبة ، حتى بعد أن استقلت عن مصر وأصبح مقرها مروى عاصمة اثيوبيا الجديدة • فكان ملوكها ونبلاؤها مثلا يدفنون فى اهرامات ، شيدت بلا ريب تقليدا لأهرامات الفراعنة العظيمة ، وان كان حجمها صغيرا ، ومواد بنائها سريعة التلف • والصورة تمثل الاهرامات ذات الجوانب القائمة التى تمتاز بها الجبانتان الشمالية والجنوبية بمروى •



مـلك نوبى يفصـح عن اجلاله لاله مصرى

تدل عبادة آلهة مصر ، هى وعبادة الآلهه الوطنية فى جميع انحاء النوبة على مـدى تغلغل الافكار المصريه فى حضارة النوبة الفنية • وقد بنى الحكام المصريون فى عهد الاسرة الثامنة عشرة حين كانت النوبه ولايه مصريه معبد آمون فى نپاتا وهو الذى نرى أطلاله الرائعه هنا ولكن الملك الاثيوبى بعنخى أعاد بناءه فى وقت لم تكن النوبه فيه مستقلة وحسب ، بل مسيطرة على أرجاء مصر •

التاسعةعشرة الذين كانوا قد اتخذوا الدلتامقرا لهم فى ذلك الوقت ، ويبـدو أنهم نجحوا فى طردهم ، ولكن الى أجل • فما وافت الأسرة الحاديه والعشرون حتى عادوا الى مصر ، وأصبح لهم من البأس والسلطان ما تجاوز جنوب الدلتا بكثير ، وأخيرا أسـسوا فى مصر أسرة مالكة هى الأسرة الثانيةوالعشرون • وكانوا قدتطبعوا آنئذ بالطبـائع المصرية ، ولكننـا نجهل مدى انتشار الثقافة المصرية من بينهم الى الغرب • وعلى أى حال فان الاغريق حين استعمروا برقة ما لبثـوا ان أدركوا أن الافـلات من دائرة النفوذ المصرى محال عليهم فقد كانت الافكار المصرية متغلغلة فى هـذه المستعمرة الاغريقية فكان لقورين وبرقة من الفضل فى اتصال بلاد الاغريق الجديدة بمصر ما لايقل عن فضل ثغرى نقراطيس ودفنة الدوليين •

أما فى الجنـوب فقد كانت بلاد الاثيوبيين والزنج مستعمرات مصرية ومسارح للنخاسة ، وحقولا للذهب منذ عهد الدولة القديمة • وكان النفوذ المصرى بالطبع هو النفوذ الأجنبى الوحيد



الفن المصرى منقولا نقلا غير مباشر

هذه الجعلان التى عثر عليها فى سردانية من صنع الفينيقيين ، ولكن ما تحمل من رسوم — وهى قرص الشمس بين صلين ، ونحوت راكعا ، وشكل تقليدى لمحارب يضرب عدوه — أصله مصرى لا ريب فيه .

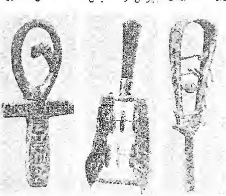
الذى عرفته تلك البلاد . وما وافى العهد الصاوى حتى كان هذا النفوذ قد تمخض عن ثقافة نوبية وطنية مشتقة من ثقافة مصر وان كانت مستقلة ، يغلب عليها الطابع المصرى القومى فى جميع خصائصها ، وتستعمل فى كتابة لغتها القومية خطا منطورا من الخط المصرى وتعبد آلهة مصرية علاوة على آلهتها ، وتدفن ملوكها فى أهرام منقولة عن أهرام الفراعنة الأقدمين .

ولقد ظلت هذه الشعبة الفذة التى انسلخت من مصر ، وفية للأفكار المصرية القديمة مدة أطول من المدة التى ظلت مصر فيها وفية لهذه الأفكار ، وقامت أمدا طويلا فى الجنوب ، سدا منيعا فى وجه المسيحية أولا ، ثم فى وجه الاسلام حين انتصرت المسيحية بعد لأى . وما زالت هذه الشعبة باقية فى الحبشة ، تشوبها العناصر العربية الجنوبية وتختلط بها لغات أصلها سامى من جنوب العرب ، كأنها جزيرة انعزلت فيها المسيحية القديمة الى ذلك الحين ، وهى مسيحية تستعمل فى طقوس العبادة « الصلاصل Sistrum » مثلا وهى ضرب من الشخاشيخ انحدر رأسا عن العبادات الوثنية فى مصر .

ولا ريب فى ان النفوذ المصرى تسرب جنوبا الى افريقية منذ أقدم العصور أثر فى حضارة القبائل الوطنية . فهل من عجب ان نشهد بعض آثاره ماثلة الى اليوم بين قبائل الباهما فى أوغنده ؟ .

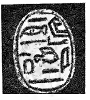
قلت ان تأثر الثقافة المصرية فى الشعوب المحيطة بمصر فى عصر الانحلال الصاوى كان تأثرا متراكما . فقد ظلت الخميرة المصرية تتفاعل ثلاثة آلاف عام ، آنا فى بطء يكاد يشل عملها قرونا وآنا فى سرعة نسبية ، حتى تفجرت فى القرن الثامن والسابع والسادس ق.م ، فأسفرت عن تحوير بالغ فى الفن الاغريقى الناهض من رقدته ، ووسمت فينيقية من جديد بطابع مصرى بلغ من قوته ان جميع الشعوب التى كانت تتلقى البضائع الفينيقية — من شرق البحر المتوسط الى غربيه — تلقت معها الفن المصرى أيضا عن طريق غير مباشر .

وعلى الرغم من عزلة مصر التى تفردت بها ، فانا نجدها على صلة بالشعوب المحيطة بها منذ فجر تاريخها . فقد كانت مصر كما رأينا معزولة عزلة أشبه « بجزيرة » جغرافية ، ولكن هذه العزلة أفادتها فى رد الأجانب عنها ، ولم تمنعها من التأثير فيهم . ومن الخطأ الظن بأن المصريين كانوا أمة لادراية لها بالاسفار ، وأنهم لم يكونوا ملاحين مهرة مثلا . فقد كان أهل الدلتا ملاحين بارعين كما أثبتوا ذلك فى سلاميس ، وكما أثبتوه قبل سبعة قرون حين قادوا السفن التى حملت جيوش رمسيس الثالث من وطنيين



آلة مستعملة فى طقوس العبادة قديما وحديثا

أخذ النوبيون عن مصر كثيرا من طقوس ديانتها . ويرى هنا (الى اليسار) مثلا علامة « عنخ » وهى رمز الحياة المتواتر « مهداة من الملك طهارقة » والشخشيخة (فى الوسط) التى تستعمل اليوم فى الصلوات المسيحية فى الحبشة اشتقت من الصلاصل المصرية (الى اليمين) عن طريق النوبيين



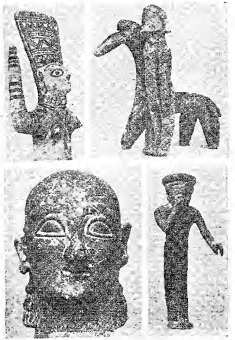
ختم أمير

استعملت فىهذا الجعل عبارة مصرية لقبالـ « يانت » ، أمير جبيل الفينيقى (حوالى ٢٠٠٠ ق ٠ م) ٠

ومرتزقة ، ليقاتلوا الفلسطينيين فى مستنقعات بحيرة سربونيس ٠ وكانوا من أقدم العصور يمخرون بانتظام عباب البحرين الأحمر والمتوسط وقدأسسوامستعمرة فى جبيل بفينيقية قبلعام ٣٠٠٠ ق٠م بزمنطويل ، وكانوا يرحلون عادة الى بلاد بنت (ساحل الصومال) وربما الى ابعد منها ، التماسا لصموغها وأفاويهها وحيواناتها النادرة ٠ وشبيه بهذا مافعله البابليون الذين يلوح أنهم طافوا فىزمن سحيق حول شبه جزيرة العرب سالكين البحر الأحمر ، وزاروا سينا وساحل مصر الغربى ابتغاء الأحجار الصلبة ، ويظهر أنهم اشتبكوا هناك مع أهل الساحلالصحراوى الذين يمتون بصلة القرابة فيما يبدو لمصريىما قبل الأسر ٠

ثم ان المصريينكانوا من أقدم العصور رحالين ممتازين على اليابسة ٠ فقدكانت قوافلهم تخترق لوبيا فتبلغ أواسط أفريقية فى عهد الأسرة السادسة (حوالى ٢٦٠٠ ق٠م) بل قبل ذلك بلاريب ، واتصلوا بالقبائل المينيوية القديمة فى كريت والأرخبيل بفضل نشاطهم فىالبحر المتوسط ، ومن الجائز ان يكون كثير منهؤلاء المينيويين قد نزح أصلا من مصر ولوبيا وربما كانوا يمتون بصلة النسب لشعب النيل واللوبيين الذين كانت تربطهما فى البداية قرابة وثيقة من غير شك ، ولكن حركة الهجرة القديمة التى وفدت من سوريا بل من أقطار تتجاوزها شمالا سرعان ما باعدت بين المصريين واللوبيين ـ والسر فىارتقاء الحضارة المصريه ارتقاء أدى الى تأسيس المملكة الفرعونية حوالى عام ٣٤٠٠ ق٠م هو هذه الهجرة فيما يبدو اعنى وفود مصريى عصر الأسر ٠ فقد جلب هؤلاء القوم بذور الحضارة معهم من سوريا ، ولعل سوريا كانت البؤرة التى استقت منها بابل أيضا ثقافتها ٠

وتلا تأسيسالمملكة نشاط فيماوراء البحار ٠ وهناك أدله قاطعة على ماكان لمصر من تأثير قوى فى كريت منذ العصر السابق للأسر الى عصر الأسرة السادسة (ويعادل هذا العصر الفترة المينيوية القديمة الثانية) وفى عهد الأسرة الثانية عشرة (ويعادل هذا الفترة المينيوية الوسطى ـ حوالى ٢٠٠٠ ق٠م) يعود هذا التأثير ثانية أقوى من ذى قبل ، ولكنه الآن يتكفل به المينيويون ويطبقونه فى حذق ومهارة ٠ وفى عهد الأسرة الثالثة عشرة (ويعادل هذا الفترة المينيوية الوسطى الثالثة) تبلغ كريت أوجها ،



ارتقاء الفن القبرصى

كان مستوى الفن شديد الانحطاط فى قبرص ، حتى ظهرتالمؤثرات المصرية فىالجزيرة حوالى عام ٥٥٠ ق٠م ٠ ويرى القارىء هنا مثالين من الصناعة القديمة ـ وهما تمثالان فخار أحدهما لكاهنة ، والآخر لسائس ممسك بجواد ـ مقرونين بتمثالين أنضج فنا ، صنعها فنانون ملمون بالمثل المصرية ٠

ولا يبقى فى جعبة مصر الا القليل تعلمه لكريت والواقع أن كريت هى التى كانت فى ذلك الوقت تعلم الفنانين المصريين الكثير مما لم يعلموا ، وذلك فى عهد الأسرة الثامنة عشرة (تعادل الفترتين المينيويتين المتأخرتين الأولى والثانية حوالى ١٦٠٠ ــ ١٣٥٠ ق٠م) ٠ ثم تنحط الثقافة المسماة بالمينيوية المتأخرة الثالثة ، وتحل الطامة الكبرى بالاغريق ٠ ويهاجم مصر جوابو البحار الذين تمخضت عنهم الفوضى الضاربة بجيرانها فى بحر ايجة ، وتفقد مصر كل صلة وعلم ببلاد الاغريق التى تردت فى حمأة الهمجية آنئذ حتى تبلغ عصر الفراعنة الصاوبين ، فاذا اليونان تنهض من عثرتها بمعونة مصر نهوضا بطيئا عسيرا فى أوله ، ولكنه لا يلبث أن يسير سيرا حثيثا ٠

وفى فينيقية نرى المستعمرة المصرية قائمة فى « جبيل Byblos » بآلهتها ومعابدها المصرية على الأقل من أيام سنفرو (حوالى ٢٩٠٠ ق٠م) وقد بلغ من قدم الصلة بين البلدين ان احتلت جبيل مكانا فى الديانة المصرية ، فالى جبيل قذفت الأمواج بجثة أوزيريس ٠ وهناك أودعت تابوتا خشبيا،والى جبيل ارسل سنفرو المراكب العظيمة لتجلب له أرز لبنان وصنوبره ليقيم بهما منشآته ومبانيه بل ليصنع بهما التوابيت أيضا من غير شك ٠ وقد استمرت هذه التجارة على مدى الأجيال ، وكان لها أيام الدولة الوسطى شأن أى شأن ، فمن لبنان جلب المصريون كل الأخشاب الممتازة التى استعملوها فى صنع توابيت ذلك العهد الخشبية المستطيلة الكبرى ٠ فقد كانت الأخشاب المصرية من الرداءة بحيث كان كل الذى استعمله المصريون يجلب من فينيقية كما يجلب اليوم من أوربا ، ولا بد ان أمراء جبيل الوطنيين فى عهد الأسرة الثانية عشرة كانوا يجنون من وراء هذه التجارة ربحا طيبا ٠ نحن نراهم مدفونين فى أبهة على الطريقة المصرية المأثورة فى الدولة الوسطى ٠ وفى المتحف البريطانى جعل لأحد هؤلاء الامراء واسمه يانت ، نقش عليه لقبه بعبارة مصرية كأنه أمير مصرى ٠ وقد استمرت هذه الصلة على مدى الأجيال بين مصر وجبيل ، وبين مصر وفينيقيه عن طريق جبيل ٠

وفى عهد الأسرة الثامنة عشر نرى تحتمس



النزعة الجزائرية فى رسوم القبرصيين

كان الفنانون القبرصيون شديدى التمسك بتقاليد جزيرتهم ، وعلى ذلك ترى الأسلوب فى هذه الصورة الحية المرسومة على زهرية ومعظم تفصيلاتها ، قبرصية لأمراء فيها ، على الرغم من أن الأثر العام الذى تتركه فى نفوسنا يذكرنا بالفن الأشورى ٠

الثالث يستخدم المدن الفينيقية ، التى درجت على الولاء لمصر ، قواعد محلية للقوة البحرية المصرية حين أراد ان يخضع سوريا الشمالية ، وكان يخشى الزحف الطويل الشاق فى فلسطين فنقل فى جرأة قاعدة عملياته الحربية الى سميرا Simyra الثغر الفينيقى وحمل اليها جيوشه من مصر بحرا ، وهذا الفعل منه يعد أقدم مثال سجله التاريخ على أثر القوة البحرية ، فيما نعلم ٠ وفى أواخر هذه الأسرة نسمع مأساة غدر الفرعون اخناتون ، داعية السلام ، والرجل المثالى الأخرق ، بفينيقية الوفية ، وتخليه عنها لجشع سبلليوما ملك الحيثيين وصنيعتيه الأميرين اللبنانيين عزيرو وعبد شرتا فقدت مصر مركزها فى فينيقيه قرونا عديدة ٠ وقد استطاع سيتى

صلات مصر بفينيقية

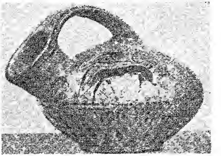
الأول ورمسيس الثانى ان يستعيدا سيادة مصر على فلسطين الجنوبية ويشيدا حصونا فى بيسان Bethshan وغيرها ولكن لم يكن ثمت سبيل الى استرجاع فينيقية ٠ وقد لقى «وناماتا» أو يناموِن المبعوث المصرى الى فينيقية فى أيام الاسرة العشرين من المعاملة الخسيسة هناك ما أوضح للجميع بجلاء أن مصر قد دفعت ثمنا غاليا لغدر مجرم أخناتون ، وهو ضياع أملاكها وهيبتها فيما وراء البحار ولم يتسن لمصر ان تستعيد بعض مكانتها الا فى عهد بسمتيك الأول والملوك الصاويين ومع ان المقاومة التى لقيتها مصر من أشور أولا

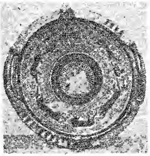
ثم من بابل ثانيا قد وضعت حدا لسيطرة مصر السياسة الفعلية ــ اذا استثنينا فترات متباعدة قصيرة ــ الا انها استردت فى ذلك الوقت بلاريب ما كان لها من سلطان ثقافى على فينيقيه فى العصور السالفة ، ولاشك فى ان الملك بسمتيك الأول كان يقصد التنويه بعودة العلاقات الدينية والفنية القديمة بين البلدين حين قام فى عام ٥٩٣ ق.م . برحلة مقدسة الى جبيل وفى معيته الكهنة يحملون « أكاليل آمون » لتقدمها الى المعابد المصرية القديمة .

أما جزيرة قبرص فكانت فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد قبل حكم أمنحتب الثالث لمصر ، قد تلقت الثقافة المينوية عن رودس وشبه جزيرة اليونان على الارجح لا عن كريت التى كانت فى طريق الانحلال آنئذ ، واحتفظت قبرص طويلا بنمط منحط من هذه الثقافة ، بما فيها حروف الكتابة التى حورتها لتؤدى أصوات اللغة الاغريقية التى جلبها معهم الغزاة الاركاديون الوافدون بعد الغزو الميسينى بقرنين أو ثلاثة . وليس هناك دليل ينهض على ان الميسينيين أو المينويين كانوا من الناطقين باللغة الاغريقية . وليس هذا محتملا على الاطلاق . ولعل أول الناطقين بالاغريقية فى بلاد اليونان هم الآخيون الذين ظهروا أول ما ظهروا فى القرن الثالث عشر ، وهو قول فيه نظر على أى حال .

وكان العنصر الاغريقى فى قبرص قويا (وهو عنصر ميسينى ، نصف كريتى ، اختلط به الاغريق الخلص النازحون من أركاديا) ، بحيث لم يقو الفنيقيون على توطيد أقدامهم فى الجزيرة قط ، واقتصر احتلالهم الفعلى على مدينة كيتيوم Citium (كيتيون Kition) فى حين كان لليونانيين مدن كثيرة يحكمون منها السكان الوطنيين المنحدرين من أصل أناضولى .

ولما سيطرت أشور على فينيقية فى أثناء ضعف مصر ، تقبل الملك سرجون فى عام ٧٠٩ ق.م خضوع أمراء قبرص الاغريق والفينيقيين ودانت قبرص لأشور الى ان سقطت أشور . وبعد خمسين سنة ، لم يبد من نبوخذ نصر (بختنصر) ملك بابل ما يشعر برغبته فى بسط سلطانه على قبرص ، ففتحها ملك مصر أما زيس الثانى ، تنويها بارتقائه عرش مصر (ولعل هذا الفتح تم بطرق سلمية ، لأننا لا نسمع فيه بأنباء قتال) . وظلت قبرص أربعين سنة أخرى (حوالى ٥٦٥ ــ ٥٢٥ ق.م) تأخذ عن مصر دون غيرها ، حتى أتى الفتح الفارسى فوجهها وجهة جديدة . ويظهر أثر السيادة المصرية جليا فى الفن القبرصى فى هذه الفترة ، فان فيه من تأثير الفن المصرى سمات لا يخطئها البصر ، مما يضفى عليه أهمية بالغة فى تاريخ الفن الاغريقى .





زخارف محكمة شغف بها الفخاريون النقراطيون

كانت الاوانى الفخارية تصنع بكميات وافرة فى نقراطيس ، المحطة التجارية الاغريقية الكبيرة على النيل ، ثم تصدر لليونان وايطاليا ، ولم يتأثر صناع نقراطيس المهرة ببيئتهم ، لذلك لم تكن الزخارف التى رسموها على أوانيهم ، على ما فيها من صبغة شرقية ، زخارف مصرية ، بل مستعارة من رودس التى كانت مركزا آخر لصناعة الفخار وآية براعتهم هذان المثالان من فنهم ، وهما محليان لهما أفاريز مالية ، قوامها حيوانات تقليدية .



آية من آيات تصوير الابطال فى صورة هزلية

أخذ الفنانون الايونيون الذين كانوا يصنعون ضربا من الخزف يسمى الـ « كيريتى Caeretan » بعض أسلوبهم عن الخزافين النقراطيين ثم ان رسومهم تدل فى كثير من الاحيان على معرفة وثيقة بمصر ، فصور المصريين فى هذا الرسم مدهشة ، مع أنها صور كاريكاتورية . والرسم يمثل هرقل يقتل الفرعون « بوصير » واتباعه . ونرى فرعون (الراقد على انفه) يحمل الصل على جبينه

على اطراف ليبيا ، قيام تجارة كبيرة لتصدير الصوف . وكانت القطعان ملكا لفرعون ، ولو فرض أنها لم تكن ملكا له فلا بد أنه يجبى عليها ضريبة تصدير كبيرة . كذلك استؤنف شحن قمح الدلتا والصعيد فى مراكب اغريقية بطريق سايس ونقراطيس الملكى ، وهو القمح الذى كانت بلاد اليونان بلا ريب تستورده من مصر على عهد المنبويين ، وكذلك جلب الزيتون والنبيذ من الدلتا فقد كانت مصر غنية بكرومها فى العصور القديمة .

وقيام عاصمة الملك على الحافة الشمالية الغربية لمصر ، راجع الى حقيقة تاريخية ، ألا وهى الأصل اللوبى للأسرة المالكة . فقد رأينا ان المقاطعات الشمالية الغربية فى الدلتا كانت قد أقفرت فيما يظهر بعد طرد الهكسوس حوالى ١٥٨٠ ق.م واحتلها المستعمرون اللوبيون . وكانت الحضارة المينيوية ، أو حضارة الأغريق فى عصرهم البرنزى ، قد انهارت بعد ذلك بثلاثة قرون ونصف ، أى على عهد الأسرة التاسعة عشرة ، وصحب هذا الانهيار واعقبه قلقلة الشعوب قلقلة أدت فى اليونان الى سيادة القبائل الأوربية الهندية ، الناطقة بالاغريقية ، والوافدة من الشمال ، سيادة مطلقة ، وجلبت الى سواحل ليبيا ومصر قبائل بحرية مغيرة تحالفت مع اللوبيين وحاولت غزو وسط الدلتا وشرقيها بل هددت منف نفسها . وكان



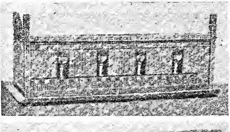
اسرى الفاتح الأشورى

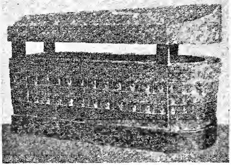
حين قام آشور بانيبال بغزواته على مصر (٦٦٧ ـ ٦٦٣ ق.م) كان يحكم الدلتا أمراء من أصل لوبى ، وكانوا قد استوطنوها فى أفواج كبيرة قرونا عديدة ، ولم يفلحوا فى صد الأشوريين . والنقش الأشورى البارز فى هذه الصورة يمثل صفا من الأسرى المصريين فى القرن السابع

ودخل الاغريق من جديد فى محيط مصر ، بتأسيسهم مستعمرتهم فى برقة أولا ثم ثغر نقراطيس بعد ذلك . ويرجع الفضل فى تأسيس هذا الثغر الدولى ، الذى فتح للاغريق جميعا ، على فرع النيل الغربى ، الى أحوال مصر السياسية من جهة ، ومن جهة أخرى الى قربها من برقة التى كان الاغريق يستطيعون

الاغريق المستعمرون فى نقراطيس

ان يجدوا فيها ملاذا قريبا اذا دهمتهم كارثة ، أما فى الشرق البعيد فلم يكن هناك اغريق يلوذون بهم بل جيران من الاسيويين الذين لا يعطفون عليهم . أما السبب السياسى فهو وجود « سايس » (صا الحجر) بالقرب منها . وهى مقر بسمتيك وخلفائه من فراعنة مصر الذين كانوا يحكمونها اذ ذاك . وكان الاغريق يضمنون حماية الفراعنة فى هذه البقعة أكثر من أية بقعة أخرى وهى حماية لم يتردد فى منحها اياهم الفراعنة الصاويون لأنهم ، هم أو نوابهم كانوا على الأرجح من أهم المتجرين مع بلاد اليونان . وكانوا الى حد ما وسطاء بين رعاياهم وبين التجار الاغريق . وكانت كاهنة أيولو بدلفى (Pythis) توصى المستعمرين اليونانيين بالذهاب الى ليبيا « الغنية بصوف الغنم » وقد سهلت أغنام اقليم غرب الدلتا ، الواقع





شواهد على المثل الجديدة فى الفن

منشواهد الانتعاش الفنى الذىكان مظهرا منمظاهر تجدد مصر فى القرنين السابع والسادس ق٠م ٠ زيادة التفنن والاتقان فى الزخارف الجنائزية والزخارف التى ترى على هذين التابوتين ــ وأعلاهما من الخشب المدهون ، وأسفلهما منالجرانيت المنقوش ــ فقدأبرزتبداينم عنشعور صانعيها شعورا صادقا بالاعتزاز بفنهم

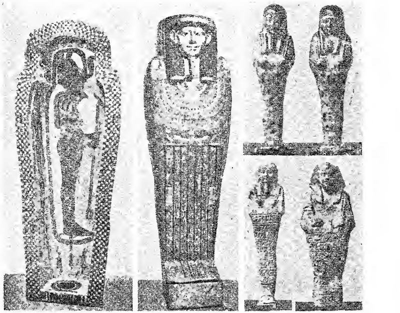
المصريون فى عهد الأسرة التاسعة عشرة التى نبت أول حكامها من بيت رمسيس فى شمال شرقى الدلتا ، حيث قاعدتهم تنيس « صان الحجر » قد اشتد اهتمامهم بشئون الدلتا آنئذ عما كان فى أيام الأسرة الثامنة عشرة ٠ فصدوا الغزاة واحتفظوا بسلطان الفراعنة كاملا ، ولكن اللوبيين لم يغادروا مصر ، ويبدو ان بعض أسرهم الحربية النبيلة قد اقطعت اقطاعات حتى فى الصعيد ، جنوبى منف ، وهناك أصبحت « هننسو » أو « هنيس » المعروفة (اليوم ب) « اهناسيا وعند الاغريق » ب « هرقليوپوليس » قصبتهم العظيمة وكانوا يعرفون ب « رؤساء ما العظام » وهو اختصار لاسمهم اللوبى « ما شواشا » أو « المشواش » (وكان الاغريق يسمونهم ال « مكسييس ») ٠ وقد احتفظوا ، رغم تمصرهم ، ببعضخصائصهم القومية بما فى ذلك أسماؤهم اللوبية ، كما فعل المنشو فى الصين ٠

وفى نهاية الفترة التىكان ملك مصر فيها قسمة بين الملوك الكهنة فى طيبة (فراعنة الأسرة الحادية والعشرين) وبين أحفاد الرمامسة فى صان الحجر شرقى الدلتا ، وكانهؤلاء أحق بالعرش من ملوك طيبة الكهنة ، تقلدت زمام الأمر فى مصر أسرة لوبية من ال « ما » ، يربطهابالأسرة الطيبية رباطالمصاهرة ، وأسس شيشنق (شيشق الأول) الأسرة الثانية والعشرين حوالى ٩٤٧ ق٠م ٠ وازدادت أهمية الأسر اللوبية بالنسبة للدولة منذذلك الحين ، وأصبح الدم اللوبى يجرى فى عروق فراعنة مصر الى الفرعون أمازيس وباستثنائه ٠ وكان الفراعنة الأثيوبيون أنفسهم ينتهون الى أصل لوبى ٠ وكانت أقوى أسر الأمراء اللوبيين فى الدلتا فى القرن السابع ٠ هى أسرة لوبيى سايس (صا الحجر) الذينكانوا يملكون اقليم مديس (تمى الامديد) أيضا ٠ وكان أميرهم « نخو » أهم رجل فى مصر أيام غزو الأشوريين لها عام ٦٦٣ ، حين نهب أشور بانيبال مدينة طيبة ودمر امارة « منمحت » « الطيبية » وحكم مصر نخو وابنه بسمتيك نائبين عن الملوك الأشوريين حتى تراخت قبضة الأشوريين شيئا فشيئا ، فاستطاع بسمتيك ان يستقل بملك مصر اسما وفعلا ٠

وأصبح بسمتيك فى ذلك الوقت أغنى ملوك الأرض وأقواهم فى الواقع ، وبدا فى شيخوخته لا قريع له ولا غريم ، بعد ان سقطت نينوى (فى عام ٦١٢) سقوطا حاول عبثا ان يتقيه بحد السيف ، لأنه ظل الحليف الوفى لأشور المتداعية على الرغم من استقلاله عنها استقلالا تاما ٠ وقد ورث عنه هذه الصدارة خلفاؤه من فراعنة الأسرة السادسة والعشرين ، ولكن غريما جديدا سرعان ما نازعهم هذه الصدارة ذلك هو نبوخذ نصر (بختنصر) الذى هزم الفرعون نخو فى قرقميش (٦٠٤) ولكن نبوخذ نصر لم يهاجم مصر البتة ، ولو أننا نقرأ عن صدام وقع بينه وبين أمازيس بعد

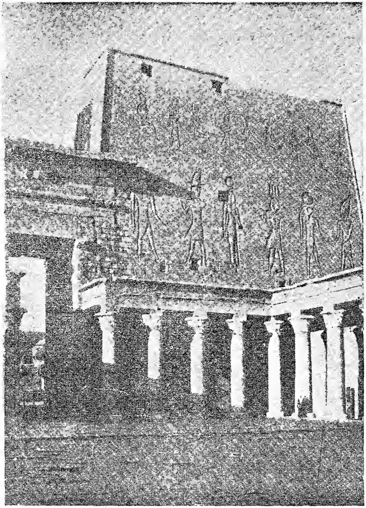
خمسين عاما ، حين كان الفرعون فى شيخوخته ولكن يبدو ان الصدام لم يسفر عن شيء • ونربع الفراعنة نخو ، «وبسمتيك الثانى» و «واحبرع» (وهو المعروف عنـد العبرانيين ب « حوفرع Hophra » « وعند الاغريق ب » ابريس) فى أبهة الملك ، على عرش مصر الناهضة التى بدأ مجدها اليوم يضارع مجدها الغابر ــ بيد أنها ، ازاء عظمة نبوخذنصر ملك بابل ، لم تقو على توطيد ما كان لهـا فى غابر الأيام من سـلطان على آسية ، الا خلسة فى فترات منقطعة •

وكانت فينيقية لا تزال تؤثر بولائها لمصر دون بابل ، وبذلت محاولات لاحيـاء النفـوذ المصرى عليها وعلى جنوب فلسطين ولكن هذه المحاولات أحبطتها بابل • وقد فشل حوفرع فشلا ذريعا كفت بعده مصر نهائيا عن بذل هذه الجهود ، واذا كان الفرعون أمازيس قد فكر يوما فى الافادة من ضعف بابل بعد موت ملكها الجبار ، فانه سرعان ما تخلى عن هذه الفكرة ثم استولى قورش Cyrus (كورش) على بابل فى عام ٥٣٨ وكانت مصر فى شغل شاغل عن استفزاز فارس بما تتوقعه من هجوم الفرس عليها • وبعد موت أمازيس جاء دور مصر عام ٥٢٥ ، فغزاها قمبيز وقبض على ناصيتها بيد أصلب من يد الأشوريين الذين لم يقيموا أنفسهم البتة ملوكا رسميين على مصر كما فعل الفرس • وكل ماكان يهم الأشــوريين هو ابقاء مصر ضـعيفة توطيدا لسلطانهم على غربى آسية ، وذلك بفرض جزية يحصلها لهم أمراء وطنيون ، تعينهم أشور ، وتغيرفيهم وتبدل بحملات تأديبية اذا حاول ملك وطنى ان يؤكد سيادته على مصر (وأن كان هذا



رموز ملموسة على عودة الرخاء الى مصر

تدل فخامة الاشياء المستعملة فى الأغراض الجنائزيه على ثراء مصر فى عهد الملوك الذين تـلوا بسـمتيك الاول (٦٦٣ ـ ٦٠٩ ق•م) • ولم تكن تماثيل المجيبات (الاوشبتى) فى هذا العهد (وترى أربعا منها هنا) طبيعية بسيطة كنظائرها قبل ألف سنة ، ولكنها كانت أدق نحتا ، وأعظم صقلا • وفى صنع التوابيت فن رائع ، والتابوت (الاوسط) ذو الوجه المذهب مغشى برسوم ونصوص دقيقة التلوين ، وفى داخل التابوت الثانى اسراف فى الزخرف •

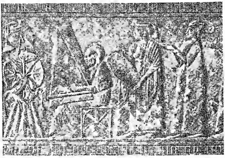


ثروة الفراعنة تكرس لبناء المعابد الفخمة

زادت ثروة مصر زيادة هائلة فى عهد الملوك المستبدين الاقوياء ، كملوك الاسرة السادسة والعشرين البطالمة ، وظهر أثر هذا الرخاء الذى حل بالبلاد فى ازدياد فخامة المبانى المخصصة للاغراض الدينية . ويمتاز معبد حورس بادفوالذى شيده البطالمة المتعاقبون بين ٢٣٧ و ٥٧ ق . م . بالروعة فى أسلوب عمارته . ويرى فى هذه الصورة ركن من بهوه العظيم ، وبوابته الغربية ، وعليهما نقوش بارزة تمثل الآلهة والفراعنة .

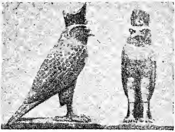
الملك أثيوبيا) • ولم يحاولوا ضمها ضما تاما الى أمبراطوريتهم كما فعل الفرس • ولم يسبق لمصر ان دانت لحكم غرباء كما دانت لحكم الفرس ، ذلك ان الهكسوس أنفسهم حين حكموا مصر حكموها من داخلها لا من خارجها ، أما اللوبيون فقد تمصروا ، وأما الأشوريون فانهم لم يحكموا مصر فعــلا حكما مبــاشرا قط ، وان احتفظوا بسيادتهم عليها من الخارج •

وقد أتى هــذا الفتح على استقلال مصر فى العصر الصاوى ، ولكنا نستطيع ان نعد مصر صاوية ، وان كانت تحت حكم الفرس • فقد استمرت الثقافة الصاوية المتميزة قائمة وظلت تبسط نفوذها على الحضــارة المجاورة لها وعلى الاخص حضــارة فارس نفســها • وقد عجز الملوك الصاويون عن فرص سلطانهم على آسية الا ان مصر كانت تحت حــكمهم بلدا يفيض بالثروة ويزخر بالصناعة والانتاج الفنى ، مما زاد فى نفوذها الثقــافى فى ذلك العهد زيادة لم تتح له من قرون ، بل لعله فاق نفوذها فى أى عهد سابق ، فكان ذلك النفوذ غاية ما بلغته من رقى بدأ حتى من قبل عصر بناة الأهرام • فمصر لم تمصر قوما ذوى ثقافة تمصيرا كاملا قط • ولم يحدث هذا الا للاثيوبيين الهمج ، وللوبيين المستوطنين مصر ، ولو أننا قد عرفنا من أمر اللوبيين شيئا لكان من المحتمل ان نجد



رقة النحت الصاوى

يمتاز الفن الصاوى باللطف والانسجام والدقة ، فضلا عما يتسم به من نزوع الى محاكاة القديم الذى قام هذا الفن على الاقتداء بمثله • وفى اشكال الموسيقيين المنقوشة نقشــا دقيقا حيا على هــذه اللوحة البــارزة ، المأخوذه من مقبرة منف ، علامات تدل أيضــا على تأثر الفن الصــاوى بالفن الاغريقى الناشىء



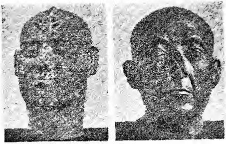
طلسم رائع الصنع

لعل أروع ما تجلى فيه فن الصــاويين الذى بلغ من الرقة مبلغا كبيرا ، هو صنع الحلى ، والباز المصغر ، الذى يرى هنا فى وضــعين مختلفين ، تحفة رائعة من الذهب المطعم •

انهم قد تأثروا بثقافة النيل تأثرا قويا •

أما الفينيقيون فقد ظلوا فينيقيين رغم أخذهم عن مصر أسباب فنها بل بعض خصائص دياناتها • وهذا القول أكثر انطباقا على الشعوب الاسيوية الاخرى التى اتصلت بمصر اتصالا مباشرا ولكن تأثير الحضارة المصرية واضحا بينها فى جميع العهود ، وهو فى هذا العهد أوضح منه فى أى عهد مضى • وقد برز هذا التأثير بشكل جلى فى قبرص آنئذ ، وكذلك فى بلاد اليونان الجديدة كما ذكرنا •

وعادت مصر آنئذ الى ما كانت عليه منذ خمســة قرون أو يزيد فى عهــد امنحــوتب العظيم ورمسيس الثالث (الذى سماه هيرودوت رامپسنتس) فأصبحت أغنى بلد فى العالم ، وكان قد حــل بمصر من قبل بعض الفقــر نتيجة لعوامل اقتصــادية لا نستطيع استقصاءها وبسبب ضــياع املاكها الأسيوية قبل كل شىء فى عهد أواخر الرعامســة وفراعنــة الأسرتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين • أما الآن فقد عاد اليها ثراؤها بفضل ما تمتعت به من سلام فى الداخل فى عهد ملوك اشداء ، وان لم تملىء خزائنها بجزية البلاد الاسيوية وكان مصــدر ثرونهــا بالأمس كما كان اليوم ، هو الزراعة مضــافا اليهــا ذهب النــوبة ونستطيع أن نلمس أثر هــذه الثروة

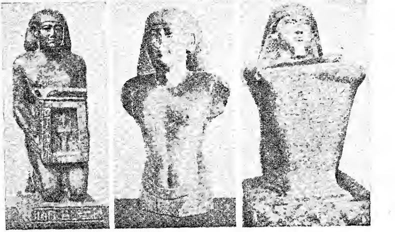


روائع من فن التماثيل المنحوتة من الحجر

على الرغم مما يبــدو على المثالين الصاويين والبطلميين من انصراف الى الفنون الزخرفية • فقد توفرت لهم القــدرة على التصــوير الواقعي القوي • وفي هــذين الرأســين وأحدهما لأمير رضي منبسط الوجه ، والثاني لكاهن بطلمي كهل – تصوير صادق للطبيعة يضعهما في صف أرفع مثل النحت المصري

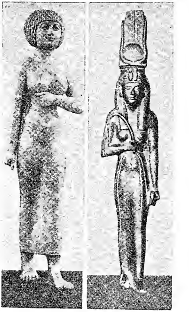
ظاهرا في العودة الى تشييــد المعــابد الفخمة وصنــاعة التحف الفنية الرائعة • وقد استمر هذا الرخاءفي عهد الفرس على الرغم من الثورات وقد احتفظ الفرس بالسيطرة على مصر لكونها قبل كل شيء ، أغنى ولايات الامبراطورية الفارسية – وبلغ الرخاء ذروته في عهد البطــالمة • وكانت جارات مصر تنظر الى هــذه الأمــة التي انتعشــت في شيخوختها على أنها الموئل الأكبر للثراء والنعيم والفن •

ولما كان الفن الصاوي فنا ولد في كنف النهضة التي أصابت مصر فانه يختلف اختلافا بينــا عن فن العهــد السابق ففي العهد السابق كانت طيبة قصبة الملك ، وكان للثقافة والفن مسحة طيبة خاصة استمرت من عهد الأسرة الثالثة عشرة الى عهد الأسرة الثانيــة والعشرين (وهي فتــرة تجــاوزت ألف عام) • فلما عاد مركز الثقل في البلاد الى الشمال مرة أخرى – كما كانت الحال قديما قبل عهد الأسرة الثانيــة عشرة – اتخــذ فن النهضة الصــاوية لطيبة صبغة منفية مميزة ، حتى قبل أن يقضي الأشوريون على طيبة فعلا • والحق أننا نستطيع الــكلام عن حركة احياء أصــابت الفن عامة والفن المنفي خاصة ، ظهرت في القرن الثامن



جمع طريف بين الواقعية القائمة على الدرس والعــرف القديم

دأب المثالون الصاويون في نقوشهم ، وفي تماثيلهم أيضا ، على نقل الاوضاع القديمة بطريقتهم الخاصة • لذلك وفقوا في ان يضفوا على انتاجهم من القوة مالا ينال منه التكلف الطارىء عليه • فنزعة تقليد القديم ، التي نراها في التمثال الأوسط ، لم تنتقص من قوته ولا تأثيره وقيمته التصويرية • والحق ان جذعه البديع يثبت للمقارنة بأي جذع نظيره من حيث براعة التسوية •



دراستان متكلفتان لامرأتين

فى شكلى المرأتين هنا ايضاح لما فى الفن الصاوى من تكلف ، ففى الجسمين جمود وافتعال ، ولا تظهر مقدرة الفنان الا فى رسم الوجهين ·

ولم يمض عليها طويل عهد حتى صبغت بصبغتها الاتجاه الذى سار فيه تطور الفن فى الولايات الناهضه · وأخص ما تتميز به هذه النهضة هو النزوع المقصود الى محاكاة القديم ، والرجوع المتعمد الى المثل الفنية الغابرة التى تمثلت فى عصر منف وبناة الاهرام ، قبل أن تفرض طيبة سلطانها على البلاد · وقد نبذ الناس آنئذ فن طيبة الامبراطورى ، الذى كان قد انحط انحطاطا عظيما ابان فترة الفقر ، ونبذوا معه كل ما يتصل به هذه النهضة هو النزوع المقصود الى القديمه الماثله بين ظهرانيهم فى منف يستمدون منها الوحى والارشاد ·

وقد أصبح التقليد الواعى لفن الدولة القديمة البدعه السائدة فى العصر الصاوى ، وبلغ من شأنه أن كانت التماثيل ، مثلا ، كثيرا ما تصنع محاكيه أدق المحاكاة لأسلوب الأسرتين الرابعة والخامسة · فلا ينم عن تاريخها الحقيقى غير الملابسات التى عثر فيها عليها ، وغير ما تحمل من نقوش ، فاذا أعوزنا هذان الدليلان ، نمت عن هذا التاريخ صفة يصعب تحديدها ، وهى النزوع الى الفن القديم ومحاكاته · ولكن هذا التأثر بالفن القديم يظهر ، أكثر ما يظهر ، فى تحوير النماذج القديمه أو تكييفها · وهذا ما حدث فى فن النحت ، وهو ما حدث بالضروره فى الفنون الابسط منه ، والتى كان العثور على نماذج منها تنسب الى عهد الدولة القديمه من الصعوبه بمكان · بل انك لا تلمح فى فروع من هذه الفنون البسيطه أثر هذه النزعه الى القديم ، وانما جرى الفنانون فيها على سنن من الرعامسه · وفى فروع أخرى من هذه الفنون يبدو ان الفنان الصاوى رجع الى أبعد ما يستطيع من العهود التماسا للنماذج القديمه ، فلما أعوزته نماذج عهد الدولة القديمه قنع بتقليد النماذج الأولى من فن الأسرة الثانية عشرة · وهذا ظاهر فى الجعلان ، التى لم تكن معروفه فى عهد الأسرتين الرابعه والخامسه ، فقد زودت الأسره الثانيه عشرة صانعى الجعلان الصاويين مرارا بالنماذج القديمة ، ولو أنهم أيضا ابتكروا نمطا جديدا رقيقا من الجعلان تفردوا به ·

وهذه الرقة طابع يغلب على الفن الصاوى كله ، وقد أكدها الفنانون فى عهد الأسرتين الوطنيين الأخيرتين اللتين سبقتا عصر البطالمة ، وهما الاسرتان التاسعة والعشرون والثلاثون · فمهما بلغ الاتقان فى محاكاة الفنانين الصاويين للقديم مبلغا يكاد يخدع الناظر الى تحفه من تحفهم فانه ينم عليها ما اتسمت به من رقة وصنعة تفوقان ما نلمسه فى التحف القديمه · فقد كانت الرقه والاسراف فى الصنعه الطابع المميز للفن الصاوى ·

ولما وطد بسمتيك الأول سلطانه على طيبة حوالى عام ٦٥٠ ق·م · اقتبست العاصمة الجنوبيه هذه النزعة القاسيه الى محاكاة الفن القديم ، وكانت طيبة قد أفاقت مما حاق بها من تدمير وسلب على يد الأشوريين ، واستعادت على الأقل مركزها الدينى الخطير · وأنت تلحظ هذه النزعة فى مقابر النبلاء الطيبيين فى ذلك العهد ، وكانت تلك المقابر تحلى فى كثير من الأحيان

بنقوش يستحيل تمييزها عن نقوش عصر بناة الأهرام الا بهذه الصفة ـ وهى الرقة والصنعة وقدنسخت نقوش مقبرة فىدير الجبراوى لنبيل من عهد الأسرة الخامسة يدعى « أبا » • نسخا رقيقا ، لنزين مقبرة طيبيه لسمىّ له من نبلاء العصر الصاوى •

الصلة بالأساليب الامبراطورية القديمة التى أخفقت •

وأنت ترى هـذه النزعة الى محاكاة القديم ظاهرة فى أشيـاء أخرى فضلا عن الفن • فقد احتذى الصاويون فىالمظاهر حذوالنماذج المنقبة القديمة • ولم يقنعوا باحياء الأسماء القديمة ،





آيتان من آيات النبوغ المصرى

كان نحت الصور هو الفرع الوحيد من فروع الفن الذى اثبت الفنانون فيه مرارا ، فى تاريخ مصر القديمة ، ما أوتوا من براعة فائقة فالتماثيل التى صـنعها المثالون الصاويون ، مثلا ، كانت غاية فى الجودة • وهذان الرأسان دليل على ما أمتاز به فنانو طيبة الذين سبقوهم فى الأسرة الخامسة والعشرين ، من عبقريه أعظم وأسمى • فوقار الشيخوخة يتجلى بشكل عجيب فى الرأس الأيسر ، أما الأمير منتمحت فقد صوره المثال فى أمانة تامة

ومن الجلى اذن ان الاهتمام بالآثار كان بالغا ولكنه اهتمام اقتصر على آثار الدولة القديمة •• وحين زود الكهنة هيرودوت فى القرن الخامس ، بمعلومات عن التاريخ المصرى صوره له تصويرا يغالى فى أهميه ملوك مثل خوفو أو خفرع •

ويغفل كل الاغفال التحتمسيين أو الرعامسة مثلا • ولم يسمع هيرودوت الا برعمسيس الثالث (رامپسنتس) دون غيره ، وذلك من قصة شعبية متواترة • فالملوك العظام الذين حكموا مصر فى الأسرات الثانية عشرة والتاسعة عشرة لا وجود لهم فى عرفه ولا فى عرف الـكهنة الذين استقى منهم معلوماته • وليس أقطع من هذا دليلا على المسلك العجيب الذى سـلكه مصريو العصر الصاوى فى تجاهلهم الطيبيين بعد ان تنكروا لنظام حكمهم ولفنهم • فقد أخذوا أنفسهم بسنة جديدة حاولوا ، ما استطاعوا ان تكون مقطوعة

عـودة الى القديم

بل بعثوا ما كان معروفا فى الدولة القديمة من ألقاب الشرف ، ومراتب الكهنة ، بعد ان بطل اسـتعمالها ألفى عام • وفى وسع القارىء ان يتخيل انجلترة فى مستقبل الأيام ، وقد جردت من امبراطوريتها واقتصرت بحكم الظروف على حكم جزيرة واحدة تطرح العبـادات والالقاب التى تستعملها اليوم ، وتبعث تلك التى كان يسـتعملها الانجليز السكسونيون ، بعد ان ضاقت بهذه الأبهة الامبراطورية التى صوحت ، وبكل ما ينطوى تحت عصر الامبراطورية من معان • أجل ، لقد شهدنا مثلا واقعا من هذه النزعة فى تاريخ أرلندة الحديث • فحين يستعمل رجال البريد فى جمهورية ارلندة الحرة Saorstát Eireann على اختـامهم أسم Baile Atha-Cliath (وهو أسم لم يستعمله أحد منذ سبعة قرون) بدلا من « دبلن » ، فانهم يفعلون بالضبط ما فعله فى الماضى مصريو العهد الصاوى النزاعون الى

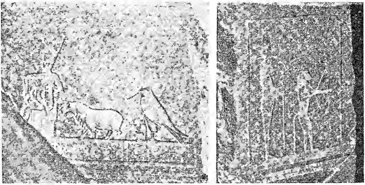
القديم . وكانت هذه النزعة فى مصر علامة من علامات الانحلال . فقد كانت تعنى نوعا من التكلف ، وفقرا فى الاصالة ، نجدهما حقيقة فى الدولة وفى فنها . وميزة الفن الصاوى الوحيدة التى نستطيع أن نعدها بحق مرة طبيعية بالنسبة للعهد الذى وحدث فيه ، والتى لم تكن نسخا ومحاكاة للنماذج القديمة ، ولا تطورا طبيعيا لفن الرعامسة المنحل ، هى هذه الرقة التى سلف ذكرها . وكثيرا ما يغلب التأنق والتحذلق على هذا الفن ، وكثيرا ما لا تجد فيه من ميزة سوى الظرف ، وتلك علامة أخرى من علامات الانحطاط ، ذلك أنها ليست فى واقع الأمر الا صحوة الشيخوخة والاضمحلال . وأنه ليأخذنا العجب مما فى هذا الفن الصاوى المتأنق والمتحذلق من تكلف وتصنع ، حين نقارنه بفن معاصر له ، هو الفن الأشورى العظيم فى عهد أشور بانيبال أو بفن سابق له هو الفن المصرى الرائع فى عهد الأسرتين الثانية عشرة والثامنة عشرة ، الذى لا نرى فيه أثرا للصنعة ولا للنزوع الى القديم ، ولا للانحطاط شأنه فى ذلك شأن الفن الأشورى فى القرن السابع . أما فن الصاويين فهو بالقياس اليهما من اقليمى محدود .

على أننا يجب الا نبخس الفن الصاوى حقه ، فكثيرا ما يكون آية فى الجمال . فمن السمات



فرعون متعبدا

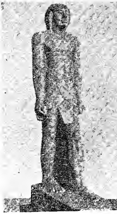
كان فن القرن السابع ق.م مقيدا بالاوضاع المألوفة ، ولكنه لم يكن مفتقرا الى القوة والصدق ، وهما صفتان ملحوظتان فى هذه الصورة التى تمثل بسمتيك الأول يقدم القرابين لآلهته ، وهى منقوشة على لوحة مأخوذة من معبد « تمو » برشيد



نقوش غائرة محفورة على الجرانيت الصلد فى أناقة معجبة

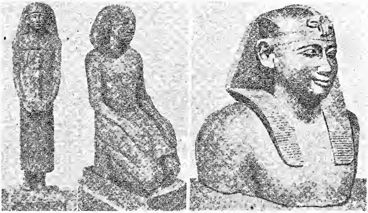
أن ماهى النقوش الصاوية ، وبعد الصاوية .من صقل وتهذيب ، يبدو عجيبا اذا علمنا أن مادة الفنانين كانت البازلت ، وهو صخر أقسى بكثير من الحجر الجيرى الذى صنعت منه نماذجهم الطبيعية القديمة . وفى هذه النقوش الأنيقة التى ترجع الى القرن الرابع ق.م . مثال على نبوغ الفنانين فى النحت على الجرانيت . وصور الآلهة مرسومة طبقا للنماذج القديمة . ولكن فى تناول الفنان لفرس البحر (سميتى) والصقر (حورس) مراعاة للطبيعة

العظيمة التى اتسم بها الفن المصرى دائما ، قدرته على تصوير الاشخاص ، وهى قدرة لم تتح للبابليين ولا للأشوريين فى أعظم عهودهم • وتتجلى هذه القدرة كاملة فى الأسرات الرابعة والثانية عشرة، والثالثة عشرة • واستمر هذا التقليد الفنى برغم ما حل بمصر من ضعف فيما بين الأسرة التاسعة عشرة والأسرة الثانية والعشرين ، وبعث فى القرن الثامن ، وتجلى فى سلسلة من الصور الشخصية الرائعة ، ومن أفضلها تمثال منتمحت المحفوظ بمتحف القاهرة ، ورأس رائع لشيخ مجهول محفوظ بالمتحف البريطانى • وهذا الرأس ، من بعض الوجوه ، أروع ما فى انجلترة من أمثلة النحت المصرى • وقد استمر صنع هذه التماثيل الرائعة التى تعبر عن كل قسمة من قسمات الوجه حتى نهاية القرن السادس أو ما بعده ، وانتعش هذا الفن فترة من الزمن تحت حكم الملوك السمنوديين فى القرن الرابع ، ولكنه كان خلوا من حيويته القديمة ، بل اننا نجد فى رأس صغير للملك بسمنيك الأول ، لا يتجاوز حجمه البوصة أو نحوها ، محفور على لوحة بين عمودين ، محفوظة بالمتحف البريطانى ، صورة شخصية دقيقة الملامح يبدو فيها هذا الملك شبيها كل الشبه ، فى أنفه وباقى وجهه ، باللورد بروام المعروف • ويجب الا ننقص من براعة المثالين الصاويين الفائقة فى الحفر على الحجارة الصلبة ، وهو جهد قلما كان يحاوله فنانو طيبة المتقدمون • فهؤلاء صنعوا التماثيل الجميلة من الحجر الجيرى الهش ، أما الصاويون فصنعوها من البازلت ، وكان توفيقهم عجيبا فى النحت الدقيق



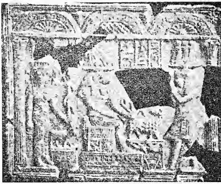
نزوع الفن الصاوى الى محاكاة النماذج القديمة

هذا التمثال أفضل مثال على هذه النزعة الى محاكاة القديم فهو منقول نقلا دقيقا عن أصل من الأسرة الخامسة ، ولولا ما عليه من كتابة لنسبناه الى عهد هذه الأسرة



الابتسامة الغامضة التى أصبحت تقليدا فنيا

لم يعد المثالون فى أواخر العصر الصاوى يلتزمون الدقة فى تصوير ملامح الوجه ، وقد نشأ نمط من التصوير ترى فيه القسمات منتظمة ، والفم ترتسم عليه ابتسامة غامضة ، وهذا التعبير الذى أصبح قاعدة ، نلحظه فى وجهى التمثالين الظاهرين هنا ـ التمثال الراكع (فى الوسط) وتمثال الكاهن الممسك بتمثال صغير للاله القمر خنسو (الى اليسار) وهما ينتميان الى عهد الأسرة السادسة والعشرين وفى التمثال النصفى مثال من « الابتسامة البطلمية »



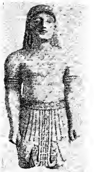
الفن المصرى الرومانى المنحط

كان الأفكار القديمة فى عهد البطالمة أثر ملحوظ فى الفن المصرى أدى فى النهاية الى أسلوب منحط ، وان كانت له شخصية مميزة • فقيمة تزويق وتكلف يبدو أن فى هذا الرسم البارز ، من عهد الحكم الرومانى ، الذى يمثل أحد القياصرة أمام خنوم وحتحور •

على هذا الصخر • وهذا الفن المصرى المتأخر فى الزمن ، الذى يمتاز بالقدرة على التصوير الرائع والذى تدهشنا براعته فى الاسلوب وتطويع المادة ، رغم ما فيه من تكلف وتأنق ونسخ للقديم غالب عليه . هو الذى تعلمه الاغريق « القدامى » من القرن الثامن الى القرن السادس • فقد اتصل هؤلاء الاغريق بهذا الفن المصرى الذى تلقى وحيه رأسا من فن قديم لم يكن فن المينويين قد ولد على عهده ، وذلك حين زاروا نقراطيس ، أو حين زاروا بعد ذلك دفنه أو تفانيس Taphanes المستعمرة الاغريقية التى أسسها نخو على الحد الشرقى للدلتا لتكون ثكنة للمرتزقة من جنود الأغريق ، أولئك «الرجال ذوى الجلود النحاسية» الذين استأجرهم أبوه بسمتيك ليستعين بهم على الاستقلال عن أشور •

وقد كان فى استطاعة هذا الفن الصاوى أن يصور الناس كما هم فى الحياة تصويرا دقيقا ، وأن يتناول المواد التى يستعملها تناولا لم يخطر على بال أحد من الاغريق فى ذلك الحين • فلا عجب اذا كانت القصص التى رواها العائدون الى بلاد اليونان عن هذه الروائع ، قد اجتذبت الى مصر فنانى الاغريق لا فلاسفتهم فحسب ، تحدو الفريقين الرغبة فى النقل عن مصر والتعلم منها • ولا داعى للتشكك فيما روى من أن بعض أوائل المثالين الاغريق فى هذا العصر الجديد قد استلهموا الفن المصرى رأسا ، أو أن أول من صنع التماثيل البرنزية من الفنانين الاغريق مثلا ، انما تعلموا صنعها فى مصر • وآية ذلك تماثيل الاغريق وتقوسهم المتخلفة من القرن السابع وأوائل القرن السادس ، والتى استلهمت النماذج الصاوية بلا ريب • فتماثيل أبولو المعروفة ، والأفارير التى تمثل الفائزين فى الالعاب الرياضية (ويطلق عادة على الواحد منها أيضا اسم « ابولو » لسبب واحد على ما يبدو ، هو ما لها من شعر طويل ، مع أن الاغريق جميعا كانوا يرسلون شعورهم حتى القرن الخامس) انما هى صور مقتبسة من القرن الخامس انما هى صور مقتبسة من التماثيل المصرية فى العصر الصاوى . ولو أنها كانت فجة فى أول أمرها ، وكذلك نرى فى النقوش البارزة الأولى . الطابع المصرى عامة والصاوى خاصة ، ملحوظا وان يك هذا الطابع أقل جلاء ووضوحا • وكما أن تماثيل الاغريق الحجرية الكبيرة تحتذى النماذج المصرية ، فكذلك تحتذيها تماثيلهم البرنزية الصغيرة • ومن الجائز أن يكون الاغريق قد تعلموا فى مصر من جديد أسلوبهم البارع فى صناعة البرنز كما تقول الرواية ، وهو الأسلوب الذى اختفى ابان العصر المظلم الذى تلا عصر المينيين •

على أن من سمات هذه التماثيل الاغريقية سمة ترد أحيانا الى أثر الفن المصرى فيها ، لأنك نجدها أيضا فى التماثيل الصاوية • وتلك هى « الابتسامة القديمة » المعروفة • ولكن يلاحظ أن الابتسامة القديمة فى التماثيل المصرية



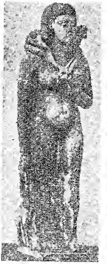
الفن القبرصى

نرى المؤثرات المصرية واضحة فى هذا التمثال القبرصى من الحجر الجيرى لا سيما فى الثياب وتصفيف الشعر

لم تكن من خصائص الفن الصاوي القديم بل من مميزات الفن الصاوي الحديث في القرن السادس (وربما في النصف الثاني من هذا القرن) لا في القرن السابع ، وهذه الملحوظة لها شأنها ، وقد استمرت هذه السمة الى عصر البطالمة والى القرن الثالث ، في حين اختفت في اليونان في أول القرن الخامس وظهرت مقترنة بأقدم التماثيل الاغريقية الكلاسيكية في القرن السابع • ولذلك فاني اعدها من غير تردد سمة اغريقية الأصل دخلت على الفن المصري ، واقتبسها المثالون المصريون عامدين في النصف الثاني من القرن السادس محاكاة للفن الاغريقي القديم الذي عرفوه بلا شك حق المعرفة في نقراطيس آنئذ ، وكان معروفا في دمنه قبل أن يدمرها أمازيس • ومن الجائز جدا أن يكون هذا التقليد الاغريقي الغريب ، الذي يعزى قبل كل شيء الى نقص في مهارة الفنانين ، قد دخل مصر فعلا نتيجة لفتح أمازيس لقبرص •

وقد وجد المصريون أهل هذه المستعمرة الجديدة من الاغريق يصنعون تماثيل تتسم كلها بهذه الابتسامة ، فنقلوها الى مصر على أنها بدعة طريفة ، ويلوح أن التصوير الواقعي أخذ حينذاك يصبح سنة متخلفة عن الزمن ، ولا ريب في أنه انحط ابان حكم امازيس . ودخلت مصر هذه الوجوه ذات الابتسامة المتكلفة ، الدخيلة على الفن المصري والشبيهة بالوجوه التي لم يكن الاغريق في أول أمرهم يحسنون خيرا منها ، وظلت في مصر حتى أيام البطالمة في حين كف الاغريق عن صنعها بمجرد أن ارتقى فنهم •

وهذا أول مثال يدل على عودة الفن الاغريقي الى التأثير في الفن المصري ، وهو تأثير أخذ بالطبع يطرد بعد أن أصبح الاغريق ، بطفرة واحدة في القرن الخامس ، أعظم المثالين وأصدقهم في شتى العصور ، حتى اذا بلغنا القرن الرابع ، أعني في نهاية عهد الملوك الوطنيين وبداية عهد البطالمة وجدنا على نقوش المقابر أمثلة أخاذة رائعة على التأثر بالفن الاغريقي • وهذه في الواقع بداية فن مصري مختلط • وقد اكتمل تكوين هذا الفن المختلط في عهد البطالمة ، ونستطيع أن نرى النتائج المؤسفة التي انتهى اليها في مصر الرومانية في هذه الأخلاط القبيحة التي جمعت أسوأ عناصر هذين الفنين اللذين كانا قد تدهورا آنئذ ، والتي كان الناس في القرن الثامن عشر ، بل في القرن التاسع عشر ، يعدونها مصرية نموذجية • وقد أدى الاحتلال المصري لقبرص (حوالي ٥٦٥ ـ ٥٢٥) بطبيعة الحال الى الاكثار من أساليب الفن المصري في الجزيرة • ففي قبرص نجد من أمثلة التقليد المباشر للفن الصاوي أكثر مما نجد في أي جزء آخر من أجزاء اليونان . وهو تقليد شمل حتى اللباس وتصفيف الشعر وما اليهما من تفاصيل التماثيل المصرية ، فنرى الملوك مثلا يصورون مرتدين منطقة الملوك المصريين التي تتدلى منها الاصلاح • ونلاحظ في النحت القبرصي بالطبع مؤثرات أسيوية تسربت اليه عن طريق فينيقية



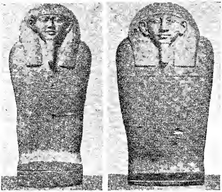


تماثيل من القيشاني تنتمي الى العهد الصاوي المتأخر

هذان التمثالان من تماثيل النساء ـ وهما من القيشاني ـ هما نموذجان من الفن المصري في آخر عهد الملوك الوطنيين أو قبيل ذلك • وفي التمثال الأيسر سمات اغريقية لا ريب فيها • ومثل هذه التماثيل كان يصنعها قبل ذلك الصناع الاغريق في نقراطيس ،وكثيرا ما كان الفينيقيون يقلدونها في شيء من التوفيق •

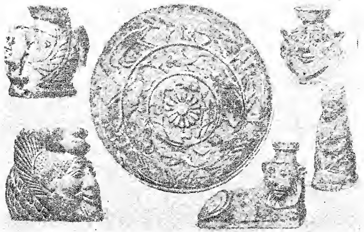
ولـكنها قليلة • والرؤوس المنحنة التى كان يظن أنها أشورية الأصل هى فى الواقع اغريقية صميمة فى كل دقـائقها حتى الشـوارب التى كان الاغريق يحلقونها غالبـا بينما كان الاشــوريون وغيرهم من الاســيويين يطلقونها • ومهما يكن من أمر فان التأثير الفينيقى لم يكن من شأنه أن يقلل بأى حال من العنـاصر المصرية فى الفن القبرصى ، لأن هذه الفترة فى فينيقية نفسها هى الفترة التى اشتد فيها تقليد الفن المصرى ومسخه مسخا أسوأ من ذى قبل •

وهنالك تشابه ملحوظ بين ما أنتجته قبرص من فن مطبوع بالطابع المصرى . وبين ما أنتجته نقراطيس من فن مصرى أو شبيه بالمصرى • فقد كان الخزافون الاغريق يمارسون هنالك فنا مصريا هو فن صـــناعة « القيشـــانى » وكان



السرقات الفنية فى التحف الفينيقية

يمثل هذان التابوتان أيضا ما فى الفن الفينيقى من تزييف فالتابوت الأيسر مصرى من الأسرة السادسة والعشرين ، والايمن فينيقى محلى الصناعة • والتصميم العام للتابوت الثانى ، وتفاصيله منقولة بلا ريب عن النماذج المصرية ، ولكنها لا تعدو أن تكون مسخا مضحكا •



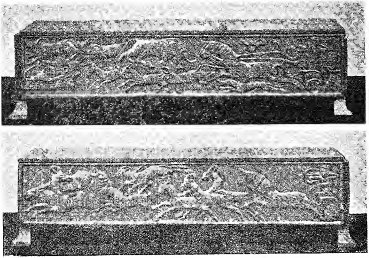
تأثير القيشانى المصرى على الخزف الأجنبى

يدين الفنانون الاغريق والفينيقيون بالفضل الكبير للخزافين المصريين فيما صنعوا من أدوات خزفية مدهونة ، نرى مثالا طيبا منها فى هذه الطاس (الوسطى) • وتستطيع أن تلحظ التشابه فى أشكال قوارير الطيب الخزفية الصغيرة (Aryballoi) التى كان يحمل فيها الطيب الى الحمامات فالقارورة اليسرى (فى أسفل الصـورة) التى تمثل رأس محارب • والقارورة التى فى أعـلاه ، وهى على هيئة قيثارة ، كلتاهما مصرية من الأسرة والسادسة والعشرين • أما القوارير الباقية ، التى عثر عليها فى كميروس بجزيرة رودس ، فصناعتها فينيقية اغريقية

لصنوعاتهم طابعها الخاص ، فهى مصرية شكلا ، ولكنها لم تكن دائما مصرية الطابع بحيث يسهل علينا التفريق بينها وبين المصنوعات المصرية الوطنية فى تلك الفترة • ولكنا لا نستطيع التفريق بينها وبين نظائرها المصنوعة فى فينيقية بمثل هذه السهولة دائما • وأقدم المصنوعات المصرية الطابع ، التى عثر عليها فى كميروس بجزيرة رودس مثلا لابد أن تكون من انتاج فينيقية لا نقراطيس مادامت تنتمى للقرن التاسع ، أو حتى للقرن الثامن ، ولو أنها تبدو شديدة الشبه بانتاج نقراطيس • على أننا لا نستطيع ان نزعم بان أثرا من الآثار نقراطى الا اذا كان تاريخه بعد منتصف القرن السابع على أبعد تقدير • والفن النقراطى ، فى جملته ، أصدق محاكاة للنماذج المصرية من الفن الفينيقى ومن المحتمل أن الفن الفينيقى قلد صناعة القيشانى المصرية من أقدم العصور • ومعظم المصنوعات النقراطية من القيشانى ، بينما الفينيقية مصنوعة من جميع المواد •

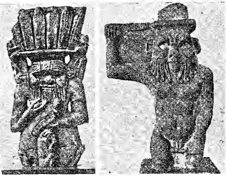
وهذه المصنوعات التى زيفت الفن المصرى ، سواء أكانت نقراطية أم فينيقية ، وسواء صنعت من القيشانى أو الحجر ، كانت تصدر الى جميع أنحاء البحر المتوسط ، من المستعمرات الاغريقية فى القرم وعلى ضفاف الدنيبر الى طرطوشة (Tarsessus) وفى اسبانيا • ومن كشوف تاروس يمكن الحكم بان الجعلان التى صنعها الفينيقيون تقليدا للجعلان المصرية كانت تجد اقبالا من المشترين فى سردانية ، وانتشرت هذه الجعلان الزائفة انتشارا واسعا فى ايطاليا واليونان ، حيث بقى ضرب منها يصنع من الحجر الصلب ، وتنقش قاعدته بنقوش اغريقية غائرة ، مستعملا حلية بعد أن كفت مصر طويلا عن صناعة الأختام أو العقود من الجعلان • ويبدو أن مصر كفت عن هذه الصناعة بعد نهاية الأسرة السادسة والعشرين بقليل ، ولو أن الجعلان الجنائزية الخالصة ظلت مستعملة حتى عهد البطالمة •

وكان للفينيقيين باع طويل فى النقش على العاج • ولامراء فى أن هذه الصناعة كانت من



آية من روائع النقش على العاج فى قبرص فى عصر قديم

وجد صندوق الدامة العاجى الذى نرى هنا لوحتيه الجانبيتين ، فى قبرص • ويرجع تاريخه الى حوالى عام ١١٠٠ ق.م • وليس أسلوبه بالقبرصى الميسيوى الخالص ، وهو فى الأرجح من صنع نقاش فينيقى ممتاز • ويبدو فى الثور المطعون (على اللوح الأعلى) وفى الأيائل الهاربة ، والكلاب التى تضيق عليها الخناق فى الطراد ، كثير مما تمتاز به أفضل رسوم الحيوان ، التى رسمها المثالون الأشوريون ، من حياة وصدق •



تماثيل منحوتة للاله القزم بس

يظهر الاله « بس » فى هاتين الصورتين رامزا الى المرح والحرب ، ففى اليسرى يرى لابسا الريش . وفى اليمنى يبدو على هيئة « بعل » وقد رفع سلاحه ليهوى به . وقد تمصر هذا الاله ، الذى يحتمل أن يكون بابلى الاصل ، فى عهد الأسرة الثامنة عشرة . وقد افتتن الاغريق أيضا بصفاته فاتخذوه الها سموه سيلينوس Silenus .

صناعاتهم القديمة . وفى الأمثلة الرائعة على فنهم فى عهد أقدم من العهد الصاوى صندوق الدامة الذى عثر عليه فى انكومى بجزيرة قبرص والمحفوظ الآن بالمتحف البريطانى ، ويرجع تاريخ صنعه الى حوالى عام ١١٠٠ ق.م . وعليه نقوش بارزة تمثل اقتناص الأيل الذى يشترك فيه مقاتل فلسطينى يرتدى غطاء للرأس محلى بريش . وفى أسلوب هذا الصندوق تقليد للفن الأشورى لا المصرى ، وهو أمر متوقع بالنظر الى تاريخه . وأما فنهم فى القرنين التاسع والثامن فتشاهده بين قطع العاج المشهورة التى عثر عليها فى نمرود بأشور والتى سلف ذكرها ، المحفوظة كذلك بالمتحف البريطانى ، ففى هذه القطع نجد تقاليد الفن المصرى مدعمة من جديد وهو المتوقع أيضا . وبدأ ظهور الصور الممسوخة من الفن المصرى آنئذ ، وهى سمة الفن الفينيقى فى العصر الصاوى ، لأن الفنيقيين قد عادوا الى هوايتهم الأولى ، وأصبح تقليد الفن المصرى طابع فنهم كما كان طابعه فى عصورهم القديمة . ونحن لا نجد من آثار فنهم ما نستطيع أن نجزم بأنه فن فينيقى وطنى الا النزر اليسير . واذا لم يكن فنهم بمستوى الفن المصرى ،

فهو بمستوى الفن الأشورى أو قل الفن العراقى السورى ، مع اتسامه بمسحة عارضة من الأسلوب الحيثى القديم الذى عمر فى قرقميش حتى القرن الثامن . واذا توخينا الدقة قلنا ان الفينيقيين لم يحوروا البتة هذه النسخ التى قلدوها ولم يحاولوا التوفيق أو المزج بين بعضها والبعض الآخر . فأنت تجد مثلا منظرا مصريا وآخر أشوريا مقلدين على نفس القدح الفضى المنقوش ، دون أية محاولة للربط بين المنظرين على وجه من الوجوه . والظاهر أنه كان لدى الفنانين موضوعات ثابتة ، معظمها مأخوذ من مصدر مصرى ، كالجعلان المجنحة ، أو المعبود الشمس فى زورق ، أو كملك راكب عجلته الحربية ، أو منظر قنص ، أو منظر فتيات يعزفن على القيثارات ، الى غير ذلك من مناظر تحلى المصنوعات الفينيقية التى كانت تصنع بكميات وافرة .

والفينيقيون هم فى الواقع مبتكرو طريقة « الانتاج الوفير » ولو أنهم لم يبتكروا شيئا يذكر سواها . فقد كانوا من أفقر شعوب الأرض أصالة وابداعا . ويبدو أنهم وجدوا فى انتاج هذه الأقداح الفضية الكثيرة ذات النقوش البارزة صناعة مجزية جدا . وكانوا يصنعون هذه الأقداح على نمط الأقداح



فن تجارى مقلد

استخدم الصناع الفينيقيون الموضوعات الأشورية والمصرية استخداما أعمى . فالحيوان المجنح ، والمعبود الشمس المصرى الممسك بالمجذاف . المرسومان على هذه الطاس البرنزية عثر عليها فى نمرود ، لا صلة البتة بينهما . والرسم مثال على فقر الفينيقيين فى الابتكار

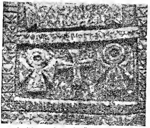
الصاوية ، وهى بدورها منقولة عن الأقداح المصرية التى شاع صنعها أيام الأسرة الثامنة عشرة . ولكن المزيف الفينيقى الدؤوب جمع على أقداحه مناظر مصرية وغير مصرية . ومن سمات هذا التقليد الأعمى الذى كان ديدن الفنان الفينيقى ، أنه كان كثيرا ما ينقل عن الفن المصرى مناظر كانت فى مصر مقصورة على جدران المعابد والمقابر ، ولم تكن لتستعمل اطلاقا حلية للأقداح الفضية . وكانت هذه الأقداح تجد اقبالا شديدا لا سيما فى اوروبا وبلاد اليونان ، ولابد أنها درت أرباحا طائلة على صانعيها .

وهذا التلفيق فى الفن ملحوظ فى سائر المواد التى تناولها الفن الفينيقى كالأحجار مثلا . وكثيرا ما يتعذر التفريق بين قطعة متوسطة من صناعة فينيقية ، مصرية الطابع ، وبين أخرى من القطع الزائفة التى يصنعها الأعراب اليوم ، الا اذا أثبت قدم الاولى مادتها أو أى شاهد آخر . ففى الحالين تقليد مفتقر



تقليد متخلف من تقاليد الفن المصرى

يحتفظ هذا النقش البارز على الحجر الجيرى من مروى بأثيوبيا ، بروح الفن القديم . فالملك يقتل أعداءه بعد أن ظفر بهم ، وكلبه يساعده ، ومن خلفه « النصر المجنح » يظلل من يحميه ، على الطريقة القديمة المأثورة .



عناصر متخلفة فى الفن القبطى

جمع هذا الشاهد الحجرى على أحد القبور القبطية فى القرن السابع الميلادى بين شعار وثنى — هو « عنخ » رمز الحياة — وشعار مسيحى هو الصليب ، وهو مثال يوضح بقاء العناصر المصرية حية .

الى الذكاء ، أسفر عن نتائج مماثلة .

قلت ان الفن المصرى ، سواء أكان منقولا نقلا مباشرا أم نقلا ملتويا شائها عن طريق فينيقية ، لم يكن له قط أى تأثير مميز على فن بابل أو أشور . والعثور فى العراق على قطع مصرية أصيلة ، ترجع الى العهد الصاوى ، كالجعلان مثلا . ليس بالأمر النادر ، ولكن هذه القطع بلا ريب دخيلة مجلوبة ، ونستطيع أن نعدها شواردا من مقتنيات بعض المصريين فى تلك البلاد .

وقد عثر فى قرقميش على آثار مصرية كثيرة من هذا العهد . اتضح مما لا يقبل الجدل أنها متخلفة من عسكر « نخو » . وليس فى الفن البابلى الحديث دليل على تأثره بأى أثر مصرى . ولم يكن المصريون من جانبهم أكثر استعدادا لقبول الأفكار البابلية فقد أبوا رغم تحمسهم للقديم ، أن يحبوا استعمال الخاتم الاسطوانى الشكل الذى كان من سمات الدولة القديمة .

ولعل الدافع لهم على ذلك ارتباطه المعروف فى ذلك العصر بحضارة منافسة لهم هى حضارة العراق ، حيث كان يستعمل هذا الخاتم على الدوام وقد يقال أن الاله « بس » — الذى كان محبوبا جدا فى مصر الصاوية — بابلى الأصل ، ولكن يلاحظ أنه دخل مصر قبل ذلك بعهد طويل ، من أيام الأسرة الثامنة عشرة ، وأصبح مصريا صميما . وقد نقله المصريون الى الاغريق ، وظهر على مئات الأوانى الأغريقية فى صورة سلينوس Silenus وساتير Satyr .

أما فارس فقد تلقت تقاليدها الفنية عن أشور وبابل ولكننا لا نبلغ عهد دارا حتى نجد الفن الفارسى يرتقى على طريقته الخاصة ، وقد أدخل فتح مصر فيه عناصر مصرية لم يسمح بدخولها العراقيون قط . وفى أطلال اصطخر Persepiles الدليل القاطع على هذا القول ، ففيها استخدمت أشكال العمارة المصرية وعناصرها . وفى مصر شيد دارا أثرا منقوشا باللغتين

(المصرية والفارسية) . يظهر فيه فن فارسى ذو مسحة مصرية ، جنبا الى جنب مع الأسلوب المصرى الصميم · وكان فى الفرس سخاء وتسامح مع الأديان والفنون الأجنبية · وواضح أنه كان للفنانين المصريين فى بلاط السوس مقام رفيع كمقام الأطباء والمنجمين المصريين بلاريب فى القرنين الخامس والرابع · وعلى أى حال ، فالظاهر أن الفرس كانوا أقبل للبواعث الفنية المصرية منهم للبواعث الأغريقية ، وذلك رغم تهافت الأغريق على البلاط الفارسى · ومن الممتنع أن يقارن المرء بين قابلية الفرس للنقل والتأثر ، وبين ترفع البابليين والأشوريين ·

وقد سلف الكلام عن اسرائيل ويهوذا وعيلام . وبينا ضآلة ما وصل اليه علمنا عن ثقافتهم المادية · والتأثير المصرى الصاوى على واجهات المقابر فى بطره Petra واضح ، ولا شك فى أننا كنا نراه على آثار بلاد العرب أيضا لو كان علمنا بها أكثر · وحسبنا ما ذكرنا عن عن التأثير المصرى فى أثيوبيا ·

وهكذا نجد نفوذ الفن المصرى ينتشر فى أرجاء العالم القديم فى هذا العهد المتأخر المنحل ، ويمتد الى أصقاع لم يستطع بلوغها من قبل ، ومعظم الفضل فى هذا راجع الى جراءة الوسطاء من الفنانين سواء كانوا من الاغريق الأذكياء ، أو من الفينيقيين الأغبياء وأعظم النتائج الايجابية التى أحرزها هى تأثيره تأثيرا مباشرا بفضل الفنانين الاغريق ــ وغير مباشر ــ بفضل الفنانين الفينيقيين ــ على ارتقاء الفن الأغريقى القديم ، فن النهضة الاغريقية ، فى القرن السابع وكذلك تأثيره على ارتقاء الفن الايطالى عن طريق فن الأتروريين الاغريقى · وقد أحرز الصاويون فى هذا المضمار من التوفيق ما لم يحلموا به ، فان لمصر فى عهدهم أن تفخر بحق بأنها قد احتضنت الفن الكلاسيكى الاغريقى فى مهده · وكذلك تستطيع حاضرة الفن فى أرض الجزيرة أن تفخر بما كان لها من أثر على الجهود الناشئة للفنانين الاغريق · فلم يكن فى الامكان الا يقع فن رفيع ، كفن الأشوريين على عهد أشور بانيبال ، موقعا عظيما من نفوس من بلغ من الاغريق بلاد الجزيرة فى القرن السابع لو أنهم شهدوه وقد بلغها بعضهم · ومهما يكن من أمر ، فان تأثير الفن البابلى الأشورى قد غير من اتجاه الفن فى سوريا والأناضول تأثيرا بالغا وزود الفينيقيين بالنماذج الكثيرة يقلدونها ، بحيث ألم الاغريق بسجايا هذا الفن الماما طيبا عن طريق ايونيا وليديا ، كما ألموا بسجايا الفن المصرى عن طريق نقراطيس وفينيقية · ومع ذلك فانا لا ننكر للفن الجزرى بالفضل الذى تدين به أقدم التماثيل الاغريقية لمصر دينا واضحا تؤيده الروايات الاغريقية · فالاغريق الذين كانوا يسافرون الى الشرق البعيد فى أوائل عهد الفن الأغريقى كان جلهم أفرادا من المحاربين ، لا فنانين ولا صناع ، بينما نجد فى سوق تجارية كنقراطيس ، أو فى مدينة عسكرية كدفنة ، كثيرا من الفنانين ، وعددا هائلا من الصناع ·

وقد امتزج الفن المصرى فى عهد الانحلال ، كما رأينا بالفن الرومانى الأغريقى ، امتزاجا أسفر عن فن مخلط منحط يتسم به العهد الرومانى فى مصر · واذا تحرينا الدقة قلنا ان مثل هذا الامتزاج لم يحدث فى الجزيرة · فلما حلت الثقافة الهيلينية محل الثقافة البابلية القديمة ، خبا ضياء فنها كما ينطفىء ضياء الشمعة فجأة · وليس هناك فن بابلى أغريقى مخلط ، كالفن المصرى اليونانى ، وانما يوجد فى أرض الجزيرة فن هيلينى منحط · وفى فارس وحدها ظلت تقاليد الفن القديم ماثلة شديدة الامتزاج بالعناصر المصرية ولعلها أثرت بعض التأثير فى فن النحت الفارسى الأغريقى أيام الساسانيين وفيما خلا ذلك لن نجد لفن الجزيرة القديم أثرا · أما فى سوريا فمن الجرأة أن يزعم زاعم أن فن تدمر Palmyra يتصل من قريب أو بعيد بالفن الجزرى السورى القديم ولو فى روحه ·

لقد مات ذلك الفن · أما فن مصر فقد بعث من جديد فى عهد الانحلال الرومانى ترعاه المسيحية ، وهو يبدو فى ثوبه الجديد ، ثوب الفن القبطى الذى يستلهم الكثير من تقاليد الفن المصرى القديم وسجاياه مباشرة · ولم يقنع هذا الفن القبطى بالانتشار فى آسيا · بل نجح فى النهاية فى تحوير أساليب الفن الأقليمية ، الشبيهة بالرومانية ، تحويرا أسفر عن الفن الذى نعرفه عادة باسم الفن البونطى وهكذا كتبت لمصر الحياة حتى فى مماتها ·

اليونان قبيل بلوغ أوج عظمتها

نمو الثقافة الهيلانية ماديا وأدبيا حتى ازدهارها فى أثينا فى القرن الخامس

بقلم استانلى كاسون Stanly Casson

المعيد فى علم الآثار القديمة فى نيوكولدج بأكسفورد ومؤلف كتاب « اليونان القديمة »

لم يكن من المستطاع قبل ظهور اسم هيلانى Hellene فى التاريخ أن نقول اننا على اتصال حقيقى بالتطور العجيب الذى أحدثه اليونان القديمة فى تاريخ البشر ، اذ أنه قبل ظهور هذا الاسم فى الوجود كانت أماكنهم تسكنها تلك القبائل الغريبة الهمجية المعروفة باسم الآخيين Achaeans والتى كانت تظهر فيها على الأقل تلك الشخصية وهذه الجراءة التى انطبع عليها من بعدهم خلفاؤهم — ان لم تكن تجلت فيهم سائر مميزاتهم الأخرى (انظر الفصل ٢٨) — ويخيل الينا أن هؤلاء الآخيين كانوا معروفين عند الحثيين الذين أطلقوا عليهم اسم أهياوا Ahhiyava وأيضا عند المصريين الذين كانوا يسمونهم أكايواشا Akaiwasha ، وان هؤلاء وأولئك كانوا يجلونهم فقد ارتضاهم الحيثيون حلفاء اقطاعيين واعترفوا بنفوذهم فى بامفيليا وقبرس من زمن بعيد يرجع الى القرن الثالث عشر ق ٠ م ٠ الا أن مركز نفوذهم كان فى المورة ٠

واذا عدت العناصر التى تكونت منها أمة الهيلانيين ، كان هؤلاء الآخيون عنصرا كبيرا بينها ٠ ولذلك لا يعتبر خروجا منا عن الموضوع اذا ألممنا ببعض الحقائق المتصلة بهم وان كنا قد طرقنا هذه المسألة من قبل فى بعض الفصول السابقة ٠

قبضت جزيرة كريت حوالى سنة ١٦٠٠ ق٠م على زمام التجارة (انظر الفصل ٢٥) ولعلها سيطرت أيضا على سياسة بلاد اليونان الى سهول دوريس وسفوح جبال بندوس ، هذا فضلا عن أن جزائر بحر الأرخبيل كانت قد دانت لها من زمن قصى قبل تلك الحقبة ٠ بيد أنه وان يكن الامراء والرؤساء قد أذعنوا لزعامتها فان سكان بلاد اليونان الأصلية لم يكونوا من أصل مينوى Minoan ولعلهم لم يكونوا جميعا من جنس سكان البحر المتوسط، اذ أن من أحدث النتائج المستمدة من الآثار القديمة أن سكان العصر البرنزى فى البلاد الأصلية كانوا من جنس انتشر فى ذلك الحين وعم شبه جزيرة البلقان ، وأن أصولهم تنتمى الى أهل الشمال أكثر من انتمائها الى أهل الجنوب ٠

ومن ثم نستطيع أن نتبين أن الأصل المزدوج لأمة اليونان هو وليد تلك العصور المتناهية فى القدم ٠ ولكن حالما عرا الضعف سكان كريت وتقوضت عليها معاقلها فى ميسينى وتيرينز وطيبة أودخومينوس وألبس وأتيكا وايجينا ، قويت روابط اليونان باهالى الشمال بعد أن كانت تراخت فى ذلك الماضى الغامض من العصر الحجرى الحديث حتى كادت تنسى . وذلك بدخول عناصر جديدة وفدت عليهم من الشمال قاصدة مدائن البحر المتوسط الزاخرة ، ووفودهم هذا يشبه ما حصل بعد تسعة عشر قرنا من ذلك العهد حينما وفدت قبائل القوط والهون والآفار والوندال واندفعت لتستولى على تراث القدماء الذين خلفوه لها جنبا ٠ ومنذ سنة ١٤٠٠ وقفت الثقافة المينوية موقف الدفاع داخل الأسوار ، وأخذت القلاع والحصون تزداد وتنتشر فى داخل المستعمرات المينوية ، وبينما هى كذلك اذ بحادث جديد أخذ يتمخض عنه الزمن حول البحر الأوسط Centeral Sea فها هى ذى أقوام ناشئة تندفع من حوض الدانوب ومن سهول أوربا الخصيبة وقد جلبوا معهم

ثقافة غنية متنوعة خاصة بهم لم يدينوا لغيرهم بشيء منها ·

وسوف نجمع تحت عنوان الآخيين جميع تلك الأقوام الوافدة التي يقتفي العلماء آثارها الآن في بلاد اليونان المينوية أو الميسينية أو التي اصطبغت بالصبغة الميسينية ، وذلك بدافع الثقافة والطرق الحديثة . وليس عن أكراه الحوادث الجلى الفجائية ، ويلوح لنا أن وفودهم هذا شبيه وفود النورمان على صقليه في العصور الوسطى ، أو الوانجيين على بوزنطة وذلك حينما جيء بهم مأجورين في حملات عدوانية اتخذت صورة العصابات أو الجماعات الصغيرة . أما أنهم كانوا محاربين وليسوا تجارا فقد نفهم ذلك من ندرة آثارهم ومن أنهم لم يجلبوا جديدا في التجارة ولا في صناعة الخزف ولا في الزخرفة والعمارة بل اقتصرت آثارهم على عدة الحرب ·

مجيء الآخيين

وأما أنواع السلاح المختلفة فلم يكن الامر فيها واقفا عند ثبوت وجودها وحسب فان هذا الوجود لاخفاء فيه ، بل تعدى ذلك الى ثبوت مصادر هذه الأسلحة ومواطنها الأصيلة فقد عثروا هنالك على الأسلحة الآتية نفسها أوصورها: الدروع الصغيرة المستديرة والخوذات الصغيرة المصنوعة من الجلد والرماح ذات النصال العريضة ، وأخيرا السيوف القواطع على خلاف سيوف مينوى الطواعن ·

وهذه الأنواع في مجموعها عتاد كامل للمحارب ، وكلها من أدوات أقاليم الشمال اذ أن هذه الرماح عملت في بلاد البلقان قبل ذلك العصر بعدة قرون ، أما السيوف القواطع فهي احدى منتجات العصر البرنزي في حوض الدانوب (أنظر ص ٢٠٣) ، وتظهر هذه الأدوات الشمالية الأصل بعد سنة ١٤٠٠ في جميع أنحاء ميسيني ثم تأخذ في الازدياد بصفة خاصة حتى أنها لتشاهد في قبرص ، ويوجد في عصر واحد منها (لعله تذكار نصر في معركة حربية ، وقد طبع عليه خاتم سيتي الثاني حوال سنة ١٢٠٥ ق·م) فكأنه أريد به تبيان حوادث الحيثيين مع المصريين ·

ولعل هؤلاء الوافدين قد استقبلوا استقبال الحلفاء أو جيء بهم مقاتلين مأجورين في المعارك الميسينية بمثل ما استقبل به أهالي فيتولونيا Vetolonia وكيرى Caere في ايطاليا المغيرين على بلادهم من الاتروريين أوكما استقبل سكان مدينة امبورياس Empurias في اسبانيا النازحين اليهم من بلاد اليونان وهنالك أقيم سور فصل القسم اليوناني عن القسم الأسباني في المدينة ·

انحلال الأقاليم المينوية

ولكن لم يلبث سلطان مينوى أن أخذ يضمحل وتنزف قوة مستعمراتها في شبه الجزيرة واشتد ضغط أقوام الشمال عليهم فلم يقووا على صدهم لأن حضارتهم لم تبتكر جديدا في عدة الحرب فيما عدا الأسطول الذي أنشأته في أول عهدها ، وهكذا بقي سلطان مينوى جامدا واقفا عند حد لا يتجاوزه · والراجح أن أقاليم شبه الجزيرة اتخذت شيئا من مسحة الشماليين استمدت منهم دما جديدا وأخيرا انتهى طابع الغزو السلمي وحل محله الطابع الحربي ، ففيما بين سنتي ١٢٠٠ و ١١٥٠ ق·م تقع المدائن الميسينية طعمة للنار والمذابح ويستشرى أمر المقاتلين المسلحين بالسيوف القواطع حتى يصبحوا قوة يخشى بأسها · قطعت على أمراء مينوى ومأجوريهم الشماليين جيوش مهاجمة بعضها تعود استخدام الحديد ومن ثم يستقبل التاريخ عصرا جديدا تعفى فيه المجازر والنيران على المدن ويتضح ذلك في أطلال قصورهم حيث لا يزال يجللها السواد من أثر الحريق ·

وقد تناثرت في بهو قصر ميسيني العظيم أكواخ الغزاة الجدد في شكلها الساذج الغليظ ثم وقعت البلاد في أحط دركات الجهالة والظلمة حوالى ثلاثة قرون بعد سقوط ثقافة اليونان المينوية والمصطبغة بها اللهم الا ما يشق ظلماتها الفينة بعد الفينة من وميض الكشوف ·

وقد غلبت على العصر روح الحرب والملاحة دون التجارة ، حتى أن قصائد هوميروس لتصف الأحوال في أوائل هذه الحقبة بما يفهم منه أنها لم تكن تنتمي بأكملها الى العصر الحديدي وقد أورد فيها أنباء عصابات الآخيين المأجورين ومن خلفوهم ممن أصبحوا سادة هذه الأقاليم الغنية الفسيحة الأرجاء ، وثبتت

أقدامهم فى أرض اليونان أجيالا ثلاثة متعاقبة ، والملاحظ أن العـالم المينوى يلقى على الدوام ظلا غامضا أو واضحا على قصائد هوميروس لأن تاريخ مينوى كان ملء مخيلته .

ولكن سرعان ما تنتهى هذه السنوات الأولى فتتبدل الأحـوال وتدخل البـلاد فى ظلمات سببها الارتباك والفوضى ، وانتهى الأمر بأن جرفت جحافل الدوريين الهمج (أنظر فصل ٣٢) بقـايا العـالم المينوى ، وليس فى الامـكان أن نقطع بشىء فيمـا اذا كان تدمير مدينـة ميسينى وسائر البلاد التابعة لها قد وقع فى آخر العصر البرنزى أو فى أوائل العصر الحديدى ولا أن نجزم بشىء أيضا فيما اذا كان الآخيون المتأخرون أم الدوريون المتقـدمون هم الذين دمروا البلاد الميسينية . والحق أن هذه الأمور لا تعنينا كثيرا اذ أن الآخيين والدوريين كلاهما اسم لجنس واحد يتفاوت فى مبلغ استعماله ولا يدلان مطلقا على جنسين مختلفين ، والغرض الأول من تحرير هذا الفصل هو بيان مقدار تأثر اليونانيين بالنازحين من الشمال الذين هم مزيج من الآخيين والدوريين الذين أصـبحت لهم اليد العليـا على المينـــويين بفضـل تسلحهم حوالى القرن

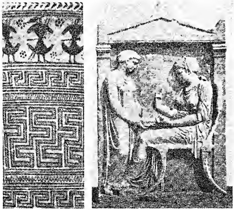
سيطرة الغزاة

العاشر ق.م بأمضى سلاح عرف فى ذلك العصر وهو السـيف القاطع ، ولانهم فوق ذلك قد ألموا بأوليات فنون الحرب فعلى أسـوار طروادة يشـهد التاريخ صفوف الآخيين مثل الكتائب الحديثة جنبا لجنب وكتفا لكتف وخوذة لخوذة ، وقلمـا نشـاهد مثل ذلك فى جيش طروادة ، ثم انهم قد انتظمت خطاهم فى السـير كما انتظمت قوافيهم فى الشعر وامتاز الفن فى هذا الجيل بطابع التكرار الزخرفى الجميل الذى امتازت به حـلى العصر الحـديدى وزخارفه ، وهو الأمر الذى ينم عن كفاية عاليـة وان كانت العقلية لم تزل فى شىء من الظـلام ، وان الفنانين الذين ننسب اليهـم ذلك الفخـار المسـمى بحق « الفخار الهندسى » (انظر ص ٢٩١)

وتلك الحـلى البرنزية التى لا تحصى والتى تنتمى لهذه الثقافة لابد أن يكونوا ذوى مهارة بالغة فى تصميم الزخارف الدقيقة المركبة من خطوط مسـتقيمة بدرجة مقطوعة النظير فى تاريخ الفن .

فنرى منهم النقاشين والنحاتين البـارعين براعة الرياضيين الموهوبين ويلوح لنـا أنهم فتحوا بمهارتهم هذه فتحا جديدا آل الى عصر الفنون الذى بقى ثابتا لا يتغير مطلقا أو يتغير تغييرا غير محسوس طوال قرنين كاملين من الزمان . فهل يحق لنا بعد ماتبيناه عن هذا الشعب ذى الملكات العقلية القوية أن نشك فى أنهم أيضا مبتكرو أساليب الحرب النظامية ؟

ونستطيع فضلاعما سبق أن نقطع بأن اللغة السائدة الآن فى بلاد اليونان كانت من أصل آرى يتضح ذلك من اللهجات المختلفة التى تكلم بها مقدمو اليونان ، كما نستطيع أن نجزم بأن لغة المينويين لم تنتم الى هذا الأصل الآرى ،



العصر الذى وضعت فيه بذور الفن اليونانى وازدهار هذا الفن

لم يزد الفنان اليونانى فى عصر الرسم الهندسى على رسوم الأطفال (أنظر رسم المحاربين فى اليسار) نقلا عن اناء من ديفلون . وما وافى القرنان الرابع والخامس ق.م حتى تعلم فنانوهم دقة الملاحظة (كما يشهد بذلك شاهد المقبرة الآتيكية فى اليمين) الا أن نتبينا من أثر هذه الرسوم التى جمعت بين الزخارف التصويرية المحضة والأشكال الواقعية البالغة حد الاتقان .

وأن هناك بونا شاسعا بين اللغات المتفرعة من الآرية وتلك التى لا تمت اليهـا بصلة ، فان

تفوق اللغة الآرية

الآريين يميلون الى تبسيط أفكارهم وعباراتهم وأن يصوغوا كلامهم فى نفس الأوضاع والتسلسل الطبيعى المتفق مع مخارجها وترتيبها المنطقى فى أذهانهم . ذلك بخلاف اللغات السامية الطورانية وغيرهما من اللغات المتفرعة من أصل غير آرى فانها اذ ما قورنت باللغة الآرية تعتبر مجرد أوعية ساذجة لحمل المعـانى ، كما لم يراع فيها التوافق والملاءمة لمخارج الحروف فى اللسان والشفتين بقدر ما هو مراعى فى اللغات الآرية .

وهذه اللغات غير الآرية لم ترد على أنها لكنة مدغمة وقعت كيفما اتفق مثل سائر لغات الهمج ، ولذلك لم يكن عفوا ولا اتفاقا أن التاريخ لم يحفظ لشعب غير آرى مثلما حفظه للآريين من سرعة النضج والرقى ، ولم يكن من المصادفة أيضا ما لازم عصورهم من ابتكارات وتفنن وقد امتازت الشعبة الآرية التى نمت شبهى جزيرة ايطاليا والبلقان بمعين مواردها وصلابة عودها أكثر من سواها من الشعوب الآرية ، ويبزغ اسم هيلانى Hellene فى تلك الحقبة التى ازدهرفيها النظام والادارة وها هو ذا هيرودتس يروى لنا أن الهيلانيين كانوا فى الأصل قبيلة صغيرة استقرت فى شمال بلاد اليونان فى فتيوتيس Phthiotis وكان مؤسسهم أو راعيهم الدينى القديس هيلين Hellen الذى كان له ولد يدعى دوروس ومن ثم يتضح أن الدوريين — ولو بالقدر الذى روته هذه الأساطير — انهم الا طورجديد من أطوارالجنس الهيلانى الأول ولم يكونوا هم أرومة الأصلية . ولم يلبث اسم هيلانى أن أصبح علما على جميع القبائل المنتمية اليه لغة وأصلا . فها نحن أولاء نرى هيرودوتس يقول « ان الجنس الهيلانى لم يبدل من لغته قط منذ نطق بها لأول مرة » وأخيرا يمكننا ان نقول انه فيما بين سنتى ٩٠٠ و ٨٥٠ ق٠م كانت أصول الهيلانيين قد أعدت عدتها وأخذت تشق طريقها بخطى جبارة .

وأهم العنـاصر التى تكون منهـا الشعب الهيلانى هى الصنف العريق الوافد من جهة الشمال ، ومعظمهم آخيون دوريون ثم اندمجوا فى الهيلاديين والميسينيين الذين كانوا يقارعونهم أصالة ، فكلاهما من أرومة شمالية لفحتها عقلية مسوبة عن طريق الديانة والثقافة ثم آل الأمر بهم الى أنهم تأقلموا واندمجوا فى سكان أقاليم البحر المتوسط . الذى أشار على الدوام بقدرته على تمثيل الشعوب الشمالية وتغليب طابعه عليها ، ومما لاشك فيه أنه كانت تشاهد فى أنحاء متفرقة مثل أرجوليد Argolid وبووطية Bœotia وفى الجزائر أقوام من الجنس المينوى الأصلى الذين احتفظوا بلغتهم وطابعهم القديم بدرجة كبيرة ، ومع ذلك فقد بولغ كثيرا فى تقدير قيمة من بقوا من هؤلاء المينويين .

وقدكانت نظرة المينويين الى الحياة مغايرة فى جوهرها كل المغايرة لنظرة الهيلانيين الأول . حقا اننا لا نعلم شيئا عن الآداب المينوية ، وليس لدينا الآن دليل معين يرشدنا الى مظان وجودها ولا يكاد يبقى لنا الا القليل الذى هو فى حكم العدم من لغة المينويين ، بيد أن الآثار الفنية اذا أجيد فهمها وتدبرها نستطيع أن توضح لنا نظرة الشعب الى الحياة ، بقدر ما تستطيع أن توضحه لنا الآثار المكتوبة .

ويمتاز الفن المينوى والميسينى بميزة ان كنا نعجز عن تحديدها الا أنها تضعه فوق مستوى الفن المصرى والآشورى وترفعه قطعـا على فن الحيثيين ، ومع ذلك فالبون شاسع بين فن مينوى وميسينى وبين الاطوار الأولى للفن الهيلانى لدرجة أننا لم نكن لنفهم بسهولة أنهما نتاج اقليم واحد . هذا الى أن الفرق بينهما معنوى

ذاتية الفن الهيلانى

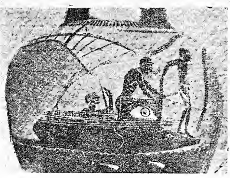
فقط فان الفنان المينوى وجه عنايته الى الطبيعة وتعشق كل ما أحاط به منها ، فكانت نظراته اليها موضوعية وبصره فيهـا نافذا . وبذلك أمكنهم أن يرسموا ما شاهدوه أو يركبوا منه الزخارف الفنية .

كان الفن الهيلانى فيما بين سنتى ٩٠٠ و ٧٠٠ ق٠م ذاتيا أى من بنات أفكار الفنان ، يتخيل حال الأشخاص فيبرزها تمثالا ناطقا ، ونشاهد هذا فى نتاجهم الذى كان جميعه من المعنويات المجردة ، فرسموا صورا للانسان والحيوان فى الأحوال التى تخيلوا انها واجبة لهم ، لا كما أبصروها بأعينهم وحسب ، فجاءت رسومهم

فى الطور الأول من تاريخها فى مستوى رســوم الأطفال الذين لم يتجــاوزوا الســـــادسة من عمرهم بينما بلغت الزخارف التى أبدعوها فيما بعد درجة لا يقدر عليهــا الا كل مهنــدس ماهر عظيم ٠

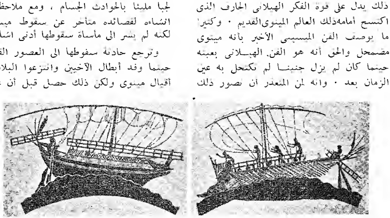
وقد جمع فنهم جميع العنــــاصر الأوليه للعبقريه ، وتلك الميزة المعنويه وهى الذاتيه أو الشخصية التى تجلت فى آثارهم لغاية سنه ٣٥٠ ق٠م وهذا هو العصر الذى أخذ فنانوهم المتقدمون يعملون فيه صورا للانسان ولقد بلغت طريقه فنــانى اليونان المعنويه درجة عاليه من السمو لم تكن طريقه مينوى القديمة الواقعيه لتستطيع البقاء بينهم حتى أتيحت لها فرصه البقاء ٠ لانها كانت غريبــه كل الغرابه عن الفكرة الهيلانيه الذاتيه وان الأطوار المتأخره من الرســـوم الميســـينيه ثم التحـــول التدريجى فى الرسوم الملتويه الطبيعيه القديمة(من زهور وأصداف ونباتات)الى الزخارف النموذجيه التى لا يكاد يدركها المتأمل ، جميع ذلك يدل على قوه الفكر الهيلانى الجارف الذى اكتسح أمامهذلك العالم المينوى القديم ٠ وكثيرا ما يوصف الفن الميسينى الأخير بأنه مينوى مضمحل والحق أنه هو الفن الهيــلانى بعينه حينما كان لم يزل جنينــا لم تكتحل به عين الزمان بعد ٠ وانه لمن المتعذر ان تصور ذلك الزمن المظلم الذى تلا سقوط النفوذ الميسينى ، وان كانت أشعار هوميروس تصوره لنا عالما لجيا مليئا بالحوادث الجسام ، ومع ملاحظة أن انشاءه لقصائده متأخر عن سقوط ميسينى لكنه لم يشر الى مأساة سقوطها أدنى اشارة ٠

وترجع حادثه سقوطها الى العصور القديمة حينما وفد أبطال الآخيين وانتزعوا البلاد من أقيال ميسوى ولكن ذلك حصل قبل أن غزتها



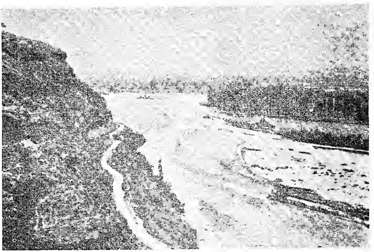
الغوص من سفن الصيد

مارس اليونانيون مهنه الغوص فى طلب الأصداف البحريه فى عصر هوميروس وها هى ذى سفينة غواصين من العهد اليونانى القديم يتأهب غواص يونانى للغوص منها ، ولما كان مقدم السفينة يشبه رأس حيوان وجدوا من المناسب أن يزخرفوها عادة بما يشبه العينين فى جانبيها وما زالت طريقتهم هذه مشاهدة فى قوارب الصيد فى البحر المتوسط ٠

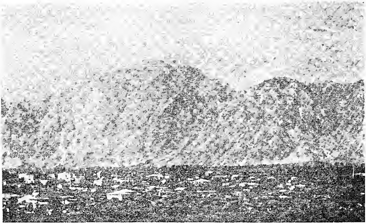


أقدم السفن اليونانية التجارية والحربية

وقفنا على هذا التصوير الواضح للسفن اليونانيه القديمة التجاريه والحربيه على كأس يرجع تاريخها الى أواخر القرن السادس ق٠م فنرى السفينة الحربية (فى اليمين) قد زودت علاوة على شراعها بصفين فى كل منهما أحد عشر أو اثنا عشر مجدافا مع جؤجؤ جبار عتيد ، أما السفينه التجاريه فلم تزود بالمجاذيف بل اكتفوا فيها بالشراع كما امتازت بعلو جدرانها المعدة لصيانة البضائع ، وكلا النوعين يقوده ربان ذو مجذافين وعليهما سلم خشبى بجوار (مؤخر السفينه) للصعود والنزول



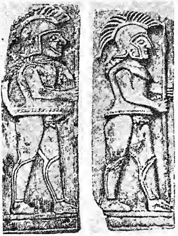
بنيت أسبارطة تلك المدينة المنيعة فى شبه جزيرة المورة فى زمن بعينه فى الطرف الشمالى من السهول اللاكونى المتوسط على الشاطئ الايمن لنهر يوروتس أما موقعها الحربى فقد كان فريدا فلم تتطلب الا حراسة المنفذ الوحيد المتصل بالارض الداخلية من جهة الشمال ، كما أنها كانت فى حصانة من الهجوم بحرا اذ أنها على مسافة ٢٧ ميلا منه



أن جانبا من موقع أسبارطه القديمة أصبح مطمورا تحت المدينة الحديثة فتعذر على علماء الآثار القيام بأعمال الحفر التى تتطلبها أبحاثهم وان هاتين الصورتين الشمسيتين لنهر يوراس مأخوذتان من مينالايون Menalaion وفى هذه الصورة السفلى يرى منظر المدينه الحديثه وجميعه يوضح الموقع المنيع فى أحضان الجبال الشاهقة التى وقفت سدا منيعا حال دون الاندماج السياسى لدويلات المدن ، ولا شك أن هذه الطبيعه كانت عظيمة الاثر فى تقدم أسبارطة ذات الطابع الحربى الذى لم تلن له قناة ٠

أسبارطة المهد الجبلى ذو المزايا الحربية المنيعة

تلك الأفواج الدورية وغيرها من الأجناس الأكثر منها بدائية وبربرية فعفوا على ثقافتها القديمة . وليست لدينا أدلة عن الأحوال فى عصر سقوطها ولا مايلى ذلك من عصر الاستيطان سوى ما نعثر عليه من الآثار القديمة ، حيث نستطيع أن نتبين أن تلك الثقافة المتشابهة التى عمت بلاد اليونان فى العصر الحديدى الأول لم تكن قاصرة على المراكز الميسينية المهمة ولكنها انتشرت وانبعثت فى كل الأرجاء . وقد حصل فى بعض الأحيان أن المستوطنين الجدد نزلوا قريبا من المراكز القديمة ، وان لم يكن فوقها بالذات . فهذه تيرينز Tiryns قد عفت آثارها لا يكاد يعثر لها على طلل بعد سقوطها أما آسينه Asine وهى الواقعة على بعد بضعة أميال الى جنوبها فبخيل الينا أنها هى التى حلت محلها ، وبالمثل تقع أسبارطة وهى من مدن العصر الحديدى عبر اليوروتاس على مسافة ميل واحد من سالفتها الميسينية ثرابنه Therapne . أما طيبة المينوية والميسينية أصلا فقد أعيد استيطانها بينما أورخومينوس Orchomenus ومدينة بحيرة جلا Gla فقد عفى عليهما الزمان الى الأبد بخلاف مسينى وأثينا اللتين مد التاريخ فى أجلهما باعادة استيطانهما .

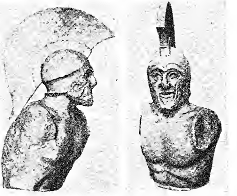


خوذة محارب أسبارطى من عهد قديم

هذا تمثال لمحارب أسبرطى وهو يمتاز بتفرد طرازه وتحرر صانعه الى حد بعيد من التقاليد المصطلح عليها أما الخوذة فهى من العهد الآركى القديم وهى غطاء ثقيل يستغرق الرأس والرقبة والخدين ، وقد أبانوا قسمات الشعر والحواجب بخطوط محفورة وبارزة

هذا وكثير من المواطن الحديدة لم تنشأ على أطلال مدن سابقة ، وان الفحص عن مواطن العصر يمكن أن يجرى بمحاذاة الطريق الهضبى المخترق بلاد اليونان من الجنوب الى الشمال من صيموم فى أتيكا الى مواطن العصر الحديدى المهمة فى بيريه Pherae وطيبة الفثيونية Phchiotic Thches ، ونجد فى أقصى الشمال أقليم مقدونيا حافلا بآثار المدن والقبور من العصر الحديدى حيث كان تجمعهم قبل انحدارهم جنوبا الى بلاد اليونان .

وقد اتجهت قبائل العصر الحديدى منذ القدم نحو البحر عن طريق اليونان وكان اتجاهها هذا فى نفسه عملا عظيما ، بل آية فى التوفيق ، لأنهم وفدوا من أقصى الشمال من وراء سلاسل



رسوم أسبارطية بارزة تظهر فيها الرجولة ظهورا قويا

عثر على هاتين اللوحتين المصنوعتين من العظم فى مقبرة غير بعيدة عن أسبارطة ، وقد تكونان صحيفتى اعتراف أو قطعتى ناووس خشبى ، وانهما لمثالان رائعان من الفن الاسبارطى قبل عصر التقشف الذى بدأ فى القرن السادس ق . م

الجبال التى تحجز بحر ايجة عن بلاد الشمال ، وبلغوا فى استمرار انحدارهم جزيرة كريت وبلاد السيكليد وطروادة وساحل البحر الايونيوى ، بل لعل فصيلة منهم نزلت فى الأصقاع الشاسعة الممتدة على خليج نابلى . وما وافى منتصف القرن الثامن حتى أخذوا يزخرفون آنيتهم بصور سفائنهم ، وبعد هذه الحقبة بقليل من الزمن نعثر على طرفة رائعة من هذا النوع منحوتة من العاج فى أسپارطه (انظر ص ٢٩٥) ونقف على صوره بارزة من البرنز لسفينة فى كريت ؛ وقد كانوا طلائع المستعمرين من الاغريق الذين أخذوا بعد نحو قرن من الزمان يرحلون من ديارهم فى طلب أوطان أخرى .

الملاحة فى العصر الحديدى

ولم يكد ينقضى قرن من الزمان حتى تبدلت فى ذلك العصر طرز السفن التى لم تكن تسع احداها لأكثر من اثنى عشر رجلا فظهرت طرز أكبر منها حجما قادرة على أن تمخر عباب البحار الحرة ، ولم تلبث هذه السفن أن خاطرت وشقت طريقها الى أسبانيا ، وهكذا نافست مدينتى صور وصيدا فى تجارتهما التى أسستاها من قديم وهما اللتان احتكرتا استغلال هذه السواطىء الغنية .

ومع طلائع التجارة الاغريقية فى نهاية العصور المظلمة يبدأ علمنا بالتاريخ المكتوب ، والمشهور ان بلدة كيومى القريبة من نابلى Naples أسست سنة ١٠٥٠ ق.م ، وان يكن على الراجح أن هذا التاريخ مبالغ فى قدمه وأن هذه المبالغة نفسها لتدل على رقم قياسى فى تاريخ الأعمال القديمة ، ومهما يكن من الأمر فان الأدلة الأثرية لتؤيد قدم عهد تأسيسها فها هى ذى نكسوس Naxos قد تأسست فى صقلية سنة ٧٣٦ ق.م وسيراقوزه Syracuse سنة ٧٣٥ق.م واستمر هذا التوسع فى تأسيس المدن الى أن وصل الى أسبانيا والرڤييرا الفرنسية وقد تم ذلك فى القرن التالى للعصر سالف الذكر . أما فى بلاد اليونان الأصلية فقد كانت أسپارطه مركز الثقافة اليونانية فى تلك الحقبة ، وتقلدت زعامة المدائن اليونانية فى علاقاتها بالشعوب الأجنبية الخارجة عن دائرة نفوذها ، وقد وقفنا على تاريخها من دراسة أعمال الحفر التى كشفت عن الطبقات الأرضية التى تكونت على التتابع فى التاريخ الغابر .

وفى وسعنا أن نتتبع الخطى السريعة التى خطتها الأعمال والثقافة من عصر الاستيطان الأول فى القرن العاشر حينما نهب المغيرون فى العصر الحديدى مدينة ميسينى وبنوا قرية جديدة على تل مجاور لها وفى حوالى سنه ٧٠٠ ق.م لم تعد المدينة هى تلك القرية البربرية القابعة فى الوادى الجبلى بل أخذت تنشىء من النظم ما جعلها صالحة لأن تقابل على قدم المساواة ممالك ليديا ومدائن ايونيا Ionia والامبراطورية المصرية . وهكذا أصبحت الحياة فى أسپارطة يانعة زاخرة بالترف .

وكان بعض الشعراء الذين جاءوا بعيد عصر هومبروس من أبناء أسپارطه ، وان أشعارهم لتنم عن حياة نضرة زاخرة شبيهة بحياة الشرقيين وقد أيدت نتائج أعمال الحفر الصور التى رسموها فى هذه الأشعار . وأخيرا أصبحت أسپارطة قبيل سنة ٦٠٠ ق.م أحد مراكز الفن اليونانى فلم تنافسها حينئذ الا كورنثة وأثينا هذه القرية التى كانت تنمو نموا حثيثا . وقد استمرت أثينا فى نموها بعكس أسپارطة التى أخذت فى التضاؤل والزوال . وفى حوالى سنة ٥٥٠ ق.م رسمت أسپارطه لنفسها خطة الاخشيشان والتقشف ولعل الذى دفعها الى هذا هو ما تبين لها من خطر موقفها بعد ثورة بعض رعاياها ، ثم ازداد ادراكها لهذا الخطر حينما ازداد انغماسها فى الترف والنعيم . وأصبح نبذها للفنون مثلا سيئا يتذكره كل من يرد اسمها على خاطره أو لسانه الى أن كادت تمحى الفنون فى لاكونيا بعد سنة ٥٥٠ ق.م .

ولعل الطابع الهيلانى المميز لشعب اليونان قد بدأ يظهر فيهم منذ نشأتهم ، أما هذا الطابع فهو التفنن فى الطريقة مع وحدة الغرض ، وكانت هذه الميزة هى أساس كل شىء فى الحياة اليونانية وأن تكن الحرية السياسية والفنية والأدبية قد أخذت جميعها أشكالا متنوعة دون أن يكون بينهما فرق يعتد به . واذا لوحظت المراكز والمدارس والهيئات المختلفة فى الطرق والمشارب وجد أنها تتفق جميعها فى المبدأ العام

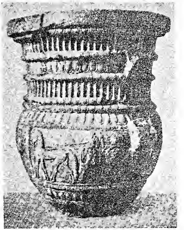
المشـــترك بينها وهو مراعاة الحق والجمال في الفن ٠ وقد وضـعوا الجمال على الدوام أمام مخيلتهم ليستلهموه طريقتهم ، ولم يكن للفلاسفة والشعراء والمثالين والرسامين منهم طابع قومي عام ، لذلك لم ينظم شـعراؤهم أو يفكر فلاسفتهم أو ينقش فنانوهم الا صادرين عن روح مدنهم الخـاصة ، ولم يكونوا خريجي نطـام شـامل مثل نظرائهم المصريين الذين نجدهم طوال الخمسة الآلاف من السنين التي عمرها فنهم ـ اذا ما قورنت آثارهم بالآثار اليونانية ـ لاتنم أعمالهم عن تفنن في الطراز والابتـكار اللهم الا النزر اليسـير من بعض مميزات خاصة لقليل من فنانيهم ، بخلاف الحال في بلاد اليونان حيث كان كل شـاعر أو أديب أو عالم أو متفنن يصدر عن عبقريته الخاصة غير مقيد ولا مقلد في فنه ٠

ولم يكن هناك طابع ابتكاري يوناني عام بمعنى الكلمة الا اذا عنينا بذلك تحرر الفنان من سلطان الاكراه والقانون ، وهـذه الحرية



شاهد لمقبرة نبيل أسبرطي

مع أن هذا التمثال يرجع الى العصور القديمة فهو يوضح صورة النبيل وزوجه تحرسهما روح في صورة ثعبان ، وقد عثر عليه في أسـبارطة ويدل على انصراف الأسبارطيين المتأخرين عن العنـاية بالفنون انصرافا مقصودا



سمة شرقية في الفن الأسبرطي

نستطيع أن نتبين من الرسـوم البـارزة للعربات والخيل والناس المنقوشة صورهم على هـذه القدر القديمة سـمة من الذوق الشرقي اتخـذها الأسبارطيون في عهدهم القديم حينما كان فنانوهم يستلهمون الذوق الفني عن طريق آسية الصغرى ٠

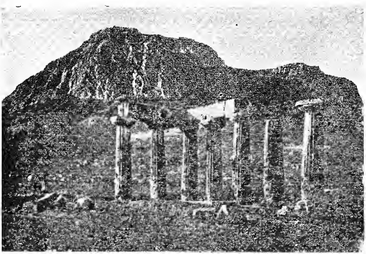
كانت هي الميزة الوحيدة التي يمتازون بهـا جميعا ومبلغ ما نستطيع أن ندركه من مراعاة اليونان لما نعنيـه في عصرنا بالروح القومي العـام للمسـه فيهم كلما قصـدوا المقـابلة بين ما يرفرف على ربوع مدينتهم الخاصة من حرية وبين ما يخيم على بلد غريب عنهم يكنفون بتسميته « بربربا » أي أن أهله لا يستطيعون أن يبتكروا مستلهمين عقولهم بل كانوا على الدوام خاضعين لسلطان سادتهم ، وقد أدمجوا الامبراطوريات المتحضرة الرفيعـة مثل فارس وقرطاجة بأخرى نصف متحضرة مثل تراقيـا وانيوبيـا والليبريا في أولئك الذين سـموهم البرابرة ، وهي هـذا الدليل على أن الصفـة المشتركة العامة بين البرابرة في نظرهم هي خضوع الجميع لسلطان القوة وتسـلطها على حرية الفكر سواء أكان ذلك في صورة العاهل العظيم أي أمير الأمراء أو بيئة همجية أو متغلبة أو خرافات متفشية فجميع هـذه الأحوال في الاتصاف بالبربرية عندهم سواء ٠

وهذا التنويع في الطريقة الذى هو ميزة أصيلة للفن الهيلانى سرعان ما ظهر أثره للعيان حينما انتقل الهيلانيون الناشئون من طور المماثلة فى الفن والثقافة . ويمكننا أن نتبين من العصر المظلم الذى سبق لنا وصفه وهو الممتد فيما بين سنتى ١١٥٠ ، ٨٠٠ ق . م ان اليونانيين لم يكادوا يبلغون فيه طور التفنن والتنويع .

وقد شاعت بينهم الطريقة البسيطة ، أى رسم المتشابهات وهى التى أطلق عليها « الطريقة الهندسية » ولكن لم تحل سنة ٨٠٠ ق.م حتى كانت بذور التفنن قد انتشرت وتأصلت فى البلاد وأصبحت أسبارطة أم المدائن اليونانية الأصلية ولم تضارعها مدينة أخرى حوالى سنة ٧٠٠ ق.م . وأما أثينا بقلعتها المشيدة على آثار ميسينى القديمة فكانت الى ذلك الحين قرية الفن الهندسى المزدهر . وقلما يعثر الباحثون على وجه شبه كامل بين آثار أثينا واسبارطة بعد سنة ٧٠٠ ق.م ففى أسبارطة فيما بين سنتى ٧٠٠ ، ٦٠٠ ق.م كان الذوق الفنى شرقيا واضحا كما أسلفنا ، حينما كان الفنانون يحاكون الذوق الفنى المنقول اليهم عن طريق آسيه الصغرى .

أما أثينا فقد نشأ فيها الفن وترعرع قوميا خالصا . منذ نشأته الأولى . ولم يتسم بالسمة الشرقية الا فى النزر اليسير وذلك بالرغم من قربها من كورنثة تلك المدينة المصاقبة لبلاد المشرق بخلاف أسبارطة التى كانت مركزا عظيما بالرغم من موقعها السحيق فى داخلية اليونان على أن أثينا لم تزد عن أنها كانت قرية أقليمية بالرغم من موقعها المتوسط بين جميع الانحاء وذلك لغاية سنة ٦٠٠ ق . م .

أما التفنن الذى أدخل منذ أقدم العصور على الطراز الهندسى ، والذى كان ملحوظا فى



أثر تذكارى هائل يوضح الثروة التى جلبتها تجارة كورنثة

كانت كورنثة بفضل تجارتها البحرية على اتصال ببلاد المشرق فأصبحت مركزا للعوامل التى تصبغ الأمور بالصبغة الشرقية . ومن الغريب لهذا السبب ألا تتأثر أثينا لا باليسير من أحوال الشرقيين بالرغم من قربها من الشرق كغيرها من المدن وتوضح لنا الصورة قلعة جبلية ذات جلال وروعة فى أكروكورينثوس تشرف متعالية على العمد التى أبقى عليها الزمن من هيكل أبولو Apollo وهى من آثار القرن السابع من الطراز الدورى القديم كما يظهر من تنسيقها وتلاصقها



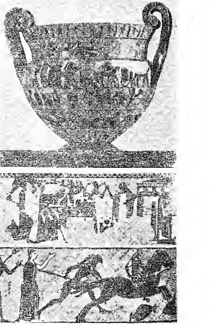
بعض آيات الفخار الأتيكي القديم المشتمل على رسوم سوداء في منتصف القرن السادس

وهي أوان ذات عروتين بلغت حدا من الاتقان لم يبلغه غيرها من الصناعات، وذلك من حيث تمام التماثل ، وغزارة الزخرفة ، ودقة التوازن في تصميمها الأتيكي ، وتتضح الميزة الاولى في الثلاثة النماذج كلها،أما الميزة الأخيرة فتظهر من ترتيب الاشكال في جماعات متساوية العدد معادلة التوزيع والملاءمة لشغل رقعة الرسم بتمامها وقد امتازت الزهرية المرسومة في جهة اليسار من أعلى بكثرة ما حوت من مناظر الطبيعة وبالجملة قد اشتملت جميعها على العناصر السليمة للفن .

الفن الآتيكي القديم فقد كان محليا الى حد بعيد . أما ما أطلقوا عليه أصول الفن الآتيكي الذى وجد فيما بين سنتى ٧٠٠ – ٥٥٠ ق.م ، والذى كثيرا ما يساعد فى نقوش الآنية فيدل على تقدم الفن منذ أقدم العصور دون أن يتأثر بأى مؤثر ظاهر غريب عن مدينتهم ، هذا بينما كانت أثينا حوالى سنة ٦٠٠ ق . م . تتهيأ لأن تصبح مركزا ممتازا بين مراكز الفنون حتى جعل الناس ممن ليسوا من رجال الفن يفهمون أن أسبارطة لم تعد المدينة الوحيدة فى اليونان .

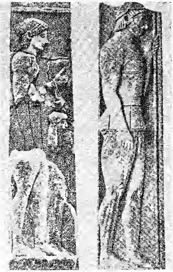
وكما أن الأحوال الملائمة لتقدم الفن قد اختلفت فى كل مدينة عنها فى المدن الأخرى فان الأحوال المؤثرة فى حياة البلاد السياسية المختلفة ، كانت هى أيضا متغايرة . ذلك لأن حياة الأسبارطيين كانت تشبه كثيرا حياة جيش غزت حديثا بلدا أجنبيا واحتلته فتراها أبدا على أهبة الدفاع عن نفسها ، فهاهم أولا المسينيون على حافة حدودهم يتحفزون مترقبين أدنى علائم الضعف تبدو عليهم ، وكذلك أخذت الشعوب المغلوبة على أمرها مثل الهيلوت Helots والبيرويكوا Perioikoi اللذين كانا ينتميان الى جنس غابر أسبق من الدوريين فى لاكونيا ، أخذت جميعها تتحين الفرص للفكاك من اسارها .

والى هذه الأحوال تعزى الحركة النفسية التى قويت فى القرن السادس ، وكانت ترمى الى مواجهة الخطر بالعدول عن الترف والرجوع الى الروح الحربية القديمة ، فلا غرو والحالة هذه أن تنبذ الفنون فى زاوية النسيان ، فان أسبارطة كانت القرية التى نشبت فيها مخالب ثلاثة أعداء طوقوها من نواحيها المختلفة تشمر الاسبارطيون عن سواعدهم ليحولوا دون الوقوع بين براثن غرمائهم العديدين . أما فى أتيكا فقد كانت ظروف التقدم مغايرة عما كانت عليه فى المدائن آنفة الذكر ولكن الحظ لم يسعدنا بالعثور على حقائق مدونة من



أجمل نموذج للفخار الأتيكى : زهرية فرنسوا

بلغ فن الفخار ذروة مجدة فى هذا النموذج الذى هو من بديع صناعة ارجوتيمس Ergotimus وزخرفه كليتياس Clitias فى منتصف القرن السادس ق.م وأطلقوا عليه اسم مبتكره ، فتصميمه بديع ورسومه آية فى الجمال . تأمل القطاع الأعلى حيث قد حوت حاشيته الكبرى موكب الآلهة فى عرس بيلوس وذيتوس Pelus and Thetus ثم القطاع السفلى الذى يمثل مطاردة أخيل Achills لتروبلوس ، أما الحاشية العليا فتمثل بيلوس فى قنص الخنزير الكاليدونى ، وقد سبق الكلام عليها فى ص ٢٨٤



نقشان بديعان من آثار أتيكا

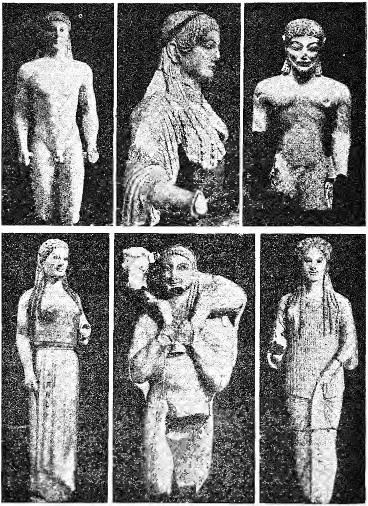
هذان النقشان المهيبان ، والذى فى جهة اليمين منهما تمثال أرستيون Aristion يوضحان المستوى العالى الذى بلغه الفن فى منتصف القرن السادس ق٠م ويدلان على صحة ما أثبته التاريخ من أن أثينا لم تعد تلك القرية الخاملة بل كانت مقبلة على زعامة فنية عظيمة

عهد اتيكا القديم اللهم الا النذر اليسير ، ومع ذلك فقد ثبت أنه قبيل القرن السابع ان لم يكن قبل ذلك ، عمرت هذا الاقليم طبقتان من الأشراف والأرقاء المسخرين ٠ ثم قامت فيها نظم ليست مغايرة كل المغايرة لنظائرها فى أسپارطة ومع ذلك فقد سلمت أتيكا من الأخطار التى أحدقت بغيرها ٠ ولم يحفظ تاريخها أنها كانت هدفا لغزو عنيف ولا احتلال وحشى ، بيد أن الاثينيين اعتبروا أنفسهم فى جميع العصور عنصرا وطنيا خاصا ، مع أن الأسر الحاكمة فيهم كانت منحدرة عن أصول مختلفة ، وقل منهم من كان من أرومة آتيكية خالصة ٠ ومن الغريب أن العنصر المسينى تغلغل وبرز فى جميع شعاب الأسر المعروفة وقتئذ ٠

وقد تجلى الأصل المسينى ملموسا فى كثير من شجرات أنساب الأسر المختلفة المعلومة والغالب أن هؤلاء المسينيين نزحوا الى هذه البلاد فرارا من قلاقل المورة ولم يدخلوها غزاة فاتحين ٠ وكانوا هم المهاجرين الذين أطلق عليهم اليونانيون اسم ايبليديز Epelydes أى المهاجرين غير الفاتحين ، الا أننا لا نستطيع أن نجزم بأن أصول هذه الأسر الآتيكية التى وفدت على سلامة فطرتها أخفت وراءها قصة غزو واسترقاق ، اما أنها ، وهى القبائل المهاجرة المتدفقة المزودة ببعض الثروة ، استطاعت أن تكون من بعض أفرادها طبقة من الأشراف ، فهذا أمر ما زال غامضا فى سر التاريخ ٠ ومهما يكن من أمر فالنتيجة الماثلة فى كلا الغرضين واحدة ، وهى أن الفلاحين قد أصبحوا أرقاء أو شبه أرقاء ٠ ولقد نجمت عن هذه الحال نتيجة طبيعية فى تهيئة تقدم المجتمع ، ولولاها لكان الأمر جد مختلف وكريه ، ذلك أن القوانين قد سنت لتنظيم هذه الأحوال الطارئة لازاحة آثار الفوارق ، أما القضاء فكان يتولاه منذ أقدم العصور مجلس من الأعيان ، وها نحن أولاء نرى فى عصر هوميروس قسطاس العدل يقيمه الشيوخ لا الملك ولا الأمراء ٠

كما يتضح من رسم على درع أخيل Achills يصور ما يأتى : ـ

« متقاضيين يختصمان فى دية قتيل والحجاب يحرسون النظام ومجلس القضاة صافين فى هالة قدسية ، وأخيرا ينطقون بحكمهم على ملأ الواحد تلو الآخر ، ولا شك فى أن هذه أداة قضائية يعتمد عليها فى الجماعات الفقيرة حيث لم تتضخم ثروات الأشراف تضخما يحيد بهم عن جادة العدل الى شفا المحاباة والهوى ٠ وأهم من ذلك ما ثبت من أن اخوة أندروماك Andromache أميرة الطرواديين كانوا من رعاة الماشية ويروى لنا هيرودوتس أن الأمراء فى العصور المتقدمة لم يكونوا أغنى من الدهماء وكلما كانت العدالة غير مشوبة لم تكن الحاجة ماسة الى سن القوانين الجامدة النصوص ، الا أنه لم يكد يبدأ القرن الثامن ـ حتى تقلب الأعيان فى الثراء الذى بلغوه من جهة بفضل ما كان يرفرف من السلام فى ذلك العصر أكثر من غيره من العصور ومن جهة أخرى بفضل تقدم وسائل الزراعة ونماء زراعة الزيتون



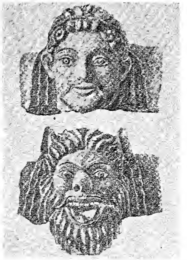
آثار من صناعة النحاتين الأتيكيين وهى مما زخرفوا به الأكروبوليس فى القرن السادس ق٠م

فن النحت الأتيكى الأهلى يرجع الى القرن السادس ق٠م . والى هذا العصر تعزى جميع التماثيل الستة المبينة فى هذا الرسم ٠ وكلها منقولة عن الاكروبوليس عدا المتوسط والأيمن من أعلى وحتى هذان التمثالان هما بلا شك آتيكيا الأصل ، وقد كانوا منذ أقدم العصور يستعملون حجرا جيريا رخوا ولذلك تميز أكثر نتاجهم فى معظمه ببشاعة الشكل وغلظته ، ونرى هذه ظاهرة فى ذلك التمثال البديع « حامل العجل » وهو الأوســط من أسفل ويعزى الى عصر الانتقال الذى بدأوا فيــه ينحتون الرخام بدلا من الحجر الجيرى ٠ ثم أخذ النحاتون يبرزون فنهم الحديث ذا الطابع الطبيعى سليم الذوق والمظهر الكريم الذى يدل عليه التمثال الرخامى من الجهة اليمنى من فوق ٠

حماية للفقراء الذين انتزعوا ثقتهم من الأغنياء .

وان هذا التطور ليلقى ضوءا على الأحوال الاجتماعية فى تلك العصور وعلى عبقرية الشعب اليونانى الذى لم تلن له قناة فى سبيل تأمين حريته السياسية والاجتماعية ، والحق أن القوانين الأولى لعهد دراكو وزاليوكس وغيرهما لتنم عن مظالم ذلك العصر بوضوح وبدون تحفظ ، ولكنها أيضا تريئا رأى العين رد الفعل الذى حال دون استمرار هذه المساوىء ، ولقد كان من دأب الحياة السياسية المرونة والتراجع العجيب عند الشعور بالنقائص ثم الاقلاع عنها .

وحينما تفشل العدالة التقليدية بسبب زوال الثقة بين الكافة ، تبرز ارادة الأغلبية وتعيد الأمور الى نصابها ، وعند ما يعجز الاستبداد عن أن يكون مفيدا فلابد أن يزول ، وتخلفه حكومة ديمقراطية أو حكومة أقلية مستنيرة ، وهكذا كان التزعزع الظاهرى فى النظم السياسية اليونانية هو فى الواقع الضمان الكافى لنجاحها ، وبفضله استطاع اليونان أن يتحاموا ذلك الجمود فى النظام الاقتصادى الذى كان يوطد أقدام طغاة الحكام فى بلاد الشرق ويمنع زحزحتهم عن عروشهم . وكان صولون أول من قام بحركة رد الفعل المشار اليها ممثلا لجماعة مواطنى أثينا حينما تصدى لاصلاح العوامل الاقتصادية الطارئة . وبوصفه ممثلا للطبقة الوسطى فى أثينا وهى الطبقة غير المتدخلة أو المحاولة الظهور فى المسائل العامة - استطاع أن يكشف عن ضعف تكوين الأداة الحكومية وجعله أمرا واضحا



تماثيل ونوافير مضحكة لجلب السرور

هذه رءوس رجال ونساء ومخلوقات تخيلية وتجمع بين أشكال الانسان والحيوان الخرافى (الساتير) لتجميل واجهات المبانى والميازيب فى معبد أبولو فى ترموم وقد نقشوها بالألوان البديعة والتماثيل التخيلية، وتفيض الصورة التى بأسفل الصحيفة بصفة خاصة بملامح الحيوان

بصفة خاصة دون أن يختص الفقراء بنصيب من هذا اليسار بل أخذوا يصبحون عبيدا للاثرياء - ومن ثم نجمت الحاجة الى سن القوانين



تمثال مرح ظريف منقول عن واجهة معبد قديم فى أثينا

هذا المخلوق التخيلى المركب من ثلاثة أجسام بشرية تتداخل وتتناهى الى ذيل ثعبان هو قطعة من زخرفة أحد المعابد القديمة فى الاكروبوليس فى أثينا ، وقد نقش بأبدع الألوان ومع أن تصميمه ساذج لا يعدو أنه صورة تعوذية فانه قطعة رائعة من الفن تجيش بالقوة ولا تخلو من سمات الفكاهة والبهجة حتى فى نظر أهل عصرنا الحديث ، وانها لتنبىء عن أصالة التفكير عند النحات الذى اصطنعها مع البراعة المتناهية فى ملاءمة التصميم للرقعة المتاخمة له .

للعيان لدرجة أن كثيرا من الاصلاح أصبح ميسورا دون جلبة ولا ثورة ، اللهم الا من جانب الأسر الأثيكيه العريقـة ، ثم تجلت فى أثينـا الحديثـة وليدة الاصلاحات الصولونيـة تلكم الخطوط الأولية المنبئة بما كان يخبئه لها المستقبل من مجـد مؤثل ، جعلته على مر الأيام حقيقـة ساطعة فى التاريخ • فقبل عصر صولون شغلت الأسر العريقة بحظوظها المـالية الخاصة دون أن تعير المدينـة حقهـا من الرعايه ، والأسره الوحيدة التى خدمت مجد أثينا فى أوسع مدى هى أسرة فيليديه Philaidae التى كانت تسكن فى أرباضها فى أبرشية لاكياديه Lacciadae

وربما كانت أغنى الأسر وأعظمها حظا فى اقتناء الأراضى هى أسرة الـكمونيديه Alcaenidae التى كان يسمى اليهـا أولئك الخصوم المستقلون فى منابذه بيزســـستراتوس Peisestratus ومحـافاة سياسته وأصدقائه ، وكانت تجاورها أسره بيسيـــدى Paenedie التى كانت تسكن فى أبرشيه أكارنى Acharnie بمحاذاة جبل بارنيز Parnes وقد كان لـكل أسره طقوســـها ومعـابدها وتقاليدها وسياستها ، بل كان لها فى بعض الاحيان نقدها الخاص بها (أنظر الفصل السادس والثلاثين) كما كان لـكل أسرة رمـــور خاصة بأسلحتها وأجنادها . وكانت أتيكا موزعه بـين هؤلاء الساده من أرباب الاراضى ، أما الفلاحون فكانوا أجراء لهم ولم يعنوا كثيرا ولا قليلا بسعادتهم ولا بصلاح أحوال أفرادهم ، كما أن مقاصدهم لم تكن متفقه حتما مع مصلحة الدوله ، وفى الحقيقه لا يمكن أن يقال بان الدولة كان لهـا وجود قبلما وضع صـولون قوانينه حين كانت أثينا لما تزل قريه ضئيله •

وان الآثار الماديه الباقيه فى أثينـا لشاهد قوى على صدق هذا الرأى ، ففيمـا بين ســـنتى ٧٠٠ و ٦٠٠ ق • م • لا يمـــكن القـــول بأن أثينا كانت قد استحقت وقتئذ أن توصف بمدينة الجمال ، اذ كانت أســـوارها ـ اذا صح أن لها أسوار ـ وبيوتها كلها من اللبن ، بخلاف أتيكا التى يغلب على الظن أنهـا كانت مزدهرة آهلة بالسكان ، بينما لم تكن أثينا الا مجرد قلعه محوطة أو مكونه من مساكن حقيرة مـــع مجموعة من الآثار القديمه المقدسة ، فمحراب ديوكاليون Deucalion الذى عرف فيمـا بعـد بأولمبيان Olympieion والـذى فاض عنـــده الطوفان وتوغل فى اليابسة •

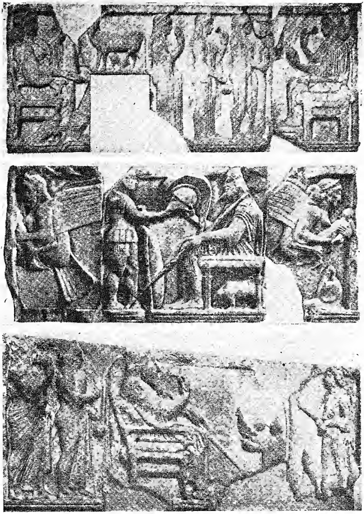
عندما كانت أثينا قرية

وهناك توجد البئر المقدسة والأثر الباقى من بوسيدون Poseidon ذى الحربة المثلثة السنان وهو القـائم على الأكروبوليس وهيكل أثينـا



رءوس يونانية وجدت فى مرسم قديم فى ممفيس

ويعزى هذا المعرض الى مثال مصرى من ممفيس عاش فى القرن الخـامس ق•م وقد توفرت فيه دراســات رءوس الأجناس البشريه المتنوعه (أنظر ص ٣٥) من يونان وغيرهم ممن كانوا يجوبون العالم المعروف فى زمانهم ، قد حقق سير فلاندرز بترى أن الرأسين العلويين يونانيان والأيسر من أسفل كارى Carian والأيمن هاليكارناسى •



أمثلة رائعة للنحت على الطريقة الأيونيوية

كان الأثر المعروف بمقبرة هاربى قائما فى اجزانتبوس Xantius فى لبفية وقد حوى حجرة مقبرة مشيدة على مدخل بئر عالية فنحتها على شكل مستطيل وقد نقش على جوانبها الأربعة نقوش بارزة ، يشاهد فيها صور بعض العظماء وقد استووا على عروشهم ولعلهم من أبطال الموتى الذين خلدوا لأنفسهم مجدا ــ اذ نراهم يتلقون التحف المهداة اليهم ، ويشاهد فى الجانب الأيسر فى الوسط صور من أطلقوا عليهم الهاربيين ، ويخيل الينا أنهم جماعة من العظماء يحملون تماثيل صغيرة بديعة تمثل أرواح أعزائهم الذاهبين ! وان كان فنهم تنقصه السلاسة والسهولة فانه بالرغم من ذلك منال جميل لفن المدرسة الايونيوية فى القرن السادس .

المسمى جلوكوبيس ومنزل اركتيوز Erechtheus وهاويه ربات الانتقام وحرم الأرض وجملة من المواطن المقدسة الصغرى .

كل هذه الآثار المقدسة ترجع الى أقدم العصور ويخلع عليها القدم ثوب المهابة والتقديس ، ولم تكن سكنى الناس لصخرة الاكروبوليس منذ العصر البرنزى عبثا ، اذ أنها كانت محور الأساطير التى تجل عن الحصر ، وكانت هذه الآثار بطبيعتها محاريب مقدسة فى غنى عن الزخارف، لذلك لم تتطلب مهارة الفنانين والمعماريين ولقد قامت الأدلة على وجود أمثال هذه الاشياء من أقدم العصور .



تمثال نصفي يسيل بالرقة الايونيوية

جمال هذا التمثال الايونيوى الصغير ، الذى يمثل أحد الفرسان يرينا الرقة والبراعة التى امتازت بها يد الفنان الايونيوى .

ومع ذلك فقد كانت هذه الآثار قبلة أنظار العامة بينما طبقة ملاك الأراضى لم يكن لهم ارب فى أمثال هذه المعابد المتواضعة ، بل شغلوا عنها بحفلاتهم ومآدبهم وأبطالهم وأماكن عبادتهم الخاصة .

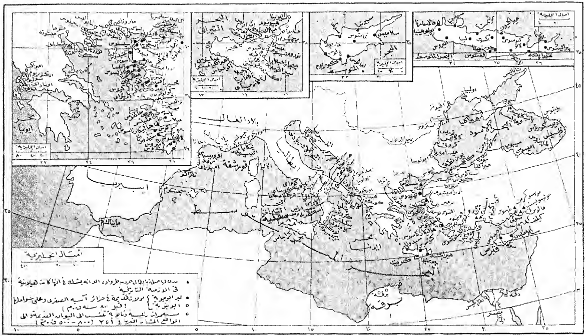
أما صولون فلاحظ أن أثينا يجب أن تكون لها مثل لاكونيا حاضرة رئيسية ، فأخذ يسبغ على معابدها القديمة معنى طريفا ، لذلك كانت أقدم التماثيل وأفضل العمائر القديمة فى آثينا ترجع على وجه التحقيق الى عهد صولون . وما زالت للآن نشاهد فى الاكروبوليس أطلال ما لا يقل عن ثمانية معابد أثينية هى آيه فى الانقان وكمال الصناعة ، وترجع كلها الى ما بين سنتى ٦٠٠ ، ٥٨٠ ق.م وتتيح لنا الوقوف على أول المعلومات عن تقدم الفن الأتيكى ، وتريبنا بوضوح لا يقبل المراء أن أولئكم الصناع الذين نقشوا الخزف فى عصر نشأة الفن الاتيكى فى القرن السابق ، والذين أنتجوا روائع النماذج كانوا هم فى الحقيقة أساتذة الفن فى الحقبة التى جاءت من بعدهم ، ومما لا نزاع فيه أن كلتا الفترتين كانتا أتيكيتين صرفا .

التاريخية أن أول خطوة فى تأسيس أثينا فى صورة مدينه كبيره، وبالتالى أول خطوه فى سبيل اعتبارها دوله لم تحدث على أيدى الأشراف الذين استغلوا أتيكا ستة قرون أو أكثر بوصفهم الملتزمين للاراضى ، بل جاءت كلتاهما بفضل صولون ورفاقه أو حزبه اذا ثبت أنه كان متزعما حزبا فان مصالح هؤلاء ان لم تكن متعارضة مع مصالح الملاك فانها بلا شك كانت مختلفة عنها .

الا أن الخطوة التى اتخذها صولون كانت من الأهمية بمكان حتى أن أعضاء الاسر الأتيكية الكبيرة الذين تأثرت مصالحهم بالاصلاحات الصولونية لم يبد منهم الا القليل من الاعتراض العائق لتلك الاصلاحات . وقد تمكن صولون بفضل ذلك من أن يستتب له الأمر فى الاقليم الذى حاول بث بذور الاصلاح فيه ، وان هذا ليشعرنا بأن صولون كان له أنصاره ، وأن يد ملاك الأراضى لم تكن هى اليد العليا فى الاقليم .

وقد كان الانتقال من سياسة صولون الى سياسة بيزستراتوس Peisistratus طبيعيا ومطمئنا ، فقد كان عمل صولون فى هدوء وكياسة ، لكن سرعان ما عمل خصومه على نقض أعماله بهدوء وحكمة أيضا ، أما تلميذه بيزستراتوس فقد أدرك بكثير من الفطنة وقليل من الاخلاص مقاصد أستاذه صولون بالنسبة لمستقبل أثينا ، ووقف على ما للأعيان من اتحاد وقدرة على التنصل من هذه الخطط . ولما كان هو شخصيا ذا صلات بأسرتين أتيكيتين كبيرتين مع كونه مواطنا مستقلا أتاحت له ظروفه هذه أن يقف على مواضع القوة والضعف فى كلا الجانبين ، الا أنه فى نهاية أمر أنحاز لقضية الدولة ضد الأعيان من ملاك الأراضى ، وفطن الى أن عامل القوة ضرورى لتأمين نجاحه ، والا تعرض للفشل المدهش مثل سلفه صولون ،

ويتضح من الجمع بين الأدلة الأثرية والروايةقدبر انقلابا فجائيا جعل به زمام الدولة فى



أشهر أماكن الاستيطان اليونانى التى انتشرت حول البحر المتوسط

تكاد حركة الاستعمار اليونانى تنحصر فيما بين ٨٠٠ ـ ٥٠٠ ق٠م . ومن قبل كانت جزائر بحر الأرخبيل وقبرص وسواحل آسيا الصغرى حافلة بالمستوطنين الذين احتلوا ديارا كثيرة لم تكن معمورة من قبل ٠ الا أن منازلهم لم تكن مستعمرات بالمعنى الصحيح (انظر الفصل ٣٢) ومع ذلك فانهم اشتركوا ، كل فى دوره وعلى قدم المساواة . فى حركة الاستيطان مع الحاليات اليونانية الأصلية ، وفى النهاية تولدت من هذه المستعمرات مستعمرات أخرى أصغر منها لا توضحها الخريطة ٠ ويجب التنبيه الى أن لامبساكوس Lampsacus وسيزيكوس Cyzicus وأبيدوس Abydus كانت فى عداد مستعمرات العصور الأولى ، تم استوطنها مرة أخرى قوم نزحوا اليها من ايونيا وأما سيريس Siris وميتابونتوم Metapontum اللتان فى أيطاليا فليسنا من تأسيس العصور الأولى أساطيرها الغابرة لم تفصح عن شىء يثبت وجودهما من قديم ٠

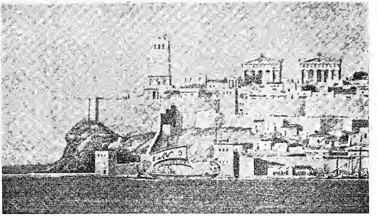
بده دون سواه . وان تاريخه الذى سوف نسرده فى فصل آخر ليفصح عن مفاوضات ومساومات وعن أخذ وعطاء مع الأعيان القدماء ملاك الأراضى فى سبيل تعزيز حزبه سياسيا ، وضمان ضم الأكثرية الى جانبه ، ومع ذلك فقد أسقط وأبعد مرتين ، ولكنه ثابر حتى استتب الأمر له ولبنيه من بعده .

ونستطيع أن نرى فى أثينا صورة مصغرة من التاريخ القديم لأية مدينة يونانية أخرى ، أما أسبارطة فقد كانت ذات تاريخ وطابع خاصين مميزين لها عما سواها ، كما كان سكانها ذوى أثرة تمنعنا من أن نتخذ منها نموذجا لغرضنا والواقع أن أسپارطة لم تبلغ يوما ما درجة دول المدن اليونانية . وأنها لم تكن أكثر من كتلة متراصة من القرى ، وهكذا لم توجد مدينتان يونانيتان متفقتين فى تاريخهما تمام الاتفاق ، أما أثينا وحدها فقد امتازت بأنها المثل الوسط الجامع لصورة توضح تاريخ كافة المدائن : ألا وهى فترة طويلة غير ممتازة خاضعة لنفوذ الأشراف من ملاك الأراضى تتلوها فترة أخرى تسود فيها ثورة ديمقراطية أو شبه ديموقراطية ، ثم نزول هذه أيضا مفسحة الطريق لحكم الفرد الدكتاتورى أو المستبد . فقبضت على زمام الحكم فى البلاد جماعة الجامورى أو الأشراف Gamoroi من ملاك الاراضى من أهالى مدينة سيراقوزة Syracuse وذلك فيما بين سنتى ٦٠٠ ــ ٥٠٠ ق.م ثم خلفهم بعض الطغاة المستبدين وكانت الحال على هذا المنوال فى ميجارا Megara وميليتس Miletus حيث أرتفعت الأرستقراطية فى كلتيهما ثم هوت على الصورة نفسها . أما المدائن التى امتازت

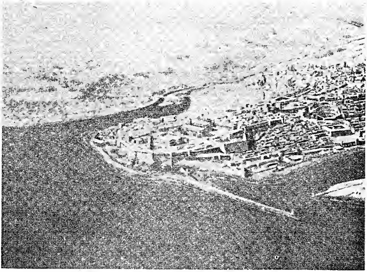


موقع يعتبر نموذجا صحيحا للرءوس البحرية فى سيلينوس Selinus

كانت المدائن اليونانية القديمة ــ والمثال الحسن لها هو أثينا نفسها ــ تؤسس على مسافة نائية من شاطىء البحر حيث كانوا يتوقعون الخطر من جهته أما فى عصور الاستعمار فقد أصبح الخطر الذى يهدد المدن المؤسسة حديثا ، متوقعا من وراء الحدود البرية فلم يسعهم تفاديا لهذا الخطر الا تأسيس المدائن فوق الرءوس الشاهقة ذات المنافذ الى البحار وذات المنعة من الهجمات من الداخل ، والمثال الذى يعد النموذج الصحيح لهذا الوصف نراه فى سيلينوس بصقلية ويوضح لنا هذا الرسم أن موقعها كان متمتعا بجميع الحصون البرية المهمة (انظر ص ٣٥٢) وبالرغم من ذلك ، فمن تلك المواقع نفسها كان غزو القرطاجيين الذين أزالوها من الوجود

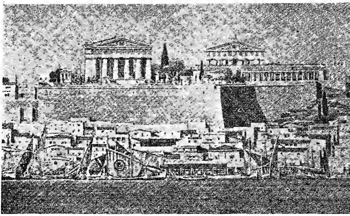


كثير من مظاهر الفخامة التى امتاز بها الطراز الجديد لمواقع المدن فى عصر الاستيطان يتجلى فى هذه الرسوم التخيلية المستنبطة من أطلال سيلينوس بصقلية · ونرى فى هذا الشكل صورة القلعة التى شيدت فوق قمة الرأس الجبلى البارز فى البحر وقد كانت النواة التى التفت حولها مبانى المدينة الجديدة

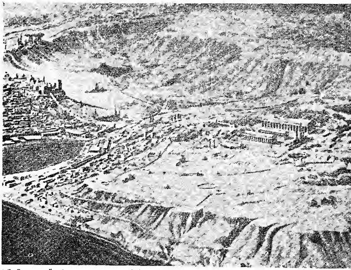


فى أعلى هاتين الصحيفتين جانب من مدينة سيلينوس يوضح بعض ما وعاه خيال المصور من آثار القلعة من طرفها الموغل فى البحر والذى يمكننا أن نشاهد فيه الأسكلة الظاهرة فى يمين الصورة المبنية لوقاية ثغر المرفأ اذ نراها فى هذا المنظر الفسيح الشامل · وقد يكون أصل البرج منارة · وكان من السهل الدفاع عن هذه المواقع من جهة البر باقامة سور فى البرزخ الذى يصل شبه الجزيرة بالأرض

لبيان حالة الانتقال من القلاع الجبلية الى الرءوس البارزة فى البحار



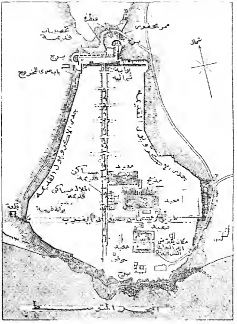
ولم تبق المدائن على ما كانت عليه من قبل مجرد مهابط داخلية للاجئين بل تحولت الى مراكز للحياة الطيبة ، التى أصبحت احدى غايات اليونانيين فازدهرت التجارة وأينعت الثروة ونجلت فى عمارة المعابد ، كما هو مشاهد فى الصورة ،ومع أن أسماء الآلهة التى شيدت هذه الهياكل لعبادتها ليست منقوشة عليها ، فانه من الممكن معرفتها من التصميم الجغرافى المرسوم على ص ٣٥٢ ·



الا أن مدينة مثل سيلينوس بالرغم مما أعد لها من حصون دفاعية داخلية كانت تصبح بلدة فقيرة عديمة النفع لولا ما كفل لها من سلامة بحرية أمنت تجارتها ومواصلاتها ، واذا قضت الظروف فانها تضمن لأهلها طريق الفرار آخر الأمر ، وان أقصى هذه المعابد الثلاثة المرسومة فى الصورة هو لابولو Apollo وأدناها لحيرا Hera ، أما أوسطها وهو الذى لم يعلم اسم الهه بعد فهو أقدم الثلاثة انشاء ·

آيات باهرة فى مستعمرة سيلينوس كما تخيلها الأثريون

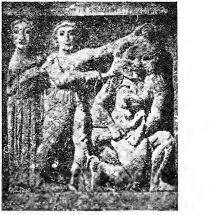
باحتفاظها بالديمقراطية ردحا من الزمن غير منقطع بالنسبة لغيرها (وعلى الأقل بمقدار ما وصل الينا من أخبارها فهي مجموعة المدائن الواقعة على سواحل تراقيا الممتدة على بحر ايجه ، ففي هذه البقعة من الأرض لم يعثر على ذكر للارستقراطية ولا للمستبدين الطغاة . (وللمزيد من بحث سياسة المدائن اليونانية ينظر الفصل ٣٦) واذا ما بلغ مستوى الحياة في قرية ما القدر المناسب لتأسيس مدينة أصبح من الميسور الى حد ما أن تتجه اليها على الفور أنظار المستوطنين فينزحوا اليها ، وسرعان ما كانت تصبح بفضل المنضمين اليها من فائض السكان في الجهات الأخرى صورة طبق الأصل من أم المدائن (أثينا) . ولكن هذه العوامل نفسها التي أذبلت بذور الحياة في هذه البلاد هي التي كانت من قبل سببا لتربية العبقرية الفنية فبها فبينما كانت اسپارطة تسير قدما في خطوات وئيدة ، وبينما كانت أثينا لم تزل تلك القرية الريفية الناشئة ، كانت جذور العلوم والفنون والآداب تتأصل في التربة الايونيوية ، حتى أن أقدم الملاحظات العلمية والتجارب الرياضية كانت من نفائس كنوز الشواطىء الايونيوية فقد وضع طاليس من فلاسفة القرن السابع أسس علوم الهندسة والفلك ، وكذلك قام أناكسيماندر برسم أول خريطة ، فوضع بذلك أساس علم الجغرافيا وقد وجد بينهم من طراز هذين الفيلسوفين كثيرون . أما الفنون فقد خطت فيها ايونيا أول معالم فن الحفر الا أنها سرعان ما فقدت سبقها فيه ، وهي على كل حال لم تبلغ قط شأوا يستحق الذكر في التصوير فان مدرسة سيكيون Cicyon في اليونان الأصلية هي التي كان لها فضل ابتكار هذا الفرع من الفنون ، والأمر على خلاف ذلك في الآداب فان أرخيلوكوس والكايوس وسافو أسماء متألقة اكتسبت ايونيا حظا وافرا منها ، فاق ما أدركه لسيديمون من شعرائها المتقدمين . أما الاعتقاد السائد المسلم به في بلاد اليونان وهو أن اليونانيين (سكان بحر الأرخبيل) كانوا شعبة من قدماء اليونان نزحت بالاضطرار والتدريج عن وطنها الأصلي الى الشاطىء الاسيوى لعجز وطنهم عن مدهم بما يكفي لمعاشهم فهو قول لم تثبت صحته ثبوتا قاطعا ، كما يخيل الينا أن فصائل عديدة من الجنس اليوناني نزحت مضطرة عن بلاد اليونان بسبب القلاقل التي سادت هذه البلاد نتيجة للغزو الأجنبي وذلك عقيب سنة ١٠٠٠ ق.م (وهذا في الواقع تاريخ سابق على ما حدده التاريخ القديم لعصر تأسيس المدائن اليونانية في آسية الصغرى) ولقد أطلق على سكان هذا الشاطىء منذ عهد الاستيطان المذكور اسم *ايونيويين* .



صورة قلعة شيدت على رأس ضارب في البحر

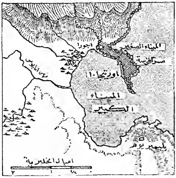
تمثل سيلينوس مستعمرة يونانية وقف تقدمها عند أول طور من أطوار تكوينها ، حيث لم يقم لها قائمة بعد أن دمرها القرطاجيون سنة ٤٠٩ ق . م ، وانها بعكس سيراقوزة لم تبعد كثيرا عن الرأس البحرى الى داخلية البلاد ، وان الصورة المستنبطة من الآثار المرسومة على صحيفتي ٣٥٠ ــ ٣٥١ ترينا الواجهة الشرقية لهذه القلعة .

وما كادت أقدامهم تطأ أرض الأناضـول وتستقر فيها حتى أدركوا أن كسب الثروة فى هذه الأقاليم أيسر وأسرع منه فى بلاد اليونان الأصلية ، فان جو الأناضول وتربته وثروته المعدنية وخصب أرضـه ، كل هـذه عوامل مسـاعدة ترفع المسـتعمرين الى أوج الثراء فى برهة وجيزة ، وسرعان ما أصبح اسم ايونيا علما على الثقافة ثم على الثراء العظيم حتى أنه ما وافت أزمنـة الحروب الفـارسية الا وكان هؤلاء الايونيون قد أفسدهم الترف والنعيم ، فصـار اخـوانهم اليونانيون يعيرونهم بأنهم أضحوا كبنات الظل لا يقـدرون على مواجهة حرارة النهار ولا يضـطلعون بأثقال الكفاح ، من طراز ترتايوس Tyrtayaeus وألكمان Alcman فان ألكايوس وسافو كانا فـانين مبتكرين وان الأوزان الشعرية المعزوة اليها كانت عاملا قويا من عـوامل رقى الآداب ٠ ومع أن ترتايوس لم يكن أكثر من الشاعر الرسمى لدولة اسبارطة العسكرية ، وألكمان قد خلف لليـونان بعض الأشعار المتناهية فى الجمال ، الا أنهما لم يظهرا



الفن القديم فى أرض صقلية

زخارف الأفاريز الدورية فى أقدم معبد وجد فى أطلال سيلينوس (٦٠٠ ق٠م) ، وهى تشغل حيزا كبيرا فى تاريخ الفن اليونانى ٠ وهذا النموذج المرسوم هنا يبين برسيوس وهو يفصل رأس الجورجون ميدوسـا ، وهو وان كان رسما عتيقـا ، الا أنه قطعة تبشر بمستقبل فنى طيب ٠



كيف تأسست المدينة اليونانية ونمت

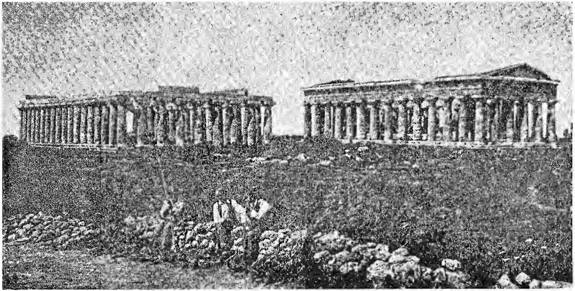
كانت مدينة سيراقوزه تطورا مهما فى تاريخ موانىء الرءوس البحرية وقد امتدت دائرتها فى داخلية البلاد (ويشاهد موقعها الأصلى فى الخريطة مظللا) وكانت تقوم على خليج تحتبه معظم قدامى المسـتعمرين ويشارف السفح الشمالى من النتوء البحر الفسيح ٠

استقلالا عن الدولة التى كانا يخدمانها ٠ وبالرغم من ذلك فان اليونان الأصلية وان كانت تخلفت قليلا عن أيونيـا الا أن عنفوانها وحيويتهـا الطبيعية بوأتها مركز الزعامة بعد زمن وجيز ٠

ووضحت عبقرية اليونان واستعدادها للتنفس فى خطط تأسيس مدائنها المختلفة ٠ ولقد نمت هذه المدائن وازدهرت كلما ازداد نظام الملاحة وقل خطر القراصنة ٠ فان أخطار القرصنة كما أثبته تحقيق تيوسيديديز Thucydides دفعت المـدائن بعيـدا عن الشـواطىء لتـأمن غوائلها ٠ وعلى العكس من ذلك كلما كبح هـذا الخطر فيمـا بعد شجعت المدائن القديمة على

المستعمرات وتأسيس المدائن

أن تتحسس لها طريقا نحو الموانىء ٠ وأثينا نفسـها لم تبدأ فى اسـتخدام ميناء بيرا Piraeus الا فى نهاية القرن السادس ٠ وهذا الاتجاه الجديد نحو الشواطىء هو الذى حدا بمدائن أثينا وميجارا وأرجوس أن تقيم حولها الأسوار العالية فى القرن الخامس ، ولم تلبث المسـتعمرات ثم المسـتوطنون المتأخـرون أن نحوا نحوها حتى أنها لم تكتف بالتقرب من الشواطىء وحسب بل استقر بعضها على قمم الرءوس البـارزة فى البحـار ثم على الجـزائر



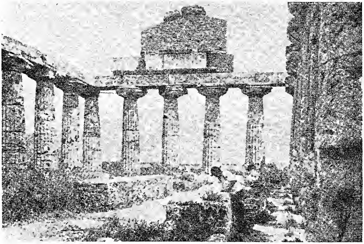
معبدان من المعابد الثلاثة الرائعة الباقية من أطلال بوسيدونيا

بوسيدونيا أو كما كان يسميها الرومان بيستوم Paestum هى مستعمرة يونانية أنشئت حوالى سنة ٦٠٠ ق٠م وقد تفرعت من سيباريس الواقعة على شاطىء ايطاليا جنوبى سالرنو ٠ وهذه المعابد الثلاثة الدورية هى كل ما أبقت عليه يد الزمن من تلك المدينة السابقة على عهد الرومان ٠ ويرى فى الرسم من جهة اليسار البازيليكا وسبب تسميتها بهذا الاسم هو اتساعها الخارق ، وانقسام مبناها جناحين معقودين على صفوف من الأعمدة ، والراجح أن هذا المعبد كان مخصصا لآلهين اثنين ، أما معبد بوسيدون المجاور له فهو أحدث منه عهدا ولذلك يلاحظ أنه أرقى منه فنا ، وهو يرجع الى ذلك العصر الذى بلغت فيه عمارة المعابد اليونانية طرازها الممتاز ثم احتفظت به مدى الزمان ٠

الشاطئية ، وأخيرا انقلب الحال وصار البحر كأنه الحصن الطبيعى الواقى للمدائن من العدوان البرى ٠

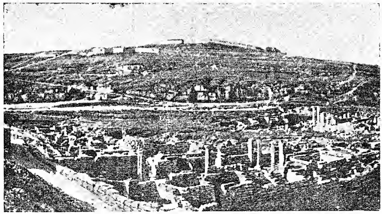
وان هذا الانقلاب المحير هو أهم نتائج ذلك العصر المظلم الواقع بين عامى ٨٥٠ ــ ٦٥٠ ق ٠ م والذى لا نكاد نعلم عنه شيئا للآن ٠ وقد تعلم الاغريق فى خلال هذه الفترة أن البحر هو طريق نشاطهم ومنفذ اتصالهم بالعالم ، وفطنوا الى أنه أساس ظفرهم فى المستقبل ٠

وان أفواج الغزاة من همج الدوريين والآخيين المغامرين لم تقع أبصارهم على محيط أو بحر قبل وصولهم الى البحر المتوسط ، اذ كانوا من سكان اليابسة منبتا ومعيشة ، ولا أدل على ملكاتهم الفطرية من أنهم منذ بزوغ فجرهم الأول ــ وعلى التحقيق بعد سنة ٩٠٠ ق ٠ م بقليل ــ ابتنوا السفائن وزجوا بأنفسهم فى مجاهل الجزائر ومخروا عباب البحار الى السواطىء الفاصلة التى لمحوها من قمم جبالهم الشاهقة ٠ وقد وضعوا تصميم سفنهم على طراز سفن قرصان الشمال(Viking) ــ وهو الطراز الذى توفرت فيه القوة الكافية لاحتمال عواصف بحر الأرخبيل ، مع أن تجاربهم الملاحية السابقة لم تعد ما تعلموه فى حوض نهر لدانوب ، وهو ذلك النهر الذى يتطلب بعض العنايه فى بناء السفن ٠ وما كاد اليونانيون يمتطون ظهر البحار حتى تبوءوا مكانتهم الرفيعة فيه . ثم اعتصموا بها الى الآن ، ثم أخذوا يوسعون وينشرون أساطيلهم وتجارتهم حتى اذا ما وافت سنة ٧٥٠ ق٠م أصبحت الملاحة مأمونة الجانب الى حد ما ، ولكن مما يؤسف له أن التاريخ لم يحفظ لنا الكثير عن كيفية محاربتهم للقرصنة منذ تلكم العصور الخوالى الى أن تغلبوا عليها فى النهايه ٠ ومهما يكن من أمر فان خطرها قد زال حوالى القرن السابع ولولا ذلك لعرفنا عنها أكثر مما نعرفه الآن عن فشل بعثات الاستيطان الواسعة ٠ لكن الأمر على خلاف ذلك ، فها نحن أولاء نراهم

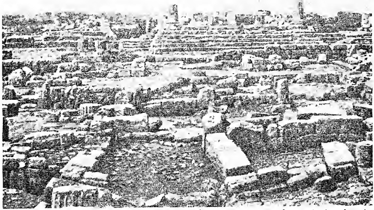


الأعمدة المستدقة الرءوس فى المعبد المسمى معبد سيريز Ceres فى بيستوم

هذه الأعمدة وعددها ستة فى كل من طرفى الصورة الأمامى والخلفى وثلاثة عشر فى كلا الجانبين الآخرين مشيدة على قطعة طولها ١٠٨ قدما مربعةوعرضها ٤٧ ، ويتجلى فيمجموعها جلال فن العمارة اليونانية فى القرن الخامس فى المستعمرة السيبارتية فى بوسيدونيا ٠ ويقوم كل عمود على قاطرة قطرها أربع أقدام وينتهى الىقمة قطرها قدمانوثلاثة أرباع القدم وهى من أعمدة ثالث الثلاثة المعابد الباقية للآن ، وهذا المعبد مع أنه صغير الحجم الا أنه بديع الشكل ، وقد بنى فى منتصف الفترة بين بناء المعبدين الآخرين



أسست قورينة فى بقعة عظيمة الخصب والجمال ودام ازدهارها الى أواخر عهد الرومان ، ولذلك كانت معظم الآثار التى تكشفت عنها أعمال الحفر فى أطلالها ترجع الى ذلك العصر المتأخر ، فمثلا هذه الأسس التى يمكن ملاحظتها فى مقدم هذه الصورة هى أسس الحمامات الرومانية الحارة ·



ويظهر أن الساحل الأفريقى وحده هو الساحل الوحيد الذى لم تساور المخاوف مستعمريه من اليونان من أن يعدو عليهم أهالى البلاد الداخلية ، فكان ذلك سببا فى أن مدينتهم امتازت بأنها بلغت تمام نموها ، وذلك لارتكازها الى نقط داخلية مأمونة الجانب من الخطر مثل تلك التى كان أسلافهم يقيمونها لتوقى الهجوم عليهم · ولكن بلوغهم الطور اقتضى زمنا مديدا · وقد نزلت طلائع المستعمرين منهم على حذر لا يقل عن حذر أى جالية أخرى فى المحط الذى اختارته لنزولها ·

حفائر تشهد بأن قورينة بلغت شأوا من الثروة والسعادة

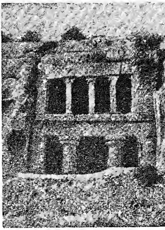


هذا الجزء من الحمامات الذى تعبه الأعمدة الباقية منه حتى اليوم هو حمامات السباق الباردة ويمكننا أن نتبين فى القطاع السفلى من الصورة رقم ٢ المرسومة على الصحيفة السابقة صورة القاعدة المدرجة ذات الأعمدة المحطمة وهى كل ما أبقت عليه يد الزمن من الكابيتولبوم أو معبد جوبيتر ، وفى مقدمة القطاع تمتد ساحة السوق .



ولما نزل المستعمرون الوافدون من مدينة تيرا Thera بشواطىء لوبيا لم يجرءوا بادىء بدء الا على احتلال احدى الجزائر كما كان يفعل أسلافهم من الفينيقيين فى الأصقاع نفسها ، ولكنهم لم يلبثوا أن تحولوا الى بقعة فى القارة الأصلية ، ومع ذلك فان العيش ما زال متأبيا عليهم حتى استضافهم أصدقاؤهم اللوبيون وانزلوهم بصقع داخلى موفور الثراء وهنالك تأثرت ثروة قورينة التى كانت تأتيها من مراعيها وأنعامها

مستعمرة يونانية شيدت فى داخلية البلاد فى أحضان شعب صديق



مقابر يونانية صخرية فى قورينة

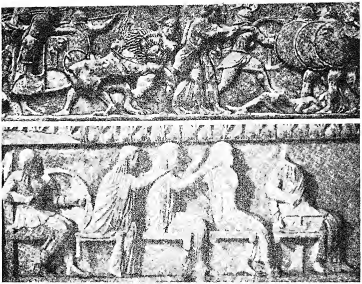
تصميم الأعمدة المستدقة الرءوس ذات التيجان المحدبة ومنها يستدل على مقابر القرن السادس التى فقدت كثيرا من معالمها الداخلية النفيسة . بسبب استعمالها فيما بعد مساكن ومخازن وحظائر

يتسللون الفوج تلو الفوج من شبه جزيرتهم الأصلية منتشرين نحو الجهات الأربع الأصلية ثم ينحدرون من أيونيا الى ترافيا والبحر الأسود · وان تغير الأحوال من جهة الأمن فى البحار أضحى أمرا واضحا من تغيير تصميم المدن التى كانت تشاد فى أقدم العصور على هيئة قلاع فى قمم الجبال الداخلية ، واذ بها تؤسس على رءوس الجبال البارزة فى البحار ، وان هذا التغيير له دلالته وخطره فى التاريخ لأنه حدد فكرة جديدة فى أساليب حياة الجماعات، وبيان ذلك أن الجماعات القديمة كانت مجرد مأوى للجماعات الفارة من وجه المعتدين عليها ·

وأخذت المدائن الجديدة تصبح مراكز انتاج للسلع التجارية وتداولها ، كما أضحت مناهل للثقافة والعلوم ، على خلاف ما كانت عليه المدن القديمة التى كانت مجرد مأوى للفارين اليها عندالطوارىء ، فاذا انقضت الظروف التى دفعت الى نشوئها انتهت مهمتها · فاما أن تبقى واما أن تزول من الوجود · أما المدن الحديثة فكانت مراكز اجتماعية تنبعث منها خطط جديدة للحياة والعمل على تحقيق ما أسماه الاغريق « بالحياة الطيبة » لتحل محل الخطط القديمة التى كانت تسعى كيفما اتفق لتحقيق أدنى حد من العيش وقنعت بكفافها وجبة فوجبة · وقد كانت أثينا وأسبارطة وميجارا وكورنثةوأرجوس ولاريسا وسائر المدائن القديمة فى أرض اليونان الأصلية متغلغلة فى الداخل قليلا أو كثيرا ، فكان أهلوها لا يصلون الى البحر الا بعد رحلة تتراوح فى الطول بين الساعة واليوم الواحد ، ومعنى هذا أنه كان لدى سكان هذه المدن الداخلية القدماء مدة الانذار الكافية للاستعداد لصد العدو اذا دهمهم من البحر ، ويتفاوت مدى هذه المدة بين الساعة واليوم مما يكفى لقطع تلك المسافة بين البحر وبين بلادهم الداخلية بشرط استمرار الحراسة اليقظة ·

وكان سكان المدن يستطيعون أن يرقبوا بأعينهم من قلاعهم أو يفهموا من نيران تشب خصيصا لانذارهم بنزول القرصان فى بلادهم ، فيبادروا بارتاج أبواب المدينة ويحشدوا مقاتليهم فى فسحة من الوقت ثم يسارعوا الى تنبيه حلفائهم لنجدتهم ·

أما المستعمرات الجديدة التى اتخذها النازحون فأنشئت على أساس فكرة أخرى تغاير الوصف السابق ، فكانت الجالية منهم تغادر مدينتها الأصلية ، ولنكن أثينا أو ميجارا مثلا — بعد أن تقام لها جميع مراسم التوديع والحفلات التقليدية ثم تركب متن البحار الحرة العامة اذا اقتضى الأمر ذلك ، وأخيرا تلقى بمراسيها حينما استطاعت الى ذلك سبيلا · وكان يعترضها فى داخل الخلجان والأغوار قرصان متفرقون ولكن الجالية كانت تبادرهم بضربة قاضية تسكنهم بطن اليم،لأن هذه الجاليات أو الحملات كانت كبيرة العدد ، ولم تكد تطأ الأرض المختارة لرسوها حتى تشرع فى انتخاب الموقع الملائم لتأسيس مستعمرتها · ولاشك فى أنهم فى كثير من المستعمرات وبخاصة فى صقلية وأسبانيا كان يتبين لهم أن الجاليات الفينيقية قد سبقتهم الى المكان · ففى بعض الحملات — كما حصل فى صقلية مثلا — عمد المستوطنون من اليونان الى طرد أسلافهم فى الموطن الجديد واحتلال مستعمراتهم · ولما كان الفينيقيون قد انتخبوا محاطهم فى الجزائر وأشباه الجزائر المتصلة



كيف أبدع رجال الفن التابعون لاحدى دول الجزائر زخرفة معبد دلفى

أقصى ما بلغه فن النحت فى بلاد اليونان فى أوائل القرن السادس أنه اقترب من الغايه التى بلغتها العبقرية الفنية فى تصوير الانسان بعدهم بفترة وجيزة • ونرى فى الصورة أفاريز من أحد المبانى الشبيهة بالمعابد ، التى أقامتها الدول اليونانيه القريبة منمدينة دلفى ، والتى تعرف بالكنوز • والراجح أن الصورة لأشياء من الكنز المسمى Siphnian Treasury أما الشطر العلوى فيمثل سيبليه Cybele تقلها عربتها التى يجرها أسد ، ويشترك فى أسطوره حرب الآلهة والمردة أبولو وأرتميس وديونيزوس • أما الشطر الأسفل فيمثل حادثا لم يعرف بعد على وجه محدد والراجح أنه مستمد من هوميروس Homer

ببرازخ ضيقة فقد نحا اليونانيون نحوهم ، اما لأنهم قدروا ما فى هذا الانتخاب من حكمة وصواب ، واما لمجرد أنهم احتلوا الأمكنة على ما وجدوها • ومع ذلك فانهم فى حالات كثيرة قد انتخبوا الرءوس الضاربة فى البحار . وان هذا الانتخاب لم يكن مألوفا عند الفينيقيين • وان أقدم وأبسط وصف للمحاط التجارية اليونانية ـ وهى نواة المستعمرات ـ هو انها كانت مجرد سور يبنى فى عنق الرأس الجبلى الضارب فى البحر ، وكانوا يفتحون فى هذا السور بابا ليتخذوه المنفذ الوحيد لنقل البضائع بينهم وبين أهالى البلاد الداخليه ، فاذا ما دهم البرابرة واحدة من هذه المحطات الساذجة ، ارتجت الجالية الباب وامتنعت دونه.والا أهرعوا الى سفائنهم المتربصة لتنقلهم على عجل الى أوطانهم الأصليه • وان أحدى هذه المحطات التى يرجع تاريخها الى أوائل القرن الخامس أو أواخر القرن السادس ق•م ما زالت قائمة سليمة على رأس قنة جرداء بقرب ميناء قولة فى تراقيا •

وكانت قوله هذه احدى المحاط التجارية التى نزل بها يونانيو ساموتراقيا • وقد كان العدو فى هذه المحطه مثلما كان فى معظم المحاط هو هؤلاء الهمج الضاربين فى الأرض المجاوره فى داخلية البلاد وليس قرصان البحر • وان هذا المحط التجارى فى قرية قولة لم يكن يتسع لأكثر من ثلاثين شخصا ومع ذلك فقد كان نواة لمدينة هيلانية •

ولم تكن سيلنيوس وميجارا وهيبلايا Hyblaea (فى صقلية) وأبديريا فى تراقيا وكيندوس فى آسيه الصغرى ، ومعظم المستعمرات اليونانيه

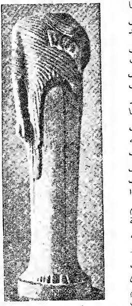
الا مستعمرات نشأت وتطورت على نحو ما نشأت وتطورت مستعمرة فولة،وكان سكانها جميعهم على أهبة دائمة لملاقاة المغيرين ، ومع ذلك فقد كان خط انسحابهم مأمون الجانب أو قل كان مأمون الجانب بقدر المستطاع ·

ومن أجل هذا الاعتبار قلما كانت المدن اليونانية تبنى على الخلجان الداخلية الكبيرة ــ وقد لا يكون شيء منها مطلقا بنى على هذا الوضع ــ وأمامنا الآن تلكم الموانيء العظيمة فى ميلوس ولبمنوس وسكوروس نحاول عبثا أن نعثر فى بطونها على آثار ما لمدن يونانية قديمة · ومهما قلبنا أراضيها فلن نجد ما يدل على قيام مدن قديمة تحتها ، ذلك بأن جميع هذه المدن نشأت من القدم ولأول مرة على السواطيء المكشوفة فى مهاب العواصف ، حتى أنهم كانوا اذا استعملوا الخلجان الداخلية ، لم يتخذونهامواطن استقرار وحياة مستتبة ، وعلة ذلك ظاهرة ، وهى أنهم خشوا أن يطبق العدو عليهم بقوة صغيرة على العنق الواصل بين الميناء والبحر فيقطع عليهم خط الهرب بحرا ثم يهاجمهم برا ، وشذ من ذلك مثالان ظاهران فى سيرافوزه وهاليكارنا سوس ، وحتى فى هاتين الحالتين لم تبن المدينة على الخليج ولا على ما وراءه من الساحل الداخلى بل شيدت على الرأس البحرى وعلى سفح واحد منه ·

وكان جل قصد اليونانيين الافادة بقدر المستطاع من جميع الفرص المتاحة لهم فى نطاق القيود المحيطة بهم ، فكانوا فى ذلك أشبه شيء بالطيور البحرية تروح الى مسارف الصخرة ثم تغدو عنها اذا ما أخافها متعرض ، وقد حصل مثل ذلك فى لسان فوكايا حينما فروا من وجه هاربا جوس الميدى عندما اخترق سور مدينتهم فهجروها الى أقصى الغرب · واذا تركت المدينة وشأنها نمت واتسعت رقعتها · ولم يكن ثمت مجال لهذا الاتساع الا أن تمتد

المستعمرات فوق الرءوس البحرية

من طرفها الناتيء فى البحر ، وعلى هذا النسق كان تطور بوزنطة ، وهى المدينة المثالية لنمو المدائن اليونانية ، فقد دفعت بأسوارها الى الامام المرة بعد المرة حتى أن أسوار ميجارا القديمة التى أقامها مؤسسوها الاول (والتى لا بد أنها عبرت طرفى شبه الجزيرة حيث كانت المدينة قائمة فى مكان لا نعرفه بالضبط ولكنه قريب من جنوبى صوفيا) أصبحت هذه الأسوار هى المتاريس المنيعة التى حمت المدينة فى التاريخ المسيحى ، حينما صدت الاتراك فى عهد ثيودسيوس واضطرتهم الى الوقوف أمامها واحتضنت بين جنباتها تراث الثقافة الاوروبية ، أما خطوط الدفاع المتوسطة فكانت الاسوار التى أنشأها قسطنطين · ولا شك فى أن بوزنطة كانت هى التطور الطبيعى الأخير لشكل المدينة اليونانية القديمة ، التى كانت أول ما نشأت محط الطائر على قمة الصخرة بين الامواج ، وما أصدق الاغنية التى نظمها فوكيليدس شاعر أخصب عصور الاستيطان الزاهرة حينما وصف المستعمرات اليونانية أدق وصف فى قوله : « ان مدينة صغيرة حطت رحالها على مسارف الصخرة البحرية وجعلت الحكمة رائدها لخير من بابل وجميع ما حوت من سخافة وحماقة » ·



حينما كان الفن تنقصه الحياة

كان فن التماثيل اليونانية لا يزال يحبو الى ما قبل سنة ٦٠٠ قم ، فترى فى الصورة تمثالا كأنه العمود ، يمثل حيراو وهو المستخرج من حيرايوم فى جزيرة ساموس ، وهومثال صادق لطراز التماثيل الذى ينتمى اليه ·

وعلى ذلك يمكننا القول بأن الفترة من ٧٥٠ الى ٦٠٠ ق·م هى أعظم فترات التكوين والبناء التى صهر فيها وصب الخلق اليونانى الأصيل · فان الحياة البحرية على اختلاف مظاهرها وتعدد اشتباكها مع البرابرة من كل صنف ووصف ، ثم روح الاقدام التى أشربت بها جميع أعمال اليونانيين ، كل هذه التجارب بعثت الحيوية الكامنة فى شعب حى بأوسع معانى الكلمة وأذكت فيه كل الميول والاستعدادات الدافعة الى الحرية والابتكار فى كافة ما مارسه من شئون ، حتى أن البرابرة أنفسهم كانوا

عاملا لا يستهان به من بين العوامل الكبيرة التي خلقت الشعب اليوناني • وقد تحقق ذلك حينما انزح اليونانيون في صميم البرابرة وباشروا بين ظهرانيهم أمور الحياة والتجارة ، أو حينما انتزعوا منهم عنوةقلاعهم الجبلية الحصينة • وقد امتد العالم المعروف في ذلك الحين شرقا وغربا فيما بين تلك القرى التي ما فتئت محوطة بسياجات من جذوع الشجر والتي كان يسكنها أقوام لم تنضج بعد حضارتهم الهيلانية ما برحوا يطلبون القنص ليتخذوا من جلوده سترا لاجسامهم ، من اقليم جيلونس Gelonus بالقوقاز شرقا — والقوقاز هي التي يروى لنا هيرودتس عنها تاريخا موثوقا به — الى المستعمرة الفوكية غربا في ميناك Maenake الغربية من جبل طارق غربا •

وقد بلغ اليونانيون عند ذلك أقصى حدود العالم المعروف لهم ، ولم يبق وراء عالمهم سوى عالم الخرافات والأساطير ، ففي الشمال وقفت دونهم جبال الألب البلقان وحبستهم الجو غير الملائم وصدتهم أقوام ناصبتهم العداء ، فلم تعثر على مستعمرات يونانية في حوض البحر الأدرياوي في شمال أبيروس قبل القرن الرابع حينما أخذوا ينزلون غالبا وعلى حذر في الجزائر القريبة من الشواطىء • وكان القرصان الالبريون لا يزالون يتربصون في جزائر دلماسيا التي لا يحصى عددها ، واشتهر مقاتلوهم بأنهم أشد الأعداء الذين يخشى بأسهم من ناحيةأرض القارة لتوحشهم وخطرهم •

أما في الغرب فقد وصل من نزحوا من جزيرة ساموس الى الشواطىء الفضية في تارتيسوس الواقعة على المحيط الأطلسي وراء جبل طارق من سنة ٦٣٠ ق•م ، وهنالك أثروا من التجارة بين قوم متحضرين أحسنوا استقبالهم • وقد لحق بهم بعد سنين قليلة الفوكيون فأسسوا ميناك حوالى ٦٢٠ ق•م واستوطنوا ساحل أسبانيا وما جاوره الى مدينة مارسليا • الا أنهم لم يسالمهم الزمن طويلا ، فان نهضة قرطاجنة واتروريا وكلتاهما بلدتان بربريتان في نظر اليونان هاجمهما تقدم اليونان غربا فاشتركت أساطيلهما في موقعة الاليا Alalia في كورسيكا وألقوا على اليونان درسا قاسيا ، خلصت لهم

من بعده سيادة البر ، وأصبح ملاحو اليونان من ذلك التاريخ محفوفين من كل جانب في طريقهم الى مرسيليا بالأساطيل المعادية ، وليس من أساطيل القراصنة وحدها ، فقد كان الأعداء يتربصون بهم حول كورسيكا وسردينيةوسواحل ايطاليا الشمالية الغربية ، وأدى ذلك الى أن تارتيسوس وما حوت من كنوز الفضة آلت الى قرطاجنة ، كما اضمحلت المستعمرات الفوكية في جنوب أسبانيا ، ولم يصادف اليونانيون ندا يقرعهم عدا هاتين المستعمرتين • ثم تجدد النزاع بعد ذلك بقليل في صقلية حيث هب القرطاجيون ليثأروا لبني جنسهم الفينيقيين الذين أجلاهم اليونانيون عنها من قبل في القرن الثامن ، واستمر النزاع محتدما بين الفريقين من جراء هذه الجزيرة مدة قرنين من الزمان دون أن يكتب النصر النهائي لواحد منهما •

وربما كان أخف الأعباء على اليونان هو ما احتملوه في الجنوب فقطعان ليبيا لم تشتهر قط بمناوأتها للاجانب • ولم يكن أمر الجالية اليونانية في قورينة Cyrene قاصرا على عدم تحدي الأهلين لهم بل لقوا منهم روح الكرم والتعاون •

أما طلائعهم الأولى فقد تجاسرت على نزول الشواطىء في حذر ثم أخذوا بأسلوبهم الحكيم يبحثون عن محيط أمين يركنون اليه ، ولكنهم كانوا أشد حذرا من جميع من عداهم ، اذ لم يحتلوا الا جزيرة على مقربة من الشاطىء على طريقة الفينيقيين القدماء• وكان اسم جزيرة بلاتيا Platea الواقعة في رقعة مدينتهم المستقبلة قورينه،وأقاموا في بلاتيا هذهنحو السنين دون أن يطيب لهم العيش فانتقلوا منها الى داخل البلاد حيث مكثوا فيها نحو ست سنوات ، من بعدها تقدم اليهم أهل البلاد اللوبيون المضيافون ونقلوهم الى بقعة أكثر توغلا في الداخل تمتاز بخصب وجمال لم يكونوا ليحلموا بهما فألقوا بعصا التسيار فيها •

وأنشأوا آخر الأمر قورينة ، وهذه حقا قصة ممتعة ترينا أطوار الاستيطانالیونانی مجتمعة • وقد كان الفضل في بلوغ الاستيطان دوره الثالث النهائي، لكرم اللوبيين وحسنوفادتهم ، أما في غير الاقليم اللوبي ، فلعل الاستيطان

لم يتجاوز قط طوره الأول ، مثال ذلك أن مدينة استريا Istria الواقعة بقرب مصب نهر الدانوب وقعت عند مكان تأسيسها فوق جزيرة فى مستنقعات مصاب النهر .

وبمثل هذا كانت نشأة أبولونيا Apollonia على الساحل النبطى وأولبيا Olbia فى اسكوذيا على جزيرة ساحلية ثم انتقلتا الى داخل البلاد ، الا أن كلا موقعيهما كانا محفوفين بالأخطار معرضين لهجمات الأسكوذيين والتراقيين ، ولم يستقبلوا فى هاتين المستعمرتين ذلك الاستقبال الودى الذى قابل به اللوبيون فى برقة نزلاء هم من المستعمرين . فلا غرابة ان كانت هذه الظروف قد بثت فى اليونان مختلف الطباع والنظرات الى الحياة . وبالرغم من هذا المزيج كان فى وسع المتأمل على الدوام أن يميز اليونانى من البربرى .

وكانت سرعة نمو الفنون والآداب من الظواهر الرائعة فى القرنين اللذين سبقا فورة النشاط الأدبى والفنى فى القرن الخامس ، حتى أن فن العمارة فى أوائل القرن السادس بلغ حد الكمال ووصل الى درجة عالية لم يطاوله اليها عصر آخر ، اذ أن كثيرا من المعابد التى شادوها فى أوائل القرن السادس تفوق من الوجهة الفنية كافة المعابد وليدة العصور المتأخرة عن عصرها فضلا عن أنها تضارعها شكلا وجمالا وورونقا .

وكان العصر يعنى بالمبانى الضخمة فمثلا معبد أرتميس فى أفسوس ومحراب حيرا Hera فى جزيرة ساموس ومحراب زيوس الأولمبى فى أثينا ، كل هذه كانت أضحم ما خلفه اليونان فى جميع العصور . وحقا انها فضلا عن ضخامتها قد لبست أروع حلل البهاء والجمال . وكانت المعابد اليونانية فى تلك الحقبة تتألق بالألوان الوهاجة ، وكانوا يشيدونها من الحجر الجيرى ويطلونها بالمصيص المصنوع من مسحوق الرخام المنتقى من كافة الألوان البديعة مثل الأحمر والأزرق والأخضر على اختلاف ظلالها ودرجاتها . وها هى ذى بقايا المعابد التى نراها مبعثرة فى أنقاض الأكروبول فى أثينا تدهشنا بألوانها الزاهية التى تترقرق حياة وبهاء ، وما رسخت قواعد الفن حوالى سنة ٦٠٠ ق.م ، حتى بلغت حد الكفاية ، ولم يطرأ عليها بعد الا القليل من التغيير . أما البارثينون Parthenon فلا يعدو أنه تنويع لما سبقه من الطرز ، ولم يكن طورا جديدا من أطوار الفن .

وهكذا بقيت العمارة اليونانية على نسق واحد الى عصر الرومان ، فلم يدخل عليها ابتكار معمارى جديد ، ولم يظهر عليها حتى ذلك الحين ما يدل على حدوث تقدم كبير ، ولعلها ارتقت من حيث الرشاقة فقط . أما النقوش والزخارف فمما لاشك فيه أنها ازدادت رونقا وجمالا ، ومع ذلك فقد بقى المعبد اليونانى الى القرن الثانى ق.م على ما كان عليه سلفه فى القرن السابع من حيث هندسة البناء .

ولعل عمارة المعابد هى الفرع الوحيد من بين فنون الابتكار الذى لم يظفر من اليونانيين بقسط كبير من التجديد والاقدام اللذين ظفرت بهما سائر الفنون الأخرى ، ذلك أنهم قنعوا بالدرجة العالية التى بلغتها عمارة معابدهم فى عصر قديم ولبثوا عليها عاكفين وبها متمسكين الى آخر عهدهم .

وكان الأمر على نقيض ذلك فى النحت والتصوير ، فان مثالى اليونان لم ينتجوا قبل عام ٦٠٠ ق.م ما يمكن أن يعد من روائع الفن ، وكانت أعمالهم على نمط واحد محرومة من الروح والطرافة ، فحق على تماثيل ذلك العصر المتقدم ما قالوه هم أنفسهم عنها بأنها « لم تتعلم بعد المشى أو الحركة » . ولكن لم يمض بعد سنة ٦٠٠ ق . م أكثر من ٥٠ سنة حتى أخرجت رياض الفن اليونانى بدائع مبتكرة لم يشهد العالم لها مثيلا من قبل .

فمن آثار مثالى هذا العصر الجديد كنز السيفنيين فى دلفى وغادات الأكروبوليس فى أثينا Maidens of Acropolis (أنظر ص ٣٤٣) وتلك التماثيل مفتولة العضلات التى صاغها نحاتو أرجوس وسيكيون ، وكل هذه تنبىء عن عبقرية تجلت عظمتها فجأة ، وتألقت فى سماء الفن ، يرى فيها الفنان لا يعبأ بما يعترضه من الصعاب فى المادة المهيأة بين يديه ولا بالتقاليد بل استطاع تذليلها فعمل ظافرا طليقا من كل قيد ، ونفخ حياة فى الصخر الأصم بعزيمة لا تنثنى أمام مختلف العقبات ، ثم لم تمض ٥٠ سنة أخرى ، حتى

بلغ الفن اليونانى أوج عظمته فازدهر وأثمر ورفع راية الزعامة فى العالم أجمع • وهكذا يتبين لنا أنه فى خلال ١٠٠ سنة أو ١٥٠ سنة على الأكثر ، أدرك فنانو اليونان قمة مجدهم الفنى التى لم ينافسهم فيها منافس مدى الزمان • وهى حقا طفرة باهرة خارقة للعادة ، اذ أنهم بلغوا فى قرن واحد أو أكثر بقليل شأوا لم يبلغه جميع فنانى العصور الوسطى الا بعد انقضاء أربعة قرون على نهضتهم ، وما لم تستطع مصر نفسها أن تخلف مثله فى أربعة آلاف من السنين •

وكان من بعض أسباب هذا النجاح أنهم لم يرجعوا بأبصارهم قط الى الوراء وأنهم لم يكبلوا فنهم بأغلال الدين •

لم يعرف فنانو اليونان قبل سنة ٥٥٠ ق٠م الا القليل عن الفن ، أما فى سنة ٦٠٠ ق٠م فلم يعنوا به قط ، فمثلا لم يعن المثال فيدياس بدراسة تراث الجيل السابق . وقد انتثر حطامه وراء جدران مرسمه الخاص فى الأكروبوليس تطؤه أقدامه غاديا ورائحا كأنه مهاد طريقه • وكان اليونان أنفسهم أودعوا هذه البقعة تراثهم الفنى النفيس حينما تغلب عليهم الفرس وسلطوا على الأكربوليس النار والدمار ، وعلى هذا النحو كانت متاحف القرن السادس فى نظر فنانى القرن الخامس عبثا حقيرا لا يضع مثله الا الاطفال • وبلغ من حقارتها وفقرها فى نظرهم أن الفنان نفسه اضطر لشرحها والتعريف بها الى قوله مثلا « هذه بقرة » ، « هذه امرأة » الخ وبمثل هذه الأساليب ازدرى المتأخرون أسلافهم • الا أن هذا الازدراء نفسه لينبيك عما يدلوه بعدئذ من جهود جسام ، فما نظروا قط الى الوراء بل دواما الى الأمام ! الى الأمام ! •

ولم يعظموا شيئا من ماضيهم الا الأدب ، لأن هذا الماضى لم يكن سوى هوميروس بجلاله قدره • وقد يكون من أقطع الأدلة وأبهرها للأنظار على عظيم عبقرية اليونان أنهم ملكوا ناصية الآداب فى العصر الذى لم يكن لديهم من وسيلة كافية للتعبير عن ثمرات الفكر الا اللغة وحدها • ففى ذلك التاريخ خلدوا معجزتهم الأدبية العظمى •

وفى تلك العصور المظلمة ــ عصور الأساطير والخرافات ــ كانت الشعوب العظيمة لا تزال تحبو حول مهودها فى طريق النمو والبلوغ • فعمدوا الى الأساطير ، كأنها المطارق فصاغوا منها سيوفا صقلية حطموا بها أغلال الأحقاب الغابرة ثم نقشوا على صفاحها حروفا من نور كأنها الجمان نصاعة وبياضا وأرووا بها قلوب البشر دهشة واعجابا وألفوا منها أنشودة لم تزل غضة ناضرة بينما تزدهر العصور ثم تذبل •

الفصل الخامس والثلاثون

الحروف الهجائية

أصولها وأهميتها بالنسبة الى الحضارة

ويشتمل قصة الطرق القديمة الساذجة التى كانت مستعملة فى تدوين الألفاظ بالرموز

كتبها الأستاذ ا . هـ . منس by E.H. MINNS D. Litt. F.B.A.

الدكتور فى الآداب والزميل فى الأكاديمية البريطانية وأستاذ كرسى دزنى للآثار القديمة بجامعة كمبردج ومؤلف كتاب الأسكوذيون واليونان .. الخ .

قد يخيل الينا أن ميزة الانسان المتحضر هى انتشار طريقة موافقة للكتابة بين جماعاته كما أنه يتميز عن الحيوان (الذى لا يسعنا الا أن نسلم بأن له وسيلة ما للتفاهم بين أفراده) باستخدامه النار والآلات ، ثم ان البربرى يتميز عن الهمجى بحيازته الحيوانات المنزلية وبحظ ظاهر ولو بقدر محدود من الفنون النافعة . ولا ريب أن الحضارة تقوم على تراكم تجارب الأجيال السالفة واختراعاتهم واستخدامها فى الحياة . حقا انه قد يتسنى بدون استخدام أية طريقة من طرق التدوين أن تبقى العادات والتقاليد والمهارة العملية جيلا بعد جيل ، ومع ذلك فان خطر فقدانها أو نسيانها يصير بلا ريب عظيما لا حد له ، حتى أن شعبا ذا ملكات طبيعية طيبة مثل شعب الماورى Maoris قد وقف تقدمه بسبب عدم اهتدائه الى تدوين لغته .

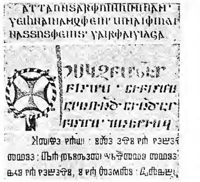
وقد لا تكون الحال أفضل من هذا بكثير اذا كانت طريقة التدوين من الصعوبة أو التعقيد بدرجة تجعلها فى متناول فئة محدودة العدد فتصبح وقفا على مصالح هذه الفئة وحدها لتضمن لنفسها سيادة اقتصادية أو سياسية أو دينية على سائر المواطنين الأميين . وان جماعة لها مثل هذه الكتابة قد تخطو الى الأمام لكنها لا تلبث أن تقف جامدة ، حيث تركن نفوس الفئة المتعلمة الى ما أحرزته من مستوى محدود فى دائرة علمها القليل عن الماضى ، ثم يؤدى بهم تمجيدهم هذا الماضى الى التمسك بالقديم فيفرغ علماؤهم الى التحذلق والتلهى بالمسائل المعقدة التى دانت لهم دون سواهم ، مما يؤدى الى قصر المعارف عليهم وايصاد بابها دون سواهم ، كما أنهم يقاومون كل تبسيط للعلوم مخافة أن يؤدى هذا التبسيط الى شيوعها وعدم احتكارهم لها . وقد لوحظ أن العصور التى خطت شوطا بعيدا فى التقدم هى تلك التى تجردت من كل ما يعوق قدرتها على التعبير عن الكلام برموز سهلة الرسم . وأيسر وسيلة لرسم هذه الرموز هى الطباعة .

ولهذا السبب بدأت طفرة تقدم الحضارة الغربية الحديثة منذ اختراع الطباعة ، أما قبل ذلك فمهما كانت الحروف الهجائية التى استعملها الناس سهلة سلسة الرسم فان الكتابة فى ذاتها كانت مضنية وقاصرة دون أن تؤدى للحضارة خير الخدمات المطلوبة منها ، وأعنى بذلك حفظ المؤلفات ونشرها ، ولذلك كانت المعارف عرضة للتحجر والجمود بسبب الأساليب المتقعرة ، ولما كان يعترى لغة العامة من التحوير والتغيير على مر الدهور . أما « المتعلمون » فالتزموا لغتهم الأدبية التى تخلفت كثيرا وراء لغة العامة حتى كادت تغايرها كل المغايرة ، وفى غالب الأحوال استأثر بالكتابة الكهنة والمشترعون الذين هم بطبيعة وظائفهم محافظون ومتمسكون بالقديم .

وقد حصل هذا الاستئثار قديما فى بلاد الجزيرة ومصر ، وشاع فى العصور الوسطى فى بلاد اليونان وغربى أوربا ، كما حصل فى نطاق ضيق فى البلاد الاسلامية ، لأن الاسلام

الكتابة فى ايدى الكهنة

فى جملته ليس دينا كهنوتيا؛ لكنه حصل فى نطاق أوسع فى بلاد الهند وغيرها من البلاد التى دانت بالبوذية . أما فى بلاد الصين فالفئة المتعلمة بأجمعها كونت طبقة خاصة



بعض الأبجديات التى وضعتها البعوث الدينية (الارساليات) .

استوجبت حاجات الديانات اصلاحات أبجدية فقد صاغ يولفيلاس سنة ٣٥٠ م الأبجدية التى تراها فى القسم العلوى من هذا الرسم مثلا ليشرح بهـا الكتب المقدسة القوطيـة ثم احتذى حذوه ميسروب سنة ٤٠٦ م فى أبجديته للأرمن ، وكذلك ابتكر كوريل فى القرن التاسع الحروف الجلاجولتية للصقالبة

ممتازة لم يكن فى امكان أحد الانتماء اليهـا الا بعد دراسة تستغرق السنين الطوال .

وبلوح لنا أن بلاد اليابان ، وهى من البلاد ذات الكتابة المعقدة ، قد استطاعت ازالة الأمية من غالبية شعبها ، كما أنها أدركت شأوا بعيدا فى سبيل مجاراة العالم الغربى فى مضمار التقدم العام . والمأخذ الشديد الذى يؤخذ على طبقة المتعلمين هو نزوعهم الى مظهر خاص بهم وتمسكهم به فيصبحوا جامدين أو إن شئت فقل متقعرين ، والنتيجة المنطقية لذلك ، هى أن طرق الكتابة تلبث جامدة الى أن تصيب هؤلاء المتقعرين هزة عنيفة ، ويقع هذا عادة عندما تستخدم طريقتهم فى الكتابة فى تدوين لغة ناشئة أخرى .

والظاهر أن طريقة الكتابة المستخدمة حديثا تبقى غضة مرنة قابلة للتعديل والتنقيح فترة من الزمن قصيرة نوعا ، ثم لا تلبث أن تجمد عند ما تتلقاها أيدى المتعلمين فلا ينالها بعدئذ الا القليل غير الملموس من التحوير ، ثم تسير على هذا المنوال جيلا بعد جيل ، وكلما عثرنا فى كافة عصور التاريخ على تغييرات ذات بال أو على استخدام طريقة من طرق الكتابة فى لغة ناشئة أو على تكميل الطريقة الموجودة من قبل أو تبسيطها ، لاحظنا أن جميع هـذه التغيرات هى من عمل الأفراد مثل يولفيلاس Ulfilas الذى ابتدع أبجدية للقوط وميسروب Mesrob الذى ابتدع أبجدية للأرمن والكرج، وكوريل Cyril الذى ابتكر طريقة كتابة الصقالبة المسماة باسمه وتلك الأبجدية الجلاجولتية Glagolitic وقد جعلت فيها الأصوات الصقلبية متشابهة ، ولو أن أشكال الحروف متغيرة ومثل : تأومى T'aumi الذى ابتكر شكلين من الكتابة الهندية ثم وفق بينها وبين لغة بلاد التبت Tibetan ثم باشبا Bashpa الذى وفق وجمع بين حروف التبت وحروف المغل ، وهذه كان لها فعلا حروف هجائية مناسبة خاصة بها ، وأخيرا سيكوايا Sikwaya الذى ابتدع ثبت المقاطع Syllabary لشيروكى Cherokee قبل تلك الحقبة بقرن من الزمان ، فهؤلاء كلهم أفراد كان جل همهم الدعاية لدين جديد .

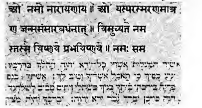
وكان الأمر مثل هذا فى التعديلات التى أدخلت على أبجديات أخرى موجودة من قبل ، فمثلا اتخذت أثينا الأشكال الأيونية من الحروف اليونانية على عهد أرخونية اقليدس Archonship of Eucleides سنة ٤٠٣ ق‌م وتم وضع حروف الكتب الواضحة شكلا السهلة تناولا فى حكم شارل الكبير Charles the Great حوالى سنة ٨٠٠ م وتبسطت الحروف الهجائية الروسية أولا فى حكم بطرس الأكبر حوالى سنة ١٧٠٠ م وأخيرا فى حكم البلاشفة ، وفى كلا الحالين كان التعديل ناحية من حركة اصلاح شامل .

ويقابل ذلك العملية الأخرى التى أطلقت عليها التغيير غير الملموس ، ومعظمه يرجع بالأبجديات الى الوراء . فأول شرط يجب مراعاته فى أية طريقة من طرق الكتابة هو تباين أشكال الحروف بعضها عن بعض ، والشرط الثانى هو أن تكون الطريقة من السلاسة والبساطة ما يتسنى به كتابتها على أيسر حال ، وأخيرا يأتى شرط الجمال ثالثا فى الترتيب مهما كان تقديره ووقعه فى نفوسنا .

وقد أثبت العمل أن السلاسة والجمال وهما متعارضان في الغالب ـ هما أيضا أشد تعارضا مع وضوح الكتابة وتبيانها ٠

أما السرعة فهي عدو الوضوح الألد في جميع الأحوال ٠ وان نحات الحروف على الحجر وهو يقدها بالأزميل ومثله السباك عندما يصب حروف الطباعة لنستعملها أمدا بعيدا ، كلاهما لا تحفزه نفسه الى التسرع الذي ينزع اليه الكاتب دائما ، وغالبا يقع فيه ، بل ان النحات والسباك يدأبان على النسق الذي تلقياه عن أسلافهما ولا يدخلان عليه الا القليل من التعديل لتحقيق عنصري الجمال في الكتابة : عنصر رسم الحروف مفردة وعنصر تناسقها وتراكيبها مع غيرها في السطر الواحد وفي الرقعة كلها ٠ وذلك بعكس الكاتب اليدوي فهو بخط دائما على عجل تقاسيم الحروف بقدر ما يسعفه قلمه ومداده ٠ وتجري التقاسيم السهلة السلسة على بنانه جريا مطردا ، الى أن تصبح حروف الكاتب متشابهة وعلى غرار واحد ٠

ففي الكتابة العربية مثلا ، يلاحظ أن الاثنين والعشرين حرفا التي تخلفت عن الكتابة السامية القديمة ، تشتمل على خمسة عشر شكلا فقط ، فيتخلل الكلمة مثلا : ـبـ ، ـيـ ، ـنـ ؛ ـتـ ـ وهي التي كانت لتتماثل لولا ما ميزوا به بعضها عن بعض من النقط العسير طورا في أعلى الحرف وطورا في أسفله ، وهكذا أحدث الكاتب بكسله عناءجسيما في الطريقه



حروف متماثلة ولكنها عسيرة القراءة

الكتابة السانسكريتية (وهي من أعلى) والكتابة العبرية هما مثلان للكتابة التي ضحت بالسهولة في سبيل الجمال ، وأولاهما أطالت روابط الحروف ، حتى صارت على امتداد واحد خطا مستقيما ، وثانيتهما تمسكت بالأشكال المستطيلة لشدة تشابهها ٠

وبالرغم من ذلك لا يحق لنا أن نسخر منه اذا كتبنا كلمة مثل كلمة Minimum بشيء من التسرع ، وفي عصور الانحطاط في القرن الثالث عشر الذي غلبت عليه نزعة الجمال مال الكاتب الى جعل قسمات الحروف الرأسية متلاصقة هكذا Minimum .

أما في اللغة السانسكريتية Sanscrit فقد أدى حرصهم على تسامت الحروف من أعاليها الى تشابهها ، ففي بعض الحروف كان خط التسامت المذكور في صميم هياكلها ، وفي بعضها الآخر كانت الحروف ترتبط بروابط Scrifs أو شرط تلصق بها لتعطيها صفة التسامت المطلوب ٠ أما الرابطة Serif فهي خط أفقي يعترض القوائم Strokes أو يغلظ في



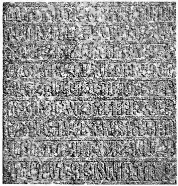
الكتابات التذكيرية والتصويرية العقلية في أقدم أطوارها البدائية

توضح هنا الرسوم طورين من أقدم عصور الكتابة ، (ففي اليسار من الصور) الكويبو أو الخيوط المعقودة ٠ وهي حزمة من الخيوط ذات العقد التي كانوا يستعملونها في بيرو للأحصاء ٠ كما استعملت العصي المحزوزة Tallies (في الوسط من فوق) لغاية سنة ١٨٢٦ في ضبط الحسابات في قصر وستمنستر ، وأكثر من هذه الطرق دلالة على الذكاء حزام الودع (في اليمين) ، الذي تفهم دلالته من كيفية تصفيف الودعات ، ولكن الهنود الحمر الذين استعملوا هذا الخرز ارتقوا الى الطور الثاني (في الأسفل) وهذه جميعها في الواقع كتابة تصويرية ٠

أطرافها على أدق الصور المتقنة من تشكيل الحروف ، كما أن الحروف العبرية تكاد هى الأخرى تكون متماثلة الشكل ، وقد يكون فى الامكان حصر النيف والعشرين محاولة التى تتفاوت فى استقلال بعضها عن بعض والتى قام بها الناس لابتكار طرق التدوين أو التراسل • فالقليل منها ينسب الى أقوام همج لحظوا طرق الشعوب المتحضرة التى توضح الأطوار المختلفة لأكثر طرق التدوين أهمية بقدر ما كان حظ مبتكريها من الالمام بأصول الكتابة بالحروف الأبجدية وافرا أو ضئيلا ، فكان من بينها ثلاث طرق أو أربع يمكن أن نطلق عليها اسم الطريقة التذكرية Mnemonic system وهذه ليست ذات دلالات ذاتية ، ومع ذلك فانها تكفى ذوى الذاكرة والدربة أن يتذكروا الحقائق التى تشير اليها •

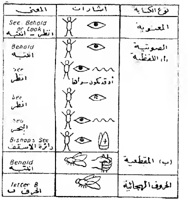
وأحسن مثال لهذا النوع هو طريقة أهل بيرو واسمها كويبو Quippu وهى خيوط Strings انتظمت عقدا أهم ما تساعد فيه هو عمليات العدد والاحصاء • وكانوا يحفظونها فى عهدة أمناء خبيرين بمعانيها •

ويقال ان الصينيين وأهل التبت واليابانيين كانوا يحفظون سجلاتهم مستعينين بالحبال ، وما ربطة المنديل الشائعة الآن الا بقية من عادات تلك الطرق يقصد بها تذكر ما تعيده



الحروف الأرمنية البارزة

الحروف الأرمنية فى النقوش سميكة جدا لدرجة أن الحفار أهون عليه أن يزيل الرقعة من تحتها ، من أن ينقش الحروف نفسها ومثلها النقوش الحيثية فى الأقاليم نفسها •



كيف تنشأ وتنمو طريقة الكتابة

يبين هذا الرسم شرحا قائما على مجرد الافتراض بأمثلة من اللغة الانجليزية للأطوار التى تعترى أية طريقةمن الكتابة فاذا أدركت الطور المقطعى ترتقى منه الى طور الحروف الهجائية •

الى ذهن عاقدها من ظروف الزمان والمكان والمناسبة ، فاذا حسن حظه تواردت الى ذهنه الأمور التى يريد تذكرها فيما بعد ، ومثل العصى المحزوزة Tallies التى تساعد على تذكر الأعداد (انظر عادة قدماء المصريين ص ٢٣) ومثل قطعتى الخشب المحزوزتين بعلامات متشابهة ، وهى التى شاع استعمالها فى كافة الأقطار فيما بين بلاد الصين وانجلترا ليستدلوا بها على حساب النقود بين المتعاملين • وأول ما استعملت هذه الأخشاب المحزوزة كان فى قصر وستمنستر القديم ، وبقيت هذه الأخشاب متراكمة ومحفوظة يرجع اليها فى حسابات الدولة التاريخية الى زمن الحريق الكبير الذى شب منذ مائة عام والذى استلزم اعادة بناء دار البرلمان •

وقد يكون من المفيد ذكر تعريف أو تعريفين، ومع ذلك يجب ملاحظة أن الأطوار المختلفة يتداخل بعضها فى بعض ، حتى لقد يرى الفاحص الرموز التى تنتمى الى طرق مختلفة فى الوثيقة التاريخية الواحدة : —

(١) التذكرية مثل الكويبو (طريقة أهالى بيرو) •

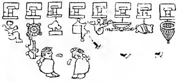
(٢) التصويرية حيث تدون الواقعة برسم يدل عليها بقدر الامكان ويتفرع من هذا النوع الفرع الآتى : —

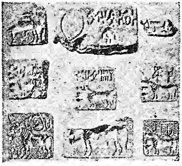
(٣) التصويرية الفعلية ، وان كانت هذه أكثر ملاءمة من التصويرية المجردة ، الا أنها لا توحى بأكثر من الفكرة ولا تنطق بلفظ الكلمة ، فاجتماع صورة « رجل » مع صورة « عين » يوحى بفكرة « النظر » أو « التطلع » أو « الالتفات » ، ومن هذا القبيل أرقامنا ، فانها لا تعتمد على اللغة ، ولذلك نقرأ رقم ٢ « اثنين » أو « الثانى » مع خلو العلامة ذاتها من اللفظ .

(٤) الصوتية وهى على ثلاثة أنواع .

(١) اللفظية — لعل العادة هى التى خصصت صورتى « الرجل » و « العين » فى أوضاعهما المختلفة ، لكل معنى من معانى « النظر » ، و « التطلع » و « الالتفات » . وهذا الطور سهل المنال ، وأكثر الطرق ذيوعا لتمييز الدلالات بعضها عن بعض هى اضافة علامة توحى بالصوت مثل خط متماوج (للبحر وهو بالانجليزية سى Sea) وهى تتفق فى الانجليزية مع لفظ (الرؤية See) ثم بزيادة الاعتماد على فكرة الصوت نهتدى الى أن كثيرا من الكلمات ذات اللفظ المشترك ، يفرق بينها بلفظة ثانية نسمى — العلامة المخصصة — مثلا : لو أن صورة « الرجل » + صورة « العين » يدل مجموعهما على « الرؤية » فتضاف اليها صورة ثالثة مخصصة مثل صورة « الماء » فيتحول المعنى الى sea البحر ؛ وللدلالة على الكرسى الأسقفى see » يضاف الى مجموع













بعض نماذج الكتابات التى ما زالت تتحدى من يحاولون فك رموزها

هذه الرسوم كلها نماذج كتابات ما زالت مفتقرة الى الحل . ولو أن العلماء ألموا الماما لا بأس به بطريقة الأزتك وبعض الشىء بطريقة المايان Mayan

أما النماذج (التى فى اليسار) فأعلاها كتابة المايانية (فى وسط أمريكا) وأسفل منها كتابة من موهنجو دارو (أنظر ص ٤٧٦ المجلد الأول) وفى اليمين نموذج من الكتابة الأزتكية (بالمكسيك) ومن جزيرة ايستر أيلند ومن الكتابة الحبشية (ص ١٧) .

وعلى امتداد الصورة من أسفل بعض الرموز المنقولة عن قرص فيستوس Phaestus Disk (وصورتها ص ٦٣٧ المجلد الأول) وستجد على الصحيفة التالية بعض أشكال الحروف المينيوية .

الثلاث (رجل + عين + قلنسوة) = كرسى القسيس ses .

وجوزت معظم اللغات اضافه أكثر من مقطع واحد الى الكلمة فنتج عن ذلك :

(ب) الكتابة المقطعية ـ وهى التى تقسم فيها الكلمة الى عدة أجزاء ، وهى عادة المقاطع ـ فيرسم كل مقطع بصورة شئ يعطى صوته ، وقد يكون اسم هـذا الشيء فى الأصل كلمة مستقلة • ومثال ذلك أن توضح كلمة « الالتفات » وهى بالانجليزية « Behold » بصورة « Bee النحلة » + « Handholding — يد مقبوضة » وتسمى هذه الطريقة أحيانا « لغز التراكيب Rebus » وتسمى أية مجموعة تحوى جميع المقاطع المعروفة فى لغة ما « ثبت المقاطع ـ Syllabry » فاذا كان كل مقطع ينتهى بحركات Vowels كما هى الحال فى الكتابة اليابانية فالأمر محتمل ، أما اذا كانت المقاطع تنتهى بحروف ساكنة فالأمر يبلغ غاية التعقيد كما هى الحال فى اللغة البابلية •

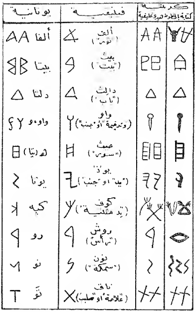
أما الطور الأخير فى الطريقة الصوتية فهو : ـ

(ج) الكتابة بالحروف ، وذلك حينما تقسم الكلمة الى أصغر جزئياتها ويرمز لكل جزئية برمز هو «الحرف»، وهذه الرموز محصورة العدد تتراوح بين ١٦ ، ٥٠ رمزا ، وليست



اللغة اليونانية مكتوبة بطريقة الكتابة المقطعية

الكتابات التى عثر عليها فى قبرص ذات أهمية خاصة من حيث أنها تطبيق للكتابه المقطعية على اللغه اليونانيه • والكتابة التى فى أعلى الرسمين موجودة على صخرة قريبة من بافوس Paphos أما السفلى فقد وجدت على قطعة من البرنز فى ايدالبوم ، ويحتمل أن تكون رموزها مشتقة من المينوية أو من كتابة أناضولية وهى توضح الأصوات اليونانية بشكل غاية فى السخف •



النظرية الكريتية للحروف الهجائية

هذا الفصل يعتمد النظرية المصرية فى نشوء الحروف الهجائية (انظر ٣٨٣) ولكن هذا الجدول يبين أن بعض الرموز المينوية (وفائدتها مجهولة تماما) تشبه اما الحروف الفينيقية أو الأشياء التى نقلت عنها أسماء هذه الحروف (انظر الفصل ٢٦)

مناطق الخرز أو الودع المسماة « وامپم Wampum » التى وضعها الهنود الحمر أرقى كثيرا من عقد الحبل وحز الخشب

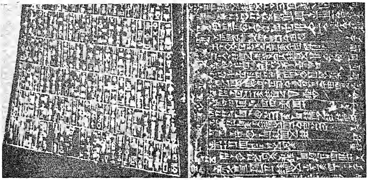
وكانت هذه المناطق تحوى رموزا وصورا تؤولها الذاكرة بحقائق مهمة ، والمثال العلمى التقليدى لهذا النوع هو « منطقة پن Penn » التى تسلمها على أثر عقده المعاهدة مع الايركواز Iroquois ، ولكن الهنود الحمر تقدموا شوطا أبعد مما سبق فى الكتابة بالصور، فاستخدموها فى نقش شواهد القبور وأخبار الرحلات بل فى رسائل الحب التى نطقت بها

الصور نطقا فصيحا . ومما يستحق الذكر أن هؤلاء الهنود الحمر على كثرة لهجاتهم كانت لهم لغة بالحركات يتفاهمون بها ، ويخيل الينا أن الصور التى اشتملت عليها كتاباتهم كثيرا ما حوت أمثال هذه الحركات التى بدونها كان يتعذر التعبير عما حملته لهجاتهم من المعانى ، أما الكتابات المنقشة المنسوبة الى المايا Mayas والتولتيك Toltecs أو الأزتك Aztecs فى أمريكا الوسطى فقد كانت أرقى من الصور السابقة. وقد حلت فيها الهيروغليفية محل الرموز الاصطلاحية ، وبلغت مبلغ ألغاز التراكيب التصويرية Rebus وهى التعبير عن الشىء بصور أشياء يتكون من مجموع ألفاظها الصوت المعبر عن اسم الشىء ، ويخيل الينا أن تلك الكتابة الغامضة المنسوبة الى جزيرة ايستر Easter Island وهى التى مات سكانها الأقدمون وجهل خلفاؤهم جميع أسرارها ، والتى كتبت على ما يظهر بطريقة الدلالات التذكرية ، ستبقى معانيها لغزا لا يحل الى الأبد .

وهذه النتيجة مهمة جدا ، لانها تشعرنا بانه كلما اخترعت طريقة للكتابة بقيت مستخدمة الى أن ننسخها طريقة أيسر منها .

وتوجد كتابات قديمة بالصور لم نهتد بعد الى حل رموزها ، ومع ذلك لم نفقد الأمل فى الوصول الى ضالتنا منها ، ولا يفوتنا أن نشير الى الرموز المنقوشة من الأختام التى عثر عليها فى هارابا Haraeppa وموهينجودارو Mohenjo Daro. على نهر السند (انظر ص ٤٧٦ المجلد الأول) وقد يتضح يوما ما أنها طور بدائى أو شكل يمت الى الكتابة السومرية ، التى سنعالجها فيما بعد ، كما نأمل أن تحل يوما ما رموز الكتابة الحيثية ذات الصور المعنوية ، لا سيما أنها قد أحيطت بنقوش مسمارية أو أبجدية من الممكن كشف غموضها بدون عناء ، وكانت هذه الكتابة تمتاز بأن نقوشها كلها تكاد تكون بارزة ، اللهم الا فى بعض العصور المتأخرة أو بعض الأعمال غير المتقنة التى لم تعد أنها نقوش قليلة البروز تكاد تكون مستوية من نوع الكافور بليفو Cavorclievo ، أو مجرد رسوم محفورة على السطح .

ومما يثير العجب أن هذا الميل الى نقش الحروف البارزة بقى الى العصور الأولى من عصور الكتابة السامية فى اقليم الحيثيين فى شمالى سوريا (مع أن النقش على هذه الطريقة عسير) الا فيما يشبه الكتابة الأرمينية التى



ما أحدثته الألواح الصلصالية فى الكتابة البابلية من تغيير

هذان الأثران وهما مسلة مانستوزا من سوسة Susa (فى اليسار) ثم حجر تعيين الحدود من ماردوك ناديناخ Marduk Nadinacke يوضحان بجلاء التحوير الذى عرا الكتابة البابلية ، ففى أول الأمر كانت الكتابة من أعلى الى أسفل فى شكل أعمدة متتابعة من اليمين الى اليسار لكنها كانت قصيرة الارتفاع ويحبس كل قطاع منها فى مستطيل يسمونه العلبة Box فلما استخدم الصلصال مادة للكتابة ظهر أن شكل الكتابة من أعلى الى أسفل غير ملائم فاستبدلوا به الشكل الثانى .

كانت متداولة أيضا فى المنطقة نفسها وهى ذات الكتابة المجسمة ، وحروفها الغليظة متقاربة الى حد يجعل قطع الحجر تحت الكتابة أهون من قطع الحروف ذاتها ·

وقد تكون هناك صلة بين الكتابة الحيثية وحلقة الصلصال التى عثر عليها فى فيستوس Phaestus فى جزيرة كريت (انظر ص٧٠٢ المجلد الأول) فهذه الحلقة فى كلا وجهيها تحمل اطارا حلزونيا يحوى رسوما تقريبية لأشياء كثيرة . والعجيب فيها أنها ضغطت بألوان غائرة حتى ليخيل الى رائيها أنها صور بارزة مثل الحروف الحيثية ؛ وانها لطريقة تحول دون استخدام عدد لا حصر له من الحروف ، أما أشكال الرءوس المتكررة فى الصورة فعليها سمة اتفق الناس على تسميتها أناضولية ، وقد نعثر على أمثلة أخرى من هذا القبيل فى آسية الصغرى ·

أما الكتابة المينوية فتثير الاستغراب أشد مما تثيره كتابة الحيثيين ، ومعظم ما عثر عليه من آثارها كان فى كنوسوس Cnossus وقد نشأت هذه الكتابة بالطريقة التصويرية ، واستمرت الى العصر المينيوى الوسيط ، وبقيت مستعملة فيه حقبة من الزمن فيما بين سنتى ٢٥٠٠ ــ ١٧٥٠ ق · م تقريبا ، وما زال يعثر عليها فى حالات متفاوتة الوضوح ، ولا سيما ما يوجد منها على أحجار الأختام · وقد خلف هذه الكتابة طريقتان من الكتابة المخططية أولاهما وأقدمهما عهدا هى التى سماها سير أرثر ايفانز طريقة .A.P وكادت تكون مقصورة فى كنوسوس على العصر المينيوى الوسيط الثالث فيما بين سنتى ١٧٥٠ـ١٦٠٠ ق · م تقريبا ، الا أنها بقيت بعد ذلك فى الأنحاء الأخرى من جزيرة كريت · وثانيتهما وتسمى طريقة ب ·B. خلفت الأولى ، وبقيت فيها الى نهاية الحضارة المينوية ، وحفظتها لنا ألواح الصلصال المخدوشة خدشا بمنقاش ، فهى رسوم أقرب الى العبث غير المنظم ، وقد وصلنا الى معرفة الأعداد ومعانى بعض الصور الواضحة ، وهذه الألواح فى الغالب هى ثبت لمحتويات المخازن ، ولكن تقدمنا فى حل رموزها أكثر من هذا الحد متوقف على العثور على وثيقة مزدوجة اللغة ·

فالأمر يتطلب وثيقة مزدوجة مثل وثيقة ايداليوم Idalium التى مكنتنا من حل ثبت المقاطع القبرسية المشتمل على خمسة وخمسين رمزا والتى تنم ولو بدرجة رديئة جدا عن اللغة الفينيقية واليونانية الى القرن الرابع ق·م· ومن الممكن حقيقة أن يكون أصلها متفرعا عن الكتابة اليونانية المحلية والتى بقيت الى جانب اللغتين الكريتية أو كتابة أناضولية أخرى ·

والكشف عن هذه الكتابة الكريتية أوجد تعقيدا فى مشكلة الحروف الهجائية ، أولا ، لأن بعض رموزها الكثيرة متفقة اتفاقا تاما مع بعض الحروف الفينيقية أو اليونانية ، وثانيا لأنه يفسر سبب الزعم الذى زعم الكريتيون أخيرا بأنهم عرفوا الحروف من قديم ، ولم يتلقوها عن الفينيقيين ، ولكن يمكن التوفيق بين هذا وبين القول بأن المتأخرين من اليونان تلقوا حروفهم عن الفينيقيين . فاذا ظهر بعد فك الرموز الكريتية أن هناك أوجه شبه بينها وبين الحروف الهجائية المتأخرة فى الشكل والمعنى فعندئذ يمكننا نبذ الفكرة التقليدية السائعة فى هذا الصدد ·

ويمكن أن يقال هذا القول نفسه عما يزعمونه من أن الرموز التى استعملت فى اقليم البحر المتوسط ، كانت هى الأصل الذى انحدرت منه الحروف الهجائية المتأخرة ·

علامات الملكية

ومما لا ريب فيه أنه قد وجدت على الآنية والأحجار رموز تشبه الحروف فى كافة أرجاء حوض البحر المتوسط ، الا أنه يبدو أن الكثير من هذه الرموز هى مجرد علامات لاثبات حقوق الملكية · ولابد أن تكون الفكرة التى أسفرت عن هذه العلامات قد سبقت اهتداء أصحابها الى الكتابة . كذلك كانت القبائل الرحالة تميز الأنعام التى تملكها بعلامات خاصة بكل منها · كما أن نقود الكوشان ، وهم قبائل غزت الهند الشمالية الغربية وفتحتها ونقود مملكة البوسفور ــ وشعبها مختلط ، شطره يونانى وشطره الآخر سارماتى Sarmatian ــ كانت تحمل علامات غريبة ومثل ذلك العلامات التى كانت تحملها الحراب القوطية.ولكن هذه الرموز جميعها لا تمت الى الكتابة

الصوتية بسبب · فان الكتابة الحرفية تعطى الرموز دلالات أكثر تحديدا،وذلك مثلما نستطيع أن نفهمه عندما نقرأ الحرفين الانجليزيين W.D. على جانبي السهم العريض فنفهم أنهما اختزال لاسم « وزارة الحرب War Department » .

ولا بد من ايراد شيء عن النقوش التي كانت تشبه الحروف الهجائية في غرب أوروبا · وأشدها اثارة للدهشة تلك الألواح الصلصالية والحصى المنقوش الذي عثر عليه سنة ١٩٢٦ في جلوزل Glozel بقرب مدينة فيشي بفرنسا · وهي أشياء وجدت مع أشياء أخرى من الطراز المجدليني أي الحجري القديم المتأخر ، ولكنها موجودة في ظروف تشير الى العصر الحجري الحديث · ولو صحت نسبة هذه الأشياء الى هذه العصور لكان في ذلك الدليل على صحة النقوش والكتابات التي عثر عليها سنة ١٨٩٤ م في ألفاو Alvao في البرتغال · ويمكننا أن نفهم من ذلك أن طبقة صغيرة من القساوسة اخترعت وتعهدت كتابة مقطعية أو حروفا هجائية ، ولكن القبائل الشمالية المعروفة بالايبيريين Iberians والليجوريين Ligurians والكلت عند ما هاجمت غربي أوربا ، قضت أيضا على هذا القدر من الحضارة التي كانوا يشيدون في حبسها عن الناس ، فكان على سكان تلك الأقاليم أن يتعلموا من جديد الحروف الهجائية من الشرق ، وهذا هو رأى الدكتور سالمون ريناخ ، أما من عداه من ثقات الآثار فيسعون قدم هذه الألواح والكتابات بل ينكرون أصالتها وحجيتها انكارا شديدا ·

ثم تبقى ثلاث طرق أخرى للكتابة المعنوية وهي السومرية البابلية أو المسمارية ، وقد بقيت مستعملة الى أن تلاشت قرب العصر المسيحي ، ثم الكتابة الصينية التي تفرعت منها الكورية واليابانية . وأخيرا المصرية التي يخيل الينا أنها من بعض النواحي والفكر كانت مصدرا لحروفنا الحالية ·

وترجع الكتابة السومرية الى ما قبل سنة ٣٢٠٠ ق · م · فقد عثر الأستاذ لانجدون في كش(انظر ص ٥٤٦ المجلد الأول)على لوح حجري من ذلك التاريخ يحتوي على كتابات تصويرية لا تختلف كثيرا عن طور كتابة الهنود الحمر ، وان تطورها مفيد من حيث الجسم ومن حيث العقل اذا صح ذلك التعبير ، اذ أن أقدم هذه الألواح كانت متخذة من الحجر ، وانها لتكشف لنا هي والنقوش القديمة عن مادة أقل ملاءمة لنقوش المنحنيات من مادة الحجر · وقد صفت فيها الرموز في أعمدة رأسية متوالية من اليمين الى اليسار · ولكنها أعمدة قصيرة نوعا حتى لنجدها قد انتظمت صفوفا أفقية من العمد أو (العلب) كما يقولون ممتدة من اليمين الى اليسار · ثم نحا السومريون نحو الميتيويين في اتخاذهم ألواح الصلصال يخدشونها بمنقاش Stylus · غير أنه كان يضايقهم حرصهم على ألا تتلف اليد اليمنى ما تم نقشه عند تحركها لنقش الأعمدة التالية من جهة اليسار ، لذلك أخذت الصور تنحط وتمادت في الانحطاط حتى لم تعد لها ظاهرة الصور ، فغيروا الوضع من رأسي الى أفقي باmالة ٩٠ درجة تجاه اليسار ، وبذلك استبدلوا بالأعمدة الرأسية سطورا أفقية نقشوها من اليسار الى اليمين ، وأصبحت بذلك العلب الفواصل لا لزوم لها ·

ولما مرنوا على استعمال المنقاش بدلا من مجرد الخدش به ، تمكنوا من عمل نقوش أدق من السابقة وفي وقت أسرع مما كان يلزم لهم قبل . وان كانت الصور فقدت تشابهها بالمصورات · واستمرت كتابتهم بنقوش تشبه الأوتاد نحو ٣٠٠٠ سنة ، ومن ثم أطلق عليها الكتابة المسمارية ، وكان من الممكن احداثها بشكل لا بأس به بمنقاش يشبه الأزميل الكليل ، ويظن الأستاذ لانجدون أنه قد عثر على نموذج لهذا المنقاش (انظر ص ٥٤٦ المجلد الأول) ·

ولكن الفحص الدقيق لهذه النقوش يجعلنا نفهم أنهم كانوا يخدشونها غالبا بقلم من الغاب مثلث الشكل مقطوط الطرف ، مستقيمه · ذلك لأنه يشاهد في الشرط الطويلة أثر ألياف الغاب الطولية ، وليس أثر الطرف المقطوط منه ولا ظهره الجلدي المقوس الأملس · ولا غرابة اذا عجزنا نحن عن احداث مثل هذه النقوش بمثل تلك الأدوات لأن الأوربي مثلا ما زال عاجزا عن اتقان استخدام الفرجون الصيني نفسه ·

استخدام الغاب في النقش

أما الناحية العقلية من الخط المسمارى فتكاد تكون مثيرة للأسى الى أبعد حد ، وان كان السومريون بدأوا بداية جميلة • فقد تحولت صورة «النجم» الى أربع شرط يتكون منها ثمانية أشعة (أنصاف أقطار) ثم تحولت هذهالاشعة الى مسامير أو أوتاد Wedge ، وآلت أخيرا الى « مسمارين على امتداد أفقى واحد يقطعهما وتد رأسى واحد » وأصبح معناها بالسومرية "اله السماء « آن An » أو « اله » أو « السماء » وفى اللفظ « آن »•أما الساميون فقد استعملوها « للآله آنو » ثم نقلوها الى « الآله » ونطقوها بلغتهم السامية « أيلو » وعبروا بها عن السماء ونطقوها « سماو » ، لأن المقطع الصوتى « An آن » كما هو فى السومرية . والمقطع « ال il » فى الاستعمال السامى له خمسة معان . الا أن مجموعة الرموز الصوتية السومرية لم تلائم الساميين فقط ، لأنها خلت من التمييز بين د ، ت وبين ج ، ك ، ق g, k, q وبين جميع الحروف الصفيرية مثل س ، ز ، ولكن ثبت مقاطعها أوضح « الحركات » Vowels مستقلة وأوضح « المركبات من هذه الحركات + الحروف Consonants » ثم « المركبات من الحروف + الحركات » وفى بعض الأحيان « الحروف + الحركات + الحروف » فهذه الأداة أى ثبت المقاطع جعلت من المستطاع النطق بالكلمات السامية كاملة ولو بطريقة سمجة اذ أنهم صاغوا مفردات لغتهم من أصول مجردة ومزيدات عليها ، فهى تشبه بعض الشبه اللغة الفنلندية . وتمت محاولة جدية الآن للكشف عن صلة بينها وبين اللغة الكرجية ، فاصولهما المجردة معظمها ذات مقطع واحد ، ثم تضاف عليها مقاطع الزيادة المنوعة ، أما المجردات فأمكنهم فى الجملة بيانها بصور بسيطة أو مركبة ، ثم خطوا خطوة واسعة حينما استحدثوا الزيادات اللاحقة المتجانسة من حيث الصوت مع الأصول المجردة • وبذلك اهتدوا الى طريقة صوتية للاحقات ، ثم تمادوا فى تطبيق هذه القاعدة على الأصول المجردة التى لم يكن لها تعبيرات رمزية ولكنها كانت متوافقة فى الصوت فقط ، لدرجة أنهم استخدموا هذه التوفيقات الصوتية استخداما خاطئا ، فمثلا قالوا « بير Bur » للأذن ، بدلا من « بير Bur » للجرة ، بالرغم من أن لكلتيهما صورتها الخاصة •

ثم طرأ فيما بعد ما أطلقنا عليه الهزة العنيفة التى تبعت الغزو السامى حوالى سنة ٣٠٠ ق•م، ولكن هذه الهزة لم تؤد الى التيسير والتبسيط بل أدت الى التعقيد الذى لا نظير لهالا فى الكتابة اليابانية • بل وأمكنهم التمييز بين الحركة المقصورة Short والأخرى الممدودة Long ولم تفقد الحروف السامية الا ما بينها من فروق تافهة

* وبجمع الثقات الآن على أن الحروف وحدها هى موضع العناية فى اللغة السامية. ولكن الحقيقة فى هذا ـ كما سيتضح لنا فيما بعد ـ هى أنه بينما يمكن التدليل من التاريخ على أن
*
*

ثمة اللغة السامية قامت كلها على الحروف الساكنة وحدها تقريبا، الى أن نشأت فيها رغبة مقصودة فى الترقى ، كانت الحروف الساكنة ، وهى على العموم فى الاصل المجرد الثلاثى (أى الأصل المركب من ثلاثة أحرف ساكنة) بمثابة الهيكل العظمى للكلمات ، والحركات بمثابة الكساء اللحمى ، فاذا قصرنا النظر على الحروف نكون مثل جامع الأصداف الذى يهمل التحرى عن الكائن الحى الذى بنى مادة هيكلها •

فاذا تدبرنا الكلمة العبرية « شلوم Šalām » ومعناها بقى سليما أو آمنا ثم « شاليم Sillēm » ومعناها وفى أو كافأ ثم «شلام Šullēm » ومعناها وُفى « كاملا » ثم « شيليم Šelēm » ومعناها وفاء ، ثم « شالوم Šālom » معناها « السلام » نجد فكرة الاستقرار أو التسليم بمعان متعددة متمشية فيها كلها ، ومع أن هياكلها الحرفية متحدة ، فانه لا غنى لها عن مميز آخر حتى فى نظر العبرى نفسه ليفرق بين « هل وفى الشخص المتكلم عنه » أم « وُفى له ؟ » والاعتياد المطرد آجالا طوالا هو وحده الذى جعلنا نعتقد أن حروف الحركة ليست ذات أهمية كبيرة فى الكتابة السامية • ولذلك وردت كلمة نابو خضر أشور Nabu-Kudur-Usur فى الترجمة السبعينية Septuagint بلفظ نابو خد نصر Nabu-chodonsor وهى أقرب للحركات الأصلية من صورة الكتابة العبرية وهى نابو خذنزر Nebu-chadenzzar .

وعلى ذلك يمكننا القول بأن الحركات في الكتابة المسمارية عنصر له شأنه ، الا أنه يبقى بعد ذلك عقدتان أخريان لأنهم في بعض الأحيان لم يعولوا تعويلا تاما على الطريقة المعنوية وحدها ولا على الطريقة الصوتية وحدها أيضا .

التعقيد في الحروف المسمارية

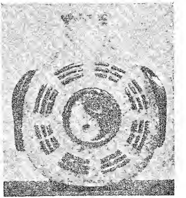
لذلك كتبوا الكلمة مرتين دفعا للبس ، فمثلا كلمة « ماتو Matu » ومعناها الأرض كتبوها أولا بكتابة معنوية بسيطة مـــركبة من ثلاثة مسامير ثم كتبوها مرة أخرى بثلاثة رمـــوز صـــوتية هـــكذا (م ـ آ ـ تـو m-a-tu) فكرروا حرف آ a للدلالة على الحركة الممدودة ثم استخدموا لتحديد معنى الكتابة المعنوية المبهمة مميزات خاصة لكل منها . وهذه المميزات هي (رموز معنوية صامتة أي لا يتلفظ بها) لتفصح عن حقيقة الشيء الذي تصفه أو تعبر عنه الكلمة مثل علامة « الرجل » قبل أسماء الناس . أو الحرف وعلامة الشجرة قبل أسماء الأشجار ، وأنواع الخشب ، والمصنوعات منه . ثم علامة « المكان » قبل أسماء الأقطار والبلاد ثم علامة « السمكة » قبل أنواع السمك وتشاهد أمثال هذه المميزات الصامتة في الكتابة الصـــينية والمصرية . وقد اســتخدمت الكتابة المسمارية بالحـالة التي كانت عليهـا في تحـرير اللغة السياسية في غرب آسيا في القرن الخامس ق.م وقد عثرنا عليها مستخدمة عنـــد الحيثيين والكنعانيين حتى عند المصريين في مراسلاتهم معهم .

وقد اتخذها أيضا العيلاميون Elamites ، وأول ما لوحظ هذا كان في سنة ١٢٠٠ ق.م اذ لوحظ أن الكتابة هناك فيها الكثير المشابه مع البابلية . وفي عهد الأكمينيين Achaemenians من ملوك فارس كان لا يزال نحو خمس كتابتهم مشابها لكتابة بابل . وقد خفض العيلاميون عدد الرموز الى ما ينيف قليلا على المائة رمـز فاستبقوا كثيرا من الرموز المعنوية الواضحة ، ولكن ثبت مقاطعهم كان في جملته صوتيا ، بل أخذت عملية التبسيط في الازدياد حتى ظهر أثرها في الحروف الهجائية (وسنطلق عليها هذه التسمية ابتداء من هذه المرحلة) التي كان الاكمينيون يســتعملونها في محرراتهم الرسمية ، وكانت تحتوي على علامة لتقطيع الكلمة ، وعلى أربع رسوم معنـــوية (الملك ، اليابسة ؛ الأرض ؛ أهورا مازدا) وعلى ٣٦ حرفا منها ثلاثة للحركات Vowels والباقيـــة حروف يتوصل الى النطق بها بالحاق (a) تقديرية بها كما هي الحال في الكتابة الهندية ؛ وقد اشتملت أشكالا خاصة للحروف ك k ، ج g و ت t و د d و ن n و م m عند ما تسبق هذه الحركة حركة الضمة الممدودة (و u) ، وأشكال أخرى للحروف ج g و د d و م m و و w ، عندما تســبق هذه الحــروف الكسرة الممدودة (ي i) ولعل القارىء يتذكر ما لا يختلف عن ذلك في الكتابة الانجليـزية حيث يستعملون q محل c عند ما يسبق هــذا الحرف الضمة الممدودة « u » في حروفهم ، الا أنه لم يعلم على وجه التحقيق كيف اشتقت الفارسية بعض حروفها من الطرق



كتابات أشورية وآرامية

أصبحت الـكتابة المسمارية البابلية دولية ، وما وافى القرن السابع ق.م حتى أخذت الحروف الهجائية تزاحمها ، وفي الرسم نقش بارز أشوري يصور لنا كاتبين أحدهما ملتح ينقش بالمسمارية على لوح من صلصال والثاني آرامي ينقش على ملف من البردي .



الكتابة المثلثة الصفوف من وضع فوهسي Fuhsi

هذه صورة زجاجية سعوط صينية يشاهد على وجهها ثلاث دوائر متوازية ، قسمت ونسقت أقواسا . ثلاثا ثلاثا يقال ان الذى ابتكرها هو فوهسي Fuhsi حوالى سنة ٣٠٠٠ ق٠م وكل من هذه التنسيقات مجموعة من ثلاثة أسطر متصلة أو منقطة والغالب انها سحريات (حفريات) من نوع ما ٠

المسمارية ، وقد يكون ذلك مما استحدثه دارا Darius

ولعل الحروف الفارسية هي مجرد صياغة حروف ما زالت مجهولة لنا في صورة الحروف المسمارية (باعتبار هذه الكتابة النفيسة هي الوحيدة المعروفة للملوك في ذلك الحين) ، وحركة (al) الملازمة لاواخر الحروف الفارسية تذكرنا بطريقة الهنود ، ولعل هناك ارتباطا بينهما ، ولكن كتابة الامبراطورية الفارسية كانت في جملتها ــ اللهم الا في النقوش على الآثار ــ من نوع الكتابة الآرامية الكثيرة الانتشار والتي كانت مستعملة بجانب المسمارية في اللغة الأشورية ٠ تأمل الرسم البارز المنقولة صورته في ذيل العمود الثاني من الصفحة السابقة والذى يشاهد فيه كاتبان يسجلان الغنائم وقتلى الأعداء ، أما أحدهما فملتح قابض على المنقاش يخط به على لوح الصلصال ، والثاني رجل أمرد، ولعله من الخصيان يكتب بالقلم على رق من الجلد أو البردى ، أما تركيب الكتابة المعنوية فلعل أفضل ما يوضحه لنا ما نجده في الكتابة الصينية ، وذلك لأنها أولا ما زالت حية ومستعملة ، وأنها أكثر أشكال الكتابة شيوعا بعد الكتابة اللاتينية والعربية ، ثم تأتي من بعدها الكتابة الروسية ، وثانيا لأننا نعرف على وجه التحقيق رأى الشعوب التي تستخدمها في قيمتها وفي أصلها ٠

وقد كان فوهسي Fu-hsi أول من حكم بلقب ملك فرسم الكتابة المثلثة الصفوف وعقد الحبل لكي يتسنى له حكم جميع الأمم الواقعة في داخل البحار ، وهذا ما نبينه من الرسم البارز الذى عثر عليه في لوح من ألواح هان ذات النقوش البارزة ٠

وعاش فوهسي هذا حوالى ٣٠٠٠ ق٠م ، كما تدل على ذلك العقد التي تكلمنا عليها ٠ وكذلك ثمانية التنسيقات المثلثة الصفوف ، وهي رسوم غريبة يتكون كل قسم منها من ثلاثة شرط متجنبة يختلف بعضها عن بعض حسبما تكون متصلة أو مقطعة في الوسط ٠ وما زلنا نرى ما يشبهها على الأدوات الصينية . أما القسم ذو الشرط الثلاث غير المقطعة فيدل على السماء وعلى الكمال ، وأما القسم ذو الشرط المثلثة المقطعة فيدل على الارض وعلى النقص ، وتتراوح التنسيقات الأخرى بين هاتين الدرجتين٠ وانها لطريقة طريفة حقا من حيث أنها تبرز الأفكار في خطوط مجردة وليست بالصور ٠ وتتمثل الكلمة في هذه الرسوم ، ويقال لها « كوا Kua على الأصل المجرد Radical (انظر ص ٣٧٧) وهو يدل على التكهن ، وقد ترجع مثلا الى محاولات أحد الكهنة ٠

وقد شغلت العرافة منزلة في طور من أطوار الكتابة ، فيخيل الينا مثلا أن الكتابة الرونية Runes (أى التيوتونية القديمة) فيها شيء من هذه الطلاسم ، كما عنيت بالعرافة أيضا علوم أرض الجزيرة ، وأخيرا وجد في مخلفات فنون العرافين في بلاد الصين أقدم ما عثر عليه من آثار الكتابة ، كما كشفت قطع من العظام في أقليم هونان Honan بقرب عاصمة أسرة « ين Yin » انظر ص ٤٧١ المجلد الأول) فكان بعضها يحوى تاريخ تسلسل الأسرة وفيها أسماء ملوك من هذه الأسرة حكموا فيما بين ١٧٦٦ ــ ١١٢ ق٠م وهي في الغالب سجل لتكهنات عملت بطريقة مس عظام الترقوة بحديدة محماة ، وملاحظة التشققات التي تترتب

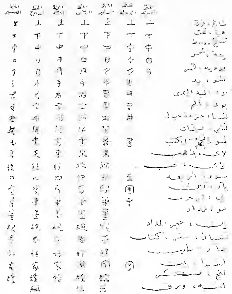
على ذلك ، وقد أعدت هذه السجلات لارشاد العرافين فى محاولتهم التنبؤ بالمستقبل ، وانها لشديدة الشبه بنماذج الأكباد التى خلفها كهنة الأشوريين مقترنة بمجموعة من الأسئلة وأجوبتها لكى يرجع اليها خلفاؤهم فيما بعد ، أما أشكال الحروف فتشبه كثيرا تلك المنقوشة على أقدم قطع البرونز الصينية ·ويشهد فن الحفر لهذه النقوش بمهارة اعتيدت والفت حتى جرت مجرى الكتابة ، ويقال انهم كانوا يعملون بالخدش بآله محدده على الخشب أو الخيزران ·

أما الطور التالى لهذا فيلوح لنا أنه كان طور الكتابة بقصبة من الخيزران مغموسة فى مداد سميك · والراجح أن هذا الطور هو الذى تولدت منه الحروف الذنيبية ، فكانت حروفا منفصلة يتكون الواحد منها من نواة سميكة من المداد يخرج منها الذنب الى الطرف الثانى ، واذا رسمنا بعض حروفنا

الحروف التى تشبه ذنيبات الضفادع

العادية على هذه الطريقة ، ولتكن كلمة ابن (Son) مثلا لتكون منها ذنيبات عجيبة ، ويقال ان أقدم أشكال النقوش البرونزية اخترعت فى عهد الامبراطور الأصفر حوالى سنة ٢٦٠٠ ق م والذى اخترعها هو تساج تشيه جيه Ts-ang Ch-ich ثم حسنها تشيه تشو Shih Chou حوالى ٨٠٠ ق م · والظاهر أن مهمة هذا الأخير كانت انشاء حروف جديدة أكثر مما كانت تحسينا للحروف القديمة ·

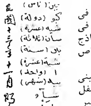
وكتابة الصين القديمة (وتجد نماذجها فى الجدول المرافق) كانت تسمى « تشوان Chuan » ويترجمون هذا الاسم عادة « بالختم Seal » ولكن معناها الحقيقى « الكتابة المسيرة Led » لأن الأسطر كانت فى الغالب تسير تسييرا بطيئا على وجه خشب الخيزران ولم تكن لتحدث خدشا كما كانوا يفعلون فى العصور المتقدمة ، أو ترسم رسما واضحا مثلما كانوا يفعلون فى العصور المتأخرة · وما زالت مستعملة كثيرا فى عصرنا الحالى ،



مختارات من الحروف الصينية

هذه الأشكال السبعة المتعاقبة فى تاريخ الكتابة الصينية مشروحة فى هذا الفصل وكذلك بعض النماذج المعينة التى أختيرت لايضاح خواص طريقة كتابتهم ·

ويجب ملاحظة امضاء الرسام الصينى الذى أعد هذا الجدول ، فى أسفل الكلام وتاريخ اعداده (نوفمبر سنة ١٩٤٥) وذلك بطريقة كتابتهم واعدادهم الخاصة ·



وذلك حينما نستعمل الحروف السوداء السميكة Black Letter Type ، فى كتابات الزينة مثل ختم الدولة Great Seal ، كما يساعد أحيانا بعض التمسك بالأشكال القديمة فيما يعرف بالختم الأصغر Lesser seal .

وقد تلا ذلك خطوة استخدام الفرجون ، ولعل الأصل فى اختراعها هو دق قصبة من خشب الخيزران حتى تنسل ألياف طرفها ، وربما كان بلوغها هذا الطور على يد منج تيان Mêng Tien المتوفى سنة ٢٠٩ ق·م ·

ثم استخدمت الفرجون فى الكتابة على الحرير تلك المادة التى كانت غالية الثمن ، وعلى

الخيزران كما ثبت من كشف « أورل شتين Aurel Stein » ، وتسمى الكتابة على هذه الأدوات « لى شو Li shu » وهي تكاد تكون مثل الكتابة الصينية العادية ، وجوهر طريقتها استخدام الفرجون والمداد الفحمي على رقعة شديدة الامتصاص ، وتصلح الفرجون من الوجهة النظرية لكتابة جميع الخطوط ، ولكن استخدامها ، ولا سيما على رقعة شديدة الامتصاص ، يبين أنها تلائم رسم الشرط السريعة المتقطعة ، وتنبو عن رسم المنحنيات الكاملة اللهم الا المقعر قليلا منها ، وبعض صور النبات أو المستانك ، فضلا عن أن هذه الشرط تأخذ فى الغالب الشكل المسمارى . ثم جاء فيما بعد تساى لون Ts'ai Lun سنة ١٠٥ م فتقدم الى الامبراطور باختراع مؤداه امكان صناعة مادة يكتب عليها من جميع الألياف البالية . فكان هذا هو « الورق أو الكاغد » وأطلقوا عليه بلغتهم « تشيه Chih » . بعد ما كانوا يستعملون نوعا من الحرير الخشن . ولم يترتب على اختراع المادة الجديدة تغير كبير ، ذلك لأنه يظهر لنا أن حروف طريقة تساى شو Ch'iai shu الموضوعة سنة ٣٥٠ ق.م والتى ما زالت مستعملة فى المطبوعات الصينية ليست بالمختلفة كثيرا عن الطريقة السالفة المسماة لى شو Li shu ، فهى تعتمد على فرجون تجر الى أسفل منحرفة وأفقية ، أما الشرط الصاعدة الى فوق فلا تعدو أنها نبرات أو شارات خفيفة ، وعلى ذلك كان الحرف المركب يتركب من جملة شرط منفصلة بعضها عن بعض ، فلما مرنت الأيدى على استخدام الفرجون تعلم الكتبة أن يصعدوا بالفرجون الى فوق مع الانحراف لليسار ، وتمكنوا بذلك من اتمام رسم الحرف دون أن يضطروا الى رفع الفرجون فى أجزاء الحرف الواحد .

وقد أدى ذلك كما هو ظاهر لنا الى انحطاط كبير فى أشكال الحروف حيث اختلطت فيها الشرط الأصلية بشرط الارتباط ، فأصبحت ألغازا لا يستطيع أن يحلها من الأوربيين الا القليل وهي التى يسمونها تساو شو Ts'ao shu أو الحروف العشبية . و بما أن هذه الطريقة تتطلب فى الواقع مهارة وتدليلا كاملا للفرجون أكثر مما تتطلبه الطريقة المعتادة ، كانت العشبية الواضحة أرفع منزلة من الطريقة المعتادة مهما اعتنى بها . وقد حصل مثل هذا التطور فى الكتابة الغربية الحديثة . ذلك لأن كتبة المخطوطات فى العصور الوسطى قلما اعترفوا بامكان تحريك القلم من أسفل الى أعلى ، ولا من اليمين الى اليسار . فلما أجيز ذلك فيما بعد نشأت الكتابة الجارية السلسلة ، ثم تحسنت وشاعت حتى لم يعد أحد اليوم يفكر فى خط اللوح النحاسى المزخرف .

وحسبنا هذا عن آلية الكتابة الصينية ، أما عن تقدمها من الناحية الأدبية فهناك تشابه مدهش بينها وبين الكتابة المسمارية وبينها وبين الكتابة المصرية أيضا ، كما سيتضح ذلك فيما بعد . ذلك لأنها بدأت بطبيعة الحال

ترقى الكتابة الصينية

بشكل صور ، بالخط الصاعد لفوق (شانج Shang) رقم ١ فى الجدول المرسوم على ص ٣٧٦ » ثم « بالخط النازل لتحت (هسيا Hesia) رقم ٢ من الجدول نفسه » ثم « بالخط المتوسط أو المائل (شنج Chung) رقم ٣ » ـ ثم بالكتابة بالصور مثل « الشمس (جيه Jih) رقم ٤ » و « القمر (يوه Yüeh) رقم ٥ » و « اليد شو Shou رقم ٦ » و « اليد اليمنى (يو Yu) رقم ٧ » .

وعلى هذا النحو سيصبح رسم « حصان أو عصفور » من السهولة بمكان، ثم يساعد المطالع حالات مركبة مثل « يو Yu رقم ٨ » صورة فرجون أو قصبة للكتابة ، فهى تمثل يدا تقبض على الفرجون لتكتب به . ومثل « الوثيقة تس ts'é رقم ٩ » وهى حزمة من الخيزران ، ثم تأتى بعد ذلك تراكيب توضيحية مثل « العقد Contract تشى Ch'i رقم ١٠ » وهى عصا معقدة أو محززة بسكين مثل « الأرقام الحسبية Tally » ثم « هو Ho ـ الأسود تتمثل فى نار متصاعدة من مدخنة رقم ١٧ » وقد يكون التركيب تخيليا مثل « مينج Ming (شمس + قمر) وتمثل صفة اللامع » ومثل الزهو الساخر يسمونه « تشياو Chiao » وتمثله امرأتان تصوران الدس أو التآمر ، وكثيرا ما يمثل العاطفة برمز « هآو Hao » رقم ٢٠ (زوجة + طفل) الذى يمثل صفة الطيب ثم كلمة « آن An وهى المرأة تحت سقف ، وتمثل

السلام » ثم نشبا Chia رقم ٢١ وهى صـــورة سقف تحته خنزير وتمثل البيت » . وليس فى امكاننـا مواصلة هذا التتبع ، ثم تلا هـذا الطور طور استعمال ألفاظ التورية مثلا « لاى Lai » ومعناها عندهم « يحصر » أو « الحنطة » فكانوا يعبرون عن الثانية فى أول الأمر بنبات ذى كأس شوكية مثل سنبلة الحنطة رقم ١٢ ، ثم تحول استعمال هذا التعبير من الحنطة الى الحضور . أما الحنطة فقد عبروا عنها باضافة صورة أخرى من نبات الحبوب الى رقم ١٣ ، وهذه الاضافة التوضيحية التى اعتاد الانجليز أن يسموها « الاساس Radical » والفرنسيون « المفتاح Une Clef » تيسر صياغة ألفاظ التورية هـذه (وهى فى الغالب توريات غير دقيقة) دون أن يخطئوا فى فهمها ، وهـــذه المفاتيح المضافة للتوضيح تقابل علامات التعيين أو التمييز فى الكتابة المســـمارية والمصرية Determinatives . غير أن هذه الاضافات لها فى الصينية فائدة أخرى من حيث أن المفردات فى قاموس لغتهم مرتبة من ٢١٤ من هــــذه الأسس أو المفاتيح .

ولكن بعض هذه المفاتيح فى اللغة الصينية مركبات بلا ريب كما هو ظاهر من الجدول ، وبعضها الآخر اتخذ مفتاحا اتخاذا تعسفيا ، وهو فى الحقيقة عنصر واحد فى مركب معنوى . فمثلا « مينج Ming » أى اللمعان وهى المركبة من فكرتين متساويتين وهما « الشـــمس + القمر » نجدها موضوعة تحت مفتاح «الشمس» بينما كلمــة « الوســط » + « تشنج Chung» رقم ٣ وهو رسم بديهى يوضع تحت مفتـاح الخط العمودى .

وقد يكون الحرف المنتخب لتصوير الصوت مركبا أيضا فمثلا « لنج Ling » رقم ٢٢ = مسكر ، حزؤه الأيمن من فوق هو « يو Yu = المطر المعبر عنه بصورة السماء يسقط منهـا شىء ثم ثلاثة المربعات أسفل منها تحدد معنى قطرات المطر » . فاذا أضيف أسفل من هــذا لفظ « وو Wu = يسحر » فنحصل من جملة هذا المركب على كلمة « لنج Ling = طيف روح » ، فاذا أضيف الى يسار هذا المركب مفتاح كلمة « النبيذ » وهو « ابريق النبيذ » نحصل على كلمة « لنج = المسكر » ويـلزم ثلاثون شرطة للتعبير عنها . و « سوپاّو Ssŭ pao » ومعنـاها أربعة الـكنوز اللازمة للـكتابة تتركب من « سو Ssŭ » (١٤) وهو رسم قديم يدل عـــلى ١٤ + پاّوو رقم ١٥ = النفيس ومجموعها يساوى « اليشم Jade » والقدر Pot والقسرة ، مجمعة كلها تحت « سقف » .

أما الكنوز فهى « پى Pi» رقم ١٦ = فرجون فى صورة قطعة خيزران نمسكها بد ثم « تشيه Chih » ورق ، وهو المادة الحــريرية (الحرير Mi وهو شرنقة تتدلى منها خيوط) والجزء الثانى من الرسم . وهو فى الأصل نبات نام أو مادة فى اللفـظ ، شـــيه shih » لبيـــان الصوت ، ثم « مو Mo » رقم ١٧ = المـــداد المصنوع من الأســـود كما سبق وضـــعه + الأرض ثم « ين Yen » رقم ١٨ = لوح المداد وتتركب الأخيرة من حجـــر فى اليسار زائد كلمة كين Kien = ينظر ، لكى نعطى صوت « ين » وهى مكونة من صورة عين فوق ساقين وهو صوت غير مضبوط مطلقا ، ومـــع ذلك يمكنك أن تلاحظ مبالغتهم فى تقديس الكتابة من تعبيرهم عن الأقلام والمداد والورق ، بأنها « الكنوز » .

ويقول الصينيون ان هناك ست طرق للتعبير عن المعانى بالكتابة ، ولكنهم لم يجمعوا عـلى تعيين هذه الطرق الست ، بل يشيرون اشارة مجمله الى خمس الطرق السالفة الذكر وهى : الـكتابة بالصور ، وبالرســوم ، وبالمركبــات وبكلمات التورية ، وبهذه التورية مقـــترنة بالأساس المخصص لمعنى واحد من معانيهـــا المشتركة . ويلوح لنا أن الطـرق الست هى هذه الخمس مضافا اليها مجموعة من الـكتابة بالصور المقلوبة : مثلا صورة « رجل طريح » كناية عن « جثة » وذلك للتعبير عن دلالات عكسية .

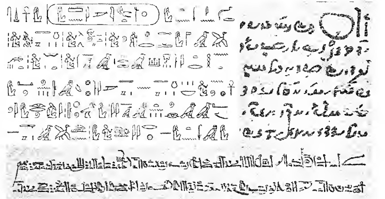
ولم يطرأ تبسيط ما على الكتابة الصينية التى كانت تتركب من كلمات ذات مقطع واحد ، وكانت كل كلمة من هذه الكلمات فردية المقاطع لا تقبل بحال أن يزاد عليه مقطع آخر ، لا فى آخرها ولا فى أولها ، وذلك لأنه لم يكن فى الوسع الا احداث مئين قليلة من مفرداتها .. أما فى الـكتابة اليكينية حيث أسقطت جميع حروف المبانى من أواخر الكلمات ، اللهم الا الحروف الشماء منها فيوجد ٤٢٠ مقطع فقط ،

ومع أنها تختلف عن بعضها البعض فى نبراتها فان الاحدى والسين كلمة الملفوظة بصوت « i إ » يلحظ فيها غموض كبير . لذلك سرعان ما كانت الكتابة الصينية تطفر من بصر القارىء الى ذهنه ، واذا قرأنا بصوت عال نصا من نصوص لغتهم القديمة لظهرت استحالة ادراك معناها .

أما فى الكلام فيتوصلون الى ازالة اللبس فى بعض الكلمات المتشابهة لفظا مع اختلافها معنى

التى تأبى قبول متممات لها من اللغة الدارجة لن يكفى لاظهارها مجرد وضع الاصوات والحركات .

ولقد أسهبنا فى الكلام على الكتابة الصينية لأنها ما زالت وسوف تبقى ، على ما يلوح لنا ، طريقة الكتابة عند جانب عظيم من الجنس البشرى . وانها لمثل طيب لبيان الاثر النافع للكتابة على اية صورة كانت ، ولبيان الاثر الردىء للطريقة الشديدة التعقيد .



ثلاث طرق استخدمها المصريون فى كتاباتهم

احتاز الخط المصرى القديم ثلاثة أشكال فالهيروغليفى (فى اليسار من فوق) مركب من صور واضحة الدلالة على الاشياء المرسومة ، وبقيت هذه الكتابة رسمية مقدسة الى آخر عصورهم ، ثم الهيراطى وهو خطوط سهلة الرسم عمليا ،عثر عليها فى ورق البردى من أزمنة ترجع الى عصر المملكة القديمة ، والهيروغليفى المرسوم(فوقه من جهة اليسار) ويقرأ هنا من اليمين الى اليسار يطابق فى معناه تمام المطابقة الهيراطى المبين فى السطرين الأسفلين . ووجه الشبه بينهما ظاهر أيضا . ثم فى حوالى سنة ٧٠٠ق٠م كتبوا بالديموطيقية وتجد مثالا منها فى يمين الرسم وقد فقد هذا النوع كل مشابهة بأصله الهيروغليفى ولكنه لم يلبث حتى أصبح هو الخط الدارج السائع .

بازدواج بعض هذه الكلمات على نحو ما يميزون به الكلمات الانجليزية المتحدة الهجئة من الصينية والانجليزية حيث يقولون قبلا عن كلمة see (النظر) « Look-see » ،ليفرقوا بينها وبين الكلمة المشاركة لها لفظا وهى sea (البحر) .

وانا لنسمع الآن عن اصلاح حديث فى الكتابة الصينية ، ولكننى لم أتبين حقيقة هذا الاصلاح ولا طريقته ، وأستطيع أن أتصور امكان احداث تبسيط كثير بتخصيص رمز بسيط لكل صوت خاص مع اضافة علامات دقيقة لتعيين المعانى ، ومع ذلك فالكتابة القديمة

سرت الكتابة الصينية الى الشعوب المجاورة لبلاد الصين ، فاتخذها البعض بقضها وقضيضها ، أى لغة وكتابة ، كما اتخذت بعض الشعوب الغربية اللغة اللاتينية ، واتخذها البعض أداة للكتابة فقط فكتبوا لغتهم الخاصة بحروف مشتقة من الحروف الصينية

كيف يستعمل اليابانيون الكتابة الصينية

مثل التانجوت واللولو Tangut & Lolo أما اليابانيون فقد وقعوا فى تخليط عظيم حيث تراهم يكتبون بالحروف الصينية ولكنهم يلفظونها بطريقة خاصة بهم ، ويكتبون الرموز

المعنوية الصينية ويلفظونها بثلاث لهجات صينية مختلفة ، وينقلون الرمز المعنوى الصينى ويقرءونه باللفظ اليابانى المؤدى لمعناه فى لغتهم ·

وعندهم ثبتان للمقاطع أحدهما يحوى ما ينيف على مائة المقطع ، ويحوى الثانى نحو الخمسين رمزا ، اشتقت كلها من صور صينية منقولة عن أطوار التبسيط المتوالية ويستعملونها أحيانا للنطق بكلمات كاملة وأحيانا للنطق باللواحق المزيدة فى أواخر الكلمات المعنوية لتحديد معانيها · فمثلا رمز اللمعان الذى هو بالصينية « مينج Ming » يمكن أن يقرأ « مى Mei » أو « ميو Mio » أو « مين Min » وهذه لهجات مختلفة فى بلاد الصين ·

ثم الألفاظ اليابانية « ايك Ake » « أكيراكا ــ Akiraka » ، « أكاروى Akarui » « أكيرو Akeru » وجميعها معناها « الوضوح أو الفتح أو الفجر » فنرى الأمر هنا أشد حرجا منه فى البابلية فى عصرها المتأخر ، فلا غرابة حينئذ فيما نسمعه من أن هناك مشاريع جدية لاستبدال الكتابة اللاتينية باليابانية ·

أما فى كوريا فالمثقفون يستعملون اللغة الصينية ، غير أن لديهم حروفا هجائية بديعة مجهولة الأصل ، لكنها فى نظرهم ليست جديرة بالاحترام ، وعملهم هذا يشبه تمام المشابهة ما كان بين الكتابة المسمارية والحروف الهجائية فى غرب آسية فى عصر العمارنة ·

لقدسبق القول بأن طفرات التقدم والتحسين فى طرق الكتابة تجىء وليدة ما أسميناه بالهزات العنيفة ، ونعنى بذلك انتقال طريقة ما من طرق الكتابة الى لغة غير لغة أهلها ومغايرة لطبيعتها ، وأفضل النتائج التى أثبتناها من قبل كانت قاصرة على تدوين ثبت المقاطع : البابلية ، والعيلامية · واليابانية · وكانت هذه الكتابات لا تزال تنوء تحت ثقل الرموز المعنوية ، وكذلك القبرسية التى هى لغة

الهزة التى أحدثت الحروف الهجائية

مقطعية محضة · بل ربما تكون الحروف الهجائية (الأكمينية) وهى التى نشأت فى بلاد عرفت من قبل أبجدية صميمة قد تأثرت بطريقة الرموز ، وقد لا تكون مدينة للكتابة المسمارية الا فى شكل شرطها · وفى جميع الأحوال يعتمد التأثير الحقيقى لهزة من الهزات على طابع كلتا اللغتين الأصلية المنقولة عنها والأخرى المنقول اليها ، وقد كان من الضرورى للوصول الى الحروف الهجائية صحيحة ذات دلالات على الحركات حصول هزتين متعاقبتين ،

وكان لابد أن تتصف ثلاث اللغات التى تحدثنا عنها بخصائص لا تتصف بها غيرها ، ويمكننا أن نسمى مجموعة اللغات الثلاث (المصرية ، والسامية والهندو أوربية باللغات التراثية حسب الاصطلاح القديم ، فقد أخذت السامية عن الكتابة السومرية ذات الرموز المتصفة فآلت الى ثبت المقاطع ·

ولم يكن فى وسعها أن تؤول الى حروف هجائية خالية من حروف الحركة الا بوساطة · أما اليونان الذين أخذوا كتابتهم عن كتابة أخرى لعلها تصويرية معنوية فانهم لم يعدوا طور ثبت المقاطع القبرسى ·

ولما كانوا قد أخذوا عن أبجدية خالية من حروف الحركة عملوا على سد هذا النقص ، وبذلك قاموا بالخطوة الحاسمة فى تكوين أبجديتهم ، وهكذا فعل الهنود ·

وانى أفترض هنا مؤقتا أن اليونان قد أخذوا حروفهم عن الفينيقيين وأن الفينيقيين أخذوا عن المصريين ، وسنبين فيما يلى رجحان هذا الفرض ·

يجب علينا قبل كل شىء أن نمعن التفكير فى لغة المصريين وكتابتهم . أما خاصيتها ــ التى تشاركها فيها اللغة السامية ــ فهى أن الافكار العامة كانت تبرز فى حروف المبانى ، بينما كانوا يبرزون الاستعمالات المتفرعة منها بحروف الحركات ، وكان الأصل المجرد (Root) كما أسميناه فى اللغة السامية يتركب من ثلاثة من حروف المبانى ثم على مر الزمن أضمحلت النغمات الصوتية فآلت كثير من الأصول المجردة الثلاثية الى حرفين فقط من حروف المبانى بل اقتصر بعضها أخيرا على حرف واحد ·

ولنفترض أمثلة من اللغة الانجليزية لتبيان أثر هذا التطور فى كتابة تصويرية معنوية · فلنفرض أن كلمة « الأخ Brother » مثلت فى صورة معينة ثم للدلالة على الجمع أى الأخوة Brethren أضيفت على الصورة المذكورة علامة معينة تدل على الجمع فمفهوم ذلك أن الصورة

المجردة لا تدل على حروف المباني فى أصل المادة B—r—th—r فهنا يحار الذهن فى فهم حرف الحركة حتى يعرف أتتبعها العلامة الدالة على الجمع أم لا • وعلى هذا النحو ما يحصل فى كتابة امرأة ونساء (جم امرأة) Woman & Women وليس عبثا أن نكتب المجرد لاسم القدم « Ft » ثم نعيبه مفردا أو جمعا Foot أو Feet وفقا للعدد المتقدم على المجرد الأصلى • وهكذا كانت الصورة المعنوية فى المصرية القديمة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالأصل المجرد ، أو الهيكل اللفظى للكلمةالمركبة من حروف المبانى ، ثم تأتى حروف الحركة بمثابة اللحم والكساء لهذا الهيكل ، بحسب مرامى القرائن أو اللواحق • وعلى هذا آلت المصرية القديمة فى صورها المعنوية الى استخدام العلامات قبل مجموعات حروف المبانى الصالحة للتكييف الصوتى •

وهذه المجموعات تتركب من ثلاثة حروف مبان أو اثنين ، والمهم فى هذا أن منها ما كان من حرف بناء واحد • وقد سبق القول فى الكلام على الكتابة الصيسية أن كلمة « ينظر See » يصورونها بعين فوق ساقين ، ولكن هذا التركيب نفسه يدل أيضا على الفعل الماضى « نظر Saw » وليس بينهما مشترك مؤكد فى الانجليزية الا حرف « س s » •

وقد أوضح سيذ Sethe هذه الحقيقة وبين أنه بسبب هذه الخاصية فى اللغة المصرية تقدموا بسهولة الى أن أحرزوا فى تراث كتاباتهم رموزا لجميع حروف المبانى وبتمادیهم فى ملاشاة النغمات الصوتية كثرت الكلمات التى تحولت فآلت الى صورة الحرف الواحد Unilateral ولما كنا قد ألفنا وجود أبجديات فى كثير من اللغات فقد سمينا هذه العلامات المصرية حروف مبان ، واعتدنا القول بوجود أبجدية مصرية ، الا أن هذا القول فى الواقع سابق لأوانه ، والحقيقة أن ما فعله المصريون ـ وكان ذلك حوالى سنة ٣٥٠٠ ق•م ـ هو أنهم أولا اجتازوا طور الصور المعنوية المحضة ثم شرعوا يستخدمون العملية المعتادة ، وهى استعمال التوريات Puns للدلالة على الأفكار الغريبة أو الصعبة ، أو بالحاق علامات التعيين على الكلمات المتعددة المعانى لاظهار معنى من معانيها المشتركة (وهى العلامات المسماة بالمتممات الصوتية phonetic complement) لتكييف نطق كل كلمة بحسب المعنى المقصود أداؤه •

ثم جاء طور آخر وهو أنه اذا اتحدت كلمتان فى النطق ، عبر عن لفظهما برموز لا تمت بسبب الى المعنى المقصود ، ثم أصبحت علامة التحديد لتعيين معنى كل منهما كما كان يحدث فى الأصول المجردة فى اللغتين السومرية والصينيةعندما تضاف اليها العلامات الصوتية • ولم تتقدم اللغة المصرية القديمة عن التعقيد الناشىء من الصور المعنوية والعلامات الصوتية وألفاظ التورية وعلامات التعيين،الا أنها اختصت بكلمات ذوات حرف مبنى واحد (واستطاعوا أن يستعملوها فى هجاء أى لفظ) وهذه الخاصية لم تبلغها كتابةسواها من الكتابات القائمة أساسا على الصور المعنوية • أما من حيث الشكل ، فان الهيروغليفية التى استعملها المصريون فى الكتابة المزخرفة الفاخرة ، هى أكثر الخطوط المصرية القديمة ألفة لنا ، لأنهم نقشوها نقشا بديعا كفل بقاءها ، حتى أصبحت أغزر مصدر من مصادر التاريخ القديم • الا أن الرسم المتقن لكل مسمى من المسميات لم يكن فى مقدور الكتبة المشتغلين بأعمال الحياة اليومية ، ولم تكن أيضا صالحة لأن تكتب على ورق البردى وغيره من المادة الطرية القابلة للضغط ، لهذا وذاك طرأت تيسيرات ذات أثر فى تجميل هذه الكتابة ، وسميت هذه الكتابة الجميلة بالخط الهيراطى أو القساوسى •

وفى حوالى سنة ١٨٠ ق•م استحدث الخط الجارى السلسى الذى أطلقنا عليه الخط الديموطى أو الشعبى ، وقد بقى هذا الخط الأخير مستعملا الى أن هجرت الخطوط المصرية القديمة فى القرن الخامس الميلادى •

فلما اعتنق المصريون المسيحية استبدلوا بكتاباتهم القديمة التى كانت جملة وتفصيلا ذات عرى وثيقة بفكرة الآلهة فى ديانة المصريين القدماء ، كتابة أخرى قوامها الحروف اليونانية مع زيادة سبعة حروف من الديموطية واعتبروها ضرورية لابراز نغمات مصرية خاصة • فكانت هذه الطفرة هى الهزة العنيفة التى خلفت فى الكتابة المصرية رموزا لحروف الحركات •

والشائع فى تاريخ العالم القديم أن اليونان تلقوا الأبجدية عن الفينيقيين ، وأن هؤلاء

أخذوها من قبل عن المصريين • ولو كان أتيح لقدامى اليونان الأميين الاتصال المباشر بالمصريين لاستطاعوا أن ينقلوا عنهم الرموز ذات الحرف الواحد • ولم يقل بهذا الاتصال المباشر أحد ،

الحروف الهجائية من اختراع الساميين

ويبدو لنا أن الساميين هم الذين مكنتهم ظروفهم أكثر من اليونان من الافادة من هذا النقل • ذلك ، أولا : لأنهم كانوا على اتصال وثيق بمصر • وثانيا لأنه كان أهون عليهم أن يقتبسوا فكرة تخصيص رمز واحد لكل حرف بناء ساكن + حرف حركة غير محدد Undefined وأن يستخدموا هذه الفكرة فى لغتهم الخاصة •

وقد ظن بعض الناس فى وقت من الأوقات أن كل ما عمله بعض الساميين هو أنهم عمدوا الى اثنين وعشرين رمزا من رموز المصريين الشبيهة بالحروف الهجائية واتخذوها بهيئاتها ودلالاتها الأصلية لكتابتهم السامية • وصاحب هذه الفكرة هو دى روجيه De Rougé وقد كلف عبقريته فى سبيل ذلك فوق ما يجب ، وقد أخذ بنوع خاص الرموز من الكتابة الهيراطيقية المعزوة الى الدولة القديمة ، ولعل ذلك كان قبل العصر الذى يصح أن نتطلع فيه الى نشأة الحروف الهجائية بألف من السنين • لذلك صرف النظر فى القرن الحالى عن هذا الافتراض وأصبح الناس ينقبون عن أصل الحروف السامية فى كل مكان عدا مصر • ولكن تنقيبهم كان غير مجد ، اذ أنهم لم يجدوا بين الرموز التى حلت أشكالا تشبه ضالتهم • أما تلك الاستدلالات المستنتجة من أوجه الشبه العرضية فى بعض الكتابات التى لم تخل رموزها بعد فليس من الممكن دحضها ، ولكنها ليست بالدليل المقنع •

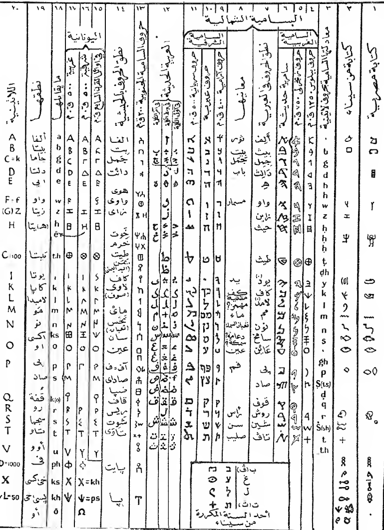
ثلاث شعب أو أنواع من الأبجديات

ويمكننا أن نرد جميع الابجديات التى نحن فى صددها الى ثلاث شعب : السامية الشمالية ذات الاثنين والعشرين حرفا . وأقدم أشكالها الفينيقية . وهى المعروفة من القرن الثالث عشر ق•م (أنظر العمود الرابع من الجدول ص ٣٨٣) ثم السامية الجنوبية ذات التسعة والعشرين حرفا (العمود ١٣) وأقدم أشكالها الأبجدية السبئية Saboean فى جنوب الجزيرة العربية حوالى القرن السادس ق•م• ، وهذه ما زالت حية فى الأبجدية الحبشية؛ والثالثة هى اليونانية المعروفة من القرن السابع ق•م• فى صور متعددة ، ولكن من المؤكد أنها احتوت فى وقت ما على اثنين وعشرين حرفا ، بزيادة عدد من الحروف التكميلية (العمد ١٥ ـ ١٩ من الجدول ص ٣٨٣) •

أما الأبجدية الهندية فهى اما أن تكون مشتقة عن السامية الجنوبية ، واما أن تكون مشتقة عن الشمالية وهذا هو الأرجح • وقد وجدت فى آسيه الصغرى لآجال قصيرة عدةمن الأبجديات، وهى الفريجية Phrygian والليقية Lycian والكارية Carian والليدية Lydian وجميعها تتفق غالبا مع اليونانية القديمة مع زيادة بعض الحروف الضرورية لملاءمة أصوات خاصة لديهم • ومثل هذا القول يمكن اطلاقه على الاتروريه Etruscan وغيرها من الأبجديات الايطالية •

وقد وقفنا على أسماء الحروف الهجائية الفينيقية وترتيبها (انظر العمود ٧ من الجدول ص ٣٨٣) ، ويلاحظ أن أسماء الحروف اليونانية لغاية حرف ت T مطابقة لنظائرها فى الفينيقية مع بعض الاستثناءات • وفى هذا الدليل الكافى على أن كلتا الأبجديتين ان هما فى الواقع الا شىء واحد ، وان أسماء الحروف وترتيبها وأشكالها فيهما قد تقررت قبل تشعبهما كما أنه يوجد فى الأبجدية السامية الجنوبية أسماء وأشكال مشابهة لنظائرها فى السامية الشمالية تكفى أن يحتج بها على وجود صلة بين هاتين الأبجديتين •

وقد يوجد شكل أو شكلان مشابهان لنظائرهما فى اليونانية ، ولكن مسألة الترتيب غامضة غير مفهومة ، وقد رسمت بعض الحروف الاضافية بزيادة مميزات على سوابقها • وهذا يشبه ما حصل فى العربية الشائعة حينما شعر المتكلمون بها بحاجتهم الى تصوير أصوات قصرت دونها الفينيقية والعبرية والآرامية وقنعت بتركها مشوشة • وقد يكون بعض الحروف الأخرى اختراعا محضا أو انتخابا من تراث قديم أعزر مادة • وهذا هو عين الشأن فى اليونانية فقد تواتر عن السلف أن حروف Φ, Θ, X, Ξ, كانت اضافات استحدثها بالاميديز وحروف Z, H, Ψ, H, Ω أضافها ايبخاموس ، ومما لاشك فيه أن من هذه المجموعة حروف Z, H, Θ, Ξ, منقولة عن الأصل القديم وان كان قد عراها التغيير فى دلالاتها الصوتية فان Z اليونانية كانت قبل استعارتها الى اليونانية Dz ، أما الحروف الأخرى فيظهر أنها ابتدعت ابتداعا مقصودا



الأبجديات القديمة والحديثة مع أصولهـــا الظنية فى المصرية القـديمة

جميع الأبجديات فى العالم منسقة عن أصل واحد ولا أدل على ذلك من أسماء وأشكال الحروف وقد اختلفت الآراء فى هذا الأصل المشترك والذين يتلمسون هذا الأصل فى مصر يعززون رأيهم برموز معينة (أنظر الصحيفة المقابلة لهذا) منقولة عن السينائية Sinai والهيروغليفية مبينين فى العمودين الأول والثانى وقد قرناها بأوبلات سامية لمجموعة من هذه الرموز ، ومن الأبجدية اليونانية نبتت الأبجدية الروسية الحديثة وعن اللاتينية تفرعت جميع الأبجديات الغربية ، وتجد فى ثنايا الفصل شرحا لهذا الجدول ألفه الأستاذ منس Prof. Minns خصيصا لهذا الكتاب ٠

(ونكاد نجزم أن Ω هى من هذا القبيل) أو انها منقولة عن نبت مقاطع قديم ٠

وهـذا الفـرض هو أكـثر الاحتمـالات فى الحـروف الغريبة المـوجودة فى الأبجـديات الأناضولية ٠

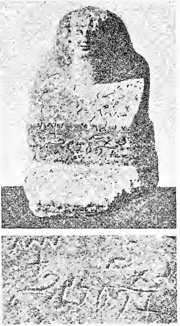
قد يرجع الزمن الذى انسقت فيه اليونانية عن الفينيقية الى عصر الغـــزو الدورى وعصر استيطان اليونان فى آسية الصغرى ، ولعل ذلك كان فى القرن الحـادى عشر ق٠م وهذا الافتراض الأولى تأيد فى سنة ١٩٢٣ بكشف

دين اليـونان لفنيقيه

نقشين يعزيان الى هذا التاريخ تقريبا ٠ أما أن اليونان هم الذين نقلوا عن الفينيقيين فهذا ظـاهر من أن أسـماء الحروف يمكن تفهمها بارجاعها الى الفينيقية وليس الى اليونانية ٠ ويمكن تعليل ما أدخله اليونان من تحوير على أسماء هذه الحروف بنفـــورهم من الكلمات المنتهية بحروف البناء الساكنة وبميلهـم الى تحويلها الى كلمات ذات جرس حتى لو كانت غير مفهومة ، لذلك اضطروا الى تكرارها بترتيب خاص ليزيلوا اللبس عنها ٠

ويشبه ذلك ما اعترى نطق الأعداد الكلتية Celtic وهى التى يستعملها الرعاة الناطقون بالانجليزية فى عد أغنامهم فيقولون للأعـداد الأولى (Yan, tan, tethra, pethera, pimp) وهذه ألفاظ محرفة عن الغالية Welsh التى هى (Un, dsn, tri, pedwar pimp, etc.) ، وعلى العموم ان أشكال اسماء الحروف اليونانية تشير الى أصول كنعانية أو عبرية أو فينيقية ، فمثلا « رو » Rho أصلها العبرى (رس = رأس) مع حذف الحرف الأخير غير المـرغوب فيه عندهم ، وذلك أولى من ارجاعها الى كلمة « رس » الآرامية التى هى الآن الاسم العبرى لحرف « ر » ، غير أن الأفضل هو أن نفترض أخذهم جميعا عن أصل مشترك ، انحدرت عنه السامية الشمالية والجنوبية على السواء ٠

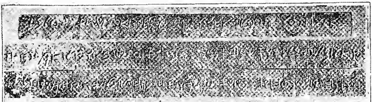
وعندى أننا قد توصلنا الآن الى آثار هـذا الأصل المشترك للأبجديات ، ففى حوالى سنة ١٩١٥ كان الدكتور ألن جاردنر يفحص كتابات عثر عليها فى سرابة الخادم فى سينا حيث بقى المصريون ينقبون عن الفيروز أجيالا كثـيرة ، وقد عزاها سير فلندرز بترى — وهو أول من كشف المجموعة — الى عصر تحوتمس الثالث



الأصل الراجح للأبجديات

لوحظ على تمثال مصرى فى وضعه أجنبى فيما عدا هذا ، عثر عليه فى سيناء ، أن عليه احدى مجموعات الرموز التى فسرها قارئوها بأنها كتابة بعلية Ba'alath وقد تكون هذه الكتابة وغيرها مما عثر عليه فى هذه المنطقة النسخة الأولى من الأبجديات (وقد رسمت مجموعة من هذه الرموز مكبرة فى المستطيل المرسوم أسفل من التمثال) ٠

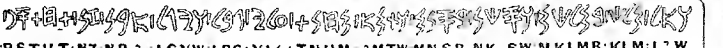
وحتشبسوت ، ولكن ذلك حوالى سنة ١٥٠٠ ق٠م أما جاردنر فيرجعها الى عصر الأسرة الثانية عشرة ولكن ذلك فيما بين ٢٠٠٠ — ١٧٨٨ ق٠م٠ ويوجد بين الكتابات المقطوع بأنها مصرية — وكان معظمها فى تمجيد ربة مصرية تدعى حتحور أو « سيدة الفيروز » ، أحد عشر نقشا مركبا من رموز هيروغليفية ولكنها غامضة على الفهم « انظر عامود ٢ » ٠ ومن هذه الكتابة مجموعة ذات أربعة رموز تتكرر ست مرات : أما رموزها فهى تلك التى صور بها المصريون « البيت » ثم « العين » ثم رمز ثالث غير محقق ، وأخيرا رمز الصليب ٠





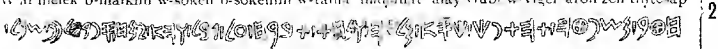
:ML' B:HT Š K:HB' MRḤ ' L:LBGKLM MR Ḥ ' NB L' B T[P]: L' PZ : NR ' 1

'Aron ze pa'al 'Itoba'al ben-'Aḥiram, melek Gubl, l-'Aḥiram 'abihi ksitah b-'olam



:PSTḤT:NZ:NR ' :LGYW:LBG:YL' :TNHM ·'MTW MN SB NK SW:MKLMB:KLM:L'W

W'al melek b-malkim w-soken b-sokenim w-tama' maḥanat 'alay Gubl w-yigel 'aron zen tiḥtesap 2



:LR Š:PPLRPS:ḤMY:'HW:LBG L' :ḤRB T · TḤNWHKLM ' SK·KP THT·H ṬP SM·R ṬḤ

ḥoter mispaṭehu tiḥtepak kise' malkehu w-neḥet tibareḥ 'al Gubl. **W-hua' yimoḥ seper lopap šrl.**

الترجمه : (السطر الأول) : عمل هذا التابوت (١) ثوبال ؟ بن أهيرام ملك بيلوس Byblus لأبيه أهيرام ليكون مقره الأبدى (السطر الثانى)وان حاصر ملك من الملوك أو حاكم من الحكام ببلوس ونبش هذا التابوت ، حطم الله صولجان ملكه ، وثل عرش مملكته ، وليعم السلام ربوع ببلوس ، وان محا أى انسان هذه الكتابات قطع الله دابره ٠

السطر الأول فى طرف التابوت ، والثانى ــ ويرى محطما ــ على جانبه



شاهد على قبر أهيرام ملك ببلوس حوالى سنة ١٢٥٠ ق٠م ، عثر عليه سنة ١٩٢٣ منقوشا على غطاء تابوته ، ويرى فى الرسم صـــورة التابوت وصورة شمسية للكتابات المنقوشة عليه قرنت بنسخة ايضاحية لها ، ولما كانت كتابة ساميه فقد خلت من حروف الحركات ، وتسير من اليمين الى اليسار وتخللت سطورها ترجمتها بحروف رومية منقوشة من اليسار الى اليمين، مع ادخال الحروف المتحركة وفواصل بين الكلمات مكونه من شرط رأسية هكذا « ا » أما الاسمان الفنيقيان اهيرام (على الأرجح) وايتوبال فقد وردت بعــدئذ فى التوراة بلفظى هيرام وايتبال ٠

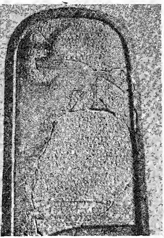
أقدم كتابة محققة بالحروف الهجائية ، عثر عليها الأثريون للآن

وبالرجوع الى الجدول نفهم أن الحرف السامى « ب b » معناه « البيت » وأن « العين » معناها « العين الباصرة » وأن شكل الحرف الثالث يتفق مع الحرف الفينيقى «لامد» = ل ، وأن الحرف الأخير وهو الصليب (تاو) = t = ت » فيتكون من مجموع هذه الأحرف الأربعة كلمة « بعلات Ba'alath » أو كيفما يكن نطقها ومعناها « السيدة الالهة » وهى مؤنث « بعل Ba'al » وبذلك تدل بالضبط على « سيدة الفيروز » .

والمفروض الآن هو أنه كان هناك ساميون من غير البدو الهمج من سكان سيناء نفسها ، بل رجال عملوا مع المصريين وعلى اتصال وثيق بهم ، فألموا بعض الالمام بكتابتهم ، واستخدموا حروفا ليست ـ كما يرى دى روجيه ـ منقولة عن الرموز المصرية التى كانت موجودة فى وقتهم ، بل بانتخاب بعض الصور المصرية التى توحى كل صورة منها باسم من الأسماء السامية ومن ثم صوروا حرف البناء الذى بدأ به ذلك الاسم . ولم يكن فى وسعهم أن ينتخبوا أسماء من ذوات الحرف الواحد لأن لغتهم السامية لم تكد تحوى شيئا من هذه الأسماء فردية الحروف .

أما التأويل بأوسع من هذا القدر فليس مما يوثق به تمام الثقة ، وقد يكون تفسير كلمة « آن = أنا » وكلمة « رب أبنيم = رب المعدنين » وكلمة « سربيت = رب البيت » ليس بعيد الاحتمال . ويمكن أن يقال مثل هذا عن كلمة « نعم Na'am = النعمة » ، وكلمة « عصر Aŝer = من أو الذى » ولكن هذه النقوش لم توجد فى أحوال ملائمة على بقائها سليمة . وقد استطاع جاردنر أن يتبين منها أثنين وثلاثين شكلا من هذه الرموز من بينها خمسة أزواج ، قد يكون كل أثنين منها متحدى الدلالة على سبيل التغيير والتبادل أما الاثنان الأخيران فحظهما من الثقة ضئيل ، وعلى ذلك لا يبقى من عدد حروف هذه المجموعة سوى خمسة وعشرين فقط .

اذا تأملنا جميع أنواع الحروف الهجائية خيل الينا أن الرمزين الشماليين [رمز] و [رمز] متفرعان عن أصل واحد وكذلك الرمزان ⊕ و + وهذا



حطام حجر من مواب

أقام ميشع ملك مواب حجرا تذكاريا سجل فيه انتصاراته على اسرائيل فى القرن التاسع ق.م وظل هذا الحجر زمنا طويلا يعتبر أقدم نموذج للكتابة بالحروف حتى كشف فيما بعد ناووس هيرام فأصبح هذا هو النموذج الأقدم من السابق .

يوضح لنا معظم الرموز ذات الاسماء غير المفهومة ، ويوجد خلاف أكثر من هذا فى الحروف السامية فى كتابة الجنوب ، حيث يلاحظ ثلاثة أشكال لرمز يشبه حرف h يظهر عليها لأول وهلة أنها مشتقة من رمز سينائى هو الرجل الجالس وهو الذى لم تتخلف عنه قط فروع الكتابة السامية فى الشمال ، وان لم يكن لنا سند كاف للقول بأن هذا الرمز هو حرف h ، كما يتبين لنا من تأمل الجدول

التفريق بين الرموز

ملاحظة أخرى عجيبة وهى أن الرموز التى شك فى أنها متساوية الدلالة تظهر اما مقلوبة من أعلى لأسفل أو معكوسة وجهها لظهر أو ممالة بقدر زاوية قائمة أو نصف قائمة ، وأكثر ما يلاحظ هذا فى الحرف اليونانى ʌ الذى يعادل L فى الانجليزية ، ومن الأمثلة الأخرى (الألف) = A والحرف اليونانى Γ = (G) واللاتينى [رمز] (C أو G) = ك أو ج .

وهـذه الظاهرة أكثر وضـوحا فى عصر فينيقى متقدم كشف عنه أخيرا . فبدل من حجر مواب الذى أقامه ميشع عدو أهاب سنة ٨٥٠ ق٠م لدينا الآن شاهد قبر أهرام ملك ببلوس ونقوش عثر عليها فى مدخل مقبرته وفيهـا فخـار مينيوى وأشياء أخرى من عهد رمسيس الثانى ، وأخيرا انتفى كل ريب بالعثور عـلى كتابات أخرى من القرن العاشر معاصرة لاسركون وشيشاق الملقب بالنجاشى وهو اللقب الذى ما زال يعرف به ملوك الحبشة الى اليوم ٠ ولا بد من أن نعترف بأن الحـروف المنقوشة على ناووس حيرام لا تسد الفراغ الملموس بين كتابتى ميشع وسيناء ، اذ ان الألف أقل شبها برأس الثور من تلك الموجودة على حجر مواب ولكن الرمز ٮ عـديم الذنب وهو الذى يمثل « كاف » يمكن أن يساعد على شرح الحرف نفســه فى اليونانية العربية عندما يعطونه صوت خ ، ثم تحولت الميم الى الوضع الرأسى (أنظر السامية الجنوبية فى الجدول) ولابد من امالتها الى وضع أفقى حتى يتسنى أن نستبين فيها أصـلها الذى هو شكل الماء ، وعـلى ذلك يجب امالة حرف « Pê ف » لنستبين فيه أصله أيضا ، وهو الفم ، غير أن من أشد الأشياء طرافة أن نجد أبجدية كاملة تأخذ فى منافسة غيرها من الرموز تنقضى هذه عليها فى خلال مئة عام أو نحـو ذلك من الزمان ، وقد حصل ذلك بعد عصر العمارنة وهو الذى انتشر فيه استعمال الكتابة المسمارية ٠ وقد انقسمت الأبجدية السـامية الشمالية الى شعبتين كبيرتين ، أولاهما الكنعانية وهى التى تولدت عنها الفينيقية التى انتشرت وعمت حوض البحر المتوسط حتى بلغت بلاد اسبانيا ، ولعلها هى أصل اليونانية أيضا كما سلف القول ، ولكنها لم تعمر طويلا وأخـيرا انقـرضت فى عصر ظهور الديانة المسـيحية والعبرانية القديمة ، وقد عدل عنها اليهود فى القرون السابقة مباشرة على المسيح ٠ ولكنها بقيت فى عـداد عشرات اللغـات السـامرية samaritans فى صورة عتيقة غريبة (أنظر العمود ٦ من الجدول) والشعبة الثانية وهى الآرامية التى لا تكاد تختص بممـيزات فى سينجرلى فى القرن السابع (عمود «٥») ثم لا تلبث أن تتميز بحروفها المفتوحة من أعاليهـا (كما يرى فى عمود ٩) ، وكان بلوح لنا أن الكتابة البرهمية « وهى الأصل الذى تفـرعت عنه جميع الحـروف الهندية كما عرفها الناس من نقوش أزوكا سنة ٢٥٠ ق٠م) انقشت هى أيضا قبيل هذه العملية ، كما أن الخاروستية وهى التى نافستها ولكنها لم تعمر طويلا فى بلاد الهند الشمالية الغربية،ان هى الا اشتقاق متأخر عنها ، وأخيرا أعيد ترتيب الحروف فى جميع الأبجديات الهندية وضوعف عـددها بادخال علامات التفريق الكثيرة حتى بات من المتعذر تتبع انتمائها الى أصل واحد ٠

ليست الحـروف العبرية المنتظمة الأضلاع (الجدول ، عمود« ١٠ »)عديمة الشبه بالآرامية فى طورها الثانى ٠ ثم تظهر الحروف السريانية (عمود ١١) وأخيرا الحروف العربية ، التى لم تلبث أن ظهر تشابه بعضها ببعض لدرجة كبيرة ، حتى اضطروا الى التفرقة بينها بالنقط (عمود ١٢) ، وقد تولد من الآرامية فى البلاد الشرقية الحروف البهلوية فى فارس

انتشار الأبجديات نحو المشرق

ودلك منذ القرن الأول المسيحى، كما تولدت كتابة ــ الككتركية Kok-turki بتعديلات طريقة جعلتها ملائمة للحز على العصى فى صور تشبه الرموز الروتية (وهى حروف قديمة كانت مستعملة فى شـمال أوربا وبخاصـة فى اسـكنديناوه وألمـانيا) كما تولدت منها أيضـا الكرجيـة والأرمينية مع تعديلات مقصورة بذاتها على نسق الفكرة اليونانية ، وقد تولدت من الـكتابة السريانية فى أحد أطوارها المتأخرة الكتابة الصغدية sogdian التى تعلمها ترك يوغـر Uigur turks وما زالت مسـتعملة عند الكلمك Kalmuk والمغل والمانشو ، ولما كانت السريانية كتبت فى بعض العصور من أعلى الى أسفل ، كانت هذه اللغات التى ذكرناها آنفا تكتب رأسية مثلها ، واتفقت فى هذا مع الكتابة الصينية ٠

غير أن الكتابة اليونانية هى التى امتـازت بين مشتقات السامية بالمسـتقبل الزاهر ، لا سيما فى سليلاتها اللاتينية والروسية ، وفى خلال أربعة القرون التى جاءت بين وقت أخذها عن الفينيقية وبين أقدم الكتابات المدونة بها ، استطاعت أن تتقـدم تلك الخطوة العظيمة التى تفتقر اليها الكتابات غير السامية

أول علامات لحروف الحـركة

فالصوتان الساميان « ألف »و« عين » والأصوات اللازمة للبدء بحروف الحركة ضعيفة كانت أو قوية ، والحروف اللينة وهى شبه الحـركات

« يود = ى » ، « واو = و » والحلقية المجهورة فى « هه أو هيث » ، وهى التى أخذت جميعها تتلاشى من اليونانية ، استخدمت كلها فى التعبير عن الحركات ، فتولد من الألف حرف a — المشتق من اسمها ، وكذلك الصوتان الحلقيان فى « العين » ، « القف ـ القاف » جعلت الحركة الملازمة لها تصل الى آذان اليونان فى صورة « أو = ٥ » ثم اذا أسقط حرف ه من « هى ، هيث » يبقى على الفور حرف « c | » بينما امتد الزمان قليلا بحرفى w ، h ، فاستلزم ذلك التمييز بين الحرف اليونانى r = u ، وكذلك « h ـ ايطا » لم تصل عاجلا الى وظيفتها النهائية وهى أى E الممدودة ٠ أما الحروف الصفيرية الكثيرة فلم تكن اليونانية فى حاجة اليها ، لذلك اختلط بعضها ببعض بطبيعة الحال ٠

وطرأ تغيير على اتجاه الكتابة فبعد أن كانت تتجه من اليمين الى اليسار أصبحت تتجه فى سطر عكس اتجاهها فى السطر الذى يليه ثم أصبحت بعد ذلك تتجه من اليسار الى اليمين ، وفى الوقت نفسه انقسمت الحروف الهجائية فى الشعب اليونانى القديم الى شكلين رئيسيين اختلفا منذ البداية فى الحروف الزوائد وأطلق على أحدهما الغربى (انظر عمود ١٧) وهذا على العموم أقدم الشكلين ، وقد تلقاه الأيطاليون (أنظر عمود ٢٠) أما الشكل الثانى وقد عرف بالغربى فاختص به الايونيان ، وهم الجنس اليونانى الذى قام قبل غيره بكتابة الآداب ، ولذلك أصبحت أبجديتهم أداة كتابة الآداب اليونانية القديمة ، كما أصبحت الأرومة التى تفرعت عنها فيما بعد تلك الأبجدية واسعة الانتشار ، وأعنى بها الروسية ٠ ولولا الخلط الغريب الذى أحاط بحرف C فأدى الى اختراع حرف G (عمود ٢٠) وأعنى الشكل الكبير من الحروف الافرنجيةالحديثة ، لاصبحتهى أقدم الأبجديات الحية ٠ والآن أصبحت اللاتينية من هذه الوجهة ، تكاد تشاطر السامرية (عمود ٦) اذ لا يحفظ كليهما فى المدينة الواحدة سوى بضع عشرات من الناس ، ولو أنهم حاولوا تغيير أبجديتهم لقوضوا بناء جماعتهم ، وقصارى القول ان محاولة تغيير اللاتينية معناه محاولة تغيير العادة الراسخة فى نصف العالم ٠

العصر الثانى

عصر اليونان

٥٥٠ ـ ٢٠١ ق ٠ م

الخبر الرابع ـ الصدام بين فارس واليونان ٥٥٠ ـ ٤٧٨ ق٠م

٣٦ ـ دول المدن الاغريقية ـ خلال الحرب الفارسية ٠٠ (الأستاذ و ٠ ر ٠ هالبداى) ٠

٣٧ ـ الفرس وامبراطورية الشاه الأعظم (ج٠ ب٠ جراندى ، دكتور فى الآداب) ٠

٣٨ ـ الاتروريون والقرطاجيون : أصلهم وتكاثرهم ٠٠ (الأستاذ ج٠ل٠ ما يرز ، دكتور فى العلوم) ٠

٣٩ ـ المثل العليا اليونانية ، والاتجاه نحو الشرق (الأستاذ و٠١٠ل كوبلاند)٠

٤٠ ـ الأديان الناشئة فى الشرق الأقصى ٠ (الأستاذ بريدال كيث ، وكتور فى القانون المدنى ، ودكتور فى الآداب) ٠

الخبر الخامس ـ المدن المتنافسة ٤٧٨ ـ ٣٦٠ ق٠م

٤١ ـ الحياة اليونانية فى أوجها (الأستاذ ف٠١٠ ربت) ٠

٤٢ ـ عبقرية الفن اليونانى وعلاقتها بالعاب القوى (الأستاذ برسى جاردنر ، دكتور فى الآداب) ٠

٤٣ ـ الأدب اليونانى والمسرح ٠٠ (الأستاذ جلبرت نوروود) ٠

٤٤ ـ ديانة اليونانيين ٠٠ ! لويز٠ ر٠ فارنل٠ دكتور فى الآداب) ٠

٤٥ ـ الامبراطوريتان الأسبرطية والأثينية ٠٠ (الأستاذ و٠ر٠ هالبداى) ٠

الخبر السادس ـ العصر اليونانى المتأخر (الهللنستى) بين ٣٦٠ ، ٢٨٠ ق٠م

٤٦ ـ الاسكندر بطل عالمى ٠٠ (الأستاذ و ٠ رومين باترسون) ٠

٤٧ ـ الفلاسفة ، ما وفقوا فيه وما قصروا عنه (الأستاذ ادوين بيفان) ٠

٤٨ ـ اليونان والكشوف العلمية ٠٠ (شارلز سنجر ، دكتور فى الآداب) ٠

٤٩ ـ انتشار اليونانية قبل المشرق ٠٠ (هـ٠ ج٠ رولنسون) ٠

٥٠ ـ الشعوب الكلتية : ثقافتهم ومأساتهم ٠ (الأستاذ ر٠١٠س ٠ ماكاليستر) ٠

٥١ ـ التجارة فى العصور القديمة ، وأهمية البحر المتوسط ٠٠ (الأستاذ ج٠هـ٠ ستيفنسون) ٠

٥٢ ـ فضل اليونان على العالم الحديث ٠٠ (رايت أونرابل هـ٠١٠ل٠ فيشر ، دكتور فى القوانين) ٠

الخبر السابع ـ بدء سلطان الرومان ، ٢٨٠ ـ ٢٠١ ق٠م

٥٣ ـ رومة وأسباب عظمتها فى الأزمنة المتأخرة (الأستاذ هـ٠ استيوارت جونس) ٠

٥٤ ـ القرطاجيون وامبراطوريتهم البحرية ٠ (ف ٠ ن ٠ بريس) ٠

٥٥ ـ الأشراف والعامة : نزاع الطبقات فى رومة ٠٠ (الأستاذ هـ ٠ ستورات جونس) ٠

٥٦ ـ أمجد فشل فى التاريخ : دراسة هانيبال

٥٧ ـ عظمة اليونان ٠٠ (ادوين بيفان ، دكتور فى الآداب ، ودكتور فى القانون) ٠

ملاحظة عن العصر اليونانى

ان قصر هذه الحقبة من التاريخ بالنسبة لسوالفها ولواحقها ، لمدعاة لشدة الدهشة من السرعة العظيمة التى بلغت بها اليونان تمام النضج والاثمار ، اذ أنهم فى مدى لا يكاد يتجاوز ثلثمائة من السنين لعبوا دورا خطيرا هو بمثابة عالم مصغر ومستقل بنفسه فى تاريخ العقل الانسانى ومثلوا فصلا هاما من قصة الحضارة البشرية . ولقد شهد فيهم التاريخ لأول مرة أثر السرعة المتدفقة بينما كانت الشعوب المحيطة بهم لم تزل سادرة فى دياجير الظلام ، لم يعلق

بها بعد قبس من مشعال الفكر فلبثت مندفعة بقوة العصر الغابر في موكب الزمن العام من حادثة الى أخرى ، لا تملك لنفسها من الأمر شيئا • لذلك قد يخيل الى مطالع فصول هذه الحقبة أنها أفردت بلا مبرر للشئون اليونانية • حقا ان الخبر الرابع قد حوى الكثير من المسائل المتعلقة بنهضة الامبراطورية الفارسيةواصطدامها باليونان ، ولكن الخبر الخامس يكاد يكون كله مختصا بالحروب البلوبونيزيةوهي التي استخلص منها ثيوسيديديز دروسا نفسية للأجيال القادمة أما في الحقبة التالية ، فلا تكاد فارس تهيىء لدارس التاريخ أكثر من سلسلة أسماء ملوكيا ، في حين أن مصر التي لم تكن سوى ايالة تابعة لهذه الامبراطورية العظيمة ظلت في ظلمات الخمول ، ولم يور زندها الا بوميض من شنات الفتن والثورات ، أما في الخبر السادس فنشاهد الاسكندر قد قلب النظم المقررة من قبله ، وأنشأ عرى جديدة بين المشرق والمغرب فوضع بذلك الأساس لعصر جديد امتد الى ظهور الاسلام •

وفي الخبر السابع تنزل رومة في الميدان بعد أن لبثت القرون المديدة تهيىء نفسها في نطاق عالمها الداخلي لدولتها المقبلة • أما الفصول التي عقدناها لدراسة تقدمها الباهر فقد أرجئت الى حين الكلام على خطوتها التي استطاعت بها لأول مرة أن تصل نهير تاريخها بنهر التاريخ العام • فنرى الفصل الثالث والخمسين بنوع خاص يعود بنا الى أول الفصل الذي نحن بصدده الآن •

وسوف يتضح أن ثبت الحوادث السابق قد شمل حوادث حقبة بجملتها أما الثبت فيشمل حوادث الخبر الرابع وحده ، ومن ثم سيكون كل خبر بعده مصحوبا بجدول الحوادث والأزمنة الخاص به اما بالتواريخ المتتابعة كما سيأتي في هذا الجدول واما باثبات الحوادث التي يعاصر بعضها البعض في نهرين متقابلين ، وليلاحظ أن آخر تاريخ يتجاوز الحد المعين لمجموع هذا الخبر بأربع سنين ، وذلك لتسهيل ربطها بحوادث الخبر اللاحق ، وكذلك لاتمام الكلام في ناحية من نواحي بحث بعض الحوادث الموضوعة على بساط البحث ، ونعني بها مناقشة اليونان الاتروريين في الغرب • أما الفواصل التي قد يجدها القارىء في رواية الخبر فهي بالضرورة فواصل احتهادية يعوزها الدليل اذ لم يكن في امكاننا تعيين التاريخ الذي يكون ملائما كل الملاءمة لجميع الحوادث المتعاصرة •

وهذه هي الخطة التي سنتبعها غالبا في الفصول الآتية من الكتاب •

ثبت تواريخ حوادث الخبر الرابع

ق.م

٥٥٠ ثورة قورش الفارسي على استياجس ومناداته بنفسه ملكا على ميديا وفارس •
— بدء الامبراطورية الفارسية •
— أوائل الحلف البلوبونيزي •
سيرفيوس تليوس (سادس الملوك) يحكم رومة ويضع دستور سيرفيوس •
لاؤوتزه يتألق نجمه في الصين •

٥٤٦ قورش يفتح ليديا •

٥٤٥ قورش يتغلب على أيونيا •

٥٤٤ هجرة الفوكيين والتياويين •

٥٣٩ بيزاستراتوس طاغية أثينا للمرة الثالثة (الى ٥٢٧ ق•م) ، واستيلاء قورش على بابل •

٥٣٥ واقعة آلاليا ، تخلي الفوكيين عن كورسيكا للقرطاجيين والأتروريين •
تاركينيوس سوبربوس الأترورى يصبح سابع ملوك رومة وهو آخرهم وينتهي حكمه سنة ٥١٠ ق • م ، حكم الطغاة •

٥٣٢ بولقراط طاغية ساموس ، ويحالف أحمس فرعون مصر •
فيثا غورس يتألق نجمه •

ق.م

٥٢٩ حملة قورش على ماساجيتيا • موت قورش وتولية قمبيز من بعده •

٥٢٧ هيبياس يخلف بزاسسراتوس طاغية فى أثينا •

٥٢٦ بولقراط يحول تحالفه الى فارس ، موت أحمس الثانى •

٥٢٥ واقعة بيلوزيوم وفتح قمبيز مصر •
مولد ايسكيلوس (توفى ٤٥٦)

٥٢٣ موت بولقراط •

٥٢٢ موت قمبيز •

٥٢١ ظهور دارا وصيرورته عاهلا عظيما •

٥٢٠ فتح القرطاجيين سردينيا •

٥١٧ دخول دارا مصر •

٥١٤ هارموديوس وأريستو جيتون يقتلان هيباركس •
حملة دارا على تراقيا وما وراء الطونة (الدانوب) •
هستيس الملبنى •

٥١٠ طرد أسرة بيزستراتوس •
أثينا تنضم للحلف البلوبونيزى •
روما تطرد الملوك وتؤسس الجمهورية •

٥٠٩ نقض المعاهدة الأولى بين قرطاجة وروما •
نشوب الحرب عدة سنوات ليسترد الاتروريون نفوذهم فى روما •

٥٠٨ دستور كليستين الديموقراطى •

٥٠٦ الاثينيون يهزمون الخلقيديين والبووطيين

٥٠١ مؤامرات أريستو جوراس الملتوسى •

حوالى ٥٠١ اصلاحات كونفشيوس فى اقليم لو Lu

٥٠٠ كليانذر طاغية جيلا •

٤٩٩ ثورة أيونيا — أثينا واريتريا يعدان بالمساعدة •

٤٩٨ حريق سارديس •

٤٩٦ واقعة بحيرة رجيلوس « خبر مأثور » •

٤٩٥ مولد سوفوكليس (توفى ٤٠٦ ق.م) •

٤٩٤ واقعة لاده وسقوط ميلتوس •
اخماد ثورة أيونيا •
روما ، العامة يعتزلون الى الجبل المقدس •
انشاء مجالس العامة •

٤٩٣ الفرس يحتلون الساحل الغربى من الدردنيل •
ظهور تيمو ستوكليز فى أثينا •
أنا كسيلاس طاغية رجيوم •
هيبوقراط طاغية جيلا •
الحلف اللاتينى (بزعامة روما) وثورته على الاتروريين •

٤٩٣ أو ٤٩٢ طرد ميلتيادس من خرسونيزه الى أثينا •

٤٩٢ ماردونيوس يفتح تراقيا •

٤٩١ رسل الفرس يطلبون « أرضا وماء » •
واقعة ماراثون •
واقعة هيلوروس • كورنثة وكوركيرا تتعاونان على منع هيبوقراط من الاستيلاء على سرقوسة •
بداية حروب روما وفولشيا •

٤٩٠ واقعة ماراثون (تاريخ مأثور) •

٤٨٨ روما — أسطورة كوريو لانوس •

٤٨٦ ثورة المصريين على فارس •
حلف روما مع الهيرنيكيين •
موت دارا وتولية اجزركيس من بعده •

٤٨٥ جيلون خلف هيبوقراط طاغية على جيلا ، ونصب نفسه طاغية سرقوسة •

٤٨٤ اخماد ثورة مصر •
مولد هيرودوت •

٤٨٢ التقدم البحرى العظيم فى أثينا على عهد تيموستكليز •

٤٨٠ استعداد اجزركيس •
جيلون يرفض اقتراحات أثينا •
واقعة أرتميزيوم وتيرموبيلى (فى أغسطس) •
الجلاء عن أتيكا •
واقعة سلاميس (فى سبتمبر) •
مولد يوريبيدز •
استعداد القرطاجيين لفتح صقلية •
جيلون يأبى مساعدة اليونان ضد فارس •
واقعة هيميرا (فى سبتمبر) •

٤٧٩ واقعة بلاتيا وميكالى •
تجدد ثورة أيونيا على فارس •
اليونان يهاجمون الدردنيل •
انسحاب البلوبونيزيين •
احتلال سستوس •

٤٧٨ أثينا تبدأ الاتحاد الديلوسى Delian
هيرون يخلف جيلون فى سرقوسة •
موت كونفشيوس •

٤٧٤ هيرون يدمر الأسطول فى واقعة كومى •

الخبر الرابع

الصدام بين فارس واليونان
(٥٥٠-٤٧٨ ق.م)

ان أعظم ما يعنى به المؤرخون – ولا نقول انه كل ما يعنون به – فى الفترة الواقعة بين منتصف القرن السادس قبل الميلاد ونهاية الربع الأول من القرن الخامس ، هو قيام دولة الفرس الجديدة واصطدامها باليونان،وهو أول اصطدام مسلح بين الشرق والغرب ٠

هذا وان الشرق والغرب قد اتصلا فى نهاية الأمر اتصالا وثيقا ، فقد كان كلاهما قبل هذا العهد يسمو ويتطور بمعزل عن الآخر ، منفصلا عنه انفصالا ليس بالتام ولكنه يكاد يكون تاما ٠ أما الآن . فهاهما ذان يلتقيان وقد بلغ كلاهما أوج نمائه الخاص به ، ذلك النماء الذى لم يعقه قط فى بعض نواحيه نماء آخر ٠ اللهم الا أن يكون ذلك فى مائة السنة التى أعقبت مباشرة ذلك العهد بعينه ، وكان التقاؤهما فى ميدان القتال ، ولذلك كان الصراع بينهما من أهم الحوادث فى تاريخ العالم ٠

ومع ذلك فاننا نواجه فى تلك الحقبة ما هو أعظم من هذا التنظيم الشرقى الجديد واصطدامه بالعالم الغربى الناشىء حديثا ، وان أفقنا فى هذا الحين ليتسع حتى يشمل العالم أجمع من أقصى بلاد المشرق الى أقصى بلاد المغرب على السواء ٠ فقد اتصلت قرطاجة واليونان الكبرى بالغرب الأقصى الذى لم يكن له معنى فى ذلك الحين أكثر من بلاد ايطاليا ، بينما كانت الفرس قد أخذت تتصل بالهند من بلاد المشرق ٠

كما بدأت الصين تطل علينا من أقاصيها ، ومهما يكن من الامر فان الشرق الأقصى لن يسترعى عناية المؤرخ فى هذه الآونة ، ولو أن المسائل الدينية يجب أن يفرد لها فصل خاص هو الفصل الأربعون ٠ وجل ما نستطيع أن نستنتجه من أساطير اليابان القديمة هو أن جنسهم أخذ ينتشر صوب الجزائر الشرقية العظيمة قبل القرن السادس أو فى خلاله ٠

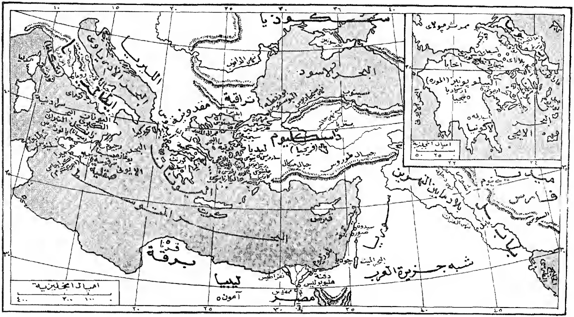
لكن تاريخ بلاد الصين فى العهد الذى سنتحدث عنه الآن يبزغ من ظلام الأساطير الى نور التاريخ ، ذلك لأن رجلها العظيم كونج فوتزى K'ung Futze المشهور عند الغربيين باسم كونفشيوس عاصر هذه الحقبة من التاريخ ، وما زال ما دونه هذا الرجل العظيم معتبرا فى المرتبة الرفيعة من الأدب الصينى القديم، وانه ليتنبىء عن وجود دولة صينية من نوع ما وعن حضارة راقية قبل ذلك العهد بألفى عام أو أكثر . وحينما ولد كونفشيوس سنة ٥٥١ ق ٠ م كانت ثالثة الاسر الثلاثة التى حكمت الصين قديما وهى أسرة لتشو قد تربعت على عرش الصين نحو ستمائة سنة وقدر لها أن يظل زمام الحكم فى يدها لثلثمائة سنة أخرى ٠

اللمحات الأولى عن تاريخ الشرق الأقصى

ومع ذلك فان هذا الاقليم الشاسع المعزول عن العالم بحواجز جغرافية لم يؤثر فيه ولم يتأثر به ولم يحتك به قط ٠ اللهم الا بقدر يسير فى علاقاته ببلاد الهند التى لم تكن أقل منه عزلة عن العالم الا بمقدار ضئيل غير محسوس ٠

فى عام ٥٥٠ ق ٠ م على وجه التقريب ظهر قورش ملك آنشان Anshan من الأسرة الأكمينية وهى التى كانت قد حكمت بلاد الفرس أربعة أجيال متعاقبة . وانتزع عرش ميديا من استياجس المشهور الذى يقال انه يمت اليه بصلة القرابة ، فكون قورش من الشعبين المنتمين الى أصل واحد أى الميديين والفرس أمة واحدة تحت سلطانه ، ولم يفتح الفرس بلاد ميديا ، بل كل ما وقع هو أن أسرة فارسية حلت محل أسرة ميدية وأصبح من ذلك الحين كلمتا الميدى والفارسى فى نظر

نهضة قورش الفارسى



خريطة حوض البحر المتوسط وبلاد أشور

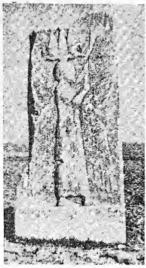
توضح الصراع بين اليونان وقوى بلاد المشرق حينما نمت المواصلات واتسعت المطامع فى الأقاليم بين الأمم وقد شهد العالم على مر القرون اصطدام الامبراطوريات الشرقية بالحضارة المنفرعة فى دول الغرب ، فمن ذلك وصول الفرس فى القرن السادس الى ساحل بحر الأرخبيل ونشر نفوذهم على المدن الأيونيوبة بينما تحرك اليونان غربا الى صقلية كما بدأ القرطاجيون سياسة خاصة بهم فى الغرب فبات سكان جميع جزائر الأرخبيل فى قلق مستمر ، فهذا اذن هو المسرح الذى بدأ فيه غزو الفرس العظيم لبلاد اليونان وقد عاصره الصراع بين اليونان وقرطاجة فى صقلية .

الغربيين ذواتي دلالة واحدة ، اللهم الا فيما امتازت به الجيوش الفارسية من شهرة واسعة .

وكانت أشور قد انقرضت قبل ذلك العهد بنحو ستين سنة . وظهرت على أثرها امبراطورية بختنصر في بابل ولكن جذوة هذه الامبراطورية لم تلبث أن خبت بعد وفاة العاهل العظيم وآل حكمها من بعده الى نابونيدوس Nabonidus الذى كان عالما متفرغا للآداب فترك مهام البلاد لابنه بلشزار ، ولم يكن هذا أهلا للاضطلاع بها ، زد على ذلك أن تمسكه بالمعتقدات العتيقة المخالفة لمعتقدات أسلافه قد أهاج عليه نفوس البابليين ، ولم يظهر في الأقاليم السورية أمير ساس الأمور بجدارة مثل ما ساسها ابن حداد Ben Hadad حاكم دمشق من قبل وجاء من بعده ملوك بنى اسرائيل أو يهوذا الضعفاء ، وجميعهم دالت دولهم وذهبت ريحهم .

أما مصر فقد خمدت روحها الحربية وأصبحت تعتمد فى حروبها على جند مأجورين من الأجانب ، اعتمدت على شجاعتهم لا على اخلاص قادتهم . وكانت مصر قد وصفت من عهد بعيد ، ازدراء بها ، بأنها أصبحت قصبة مرضوضة تدمي يدى المعتمد عليها ، وقد برهنت على أنها تستحق هذه السخرية فى جميع الاختبارات غير أنه منذ أكثر من نصف قرن كانت قد نشأت فى ميديا نفسها دولة جديدة على أنقاض فريجيا Phrigia وكان يفصل هذه الدولة عن ميديا حد متفق عليه وهو نهر هالس Halys وكانت هذه الدولة متداخلة فى العالم اليونانى المصاقب لها أما كفاية ليديا ومنزلتها فكانت الى ذلك الحين مجهولة لم يكشف عن حقيقتها محك الحوادث بعد ، وقد ذاع عن العالم اليونانى فى بلاد المشرق وكانت تربطهما ليديا ، أن هذا العالم مورد الجنود المأجورين الذين يغذون جيوش مصر .

هذه هى أحوال العالم حينما ظهر قورش الأكمينى ونادى بنفسه ملكا على ميديا وفارس



قورش العظيم

جمع قورش بين العبقرية الحربية والفضائل الانسانية ، وتظهر هذه الصورة المنقولة عن رسم بارز مستخرج من باسارجادى وقد غطى رأسه بلباس مزدان بقرون التيس وهالات الشمس وهى رمز وظيفته الدينية .

ومن ثم اشتهر بأنه « العاهل العظيم » ، أما الامبراطوريات القديمة فقد ذهبت وعفت آثارها ولن تنهض من رقدتها الأبدية ، ومن ذا الذى فى وسعه أن يتقدم ليرثها ان كان ثمت من يستطيع ذلك البتة ؟ لذلك رنا هذا العالم ببصره الى تلك المملكة الفتية فى الشمال بقلق عظيم .

ولا جدال فى أن شخصية قورش القوية قد كان لها أعظم الأثر فى نفوس معاصريه ، لذلك حيكت حول مولده ونشأته الأساطير . وقد نشأ فى المجاهل السحيقة من هضبة فارس ، فهو فى نظرهم الطفل الذى ادخرته الأقدار ثم أنقذته العناية عند مولده بمعجزة عجيبة من المصير الذى كان قد أعده له جده استياجس Astyges ثم تربى فى طيات الخفاء حتى عرفت شخصيته وتواترت قصة تربيته الى أن خلدها بعد قرن ونصف من الزمان اجزنوفون Xenophon الجندى تلميذ سقراط

وقد امتازت أسطورة قورش بوجه عام بغلبة الطابع الانسانى ، وفى وسعنا أن نعول قليلا أو كثيرا على صدق رواية هذه الأساطير بقدر ما تستريح اليه نفوسنا وضمائرنا . ويلاحظ أن شخصية هذا العاهل وانسانيته تتبينان ثبوتا كافيا اذا ما قابلنا بين ساسيته وسياسة من سبقوه من الأشوريين قساة القلوب ثم سياسة خلفائهم فى بابل الذين لم يعدلوا عن قليل أو كثير من سياسة أسلافهم .

ولما خلع قورش استياجس عن عرشه أبقى على حياته ، وقد ظفر بلاشك بتأييد جماعة مهمة من أشراف ميديا فى احداث الانقلاب الذى قام به ، وان يكن لبث طوال العامين الأولين يشعر بعدم استتباب الأمر له بعد فمهما يكن من أمر فانه لم يكن مبتدرا بالعدوان .

ومن قبل أحس كروسوس Croesus الليدى بريح العدوان ، وقد خاض أبوه غمار الحرب ، ولكنه عقد صلحا وحلفا مع والد استياجس ، وقد احتفظا بصلاتهما الودية التى

توثقت عراها بمصاهرة البيتين الملكيين . والآن هل فى الوسع استمرار هذه الصلات الصافية مع العاهل الذى انتزع عرش استياجس ؟ وقد نمت قوة ليديا نموا يعتد به منذ حربها مع ميديا ، فان كانت الحرب محتملة مرة أخرى فالحكمة تقضى بالمبادرة بها قبل أن يشتد بنيان الدولة الفتية وبتماسك . لذلك حاول أن يثير نابونيدوس وأحمس المصرى وينذرهما بالخطر المحدق . وحصل بذلك على عقد حلف معهما ومع أسبارطة ضد فارس . ولكن كروسوس تعجل الأمر قبل أن يستعد أحلافه فغدر ، ولعله دفع الى ذلك بنبوءة غامضة أزعجته ، وتحدى قورش حينما عبرت جيوشه نهر حالس فى أوائل سنة ٥٤٦ واحتلت « بتريا » فقبل قورش التحدى ونزل الميدان ونشبت موقعة غير فاصلة ولكنها اضطرت كروسوس الى الانسحاب الى سارديس عاصمته الغربية ، وأرسل الى حلفائه يستحثهم كى يعدوا حملة تكون متأهبة للعمل فى فصل الربيع ، ولكن عاهل فارس لم يمهله ، اذ اجتاح الاقليم الى أن بلغ سارديس واحتلها وأخذ الملك أسيرا .

وتقول الروايات اليونانية أن قورش عامل أسيره بالحسنى بالرغم من المحاولة الفاشلة التى بذلها لديه رجال الدين ناصحين له بأن يحرقه حيا ، وهنا رواية أخرى تزعم أنه أعدمه فعلا ، ومهما يكن من الأمر فانه ضم ليديا الى امبراطورية فارس ، وهنا حاولت المدائن الايونيوية التى كانت تحت سلطان كروسوس وهو الذى أصبح شبه يونانى أن تقاوم الفاتح ، ولكنها سرعان ما أثنتت عن عزمها هذا سواء أكان هذا منها خضوعا للقوة أو اتباعا لخطة الملاينة ، وبذلك خضعوا للسلطان الجديد وهو أمر لم يكن لهم منه بد .

أما أسبارطة فقد بعثت الى العاهل العظيم تنذره ألا يتدخل فى شئون اليونانيين « والا فأنهم لن يسمحوا له بشىء من ذلك » . ثم أنها لم تتخذ اجراء آخر ولم يتلق منها قورش انذارا ما عدا ما سبق . أما مصر وبابل فكلتاهما لم تبد حراكا .

ثم تلا هذا توقف آخر ، ولعل السبب فى ذلك أن قورش أدرك أو توقع حدوث قلاقل على تخومه الشرقية يدبرها الرحالة فى هذه الجهات فهانحن أولاء نقرأ أنه اصطدم بالساكيين sacae والبلخيين Bacterians ، ثم انقلب على بابل سنة ٥٤٠ ، ذلك لأن حكومة نابونيدوس لم تحز رضاء الشعب البابلى ، الذى كان يعتقد أن الفتح الجديد لم يجلب عليهم سوءا أشد من

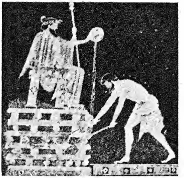
بابل تصبح مدينة فارسية

استبدال سلطان بسلطان لأنهم لم يكونوا خاضعين مثل غيرهم للعقوبات المعتادة أما الأسرة المالكة فى بابل فلم تكن فى حاجة الى دانيال ليفسر لها الدعايات المخطوطة على الجدران ، ذلك لأن



الفرسان الليديون عند ما هزمهم قورش

كانت جيوش ليديا فى القرن السادس تسيطر على الأناضول ، وتدى الفوارس الثلاثة المرسومين هنا وقد امتطوا جيادا ضخمة وتسلحوا بالحراب وحملوا ما يشبه الكنانات ولكننا لا نستطيع أن نتبين أكانوا يلبسون خوذات أم لا؟ وذلك ما طرأ على صور رءوسهم من تهشم، ومهما يكن من أمر فاننا نستطيع أن نستنتج من هذا الرسم ، وهو نقش بارز منقول من افريز فى سارديس يؤيد القول بأن قورش لاقى من هذه الجيوش مقاومة لا يستهان بها عندما التحم مع كروسوس ملك ليديا .



كروسوس آخر ملوك ليديا

فى متحف اللوفر اناء ذو عروتين من آثار أتيكا حوالى سنة ٥٠٠ ق · م عليه رسوم حمراء من بينهـا صورة كروسوس وقـد جلس على كومة من الوقود المحترق ، وقد عنى هيرودوت بتجميل القصـة وأشار الى دلالتها على تقلب الحظوظ ·

قورش حينما زحف بجنـوده على بابل كان نصف الشعب لا يرى فيه عدوا بل رسـولا للسلام والخلاص ، حتى أن جوبرياس Gobryas حاكم مدينة جوتيوم من قبل بابل بادر واحتل المدينة باسم الفاتح قبل وصول هذا اليها وأعدم بلتسزار،وان يكن قد أبقى على حياة نابونيدوس ولكننا لا نستطيع أن نجزم بصدق أو كذب تلك الأسـطورة القـائلة بأنهم احتالوا لفتح المدينة بتحويل مجـرى النهر العظيم الذى كان يخترقها،فأتاحوا بذلك فرصة للجيش الفاتح فشق الجنود طريقهم خائضين فى مجراه الى وسط المدينة · ومهما تكن حقيقة هذه الرواية فالثابت أنه فى سنة ٥٣٩ قد استطاع قورش بحملة صغيرة جدا أن يضـم الى الامبراطورية الفارسية ميديا وليـديا وجميع الاصـقاع المترامية فى آسية الصغرى التى كانت على الدوام هـدف الجيوش الجبارة التابعـة لمختلف الأمم الغابرة . فجميع الأبطال السالفين فى عهدسرجون sargon بطل أكاد agade الأسطورى الى نبوخذ نصر لم يستطع واحد منهم أن يستتب له الأمر غـير منازع فيما وراء جبال طـوروس من جهـة وجبال زاجروس zagros من الجهـة الأخرى · أما قورش فقد دانت له جميع البقاع من بحر الأرخبيل الى بحر قزوين ومن البحر الأسود الى صحراء بلاد العرب · ولم يكن قورش قبل اثنى عشر عاما من ذلك الحين الا ملكا على انشان · حقا أنه قام بعمل جليل ، وان كان قد يسر له هذا العمل بعض الشىء انقسام البلاد المفتوحة أحزابا وشيعا أعانته ورحبت به ، ولم يكن قورش فاتحا عظيما فحسب بل كان فوق ذلك ملكا عظيما،ذلك أنحكمه لم يقابل بالاذعان والرضاء فحسب بل قوبل بالترحاب · وفى طيلة السنوات العشر التى بقيت منذ توليـه ملـك بابل ، لم يسر عليـه ثائر فى أرجاء امبراطوريته المترامية الأطراف · ولا ريب فى أن رعاياه كانوا ينظرون الى قوته بعين الهيبة المأمونة الجانب ، لم يكن هناك محل لأن يخشوا جبروتا ولا ظلما · فخلا عهده من سلخ جلود الناس ومن المذابح والابعاد عن الوطن ، بل على عكس ذلك قد أعيد لأوطانهم المبعدون فى عهد الأشوريين والبابليين بقدر ما سمحت به أحوال البلاد ، كما أن الآلهة اللائى انتزعتها أيدى الغزاة السابقين آبت الى هياكلها ، وقد أبيحت فى أنحاء البلاد كافة ممارسة الشعائر الدينية القديمة دون ما حظر ولا اعتراض · وعلى العموم فقد عمت البلاد الرحمة والتسامح وحلا محل الرعب الشامل القديم ·



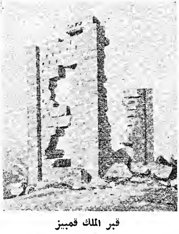
قبر قورش فى باسارجادى

اختلفت الآراء فى فهم الغرض من هذا الأثر المشيد من الحجر الجيرى فى عاصمة فارس القديمة ، فظن البعض أنه كان هيكلا لعبادة النار ، وأغلب الظن أنه كان قبر العاهل العظيم ، ووهم البعض من بعض جـزئيات عمارة هذا القبر أنها تشتمل على أثر الفن الأيونيوى ، ولكنه وهم على أساس غير سليم

ولم يزحف قورش على مصر لأنه كان فى العشر السنوات الأخيرة من حكمه فى شغل شاغل عن التوسع فى الفتح بتأمين تخومه الشرقية من عدوان القبائل الرحالة ، وقد لاقى حتفه فى أثناء هـذه الحملات سنة ٥٢٩ ق٠م بكيفية بقيت للآن سرا من أسرار التاريخ ٠ وقد أعقب ولدين وارثه قمبيز وسمرديس semerdis هـذا الذى قتل غيلة بتدبير أخيه الأكبر ، ولم يعلم أكان له العذر فى ذلك أم لا ؟ ٠

أما قمبيز فكان هدفه الاول فتح مصر ٠ ولكن اعتلاء ملك جديد للعرش فى مثل الظروف التى جاء فيها قمبيز كان من شأنه أن يكون محفوفا باحتمال حدوث بعض القلاقل التى تتطلب يقظته وانتباهها فضلا عن حوادث الحدود التى اشتدت وطأتها بوفاة قورش ٠ وقد انقضت أربع سنين حتى استطاع ملك الفرس أن يتحين الفرصة للتحرش بمصر ، ومحاربة فرعونها أحمس الذى وافته منيته بينما كان قمبيز ما زال يعد عدته للهجوم على بلاده٠

وقد تمتعت مصر فى عهد أحمس بتقدم ورخاء عظيمين استمرا طوال مدة حكمه البالغة أربعين سنة ٠ ولكن أسباب ضعفها كانت تهيأت ونمت فعلا ، فان الجنود الأجنبية المأجورة كانت لا تزال فى تلك الآونة هى الجيش المعول عليه فى البلاد ، وقد كان خلفهم هو عين خلق المأجورين وكان اخلاصهم موضعا للريبة ، كما أن ما أولاهم الملك من نعمة جعلهم محلا لحسد رعاياه المصريين ففر أحد قادتهم واسمه فانيس من أهل هاليكرناسوس Phanes of Halicarnasus من البلاد وعرض خدماته على قمبيز ٠ وقد كانت هذه الخدمات على درجة عظيمة من الاهمية نظرا لالمامه العظيم بأحوال البلاد ٠



قبر الملك قمبيز

هـذا البرج القائم قريبا من باسارجادى والذى لا يزال أسفله صلدا تبلغ مساحة قاعدته ٢٣ قدما مربعا ، وارتفاعه ٣٩ قدما ٠ أما جزؤه العلوى فقد احتوى على حجرة ترتفع ١٦ قدما عن سطح الأرض ، ويرقى اليها بعدة درج ٠

قمبيز يصبح فرعونا

وكان أحمس يؤمل فى احراز السيادة البحرية فيما توقعه من نزاع محتوم بين مصر وفارس وذلك بمعونة حليفه القديم بوليكرات Polycrates طاغية ساموس samos ولكن الذى خلفه على عرش مصر « ابسماتيك الثالث » أدرك أن بوليكرات قلب له ظهر المجن ، وتحول الى جانب فارس ٠

وعملا بمشورة فانيس Phanes استطاع قمبيز أن يحصل على الماء الكافى لجيوشه من زعماء الأقاليم التى كان عليه أن يجوبها فى الصحراء الجنوبية فلما وصل جيشه الى القلعة الامامية على الحدود فى بيلوزيوم Pelysium استطاع أن يقرر مصير مصر بمعركة دموية واحدة ، وان تكن قلعتا هليوبوليس ومنفيس قاومتا مقاومة عنيفة بعض الزمن لكن فى النهاية انتهى الأمر بأن أصبحت مصر أيالة فارسية فى ربيع سنة ٥٢٥ ٠

وكان قورش عقب فتحه بابل قد اتخذ لنفسه تاج ملوكها السابقين واستشعر طقوسهم الدينية بالرغم من كونها مغايرة لطقوس دينه ، وكذلك نحا نحوه قمبيز عندما دانت له مصر ، ونادى بنفسه فرعونا كأنه من صميم المؤمنين بالاله آمون ولم يجل فى صدره أدنى ريبة ولا خشية من عدم الولاء لديانته الزادشية ، وهو سلوك لم يكن ليجول فى خاطر أى حاكم من الآشوريين وان كانت هذه السياسة هى التى امتنت الأمر بها لهذه الأسرة الفارسية ٠ وكان يلوح من بوادر الامر أنها سائرة على اذلالها ولكن لم تلبث أن وقعت كوارث خيبت الآمال ٠ ذلك حينما كانت قرطاجة هدفهم التالى ــ أى بعد مصر ــ فأبى



الملك دارا على رأسه التاج

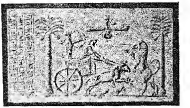
كان الملك دارا يتصف بفضائل انسانية عديدة ومزايا ادارية جليلة ، بالرغم مما اشتهر به من الجبروت ضد من يتحدون سلطانه . فيعزى اليه اصلاح نظام المرزبيات وانشاؤه نظاما للبريد،ونقدا موحدا ، وعمارة بحرية مرهوبة الجانب .

الملاحون الفينيقيون اباء قاطعا أن يحملوهم فى سفنهم لمقاتلة بنى جنسهم القرطاجيين وترتب على امتناعهم هذا العدول عن هذا المشروع ، ثم أراد قمبيز أن يضم اليه واحة آمون فوجه اليها حملة قوية ، الا أن هذه الحملة منيت بعواصف الصحراء التى هبت عليها فأبادتها وغيبتها الى الأبد تحت رمال القفار ، ولم يعد منها من يحدث بخبرها . ثم تولى بنفسه قيادة حملة أكبر منها لاخضاع مملكة بنات فى بلاد النوبة ، ولكن فى هذه أيضا ضلت قوافل الزاد والمؤن فاضطر أن يقفل بجيشه الذى عضه ناب الجوع ليضرب فى أكباد الصحارى والقفار وراء جنادل النيل الأعلى ، وكان من أثر ذلك كما جاء فى رواية مؤرخى اليونان أن جن جنون قمبيز بسبب هذا الحادث الخطير فصب جام غضبه على الديانة المصرية التى حاول فى بادىء الأمر استرضاءها ، وتعظيم آلهتها التى أصبحت فى نظره شياطين بعد هذه الأحداث كلها .

وتناهت هذه المصائب الى الداهية الدهياء حيث وردت الأنباء من بلاد فارس بقيام ثورة أهلها أتباع الديانة المجوسية القديمة Magian مناهضين فى ذلك الزرادشتية وهى دين الأكمينيين ، وأنهم نادوا بسميرديس زائف ملكا على البلاد ، ولكن سلطان الفرس توطد فى مصر

موت قمبيز

وبقى هناك غير منازع نحو ثلاثين سنة ، ومن ثم ولى قمبيز وجهه نحو الشمال بجزء من جيشه وبعض الأشراف البارزين ، ومن بينهم أحد أبناء عمه الأبعدين ، وهو دارا الأكمينى بن هيستاسبس Hystaspes للقضاء على ذلك المدعى ، ووافته منيته فجأة فى احدى بلاد سوريا



ختم أسطوانى لدارا

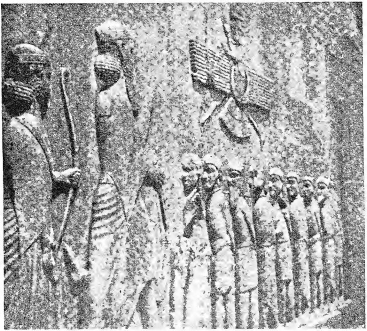
صورة دارا يصطاد السباع بين أحراج النخيل ويرى اسمه منقوشا بالفارسية والسوسية والبابلية كما يرى فى أعلاه رمز أهورامازدا آلههم القومى فى دائرة ذات أجنحة .

وسار الجيش فى طريقه الى فارس ، وحملوا جثته معهم الى وطنه، فتراجع المدعى من السوس الى ميديا حيث كان المجوس أعز نفرا منهم فى فارس . ولكن دارا واصل مطاردته حتى أدركه وفاجأه بضربة أسقطته صريعا هو وستة نفر جميعهم فارسيون .

ولم يكن أحد باقيا من ذرية قورش ، ولكن دارا ووالده هيستاسبس الطاعن فى السن ، الذى كان حينئذ واليا على خراسان مهد الزرادشتية كانا يمثلان وقتئذ النوع الأصغر من البيت الأكمينى Achaemenes ، لذلك آل تاج قورش الى دارا فاعتلى العرش سنة ٥٢٢ ق.م.

لقد قامت الامبراطورية الفارسية التاسعة على أكتاف رجل واحد ، وانتظمت فيها تحت حكم رجل واحد شعوب وممالك كثيرة لم يسبق لعدد مثلها أن انتظم تحت لواء واحد . ثم ضم ولده مصر الى امبراطوريته التى لم تماثلها فى اتساعها أمة أخرى من قبل ، وأخيرا مات بعد أن حكم ثمانى سنوات غير معقب وارثا ذا حق صريح فى وراثة ملكه . وقصارى ما أتيح لدارا أنه تمسك بكونه أدنى قريب للملك المتوفى

مع استناده على معاضدة فارسية قوية . فلو أنه والحالة هذه استطاع مجرد الاحتفاظ بوحدة الامبراطورية وصيانتها من التفكك وحسب لكان قد فعل خيرا كثيرا ، ولكنه فعل ما هو أفضل وأكبر من ذلك وهو وضعه النظم التى كفلت بقاء الامبراطورية غير منقوصة نحو المئتى عام . ولم تكد تمضى على جلوسه سنتان حتى استتب له الأمر غير منازع . وبقيت الحال على هذا الهدوء والاستقرار نحو عشرين سنة لم تبد فيها بادرة ثورة جديدة . أما فى السنتين الأوليين فكثرت الفتن ضده وشقت ميديا عصا الطاعة مؤملة ارجاع السلطان لبيتها المالك على الفرس ، كما أن الفرس أنفسهم ثاروا زاعمين أنه ما زال بين الأحياء حفيد لقورش العظيم ، وبين هذا وذاك ثارت بابل وأرمينيا مؤملتين فى استعادة استقلالهما . بل بلغ الأمر أن بعض موظفى الامبراطورية مثل قيلقى مصر وليدياجاشت بنفوسهم المطامع لتأسيس مملكتين مستقلتين فى ولاياتهما . بينما كانت الجيوش الوحيدة التى يستطيع الامبراطور أن يعول عليها تعويلا صحيحا هى جيوش فارس بقيادة بعض الأعيان الذين لم يكونوا موضع ريبة قط فى حياتهم . وكان على هذه القوات أن تتفرق هنا وهناك بين الأنحاء القاصية لكى تصد الأعداء عن البلاد فلم تنقض سنتان حتى قضى على جميع العصاة المتمردين ، الذين لم يكن بينهم لحسن حظ الامبراطور خطة للاتحاد ضده .



دارا يحتفل بفوزه عـلى عشرة زعماء ثاروا عليـه

يرى الملك رافعا يمناه ــ وقد حف به تابعان (ظهر أحدهما فقط) ــ يصلى شكرا للاله أهورا مازدا على ما نال من نصر على جومانا الذى دامت ثورته على الملك سنتين . ويرى جومانا بين يدى الملك والمرازبة التسعة مصفدين فى حبل واحـد وهـم : أثرينا صاحب بان ســـوسا ، نيدنتوبل صاحب بابل ، فراؤورتس صاحب ميديا ، مارتيزا صاحب سوسا ، سترانتا خاما صاحب ساجارتيا . فاهيازداتا مدع تان بأنه سمبرديس ، أراخا صاحب بابل ، فرادا صاحب مارجيانا . واسكنما الأسكوذى . وهذه النقوش على صخرة بهيستان (انظر الفصل ٣٧) .

وفى خلال ثلاث السنوات التالية خلـع أروانس Aroites مرزبان ساردیس ثم أعدم ، كما أعـــدم أرياندس Aryandes مـــرزبان مصر ، ولكنه فى الوقت نفسه بذل الوسائل لترضية المصريين بعد ما أثار غضبهم فى أيام ثورة قمبيز فاتخذ لنفسه ألقاب الفراعنـــة ومظاهر عظمتهم وحرص على كافة الطقوس الدينية الواجبة عليهم • ثم عمر المعابد التى خربت من قبل عهده وأقام هياكل جديد •

فلم تحل سنه ٥١٧ ق • م • حتى كان دارا هو العاهل العظيم المعترف به بغير منازع فى العـالم المتحضر وقتئذ فى آسيا وافريقيا ولم يخرج عن نطاق امبراطوريته سوى قرطاجة ، ولكن اقدامه على محاولات جديدة لم تكن ســـوى محاولات تجريبية لم يتبعها عـزم جدى على انفاذها • ثم بقيت أمامه المعضلة الأبدية التى تعترض كل دولة متحضرة وهى وجود أقـوام من الهمج النهابين حول أطـراف البلاد فلا بد من كبحهم وصـــد هجماتهم ، فهل كان يتحتم عليـه اخضـاعهم وضـــم بلادهـــم الى الامبراطورية ؟ أو يكتفى بحراسة الحـــدود حراسة قوية ؟ ولا شك فى أنه قد وجه فى وقت ما حملة وراء حدوده الشرقية ، ولعل أمد هذه الحملة قد طال لأنها اخترقت عوائق الجبال على حدود بلاد الهند ، بل يزعم الفرس أنهم فتحوها فعلا • وربما أنهم لم يقصدوا بهـــذا القول أكثر من أن الأمراء الحاكمين على الضفة اليمنى لنهر السند دفعوا الجزية لهم •

وكان الآريون من الهندوس قد ثبتوا أقدامهم فى كافة بلاد شمال الهند كما كان لهم التفوق السياسى والدينى فى بلادالجنوب وقد عمت ممالكهم اقليم البنجاب وحوض نهر الكنج ، والراجح أنه فى خلال هذا القرن ــ مع ملاحظة أن التواريخ أبعد ما تكون عن الدقة ــ نزل أمير هندى عن حقه فى التاج الى مؤسس البوذية (انظر فصل ٤٠) ولكن ما لدينا فى بلاد الغرب من وثائق لا يحدثنا عن شىء منهذا الأمر وكذلك



ثائر أسكوذى

كان شـــنخا حاكمـــا أسكوذيا خرج على دارا عند توليته الملك ولـكنه هزم مع المرازبة الآخرين الثائرين ، وأخذ أسيرا •

لا نجد فى الوثائق الهندية نفسها نبأ عن الغزو الفارسى ، والواقع أنه لم يثبت غير وصول دارا الى اطراف الهند لا أكثر من ذلك • ولكنه لم يشترك بنفسه فى هذه الحملة ، وكانت لهتجربة أخرى لم تقترن بالنجاح ، ففى سنة ٥١٤ قاد بنفسه جيشا لغزو أوربا فعبر البسفور على قنطرة من القوارب ولكن اليونان لم يكونوا هـــدفه المباشر ، اذكانت المدائن الأيونيوية Ionian عـلى الســاطىء الأوربى ولايات فارسية فعلا باعتبار فارس حلفا للدنيا على هذه البلاد ، فتوغل من تراقيـــا الى الدانوب ثم عبر هذا النهـــر الى بلاد الاســكوذيين scythian فلاقت جيوشه فى تلك الاقاليم ما تلاقيه سائر الجيوش التى تقـدم عـلى التـوغل فى بلاد روسيا ، وكان غازيا سريع التنقل فلم يظفر به أحد ، ولكن طـريق امداده انقطع عنه فحارب متقهقرا نحو الدانوب وكان على شفا فناء جيشـــه فناء تاما ، وقد عهد الى الكتيبةاليونانية بالدفاع عنالقنطرة ولكنهم لميسلكوا الخطة المنسوبةالى مبلتيـــادس Miltiades طاغيـــة خرسونيس Chersonese وهو أحد نبلاء أثينا ــ وكانت خطته هذه تقضى بتحطيمهم على الموقع ولو أنفذت هذه الخطة لكان من نتائجها تمزيق جيوش دارا شر ممزق • ولكن دارا نجا من حيث لا يشعر من هذه الخيانة المدبرة لهلاكه ، فترك قوة فى تراقيا تحت قيادة ميجابازوس Megabazus ليلقى فى قلوب زعماء الاقليم أن الجميع مفروض عليهم الطاعة والولاء للعاهل العظيم •

هذه هى المميزات البارزة فى هذا المشروع العظيم بحسب رواية الاغريق وتقديرهم ، ولكن هناك فرضا آخر وهو أن اخضاع تراقيا كان الهدف الأصلى ــ وهو الأمر الذى تم فعلا ــ بينما كانت المحاولات وراء نهر الدانوب مقصودا منها الاستطلاع أكثر من قصد الغزو والفتح ــ وذلك يماثل ما قصده يوليوس قيصر فى بريطانيا •

وكانت هذه خاتمة تجارب الفتح فى عهد

دارا ، ذلك لأنه لم يشغل باله بقدر ما شغله تدبير الامبراطورية ، وما من شك في أنه قد وضعها على أسس قورش التي وضعها من قبل على أن هذه ناحية من نواحي الحكم المبسوطة في الفصل ٣٧.ويلي ذلك في قصة الامبراطورية الفارسية فصل وقوف امتدادها بتصدي اليونان لها . وقد وقع فعلا جزء من العالم اليوناني في نطاق الامبراطورية الفارسية فجميع المدائن سواء أكان أهلها دوريين Dorian ، أو ايوليويين Aeolian أو ايونيويين أصليين Ionian Proper في آسيه الصغرى وعلى بحر مرمرة سبق أن خضعت جميعها لسيادة ليديا عدا ميلتوس Miletus التي احتفظت باستقلالها بحكم المعاهده المعقودة بينها وبين الليديين — التي لم تدخل في شئونها الداخلية — بل أبقت لها استقلالا ذاتيا ، تحت زعامة طاغية كل منها . فلما نزع قورش كروسوس Croesus من عرب ليديا حاولت هذه المدائن استرداد استقلالها ولكن بسبب تفرق جهودها في هذا السبيل استطاع هارباجوس Harpagus نائب قورش أن يخمد ثوراتهم دون كبير عناء ، بينما دخلت ميلتوس حظيرة فارس من تلقاء نفسها .

وقدرحل الفوكيون والتياويونTeos التياويون عن ديارهم حذر الوقوع في رق البرابرة فأبحر الفوكيون غربا (انظر ص ٤٠٣) بينما نزل التياويون في أبديرا Abdera على ساحل تراقيا ، وقد أشار بياس Bias حكيم بريني Priene بأن جميع الأيونيويين يجب عليهم الارتحال كتلة واحدة الى جزيرة سردينية أما طاليس Thales حكيم ميلتوس الذي كان قد تنبأ بكسوف سنه ٥٨٥ فاقترح اتحاد جميع المدائن تحت زعامة مدينة مركزية ، ولكن لم يؤخذ بكلتا المشورتين ولذلك آل أمر أيونيا Ionia للتسليم بدفع الجزية العسكرية مع احتفاظها بطابعها الأيونيوي كما كانت من قبل ، وقد وقع معظمها في داخل حدود مرزبة ليديا أو ساردبس بينما ضمت أطرافها الشمالية الى فريجيا أو داسكيليوم . أما التفاصيل التي تتعلق بنظم الامبراطورية وتقسيمها الى مرزبيات فيمكن الرجوع فيه الى الفصل ٣٧ . أما الطغاة المغلوبون في المدائن الايونيوية فقد احتفظوا بمكانتهم بفضل مصادفتهم للمرازبة كل في دائرته .

وهؤلاء بطبيعة الحال فضلوا معاملة الطغاة على معاملة ممثلي الديمقراطية أو العصابة المسيطرة على البلاد وكان من أثر ذلك مارويناه من قبل حينما اقترح ميلتيادس تحرير أيونيا Ionia بقطع الطريق على دارا وهو أسكوذيا ولكن هذه النصيحة أهملت باعتبار نصيحة . هيستياؤوس Histiaeus طاغية ميلتوس الذي آثر استبداده بالأمر على تحرير هيلاس Hellas وقد امتازت جزيرة ساموس بمصير خاص فلم تخضع لليديا فقط ، وتوافرت لها تحت حكم طاغيتها بولبقراط Polycrates قوة بحرية خطيرة فنبذ معاهدته السابقة مع عاهل مصر أحمس وعرض خدماته الوديه على قمبيز ولكنه لم يلبث حتى راح ضحية الغدر والخيانة فقتل بتدبير ذلك المرزبان الطموح أوروينيس Oroites حينما كان دارا مشغولا بالحرب دفاعا عن ناجه ، أما جزيرة ساموس فنشأت استبداد طاغيتها القاسي الذي حقق للجزيرة السعادة وان تكن مقترنة بآلام جسام،ثم طردوا من البلاد صولوسون syloson أخا الطاغية القتيل فلاذ بدارا مستغيثا به فأعاده لبلاده وجعله واليا من قبل العاهل العظيم ولو أن هذا لم يتم الا بعد هلاك الأغلبيه العظمى من سكان الجزيرة ، وقد دفعت أسبارطا sparta حينما كان بولقراط متفقا مع فارس على ارسال حملة بحرية لم تتعود مثلها من قبل لرفع النهر عن الجزيرة ، ولكن سوء الادارة والفشل الذي حل بهذه المدينة طبع فيها نفورا متأصلا من الأعمال البحرية التي لم تكن من شاكلة ما طبقت عليه هي من نظم حربية بريه .

وقد كان حكم الفرد ملائما لحكومة فارس فأيدته بطبعها بينما كان كل اقليم على حدته يتحين الفرصة لخلع طاغيته ، فكانت حكومة فارس هي السد المنيع لحماية هؤلاء الطغاة وان تكن ثمت عوامل أخرى أقل منها شأنا في الزود عنهم . ولكن حكومة فارس صمدت للدفاع عنهم وقد كانت هذه الواقعة بمثابة الهشيم كلما حدثت أحد الطغاة نفسه باشعال نار الفتنة الأيونيوية التي كانت مستهل النزاع الذي طال أمره بين المشرق والمغرب .

قبل أن يتألق نجم قورش كانت أسبارطة الواقعة في شبه جزيرة المورة أحرزت تفوقا حربيا ظاهرا جدا أدى بكروسوس Croesus ملك

لبديا الى أن بخطب ودها ويسعى لمحالفتها بوصفها زعيمة الحكومات الهيلانية وقد تأيدت

الأحداث السياسية في بلاد اليونان الأصلية

هذه المنزلة الحربية بعد حرب تيجيا Tegea الواقعة فى أركايا والتى انتهت بظفر اسبارطه بعد حرب شعواء • وقد صارت تيجا (حوالى المدة بين ٥٦٠ ـ ٥٥٠) ولاية خاضعة ملزمة بتقديم العون الحربى لاسبارطة دون أن نفقد شخصيتها المستقلة •

وقد قضى الأمر نهائيا بالاعتراف بتفوق اسبارطه حربيا وذلك بعد ظفرها فى المعركه التى نشبت بينها وبين خصمها ومنافستها اللدود فى شبه الجزيرة وأعنى بها أرجوس Argos وذلك فى بدء عشر السنوات التاليه لهذه الفترة •

ولم تعد الرغبة فى ضم البلاد بعد الحروب المسينيه جزءا من سياسه أسبارطة ، ذلك لأنها لم تكن ترمى الى تأسيس امبراطوريه بل قصرت همها على زعامة الجامعه اليونانيه وطلبت من دويلاتها الاعتراف بهذه الزعامه دون أن تتمسك بحكم جميع المدائن الهيلانيه ، وكانت هذه السياسة تقتضى التدخل الاستبدادى فى شئونهن ، وان يكن ذلك بدعوى الدفاع عن الحقوق العامة للبلاد • وعلى هذا الأساس تدخلت أسبارطة فى شئون الدويلات الأخرى لتساعدها على وقف تسلط الطغاة عليها ولم تفلح هذه الخطه فى بعض الأحيان كما حصل فى حاله بوليقراط طاغية ساموس ، أو كلما كانت تعتمد المدينة على مجاهد محلى عامل على تحريرها فكان موقف الطاغيه مزعزعا دون تدخل أسبارطه .غير أن زعامةأسبارطه تقررت تدريجيا نتيجة معاهدات التحالف التى بينها وبين المدائن اليونانيه والمعروف بالعصبة البليبونيزيه •

توالى انضمام دويلات المورة الى العصبة وكذلك بعض البلاد الخارجة عن نطاقها وان لم يكن انضمامها للعضويه كاملا بمعناه الحرفى ـ ولكنه كان فى صورة محالفه مع أسبارطه ، التزم الجانبان بمقتضاها بحسن الجوار وعدم

أغراض العصبة البليبونيزية

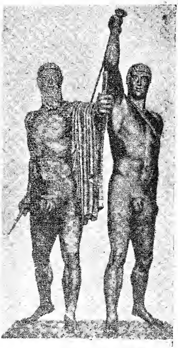
عدوان أحدهما على الآخر ثم بالتعاون على صد أى عدوان يأتى من الغير ولم يكن ارتباط العصبة فى صورة تحالف بين جميع الأعضاء بل أتخذ صورة محالفة كل منهن على حدتها لأسبارطة • وبذلك كانت الزعامة العملية لأسبارطه ظاهرة جدا فى هذا الوضع • حتى أنه اذا نزلت جيوشهم فى الميدان نزلت اليه بوصفها جيوش « أسبارطه وحلفائها » وتولى قيادتها قواد أسبارطيون وأمنوا تعرض أى دولة داخلة فى العصبة • وشذت أخايا Achaea وهى شقة ضيقة غير دوريه واقعة على الساحل الجنوبى لخليج كورنثة وظلت خارجة عن نطاق العصبة لأن اسبارطه لم يكن لها مصلحه فى انضمامها وكذلك آرجوس Argos التى آثرت العزلة حسدا منها لأسبارطه •

أما الدولتان الواقعتان على البرزخ وهما كورنثة وميجارا فقد انضما للعصبه ، وسنرى فيما بعد أن أثينا نفسها انضمت اليها فى فترة من الزمان ، لأنها لم تكن قد اشتد ساعدها بعد لمنافسة أسبارطة فى زعامه الهيلانيين • أما ايجينا Aegina تلك الجزيرة غير النائية فقد انحازت الى آرجوس عدوة أسبارطة كما أنها نافست كورنثة فى تجارتها والتزمت خطة العداء الدائم لأثينا •

وهكذا دعمت السياسة العلاقات الوديه بين هاتين الدولتين وبين أسبارطه •

أما أثينا فلم تكن الى ذلك الحين تزيد على أنها احدى مدن شبه الجزيرة المعترف بأنها من مدن الدرجة الأولى مع اعترافهن جميعا بزعامة أسبارطة ، ومع أنها كانت قد بلغت شأوا كبيرا فى الملاحة والتجارة البحرية فانها لم تتبين بعد أن البحر سوف يكون مهد عظمتها المستقبلة ، .أما تقدمها فى الديمقراطية ـ وكانت بعد لم تصل الى الديمقراطيه السليمه ـ فهو من الأمور التى تستدعى اهتماما خاصا لأن أثينا من الناحية السياسية لم تكن مقصورة على المدينه وحدها بل شملت اقليم أتيكا كله ، حيث كانت المصالح المترتبة على الخلافات الاقليمية تستوجب العمل على التوفيق بينها كما كان يحدث فى المدائن الأخرى ، ومع ذلك فسوف نبحث هذه المسائل بحثا مستفيضا فى الفصل ٣٦ •

ولا يفوتنا أن نذكر ونحن فى هذا الصدد أن التاريخ اليونانى فى النصف الأول من القرن السادس ، امتاز بثلاث ظاهرات بارزة ، :
(أولاها) الاتجاه الى احلال النظام الديموقراطى محل النظام الأرستقراطى الذى بدأه صولون



قاتلان سياسيان من أثينا

اغتيل هيباركس أخو هيبياس طاغية المدينة سنة ٥١٤ ق . م وقاتله هو هارموديوس (رافع السيف فى الصورة) اريستوجيتون وقد ابتدع الأثينيون مجموعة من تذكارات « المحررين » ، وهـذا الرسم مثال منها .

(وثانيتها) ضم جزيرة سلاميس Salamis الى أثينا نتيجة لظفرها فى حرب وقعت بينها وبين ميجارا (وثالثتها) نجاح البطل المغوار بيزستراتوس وتنصيب نفسه طاغية على المدينة .

وقد تكون اتحاد من الأشراف فى السهل مع أحد حزبى الشعب بمنطقة الشاطىء بزعامة ميجاكليس Megacles الألكميونى عميد احدى الأسرات البارزة التى اشتهرت بالمشاغبة، واستطاع هذا الاتحاد خلع بيزستراتوس بعد أن تولى الحكم خمس سنوات، الا أنه لم يمض غير خمس سنوات أخرى حتى تم التفاهم بينه وبين ميجاكليس فعاد لسلطانه فترة وجيزة ولكن العهد لم يطل بعد هذا الائتلاف بينهما ، اذ نشب بينهما خصام جديد انتهى بابعاده عن الحكم عشر سنوات سويا . أما

الارستوقراطية ضد الديموقراطية

الفريق الثالث هو حزب الجبل ، الذى مكنه من الحكم فى بادىء الأمر ، فقد استمر مستمسكا به. وما وافت سنة ٥٤٠ حتى ظهر بيزستراتوس فى أتيكا على رأس قوة من الجنود المأجورين ، ساقهم اليه بعض أصدقائه ممن اصطنعهم لنفسه خارج البلاد فى أول عهده ، فاستطاع بعد ذلك أن يعود للحكم للمرة الثالثة ، واستتب الأمر لهذا الطاغية بغير عناء ، فاستمر حاكما اثنتى عشرة سنة أعقبتها ثمانى عشرة سنة أخرى قبل خلع ابنه هبياس ونفيه .

وقد كان بيزستراتوس مستبدا محافظا على شكليات صولون ونظمه ومستعينا بأعوانه ورجاله ، سواء أكان ذلك فى شئون الشعب أم فى مقاومته للارستقراطيين .

أما فى سياسته الخارجية ، فقد كان سياسيا قديرا استطاع أن يحافظ على العلاقات الودية مع أرجوس وأسبارطة واشتهر برعايته للفنون والآداب . ولكن لعل أعظم ما أولاه النفوذ فى أثينا هو ما كسبه لها من منزلة رفيعة فى منافذ بحر مرمرة . حيث نصب الشريف الأثينى ميلتيادس — وهو والد ميلتيادس الذى مر علينا اسمه من قبل — طاغية على خيرسونيز Cheronese على أثر ترشيح القبيلة التراقية المستوطنة فى هذا الاقليم، وهى قبيلة دولونكى، حينما دعته ليتولى الحكم المطلق فيها ، فقبل ذلك وأيدته طائفة من المستعمرين الأثينيين ، أما سيجيوم الواقعة على الشاطىء الاسيوى ، فقد انضمت الى أثينا فعلا بفضل جهود بيزستراتوس .

وقد طغت عاطفة جارفة خاطئة على قصة خلع بيزستراتوس أما هيبياس ، فقد حكم حكما مطلقا ، وان لم يكن حكما استبداديا نحو أربع عشرة سنة ، ثم نشب نزاع شخصى محض ، بخدش كرامة جميع من اشتركوا فيه ، بين هيبارخوس Hipparchus أخى الطاغية وبين أثنين من أعوانه فى الحكم وهما هارموديوس واريستوجيتون فصمم هذان الأخيران على قتل الأخوين الحاكمين فى عيد الجامعة الأثينية ، وذلك طبعا باسم الدفاع عن الحرية . ولكنهم لم يظفروا

الا بقتل هيبارخوس ، فانزعج لذلك هيبياس وانقلب طاغية قاسيا ، وبفعله هذا قضى على حكم الفرد فى أثينا قضـاء مبرما . اذ أن الأثينيين استطاعوا بعدأربع سنوات بمساعدة كليومينيس ملك أسبارطة أن يطردوا الطاغية من البلاد وقد كان متحكما فيها هو وأسرته ، واعتقلوهم فى مكان سحيق داخل ممتلكات الملك العظيم (سنة ٥١٠ ق . م) .

وقد تدخل كليومينيس بناء على طلب كاهن دلفى الذى لا شك فى أنه كان يقع تحت تأثير الألـكمينيين المطـرودين من البلاد وقد مهـد لعودتهم للحكم طرد أعدائهم الموالين لبيزاستراتوس ثم صارت أثينا عضوا فى الحلف البليبيونيزى فترة من الزمان وعاد كليستين بن ميجاكليس لزعامة حزب الألـــكيمنيين فانبعثت من جـديد بينهـم النزاعات الحـزبية ، التى

أثينا تنحـاز الى الديمقـراطية

كانت قد خمدت تحت ضغط الحكم الاستبدادى، وبالرغم من تدخل ملك أسبارطة بناء على مشورة خاطئة فى المسائل الداخلية المحضة لدولة حليفة وبالرغم من معونة طيبة وخلقيس كان النصر من نصيب كليستين ، وهو الذى أنفذ بعد أن آل اليه الحكم تلك الاصلاحات الدســـتورية التى سنشرحها فى الفصل ٣٦ والتى أصبحت أثينا بفضلها نموذجا للديمقراطية وذلك حوالى سنة ٥٠٦ ق . م .

وهنا أيضا لعبت أسبارطة دورها التقليدى،وهو الانحراف الذى طبعت به سياستها ، كما تميزت به سياسة طيبـة ، وأعنى به الأخذ بنـــاصر الارستقراطيةضدالأحزاب الديمقراطية . وترتب على تدخل طيبة انفصال بلاتايا تلك المدينـة الصغيرة التى أصبحت حليفة وفية لأثينا التى ساعدتها على هذا الانفصال،وحفظت لها هذا الصنيع بعد أن كانت مرتبطة بحلف بووطى تتزعمه طيبة ولكنها كانت فى هـذا الحلف عضوا عصيا، فكان هذا الفصل من الرواية مدلا لأسبارطة ، ولم يتجه كما بدا لأول وهلة ناحيـة توثيق العلاقات الودية مع الدولة الناشئة .

وقد سقطت مدن ايطاليـا وصقلية تحت حكم المســتبدين كما سقطت مـدن الشرق ، ومن طغـاة مـدن ايطاليـــا فالأريس حاكم أكراجاس (أجريجنتوم) الذى أصبح مضرب المثل بأعماله البربرية المتناهية فى الشدة والقسوة ، وذلك حوالى منتصف ذلك القرن . ثم احتدمت كعادتها بين المدن ، دون أن تفوز احداهن بالغلبة على الأخرى ، الى أن تغلب جيلون وأقام نفسه حاكما على سرقوسه فى أوائل القرن الخامس ، فبدأت هذه المدينة تكسف سلطان البلاد المجاورة لها ، كما لعبت أهم الأدوار فى تاريخ النزاع مع قرطاجة ، ذلك النزاع الذى كان قد اقتربت ساعته .

وقد عملت هذه الدولة الفينيقية على ازدياد شأنها ماديا فى غرب صقلية وذلك فى خلال الربع الثالث من القرن السـادس بينما كان للمغامرين من مستعمرى اليونان ـ وبخـاصة داريوس الأخ الشقيق لـــكليومينس ملك اسـبارطة ـ مصالح فى دائرة نفوذ قرطاجة ، ولكنها مصالح وهمية، على أن أعظم الحوادث شأنا فى نصف القرن حصلت فى ميدان ناء عن صقلية ، ذلك أن العمارتين البحـريتين التـــابعتين لقرطاجة





أسطورة رومانية فى قبر أترورى

يروى هذا النقش المنقول عن جـدار قبر أترورى من القرن الرابع أسطورة من العهد نصف الخرافى فى تاريخ أتروريا وروما،فترى فى الصورة العلوية كنيف تارشو روماك Cneve Tarchu Rumach ، وهو المسمى جنيس تاركونيس رومانس ولعـله هو تاركونيس برســكس الذى هو أول ملوك روما من الأتروريين ، ويرى فى رسم آخر خلفه سيرفيوس تليوس .

واتروريا ، اتحدتا معا عند عدوان الاغريق على بلادهم ٠

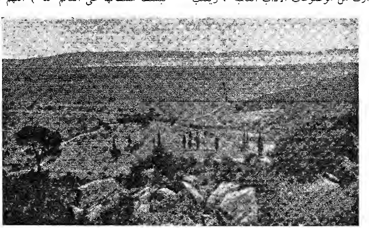
وكان الفوقيون من أهل أيونيا قد أسسوا من قبل مستعمرة لهم فى ألاليا من أعمال فورسفه ، فهاجروا اليها الآن بقضهم وقضيضهم حذر الوقوع فى قبضة فارس ، وأملا فى انشاء فوقيه الجديده فى صقلية،ولكن أساطيل اترووريا وقرطاجة تصدت لهم متحدة ونشبت بينهما تجاه ألاليا موقعة بحرية حامية ، أكرهتهم على الجلاء عن قورسفة ، التى احتلها الاترووريون سنة ٥٣٥ بينما ولى الفوقيون وجوههم نحو تأسيس ما ساليا « مرسليا » وضم القرطاجيون سردينيا الى أملاكهم ٠

أما الحادثة الثانية ذات الأهمية العظمى ، فقد وقعت فى داخل ايطاليا نفسها ، وهى أن الأشراف من الرومان ، طردوا من البلاد أسرة التاركوينيين الاتروربة ، وأقاموا مقامها حكومه من الشعب أو جمهورية من الأشراف ، وذلك فى السنة نفسها التى أجلى فيها الأثينيون أنصار بيزستراتوس ٠

وقد أصبحت الأساطير البديعة التى وضعت عن هذا الطرد جزءا من عقيدة كل رومانى ، وصارت من موضوعات الآداب العالمية ، ويغلب على الظن أنها على شىء من الصحة ، ولعل رومة (التى كانت تحت حكم ملوك أكفاء وان كانوا غير محبوبين) هى أقوى دويلات الاتحاد اللاتينى فى ذلك الحين ، وهو الاتحاد الذى كانت تسيطر عليه الأسر الاتروريه أو المصطبغه بالصبغه الاترورية ، كما كانت هذه الأسر تسيطر على رومه نفسها ، ولكن ثورة رومة كانت عائقا قويا دون تفوق اتروريا ، ولو أنه بقى علـــى رومه أن تجاهد السنين الطوال قبل أن تأمن على بقاء ما كسبته من حرية ، ولكن طرد الملوك أنزل ضربة قاضيه بآمال القوى غير الآرية وتهديدها بأن تسود ايطاليا ٠ ومع ذلك فلا تزال تفاصيل أخبار رومه الى هذا الحين غامضة لا تصلح أن تكون مادة لفصل يدرس وستبقى أمرها كذلك فترة أخرى من الزمان ٠

نشـــوب الثورة الأيونيوية

فى نهاية القرن السادس كان دارا ملك الملوك غير منازع فى امبراطوريته الشاسعة التى ورثها عن قمبيز بن قورش ، وهى الامبراطورية التى ترامت أطرافها الى مالم تبلغه امبراطوريه قبلها ، ولم تبد فى داخل حدودها أيه بادرة من بوادر الثورة (وقد كان يبدو فى ذلك الحين أن هذه الامبراطوريه قدر لها أن تبسط سلطانها على العالم كله) اللهم الا فى



سهل ماراثون الذى قضى فيه اليـــونان على قـــوى الفرس

غزت الجيوش الفارسية فى أوائل القرن الخامس بلاد اليونان فتصدت لها قوة يونانيه يقودها كاليماخوس وملتيادس ، وعسكر الفرس على ساحل سهل مراثون ، ولكن اليونان الذين كانوا دونهم بما لا يقل عن ٣ الى ٢ التقوا بهم فى مدخل مضيق جبلى ، وكان معظم القتال يدور فى الجناحين حتى اضطروهم الى التقهقر والفرار الى سفنهم بعد أن منوا بخسائر فادحة وبالرغم من ذلك عاود الفرس الكرة بقوة أعظم من قوتهم السابقه بعد عشرة أعوام من تلك الواقعة ٠



رســوم رمزية تمثل انتصار أوربا على آسية

هذه الصورة الجميلة من آثار القرن الرابع وهى مزيج من الطراز اليونانى الرومانى . وهى منقولة عن خابية نبيذ عثر عليها فى بلدة كانسيوم ومحفوظة فى نابلى ، ويرى فى وسطها دارا يستشير أكابر دولته فى مسألة اعداد الحملة على بلاد اليونان . ويرى فى أسفلها خازن المالية يجمع الضرائب لاعداد الحملة ، وقد بدت فى أعلى الصورة (من اليسار) الآلهة حماة اليونان (وفى اليمين) أجلس تمثال يرمز لآسيا تقودها فى الحرب أبات Apate ربة الخداع •

النخوم البربرية القاصية ، وبالرغم من أن الجهة الوحيدةالتى حاول الملك توسيع ملكهمن جانبها كانت تراقيا التى حاول اخضـاع قبائلها ، تلك القبائل التى اعتادت منذ ما وعى الانسان حوادث التاريخ أن تغير عصاباتها اغارات مخربة على البلاد التى أصبحت الآن داخلة فى نطاق امبراطوريه العاهل العظيم ، أقول بالرغم من هذا كله ، كان شبح الثورة دائبا •

وقد دبر الثورة أحد الطغاة ، عندما ضاق ببعضالناس له لاستبداده، فوجدت من الشعب اليونانى أكبر ظهـير ، وهو الشـعب الذى تأصلت فى نفسه بذور الميل الى الاستقلال السياسى •

وقد أثارت مطامعهستيايوس طاغية ميلتوس ريبة الحاكم الفارسى ، وترتب على ذلك أنهم استدرجوه الى بلاط السوس . عاصمة الفرس القاصية واعتقلوه بها ، حيث عومل معاملة رفق ومجاملة!وحل محلهفى ميلتوس صهرهأرستاجوراس الذى أراد تعزيز مركزه فى بلاط الامبراطور ، فدبر خطة لضم جزائر بحرايجة ، وقدمها غنيمة الى أرتافرنيز مرزبان سرديس الذى تقبلها منه ولكن هذه الخطة فشلت فشلا ذريعا ، أفقده كل أمل فى رضاء حاشية الامبراطور •

وقد بعث هذا الفشل فى نفسه النهـوض بمحاولة اليائس ففكر فى القيام بثورة منظمة ، وتمهيدا لذلك ، قام بطرد الحكام المسـتبدين طردا عاما . وبث الدعاية السياسية القـوية فى بلاد اليونان الأصلية ، لكى يمدوه بالقوى المسلحة ، التى تمكنه من تحرير اليونانيين من نير البرابرة • ونفذ طرد الطغاة فى الـوقت المناسب وتنحى أرستوجارس عن مركزه ، دون أن يكرهه أحد على ذلك ، ووقفت اسبارطة غير مكترثة ترقب الحوادث ، أو لعلها كانت منها على حذر ! أما أثينا وارتريا فقد أرسلتا المدد البحرى الى الثوار . فزحفوا تجاه ساردیس واحتلوها ولكنهم لم يحتلوا قلعتها وذلك فى سـنة ٤٩٨ ثم ذهبت عاصـمة ليديا القديمة

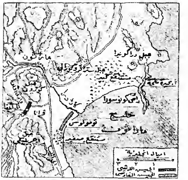
طعمة للنيران حينما شب فيها حريق عرضى . ثم تقـــدم الثوار وحلفاؤهم تجـاه الساحل واصطدموا فى طريقهم بجيوش فارسية فالتحموا بها دون أن ينالوا فوزا عليها ، وأخيرا أبحـر الأثينيون والارتريون عائدين الى أوطانهم .

وقد زعم هستياؤس فيما بعد ، وهو الذى استطاع أن ينجو بنفسه ويأوى الى مكان حصين وراء البحر ، أنه هو صاحب الفضل فى تدبير هذه الحركة كلها ، ولكن يغلب على الظن أن هذه الفكرة طرأت له متأخرة فى أعقاب الحوادث ، ومهما يكن من شىء ، فانه بعـــد أن اتخـــذ الفرصة مهنة له قبض عليه أرتافيرنيز وصلبه .

بوادر غزو الفرس لبلاد اليونان

وقد أخمد الفرس الثورة التى امتدت الى كاريا وقبرص بشىء من العنــاء ، فقد أعيدت قبرص بقوة الأسطول الفينيقى الذى هزم أيضا الأســطول الايونيوى فى لاده Lade ، وتلقت أيضا ميلتوس وهى المدينة التى تولت زعامة الثورة ، ضربات أليمة بعد أن عانت ما عانت من حصار شديد ، كما أخضعت عدة جزائر أخرى ، ولكن الثوار عوملوا بوجه عام بتسامح كبير .

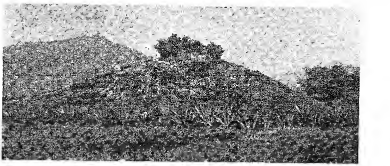
وكان المظنون أن المسألة تنتهى عند هذا الحد ، لولا أن أثينا وارتريا تدخلتا فيها من



خريطة تقريبية لموقعة ماراثون

عسكر جيش أثينا فى فرانا ، وكان الفرس قد توغلوا فى السهل ثم أطبق الجيشان على معبد جبلى موصل الى أثينا ولما شرع اليونان فى الهجوم ، تقهقر قلب جيشهم ، أما الجناحان فقد انتصرا ، بعد أن أودع طباق الثرى فى التل الكبير من أبطال العدو .

البداية ، وهو الأمر الذى اعتبره عاهل فارس العظيم فحة لا يتسع لها حلمه ، فصاح متسائلا فى ازدراء ، « من هم الاثينيون ؟ » كما تساءل قورش من قبل « من هم الأسبارطيون ؟ » ولكن هيبياس استطاع فى منفاه أن يجيب على هذا



التل القائم فى سفح ماراثون ، حيث يرقد أبطال المعركة

يقوم فى الجانب الجنوبى الشرقى من مكان المعركة على مقربة من الساحل تل يضم تحت أطباقه رفات ١٩٢ من أبطال الأثينيين الذين سقطوا فى محاربة الفرس ، وان طبيعة البقعة لتدل على سير المعركة ، ذلك لأن كثافة قلب الجيش اليونانى رقت من امتداد طول خط القتال أكثر مما يحتمل عدد الجيش ، فتحطم القلب ، أما الجناحان المنتصران فانقلبا الى داخلية الميدان بدلا من أن يتوجهوا لنهب سفن العدو وأطبقوا على جنود الفرس الذين كانوا يطاردون جنود القلب المولين نحو فرانا

السؤال رغبة منه فى مقابلة ارتافيرنيز فى ساردیس ثم تقول الرواية بأسلوبها الجميل ولقد حلف دارا لينتقمن منهم ولكنه فى الوقت نفسه أزال بعض ما كان يشكو منه الأيونيون من المظالم فاستبدل بحكوماتهم الاستبدادية نظما ديموقراطية ٠

والواقع أن المساعدات التى تلقاها اليونان الخاضعون لفارس من مواطنيهم غير الخاضعين لها هى التى دفعتهم دفعا أو هى التى أوحت الى الفرس أن يحاولوا ادماج العالم اليونانى كله فى نطاق امبراطوريتهم ٠

وكانت ترافيا قد انتهزت الفرصة فأفلتت من قبضة الفرس ، كما أن الأسكوذيين أغاروا من وراء الدانوب على داخلية البلاد ٠ فكان لزاما على فارس أن تبدأ مشروعها بأن تعيد سيطرتها على تراقيا ومقدونيا ، ولم تكد تخمد



سلاح الجندى اليونانى

اليونان مدينون فى ظفرهم العظيم فى واقعة ماراثون للسلاح الكامل الذى دججوا به مشاتهم ويريناهذا التمثال البرنزى الصغير الذى عثر عليه فى دودونا صورة أحد جنودهم المدججين ، وقد سلح بمجن على صورة دورع على ساقيه وترس بووطى ٠

من أتيكا ، ليحولوا دون قدوم الأثينيين لنجدة ارتريا ٠

أما اسبارطة فقد وعدت أثينا بارسال النجدة بعد اكتمال البدر ، لذلك نزلت أثينا الى الميدان وحدها اللهم الا كتيبة باسلة بعثت بها بلدة بلاتيا الصغيرة التى تفانت فى الدفاع عن ولية نعمتها أثينا٠

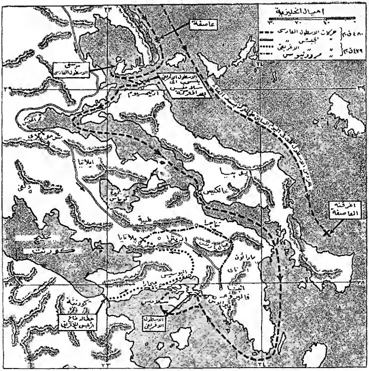
وكانت أقصر طريق بين عوبيا وأثينا ، هى التى تخترق شبه جزيرة أتيكا الى شاليس ، ولاح على حين غفلة للقوة اليونانية التى كانت فى غالب الظن تسير فى هذا الطريق ان الفرس قد احتلوا سهل ماراثون وهو الطريق السهل المؤدى الى أثينا ، بقوة ربما فاقت قوتهم بنسبة ٥ : ١ (وان كانت التقديرات الحديثة نزلت بهذه النسبة الى ٣ : ٢) ونزلوا الى ماراثون من ممر جبلى ، واحتلوا مضيقا منيعا يعز على من برومه ويشرف على

آخر جذوة من نيران الفتن حتى أرسل دارا الى تراقيا سنة ٤٩٢ حملة هائلة برية وبحرية بقيادة ماردونيوس تحقيقا لغرضه ،ولكن العواصف حطمت الأسطول الذى أقل الحملة فبات النجاح الذى أحرزته جزئيا لم يحقق الأغراض المقصودة منها ، ولذلك رأى دارا أنه لابد من تسيير الحملة التأديبية على أثينا وارتريا ، فوجهها اليهما عبر بحر ايجه ، وقدم لذلك بطلب «ماء وتراب» رمز خضوع الجزائر والدول الحرة ، وكان نصيب الجزائر التى أبت أن أنزلها الأسطول منازل العبودية ، وقد انضم هبياس ، الطاغية المخلوع ٠ الى القائدين داتيس وأرتافيرنيز ٠ وهبياس وهو الذى كان يراد اعادته الى أثينا المغلوبة ، فلما وصل الفرس الى ايوبيا ، ضربوا الحصار حول ارتريا ٠ ولكنها قاومت مقاومة عظيمة ، وأشار هبياس بانزال جانب من قوتهم بقيادة داتيس الى الجانب الشمالى من سهل ماراثون ، فى الزاوية الشمالية الشرقية

السهل ، فتحرج الموقف أشد الحرج ، ومنع الفرس بصدهم اليونان عن قاعدتهم فى أيوبيا ، وحردوا أثينا من حماتها ٠ فكفوا عن مواصلة الهجوم منتظرين سقوط ارتريا ٠ أما الأثينيون فلم يكونوا ليستدرجوا من موقفهم ، لأنهم كانوا يعلمون أن كل يوم يمضى يقربهم من الأجل الموعود لنجدة أسبارطة اياهم ، وهكذا لم يجرؤ أحد الجيشين أن يتحرك من مكانه خشية أن تتعرض مؤخرته أو جناحه لضربات العدو ٠

وأخيرا جاءت الاخبار بسقوط ارتريا وبتقدم أرتافيرنيز نحو أثينا ، فتحتم على الاثينيين أن يتخذوا خطة الهجوم فورا ، والا ضاعت عليهم فرصته الى الأبد ، فأقدموا عليها سواء أوصلت نجدة أسبارطة أم لم تصل ! ٠٠

ولما دنا الجيش من العدو هجم حملة الحراب ـوقد وضعوا قصدا أو عفوا فيجناحى الجيش ـ



خريطة تبين خطوط سير الحملة الشهيرة التي قررت مصير أوربا

لما كانت شبه جزيرة بيلوبونيز (المورة) منيعة لا ترام برا ، ولكنها ضعيفة من جانب البحر ، رأى اليونان وجوب قهر أسطول الفرس في لمضايق الواقعة في شمالي ايوبيا ووقف جيوش العدو عند ممر ترموبيلي ، ومع ذلك فان المعركة البحرية عند أرتميزيوم لم تكن حاسمة ، بينما كانت معركة ترموبيلي كارثة لكنها ليست بالكبيرة ولذلك اضطروا أن يجلوا عن اليونان الوسطى ، واستمر أسطول الفرس يطارد الأسطول اليوناني حتى الجاء الى مدينة سلاميس فوجدها مناسبة لتجديد حركاته ، فنجحت هذ الخطة نجاحا عظيما وذلك سنة ٤٨٠ ق ٠ م ٠ ثم انتصر اليونان في السنة التالية انتصارا حاسما في بلاتيا حينما استرد ماردونيس أثينا ٠

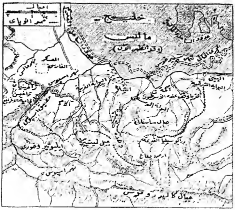
ومع أن القلب ضعف وتقهقر ، فان الجناحين استطاعا أن يتقدما واخترقا صفوف الفرس وقذفوا بهم الى البحر ، فولى الأدبار من نجا منهم ، وآووا الى سفائنهم مع جميع من لجأ اليهم ، تاركين وراءهم ستة آلاف قتيل على الشاطىء ، بينما لم تتجاوز خسارة اليونان المئتين ، فالتف الأسطول بقيادة أرتافيرنيز يعاونه داتيس حول رأس صنيوم ، ولعلهم كانوا يؤملون مفاجأة المدينة خالية من حماتها ، ولكن الظافرين سبقوهم اليها في نفس اليوم الذي حصلت فيه المعركة الأخيرة ، فما كان من الفرس ،وقد تبينوا حقيقة الموقف الا أن صرفوا النظر عن محاولة النزول برا ، ولعل ما ثناهم عن عزمهم هو خشية قدوم الاسبرطيين الذين لم يكونوا قد وصلوا بعد ، فكانت النتيجة أنهم كفوا عن هذه المغامرة نهائيا وعادوا أدراجهم الى آسيه ٠

ولا شك في أن عزيمة اليونان قد قويت بعودة ميلتيادس ، وهو عدو الفرس الألد ،

ذي الصلة القديمة بالثورة الأيونية والذي كان قد غادر من قبل خرنسونيز واليه تنسب خطة الحرب في ماراثون ومناوراتها ، ولو أنه من الراجح أن كاليماخوس ، القائد العام الرسمي كان له فضل في الظفر لا يقل عن فضل ميلتيادس ·

وكان ظاهرا أن معركة ماراثون ما هي الا بداية لمعارك عظيمة يهزم فيها الفرس هزيمة تامة ، ومع ذلك فقد كانت في الحقيقة أهم من ذلك بكثير ، اذ أنها كانت بمثابة الالهام الذي نفخ في روح أثينا فاستطاعت بمفردها أن تسحق قوة أكبر من قوتها من زهرة جيوش الفرس التي اشتهرت من قبل بأنها لا تقهر ·

وقد أظهر سلاح المشاة الثقيل اليوناني في هذه الموقعة تفوقه على أي سلاح آخر كان في وسع الفرس أن ينزلوه في الميدان · وأنهم لم يبلوا مثل هذا البلاء الحسن من قبل ، ولا سيما أن أثينا بمفردها دون أية مساعدة من أسبارطة صمدت للمغامرين ، وأثبتت تفوق اليونان على البرابرة ، وكسبت بذلك منزلة ونفوذا لم تحلم بهما من قبل · ومهما تكن أسبارطة صادقة فيما تذرعت به من وساوس دينية حين تلكئها في النجدة ، فالواقع أن قوتها وصلت الى الميدان

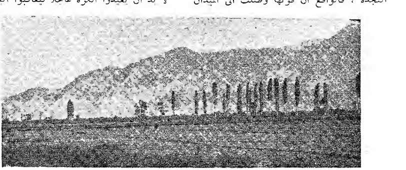


خريطة أقليم تريموبولى

احتفظ ليونداس بتريموبولى ، وما من شك في أن حامية كانت ترابط في تراخيس لتحرس ممر أسوبوس الذي لم يكن أقل أهمية من تيرموبيلي ، وبعد مناوشات قليلة أرشد خائن العدو الى طريق أنوبيا ، فانحدرت اليه نخبة من الفدائيين من جيش فارس متخطين ممر تراخيس وفاجأوا مؤخرة الاسبرطيين في فجر الغد ·

والعدو مول الأدبار ، فلم يبق أمامهم الا تحية الأثينيين واكبار شجاعتهم ثم عادوا أدراجهم الى اسبارطة ·

ولم يفت اليونان بعد واقعة ماراثون أن الفرس لا بد أن يعيدوا الكرة عاجلا ليعاقبوا أثينا على



كيف استطاع الزمن أن يغير من طبيعة الميادين التاريخية

لم يكن ليونيداس ليؤمل في أكثر من صد الفرس في ذلك المجاز الضيق الواقع بين الجبال والبحر وهو المعروف « بالأبواب » أو تيرموبيلي ، بينما كانت الاساطيل مشتبكة فيما هو أهم من ذلك في أرتميزيوم ، ولما لم يدمر أسطول الفرس ، كان مركز ليونيداس محفوفا بالخطر حتى لو لم تحصل خيانة ارشاد العدو الى ممر أنوبيا ، ولو أن هذه المعركة حدثت في أيامنا هذه لكانت مهمته من المستحيلات ، لأن انحسار البحر في منطقة تيرموبولي جعل المنطقة سهلا واسعا صالحا لمنازلة الجيوش وكرها وفرها ·

ما أنزلت بهيبتهم من مهانة ، وأنها لابد جاعلة القضاء على اليونان جزءا من برنامجهما الأصلي حتى لا تتكرر أمثال هذه المآسي . ويجب أن تنتزع بلاد اليونان قطعة بعد الأخـــرى ، ولا سبيل لدفع هذا الخطر الا باتحاد بلاد اليونان جميعها وتضافرها في الاستعداد لانزال ضربة أخرى تكون قاصمة على امبراطورية الفـــرس المتحكمة في معظم بلاد آسيه . ومع ذلك فان الجامعة اليونانية التي كانت الى ذلك الحـــين مجرد حشد عظيم من الدويلات المتماســـكة المعروفة برعاية مصالحها الخاصة المتضاربة ، والتي صممت كل منها على ألا تنزل عن شـــبر واحد من استقلالها ، لم يبد منها بعد أي ميل للاشتراك في عمل واسع النطاق ولم تتوفر لها الأسباب لتحقيق هذا العمل . بيد أن فارس من جهتها لم تكن مستعدة أن تهب عاجلا ، اذ أنها شغلتها حـــوادث مصر التي كان من الواجب التفرغ لها قبل الانصراف الى مشروع اخضاع بلاد اليونان ، ذلك المشروع الذي اتضح لهـــا فيما بعد أنه على جانب عظيم من الخطورة ، ثم اعتراها توقف آخر بسبب موت دارا عاهلهـــا العظيم سنة ٤٨٦ ق . م حينمـــا كانت مصر ما زالت مضطربة، وهكذا مضى دارا تاركا مهمة اخضـــاع اليـــونان الى ابنـــه خشـــير شاي (احزركيس) .

وقد أتاح تأخر الفرس لأثينا فرصة نادرة لا تقدر ، اذ استطاعت أن تأخذ أهبتها للأمر ، وارتقت قواتها البرية من الدرجـة الثانية الى الدرجة الأولى، وهو تطور عظيم حققه ثمستوكليز أذكى وأقدر ســـياسي تألق نجمه في ســـماء أثينا ، وهو الذي فطن الى وجوب توفر أسطول قوى لأثينا لكي يتسنى لها الفوز في المنافسة الشديدة بينها وبين جاراتها ، وأدرك أن احراز مثل هذا الأسطول ضرورة لابد منها لقهـــر فارس ، ذلك لان الأسطول الذي نقل جيـــوش الفرس الى بلاد اليونان فيواقعة ماراثون وصل اليها دون أن يجد في طريقه ما يصده عنهـــا ، ثم عاد دون أن يكدر صفوه مكدر ، ولـــكن ثمستوكليز قرر أن مثل هذا التحدي يجب ألا يتكرر، وقد ساقت اليه الأقدار حظا لم يكن في حسبانه حينما اكتشف عرق غزير من الفضة في بلدة لوريوم مما عاد على خزانة الدولة بمال وفير أنفقوه على ترقية الأسطول ، ولم يتفقـــوا منه شيئا في أي وجه آخر ، وكان بين بعض أفراد الشعب الأثيني عدد عظيم من الملاحين ، فلهذه الأسباب مجتمعـــة لم تكد تنتهي عشر سنوات بعد واقعة ماراثون حتى تحققت سيادة أثينا على البحار .

وما وافى هذا الطـــرف حتى كانت فارس أيضا قد استعدت لغزو جديد وضع خطته عاهلها العظيم احزركيس ، منتهجا بلا ريب تلك الخطط التي رسمها دارا من قبل ، فجهز جيشا جرارا ليغزو به تراقيا يحدوه أسطول ضخم . فقد تعلموا من واقعة ماراثون أنه من الخطأ الجسيم وأنه لا يجوز وقوعهم في مثل تلك الغلطة مرة أخرى . ولا شك في أن قصة هذا الغزو قد شابها كثير من المبالغة وأدخل عليها كثير من تجسيم الخيال اليوناني، ولعلنا لا نكون مبالغين كثيرا اذا قدرنا عدد رجال جيوشـــهم بنصف مليون جندي حشدت من الامبراطورية الشاسعة بما فيها بلاد الهند وهو تقدير يساوي عشر تقدير هيرودتس ـ وان كانت بعض التقديرات الحديثة تنزل بالعدد الى ١٨٠٠٠٠ جندي عامل فقط .

وقد رفضت معظم الدول الحرة ـ المكونة للجامعة أن تقدم الطلب الأولى المعتاد وهو تسليم « التراب والمـاء » واجتمعت كلهـا في مؤتمر بدعوة من أثينا وأسبارطة ، وقرروا اســـناد القيادة برا وبحرا الى أسبارطه ، ولم تتمســـك أثينا بحقها الواضح في قيادة البحر احتفاظا بالوحدة . وعقدت ثلاثون دولة منهن الخناصر على الدفاع عن وطنهن المشترك. وبذلك تناست أثينا وأيجينا ما بينهما من أحقاد قديمة .

أما أرجوس فلزمت العزلة ، وكان في طيبة حزب موال لميديا . واشترط أمراء تساليا ، الذين تقع عليهم الضربة الأولى من ضربات العدو لكي ينتظموا في الميثاق ، أن يتعهد الجميـــع بالدفاع عن حدودهم ، ولكن لما رؤى أن الغزاة ربما يلتفون حول معبر تمبه Tempe في الحدود الشمالية ، قرر المؤتمر اخلاء تساليا واعتبار معبر ترموبولي الواقع بين الجبال وبين خليج ماليا هو باب الهجوم المنتظر ، وأنه هو المكان الذي يمكن الثبات فيه بدلا من معبر تمبه ، ولو سقط هذا المعبر الأخير لانهار الدفاع بجملته شمالي برزخ كورنثة .

فعبر اجزركيس بوغاز الدردنيل في ربيع سنة ٤٨٠ ، واستطاع جيشه في شهر أغسطس أن ينحدر الى تريموبيلي ، بينما كانت القوة اليونانية وتعدادها ٦٠٠٠ رجل معظمهم من البليبونيز ، قد أرسلت تحت قيادة ليونيداس ملك أسبارطة لتحتل المعبر ،وخصصت الفصيلة الفوقية لحراسة معبر آخر عبر التلال في داخل البلاد ، كان يخشى أن يسلكه العدو ليصل الى جنوب البلاد عن طريق فوقيس Phocis .

وقد عهد الى الأثينيين بالعمل في الأسطول ، الذى كانت مهمته الحيلولة بين الأسطول الفارسى وبين مساعدته لجيوشهم البرية وقد قام بمهمته هذه بنجاح وان لم يكن بدرجة باهرة ، ولكن المؤرخ لايسعه أن يستخلص الحقيقة من الأساطير ، فقد اندمجتا اندماجا بحيث يتعذر فصل احدهما عن الآخر ، ومع ذلك فان الكثير من القصة يمكن أن يعول على صدقه ، واستمرت المحاولات يومين متواليين للاستيلاء على المعقل الأمامى بهجمات من الجبهة ، بدون جدوى، ثم تنبه الفارسيون الى وجود طريق جبلى يؤدى الى مؤخرة موقع الاسبرطيين ، وهو طريق متفرع من المعبر الذى كان يحرسه الفوقيون ، فانتخب الفرس كتيبة ممتازة لتنفيذ هذه الخطة ، فلما شعر الفوقيون بأن وطنهم الخاص بات مهددا تراجعوا عن موقفهم ، فانكشفت مؤخرة الاسبرطيين وأحدق بها الخطر ، ولذلك بعث ليونيداس بنحو ثلثى قوته أو أقل من الثلثين محتفظا بالثلثمائة من الأسبارطيين الملازمين له ، وألفمن اللاكونيين،وبأولئك التسبيين المتفانين فى الاخلاص له ، وبفرقة من الطيبيين مزعزعى القلوب ، ولعله كان يؤمل أن من بعثهم سوف يقدرون على مؤخرة جيشه .

ولكنهم اصطدموا فى أثناء تراجعهم بالكتيبة الفارسية القائمة بحركة الالتفاف ، فأجلتهم عن مراكزهم ، وسواء أكان تراجعهم ممكنا أم غير ممكن ، فلم يكن فى وسعهم الاحتفاظ بالممر بعد هذه الحركة ، أما التسليم فلم يكن ليخطر لهم على بال ، فخرج ليونيداس من معقله الحصين ومعه قوته المكونة من الأسبرطيين الثلثمائة وكروا كرة صادقة على الجيش الفارسى العرمرم، والتحموا به متكاتفين كالبنيان المرصوص الى أن فنيت القوة عن آخرها ، ثم شاع أن الطيبيين أذعنوا للعدو فيما بعد اذعانا مخزيا ، بمجرد انحياز مدينتهم الى الجيوش الفارسية ، أما بقية الجيش فنبتت تقاتل من وراء المعاقل لآخر نفس فيها ، ولا ريب أن البرابرة منوا بخسائر فادحة ، ولا ريب أيضا أن هذا الموقف المجيد كان من الوجهة الفنية اسرافا سفيها فى أرواح الجنود المدافعين ، وبالرغم من ذلك ما زال اسم تريموبيلى يتردد ذكره على كر الدهور والأزمان يذكى فى القلوب روح البطولة والتضحية .

ولم تكن القوة التى دافعت عن تريموبيلى والتى فنيت عن آخرها ، الا طليعة لحامية تأخر وصول المدد اليها ، أما الآن وقد اقتحمت الأبواب الخارجية ، فلم يكن ثمت فائدة من محاولة جيوش البليبونيز الدفاع عن البلاد الواقعة فى شمال البرزخ ، فخضعت جميعها عنوة للعدو ، ثم لجأ الأثينيون الى الأسطول حاملين معهم السكان غير المقاتلين وكل ما استطاعوا حمله من المتاع والثروة الى ايجينا وسلاميس ، وقد ارتد الأسطول الذى كان نصف رجاله من الأثينيين على أثر سقوط تريموبيلى ويمم نحو حماية البرزخ وان كانت ما زالت ثمت قوة أبت الجلاء عن تل الأكروپوليس ، واستطاعت الثبات أمام الفرس فأوقفتهم موقفا حرجا نحو اسبوعين ، ثم ان البرزخ كان منيعا لا يرام بما شيد فيه من قلاع وحصون ، ولكن طالما بقى أسطول الفرس سليما ، ولم تنزل به هزيمة نكراء فقد كان فى امكانه انزال جيش برى على أرض البليبونيز ، ولا سبيل الى الحيلولة دون عمله هذا الا استدراجه الى معركة حاسمة فى المضايق المحيطة بسلاميس،وهناك لا يستطيع أىأسطول ضخم أن يشترك كله فى المعركة ، ومع ذلك فان جميع وسائل الأغراء والتحميس التى استخدمها تمستوكليز ما كانت لتقنع البليبونيزيين بسلامة هذه الخطة وبضرورة العمل على تنفيذها ، لولا أن الفرس أنفسهم أتاحوا له هذه الفرصة .

انتصار اليونان بحرا فى سلاميس

ويقال ان الفرس خدعوا وسيقوا الى هذا المأزق سوقا بتأثير رسالة ظاهرها أنها من فعل خائن يونانى ولعلها فى الحقيقة من فعل اليونانى الماكر نفسه ، فسدوا المنفذ الوحيد الذى أوحى اليهم بأن اليونانيين شرعوا ينسحبون منه ، وبذلك آثروا هم أنفسهم اشعال المعركة فى

المضايق ، ولكن النصر فيها كان حليف اليونان وكان نصرا تاما وحاسما اشتركت فى احرازه قطع الأسطول الأيونيوى مع أنهـا أرغمت على الخدمة فى بحرية عاهل فارس العظيم ، وكانت سفن الفرس مثقلة بحمولتها لدرجة عاقتها عن القيام بالمناورات الضرورية فى المعركة ، كما دل اليونان على أنهم أعظم جرأة من أعدائهم فى دق سـفن العدو واحتلالها · ولم يحطم اسطول الفرس ولكنه تشتت ، وخمدت فى رجاله الروح المعنوية لدرجة أفقـدتهم الأمل فى النصر ، أما اليونانيون فقد تجلت فى صفوفهم بطولة رجال ابجينا ، واعترف لهم بالفضل بمنحهم شارات النصر ، وان كان مجد المعركة ما زال منسوبا لأثينا نفسها التى لم ينازعها فيه منازع وأصبحت اليونان بعدئذ تعتبر أنها قد ثارت لنفسها وشفت غليلها من كارثة ترموبيلى ·

ولم يكن النصر فى سلاميس رائعا وحسب ، بل انه من وجهة احراز السيادة على البحار كان حاسما ، وبالنسبة للحرب فى مجموعها لم يكن أكثر خطرا ولا أقل أثرا من نتائج موقعة الطرف الأغر المشهورة ·

وكان جيش الفرس العظيم الذى لم يهزم بعد ما زال محتلا معظم أرض اليونان بالرغم من انقطاع مدد الأسطول ، فأصبح موقفه حرجا لأن تموين هذا الجيش العرمرم أصبح مشكلة وأى مشكلة ، زد على ذلك أن كارثة هائلة مثل كارثة سلاميس جديرة بأن تثير القلاقل فى جميع أنحاء الامبراطورية ، فأصبـح محتوما تخفيض قوى الغزاة ، ولكنهم لم يعدلوا نهائيا عن اتمام الغزو ·

انقسامات اليونان على أنفسـهم فى الرأى مشـهورة ، وكذلك اشـتهر ما اتصف به البليبونيزيون من تعاميهم عن مصالح الأقاليم الخارجة عن اقليمهم الخاص ، ولكن مزايا الجندى الأسبرطى لا يمكن أن توفى حقها من الثناء ، وقد تجلت فى معركة تيرموبولى ، بيد أن القيادة الأسبارطية قد أضعفتها كثيرا عادة التردد وتأجيل الحركات الضرورية بسبب الداء المستحكم فيها وهو خضوعها للشكوك والمحظورات الدينية

مناورات ماردونيس الماكرة

وزاد الموقف فداحة أنه بالرغم مما اشتهر به المشاة المدججون بالسلاح من شجاعة فائقة كاد الجيش يخلو من الفرسان لوقوع تساليا وهى موطن الخيالة فى بلاد اليونان فى قبضة الفرس ، ثم سحب اجزركيس بعد معركة سلاميس جانبا من جيوشه فى اليونان الى أثينا عن طريق الدردنيل ، لأن اليونان بالرغم من الحاح تيموستكليز عليهم لم يبذلوا مجهودا بحريا ليقطعوا على الفرس طريق البحر ·

وقد بقى ماردونيس متوليا قيادة القوة التى كانت لا تزال كبيرة ولكنه تراجع الى طيبة وتساليا ليقضى فصل الشتاء ، وقد أكرهته على ذلك قلة مؤنه ، ثم عرض على أثينا شروط صلح جد مغرية ، محاولا بذلك فصلها عن الحلف اليونانى ، فما كان من أثينا الا أن رفضت الشروط المعروضة عليها ولاء لحليفاتها ·

ومع ذلك فعندما تمكن ماردونيس من احتلال أثينا مرة ثانية فى ربيع سنة ٤٧٩ هددت أثينا بالانفصال اذا لم تبادر أسبارطة الى جلب قواها من البليبونيز للدفاع عن أثينا وميجاريس وبلاتيا ، وقد لبت أسبارطة هذا الاستصراخ ، وأسندت قيادة النجدة الى بوزانياس قريب الملك الجالس على عرشها والوصى عليه ، وهذا الملك هو الملك الشاب الذى خلف ليونيداس ، ولعل جميع القوى اليونانية بلغت ما بين : ٧٠٠٠٠ و ١٠٠٠٠٠ رجل ، بينما كانت القوى الفارسية بين ١٥٠٫٠٠٠ و ٣٠٠٠٠٠ رجل ، ولم يهتم الأثينيون فى هذه الآونة بالقيام بحركات بحرية واسعة النطاق حذر أن ينتهوا الى معركة حاسمة أخرى تقتنع البليبونيزيين بأنه لا حاجة لهم بحماية الأسطول الأثينى مما يؤدى بهم الى الكف عن مواصلة الدفاع عن أتيكا ولكنهم لم يلبثوا حتى جددوا نشاطهم البحرى ، وجعلوا اهتمامهم بالأعمال البرية فى المرتبة الثانية ، ولا جدال فى أن النصر النهائى الذى أحرزته الجيوش اليونانية فى معركة بلاتايا كان الفضل فيه لحسن قيادة بوزانياس ولشجاعة الأسبرطيين ونظامهم هم ورفقائهم من جنود تجيا Tegea ، وذلك بالرغم من التشويهات التى اخترعت وبقيت فى التاريخ بنفوذ الأثينيين ·

أظهر الفرس والأسبارطيون كلاهما فى المناورات التمهيدية لهذه الحرب مهارة فائقة وقد بذل كل من الخصمين قصارى جهده

تحطيم الجيوش الفارسية فى بلاتيا

لاستدراج خصمه واغرائه علما أن يكون هو البادىء بالهجوم فى الميدان الذى يختاره ، ويرى رجحان قوته فيه ، ولكن كليهما امتنعا عن البدء بالهجوم مع علمهما بأن التأخير من صالح الفرس ،

وذلك بسبب هذه الانقسامات والأحقاد الناشبة بين اليونانيين ، والتى لم يسلم الفرس أنفسهم منها، وحاز ماردونيس قصب السبق فى اخراج خصمه من مراكزه الممتازة ٠

ولمـــا قام ماردونيس بالهجـــوم فعلا كان الأسبرطيون والتيجيويون ، بسبب سوء فهم للأوامر أو لعدم اطاعتها ، معزولين عن بقية الجيش ، وكان تحرك جيوش اليونان متشوشا مضطـربا ، ومع ذلك استطاع الأســبرطيون وحدهم أن يسحقوا هجوم الفرس وأن يشقوا طريقا لأنفسهم داخل معسكر العدو بالرغم من حبس النجـدات عنهم بفعل اليونان الموالين للفرس من قبل ٠ ولقد ساد الفرس الذعر عندما سقط قائدهم ماردونيس ، فما كان من الذى كان يليه فى المرتبةوهو أرتابازوس والذى كان محتفظا بفرقة كبيرة لم يشترك بها فى القتال بعد ، الا أنه سحب هذه الفرقة وتقهقر بنظام تام دون أن تصدر منه أية محاولة أكثر من لمه شعث ما عثر عليه من فلول الجيش المنهزم بعد أن كان جبارا مرهوب الجانب ، وولى بها مسرعا الى آسية ، وبذلك رأت فارس أنها عبأت جميع مواردها ، ولم يكن نصيبها من ذلك الا الفشل بل الفشل الذريع الذى جعلها تهجر هذا الحلم الى الأبد ٠

وقد قامت الأساطيل بالأعمال النهائية فى هذه الحـرب ، وذلك حينمـا تجمعت القـوى الفارسية فى ميكاله Mycale فى آسية الصغرى تجاه جـزيرة سامـوس لأرهاب الأيونيويين ولا سيما أن أسطول هؤلاء قد ارتطم بالشـــــاطىء وتعطل ، فأبحر أسطول اليـونان من مركزه فى ديلوس Delos واتجه الى جزيرة ساموس

حرب الأساطيل فى بحر ايجه

ملبيا نداء استغاثتها،وهناك وجدوا نقطة صالحة فأنزلوا جنودهم فيها وتقـدموا الى معسكر الفرس فى ميكاله ، وهجموا عليه هجمة صادقة واحتلوه،ولا شك أن اخوانهم الأيونيويين قد أسدوا اليهم المعونة فى هذه الحملة وانضموا اليهم ، وكان الاعتقاد الســائد أن معـــركتى ميكاله وبلاتايا وقعتا فى يوم واحد (وهو ٢٧ أغسطس سنة ٤٧٩ ، ولكن خيال اليونان هو الذى كان يعنى بأمثال هذه المصادفات ٠

وكان من نتائج واقعة ميكالة أنها قدحت شرارة ثورة أيونيوية جديدة ، وبفضلها زادت منزلة الأثينيين أما أسبارطة فقد بلغت منـاها بتخليص البلبيونيز ولم يعد لهـــا رغبة فى الاشتراك فى الحروب البحرية ، بخلاف أثينا التى أقدمت على هذه المهمة بعامل الغيرة،وبدافع مصلحتها ، وان احتلال سستوس الذى أحرزه الأثينيون فى الواقع قد مكنهم من الاشراف على الدردنيل سنة ٤٧٩ ــ ٤٧٨ ، فضلا عن أنها كانت نقطة تحول فى التاريخ اليونانى ، لأن زعامة الجامعة اليونانية أصبحت بحكم الواقع ــ ان لم يـكن بحكم القانون ــ من حق أثينا ، وتخلت عنها اسبارطة نازعةالىدولة الديمقراطية العظيمة ، وان فضل استرداد حرية أيونيا راجع الى أثينا ونشاطها ، ولم يكن لزعامة أسبارطة شأن فيه ٠

وقد عاصر الصراع اليونانى الفارسى الشديد صراع آخر نشب بين الاتجاه نحو الشرق وبين الاتجاه نحو أوربا أو بتعبير أصح بين الآرية وغير الآرية ، فضربت قرطاجة ضربة قصدت بها الى السيادة على صقلية ، وكان الاترورويون يكافحون فى سبيل سيادتهم على ايطاليا ، وقد تحدثنا أنفسنا بأنه ربما كان هنالك تواطؤ بينهما على عمليهما المتشابهين ولكن هذا لا يمكن

قرطاجة واتروريا توطدان أقدامهما

أن يزيد على أنه حدس ، اذ أنه لم يكن ثمة اشتراك فعلى بينهما ، وقد كانت هـــذه الحركة ــ اذا جاز تســميتها كذلك ــ مستقلة عن حركة هجوم الفرس على اليونان ، وربما وجدت قرطاجةالفرصة سانحة لها بسبب هذا الهجوم أما الاترورويون فكانوا ينافحون عن زعامتهم المتداعية ، ولم يكونوا يحـاولون ســيطرة جديدة وقد كان الجزء الشـــمالى من صقلية الممتد الى هيمبرا Himera تحت حكم اليونان ، أما جزؤها الجنوبى الممتد الىسيلينوس Selinus وكذلك الجانب الغربىمنها فكانت كلها فى قبضة الفينيقيين، وآلت أخيرا الى قرطاجة ، ولم تكن فى الأفق فى مستهل القرن الخامس نذر تنبىء عن قرب الاصطدام ، ولكن ذلك كان متوقعا ولا مناص منهعاجلا أو آجلا؛هذاوالدويلات اليونانية مشتغلة بالمنافسات الداخلية ومنتبهة اليها أكثر من تنبهها الى العدو المشترك الخارجى وقد نشأت فى ايطاليا حكومات الطغاة فنصب أناكســــيلاس Anaxilas ٤٩٣ ق٠م نفسـه

حاكما على ريجيوم Rhegium الواقعة على ساحل ابطاليـا الجنوبى المصاقب لبوغاز مسينا ؛ وقام كليندر Cleander سـنة ٤٩٢ ثم أخـوه هيبوقراط من بعده فى جيلا فى الساحل الجنوبى من صقلية ، وقد رمى كل من هؤلاء الطغاة الى ادماج الدويلات الأخرى فى دائرة حكمه الخاص بوصفها ولايات خاضعة له أو تحت نفوذه .

وكان هيبوقراط أنجح الاثنين فتوصل الى اقامة حاكم على زانكل Zancle ولم تـكن قد سميت بعد بميسانا ، ولكن هذا الحاكم كان دمية فى يده يحركها كيف شاء ، بينما كان أناكسيلاس يظن نفسه صاحب النفوذ فى هذا الاقليم .

كان هيبوقراط يطمح الى ضم سرقوسـة لحوزته ، اذ أنه أحد الزعماء المتنافسين فى احراز هذه الدولة ، وكان فى وسعه تحقيق هذه الأمنية لولا تدخل كورنثه — أم سرقوسه فى حادثة مست احدى الدويلات المشمولة برعايتها وهـذه الدويلة هى كوركيره . لذلك اتخـذ أناكسيلاس موقف المتربص . ومات هيبوقراط فى حوالى سـنة ٤٨٥ فحاول أحد الضـباط البارزين واسمه جيلون Gilon أن يخلفه طاغية على سرقوسه ، ولما اتبع خطة هيبوقراط أفلح فيما لم يفلح فيه سلفه لتدخل عوامل أجنبية حالت بينه وبين تحقيق غرضه ، فاستولى على المدينة ، وأصبح طاغيتها المطلق .

والظاهر من هذه المحاولات أن جيلون قصد الى الاعتراف به على الجزيرة كلها ، الا بعض الدويلات ، مثل اكراجاس التى كان يعتمـد على اخلاصها وولائها ، وأصبحت سرقوسه منذ هذا الوقت زعيمة دويلات صقلية .

ومع ذلك فقـد وقعت زانـكل Zancle فى نفس الوقت فى يد أناكسيلاس ، وان لم يكن معلوما متى وكيف حصل ذلك على وجه التحقيق، وكان لهذا صهر يدعى تيريلوس Terilus حاكما على هيميرا Himera ، ولبنت سرقوسه العقبة الكأداء فى سبيل مطامعه ، فلجأ الى عقد محالفة سرية مع قرطاجة ولعله قصـد من ذلك الى تقسـيم الجزيرة بينهما ، وكذلك انضمت سيلينوس الى منـاطق نفوذه حينما شـعرت بتهـديد تيـرون Theron حاكم اكـراجاس وهو صديق جيلون وحليفـه بحجة أنه صديق قرطاجة ، واتفقت قرطاجة مع أناكسـيلاس فسيرت حمله كبيرة على صقلية بقيادة هميلكار صاحب الاسم الرنان فى تاريخ قرطاجه .

نـكبة قرطاجـة فى صقلية

والآن ونحن على أثر امتناع جيلون من ارسال النجدات لمساعدة اليونان لصد الغزو الفارسى المرتقب، مشترطا لقيامه بذلك الموافقة على مطلبه وهو الاعتراف بزعامته العامة على الجميع ، لو أن الظاهر هو أنه لم يقصد حينئذ أن يجعل رفضه نهائيا . ولم يجعله مبنيا على الخطر المحدق بصقلية . والذى حاق به فعلا فى نفس الوقت الذى وصلت الى علمه فيه أنباء عبور جيوش أجزركيس . للدردنيل وقد حصل هـذا دون أن يمضى زمان ما ، ولا ريب أن قرطاجة أخفت بدهاء عظيم اسـتعدادها للهجـوم ، ووقفت متربصة تنتظر أول اشارة تصلها من أناكسيلاس .

ولم يقم أناكسيلاس نفسه بدور ايجابى فى هذه الحمله ، وان كنا نستطيع أن نتصور أن علة منع سرقوسة أسطولها من القيام بحركات بحريه هى خشية ما عسى أن يقوم به أناكسيلاس . وبالرغم مما عانته الحمله من خسائر بسبب الأعاصير البحـريه ، فقد نجحت فى بلوغهـا بانورماس الميناء الغربى فى الجزيرة دون أن تلقى مقاومة ، ومن ثم تقدمت برا وبحرا نحو هيميرا حيث كان ثرون Theron مسـتوليا الحكم فيها .

ويبـدو أن سـقوط هيميرا كان وشـيك الحصول ، وذلك قبل أن يعتقـد جيلون أنه أصبح مستطيعا أن يضرب الضربة الحاسمة ، ولكنه لما وصل فى الوقت المناسب اسـتطاع أن ينزل بعدوه ضربة ساحقة ، مزقت الحملة شر ممزق ، وبات فى غنى عن أن يتبعهـا بضربات أخرى ، ثم انقضى قرن كامل دون أن تجرؤ قرطاجه على تكدير صفو اليونان فى صقلية ، ومع ذلك فقد تركوا القرطاجيين وشـأنهم فلم يفكروا فى الانتقام منهم بغزو مستعمراتهم الافريقية ، ثم كان أظهر شىء فى سـياسة جيلون بعـد ذلك قبوله سـيلينوس وأناكسيلاس حليفين له . وأخيرا مات هـذا العاهل الكبير بعد سنتين من ظفره العظيم ، فخلفه فى الزعامة أخوه هييرون .

وقعت هذه الحوادث الجسام على وجه التقريب فى نفس الوقت الذى وقعت فيه معركتا ثرموبيلى

وسلاميس بل تواترت الأخبار بأن معركتى هيميرا وسلاميس وقعتا فى يوم واحد، كما قيل مثل هذا عن معركتى بلاتايا وميكالى !

ولم يتدخل الاترورويون فى حوادث صقلية ، مع أنهم ــ كما رأينا فى صحيفة ٤٠٣ ــ انضموا الى الفينيقيين فى اجلائهم اليونان عن جزيرتى كورسيكا وسردينية ، ومع أن أسطولهم قد أصيب بعد سنوات من ذلك بنكبة فادحةانزلها به هيرون حاكم سرقوسة انتصارا لمدينة

حوادث اترووريا ولاتيــوم

كومى الواقعة فى ايطاليا نفسها؛ ولكن كورسيكا كانت قريبة من متناول أيديهم ، بخلاف صقلية التى لم يكن لهم فيها مأرب ، ثم ان رومة بتسلطها على نهر التيبر ولقرابة أهليها من اللاتين والسابيين كانت هى الدولة التى يخشى خطرها على سيادة الاترورويين . ولأنها فازت بتحرير نفسها من حكم الاتروريين أصبحت المركز الطبيعى لمقاومة كل معتد خصوصا بعد زوال كل خطر من عودة أفراد أسرة تاركوين اليها فى العقد الأول من القرن الخامس؛ والأخبار المتواترة هى المصدر الوحيد ، مع أنها مصدر غير موثوق به ، للحوادث الحقيقية التى وقعت فى تاريخ رومة فى هذا الحين ، ومن المؤكد أن الحكومة الملكية قد خلفها حكام من الأعيان حكموا رومة بذلك النظام الغريب ، وهو نظام الحكم الثنائى ، حيث كان تعيين الحاكمين فى أول العهد قاصرا على الأعيان من الأشراف . أو الـ Patricians وكانا يعينان سنويا بطريق الانتخاب الذى يشترك فيه كل المواطنين . ومع ذلك فقد كانا من الوجهة العملية مسئولين أمام مجلس الشيوخ ، وهو مجلس مكون من الأشراف ، قوامه الموظفون الحاليون والسابقون وكانت التشريعات المقدمة من الحاكمين وحدهما واجبة العرض على الجمعية المئوية .

أما الشعب أو العامة Plebs ، فقد ساهموا أيضا فى قهر أسرة التاركوين ، حتى أن بروتس ، ذلك البطل الذى سارت بذكره الركبان ، لم يكن سليل أسرة من الأشراف . وقد عمل العامة من عصر قديم على كسب قسط من الحقوق الوطنية التى احتكرها الأشراف أحقابا كثيرة .

وقد استمر النزاع بين الطبقات طويلا ، لكن أول فوز حاسم ناله العامة يرجع الى سنة ٤٩٤ ، وذلك حينما كان الجنود عائدين من حملة منتصرة فهددوا بأن يهجروا رومة قاطبة، مالم تمنح الاصلاحات المطلوبة . وترتب على هجرتهم الى الجبل المقدس

تنافس الأحزاب فى رومة

الاعتراف لهم بحق تعيين موظفين منهم يلقبون بالتربيون Tribunes ، من حقهم وقف التشريعات وكبح الأعمال التعسفية الضارة بعامة الشعب ، والتى تصدر من الحكام الأشراف .

والأخبار المتواترة عن هذه الحقبة مليئة بالقصص الشبيهة بالأساطير عن حروب رومة ضد منافسيها الاتروريين أو حكومات السابليان، وضدمدينة ڤيى والأكوين Aequi أو الڤولشيان Volcian . ولعل أسطورة كوريولانس هى أوسع هذه الأخبار شهرة وربما نستطيع أن نرد الى القرن الخامس الأدوار الأولى من تاريخ هجرة الكلت والغال الذين سنقرأ عنهم فى فصل قريب أنهم احتلوا شمالى ايطاليا فيما بين جبال الألب وجبال الأبنين ، وهو الاقليم الذى عرف فيما بعد ببلاد الغال الألبية الجنوبية .

وربما كانت هجرتهم راجعة الى أن الشعب الذى نزل به كان من فيض بلاد الغال القصوى ، ولكن ايطاليا الوسطى لم تشعر بوفودهم الا بعد نصف قرن آخر . وقد لقى المشارقة هزيمتهم ، القاضية الأولى فى الغرب ــ وعلى ذلك صفا الجو للحضارة اليونانية فسطع مجدهم الفكرى الخالد ، وان كانوا باءوا بفشل سياسى ذريع ، وهذا ما سيدور عليه بحثنا فى حوادث الخبر التالى .



خريطة بلاد اليونان

تدل الخطوط المنقطة فى هذه الخريطة على المناطق المخصصة لكل دولة من دويلات المدائن ، وهذا يؤكد ما كان فى بلاد اليونان القديمة من التكوين السياسى المعقد ، فقد كانت البلاد مقسمة الى خطط صغيرة ، اختصت كل منها بطراز مستقل فى معيشتها ونظام الأسرة فيها ·

وقد امتازت بعض الخطط المتعمقة فى الداخل مثل تساليا ، وأيتوليا واليس وأركاديا باتساع رقعتها ، أما الأقاليم الأخرى فلم تكن بينها واحدة ذات مساحة كبيرة نوعا الا لاكونيا بفضل الغزو الاسبارطى وبووطيا بفضل اتحادها بقدر ما مع بعض المدن المنحازة اليها ·

الفصل السادس والثلاثون

دول المدن الاغريقية خلال الحرب الفارسية

المامة بتطور نظم الاغريق السياسية من الملكية الى الديمقراطية

بقلم و . ر . هاليداى W. R. Halliday

أستاذ كرسى راتبون للتاريخ القديم بجامعة ليفربول ، ومؤلف كتاب « نمو دولة المدينة »

حين أخذ دارا الأكبر بضطلع بتنظيم امبراطوريته المترامية الأطراف التى امتدت من سواحل بحر ايجة الى البنجاب واجهته مشكلة عاجلة معقدة أشد التعقيد ، الا وهى مشكلة اليونانيين . كانت هذه المشكلة تتطلب الحل السريع لأن فتح الفرس لآسيه الصغرى قد افضى فيما اقتضاه غزو شاطئها ، ومن ثم أصبحت دول المدن الاغريقية الواقعة على ساحل آسية الصغرى خاضعة لدارا . أما علة تعقد هذه المشكلة فترجع الى أن ظروف الاغريق وخصائصهم كانت تخالف كل المخالفة ظروف وخصائص أية أمة أخرى كتب على دارا حتى ذلك الحين أن يعالج أمورها .

كانت القومية الاغريقية أولا وقبل كل شيء ظاهرة أصيلة أعمق جذورا من وحدة اللغة ووحدة الجنس ، فقد كان الاغريق حيثما وجدوا يشعرون بأن ثمة هوة سحيقة تفصل بين اليوناني وبين « المتبربر » ، وبين نظرة هذا الى الحياة ونظرة ذاك .

وكانت مدنية الاغريق هذه تختلف اختلافا جوهريا عن مدنية أى جنس من الأجناس الشرقية ، بل كانت تحس احساسا قويا بأن لها شخصية تنفرد بها . وكان من المستحيل على دارا أن يسلب رعاياه الاغريق قوميتهم ، ذلك أن الخلاف بين اليوناني والمتبربر كان أعمق من أن تذهب به سطوة غاشم أو سماحة متسامح .

ولكن القومية الاغريقية كانت فذة فى ظروف توزيعها وفى ماهيتها ، فلم تكن تتمشى مع أية وحدة جغرافية أو سياسية كما جنحت الى ذلك غيرها من الثقافات القومية الأخرى . وقد انتثرت الجماعات الاغريقية على سواحل البحر المتوسط من صقلية الى شواطىء البحر الأسود ، وكانوا جميعا يشعرون شعورا قويا بثقافتهم الهيلانية ويتساوون فى الحرص على استقلال كل جماعة منهم عن الأخرى .

وكانت كل جماعة من تلك الجماعات التى تعيش خارج الجزائر وخارج شبه جزيرة اليونان نفسها تمثل دولة هيلانية قائمة بنفسها فى أرض المتبربرين . ولم تكن هناك حدود جغرافية كل من يعيش فى نطاقها يكون اغريقيا ، وكل من يعيش خارجها يكون غير أغريقى ، ونستطيع أن نستعير هنا عبارة شيشرون ، وهى عبارة أوضح دلالة ، فنقول أنه كان يحف بالساحل الشرقى للبحر المتوسط نطاق اغريقى ، الا أن هذا النطاق لم يكن متصل الحلقات ، وأن الرابط الجغرافى الوحيد الذى وحد الحضارة الاغريقية كان هو البحر الذى كان يفصل الجماعات الاغريقية بعضها عن بعض .

وكانت كل جماعة من هذه الجماعات تتألف من مدينة تحيط بها منطقة أصغر أو أكبر منها مساحة وهذه المدينة والمنطقة التى تحيط بها تعد حتى فى أكبر المدن الاغريقية صغيرة الجرم فى عرف العصر الحديث . الا أن أثينا كانت على خلاف ذلك دولة ذات أملاك تبلغ رقعتها ١٠٠٠ ميل مربع ، فى حين كانت سيكيون Sicyon تسيطر على مساحة قدرها ١٤٠ ميلا مربعا ، وفيلوس Philus ٧٠ ميلا مربعا ، وكورنثة ٣٥٠ ميلا مربعا . وفى القرن السادس كان فى كيوس Ceos ، ومساحتها أقل من نصف مقاطعة رتلاند ، أربع مدن مستقلة ، وثلاثة أنواع مختلفة من النقد المتداول .

صغر رقعة دول المدن

وقد نمت فى نطاق هذه الدويلات حياة سياسية ناشطة أعظم النشاط ، مركزة أشد

التركيز ، كأنما هى نباتات وضعت فى اطار زجاجى للتعجيل بنموها ، وهذا الميدان الضيق الذى أتاحته هذه الدويلات اليونانية قد جربت فيه كل نظرية من نظريات الحكم تقريبا . وفى الواقع أن العالم اليونانى فى القرن الخامس قد قدر له أن ينتظم فى معسكرين متضادين يمثلان ، بشىء من التجاوز ، المبدأين السياسيين المتعارضين : حكم فريق المحافظين فى المجتمع ، أى حكم القلة ، من ذوى الثراء والمراكز المواربة والحكم الديمقراطى الذى يجعل كل مواطن مهما كان وضيع النسب أو رقيق الحال مساويا لأخيه فى الحقوق وفرص الاشتراك المباشر فى حكم الجماعة التى ينتمون اليها جميعا .

لم يكن بد من أن يفضى انعدام النشاط السياسى فى هذه الدويلات المستقلة الى التفكك ، ذلك أن تضافر الجماعات السياسية على أى وجه من الوجوه فى القيام بعمل مشترك يقتضى فيما يقتضيه على الأقل بعض الخروج على الاستقلال التام الذى تتمتع به كل جماعة منها .

التفكك الناشىء عن الاستقلال

اما كيف ارغمت الظروف الاغريق على محاولة تكوين وحدة سياسية أكبر من دولة المدينة . واخفاقهم فى ذلك اخفاقا تاما نرد أسبابه جميعا الى عجزهم عن قبول التضحية الواجبة ببعض حرياتهم فأمور سنتناولها فى الفصل التاسع والأربعين .

والحق أن غزو اجزركيس Xerxes قد حمل عددا من دويلات بلاد اليونان نفسها على الاتحاد . على أننا لا نستطيع أن نقول بحال ان الاغريق كانوا راغبين فى التضافر حتى فى هذه الساعة الحرجة . والواقع أن انعدام النشاط السياسى عند الاغريق قد هيأ الاسباب لترويج الآراء الفجة ، ولانصراف الاغريق فى غير موجب الى مصالحهم الشخصية ومصالح الجماعة التى ينتمون اليها . فأرجوس مثلا كان احساسها بالنتائج البعيدة لخضوعها للفرس أقل عمقا بكثير من احساسها المباشر بالحسد الذى تحمله لأسپرطه لسيادتها على بلاد البلبونيز . وكان من المتوقع أن تمهد هذه المنافسات والعداوات السياسية المحلية الطريق أمام الفرس لغزو بلاد اليونان ، فقد كان وراء كل خط ممكن من خطوط الدفاع ولا نستثنى من ذلك برزخ كورنثه دول على استعداد للانضمام الى الغزاة ، أو على الأقل للتآمر معهم على اعدائهم المحليين الذين يبغضونهم أشد البغض .

وكان النظر الى الأمور نظرة ضيقة متعصبة هو النتيجة الأخرى التى يفضى اليها حب الحرية والحيوية السياسية فى دويلات المدن الاغريقية . ولم يؤد هذا الى العداء بين المدينة والمدينة فحسب، بل أشاع الانقسام فى المدينة الواحدة . وكان من شأن العنف الشديد فى العراك الحزبى الذى قدر له أن يبدو فى صورة أوضح فى القرنين الرابع والخامس أن يجعل تفكير الاغريق فى الانتصار العاجل على خصومهم السياسيين فى المدينة التى ينتمون اليها أحب اليهم من التفكير فى مصالحهم القومية العامة ، ومن ثم فان أتباع آل بيزستراتوس وأسرة الأكميتيين السياسية الكبيرة كانوا بلاشك يتآمرون مع العدو على تقويض السلطان السياسى لاعدائهم بتيسير احتلال الفرس لأثينا .

وكان العالم اليونانى فى ذلك الوقت يتألف من مجموعة من دول المدن الضئيلة تستقل كل منها بأمر نفسها من الناحية السياسية . وكانت جميعا قوية الاحساس بفخر الانتماء الى الأصل اليونانى المشترك .ومع ذلك فان كلا منها كانت قبل كل شىء مستغرقة فى نشاطها السياسى الخاص بالمعنى الضيق الذى كان يجعلها عرضةلأن تخطىء أو تتجاهل أمورا أوسع من هذه الأمور أفقا : كانت كل من دول المدينة تضيق أشد الضيق بالتدخل فى استقلالها السياسى التام أو الانتقاص منه .

وسنتوخى فى هذا الفصل أن نتتبع تطور دولة مدينة فى صورتها المألوفة ، متوسلين بأشكال الحكومات المتباينة التى تعاقبت عليها . وبعد ذلك ندرس مثالا معينا هو نشوءالديمقراطية الأثينية وأخيرا ينبغى أن نبحث الأهمية الحقيقية للآراء السياسية التى أبرزتها على هذا النحو دول المدن الاغريقية ، مع مراعاة أن هذه التجارب التى أجريت لصور الحكم المختلفة قد خضعت بالضرورة لقيود هذا الحيز المحدود ، الا وهو دولة المدينة .

تصور لنا قصائد هومبروس مجتمعا بدائيا الى حد ما ، قصد من تنظيمه أن يعد للحرب أولا وقبل كل شىء ، وكان هذا المجتمع يحتفظ

بكثير من خصائص الحياة التى تشبه حياة البدو الرحل وهو مجتمع قبلى يقوم على النظام الأبوى . وقد أخذ اليونان الى حياة مستقرة مطمئنة فى الفترة التى أعقبت هجراتهم فخلق ذلك ظروفا جديدة أفضت بالضرورة الى تغيير فى حياتهم . والواقع أنه قد ظهرت حتى فى شعر هوميروس بوادر النتائج المحتومة للانتقال من حياة التجوال الى حياة الاستقرار . وكان الاشتراك فى الأرومة والدين هو الأصل فى ارتباط أعضاء الجماعة السياسية . وقد نظم المجتمع على أساس الجماعات الأخوية ، وهى مجموعة من الأسر تربطها أواصر القربى . وكان يجمع بين هذه الجماعات الأخوية بدورها ما يزعمونه من انتمائهم جميعا الى جد مشترك لجماعة أكبر منهم تعرف باسم فيلى Phyle أى القبيلة . وكانت رابطة الدين تعزز صلة النسب وكانت الحقوق والواجبات الدينية والخلقية فى الأصل مقصورة على أعضاء كل وحدة اجتماعية دون غيرهم . وكان يحدث أن يبرهن الاله الشفيع لجماعة معينة على أنه فى الواقع أكثر قوة من اله الجماعات الأخرى . ولكنه كان فى جوهره يخص عباده الذين كانوا يعتقدون أنه سلفهم السماوى دون غيرهم .

حالة المجتمع فى الأزمنة الأولى

ولم يكن فى قتل رجل ينتمى الى جماعة أخرى ما يعد جريمة قتل ، اذ أن الغريب « الذى لا بيت له ولا يشارك فى أخوة » يعد بعيدا كل البعد عن مجتمعنا ، وعلى ذلك فهو خارج عن حماية القانون ، وليس له حقوق أو مطالب لدى أعضاء جماعتنا . أما قتل عضو من جماعتنا فذلك أمر آخر اذ يجب على أقرب أقربائه أن يعمل على الثأر له ، أو أن يلجأ فى هذا آخر الأمر الى أعضاء جماعته .

وتكشف لنا المراجع القديمة فى الواقع عن مجتمع قطع فى طريق التقدم شوطا كبيرا تعدى ذلك النظام البدائى الصارم للمجتمع القبلى . أما عن الدين فان قبائل الآخيين Achaen المتباينة كانت قد اشتركت جميعا فى تبجيل وعبادة آلهة معينة اعترفوا بها جميعا بصفة عامة . وكان الغريب يعد فى حمى زيوس Zeus أبى الآلهة والناس ، ومن ثم كان حقه فى أن يعامل معاملة عادلة محدودا فى أضيق نطاق .

لا ريب فى أن تضافر الجميع فى الأهوال والمخاطر التى أصابتهم الحياة الحافلة بالأحداث فى عصر البطولة قد ساعد عمليا على أن يجعل نظرتهم الى الأشياء أرحب أفقا وأكثر تسامحا ، وعلى كل فقد نستطيع أن نلاحظ أن النظام القبلى البدائى الذى أتبعه القدماء من السلف قد ترك طابعا لا يمحى فى تطور الآراء الاغريقية السياسية بعد ذلك . وظل الاغريق الى النهاية لا يستطيعون أن يجردوا أنفسهم كلية من الشعور بأن المشاركة فى الوطن هى فى جوهرها صلة رحم ، وأن الدولة كانت فى الواقع أسرة على نطاق واسع . ونلاحظ كذلك فى كل تاريخ الاغريق أن كل الهيئات السياسية والطوائف الاجتماعية جنحت الى الالتفاف حول اله معين يشترك الجميع فى عبادته .

الشعور القبلى غريزة اغريقية

كان المجتمع القبلى فى نظام تكوينه مجتمعا أبويا أرستقراطيا ، فكان الأب هو صاحب السلطان فى الأسرة ، أما الوحدات الاجتماعية التى هى أكبر من الأسرة فكان شيخ كل وحدة هو صاحب الأمر فيها . وكانت العلاقة بين الملك (وكان يطلق عليه اسم باسيليوس Basilius) وبين جميع أفراد شعبه هى علاقة رب الأسرة بأبنائه وأتباعه ، وعلى ذلك كان الملك فى عصر البطولة بمثابة الوالد لشعبه ، وكان يقوم بثلاث مهام مختلفة ، فقد كان الكاهن والقائد والقاضى .

كان احتراف الكهنوت قد أخذ فى الظهور أيام هوميروس ، بيد أننا نلاحظ فى ذلك الوقت ، وفى تاريخ الاغريق كله ، أن الرجل الذى كان يحترف التخصص فى أمور الدين لم يكن أكثر من مساعد بارع لرجل من رجال الدنيا هو رئيس الدولة المنوط به المحافظة على العلاقات الصحيحة بين الجماعة وبين الاله . وكان من الجلى أن واجب الزعيم فى عصر يسوده العنف أن يقود شعبه الى القتال ، وكانت مكانته بين قومه تتوقف على نجاحه فى مهمته هذه ، وكان على الملك أيضا أن يفصل فى المنازعات التى يقل خطرها عن سواها ، والتى كانت خليقة بأن تقوم بين أفراد جماعة تحيا حياة بدائية .

واجبات الرئيس عند هوميروس

فهو فى هذا حكم أكثر منه قاضيا ، فلم يكن قدوجدحتى ذلك الوقت قانون يقوم بتطبيقه وكان يصدر أحكاما معينة بمقتضى السلطة التى خولتها له نوامبس شبه دينية ، اذ كانوا يعتقدون أن الملك من سلالة زيوس ، وأنه يستمد منه نفوذه الذى كان الصولجان رمزه المجسم الظاهر • وكان يصحب هذا النفوذ ميزة وهبها الاله له هى القدرة على الفصل العادل فى الخصومات ، وفى ذلك يقول هومر « ان زيوس قد منح الملوك الصولجان والقضاء » وعلى الرغم من أن هذه الملكية كانت وراثية بوجه عام ، وأن المجتمع الذى صورته الأوذيسة Odyssey جعل الوراثة حقا يطالب به ، الا أنه كان من الممكن أن يغفل أمر هذا الحق ، ففى أقدم عصر دونت أخباره نرى الأرستقراطية قد جارت على امتيازات الملكية ، ولم يزد الملك عن أن يكون على رأس أنداد له ، وكانت العلاقة بين الملك الحاكم Basilius وبين الأشراف الذين كانوا يسمون أنفسهم حكاما تماثل العلاقة بين أجاممنون Agamemnon وحلفائه من الزعماء قبل حرب طروادة •

كان العرف يقضى حين البت فى المسائل السياسية الهامة أن يسترشد الملك بخبرة الجماعة الممثلة فى مجلس من كبار العمر أهل الفطنة • ولم يكن هناك مناص قبل حرب طروادة من أن يضم مجلس الحرب أعضاء ممن لم يتقدم بهم السن مثل أخيل Achilles ، وبالرغم من هذا فقد كان يشار اليهم على الدوام بوصفهم مجلسا من الشيوخ الحكماء ، وكان هذا المجلس يعقد عادة فى سفينة نسطور Nestor الهرم الأريب •

وحين يستقر رأى الملك والمجلس على سياسة معينة تعرض هذه السياسة على جمع كبير من المحاربين • ولكن سلطة هذه الجماعة كانت مقصورة على القبول أو الرفض وكان ترسيتيز Thersites الديمقراطى الأول كلما حاول أن يثير نقاشا حول مسألة ما يضربه أودسيوس Odysseus بالصولجان على رأسه ، ثم يعيده الى مكانه بموافقة الشاعر وموافقة الحاضرين ، وكان فى استطاعة هذه الجماعة فى الواقع أن تخالف الرأى ، ولكن لم يكن لها أن تناقشه •

بعد أن سكن الاضطراب الذى صاحب عصر الهجرة تغيرت حالة الحرب المألوفة فأصبحت حالة يسودها شئ من السلام ، وتغيرت حياة التجوال الى حياة الاستقرار • وتتألف بلاد اليونان من حيث طبيعة أرضها من جبال جيرية ضخمة متشابكة تكتنف رقعا صغيرة من الأرض الصالحة للزراعة ، لها فى العادة منفذ الى البحر من احدى جهاتها • ولاشك فى أن الحياة كانت لا تطاق على هذه الشعاب الجيرية ، ولذا استقر الناس فى شقق من الأرض الصالحة للفلاحة •

نمو المدن

وكانت الجبال ، وهى الحواجز الطبيعية ، خليقة بأن تفصل سكان كل سهل من هذه السهول عن سكان السهل الآخر • وألهب هذا من حب الاغريق الشديد للاستقلال الذى يغلب أن يتميز به لهذا السبب نفسه سكان المناطق الجبلية •

وكان انقسام هذا القطر انقساما طبيعيا مناطق قد شجع أيضا على تكاثف السكان فى كل منطقة ، وكان هذا التكاثف فى أصغر هذه المناطق مساحة أسهل منه فى غيرها ، وأسباب هذا واضحة • أما عن المناطق المجاورة الصالحة للسكنى والتى كانت أكبر منها مساحة ، فقد نجحت أثينا آخر الأمر فى توحيد أتيكا كلها فى دولة واحدة • ونقيض ذلك ما حدث فى سهل بوطية ، فان طيبة Thebes لم توفق قط الى أن تجعل حكم المنطقة كلها يتركز فيها• وقد نجحت بعض المدن فى توطيد أركانها ،فى حين أن طيبة لم تبلغ قط من القوة مبلغا تستطيع معه أن تدمج هذه المدن فى كيانها ، بالرغم من أنها أصبحت العضو المسيطر فى حكومة اتحادية •

ولكن كيف خرجت هذه المدن الى الوجود ؟ لا ريب أن القرى كانت أول المنازل ، وظلت بعض المناطق منتظمة فى مقاطعات ريفية الى أن حلت العصور التاريخية • وكان هذا هو شأن اليس Elis حتى القرن الخامس ، وحدث على وجه العموم أن رأى سكان مجموعة من القرى أنه يجدر بهم أن يحصنوا تلا أو مركزا فى السهل يستطاع الدفاع عنه فتحتمى به النساء والأنعام اذا ما عبر جيرانهم الجبل وغزوا أرضهم صيفا • وكان هذا الأكروبولس Acropolis فى أثينا فقد كان تلا صخريا وعرا تكتنفه هوتان من جانبيه ، وعلى مثل هذا المعقل الحصين استوى هيكل الاله وقام قصر الملك •

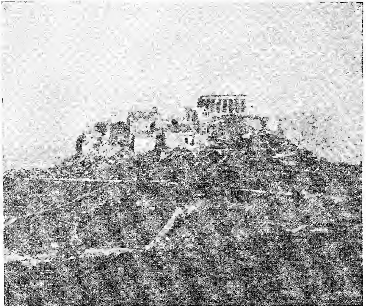
ونشأ عند العامة حينئذ ميل طبيعي الى هجرة قراهم الى مقام قريب من مدينــة يلوذون بها ، ومنها يخرجون الى حقولهم كل يوم ، كما راق للنبلاء أن يلتفوا حول الملك ويكونوا على مقربة من مركز الحكم ؛ وعلى هذا النحو نشأت أسفل سفح التل وحول القلعة مدينة (من نوع يطلق عليــه الاغريق أسم آستى Asty) ، وعلى مر الزمن أقيم حول هــذه المدينة سور محصن ، وحينئذ تكون حيال مدينة من الطراز الاغريقي المــألوف ، مدينة تحيطها الأسوار وتتوســطها القلعة ·

يبدو أن تكاثف الســكان وتركز الحكم في مدينة واحدة محصنة قد تما على النحو المألوف في ظل الملكية · وان كان الملوك قد شجعوا هذا التطور فانه كان في الواقع ضربة قاضية لما كانوا يدعونه لأنفسهم من حقوق ·

نهاية الملكية في عصر البطولة

وقد قامت الملكية في عصر البطولة على سند من المكانة الحربية والاحترام الموروث ، فلم يعد الملك وقت السلم بمارس السلطة التي أضفاها عليه اقدامه وترأسه الزعماء الرحل في العصور المظلمة Dark Ages · أما دعواه بأنه من سلالة الاله وأنه قد حلت فيه صفة تتصل بشــخصه وتميز الملوك عن سائر الناس ، كل هذه الدعاوى وضعت موضع الاختبار فيما كان يحدث كل يوم من ارتباط العلائق في مدينــة صغيرة تعيش في سلام ·

كان الاتصــال الشــخصي الوثيق بين الملك ورعاياه في الحيــاة اليومية يناقض ، لأسباب جليــة ، ما للملوك من حق الهي في الحــكم · وقد يلاحــظ أن التحول عن الولاء ، ســواء في الانتقــاص الانجليزي الــكبير ، وفي الثــورة



المعقل الذي كان نواة لمدينة أثينا

يرجع منشأ دولة المدينة عند الاغريق الى اجتماع قرى تنتظم كالعنقود حول معقل عام ؛ فقــد تكونت مدينة أثينا ، مثلا ، بازدياد المنازل التي قامت حول الأكروبوليس Acropolis ، ذلك الحصن الطبيعي الذي اتخــذه شريف وأتباعه مقرا لهم ، وصار منيع الجانب بما أقيم عليه من استحكامات · وقد أقيمت عليه مزارات الجماعةالتي نزلت هذا المكان · وليست هي تلك المعابد التي تشاهد أطلالها هنا ، لأن هذه كانت أحدث من الأولى عهــدا ، فان تاريخ بنائها يرجع الى القرن الخــامس قبل الميــلاد وهو العصر الذي بلغت فيه أثينا أوج عظمتها ·

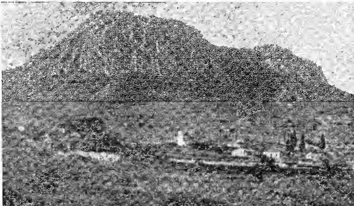
الفرنسية ، قد نشأ بين أقرب المتصلين بشخص الجالس على العرش ، بينما ازدهر الولاء للعرش أكثر منه لصاحب العرش ، في الأقاليم البعيدة أطول زمن ، عملا بالقول المأثور « لا يكون المرء بطلا في عين تابعه » .

وفي نفس الوقت أصبحت الحياة في المدينة أكثر تعقدا ، وزادت المهام الملقاة على عاتق الحاكم عددا وجسامة . وقد كانت سلطة الزعيم في النظام البسيط المأثور عن القبيلة المتنقلة النزاعة الى القتال تكفي لأن يحسم في الحال كل ما قد يقوم بين الأفراد من منازعات ، الا أنه من المعروف بداهة أن حياة الاستقرار في المدينة سرعان ما تستحدث من الأعمال أكثر مما يستطيع حاكم واحد أن يؤديه على وجه مرض . ومن ثم اتجهت الرغبة الى تعيين عمال اضافيين يأخذون على عاتقهم القيام ببعض مهام الملك . وعلى هذا النحو انتقلت سلطة الملك الى وكلاء عنه ، أى أن عددا من الحكام قد حل محل حاكم فرد يتولى الحكم مدى الحياة .

وما وافى القرن الثامن حتى كانت الملكية قد انقرضت في معظم دول الاغريق ، اذ حل محل الملك عدد من الحكام احتفظ واحد منهم بلقب الملك دون سلطانه ، وظل مجلس الملك الاستشارى المؤلف من شيوخ الأشراف قائما ، بل لقد انتقلت اليه مقاليد الأمور في ذلك الحين كما كان شأن نظيره مجلس الشيوخ في روما ، اذ أصبح له بعد زوال الملكية أكبر الشأن في تدبير شؤون الشعب ، وليس من العسير أن نستخلص الأسباب التى أدت الى ارتفاع شأن هذه المجالس .

احلال الحكام محل الملك

قد يبدو لأول وهلة أن الحكام الذين حلوا محل الملك كانوا يعينون مدى الحياة . الا أن تقدم السن كان على الأرجح يشترط فيهم حتى لا تكون مدة حكمهم الفعلية معادلة لحكم الملك الوراثي . وعلى كل فقد اتجهت الرغبة الى انقاص مدة توليهم الحكم حتى انتهى الأمر بأن صارت القاعدة العامة أن يتولوا سنة واحدة . وفضلا عن ذلك فقد أحدث أثينا ، وربما أخذ غيرها كذلك ، بنظام مشابه لهذا الذى طبق في روما ، والذى كان يقضى بأن يشغل الحكام السابقون المراكز الشاغرة في المجلس .



حيث كانت كورنثة القديمة تربض في كنف ربوة تحميها

وصلت أنباء الى ما وصلت اليه من بأس في حمى معقل على الأكروبوليس ، وكذلك نمت كورنثة في حمى أسوار قلعتها الصخرية الأكروكورنث Acrocornith وكان هذا الجرف الكبير معقلا يكاد لا يقتحم ، وكانت بذلك ملاذا للقرويين الذين كانوا فريسة السلب . وفضلا عن ذلك فقد كان بمثابة برج يرقب منه البر والبحر . وهو أمر على جانب كبير من الأهمية ، اذ أنه كان من اليسير بلوغ أى منزل من المنازل التى أقيمت على برزخ كورنثة الضيق عن طريق برزخ كورنثة والبرزخ الساروني .

وكان لهذا المجلس سلطة واسعة فى عهد الملكية ٠ صحيح أنه لم يعد أن يكون هيئة استشارية لا تجتمع الا بدعوة من الملك ، الا أن العرف والرأى العام كانا يقضيان بأن يستشار هذا المجلس فى الجليل من الأمور ٠ وكان الملك من قبل هو الحاكم الفرد مدى الحياة ٠ ولكن الضعف أخذ يدب فى الحكم نتيجة لهذا التقسيم ٠ وكانت دول الاغريق ، على النقيض من روما ، تحد من عمل حكامها ، فلم يتمتع أى حاكم الا بقدر من سلطة الملك ٠ وكذلك أضعف من سلطة الحاكم تحديد أجل توليه شؤون الحكم ، وأصبح المجلس يمثل الأداة الدائمة فى الدستور وكان الحكام بمقتضاه يشغلون مناصبهم عاما واحدا فحسب ٠

وقد كان للمجلس مكانة بوصفه هيئة تتألف من عمال الدولة السابقين ٠ وكان فى الواقع يمثل الخبرة السياسية التى اكتسبتها الجماعة ، وظل هذا المجلس من الناحية الفنية هيئة استشارية ، الا أنه كان من الواضح ، مع ذلك ، أن الحاكم المؤقت كان دائما يستنصح جماعة من رجال الحكم ممن سبق لهم أن خبروا وظيفة الادارة ، كما أنه كان يطمح الى الدخول فى زمرتهم بقية حياته ، اذا ما انقضى العام الذى تولى فيه الحكم ، ولم يقف الأمر ، والحالة هذه ، عند استشارة الحاكم للمجلس ، بل تعداه من حيث العمل الى اعتباره رأى المجلس اذا ما أبداه أمرا واجب التنفيذ ٠

وكان من الطبيعى أن يجنح الارستقراطيون الى الحرص الشديد على رد أى دخيل عن أن يقتحم نطاقهم الحريز ، نطاق رجال الحكم الذى يتوارثونه ، وكانوا يحرصون فى الوقت نفسه على أن تسود بينهم المساواة التامة والتضامن الخالص ، فى حدود هذا النطاق ، وعلى ذلك فليس من الغريب أن نجد أن أهم صفات تلك الهيئات الارستقراطية القديمة التى لدينا مايخبر عنها، قصر الحقوق السياسية على عدد قليل بعض الشىء من أشخاص ينتمون الى أسر معينة ، ووضع السلطة السياسية فى يد لجنة تنفيذية أعضاؤها أقل من ذلك عددا ، (وكانوا يفضلون أن يكون عددهم ستين عضوا) جرى العرف أن يعينوا مدى الحياة ، ولو أن تقدم السن بعض الشىء كان شرطا يجب توفره فى جميع الأحوال تقريبا ، والصفة الأخيرة هى خضوع الحكام التام لهذه اللجنة ٠

وقد يكون تنمية الشعور بواجب الخدمة العامة أبرز ما أدته الحكومات الارستقراطية لبلاد اليونان فى القرن الثامن ٠ ففى أوائل أيام الارستقراطية على الأقل سلم أولئك الذين طالبوا بالاستئثار بالنفوذ السياسى بما عليهم من مسئوليات نحو خدمة الدولة ٠ وقد كانت أحكام الحكام الارستقراطيين أساسا لنشأة فكرة القانون ٠ ولم يعد الحكام يصدرون أحكامهم فى المنازعات عن بصيرة وهبهم الله اياها ، بل كانوا يرجعون فيها الى مجموعة من الاحكام قامت على أساس السوابق ، والواقع أن كلمة حكم هى المعنى الذى يطابق Nomos وتطلق فى اليونانية على القانون ، وهى الكلمة التى كان يستعملها هسيود Hesiod فى عبارة كهذه « أحكام الحرانة » ٠ وهكذا نشأ القانون ، ولكن العلم بمضمونه ظل حتى ذلك الحين وقفا على الحكام الارستقراطيين ، لأن أحكامه لم تعلن على الناس ٠

ضعف الأرستقراطية

تحمل الارستقراطية فى ثناياها بذور الضعف ، فان حرص الارستقراطيين على الاستئثار بالسلطان يثير تبرم كل من لا ينتسب الى طائفتهم ، كما أن تمسكهم بالمساواة المطلقة فيما بينهم يفضى الى قيام النزاع والشقاق بينهم ٠ وكل حكومات الطبقات خليقة بأن تنتهى الى الاثرة لا فرق فى ذلك بين حكومة العمال أو حكومة الأشراف ، ذلك أنها تقف عنايتها على الاستمساك بما لها من حقوق الى حد تهمل معه ما عليها من تبعات ٠ وتجنح منافع الطبقة الى أن تحجب مصالح الدولة ٠

وفضلا عن ذلك فقد تغير الزمان ، وظهرت ظروف اقتصادية واجتماعية جديدة ولم يعد ثمة أمل فى أن تبقى أية حكومة ، أيا كان نوعها ، تحاول أن تتجاهل الظروف الجديدة ، فتعنى بماضيها ، ولا تنظر فى حاضرها ، أو تتطلع الى مستقبلها ، ولعل أول ما نلاحظه التغير الذى طرأ على الفن الحربى ، ذلك التغير الذى أثر على مكانةالأرستقراطية تأثيرا وخيما ٠ وكانت الحرب فى قصائد هوميروس من صميم

عمل الزعماء · ولو أنه أشــــار فى عبــارة أو عبارتين الى وجود مشاة مدربين كاملى العدة ، انتظموا فى الوحــدات الاجتماعيــة للمجتمع السياسى ، الا أن الحرب كما صورتها الالياذة كان قوامهــا نزالا بــين الزعماء الذين كانوا يذهبون الى المعارك فى عجلاتهم الحربية ، فاذا نشطوا الى القتال استووا على أقدامهم ·

بطل اســتعمال العجلة الحربية بانقضــاء عصر الآخيين Achaeans ولــكن الفرسان الأرستقراطيين كانوا أهم سلاح فى اليونان القديمة · بيد أن شبه جزيرة البلقان كانت غير صالحة لتربية الخيول أو عمليات الفرسان الحربية الا فى سهل تساليا Thessaly الكبير ، فقد ظلت الظروف السياسية فيه على حالها الى أن حلت العصور التاريخيــة · وكذلك ظل فرســان اليونان القديمة الأشراف ، ويلوح أن أسبارطة كانت أول من فطن الى هــذا

أثر فن الحرب فى الشؤون السياسية

فأقامت الأسس التى تكفل لها السيادة الحربية وقد جاء فى قصائد تورتايوس Tyrataeus أن من كانوا يدعون بالفرسان الأشراف Knights فى جيش أســبارطة لم يعودوا مجـــرد جنـد يمتطون الخيل بل جماعة من صفوة المشاة ·

والحق أن أهمية الفرسان بقيت زمنا أطول من ذلك فى آسية الصغرى وجنوب ايطاليا حيث اختلفت الظروف فيهما بعض الشىء ، الا أن الفرسان الأشراف على الرغم من ذلك انقرضوا فى بلاد اليونان الأصلية · وانتهى الأمر بالجيش العامل فى دولة المدينة العادية الى أن أصبح يتألف من مشاة متجانسين من المواطنين المزودين بالكثير من السلاح ، جندوا من كافة الطبقات فيما عدا الأشراف ، وأشد أفراد الجماعة فقرا · ولم يكن بد من أن يجنح هذا التغيير الى التسوية بين الطبقات ، كما حرم الارستقراطية المتوارثة من بعض ما كانت تركن اليه من أسباب النفوذ، ورفع فى الوقت نفسه من شأن الطبقة المتوسطة الدنيا · وحدث أيضا تغيرات اقتصادية أحدثت تبدلا عميق الأثر فى صورة المجتمع · ويحتمل أن الأراضى التى كانت ميسرة للفلاحة قد قسمت فى أول الأمر قطعا تقوم الأسر لا الأفراد بفلاحتها، وذلك بعد أن استبعد منها نصيب للآلهة والزعماء· أما مراعى الجبال فقد ظلت بالطبع مشاعا للجميع وعلى كل فلم يكن هناك مناص من أن يعتبر رب العائلة مالكا للأرض اذ أنه كان مسئولا عن الادارة الفعلية لممتلكات الأسرة ، وعلى أى حال فليس ثمة دليل على أنه مر ببلاد اليونان زمن كانت فيه الملــكية الخاصة للأرض نظــاما غير مألوف ·

وكانت النتيجة المحتومة لذلك ازدياد التفاوت فى توزيع الثروة ، ذلك أن الاغريق لم يصطنعوا نظام توريث الابن الأكبر لابقاء أملاكهم على حالها ، ولكن تقسيم الممتلكات الزراعية أدى الى تكاثر الملكيات التى كانت أصغر رقعة من أن تدر زراعتها ربحا فى بلد لم يبلغ الخصب فيه حدا كبيرا ، ونجم عن ذلك قيام أزمة زراعيــــة كبيرة ،

التغيرات الناشئة عن العــوامل الاقتصادية

وازدياد بغض الفــلاحين للملاك الأثرياء الذين استغلوا ما نزل بهم من ضيق فزادوا على حسابهم من ممتلكاتهم الزراعية ·

وكان ازدحام السكان وما عانته الزراعة من ضيق مما دفع الاغريق الى أن يمارسوا الملاحة فأصبحوا أمة من التجار ، ووجدوا فى التجارة وفى نقل السلع مصدرا جديدا للثروة · وفى منتصف القرن الثامن بدأت حركة الاستعمار الــكبيرة التى خففت فيما بعــد من الضغط الاقتصادى · ثم ان الاستعمار والتجارة نشط كل منهما الآخر ، وأخيرا عم اتخاذ النقود فى القرن السابع وسيلة للتعامل ·

وقد جنى أفراد كثيرون من الأشراف أرباحا فاحشة من هذه التغيرات فأصبح بعضهم من أساطين التجار ، وانقلب الملاك فى بلاد اليونان مرابين رأوا فى أداة التعامل الجديدة التى لم يفهم عنها صغار الفلاحين الا القليل أداة لتضييق الخناق عليهم جريا وراء نفعهم الخاص · ولكن هــذه التغيرات كانت على وجه العموم ضربة قاضية على طبقة الأشراف ، ذلك أن دعواها فى استئثار الأشراف بالحكم كانت تستند الى السنن الموروثة واحترام الناس لهم · ولــكن هذه السنن كانت فى ســبيلها الى الانهيار آنئذ ، كما أن احترام الناس قد أضاعته طبقة الأشراف بما كان يعوز رجالهــا من كفاية وقــدرة على التكيف ·

وقد أتاحت الظروف الجديدة فرصا لمن ليس لهم حقوق وراثية ،.ولم تعد الثروة تنحصر فى

أصحاب الأراضي الورائيين فحسب ، فقد أخذ الأغنياء الجدد يطالبون بالاعتراف بكيانهم السياسي الذي كان يبرره ما كان لهم في المجتمع من شأن بالفعل • فخرجت الى الوجود طبقة اجتماعية جديدة ألحت بحكم الضرورة في المطالبة بنصيبها في الحقوق السياسية •

وكذلك كان أثر الاستعمار مناهضا للارستقراطية ، ولا يعود ذلك في جوهره الى نوع الحكومة التي قامت في المستعمرات الجديدة حيث اتجهت رغبة المستعمرين فيها في الواقع الى تأليف وحدة متماسكة عملت جاهدة على أن تحتفظ لنفسها بأسباب النفوذ السياسي • ولكن هذا النوع من الارستقراطية لم يكن في

أعداء جددا مرهوبي الجانب ، ثم ان تفوق أحد أفراد هذه الطبقة كان يوغر صدور باقي الأشراف ، ويؤدي الى انقسامها على نفسها ، ويحفز بعضا من أعضاء الطائفة نفسها الى الانضمام الى من ناصبوها العداء • وكانت طبقة التجار الموسرين الذين لم يكونوا من سلالة الأسر القديمة منافسا خطرا لطبقة الأشراف عقد نيته على تعزيز ما يطالب به من الأخذ بنصيب من الامتيازات السياسية ، وقد أشاع ضحايا الضيق الأقتصادي وازدحام السكان اللذين خفف الاستعمار من وطأتهما بعض الشيء ، شعورا بالتبرم المرير ، فغلى مرجل الثوره • وأصبحت عرضة لأن يفيد منها كل أوتي من الحذق قدرا كافيا •



تذكارات مادية عن رجال الحكم والحاكمين بأمرهم في أثينا

ان خير ما عرف عن مجموعات العملة الأثينيه هي القطعه ذات الأربع دراخمات التي ضربها بيزستراتوس أول الحكام بأمرهم في أثينا وأعظمهم ، ونقش على أحد وجهيها رأس الالهة أثينا ، وعلى الوجه الآخر بومة هي شعار المدينة ، ونشاهد نفس هذا الرسم على القطعه ذات الاربع الدراخمات التي سكها هيبياس بن بيزستراتوس وخليفته على ترانيس Tyrannis أما الأشكال ذوات الأرجل الثلاث ونصف جسم الجواد الراكض المنقوشه على المسكوكات الأخرى فلعلها كانت شعار الأسرتين الحاكمتين الكميونيدز وبيزستراتوس •

طبيعته من طراز الارستقراطية القديمة التي قامت في بلاد اليونان الأصلية ، وان دلت حركة الاستعمار على شيء فانها أظهرت بوضوح أن النشاط والكفاية في شئون السياسة لم يكن من الضروري أن يقتصرا على أفراد مجموعة معينة صغيرة من الأسر ، اذ أن كثيرا ممن أهلتهم كفايتهم لتولي الصداره في المستعمرات الجديدة لم يكونوا من عائلات مميزة على غيرها في بلاد اليونان نفسها •

وعلى هذا وجدت الأرستقراطية نفسها تواجه

تشبثت طبقة الأشراف في معظم الدول الاغريقية بمركزها تشبث المستميت • وكان من أثر ذلك أن انقسمت الدولة الى شيع لم تستطع واحدة منها أن تبلغ من القوة ما يمكنها

كيف قامت حكومات الاستبداد

من احراز نصر دائم حاسم ، وكان من المألوف أن تنتهي هذه الفوضى التي أعقبت ذلك ، لأن الفوضى التي تتجاوز حدودا معينة لا يقضي عليها القضاء المبرم الا بقيام أوتوقراطية الفرد ، وهي صورة من صور

الحكم التى استعار لها الاغريق نعتا من آسية الصغرى وهو الطغيان •

وفى الفترة التى شملت النصف الثانى من القرن السابع ، والنصف الأول من القـــرن السادس ، مرت معظم الدول الاغريقية بمرحلة الحكم الاستبدادى • ونحن نجد دواعى هـــذا الحكم الاستبدادى ومبرراته فيما طرأ عـــلى الشئون الاجتماعية والاقتصادية فى ذلك الحين من تفكك وكثيرا ما قام أحد الاكفاء الطموحين ، وكان فى الغالب نبيلا ساخطا أو أحـد أولئك الذين أثروا حديثا من التجارة فأصـــبحوا من أصحاب النفوذ ، فنظم صفوف الساخطين حتى يقلب الحكومة ويغتصب السلطان لنفســـه • ويقول أرسطو « ان الحاكم المستبد ، أو الطاغية يختار من بين صفوف الشعب ليتولى حمايته من الأشراف حتى يكفوا عن ايقاع الاذى به • ويبين لنا التاريخ أن كل الحكام المستبدين تقريبا كانوا زعماء شعبيين نالوا حظوة عند الشـــعب برميهم الأشراف بالتهم » •

وتتضمن كلمتا مستبد واستبداد فى اللغة الانجليزية معنى من معانى السوء • ولم تكن لكلمة مستبد فى الأصل أية دلالة من الناحية الخلقية • الا أن ما يقترن بهذه الكلمة من معانى الشر كان يرجع الى نظرة الاغريق فيما بعـــد الى الحكام المستبدين والحكم الاســـتبدادى • وتظهـر الروايات تحاملا عـلى أولئك الحـكام المستبدين الأول • وقد يرجع ذلك من ناحية الى أن مادة التاريخ القديم قد استقيت فى معظمها مما تواتر من روايات أسر أعدائهم الأشراف • ثم أن الغرض الصريح من حملة الفرس على ماراثون Marathon كان اعادة هيبياس الى عرش أثينـــا . وربما ساعد هذا على اقتران الحكم الاستبدادى بمساوىء حكم الطغاة الشرقيين ، كما أن سلوك المتأخرين من الحكام المستبدين فى صـــقلية وفى غيرها قد أزاغ حكم المـؤرخين المحـــدثين لاعتمادهم على أقيسة فاسدة • ولكن اعتراض فلاســفة الســياسة من اليـونان عـلى الحـكم الاستبدادى ــ أى حكم فرد غير مسئول ، ولا يقوم سلطانه الا على القوة الحـــربية اللازمة لتدعيم هذا السلطان ــ كان أعمق من أن يستند على أى خروج على السنة المرعية ، فقد رأوا بحق أن الحكم الاستبدادى نقض صريح للنظـــرة الأساسية للمجتمع ، وقد يكون هـــذا أثمن ما زودت به اليونان الفكر السياسى •

وكان الاغريق يرون أن الغرض من وجــود المجتمع هو أن يمكن أفراده من أن يحيوا حياة طيبة أى يهيىء لهم كل الفرص للتكمل ، والتعبير عن أنفسهم أفرادا وجمـــاعات ، وأن الحكومة تقوم لمصلحة المحكوم لا لمصلحة الحــــاكم ، وأن الدولة الحقة كائن حى ، وأن لكل فرد من أفراد الدولة نصيبا فى حياته ، وأن القانون ينظم العلاقات المتبادلة بين هؤلاء الافراد ويحـــددها لخيرهم جميعا ، ولخير كل واحد منهم • ولكن حكم الحاكم المطلق غير المســـئول انما هو حكومة لمصلحة الحاكم لا المحكوم ، فهو يدعى أنه فوق القانون ، ومن ثم فهو لا يكون عضوا فى هذا الكيان السياسى ، « وكان الحاكم المطلق فى نظر المواطن فى عصر متأخر عن هذا خارجا على القانون من وجوه ثلاثة : فقد أخرج نفسه من حظيرة القانون الوضعى ، وبدا لهذا السبب وكأنه أعفى من كل قيد خلقى ، وكان حتما أن ينجم عن ذلك أن يصـبح محـروما من حمـــاية القانون » •

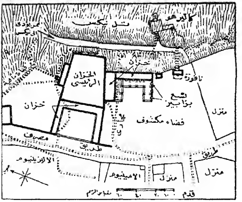
ومن العسير علينا حقا أن ندافع عن حكومة استبدادية من هذا النوع بوصفها صورة مثلى للحكومة ، الا أنه ينبغى كذلك أن نلاحظ من ناحية أخرى أن حكم المستبدين قد أدى فى الواقع الى ارتقاء واضح فى الحضارة الاغريقية ، وأن حكم المستبدين المؤقت كان كذلك خطوة لامناص منها فى تلك المرحلة من مراحل تطور الســـياسة الاغريقية •

لم يكن بد من أن تتجه سياسة الحــكام المستبدين فى بلاد اليونان نفسها الى القضاء على الأشراف فكانوا فى هذه البلاد ، شأنهم فى غيرها ، يهدفون الى تأليب جماهير الشعب على هؤلاء الأشراف • هذا الى جانب الحملة العنيفة على معاقل النفوذ الارستقراطى وقد تضـمنت هذه الحمـلة فيمـــا يختص بالـــدين التشجيع على المعتقدات الدينية الوطنية ، كعبادة الالهة أثينا Athena فى مدينة أثينا Athine والمعتقـدات التى آمنت بهـا جامعة الشـعوب اليونانية ، مثل عبادة ديونيزوس Dionysus على حساب العبادات المحلية •

حملة على طبقة الاشراف

ومن ثم يحتال الحاكم المستبد ، لكي يبرر مجافاة مركزه للدستور ، بأن يحرز نجاحا في ميدان من الميادين · وأن سياسة خارجية حافلة بالنشاط لكفيلة بأن تنمى العزة القومية التي يعبر عنها ، ويستثيرها أيضا أبهة بلاطه وتجميل مدينته · ثم أن رخاء المواطنين المادى ، وازدياد شعورهم بأمجادهم القومية ، ليضفى غشاوة على استرقاق الحاكم المستبد لهم ·

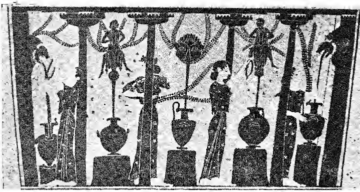
ولعل الحكم المطلق كان مرحلة لازمة في تطور المجتمع الناجح وتعتمد الحكومة المثلى على طول الزمن على الاهتداء الى وسيلة توفق من حيث العمل بين مثل القانون ومثل الحرية توفيقا صالحا · وقد يكون من الضرورى لبقاء الدولة التى تعدت فيها الفوضى حدا معلوما أن يعاد القانون والنظام فيها بأى ثمن · وقد يكون السبيل الوحيد لتحقيق هذا الأمر الضرورى هو على الأقل التضحية المؤقتة بالحرية السياسية وهذا هو فى الحقيقة ما يبرر سياسة يوليوس قيصر وحكم أسرة تيودور المطلق ·



التوسع فى تزويد أثينا بالماء

اراد بيزستراتوس أن تذيع شهرته بين الناس فزاد موارد الماء الميسرة للجمهور ، وأقام أمام عين الماء العامه « كاليرهو Callirhoe » على تل بينكس مجموعة من الخزانات ونافورة « ايناكرونوس Enneacrounos » والرسم أعلى هذا صورة مساعدة لهذه المنشئات ، وكانت هناك قنوات تصل هذه النافورة بالينابيع التى تتفجر على جبل هيمتوس Hymettus .

والواقع أن ما كان للحكام المستبدين من سلطان قوى هو الذى أعاد الى دول الاغريق وحدتها ، وسحق الأحزاب القديمة · اذ أن موضوع النزاع وهو اقتصادى فى جوهره



منحة الحاكم المطلق الأثينى لرعاياه وهى وان كانت منحة سياسية الا أنها كانت مصطبغة بالصبغة الفنية

يبدو أن بيزستراتوس كان على عادة أكثر الطغاة من الاغريق يفخر بتجميل مدينته حتى أن ماقام به من تجديد نظام تزويد المدينة بالماء أتاح له فرصة المباهاة بتجميل الأنياكرونس ، النافورة العامة والبزابيز التسعة · وكانت هذه احدى الطرق التى اتبعت فى توزيع محتويات الخزانات ، وكانت هذه المنشئات عبارة عن ساحة حسنة المنظر ، ويبين الرسم المنقوش على زهرية جانبا منها · وفى هذه الساحة تسع فتحات منحوته ينبثق منها الى الجرار ·

يختلف عن النزاع القديم الذى دب بين الطبقات ذات الامتيازات ، والطبقات المحرومة منها ، على الرغم من تتابع المنازعات بين حزبى المحافظين والديمقراطيين فى الدول الاغريقية . وكذلك مهد الحاكم المستبد السبيل للديمقراطية فى كثير من الدول بأن هدم الاحزاب وسوى بين المواطنين بردهم جميعا الى العبودية .

وكان من مظاهر سياسة الحاكم المستبد أن يجمل مدينته بالمنشئات العامة الفخمة ، ويحيط شخصه ببهاء البلاط المترف . وكان تركيز المال فى يد فرد واحد مطلق السلطان مما تهيأ معه جمع الأموال اللازمة ، وأتاح للحاكم المستبد أن يكون للفنون راعيا مبسوط الكف . وهكذا حل ذلك العهد الذى شهد فيه الحكام المستبدون نهضة رائعة فى الفنون ، فاذا تخيرنا من الأمثلة قليلا من كثير لرأينا أن من الشعراء مثل باخيليديز Bacchylides وبندار Pindar وسيمونيديز Simonides من وجدوا فى هيرون السرقوسى Hieron of Syracuse راعيا لهم . وأن ديموسيديز بوليكراتيز الساموسى Polycrates of Samos ويقترن اسم آريون Arion بالحكم الاستبدادى فى كورنثة Corinth وقد بلغ فيه الشعر الانشادى حد الكمال ، أما فى العمارة فقد تقدم الاغريق فى عمل التيجان المثلثة . وتضارع قنطرة ثياجينيز Theagenes المعلقة المشهورة فى ميجارا Megara نافورة أنياكرونوس Enneacrounos التى أقامها بيزستراتوس Peisistratus فى أثينا ، والى جانب ما شاده الحكام الاثينيون المستبدون من مبان باذخة فان مجموعة تماثيل العذارى الجميلات اللواتى يطلق عليهن اسم كوراى Korai ، أو كما دعاهن علماء الآثار غير المحققين « العمات العذارى » تشهد برعايتهم المستنيرة للفنون .

وصفوة القول أننا قد نلاحظ أن سياسة الحكام المستبدين الخارجية النشيطة حولت انتباه الساسة الاغريق الى مصالح فيما وراء حدود مدينتهم .

سياسة الحكام المستبدين الخارجية

ومنذ ذلك الوقت تداخلت الوحدات السياسية فى العالم الاغريقى بعضها فى البعض، وكانت حتى ذلك الحين ترقى متوازية مع احتفاظها باستقلال نسبى .

وكان الحكم الاستبدادى قصير العمر . أما الأسرة السيكيونية « Sicyonia » فقد خالفت القياس اذ دام حكمها قرنا من الزمان .

ولم يكن هناك للحاكم المستبد من سند الا القوة ، فهو كما يقولون قد « أمسك بالذئب من أذنيه » . وكانت سيرته قدوة فيها تبرير لمركزه واغراء لغيره على أن ينهج نهجه . وقد ثبت أن الجيل الثانى من هؤلاء الحكام كان معاول هدم لهذه الأسرة الحاكمة . وكان رأس هؤلاء رجلا مكنته كفايته من أن يغتصب العرش، أما انتقال مثل هذه الكفايات بالوراثة فأمر أبعد ما يكون عن التحقيق ، فقد كان الابن ينشأ فى بيئة ملكية منعمة مترفة ، فلا ينصقل فى بوتقه العراك السياسى . وكان فى الكثير من الأحيان يبز أباه ثقافة ، ويفوقه بصرا بالفنون ، ولكنه كان فى الغالب تعوزه الشخصية الغالبة التى كان الحكام المستبدين الأوائل يعتمدون عليها فى السيطرة على رعاياهم اعتمادهم على القوة. والأمر المتواتر فى تاريخ سقوط الاستبداد هو قيام مؤامرة على الحاكم يدبرها فرد من أفراد الأسرة الحاكمة . وكثيرا ما يكون الباعث على هذا التآمر نزاعا شخصيا . الا أنه قد يحدث فى بعض الأحوال أن يكون التدخل الأجنبى عاملا فى هذا الانهيار . واذا حبطت المؤامرة تكشف الحاكم عن الجانب الضعيف فى خلقه فيضيع صوابه ، ويرى الدسائس فى كل مكان ويزيد من الركون الى جواسيسه وجنده المأجورين . والحاكم الضعيف الذى يركبه الفزع لابد أن يقيم عهدا من الارهاب ، ويكون سقوطه بالاغتيال أو بالطرد مسألة تتوقف على الزمن .

مرت أثينا بهذه المراحل الطبيعية فى التطور الدستورى ، ولو أنها تأخرت بعض الشيء فى كل مرحلة منها عن معظم جاراتها ، وقد يرجع ذلك الى أن الملكية بقيت فيها زمنا أطول مما بقيت فى سواها ، وكان يقع على عاتق أثينا عبء القيام بعمل شاق متصل لتوحيد أتيكا كلها فى ظل حكومة واحدة . ولا ريب فى أن أتيكا كانت ، فى الأصل ، تتألف من عدد من الجماعات المستقلة . وتنسب الروايات توحيد المنطقة كلها توحيدا تاما تحت حكومة واحدة الى ثيذيوس Theseus الملك الأسطورى .

انتقلت سلطة الملك فى أثينا تدريجيا الى يد وكلاء عنه ، وتقول الروايات أن تعاقب ملوك ليسوا من رجال الحروب أفضى الى تعيين قائد عسكرى Polemarch ، ثم زيد حاكم أرخون Archon ، كى يساعد الملك فى القيام بشئون القضاء . وفى بادىء الأمر كان هؤلاء الحكام الثلاثة يشغلون وظائفهم

أثينا ونموها السياسى

مدى الحياة ، ولكن مدة توليهم المراكز انقصت فى القرن الثامن الى عشر سنوات ، وأخيرا أنشئت وظائف لستة من المشترعين Thesmothetae وجعل التعيين فى هذه الوظائف التسع كلها سنويا .

وكان مجلس الحكام التسعة ، كما كانوا يدعون ، يقوم بأعمال السلطة التنفيذية العليا فى الدولة الى أن قامت الحروب الفارسية . وكان أرفع هؤلاء الحكام شأنا الحاكم الأعلى Archon Proper . وكثيرا ما كان يكنى عنه بلفظة ايونوموس Eponymos ، اذ كان لوجود اسمه فى وثائق رسمية دلالة على سنة بعينها . وكان هو كبير القضاة المدنيين ، ووكل اليه تصريف شؤون الوطن العامة ، وكان الحاكم الملك ، ويطلق عليه اسم باسيليوس Basilius يدير أمور الأعياد الدينية القديمة ، وظل يرأس اجتماعات مجلس الأشراف ، أما الحاكم القائد Polemarch فكان يتولى قيادة ما للدولة من قوات حربية ، وقام بتطبيق التشريع المدنى على المستوطنين من الأجانب ، ولعل ذلك كان فى الأصل يرجع الى دواع حربية .

وكان هؤلاء وزملاؤهم الستة الأقل منهم شأنا يختارون من الأشراف الموسرين . حتى اذا انقضى العام الذى يشغلون فيه مناصبهم انتقلوا الى مجلس الأشراف الذى أصبح فى الواقع يهيمن الآن على أمور الدولة فى أثينا كما كان يهيمن على الأمور فى غيرها من دول المدن . وكان هذا المجلس يدعى من عهد صولون على الأقل مجلس الاريوباجوس Areopagus نسبة الى مكان انعقاده ثم تغيرت الظروف الاجتماعية والاقتصادية فى أتيكا وفى سواها من نواحى بلاد اليونان ، وأثار حكم الأشراف سخط الشعب . وحوالى عام ٦٣٢ ق.م قام أحد الأشراف ويدعى كولون Cylon بمحاولة عقيمة لاقامة حكم استبدادى ، لكن محاولته باءت بالخيبة ، ومعظم السبب فى ذلك راجع الى أن كولون ، وكان صهر حاكم ميجارا المستبد ، قد ركن الى معونة أجنبية . فنقم عليه الاثينيون هذا . ولم تنهض جمهرة من الشعب تؤيد ما حاوله من قلب نظام الحكم ، فانهارت خطته . وعلى كل فقد نشأت عن ذلك حرب طويلة الأجل مع ميجارا ، وكانت فى الواقع حربا عبر موفقة ، زادت من جسامة المشاكل الاقتصادية وغيرها من المشاكل التى كانت تهبط كاهل أثينا .

وحوالى عام ٦٢١ قبل الميلاد دون دراكون Draco القانون ونشره ، فكان ذلك نصرا شعبيا عظيما ، وتأثرت الأجيال المتأخرة بصرامة هذا القانون القديم فأعلنت أن « قوانين دراكون دونت بالدماء » . بيد أن مجرد تحديد القانون فى ذلك الوقت ، واعلان مضمونه للكافة كان تقدما شعبيا واضحا يدفع عن المواطنين أذى الاحكام الجائرة التى كان يصدرها حكام الأشراف وقد تم ذلك بالفعل . وكان هؤلاء الحكام الى ذلك الحين يحتكرون العلم بالقانون . ومما هو جدير بالملاحظة فى قانون دراكون ذلك التقدم الاخلاقى الذى يتجلى فى التفريق بين القتل مع سبق الاصرار ، والقتل بدونه .

كان اعلان هذا القانون كسبا هاما ، الا أنه لم يستطع أن يبرىء من العلل دولة كانت ظروفها خليقة ، كما رأينا فى غيرها ، بأن تفضى الى حكم الاستبداد ، وقامت فى أثينا محاولة للوصول الى حل سليم لمشاكل ذلك العصر السياسية

قيام صولون باصلاحات اقتصادية

والاقتصادية . وفى عام ٥٩٤ حاول صولون أن يحمل على مشاكل ذلك العصر الذى رأى بحق أن بعضها اقتصادى وبعضها سياسى . وقد بقيت شذرات من قصائد صولون تبرز لنا هذا الرجل مصلحا كبير القلب ثاقب الفكر .

وكانت اصلاحاته الاقتصادية تهدف الى تخليص الناس من ربقة الدين ، وتحديد مساحة الملكيات الزراعية ، وتحرير الفلاحين الذين انحدرت بهم قسوة ربا الملاك الأثرياء فصيرتهم عبيدا ، فعلا لا اسما ، بل لقد حدث أن بيعوا فى كثير من الأحوال بيع الرقيق . كما هدف صولون أيضا الى أن يبطل فى المستقبل رهن

المدين نفسه لقاء ما يستدينه . وتشجيع تجارة الصادرات، واستحداث عملة على قاعدة تيسر على الفور استغلال أكبر الأسواق الأجنبية ادرارا للربح ، وربطها بعملة أصدقاء أثينا ، بدلا من ارتباطها بعملة اعدائها .

أما في ميدان السياسة فقد أحدث صولون تغييرات كان الغرض منها اعادة تنظيم السلطة في الدولة على وجه سليم ،فقسم المواطنين أربع طبقات تتدرج وفق دخل أفرادها ، وكان لا بد لهذا التصنيف أن يحدد أول ما يحدد الالتزامات الحربية ، فدعى أوفر الطبقات ثراء الى أداء نوع من الخدمات تتطلب بذل كثير من المال ، وأعفى أفقر الطبقات من القتال في صفوف الجند ، ثم جدد صولون الامتيازات السياسية فاعتبر أن الطبقة الدنيا عاجزة عن أن تتولى الحكم ، أو أن تشغل سواه من وظائف معينة عليا ، وقصر هذه الوظائف على الطبقتين الأوليين .

ومنح صولون كافة المواطنين ، بما فيهم أفقرهم . حق التصويت في الجمعية العمومية Ecclesia ، التي كانت تختلف عن المجالس الرومانية المألوفة ، اذ ربما نوقشت فيها الأمور على أن يؤخذ رأي أفراد المجلس فيها فردا فردا ؛ ولكنه أنشأ مجلس الأربعمائة Boule ، وربما قصد من ذلك الى ايجاد مراجعة نافعة للتشريع الشعبي ، وكان على أعضاء مجلس الاربعمائة اعدادا المسائل للجمعية العمومية .

مولد الديمقراطية الأثينية

وعسير علينا بعض الشيء أن نعرض لطبيعة هذا المجلس : فقد لقب صولون فيما تلا هذه الحقبة من عصور بمنشيء الديمقراطية الأثينية ، وكان رأي المتأخرين من الاغريق أن مجلس صولون كان يماثل في طبيعته العامة مجلس كليستينيز Cleisttenes ، وسيكون موضوع الحديث عاجلا ، ولكن قد يكون من الأرجح أن مجلس صولون كان قبل كل شيء جماعة ممن رشحهم ، وقصد به قطعا أن يمثل اشراف الطبقة العليا على الطبقات الدنيا التي قد تسود الجمعية العمومية بما لها من أصوات .

وكذلك أنشأ صولون المجالس الشعبية التي كانت تدعى هلياي Heliaea التي كان يجلس فيها عدد كبير من المواطنين من كل الطبقات بما فيها الطبقة الدنيا . وكان لهذا النظام أهمية دستورية كبرى . فقد أصبحت السنة المرعية أن الحكام عقب انتهاء العام الذي يشغلون فيه مناصبهم كانوا ملزمين بعرض ما قاموا به من أعمال على المجالس الشعبية لمحاسبتهم عليها .

وكان أخطر ما استحدثه صولون من تغييرات هو : أولا ، جعل التزامات المواطن وحقوقه متوقفة على مركزه في الدولة ، وجعل هذه الحقوق متوقفة على الثروة لا على شرف النسب ، ثانيا ، انشاء المجالس الشعبية التي جعلت للشعب سلطانا على الهيئة التنفيذية بالزام الحكام بعرض أعمالهم حين يعفون من مناصبهم على هذه المجالس لمحاسبتهم عليها .

وقد حاول صولون أن يتفادى ضرورة قيام حكم استبدادي بتسوية الأمور تسوية عادلة ، الا أن الفوضى كانت قد استشرت فلم يكتب لهذه التسوية النجاح ، ذلك أن المتطرفين من كل التيع السياسية تذمروا ، وتلا ذلك العصر فترة من الزمن تجددت فيها الاضطرابات ، وجنحت فيها الأحزاب السياسية الكبرى الى الانخراط في مجموعات ثلاث : أهل السهل وكانوا يمثلون الملاك الأشراف ، وأهل الساحل وكانوا يمثلون التجار الموسرين ذوي النفوذ ، وأهل الجبال وكانوا يمثلون الطبقة العاملة التي كانت تعيش في ضنك .

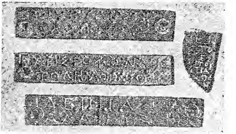
بيزاستراتوس ينتهز الفرصة فيقيم نفسه حاكما مطلقا

وانتهى الأمر ببيزستراتوس ، وكان قائدا على شيء من نباهة الذكر وزعيما لحزب الجبليين ، الى أن نصب نفسه حاكما مطلقا . وقد نحي عن الحكم مرتين ، الا أنه بعد بضع أحداث وطد من مركزه على العرش ، حوالي عام ٥٤٠ قبل الميلاد . ويعد حكمه مثالا صادقا للخير الذي يصيب شعبا على يد حاكم مطلق أريب قوي البأس .

ودفع بأثينا للمرة الأولى الى طليعة الدول الاغريقية ما جرت عليه من سياسة خارجية استعمارية ناشطة . أما في بلاد اليونان نفسها فان الحكومة اتبعت نظاما تمد به الفلاحين بقروض تساعد صغار الملاك على أن يتغلبوا على الضيق الناشيء عن ضعف المحصول دون أن يقعوا في براثن المرابين . وازدانت أثينا بالمنشئات العامة ذات النفع والرواء . ورعى الحاكم وأبناؤه الفنون رعاية المستنير الفطن .

وفى الجيل التالى انقضى الحكم الاستبدادى ، فان هيبياس ، بن ببزاستراس ، على حكمته ولطفه ، كان رجلا أضعف مراسا من أبيه • ووقع حادث غرامى أفضى الى الفتك بأحد أفراد العائله المالكه ، فأضاع هدا صواب هيبياس ، وازداد حكمه طغيانا • وشارك أثينا فى سخطها حلفاء من الخارج • وكانت أسرة الكميونيديز ذات النفوذ من خصوم بيزستراتوس الـذين نفاهم من البـلاد ، فتحببوا الى من بيـدهم السـلطان فى دلفى Delphi مهبط الوحى • وكانت دلفى اذ ذاك تضيق الخناق على أسبارطة بقصـد اسـقاط هيبيـاس واعادة أسرة الكميونيديز •

كانت أسبارطه قد بسطت بالفعل من نفوذها السياسى فى بلاد المورة متوسلة بتحرير المدن من ربقة الحكم الاستبدادى واسناد الحكم الى



بطاقات المحلفين التى كانت تستخدم فى أثينا القديمة

كان لكل مواطن أثينى ، أهل للاشتراك فى هيئـة المحلفين فى المحاكم ، بطاقة تحقيق الشخصية مثبت فيها اسمه والناحية التى نشأ فيهـا ، ورقم القسم الذى قيد عليه فى جدول المحلفين . وفى الصورة ثلاثة نماذج من البرنز (القرن الرابع ـ القرن الخامس قبل الميلاد) ومعها كسرة فخار من نقراطيس تسجل عليها الأصوات التى تؤخذ حين يراد ابعاد أحد المواطنين .

أشخاص موالين لها ، والذين كانت مناصبهم تستند الى تعضيد أسبارطة الأدبى • ويبدو أن

القضاء على الحكم الاسـتبدادى

هذه كانت فرصة أتيحت لأسبرطة لمد هذه السياسة الى بلاد اليونان الوسطى ، وتحقيق شىء من السيطرة على أثينا • وعلى ذلك تكفل الجيش الاسبارطى بابعاد هيبياس واعادة أسرة الكميونيديز الذين كان يتزعمهم كليستينيز Cleisthenes .

على أن كلستينيز لم يكن على استعداد لأن يكون أداة فى يد أسبارطة ، فنشأت المشاكل فى الحال ، اذ أن الملك الأسبرطى طرد مرة أخرى صنيعته الذى أفرط فى استقلاله عنه • الا أن أهل أثينا قاوموا السيادة الأجنبية فى أى مظهر من مظاهرها مقاومة عنيفة • وحين تحرجت الأمور رفض بعض حلفاء أسبارطة أن يؤيدوا سياسة قد تجعل أسبارطة تسيطر على أواسط بلاد اليونان وتجعل استقلالهم هم رهنا برضى أسبارطة ، فعاد كليستينيز الى الحكم ، ونجت أثينا من سيطرة أسبرطة •

وكان كليسـتينيز ، فى الواقع ، منشىء الديمقراطية الأثينية • أما ببزستراتوس فقد قنع بالسلطة الفعلية ، واصطنع الدهاء فأبقى من الناحية الشكلية على نظم صولون الدستورية بينما عنى من النـاحية العملية بأن يشـغل مرشـحوه المنـاصب ذات الخطر .

الا أنه كان من الجلى ، بعـد ابعـاد الحـكام المستبدين وما تلا ذلك من اضطرابات سياسية ، وجوب وضع دستور دائم على نحو جديد .

وأفضت مشكلة ملحة معينة الى احداث تغيـير هام ، ذلك أن لفيفـا كبـيرا من اتبـاع ببز سـتراتوس لم يكونوا من أصحاب النسب العريق ، أى أنهم لا ينتسبون بوشائج الدم الى احدى الأسر الأثينية القديمة ؛ وعلى ذلك لم يستطيعوا التمتع بحقـوق المواطنين • وفى عهد الحكم الاستبدادى منحوا حقوقهم المدنية فعلا ، وكان من شأن حرمانهم منها أن يثير مشكلا يربك نظـام الحكم الجـديد • وقد وفق كلستينيز الى حل هذه المشكلة بأن أعاد تنظيم النظام القبلى ، فانقطعت صلة القبائل الأربع القـديمة ، التى كانت تتـألف من ذوى القربى ومن العشـائر ، بالشـؤون السياسية انقطاعا تاما وأنشئت عشر قبائل جدد لم تكن الأسرة أصغر وحداتها بل الناحية أو ال Deme ولم يعد المولد هو الذى يؤهل الفرد لكى يكون مواطنا فى مدينة ، بل استعيض عنه الموطن • وكان هذا على الأقل ما أحدثه ذلك النظام من أثر عاجل • وقد ساعد هذا النظام كثيرين ممن لم

ينتسبوا الى جماعات تربطها صلة الدم على أن يصبحوا مواطنين فى الدولة . على أنه ينبغى أن نلاحظ أن الانتساب الى الناحية فى أتيكا نفسها أصبح وراثيا وأن الفرد لم يكن ينتسب الى الناحية التى يعيش فيها فعلا بل الى ناحية أبيه ، ذلك أن الصفات المدنية الموروثة كانت شديدة التأصل فى بلاد اليونان .

لقد اصطنع نظام عجيب قسمت القبائل الجديدة بمقتضاه الى أثلاث Trittyes ؛ فكان ثلث أفراد كل قبيلة من نواحى المدينة ،وثلث من نواحى منطقة فى اتيكا تعرف بالساحل ، وثلث من أهل المنطقة التى فى الداخل : وربما كان الغرض من هذا التقسيم منع أى شخص أو أسرة من السيطرة على أصوات قبيلة من القبائل .

اعادة تشكيل النظام القبلى

ولولا ذلك لاستطاع كبير من أهل الاقليم أن يحقق هذه السيطرة اذا كانت كل قبيلة مؤلفة من نواح متجاورة . وقد كان لهذا النظام نتيجتان يختلف شأنهما ، فهو من ناحية قد ربط مدينة أثينا بارباض أتيكا الريفية ، ومن ناحية أخرى جعل السيطرة على شؤون الدولة فى يد أهل المدينة عمليا ، اذ لم يكن هناك مناص من أن تكون القوة الفعالةلأصوات كل قبيلة محصورة فى يد الثلثين الداخلين فى المدينة ؛ وكان أفرادهما مستعدين للتصويت على الفور .

وكذلك ابتدع كليسثينيز نظاما سياسيا أعان دولاب الديمقراطية على العمل . وقد طلب الجمعية العمومية تضم جمعا كبيرا من كل المواطنين . وكانت صحة التشريع متوقفة على تصديقها عليه . بيد أنه من الجلى أن جمعا كبيرا لا يتسنى له أن يباشر المسائل التفصيلية ، ومن ثم انحصرت المبادءه فى كل التشريعات فى مجلس Boule يتألف من خمسمائة عضو . كل خمسون منهم من قبيلة . وكان أعضاء المجلس يعينون سنويا ولا يسمح لفرد أن يكون عضوا فى المجلس أكثر من مرتين . وفى القرن الخامس كان لتلك الهيئة الاشراف الكامل على المسائل الادارية والمالية ، وكانت تشترك معها فى الادارة هيئات من الموظفين يختارون على الدوام تقريبا على أساس قبلى . وبعبارة أخرى من عشرة أعضاء .

ومن الجلى أن مجلسا يتألف من خمسمائة عضو هو من الناحية العملية أكبر من أن ينهض على وجه مرض بالمسائل التفصيلية التى تعرض للدولة كل يوم . ثم انه من العسير أن تظل هيئة تضم مثل هذا العدد الوفير مجتمعة اجتماعا دائما . فاصطنعوا تدبيرا بارعا لتذليل هذه العقبة بأن قسموا العام عشرة أقسام يساوى العمل فى كل قسم منها فريق قبلى من خمسين عضوا من الاعضاء الذين يتألف منهم المجلس ، ويكون هذا الفريق بمثابة لجنة قائمة كانوا يطلقون عليها اسم بريتانى Prytany ، وكانت مهمة هذه اللجنة أن تنعقد دائما خلال هذه المدة القصيرة التى يضطلع فيها بالمسئولية لتصريف كافة الامور واعدادها لان تنظر أمام المجلس . وحين يتم المجلس النظر فى احدى المسائل ويقرها فانها تصبح قرارا يرفع الى الجمعية العمومية فان صدقت عليه فانه يصبح قانونا واجب الاحترام « Psephisma » .

وكذلك استحدث كليسثينيز وسيلة يتذرع بها لابعاد المواطنين ، تلك الوسيلة التى اختلفت الآراء فى الحكم على قيمتها ، والتى اشتق اللفظ الذى يدل عليها Ostracism من كسر الفخار Ostraka . وهى التى كانت تقابل الأوراق المهملة فى قديم الزمان . والتى كانت تدون عليها أصوات المقترعين . وقد أتاح نظام الابعاد الذى أحيط ببعض الضمانات أن يبعد زعماء الأحزاب عشر سنين فى حالة قيام صراع حزبى .

كان التقدم الذى طرأ من بعد على الديمقراطية الأثينية فى القرن الخامس أثرا مباشرا لما استحدثه كليسثينيز من نظم . وكان ادخال نظام الانتخاب بالاقتراع وسيلة لتعيين الحكام وتقرير أجر نظير الخدمات العامة من أهم أجرى من تعديل . وفى عام ٤٨٧ ق . م كان الحكام (الأركون Archons) يعينون لأول مرة بالاقتراع . وتم ذلك أن أبطل تعيين الحاكم الحربى قائدا عاما . لأن أكثر المواطنين من الجنود ديمقراطية

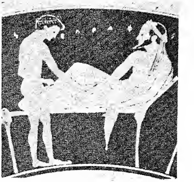
انتخاب الحكام بطريق الاقتراع

رغبوا عن أن يضعوا حياتهم بين يدى قائد خلقته المصادفة واضمحل شأن وظيفة الحاكم (أركون Archon) فأصبحت مجرد مرتبة اجتماعية تميز صاحبها بعد أن كانت أكثر المناصب سلطانا . وقد حل محل الحكام Archons هيئة من عشر قواد . ويرجع ذلك بعض

لانه حكم الكثرة لا حكم القلة ذلك أننا نشترك الكافة فى حياتنا العامة ... ديدننا الصراحة والود فى صلاتنا الخاصة ، أما فى تصرفاتنا العامة فنحن نخضع للقانون لا نحيد عنه » أى أن المواطن الأثينى لم يعترف بسيادة الا سيادة القانون ، وكان السلطان فى يد الشعب نفسه .

وبفضل ضيق رقعة الدولة كان الشعب يمارس سلطنه مباشرة لا عن طريق ممثلين ينوبون عنه ، فقد كان يهيمن على السلطتين التشريعية والتنفيذية ذلك أن الجمعية العمومية كان لها القول الفصل فى التصديق على كل تشريع أو رفضه كما أن المجالس الشعبية كانت تحاسب جميع الحكام بعد انتهاء مدة حكمهم وكانت عضوية هذه المجالس تتاح لكل مواطن ، ولا يستثنى من ذلك أفقر فقير .

واذا كان أول مبدأ تقوم عليه الديمقراطية الأثينية هو سيادة الشعب ، فان المبدأ الثانى هو أهلية المواطنين على السواء للاشتراك فى الاضطلاع بمناصب الحكم . واختفى من حيث العمل ما كان يطلب لشغل الوظائف من توفر شرط التملك ، الا ما كان يختص ببعض الوظائف



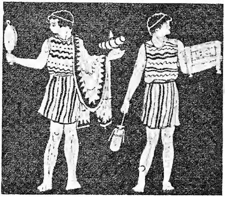
الحياة الناعمة التى كان يحياها المواطنون الأغنياء

كان تسخير العبيد للقيام بالأعمال مما أتاح للمواطنين الاغريقى أن يشتغلوا بالشؤون السياسية أو الذهنية . ففى أثينا ، على وجه خاص ، كانت طبقة ملاك الرقيق عنصرا ذا خطر فى المجتمع . ونرى أحد أفراد هذه الطبقة على هذا الرسم الذى نقش على زهرية

الشىء الى أن مشاكل أثينا الكبرى فى القرن الخامس كانت حربية واستعمارية . الا أنه يرجع أكثر ما يرجع الى أن القيادة كانت اذ ذاك الوظيفة ذات الشأن التى كانت حتى ذلك الحين لا تزال تشغل بطريق الانتخاب . اما مبدأ منح أجر لمن يؤدى خدمة للدولة ، وكذلك لأعضاء المجلس والمحلفين فى المحاكم . فقد استحدثه بركليس عام ٤٥١ . ولم يشمل ذلك المبدأ منح أجر عن حضور جلسات الجمعية العمومية الا فى مستهل القرن الرابع .

وقد سبق أن لاحظنا أن أرسطو يبدأ رسالته عن السياسة بالتساؤل عن وظيفة الدولة ، ثم يجيب بأنها « تهيىء لافرادها فرصة العيش عيشة راضية » . ولنضرب مثلا على ذلك بأثينا التى كانت أوسع دول اليونان حرية وأوفرها نصيبا من الديمقراطية وننظر الى أى حد قد تحقق ما يطلبه ذلك الفيلسوف .

ويقول بركليس فى خطاب رثائه الذى كتبه له ثيوسيديدز Thcydides « يعرف دستورنا بالديمقراطية



الأعمال المنزلية الموكولة الى الرقيق

من أقوال أرسطو المأثورة « لا ينبغى للمواطن الفاضل أن يتعلم مهن الطبقات الدنيا الا لغرض منها فى غرض عارض » وهذا القول يصور النظام العجيب للمجتمع الاغريقى ، فكان بين المواطنين من كانوا أصحاب حرفة ، الا أن العبيد كانوا يقومون فى كافة الأحوال تقريبا بالأعمال الوضيعة ، كما كان الحال فى المنازل ، ومن المحتمل أن يكون من ترى رسمهما هنا خادمين .

التى لهـا اتصال بالشئون المالـية ، وكانت الضرورة اذا قضت بمراعاة هذا الشرط فانه كان من الممكن التحايل على ذلك قانونا . وعلى ذلك كان أفقر المواطنين أهلا للمشاركة فى الحكم وكان الأخذ بنظام دفع الدولة أجرا نظير ما يقدم لها من خدمات مما جعل أهلية المواطنين لهذه المناصب أمرا يتعدى الناحية النظرية . اذ أن الاجر الذى يقوم بالمعاش يمكن الرجل الفقير من أن يهمل ما يعود عليه برزق يومه فى سـبيل الخدمة العامة .

خصـائص الديمقراطية الأثينية

بلغت نظرية المساواة فى الاهلية لمـناصب الدولة غايتها المنطقية حين أخذ بنظام الاقتراع كما أتبع فى اختيار الحكام . اما أن المصادفة لبست خليقة بأن تتخير أصلح رجل فأمر واضح . وكان من آثار الاخذ بها : كما رأينا ، تركيز المصالح السياسية واضفاء الأهمية السياسية الأولى على الهيئة الحـاكمة المنتخبة الباقية .

وعلى ذلك اسـتطاع أشد المواطنين الاثينيين فقرا أن يشترك فى الاصطلاع بمناصب الحكم فى بلده وقد اشترك فيها بالفعل . ومن الحق أن هذا النظام لم يسلم من نقد الناقدين فلم يكن أفلاطون يكل البتة من الحملة على ما يحق لنا أن ندعوه بدستور الهواة . ويقول أفلاطون انه ما من أحد يكل للمصادفة أمر اختيار من يطهو طعامه أو يقود سفينته . مع أن الحكم يقتضى دقة أكثر مما تقتضيه صناعة الطبخ أو فن القيادة . وكان أفلاطون أقل ثقة من أرسطو بسلامة أحكام أواسط الناس بصفة عامة ، على حين كان دقيق الادراك لما يتصف به الجماهير المشتركة فى السياسة من تذبذب وتأثر بالمشاعر والعواطف المختلفة . فهو يرى أن « الهولة ذات الرؤوس المتعددة » تستجيب لشهواتها أكثر مما تستجيب للقادة الحكيمة ، وانهـا لابد أن تنقـاد الى الساسة المحترفين لا لرجال الحكم . وحمل أفلاطون على ما أحدث به الدولة من دفع أجر لما يؤدى لها من خدمات . قائلا انه نظـام يقوم على الرشـوة ؛ كما أنه جنح الى ابراز الأثر السيء الذى يحدثه فى أخلاق الدولة وفى أخلاق الأفراد ، نظـام يشجع على اغفال المسائل الخاصة فى سبيل المسـائل العـامة ويجنح الى تمجيـد أعمال المتطفلين .



تعليق خارج عن المألوف على الرق الاغريقى

كان الرقيق الذين اشتغلوا بالخدمة فى المنازل وذوى الحرف الوضـيعة منهم يستمتعون بكثير من مناعم الحياة . أما الأرقاء الذين يعملون فى مناجم لوريوم فلعلهم كانوا يعاملون معاملة قاسية . ويتم تمثال هذا العبد العجوز النائم (القرن السادس — القرن الرابع ق . م .) وهو من الفخار المحروق . عما انطوت عليه نفس المالك العادى للرقيق من حب للخير .

اعتراضات النقاد المحدثين

هناك ولا ريب نصيب من الصحة فى هذه الانتقادات كلها الا أننا قد نلاحظ هنا من حيث العمل وحده أن الجمعية العمومية الأثينية كانت أهلا لتصريف الشؤون السياسية أكثر مما يبدو لأول وهلة ، وكان عدد البـالغين من المواطنين الذكور جد ضئيل ، ولنفترض أنه كان ما بين الأربعين والخمسين ألفا فى القرن الخامس وكان خمســمائة رجل ينتخبون سـنويا أعضاء فى المجلس ، ولا يجوز أن ينتخب فرد عضوا فى المجلس أكثر من مرتين ، وتبعا لذلك يكون ربع أعضاء الجمعية تقريبا ، فى أى وقت ، قد سبق لهم الاشـتراك فى عضوية المجلس فترة ما . تمرسوا فيهـا عن طريق مبـاشر على الاصطلاع بأعمال الدولة . وعلى ذلك كان فى الجمعية العموميه الأثينية خبرة من أعضـاء حنكتهم السياسة أكبر بكثير مما كان فى أية جمعية شعبية أخرى .

وربما كان أهم نقد يبدو فكر الرجل العصرى الذى يرقب مجـريات الأمور لم يجل بخاطر أفلاطون . لأن أفلاطون كان اغريقيا ، وكان هذا النقد يصدق على كل دول المدن فى اليونان ، ومما له دلالته الى حد كبير أنه حين انتهى أرسطو الى أن الغرض من قيام الدولة أن تيسر لمواطنيها « العيشة الراضية » كان يتعين عليه حينئذ أن يسأل « وما الشروط الواجب توافرها فى المواطن ؟ » .

وكان القدر من الحريات السياسية الذي تتيحه الديمقراطية الأثينية نفسها لا يرضى رجلا يعشق الديمقراطية الحديثة ، واذا عبرنا عن الحقيقة المرة فان المواطنين الذين كفلت لهم الدولة طيب العيش أصبحوا يؤلفون طائفة وراثية تمثل أقلية من سكان الدولة . ثم ان تقدير عدد سكان أثينا القديمة أمر عويص غير موثوق به . على اننا اذا أخذنا تقديرين مختلفين فان قولنا يصلح على الحالين فان زيمرن Zimmern يقدر عدد السكان بأربعين ألف مواطن ، وأربعة وعشرين ألفا من المستوطنين الأجانب وخمسة وخمسين ألفا من الرقيق ، والمواطنون هنا يمثلون أربعين ألفا من مائة وتسعة عشر ألفا . ويقدرهم [١] . ماير E. Mayer بخمسة وخمسين ألف مواطن ، وأربعة عشر ألفا من المستوطنين الأجانب ومائة ألف من الرقيق . فتكون نسبة المواطنين هنا الى مجموع السكان خمسة وخمسين الى مائة وتسعة وستين .

وقد شغلت مشكلة الرق المفكرين من الاغريق ، ولكنهم أجازوها على اعتبار أنها جزء من الأوضاع الطبيعية للأشياء . ويقرر أرسطو من حيث العمل أن الاغريقي لا ينبغي أن يكون عبدا ، بل ان هناك نوعا من الناس عبيدا بالطبيعة لم يرزقوا من العقل والذكاء نصيبا يؤهلهم لتحقيق ذاتيتهم ، بل لعله من الخير لهؤلاء أن يحكمهم غيرهم من أن يسيئوا حكم أنفسهم . وهو يشبه استخدام الرقيق باستخدام الحيوان الأليف ، مع خلاف واحد ، هو أن الرقيق يستطيع أن يفهم ما يلقى اليه من أوامر على شيء من الدقة .

وكان من أثر التقدير المبالغ فيه لأهمية الرق في العالم الاغريقي أن شاع الآن الميل الى التقليل من شأنه . على أننا نجافي الأمانة اذا أنكرنا ان الديمقراطية الأثينية قد قامت قبل كل شيء على الرق . وأنه لولاه لما تحقق للمواطن ذلك القدر من الفراغ الذي يكفل به نفسه ، ويتيح له المشاركة في المسائل العامة ، والذي يرى أرسطو بحق أنه شرط لازم للمثل الأعلى الذي نزع اليه هو نفسه . وقد كان من الضروري أن يضطلع أناس بالأعمال الوضيعة في المجتمع على نحو ما . ويمكن الآن الاقلال من مقدار هذه الأعمال الوضيعة باستخدام الآلات . أما أقل ما يمكن من الأعمال الوضيعة المتبقية التي لا مناص من أدائها فكان يقوم بمعظمها الى الآن أفواج متوالية من المهاجرين الفلاحين حتى في أمريكا .

ولم يكن بساء معاملة الرقيق بوجه عام في أثينا . صحيح أنه لم يكن للرقيق شخصية قانونية بل كان مثله مثل المتاع يمكن الحجز عليه وفاء لدين ، وأنه لم يعترف بما له من أواصر القربى ، وأنه كان يحمل بالتعذيب على اداء الشهادة في المحاكم . الا أن القانون ، من ناحية أخرى ، كفل له أن لا يسيء سيده معاملته . وكان عتق العبيد مسموحا به فاطرد اعتاقهم ، وقد بدأ باسيون Pasion ، وكان أكبر الماليين في القرن الرابع ، حياته عبدا لصراف نقود .

وقام أرقاء الدولة بما تؤديه لنا اليوم المجالس البلدية . وكانوا يباشرون كل الاعمال المنزلية التي لم تكن تقوم بها النساء من أهل البيت . وكانت العائلات الموسرة تقتني خمسة أو ستة من الأرقاء وكان لكل أسرة عبد واحد على الأقل الا أرقهم حالا . وكيفما كان الأمر فان رقيق أهل البيت ، كما يبدو لنا في الأدب الاغريقي ، كان حائزا لكل خصائص التابع الوفي الذي له امتيازاته . وكذلك جرت العادة على أن تجزى المهارة في العمل بحسن المعاملة . اذ أنه في أي عمل يستلزم عناية وفطنة ، تزيدان قليلا عن الحد الأدنى لهما ، يكون ضمان رضى العامل أمرا جوهريا حتى من وجهة النظر الاقتصادية البحتة . ويجب أن نذكر ما كان عليه نطاق الصناعة قديما من ضيق شديد ، وما كان يستتبع ذلك بالضرورة من قيام صلات وثيقة بين الناس . ولم تتبع أساليب «مستعمرة» الرق الوحشية الا في مناجم الفضة في لوريوم Laurium حيث كان الأرقاء يعملون بلا رحمة ، كأنهم آلات تعمل حتى تبلى .

أما عدا هؤلاء من غير المواطنين فكانوا طبقة المستوطنين الاجانب Metics . وقد كانت سياسة أثينا أن تشجع هؤلاء على أن يستوطنوا أتيكا . وكانوا ، بوصفهم طبقة من الطبقات ، قانعين بما قدر لهم . ولم يكن مركزهم الاجتماعي دون مركز المواطنين الا أنه لم يكن لهم حقوق سياسية . وقد قدر ثقة من عصر غابر أنه ، في أية سنة ، كان هناك عشرون ألف مواطن يتقاضون على نحو ما راتبا من الدولة . ولما كان المواطنون منصرفين الى الأعمال العامة انصرافا

كبيرا ، كما تدل عليه هذه الأرقام . فانه من المفهوم بداهة أن الأعمال التجارية جنحت شيئا فشيئا الى الانتقال الى أيدى المستوطنين الأجانب الذين أنقذهم عدم أهليتهم لشغل مناصب الدولة من تبلبل الأفكار الذى يلازم من ينصرفون الى المسائل العامة ·

فالمجال الذى طبقت فيه الديمقراطية الأثينية فى ذلك الحين ، يبرر ما وجه اليها من نقـــد شديد ، فتكافؤ الفرص للمواطنين لم يقف عند حد الوعد ، ولكنه منح فعلا بقدر لم يتحقق فى اية بقعة أخرى . الا أنه من الناحية الأخرى كان المواطنون أقلية ورائية بين سكان أتيكا ·

بالرغم من هــذا القصــور فى الديمقراطيــة الأثينية . فان الاغريق قد وفقوا الى كشف عظيم هو أنهم كانوا يعتبرون الدولة جماعة من الأحرار ارتبطوا مختارين ابتغاء الحصول على أكبر قدر من النفع . وأن الدولة بوصفها كائنا حيا يجب أن يقوم جميع أفرادها بدور فعال فى الاضطلاع بوظائف هــذا الكائن الحى ·

أهم ما كشف عنه الاغريق

وهذه الفكرة التى قام عليهــا ما تلا هــذا من تطور فى المثل العليا للسياسة فى بلاد الغرب كانت غريبة تماما عن الشرق · وقد كان هيرودوت محقا حين أدرك أن الصدام بين الفرس وبين دول المدن الاغريقية الغيورة على وطنها ينطوى على مسائل روحيــة بعيدة المدى ·

طبق هذا الرأى الاغريقى فى طبيعة المجتمع فى نطــاق ضيق جدا يسمح فعلا بأن يحكم الشعب نفسه حكما مباشرا ، ومن ثم لم تطرأ فكرة احتمال قيام حكم نيابى على بال الفلاسفة الاغريق من أهل السياسة أو من رجال الحكم · وسنرى فى الفصل التاسع والأربعين أن الاغريق لم يروا البتة ان المبــادىء التى كانت تصلح للمجتمع الكامل فى النطاق الضيق يجب ، على نحو ما ، أن تدخل فى تكوين أية وحدة سياسية أكبر من دولة المدينة فيما لو ثبتت صلاحيتها ودام بقاؤها · وكان مما ترتب على هذا ، من بعض الوجوه ، أن باءت بالخيبة بعد زمن وجيز تلك المحــاولات التى بذلت لاقامة وحــدات سياسية أو امبراطوريات أكبر من دول المدن ·

وان المغزى الذى استخلصته فلسفة الاغريق السياسية من هذه التجربة مغزى له سمة خاصة وهو أن المجتمع الأمثل يمكن أن يتحقق فى الجماعات الصغيرة القائمة بنفسها فكان أرسطو · فى الوقت الذى كان فيــه تلميـــذه العظيم الاســكندر يفتح العالم المعروف اذ ذاك ويقضى على عصر دول المدن ، يرسم خطوط عالم أمثل يتكون من جماعات ســـياسية من أهل المدن مع العناية بتحديد عدد السكان فيها ، ولا يسمح فى هــذا العالم باتصال هذه الجماعات بعضها ببعض الا بالقدر الذى لا يفضى الى أن تفسد احداهما الاخرى فتخرجها عن سيرها الحميد ·

الفرس وامبراطورية الشاه الأعظم

يصف هذا الفصل ديانة الايرانيين وسجاياهم ، ونظم الاراضى التى حكموها .

بقلم ج . ب . جرندى G. B. Grundy

الدكتور فى الاداب وزميل كلية جسد المسيح بجامعة اكسفورد ومؤلف كتاب « الحرب الفارسية الكبرى » .. الخ .

ان الجزء من آسية الذى يقع الى الجنوب من جبال هندوكش والى الغرب من جبال أفغانستان يتباين فى طبيعته الى حد كبير . فترى فيه سهولا شديدة الخصوبة ، ومناطق صحراوية قاحلة ، وأصقاعا ذات جبال وعرة تجاورت جميعا . الواحدة بحداء الأخرى . وقد كانت خصوبة البقاع المزروعة تستهوى دائما أطماع أولئك الذين أقاموا فى رحابها وفى خارجها ، ممن لم تسخ عليهم الطبيعة هذا السخاء .

وأصبح سهل الفرات الكبير ، فى معظم حقبة ألف السنة التى سبقت الميلاد مباشرة نواة لهذا القسم الغربى من قارة آسية . وهو سهل استطاعت حضارة عالمية قديمة ، بما قامت به من أعمال الرى أن تبلغ بخصوبته الطبيعية الى أقصى مداها . وكان هذا السهل بلادا ينعم أهلها بالعيش الرغد ، على النقيض مما كان يعانيه أهل المناطق الجبلية والصحراوية التى تحيط بها من شدة وحرج .

وكان السكان الفحول الذين يسكنون الاراضى التى كان حظها من هبات الطبيعة أدنى قدرا من تلك ، ينظرون بعين الحسد الى ثراء أولئك الذين استقروا فى السهول الخصبة . وكان ساكن الجبل الذى يكدح فى سبيل رزقه بفلاحة أراض فى موطنه الجبلى تكاد تكون ممحلة ، أو بتربية قطعان من الماشية فى مراعى الهضاب ، كان ساكن الجبل هذا ، يوازن بين ما هو فيه من ضنك وبين ثراء جيرانه الذين يسكنون اقليما من أغنى أقاليم العالم ، فيغريه ذلك بمحاولة فتح أرض تكون الحياة فيها ميسرة عليه أكثر مما يتاح له فى وطنه الوعر .

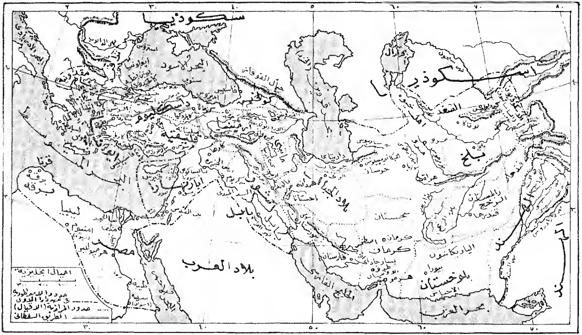
على أن أهل السهل الذين كانوا يستمتعون بالرخاء كانوا يدركون أنهم ان رغبوا فى الاحتفاظ بما ملكت أيديهم ، فانه يتعين عليهم أن يكونوا متأهبين لصد الهجمات التى كان لا مناص من أن يشنها عليهم جيرانهم الفقراء . وقد رأى أهل هذا السهل على أن خير سبيل لضمان سلامتهم ، هو أن يجعلوا هؤلاء الجيران يذعنون على نحو ما لسلطانهم . ولكن الأمر لم يقتصر على خشيتهم من هؤلاء الجيران فحسب، بل ان ما اشتهر به اقليم الفرات من رخاء قد ذاع أمره فى طول سهول شمال آسية وعرضها؛ حتى خامرت البدو الرحل الهمج ، بين الحين والحين ، فكرة محاولة غزو سهل نهر الفرات أو على الأقل انتهاب أرض الذهب الشرقية « الدرادو El Dorado » .

وهكذا قامت فى حوض نهر الفرات ملكيات لم تقنع بالحياة الناعمة لعلمهم أن هذه الحياة تجعل مركزهم حرجا ، وقد حاولت هذه الملكيات أن تخضع لسلطانها أكثر ما يمكن من سكان آسية الغربية تأمينا لسلامتها .

لم يكن موقع أرض الجزيرة ضعيفا من الناحية الحربية ، فالى الشمال منها سلسلة جبال أرمينيا العظيمة ، وهى من أمنع أقاليم العالم التى تقف فى سبيل المغيرين ، وكانت هذه الجبال تحميهم الى حد كبير من شر غارات تصيبهم من سهول أوربا الجنوبية . وكانت سلسلتا جبال طوروس وجبال طوروس الشرقية عبارة عن امتداد الى ناحية الغرب لجبال أرمينيا .

مناعة موقع أرض الجزيرة

وكانت ضآلة عدد المعابر فى هاتين السلسلتين وصعوبة عبورهما حائلا منيعا بصد ما قد يوجه اليها من غارات من شبه جزيرة آسية الصغرى . وفى شرق أرض الجزيرة كانت أخاديد



امتداد الامبراطورية الفارسية ونظامها فى أوج عظمتها فى عهد دارا الأول

اوفى فى قيادة الجيوش على العاية ، وبلغ تدبير أمور الدولة أسمى منزلة ، وكان من أثر ذلك أن اتسعت أملاك الامبراطورية الفارسية فى عهد دارا فامتدت شرقا الى الأراضى الجبلية قرب نهر السند وغربا الى مقدونية وجزر اليونان . وهدد الولاة الناشئون سلطان الامبراطورية فى الشمال والشمال الغربى فى بداية عهد دارا ولكنه وطد سلطانه بعد عامين من اعتلائه العرش وجعل الامبراطورية الفارسية تقوم على دعائم راسخة وخرج الاغريق الايونيون على الفرس فى عصر دارا ، فجرد خلفه ، اخشويرش . حملات بحرية نزلت أرض اليونان نفسها لاخضاع اخوانهم الاغريق ، الا أن هذه الحملات انتهت بكارثة .

سلسلة جبال زاجروس Zagros المتوازية تفصل السهول عن هضبة ايران ٠ وفى الجنوب منها البحر والصحراء ، والى الغرب امتداد صحراء العرب الشمالى ، وهى صحراء يعز عبورها على أى جيش فاتح ٠

وفى ألف السنة التى سبقت مولد المسيح ، كان الأقوام الذين يتألف منهم سكان اقليم غرب آسيـة يختلفون فى طبيعتهم اختلاف طبـائع الاقليم نفسه ٠ فكانت آسية الصغرى بحق معرضا لعدة شعوب ، فالاغريق فى الغرب ، وفى سفى من الأرض على الساحل الشمالى ، والفـريجيون Phrygians وهم شعب تراقى وفد من أوربة فى الشمال الغربى ، وفى الغرب والجنوب الغربى الكاريون Carians والليقيون Lycians والليديون Lydians ٠ وهم أجناس لعلهـا تمت بصلة القربى الى تلك السـلالة المجهولة الأصل ، التى أقامت حضارة جزيرة كريت العظيمة ، واستقر الحيثيون وأخلاط من قبائل الاسكوذيين Scythians والسمريين Cimmerians فى المنطقة التى تقع شرق نهر هالس Halys ٠ وقد يكون الحيثيون انحدروا من نفس أرومة الليديين وجيرانهم ٠ ويعتبر السمريون والاسكوذيون الى حد ما ، شعبة ايرانية من مجموعة الأمم الهندوأوربية ٠ وقد كانوا سراذم من جماعات من المغيرين نزحوا الى آسـيـة الصغرى من سهول جنوب أوربة ٠

أما فى أرمينية فقد كان السكان من مجموعة الأمم الهندو أوربيـة ومن سلالة ايرانية على الأرجح ٠ اذ كانت معتقداتهم الدينية وتاريخهم أيام الرومان يوحيان بوجود صلة قربى بينهم وبـين الايرانيين الذين عاشـوا فى الجنـوب الشرقى منهم ٠ وسكن الساميون Semitic أرض سوريا وشمال منطقة نهر الفرات ٠ أما فى الجنوب أى فى بابل ، فقد امتزجوا بالسومريين Sumerians وهم شعب يحتمل أنه قد استقى معـارفه من الهند وسـما بفنون الحضارة الى أعلى مقام ٠

فى الجنوب الشرقى من بابل ، شرقى الخليج الفارسى تقع عيلام Elam ، تلك المنطقة الجبلية التى سكنها قوم لا نعرف الصلات التى نربطهم من حيث الجنس ، والى الشرق فيما وراء أخاديد سلسلة جبـال زاجروس والى الشمال الغربى من هضبة ايران أقام الميديون Medes ، وهم من جنس ايرانى ٠ ويبدو أن الفرس قد استوطنوا الجزء الجنوبى من الهضبة ، وقد اتصل هؤلاء فيما بعد بالميديين اتصـالا وثيقـا ٠ ويحتمل أن يكون الفرس فى الأصل قبيلة ميدية ٠

السلالات المختلفة فى غرب آسية

وفى الوقت الذى ظهر فيه الميديون والفرس فى التاريخ كانت سلالات ، تجرى فى عروقها الدم الايرانى ، أو بينها وبين الايرانيين صلات ٠ تحتل جنوب روسيا بأكمله وكذلك سـهول نهر جيحون Oxus ٠ ومن أنبه هؤلاء ذكرا فى التاريخ الاسكوذيون والسـمريون وكانوا قد نفذوا الى جنوب روسيا فى القرون الأولى من هذه الألف سنة ، واستقروا فى المنطقة التى الى الشـمال من بحـر الخزر Euxine أما الفارثيون Parthians ، الذين قدر لهم أن يقوموا بدور هام فى غرب آسية أيام الرومان ، فانهم احتلوا فى فجر التاريخ الأقاليم الغربية من خراسان Khorassan ، تلك الأقاليم التى تقع فى أقصى الشرق من المنطقة التى أقام فيهـا الميديون والفرس ٠

كانت منـازل الميديين والفرس تقع بصفة خاصة فى المناطق الجبلية فى تلك الصحـراء الشاسعة التى تكوّن الجزء الأوسط من بلاد فارس الحديثـة ، فقد سكن الميديون شمالهـا الغـربى ، وأقام الفرس فى الجنوب الشرقى منها ٠ وكانت كلتا المنطقتين تتشابهان فى طبيعتهما الى حد كبير ، فكلاهما مساحات كبيرة من هضاب صالحة للرعى تتخللها وديان خصبة وافرة الماء ، فهما منطقتان كانتا كفيلتين بأن ترضيا أولئك الذين عاشوا فيهما ، لولا وضوح التناقض بينهما وبين سـهول أرض الجزيرة السهلة الرى التى تمتاز عليهما بوفرة الخصب والثروة امتيازا لا نظير له ٠

صـلات الدم بين الايرانيـين

شاب مصطلحات علم وصف الشعوب شىء من الخلط على أثر ما طرأ عليه من تعديلات اقتضاها ما ظهر فى النصف الأخير من القرن الماضى من

اكتشافات . وينتمى الايرانيون من حيث جنسهم الى مجموعة الأمم الهندوأوربية التى كانت تضم كثيرا من سكان الهند ، بل كانت تضم فى فجر التاريخ جزءا كبيرا من أهل أوربة كذلك . وقد كانوا ينتسبون على وجه التحديد الى فرع الجنس الآرى ، وهذا الاسم لم يبتدعه المحدثون من علماء الأجناس ، بل أطلقته على نفسيهما الشعبتان الهندية والايرانية من هذا الجنس .

وثمة شاهد على اشتراك كل هذه الشعوب منذ نشأتها فى لغة ودين . وهذا الشاهد يزودنا بدليل علمى على وحدة أصولها ، على الرغم من أن شتى السلالات التى تتألف منها مجموعة الامم الهندوأوربية قد انفصلت بعضها عن البعض قبل أن يدون التاريخ بزمن طويل ، وعلى الرغم من أنه لم تبق أية أسطورة أو خرافة يرجع تاريخها الى فترة الانفصال هذه . أما شاهد اللغة فلسنا فى حاجة الى التحدث عنه فى هذا المقام ، أما الشاهد المستمد من الدين فله دلالة خاصة فيما يتصل بطائفة من أهم الخصائص المميزة لهذه الشعبة من السلالة الآرية التى سادت غرب آسية قرنين من الزمان

نستطيع أن نرجع ما اعتنقته كل السلالات الهندوأوربية من معتقدات دينية الى تقديسهم لقوى الطبيعة منذ نشأتها . فقد فطر الانسان على أن يلتمس رضاء قوى الطبيعة التى تستغلق عليه ، تلك القوى التى اعتقد أنها توافيه بالمحصول الوفير أو المحصول القليل . وتهبه السلام أو تنزل به الحرب . وهى على الجملة هى التى تدر عليه الخير وترميه بالكوارث فى جميع أطوار الحياة . والخير والشر ، فى مثل هذا الدين ، فكرتان ماديتان

الدين ينشأ عن عبادة الطبيعة

وكان هذا التصور المادى لفكرة الخير والشر هو دائما الطابع البارز الذى اتسم به ما اعتنقه الاغريق والرومان من عقيدة دينية فى عصور التاريخ . أما هذه الأفكار التى تطورت عندهم الى خير روحانى وخير أخلاقى ، فيرد منشؤها اما الى التلقين أو الى الخبرة التى استمدوها من تقاليد الحياة الاجتماعية ، ودعمهما اعتقاد بوجود قوة خلاف كل آلهتهم تدعى نمسيس Nemsis تقتص فى الحياة الدنيا ممن يقارف شتى ضروب الشر الصريح . وقد يكون من العجيب أن لا ينشأ فى نفس اليونانى الذى أثر عنه الخيال فكرة عن الدين أسمى من تلك التى نشأت عند الرومانى الذى كان مفتقرا الى الخيال ، الا أن تصور اليونانى الروحى لما تطور انصرف الى الكشف عما يستطيعه المخلوق لا الخالق .

وقد كانت شعبة الآريين- هنودا وايرانيين- أخصب خيالا من اليونانيين ، فظهرت لهم أفكار روحانية قبل أن يخرج اليونانيون من ماديتهم الفجة بزمن طويل . على أن أفكار الآريين الدينية قد نشأت عن أفكار مادية سبقتها . فقد كان الخير والشر فى نظر الآريين المتقدمين يتصلان بالمسائل المادية ، وخاصة بما تخرجه الأرض من ثمار .

وان بين شعبة الآريين وغير الآريين من مجموعة السلالات الهندوأوربية أوجه شبه فى العقيدة الدينية تلفت النظر الى حد كبير ، الأمر الذى يقرر حقيقة لا ريب فيها . هى أن الشعبتين كانتا من أصل واحد بعينه . وأنهما كانتا قديما من طراز واحد بعينه .

على أن أعرقُ التقاليد التى بقيت فى هذين الدينين ، أو فيما يتصل بهما ، لا يرد العالم الحديث الى ذلك الوقت الذى كان فيه هذان الدينان دينا موحدا . ولكننا نستدل من أقدم عهد يمكن تعقبه ، فيما أثر من أخبار عن ديانة الآريين على أنهم توصلوا الى تكوين فكرة عن الاله تناقض الى حد كبير فكرة الاله التى سادت العالم اليونانى والرومانى فى أى عهد يستطيع التاريخ ، بل حتى الأساطير ، أن تبلغ اليه . ذلك التباين الذى لم يبرز أهميته الكتاب الذين قارنوا بين ديانتى شعبتى السلالة الهندوأوربية ابرازا كافيا .

والحق أن أى أثر بقى من أقدم عهد فى التاريخ يدل على أن الآريين كانت لديهم فكرة محصلها أن الخير والشر ينبعثان من قوى مختلفة ، من آلهة ومن شياطين . أما الآلهة فكانوا ينطوون على الخير ، وأما الشياطين فكانوا ينطوون على الشر . على أن الاغريق كانوا يتصورون أن الآلهة تستطيع الخير والشر ، بل يمكن أن تكونهما ، تبعا لما يبديه عبدتهم

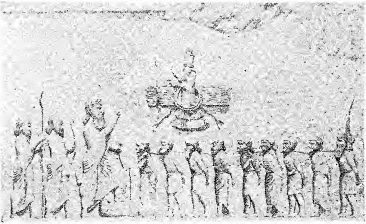
من استجلاب لرضاهم أو من اثارة سخطهم عليهم باقبالهم على اقامة شعائر الصلاة وتقديم القرابين أو عزوفهم عن ذلك · وربما لم تكن بنا من حاجة الى القول بأن فكرة الآريين عن طبيعة الاله تتضمن صورة أسمى بكثير من تلك الصورة التى كانت عند اليونانيين والرومان ·

الا أنه فى فترة بعيدة فى التاريخ اختلف سبيل كل من الآريين والهندوأوربيين غير الآريين فى تصورهم للاله · وكذلك حدث فيما بعد ، فى زمن سابق لتدوين التاريخ ؛ أن بدأت الآراء الدينية تنتشر بين الأجناس الآرية فى اتجاهات متباينة فسار الايرانيون فى طريق والهنود فى طريق آخر · ولا داعى هنا للكلام عن الجنس الهندى الا أنه اذا ذكر الجنسان فان من الممكن الحكم على ضوء الآراء الغربية الحديثة بأن الفكرة التى وصل اليها الجنس الايرانى عن الدين تعد أسمى من تلك التى قدر لها أن تنتشر فى الهند ·

كانت النار العنصر المادى الوحيد الذى يبدو أنه كان له شأن هام فى أقدم صور الدين عند السلالات الهندوأوربية ، ولا ريب أن ما عزى الى النار من قداسة انما نشأ عنها من كونها مصدرا للحرارة والنور · وبلغ من اقتران النار بالشمس أن كان هناك ارتباط دائم بين تقديس أحدهما وتقديس الآخر · وكانت لعبادة النار

تقديس الايرانيين للنار

منزلة فى عقائد الايرانيين الدينية أكبر من منزلتها عند الأجناس التى كانت تقيم فى جنوب أوروبا · الا أن تقديس النار عند الاغريق والرومان يظهر فى عبادة هستيا Hestia (فستا Vesta) وفى شخصية برمثيوس Prometheus الخرافية فى احدى الأساطير الاغريقية · وكذلك كان أعظم الآلهة عند الايرانيين والاغريق على السواء اله النور والحرارة · وكان عند الشعوب الهندوأوربية كلها آلهة تقابل زيوس Zeus ويورانوس Uranus . وهكذا كانت هناك أوجه شبه وتباين



اهورا مازدا كما يظهر على صخرة بهستون

فى عام ٥١٦ ق·م أمر دارا بتأريخ اعتلائه العرش نقشا على صفحة صخرة شامخة فى بهستون · وتجد فى ص ٣٩٩ صورة شمسية لما ظهر مع هذه النقوش من رسوم أشخاص منحوتة وقد دعت الضرورة الى تصغير هذه الصورة الشمسية نظرا لضيق المساحة · الا أن دقائقها تظهر واضحة فى هذا الرسم · فقد رسم اهورامازدا ، الاله الوطنى للفرس ، داخل قرص مجنح يرمز الى الشمس · ولهذا القرص شعبتان من البرق تومضان على كل جانب من جانبيه وقد نقلت فارس هذا الرمز عن مصر عن طريق أشور ·

في الديانات الهندوأوربية بين الايرانيين وغير الايرانيين ·

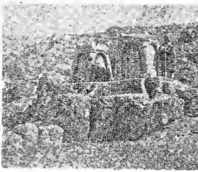
ولم يبتدع الميديون والفرس الذين عاشوا فى عصر دارا Darius الديانة الايرانية على النحو الذى قامت عليه عندهم · بل نقلوها عن الايرانيين الذين كانوا يقيمون فى الشرق الأقصى ، ويقال انه قام بينهم رجل يدعى زرانوسترا أو زرادشت أرسى قواعد عقيدة دينية تقوم على عقائد الايرانيين القديمة ويبدو أن الايرانيين كانوا فى الأصل يتصورون عالما مليئا بشياطين تناصب البشر العداء ، تقابلهم كائنات روحانية تضفى على الناس خيرا ماديا · وافترنت تلك الكائنات الروحانية عند الايرانيين بالنور والشياطين بالظلام · وكان النور والظلام ظاهرتين طبيعيتين اقترنتا بالخير والشر فى محيط الأمم الهندوأوربية بوجه عام ·

على أنه تعزى الى زرادشت فكرة الصراع بين الخير والشر لا فى دنيا المادة فحسب بل فى عالم الروح أيضا · ويتبين من آراء زرادشت فى الخير المادى أن الايرانى لم يشذ عمن يشتركون معه فى الجنس الذى ينتمى اليه ، فهو فى هذا يؤمن بأنه ينبغى أن ينال المخلوق الخير من الاله باقامته الصلاة وتقديم القرابين، على أنه لم يصل الى ما وصل اليه الاغريق والرومان من تصور اله ينزل به الشر اذا هو أعصى من هذه العبادات بل كان يعتقد أن الاله انما يحبس عنه الخير ، اذ أن الشر لا يصدر الا عن قوى الشر التى لا يحمى الناس منها اله تغافلوا عن عبادته ·

وكان الايرانيون ، ومثلهم فى ذلك مثل الاغريق والرومان ، يعتبرون أن فى مقدور السلف الراحل أنه يغدق النعم على سلالته وليس من الممكن أن نرى عند الاغريق والرومان أية صلة حقيقية بين عبادة السلف وبين عبادة الآلهة الوطنية ، فمن المسلم به على وجه عام أن كلا من هاتين العبادتين قد نشأت عن أصل قائم بذاته ، ونمتا جنبا الى جنب دون أن تؤثر احداهما فى الأخرى تأثيرا يمكن تتبعه · ومهما يكن من الأمر فان الايرانيين قد ربطوا هاتين العبادتين بأن اعتبروا السلف قديسين يحفون بعرش الاله الأعلى أهورامازدا Ahura –Mazda أو أرمزد Ormuzd فهم مخلوقات يستطيعون بشفاعتهم عنده أن يستنزلوا الخير على ذريتهم ·

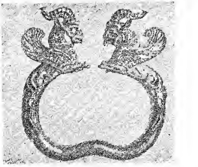
كان الدين فى ايران،على الصورة التى وصل اليها فى عصر دارا · دين وحدانية الا أنه احتفظ بأثر من الشرك الذى أثر عن السلالات الهندوأوربية · ذلك أن اهورامازدا كان بلا جدال من السلطان بحيث خضعت له سائر الآلهة الأخرى فلم يكن مجرد اله مقدم على أنداد له كما كان زيوس عند الاغريق · والواقع أنه كانت عند الايرانيين كائنات تشبه الآلهة الا أنها كانت من الجن ، أقرب الى الكائنات الروحانية منها الى الآلهة ، ينظر اليها على اعتبار أنها معبودات لا على اعتبار أنها تبلغ فى الروحانية مبلغ الاله الأعلى · فلم ترق الى منزلة أهورامازدا كما كان شأن هيره Hera وأپولو Appolo وپوسيدون Poseidon وغيرها من آلهة العالم الرومانى الاغريقى بالنسبة الى زيوس · وهذه الحقيقة كبيرة المغزى عند تقرير مافى الديانة الايرانية من بعض الروحانية اذا ما قورنت هذه الديانة بديانات بقية الأمم التى تضمها المجموعة الهندوأوربية ·

الا أن هناك من الناحية العملية ما هو أجل خطرا من ذلك:ألا وهو الفارق الكبير بين الافكار



مذبحان لاله الطهر والحق

كانت النار بوصفها مصدرا للحرارة والنور الرمز الحقيقى عند الايرانيين لشخصية أهورامازدا · وهذه صورة مذبحى النار المهيبين الذين يبلغ طولهما قامة الرجل على منصة مدرجة على المنحدر الغربى لـ « حسين كوه » (جبل كوه) فى مدينة اصطخر . وقد نحت كل من المذبحين والمنصة فى الصخر الصلد ·



الفن الفارسي القديم

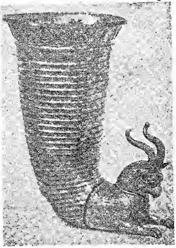
تظهر سعة الخيال في هذه الحلية الفارسية التي ترجع الى القرن الرابع أو الخامس قبل الميلاد وهي مصنوعة من الذهب . أما التجاويف التي في السوار نفسه وفي طرفيه فقد كانت يوما ما مطعمة بحجر كريم أزرق اللون هو اللازورد على الأرجح · وكان هذان الطرفان يشبهان بتمثال له من الأسد جسمه وقدماه ومن النسر جناحاه ومنقاره المعقوف ·

دخل الدين في أعمال الرجل الفارسي اليومية على نحو لا نجده قط في حياة الاغريق · ونستطيع القول بوجه عام أن الدين الايراني يختلف اختلافا بينا عن الديانات الهندوأوربية الأخرى في أن السلوك الخلقي كان جوهر الدين عندهم ، لا عنصرا من عناصره فحسب · فكان الدين الايراني دينا واقعيا لا دينا يقتصر على الشعائر ·

وفضلا عن ذلك فلم تتقرر في الأذهان فكرة الحياة الفاضلة باعتبارها فرضا من فروض الدين الايراني فحسب ، بل رغبت فيها أيضا ما رسمه هذا الدين من مثل أعلى للحياة الآخرة · وعلى الرغم من أن تعاليم هذا الدين قد سلمت بأن الخير لم يستطع قط أن يحرز نصرا نهائيا

دعوتهم فيما يتصل بالحياة الآخرة

في الحياة الدنيا ، اذ كان ينص مبدأ من مبادئه الهامة على أن الصدام بين الخير والشر هو علة وجود هذا الكون ، الا أنه لقن الانسان الايمان بأن الخير والشر يفترقان في الحياة الأخرى ، ذلك أنه



كاس شراب عتيقة من الفضة على هيئة القرن

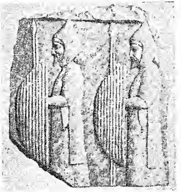
الفن الفارسي مدين بالنيء الكثير للفنين الأشوري والبابلي الا أنه قد تقمصته روح جديدة · ويمكن ادراك هذا الفضل والاحساس بهذه الأصالة في كأس الشراب المسلوبة المصنوعة من الفضة على هيئة القرن · وقد زينت بمقبض على هيئة حيوان عجيب له منقار وقرنان ·

التي اقترنت بالجن في عقل الايراني وبين الأفكار التي اقترنت بالآلهة في عقل الاغريقي ، فكانت الآلهة عند الاغريق تمثل قوى الطبيعة المادية من بحر وشمس ومطر ومحصول · وكانت النعم التي تهبها الآلهة نعما مادية ولكن أهورامازدا كان عند الايراني اله النور والحق والطهر وهو الحكيم القدير الذي خلق كل شيء · وكان يمثل الماديات والمعنويات ، دنيا المادة وعالم الروح على السواء · وكذلك كان هناك الجن ، القديسون الخالدون الذين كانوا يمثلون معنويات مثل الصحة والخلود وما يماثلهما وكان في مقابل شياطين الموت والعقم والختل وما اليها يتنازعون دائما مع الكائنات الخيرة ، تلحق بهم هذه الكائنات الهزيمة ولكنها لا تقضي عليهم قضاء مبرما · وعدد هؤلاء الشياطين لا نهاية له ، وهم يظهرون في كل صورة من صور الشر · وكان على رأسهم أهرمن Ahriman الذي يقوم عرشه في ظلمة الشمال ·

ونخلص من هذا الى أن الأخلاق عند الايرانيين لم تكن جانبا من جوانب الحياة منفصلا عن الدين أو قليل الصلة به ، كما كان شأنها في العالم اليوناني ، بل كانت وثيقة الصلة به كأنها جزء لا ينفصل من الكل وهو الدين · وقد

بوجد في الحياة الآخرة عالمان لا عالم واحد . عالم الخير والسعادة تجتاز اليه أرواح أولئك الذين عملوا الصالحات في هذه الحياة الدنيا . وعالم الشر والشقاء أعد لمن فعل الشر . وكان مصير الأموات يتقرر بالحساب الأخير عند جسر تسينفات Tsinvat .

فاذا اعتبرنا أن خلود الروح معناه وجود في المستقبل لا يتناهى فان الدين الايراني قد تجاوز هذا الحد فنص في تعاليمه على أن لكل انسان روحا وأن هذه الروح وجدت في ماض لا حد له وأنها تلازمه في الحياة الدنيا وتنتقل معه عند موته الى الأبدية في العالم الآخر . العالم الذي تسكنه أرواح من قضى من الصالحين وتفيء الخير على أعقابهم الذين تقربوا اليهم بالصلاة والقرابين . وعلى ذلك فان ديانة الايرانيين كانت تناقض ديانة معاصريهم من أهل جنوب أوروبا الى حد كبير . فقد كانت ديانة شخصية أكثر منها ديانة وطنية . ديانة توجه سلوك الفرد في كل عمل يأتيه في حياته ولم تكن ديانة شعائر لا يراعي المؤمن أحكامها الا حين تقام العبادات العامة .



الزى الرسمى للمحاربين الاسكوذيين

كان المحاربون الاسكوذيون يلبسون عباءة طويلة ويضعون على رؤوسهم غطاء مدببا . ويظهر ذلك فيما رسم على افريز هذا القصر في مدينة اصطخر . كان هؤلاء المحاربون يحملون أسنة قصيرة ودروعا من طراز خاص ذات شكل بيضي محدب ويظهر أنها صنعت من ضفائر أغصان جُدلت .

وجوهر صفة هذا الدين ، اذا ما قورن بديانات روما وبلاد اليونان ، يتجلى في رمزيته فكانت رموز الألوهية عند الاغريق والرومان آلهة نحتت أو صورت على هيئة الانسان . صحيح أن النحات الفارسي قد حاول أن يمثل شخصية أهورامازدا على بعض الآثار الفارسية التي بقيت ، الا أن النار كانت هي الرمز الحق الذي يدل على الألوهية ، فالنار منبع الحرارة هي التي تطهر النفوس ، والنار مصدر النور فهي من ثم رمز الحقيقة . وكانت الحقيقة والطهر من أخص صفات الاله أهورامازدا ولم يكن الايرانيون يعتبرونه عرضة لنقائص البشر التي عزتها الأساطير والملاحم الاغريقية الى آلهة الاغريق .

وثمة أوجه شبه واضحة بين تصور الايرانيين الديني وتصور النصارى له . ونحن لا نستطيع أن نقطع ما اذا كانت الديانة المسيحية قد استوحت بعضا من الديانة الايرانية . ذلك أننا لا نعلم الى أي حد تأثر الشرق الأدنى بعقيدة الايرانيين في الوقت الذي بدأ فيه عصر المسيحية . واذا كان ثمة أثر للديانة الايرانية فربما جاء عن طريق التطورات التي حدثت فيما بعد في عقيدة اليهود الدينية قبل ظهور المسيحية . تلك العقيدة التي كان تأثر تعاليمها ببلاد فارس أمرا يكاد يكون محققا . وقد طرأ على عقيدة الايرانيين الدينية تعديل كبير في القرون التي توسطت بين عصر دارا وبين عصر الأنطونيين أباطرة الرومان . الا أنها كانت في صورتها المعدلة ، عبادة النور Mithraism (انظر الفصل السابع والأربعين) كانت لاتزال تبشر باحتمال وجود حياة آخرة حافلة بالنعيم واستهوت بذلك خيال العالم الغربي ، الذي طالما قابل ظاهرة الموت بجزع كبير . وأمل قليل وايمان منهار . ولما كانت عقيدة الايرانيين الدينية تحمل رسالة الأمل في المستقبل فقد نافست المسيحية التي كانت تمني الانسان بأمثال هذه الآمال العذاب منافسة جدية .

ولم يكن بد من أن يرقى هذا الدين بحياة المؤمنين به ، فقد كان دينا يقوم على الأفراد الى حد كبير ، ويفرض عليهم كثيرا من الواجبات في سلوكهم الشخصي . وعلى الرغم مما كان

بين الاغريق والفرس من منافسة عنيفة ، تلك المنافسة التى جعلت كلا من الشعبين يتحامل على الآخر خلال القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد ، الا أننا نستطيع أن نلمس أن الاغريق رأوا فى الفرس بعض الخلال الكريمة التى لم يرقو أهم أنفسهم الى مستواها ، اللهم الا اذا كان هيرودوت واجزينوفون قد اساءا عرض آراء مواطنيهما ·

لم يكن الفارسى قديسا، ولكننا اذا حكمنا عليه بالمستوى الأخلاقى الذى ساد العالم فى عصره لوجدناه أرقى خلقا من أفراد الشعوب المعاصرة له · فكان الفارسى يستطيع أن يقسو حين تدعو الحاجة الى القسوة · ولكن القسوة لم تكن شهوة ركبت فى نفسه كما تميز بذلك بعض أمم غرب آسية · وكان يتصف ببعض الرذائل التى كانت مألوفة عند أهل الشرق ، وكانت شعوب الغرب تانف منها اذ ليس فى طبيعتهم ما يغريهم بها · الا أن الفارسى كان يتحلى بفضيلتى الصدق والامانة فى زمن كانت فيه هاتان الخلتان نادرتين ·

أما بسالته فكانت أمرا لا يتطرق اليه الشك · ولما غلبه المقدونى لم يكن ذلك راجعا الى بسالة المقدونى بل الى أن المقدونى كان خيرا منه تسلحا وحين خضع الفارسى للمقدونيين عرف فيه الاسكندر ، أعظم هؤلاء ، شريكا جديرا بأن يساهم معه فى حكم الامبراطورية ، التى مر عليه زمن طويل وهو سيدها الأعلى ·

مناعة الايرانيين ضد الهيللينية

احتفظ السلوقيون Seleucids خلفاء الاسكندر بفضل تفوق سلاحهم ، بحكم القسم الايرانى من امبراطوريتهم حكما مزعزعا . فعملوا على صبغه بالصبغة الهيللينية . بانشاء مستعمرات للاغريق فى نواحى مختلفة منه : الا أن هذه العملية وقفت عند حد فنون الحياة



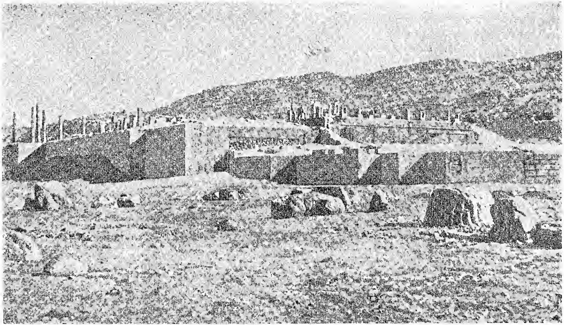
لباس الرجل الفارسى

نرى بوضوح فى هذا التمثال الفضى الصغير حلة الرجل الفارسى فى العصر القديم · وما زالت السراويل المنتفخة والعباءة الطويلة المفتوحة من الأمام هى اللباس القومى فى فارس ·

المادية · اذ أن الايرانيين الشرقيين لم يستمدوا أية آراء فى الأخلاق أو السياسة من هذه المستعمرات التى كانت أشبه ما تكون بالجزائر اليونانية فى بحر من المشرقيات فلم يستهوه ما اعتنقه الاغريق فى ذلك العصر من أفكار دينية كانت مزيجا من الشك والخرافة · فأخذ نفسه بما اعتاده ، الى أن اضمحل الحكم الاغريقى المقدونى المقلقل ثم انقضى ، وصارت السيادة الى الجنس الفرثى الايرانى فى غرب آسية فيما وراء جبال طوروس وصحراء العرب ·

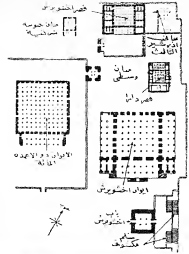
كانت القوة الغالبة فى غرب آسية حتى الوقت الذى دمرت فيه نينوى Nineveh عام ٦١٢ ق·م · تلك المملكة الأشورية التى تركزت فى سهول حوض الفرات الشمالية ، واخضعت هذه المملكة بابل وبلاد الجبال وأرمينيه وسوريا لسلطانها ، وكذلك دانت لها أرض عيلام قبل انهيارها بأكثر من أربعين عاما · وكانت مملكة أشور تبدو فى أوج عظمتها وذروة جلالها قبل أن تقع الكارثة بزمن وجيز · بيد أنه من الجلى أن هذه القوة قد استنفذتها الحروب المتصلة التى شنتها أشور على الشعوب التى فتحتها ، تلك الشعوب التى كانت متأهبة لمواجهة أى خطر فى سبيل تحرير أنفسها من ربقة استبعاد لا يقل قسوة عن أى استبعاد سجله التاريخ · والأشورى محارب من الطراز الأول الا أن حظه من القدرة على الحكم المنظم كان قليلا · وكان الميديون من أبرز من انقضوا عليه ، فكان أول ظهورهم فى التاريخ مقترنا بما كان لهم من صلة بأشور ·

وقد سجل أهل بابل وأشور فى كتاباتهم ، أحداثا متباينة وقعت للميديين فى مستهل تاريخهم · وقد حلت رموز هذه الكتابات ، فاصبح فى الامكان أن نعيد كتابة تاريخ مجمل لهذه المملكة · وقد خلف الميديون أنفسهم القليل من أمثال هذه السجلات التاريخية عدا ما دونه دارا من نقوش فى فترات مختلفة من



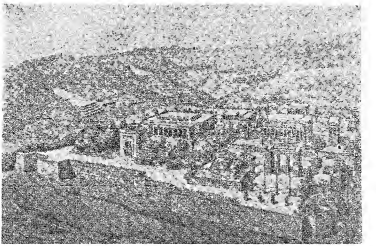
المنظر العام لمدينة اصطخر كما ترى الآن من سهول مرودشت Mervdasht

أقيمت اصطخر على منصة صناعية متسعة على طنف عند سفح سلسلة الجبال التى تخترق سهل مرودست فى الاقليم الفارسى الحديث الذى يطلق عليه اسم فارس . وقد بنيت هذه المنصة من كتل ضخمة من أحجار الجير . ويبلغ اكبر طول لهذه المنصة ٤٣٦ ياردة وأكبر عرض لها ١١٠ ياردة . وقد أحاط بها كلها سور عمودى يتراوح ارتفاعه بين ٣٢ قدما و ٣٩ قدما . ويظهر فى هذه الصورة جانب من المنصة شديد التحدر . ولذلك نبصر أطلال قصر دارا والى اليمين واليسار ترى الاعمدة التى كانت تدعم ايوان احشويرش .



حكمه . واذا رغب العالم الحديث فى الحصول على معلومات عن الميديين والفرس قبل اتصالهم بالاغريق اتصالا وثيقا ، فليس أمامه الا أن يلجأ الى الاشارات القليلة الواردة عنهم فى النقوش التى دونت فى آخر عصر انتعشت فيه مملكة بابل ، والى معلومات كتلك التى تضمنتها مؤلفات كتاب الاغريق ، ونخص منهم بالذكر هيرودوت وكتسياس Ctesias واجزينوفون .

ونستطيع أن نفرغ من اجزينوفون فى كلمات قليلة . فمن المحتمل أن يكون قد عرف الايرانيين بوصفهم شعبا . معرفة أى يونانى آخر فى عصره ؛ الا أنه لم يدر بخلد اجزينوفون أن يكتب تاريخا شاملا للفرس . وكان كتابه عن حملة اناباسيس Anabasis قصة مغامرة رائعة للشعب الاغريقى اقتصرت . فيما يتصل بالموضوع الذى



منظر اصطخر كما كانت تبدو فى عصرها الزاهر

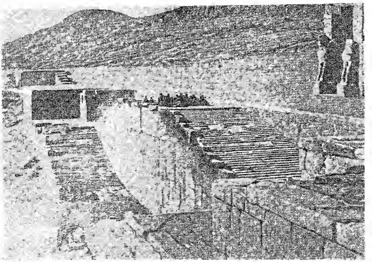
لقد استطعنا استعادة الصورة التى كانت عليها اصطخر فى عصرها الزاهر بالاعتماد على خطه أساس أطلالها الدراسة وعلى الاطلال نفسها وعلى التفصيلات التى استقيناها من كثير من النقوش البارزة .
ونرى الى اليمين السلم الكبير الذى يؤدى الى بوابة معبد أخشويرش الذى يقع وراءه ايوان اخشويرش . ذلك الايوان الذى تدعم سقفه الأعمدة، وكذلك قصر دارا وأخشويرش . ونوجد الحدائق فى الوسط . والى يسار الايوان المدعم بالاعمدة ايوان المائة عمود . ونرى فيما وراء الهضبة اثنان من أضرحة سبعة قامت على سفوح التلال ثوى فيهما ملوك الاكمينيين .

نحن بصدده ، على حادث مثير فى تاريخ المملكة الفارسية الطويل ، موجز الا أنه مثير . ويزودنا مؤلفه الموسم بالكيروپايديا Cyropaedia **فانه يتضمن تفاصيل طريفة عن حياة الفرس وعن الأخلاق عندهم . ولكنه لا يمدنا الا بالقليل** عن تاريخ الفرس .

أما كتسياس فقد اتيحت له فرص فريدة لأن يحصل علما بتاريخ الفرس القديم ، فرص **ربما أمكن القول بأنه أضاعها فى محاولته أن يشكك فى حجية سلفه هيرودوت . فقد كان** اجزينوفون طبيبا فى البلاط الفارسى من عام **٤١٤ الى عام ٣٩٨ ق.م ، ولابد أن يكون قد** كتب مؤلفه التاريخى قبيل عام ٣٩٨ . وكان فى نظر العالم القديم رجلا كاذبا ، أما من بعده من الكتاب الذين عالجوا تاريخ الفرس بما اعتادوه من انتحال لآراء من سبقهم ، فقد كانوا يفضلون عليه هيرودوت بوصفه حجة يرجع اليه .

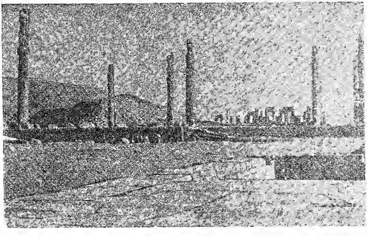
ومن الممكن أن نفترض افتراضا محتملا فيما يختص بالمصادر التى استقى منها هيرودوت روايته عن التاريخ القديم للفرس والميديين . فهو نفسه يتحدث عن أخبار الفرس وكأنما هو قد رجع اليها . **ولكنه لابد أن يكون قد درسها فى نقل من النقول لأنه ليس لدينا** ما يحملنا على الاعتقاد بأنه كان يعرف اللغة الفارسية . وثمة أخطاء بينة فى تاريخه للميديين الفرس ومع ذلك فلاشك فى أن كثيرا من تاريخه ينبغى التسليم بصحته .

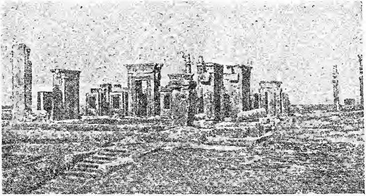
ولم يكن هناك حد لما نسجته الأساطير حول شخصية من أقاموا امبراطورية من أمثال قورش ، تلك الأساطير التى جرى الشرق على أن يضمنها أقاصيصه الشعبية التى تروى فى الأسواق وحيثما اجتمع الناس . وقد يعد وصول هذه الأساطير الى غرب آسية الصغرى قبل عصر هيرودوت أمرا محققا وان يكون عشاق القصص من الهيلليين قد قاموا بترجمتها الى اليونانية ولعل هيرودوت قد استقى من هذه الترجمة . الا أن هناك كذلك من يظن على سبيل الحدس . وثمة أدلة معقولة تدعم هذا الظن ، أنه كان



السلم الكبير المؤدى الى قصر ملك الملوك

كان دخول الملك الى مبانى القصر عن طريق لسلم الكبير الذى يقع فى الجهة الجنوبية الغربية من الهضبة الصناعية . **ولا يزال هذا السلم السبيل الرئيسى للصاعدين الى الهضبة** . وهو يتألف من مجموعتين منفصلتين من الدرج يوازيان الجدار . ويبلغ عدد السلم كله مائة واحد عشر درجة تتتابع فى تدرج هين حتى ليسهل على الفارس أن يرقاها أو أن يهبطها وهو على ظهر جواده . ويمكن الوصول من السهل الى قاعدة السلم عن طريق منحدر سهل أعد بحيث يتسع لجماعة كبيرة من الناس .

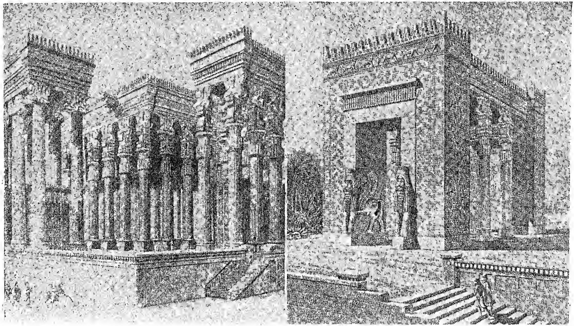




أطلال ايواني اخشويرش ودارا الملكيين

لم يبق من ايوان اخشويرش ، الذي كانت تدعمه الأعمدة ، الا قرابة أثنى عشر عاموا محطما وكان هذا الايوان فى يوم من الأيام أروع عمائر اصطخر ٠ فقد كان يقوم على منصه تغشتها الزخارف المنحوتة والنقوش البارزة يمكن الوصول اليها من الهضبة الأصلية عن طريق سلم ثانوى وقد قام قصر دارا الذى يحتوى على رواق وايوان ذى أعمدة وحجرات مستطيلة خلف ايوان اخشويرش وعلى منبسط من الأرض يرتفع عن الأرض التى بنى هـذا الايوان بأقدام سبع ٠ والاطلال (فى الصورة السفلى) تصور لنا ما كان عليه قصر دارا أصلا (انظر الرسم المواجه لصفحة ٤٥٥) ٠

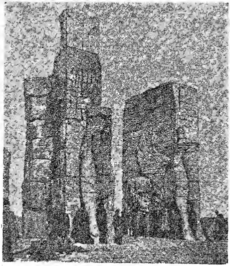
لهيرودوت أصدقاء من الفرس ٠ وعلى الخصوص من بين أعضاء تلك الأسرة التى كان منهم أقيال تولوا حكم داسـكيليوم Dascylium على الساطىء الجنـوبى من بوغاز الدردنيـل Propontis طيلة القرن الخامس على نحـو أشبه ما يكون بالحكم الوراثى لنائب الملك . وأن هيرودوت استقى بعض المعلومات منهم ، اذ أنه قد اورد فيما دونه عن تاريخ فارس القـديم معلومات خاصـة تتعلق بفعال أسلاف هذه الأسرة ٠ أما ما ينصل بالمصادر المحتملة الأخرى فمن المعروف أن الملاحم والحكم التى تتنـاول الأحداث التاريخية فى فارس كانت هى سمات الحياة الفارسية على الرغم من أن انعـدام السجلات الرسمية أمر ظاهر الوضوح .



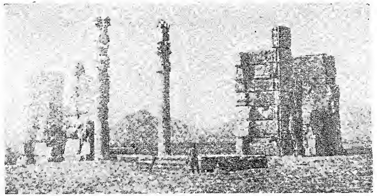
آيتان من أروع آيات العمارة الايرانية : صورة مستعادة لقصر اخشويرش وبوابة معبده

لقد تمكنت عبقرية المعماريين الايرانيين من أن يمزجوا بين الطرز الهيللينية والأشورية والمصريه فوضعوا خطة ايوان اخشويرش الذى تدعمه الأعمدة وبوابة المعبد في أصطخر وقاموا ببنائهما ٠ فالايوان الذى أقيم سقفه من شجر الأرز (الى اليسار) والذى أقيم على قاعدة ضخمة منحوتة يعد أعجوبة من أعاجيب الأعمدة المحززة التى تتوجها تماثيل ثيران مزدوجة الرؤوس ترتكز عليها دعامة ذات زخارف ويحيط بهذا الايوان من ثلاث جهات أروقة منفصلة٠ أما بوابة المعبد (الى اليمين) فقد كانت قائمة عند رأس السلم الكبير كما هو موضح فى ص ٤٤٩ وكان دهليزا مسقوفا بنيت أكتافه الضخمة من الآجر والحجارة يحرسها من كل طرف وحشان مجنحان على النمط الأشورى ٠

وبيدأ تاريخ مملكة ميديا ، كما رواه هيرودوت ، حوالى عام ٧٠٠ ق٠م وهو يشمل على وجه التقريب القرن الأخير من تاريخ الأشـــوريين ٠ وقد أورد هيرودوت قائمة بأسـماء الملوك وتظهـر بعض هـــذه الأسماء فى صـيغ يمكن التعرف عليهــا فى النقوش الأشـورية على أن هيرودوت قد اعتمد على المصادر المدية فى اعتقاده ان مملكة ميديا كانت مستقلة عن مملكة أشور فى تاريخ كان فى الواقع سابقا على التاريخ الذى نالت فيه ميديا حريتها فعلا بجيل أو جيلين ٠ وكان الميديون رعايا أبعـد ما يكونون عن التسليم بهذا الحكم الجائر ٠ وليس هناك ما يدعو الى التشك فى قيام كثير من الفتن خلال القرن السابع قبل الميلاد كان الميديون فيها معتدين تارة ومعتدى عليهم تارة أخرى ٠ ولم يتحقق للميديين اسـتقلالهم الا قـبيل سـقوط نينوى وزوال مملـكة أشور من العـالم ومن التاريخ ٠



نسـتطيع مما تبقى من أطلال الباب الداخلى الشرقى للمعبد وما فيهـا من تماثيل مجنحـة ذات رؤوس بشرية ، أن نتصور فى سهولة ما كانت عليه هذه البوابة من ضخامة وروعة ومن مظهر أشـورى مهيب يتجلى لمن يتأملهـا من الأمام أو من الخلف ٠



صورة مجددة تبين بوابة المعبد كما كانت فى كمالهـا ولم يبق اليـوم من مبناه الا حطـــام من الأكتاف التى بنيت من الحجر الجيرى عند نهايتيه ، ومن بدنى عمـــودين داخليين ٠ وكان الجمع بين الطرز المتباينة من البناء المربع فى العقود ومن قيام الأعمدة الرشيقة ومن ارتفاع جانبى البناء وما فيه من أناقة ورقة حدثا جديدا فى العمارة ومزيجا بارعا من الفنون المعمـارية الثلاثة العظيمة فى العالم القديم ٠

دعامات وعمد سقيفة اخشويرش الكبرى



سوريا وبلخ Bactria يقدمان الجزية لاخشويرش

اتبع ملوك الفرس ما درج عليه ملوك الشرق من عرف مقرر فملأوا كل ما أتيح لهم من مساحات في الجدار بما نقشوه من رسوم بارزة تصور ما حفلت به حياتهم من أمجاد . أما وجه المنصة ، التي قام عليها ايوان اخشويرش ذي السقف القائم على عمد والتي تستند اليها جدران السلم الخارجي المؤدي الى البهو ، فقد غطيت بعدد كبير من رسوم محفورة لاشخاص يمثلون الشعوب المحكومة وهم يقدمون الجزية الى اخشويرش .

وترى السوريين في اللوحة المستطيلة العلياء والبلخيين في السفلى .

وكانت بداية النهاية ذلك الهجوم العنيف الذي شنه جموع الاسكوذيين Scyths من الشمال على غرب آسية ويتضح من الآثار الأشورية أن الأشوريين قد استخدموا هؤلاء الاسكوذيين في حروبهم مع الأرمنيين والمديين ؛ وبذلك أطلعوهم على ما كانت عليه سهول غرب آسية من ثراء . وكان من العسير على هؤلاء البدو الرحل ، الذين كانوا جفاة وان لم يكونوا بحال غير متمدينين ، أن يقاوموا اغراء شديدا كهذا يدفعهم لأن يحاولوا الفوز بنصيب من هذه الثروة . وعلى ذلك تدفقت جموعهم في النصف الأخير من القرن السابع على أرض ما بين النهرين أفواجا لم تجد أشور ، التي أنهكت الحروب المتصلة قوتها ، سبيلا الى صدهم . وقد كان هـذا التدفق أكبر من أن نسميه غارة فان « الغارة » تعبير يكاد لا ينطبق مدلوله على جائحة دامت عشرين عاما على الأقل . فقد اجتاح المغيرون أرض الفرات الخصبة وسوريا حيث احتمى اليهود بمدائنهم المحصنة يراقبون الفرسان الجفاة وهم يخربون ديارهم ، وفي ذلك يقول أرميا نبي العبرانيين وقد شاهد بنفسه هذا الهجوم العنيف « من أجل ذلك يضربهم الأسد من الوعر . ذئب المساء يهلكهم . يكمن النمر حول مدنهم . كل من خرج منها يفترس » .

لم يدمر الاسكوذيون مملكة أشور ولكنهم عملوا على ضعضعة سلطانها الى حد ان أقدم خليط من الميديين والبابليين عام ٦١٢ على الاستيلاء على مدينة نينوى فدمروها وقوضوا ملكها وهكذا ورث الميديون والبابليون ملك أشور

وتاريخ الميديين القديم السابق على هذا تاريخ غامض زاد من غموضه ما وقع فيه هيرودوت من خطأ فيما ارتآه من أنهم قد استقلوا عن أشور

في تاريخ كان في الواقع سابقا للتاريخ الذى نالوا فيه استقلالهم فعلا . وكان من هؤلاء الميديين فــراافارتيش Fravartish ، أو فــراءورتيز Phraortes كما اسماه مؤرخو الاغريق ، الذى تولى الحكم من حوالى عام ٦٥٥ الى عام ٦٣٣ والذى يقول هيرودوت انه قهر الفرس وانه قضى نحبه فيما بعد في هجوم عقيم على نينوى . ويبدو أن أسلاف ذلك السبط الملكى الذى تولى فيما بعــد عرش فارس ، اعــنى الاكمينيين Achaemendis لم يكونوا اذ ذاك أكثر من رؤساء قبيلة بارسارجاداى Pasargadae الفارســية . اما اخامانيش Akhamanish ، اخامينيز كما يدعوه مؤرخو الاغريق ، مؤسس هذه الأسرة المالكة فقد ذكر في نقوش دارا في بهيستون Behistun ومن ثم لا نستطيع أن نعــده بطلا من ابطــال الأساطير لا شأن له . وجاء كذلك في النقوش ذاتها ذكر خليفته خايسپى Chaispi أو تيزپيز كما أسماه هيرودوت .

وفى ابان حكم تيزپيز ، أو أثنــاء زعامتـــه ، زاد نفـــوذ أسرتـه حـــين وضـــعت يدها على انشـــان Anshan وهى الجزء الشرقى من عيلام ، ويبدو انها منحت لهم جزاء ما قدمه تيزپيز من عــون للآشوريين في غزوهم عيــلام حوالى عام ٦٤٧ ويمكن أن نذهب الى انه قد اعفى نفســه فى الوقت نفســه من شيء لم يكن ليعدو على أكثر تقــدير خضوعا قصير الأمد للملكية الميدية .

وخلف فراءورتيز على عرش ميــديا ملك يدعى هوڤاكشــاتارا Huvakshatara وهو كيــاجزاريز Gaxares فى القصــة اليونانية ، وكان هو الذى أعان البابليين على القضاء على أشور ومن ثم يؤرخ عصره عظمة المملكة الميدية التى كانت ارهاصا بالامبراطورية الفارسية بكل معانى الكلمة . وكانت سوريا ومدينــة بابل من نصيب المملكة البابلية عند اقتسام أسلاب أشور واستولى الميديون على المنطقة التى كانت قبلا موطنــا للآشوريين فى السهل الأعلى لنهر دجلة ، كما استولوا على الأراضى التى يرجح انهــا كانت تابعــة اسما للمرتفعات الوعرة فى أرمينيا .

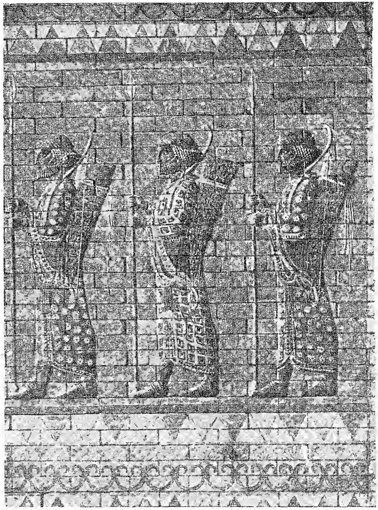
ونستطيع أن نوجز تاريخ خمسين السنة التالية بأن نقول ان مملكة بابل قد مر بها عصر زاهر فى ظل سلسلة من الملوك كان أشهرهم بنو خذرزر Nebuchadrezzar الذى ورد ذكره فى التوراة ثم انتهى الأمر بها الى أن خرت تحت ضربات قورش الفاتح ، الا أنه لا يعرف من تاريخ ميديا خلال هذه السنين الخمسين الا النذر اليسير . ويوحى ما عرف منه بأنه كان ولا ريب تاريخـــا أحفل بالنشـــاط من تاريخ البـــابليين وبأن كيـــاجزاريز لابد أن يكون قد شـــغل فيما تبقى من حكمه الطـــويل باخضاع من ســـبق لهم أن كانوا أتباعا للأشوريين ثم دخلوا فى حكمه ولا شك أن هـــذا الحكم كان بادىء الأمر حكما اسميا .

وحوالى عام ٥٨٥ كان كياجزاريز قد وسع رقعــة أملاكه حتى شملت الجزء الشرقى من آسية الصغرى ، ذلك الاقليم الذى لم يدخل فى ملك الأشــوريين قط . ذلك أن سلطان



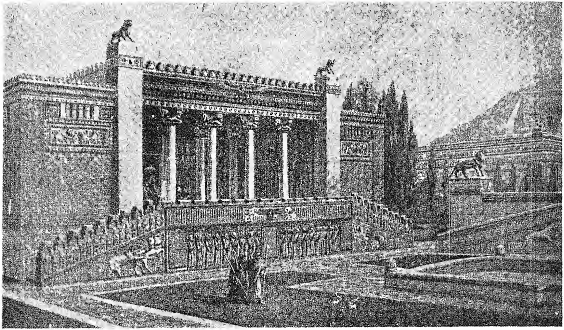
الحرس الخاص لملوك الفرس

من بين صور الأشخاص هــذه ، صورة منقــولة عن بهو اخشويرش (الى اليسار) وهى تمثل رماة الحرس الملكى . أما من تراهما الى اليمين فهما صورتان منقولتان عن قصر دارا لاثنين من الرماحين الفرس . ومما يسترعى النظر غلبة المواضيع الحربية فى الصور التى نقشت على جدران قصر دارا ، ومشاهــد من حيــاة القصــور المترفــة فى قصر ولده .



النبالة المخيفون الذين أقاموا دعائم الامبراطورية الفارسية

كان فن الملوك الفارسيين فنا لا يدين لوطن على الاطلاق . وقد استمد بعض عناصره من مصر وايونيا . الا أن مقارنة هذه اللوحة باللوحتين اللتين على صفحتي ٢٤٧ و ٢٥٠ تظهر أن الفرس نقلوا طريقة الطلاء (المیناء) رأسا عن جيرانهم ورعاياهم في أرض الجزيرة . وفي هذه الصورة – المنقولة عن قصر دارا في السوس – نرى حرس الملك دارا وكان يتألف من رماة السهام الذين ذاع صيتهم وكل منهم مزود برمح طويل وكنانة كبيرة وقوس منحنية من الطراز الاسكوذي .



روائع اصطخر المدينة الملكية فى عهد الملوك الأكمينيين

ان ما تخلف من أسس المبانى ؛ وماظل قائما من حطام الأعمدة وتيجانها ، وما وجد من آجر مطلى ـ كالآجر الذى وجد فى السوس (الصفحة السابقة) ـ وكذلك ما تبقى من واجهات القبور التى نحتت فى الصخر ـ والتى نشاهد أحدها على سفح التل الى الخلف ـ كل هذه مجتمعة تظهر لنا أن الصورة المجددة العليا صورة امينة الى حد كبير لقصر دارا كما كان يقوم فى يوم من الأيام على المنصة الكبيرة فى اصطخر . ومنظر القصر هنا يتجه الى الناحية الشمالية الشرقية (انظر التخطيط ص ٤٤٨) فى اتجاه البهوذى المائة عمود . والى اليمين درج يؤدى الى منصة أكثر ارتفاعا من تلك المنصة التى قام عليها فيما بعد قصر أخشويرش .

الأشوريين لم يمتدا أبدا الى وراء جبال طوروس. وحدث فى أثنـاء توسعه هذا أن اتصل بمملكة ليديا التى كان سلطانها قد ازداد فى السنوات الأخيرة من تلك الأيام زيادة كبيرة ومدت أملاكها حتى بلغت نهـر حالس . وفى عام ٦٨٥ ق.م حشد الميديون والليديون جيوشـهما عند هذا النهر استعدادا لاحدى المعارك . الا أن هذه المعركة لم تقع قط، وكان سبب ذلك ، كما ورد فى الخبر الرابع، ان كسوف الشمس ألقى الذعر فى قلوب الفريقـين فأحجما عن القتـال . ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى توسطت بابل فى عقد صلح بينهما .

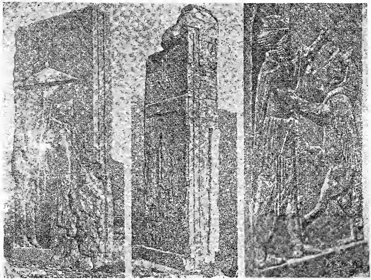
ومن ثم فقد ظل الحال فى غرب آسية على ما هو عليه فيما نعلم الى أن ظهر قورش .

ونحن لا نستطيع ان نقول عن مركز اسرة الأكمينيين Achaemenid Family وأملاكهم بالنسبة الى مملكة ميديا التى كانت آخذة فى التوسع أكثر من انها اسرة ارتبطت برباط المصاهرة مع البيت الميدى المالك .

وهذه المصاهرة يضاف اليها العلائق الوثيقة التى كانت بين الميديين والفرس يفهمان ضمنا من الطريقة التى اتبعها نابونيدوس Nabonidus البابلى فى تدوين ما حـدث بعـد ذلك من خضوع الميديين لقورش ، فهو يعتبر انتقال الملك من اسرة الى اخرى فى تاريخ المملكة الميدية مسألة عائلية محضة ، ولم ينظر اليه نظرته الى غلبة شعب على شعب أو حتى الى وقوع ثورة من الثورات .

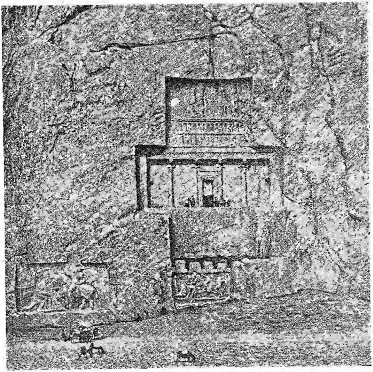
نمت حول شخصية قورش ، الذى كان علما من أعلام تاريخ غرب آسية مجموعة من الأخبار الخيالية « انتقل أغلبها الى عالم الأساطير » على حـد قـول تيوسـيديدير Thucydides

وعلى كل فنحن نعرف أن قورش قام بتدبير ثورة مفاجئة على استياجيز Astyages الذى



رسوم من البلاط تمثل الفخامة والعظمة الملكية

كثيرا ما كان النحاتون الفرس يزينون مداخل البيوت برسوم للملك وهو يبارح قصره أو وهو جالس على عرشه عند مدخل القصر كما لو كان يتقبل ولاء الشعب وقد حفـرت الصـورة (اليسرى) على كتف مبنى مقام على المنصة فى اصطخر ، وحفرت الصورة (الوسطى) على قائمة كتف باب وترى فوق صورة الملك الاله اهورا مازدا بقصه المجنح . ومن الموضوعات الشائعة الأخرى ما تراه فى الصورة (اليمنى) من مصارعة الملك لوحش رآه فى كابوس .



قبر من الصخر دفن فيه دارا فى ناكشى رستم Nakshi Rustam بالقرب من مدينة اصطخر

على بعد عشرة أميال من اصطخر كانت هناك أربعة قبور نحتت فى سفح الجبل لأربعة من ملوك الاكمينيين • وهذا أول قبر من تلك المجموعه وقد أعد للملك دارا • ويقع باب الضريح فى وسط الجحر المنحوت الذى يمثل واجهة القصر • ونرى فوق هذا الملك وقد وقف على عرش يقوم على صفين من تماثيل تصورشعوب الامبراطورية ويواجه مذبح النار ويعبد أهوارمازدا • والنقوش البارزة السفلى تذكار لما طرأ فيما بعد من أحداث فى الفترةالساسانية وهو الذى نتناوله بالبحث فى الفصل السادس والثمانين •

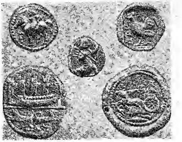
كان اذ ذاك ملكا على ميديا فخلعه عن العرش ونصب نفسه ملكا • ويبدو أن فى استطاعتنا اذا محصنا ذلك الحشد من الأساطير أن نستخلص دليلا يعتمد عليه يؤكد أن

ظهور قورش

قورش كان ينتسب الى البيت الميدى المالك وأن الأمر لم يتعد أنه ورث العرش عن سبط الملوك الميديين ، ومما يلاحظ أيضا أنه لم يكن هناك ما يشير الى أن الميديين أبدوا تذمرا من تغير الأسرة المالكة بعد أن تم الانقلاب الذى دبره قورش هذا وان كانت الأطراف القاصية للمملكة لم تعترف بقورش من غير مقاومة ، وعلى هذا النحو قامت تلكم الامبراطورية الميدية الفارسية العظيمة التى كتب لها أن تحكم غرب آسية نيفا وقرنين من الزمان .

ومن ذلك الحين أصبح من الممكن اعتبار الفرس والميديين شعبا واحدا كما يظهر ذلك فى عدم تحرج الاغريق ذكر اسم أحدهما للدلالة على كليهما .

ولم يصل الى علم العصر الحديث من تفاصيل عن حكم قورش الا النذر اليسير ، أما ما لدينا



نموذج للسكة فى عهد دارا الأول

تظهر على أحد وجهى هذه السكة صورة للملك دارا على هيئة رامى السهام ممتطيا صهوة جواده ، أو فى عجلته الحربية . وعلى الوجه الآخر سفينة ترمز الى الأسطول الذى أنشأه دارا .

من معلومات عنه فقد تضمنها « الخبر الرابع » الذى يروى حياة قورش الحافلة بالنصر .

وبعد أن فتح قورش مملكة ليديا وتهــر الامبراطورية البابلية وضم أملاكها الى أملاكه قضى نحبه عام ٥٢٩ ق . م وترك ولدين هما قمبيز وسميرديس Simerdis الذين قام بينهما نزاع على تولى الحكم . ويوحى كلام هيرودوت بأن قمبيز كان رجلا تافها ، وقد استمد هيرودوت رأيه فى قمبيز من مصادر مصرية وكان من الطبيعى أن تكن هذه المصادر عداء لقمبيز الذى فتح مصر .

ولم يكن هــذا رأى الفرس فى قمبيز فهم يقولون انهم رأوا فى قمبيز سيداً ، كما سبق أن رأوا فى قورش والدا . وقبــل أن يخرج قمبيز لغزو مصر بزمن وجيز اختفى سميرديس ويقال أن أخاه قمبيز اغتاله .

وشرع قمبيز فى توسيع رقعة الامبراطورية الفارسية فقام بغزو مصر حيث مكث بضع سنوات ، وتقول الراوية أنه ذهب الى حد اتخاذ عادات المصريين وطباعهم . وفى عام ٥٢٢ تجهز للعودة الى ممتلكاته الأسيوية ، وبينما هو فى الطريق بلغه ما كان قد أحرزه أحد الأدعياء من نجاح فى انتحال شخصية أخيه سميرديس ، الا أن قمبيز مات فى سوريا قبل أن ينتهى من أمر هذا الدعى وكان اســمه الحقيقى كوماتا Gaumata .

أما ما جرى بعد ذلك فى المملكة الفارسية من احداث فان الغموض يكتنفه من كل جانب ، ونستطيع ان نستنتج مما ذكره دارا فى نقوش بهيستون ومما خلده هيرودوت من قصص خيالية أن هذا الدعى قد تولى فعلا حكم المملكة الفارسية زمنــا قصيرا ، على أن حكمه بدا عام ٥٢٢ وانقضى فى العام نفسه . وفى نهاية هـذه السنة اغتــاله دارا بن هيستا سببس Hystaspes بالاشتراك مع بعض وجوه الفرس .

وكان دارا يبدو بادىء الأمر ملكا بلا مملكة اذ ثار عليه بالاجمــاع كل أقيال المقاطعــات والأمراء التابعين ، الذين كانوا قد احتفظوا من قبل بحكم ولاياتهم . ويبدو أن دارا قضى بضع سنوات يعيد فتح الامبراطورية . الا أنه قام بهذا العمل على أتم وجه .

ويحتمل ان تكون تلك الثورة الكبيرة هى التى حفزت دارا على اعادة تنظيم ادارة ملكه على هذا النحو الدقيق . اذ أنه لم يكن لدى قورش أو قمبيز فسحة من الوقت لأن ينهض أحدهما بمثل هذا العمل العظيم فقد كرسا فترة حكمهما للفتوح . أما ما وضعاه من نظم فقــد كانت ، على أحسن تقدير ، تحمل طابع التدابير المؤقتة .

وقد قدر لهذه السياسة أن تظل سياسة الامبراطورية الى أن انهــارت بعــد قرنين من الزمان . وهذه السياسة شاهــد عظيم على ما كان عليه الشعب الفارسى فى خير حالاته من كفاية واستنارة . وينبغى حين نزن هذه الكفاية التى نظهر فى اقامة هذه الدولة أن لا يغيب عن أذهاننا أنه قصد بها الى حكم شعوب لم تعتد قط أن تعترف بقانون الا قانون القوة . أضف الى ذلك أن من ابتدعوا هذه السياسة كانوا أهل ابتداع بالمعنى الحرفى للكلمة ذلك أن ما قاموا به من أعمال كان أسمى من أى عمل سبقه فى آسية الصغرى مما يجعل اصالتهم فوق كل شك . ولم يكن انحلال هذه الامبراطورية فيما بعد راجعا الى عيوب كامنة فى نظام الحــكم نفسه ، كما كان شأن الامبراطورية الرومانية ، بقــدر ما كان يرجع الى الانحطاط الذى انحدر اليه شيئا فشيئا أولئك الذين تولوا أمرها . ونشأت هذه العيوب من أن المركزية تغلغلت الى حد كبــير فى بعض نواحى الامبراطورية وأن

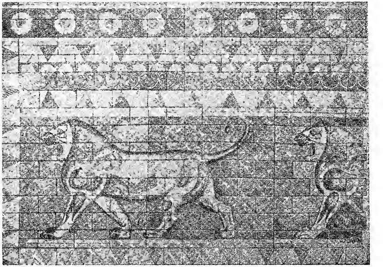
اللامركزية شاعت بدرجة كبــيرة فى نواحى أخرى منها . وكان أول ظهور الانحلال فى قلب الامبراطورية، بين أعضاء الأسرة المالكة أنفسهم.

وكان أول خطر ينبغى التحوط منه فى النظام الجديد للامبراطورية هو انفصال حكام الاقاليم واستقلالهم الى حد ما ، وعلى الأخص أقاليم الامبراطورية القاصية . كان هذا الخطر من خصائص العالم القديم . حيث كانت أسباب المواصلات بطيئة ، فكان من المحتمل أن تقع احداث كثيرة قبـــل أن يبلغ نبؤها الحكومة المركزية . من ثم كانت سيطرة الوالى لا تتعدى بحال حدود ولايته . ويرقب ما يصدر عنه من تصرفات كبار الموظفين الذين استقلوا بمناصبهم واصبحوا مسئولين أمام الامبراطور مبـاشرة وليس للوالى سلطان عليهم .

وانقســمت الامبراطـورية الى ولايات كان عددها يتفاوت فى فترات مختلفة من حكم دارا بين العشرين والثمانى والعشرين . أما ولاية فارس بالذات فقد كانت هى الوحيدة الخارجة على هذا التقسيم اذ كانت محلا لرعاية خاصة بوصفها موطن السلالة الحاكمة .

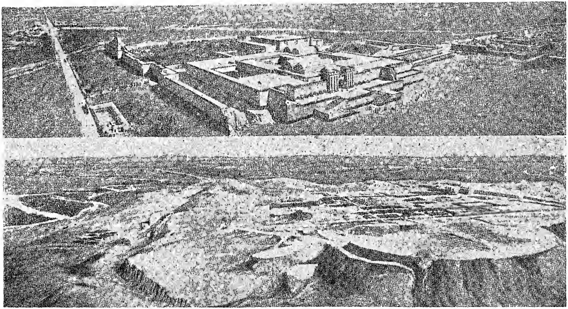
وكانت السلطات المدنية والعسكرية فى هذه الولايات منفصلتين وأقيم فى كل ولاية ثلاثة عمال مستقلين وكانت تتبع كلا منهم ادارة حكومية قائمة بذاتهـا . وفى الولايات ذات الشأن كان الاقيال يختارون عادة من العائلات الكبيرة التى كانت ذات صلة بالأكمينيين ، أما فيما عدا هذه الولايات فيبدو أن مجال الانتخاب كان من الناحية العملية مجالا غير محدود ، فكما كان الحكام ينتخبون من بين أفراد الطبقة الفقيرة بعض الشىء كانوا كذلك ينتخبـون من بين أفراد الطبقـة الموسرة ، من الشـعوب المحكومة ومن الفرس على الســواء . وندر ان كان الحكام من غير الميديين أو الفرس وكانت مدة توليهم الحكم رهينة بارادة الملك .

وكانت سلطات الحاكم فى الظروف العــادية مدنية بحتة ، لا سيما السلطتان المالية والقضائية،



افريز مظلى منقول عن قصر دارا فى السوس

قام العيلاميون منذ العصور القديمة بصنع القرميد المطلى وباستخدامه فى أغراض العمارة وبلوغ أنهم كانوا يؤثرون اللونين الأصــفروالأزرق . ولا تزال هذه الصناعة الى يومنا هذا احدى المهن التى يتميز بها الفرس . وكان الافريز والأسـد الذى رسم عليه مما ازدان به قصر دارا الشتوى فى السوس ، وهو نموذج طيب للفن العيلامى كما أن أسلوبهم فى رسم الحيوانات كان يفضل الطراز التقليدى الذى كان ينتهجه الاشوريون فى رسم الأسد .



قصر دارا فى السوس كما كان فى أوج عظمته وكما هو الآن

دمر الأشوريون أيام ملكهم أشوربانيبال Ahurbanipal مدينة السوس ثم أعاد قورش بناءها وجعلها مدينة محصنة . ومن المحتمل ان ما دفع قورش الى ذلك هو ان السوس تقع بين بلاد فارس وبين أرض الجزيرة وآسية الصغرى ، وانها كانت تعتبر مركزا تجاريا تصب فيه البضائع بين الخليج الفارسى وبين المناطق العامرة بالسكان حول بحر قزوين . وقد كشفت الحفائر عن بقايا عاصمة الأكمينيين كما تظهر فى هذا الرسم ، وقداستطعنا بفضل مابقى منجدران الأساس العاريةأن نحدد صورة قصر دارا الأول (الصورة العليا) . ويقع مدخله الرئيسى الى جهة الجنوب ، ومدخل آخر فى الجهة اليمنى ، ولهذا القصر ثلاثة أبهاء مكشوفة .

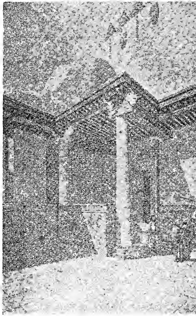
ويدخل في السلطة القضائيـــة ان يهب الوالي الحياة أو يحكم بالاعدام . ولم يكن الوالي يتولى قيادة القوات الحربية في أقاليمه ، أو يهيمن عليها الا في الظروف الاستثنائية . والواقع أن سياسة الحكومة المركزية كانت كثيرا ما تؤلب القائد الحربي على الوالي . ومع ذلك فانه حين تحرج الأمور قد يعهد الى حاكم عظيم مثـل أرتافيرنيس Artaphernes بالقيادة الحربيـة كما حدث في آسية الغربية ابان الفتنة الأيونيوية .

وكان الوزير في داخل المقاطعـة هو ثالث أصحاب المناصب الذين كانوا على اتصـال مباشر بالملك . وكانت مهمته أن يراقب أعمال الوالي وأن يقـدم تقارير عنهـا الى الحكومة المركزية .

ويبدو أن الفارسي في عهد دارا قد أتبع سياسة التساهل والصبر في علاقاته العامة مع الشعوب الخاضعة للامبراطورية ومع الممالك الموالية لها . وكان هـذا أكثر الأمور خروجا عن المألوف في ذلك العصر . وكانت لغة الشعوب المختلفة ودياناتها وقوانينها المحلية محلا للاحترام ، وكانت الأسرة الحاكمة المحلية كثيرا ما تحكم بوصف أعضائها أمراء موالين . وقد سمح للمدن الاغريقية أن تستبقي ما سبق ان كان لها من استقلال ذاتي أيام أن كانت خاضعة لحكم ليديا Lydia فيما عدا أن أية حكومة ديمقراطية سبق أن قامت في هـذه المدن استبدلت اما بأخرى أرستقراطية أو بحكومة استبدادية اغريقية تحكم لمصلحة الفرس . وعلى كل فهكذا كان الحال قبل الفتنة الأيونيوية . وكان القصد من العمل على الاحتفاظ بحكومات وطنية محلية داخل الامبراطورية هو فصل الشعوب المختلفة بعضها عن بعض ومنع انتشار أي تمرد يشمل مساحة واسعة .

وليس ثمة شك في أن من عاشوا داخل حدود الامبراطورية الواسعة قد تحسنت حالهم على وجه العموم تحت حكم فارس بالنسبة الى ما كانوا عليه من قبل . كما أنه ليس هنـاك ما يدعو الى الاعتقاد بأن حكومة الولاة كانت حكومة جائرة . ومن الحقائق الجديرة بالملاحظة أن عصر الحركة الفكرية العظيم في حياة المدن الأيونيوية في آسية يقع ابان خضوعهم للحكم الفارسي . على حين وقعت هذه المدن نفسها في خمود ذهني الى حد ما حين حكمتهم أثينـا فيما بعد .

عمل الفرس على أن تكون شؤون الحيـاة العادية في كل مكان من آسية الغربية خيرا مما سبق أن كانت عليه . و كان اهتمام الحكومة موجها الى اقرار السلام في عالم لم يكن يعرف حتى ذلك الحين الا سلام الاستسلام . فلم تعد تنشب في ذلك الوقت حرب تافهة بين ولايات تافهة . وغدت الحياة اكثر امنا . وكان القضاء



الابهاء الملكية الخاصة في مدينة السوس

لدينـا مادة تكفي لتجديد صـورة هذا البهو تجديدا لا نحتاج فيه الى الاعتماد على الخيال قط ، فخطة الأساس وقواعد الأعمدة ما زالت باقية هي وكذلك نماذج من تيجانها ورسوم على المقابر للسقف الخشبي الذي يغطي رواقا مكشوف الجانبين . وهذا بهو البئر الأيسر في قصر دارا الذي جددت صورته في الرسم الذي تراه في الصفحة المقابلة .

على أعمال النهب والقرصنة مما جعل الطرق البرية والخطوط البحرية غير محفوفة بالأخطار. وعلى ذلك أتيح للاغريق ، رحالة أو تجارا أو جنودا مرتزقة ، أن يعرفوا عن الشرق الأدنى اكثر مما عرفوا فى اى وقت مضى . وكان ادخال

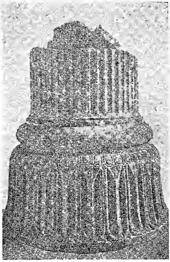
تحسن الحالة فى آسية الغربية

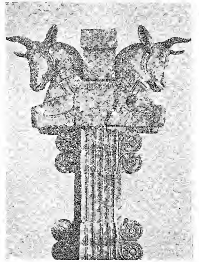
نظام سك نقود يمتاز بأن لا زيف فيه مما يسر رواج التجارة ، وأصبح الدارى الذهبى Daric أساسا للتعامل فى العالم الشرقى . وكان تشجيع الزراعة فى الواقع جزءا من عقيدة الفرس الدينية . وقد قامت الايرادات والضرائب على قواعد عملية . وكانت الضرائب تؤدى نقدا أو عينا على حسب طبيعة الاقليم . وربما كانت الحكومة المركزية تفرض على الاقاليم ضرائب باهظة لم تتبعها فى ذلك الحكومة المحلية . الا أن الشعوب المحكومة كانت تترك لشأنها بعد أن تحصل من أهلها الايرادات . ويبدو أن البيت المالك فى أيام الملكية الأخيرة أصيب بداء تكديس الأموال الا أن الشعوب المحكومة كانت تعلم أنها اذا حولت ولاءها من الفرس الى سواهم فان الأمر سوف يقتصر على خضوعها لأسرة حاكمة أخرى توصم بهذا العيب نفسه .

والراجح أن التجنيد العسكرى الذى كانت تقضى به الحروب الكبيرة كان أثقل الأعباء فى نظر الشعوب المحكومة ، أو قل انه كان أبغضها الى نفوسها . اما فى السلم فلم تكن تعانى الشعوب من هذا التكليف ، اذ كان الجيش العامل ضئيل العدد الى حد عجيب .

ولابد أن يكون دارا قد أنفق بضع سنوات فى جعل هذا النظام وافيا فعالا . وعلى كل فحين تهيأت لهذا النظام أسباب الكمال لم تصبح امبراطوريته حشدا من الهمج بل أصبحت جهازا منظما تنظيما دقيقا ، يسيطر عليه شعب فاق اليونانيين أنفسهم فى بعض نواحى حضارته .

فلما أمن دارا أملاكه على هذا النحو استطاع





أعمدة يتميز بها فن العمارة الايرانى

زودتنا الحفائر فى الأكمة التى تحمى اپادانا Apadana أو قصر دارا الاول وارطخشرشا منيمون فى السوس بأدلة مادية كثيرة وتشهد بفخامة ما شيده الاكمينيين من عمائر وترى فى الصورة اليسرى رأس عمود محزز بتاجه المؤلف من رأسى ثور ، وكان هذا التاج يحمل الدعامة العلوية المرتكزة عليه على نحو ما تحملها التماثيل الاشورية فى بعض الأعمدة . وترى فى الصورة التى الى اليمين قاعدة ضخمة لعمود مماثل . ونتبين فى هذين الأثرين كما نتبين فى غيرهما من الآثار الايرانية مزيجا من الطرازين الشرقى والأيونيوى .

أن يوجه سعيه الى مطلب أدنى الى السلام ، الا وهو اعلاء شأن الفنون فى امبراطوريته فكانت العاصمة الشتوية، السوس Susa ، تزدان بقصر شامخ على حين أقيمت طائفة رائعة من العمائر الملكية على مرتفعات عند أصطخر Persepolis لتكون العاصمة الصيفية بدلا من باسارجاداى Pasargadae . ومدينة اصطخر خير مكان لدراسة الفن الفارسى ، ذلك أن الرسوم التى فيها تبين أن الفن الفارسى يكشف عن مزيج من طرق التعبير فى الفنين المصرى والبابلى على نحو يتميز بلون خاص من الفخامة المتأنقة التى خلت من تحرى الجسامة والصلابة التى تعد من سمات احد هذين الفنين وبين التزام قواعد معينة ، التى عرف بها الفن الآخر . الا أنه يجب أن لا يغيب عن بالنا أن هذا الفن كان مصنوعا متكلفا أعد خصيصا من أجل من يرعونه من الملوك . أما ما كان للشعوب المحكومة من فن وطنى فلم يتأثر الا قليلا . وقد وصل تاريخ فارس بعد الحرب الكبيرة التى استمرت من عام ٤٨٠ الى عام ٤٧٩ ق . م الى العالم الحديث نتفا مبعثرة . فنحن لا نفوز الا بلمحات سريعة عن ثلاث فترات فقط من تاريخها الداخلى ، أولها تلك السنوات التى ساهمت فارس فيها فى السياسة اليونانية ، وكان ذلك خلال الحرب الايونيوية التى استمرت من عام ٤١٢ الى عام ٤٠٤ ، والفترة الثانية وهى الربع الأول من القرن الرابع ، ثم الفترة الثالثة وهى الطور الأخير من أطوار تاريخ فارس وذلك حين فتحها الاسكندر الأكبر . ولدينا من المعلومات ما يكفى لأن يظهر بوضوح أنه تد دب الانحلال شيئا فشيئا فى بناء الامبراطورية فى مائتى السنة التى توسطت بين عهدى دارا والاسكندر الأكبر . ولم يكن هذا الانحلال فى خلق الميديين الفرس بقدر ما كان انحلالا فى الحكومة والادارة . وتظهر بعض أسباب هذا الانحلال فيما وصل الينا من نتف عن تاريخ فارس .

أما السبب الجوهرى فقد كان فقدان الهمة الذى أصيب له من يتولون ادارة دفة الحكم من أفراد الأسرة الحاكمة . وهذه ظاهرة ملحوظة فى بلاد أخرى كان نظام الحريم فيها سمة من سمات حياة البلاط . أما من سبق هؤلاء من أعضاء الأسرة الحاكمة ، الذين نشأوا فى جو كهذا الجو ، فقد كانوا رجالا ذوى همة تتطلبها ظروف الفتح والحكم ، وذلك بوصفهم مؤسسين لأملاك احرزوها حديثا ولم يستقر لهم الأمر فيها بعد ، وكذلك بوصفهم حماة لها . الا أنه فى اللحظة التى تتوطد فيها دعائم الأسرة الحاكمة . وفى اللحظة التى تذعن فيها الشعوب المحكومة فى استكانة الى سلطانها يكون ما ورثه أعضاء البيت الحاكم من همة خليقا بأن يتبدد فى أجواء الحريم .

وكان على الملوك الاكمينيين ومن بعدهم دارا واخشويرش Xerxes أن يقاتلوا فى سبيل الامبراطورية وان يحتفظوا بسيادة حربية قوية على الشعوب التى أخضعوها حديثا الى أن يستكين للحكم الفارسى . وقد ألغى حلفاؤهم أنفسهم وارتين لامبراطورية لا يعكر سكينتها أحداث الحروب . وكانت تلك الامبراطورية ، بوجه عام ، مذعنة لحكمهم اذعانا عجيبا . وقد سبق لشعوب آسية الغربية أن تعلمت من تجاربها الماضية أن من العسير التشبث بالحرية الوطنية ، وأنه اذا اقتضى الأمر خضوعهم لغيرهم فمن الخير لهم أن يرضوا بحاضر ينعمون فيه ، تحت حكم الفرس ، بمعاملة سمحة عن أن يتطلعوا الى مستقبل قد يستمتعون فيه ، على أحسن الفروض ، بحرية موقوتة أو ، على الأرجح يخضعون لشعب ينبع فى حكمه أساليب تكاد تكون على وجه التحقيق أكثر غلظة من أساليب فارس . وعلى ذلك فقد أقام ملوك الفرس فى السوس وفى اصطخر بوصفهم مشرفين على الأداة السياسية التى كانت فيما يبدو تعمل على خير وجه دون أن يتدخلوا فى أمرها تدخلا كبيرا ، ولم يحرصوا الا على امتصاص الأموال التى يغلها سير هذه الأداة . أما المتأخرون من ملوك الفرس فالظاهر أنه قد ركبهم شيطان الشره فحملهم على تكديس الأموال لذاتها .

وكان جمهور شعوب الامبراطورية لا يبالون بالخضوع لفارس ما دام هذا الخضوع يحقق لهم أمنا لم يعهد فى غرب آسية من قبل ويستطيعون فى ظله أن يجنوا ثمرة كدهم دون أن يكدر صفوهم شىء ، ولا يتدخل الا قليلا فى

نظمهم المحلية وما ألفـــوه من عادات . الا ان السياسة السمحة التى انتهجتها حكومة فارس المحلية والتى جنحت بمرور الزمن الى التفكك بحيث أصبحت تترك الأمور تسير كيفما اتفق اعفت الولاة او اسر الحكم الوطنية فى الاقاليم الخاضعة لهم من الرقابة ، وهو أمر كان قمينا بأن يذكى اطماعهم . واصبحت شعوب هـذه الأقاليم تميل شيئا فشيئا الى اعتبار الحكم المحلى ، سواء تولاه الولاة او الأسرة الحاكمة ، صورة دينوية للعناية الالهية أفضـــل لديهم من ملك يتبوأ عرشه بعيـــدا جدا عنهم ، فى السوس . وكان هذا الملك يتراءى لهم فكرة مجردة اكثر منه حقيقة واقعة . ومما قوى هذه النزعة فيهم ما اتجه اليـــه الميل من أن تتوارث بعض الأسر منصـــب الوالى فى بعض الأقاليم ، كما حـــدث فى ولاية داســكيليوم Dascylium الى الشمال الغـربى من آســـية الصغرى فانها ظلت فى قبضة أسرة واحـــدة خلال القرن الخـامس . ومع ذلك فقد احتفظت الامبراطورية بكيانهـــا الى أيام الاسكندر بل كانت تستطيع أن تتحـدى الاسكندر نفسه لو أن حكومة فارس استفادت من درس عملى مستمد من حقيقة أدركها كل الادراك عدد كبير من الفرس ، تلك الحقيقة هى أن عدتهم الحربية كانت دون عدة الاغريق والمقدونيين فلو كان للجيوش الفارسية سلاح المقدونيين لكانت خصما أدهى وأمر من أولئك الذين قهرهم الاسكندر فى المعـــارك التى أفضت الى القضـــاء على الامبراطورية الفارسية . ومما يزيد فى غرابة اغفال القيام بهذا الاصلاح الحربى أن الحكومة الفارسية ، التى قدرت الجندى الكامل العـدة ضمت الى جيشها عددا كبيرا من الجنود المرتزقة الاغريق . وعلى كل فلم يكن الفارسى أول من عجـز عن أن يدرك صـــدق قول ثيوسيديدز « الغلبة للاصلاح على الدوام » .

ومهما كانت عيوب الحكم الفارسى فانه كان نعمة على آسية الغربية ، نعمة لم تنعم بها من قبل قط ، ولم تعهد لها نظيرا منذ ذلك الحين . وكان انهيار هذا الحكم شر مأساة جلبها أولئك الذين حلت بهم .

الإتروريون والقرطاجيون
أصلهم وتكاثرهم

شمائل وعادات شعبين شرقيين تقرر مصيرهما فى الغرب

بقلم ج . ل . ميرز J. L. MYRES

أستاذ كرسى ويكهام للتاريخ القديم بجامعة آكسفورد ، ومؤلف « فجر التاريخ » الخ !..

عندما بدأ المغامرون الاغريق بجوبون البحار الغربية ويرتادون سواحل جنوبى ايطاليا وصقلية ، تصدى لهم خصمان متميزان من الشعوب البحرية ، الفينيقيون الغربيون والتيرانيون أو الاتروريون . وكان كلا الشعبين قد وفد من شرق البحر المتوسط دخيلا على الغرب كما وفد الاغريق أنفسهم ، ولكنهما سبقا الاغريق فى بلوغ تلك الأصقاع ، فلم يستطع هؤلاء التفوق عليهما فى الأقاليم التى احتلاها الا بعد زمن مديد . والواقع أن الاغريق لم يتخلصوا من هذا الخطر المزدوج الذى كان يتهدد سلامتهم الا بعد أن تكفل بالدفاع عن مصالحهم ضد هذين الخصمين شعب آخر من شعوب الغرب هو الشعب الرومانى .

لم يكن الاغريق هم الشعب الوحيد الذى تفرد بهذا النظام السياسى الذى يطلق عليه نظام « دولة المدينة » ، ولو أن التوفيق العظيم حالفهم دون غيرهم فحققوا هذا النظام تحقيقا وفصلوا ما ينطوى عليه من احتمالات تفصيلا لم يحاول غيرهم من الأمم . وان ما للأتروريين والفينيقيين من قيمة تاريخية فى عيوننا يزداد لأنهم كالاغريق شبوا عن طوق الجماعات القبلية ، وأصبحت لهم نظم سياسية صارعت النظم الاغريقية مرتبة ، وساوتها فى نفعها العظيم ، كما أنها تعرضت لما تعرضت له النظم الاغريقية من اضطرابات وآفات .

وهذه الحقيقة أجدر بالنظر والاعتبار ، لأن الأصقاع التى شهدت مغامرات هذين الشعبين ومصيرهما المحزن كانت تمتاز عن الأصقاع الاغريقية لا برحابها فحسب ، بل بما تنتجه لساكنيها من عيش لين خفيض . وكان جل سكانها قوما لم يشعروا بالحاجة الى أن يقوم بينهم ذلك الوعى السياسى الذى يتخطى حدود الجماعة التى تربطها أواصر الدم والقربى ، وتحمل افرادا لا تربطهم هذه الأواصر على التآلف السياسى الوثيق العرى ، ولعل هذا راجع لهذا الامتياز نفسه الذى حبتهم به الطبيعة . ونحن اذا استثنينا حالة وحيدة لا نعرف حتى اليوم سواها ، ونعنى بها حالة أهل روما الذين استطاع المؤرخ الاغريقى أن يصف مدينتهم بأنها مدينة اغريقية خالصة فان نعرف من بقى من الأقوام النازلين بايطاليا وصقلية وشمال افريقيا واسبانيا الا بأسماء القبائل التى ينتمون اليها . وكانت هذه الأقوام تسكن مساحات واسعة من الأرض فى القرى وفى مدن الأسواق ، يلحق بها فى المناطق الشديدة التعرض للغزو معسكر واحد على أكثر تقدير ، يتخيرون له موقعا منيعا كسفوح جبال الابنين مثلا ويحصنونه تحصينا بسيطا ليفزعوا اليه فى الكوارث والملمات .

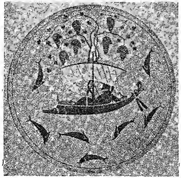
رحلات جوابى الاغريق على السواحل

وطالما كانت الأقوام النازلة بالسواحل التى كان المغامرون من الاغريق يرتادونها « طلبا لأوطان جديدة بمنأى عن أوطانهم » (كنا عن المستعمرات الاغريقية) طالما كانت هذه الأقوام لا تعدو نظمها الاجتماعية الطور القبلى فان نظام « دولة المدينة » المحكم كان يتيح للاغريق منذ البداية ميزة كبرى يمتازون بها على هذه القبائل كما كان يقلل الى أيسر حد مستطاع ما يحدثه نزولهم فى أى اقليم من اضطراب وتقلقل . أما فى السواحل الممحلة الكثيرة الجبال ، وهى لذلك أقل مدنية من السواحل الأخرى ، مثل جنوب

آسـية الصغرى والسواحل الاليرية الشرقية للادرياتيك فان المستعمرات الفسيحة الجنبات لا تدخل فيما نحن فيه بأى حال ٠

أما المستعمرات الصغرى فكانت تحت رحمة أهل الجبال يغيرون عليها ويقطعون أوصالها ، ولـكنك اذا وليت وجهك شـطر غرب البحر الادرياوى وجدت بمعظم الساحل الايطالى ، مع اسـتثناء بقاع قليلة ، سهولا منخفضة فسيحة الارجاء ، أو أرضا ذات تلال متموجة على اسوأ تقدير ، ووجدت الأنهـار الـكثيرة والأراضى الزراعية الموفورة التى كانت كلها تستخدم يومئذ مراعى للماشـية كما هو الحال فى كثير منهـا اليوم ٠

كان المجال متسـعا فى هـذا الاقليم الأخير للتوفيق بين الدخلاء ، الذين جلبوا معهم ما ألفته الجماعات الاغريقية من الزراعة الراقية وفلاحة البسـاتين ، وبين قبائل الوطنيين المشتغلين بالرعى وصناعة الألبان ، وهو توفيق يفيد منه الفريقان . وكانت الصلات ـ فى الغالب ـ ودية بين هذه المستعمرات الغربية وبين جيرانها من العصابات الجبلية المغـيرة ، وذلك مالم يحدث اضطراب عام يدفع بهذه العصابات الهابطة من جبـال الأبنين الى السـهول ، وهو ما وقع فى



عقـاب القرصنة

تروى احدى الأساطير أن ديونيزوس أسره القرصـان فمسخهم دلافين وأحال صارى مركبهم كرمـة من العنب . وهـذا رسم للأسطورة رسمه الخزاف الأتيكى «اجزكياس Exekias» داخل كأس .

النهاية ٠ على أن الجو لم يخل من جيران قلائل مشاغبين يسكنون أقليم كالابريا الجبلى المكسو بالغابات (وهو من الحذاء الايطالى بمكان الاصبع) ، واقليم أبوليا ذا المروج التى تسرح فيها الخيول (كعب الحذاء) ٠

أما الخطر الحقيقى الوحيد فكان مبعثه البحر لا البر ٠ ذلك لأن الاغريق لم يكونوا أول الاجانب الوافدين على هذه الأقطار الغربية ، لذلك أثار تطفلهم عليها منـذ البداية سخط من سبقهم اليهـا من جواب البحار ٠ وكانت القرصـنة موجودة دائما بمقدار ، حتى فى المياه اليونانية فى بحر ايجة ٠ بيد أن (القرصنة فى البحار الغربية) ، كما بدأ الاغريق يصفونها فى ذلك الوقت ، كانت أوسع نطاقا من أى قرصنة قديمة ، وكانت أعجب تنظيما وأبعد أثرا ٠ وكان للاغريق منـذ القـدم بعض الالمام والخبرة بخصميهم الأكبرين ـ أو قل انهم كانوا يعتقدون أن لهم بهما بعض الخبرة فى المياه الاغريقية ٠

وفى الاشـعار الهوميرية وصـف للفينيقى « الغشـاش المخاتل » يفد على البلاد وينصرف عنها أنىء شاء ، مرة تاجرا يظفر بأطيب الصفقات من الأغذية والأطعمة لقاء «الخرز والمرايا» وما اليها من سلع شاعت فى رحلات الكشف المتأخرة ، ومرة قناصـا للرقيق وقرصانا من قراصـنة البحر ٠ فاما وطنه ففى مكان ما بالشرق ، حيث قبرص ومصر ، وفى بلاده مدينة تدعى صيداء مليئة بالبرنز ، تصنع فيهـا أقـداح الفضة ، ويعمل فيها المهرة من النساجين ٠

وهناك قصةـ أحدث من هذه بقليل ـ تروى كيف قبض القرصان « التيرانيون » مرة على الاله العربيد ديونيزوس ، وكيف انتقم منهم انتقاما اليما ، فمسخ آسريه دلافين وأحال صارى مركبهم كرمة عنب . ولم يكن سكان ايجه يفرقون تفريقا ظاهرا بين هؤلاء التيرانيين وغيرهم من لصوص البحار ٠ فقد أغار العلاسجة Pelasgians

القرصنة فى البحر المتوسط

على أتيكا ، بل استعمروها فى زمن قديم ٠ ومن نسلهم من سـكن لمنوس Lemnos وامبروس Imbros وبعض المستعمرات الصغيرة على الدردنيل ووراء خلقيديه Chalcidice ، وربما تسالية أيضا ٠ كذلك أغار الكاريون Carians



مدن سكانها شعب غريب فى بلد غريب

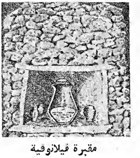
لسنا نعرف من أين وفد الأترورين على ايطاليا ، امن الشرق أم من الغرب . ولكن من المحقق أنهم دخلاء عليهــا ، ويزداد احتمال صحة الراى القــائل بأنهم قدموا من آسية الصغرى . وكان مركز سلطانهم ذلك الاقليم العجيب المقطع الأوصال الواقع بين الأبنين والبحر التيرانى ، حيث أســوا حلفهم المــؤلف من اثنتى عشرة مدينة ، ومن ثم انتشروا الى وادى البو حيث قام لهم حلف ثان مماثل لهذا . وقد دانت لهم لاتيوم ، وكمپانيا جنوبيها .

والليجيون Leleges مرة على مجموعة الجزائر الوسطى ، فلما غلبهم الاغريق هناك ارتدوا الى موطنهم فى جنوب آسية الصغرى ، وتضافروا مع جيرانهم الأيونيويين فيما شـنوا على شرقى البحر المتوســط من غارات انتهت بفتح أبواب مصر فى القرن السابع ق٠م ٠ للاغريق تجارا ورجال حرب مغامرين .

على أن من عرفهــم المستعمرون الاغريق المحدثون من قراصــنة فى بحر ايجه لم يكونوا أكثر من بقايا تخلفت من القراصــنة القدامى ، وقامت شهرتهــا على ذكريات عهــد « الغارات البحرية » الكبرة ، ذلك العهد الذى شهدت به السجلات المصرية المعاصرة له فى القرن الثالث والثانى عشر والحادى عشر ، (انظر الفصــل الســادس والعشرين) . ولم تعد الســفن الفينيقية القادمة من صيداء ومن صور ــ حليفتها العظيمة ــ تلقى فى قلوب الاغريق من الرعب ماكانت تلقيه من قبل وان ظلت مألوفة لديهم ، وذلك لأن خبرة الملاحين الاغريق بالتجارة اتسعت ، ولأن براعتهم التجــارية المتزايدة هــذبت من طباع

منـافسيهم . اما الجـديد الغريب فى مغـامرات الاغريق الغربية ، فهو انه كلمـا أوغلت سـفنهم ومستعمروهم غربا كثر التقاؤهم بتجار آخرين من الفينيقـيين وقراصـنة من التيرانيين ، وازداد ضيقهم بما من مناوأة الفـريقين . ولم ينكشف لهم هـذا اللغز المحير الا تدريجـا ، وذلك حـين اكتشفوا وجود قارة برمتهـا تحف بسواحلها مدن فينيقية شبيهة بمدن ساحل سوريا ، لا تكاد تبعـد عن غرب صقلية رحـلة يوم بالبحـر ، وحين اكتشفوا وجود قطر « تيرانى » مترامى الأطـراف فى أقصى سـاحل ايطاليـا الغربى ، يقع أقرب ثغوره فيمـا وراء أقصى المسـتعمرات الخليقبدية فى كوماى Cumae بشمال كمپانيا .

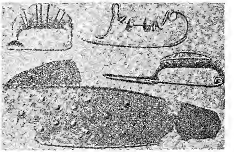
أما كيف استطاع هؤلاء التيرانيون الغربيون (واسـمهم باللاتينيـة التسكان Tuscans أو الاترووريون Etruscan) أن يحتلوا فى ايطاليا ذلك الأقليم الواقع بين وادى أرنو Arno ووادى التيبر Tiber — وهو قوس كبير بين الأپنين والبحر يبلغ طول ساحله نحوا من مائة وخمسين ميـلا — فذلك لغز لم نكشف منـه الأبحاث الحديثـة أكثر ممـا كشفت أبحاث الاغـريق أنفسهم . ولـكن كثـيرا من تاريخهم المتأخر وصل الينا من مصادر رومانية ، كذلك كشف الكثير عن لون الحياة التى كانوا يحيونها بفضل ما تعرضت له مقـابرهم الفخمـة من نهب شـامل مـدى قرنين أو يزيد وبفضل ما أجرى بعد ذلك من حفـائر دقيقـة منظمة على ما بقى من هـذه المقـابر .



مقبرة ڤيلانوڤية

يلاحظ فى أدق المقـابر الڤيلانوڤيه صنعـه أن الوعاء الحاوى لعظـام الميت وما يرافقـه من زهريات صـغيرة — كل ذلك كان يوضع داخـل ضريح من لوحات حجرية رقيقـة .

واتـروريا — كالاتـروريين أنفسهم — أشـبه بالحـدث المصادف فى جغرافية ايطاليا . ذلك أن جبال الأپنين (وهى ستار منيع على ضيقه ، ومقاسم ميـاه شبه الجزيرة) تبتعد عن ساحل ايطاليا الغربى فجـأة فوق لوكا وپيزا ، وتنحرف نحو الساحل الشرقى بميل حتى تبلغ أنكونا . والى الجنوب من أنكونا تتفرع السلسة الجبلية الواحدة شعبا عديدة هى المرتفعات الوسطى ، ولكن معظمها يتكسر فجأة على الضفة اليسرى لنهر التيبر الذى يتـلاقى معظم روافده من الوديان المحصورة من هذه المرتفعات . اما على الضفـة اليمنى للتيبر فليس هنـاك الا رافـد واحـد هو نهـر كلانيس Clanis ، ويجـرى موازيا للتيبر من منبعه قرب أعالى نهر ارنو الذى قطع عليه منابعه فى الواقع . هـذا الاقليم المحصور بين غربى كلانيس وجنوبى ارنو اقليم مضـطرب مختلط اشـد الاختلاط ، فيه قمم مسـتقيمة كجبل كيانتى Monti Chianti الذى يسـير محاذيا للاپنين ، وفيه كتل غير منتظمة من صخور أقدم من ذلك عهدا غنية بالمعادن ، وفيه فوهات براكين خمدت واستحال بعضها اليوم بحيرات يتدفق ماؤها الى البحر من ثغرات فى حوافيها ، وفيه بطاح فسيحة تربتها هى ما قذفته هذه البراكين من رماد تألفت عناصره من جـديد فى بحر ضـحل قـد زال ماؤه من الوجـود . وعلى طـول



حزام برنزى ومشابك ڤيلانوڤيه

يقسم الأثريون الأدوات الڤيلانوڤية الى ثلاث فترات : الفترة البنانشية Benacci الأولى والثانية وتمتدان من حـوالى ١١٠٠ الى ٧٥٠ ق . م ، والفترة الأرنوالديه الممتدة بعد ذلك الى ٥٠٠ ق . م . وينتمى هذا الحزام من البرنز للفترة البنانشية الأولى ، والمشبكان العلويان للفترة الثانية ، والمشبك الثالث للفترة الأرنوالدية .

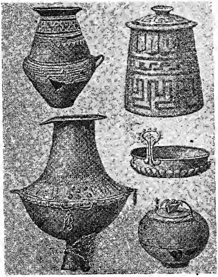
فى المجرى الأدنى لنهر أرنو تتوفر التربة الغرينية العميقة الغـور ، ولـكن سـاحل البحر جـله مستنقعات ملحة جرداء، وبطاح وكثبان وشطئان من الحصى ، وهو يكاد يخلو من الثغور الا حيث تجد قليلا من القمم العتيقة التى كانت جزائر فى عهـد غابر ــ كالبـا ومونت كرسـتو ــ أحاطت بها الرواسب الساحلية وألحقتها بساحل ايطاليا .

وفى هـذا الخليط كله لا تجد نهرا يعتد به الا نهر امبرو ، ولا تجـد بقعة واحـدة تصلح مركزا طبيعيا للنشـاط الانسـانى ، فالمدن الأترورية اما مطلة على الخـارج ــ على البحر أو على أقاليم أخرى ــ واما مغلقة لا تطل على شىء . ويزداد مابينهـا من انفصـال فى الجنوب على الأخص ، وذلك لوجود الغابة الشيمينية التى كانت فى الزمن الغابر تكسو ما بقى من المرتفعات البركانية بين التيبر والبحر عند كسڤيتا فتشيـا ، والتى جعلت من السهل المنخفض الواقع خلفهـا امتدادا شماليـا للاتيوم جزءا متمما لاتروريا . واتروريا هـذه («الأرض العريضة» وراء النهر) أكثر منه تتسم طبيعتهـا بالتعقـد والاضطراب ولا يسهل كذلك أن تحدد مكانها بين أقاليم ايطاليـا الثقافية ، اذ يبدو أن احتـلال الانسـان شبه الجزيرة قبل التاريخ وقع من طرفيهـا ، أعنى بحرا من شواطىء البحر المتوسط الأخرى ، وبرا من أوربا الوسطى عبر جبال الألب والابنين . واذا كان الممكن قيام ضرب من الوحدة الثقافية فى عصر سحيق كالعصر الحجرى المتأخر ، فان حوض البحر المتوسط الغربى كان أسبق من الشرقى الى بلوغ هذه الوحدة . وذلك لانحصاره بين سلاسل من النطاق الجبلى تحدق به من كل جانب ، ولكثرة ما به من سواحـل صالحة للسكنى ومن خشب وفير . وكان من أمر الثروة المعدنية التى زخرت بها بعض أنحاء اسبانيا ــ من ذهب ونحاس وقصدير ــ أنها مدت فى أجـل هـذا الاستكفاء فتغلغـل فى عصر المعادن ، وانها دمغت بطابع البحر المتوسط دمغـا أقـدم مواطن الانسان فى هـذه البقـاع حتى سـفوح الألب شـمالا .

ولا ضرورة لوصف المظاهر المادية لهذه الثقافة ولكن يجدر بنا الاشارة الى أن أصحابها جروا على دفن موتاهم ، وان هذه العادة ظلت بعد ذلك متأصلة فى معظم أنحاء ايطاليا .

ثم أتت على البـلاد حقبة انتشر فيها سكان البحيرات القاطنون وديان الألب صوب الجنوب حاملين معهم بيئة أوثق عرى وأشد تماسكا ، وغيروا مكان مسـاكنهم ذات العمد ، فاقاموها على قيعان الانهار بدل شـواطىء البحيرات ، ولما أصبحت هذه القواعد « أرض السماد - Terramara » (انظر صفحة ٢٠٦) المستكفيـة المنيعـة فى قبضتهم ، اقتحموا السد المزدوج من مسـتنقعات وادى البو وغابات الأبنيين وانتشروا على ضفاف التيبر حيث تقوم الثكنات الرومانية المربعة التى كانوا يسورونها باعمدة

انتشار سـكان البحيرات جنوب فى عصر ما قبل التاريخ



ارتقاء الذوق فى صناعة اوعية الدفن

كانت اقدم الأوعية الڤيلانوڤية التى يدفن فيها رماد الموتى (فى الصف الأعلى) تصنع باليد من فخار مدخن منقوش بزخارف قوامهـا خطوط متكسرة ارتقى ذوق صانعيها تدريجا . أما الأوعية البرنزية (فى أسفل الصورة الى اليسـار) فقـد ظهرت بعـد ذلك ، وحـوالى عام ٧٥٠ ق . م . كانت تصنع أوان ذات اغطية ومقابض أحفل من سابقتها بالزخارف .

خشبية مدببة ، وحيث تقوم قنطرة التيبر ذات العمد . وتنم تلك الثكنات وهذه القنطرة على اسلوبهم المأثور فى الحياة . بل أنهم أوغلوا مرة حتى تارنتم Tarentum وأقاموا فيها مستعمرة على النمط التقليدى ، ولعلهم أقاموا مستعمرات كهذه فى وادى ارنو ، ولعل شطئان بحيرات اتروريا اغرتهم باحتلالها ، ولكن هذا الرأى ما زال مفتقرا الى اثبات .

وبعد بضعة قرون انتشرت ثقافة ثانية وفدت من الشمال أيضا ، وخير مثال عليها مستعمرة « ڤيلانوفا Villanova » الواقعة خلف أراضى بولونيا Bologna . هذه الثقافة ورثت شيئا عن ثقافة أرض السماد ، ولكنها ورثت أشياء عن مصادر أبعد من ذلك كثيرا فيما وراء جبال الألب . وكان أصحابها يصنعون معظم سلاحهم من الحديد ، أما الأدوات المنزلية والحلى والدروع فكانوا يصنعونها من البرنز صنعا دقيقا متقنا . وكان أولئك الذين جلبوا هذه الثقافة يستعملون دبابيس أمن لتثبيت ملابسهم ويدفنون موتاهم . وقد اقتحمت هذه الثقافة سد الأپنين على نحو افعل من سابقتها ، وظل الباب مفتوحا بفضل مستعمرتهم العظيمة بولونيا . ولا شك فى أن المستعمرين الذين اصطنعوا هذه الثقافة قد احتلوا الشطر الأكبر من أتروريا ، وجاوزوها الى اجزاء من لاتيوم ولعلهم أوغلوا فى المرتفعات الوسطى ، ولكن هذا الاقليم أوعر ، والشواهد المؤيدة لهذا الرأى أقل .

وهكذا ترى أن اتروريا قد توافر لها ، قبل دخول الاتروريين ، ممثلون لثقافتين مميزتين ، وربما لثلاث ثقافات متميزة ، وتعددت فى انحائها المختلفة ألوان من المزج والتوفيق بين شتى العقائد والأساليب المتنافرة فى الحياة . وقد ذكرت روايات الاغريق القديمة فى هذا



جنس أسيوى

لهذا اللوح الذى عثر عليه فى ڤولترا Volterra ، والذى يمثل مقاتلا اتروريا ، طابع حبشى يحمل على الظن بأن الأتروريين وفدوا من آسية الصغرى .

الشأن أن هذا الاقليم كان قبل نزول الاتروريين به أقليما « أمبريا » Umbrian ومن الواضح أنه قد أصابه ما أصاب وادى التيبر الأعلى ، فاحتلته أقصى الجماعات التى تتكلم الايطالية موطنا فى الشمال ، والرأى أن هذه الجماعة هى صاحبة حضارة ڤيلانوفا .

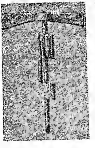
وانتهى الأمر بأن اقحم الاتروريون الذين عرفناهم فى التاريخ على هذا الخليط من السكان ، قد جزمت روايات الاغريق بأنهم لم يكونوا شعبا « ايطاليا » ، وانما وفدوا على ايطاليا من بلد آخر من وراء البحار . واختلفت هذه الروايات على المكان الذى رسوا فيه أول ما قدموا ، فهل نزلوا على الساحل الاتروري — كما يحمل على هذا الظن اسم « البحر التيرانى » الواقع بين ايطاليا وصقلية وسردانية — أم انهم جاءوا بطريق البحر الأدرياوى الذى اشتق اسمه من أدريا ، وهى مدينة من مدنهم تقع بين الأپنين ومصب البو ؟ واكبر الظن أنهم وفدوا من الطريقين فى أوقات مختلفة . وقد ربطت احدى الروايات بينهم وبين سكان تسالية السابقين للاغريق ، ولكن أغلب الآراء أجمعت على أنهم اخوة الليديين ، النازلين بوديان الأنهار العظيمة التى تجرى بساحل آسية الصغرى الغربى . بل لقد زعموا أن الثغر الذى اقلعوا منه هو ازمير ، وأن ما حملهم على الهجرة هو القحط والمجاعة .

غير أن تاريخ هذه الهجرة لم ينعقد عليه مثل هذا الاجماع . فاما كتاب الأغريق فقد حددوا لهذه الهجرة تاريخا هو « الفترة التالية لحرب طروادة » أعنى فترة « محنة الشعوب القاسية » » ، فترة الاضطراب والفوضى الشاملة التى اختتمت بحادث « الغزو الدورى » (انظر الفصل الثانى والثلاثين) . وأما كتاب الرومان — وهم أدرى بأساليب الاتروريين فى تسجيل الحوادث — فقد

وصلوا الى أن تاريخهم بدأ بـ (عهد ، وانه انقسم عصورا) ، وأن ثامن هـذه العصـور انتهى عام ٨٧ ق٠م ، وتاسعها عام ٤٤ م ٠

على أن هؤلاء الكتاب اختلفوا فى تقدير طول العصر عند الاتروريين ٠ أهو فى العـادة قرن أو أكثر من قرن ٠ وعلى ذلك فكل ما نخلص اليـه من هـذا ، هو أنه فى القرن التاسـع او العاشر « حدث حادث » أشعر الاتروريون جميعا بأن لهم مصـلحة مشتركه فى تدوينه وتدوين أعمالهم من بعده . ولنذكر أن هذا كله تطلب وقتا طويلا ، فقبل أن يألف شعب مهاجر بيئته الجديدة ويطمئن اليها ويشعر بأنه أمة واحـدة ، لابد من افتراض مرور فترة طويلة تسربت أثناءها أفواج منه على الوطن الجـديد بالتدريج ، وبسط الشعب سلطانه شيئا فشيئا على هذا القطر الوعر المترامى الأرجاء ، وسلم الشعب كله بأهداف مشتركه والتزامات متبادلة ، ثم أدرك أخيرا أن هناك من جماعات الاتروريين الكبرى المبعثرة فى جميع أنحاء اتروريا اثنتى عشر جماعة ترتبط بحلف واحـد غايته العمل الموحد ٠

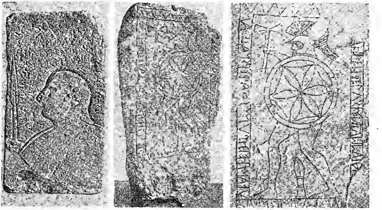
ولكنه كان حلفا واهيا مفككا قد تحجم مدينة أو أكثر من مدنه عن العمل المشترك ، أو يعفيها هـؤلاء من العمـل حينا ، أو قد يختصم أعضـاء الحلف فيما بينهم ، أو يساعـدون عدوهم المشترك حينا آخر . ولكن هذا الحلف ـ حين بلغ أوجـه فى القرن السادس ق.م ـ كان أعظم قوة سياسية فى ايطاليـا ، فـكان يمتلك روما ويسيطر بذلك عـلى أهم جسر على نهر التيبر ، وكان اللاتين ـ أقـرباء الرومان ـ يخضعون له ، وكان قـد فتـح كمپانيـا وأقام حلفـا محليـا من المراكز الأمامية الاترورية فيها.



بلطة وعصى قتولونيـة

وجـدت فى قتولونية هـذه البلطة الحديدية ذات الحدين ، يحملها مقبض حديدى تطوقه قضـبان من حـديد ، وهى الأصـل الذى استـوحاه الرومان فى شـعار السلطة الذى كان يحمله حجابهم .

أما فى الشـمال فكان يضم بولونيـا المستعمرة الفيلانوقية التى عدت بعـدئذ مدينة فلسينا



لوح تذكارى عتيق من آثار شعب يكتنفه الغموض

تشهد اللوحات الجنائزية التذكارية بأن الاتروريين الأولين دخـلاء على ايطاليـا ففى اللوحة الوسطى ـ وكانت تقوم على تل فى قتولونيا ـ يرى القـارىء أقدم ما نعرف من الكتـابات التى على شواهد قبور الاتروريين ، منقوشة مع رسم لمحارب من طراز فلاسجى يرتدى خوذة بريشة ويحمل البلطة ذات الحدين المرتبطة بآلهة المينيويين ، وتظهر الى اليمين الكتابة والرسم واضحين على طبعة بالقلم مأخوذة من هذه اللوحة . والى اليسار كتابة ورسم منقوشان على على لوحة جنائزية وجدت فى لمنوس ، وهما فى جوهرهما شبيهان بما على اللوحـة الأولى .



ارانات (أوعية لحفظ رماد الموتى) اتروريه عجيبة

هــذه الأوعيــة المصنوعة على غرار البيوت هى من الخصائص المميزة لڤيلانوڤيي اتروريا الجنوبيين ، ويظهر فيهـا البـاب والنوافذ واخشـاب السقف التى تحليه . والوعاء الفذ الذى الى يسار الصورة ــ وهو من ڤولترا ــ يمثل غطائه وليمة سماوية ، وقد جلس على مقبضه ملك العالم السفلى .

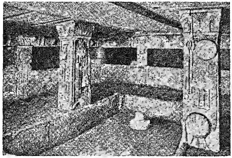
Filsina الاترورية ، والتى صارت عضوا فى حلف ممـاثل من اثنتى عشرة مدينــة فيمــا وراء الأبنين ، وهــذا الحلف هو الذى اعتصم البـاقون من أعضائه ، أو اعتصم على الاقـل شطر من هؤلاء المتخلفين ، بالوديان الألبية حين دخل الغـاليون البـلاد بعـد ذلك . ذلك أن الاتروريين لم يكونوا من أصل أجنبى فحسب بل أن لغتهم وأسلوب حياتهم كانا غريبين على البلاد أيضا . صحيح أن فى الامكان « قراءة » ما تركوا من كتابات عديدة ــ اذا كان معنى القراءة مجرد تمييز السواكن والحركات ــ ، وذلك لأنهم استعاروا الأبجدية الاغريقية من المستعمرات الخلقيدية فى الجنوب (مع تنقيح طفيف تستشف منه تأثير دلفى وشــيئا من استمرار الصلة باليديين فى آسية الصغرى) ، ولكن لغتهم تختلف فى نحوها وصرفها عن أى لغة ايطالية بل عن أى لغة أوربية ــ هندية . واذا وجد تشابه بين بعض الألفاظ فى الاترورية وبعضها فى اللاتينيــة أو سواها من اللغـات الايطالية الأخرى ، فيكفى فى تفسيره ما يحـدث من اسـتعارات بين اللغات وبعضها . ويصدق هـذا على ما نجده من تشابه الألفـاظ فى الاترورية من ناحية وفى لغات آسية الصغرى أو أسماء أماكنها من ناحيــة أخرى ، فهــذا التشابه لا يدل على كثــير وان كان ــ فى حدوده ــ يؤيد الرواية القائلة بأن الاتروريين قدموا أصلا من ليديا . وقد وجد فى لمنوس نقشان قديمــان كتبــا بلغــة تبدو قريبــة الصلة بالأترورية ، ولعلهـا من آثار تيرانيى ايجـه لا من آثار زوار عابرين قــدموا من اترورِيا . ولقـد كان للمنوس ســمعة ســيئة فى القرصنة امتــدت الى نهـاية القــرن الســادس ، ولــكن كتــاب الاغريق جــروا على وصف ســكانها بأنهــم فلاسجيون لا تيرانيــون . وقــد تعيننــا الكتــابات والنقــوش الاترورية على تقــدير مــدى انتشار اللغة الاترورية على التقريب . هــذه النقوش توجد بكثرة ، ومن عهد قديم ، فى الاقليم المحصور بين البحر والتيبر الأدنى ، ذلك الاقليم الذى كان يضم مدنا عظيمة كڤيى Veii وتاركوينى Tarquini وڤولشى Volci ومدنا أصغر مثل فالريى Falerii وكايرى Caere (وكانتـا لاتينيتين الى حـد) . كذلك تنتشر فى أقليم التلال الواقع جنوب أرنو الأدنى حول كوزا Cosa وڤتولونيا Vetulonia وڤولاتراى Volaterrae .

أما على ضــفاف كلانس والتيبر الأعلى فان معظم النقوش التى نجدها فى كلوزيوم Clusium وبيروزيا Perusia من عصر متأخر ، وكأن فن الكتابة لم يوغل فى داخل البلاد الا ببطء . وفى شمال هــذه الجهات وجـدت الـكتابات الاترورية على المنحدر الادرياوى منتشرة حتى رافنا . وهى شائعة كذلك فى بولونيا (التى غدت لسادتها الجدد حارسا يحمى ممر الأبنينين كما كانت من قبل للڤيلانوڤيين حارسا يحمى الجانب المضاد) كذلك تحفـل بهــذه الكتابات مدينة أحدث فى بولونيا هى مدينة موزوبوتو

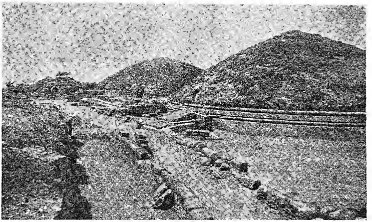
Marzobotto بوادى رينو . أما الكتابات الاترورية التى تختلف فى الجهات النائية فلدينا منها أمثلة وجدت فى بلاكنتيا (Picenza) Pla-centia حيث البو العظيم ، وأخرى وجدت فى الطرف الشمالى لبحيرة كومو . أما الكتابات التى يسمونها الرايتية Rhaetic والتى وجدت فى وادى ترنتينو وغير من الوديان الالبية ، فليست مكتوبة باللغة الأترورية — وان كتبت بأبجديتها — وانما لغتها الأوربية — الهندية التى كان يتكلمها السكان السابقون للغاليين .

اما فى الجنوب فقد عثر على كتابات اترورية فى مدينتين لاتينيتين هما پرانستى Paraeneste وتسكولوم Tusculum ، واسم هذه المدينة الثانية يحمل على الظن بأنها كانت يوما من الأيام ، والى حد ما ، « تسكانيا صغيرة » ، تحمى المواصلات مع البلاد الفنية التى فتحها الاتروريون

فى كمپانيا ، حيث توجد الكتابات الاترورية فى كاپوا Capua وسويسولا Suesula ونولا Nola ، بل اقصى من ذلك جنوبا عند سورنتو Sorrento وسالرنو Salerno أما فى روما فلم يعثر للآن على شيء من هذه الكتابات ، مع أنه كان بروما

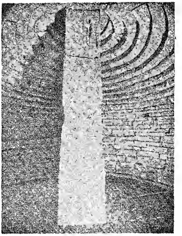


كانت تحفر حجرات الدفن فى باطن التلال على غرار البيوت ، فيها القوائم والعوارض وفيها صور للأسلحة ولكثير من الأدوات المنزلية . وكان الموتى يسجون فى فجوات تفصلها عن بعضها عمد مستطيلة تحليها خطوط غائرة .



فى كرڤترى Cervetri (وهى كايرى القديمة) جبانه اتروريه رائعه فهده المقابر العظيمة — مقابر التلال ودوائر الحجارة — هى قباب مستديرة يتراوح قطرها بين خمس وأربعين وخمس وخمسين ياردة منحوتة من الصخر الجيرى Tufa الهش الذى اقتطع من حولها لتبرز عالية فوق مستوى الشارع ، أو مبنية من « مداميك » من الكتل الحجرية المستطيلة . وكان يهال التراب على شكل تل مخروطى على قاع هذه الصخرة او القبة المبنية بالحجر . وكانوا يبنون افريزا منحدرا من الحجر وقاية للحائط من ماء المطر .

مقابر الاتروريين ذات التلال ودوائر الحجارة ، من الظاهر والباطن .



باطن مقبرة اتروريه على شكل خلية نحل

هـذه المقبرة المستديرة التى تبدو هنـا فى صـورة مجددة ، والتى ترجع للقـرن السادس ق . م . أرضها مرصوفة ببلاط من الحجر وجدرانها مبنية بالحجارة الجيرية . ولها عمود مستطيل يسند قبتها المصنوعة من حجارة معشقة على الطريقـة الميسينية .

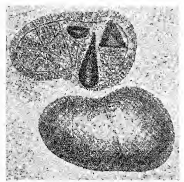
شـارع مؤد لجسر التيبر يسمى « الشـارع النسكاني » ، ومع أن الملوك الاتروريين حكموا روما ثلاثة أجيـال . صحيح أننـا عثرنا بين لفائف مومياء مصرية ــ من عصر اغريقى متأخر أو رومانى قديم ــ على وثيقة واحـدة طويلة بالاتروية ، هى جزء من كتيب فى السحر ، ولكن ليس هناك ما يدلنا على كيفية وصول هـذه الوثيقة الى مصر ولا عن تاريخ وصولها اليها . والكتابة التى وردت بها لا تبدو عتيقة على أى حال .

احتفظ الاتروريون بلغتهم المتميزة ــ وهى لغتهم الأصلية من غيرشك ــ ، دون أن يحدثوا فيها من التغيير الا أقله ، ويلوح انهم جهدوا فى الا يتعلموا من اللغات سواها . بيد أنهم لم يخلفوا لنا الا أثرا ضئيلا من فنون اخرى يمكن أن نحكم عليها بأنهـا فنون أسيوية بل انها كانت دخلية على ايطاليا .

والباحث عن مثل هذه المعالم بين الشعوب القديمة يلتمسها فى طرائق دفنهم للموتى .

فاذا نظرنا الى اتروريا واجهتنا حقائق يصعب تفسيـرها . فقد جرى المستعمرون القلاقيون ــ فى اتروريا كما فى غيرها ــ على احراق جثة الميت وحفظ رمادها فى قدر من خزف يدفن هو وقليل من عتاد الموتى فى لحد قليل الغور لا يتسع الا للقدر والعتاد . ثم اصبح للأسر الهامة على مرور الزمن مدافن منظمة تجد فيها هذه اللحود طوائف وجماعات . ولكن أسلوبا جديدا من أساليب الدفن جلب الى ڤتولونيا من مكان ما ، حوالى عام ٩٠٠ ق . م . فيما يبدو . وفى ڤتولونيا يسهل جدا على الباحث أن يدرس موقع الجبانات وتتابعها التاريخى . ففى هذا الأسلوب الجديد ترى القبور محاطة بدائرة من الحجـارة الخشنة ، وترى بعض الجثث مدفونة دون احـراق فى قبـور يسع الواحد منها الميت ممددا بطوله ، أو فى خنادق اطول من هذه القبور . وكان مكان المقبرة بدل عليه بتل من التراب يهال داخل دائرة الحجارة . أما عتاد القبور فلم يطرأ عليه تغير كبير ، الا أنه تظهر فيه الحلى الذهبية والكهرمان المنقور ، كذلك تجد فيه أحيانا التمائم والعقود من الخزف المصرى المزجج .

هذه المقابر ذات التلال ودوائر الحجارة تشبه على العموم تلك المقابر التى اختصت بها ليديا



استطلاع الغيب من الأحشاء

كان الأتروريين يعلقون أهمية على الكبد . ويرى على السطح المستوى الكبد البرنزى (فى أعلى الصـورة) نتوأت تمثـل المرارة والفصوص ومناطق كتب عليها أسماء آلهة . وفى أسفل الصورة الجانب المحدب من الكبد .

والاقليم الـكارى جنوبها والتى يرجح أنها من العصر نفسـه ، وهى تلال يحيط بها نطاق من الحجـارة ، وتشتمل فى الغالب على غرفة من الحجر . ويزداد هـذا الشبه قوة حين نرى القبور الفردية يستعاض عنها بعد قليل بغرفة دفن واحـدة منقورة فى الصخر ، لهـا سقف وجدران منحوتة فى الحجر ، ويدخل اليها من باب ودهليز محفور .

واستمر بعض السكان فى هـذه المستعمرة على ما ألفوه من احراق موتاهم ، ولـكن عادة الدفن سرت حثيثـا بين أهلهـا . وسرعان ما أصبح عتاد الموتى الذى يودع فى المقابر ذات



طوفلطا Thuflitha **آلهة الموتى**

فوق هـذا الوعاء الجنائزى الفريد ـــ الذى يرجع تاريخه للقرن التاسع ق . م . ـــ أقدم تمثـال يوثق بصحته لآلهـة الموتى والليـل الأتروزية . وهى ترى لابسة وشاحا مرصعا بالنجوم ، وعلى صدرها جعران يرمز للبعث .

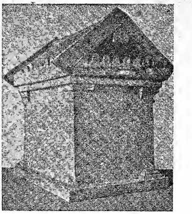


الآلهة طوفلطا ، أم البشر

كانت طوفلطا ، الآلهة الأم ، راعية للأحياء من البشر كمـا كانت حاميـة للأموات منهم . وتمثالهـا هـذا المجوف ـــ وهو من القرن الخامس ـــ كان يضم رماد شخص لعل المثال اراد أن يصور ملامحه أكمل تصوير فى هذه الرأس الشبيهة برأس افروديت .

الغرف عتادا وافرا تزداد فيه التحف الدخيلة عن ذى قبل ، لاسيما الأوعية الخزفيـة التى نستطيع بسـهولة أن نتعرف فيهـا الصنعـة الاغريقية القديمـة ، والتى تعيننا على تحديد تواريخ تقريبية فى القـرن السابع وما يليـه . وواضح من هذا كله أن شعبا ذا عادات وعقائد غريبة عن البلاد قد ظهر على مسرحها ، وانه كان يحتفظ بجل تقاليده الجنائزية ، ولكنه يستعين فى تزيين مقـابره بمـا كان فى البـلد من فنون وصـناعات وطنيـة ، ويضيف بعض السلع المجلوبة من الخـارج الى ما كان يقـدمه من قرابين لموتاه .

وعلى شاهد قبر يعلو تلا من اقدم هذه التلال ترى رسما لمقـاتل ذى درع مستدير وخوذة بريشة من طـراز كان الاغريق يعتقدون أنهم



ضريح على شكل بناء

هذا الوعاء العجيب من أوعية الدفن الشبيه بالكوخ ، والذي وجد في ڤولترا ، مصنوع من الفخار المحروق (التراكوتا) المتعدد الألوان ، وهو يمثل معبــدا تسكانيا في كل زاوية منه عمود مربع . وعلى سقف الوعاء تهريمـة مزخرفة ، ولوح الشرفة محلى بستار غريب التـــكل .

انفسهم قد نقلوه عن كاريي آسية الصغرى ، وهو قابض على بلطة ذات حدين شبيهة ببلطة من الحديد وجدت في تل آخر بنفس الجبانة ، وحول هذا المقاتل كتابة اترورية حسنة النقش هي اقــدم ما نعرف من كتابات الاترووريين . ويشبه هذا الأثر في أسلوبه العام شاهد لمنوس المــكتوب (صفحة ٤٧٠) . وفي مقبرة أخرى من سلسلة المقابر القيتولونية — أحدث بقليل من سابقتها — زهرية من الخزف المصري المزجج يحمل اسم الملك بخوريس والقابه (ملك مصر بين عامي ٧١٨ و ٧١٢ ق . م .) وقد وجدت في احدى حجرات الدفن بمدينة ڤولشي Volci بجنوب اتروريا ختم على شكل جعران يحمل اسم الملك بسمتيك الأول (٦٦٣—٦٠٩ق.م.) ، وبعــد هــذا تتزايد التحف المجلوبة من خارج ايطاليــا تزايدا يبيح لنا تحديد تاريخ المقــابر في سهولة ودقة لا بأس بهما .

وفي استطاعتنا أن نفهم السر في أن شعبا ظل محتفظا بلغته الأصلية كهذا الشعب ، يعتمد في أبســط أدواته الضرورية على الصــناعات الوطنيــة مع قدرته على جلب أدوات الزينــة والتحف الجميلة من بلاد نائية — في استطاعتنا أن نفهم سر هذا لو أخذنا بالروايات الاغريقية التي روت أن الاترووريين خلال رحلاتهم الطويلة من غرب آسية الصغرى — لم تتوافر لهم الفرص ليمارسوا ما قد ألموا به من صناعات قبل ذلك ، وانهم انما دخلوا اتروريا غزاة نهابين ، ودخلوها شراذم عديدة على الأرجح ، وأن الكثيرين منهم لم يجلبوا معهم النساء من بني جلدتهم ، بل اتخذوا لهم من الوطنيات أزواجا . أما المعضلة العويصة الوحيدة فهي هــذه : كيف استطاع الآباء أن يلقنوا أبناءهم وبناتهم لغتهم ، اذا كانت لغة أمهاتهم هي اللغة الايطالية — في لهجة من لهجاتها — ؟ يبدو أن اغريق أيونيا ظفروا بهذه النتيجة نفسها على كثرة تزاوجهم بالـكاريات (وهو أمر لاشك فيه) وربما بالليديات ايضا . ولعل الفضل في الحالين راجع الى ما كان لهذه الجماعات — جمــاعات قدامى الملاحين — من روابط اجتماعية وثيقة متماسكة ، أتاحت لهم تنفيذ ما اعتزموا في أمر عاداتهم وتقاليدهم ،



فكرة الاتروريين المتأخرين عن الموت

توحي بعض الصور الجصية المرسومة على مقابر الاترووريين المتأخرين بأنهم كانوا في رعب من الحيــاة الآخرة جاثم على صــدورهم ، وهو ما يبدو في هذه الصورة التي تمثل امرأة ميتة يحملها روح مجنح أسمر .

وهو أن يصونوا منها القليل الذى يستطيعون صيانته . ومثل هذا يصدق على اهل جزيرة بتسكاين Pitcairn الذين ورثوا الانكليزية لا البولينزية .

ذلك أن الاتروريين اعتزلوا من حولهم من الأهالى فى مسائل العقيدة الدينية ، كما اعتزلوهم فى اللغة . وكان من عادتهم أن يجتمعوا معا كل عام للعبادة فى هيكل مركزى للآلهة ڤولتمنا Voltumna وكان لمعظم آلهتهم الأخرى أسماء اترورية ، واذا كان بعض الرحالة من الاغريق قد وحدوا بين هذه الآلهة الاغريقية ذات الوظائف والصفات نفسها ــ كما نرى ذلك على الزهريات المرسومة والمقابر ذات الصور الجصية ــ فانما كان ذلك التوحيد سطحيا ، لا يعدو المظهر . وكان الاتروريون أشد تمسكا بالطقوس الدينية التى



أسلحة الدفاع الاترورية

لا نعلم على التحقيق هل أخذ الاتروريين الخوذة والدروع الواقية عن الاغريق أو عن وطنهم الأسيوى مباشرة . على أن زينة هذا المحارب المصنوعة من البرنز (وهى أواخر القرن الخامس) على أى حال اغريقية لاشك فيها .



مثال من الذوق الاترورى

هذا التمثال البرنزى الصغير الذى يمثل اجاكس يقع على سيفه ، هو فى الغالب تقليد لأصل اغريقى ، وهذا هو الحال فى كثير من فن الاتروريين . وموضوع التمثال من الموضوعات الخليقة باستهواء المتأخرين من الاتروريين الذين يبدو أنهم مبتكرو المجالدة بين المبارزين المحترفين .

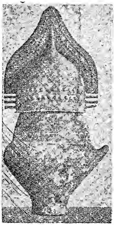
ورثوها ، وبطريقتهم فى الكهانة واستطلاع الغيب من شكل أحشاء الضحايا ومن العلامات الجوية ومن شتى النذر (وهى طريقة شرقية لا مراء فيها) . وبعد أن عرفوا الكتابة دونوا هذا السحر فى وثائق من الكتان شبيهة بتلك الوثيقة التى وجدت مع المومياء المصرية ، ودونوا غير ذلك من علوم افيد من السحر من الناحية العملية كالهندسة والمساحة والعمارة ، وهى علوم أخذها عنهم جيرانهم الرومان قبل أن يأخذوها عن الاغريق الذين علموا الفريقين فى النهاية الشىء الكثير .

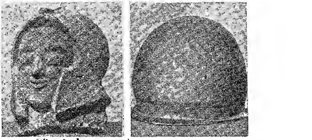
أما النظم الاجتماعية والسياسية التى ربطت من هذه البقايا من الناس المتفرقين الذين استقوا حضارتهم من الشرق ، وجعلتهم أمة واحدة متماسكة ، فلم يبق لنا منها الا خطوط ضئيلة قليلة . كان الاتروريين يقيمون داخل

الأسوار المنيعة والبوابات المقببة التى تحيط بمدنهم المبعثرة ، على نحو ما كان يفعل الفلسطينيون الذين نزلوا بساحل فلسطين (ومن الجائز جدا أن الاتروريين كانت تربطهم بالفلسطينيين فى الأصل روابط كثيرة ابان الفترة المضطربة التى سادتها الغارات البحرية وهى الفترة التى اكتشف فيها لأول مرة وجود الشعبين) . وكانت تحكمهم فى بداية امرهم أسر من الأمراء ك « رؤساء الفلسطينيين » الذين نقرأ عنهم فى سفر القضاة ، وك « ملوك الاغريق انصاف الآلهة » الذين وردوا فى أشعار هومر . ثم حكمهم بعد ذلك حاكم أعلى منتخب ، ومن تحته نفر قليل من الموظفين كان الرومان يشبهونهم بموظفيهم ، البريتور والأيديل Praetors & Aediles . أعنى أنهم اختصوا بالقضاء والرقابة على المعابد والأسواق وغير ذلك من المرافق العامة . أما النظام الرومانى — نظام الحكم والقضاء بما تضمنه من رقباء ورقباء على الرقباء ، لمنع موظفى الدولة من اساءة استعمال حرية التصرف المخولة لهم — فذلك لا نظير له فى اتروريا . وما من شيء بغض اللاتين والسابيين هذا البغض الشنيع فيمن كان يحكمهم من ملوك « أسرة تاركوين المتغطرسة » سوى حكم الفرد الذى أقامه فى روما الى حين ، ملوكها الأتروريين . وكان الرومان يعتقدون بطبيعة الحال أن اتروريا هى التى علمتهم مظاهر الأبهة التى تحيط كبار الموظفين ، والعباءات الأرجوانية الأهداب التى كان يلبسها قضاتهم ، والمقاعد العاجية التى يجلسون عليها ، والقضبان والبلط التى كان يحملها الحجاب رمزا لسلطة الولاة التى كانت تخول لهم الجلد أو القتل .

وكان الأتروريون اذا خرجوا للقتال حشدت كل مدينة من مدنهم قواتها على نحو ما صوره فرجيل فى وصفه ل « احتشاد القبائل » لمحاربة اينياس . وكان سلاحهم الرمح الثقيل والسيف القصير الطاعن ، لا المدية القاطعة التى كانت سلاح الشماليين فى غاراتهم على نحر ايجة ابان عصر الغارات البحرية . بيد أن اللوحة التى سبقت الاشارة اليها — لوحة المقاتل الفيتولونى — دليل على أنهم مدينون لأبناء عمومتهم فى آسية الصغرى بما أخذوا عنهم من درع واقية منيعة . واعتقاد الاغريق أن الاتروريين (أو الايجيين بنى عمومتهم) اخترعوا أبواق الحرب ، يدلنا على ما كان لهم من قدرة على قيادة الجيوش الجرارة .

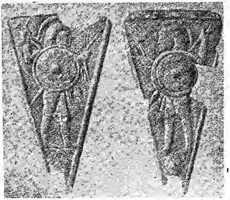
فى هذا الحشد كانت تلتئم المدن الاتروية تحت امرة قائد من كبار قوادهم تقبله جماعتهم المتحدة ، لتمد فتوحها خارج أرض الوطن الاتروري . فأما فتوحهم فى وادى البو فلا نعرف تواريخها على التحديد ، ولكن حكمهم لهذا الوادى قد انهار اثر غزو الغاليين له ؛ فكان لابد اذن من أن يستتب الأمر للاتروريين فيه فى تاريخ





طرز من خوذ الجنود الاتروريين

كان الاتروريون يلبسون خوذات مختلفة الأشكال ، أشيعها قبعة مستديرة كالخوذة التى ترى الى اليمين ، وقد أهداها هيرون والى سرقوسة لمعبد أولمبيا من بين الأسلاب التى غنمها من الاتروريين عام ٤٧٤ ق . م . والصورة الوسطى لرأس محارب تحطمت ريشة خوذته . والى اليسار اران تعلوه خوذة مدببة من النحاس المطروق — وهذه هى الخطوة الأولى فى تغطية هذه الأوعية بالوجوه الانسانية التى على صفحة ٤٨٠ .



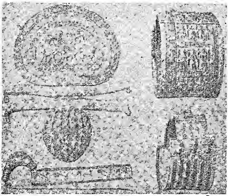
كيف كان المحاربون الاترورويون يتسلحون

يتحلى كل من هذين اللوحين المثلثين من البرنز برسم بارز لجندي ، وهما يصوران لنا سلاح المقاتل . ولعل هاتين الحليتين اللتين يبلغ طولهما ثماني بوصات كانتا عصابتين لوقاية رؤوس الخيل .

وما ذلك الا لأن الاغريق نافحوا عن حرية الملاحة وسلامتها أكثر مما نافح عنهما اى شعب آخر .

وعلى أن هذه الدولة — التي يجوز أن نطلق عليها اسم الامبراطورية الاترورية — كانت قصيرة الأجل . ذلك أن الاتروريين عكفوا على توطيد أقدامهم في اتروريا وشغلوا بذلك عن كل ما عداه ، حتى اذا أصبحوا على أتم استعداد لفتح ايطاليا كانت شعوب أخرى قد اشتد ساعدها مثلهم . فقد أخذ الغاليون — في رواية الرومان — يتدفقون من ممرات الألب في مستهل القرن السادس ، وكانت مغامرات الفوقيين العظيمة في الغرب كللت بتأسيس مساليا (مرسيليا) Massalia حوالي عام ٦٠٠ ق . م . وبانشاء صف طويل من المستعمرات الصغيرة على طول ساحل الرقيرا حتى جنوه شرقا ، كذلك أسس الخلقيديون كوماي (بعد أن احتلوا قديما جزيرة بروخيتا Prochyta) ، ثم أسسوا نياپوليس Neapolis (نابلي) وغيرها من المدن على ساحل كمپانيا ، بل انهم اوغلوا قليلا لا يعدو صدر القرن السادس ان لم يسبقه . وأما فتوحهم في الجنوب فلدينا عنها تواريخ متواترة على الأقل ، فقد حددت الروايات سنة ٦١٦ ق . م . تاريخا لاحتلال روما ، وسنة ٥٥٨ ق . م . لاحتلالهم كاپوا Capua وهي أهم مدنهم في كمپانيا . أما نشاطهم في البحر فقد كان في هذا الوقت نفسه قديما ، ذلك أن البلاد بمناجمها الغنية بالنحاس والحديد كانت قد دانت لهم ، فقد اشتبكوا في معارك قديمة مع المستعمرين الاغريق القادمين من فوقيه Phocaea على ساحل قورشقة الشرقي قبل أن يلتحموا مرة أخرى مع أسطول جديد من الفوقيين في معركة عظيمة تجاه الاليا Alalia على نفس الساحل عام ٥٣٥ ق . م .

أما مغامراتهم وفتوحهم فيما وراء هذه الأصقاع فمن الصعب قسمة الفضل فيها بين تيرانيي أتروريا — الذين استقروا وكانوا على شيء من الحضارة — وبين القراصنة الجوابين الذين عاشوا في البحار الغربية كلها ، والذين جعلوا من المستعمرين والتجار الاغريق هدفا يخصونه بهذه الغارات ،



تحف أنيقة من صنع صائغ اترورى

ان المشبك الكبير المحلى على الطراز الشرقي بأشكال الطير والحيوان يرجع تاريخه الى صدر القرن السابع ق . م ، والمشبك الثاني محلى برسوم الحيوان كذلك ، أما الأساور فعليها رسوم ورؤوس بارزة وتفصيلاتها بالمحبب — وهو ضرب من الخزف يتسم به الفن الاترورى .

فى اتروريا نفسـها (عنـد كايرى وفاليرى) . وأهم من ذلك كله أن القبائل والعشائر الناطقة بالايطالية ، والساكنة فى منطقة المرتفعات الوسطى ، بلغت فى زحفها العظيم خارج مواطنها اقليم الساحل الجبلى الواقع بين سهول لاتيوم وكمبانيا ، فاكرهت غاراتهم اللاتين الذين يسكنون السهل على لمّ شعثهم وضم صفوفهم فى وحدة سياسية حربية وثيقة تلتف حول معبدهم وحصنهم القديم الواقع على جبـل



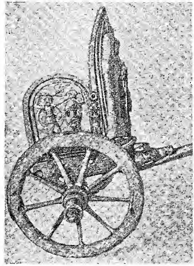
من مقبرة محارب من النبلاء

كانت المقابر الاتروروية الفنية فى القرن السادس ق . م . تؤثث بالتحف المعدنية تأثيثا فاخرا . ولهذه المجلة المصنوعة من البرنز المغشى بالذهب حشوات (فى أعلى هذا الكلام) تحليها رسوم جنـد يقتتلون وتزينها صور النساء . وكان الجنـد يلبسون دروعا تقى سيقانهم على نحو ما كان الاغريق يفعلون .

ألبان ، وخلفت هذه الغارات عنصرا جبليا شديد المراس من الأسر السابية الى جانب تلك الجماعة المتداعية ، الخارجة على القانون ، التى كتب لها أن تصبح مدينة روما .

لم يدم حكم الاتروريين على الجنوب اذن سـوى جيلين . ففى عام ٥٢٤ ق . م . قام أرسـتوديموس Aristodemus — وهو مغـامر اغريقى كان قد أخضع كوماى لسيادته — فهزم جيش الاحتلال الاتروروى ، مفيرا بذلك مجرى الأمور . وقام لاتين روما وسابيوها متضافرين عام ٥١٠ ق . م . فطردوا ملوكهم الاتروريين ، ولم يفلح لارس پورسـينا الكلوزيومى Lars Porsena of clusium نفسه — وهو آخر اقيال

الحـرب الاتروريين — فى رد أسرة تاركوين الطريدة الى رأس جسر التيبر العظيم الأهمية . وهذا الذى صنعه الرومان وأحلافهم اللاتين برا بالاتروريين حاق بهم بحـرا على يد هـيرون Hieron والى سرقوسة ، فقد أوقع بالأسطول الاتروروى عند كوماى ، وقدم للمعبد الاغريقى بأولمپيا بعض ما غنمه فى الحرب من الاتروريين . نعم أن جالية من الاتروريين ظلت تحتفظ بكاپوا فقد استكانوا الى ما اثر عن اقليم كمپانيا من



رخاء فغدر بهم وكسر من شرتهم — ولكن ما لبث السمنيون من سـكان الجبال الداخليـة أن سحقوهم سحقا بين عامى ٤٤٥ و ٤٢٥ ق . م . حتى اذا أقبل عام ٤١٤ ق . م . لم يذهب لمياه الجنوب سوى ثلاث سفن اتروروية للقاء الأسطول الأثينى الكبير الذى أخفق اخفـاقا ذريعا فى السيطرة على صقلية وتغيير نظامها .

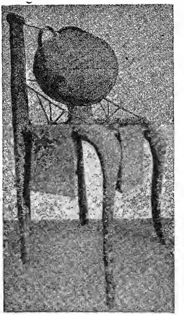
على أن هذه لم تكن نهاية الاتروريين فى اتروريا نفسـها ، فقد ظلت المدن الاتروروية مشتبكة مع الرومان فى معـركة خاسرة امتـدت قرابة قرنين آخرين ، وكانت هذه المدن أثنـاءها على العموم كثيرة العـدد توهن من شوكتهـا خصوماتهـا الداخليـة

انحـلال سـلطان الاتروريين انحلالا بطيئـا

ودسائس الرومان وغارات الغـالبين من وراء الألپين ، الى أن حطمت انتصـارات الرومان

العظيمة (عامى ٣١٠ و ٢٨٣ ق . م .) مقاومتهم الحربية . وفى عام ٢٨١ ق . م . احتفل الرومان بآخر انتصار لهم على أعدائهم الاتروريين .

بقى أن نقدر ما أحرزه الاتروريون من انتصارات فى ميادين السلم . ومن العسير أن نلحظ عقب دخولهم ايطاليا مباشرة انه قد طرا على الحضارة المادية للأقاليم التى احتلوها أى تغيير يمكن أن يعزى لتأثيرهم . فالأوانى الفخارية والمصنوعات المعدنية التى يعثر عليها فى مقابر « التلال ودوائر الحجارة » ، تجرى فترة من الزمن على نحو ما كانت عليه فى القبور الفردية السابقة لها ، وهذا ما ينتظر بطبيعة الحال اذا كان الدخلاء من قراصنة البحر الذين ليس لهم أوطان مستقرة ففى البحر لا يمكن صنع الفخار ولا المحافظة عليه بسهولة . أما أدوات



علو فى الحياة وفى الممات

هذه العادة الغريبة ــ عادة وضع الارانات على مقاعد من البرنز المطروق ــ ترينا نوع الأثاث الذى كان يحتويه البيت الاتروري الفنى . وواضح أن هذه المقاعد كانت تشير الى ما كان للمتوفى من مقام رفيع .

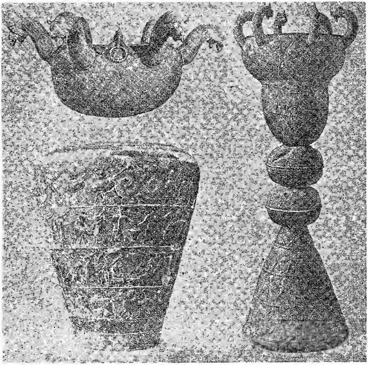


عادات الاتروريين الجنائزية

يبدو أن هذا الوجه البدائى الصنع الذى على غطاء هذا الوعاء البرنزى الحاوى لرفات الميت هو مرحلة متوسطة بين الأوعية المغطاة بالخوذ (صفحة ٤٧٧) وبين الطور المتأخر من الأوعية الفخارية ذات الوجوه الانسانية الكاملة (صفحة ٤٨٥)

الترف فتشغل متسعا لا سبيل الى توفيره على ظهر المراكب . وقصارى ما ننتظر وجوده بين أمثال هذه الأقوام هو الحلى التى يمتلكها الأفراد لاسيما التمائم والتذكارات التى يجلبونها من الموانىء أو من أسلاب الحرب ، وهذه نجدها فعلا ، فثمت مشابك للصدر من أنماط جديدة وعقود من الخرز المجلوب من الخارج ، وتعاويذ صغيرة من الخزف المصرى المزجج أو من تقليد هذا الخزف . أما القدور الفخارية اللطيفة الصنع فانا نلحظ فى أشكالها لمحات تنبىء بأن لصانعيها خبرة جديدة بالأباريق والكؤوس المعدنية ذات الخطوط الغائرة والمنحنية وذات المقابض « المبرشمة » ، ومعنى هذا أن صانعى الفخار من الوطنيين كانوا يقلدون ــ ولم يكن يستطيع هذا التقليد غيرهم ــ أدوات الترف التى يستعملها الأغنياء ، ليستخدمها عامة الناس فى بيوتهم .

هذا الطراز الرخيص المبهرج يبدو فى استعمال المثاقب المنقوشة أولا ، ثم الأختام الأسطوانية لطبع أطواق من الزخارف البارزة على الأوعية الكبيرة محاكاة للمصنوعات الفضية ، بيد أن هذه الزخارف لم تتخذ لها من المصنوعات الا عددا قليلا من النماذج والمناظر المفضلة ، تكرر تكرارا مملا لا تنويع فيه ، كمواكب الحيوان مثلا ، أو كسباق العجلات الحربية ، أو كجماعات من المقاتلين . وكان هذا الفن يمارس أحيانا فى كريت وغيرها من بلاد الأرخبيل الجنوبى فى صدر عصر الحديد ، ولكنه لم يصب هناك ما أصاب فى اتروريا من رواج وذيوع . ثم نجد بعد ذلك أحيانا الأصول المعدنية الى جوار نسخها الصلصالية التى صنعت على غرارها ، وقد تكون من طراز اغريقى ، ولكنها فى الغالب من هذا « الطراز الشرقى الخليط » الذى يجمع بين الرسوم المصرية والأشورية جمعا لا براعة فيه ، والذى نجده على الطاسات والدروع وغيرها من أشياء مصنوعة من أدوات رقيقة من البرنز والفضة فى قصور الملوك الأشوريين بنينوى . وفى معابد قبرس ومقابرها ، وفى الكهف المقدس على جبل ايدا فى كريت ، وفى أولمپيا ودلفى والأكروپول بأثينا . وكانت هناك تجارة فى مثل هذه المصنوعات المعدنية فى أعالى البحر الأدرياوى

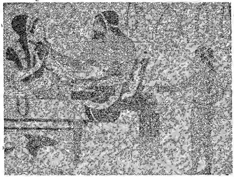


نزعات أجنبية فى فن صانع البرنز الأترورى

يتجلى الفن الاترورى على أحسنه فى التحف المعدنية ، ولكن كثيرا مما فى هذا الفن مقلد ، حتى فى هذه التحف . ويرى القارىء على الطاس البرنزى الذى فى أعلى اليسار — وكان مخصصا لعبادة جوپيتر — صورا صغيرة للاله على نمط شرقى خليط تقليدى ، يذكرنا بالمصنوعات الفينيقية التى قلدوا فيها الفن الأشورى . والدلو الذى فى أسفل الطاس — وهو أقدم منه صناعة ؛ وظروف العثور عليه تحملنا على أن نسلكه فى آثار القرن السادس الاترورية — هذا الدلو لا يمكن فى الواقع تمييزه من الدلاء التى ترى على صفحتى ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

من المحدثين من القبائل الفيلانوفية الساكنة وادى البو ؛ وكانت تلقى التقدير. وتقلد تقليدا محليا؛ حتى فيما وراء ممرات الألب من جانب الأقوام ذات الثقافة الهولشتاتية Hallstatt في التيرول وعلى فروع الطرنة .

أما مقابر الأغنياء فى اتروريا فحافلة بالتحف المعدنية على اختلاف أنواعها وتباين أساليبها . وبعض هذه الأساليب شرقى لا مراء فيه ؛ وبعضها مصنوع فى اتروريا ومتأثر بيده النماذج المجلوبة تأثيرا متفاوتا . وأضخم هذه التحف وأروعها هى العجلات الحربية الكاملة ذات الاطارات والحنوات المصنوعة من البرنز المذهب المطروق طرقا متناهيا فى الدقة . ولكن ادق هذه التحف صنعة هى المشابك والحلى الذهبية المزخرفة بزخارف مخرمة ومحببة أنيقة ؛ بالغة الدقة . شاهدة بحذق الفنان وطول باعه .



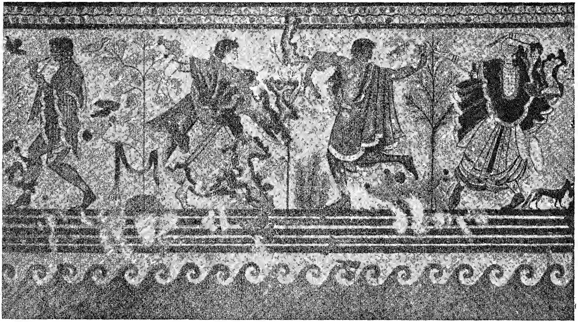
رسم فى مقبرة أترورية يمثل منظرا عائليا

فى هذا الرسم يرى الرجل والفتى عاريين ، ولكن المرأة تبدو فى ثياب لائقة . والظاهر أن نساء الاتروريين كن أكثر احتفالا بمظهرهن من نساء الاغريق أو الرومان . والزوجان هنا متكئان الى مائدة والغلام الواقف الى اليمين يقدم لهما مغرفتين ومصفاة نبيذ .

وعلى ما كان فى حياة الأتروري من ذوق تلك الأوانى الفخارية المجلوبة التى يلوح أنها كانت تلقى التقدير فى البداية بوصفها طرفا نادرة ؛ لما كانت عليه من اشكال رشيقة وزخارف ملونة، لا شبه بينها وبين الأوانى الوطنية (البوكشرو Bucchero) البنية الداكنة أو المطلية بطلاء اسود لا تنويع فيه . ومعظم هذه الزهريات من صنعة اغريقيه واضحة ، معروفة عصورها واماكنها . وأقدمها يرجع للقرن الثامن ، وفى القرن السابع بدأت تعم ، وفى القرنين السادس والخامس اتسعت التجارة فيها اتساعا هائلا ، ولاسيما مع كورنثة ومدن ساحل آسية الصغرى الأيونيوى وبعض جزائر ايجة الوسطى .

وعلى ما كان فى حياة الاتروري من ذوق مترف وحب للبذخ ، فان اسرافه وتعبيره الصريح عن خلقه وميوله لم يظهرا على أتمهما الا فى عدته للحياة الآخرة . وعلمنا بعقائده الدينية ضئيل محدود ؛ ولكن من المؤكد على أى حال أن أسلوب الحياة التى كان يحياها أورثه أشد القلق والمخاوف مما سيحيق به بعد الموت . ونحن نجد كثيرا من الشعوب القديمة — كالمصريين مثلا — يتخذون الحيطة الدقيقة ليكفلوا للميت بعض متع الأحياء ، وليضمنوا له بعض الاعفاء من العقاب على ما اقترف من آثام ؛ ومن هنا زودت المقابر فى سخاء بما يلزم الموتى من أثاث وطعام ، وزينت بالمناظر التى كان ينعم بها الموتى ابان حياتهم على الأرض . كذلك كان الحال فى اتروريا ، حيث نجد اسرافا فى تزيين جدران حجر المقابر الفخمة بالرسوم الجصية (وهو فن دخيل) . ولكنا نجد مناظر اخرى مرسومة مع هذه المناظر التى تكشف عما كان يستشعره الاتروري من لذة واغتباط بأعمال العنف والقسوة والخروج عن اللياقة (مما جاء مصداقا لآراء الرومان فيما كان عليه جيرانهم البغيضون من خلق وسلوك) — نجد مناظر لشياطين العالم السفلى المرعبة ، وللأرواح المعذبة ، مما ينبىء عن مناحى فى خرافات أهل القرون الوسطى عن مصير الأرواح الآثمة ، لا تمت الى المسيحية بسبب . أو لعل تلك المعتقدات هى الاصل فى هذه المناحى . بل انك ترى فى الرسوم التى تصور الأساطير الاغريقية (كتخليص السستس Alcestis من القبر) صورا لهؤلاء الربانية المرعبين ؛ وتجد الشيطان يحمل مطرقته وآلهة الجحيم تنهش فريستها .

ولا ينتظر من شعب يعيش فى فزع من مصيره الأخير أن يتحرج أو يتأثم فى اختيار الوسيلة



رسم اترورى على الجص يمثل أشخاصا يرقصون رقصا جنائزيا بمصاحبة ناى وصنوج

الظاهر ان الرقص لم يكن دون العويل والندب أهمية فى مراسيم المآتم الأترورية . وهذا الرسم الجصى يرجع الى صدر القرن الخامس ق . م . وهو من افضل الرسوم التى تمثل راقصى المآتم وراقصاتها عند الأتروريين وهم هنا يرقصون بين الشجر ، بينما يعزف رجل على ناى مزدوج والمنظر غنى برسوم الحيوان ، فالأشجار حافلة بالطير ، ويستطيع القارىء أن يرى ذيل هرة تتسلق الشجرة الوسطى (أما ما بقى من بدن الهرة فقد تقشر وسقط) وهناك سير بأجراس يتدلى من شجرة أخرى. وكثيرا ما نرى هذه السيور متدلية من الجدران فى رسوم الولائم التى كانت تولم لذكرى الموتى.

التى تعينه على النجاة والخلاص . فاذا كانت الشياطين تطلب أرواحا لتعذبها ، فلتقدم هذه الأرواح طالما كان فى هذا ابقاء على روح المعطى . وعلى ذلك كان الاتروريون يقدمون الضحايا من البشر ، ويدفنونهم أحياء عند دفن القادرين على تقديم هؤلاء الضحايا . وكانوا يذبحون أسرى الحرب علانية ، ولعل هذه المذابح لم يقصد بها التمثيل بالأعداء بقدر ما قصد بها افتداء أرواح قتلى الحرب الاتروريين زلفى لآلهـة العالم السـفلى . وكانوا يتـأرون ممن خاصموهم أو آذوهم بكتابة اللعنات الشنيعة، يخطونها على لوح من الرصاص يلقونه فى القبر ـــ كأنه الرسالة تقليها فى صندوق البريد ـــ وذلك لينقل الميت الرسالة الى قوات العالم السفلى . وقلما نجد فى الحوادث المألوفة فى الحيـاة اليومية حـدثا الا وهو نذير شؤم فى تأويلهم ، له عندهم رقيته أو تميمته التى يتقون بها غضب الروح الشرير الذى أحدثه . فاذا كانت الحياة الآخرة تتراءى للناس على هذه الصورة المفزعة ، واذا كانت الحياة الدنيا أيضا محفوفة بمثل هذه المخاطر ، فأى عجب فى أن يعيش القوم فى المدن الاتروريه ابناء يومهم الراهن فحسب ؛ وأى غرابة فى أن ينتهبوا من لذات العيش ما استطاعوا انتهابه سبيلا دون مراعاة لغيرهم من الناس أو اكتراث



الفنانون الاغريق فى خدمة الاتروريين

هـذا الفـارس مرسوم فى مقبرة البـارون (التى سميت باسم مكتشفهـا البـارون كستنر) . وقد ثبت ان رسوم هذه المقبرة من صنع نقاش اغريقى .

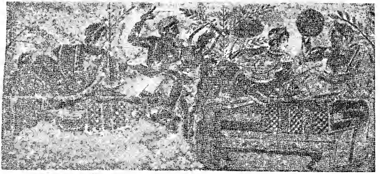


عجلة سـباق اتروية

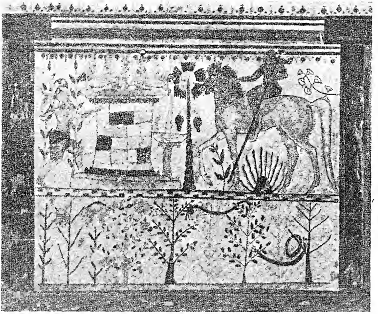
ان الوان الرسوم الجدارية الاتروية لاتحاكى الطبيعية، فقد يرسمون الجياد حمراء أو زرقا أو شهبا بحوافر حمر وأعراف وذيول زرق ، وتبدو هذه الظاهرة فى هذا الرسم باحدى مقـابر خيوسى chiusi (ولا تجد فى هـذه المقبرة ما يوجد فى سائر المقابر من جص بين الصخر والألوان) . قارن هـذا باللوحـة المواجهه لهذه الصفحة .

لكرامتهم هم . واذا جاز لنا أن نحكم على هؤلاء القوم من الرسوم الجصية فى مقابرهم ، قلنا ان نساءهم لم يكن خيرا من الرجال ، فقد كان فيهن طيش وفجور . وكانت حفلات الجحيم الراقصة المعربدة لا يقودها اله بل آلهة .

هـذا التحلل من الضوابط والقيود ، وهذا العجز عن ادراك الأشياء فى نسبتها وأوضاعها الصحيحة ، يكشفان عن طبيعة الاتروريين حتى فى رسومهم الفنية . وكان الفنـانون الاغريق ـــ الذين تعلموا فنهم فى بيئة مخالفة كل المخالفة للبيئة الاتروية ـــ يفقدون اتزانهم وتقيـدهم بقواعـد الفن ، اذا قاموا بعمـل فنى لسيد من السادات الاتروريين ـــ والظاهر أن بعضهم كانوا يفعلون ذلك . أما الفنانون الوطنيون الذين حاولوا تقليد الأسلوب الاغريقى فقد ضحوا بروحـه الرقيقة اللطيفة ، وان أخذوا عنه المهارة الفنية والرسوم والموضوعات التقليدية . وليس هناك غير فرع واحـد من فروع الفن الرفيع يدين ببعض الفضل لرعاية الاتروريين ، فقد نشأ عن التصوير الواقعى لمهرجاناتهم القومية وطقوسهم الجنائزية مذهب تصويرى من أندر المذاهب القديمة، وهو مذهب ينحو الى تصوير التفاصيل أكثر من التصوير المثالى ، وقـد اتبع الرومان



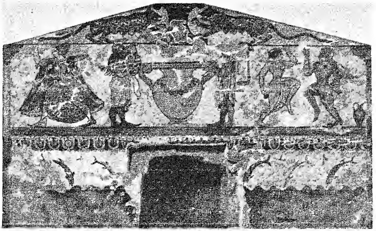
يبدو على التصوير الأترورى منذ النصف الثانى للقرن السادس أنه ازداد رقيا من حيث الحرص على الدقة واللطف فى رسم تفاسيم الوجوه. وكذلك فى زيادة أحكام تآلف الصور. وكثرة ما تحتوى من تفصيلات. وهذه السمات متجلية فى مشهد المأدبة هذا الذى نقل مما يعرف بقبر العذراء فى كورنتو. الذى يرجع الى نهاية القرن الخامس . وهو فن ناضج اذا ما قورن بالصورة السفلى .



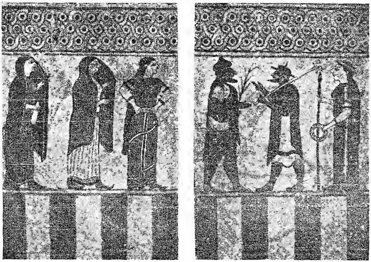
كانت الأساطير هى موضوع الصور الهامة فى قبر التيران Tomb of the Bulls فى كورنتو الذى يرجع الى النصف الاول من القرن السادس ق . م . وهذه الصورة تمثل أخيل Achilles يكمن عند عين ابولو المقدسة تحت أسوار طروادة لترويلوس الشاب وهو يقبل على العين يسقى جياده غير متوقع الخطر الذى يتهدده . أما السور ذات الاجراس والاكاليل المعلقة فى الأشجار فقد ظلت من مأثورات هذه الصور الجصية خلال القرن التالى وهى شاهدة باعتقاد الاتروريين فى السحر والتمائم .

حياة الاغريق اليومية وأساطيرهم مصورة فى قبور اترورية قديمة .

امام ص ٤٨٣



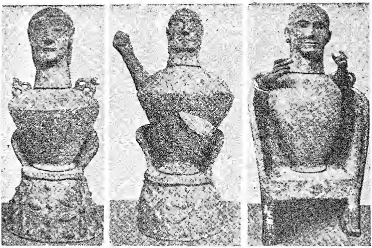
قطتان ضخمتان تموءان مغضبتين على جانبى المذبح وعنهما أخذت تسميه « قبر اللبؤات Tomb of Lionesses فى كورنيتو Corneto وهذا الزخرف الشبيه بالزنك شائع فى الفن الأترورى . أما الافريز فيصور مأدبة تدل عليها صورة خابية الخمر فى الوسط وقام على جانبيها عازفان ، ثم ظهر فى أحد الجانبين راقص مع ساقية يحجلان . وفى الشمال وقفت راقصة فى حلتها الايونيه تتخطر على وقع الصنوج



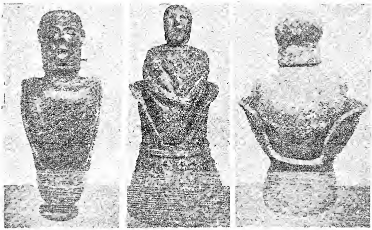
ويظهر فى هذه الحشوات المصنوعة من الفخار المحروق تقليد آخر من تقاليد الفن الاترورى ، وهى منقولة عن قبر كيرفترى Cervetri وتبين كيفية تفريقهم فى رسم الجنسين باختلاف ألوان بشرة كل منهما . فصوروا الرجل باللون البنى الداكن ، والمرأة باللون الخفيف الذى يكاد يكون أبيض — ولا ريب أن سبب ذلك يرجع الى ركون النساء الى حياة المنازل — ولا شك فى أن هذه العادة بدأت فى الفن المصرى والمسينى واليونانى الغابر ، ثم بقيت وامتدت الى الفن الاترورى بعد أن اختفت فى بلاد أخرى . وقد أبقى الزمن أثرا آخر من عادات رسامى العصور الغابرة وهو اظهار العين فى رسم الوجوه بكامل منظرها الأمامى بخلاف غيرهم فقد رسموها من منظر جانبى .

رجال ونساء من الاتروريين فى القرن السادس والخامس ق . م .

أمام ص ٤٨٤



فى هذه الارانات الفخارية الثلاثة ايضاح لما طرأ على أوعية رفات الموتى البرنزية التى ترى على صفحة ٤٨٠ من تطور طريف . فالوعاء الأول والثانى بما يحتويان عليه من ثقوب ومسامير « برشام » صورية ، يحكيان أصلين من البرنز . وأولهما يحتفظ بمقبضى الوعاء البرنزى الذى أخذ عنه ، ولكن للثانى ذراعا متحركة (ولعل النتوء يمثل درع المحارب) ؛ أما الثالث فيسند بالمقبضين ذراعين تدوران على قطب



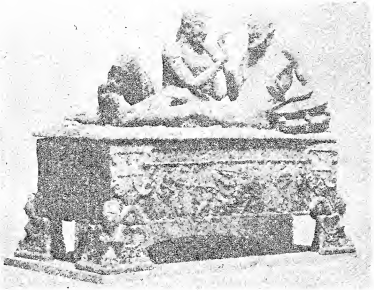
وأخيرا امتدت السمات الانسانية التى شخصت على الوعاء ، فتجاوزت الرأس الى البدن كله . فالوعاء الأوسط هنا يرجع للقرن السادس أو الخامس ق . م . ، فى حين أن الأوعية الثلاثة العليا ترجع للقرن التاسع او الثامن . ولكن يبدو أن هذا التطور كان يرافقه انحطاط فى الفن ، وفى الوعاء الأخير كل امارات الفن الجامد الآلى — اللهم الا اذا كانت صناعة فجة لصانع مبتدىء فى ذلك العهد . ويلاحظ أن المقاعد الفاخرة التى كانت تحتوى الأضرحة القديمة قد استحالت الى نقر كأنها ظروف البيض .

الأصل فى التمثال النصفى : تقليد اتروى من تقاليد الدفن استمر قرونا .

هذه السنة فيما اخذوا عن الاترورين . ويلاحظ بنوع خاص أن السنة التي جرى عليها الاترورين في تشخيص رأس الميت وعنقه ـ دون جسمه كله ـ على الاران أو الصندوق الذي يضم رماد الميت ـ وهي سنة موفقة على ما فيها من غرابة ـ هي الأصل في التمثال النصفي الذي اشتق اسمه بستوم «Bustum» ومعناها ضريح من هذا الغرض الذي قصد به أصلا .

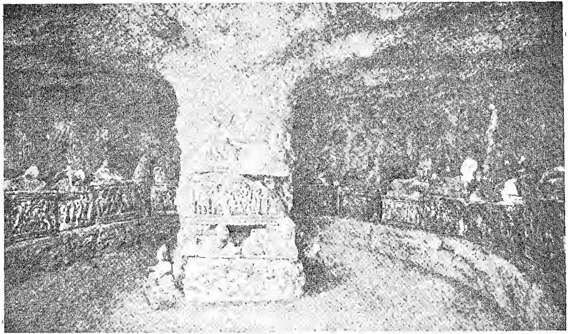
تلك كانت حال هذا الشعب الشاذ الذي أثر أكثر مما أثر أي شعب سواه في الرومان (الذين انتهى بهم الأمر الى أن اصبحوا جيران الاترورين في الجنوب ومنافسيهم في السيادة على بقية ايطاليا) ـ اثروا في عقائدهم وأفكارهم ، كما اثروا في حياتهم العامة وثقافتهم المادية . وكان خضوع الرومان أنفسهم حقبة من الزمن لحكم الاترورين ، وتحررهم في طليعة من تحرر من ربقة هذا الحكم ، هو الظرف الذي هيأ للرومان أن يتخذوا من الضحايا الآخرين الذين خضعوا لنير الاترورين موقف المنقذ المحرر ، وان يوحدوا بين هؤلاء جميعا في حلف مناهض للاترورين ، وان يجعلوا من هذا الحلف في النهاية اداة حربية يستخدمونها لتحرير شعوب أخرى من الأترورين . ذلك أن الأترورين أنفسهم لم يكونوا في يوم من الايام غير اقلية وثيقة النظام قوية الشكيمة ، تعيش وسط شعب قهرته هذه الاقلية، ولكنها لم تدمجه في كيانها . ولعل مالقيته المدن الاترورية من عنت في لم شعثها للدفاع عن مصالحها المشتركة، كان جله ناشئا من الخطر الذي كان يحدق بكل طائفة من الغزاة الاترورين من رعاياهم الوطنيين . وشبيه بهذه الحال في بلاد الاغريق، ما كانت تلقاه دول المدن صاحبة الفتوحات ـ كاسبرطة وارجوس ، وحكومات الأقلية الصميمة كطيبة وتسالية . من عنت دائم

الاترورين أقلية طاغية



تمثالان اتروريان من الفخار المحروق منذ القرن السادس ق . م . لرجل وزوجته

كان سراة الاترورين يدفنون في توابيت دقيقة الصنع ، جلها من الفخار المحروق ، ولكن الحديث منها كان يصنع من مواد أغلى كالمرمر . وهذه التوابيت صناديق مستطيلة تحليها مناظر خرافية أو مشاهد من الحياة المدنية وعليها تمثال للميت ـ أو الموتى ـ الذين في التابوت ، بحجم أصغر بقليل من الحجم الطبيعي في الغالب . وفي هذا التابوت القديم الذي وجد في كيرثري cervetri يستشف الناظر جهد الفنان في ابراز ملامح الوجهين ، وهو جهد لا يخفى حتى مع وجود هذه الابتسامة التقليدية التي ورثها الفنان عن الفن الاغريقي .



صورة مجدده لباطن مقبرة من معابر الاسر الاتروريه المتأخرة العهد

تطورت المقابر البدائية ذات التلال ودوائر الحجارة وأصبحت حجر دفن محكمة تختص بالحجرة منها أسرة واحدة . وهذه صورة تحملها الفنان لما كانت عليه حجرة منها وجدت فى سان جيرولامو ، قرب فولترا ، ولكن الباب الأصلي باق فى الصورة هو والصناديق المرمرية التى يحوى كل منها رماد من أفراد اسرة يرجح أنها أسرة آتيا *Atia* ، ويبلغ عددها زهاء الأربعين ، وهو عدد يومىء الى طول الفترة التى استعملت فيها هذه المقبرة . وللصناديق أغطية من الطراز المتأخر الذى يرى على الصفحة السابقة ، وهو الطراز ذو الوجوه البشرية ، أما جوانبها فتحليها مناظر جلها منتق من الأساطير الاغريقية .

في سياستها الخارجية بسبب ما يكنه لها رقيق الأرض فى بلادها من حفيظة وتربص .

وهـذا ظاهر على الأخص فى ذلك الجزء من اتروريا الذى يتاخم حـد التيبر . فهـذا الاقليم كانت تفصله الغـابة السمينية عن بقية اتروريا ، وأكثر من ذلك أنه كان مرتبطا بالمدن اللاتينية الواقعـة وراء النهر ، بأقدم روابط الدم والتقاليد . ولم يكن من الأحداث المصادفة ان يجـد الرومان فى كايرى ــ أهم مراكز الأتروريين فى هذا الاقليم ، ولكنها كانت قبل ذلك من بعض الوجوه مدينة لاتينية اغريقية فى وقت معـا (وهو اعتقـاد كتاب الاغريق عـلى أى حال) ، لم يكن من الأحداث المصادفة ان يجدوا فى هذه المدينة فرصتهم للقيـام بتجربة من أجرأ ما قام به العالم القديم من تجارب سياسـية ، وذلك حين عرضوا على سكان هـذه المدينة بعـد تحريرها عام ٣٥٣ ق . م . عرضـا خطيرا ، هو اشتراكهـم فى حقـوق الرومان المدنية . واصبحت « حرية مدينـة كايرى » ــ على ضيق نطاقها ــ منوالا نسجت عليه روما فى منح هذه الحقوق لمدن اخرى بعد كايرى ، فكانت هذه هى أولى الخطوات التى خطتها روما فى سـبيل منح الرعوية الرومانية للشعوب غـير الرومانيـة الأصل . وتلك أهم وسـيلة مكنت روما فى النهـاية من أن تدمج فى دولة واحـدة حوض البحر المتوسـط كله ، لا ايطاليا فقط .



أشد عادات الدفن الأتروريه أبهة وخيلاء

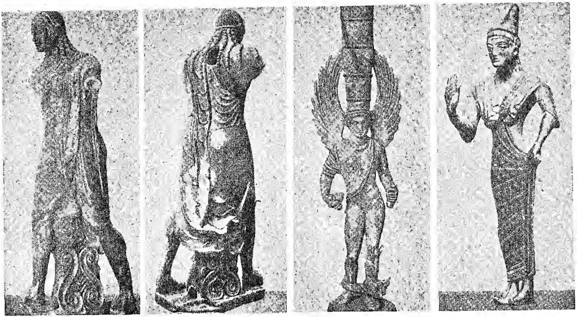
بلغت قبور الأتروريين فى تطورها آخر هذه الأطوار وأكثرها فخفخة حين أصبح الصندوق الذى يضم رفات الموتى تابوتا يحمل تمثالا للميت ، متكئا بطولة على أريكة ومعه زوجه فى كثير الحالات . ولكن هذه التوابيت نفسها لم تسلم صناعتها فى التدهور والانحلال ، فقد استحالت فى النهاية الى رأس كبير يعلو بدنا ردىء الصنع .

كما هاجر الاتروريون ، ولعل استيطانهم البحار الغربية لم يسبق حلف المدن فى اتروريا بزمن طويل ، ان كان قد سـبقه على الاطلاق ، الا أن خصومهم الاغريق غالوا فيما ادعاه الفينيقيون من دعوى السبق فى استعمار هذه الأصقاع . وقد صححت الأبحاث الأثرية هذا الرأى اليوم ، ولكن عدة مواقع هامة ما زالت مجهولة لم يكشف عنها بعـد ، وليس فى استطاعتنا أن نقف من تاريخ الفينيقيـين القـديم الا على خطوطـه الرئيسـية .

على أن لمدن ساحل الشام الفينيقية تاريخا طويلا . فقد كان يربط مدينة جبيل «Byblus» وكانت من أقـدس مدنهم رغم ما فقـدت من عظمتهـا وشهرتهـا فى عصور متأخرة ــ كان يربطها بوادى النيل مواصلات بحرية منتظمة منذ صدر عصور الأسر المصرية (قبـل عام ٣٠٠٠ ق . م . على التحقيق) . وكانت تصدر لمصر الأخشاب والأفاوية والعقاقير ، وربما الزيت والخمر ايضا . أما البضائع التى كانت تستوردها

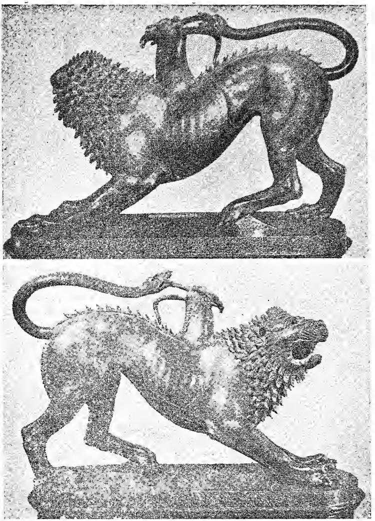
وبينما كان الاستعمار الاغريقى فى ايطاليا يجد من قوة الأتروريون البحرية ما يعوق انتشاره على النحو الذى فصلنا ، الى أن انقلب الموقف السياسى رأسا على عقب نتيجة لنهضة روما وحلفها اللاتينى ، كان يحدق بهذا الاستعمار من الجنوب خطر آخر يختلف كل الاختلاف عن هذا الخطر الأترورى ، مصدره المستعمرات الفينيقية فى شمال أفريقيا ، لاسيما أعظم هذه المستعمرات شأنا وهى قرطاجة .

والفينيقيون قوم هاجروا من الشرق البعيد



تماثيل من الخزف تمثل الفن الاتروري الوطني وعليه آثار قوية من فن شرقي بلاد اليونان

اشتهرت مدينة ڤيبي Veii. بين الرومان بمذهبها في النحت ، لذلك جاء الكشف عن تمثال أپولو الخزفي المجوف الدقيق الصنع بين خرائبها (وهو الذي يبدو الى اليسار في وضعين) متفقا وهذه الشهرة ، فضلا عما لهذا الكشف من طرافة وأهمية . وكان التمثال يؤلف مجموعة مع تماثيل هرقل وهرمز وارتميس ، ويرجع تاريخه لأواخر القرن السادس ، والناظر الى ثياب أپولو الفخمة وتصفيف شعره يستشف فيه الأثر الأيونيوي (قارن هذا بالتمثال الصغير على صفحة ٣٤٧ والتمثال التالي لجن برنزي مجنح يحمل عمودا أجوف (حذف بعضه في هذه الصورة) ولعله كان يستعمل لوضع شمع النذور ، أما التمثال الذي الى أقصى اليمين فهو تمثال برنزي لسيدة وجد في بروچيا Perugia ، والطابع الأيونيوي ملحوظ فيه كذلك .



هولة نقلها عن الأساطير الاغريقية نابغة من الفنانين الاتروريين

ظن بعضهم أن هذا التمثال البرنزى الذى يمثل هولة خرافية تمثال اغريقى جلب الى اتروريا ، بيد ان الراجح أنه صناعة اترورية وطنية تحكى أصلا اغريقيا من القرن الخامس ق . م . وقد كشفه ورقمه بنفنوتو تشلينى Benvenuto Cellini عام ١٥٥٣ . والكتابة التى على الساق الأمامية اليمنى تشير الى أنه مهدى للاله تن Tin (جوبيتر) وكانت الهولة Chimaera وحشا خرافيا يتألف من أسد وتيس وثعبان ، وقد قتله البطل بلروفون Bellerophon . ويرى القارىء الجروح فى عنق التيس وفخذ الأسد .



مـدن ومحطات أقامها المغـامرون من تجار الفينيقين فى حوض البحر المتوسط

انـا نسمع من المصادر المصرية بانباء المـدن الفينيقية لغاية الفترة المعروفة بفترة « محنـة الشعوب » (حوالى ١٣٠٠ — ١٢٠٠ ق ٠ م ٠). ولكن ليس فى هذه الأنباء ما يشير الى أن هذه المدن أقامها المغامرون التجار . ومن ثم فان من الجائز أن تسرب أفواج من « شعوب البحر » الى الفينيقين هو الذى ولد فيهم اولا هذا النزوع الى جوب البحار ، مما أدى الى ارتيادهم ساحـل أفريقية الشمالى وتأسيسهم المـدن من أمثـال أوتيـكا Utica ولكسوس Lixus وقادس Gades . على أن هجرتهم الحقيقيـة من بلادهم لابد أنها قد نجمت عن غزوات أشور ناصربال الثانى وشلمنصر الثالث بين عامى ٨٧٦ و ٨٤٦ ق ٠ م ٠ ويجوز أن نحدد هذه الفترة تاريخا لتأسيس قرطاجة .

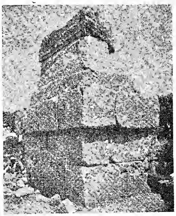
من مصر لقاء صادراتها فلا تعرف على وجه أكيد ، واغلب الظن أنها كانت غلالا وكتانا ومنسوجات ومصنوعات وأدوات ترف . ولكن معظم المدن الفينيقية لم تبرز الا حين فتحت مصر سوريا فى عهد الأسرة الثامنة عشرة (حوالى سنة ١٥٠٠ ق . م .) ، ولم تدون أعمال هذه المدن فى سجل يعاصر ذلك العهد الا فى عصر انحلال الامبراطورية المصرية . كانت صيداء وصور وأرواد وغيرها من المدن تتمتع بالحكم الذاتي فى الفترة التى تناولتها خطابات تل العمارنة التى أرسلها حكام سوريا المصريون لأمنحتب الثالث والرابع ، وذلك بين عامى ١٤٣٠ و ١٣٥٠ ق . م . وكانت هذه المدن تعقد من الاتفاقات افضلها واخدمها لمصالحها — سواء مع سيدها الأعلى (ملك مصر) ، أو مع اعدائه الحيثيين القادمين من شمال سوريا ، أو مع قبائل « الخابيرو » المغيرين برا من الصحراء ، أو مع الغزاة البحريين القادمين من « الجزائر التى فى وسط البحر » ، والذين نلحظ بينهم (كما مر بنا فى صفحة ٨٧) شعوبا عديدة من شعوب الأرخبيل (منهم قبائل الطورشا Tursha ولعلهم التيرانيون القدامى) .

هذه الفترة التى تسمى — فترة « محنة الشعوب » بلغت الغاية فى الغارات الكبيرة التى شنت من الشمال الغربى بحرا وبرا ، وهى الغارات التى صدها رمسيس الثالث بعيد عام ١٢٠٠ ق . م . ويبدو أن صور — على الأقل — بدات تنهض من كبوتها حوالى هذا التاريخ ، ولعلها عمرت من جديد بعد أن دمرها المغيرون من البحر ولما كانت قبرس والساحل الفلسطيني تصلهما موارد طائلة جديدة حوالى ذلك التاريخ . فمعنى ذلك أن فرصة لم يتح نظيرها من قبل قد تهيأت على أى حال للاتصال بالأقطار الغربية ، ويرى بعض المؤرخين ان اشتقاق هذه الأسماء صقلية وسردانية واترورية — فيما يظهر من أسماء الشعوب البحرية التى عرفناها من الوثائق المصرية (وهى شقلاش و شردانو وطورشا) ، يجيز لنا ان نقول أن القرصان العائدين من البحار الشرقية قد الموا بساحل افريقية أيضا ، فخبر هذا الساحل بحارة المدن الفينيقية وتجارها . ومهما يكن من أمر ، فمما يجدر ملاحظته أن المغامر الآخى أوديسيوس (فى شعر هومير) يصف كيف أسر فى مصر أثناء غارة بحرية . وصادق هناك تاجرا فينيقيا ، ورافقه الى ليبيا ، ثم تحطمت به السفينة فى البحر بعيدا عن كريت وقذف به الى البر فى اثاكا على ساحل اليونان الغربى ، كما جنحت سفينة الرسول بولس فى جزيرة مالطة بسبب عاصفة بحرية كهذه . وهناك قصة أخرى من قصص أوديسيوس تدور حول أكلة اللوتس ، وفاكهتهم الحلوة البرية التى كانت غذاءهم الوحيد ، هذه القصة تلمع الى أن الشاعر كان على علم ضئيل بالأجزاء الجنوبية من تونس ، حيث ينمو نخيل البلح بريا على كتب من ساحل البحر المتوسط . وأحراج النخيل تمتد اليوم أميالا بحذاء ساحل طرابلس الحديثة .

بيد أن ثراء الفينيقيين الغربيين لم يقم على الساحل الليبى المنخفض المحفوف بالنخيل ؛ ذلك أن بنية القارة ومناخها جميعا يتغيران تغيرا فجائيا فيما وراء هذا الساحل ، حيث ترى جبال أطلس العظيمة المتجهة صوب الشرق تتكىء على حافة البحر المتوسط الشرقى ، وتنحرف نحو صقلية حيث تتمتها . كذلك نجد مناخ هذا الاقليم الوعر ومناخ سابقه على طرفى نقيض ، فهو اقليم جبلى يكتنفه البحر من جانبيه المفتوحين للرياح السائدة . أما نباته فلا يقل انتماء للنبات الأوربى عن نبات صقلية أو الجنوب الشرقى لأسبانيا ، حتى على ساحله . بل أن هناك بقايا غابات مترامية الأطراف كانت فيما مضى تنمو على المنحدرات المواجهة للبحر ؛ وتنبسط وتتسع فى الغرب حيث يأتيها من المحيط هواء أكثر تشبعا بالرطوبة .

ومنطقة أطلس الجبلية على العموم منطقة مزدوجة ، فهناك اقليم التل أو أطلس الصغرى التى تمتد ملاصقة للساحل الشمالى لبلاد الجزائر وتبرز الى البحر عند الراس الأبيض ، أما « أطلس الكبرى » وتتمتها الشرقية (جبال أوراس) فتنحدر نحو السهول الصحراوية الجنوبية انحدارا فجائيا كذلك .

وتعلو السلسلتان ستة آلاف قدم ، وتعلو أوراس سبعة آلاف قدم أو يزيد . وتحصران بينهما على ارتفاع يبلغ نحو ثلاثة آلاف قدم هضبة شبيهة بهضبة آسية الصغرى ، ولكنها أضيق منها وأقل حظا من المطر لأن جبالها



مقبرة منهوبة من مقابر صور

على نحو ستة أميال من صور يقوم هـذا الأثر الضخم المعروف بمقبرة حيرام ، ملك صور الذى كان صديقا لسليمان . وتاريخ المقبرة غير محقق ، ولكنها قديمة ، ولعلها شيدت قبل الهجرة الى قرطاجنة .

الحاجزة للريح أعلى . ويزيد فى جدبها أن أكثر أمطارها السنوية لا تنصرف كما تنصرف مياه آسية الصغرى عن طريق التلال ، ولكنها تكون سلسلة من البحيرات التى تتبخر فى الصيف فتترك على الأرض قشرة من الملح . على أن الهضبة حافلة بالمراعى والبردى أو السمار حول حوافيها . وهى موطن الخيول النوميدية الكريمة ، الخيول التى يعرفها فرسان المغرب والجزائر اليوم ، كما عرفها فرسان القرطاجيين فى القدم .

أما فى اقصى الشرق فان السلسلتين تنحرفان — فى ارتفاع — فتكونان جبلين متماثلين همـا أوراس وخرومريا . أما ما يبقى من الفجـوة المحصورة بين السلسلتين فيزداد عمقا ويغدو واديا طيبـا يجرى فيـه نهر مجردة Mejerda (واسمه القـديم بجراداس Bagradas) الذى يبلغ البحر بين الرأس الأبيض المذكور آنفا وبين رأس أطول منه وأبعد الى الشرق ، هو رأس بونة Bon الذى كونتـه السلسلة الجنوبية . وبين هذين الرأسين ، وعلى طول الساحل الشرقى الى الجنوب من بونة ، تقوم أرض فسيحة متموجة ، أهش وأنعم ، وحظها أوفر من الأمطار التى تسوقها الرياح البحرية ، وتحف بها سهول

ساحلية خصبة تنبسط الى الجنوب مكونة المنخفضات الليبية التى تبـدأ عنـدها أحراج النخيـل .

والى الجنوب من جبـل اوراس وامتـداده فى تونس يوجد اقليم حرم — كما حرمت الهضبة الوسـطى — من تصريف مياهـه الى البحر . وتغطى البحيرات الملحة أو الشطوط هذا الاقليم على مساحة تبلغ زهاء المائتى ميل من السـاحل ، بحيث أصبح هذا الشطر من الهضبة فى الواقع شبه جزيرة معزول عن القارة الليبية ، لا يربطه بها غير طرق القوافل التى تبلغ الواحات المنبثة وسط اقليم الشطوط ووراءه . هـذا القطر الفسيح الأرجاء الذى سخت عليـه الطبيعـة هو الذى أطلق عليه فى الأصل اسم « افريقية » ، فافريقية كانت ولاية رومانية . ولم يحل هذا الاسم محل الاسم القديم—ليبيا—فيشمل بذلك سهول الصحراء الكبرى الواقعة فى داخل القارة ، وهى السهول التى تفصل هذا الاقليم عن مصر وتمتد غربا على طول حـده الجنوبى ، لم يحل محله الا فى العصور الرومانية المتأخرة . وهذه الهضبة المعروفـة « بافريقية » كان الاغريق لا يكادون يعرفون عنها شيئا . فتجد هيرودوت مثلا يقف فى وصفه لليبيا عند الشطوط وجبال أوراس ، ولا يتجاوز ذلك . وسبب هذا الجهل هو بعينه سبب ما ارتكبوه من أخطاء شنيعة فى فهم شـكل ايطاليا — أعنى أن غيرهم من الرائدين — الذين كانوا منافسين لهم فى التجارة كذلك — قـد سبقوهم اليهـا ، وباعـدوا بين الاغريق وبينها .

كان الوطنيون من أهل أفريقية القديمة شعبة قوية فتيـة من جنس البحر المتوسـط الذى ينتمى اليـه شـعوب صقلية وجنوب ايطاليـا واسبانيـا . وهـذا الشعب محتفظ الى اليوم بعـاداته البسيطة وجماعاته القبلية على الرغم مما تعاقب عليه من فتوح القرطاجيين والرومان والعـرب .

والجزء الجبلى من هذا الاقليم جله مراع ، ففى الهضبة تربى الجيـاد الصغيرة الخفيفـة التى يتميز بها الاقليم . وفى التلال الساحلية والسهول المنخفضة تزرع الغلال والتين البلدى ، والزيتون والكرم (وليس من الضرورى أن يكونا قد جلبا من الخارج ، ولو انهما حسنا بتهجينهما بأنواع

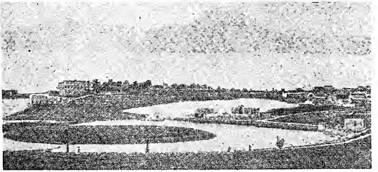
مجلوبة من الخارج) وقد أضيف حديثا الى هذه الموارد القديمة التبغ والقطن والخروب والبرتقال وما اليها . واتخذ الأهالى منذ القدم من السمار القوى الذى ينمو فى المستنقعات ، مادة ممتازة يصنعون منها السلال والحصر والحبال والسقوف والأحذية الخفيفة وغيرها من الملابس ، ويصدر فى العصور الحديثة كميات كبيرة منها لصناعة الورق . والحق أن افريقية كانت للعالم القديم بمثابة «مانلا» للعالم الجديد، وكانت أيضا من أهم أقطار العالم القديم انتاجا للغلال حين أدى تحسين أساليب الزراعة ، والحاجة الملحة للغلال ، الى اقتطاع أرجاء فسيحة من منطقة البرارى الوسطى والبطائح الواقعة على طول الساحل الشرقى .

والروايات القديمة لا تكاد تفرق من حيث التاريخ بين المستعمرات الفينيقية الأولى فى افريقية (المشرفة على البحر المتوسط) وبين المستعمرات الواقعة وراء جبل طارق على الساحل الاسبانى

سعة انتشار الجوابين الفينيقيين

والافريقى . ولعل القدامى كانوا فى هذا محقين . لأنه مادام هذا القسم من الساحل قد اكتشف ، وما دام المكتشفون قد قدروا ما بينه وبين وطنهم السورى من تشابه عام (لأن لهذا الوطن أيضا سلسلتين من الجبال تحصران بينهما حوضا ولكنه ليس فى اتساع أخيه ولا فى جفافه) ما داموا قد عرفوا هذا وقدروه فلم لا يكونون قد ارتادوه كله طولا فى سنوات قليلة . بل ان ندوة الثغور غربى الرأس الأبيض حملت الرواد على الامعان فى الملاحة املا فى العثور على ثغور افضل ، ما دام قد توافر لهم الحذق والدراية بالاستعانة بالنسيم الساحلى الذى يهب بالنهار على التيار الدائم المتجه شرقا ، اذ كان من اليسير اذا وقع لهم حادث أو اذا أخطأوا الحساب ، أن يسوقهم التيار أمامه ويردهم الى وطنهم . اذن فاعتقاد القدامى أن أوتكا Utica الواقعة وعلى مصب بجراداس والتى يحجب الريح عنها رأس بونة ، ولكسوس Sixus عند لاراش Larache جنوبى طنجة ، وقادس القريبة من مصب الوادى الكبير ، كل هذه أسسها الجوابون القادمون من صور بعد عام ١٢٠٠ ق . م . هذا الاعتقاد له فى الغالب ما يبرره ، فتأسيس هذه المستعمرات كان الصدى المباشر الذى انبعث من صور الناهضة من كبوتها كما ذكرنا استجابة للآفاق الجغرافية الجديدة التى كشف عنها الاتصال بالقراة البحريين أو (شعوب البحر) .

والمعتقد ان صيداء قامت مدفوعة بمنافستها القديمة لصور ، فأسست هى الأخرى كامبى



موقع قرطاجة القديمة بجوار خليج تونس

غدت قرطاجة التى أسسها المستعمرون الفينيقيون القادمون من صور تحت امرة ديدو ـ كما تزعم رواية قديمة ـ غدت هذه المدينة قصبة لامبراطورية دان لها حوض البحر المتوسط . وكان لها ميناءان ممتازان خصص الداخلى منهما (ويعرف بكوثون cothon) للسفن الحربية . وفى هذا المنظر الجنوبى الذى يبدو من حصن بيرسا byrsa يظهر مرفأ كوثون المستدير فى الصدر . وكانت الجزيرة يوما من الأيام مقرا لأمير البحر . أما المرفأ الخاص فقد سدته الرواسب (انظر الصورة الأخرى الواردة فى الفصل الرابع والخمسين) .

Campe فى الركن الجنوبى للخليج الذى تقع عليه اوتكا ، ولعله المكان الذى شيدت عليه قرطاجة فيما بعد ، وكذلك أسست احدى المدينتين المعروفتين بـ « هيو Hippo » والواقعتين غربى الرأس الأبيض ، مكان بنزرت وبونه ، أو لعلها اسست المدينتين كلتيهما . على اننا لم نحط علما بالتواريخ المحددة التى أسست فيها هذه المستعمرات الأولى ، ولا بالمعلومات المفصلة عنها . ولم تبدأ الصفحة الجديدة فى تاريخ هذا الاقليم الا بعد ذلك بثلاثة قرون . وذلك أثر قيام الفينيقيين بمغامرة جديدة . وهذه المغامرة كانت كسابقها وثيقة الصلة بمصير صور .

ففى صدر القرن التاسع بدأت أشد الفترة الثانية من فتراتها الثلاث التى شنت فيها غزوات والتى شيدت فيها امبراطورية . وقدمت صور وصيداء وجبيل الولاء لآشور ناصربال الثانى وأدت له الجزية عام ٨٧٦ ق . م . ولشلمنصر السادس فى عامى ٨٤٩ ، ٨٤٦ ق . م .

«ديدو» تؤسس قرطاجة

وذلك حين انسحب فريق الساخطين وعلى رأسهم « اليسا » أخت الملك ، المشهورة باسم ديدو « المهاجرة » أو لعلهم طردوا ، فأسسوا فى افريقية الفينيقية « مدينة جديدة » (قرط — هاد شت) وعرفها اليونان باسم كرشيدون Carchedon والرومان باسم قرطاجة Carthage وكان مكانها يحتله قبل ذلك مستعمرون من صيداء ، ولكن الأسطورة الغريبة التى تقول أن زعيما من الوطنيين وعد بأن يهب ديدو « مساحة من الأرض على قدر ما يغطيه جلد ثور » وان ديدو قطعت الجلد اربا تضم داخلها ما تريده من أرض — هذه الأسطورة تشير الى أن الأمر استلزم تشييد المدينة من جديد . على أنه كان من المعتقد أن « المدينة الجديدة » (قرطاجة) اجتذبت عددا من الوطنيين على حظ متفاوت من الحضارة ، وأنها خططت على نطاق واسع .

والحق أن البقعة التى اختيرت لها بقعة فسيحة ملائمة (انظر الخريطة فى الفصل الرابع والخمسين) . ففى حضن الخليج الكبير المحصور بين الرأسين المذكورين آنفا تمتد عرضا هضبة من التلال المنخفضة مسافة أربعة أميال تقريبا ، ويبلغ ارتفاعها قرب طرفها الشمالى زهاء خمسمائة قدم ، ومائتين قرب طرفها الجنوبى ، ويقع فى داخلها وادى نهر مجرده . وكانت هذه الهضبة فى عصر من العصور جزيرة تبعد نحو ستة أميال عن أقرب أرض صلبة (وهى هضبة اخرى شبيهة بها ولكنها أطول ، تقع وراء تونس) . غير ان هذه الجزيرة اتصلت منذ أمد طويل بباقى القارة بفضل انتشار رواسب نهر مجردة على جانبها . ولما كان النهر يبلغ اليوم البحر على مسيرة بضع أميال من الطرف الغربى فان رواسبه أوفر فى الطرف الشمالى . فتقدم الساحل بفضل هذه الرواسب جنبا لجنب مع الهضبة . ولكنه ترك مساحة كبيرة من البطائح والبحيرات خلفه . ولكن ما زالت توجد فى الجنوب بحيرة تونس الصالحة للملاحة ، وطولها سبعة أميال ، وتمتد من مدينة تونس الى الحاجز الرملى الذى كان يفصلها عن البحر وقت الحصار الرومانى الأخير . والى الغرب من تونس والهضبة الداخلية التى اشرنا اليها ، توجد بحيرة واسعة أخرى . ومن هذا يتضح أنه وان كان البحر لايحيط بالهضبة اليوم الا انها محمية من الجانبين بالبحيرات والبطاح التى لا سبيل الى عبورها ولا يمكن الوصول اليها ، حتى اليوم ، الا من عنق من الأرض الرسوبية يبلغ عرضه ثلاثة أميال ، ولعله كان فى العصور القديمة أشد منه اليوم ضيقا أما الواجهة البحرية فجلها جبلى ما عدا طرفها الجنوبى حيث يوجد ساحل عرضه بضع مئات من الياردات وله جبهة صلبة وسطح مستو — وذلك أمثل مكان يمكن أن يقوم عليه ثغر — وتشرف عليه القمة الوعرة التى فى جنوب الهضبة ، والتى أصبحت قلعة المدينة . ولعل القارئ يجد فى الفصل الرابع والخمسين وصفا أوفى لتلك المدينة العظيمة التى قامت على هذه البقعة .

كانت المستعمرة الجديدة فى موقعها أصلح ما تكون مركزا لنظام تجارى . فالخليج الكبير محمى من الرياح الا ريحا واحدة ، وهو يقع عند ملتقى ساحلى الاقليم ، تربطه المواصلات السهلة بواجهته الشرقية الخصيبة التى قام فيها فيما بعد ثغر الفلال الكبير « هاد روميتوم Hadrumetum » وباقليم النخيل المحيط بقابس جنوبا ، وبطرق القوافل فى الصحراء الكبرى وراء اقليم الشطوط . وكان حوض مجردة العريض طريقا طبيعيا الى الهضبة الوسطى ، وكان له

وديان فرعية تتخلل المرتفعات على الجانبين . وكان بالاقليم العدد العديد من المقاتلين اذا مست الحاجة اليهم وهم البربر أجداد المشاة الجزائرين Zouares ، وكذلك به ما يلزم فرق الفرسان السريعة من الجياد البربرية الخفيفة التى تسكن البرارى . وكان الاقليم عامرا بالغابات الكثيرة التى تلزم لبناء السفن ، حافلا بمناجم النحاس فى التلال ، متصلا صلة غير مباشرة — عبر الصحارى الجنوبية — بالأرض المتاوحة لساحل الذهب ، ومن هناك ترامت الى هيرودوت رواية قصها رحاله عن اشاعة وجود التبر هناك وعن قيام تجارة قرطاجة .

وكان طبيعيا أن تتولد الغيرة بين قرطاجة والمستعمرات السابقة لها ، وكانت العلاقة بينها وبين أوتكا هيو ريجيوس Hippo Regius فى الفترة الأخيرة — على أحسن تقدير — علاقة الصداقة الفاترة .

المنافسة بين قرطاجة ومن سبقها من مستعمرين

وكانت هذه المستعمرات تعين العدو أحيانا ، وظلت روما تكافئها على هذه المعونة حينا من الزمان . ولكن فيما عدا ذلك ، يمكن القول بأن عهد الثراء والرخاء الذى كانت ترفل فيه هذه المستعمرات كان قد ولى ، واذا ذكر الكتاب الاغريقى الغرب الفينيقى عنوا به قرطاجة ومستعمراتها ، وعنوا به امبراطورية افريقية بلغت مساحة أرض الوطن فيها ضعفى مساحة ويلز وشملت من الثغور والمحطات ما كان يمتد شرقا حتى حدود برقة الاغريقية وراء المنطقة الكبرى للرمال الرخوة ، وغربا حتى ساحل مراكش ، وكان لها عمال من رؤساء القبائل الوطنية التى عرفها الرومانبالقبائل «النوميدية»—أعنى بدو الهضبة المشتغلين بتربية الخيل . اما ما قام من علاقات بين قرطاجة ومستعمرة قادش القديمة على الساحل الاسبانى وراء جبل طارق فعلمنا به أقل ، ولعل السبب هو أن هذه العلاقة كانت أيسر من تلك التى قامت بين القرطاجيين وأبناء عمومتهم الملاصقين لهم .

واذا صح تاريخ تأسيس قرطاجة كما تواترت به الروايات ، كان معنى ذلك أن فترة تناهز قرنا من الزمان قد انقضت قبل أن يؤسس الاغريق أولى مستعمراتهم فى صقلية (سرقوسةوناكسوس) حوالىعام ٧٣٥ ق.م. على أنلدينا منالأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأن الاستعمار الفينيقى فى هذه الجزيرة لم يسبق الاستعمار الاغريقى بزمن مديد . فقد جد من الدواعى الوجيهة ما حمل افواجا جديدة من المهاجرين على المهاجرة من صور وغيرها من مدن الوطن الفينيقى حوالى هذا التاريخ . ذلك أن الغزوة الأشورية الثالثة (وهى أوسع غزواتها) ، هذه الغزوة التى بدأت باعتلاء تغلث فيلاصر Tigleth-Pileser العرش عام ٧٤٥ ؛ بلغت الساحل الفينيقى عام ٧٤١ واقتضت صور اتاوة باهظة فى ذلك العام ، وفى عامى ٧٣٤ و ٧٢٥ . صحيح كانت توجد قبل ذلك — فيما يبدو — محطات تجارية فى مواضع عديدة من صقلية احتلها الاغريق فيما بعد ، ولكن المدن الفينيقية المستقرة التى قامت فى غرب الجزيرة — وهى موتيا وسولوبس وپانورمس — كانت أهم واخطر شأنا ، ويلوح من موقعها أنها كانت عناصر من خطة للاستغلال محكمة تدار من القاعدة القرطاجية .

ولكن هناك سببا آخر دعا الى احكام تبعية غرب صقلية للنظام الفينيقى ، فى حين وقع باقى الجزيرة بسهولة تحت نفوذ الاغريق . فالفوارق بين غربى الجزيرة وباقيها لا تقتصر على كون

الفينيقيون فى صقلية

الغرب أوعر واجدب — فيما عدا قليل من سهوله الساحلية المنعزلة :— وانما تتجاوز ذلك الى خلاف بين الوطنيين من السكان ، فأهل الغرب — فى اعتقاد القدماء — أقرب صلة بأهل اسپانيا ، وهم قليلو التأثر بغزوات القبائل الايطالية الأصل التى وفدت مرارا على الجزيرة مجتازة مضيق مسينا . وانك لتلحظ الفرق فى اتجاه الفريقين وحظهما فى القرون الوسطى ، حين استعرب غرب الجزيرة مبكرا ، وظل محتفظا بصفته العربية أمدا طويلا ، أما الشرق فلم يقطع اتصاله البتة بالتقاليد المسيحية والرومانية . أضف الى ذلك أن العامل الحاسم فى مصير الجزيرة كلها — سواء فى العصر الوسيط أو القديم — كان امتلاك الحصون الغربية لاسيما پانورمس Panormus (پلرمو) بمينائها الأمين وسهلها العظيم الخصوبة (conchad'oro)

وعلى ذلك فان الاستعمار الاغريقى — بعد أن انتشر انتشارا سريعا متصلا فى الفترة بين

عامی ٧٣٥ و ٥٨٠ ق . م . تقريبا — صد فجاءة حين بلغ هـذا الاقليم الغـربى من صـقلية ، كما صد من قبل فى ايطاليا حين اصطدم بالحكم الاتروى .

ولكن الفوقيين Phocaeans الذين سلكوا الى الغرب البعيد طريقا آخر ، صاعدين مع الساحل القورشيقى ، مجتازين بذلك أملاك الاترورين . وبالغين ميدانا فسيحا للتجارة اتخذوا لهمساليا قاعدة كبرى ، أى المحطات التجارية (امبوريا) مركزا اماميـا على مصب ابره ، وكان لهم فى ساجنتوم Saguntum (بعد مصب ابرة بقليل) مدينة حليفة ، ولعل هذه المدينة كانت هيلينية الصبغـة من بعض الوجـوه — هـؤلاء الرواد الفينيقيون الشجعـان أنفسهم اتصلوا بالبـلد الواقع فى جنوب اسبانيا والذى سماه الاغريق تارتسوس Tartessus ، متجنبين المرور بالاقليم الفينيقى فى صقلية ، واحتكروا تجارته وصداقته من حوالى عام ٦٠٠ ق . م . الى أن قضى الفرس على فوقية نفسها (حوالى عام ٥٤٠ ق . م .) .

ولسـنا نعرف على التحديد ما كان يشمله لفظ تارتسوس ، ومن المؤكد أنه كان هناك ثغر وسوق للتجارة يقوم وراء مضيق جبل طارق — ولكنه لا يبلغ بعد قادس — فى أرض شعب حليف لعله هو الذى عرفه الرومـان بعـد ذلك بالتورديتانى Turditani

تارتسوس وجزائر القصدير

ولكن هذا الثغر كان محطة تجارية لا مستعمرة ، ولسـنا نعرف اليـوم حتى مكانه . وكانت تارتسوس هذه — كقادس — طريقا الى الثروة المعدنية العظيمة التى يزخر بها الاقليم الجبلى القائم على جانبى الوادى العريض الذى كونه نهر الوادى الكبير ، ومنفذا للطرق التى تقطع الوادى ميممة صوب الأقاليم الأخرى الفنيـة بمناجمها . ولعلهـا كانت كقادس أيضا قاعدة لحملات تسير على طول الساحل الأطلسى ، وكان المعتقد أن هـذه الجزائر المشهورة باسم « جزائر القصدير Tin Islands » وكانت توجد فى بقعة فى هذا الاتجاه . وليس من السهل أن نحـدد موقعهـا الآن ، أهو سكيليز Scillies أو سـاحل برتون Breton الوعر أو الصـخور والشعاب المواجهة لفينستير Finisterre ، فقد كان الرواد الأقـدمون أحفـل بالاحتـكار منهم بالاعلان عن كشوفهم ، ولم تتغير هـذه الحال الا فى جيل الاسكندر الأكبر ، حين أذاعت البعثة العلميـة التى يراسـها بيثياس Pytheas المسالى ما كان معروفا عن الغرب البعيد فسدت بذلك أهم ثغرات فى معلومات اليونان .

اذن فقد كان للفينيقيين بعض السبق على الساحل الأطلسى كما كان لهم فى صقلية ، ولكنهم حين اشتد ساعد الاستعمار الاغريقى ، أخذوا يفقدون باطراد ميزات هذا السبق ، واضطروا الى البحث عن ميـادين جـديدة لتجـارتهم فى أصقاع نائية .

كان هناك ميدانان من هذه الميادين فى انتظارهم بلا ريب ، أحدهما ق سردانية والثانى على ساحل افريقية الغربى . فأما سردانية فقوامها اقليمان ، أحدهما قبة بيضية الشكل مترامية الأطراف يتألف من الصـخور القديمة وأرض الغـابات الوعرة ، أرضـه وافرة المـاء لاحاطة البحر به ولارتفاعه الشاهق ، وهو الى ذلك غنى بالمعادن ؛ وثانى الاقليمين هضبة أصغر من سابقتها تقوم برأسها ناحية الجنوب الغربى ، ويصلها بالهضبة الكبرى منخفض من الأرض خصب ، هو أحدث بنية وأهش تربة . كان الرحالة القادمون من شرق البحر المتوسط يلمون منذ القدم بالجزيرة من حين الى حين ، ولكن الفينيقيين لم يحتلوها الا حوالى سنة ٦٠٠ ق . م . ، وكان لهم فيها مدينة مستقرة ذات مقابر حافلة بأدوات الزينة الشرقية ، هى مدينة ثاروس Tharros التى تقوم على الساحل الشرقى للسهل المنخفض . ولم يكن للفينيقيين منافسون من الاغريق هنا ، ولو أن جماعـة من المستعمرين حطـوا رحالهم مرة فى كوماى بكمپانيا،زاعمين أنهم «سلالة أصحاب هرقل» ، وأنهم كانوا قـد استوطنوا سردانية ثم طردوا منها آنئذ . وكم من مرة داعب هذا المشروع العظيم — مشروع « استعمار سردانية ، أعظم الجزائر قاطبة » خيال الساسة فى القرن السـادس ، وذلك بعـد سـقوط سارديس سـنة ٥٤٦ ق . م . وابان الثورة الايونبوية على فارس بين عامى ٥٠٠ و ٤٩٤ ؛ ولكن يبدو أن هذه الأحلام لم تتمخض عن نتيجة ما ، وظلت سردانيـة وقفـا على الفينيقيين حتى سلمت للرومان فى ٢٣٨ ق . م . أما بقية أجزاء سردانية فيبدو أن فينيقيى ثاروس لم يعبأوا بها كثيرا ،

وان كان من الجائز أنهم استكشفوا معادنها مستخدمين الأهالى فى ذلك . وأما فى قورشقة فقد سبقهم الفوقيون نهائيا ، وأسسوا فى صدر القرن السادس مستعمرتهم المسماة آلاليا .

لم يسترع استغلال الفينيقيين لأفريقية ما استرعاه استغلالهم السواحل الاوربية من انتباه ، واهم سبب فى ذلك هو ان هذا الميدان الافريقى كان خلوا من الاغريق سواء منهم التسهود أو المتنافسون .

استغلال افريقية

والرحلة المشهورة التى طاف فيها الفينيقيون بافريقية بحرا فى أواخر القرن السابع ــ بتكليف من الفرعون نخاو ــ هذه الرحلة بدأت من الشاطىء الشرقى ، ولعلها نظمت فى صور ، وقد حققت غرضها فى السنة الثالثة فى رواية هيرودوت ، وقفلت راجعة الى مصر عن طريق مضيق جبل طارق . ولم تكن هذه الرحلة الا من قبيل الارتياد ، أما حديث التجارة الفينيقية فى البحر الأحمر والمحيط الهندى فلا يعنينا فى هذا الفصل ، بيد أن رحلة هانو Hanno القرطاجى (حوالى ٥٠٠ ق . م .) كانت مغامرة غربية خالصة ، وقد أقيم فى اهم معابد قرطاجة سجل بما حققه من كشوف . ويلوح انه من المؤكد أن هانو وصل رأس بلماس Palmas ، حيث ينعطف الساحل شرقا فى خليج غانة ، وأنه اقتنص بعض «النسوة المتسعرات » ، اللائى سماهن المرجمون بالغوريلات .

أما الرحلة التى قام بها ساتاسبيس Sataspes الفارسى فى نحو ذلك التاريخ فالراجح أنها تمت بمساعدة القرطاجيين . ويظن أنه وصل الى ابعد مما وصل هانو بقليل لأن رجوعه علل بأن « السفينة ابت أن تواصل رحلتها الى الأمام » ، ومعروف ان تيار بنغويلا المضاد لا يقوم عقبة فى سبيل السفن الا بعد اجتيازها مصب الكونغو . ولكن يبدو أنه لم تكن هناك مستعمرات فى غربى افريقية لا فى الساحل المديم الموانى ، ولا فى جزائر الغرب التى سمع بخيرها جغرافيو اليونان انفسهم ، واشد من هذا خفاء وغموضا ما كان للقرطاجيين من تجارة للقوافل عبر الصحراء الكبرى ، ولابد أنها كانت تجارة غير مقترنة باستعمار هذه الأقاليم؛ذلك لأن التجارة عبر الصحراء الكبرى تسير فى طريقين متميزين تفصلهما الهضبة الحمراء الواسعة المحلة . فأما الطريق الشرقى المار بفزان الى بحيرة تشاد ونهر بنوى فلدينا عنه بعض العلم من المصادر الاغريقية ، وذلك لأن هذا الطريق كان يمكن الوصول اليه من قورينه Cyrene وبرقة ، وهما المستعمرتان الاغريقيتان الواقعتان الى الجنوب مباشرة من بلاد اليونان . وأما الطريق الغربى الذى يسلك غدامس وراط Rhat الى سكوتو Sokoto والنيجر الأوسط ، فقد كانت تسيطر عليه قرطاجة سيطرة تامة ، ولا يبدأ علمنا به الا فى عهد الرومان على أن اهتمام القرطاجيين بطريق القوافل الشرقى أيضا واضح من تلك الدعوى التى نجحوا فيها ، ونعنى بسطهم الحماية على الساحل الواقع بين منطقتى الرمال الرخوة ، وهو ساحل صالح للسكنى ، ينمو به النخيل ، وحول فى النهاية الى مزارع لاستخراج الزيت ــ ذلك الساحل الذى عرف فيما بعد « بالمدن الثلاث » (طرابلس) ، ولكنه كان يعرف فى القرن الخامس بساحل المخازن والمحطات التجارية (امپوريا Emporia) .

ولما حاول دوريوس Dorieus أمير اسپرطة أن يؤسس مستعمرة هناك على نهر سنيپس Cinyps حوالىسنة ٥١٥ ق·م · اخفق فى ذلك لما كان بين الليبيين والفينيقيين من صلة وثيقة العرى . والواقع انه حاول بعد فوات الفرصة أن يقوم بما قام به غيره بنجاح قبل

اخفاق الاغريق فى ليبيا

ذلك بقرن أو يزيد فى قورينة ــ تلك المستعمرة التى لم يبق بها من شاهد على وجود الفينيقيين بها اطلاقا الا اسم « برقة » . أما أن الحملة كانت أهم شأنا من غارات القراصنة . فراجع من انحاء جيلون Gelon حاكم سرقوسة باللوم على الاسبرطيين فى عام ٤٨٠ ق . م . لتخليهم عنه حين « حاول أن يستعيد ساحل المخازن » ، على ان هذه القصة الخرافية التى تقص نبأ السباق الذى قام به العداءون لوضع حدود عادلة عند « مذابح الفليلينى Altars of Philaeni فى الأرض المشاع الواقعة خلف « المنطقة العظمى للرمال الرخوة » ــ هذه القصة انما تنطوى خلفها حقيقة هى أن المغامرين كفوا عن دعواهم فى ملكية « المدن الثلاث » ، فأصبح من واجب روما ــ بعد الحرب البونية الثانية ــ أن تفتح هذا الاقليم للتجار الأوربيين .

وهكذا بدأت تصطدم مصالح الاغريق والقرطاجيين فى جميع الميادين الهامة حول غربى البحر المتوسط — فى طرابلس وجنوب اسبانيا ، بين سردانية وقورشقه ، وفى صقلية على الأخص — وزاد من حدة هذا الاصطدام ما كان من خلاف بين أساليب هذين الشعبين وأهدافهما .

الصدام بين الاغريق والقرطاجيين

وفى الأقوال السائرة أنه بينما كان الاغريق فى مستعمراتهم متوطنين ، يشتغلون بالزراعة على الأخص ، ويقصون بنتيجة لذلك الوطنيين عن أرضهم أو يستغرقونهم . وكان الفينيقيون ينصرفون الى التجارة انصرافا تاما ويتركون الوطنيين وشأنهم ، فلا هم يمسونهم بسوء ولا هم يعلمونهم الحضارة . على أن هذا لا يفسر جميع الحقائق تفسيرا تاما . فمما لا شك فيه أن أقدم المراكز الفينيقية فى الغرب وأهمها كانت « دول المدن » ، على غرار ما ألف الفينيقيون فى وطنهم ، وكذلك يصفها الاغريق دائما حين يعرضون للحديث عنها . فنرى أرسطو مثلا يسلك قرطاجة فى المدن التى عددها فى دراسته المقارنة للدساتير السياسية . وكذلك كانت المدن الاغريقية تبرم اتفاقات نافذة من الأمراء والقبائل الوطنية — شأنها فى ذلك شأن المدن الفينيقية . وكانت هذه الاتفاقات تنطوى احيانا على مودة وثيقة . ففى برقة منح الجيران الليبيون نفس حقوق المواطنين هم والوافدون من المدن الاغريقية الأخرى سواء بسواء ، وكان فى سيباريس Sybaris وسرقوسة وتارنتم أتباع من الوطنيين تحت حماية الجالية الاغريقية . بيد أن المدن الفينيقية فى الوطن الفينيقى — وإن بسطت يدها على أملاك تقع وراء حدود أسوارها أو جزائرها القريبة من البحر — لم تبسطها بسطا ثابتا دائما ، ولم تبسطها الا فى النطاق الضيق الذى تتيحه وعورة الأقاليم الواقعة خلفها . ثم ان المدن الفينيقية كانت قد خاضت منذ أمد بعيد غمار ذلك الانقلاب الاقتصادى الذى لم تكن تعرفه مدن اغريقية كثيرة ، والذى ما زالت تجوزه بعض الدول فى عصرنا الحديث ، والذى ينجم عنه التخلى عن نظام الاستكفاء الذاتى البدائى والاستعاضة عنه بنظام أرقى يقوم على تبادل الجماعات المستقلة سياسيا لمنتجاتها التى اختصت بها .

وكان هذا التبادل يتفاوت من حيث الدرجة ، وكان رهنا بالظروف المحلية قبل كل شىء ، وهى ظروف متباينة أشد التباين . فكانت صيداء مشهورة بالفعل — فى أيام هومر — بالحلى والمصنوعات الفضية والبرنزية . أما أتيكا فلم تكف عن الحرب الا لتزرع قمحها . وقد تخصصت فى استخراج زيت الزيتون فى القرن السادس ، ولم تستقر صناعة الفخار البووطى Boeotian الا فى نهاية القرن الخامس حين استعانت فى انتاجها بالعمال الاتيكيين الذين اضطربت أحوالهم بفعل حرب طاحنة . وكانت بعض المدن ككورنثة وأثينا فيما بعد ترحب بالصناع الأجانب وتدخلهم فى زمرة صناعها بل كانت تعد الرق تدريبا اجباريا للارتقاء على أسلوبها فى العيش فى هذه الناحية نلمس ذلك الفرق الخطير بين دول المدن الفينيقية وبين بعض المدن الاغريقية التى بذلت قصارى الجهد لتجعل من الحضارة الاغريقية هذه القوة التى عرفها العالم .

المجتمع الرأسمالى فى المدن الفينيقية

وقد ظلت المدن الفينيقية سواء فى سوريا او فى الغرب وقفا على أعضائها الفينيقيين ؛ شأنها فى ذلك شأن تلك المدن الاغريقية التى درجت على قصر امتياز الرعوية الكاملة على أبنائها « الأحرار المولد » واحتفظت لهذه الدائرة الضيقة من عشائرها الفينيقية المتحدة . بفرص الثراء ، وظلت هذه المدن « استقراطيات » على أحسن الفروض ، وكانت فى الغالب تمقراطيات Timocracies (وهو اسم أطلقه الاغريق على ألوان شتى من حكم الأقلية الذى تتكاثر فيه الامتيازات السياسية بتكاثر الثروة) . لقد كانت المدن الفينيقية مجتمعات رأسمالية ، بمعنى أن أول هم لأعضائها كان الاحتفاظ بثروتهم ورصيدهم من السلع الثمينة ، والاستكثار منها كلما سنحت الفرص ، والابقاء على النظم التى جمعت هذه السلع فى كنفها . ونتج عن ذلك نوع من الفضائل والآداب العامة — والخاصة أيضا — تبرر الغاية فيها الواسطة . وفى ذلك يقول بوليبيوس « ان الناس فى قرطاجة يلومون غنيا على الأساليب التى جمع بها ماله أيا كانت » وكان المواطنون فى هذه المدن مساهمين بالوراثة فى مشروع اقتصادى تعاونى ، وكان الهدف المرسوم لهم ، والذى يدربون على تحقيقه ، هو أن ينظروا الى

الشـئون العـامة نظرة « تجارية » . وخـير ما يوضـح هـذا تصريفهم شـئون الحرب (وهو ودستورهم موضـوع بحث الفصـل الرابع والخمسين) .

فى مثل هذه المدن كان الحى التجارى ، وكانت شؤون التجارة والشحن فى المراكب هى كل شىء ، اما الريف فلم يعبأوا به الا قليلا ، ويكفى أن تأتى محاصيله بثمن طيب فى أسواق المدينة وكانت

فنون الفراغ المهملة

الزراعة فى قرطاجة ــ كالحرب ــ فرعا ملحقا «بالمشروعات التجارية الكبرى» تصرف شـؤونه على اسس اقتصادية بالاستعانة بكافة الخبراء ويجد القارىء فى الفصل الرابع والخمسين الدليل على نجاح القرطاجيين فى بلوغ اهداف هذه السياسة . وانك لتجد لاخفاق المدن الفينيقية فى النهوض بفنون الفراغ تفسيرا كافيا فيما كان لمهنة التجارة عندهم من فتنة دائمة ، وفيما دأبوا عليه من سعى لا ينقطع فى سبيل اقتناء الثروة على نطاق قومى .

وكذلك ولد وشب هـذا الخصم الثانى من خصوم المستعمرين الاغريق ، وهو خصم كان ألد عداء وأكثر مناوأة لهم حتى من الاترورين انفسهم أثناء ازدياد العمران فى العالم الغربى . اما ما كان لهـذا الشعب من نظام اجتمـاعى ، وما حقق من أعمال وأما سفانه وامبراطوريته ، فتفصيل ذلك كله فى موضـع آخر من هـذا الكتـاب . ولا غرابة أن نجد هـذين الشعبين ــالقرطاجيين والاتروريين ــ يجعلان من عدائهما المشترك للاغريق أساسـا للصداقـة الوثيقـة بينهما . وكانت هنـاك أسباب اخرى تحمـل الشعبين على هـذا التعـاون ، فثروة اتروريا المعدنية وتجارتها فى الكهرمان من ناحية ، وقمح قرطاجة وخيولها ومنسوجاتها وتمائمها الشرقية من ناحية أخرى ، كلها موارد تكمل بعضها بعضا . وكانت الثغور الاترورية مسالك مستقيمة الى جبال الألب وما وراءها ، فلما بسط الاتروريون نفوذهم جنـوبا ازدادت المـوانىء الحليفـة ، وضـاقت الأقطـار المفتوحـة أمام منافسيهم الاغريق ، وكثرت العقبات فى سبيل رحـلات الفوقيين الطويلة من مضيق مسينا والبـلاد المحيطة بالرون وابره . ويلوح أن الطريق المؤدى رأسا الى تارتسوس اغلق على عجل (ولعل ذلك قد تلا تدمير الفرس لفوقية نفسها ، وتدمير الاتروريين للألاليا) وذلك نتيجة لما جرى عليه القرطاجيين من اغراق جميع السفن الأجنبية بين سردانية واعمدة هرقل . اما الى الشرق من سردانية فلعل هذه المهمة نيطت بالاتروريين .

الفصل التاسع والثلاثون

المثل العليا اليونانية وخصائص الشرق
الانقسام الكبير

دراسة للعوامل التي اقامت حاجزا عقليا بين الرجل الغربي والرجل الشرقي

بقلم و . أ . ل كوبلاند W.O.L. Copeland

المحرر المساعد لتاريخ العالم

لم تكد تظهر تباشير الصباح فى اليوم الثالث والعشرين من شهر من شهور سبتمبر حتى تعالت جلبة مجاذيف وضوضاء وأهازيج من وراء لسان من الأرض بارز داخل بوغاز من الماء الأزرق تعلوه الأمواج وتحيط به الأرض من كل الجهات . وعندئذ اصطفت سفن من ذوات الطبقات الثلاث صفا طويلا ، دانية من حيازيم اسطول يراقبها فى لهفة وشوق ، وقد وثب بحارته الى مقاعد المجاذيف ، وشقوا طريقهم الى الأمام فى مضيق قلب غدار ، وتحولت تلك السفن لمواجهة محاصريها ، ثم اضطربت وعادت القهقرى كأنما تهم بالفرار .

لقد كان ذلك مكيدة هائلة دبرها المدافعون ، فقد وقع المهاجمون بين براثن صف السفن المدافعة فتفرق شملهم واصطدم بعضهم بالبعض الآخر ، فتقاذفت سفنهم اللجج ونطحتها سفن المحاربين او علتها . نعم قد افلت منها الكثير ، ولكن الذى أفلت كان اقلها شأنا ، وكانت تلك الكارثة هى القاضية . وتناثرت الأشلاء فى الماء . وقد استطاع احد قادة المشاة المسمى ارستيديس أن يلجأ الى جزيرة صغيرة فى وسط المضيق ، وأن يقضى على حامية العدو فيها وبذلك ذاق المنتصرون طعم الراحة لأول مرة فى حملة مضنية دامت عدة شهور ، وبذلك تقرر مصير قارة بأسرها .

وأما يوريبياديز الذى تولى قيادة الاسطول فكان فيما نظن غير أهل للاضطلاع بمنصب أمير البحر ، بحكم النظام الذى كان معمولا به فى وطنه البرى ، ولكنه كان بلا شك أهلا للقيادة بحكم مرانه الطويل، ولذلك لم يكن تموستوكليس ينظر اليه فى مجالسه نظرة احتقار . وكان تموستوكليس نفسه فى الجناح الآخر على رأس فرقة كبيرة جدا ، وكان من قواده أمنياس، وهو أول من أراق الدماء فى الحرب وأخوه أسخيليوس وهو اشهر منه — وقد أبلى بلاء حسنا فيها ، فيما تلا ذلك من السنين . وفيما بين هذين كان رجال ايجينا يفوقون كل من عداهم بسالة واقداما .

ان هذه الأسماء مألوفة لنا ، وطالما ترددت على اسماعنا لأنها أسماء أولئك الاغريق الذين حاربوا الفرس وهزموهم فى أشهر المعارك البحرية فى التاريخ ، اعنى معركة سلاميس . ولقد دونت سير حياتهم مجملة ، بل رويت عنهم حكايات صغيرة ، وكل سيرة من هذه السير تخص شخصا بعينه يسهل على الخيال تصوره . وعلى الرغم من طول الزمن الذى يفصل بيننا وبينهم والذى يقرب من الفين ونصف الألف من السنين فاننا نحس بأن بيننا وبينهم وشائج من القربى تصل ما انقطع من السنين .

تلك حالهم وذلك شأنهم ، فما شأن أعدائهم الذين كان الاغريق يحتقرونهم ويصمونهم بالبربرية ويشبهونهم بالقردة يرطنون بين أمراس السفن؟ ان هؤلاء الأعداء هم الفينيقيون الذين كانوا فى قول أسخيلوس يقرعون ويمزقون

محنة سلاميس

بأطراف المجاذيف المحطمة ،
كالسمك يضطرب فى الشبكة؛

ثم المصريون (وهم قوم لهم علوم عجيبة تحمل المرء على احترامهم) الذين وقفوا بعيدا يحرسون المدخل الأقصى للبوغاز . اننا نعرف أسماء قادة

البحار عندهم ؛ وقد دون هيرودوت أعمال قائدين من قواد الحلفاء الايونيويين ، ولكننا نستطيع أن نقول على وجه الاجمال أن أسطول الملك الأكبر اكزرسيس ، هذا الأسطول الضخم، لم يجد مؤرخا يدون أخباره ؛ وكل ما لدينا من الأسماء قليل ، ولكنها فى نظرنا أسماء على غير مسميات .

هذا اذن هو أول شيء يجب الا يغرب عن البال عند البحث فى مغزى ذلك الصراع البعيد الذى دار بين الاغريق والفرس ، وفى المسائل الروحية والعقلية التى ينطوى عليها ، والتى كانت سلاميس — وهى المعركة الحاسمة وان لم تكن الأخيرة فى هذا الصراع — أصدق مظاهرة . ولا نقتصر الصلة التى بيننا نحن معشر الباحثين أى أصحاب الحضارة الغربية جميعا ، وبين الاغريق على التراث الذى خلفوه لنا ، بل هم قد تركوا لنا أيضا أدبا ينبض بالوعى والشعور . أما آثار الشرق التى بدأ الناس يشعرون بأنها مقابلة لآثار الغرب فهى آثار دخيله جامدة من بعض الوجوه ، لأنها لا تعبر عما يجيش فى نفوس أصحابها . وهذا القول يفصح عن نزوة من نزوات الهوى والتحيز يجب التخلص منها منذ البداية .

يضاف الى ذلك أن اليونان على الرغم من كل ما اتصفوا به من تعقد فى تركيب طبائعهم ، وتعدد جوانبهم ، كانت أمة صغيرة متجانسة بالقياس الى الخليط الكبير من الأمم التى هى واحدة منها ؛ مثلها مثل الحصاة الصغيرة المتجانسة تلتقطها من شاطىء ممتد مليء بالحصباء المختلفة الأشكال والأنواع ، وتستطيع أن تقلبها فى يديك لحظة ، فى حين أن خصائص الشرق كما سنرى مثلها مثل قبضة من التراب بين أصابع اليد لا تكاد تقبض عليها حتى تفلت من بين أصابعك . وذلك أن اكزرسيس جمع رجاله من كافة الشعوب الشرقية القائمة بين النيل والسند ليشتركوا فى حرب الشرق الكبرى مع الاغريق . الا أننا نتساءل : أى هذه الشعوب يعد موطنا ومقرا للمدنية الشرقية ؟ أشعب واحد منها ، أم كلها على حد سواء ، أو كل واحد منها بالقدر الذى يناسبه ؟

ولا يخلو الحال من أمرين : فاما أن يكون العقل الانسانى الكلى قد انطوى على خلاف محدد متأصل بين الشيء والشيء ، أو أن الجنس البشرى قد حمل نفسه على الأقل على الاقتناع بقيام هذا الخلاف . وان حوادث هذه الفترة وحوادث التاريخ كلها التى تلتها لتثبت لنا الشيء الكثير . وفى كلتا الحالتين يهمنا بصفة خاصة أن نبحث عن الأسباب التى دعت الى هذا الاعتقاد، نظرا لأن العالم اليوم مضطر الى محاولة انشاء علاقات جديدة فى عصر تكافل فيه أجزاء العالم بعضها ببعض تكافلا لم يسبق له مثيل ، ولاسيما أننا ، ونحن فى بداية البحث ، نرانا مضطرين الى الاعتراف بأن أحد هذين الشيئين يصعب تعريفه وتحديده . ولكن مما لاشك فيه أن الغرب ، وهو المقابل المنطقى للشرق ، كان يصعب تعريفه وتحديده كذلك ، لولا أن الاجماع قد انعقد بين أهل الغرب على أن جنسا واحدا من الأجناس ، وهم الاغريق ، هو أصدق مثل على الروح الغربية ، بل هو أسمى مثل لها . وهذه قضية لا يمكن بحثها فى هذا المقام ، وقد تناولناها فى الفصل الخامس والخمسين .

انشعاب تفكير العالم

ويلاحظ أن الناس كعادتهم قد اصطنعوا مصطلحات جغرافية مناسبة للأمور التى لا يجدون صعوبة فى فهمها . على أن القصور الواضح الذى يكتنف اقامة حد تعسفى بين الشرق والغرب يجب ألا يحجب عنا ما يحتمل من أن هذين المصطلحين يدلان على تفرقة صحيحة بينهما . وخير الفرص التى تتهيأ لنا عند بحث حقيقة هذا الأمر تتأتى من الرجوع بأدراج الزمن الى منشأ الخلاف بقدر ما تسمح لنا مادة هذا البحث ، أى الى العهد الذى بلغت فيه عبقرية اليونان أوجها .

أما وقد سلمنا بأن الموقع الجغرافى لا يكفى فى الكشف عن روح الشرق ، فيحق لنا أن نتساءل عما اذا كان الخلاف بين الشرق والغرب يرجع الى مسألة الجنس ؟ ان الفريجيين يمثلون فى نظر الاغريق الروح الشرقية حق التمثيل ، وكان من الجلى أنهم ينتمون الى نفس السلالة التى ينتمى اليها الاغريق ، وكان كلاهما يعيش فى أقاليم معرضة لتسلل الأجناس نفسها ، ذات الجباه العريضة ، تلك الأجناس التى تسربت الى أحدهما من القسم البلقانى من المنطقة الجبلية ، وتسربت الى الآخر من هضبة الأناضول . فهل مرد الخلاف الى اللغة ؟ .

ان الفرس والاغريق كلاهما يتكلمان لغة هندية أوربية ، فهل يرجع الخلاف الى الدين ؟ لقد كان الدين الذى اعتنقه الاغريق اخيرا وصاغوه للعالم الغربى دينا ساميا . فهل يرجع الخلاف الى البيئة ؟ نعم . ولا محالة من ذلك ؛ ولكن أى ناحية من نواحى النشاط الانسانى لا تنطبق عليها هذه الكلمة المطاطة ؟ او هل يجوز أن يقال ان كل هذه الآراء ضرب من الأوهام ؟ ومهما تكن النتيجة التى ننتهى اليها فيجب ان نضع نصب أعيننا هذا الاحتمال الأخير ، لأنه يصحح ما يصيبنا من هوى وتحيز . وليس لدينا الا أساس واحد يجب أن نستند اليه فى ذلك ، الا وهو بلاد اليونان . وقبل ان نكشف الستار عن الروح الشرقية يحسن بنا أن ننظر الى العالم برهة من الزمان بأعين الاغريق أنفسهم . ثم نستمر فى الموازنة ، وفى رفض ما نرفضه ، لنرى اذا كانت بقية شعوب العالم تباين اليونان مباينة تكفى للقول بأن لها أسلوبا فى التفكير قائما بذاته .

ويجب أن نبادر الى القول بانه لو اتيح لنا ان نسأل يونانيا ، قبل أيام سقراط على الأقل ، عن مثله العليا ، لكاد يتعذر عليه فهم ما نقول ؛ أو قل ، اذا شئت الدقة فى التعبير ؛ انه ليصعب علينا انتقاء الكلمات اليونانية التى تعبر عما نقصده تعبيرا سليما . حقا ان هذه الكلمة نفسها يونانية (فى لباس لاتينى) ؛ ولكن أفلاطون ، وهو أول رجل تمخضت قريحته عن هذه السلسلة من الأفكار ، لم يكن مثالا صادقا للرجل اليونانى ؛ وقد طرأ على هذه الأفكار كثير من التغيير منذ أيامه الى الآن . واذا صرفنا النظر عن المعانى الدارجة لهذه الكلمة لوجدنا أنها تعنى فى الحقيقة الكمال الذى لا يمكن الوصول اليه ؛ ويعيننا الجناس اللفظى فى هذا السبيل فنجد أن كلمة Ideal تقابل كلمة Real مقابلة لاشك فيها ، ولاشك فى أن الاغريقى كان يرى أنه مامن صفة من الصفات العقلية والجسمية يجدر به أن يسعى لتحصيلها الا وهى موجودة فى الطبيعة البشرية بالفطرة ، ويستطيع الانسان اكتسابها على خير وجه ، فقد كانت المسألة اذن هى أن يستخدم اليونان الطاقة البشرية المهيأة له على أحسن الصور ، فيوالى هذه الطاقة بالتشجيع حينا

المثل العليا ومعناها

وبالتسامى حينا آخر ، أو يختط طريقا وسطا بين هذا وذاك . فاذا عرض رجل من أهل الغرب المحدثين الفضائل التى يحضه دينه على اتباعها فان الاغريقى قد يمتدح بعضها ويتشكك فى بعضها ويعترض على البعض الآخر بأنه مخالف للطبيعة البشرية ، أما فكرة الخطيئة المتأصلة فى نفس الانسان ، والتى لا تمحوها الا رحمة الله فحسب فهى فكرة ينفر منها الاغريقى . أو هو لا يهضمها . ولكن يحسن بنا هنا ان نقف قليلا ، فلعل هذا الاغريقى كان فيثاغوريا ، ذلك أن انصراف هذا المذهب الفلسفى الى الرياضة كان سببا فى انتشار فكرة الخط التقربى (أى المماس فيما لا نهاية) ؛ والظاهر أن أشد أتباع هذه الفكرة تدينا قد طبقوها على القول بأن الناسوت يقترب من اللاهوت ولا يلتقى به أبدا ، وذلك عند تعرضهم لنظرية مشابهة كل المشابهة لنظرية الخطيئة الأولى ، أو هى على كل حال سابقة عليها .

ان افتقارنا الى المعلومات الوثيقة عن العقائد الدينية المحوطة بالأسرار يمنعنا من تحديد مدى ما كانت عليه هذه الفكرة من عقم ، ولكن هذه الفكرة لم تتوسع فيها المذاهب الفلسفية الكبرى التى نشأت الى حد ما من تعاليم فيثاغورس ؛ وليكن فى هذا المثل تحذير لنا يبصرنا بأنه قلما نجد قاعدة عامة تنطبق على الاغريق انطباقا تاما لا شذوذ له ، اذ لم تكن لهم ثقافة موحدة كتلك الثقافة التى تهدف اليها المدنية الغربية اليوم فيما يظهر لنا .

وسنمر لماما فيما بعد ببعض الحالات التى تشذ عن هذه القاعدة ؛ ويقتضينا علاج هذه المشكلة أن نحصر همنا فى خير ما يمثل الاغريق كالفلاسفة والفنانين والساسة والعلماء الذين تركوا لنا من الآثار ما نستطيع به الحكم عليهم ، فهم المصابيح التى يستضىء بها الرجل العادى ويهتدى بهديها ، هذا اذا فرضنا ان الرجل العادى كان يتجه ببصره الى ما هو أسمى من الأرض التى كانت تطؤها قدماه ، ذلك أننا لا نستطيع أن نقول أن الاغريق جميعا ، أو حتى صفوتهم ، كانوا فى كافة أدوار حياتهم أولئك الأخيار الذين استطاعوا أن يسموا بعقولهم وأجسامهم الى الكمال ، فأصبحوا

هل كان ثمة اغريقى بمعنى الكلمة

فرعا قائما بذاته، يتميز أفراده بسكينة النفس، وذلك فى بعض المذاهب الكلاسية المزعومة فى التصوير ؛ فقد كان الكذب والشهوات والقسوة شائعة فى بلاد اليونان نفسها ، وهى البلاد التى كان أهلها يشاركون أهل الجنوب مشاركة تامة فى حدة الطبع وسرعة الانفعال . واذا كان اليونان وهم يعيشون فى خضم مغريات حياة أفسح من حياتنا قد استطاعوا ان يفكروا فى قواعد الأخلاق الفاضلة والتزامها الى حد لم يستطع أهل الجيل الحاضر أن يهونوا من شأنه فما أحرى هؤلاء القوم بأن تزداد أقدارهم فى نظرنا .

ولنسأل واحدا من هؤلاء الاغريق — وليكن هـذا الرجل مواطنا أثينيا من سواد الناس لايعرف الفلسفة ولكنه متعلم حسن الثقافة — عن خير ما يطلبه فى هذه الحياة ؛ فان اجابته سوف تزودنا بالصفات العقلية

نعم الحياة فى نظر الاغريق

المألوفة التى لاشك أن جميع المثل العليا تجد فيها تربة صالحة . أما ما يغفله فلا يخلو بعضه من الفائدة اذا أردنا أن نقارن بين أسلوب التفكير قديما وحديثا ، والبعض الآخر سيكون أكثر فائدة لأنه سيكشف لنا عن الأشياء التى يراها قضية مسلمة ، وهى أشياء لا يعود يفكر فى سلكها بين نعم الحياة ؛ شأنه فى ذلك شأن الشبعان الذى لا يفكر فيما يدرأ عنه خطر الموت جوعا .

خذ الحرية مثلا ، فمن المحقق أنه سيضعها فى القائمة ، وان لم يضعها بالضرورة فى رأس هذه النعم . فاذا ألحفنا عليه فى تحديد ما يريده بهذه الكلمة كشف لنا عن الدائرة الضيقة التى يحصر فيها معناها . وهو أن تكون دولة مدينته الصغرى حرة فى أن تحكم نفسها بنفسها كما تشاء ، دون تدخل من جيرانها ، فاذا طلبنا اليه مزيدا من البيان اعترف بأن هذه الحرية وهذا الحكم الذى يتولاه الشعب بنفسه حتى فى مدينة بلغت ذروة الديمقراطية كمدينة أثينا تقوم عليهما جماعة متكاتفة من المواطنين ؛ ولعل السكان الأرقاء كانوا يفوقون هـذه الجماعة عددا ، وأن الدولة تتطلب فى الفرد أن يؤدى لها من الخدمات بحيث لا يكاد يزيد حظه من الحرية الفردية عن حظ النحلة فى جماعة النحل .

وليس شيء أدعى الى الخطأ فى فهم حقيقة الأمر من هذا . صحيح أن روح الجماعة عند الاغريق كانت أقوى كثيرا مما هى عندنا ، فقد كان ولاؤهم موزعا بين جهات أكثر من الجهات التى ندين لها نحن بالولاء ، وصحيح أيضا أن واجب الفرد نحو نفسه ، بل فكرة الذاتية بأسرها ، لم يتبلورا الى أن جاء سقراط فوجه عنايته الى ذلك فى النصف الأخير من القرن الخامس ق . م . ؛ أما حرية الضمير الكاملة فما من مجتمع منظم قد اقترب فى ذلك من الشأو الذى بلغه الاغريق . ان صاحبنا الاغريقى الذى تحدث الينا آنفا قد أسقطها من حسابه ، لأنها كانت بمثابة الهواء الذى يتنفسه .

وليس السبب فى اغفاله اياها أنه لم يجد كلمة فى اللغة تؤدى معناها ، فان كلمة Parrhêsia ومعناها حرية الكلام من الكلمات القليلة الشائعة فى اللغة الاغريقية ، وقد اتسع معناها بعض الاتساع ، ولكن اقتصارها فى البداية على معنى الكلام ، وهو الثغرة الوحيدة التى يأتى منها الخطر على حرية الضمير ، دليل آخر يثبت مدى ما كان عليه الضمير من حرية . ويتعين علينا اذا أردنا أن نعرف كنه هذه الحرية الفكرية أن نستعرض حوادث التاريخ السابق على الشعوب المتكلمة باللغة الاغريقية ، والظروف التى بلغوا فيها الى بحر ايجة ، وبداية اتصالهم بالمدنيات التى تحيط بهم والتى كانت أعرق منهم فى القدم .

لقد كان كل ما نقصده بكلمة الاغريق قبل أن تدون الفصول الجديدة فى التاريخ عن الحيثيين

بدء الاتصال بالشرق

والمصريين والبابليين أنها تدل على ثمرة ربانية لا نعلم سرها ، ولا أصل لها يعرف ولا فرع لها يوصف ، مثلها كمثل البطيخ الذى يجده الرحالة فى الصحراء رطيبا صامدا لرمال الصحراء الملتظية بعد أن جف سائر النبات وذوى .

أما الآن فنحن نعرف الفضل الذى يدين به الاغريق لأسلافهم ، ونستطيع الى حد ما أن نرقب عقولهم المتوثبة دائبة على تناول الذخيرة التى قدمت اليهم ، على أن اكتمال معرفتنا بهم لا ينقص من اعجابنا بآثارهم بل يزيد فيه .

ونحن لا نستطيع أن نجزم بأن الاغريق قد خضعوا فى الماضى السحيق لسلطان السلف من الكهنة ، أو لسلطان السنن القبلية الجامدة ، على أن عددا يسيرا من الشعوب قد استطاع على الأقل أن يتحاشى هذا السلطان . ولكن يغلب على

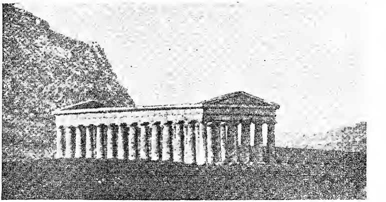
الظن أن طريقة دخول هؤلاء القوم بلاد اليونان من أوطانهم الأولى التى كانت ابعد من ذلك شمالا (مهما كان تاريخ هذا الحادث فى نظرنا) كما أن التجارب التى لاشك أنهم اكتسبوها من تلك العصور المظلمة يوم أن كانوا مشردين بلا مأوى على سواحل آسية الصغرى ، يسلبون وينهبون ، كان من شأنها أن تنمى فى كل منهم روح الاقدام وانتهاك الحرمات القديمة واطلاق عقولهم المتمسككة من عقالها .

أما الدين فكان شأنه فى غاية الحرج ، فالآلهة : عند الاغريق تحب أوطانها وتكره التنقل والأسفار لأنها لو انتزعت من مقر آبائها الأقدمين لفقدت شيئا من هيبتها وسلطانها ، وان أكسبها الانتقال شيئا من اللطف والايناس ، ونلاحظ أن الالياذة تتحدث عن الآلهة الأولمبية فى لهجة أقرب ما تكون الى الاستخفاف والاستهتار ، مثلهم فى ذلك مثل الآلهة المرحة لقرصان الشمال الجوابين .

وثمة آثار من هذا الشعور نحو الآلهة تتجلى فى هذا الاجتماع الروحى الخالص تعقده الجماعة حول مائدة فى الهواء الطلق . ولكن الرجل كان ، اذا تحرجت الأمور ، قمينا بأن يعول على سيفه أكثر من تعويله على آلهته ، وفى ذلك يقول ارخيلوخوس Archilochus ، ذلك الوغد الخبيث شديد البأس :

« ان خبزى معقود بسنان رمحى ، ومنه أشرب خمرى الارمارية . وانى لأشرب وأنا مستند الى هذا الرمح » .

لاشك فى أن هذه الآلهة كانت اذا انتقلت الى موطن جديد واستقرت فيه مالت الى الائتلاف مع من سبقتها من الآلهة العريقة وأذعنت لها ، ويبدو لنا فى قصائد هومر نفسها أن الشعور الدينى الصحيح مقصور على البحر الذى يكتنف الوطن وعلى أرواح الأنهار التى تجرى فى مواطن الأبطال ، أمثال يوسيدون وذينيس وسپرخيوس ، ولاشك فى أن هذه الحالة تكررت فى تاريخ الجنس البشرى ، ولكنها لم تأت بثمرة ، فكانت تنشأ بالتدريج حكومة كهنوتية طبقية جديدة ، وطقوس دينية جديدة ، وكهنة يتوارثون مناصبهم ، وكان ذلك كله قمينا بعودة الحرمات القديمة الى الظهور . ولكن اليونان عثروا فى هذا الوقت نفسه من تاريخ حضارتهم على كنوز الحكمة الشرقية بعد أن جمدت فيهم روح التشكك ، وأصبحوا فى حاجة الى غذاء روحى جديد .



آيات الانسجام الدقيق لمعبد سجستا فى وضعه البديع

كان آخر ما وصل اليه الاغريق فى انشاء المعابد هو ذلك الأسلوب العتيق الذى كانت تقام بمقتضاه العوارض على الأعمدة . ولم يستعملوا العقود قط لأنها انما كانت تزيد فى ضخامة البناء وهو أمر لم يروا داعيا اليه ، وهذا المعبد القائم فى سجستا بصقلية هام لأمرين آخرين : فهو يدل أكثر من غيره على الفطرة اليونانية السليمة فى اختيار الموقع الطبيعى المناسب ثم هو خير شاهد على غلبة الروح اليونانية ، وذلك أن أهل سجستا لم يكونوا اغريقا

وقد اصطنع الاغريق هـذا الغـذاء الروحى اصطناعا ، وهيئوا مادته وصاغوها ، ولم يكن لديهم انجيل يهديهم الى الرشد ، « ولا كتاب موتى » ولا اسطورة بابلية عن الخلق منقوشة على صلصال لا يبلى ، محفوظـة فى مكتبـات المعابد ، فكانوا لذلك احرارا فيمـا يأخـذون وفيمـا يدعون . لا يهتدون فى ذلك

سلامة التقدير مرشدهم الوحيد

الا بهدى تجاربهم وسلامة تقديرهم . وقد دأب اليونان على التفكير فاستطاعوا فى مدى أجيال قليـلة أن يبرزوا فى ميـدان العلم وحده تلك المعـارف التى جمعت أطرافهـا فى الألفين من السنين التى تقدمت عليهم جمعا قام على التجربة والاختيـار . حينما ورث النـورمان حضارة العرب واليونان ، وكانوا كاليونان قد انتزعوا من مواطنهم ، كمـا كانوا أشـبه بهم فى سرعـة الاستجابة ، وأقاموا ازهر مملكة فى العصـور الوسطى ، يحدوهم روح استقلالهم السليم عن الامبراطور وعن البابا . واستطاع الاغريق فى قرنين من الزمان الوصول الى نتـائج علميـة احرق من اجلهـا اناس جاءوا بعـدهم بألف وثمانمائة عام . فقد انتهى الاغريق منذ عهـد فيثاغورس الى القول بكروية الأرض وبكروية الأجـرام السماوية الأخـرى . وفى منتصف القرن الرابع ق . م . اخذ هراقليدس من أهل بنطس Pontus يعلم الناس أن الأرض تدور حول محورها ، وأن الزهرة والمريخ يدوران حول الشمس . وفى القرن التالى قال ارسطر خوس الساموسى ان الأرض كذلك تدور حول الشمس ولم يسخط عليه الا احد الراوقيين ؛ وقد تكهن أمبذ قليس بمذهب النشوء والارتقاء . كما تكهن ديمقريطس بنظرية الذرة ، وقد يدفعنا ظهور هؤلاء المفكرين الذين يمتازون بالجرأة البالغة الى الوهم بأن الجمود والمحافظة على القديم كانا آخر ما ينصف به الاغريق . الا اننا نجد أنهـا كانا منتشرين وان كان لهما طابعهما الخاص . فلاشك فى أنه لا يستطيع شعب أن يظهر هذا النبوغ السياسى العجيب الذى أظهره الاغريق الا ان كان احترام القانون والنظام متأصلا فيه . ذلك أن وجود طائفة ما من الآراء أو قواعد الذوق احتلت مكانها من نظام المجتمع عند الاغريق مدة من الزمن كان سـببا وجيهـا يحدوهم الى التزامها حتى ينضح لهم أنها أصبحت بالية لا تناسب الزمن .

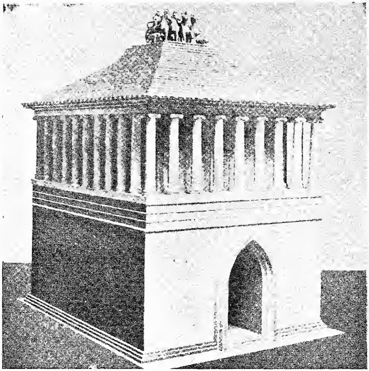
ومن ثم نجد أن أشد نظراتهم جراءة كانت لها دائما أصول فى الماضى ، كما أنها نشأت بفعل نمو عضوى مطرد ، مهما كان من أمر سرعته ، ولا يخالجنا شك فى أنه ما من شىء عاد على البشر بالفائدة الا قد سلك هذا الطريق نفسه . على انه يمكننا أن نتبين أثر المحافظة متجليا على خير وجه فى العمارة والمسرحيات ، فقد كان الأصل فى نشأة المأساة عند الاغريق فرقة أو طائفة من الراقصين عليهم رئيس يقودهم . وقد سارت المسرحية كما نفهمها فى طريقها حينما أخذ هذا القائد يدخل فى حوار مع

المحافظة على القديم فى اليونان

القائدين الذين كانا يتزعمان الفرقة . وثمة مجال للقول بأن الفرقة سرعان ما أهمل شأنها ولم يبق منها الآن الا القواد الذين اصبحوا هم الممثلين . على أن أسـاطين المأسـاة الأثينيين انشأوا مسرحياتهم الخالدة ملتزمين ذلك التقليد الجامد الذى كان يشل أيديهم عن التحرر فى فنهم .

أما فى العمارة فقد كان الحال مختلفا عن ذلك بعض الاختلاف ، فبعد أن أخذ الاغريق يتعثرون ويجربون فى هـذا الميدان طوال القرن السابع والسادس ق . م نشأ عندهم طراز من المعابد الدورية بدا فى أعينهم انه بلغ غاية ما يمكن من الكمال فى الشـكل ، فى نطاق الغرض الخـاص المقصـود منه ، ومن ثم ظل هـذا الطراز دون تغيير فيما عدا بعض تعـديلات يسـيرة فى التفاصيل حتى عفى عليه الزمن بسبب ما كان يفضـله الرومان من الفنون المنحطة . وقـد فرض عليهم انكارهم استعمال العقود قيودا لا تحصى ، مع أن نظريتها كانت معروفة لهم ، كمـا تبين بجـلاء من الفحص عن ضريح هاليكا رناسوس ، وهو مقبرة بناها مهندس معمار يونانى لأمير أجنبى ، ولكن المعبد بالحالة التى كان عليها كان يرضى الذوق الفنى الاغريقى ، ولم تفلح مجرد الرغبة فى تغييره أو توسيعه فى ادخال أى تغيير فيه .

وهكذا كان تقيدهم هـذا باحترام المـاضى هو الذى أوجد فى هـذا العـالم حرية الضمير



باب ذو عقد فى آخر تجديد لضريح موسولوس

ان الأبحاث الأخيرة التى دارت حول المشكلة التى أثارها ضريح موسولوس ، احد أمراء كاريا ، قمينة بأن تنهض دليلا على أن اليونانيين كانوا يستطيعون استخدام العقود لو شاءوا . وقد استعين بهذه الأبحاث فى اقامة هذا النموذج المجدد الذى صنعه موظفوا المتحف البريطانى ، وقد بدت كسر من قوس العقد ، والحق أنه لم يكن ثمة شىء آخر يستطيع ان يتحمل الثقل العظيم للبناء الأعلى ، وهذا الضريح من عمل پيتيوس المهندس اليونانى.

التى كانت فكرتها فى ذاتها مجهولة من قبل تمام الجهل ، بصرف النظر عن الألفاظ التى تستعمل فى التعبير عنها . وفى الواقع ان هذه الخطة كانت نادرة . بدليل ان اللغة الانجليزية لم توفق الى الآن فى صياغة كلمة مفيدة للدلالة عليها ، ولا زلنا نستعمل عبارة سقيمة للتعبير عنها ولذلك فليس غريبا أن الاغريقى الذى أسلفنا الكلام عليه يتحسس لها مكانا فى قائمة الفضائل التى عددها .

حينما تحرر الضمير لأول مرة

ولكن الغريب وضعه الصحة والثروة فى هذه القائمة . ولا يهمنا مكانهما منها فهو لابد مورد ذكرهما فيها ، بل لاشك فى أنه سوف يضعهما فى أوائل هذه الفضائل ، وقل من ينكر منا اليوم أن الصحة والثروة أمر مرغوب فيه كثيرا . ولكن أكثرنا قد يتردد عند وضع قائمة مماثلة فى الاهتمام بمثل هذه الرغبات المادية ، لأن شعورنا بأننا نجتاز منحة روحية ، يجعلنا نمر بها ، ونعنى عناية أكبر بالفضائل الروحية والعقلية ، ويجب ألا يغرب عن البال أن معظم المفكرين فى خلال الألفين من السنين السحيقة التى تفصل بيننا وبين الاغريق فى

أوجهم ، وعنفوانهم كانوا حريين بأن يستبدلوا أفكار الحب ومطالبه بالثروة والفقر والصحة ؛ وهذا الرأى الأخير قمين بأن يعصمنا من القول فى غير روية أو تحفظ بأن الفقــر والمرض والشــيخوخة كانت تخيف القوم آنئذ أكثر مما تخيفنا فى هذه الأيام التى تقوم فيها حكومات تحنو على رعيتها ، كما أن عناية اليونانيين بشفاء الأمراض كانت لا تقل عن عنايتنا ، ذلك أن العلل التى كانت تصيبهم لم تكن على الأقل أشد ابلاما لهم فى عهــد توفر فيه الطبيب أبقراط الكوسى ، ومستشفى أسقليبيوس فى مدينــة ابيدوراس ، منها فى أيام محارق ضحايا الطاعون ومحاجر الأمراض المعديـة كلا .... ان تعليل هــذه المسئلة أعمق من هذا ، ولا مناص من التماسه ، كما هو الشأن فى عبارة حرية الضمير، وللسبب عينه ، فى صــفة من صفات النفس لا نجد لها كلمة جامعة تشمل مدلولاتها كافة ، وانما تعبر عنها بعبارات مثل البراءة من النفاق، والتحرز من خــداع النفس . ولعل كلمــة الاستقامة هى خير مرادف لها ، أما كلمة الصدق فلا تؤدى معناها ، لأن الرجل الاغريقى الذى أسلفنا ذكره كان يحب الأكاذيب المحبوكة ، مثله فى ذلك مثل الناس جميعا .

والتحلى بهذه الصفة يقتضى نفسا متميزة ، بل مزاجا صافيا لا ينتهى الى الحزن ، أو يقع فيما يسميه ارسطو انحرافا أو مسخا لهذا المزاج . وشــيوع الكلمات المعبرة عن هــذا الانحراف تقص علينــا نباه ، مثل كلمتى التشاؤم ـ بمعناها الصحيح ، والكلبية فى أى معنى من معانيها الكثيرة ، الا معناها الصحيح . ذلك أن التفكير السليم فى الأمور كما هى دواء مر المذاق ، على أن خيار الاغريق لم يكونوا يضيقون به ، ويفضل معظم الناس أن يحتموا ، وهم بين الوعى والغفلة ، وراء أباطيل محببة الى قلوبهم ، أو يتخذون دريئة من كلمات مطمئنة يعتصمون بها من شر الأحداث .

والأسلوب الذى تناول به الاغريق مسألتى الموت والشيخوخة فى جل مؤلفاتهم مقيــاس كاف على نظرهم السليم الى الحياة وما يعتورها من أرزاء . ذلك أنهم لم يكونوا يضفون على الموت كلمــات تجعله شــيئا جميلا ، أو يعدونه مجــازا الى نعيم لا يستطيع هذا العالم أن يوفره للناس .. وانما هو انتقال من حياة جياشة حافلة بالطيبات العظيمة المتنوعة ، الى

نظرة الأغريق الى الموت

حياة موهوبة ساكنة باطلة ، فى عالم كئيب يجعل الانسان يفضل أن يكون عبدا فى هــذه الحياة على أن يكون ملكا فى ذلك العالم الآخر . فهذا الانتقــال حزن مقيم فى نظر الاخوان ، وفقــر ومسغبة فى نظر الشيوخ العاجزين ، ولم يكن يخفف من وقع الموت فى النفوس الا شىء واحد، هو انه كان يضــع حــدا لأقسى الشرور التى تصيب المرء فى هــذه الحيــاة . وكان فى خير حالاته يدهم الانســان وهو فى ابان عزه قبل أن يلاقى نصيبه من البلايا ، أو يدخل فى طور الشيخوخة المحتوم ، ولم يجد بيركليز نصيحة يزجيها الى آباء القتلى خيرا من أن يحثهم على أن ينسلوا أبناء أكثر ، فاذا كانوا قد تجاوزوا سن الانجــاب فقــد ولت الحيــاة عنهم أو كادت ، وذلك أنهم عاشوا سعداء فى الشطر الأكبر من حيــاتهم ، ولم يبق فى حيــاتهم الا فسحة قليلة للحزن .

ثم ان الشيخوخة انما كانت اضمحلالا بطيئا فى قوى المرء . أما ما زاد على ذلك من جاه أو احترام يكتسبهما الشــيخ بفضل حكمته فليسا الا عوضا تافها لما يصــيبه من ضعف البصر وآلام الظهر وعناء مضغ الطعام اليابس على لثتين خلتا من أسنانهما .

وكان هذا هو الشأن بالنسبة الى جميع حقائق الحيــاة ــ كالولادة والحب والزواج والصداقة والعاطفة وانفاق المــال . وهــذه النظرة المستقيمة التى أقلقت بال أصحابها الأغريق ، والتى كانت قيمنة بأن تردى غيرهم ممن هم أصغر منهم نفسا فى حمأة التشاؤم فانها قد انتهت بهم الى شر حالاتها ، فأكسبتهم ضربا من الصراحة الغليظة ، وشــاهد ذلك ما جاء فى فقرة غريبة للشاعر ارخيلوكوس قال فيها :

« لقد كنا الف ســفاح يطئون بسنانك اقدامهم .

سبعا من جثث الضحايا »

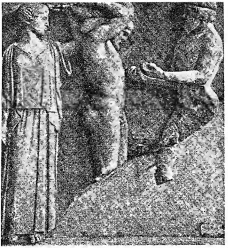
أو انتهت بهم الى شىء آخر هو مذهب من اللذة رشيق كان له أثر كبير فى دواوين الشعر اليونانية : كما نلمح فى الشــعر التالى :

« هلمى نسنحم يا حبيبتى پرودس ، ونتوج رؤوســنا ، ونعب الخمــر صرفا بالكؤوس

الكبار ، فما أقصر الحياة على مهنبلى المسرات ، هلمى قبل أن تسكت الشيخوخة انفاسنا ، وتسلمنا فى النهاية ليد الموت » .

على أن تلك النظرة . فى خير حالاتها، قد انتهت بالأغريق الى الحرص على ألا تغرهم الأوهام الخداعة ، والا تغشى الأخيلة البهيجة على نور عقولهم الصافى وأن يكلوا للطبيعة البشرية أمر الافادة بخير ما فى هذا العالم كما هو ، وحسبنا فى هذا المقام أن نستعير قول ماتيو ارنولد المأثور ، اعترافا منا بما هو أهل له من فضل « أن يكون النظر الى الحياة مستقيما شاملا » .

من هنا لم يعد ثمة ما يدهشنا اذا ألفينا ذلكم الرجل الأثينى يسلك الشباب والجمال ، فى عداد الفضائل ، فلا مراء أن الشباب هو الفترة التى يستمتع فيها الانسان بعقله الواسع وجسمه السليم على خير وجه ، وشاهد ذلك ما قاله ذلك الكاهن المصرى ، الطاعن فى السن ، الموهون القوى ، للحكيم الأثينى : « ياصولون : انكم شباب دائما يا معشر الأغريق !! » والآن لننتقل الى الجمال .



تماثيل متناسقة فى فرجة بواجهة معبد يونانى

توضح فرج واجهات المعابد اليونانية بجلاء تناسق التماثيل فى مجموعة منها ، وهذه المسافات المستطيلة بين التجاويف تمثل أطراف العوارض . وهذه الكسرة من معبد زيوس فى أولمبيا تصور هرقل وهو يحمل السماء ، وتساعده أثينا فى ذلك ، بينما راح أطلس يجمع تفاحات الهسبيريد

لقد كان يظن فى وقت ما أن حب الجمال والحرص على تحقيقه هو أبرز خصائص الخلق الاغريقى أن لم يكن هو الخصيصة الوحيدة فى هذا الخلق ، وذلك وفقا للأسلوب الذى كانوا ينظرون به الى روائع الانتاج المأثور وقتئذ ، ولذلك قد يبدو عجيبا أن أحدا لم يلق باله الى هذا الأمر حتى الآن .

تذوق الأغريق للجمال

ولكن ما ذكرناه يدل دلالة كافية على أن الأغريق كانت لهم خصائص كثيرة أخرى ، بعضها بالمكان الأول من الأهمية ، ويمكن أن يقال بحق ان تذوقنا للجمال أوسع من تذوق الأغريق له وأشمل ، ذلك أن تذوقهم لم يكن يمتد بحيث يشمل ما هو جاف أو ممسوخ أو بشع . وكان يوريبيدز يرى الجمال فى أشياء تثير عجب معاصريه،ولكنه كان قمينا بأن يرتج عليه اذا حمل على الاعجاب بالأشياء التى ألفناها فى العصر الحاضر ، كمنظر مداخن مصنع تغشاها الشمس فى ساعة الغروب ، بل منظر رجل يصلب .

ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أن فى وسعنا اذا شئنا أن نرمى الاغريقى بأن احساسه بالجمال ضيق محدود . والحق أن وقوف هذا هذا الاحساس عند أفق بعينه جعله أعمق وأرهف . زد على ذلك أن عدم تبديد هذا الاحساس فى اكتناه أفانين الجمال العجيبة ، الا فى النادر ، قد يسر له ارتياد سبل الحياة جميعا ، فكان بذلك بمثابة مقياس يقيس معادن — أو فضائل كما يقولون — الأشخاص والأفعال والأفكار .

وثمة طريقان نتوسل بهما الى تذوق الجمال فماذا كانوا يعنون بكلمة « جميل » ؟ ثم اى نوع من الأشياء كان يوصف بهذا الوصف ؟ لقد تبينا آنفا أسبابا تحملنا على الزعم بأن الأغريق لم يضعوا حدودا للأشياء التى تقاس بمقياس الجمال ، ويمكن أن نبين أن هذا كان يشمل عالم الفكر الذى نطلق عليه اسم « الأخلاق » ؛

ذلك أن واحدة من أشيع الكلمات التى تفيد معنى « خير » فى اللغة الأغريقية كلمة تفيد فى نفس الوقت معنى جميل ، ثم ان أقرب كلمة يونانية ترادف كلمة Gentleman (أى الرجل الفاضل) الانجليزية فى خير معانيها كانت تجمع جمعا عجيبا بين الجمال والخير ، ويمكننا بطبيعة الحال أن نذهب فى هذا الاستدلال الى أبعد من هذا ، ذلك أن معنى الجمال لم يكن يحل عندهم محل المعنى الخلقى ، ويتبين ذلك بجلاء من استغراق جل المذاهب الأغريقية الفلسفية فى التفكير فى الخير ومعناه . ولكن لدينا ما يبرر القول بأن كلا المعنيين لم ينفصلا تمام الانفصال كما كان شأنهما فى غير ذلك من البلدان والعصور ، وأن الأحاسيس التى يثيرها عمل من أعمال الخير ، أو شىء من الأشياء الجميلة ، كانت واحدة الى حد كبير ، فمداخن المصنع تعبر عن شىء فيه شر كثير ومن ثم فهى قبيحة بحيث ، لم يستطع



شاهد على الحزن الرصين

أثينا متكئة على رمحها فى وضع ينجلى فيه التفكير العميق ؛ هذا هو كل ما تطلبه النحات الأتيكى فى التعبير عن حزن المدينة على قتلاها . أما فنانو الأمم الأخرى فكانوا حريين أن يعبروا عن هذا الحزن تعبيرا صاخبا حافلا بالتهاويل .



رأس ربة من ربات العذاب فى صورة انسانية

كانت ربات العذاب (Furies) أرواح الانتقام اللائى يقتفين أثر المجرمين فى هذه الحياة الدنيا وفى الحياة الآخرة، على أن الاغريق تمثلوهن بشرا فأمكن تصويرهن بهذه الهيئة مع الاحتفاظ بكل ما كن يتسمن به من صرامة. وازن بين هذه الصورة وصورة الهولة الاترورية فى أواخر هذا الفصل

الأغريقى أن ينسى اقتران هذين المعنيين بحال من الأحوال .

لقد ترد القول بأن احساس الأغريقى بالجمال يقصر دون المناظر الطبيعية ، وليس لذلك من جواب الا الانكار الصريح ، وسنبين فيما بعد السبب فى بطلانه . وحسبنا الآن دليلا على هذا البطلان تلك الفطرة السليمة التى هدت الأغريق الى اقامة معابدهم فى خير المواقع الطبيعية وأنسبها ، وتلك اللمحات التى لا حصر لها البادية فى كل فرع من فروع الأدب الأغريقى .

واليك ما تقوله سافو :

« ما أن يبزغ البدر الجميل فيغمر بضوئه
الأرض جميعا حتى تغض النجوم المنتثرة
حوله من ضيائها » .

أو اقرأ ذلك النشيد الطويل فى مأساة افجنيا ليوريبيدز ، وهاك مطلعه

«ايه . . . ياهلكيون . . أيها الطائر الذى
يتغنى شكواه الحزينة وهو يطيف
بأخاديد البحر الصخرية » .

ولابد أن كثرة ورود البحر وشئونه فى مثل هذه الفقرات هو السبب فيما وهمه صاحب هذا القول من أن ملوحة الأمواج ونضارتها هما

شيئان يقترنان الى حد ما بعبقريه اليونان ، حتى لكان شعبا نشأ فى احضان البحر منذ نعومة أظفاره لا يمكن أن يسامى سكان الأطراف من اهل مجلموز ، أو اهل الساحل من قبائل الدياك ، وانما هو قد هبط من منازله فى أعماق اليابسة ، فرأى زبد الأمواج فصاح : البحر البحر ؛ كما فعل أصحاب كسينوفون الأثنا عشر الفا من قبل ، ولم يجد فيه الا حافزا له وموحيا .

فما هىاذن مقاييسالخير والجمال عند الاغريق ؟ ان هذه المقاييس لم تكن تختلف كثيرا عن مقاييسنا الا فى طريقةتطبيقها . هذا ، وان يكنواحد من بينهما يستحق أن يهتم به ، لأنه أشدها صرامة ، ولأنالناسلا يلتفتون اليهكثيرا فىهذه الأيام . فى الانجليزية كلمة لها معنيان ورثنهما مباشرة مما كانت تستعمل فيه الكلمة الاغريقية التى ترادفها ، وهى كلمة (measure) أى مقياس ، فهذه الكلمة فىالانجليزية تعنى « أبعاد الشيء » ، وبالتضمين يكون معناها أبعاده الصحيحة ، (He is impetuous beyond measure) أى (فلان منهور تهورا يفوق الحد) وهى تعنى أيضا الميزان الموسيقى والشعرى ، والعلاقة بينهما واضحة الى حد معقول تبرزه الكلمة المضادة لها فى المعنى وهى كلمة Excessأى الغلو أو Overstepping أى تجاوز الحد . فالنسب والقالب الشعرى حدود اذا تجوزت فقد الشيء طلاوته وفقد الشعر خصائصه . فقد كان الاعتدال والتناسب والانسجام هى أركان الفن والسلوك عند الاغريق ، وكانوا لذلك يتحاشون الغلو مهما كلفهم ذلك .

ويمكن أن نتتبع سريان هذه الروح عندهم فى الفن والشعر ، أما فى الأخلاق فهى تتجلى فى تقديسهم للحكمة (Sophrosyne — ومعناها الحرفى سلامة العقل) اى الاتزان والاعتدال؛كما تتجلى فى شعورهم بأن المسلك الحميد معناه أن يسلك الانسان الصراط المستقيم .

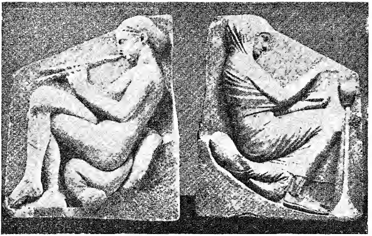


غلبة الطراز القديم فى فن التماثيل

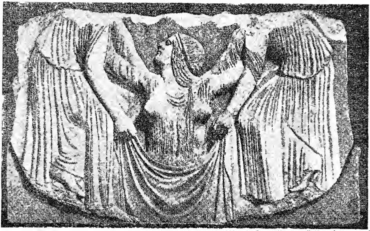
ترجع اهمية هذا التمثال الذى عثر عليه فى جنوب ايطاليا الى أن أحد تماثيل الآلهة اليونانية القليلة الأصلية التى نملكها ، وهذه الربة هى الثمرة الناضجة لفن النحت القديم المتأخر ، لكنها مازالت تتسم بالجمود فى مظهرها ، ولم تدب فيها الحياة بعد

أما فى الفن ، وكان عندهم فنا ساكنا ، فكانت تتجلى فى أحساسهم السليم بالتوازن والتناسب، وشاهد ذلك ماثل فى افريز البارثينون ، بل هو أشد وضوحا فى التاج المثلث أو الواجهة التى حرص الفنان فيها على التزام القواعد الصارمة للمسافات ، أما فى الشعر فحسبهم انهم كانوا أول من ابتكر الأوزان الشعرية .

ولكن هذا السبب نفسه قد جعل للشعر الأغريقى ميزة قد تساعدنا فى ايضاح ما ذكرناه من قبل من عدم احتفال اليونانيين بالمناظر الطبيعية . فقلما كان الشعر اليونانى يحفل بتوفية موضوعه حقه ، بل كان بحسبه



تختلف الآراء فى تفسير الصورة السفلى ولكن الراجح أنهـا تمثل الربة أفروديت وهى تبرز من البحر يحف بها اثنتان من ربات الفصول . ولاشك فى ان الشفوف المدلاة توحى بانتسابها الى الماء ، وعلى هذا فان الفتاتين المنقوشتين على كسرتى الجانبين فى الصورة العليا ، وهما تمثلان احدى بنات الهوى ، تنفخ فى ناى مزدوج وسيدة كاسية تزود مبخرة بالبخور . ولعل ذلك يرمز الى الحب الدنس والحب الطهور



وتفصح هذه النقوش البارزة فى المذبح الايرنيوى عن المستوى الذى بلغه فن النحت اليونانى فى نهاية العهد القديم ، قبيل تلك الفورة التى انتجت الطراز الأتيكى الكامل فى مدى ثلاثين عاما .. وهذا فضلا عما تمتاز به هذه النقوش من جمال يأخذ بمجامع القلوب .. ولاحظ ان ساقى بنت الهوى المذكورة آنفا لم تسوّيا التسوية الكاملة ... كما أن نهدى الربة لم توضعا فى موضعهما الصحيح ، وما زالت زوايا الوجه تحمل أثرا من آثار تلك الحدة المأثورة عن عصور ما قبل الهيلانية (وازن بين هذه الصور والصورة الجانبيـة التى فى صفحتى ٧٩ ، ٥٠٩) .

الجمال الناضر الذى بلغه فن النحت اليونانى فى بواكير شبابه

أن يسوق عبارة ذات مغزى ، ثم يدعها تفعل فعلها فى نفوس سامعيه ، فاذا وصف آيات الجمال الطبيعية اكتفى بلمحة ، أو كلمات قليلة من السهل أن تفوت القارىء الحديث الذى ألف الافاضة والتفصيل .

والفقرة التالية من شعر سافو ، وهى فقرة فريدة فى ذاتها ، قد تغيب عن نظر من يقرأ القصيدة التى كانت هى جزءا منها :

كان الماء ينحدر من عل
فيشيع فى ثنايا شجر التفاح
صوتا ينزل على النفوس بردا
ويهبط الوسن من أوراقه المصطفقة
فيداعب الأجفان

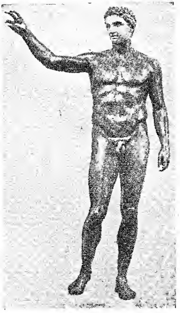
ومع ذلك فان هذه الفقرة لا ينقصها شىء لابراز المنظر كله .

وكان موقفهم من الموت والحزن يتسم بهذه البساطة المطلقة التى ينبغى ألا نخطىء فنعزوها الى افتقارهم الى العاطفة .. وتتجلى هذه البساطة فى النقوش الرصينة على شواهد المقابر وفى كثير مما بقى من الكتابات المدونة على القبور . وخيرها ، أو أفضل ما عرف منها هو ما نظمه الشاعر سيمونيدير عن الاسبرطيين الذين قتلوا فى معركة ترموبيلى :

« أيها العابر : اذا مررت بأهل أسبرطة فخبرهم أننا هنا ثاوون ، وعلى عهدهم باقون » .

فليس فى هذا الشعر مبالغة فى الاطناب . ولا اسراف فى التعبير عن الحزن ، وانما تشع من بين سطوره أنبل مشاعر الولاء الخالص .. ولا يغيبن عن بالك أن الشاعر نظم شعره هذا فى ذكرى هزيمة منكرة .. وما أقل الهزائم التى سجلت على هذا النحو فى تواريخ الامبراطوريات القديمة .

ولم تكن هذه البساطة فى التفكير والتعبير تقتضى بالضرورة بساطة الصياغة ، فقد تيسرت للشاعر اليونانى لغة لا تفوقها أخرى فى جمالها ووضوحها ، فكان يحلو له صوغ الكلمات فى صور بارعة فيها الكثير من فن ديدالوس ، وكان فى ذلك أشبه بالصانع الماهر الذى يصوغ الفسيفساء ألوانا . وقد ارتفع بندار الى الذروة فى قصائده التى كان يرسل فيها أغانيه صداحة بالثناء على



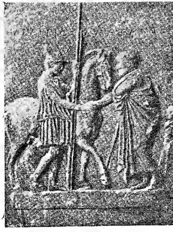
قانون النسب الخاص بالجسم الانسانى

لقد خطا الفن اليونانى ، فى جيل واحد ، أى بين سنتى ٤٧٠ و ٤٤٠ ق٠م تقريبا ، خطواته الأخيرة التى ميزت بينه وبين غيره من الفنون التى بلغت حالة متوسطة عند الأمم المجاورة ، وهذا تمثال برونزى رائع من مدرسة بوليكليتوس تتمثل فيه قوانينه عن الكمال الجسمانى

الشباب فى ابانه . ولكن حسبك أن تتخذ من نفس هذه الكلمات التى ذكرناها وشيكا شاهدا متواضعا على ما نقول .. وهى تترجم عادة ترجمة بذل فيها جهد لابرازها عارية من كل زخرفة .

« أيها الغريب : خبر أهل أسبرطة أننا نرقد هنا مطيعين أوامرهم » .

على أن الكلمة اليونانية التى استعملها الشاعر ليست هى الكلمة الانجليزية : Tell (أخبر) تلك الكلمة غير المعبرة بل ان كلمة Announce (بلغ) ، على سماحتها تعبر عن فكرة التبليغ الصريح للرسالة خيرا مما تؤديه الكلمة السابقة .. ولعل عبارة : Go and tell تؤدى هذا المعنى

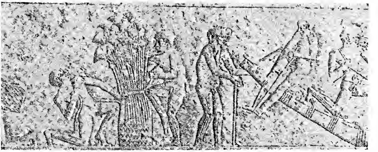


روح الانسجام عند الأغريق كما تتجلى فى فن لايجيش بالحركة

نعرض هنا صورة لوحة بانايتيوس Panaetius الجنائزيه ، لنوازن بينهـا وبين الموضـوعات المصرية والصينية التى يرد ذكرها فى هـذه الصفحة والصفحات التالية · واللوحة مثال رائع للحـزن المكبوت · لاحظ التوازن بين كتلتى اليدين المتصافحتين

خيرا من أية عبارة غيرها . وكان المرادف للفظ « Words كلمات » مقصورا عـلى الشـعر ، وانما اسـتعمل فى النثر فى عصر متأخر الى حد ما . . زد على ذلك أن الكلمات كانت فى نظر الاغريقى أشياء سحرية أو تكاد ، تشبه السهام التى لا تحيد عن هدفها . واللفظة « Obeying — مطيعيين » نفسها على ما فيها من ايحاء بالحنو والاعزاز لا تؤدى المعنى المقصود تماما ، على أن اللغة الانجليزية لا تستطيع أن تؤدى معنى الرغبة فى الاقنـاع العقلى والرغبـة فى مجرد الاقناع المادى الذى تؤديه اللفظة اليونانية ، وهذا أيضا هو الشأن بالنسبة الى كلمة « Xenos أى غريب » ، فقد كان اليونانى لا يكاد يتجاوز فى سيره عدة أميال حتى يغادر أرض دولة مدينته الصغيرة فيصبح غريبا من الوجهة الاصطلاحية ، ومن ثمة تصبح اللفظة Xenos هى المرادف المألوف للفظة « Wayfarer عابر » .

وأخيرا : فلندع ذلكم الأغريقى يعبر عن آخر أمنية فى نفسه ، ولعلها كانت أخص خصائص الروح الأغريقية ، فأغلب الظن أنه يقـول : « الأصدقاء الأصدقاء ·· من لى بالأصدقاء ! » ولعله لا يأتى فى تبرير ذلك بجديد . أما المبررات التى يسوقها ارسطو بالفعل فيبدو عليها طابع المـادية الى أقصى حـد ؛ وهنـا نلحظ روح الاستقامة الاغريقية تفعل فعلها مرة أخرى . على أننا يجب أن ندرك أن من وراء هذه الرغبة فى الصحبة ، تلك النزعة الانسانية الشاملة التى



صور فلاحين مصريين فى أوضاع بلغت الغـاية فى اتزانهـا

يصور لنا هذا الرسم البارز باتزانه وقوة (تقاطيعه) زراعا مصريين يجمعون محصول البردى ويصنعون زورقا من الغـاب ، وهو رسـم لايمكن القـول بأنه يتخلف عن مسـتوى الفن اليونانى ، وليس فى موضوع الرسم أو طـريقة معالجته ما ينبىء بأنه يونانى ، وفى الرسم مؤاخذات تشريحية تحرر منها الفنان اليونانى، وان كان فيه بلا شك نفحة من الروح اليونانى وقد عثر على هذا الرسم البارز فى مقبرة من مقابر الأسرة الثانية عشرة عند مير Mer (حوالى ٢٠٠٠ ق · م) ·

تميز أكثر من أى شىء آخر الأغريقى من جيرانه . وقد أجمل سوفوكليس رأى مواطنيه فى ذلك فى كلمته التى يقول فيهـا « ألا ما أكثر عجـائب هـذه الدنيا ٠٠٠ ولكن ليس فيها أعجب من الانسان » .

وكانوا يعللون كل ما فى الطبيعة بالمقاييس البشرية ، فالآلهة قد برئت على صورة الانسان ، ولم يبق أثر من الوشائج التى كانت تربطهم بالآلهة الحيوانية الأولى الا تلك الصـفات الوديعة التى كانوا يتصفون بها . فلم يكن الانسـان كائنـا يجمع بين الحيوانية والبهيمية ، ولكنه كان كائنا مجيدا لم تكن له رغبة الا ان يحقق كل ما كمن فيه من امكانيات ، فتمثلت كل الأشياء القديمة القبيحة فى صـياغة المثل الأعلى للكمال الانسانى الممكن ، وذلك كرأس ربة العذاب الغافية الذى استحالت فيه هوله الانتقام امرأة صارمة مكتئبة ، فلم يبق شىء يدل على الأفاعى التى كانت تتلوى فوق رأسها الا ثنيات الشعر فحسب .



صورة لأحد مصورى البلاط الصينى

كان شاو مونج ــ فو ، وهو من فنـانى بلاط الملك كوبلاى خان (حوالى ١٢٨٠ م) صاحب هذه الصورة التى تصور جوادين متوفزين مربوطين ، والرسم وطريقة معالجته هنا أيضا لا يمتان بشىء الى الفن اليونانى ، الا أن الصـورة تعتمـد فى قوة تأثيرها على اتزانهـا وقوة (تقاطيع) رسومها ، الأمر الذى يكشف عن مقاييس فنية تختلف اختلافا شديدا عن فن بلاد النهرين .

وانشغال الاغريقى ببنى جلدته على هذا النحو شائع فى الأدب اليونانى كله . . (وهذا شاهد آخر يفسر لنـا كيف كان تقديرهم للجمـال الطبيعى الخـالص يأتى بالمحل الثانى) الا أنه يتجلى فى أرقى صورة فى فنون النحت . على أن الشىء الذى لا يتضح لنا كل الوضوح هو ذلك المثل الأعلى الذى كان ينزع اليه الفنان اليونانى فى منحوتاته ٠ فهؤلاء الاغريق الأمجاد الذين تكتظ بهم متاحفنا ليسوا صورا بل هم المثل الأسمى للجمال الانسـانى مجسما ، فقد كان كل فنان يضيف الى ذخيرة قومه الفنية آية جديدة من آيات الكمال فى الصورة ، حتى تم لهم آخر الأمر خلق الطراز الأتيكى الكامل . ولم يستغرق هذا كله الا حوالى الثلاثين عاما ، فى حين كان التقدم فى الفنون يقـاس بالأجيـال والأفراد لا بالعهود والأسر الحاكمة ، كما كان الشأن فى الامبراطوريات القديمة . وقد أنتجت نهاية العهد القديم آيات من هذا القبيل ، بارعة فى أسلوبها ، وان كانت تتسم بالجمود ، كتمثال الربة الجالسة الذى عثر عليه جنوبى ايطاليا ، والنقش البـارز الذى ينبـض بالحياة الموجود بالمذبح الأيونيوى ، والذى تبـدو فيه أفـروديت أناديومـين Aphrodite Anadyomene وهى تبرز من البحر . ثم أرسى الكامينيس Alcamenes وبولكليتوس Polycleitus وفدياس وأتبـاع مذاهبهم قواعد الجمـال اليـونانى ٠ ويجب أن نلاحـظ فى هـذا المقام أن تصوير الأشخاص لم يكن أثرا من آثار المذهب الواقعى أو تصوير الأشخاص كما هى ؛ وقد امتزج تصوير الأشخاص عند المصريين والاتروريين ، وهما الشعبان اللذان برعا فى ذلك ، بأفكار عجيبة عن الحياة الآخرة .

وقد أتيحت لنا بالفعل فرص للموازنة بين الاغريق وأسلوبهم فى التفكير وبين الشعوب الأخـرى المحيطة بهم ، بين علم أولئك المتسم بالجرأة والتغير المستمر ، وعلم هؤلاء الجامد القائم على التجربة ٠٠ بين تحرر ضمائر اليونانيين وتسليم جيرانهم تسليما أعمى لسـلطان رجال الدين ٠٠ الا أن الاغريق ــ بالرغم من ذلك كله ــ كانوا مثال فريدا لا يقاس عليه . . مشعلا توهج



من شواهد المثالية المصرية

تمثال خونس Khons رب القمر ، الذى عثر عليه فى طيبة ، وهو مثال بارز يدل على أن الفنان المصرى لم يكن يعجز عن تصور الجلال الالهى المهيب فى أرفع حالاته ، وذلك بالرغم مما كان يثقل كاهل هـذا الفنـان من سنن والتزامه نحت التماثيل الحيوانية

فجأة . ثم ان النبات الذى ازدهر بعد مائة سنة لا يختلف فى جوهره عن النباتات التى من نوعه ، والتى لم تكن قد استشعرت بعد هذا الحافز الداخلى الخفى .. فماترى هل يعود الخلاف بينهما فى النوع أو فى الدرجة ؟ وهل يجوز لنا أن نرده الى نبات آخر أينع ولكنه أثمر ثمرة أخرى مختلفة ؟

تعد الصين اليوم المثال الصادق لروح الشرق وخصائصه ، ومن ثم تكاد كلمة « شرقى » ترادف كلمة « صينى » ولكن ، لم يكن ثمة صينيون فى جيش الشاه الأعظم ، ثم اننا اذا وجدنا فى أقاصى الصين ، فيما وراء أبعد حدود العالم المعروف أبرز مقابل للهيلينية ، وهى مقابلة

الصين وهل هى موطن الروح الشرقية

تقل وربما لا تمحى الا عند شواطىء اليونان نفسها ، فان ذلك يوشك أن يواجهنا بنتيجة مؤداها أن الروح الشرقية صفة عقلية مألوفة يتسم بها الجنس البشرى بأسره . بل هى الأصل العظيم الثابت الذى كان الاغريق هم أول من حاول التحرر منه . وفى هذه الحالة قد نزول عن الروح الشرقية كل صفة ايجابية تبرر ذلك الاسم الرنان الذى أطلق عليها . على أن الأفكار الشائعة عن الصين تقتضى منا البحث والتساؤل .

والحق أننا لا نعرف الشىء الكثير عن الصين فى العهد الذى نتحدث عنه . ذلك أن أسرة حوس ذات التاريخ الطويل كانت تعانى سكرات الموت فى ظروف مليئة بأسباب التناحر وضعف الحكام . ولكن هذا الأمر يبدو قليل الشأن لأننا اذا استطعنا أن نبين أن الصين كانت تتسم فى أى دور من أدوار تاريخها بسمات غير منتظرة تقربها من اليونان لكان ذلك وافيا بمرامنا . وحسبنا تلك المصادفة التى تسترعى الانتباه ، ألا وهى أن كونفوشيوس كان فى هذا الوقت نفسه يفكر فى الأمور تفكيرا مستقلا عن غيره . وانا لنجد الصينيين فى أقدم ما نتبينه من عهودهم شعبا زراعيا ينتجون الدخن فى الشمال والأرز فى الجنوب بخاصة ، ولهذا كان الرى أمرا ضروريا ، اذ الأرز نبات مائى ، ويزرع الدخن حيثما تهيأ له الرى فى الصين الشمالية التى هى اقليم جاف بطبيعة موقعها ، والرى عمل شاق يتطلب من الفلاح جهدا يكاد لا ينقطع ، والصين فى ذلك تختلف اختلافا تاما عن بلاد اليونان خاصة . وبلاد البحر المتوسط عامة ، وذلك لأن سقوط المطر فى فصل الربيع والخريف فى هذه البلاد يخلى شطرا من السنة للاعمال غير الزراعية .

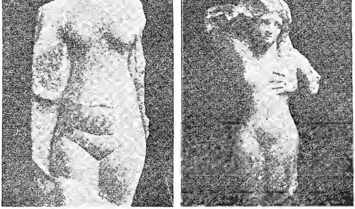
الا أننا نلفت النظر الى أن ذلك التباين ليس واضحا بالدرجة التى كنا نتوقعها ، لأن الأرز ينبت فى اقليم موسمى يكثر فيه الماء ، ولا يعتمد على نهر تأتيه الزيادة بميعاد . بينما ينبت الكثير من الدخن فى أرض خصبة من أراضى التربة الصفراء غير القابلة للرى ، ومن هنا نجد شعبا علمه الرى مزايا التعاون ، شعبا لا يزحمه العمل بحيث يصرفه عن التفكير ، وان لم يتسع وقته للتفكير كما يتسع وقت أهالى البحر المتوسط .. شعبا حاضر البديهة ، ذكيا ذكاء سكان البحر المتوسط أنفسهم ، قادرا على أن يمد بالخيرات تلك الطبقة التى لا عمل لها ، والتى يمكن أن تقوم دائما ، بفضل فائض الثروة الذى يتراكم نتيجة للتعاون . أما ما يعزى اليهم من بلادة الطبع فحديث خرافة يكفى لنقضه عنهم مشاهدة أية صورة شمسية لأية جماعة منهم تفيض حيوية . وان تكن بلادة الطبع ميزة

تختص بها الطبقات العليا الذين يعدونها سمة من سمات حسن الخلق ، كما هو شأنها فى الغرب ـ مثالا لايختلف عن فضيلة ضبط النفس ، أو أل " Sôphrosyne " اليونانى ٠

وقلما يرد على ذهن الانسان أن مثل هذا الشعب الدؤوب ، الذى يعيش ، فضلا عن ذلك ، فى بلاد لم تقسمها الطبيعة شقفا اقليمية ضئيلة كما قسمت بلاد اليونان يهتم بما كان يهتم به اليونانيون من دقائق المثل العليا ٠ ومن ثمة كانت الحكومة القومية المركزية التى تقوم على سلطان الأب كانت فى الواقع المثل الأعلى الذى كان الصينيون يهدفون اليه دائما ، أما فى عالم الفكر فالعجب أننا لا نجد غير أثر ضئيل لاستعداد رجال الدين ٠ فالبوذية نفسها . وهى مذهب فلسفى صارم ، ذو فرائض عسيرة تجعلها فلسفة أكثر مما تجعلها دينا ، قد تبدلت تبدلا تاما حينما دخلت الصين ، وأفسحت صدرها لجميع ما درج عليه الصينيون من الأفكار والخرافات المتأصلة فيهم ، ثم أن الذى جعل الصينيين ينبذون المسيحية آخر الأمر أسباب تمت الى السياسة والاقتصاد أكثر مما تمت الى الدين ، ذلك أن النساطرة قد أصابوا نجاحا كبيرا فى أول الأمر ٠

واذا كان تسامح البوذية هذا قد أدى الى أن تتضاعف الخرافات حتى يكون شأنها كشأن التفكير المنطقى ، فينبغى ألا ننسى ما آل اليه أمر الفلسفتين اليونانيتين الفيثاغورية والأورفية ، من انحلال أدى بهما الى الشعبذة ٠٠٠٠ وهو يشبه ما آلت اليه الدوية (١) فى الصين ، ولم يكن من المنظور أن ينشأ بين الصينيين هذا المذهب العلمى فى النظر الى الطبيعة ، ولا سيما أنهم قد حرموا هذا الاتصال الحى بالثقافات الأخرى ، فى فترة حاسمة من فترات تطورهم ، وهو الاتصال الذى نعم به اليونانيون ٠ الا أننا ينبغى أن نذكر الصينيين على الأقل حينما نبحث فى مخترعات من قبيل الطباعة بالقوالب والبوصلة البحرية والبارود ٠

أما من حيث استقامة النظر الى الأمور فنقول أيضا ان الصينيين لم يكن لديهم ما كان يمتاز به اليونانيون من هذه البصيرة النفاذة التى كانوا يصلون بها الى جواهر الأشياء ، الا أنهم لم يكونوا يتسمون قط برقة الشعور التى يتسم



تشابه طرق الأداء فى التماثيل المصرية واليونانية

التشابه فى طرق الأداء بين بقايا هذين التمثالين تشابه يسترعى النظر ، والتمثال الذى الى اليسار تمثال مصرى ، مع ملاحظة أنه يغلب أن يكون تمثالا شخصيا (لاحدى بنات أخناتون) ، أما الآخر فتمثال يونانى خيالى لعروس من السيرينات (Siren) وهى تبكى ، ويرجع الى القرن الرابع (ق ٠ م) ، وليست له أهمية كبيرة ، الا أنه يصور لنا احدى هذه الهولات نصف الحيوانية التى يتردد ذكرها فى أساطير اليونان ، ويمكننا أن نرى ابتداء رجل الطائر ، الا أن غرابة الشكل تكاد تذهب كلها فى هذه السمات الانسانية

---

(١) الدَّوِّية مذهب دينى أنشأه الفيلسوف الصينى لودزه (المولود سنة ٦٠٤ ق ٠ م) ــ المترجم د ٠ خ ٠



الرمزية فى اليونان وفى الشرق

تنطوى هاتان الصورتان على مثل واحدة تقريبا ، فقد كان الثور ذو الرأس الانسانية رمزا للقوة عند الأشوريين ، كما كانت هذه الروح الطائرة رمزا للنصر عند اليونانيين ، وكانوا يسمونها (نيقه Nike) وقد ذهب الفنان فى رمزيته فى كل منهما الى الصور الحيوانية (لاحظ جناحى النيقة المكسورين عند الكتفين) — ولكن ما أعظم الفرق بين الاثنين — والنيقة من عمل پاونيوس .

بها العرب البوم ، ولا كان من مذهبهم الايمان بالعقاب والثواب فى الحياة الآخرة ، وهو ذلك الايمان الذى حرصت أديان كثيرة جدا على أن تبرر به مظالم الدار الدنيا ، ولا جرم أنهم كانوا يعرفون الروحانية ، ولكن روحانيتهم لم تكن من قبيل روحانية المتصوفة . ويسفر جانب كبير منها ، اذا حللناه ، عن ولع مخامر بالتلويحات والاشارات لا يمكن أن يبرأ منه صاحبه .. ففيلسوف ، مثل « لى » المشهور باسم « لودزه » Lich-Tze يسرد علينا مجموعة من القصص الأخلاقية التى تزدهى بما يتردد فيها من ذكر السحرة الذين لا تمتد اليهم يد المنون ، الاكسيرات التى تفعل الأعاجيب ، ثم لا يرى بأسا فى أن يختم قصصه بهذه الكلمات :

« لابد لكل حى من أن ينتهى أمره بحكم قانون وجوده ، ولا يمكن أن يقف شىء بسبيل هذه النهاية الا بمقدار ما يمكن أن يحول شىء بسبيل ولادة المخلوق الحى ، ولهذا كان كل من يأمل أن يعيش فى الدنيا مخلدا ، أو أن يكون بمنجاة من الردى ، مخدوعا فيما يأمل » .

ومن المفيد كذلك ان نقارن بين الفلسفة الدوية الوطنية ، وبين البوذية التى وردت على الصين من الخارج ، لنرى أن البوذية تعد جميع الأشياء المادية وهما ، أو « مايا » ، فى حين أن الدوية تعد كل العالم المرئى صورة ظاهرية لحقيقة جازمة تفعل فعلها فى القوانين الطبيعية وهى الحقيقة التى ينبغى ألا يغيب عن الأفهام أن فى وسعنا تبينها فى الروح اليونانى ، بصورتها الثابتة التى لا يصعب على أحد اكتشافها ، وليست نزوات اله يفعل ما يريد .. وقد ينساق الشاعر على موجة من أمواج الرمزية ، كما هو شأن الشاعر دزوكونج دو Ss i K'ung T'u فى المقطوعة التالية (عن ترجمة للأستاذ هربرت جيلز) .

فى خواء هذا الليل ،
حيث يتدجى ركام السحاب ،
والريح من حولنا لا ينقطع زفيفها ،
ونحن متملئون بالمبادىء الأبدية ...
هلم فلنبلغ السويداء
متجاوزين حدود التصورات
ولنتشبث بها فى غير ما صخب
طاعمين من مؤنة لا تنفد

ثم يعود الشاعر فى الفينة بعد الفينة الى حسن هذا العالم ، حسنه فى ذاته .. الى ذلك الوادى « الذى ازدان بأشجار الخوخ المنقلة بأوراقها الخضر .. والنسيم الذى يهب رخاء على صفحة النهر ، وأشجار الصفصاف التى تظلل الطريق الملفوفة » أو تغشاه مصيبة الموت أو الفراق فلا يعبر عنها بألفاظ العزاء الغامض ، ولكن ببضع عبارات خالية من البهرج ، يقطر الألم من ثناياها ، عبارات تكاد تكون رقشا مما كان الاغريق يكتبونه على مقابرهم . واذا كان الأمر أمر الفهم الثاقب للمعنى الحقيقى لشىء من

الاشياء ، كالحرب مثلا ، فلنقرأ ما وصف به لى هوا Li Hua أحد انتصارات التتار ، أو ما كتبه دو فو Tu Fu عن جاويش الفرقة لنرى أنه ليس ثمة فروسية زائفة ، ولا وطنية زائفة .

ولعل الصينيين يقتربون من اليونانيين أشد القرب من حيث تذوقهم للجمال ، وقد لا نجد شيئين يختلفان عن بعضهما البعض اذا رأيناهما لأول وهلة أكثر مما تختلف الصورة الصينية والافريز اليوناني ، ولكن بمقارنة الطريقتين نلاحظ أنهما سواء من حيث الاقتصاد في التفاصيل ، ومن حيث العناية بسمة الشيء الجوهرية ، والتعبير عنها بأقل ما يمكن من التخطيط .. كما لانجد في عصريهما الذهبيين شيئا فيه اغراق ، ولا شيئا لم يكن اليه داع ، بل نجد توازنا وتناسبا تامين .

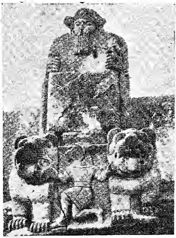
... ولو أن طابع الشيء المصور قد يكون مختلفا ، بسبب ما نحسه من غرام الصينيين بتصوير المناظر الطبيعية ، فاننا نلمس السمات المثالية نفسها في آثار الفنانين الصينيين واليونانيين على السواء .

وثمة وجه للشبه يسترعي النظر ، يتجلى في الشعر الصيني ، فمعظمه من القصائد القصيرة



طيف سقيم من اتروريا

كان الاتروريون — وهم قوم أناضوليو النشأة — يغرمون بكل شيء يجمع بين القسوة والشهوة — وقد كانوا أصل هذه المصارعات الوحشية التي شاعت بين الرومان ، كما كظوا دارهم الآخرة بالأرواح الشريرة التي تصور احداها هذه الصورة من رسوم مقبرة أوركو (تومبا دل أوركو)



من مبتكرات القريحة الشرقية

تمثال اله رباعي الشكل ، منحوت من الحجر الأسود ، جمع بين الوحشية والدمامة له وصيف هولة ، وقد عثروا عليه في قرقميش الواقعة على الفرات ، وهي مدينة حيثية من العهد المتأخر — والتمثال يبدو كأنما تركزت فيه أخبث سجايا الروح الشرقية وأشدها اعتلالا

التي يهدف ناظموها الى قول ما يكفي ، وليس أكثر مما يكفي لالقاء الخلجات الخاصة في روع القارىء الذي يشارك الناظم في مشاعره . ثم نجد في آخرها جميعا بيتا من الشعر على الأقل لم ينظمه الشاعر ، ثم يستشعر القارىء بما يستثيره الى نظم هذا البيت لنفسه .. واليونانيون في ذلك يشبهون الصينيين جد المشابهة ، فهم ، كما رأينا ، لم يكونوا يزخرفون العاطفة ، ولا يراكمون التأثير ، وكان بحسبهم أن يقرروا الحقائق في بساطة عجيبة وبلغة عالية ، دون أن يوحوا الى القارىء شعورا بعينه .

وقصارى القول ، فالواجب علينا أن نسلم بأن الرجعية كانت تجنح الى المبالغة في تقديس الماضي جنوحا لم يعرفه اليونانيون قط ، ومع ذلك نجد أن المبدأ الرئيسي الذي كان يدين به كونفوشيوس ، من أن الانسان خير بطبعه ، ولا يحتاج الى المرهبات التي جاءت بها الأديان ،

ولا الى حدود قوانين العقوبات ، وانما يحتاج الى تعليم سليم يجعله يسلك سلوكا حميدا ، نجد أن هذا المبدأ ربما كان له صدى يتردد فى كل قلب يونانى ، ان هذا هو المبدأ الخالص للروح الانسانى • فهل نكون على حق ، وهذه الاعتبارات بين أيدينا ، اذا نحن فرقنا بين اليونانيين والصينيين ، بجعلهما فئتين متباينتين ؟ كلا ، دون ما ريب !

على أننا اذا ولينا وجهنا شطر الطرف الآخر من العالم القديم ، لنستقرىء حال مصر ، لوجدنا المشكلة أكثر خطورة • فنحن نجد هنا قوما ارتفعوا الى مستوى رفيع من النجاح المادى لمزاولتهم نوعا من الرى يتضمن هذه الدورة الدائمة التى تستلزم عملا متواصلا يستغرق السنة كلها ، بحيث لا تدع لهم شيئا من أوقات الفراغ لانعام الفكر ، وكانت علومهم مقصورة على الحاجيات العاجلة التى تفتقر اليها الحياة اليومية •• وهم لم يحاولوا أن يطلقوا العنان لأخيلتهم ، ولم يستنبطوا شيئا من القوانين العالمية السليمة ، بالرغم مما بلغه علمهم من كفاية عجيبة فى ذلك المجال الضيق المرسوم له • وقد تبدو مصر هى الأخرى ، لأول وهلة ، أصدق مثال للحكومة الدينية ؛ وليس ثمة ما يدل على أنهم كانوا يواجهون الحقائق مواجهة من لا يعرف أنصاف الحلول ، فقد كانت جميع نظرتهم للحياة محاولة عاطفية أرادوا بها التهرب من مواجهة حقائق الموت والفناء المحضة •

ثم تعود الشكوك فتساورنا مرة أخرى ، فلقد كان اليونانيون لأمر من الأمور يظهرون دائما على احترام أكيد للمصريين ، وان كان هذا لا يدل فى الواقع على شىء ذى غناء •• على أننا اذا صرفنا النظر عن ذلك . وجدنا وراء هذا النبت المضحك من العقائد الغريبة ، والأرباب التى جعلوا لها رؤوسا حيوانية ، ما يدل على أن المصرى كان أميل الى سلامة التفكير وبشاشة النفس ؛ وكأنما فرض عليه دينه طائفة من العبادات الشكلية ، الا أنه لم يغل تفكيره الا بقدر قليل • وقد أخفق النضال الكبير الوحيد الذى قام به اخناتون فى سبيل الحق الا أنه أخفق لأسباب سياسية ــ ويوشك المرء أن يقول بداعى المصالح الذاتية ــ وليس لأسباب دينية ، فقد وجد كهنة أمون أن مخصصاتهم قد انتقصت • ثم انه مما له دلالته ان مثل هذا المثل الأعلى ، لم ينفك الناس يناضلون فى سبيله بحرارة فى جميع العصور •

أما فى موضوع الجمال ، فيجب أن نسلم بأن قليلين هم الذين استطاعوا أن يبذوا النحات المصرى فى الأسرة الثانية عشرة ، من حيث التوازن والاقتصاد فى الزخرف ، وانسجام الرسوم ، وذلك بالرغم من جمود التقاليد التى تقيده ، وقد يلذ لنا أن نضع شيئا من

سمات الفن المصرى

منحوتاته ونقشا بارزا ، وزهرية يونانية مصورة ، وشيئا من أعمال واحد من أساطين الفن الصينى ، مثل شاو مونج فو Shao-Mong-Fu ، جنبا الى جنب • والفنان المصرى أهل كذلك لكل ثناء فى مواءمته التامة بين فنه وبين الأشياء التى تحيط به ، وحسبك أن تتصور أحسن نقوش الحائط اليونانية ، وقد سلط عليه بهر الشمس المصرية المحرق ، الذى سرعان ما يفضح ذلك البهرج الزائف •

وفضلا عن ذلك ، فقد بلغ المصريون شأوا من الانسانية السمحة لا يرقى اليه الشك ؛ واذا نحن قسنا المصريين بمقاييس أزمانهم ألفيناهم أقل قسوة من غيرهم • ثم هم كانوا مشغوفين بالنظافة ، ونحن لا نفتأ نشعر بالعطف على هذا العجوز سنوحى الذى نفى بين قبائل البدو فاخذ يحن الى مطارف الكتان النظيف التى كان ينعم بها فى وطنه • وفى الحق ، لقد كان المصرى يتجه ببصره نحو المشرق ، فيرى هؤلاء الأقوام القذرين ، من السوريين وأمثالهم ، ذوى اللحى الملبدة ، الذين كان ينظر اليهم بالعين التى كان اليونانيون ينظرون بها الى جميع الهمج من بعد •

ومن ثم ، فلنول وجوهنا شطر المشرق أيضا ، حينما نعترف بأن ثمة أمورا كثيرة عن مصر تبرر وجود مثل هذه اللفظة «مشرقى Oriental» ، فافكارنا تتجه اتجاها لا عوج فيه الى ذلك الموئل القديم من موائل الثقافة الذى يمتد عبر دجلة والفرات ، ويمتد أثره الى ما حول الهلال الخصيب كله ، كما يمتد شمالا الى هضبة الأناضول •

ان أولئك الذين تسوقهم ميولهم الى الرجوع بأنظارهم الى تاريخ هذه البلاد القديم قد يضيقون بالنقد غير العادل .. وهم على حق فى ذلك . فالالمام بفن السومريين العجيب ، وبالصور الجميلة التى خلفوها لنا عن أشخاصهم يوحى بأوشاج من النسب لا نكاد نقل عن تلك التى يوحيها فى نفوس دارسيه تاريخ مصر القديمة ، وهو التاريخ الذى يبز بكثرة وثائقه التاريخ السومرى ، فالقانون العرفى لمدينة لكح ينم عن آثارات من العبقرية الانسانية والسياسية جميعا . وحينما يبلغ بنا المطاف أيام حمورابى ، أحد الملوك الساميين ، نجد ريحا من النضارة التى تنجم كلما احتكت ثقافتان ببعضهما .

ولكن كلما تكشف لنا تاريخ هذه البلاد ، عرانا شئ من خيبة الأمل ، شئ من الوعد المكذوب ؛ فالبابليون المحدثون ، اذا قورنوا بأجدادهم ، ظهروا هرمين ضعفاء ، بل كادوا يبدون بلهاء ، واذا قورن الأشوريون بآبائهم بدت عليهم الغطاطة والتمرد . فرجل سومرى مثل جوديا يبدو أقرب الى الروح العصرى من بختنصر . ويمكن أن نستنتج من هذا أن الروح الشرقية ، اذا تقصينا آثارها ، ليست خصيصة من خصائص الشرق القديم ، ولكنها فرع قد لا يكون سابقا على الحضارة اليونانية بوقت طويل .

فما هذه الروح الأجنبية اذن ؟ هل هى الروح المشرقية ؟ وهل يمكن تعريفها بالموازنة بينها وبين روح اليونان ؟ .

فبدلا من الحرية التى لابد أنها كانت عاطفة مشتركة تحس بها دول المدن السومرية على أنها حق مشاع بينها جميعا ، نجد استبدادا مطلقا يمارسه الملوك فيستذلون به جسوم الناس وضمائرهم ، وذلك بوساطة تلك الكهانة الرجعية التى لم يشهد لها العالم مثيلا من قبل . أما من حيث البصيرة الحرة المشغوفة بالبحث . فمن العسير أن نقول ان القرون الخمسة والعشرين التى غبرت بين الصناع الفنانين فى أور البدائية وسقوط نينوى قد شهدت شيئا من التقدم المادى فى أى فرع من فروع المعرفة ، اللهم الا فى فنون الحرب ، وقد كان حمورابى نفسه مفننا أكثر مما كان مفكرا أصيلا . ولا يمكننا بأى حال أن نعثر فى تاريخهم كله على شخص مثل أخناتون أو كونفشيوس .

أما من حيث استقامة النظر الى الأمور ، فيروعنا أن نجد جهلهم بها مشفوعا بزيغهم عنها فى آن واحد ، فنحن نجد ، من جهة ، ذلك الضلال عن حقائق هذا العالم ، وهو الضلال الذى أغطش قلوب كهنة بابل الرجعيين الذين يعكفون على آلهة مقضى عليها ، بينما تترنح الامبراطوريات من حولهم ، وقد فنيت شخصيتهم فى آخر ملوكهم العاجز نابونيدوس الذى كان مشغولا عن الملك بأبحاثه فى الآثار .. بينما نجد ، من جهة أخرى ، سخرية الساحقين الأشوريين التى لا ترحم . وبدلا من البساطة نجد التعقيد ، الذى يتمثل فى تلك الأبهاء المغلغلة فى القصور الملكية ، ونظاما اجتماعيا معقدا يتجلى فى تلك الرتب الكهنوتية الدقيقة ، وتلك الطقوس المحكمة التى تقام خصيصا فى المعابد .. وبدلا من الانسانية نجد الحقارة الذليلة أمام الآلهة التى لم تصور فى صور آدمية .. الآلهة التى تتحكم فى عالم ليس للانسان من الشأن فيه بقدر ما للشياطين التى تنزل به البلايا .

وبدلا من الشباب والنضارة نجد روحا باغيا بطل بروقه من أغوار الماضى السحيق . وبدلا من الجمال ، أعنى ذلك اللون من الجمال اليونانى ، نجد هذا الفن الذى يستطيع فى الواقع الاستحواذ على العقل الانسانى استحواذا يذهب اللب روعة ورهبة ، الا أنه يتسم قبل كل شئ بالمبالغة . ولنتأمل فى تلك التماثيل الشاذة الوحشية ، التى نصفها آدمى ونصفها جسوم ثيران ، وهى التماثيل المتخذة رمزا للقوة والحماية بجانب بوابات المدن والمعابد ، والتى كان اليونانيون يفضلون أن يضعوا بدلا منها هولة مجنحة ؛ أو تأمل فى النقوش البارزة على جدران القصور ، وهى تلك النقوش التى قد تكون شائقة فى تفصيلاتها . الا أنها لا شكل لها ولا اتزان فيها ، وان كانت تبهر العين فلا تدرك أولها من آخرها ؛ فيا ترى ؟ أية مثل انسانية نحتت هذه التماثيل للتعبير عنها ؟ اللهم لا شئ .. الا انتصارات مفظعة ظفر بها ملك فى حرب أو طراد .

ويشيع الاغراق كذلك فى نطاق المسائل

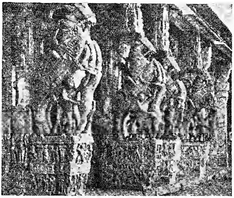
الاخــلاقية ؛ فهم يتسمون بالتحول الحــاد في مشاعرهم من النقبض الى النقيض . والحق أن الانســان قد يكابد ، وهو في حالة من هاتين الحالتين ، تجربة من أعمق التجارب الروحية ؛ ونحن اذا أردنا أن نبحث عن السلوان الروحي ، وعن التسليم والايمان ، والأمل والبر ، وجب ألا نبحث عنهــا عند الاغريقي الذي ينظر الى دنيــاه بعينين صافيتين ونظرة مســتقيمة . والمسيحية مثالية في ذلك ، وأعمقها للعالم الحديث تنحصر في كونهــا وصلت الى الغرب بعد أن اعتنقها اليونانيون وتناولوها بالتحوير ، وذلك قبل أن نمضي الى النقبض الذي كان يفسدها أو ينسخها .

وهــكذا شــأن الروح الشرقية التي يمكن تعريفهــا بموازنتها بما يباينها . وقد يحتاج شرحهــا الى معــرفة أعظم مما يتســع له علم الانسان ؛ الا أن أحوالا بعينها من أحوال نموها يمكننا أن نفطن اليها .. ثم هي أحوال تنم عن نفسها . وقدكان موئلها هو هذا الهلال الخصيب الذي يضم الطرف الشمالي منشبه جزيرة العرب بين الهضاب وأراضي الــكلأ ، والتي استمدت ثقافتها ونظرتها من الحضارة النهرية العظيمة التي أزهــرت في الرافد الشرقي ، حيث عاش الناس بما زاولوا من ري دائم ، كما هو الشأن في مصر ، ولكن في جو أقل لطفا ، على أن هذا الهلال كان معرضا للغزو من جميــع جوانبه ، لا كمصر التي كانت في أحقــاب طــــويلة من تاريخها مستعصية على الغزو ، أو كانت أداة فحسب لتصفية الشعوب التي لا تختلف عنها في ثقافتها اختلافا ذا بال ؛ وقد كان ذاك الهلال يفصــل بحكم مــوقعه بين جنسين من الناس مختلفين ، وأهم من ذاك ، بين نظامين من نظم الحيــاة يكادان يــكونان متناقضــين ، فأحــد الجنسين من سكان المنطقة الجبلية ذوي الرؤوس العريضة ، والآخر من سكان بلاد العرب ذوي الرؤوس المستطيلة ... زراع وادي الرافدين .. ورعاة أرض الكلأ ..

ولعل اتصال هاتين القوتين قد كان منشأ أول ثقافة سومرية زاهرة ، الا أن القوم هنــاك لم يحققوا في ثقافتهم تلك ، هذا التوازن المستديم الذي حققه سكان البحر المتوسط ، حيث ألف الانسان تلك التوفيقات الدقيقة التي يقتضيها نظــام جد صالح . ولقــد كان للجو مطالبــه العظيمة ، من الجسم البشري ؛ وقد فســد الدخلاء على البــلاد ، فأصبح الطريق ممهدا لغارة جديدة من هذا الجانب أو ذاك ، وكانت البيئة الجامدة تشــــكل كلا بدوره ليلائم طابع البلاد الغريب ، وقد انتهى هذا الى شعور دائم بعــدم الطمــأنينة ، وبقــلة الثقة في قــوى الانسان ، وقلاقل بعيدة الغور زلزلت أصول الحياة الاجتماعية التي استمرت حتى ذلك اليوم .

وأطــرح الناس أوزارهم ، وتركوا للســماء أمر مقاديرهم .. هــذا .. بينما نراهم قد فايضوا ملكا أو فئة منهم على حــريتهم ، في نظــير ولاية أمرهم ، أو مقابل أن يتركوا أحرارا ، يلتمسون أرزاقهم دون أن يقتضــيهم ذلك التفكير في الشئون السياسية .

وهكذا استعبد السكان استعبادا اقتصاديا،وان لم يستعبدوا بالضرورة هــذا الاســتعباد المفهــوم من هــذا اللفــظ ، وقــــد كان لمثــل هــــذه



فن جنوب الهند الديني المهوش في شكله

بين المعابد الهندية والمعابد اليونانية تباين شديد . وهــذه صورة رواق خــلاوي في معبد من معابد قشنو بجزيرة سريرانكام ، ولعــله أضخم معبــد في العالم ، ومع هذا فلا يفتك أن تتأمل هــذه الرتابة التي تضيق بها النفس فيهذه الأعمدة ذاتالخيل . ثم حوشيةالأعمدة في مجموعها ، بالرغم من التفصيلات الشائقة .

الأسباب أثرها المشابه فى الهند ، حيث حاول الغزاة الآريون أن يحافظوا على نقاء عنصرهم وان تكن محاولتهم محاولة نظرية ، وذلك بدلا من أن يندمجوا فى الأهالى القدامى ، وكانت ثمرة ذلك قيام النظام الطبقى الذى ينطوى على تفكك اجتماعى يشبهه فى نأصله ، وقدكان بوذا مثالا لهذا التحول الفذ ، وكذلك كانت مهولات فن المعمار فى الهند الجنوبية ، كما فى سريرانكام Srirangam مثلا ، ولقد كانت مصبية الفرس أنهم رأوا ألا مناص لهم من الدفاع عن مثل هذه الروح ضد الغرب ، وذلك أنهم ربما كانوا مجانسين لليونانيين من حيث العنصر ، وان لم يكن ثمة شك فى أن لغتهم كانت قريبة الأرومة من اللغة اليونانية ، بل هم كانوا يشبهونهم فى أشياء كثيرة ؛ لأنهم استسلموا هم أيضا .

وما ان تكونت هذه الروح حتى كان يبدو من العسير أن تتزعزع ، ولقد خلدتها قرطاجة فى المغرب الأقصى فى دينها الغليظ ؛ كما أظهر الاتروريون الذين وردوا على ايطاليا من آسيه الصغرى ، شيئا من أبشع سمانهم ، وهم ، وان لم يكونوا يبالون بأى شئ قط أول الأمر ، الا أنهم قد جرتهم آخر الأمر مهمة المحافظة على استعباد شعب ممتلىء حيوية ، ولايمكن لأى انسان يريد أن يدرك ماتستطيع الروح الشرقية أن نفضى اليه آن يصنع خيرا من أن ينظر الى مظلمات قبر الكاردينال Tombe del Cardinale أو مقبرة أوركو Orco أو قبر بيغه Bighe فى كورنيتو .

ومن الطريف أن نرى أثارة من تلك الروح فى اليونان نفسها ، وكان فى أسبرطة أيضا شعب من الرقيق ، وقد تملكها الفزع فاشتطت فى تيار هذه الطهرية العسكرية ، الا أننا نجد أن بوزانياس الأسبرطى ، الذى انتصر على خصومه فى بلاتايا ، هو نفسه الذى ساقه ظفره الى النهاية القصوى من النعيم الشرقى وغاية القحة الشرقية .

وعلى هذا فيبدو أن الروح اليونانية والروح الشرقية تمثلان تمثيلا صادقا انشعابا عظيما فى المثل الانسانية ، ويمكننا أن نلاحظ أنهما قد نشأتا عن أصل معتدل غير محدد تحديدا دقيقا ، وهو أصل أشبه بنواتين فى خلية توشك أن تنقسم ، ولم يكن من شأن كل اتصال مادى بينهما ، منذ ذلك التاريخ فصاعدا ، الا أن يوسع الهوة الروحية بينهما ، وقد أخفق الاسكندر فى رتق هذا الخرق اخفاقا مشهودا ، وقد كان موته فى شرخ شبابه مأساة من مآسى هذه الحياة ؛ وحدثت رومة حذو اليونان فأشعلت نار الحرب الفارسية مرة أخرى . ولكن على قرطاجة . وفضلا عن هذا ، فان كلا من الروحين ، الغربية والشرقية ، قد ثابتا الى رشدهما ، فغزت الأولى أوربا ، وانتشرت الثانية على يد ثمرة من خير ثمارها ، الا وهى العقيدة الاسلامية ، موغلة فى الشرق بعيدا عن مصدرها الأصلى ، وممتدة على طوال الشواطىء الافريقية نحو الغرب صابغة بصبغتها الشرقية مصر التى لم تكن لتستعصى على مثل هذا الاصطباغ . وقد كانت بوزنطه بطلة الغرب فى المعركة الكبرى ؛ على أن موجة الحظ كانت قد ارتدت حينما سقطت بوزنطه فى يد الترك وكانت قد اصطبغت من قبل بالصبغة الشرقية اصطباغا غير قليل . الا أن العالم لم يقيض له أن يرى ماذا كان ينتهى اليه انتصار أخشويرش فى سلاميس لو أنه كتب له النصر فيها . وها هى ذى الأمبراطورية البريطانية اليوم نعطى فرصتها لتقوم فى الهند بانجاز ما كان يساور الاسكندر من أطماع ، الا أنها ، على ما يظهر ، لم تنته الى شئ أكثر مما عناه كيلنج فى قالته العقيمة .

اتساع الهوة الروحية

والمسئلة الهامة الآن هى ما اذا كانت الخلبة قد انفسمت بعد ؟ وصفوة القول أننا يجب أن نسلم بأن الهوة لم تبلغ من العمق هذا الحد ، وبأن طائفة من أشد المبالغات التى تقال فى هذا الشأن يجب أن ترد الى ما يشبه الشعور السقيم بالعصبية الجنسية ، وهو شعور لم يكن غريبا على الاغريق . على أن من الحكمة ألا ننسى ما تعلمناه من سنة الارتقاء .. وذلك أن أعراض اليوم ، خليقة بأن تصبح من الأصول فى الغد .

الفصل الأربعون

الأديان الناشئة في الشرق الأقصى

عرض عام لتقدم الهند والصين الروحي والفلسفي في القرن السادس قبل الميلاد

بقلم . أ . بريديل كيث دكتور في القانون المدني ودكتور في الآداب

وأستاذ الكرسي الملكي للسنسكريتية وفقه اللغة المقارن بجامعة ادنبرة ومؤلف كتاب « ديانة الفيدا وفلسفتها » وغير ذلك من المؤلفات

في الوقت الذي كان فيه الايرانيون الذين جعلتهم حياتهم في أرضهم الجبلية صلابا أشداء يغتصبون السيادة على آسية تحت قيادة حكام من غلاة أتباع أهور مازدا العظيم ويجتاحون ما يعترض سبيلهم الى خوض غمار المعركة الكبرى بين الشرق والغرب ، كان أقاربهم الأدنون آريو الهند يعملون على اقامة ديانتين قدر لهما يؤثرا تأثيرا حيويا باقيا في معتقدات ملايين الناس وأعمالهم · وحقيقة انه مما يسترعي النظر هذا التباين بين فتوح الفرس الزائلة في العالم المادي والعجائب التي أتت بها الهند في ميدان ما وراء الطبيعة والأخلاق ·

على أننا نضلل الناس أشد التضليل اذا تصورنا الهند وطنا للفلاسفة ورجال الفكر ، وأنها قد خلت من رجال العمل ، فهي لم تخر ساجدة أمام غزوة الاسكندر الأكبر كما تصور ماثيو أرنولد بخياله الشعرى ، فقد بدلت جهد اليائس المستميت في مقاومة هذه الغزوة ، وأوهنت من بأس رجاله العتاة مما حدا بهذا الفاتح الى الكف عن محاولة لم يكن يملك لها العدة الكافية · أما الأقاليم التي ضمت الى المملكة المقدونية فترة من الزمن بفضل قوة جيوش الاسكندر (أنظر الخبر السادس) وبراعة سياسته فقد سارعت عند موته الى تحرير نفسها من نير اليونانيين ، كما أن ظهور امبراطورية موريا العظيمة التي أقامها خاندراجوبتا انما جعلت سلوقس Seleucus على أتم استعداد للاتفاق مع هذا المنافس القوى ، فعقد معه معاهدة حررت الهند من الحكم الأجنبي ·

وتفاوض أسوكا أعظم ملوك الموريين ، مع خلفاء سلوق مفاوضة الند للند · ولم ينفسح المجال أمام اليونانيين الباكتريين للاغارة على الهند الا عند ما تراخت أواصر الامبراطورية بعد موته · (أنظر الفصل ٤٩) ولم يكن ينقص الهند الرجال المقاتلون ولا الرغبة في الحرب ، وانما كان ينقصها البراعة في التنظيم ، وظهور الهند بمظهر الدولة القوية الجانب في عهد الموريين يسهل تفسيره اذا تذكرنا أن الدولة الفارسية قامت بفتوح كبيرة على حدود الهند ، وأن العقل الهندي كان على الدوام سريعا في الملاحظة ومحاكاة أعمال الحكام الأجانب ، وقد عجل قلب الاسكندر للامبراطورية الفارسية بظهور حركة رد فعل في الهند لابد أنها كانت على جانب كبير من القوة فلم يستطع مناهضتها خلفاء دارا المنكودو الحظ ·

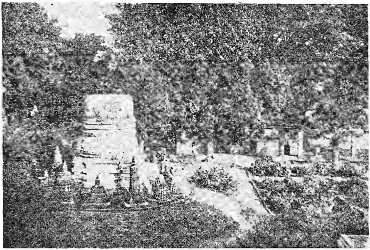
على أن ما حققته الهند في عالم الفكر كان يذكيه بصفة مباشرة ازدياد الفروق بين أهلها زيادة مطردة ، وكان هذا النمو هو طليعة النظام الطائفي الحديث ، وربما كان الآريون الأوائل لا يميزون تمييزا كبيرا بين الكاهن والمحارب الحاكم ورجل الشعب ، أى البراهمانا والكساتريا والفزيا ، فقد كان يفرق بين الآريين قاطبة وبين السكان الأصليين — السودرا — الذين كان الغزاة ينزلون بهم الى مرتبة الأسرى

بداية نظام الطبقات

ان لم يبيدوهم · وانقضى عهد الغزو فأعقبه عهد الاقامة والاستقرار ، ولم يكن القضاء على السودرا من الأمور الهينة لأنهم كانوا جدنافعين في مباشرة الزراعة والقيام بالخدمة ، وكان المحاربون والمزارعون على السواء حريصين على أن يصبحوا من ملاك الضياع الصغيرة أو الكبيرة ، وأن يقوم السودرا بالقسط الأكبر من العمل في

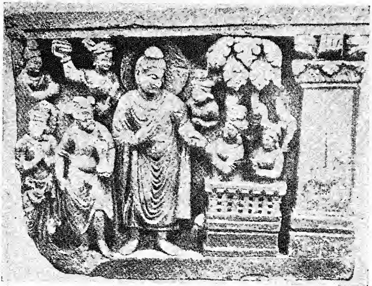
ممتلكاتهم • وفي حالات أخرى لم يعامل السودرا هذه المعاملة القاسية وانما سمح لهم بأن يقبلوا سيادة الفتح ، وأن يظلوا مقيمين في قراهم ، وأن يزرعوا القطع الصغيرة من الأرض التي تخصهم ، على أن يؤدوا عنها خراجا لسيدهم الذي يستطيع أن يهب حقوقه لأي فرد آخر من أفراد أسرته أو شيعته من المقاتلة •

وسرعان ما نشأ التفاوت الاجتماعي ، وقد تمخضت الغزوات عن ظهور الملك قائدا حربيا كما حدث في انجلترا في أيام التيوتون • وأخذ منصب الملك يتحول الى منصب وراثي ولو أن ذلك لم يكن مطردا ، وساهم أولاده وذراريهم في تكوين طبقة الكشاتريا أي رجال الطبقة الحاكمة ، وكان يضاف اليهم حاشية الملك المصطفاة ، وانفصلت الواجبات الملوكية فصل وظيفة الكهانة عن وظيفة الحكم ، هذا اذا صح أن الوظيفتين كانتا مندمجتين اندماجا مألوفا في الهند الآرية القديمة • وكانت حاجة الملك الى معونة أهل البراعة والمهارة في القيام على أتم وجه بالمراسم والشعائر اللازمة للبيت الملكي في ازدياد مستمر وبخاصة حاجته الى التعاويذ التي كانت تضمن له النجاح في حكم قومه وفي هجماته على الأمراء الآريين المنافسين أو على الجموع الغفيرة من السكان الأصليين الذين ظلوا على أطراف الحدود الآرية ، وكان الكاهن في العصور البدائية يمتاز من غير شك بوظيفته وصلاحيته الطبيعية لها . وبمرور الزمان أصبح لزاما عليه أن يتدرب على ممارستها ، تدريبا منظما ، وصار توارث هذه الوظيفة شيئا مألوفا ، لأن الثروة التي يسرت أسبابها الأحوال المستقرة كانت تكفي لكفالة عدد كبير من غير العمال ، وكان بين هاتين الطبقتين طبقة الكهنة وطبقة الأشراف ، تحالف متين ، فقد كانت هاتان الطبقتان تشعران بحاجتهما الى التساند . ذلك أنه اذا كانت المساعدة المادية التي يقدمها الأشراف لا تقدر بالنسبة للكهنة الذين جمع الكثيرون منهم بلا ريب ثروة ضخمة من هذا المورد . فان سلطة الملك كان يدعمها أيضا ما يلقاه من عون الكهان الذي كان لا يقل خطرا عن هذه المساعدة ، فقد



(المكان المظلل بالأشجار الذي انبعثت منه الديانة البوذية)

تلقى سد هارتا جوتاما نور المعرفة بينما كان جالسا يتفكر تحت شجرة « البو » في غابات جايا بمدينة بهار الحديثة • وقد بنى الملك أسوكا ضريحا الى جانب هذه الشجرة حل محله بعد ذلك معبد كبير هو البده جايا المشهور ، وعلى مقربة من الحائط الغربي لهذا المعبد تقوم شجرة التين الضخمة التي جلس تحتها بوذا ؛ وهناك افريز من الآجر يحيط بجذع الشجرة يجلس عليه للراحة ذلك العدد الذي لا يحصى من الزوار المتعبدين اليوم •



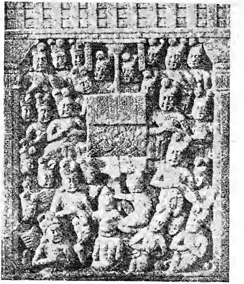
بوذا يبشر للناجا الذين يعيشون على الأشجار

كان سكان الهند القدامى يعبدون عددا كبيرا من أنصاف الآلهة أو الكائنات الأسمى من الانسان ، وكان الناجا من بين هؤلاء ، وهذا الاسم يشمل الثعابين الجنية البحرية فى شكلها المألوف المعروف بالكوبرا ،وجنيات الأشجار ، وهى آلهة قوية المراس كان يعتقد بأنها كانت تتخذ باختيارها شكلا انسانيا ، وتمثل الناجا فى جميع القصص القديمة أتباعا لبوذا أو مناهضين له حتى تنتصر عليهم تعاليمه ، فيستمعون اليها فى سرور كما يبدو فى هذا النقش الموجود فى تخت باهى .

كانت براعة هؤلاء فى القيام بواجباتهم الدينية لا تكفل رضا الآلهة وتدفع أذى الأرواح الشريرة فحسب بل كانت كذلك تغرس فى نفوس الناس واجب الخضوع للسلطة الملكية .

ومن ثم كانت هاتان الطبقتان تتعاونان على الناس ، وأخذت تظهر بين الناس باطراد فروق عظيمة فى الثروة،ولم يكن يربط صاحب البيت الغنى الذى كانت تزرع العبيد له أرضه بقومه الفقراء سوى رابطة الجنس تقريبا ، وكان الفقير لا يملك أرضا أو يملك قطعة صغيرة ، وكان لا يستطيع مباراة صاحب البيت فى الماشية التى كانت فى ذلك الوقت أنفس المقتنيات . وكانت مكانة السكان أنصاف الأحرار تلى منزلة هؤلاء جميعا ، ولكن هذه الفروق الاقتصادية وتقسيمات الطبقات كانت تقويهما أرومة الجنس وتبدلهما . فالآرى الأبيض اللون كان يشعر بتفوقه على أعدائه شعورا عميقا عندما كان يحتك بالسكان الأصليين السمر احتكاكا مباشرا . وأذاعت كراهة الزواج من السكان الأصليين اعراضا عن الزواج خارج دائرة الكفاة فى الطبقة والمهنة ، ومهدت بالتدريج السبيل الى استحالة نظام الطبقات المألوف الذى له نظير فى أمم كثيرة الى نظام طائفى شديد الجمود ، ولا حاجة بنا الى القول بأن تحريم الزواج المختلط لم يجعل الزواج بين رجال من الطبقات الأرقى ونساء من الطبقات الأدنى نادر الحدوث ، وكان هذا الزواج ينمر أولادا تتكون منهم طائفة أخرى ، فقد كان يضن عليهم فى كثير من الأحيان بالانتساب الى طبقة الآباء ، وكانوا هم أنفسهم يرفضون بطبيعة الحال أن يهبطوا الى مستوى أمهاتهم الاجتماعى .

ومهما يكن الأمر فان الهند فى القرن السادس ق . م قد برئت أو كادت من الصرامة والتشدد اللذين اتصفت بهما فى العصور الوسطى



تمجيد آثار أقدم بوذا

كانت آثار أقدام بوذا موضوعا للاحترام من عصر جد مبكر ، ويبدو فى هذا النقش البارز أثران فوق هيكل يركع حياله شخص ملكى وقد وضع يديه عليهما ، ويميز كلا الأثرين رمز العجلة ، وهى احدى العلامات الاثنين والثلاثين للطفل الذى قدر له أن يصل الى مكانه بوذا

والعصر الحديث ، وكانت العوامل التى أفضت الى قيام النظام الطائفى ماثلة فعلا ، ولكنه لم يكن لها أثر حاسم ، وكانت الحياة فى القرية لا تزال بسبطة تتميز بقدر كبير من المساواة والزمالة الحسنة بين المزارعين ، ولو أن الكثير من الفنون والحرف كان يعهد بهما الى أشخاص يعدون بلا شك من طبقة أدنى ، وكانت بعض المهن تعد مانعة من الوجود فى القرية ، وكانت التجارة من ناحية أخرى تزيد فى ثروة عدد من القرويين وترفعهم فى تقدير الناس وفى نظر أنفسهم فوق زملائهم بكثير .

ولم يكن بد من أن تجد هذه الطبقة من الكهان الذين يتوارثون مناصبهم فى ظل أولياء من الأغنياء سواء كان هؤلاء من الملوك أو من الشعب ، الراحة والرضا فى تفصيل الشعائر تفصيلا ، وابتكار الطقوس السحرية التى تهب أولياءهم السلطان والثروة والذرية التى تتطلع نفوسهم اليها ، وتتضمن نصوص البراهمانا والسوترا شواهد عدة على تفصيل هذه الطقوس ، والحق أن المعابد كانت لا تزال مجهولة ، على أن تقديم القرابين ربما استمر سنة أو أكثر واستلزم حضور ستة عشر كاهنا أو أكثر بلا انقطاع هم وعدد غير معين من السدنة .

وكان كل عمل من أعمال الكهنة يمكن أن يطالع الناس بدلالة حفية ، وكان البراهمة يعلنون فى كبرياء أن الكاهن يستطيع ببراعته فى ادارة الحفلة الدينية أو اقامة شعائرها أن يحصل على البركات التى يصبو اليها وليه ، أو ان يسوق اليه الهلاك المحقق لو شاء ، ولم يكن القربان فى نظر الكاهن مجرد محاولة لاسترعاء انتباه الاله الذى قد يكون مشغولا فى مكان آخر أو الذى يكون قد تزلف اليه عابد آخر منافس ، بل أصبح هذا القربان أداة نفسية من أدوات السحر تقيد الآلهة وتضمن الحصول على البغية أو على الأقل تضمن الحصول عليها اذا لم تتدخل مؤثرات معادية ، ونفس هذه المؤثرات يمكن التغلب عليها اذا نعودنا السخاء مع الكهنة فهم ـ كما يزعمون فى كبرياء ـ الآلهة على الأرض .

ولم يكن غريبا أن يثير التوسع فى شعيرة القرابين النفور والاشمئزاز أكثر مما يثير الرضى والابتهاج فى بعض العقول المفكرة ، وأن تنشأ مدرسة فكرية معارضة لذلك لا تعبأ قليلا بتقديم الضحية ، وانما تحاول بدلا من ذلك أن تجلو سر الكون . ومهما يكن من الأمر فانه مما يبين ماهية الأفكار التى انبعثت عنها تلك الحركة أن الاصطلاح الذى حاولت أن تصف به الحقيقة الكامنة وراء الدنيا هو « براهما » وهى كلمة تدل على الدعاء أو السحر المسيطر على الآلهة ، والذى يسيطر فى الجوهر على سير الدنيا ، ومن ثم فان القوة المقدسة الكامنة فى الدعاء تستخدم فى وصف الأصول الكامنة لتعدد الحواس والتى يعد كل ما يعرفه الانسان مظاهر لها .

وأضيفت الى هذه الفكرة فكرة أخرى ، وذلك

أن تفكير الهنـد المبكر نفـذ الى تلك الحقيقة ألا وهى أن الدنيا مهما كانت غير محددة ومهما تنوع أعلها فليس هناك ما هو أعظم من روح الانسان أو ال « اتمان Atman »

عقيدة الأتمان

ومن ثم نشـأت العقيـدة التى تجمع بين هاتين الفكرتين بجرأة ، وهى فكرة أن الكون ونفس الانسان أو البراهمان والأتمان هما شيء واحد ، وهى عقيدة رسخ الايمان بها ، بالرغم من ادراك النـاس ادراكا تاما صعوبة التعبير عن الصلة بينهما تعبيرا بينا ، وعقيدة الايانبشـاد Upanishads التى يرجع تاريخها الى سـنة ٦٠٠ قبل الميلاد تريـنا رضا هؤلاء المفكرين القدامى عن فكرتهم وما كان يعترضهم من صعوبات فى تطبيقها •

وقد ذهبوا الى أن الكلى وراء المعرفة جميعا ، لا يوصف • ولكنه فى الوقت ذاته هو النفس فى الانسـان والرائى الذى لا ينظر ، والمفكر الذى لا يتناوله الفكر • وهو موجود ومن ثم فهو كائن ، ولكنه ليس كائنا على النحو الذى نعرفه فى هـذا العـالم الذى يقوم على الحقيقة المكتسـبة من التجربة ولذا يجـوز أن نصفه أيضا بأنه « غير كائن » وهو فوق تصورنا العادى للزمان والمكان ، يمكن فى الواقع أن تنطبق عليه العلية ، وهو برغم ذلك متغلغل فى أعماق الكون كله الذى هو بوجه من الوجوه علته وسببه •

ويضـاف الى هـذا التصور الدقيق تعقيد جديد سببه قبول هؤلاء المفكرين لعقيدة جديدة لم تكن معروفة عند الهنود الفيديين القدامى ، وليس من الميسور أن نقـول على وجه التحقيق ما الذى سبب الرواج العظيم لعقيـدة تنـاسخ الأرواح أو عقيدة التقمص فى الهند ، ولو أننا نستطيع أن نلاحظ أن الاعتقاد بانتقـال أرواح الموتى الى بعض الحيوان أو الشجر أو غـيرهما من الأشياء كان بلاشك دائعا بين القبائل الأصلية ذيوعه فى العصر الحاضر ، ولكن مغزاه وشأنه فى الهند متصلان أوثق اتصال بالتشاؤم السـامى فى الفكر الهنـدى من ناحية ، وبعمق احسـاسهم بالفضـائل الخلقيـة من ناحية أخرى •

ولا ريب فى أن المـوت كان مـكروها عنـد الفيديين الهنود الأوائل ، ولـكن نظرة القيـدى لم يكن يغلها بلا موجب الخوف من المستقبل ، وربما كان طول الفه لجو بلاده المميت قد جعل عقله النزاع الى الحزن يرى فى الموت الذى ينهى الحياة صورة لألد أعداء الانسان • ولكن فـزعا



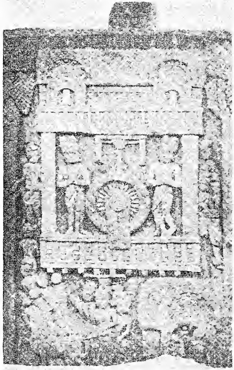
فن العمارة الهندى فى عصر الملك أسوكا

هذا البناء يمثل الضريح الاصلى الذى بناه الملك أسوكا (سنة ٢٥٠ قبل الميلاد) لشجرة بوذا المقدسة ، وقد كان بناء مربعا من طابقين يفصلهما « درابزين » عريض ، وفى الطابق الأعلى الشجرة ، وقد حف بها من جانبيها شكلان ضخمان ، وفى الطابق الأسفل المقعد المقدس حيث قضى جوتاما سنوات فى التأمل

جديدا طرأ على الحياة والموت عند ما نمت فكرة بأن العدو الأكبر قد يضرب ضربتــه حتى فى العالم الآخر الذى تكتنفه الحجب ، ويرغم الميت على تجرع كأس الموت مرة أخرى • واذا بدلت هذه الفكرة بحيث تنطبق على موت آخر يصيب المرء فى الحياة الدنيا لا فى الحياة الاخرى لأصبح مذهب تنــاسخ الأرواح ناضــجا النضج كله ، والحقيقة أن انتقال الأرواح ظهر فى المؤلفات البرهمية قبيل عهد رسائل الاوبانيشاد • ومهما يكن من الأمر فان هذه الفكرة تظهر فى هــذه الرسائل مرتبطة بتصور هام جديد على جانب عظيم من الأهمية ، هو الاعتقاد بأن ما يزرعــه الانسان فى حياته لابد أن يحصده فى الحيــاة الأخرى ، ومن ثم فانه مهما كانت حالته عــلى الارض اليوم فانها نتيجة أعماله فى حيــــاته الغابرة •

واذا تتبعنا هذه النظرية الى نتيجتها المنطقية وجدناها هادمة للنشاط والتبعة الانسانية ، لأنها تعلن أن كل ما نفعله أو كل ما نحن عليه ينشأ مما فعلنا أو مما كنا عليه فى الزمن الغابر ولــكن هــذا ليس هو الناحية الهامة فى نظر مفكرى الهند ، فهم انما يتجهون بأبصــــارهم الى المســتقبل ويشــيرون الى المغزى الأخــلاقى المتحصل من ان الانســان ينبغى أن يسير على سنن الحكمة والعدالة فى الحياة التى يحياها فى الحاضر ، لأن كل ما يصنعه الآن سيحاسب عليه فى الحياة التالية . واذا لم يتحقق ذلك ففى حياة أخرى قادمة ، زد على ذلك أن هــذه العقيدة تزود الانســان بنظرية تفسر سرور الحياة وأحزانها ، فاذا كانت الناس تعانى الأذى الفادح والظلم ، كما هو الواقع ، فــلا بد أن يكــونوا فى ماضيهم قد آذوا وظلموا غــيرهم من الناس فهم الآن يقطفون ثمرة أعمالهم السيئة •

وقبول هــذا المذهب يظهر الانسان مقيدا دائما أبدا بصور من صور الوجود لا تنتهى ، تختلف فيها رتبته من حشرة من الحشرات التى لا تكاد تتنفس حتى تهلك الى اله من آلهة قبــدا ، ذلك أن هذه الآلهة لا يمكن أن تعد معصومة من دورة التنــاسخ هــذه • ولــكن عقول فلاسفة تلك الأيام كانت ترى أن هذه الدورة التى لا تنتهى كان يتجلى فيهــا الأعياء والاضطراب ، ومن ثم لم يكن بد من التمــاس مخرج ، وقد أتت فلسفتهم بهــذا المخرج وهى الفلســفة التى تقول بتحقق النفس بالكلى ، فاذا ما أدركت النفس أنها هى الكلى وحققت هذه الوحدة فى لحظة من لحظات التجرد المطلق وشطحة من شــطحات التصوف تحطمت الى الأبد الروابط التى تربط الانســان بالحياة ، وقد يعيش الانسان



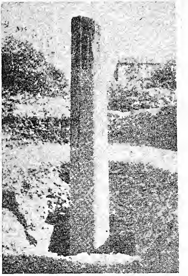
مزار عجلة القانون المقدسة

من تقاليد البناء البوذى تمثيل البوذا بالرموز ، وأحد هذه الرموز وهو عجلة القانون نراها فى الصورة فى مزارها ، وهو بهو مكشوف قائم على عمد مشيدة فوق ركائز مزينة «بدرابزين» بوذى يعلوها طابق أعلى والملك باسنادى يزور المزار فى عربته

سنوات قلائل فى جسمه الفانى ، ولكنه ما أن يتجرد منه حتى يستريح راحة أبدية ، لا راحة الفناء والعدم ، وانما راحه الاتحاد بالكلى الذى هو روحه الحق .

ويستتبع ذلك أن تصبح فضائلنا المألوفة ذات قيمة ، لأنها تحدد حياة التناسخ ، ولكنها برغم ذلك ليست لها قيمة جوهرية ، لأنها تؤدى بنا من حياة متعبة الى حياة أخرى متعبة ، والخلاص الحق ليست له علاقة بالفضائل ، أو أن الفضائل فى أحسن حالاتها ليست سوى مقدمة ، والبصيرة وحدها هى التى تجلب الخلاص ، وعلاوة على ذلك فان البصيرة لاتقتضى الجهد الأخلاقى ، وانما تقتضى رياضة الشطح الصوفى التى يشعر فيها الانسان بأن قيود الزمان والمكان والجسد والنفس قد أخذت تزول عنه ويذوق حلاوة ذلك الرضى الخالص باتحاده بالكلى .

وهذا هو جوهر ذلك المذهب العميق الذى رسخ فى أذهان الصفوة المفكرة من كهنة براهما فى القرن السادس قبل الميلاد عند ما ولد فى اقليم على حدود نيبال وأودة الحديثتين جوتاما سيد هارتا Gautama Siddhartha حوالى سنه ٥٦٠ على الأغلب . وقد عرف هذا الرجل فيما بعد باسم بوذا أى « المستنير » . وقد أحاطت الاسطورة حوادث حياته بغموض شديد جعل من المستحيل القطع بحقيقة آرائه وأخلاقه ، ومع ذلك فنحن نرجح أنه وهو سليل بيت شريف فى امارة صغيرة قد آثر وهو فى التاسعة والعشرين من عمره هجر بيته وزوجه وولده ليروى ظمأه الى نشدان الحقيقة والسلام فى الحياة ، ويظهر أنه قد انقطع عدة أشهر الى الزهد ، وأمعن فيه الى حد التعصب ، وهو أمر سجله الرحالة الى الهند من أقدم الأزمنة ، ولكنه هجر أخيرا هذا اللون من الرياضات لأنه غير مثمر ولا مجد .



حديقة ميلاد جوتاما

المرقع المأثور لميلاد جوتاما فى حديقة اسمها لمبينى وكان قد دل عليه الملك أسوكا وأمر باقامة أحد عمده هناك ، ويمكن تمييز ما عليه من الكتابة قرب قاعدة العمود .

وهذا يوضح الخلاف البين بين تفكيره وتفكير معاصره الأكبر منه سنا مهافيرا Mahavira منشىء مذهب اليانية Jainism المعروف فى التاريخ ؛ والزهد عند مهافيرا هو كل شىء ، وقد حمله اخلاصه لمبدئه الى حد ممارسة التجرد من

الانشعاب بين البوذية واليانية

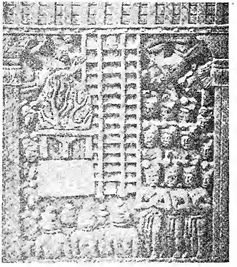
الثياب وفرض ذلك على أتباعه فى حين أن كراهيته كل ذى روح ولو كان أدنأ الحشرات أدت به هو وأتباعه الى مبالغات عجيبة ، والى الاعراض عن استعمال الماء للغسل والتطهر .

وصحب اعتزال سيدهارتا صحابته ألم فكرى طويل ، وقد صورت الروايات البوذية كيف أغراه الشيطان مارا ، الموت وروح الشهوة التى تجعل الانسان شديد التعلق بسخافة التناسخ ، وكيف أغرته بنات مارا اللواتى حاولن عبثا أن يقدمن للقديس لذة الاستمتاع بمحاسنهن التى لا يدركها الوصف اذا تخلى عن رغبته فى المعرفة ، وأخيرا أقبلت عليه المعرفة ، ومن ثم قضى حياة متنقلة يبشر بانجيله فى الخلاص فى بلدة مجادها Màgadhà وهى بهار الحديثة ، وفى كوسالا ، وهى أوده الحديثة ، وكان فى كل مكان يحفز الناس الى تكوين جماعات من الرهبان لا يخضعون لنظام مقرر ، وانما يتعاهدون على أن يعيشوا وفقا للمثال الذى أقامه لهم .

وهذا المثال نفسه من الصعب تبينه ، لأن أتباع المذاهب البوذية المختلفة كانوا يؤكدون

تأكدا جازما أنهـا جميعا تنبع بأمانة مقاصـد أستاذهم ، الذى كان انتماءهم به محك التزامهم سنة عقيدتهم الأصلية ، ومع ذلك فانه يبدو من المؤكد أن بوذا كان لا أدريا خالصا فى مسائل ما وراء الطبيعة ، وكان يرفض أن يبحث مـع أتبـاعه المسائل الخاصة بالمطلق وعلاقة الروح بالمطلق ، ومسألة لانهائيـة الزمان والمـكان أو نهائيتهمـا ، بل وصـل به الحال الى حد انكار الرغبة المتأججة عند الكثيرين من أتباعه لمعـرفة ما اذا كان مصير جسم الرجل الذى وصل الى الاستنارة الكاملة هو الفناء التام بعد المـوت أو أن مصيره نوع من الحياة الخالدة .

وقد نبذ كل هذه المسائل وما شابهها جانبا، وكان نبذه لها لسببين : أولهما أنهـا تتناول مسائل فوق مداركنا ، وثانيهما أن معرفتهـا لا تؤدى الى الخـلاص ، والجريح يطلب العـلاج والتضميد ، ولا يعنيـه من أجل ذلك أن يعرف طبيعة السلاح الذى جرح به . فهل هذا الموقف اللا أدرى يمثل آراء بوذا الخاصة ، أو هل هو يمسك عن التصريح بآرائه المتغلغلة فى أعماقه



سلم بوذا الهابط من السماء الى الأرض

فى الأساطير أن بوذا زار السماء ليبشر بمذهبه وعند مبارحتها أعدله «أندرا» سلما سلما يعادل فى جلاله ثلاثة أقواس قزح ، و عليه هبط عند سانكيسـا ، وفى أعلى درجات السـلم وفى أسـفلها آثار قدم بوذا مرسـومه فى بهارهوت

فلا يبوح بها خشية أن تعوق أتباعه عن اتباع الطريق الذى يريد هو أن يتبعوه ؟ هذه المشكلة غير قابلة للحل ؛ وانما هناك آثار فى النصوص البالية تدل على أن صمته كان عن قصد وتعمد، وأنه ناشىء من فرط المعرفة لا من العجز الحقيقى عن تناول هذه المسائل الحيوية أو كراهة التعرض لها .

والذى كان يدعمه هو أنه قد اهتدى الى حل لشقاء الناس، وكان يؤكد تأكيد الواثق أن هذا الحل واضح فى ذاته ، وأنه مستعد لأن يسوق على ذلك شواهد لا حصر لها تنهض فى جوهرها على أن الحياة قصـيرة ، وأنها معرضة دائمـا للمصائب فى الصحة والمال والأهل والخسـوف الدائم القهـار من المـوت . ومولد الانسان ان هو الا بد- سلسلة من الاحزان لا تنتهى فما الموت الا بداية تجربة أخرى لآلام الوجود تصيب مولودا جديدا . ولكن هذه المشكلة على بشاعتها ممكنة الحل .

حل لمصـائب الحياة

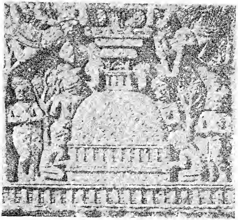
وثمـة سـبب فى رأى بوذا لتكرار ميـلاد الانسان على الدوام ، هو تلك الرغبة التى تورد المرء موارد التهلكة والتى تجعل الناس شـديدى التعلق بشـؤون الحيـاة ، وتمنعهم من اخماد جذوة الحياة والشقاء الى الأبد ، ثم ان الرغبة ثمرة الجهل ، لأن الانسـان لا يدرك حقيقة الحيـاة ، ولا يدرك أنهـا سـعى عقيم الى غايات لا يمكن أن تجلب أبدا الاقتناع والرضا. والانسان ضـحيه فلسفة زائفة تغرس فيـه فكرة أن النفس تظل ثابتـة على ما هى عليـه خلال حلقات متطاولة من التجارب . وليس هناك نفس على هذا النمط ، فأنت اذا حللت كل التجارب البشرية الى عناصرها فلن تجـد فيها شـيئا دائمـا ، وكذلك اذا تنـاولت بالتحليل والتعليل كل جزء من أجزاء العربة فلن تجـد فيهـا مهما حاولت شـيئا يطابق لفظة العربة ، وكما أن العربة مكونة من مجموعة أشياء مادية متضامه ، فكذلك الانسان مركب من صورة مادية وعناصر نفسـية وعقلية وفاعلية وارادية يظن خطـأ أنها قائمة على أساس ثابت دائم . وجميع هذه العنـاصر زائلة دائمة التغـير ومتصلة ببعضها اتصالا عليا .

والانســان اذا نبذ الرغبة وجانب الجهل يستطيع أن يضع حــدا لهــذا التركيب الذى يحــدث دورات الميلاد المتجددة ، فاذا أدرك أن كل شيء الى زوال ، وأن جميع الأشياء تنطوى على شقاء محتوم ، فانه يبلغ المعرفة فتنقضى فى نفســه كل رغبــة ، ويستمتع فى الحياة بنعيم النرڤانا Nirvana ، الذى هو على الأقل خلاص من جحيم الرغبة وآلام الجهل ، فهل يكون ذلك أيضــا خلاصا من الوجــود كله ؟ أعنى فنــاء تاما ؟ وهــذه ــ كما سبق أن رأينا ــ هى على التحقيق أهم المسائل الحيويه التى لم يجاوب عنها بوذا ولن يجاوب عنهــا . ولا منــاص من أن يترك أمر الفصل فى هذا الموضوع ، وهو هل كان بوذا يخفى وراء دأبه على الامساك عن الــكلام فى ذلك اعتقاده بأن رتبه النرڤانا الحقة التى يصل اليها الرجل المستنير بعــد أن ينبــذ الجسم الفانى هى الفناء التام ·

فما هى الهــداية الأخلاقيه التى تقدمها لنا مثل هذه العقيدة ؟ انها تستطيع أن تأخذنا بأن نعيش عيشة الرهبان ؛ آغرابا لا نعتزل الناس تلك العــزلة المألوفة . بل نعيش ســـويا فى جماعات فطرية تتبادل التشــجيع والتعاون ، عيشة تأمل هادىء ونبذ للرغبة ، ومما يبعث الحبور أننا ستقضى حياتنا على رياضة الشطح التى نستطيع بها فى الحياة أن نصل الى نعيم النرڤانا

تعاليم بوذا الأخلاقية

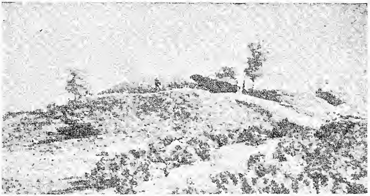
وعلينــا أن نســتبعد من الحيــاة اســتبعادا تاما كل ما يقــوم على الملاحظة والتجربة ، وان نرتفع فوق حدود الزمان والمكان ، وننتقل الى ما وراء الوعى ونحقق التحرر من كل القيود الجسدية ، فالاحســان بالعمل لا بالقــول واشــتعال القلب بنار الحب لله أو للانسان ، والرغبة فى المساهمة فى حيــاة الناس المألوفة والارتفــاع بها ، كل أولئك أفكار غريبة على هذا المثل الأعلى لمعرفة الانســان نفسه فى هــدوء ، واســتهوائها الى السكينة فى غير ما انفعال ، الا أن هذا يقتضى أن ينفى المرء عن نفسه كل فكرة شريرة ، بل كل فكرة دنيوية ··



صورة منحوتة لمزار بوذى

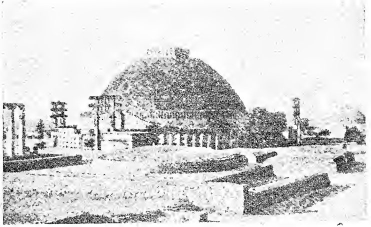
المزار البوذى وكان فى الأصل ربوة من الأرض والأحجار أقيمت للذكرى ، وهو بناء مقام لحفظ بقايا بوذا أو القديس أو الملك ، ويقوم هذا البناء على قاعدة لها «درابزين» وقبه ، وهى فى العادة مزينه بأكاليل الزهور ، وفى أعلاها مظلة قائمة على قاعدة مربعة

واذا كانت هــذه العقيدة تدعو الــكاهن الى الالتجاء الى أرض المقبرة التى يلقى فيها بأجساد الموتى المتواضعين ، وأن ينــأى بعقله عن المتع الدنيوية وشهوة الجسد بتأمل التغيرات المفزعة التى تتربص بالمخلوقات الفانيه ، فانها تدعوه كذلك الى أن ينمى فى نفسه الشعور بالصداقة نحو جميع النــاس وكل الــكائنات عظيمهــا ووضيعها ، وأن ينبض قلبه بالسرور ، والحق أن من واجب الــكاهن أن يشــمل باحســانه الخبيثين والطيبين على السواء · فاحسانه ذاك لا تخالطه النزعة الأخلاقية ثم ان الغضب للحق ينبغى ألا يكون له أثر فى حيــاة الراهب على الاطلاق ، لأن الغضب مرادف للرغبة أو غــير منفصل عنها ، على أنه يجوز لنا أن نعتقد أيضا بأن معنى الاحسان عند الكثيرين من الرهبان كان من أول الأمر شــيئا أكثر من تجنب أى شــعور يكدر صفوهم · وهــذه القاعدة التى وضعها بوذا ، قد استقى منها مباشرة ذلك التوسع البارع الذى جعل تعاليمه تشمل مذهبا يقوم على التحمس للاحسان بالفعل لا بالقول ، وتجلى فى مدرسة ماهايانا Mahayana منــذ القرن الأول



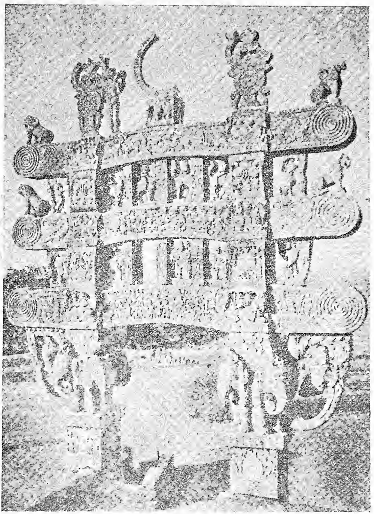
أطلال مزار الساكيا الذى حفظ به رماد بوذا

كانت أم جوتاما سيدهارتا من قبيلة الساكيا . وبلادها على حدود ما يعرف الآن بالمقاطعات النيبالية والبريطانية ، وبعد حرق جثة بوذا أعطى بعض رماد الجنازة لقبيلته وقد حفظتها القبيلة فى مزار عظيم كان فى ابان اكتماله فى ارتفاع قبة كنيسة القديس بولس مقيسة من السقف وهذه الربوة المسورة للسجون هى كل ما تبقى من هذا الأثر الفخم .



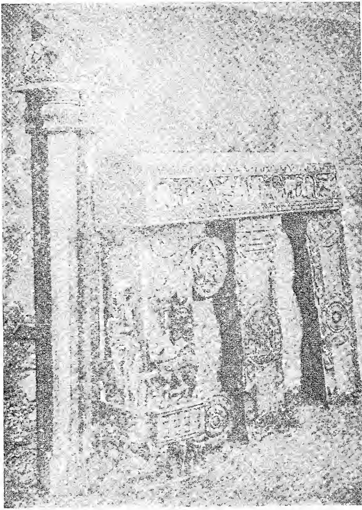
مزار بوذا الفخم فى سانكى كما هو اليوم بعد أن أعيد الى ما كان عليه

العلاقة بين سانكى وبوذا مجهولة ، ولكن هذه القرية من قرى بهوپال بها بقعة كانت لها أهمية عند الملك أسوكا لأنه أقام هناك أثرا من أجمل آثار الهند جميعا ، وقد حددت اطلاله وأعيد الأثر الى حالته الأولى تقريبا بفضل ذلك الصبر العجيب الذى تذرع به الماجور كول والسير جون مارشال ، وتقوم على قمة الرابية المنعزلة قبة فخمة رائعة سامقة فى عنان السماء ، وحولها قبتان صغيرتان وأطلال عدة .



تاريخ حياة بوذا كما هو مدون فى بوابة منحوتة

أربع بوابات فخمة من الحجر تواجه الجهات الاربع الأصلية . وهى مفخرة آثار سانكى ؛ وهذه الصورة الشمسية تظهر الجزء الأعلى من البوابة الشمالية بما فيها من نقوش رائعة تحدث عن تاريخ حياة بوذا . وفى هذه النحوت المبكرة يمثل البوذا بالرمز ، فزهرة النيلوفر تمثل ميلاده ، وشجرة البو تمثل استضاءة عقله بنور المعرفة ، وتمثل العجلة محاضرته الأولى ، ثم المزار ، وهو يمثل الموت . ويبدو مزاران من هـذا القبيل فوق العمود من ناحيـة اليمين .



عمود ودعامة فى البوابة الشرقيـة فى مزار بهـارهوت

المزار نصف الدائرى فى بهارهوت كما فى سانكى يقوم على قاعدة اسطوانية يحيط بها افريز من الحجر له أربع فتحات تجاه الجهات الأصلية ، وكان له عند كل مدخل قوس زخرفى يسمى توران مكون من ثلاث دعامات منحنية قائم بعضها فوق بعض ؛ ويملأ الفراغ بينهما « درابزينات » منحوتة ، والبناء بأجمعه قائم على عمودين مكونين من أعمـدة مصمتة ، ويظهر فى الصورة هنا أحد الأعمدة وجزء مكسور من احدى الدعامات ومعها « درابزيناتها » .

الميلادى حتى لو كان هذا التغير فى الانجاه بعد الى حد ما ثمرة من ثمار المؤثرات المسيحية ٠

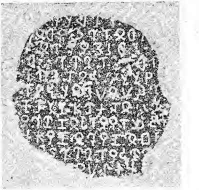
وقد ورد فى الكتابات أن بوذا استهجن دخول الراهبات فى ديانته ، ولكن تلميذه المحبوب أناندا Ananda وسيدة من أسرته ما زالا به حتى أنزلاه عن هذا الرأى ، وان كان هذا قد جعله يتوجس من انشعاب مذهبه فى المستقبل . على أن الرهبان والراهبات انما كانوا فريقا صغيرا من السكان أو لم يكن هناك سلطة كهنوتية ، ولذا كانت كل جماعة حرة فى سلوك الطريق الذى تعتقد أنه طريق بوذا ، وقد منع ذلك اصابة العقيدة بالجمود فى تطورها ٠

ومن ثم كانوا يرحبون بمن يدخل فى هذه العقيدة من عامة الناس ، ويرغبونهم فى نيل المثوبة ، بمساعدتهم للرهبان والراهبات الذين كانوا يفرض عليهم التكفف ، وان لم تنجح ترغيباتهم جميعا ، من منع الجماعات من احراز الثروة الواسعة ، وكانوا كثيرا ما يرغبون الأثرياء فى تشييد مبان ضخمة للرهبان والراهبات ، وفى اقطاعهم الاقطاعيات الواسعة . ولم يخل الأمر من الاختلافات المذهبية حتى فى حياة بوذا نفسه ، فقد سعى أحد أبناء عمومته واسمه ديفادتا Devadatta فى خلعه ، وفى أخذ الناس بحياة أشد وأقسى من ناحية المأكل والملبس والمسكن ، ولكن هؤلاء المتشفين أخفقوا فى حركتهم الى حين ، ويبدو أن انتشار البوذية لم يتقدم تقدما سريعا بعد موت امامها ، وقد وقعت عند موته حادثة تكشف لنا عن شدة تمكن الشعور الدينى من الانسان ٠

وواضح أن بوذا لم يجعل فى مذهبه مكانا لشعائر العبادات المألوفة ، لأن هذه الشعائر فى جوهرها تنفى مذهب شمول العلية ، على أنه قد نشأت خلافات شديدة عند موته للاستيلاء على أجزاء من عظامه المحرقة . والذين أسعدهم الحظ باقتناء بقايا منه أسرعوا الى اقامة أكوام تذكارية — ستوبا Stupa — فوقها . وأصبحت هذه الأكوام بعد ذلك مناط الاحترام عند العامة والناس جميعا ما عدا متفلسفة الكهنة .

تقديس بقايا بوذا

ولم يكن هذا الاحترام الذى أسبغوه عليها يختلف فى شىء عن احترام غير البوذيين للآثار الدينية التى من قبيل آثار الاقدام التى يزعمون

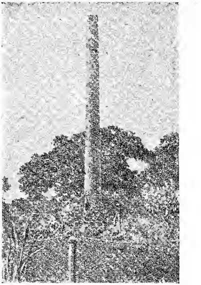


مرسوم للملك أسوكا منقوش على الصخر

كتابات الملك أسوكا المحفورة على الصخور والأعمدة وفى الكهوف من أثمن الآثار البوذية ، ولها أهمية كبرى فى تاريخ الكتابة فى الهند . وهذا الأنموذج عثر عليه الأستاذ رايس دافيدز فى جرنار .

أن الآلهة خلفوها أثناء زياراتهم للأرض . وكذلك لا يمكننا أن نتجنب ما يخامرنا من الظن أن الكثيرين من أتباعه الذين لم يكونوا من المدرسة العقلية التى تعزى اليها الشريعة الباليةPali Canon المحفوظة فى سيلان ، كانوا يؤمنون بأن بوذا ادعى لنفسه . بل هو قد كان ، الذكر العظيم ماهابوروشا Mahapurusha Great Male الذى جعل منه الفكر النظرى الهندى مثلا أعلى للملك أو الحكيم والذى كان أسمى من الانسان ٠

واذا حاولنا أن نأخذ ببعض العبارات الواردة فى الشريعة البالية ، فان بوذا كان يقر بأنه أكثر من مخلوق فان . ولولا أن أناندا Ananda الصالح كانت تنقصه الفطنة بصورة محزنة لكان توسل الى الأحد المبارك أن يمد فى حياته ، وهو ما أومأ بوذا الى استعداده بتلبيته ، ويجعلها حياة باقية ما بقى هذا الكون بدلا من أن يقضى نحبه فى سن الثمانين المبكرة ، وعلى أقل تقدير فانه اذا كان بوذا نفسه لم يدع الربوبية فانه لم يكن فى العقل الهندى ما يحول دون نسبتها اليه ، وكان ثمة جماعات الاخوان التى كانت تتبع سننه ، ولا نرى فيه سوى الأستاذ المحترم الذى كان أمر كل انسان بالعمل على خلاص نفسه وهو على فراش الموت وكان الى جانبهم — بعد موته — كثيرون من العلمانيين وعدد غير قليل



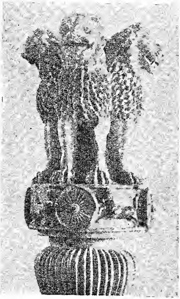
عمود أسوكا فى الله آباد

عشرة من الأعمدة البديعة لا نزال باقيـــة وعلى سطحها المصقول نقش أسوكا مراسيمه، وهـــذا العمود الذى أخــذ من العاصمة التى كانت تزدان به يقوم على ساحات الحصن فى الله آباد .

من الكهنة والكاهنات يعتقدون أن هذا الذى كان كاملا لم يكن سوى اله تجلى على الأرض لاصلاح أحوال البشر ومرضاتهم .

ولم تظفر البوذية فى بادىء الأمر الا بقسط قليل من عناية الملوك لأننا نستطيع أن نتبين فى يسرفيما أكدته النصوص قلة اكتراث الأمراء بالبوذية فى البلاد التى استن فيها بوذا تعاليم رأى أنها صالحة للطبقة الحاكمة ، ولكن عقيدته كان لابد أن تكتسب رضى أسوكا Asoka (٢٧٣ – ٢٣٢ قبل الميـــلاد) فقــد كان من شــأن اجتياحه لكالنجا والحروب الدموية التى خاضها أن أيقظ فى نفسه على ما يظهر الشعور بالاثم وعلاقات أســوكا بجماعــة البوذيين فى عصره غامضة ، ويبعد جدا أنه تنازل فى شــيخوخته عن عرشه ، واتبع أشد أحكام البوذية ، ثم انه ليس هناك دليل قاطع للاعتقاد الذى دون بعد عهده بقرون بأنه أقر أو شجع على دعوة مجلس نقرر فيه الأخذ بالشريعة البالية ؛ والحق أن عدم تعرض مراسيمه لذلك اطلاقا يكاد يكون دليلا قاطعا على أنه لم يفكر أبدا فى اتخـــاذ هـــذه الخطوة .

على أن أسوكا رضى بالتزام قومه تعاليم بوذا الاخلاقية ، بل أظهر غيرة على ذلك وحضـــهم عليه رسميا فى كتاباته التى بثها عن عمد فى أرجاء ملكه الواسع . ولا شك فى أنه كان من المحتوم ألا تجد تعاليم بوذا الجوهرية مكانا فى نظام أسوكا الذى يتجـاهل الاعتقـاد بتقمص الأرواح ، والخــلاص ، أما ما كان يتمســك به فهو الشىء المألوف ... وذلك أنه اذا كان هذا المذهب صالحا ، بقول بأن من يعملون الطيبات سوف يجزون حياة سعيدة فى العالم الآخر ، فان الذين اجترحوا السيئات ســـوف يلاقون جزاءهم الحق فيها كذلك . ثم نحن لا يسعنا أن نتجاهل أنه فى الوقت الذى كان يصر فيه على



آية من آيات فن البناء البوذى

أقام أسوكا على مقربة من المزار الذى يقوم عند سرنات حيث ألقى بوذا أولى عظــاته عمودا من حجر واحد يحمل مرسوما ضد المنشقين على العقيدة، وهو يبلغ خمسين قدما فى الارتفاع وفى أعلاه تاج بديع الزخرف فاخره

فضـائل عمل الخير والتسـامح مع أصـحاب العقائد المخالفة ساقه تقديره العميق للبوذية الى أعمال لا تتفق مع روح الديانة أو العقيـدة التى تصدى لنشرها فى الخارج ، وقد أمر باتباع السنة التى تنهى عن ذبح الحيوان سواء للأكل أو للقربان ، وتشدد فى هذا الى حد أن حكم الاعدام كان من الأحكام التى قد يقضى بها على من يخالفون ذلك ، على أن الملك أنكر انكارا باتا الاعتراف بأن منعه للقربان قد آذى الشـعور الدينى لعدد كبير من رعيته،وبذر بذور العداوة الشديدة بين البراهمة والبوذيين ، ولولا ذلك لما بلغت تلك العداوة ما بلغت من الشدة .

زد على ذلك أن أسوكا سن نظام الرقباء على الآداب ، وكان الغرض الذى يرمى اليه هـذا النظام سليما ، ومع ذلك لم يكن بد من أن يكل الى عمال من عمال الدولة لا وازع لهم من ضمير سلطة التجسس والعقـوبة التى لم يكن للملك من الوسائل ما يحقق الاشراف عليها ، وربما كان لسوء استعمالهم هذه السلطة أثر كبير فى تجلى أمارات السخط على البوذية،وهى الأمارات التى يمكن ملاحظتها فى أخريات حكمه ، ومن العبث انكار المعاونة القوية التى قدمها للبوذية برعايته لها ، فقد عزز ذلك من شأن هذه الفرقة وشجعها على نشر مذهبها وانماء جهودها . ومع

موقف أسوكا من البوذية

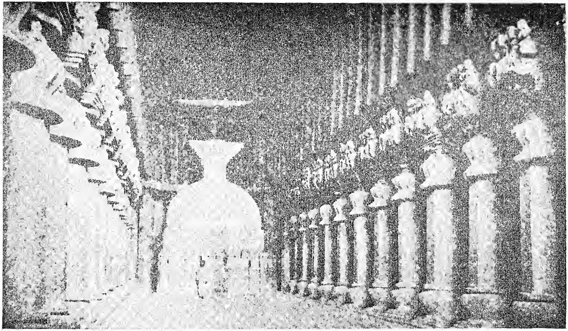
ذلك يجوز لنا أن نشك فى أن تدخل أسـوكا كان قمينا بأن يكون له هذه النتائج الباقيـة التى ظهرت فعلا لو لم تقع امبراطوريته فى يد خلفائه العاجزين فى الوقت الذى بدأت فيـه الفتوحات اليونانية ، وغارات الأجانب من ايران وتركسـتان ، فقـد وجد هـؤلاء فى البـوذية ما يحببهم فيها أكثر من البرهمية ، ذلك أنهـا كانت دينا عالميـا يهتم بالدعوة الى اعتناق مذهبه ، أما البراهمة فكانت عقيدة خاصـة ضيقة الأفق تتسم بالقومية .

ثم ان أسـوكا كان له الفضـل كل الفضل لتشجيعه الجهود العاملة على نشر الديانة البوذية فى الخارج ، فقد أراد القـدر أن تلقى البوذية فى خارج الهند ترحيبا مستمرا لم تلق مثله فى منبتها الأصلى ، ومع ذلك فمن الخطأ أن نستخلص من هـذه الحقيقة أن البوذية كانت فى جوهرها ديانة أو فلسفة غير هندية وأن نعمل على اثبات هذه النظرية بالاشارة الى احتمال أن يكون بوذا نفسه من أصل مغولى ، وهذا الرأى يقوم على مجرد الظن ، ومع أن البوذية قد قدر لها أن تفقد سلطانها على الهند تماما ، فان ذلك لم يتم الا بعد قرون طويلة غدت فيهـا البوذية تلك الثمرة الناضجة للثقافة الهندية وأخرجت تلك العبقرية المميزة بالطابع الهنـدى ، عبقرية المنطيق العظيم دجنـاجا ، على أن ثمة خدمة جليلة أدتها البوذية للحضارة الهندية ، وذلك أنها استمالت أسوكا الى القيام بتلك الأعمال العامة النافعة



أقاصيص بوذية ترويها نقوش على الحجر

هذه المدلاة من بهارهوت ، وهى تسجل تأسيس الصومعـة فى جيتـاڤانا ، وقد اشترى أناتا پنـديكا (وهو فى وسط الصورة) الموقع بمقدار من الذهب يكفى لتغطية منطقة الأرض جميعها ، والصورة تبين خدمه وهم ينثرون الذهب فى الحديقة وقد أحضروه فى العربة التى تجرها الثيران المخصية



معبد المغارة فى كارلى من الداخل وهو أجمل المزارات المنحوتة فى الصخر بالهند

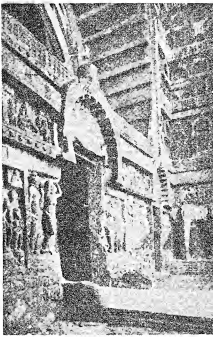
كان المسولون البوذيون – مثل النساك الذين جاءوا قبلهم – يجدون فى الفصول المطيرة مأوى بالكهوف الطبيعية ، وقد حولوها فيما بعد الى صوامع تشتمل على مزارات ومعابد . وأجملها شكلا يقوم فى كارلى غاتس Ghats الغربية ، وفيه فناء حسن النسق يدانى فى الحجم محراب كاتدرائية نوروتش ، وبه أعمدة ضخام تفصله عن ممشى يحيط به ؛ وسقفه من خشب الساج وعمره عمر المعبد ، ونحت قبة السقف المقبب المصنوع بحيث يسقط عليه الضوء من النافذة الحجرية الكبرى المطلة على المدخل يقوم معبد منحوت من الصخر يمثل بوذا .

أشجار الفاكهة ، والأشجار الوارفة الظلال ، وحفر الآبار ، وتشييد السقايات والمنازل لراحة المسافرين فى الطرق الكبرى ، وهو تراث ربما كان موسوما بطابع فارسى ، وشجع أسوكا على زرع النباتات والجذور الطيبة حتى فى الممالك الأجنبية المحالفة له ، ويظهر أن بره شمل اقامة مستشفيات للمرضى وللحيوانات على السواء ، ولم يقصر هذه الأعمال على البوذيين ، فانه وان كان قد أغدق على البوذيين الأضرحة والأديرة فقد نحت الكهوف فى الصخر الأصم لطائفة أجيفيكا من الرهبان العراة . والظاهر أنه شمل بانعامه اليانية والبراهمة ، ومع ذلك فيبدو أنه قد أقلقه فى أواخر حياته على الأقل انشقاق فى داخل جماعة البوذيين ، فاصدر مرسوما باقصاء المنشقين من هذه الطائفة وطردهم من الأديرة الخاصة بها . والظاهر أن هذا التدخل العنيف لم يسفر عن شىء ذى بال فى الشئون الداخلية لهذه الجماعة الدينية . والحق أنه كان من المتعذر أن يؤدى هذا التدخل الى اشاعة الخير أو تنمية الشعور الطيب.

ولا تزال تعوزنا الشواهد المستقاة من المصادر الأجنبية لاثبات قيام علاقات فكرية بين حكماء الهند ومفكرى الصين القديمة ، ومن ثم سنظل عاجزين عن القطع برأى فيما اذا كانت تعاليم لو دزه الذى تقول الروايات بأنه ولد سنة ٦٠٤ أو سنة ٥٧٠ قبل الميلاد مدينة للفلسفة البرهمية فى الهند . ومعلوماتنا عن حياة لو دزه قليلة لا تعدى أنه كان قيما على ديوان السجلات فى بلاط أحد أباطرة أسرة تشو ، وليس بين أيدينا من مؤلفاته سوى بضعة أقوال لا تخلو من حشو أقحمه تلاميذه على « دو دى جنج » أى كتاب « الدو » و « الدى » الذى بسطت فيه على نحو غامض مضطرب آراؤه فى ما وراء الطبيعة والمسائل الأخلاقية والسياسية . ويقال ان معاصره الأصغر منه كونج فوتزه أو

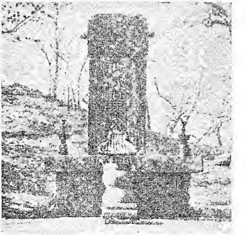
أو كونفوشيوس قد شبه شخصيته المحيرة بالتنين الذى يحير فهم البشر فراره من عالم السحاب ، واذا كنا نفهمه فهما أحسن من فهم معاصريه والأجيال التالية له فانما مرد ذلك الى أن أقواله نقلتنا الى عالم قد جعلته أفكار الاوبانيشاد مألوفا لنا .

وبراهما عند الهنود قريب الشبه بـ « دو » عند لو دزه ، فهو المطلق الكائن وراء العالم ، ولكنه متداخل تداخلا جوهريا فيه ، وهو فعال ومن ثم فهو الكائن الذى تنبعث منه الكائنات ، ولكنه الى ذلك ليس كائنا . ومن ثم فهو يستمد صفة كونه فعالا ، وهو يعز عن كل تعبير . وقد كان براهما ثابتا كاملا قبل وجود السماوات والأرض ، وكان موجودا قبل أن يوجد السيد



رواق فى معبد مغارة كارلى

بصاله المدخل ثلاثة أبواب تخترق ستارا منحوتا من الصخر يوصل الى صحن المعبد . وهذا الستار جزء من البناء الأصلى يرجع الى أوائل العهد المسيحى أو الى ما قبله ، ولكن النقوش الدقيقة والكائنات البشرية والافريز الذى فى واجهتها أحدث عهدا من ذلك



قبر كونفشيوس

مات كونفشيوس سنة ٤٨٧ قبل الميلاد ، ودفن في مقبرة خارج كيفو بها عظام جميع عشيرة الكنج . وقبره قائم على ربوة مغطاة بالأشجار في مستطيل منسع قائم برأسه ، وحياله تمثال مكتوب عليه « أحكم المعلمين القدماء والملك الكامل العارف »

الأعلى ، والانسان يتخذ منهاجه من الأرض ، والأرض تتخذه من السماء ، والسماء من تاو ولكن تاو هو قانون نفسه ، وهو لا يتغير ، ويوجد في كل مكان ، يسمو ويبعد ، ولكنه يعود . وهو من وراء البصر والسمع واللمس . ولكنه مع ذلك يتجلى تجليا صحيحا واقعا لا تجليا وهميا فحسب فرض علينا فرضا كما اجترأ على القول بعض مفكري الهند . وهذا التجلي نشاهده في ذلك الفيض المنظم ، وهو نهج الطبيعة الذي أصبح الاصطلاح « تاو » مدلوله الشائع في تفكير ذلك العصر ، وهذا التجلي هام جدا عند الانسان ، ومن ثم فان الاسم « تاو » هو خير ما يدل على ذلك الذي هو فوق كل قانون طبيعي ، ولكنه مع ذلك المصدر الخفي والمبدأ الأول الذي تستند اليه الطبيعة .

ونحن بعد لا زلنا في مجال التفكر ، ولكن التفكر لم يكن موضع الاهتمام الحقيقي للعقل الصيني ، وقد كان لودزه في هذا الشأن مخلصا للوعي الطبيعي بصفة خاصة ، وقد استخلص من اعتقاده بالمطلق نتائجه الخاصة بواجبات الانسان ، ومن العجيب أن هذه النتائج كانت تتعارض مع الآداب العملية التي كانت سائدة والتي كان كونفوشيوس على وشك أن يعبر عنها تعبيرا مأثورا . ويستحث لودزه الناس على التفاني في حياة المطلق ، وحياة المطلق تسير في غير عناء ، وانما تنتصر من غير جهد أو تعب ؛ والسماء والأرض لا يسرهما في وجودهما المظفر أية فكرة من افكار الخير . وهما يعاملان الخير والشرير على السواء معاملة الكلاب السائبة أو الألاعيب التي يلقى بها بعد تقديم القربان . ومن الحماقة البالغة أن نقاوم حياة الكون في جريانها ؛ وكذلك من الحماقة بذل الجهد لتحصيل المعرفة وتشجيع الاصلاح ؛ وعلى الانسان أن يتقبل حياة المطلق في سريانها حتى لكأنها حياته . ويترك نفسه يحملها تيار نهر الوجود الغلاب ، ولا يحاول عبثا مقاومة قوى القانون الطبيعي .

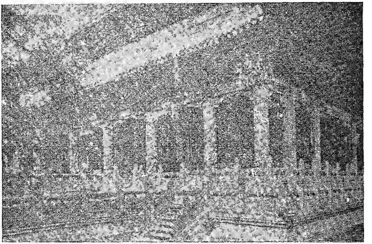
والرجل العاقل لا ينصب نفسه معلما بل الحقيقة أنه ينبذ المعرفة وهو بعد يبدو فارغ العقل غبيا ؛ ثم هو ليس مصلحا ولا هو بكونفوشيوس يسعى الى أن يسن لأمته سنة تحسن أحوال المعيشة فيها ، ولا يستميله الغرور الجاهل أو الارادة العمياء ، فينصب نفسه لتصحيح خطأ الطبيعة ، بل هو على النقيض من ذلك ينمي في نفسه رقة الحاشية ، فاذا اعتراه الضعف تعزى بالتشبه بالمياه التي تحطم أقوى وأرسخ الأشياء على ما بها من رقة وضعف ، وهو قانع لأن عدم قناعة الانسان بنصيبه هي شر المصائب ، والطموح هو أفظع الجرائم ، والقناعة لا تخلو من الشرف ، والذي يسعى وراء المجد يجهد نفسه في محاولات عقيمة ، ولا يجني من ثمره الا احتقار مناظريه . والرجل العاقل مقتصد ، والاقتصاد له جزاؤه ، فهو يعين على ممارسة الكرم في حين أن الترف يؤدي الى الفقر والعجز عن مساعدة الغير ، ثم ان الرجل العاقل هو فوق ذلك خير لا بالنسبة للخيرين فحسب كما يوصي كونفوشيوس بل بالنسبة للاشرار أيضا ، وليس خيره ثمرة عدم الاكتراث ، وانما الحافز اليه هو الوثوق بأن هذه الصفة ستنتهي به الى الخير .

الدوية من حيث النظر والعمل

وبهذه الطريقة يمزج لو دزه موقف معلم الأپانيشاد البرهمى بالمثل الأعلى البوذى لاضمار حسن النية للناس ، وهو يتفق مع منافسه كونفوشيوس فى أن الاتجاه الطبيعى للدو ، أى النهج الذى تسير عليه الطبيعة ، هو الخير مهما كان الخلاف بينهما جسويا من ناحية الأساليب التى تتخذ لتحقيق هذه الغاية ، والخلاف بينهما فى هذا الموضوع جوهرى ، فالبر والاحسان الى الوالدين والاخلاص للوطن والاستقامة ، كلها حالات لم تخلق الا لتقاوم ظهور المساوىء الناشئة من اهمال اتباع سنة الطبيعة ، والفضيلة ثمرة الحرمان من الرضوان ومخالفة الطبيعة التى هى نفسنا الحقة ، واذا نبذت الناس الحكمة والفطنة وهجروا البر والصلاح وأمسكوا عن تدبير الامور والاحتيال فى البحث عن الكسب ساد الحب الصادق وعمت الرحمة ولم يقتصر ذلك على الأسرة أو جماعات الدول ، واختفى النهابون واللصوص .

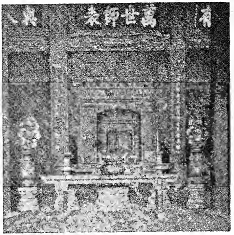
ويرى لو دزه أن حكم الدولة حكما رائده الحكمة مثل أعلى باطل ، فقد كان الناس فى الظروف البدائية لا يعرفون حكاما ، ثم أحبوهم وامتدحوهم من بعد ، ثم كرهوهم ، ثم انتهوا الى احتقارهم ، والمبالغة فى الحكم آفة الحياة ، والحكومة تضاعف القوانين وتشجع الفنون والصناعات متوسلة الى ذلك بفرض الضرائب الباهظة ، وتباشر مهمتها فى حزم شديد وهى مؤمنة ايمانا لا يتزعزع بعصمتها حتى أنها لا يمكن أن تقتنع بأن خير ما تؤديه من الخدمات للناس هى أن تتركهم وشأنهم . والتعليم العام خطأ محض ، فهو يبعد الناس عن مجرى الطبيعة ، والحاكم العاقل يخلى عقول رعيته ويملأ بطونهم ، ويضعف ارادتهم ويقوى عظامهم ، وصور العبادة لا غناء فيها ، وأرواح الموتى قد نضر ، ولكن دفع خبث نيتها بتقديم القرابين عديم الفائدة ، والطريق القويم الذى يجب اتباعه هو طاعة قانون الطبيعة ، ومن ثم لا يكون للموتى قدرة على الايذاء .

وقد يبدو أن مثل هذا المذهب الشديد الغموض من مذاهب ما وراء الطبيعة ، أو مثل



المعبد الذى يوضح موقع منزل كنفوشيوس فى الدنيا

بنى معبد صغير به ثلاث حجرات فى موقع منزل كنفوشيوس القديم فى القسم الغربى من كيفو فى سنة وفاته . وبعد ذلك بمائتين وألف سنة ؛ أى فى عام ٧٣٩ بعد الميلاد ؛ استعيض عنه بالمعبد الجميل الفسيح الذى لا يزال قائما الى اليوم بعد تجديده فى فترات مختلفة طويلة ، وفى صالته الفسيحة المعدة لاقامة الحفلات الدينية يتدرب الكهنة على صور الحفلات وشعائرها الصعبة ؛ وفى ساحته شجرة باجودا تجدد نفسها باستمرار من شجرة غرسها كنفوشيوس بنفسه .



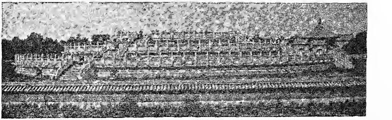
مزار كنفوشيوس ومحرابه

فى داخل معبد كنفوشيوس فى بيكنج لوحة لامعة الطلاء موضوعة فى مظلة ومكتوب عليها « لوحة روح أقدس المعلمين القدماء كنفوشيوس » وقد علق على دعائمها كتابات تهذيبية ، خطها كل امبراطور من الأباطرة المتعاقبين رمزا على احترامه للحكيم

هذا المذهب من مذاهب الاخلاق الحريص على المسالمة ، والقائل بالعدمية فى السياسة المقترنة بالنظر الى الدين نظرة سلبية محضة لا يجتذب أى عقل من العقول ، ولكن لو دزه الذى تشبع بروح الشرق الحقة رأى عزاءه فى الرضا الكامل المتحصل من اتصاله بالمطلق بل وفنائه فيه عندما ينتهى الى فقد كل احساس بوجود فارق بينه وبين معبوده .

الجانب الصوفى للدوية

وهذا الجانب من مذهبه قد توسع فيه وبسطه بدقة أوفى أشهر تلاميذه جوانج دزه المعاصر ل « منشيوس » أو مانج دزه من أتباع كونفوشيوس فى القرن الرابع قبل الميلاد . وليس المطلق عند جوانج دزه مجرد الواحد الذى تزول فى وحدته كل الاختلافات كما يرى هرقليطوس اليونانى ، وانما هو يجاوز مجرد عقل مثل هذا القصور الى معنى الاتحاد الصوفى للنفس . بالكائن الخالد ، والانسان يأتى الى الوجود هو والكون معا ، وكل الاشياء تتحد معه ومع الكون ، والانسان يحب الله وينظر اليه نظره الى الوالد ، أفلا يحب اكثر من ذلك المصدر الذى جاء منه الله ؟ والعقلاء من القدامى كانوا يعرفون من أين أتوا أو الى أين يذهبون ، ولم يتعجلوا انهاء حياتهم ، وكانوا يشعرون أن الباقى موجود فيهم وبهم ، وأنهم سيفنون فيه فى اليوم المعلوم ، على أن العارف يستطيع فى الحياة أن يكابد الشعور بالاتحاد بالباقى ، ويستطيع الانسان ان يصل بالتأمل الى حالة « الأثيرية » ومن ثم ينطلق الى تحصيل المعرفة الكاملة ، ثم يسمو الى المكان الذى لا يعرف فيه ماض ولا حاضر ، ثم يجتاز أخيرا الى هذا المكان حيث



مركز الكون ــ معبد السماء فى بيكنج

« تين تان » ، أى معبد السماء ، هو أقدس الأبنية الصينية ، وهو مكون من ثلاث شرفات مستديرة لها « درابزين » من المرمر وسلالم فى الجهات الأربع الأصلية ، والافريز الأعلى ممهد بأحجار من الرخام فى تسع دوائر ذوات مركز واحد تمثل هذا العدد من السموات ومعبد مكشوف قائم فى الوسط . وهناك فى الفجر ، وفى الانقلاب الشتوى ؛ كان الأباطرة يعتبرون أنفسهم فى وسط الكون ويعترفون بتواضعهم للسماء ، وللسماء وحدها .

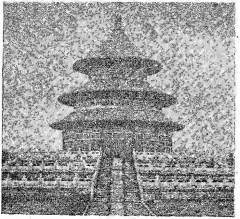
لا يوجد موت ولا حياة وحيث لا يطيح القتل بالحياة وحيث لا يفني اطالة الوجود شيئا في عمر الحياة ..

وتشبه هذه الآراء مذهب البوذية شبها عجيبا ، وهذه المشابهة تحملنا حملا على الاعتقاد بأنها مستمدة منها. ومما له دلالته ان تشوانج تزه نفسه يذكرنا في غير ذلك من النواحي بحكمة الهند ، فهو مصر على أن الحياة وهم قائلا « كونفوشيوس وأنت كلاكما حلم ، وأنا الذى أقول عنكما ذلك لست الا حلما » ثم يعود فيقص حلمه قائلا بأنه لم يكن سوى فراشة وأنه لم يكن شاعرا بحالته البشرية أو أنه قد تنبه فيه الادراك برجوله البادية « ان بين الانسان والفراشة حاجزا بالضرورة ، ويسمى الانتقال تناسخ الأرواح » .

وهذا اللون من الصوفية لا يصلح الا لذوى العقول المفكرة ولبكون اساسا لحياة المنسك . على أنه قد قدر لمذهب الدوية أن يذيع بين الناس ، وأن يصبح ذا أهمية كبيرة باعتباره عاملا فى تقدم الصين الدينى ، وذلك بفضل أمور توصف ان شئت الدقة بأنها خارجة عنه . قد نسب العامة الى المنسكين سر اطالة الحياة الى غير أجل معلوم ، بل نسبت اليهم ما هو أجدى عمليا من ذلك وهو القدرة على التحكم فى معادن الأرض والقدرة على تحويلها وفق مشيئتهم ، وهى مواهب لا ريب فى أن بعضهم كان مستعدا لادعائها ، وقد امتزجت الصوفية بالكيمياء كما حدث فى الهند ، ولم يأت القرن الثانى قبل الميلاد حتى كان البحث عن حجر الفيلسوف الذى يحيل المعادن الخسيسة ذهبا وعن آكسير الحياة قد أصبح مرتبطا بالدوية ارتباطا وثيقا ، وقد أكسبها ذلك رعاية الامبراطور وزاد الناس اقبالا عليها .

التشابه بين آراء الصوفيةوالبوذية

وواضح أن آراء لودزه لم تكن مما يتفق مع مصلحة الدولة الدنيوية،فقد كانت تضحى بالمعرفة التجريبية من أجل مذهب مركب غير



معبد السماء

يقوم فى مدينة بيكنج الجنوبية معبد السماء ، وهو يسمو الى ارتفاع تسع وتسعين قدما ، وله سقف من ثلاث درجات مغطى بآجر مصقول شديد الزرقة وهو أعظم معالم المدينة ، ومعنى اسمه الصينى « معبد صلاة السنة » وهنا فى أوائل الربيع كانت تقدم القرابين طلبا لحلول سنة موائية

ناضج ، وكان لهذا المذهب عيوب خطيرة تؤدى الى نتائج تعوق تشجيع الفضائل الاجتماعية وتغرى بالميل الى الاستمتاع بحياة التأمل الفردى ، والكونفوشية تعارض هذا المذهب السلبى معارضة واعية مقصودة بحكم ايمانها بالفلسفة الوضعية ايمانا قويا وان لم يكن مصدره الوحى .

ومما يسترعى النظر أننا نعرف ظروف حياته معرفة لا يعنورها الشك ، فقد ولد سنة ٥٥١ قبل الميلاد فى ولاية لو الصغيرة فى الاقليم المعروف اليوم باسم « شانتونج » ودخل فى خدمة الحكومة بعد ذلك بعشرين سنة ، وفى سنة ٥١٧ زار لويانج التى كانت وقتذاك عاصمة الامبراطورية ، وهناك أشبع رغبته وأرضى حبه للمراسم والشعائر الدينية بدراسته عن كثب محافل تقديم القرابين الامبراطورية للسماء والأرض ، وفى سنة ٥٠١ عين حاكما لمدينة تشانج تو ، وسرعان ما جعلها موئلا للفضيلة اذا صدقنا ما ذكره أصحابه ، وأعجب مليكه بنجاحه فرقاه الى منصب وزير العدل .

وأدى واجباته بأمانة ، وأعاد الى البيت الحاكم مكانته ، وحد من طغيان الأسر، وتوارى الانحلال الخلقي وعدم الأمانة ، وساد بين الرجال الولاء وصلاح العقيدة كما سادت العفة ولين العريكة بين النساء ، ولكن مثل هذا النجاح الكبير أثار حسد الأمراء المجاورين له ، فقد رأوا في اصلاحات كونفوشيوس ما يهدد رخاءهم ، فقدموا للحاكم هدايا من الخيل والبنات الراقصات أغرته بالاعراض عن الحكيم ، وأدرك الحكيم في بطء وتردد أنه لا معدى له عن الانسحاب من المكان الذى أصبح لا يحظى فيه بالاحترام ، وعاش كونفوشيوس من ذلك الوقت الى أن استدعى في سنة ٤٨٤ الى « لو » حياة متنقلة يزور بلاطا بعد بلاط آملا أن يجد في خاتمة المطاف أميرا أوتى من الحكمة ما يجعله يعهد اليه بالبدء بالاصلاحات التى ظل كونفوشيوس مؤمنا بأنها سوف يكون لها أثر جوهرى في مدى أثنى عشر شهرا ، وأنها قمينة بأن تؤدى الى صلاح الحكومة وسلامتها في ثلاث سنوات ، ومات في سنة ٤٧٨ بعد أن أتم في سنواته الأخيرة جمع الأسفار القديمة المقدسة ، ومن المحتمل أنه كان مكبا على هذا العمل منذ باكورة حياته قبل أن يوفق في نيل الحظوة عند الأمير .

قصة حياة كونفشيوس

وتعاليم كونفوشيوس ــ كما رتبت فيما بعد ــ تشمل الكتب الخمسة في الشرائع ، والكتب الأربعة في المأثورات ، والكتب الأولى هي الشوكنج ، وهو كتاب الوثائق التاريخية، والشي كنج وهو كتاب الشعر ، وال « يى كنج » وهو رسالة في استطلاع الغيب ، وال « كي كنج » وهو كتاب في الشعائر والمراسم الدينية وال « شئون شئو » وهومختصرتاريخ «لو»من سنة ٧٢٢ الى سنة ٤٨١ ، وهذا الكتاب الأخير من تأليفه ، والكتاب الأول من المأثورات واسمه « لن لى » يشمل أحاديثه التى سجلها تلاميذه ، والجزء الثانى والثالث ينسبان لحفيده أو لتلامذته . واسم الجزء الثانى «التاهسيو» ، أو العظة الكبرى ، واسم الثالث «الشن يونج»أى عقيدة الوسط ، أما الجزء الرابعوهو «منج تزه» أو «منشيوس» فمن عمل أشهر تلامذته «نشيوس» (٣٧٢ / ٢٨٩ قبل الميلاد) .

وليست أهمية كونفوشيوس في شخصه ، وانما ترجع الى أنه بسط المثل الأعلى لقومه بسطا شاملا كاملا . ولا يمكن تفسير الأثر العجيب الذى كان للنصوص الكونفشيوسية على الأجيال التالية الا بأن الآراء التى عبر عنها كانت تنتسب في جوهرها الى صميم الروح الصينية ، ولو أن فضله في تفسير هذه الروح تفسيرا واضحا جليا ووضعها في صورة باقية كانت على جانب كبير من الأهمية .

وقد أدرك الأمبراطور شين هوانجفى (٢٤٦ / ١٠) قبل الميلاد ، الادراك كله خطر مثل هذا التراث القيم من القضاء على أصالة الصينيين وحيويتهم في تفكيرهم وعملهم ، فلما شيد بعد جهاد طويل امبراطورية قوية مرتكزه على اطلال النظام الاقطاعى المفكك الذى كان سائدا ، أمر بابادة كتاب الشى كنج وكتاب الشو كنج وجعل الحكم بالاعدام جزاء هؤلاء الذين يحتفظون بهذين الكتابين أو ينافسون ما ورد بهما ، وأمر بقصر الدراسة على كتب الطب والزراعة والتنجيم . ولكن موت الأمبراطور في سنة ٢١٠ وسقوط أسرته أزال هذا المنع . ولم يحقق اضطهاده ما رمى اليه ، بل جعل للكتب الكونفوشيوسية حجية لم تكن قد بلغتها بعد في نواحي الأمبراطورية ، فقد تنافس علماء العصر الهانى الأوائل (٢٠٦ قبل الميلاد الى ٨ بعد الميلاد) في جمع النصوص ، وأعيد تصنيف كتاب كي كنج وزودوا الصين بمذهب متماسك الأجزاء مقنع ، وهذا المذهب سواء كان خيرا أو شرا قد أثر تأثيرا بالغا في حياة الصين العقلية والاجتماعية والسياسية جميعا .

وقد كان لودزه باحثا فيما وراء الطبيعة قبل كل شيء . أما كنفوشيوس فانه كان فيما يظهر ينفر من دراسة الفلسفة المحضة نفور هربرت سبنسر ، وكان مجردا كل التجريد من الشعور الدينى ، والحق أنه كان يصر على اقامة جميع الحفلات الدينية وما يصحبها من مراسم دقيقة كتقديم القرابين العامة والخاصة ، ولم يكن يتولى القيام بالأولى طبقة الكهنة كما في الهند ، وانما كان يقوم بها كبار الموظفين ، أما القرابين الخاصة فكان يتولاها رؤساء العشائر . وكان الامبراطور يقدم القرابين للسماء والأرض وللجبال والأنهار العظيمة ولأرواح التربة ومحاصيل الامبراطورية جميعا ، أما أمراؤه الاقطاعيون فكانوا يقدمون الولاء لعبقريه أصفاعهم ، ولأرواح تربتهم ومحصولات ولاياتهم وللجبال والأنهار في ملكهم .

التقرب من الروح الصينية

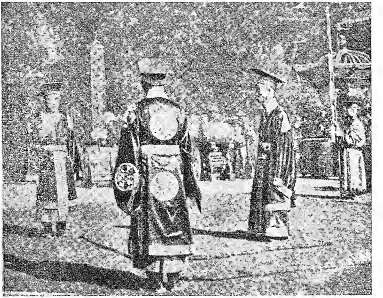
وفي كل قرية كان ممثلو الأسر أو العشائر يجتمعون لتقديم القرابين لأرواح التربة والمحاصيل ، وكان كل رئيس عشيرة يقدم صحبته لأرواح

حقول الأسرة فى فنـاء بيته . وفضلا عن ذلك كان الامبراطور واتباعه وكبار موظفيه يقدمون قرابين دورية لآلهة الدار الخمسة ، وهم الأرواح الحارسة للباب وللموقد وللفناء الأوسط وللبوابة وللممر ، أما رؤساء الأسر فكانوا يكتفون بتقديم الذبائح اما لروح الباب واما لروح الموقد .

ولكن مشاركة الشعب المحدودة فى الحفلات الدينية كان يصلح منها ولاؤهم لأرواح الموتى التى كانت تلقى العنـاية الـكافية فى الحفلات الدينية العامة . على أن هذا الولاء كان السمة البارزة فى عبادة الشعب . وكان كنفوشيوس يعتقد اعتقادا قويا بضرورة الحفـلات الدينية ، ومع ذلك فأن عقيـدته هـذه لم يكن يبدو فيها أثر للشعور الدينى ، ولعل من الواضح أن الصينيين انتهوا الى الاعتقاد بأن السماء شخصية الهية حقيقية ، وأنها صاحبة السيادة فى العالم الأعلى ، وأنها القوة العليا التى تهدى الناس فى مصيرهم وتكلا هـذا المصير . ولكننا نجد أن كونفشيوس يقدم للآلهة الولاء الواجب فى حين يقصيهم كل الاقصاء من وصاياه الأخلاقية .

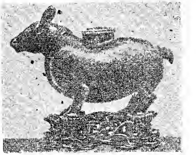
وهو فى الواقع لا يعيرهم التفاته من هذه الناحية كأنهم الآلهة الغريبة الأطوار المستخفة بالآداب التى خلقهـا خيـال اليونان الشـعرى ، وهو لا يتجاهلها فحسب . بل هو على ما يبـدو قد أظهر نحوها شكا عميقا ، وهو يستمسك بأن من الحكمة للانسان أن يعرف الحدود الحقيقية لمعرفته ، وأن يقدر مدى جهله ، اذ كيف يستطيع الانسـان أن يعرف شـيئا عن السماء على حين أنه من الصعب عليـه أن يعرف ما يحـدث فى الأرض ؟ وكان هـــذا النحـو يتحـاشى فى أحاديثه التعرض لأعمال الأرواح ، لأنه كان يرى أن أوهامهم لا تغنى شيئا فى بناء الأخلاق أو هى لا تغنى الا شيئا قليلا .

ولعل الأكثر اثارة للدهشة فى مثل هـــذا العقل المطبـوع على احـترام حماة الأسرة هو نفوره من السماح لعواطفه بأن تتـدخل فى



قداس قربانى ممعن فى القدم

يكرم كنفوشـيوس مرتين فى العام ؛ فى الربيع والخريف فى قاعة الكمال العظيم فى بيكنج بتقديم القرابين فى حفل يحضره جميع موظفى الدولة الكبار . وفى تلك المناسبة تستعمل ملابس الحفلات الدينية والآلات الموسيقية والأوانى الخاصة بالقرابين التى يرجع استعمالها الى أقدم العهود . ويقومون مرات معروفة العدد بلمس الأرض برؤوسهم أمام لوح الحكيم العظيم ــ وهو برهان واضح على ما فطر عليه الصينيون من روح المحافظة فى الدين .



وعاء من أوعية الحفلات الدينية الصينية

أوعية النبيذ الصينية القربانية متنوعة الشكول ، ولهذه الزهرية القديمة التي على هيئة الكركدن ، والتي ترجع الى عهد أسرة تشو ، غطاء بمفصلة على ظهره وفي فمه صنبور ، والركيزة الخشبية تمثل نباتات مائية وصخورا .

عبادة أرواح الموتى من الأسلاف التي ربما تبدت له أكثر واقعية بكثير من أرواح الطبيعة وهو يوصي بعباده الأسلاف بتحفظ وباعتدال في وقار وهدوء ، وبرفض الاجابة عن الاسئلة التي توجه اليه عن الحياة بعد الموت ، ومن أقواله « اذا قلت لكم أن الموتى يعون ويشعرون بان الأبناء الذين يحبونهم سيقضون على أنفسهم لكي يجتمعوا بآبائهم الموتى ، واذا قلت لكم أنهم لا يعون ولا يشعرون فان الأبناء العاصين سوف لا يقدمون حتى على دفن موتاهم » وهذا هو صوت العقلية السليمة التي يمكننا أن نتبين فيها عدم الاعتقاد الحقيقي في استمرار وجود الانسان بعد انقضاء حياته القصيرة .

ولكننا في هذه الحياة علينا واجبات محدوده نؤديها ، وكونفشيوس لا يجد صعوبة في بناء مذهب أخلاقي على أساس حقائق نظام الأسرة المستند الى سلطة الاب ، وهو النظام الذي يزال سائدا في حياة الصين الاجتماعية ، وكل شيء يقوم على تلك الحقيقة التجريبية — في حاضر الصين كما في ماضيها — وهي الحب البنوي . ففي هذا الحب نرى الحقيقة الجوهرية التي لا تفسر واجبات الأبناء نحو آبائهم فحسب وانما تفسر أيضا واجبات الرعية نحو الملك وواجبات المواطنين نحو أولي الأمر منهم ، وواجبات الأحياء نحو الموتى ، وواجبات الجنود نحو أوطانهم ، وواجبات الناس جميعا نحو الله رب السموات ، ويوفي الانسان دينه لأسلافه بأن ينقل الى ذريته التراث الخلقي الذي تلقاه منهم ، وليست هذه العلاقة بطبيعة الحال ذات جانب واحد ، فواجب الأب نحو الابن هو أنموذج للواجبات المتبادلة المطالب بها جميع الذين يشملهم الولاء البنوي . واذا سألنا عن مصدر هذا الولاء وجدنا على الفور أنه فطري ، والرغبة في عمل الخير هي جزء جوهري من طبيعة الانسان . وواجب التربية هو أن تمكن هذه الرغبة الفطرية في عمل الخير من الصمود لنزعات الأهواء .

وقد يبدو أن الولاء البنوي لا يتدرج بسهولة في الواجب نحو الجيران . ولكن كنفوشيوس يعتقد أن القيام بواجبات الولاء يفضي الى غلبة البر الذي يولد الانسجام بين الناس الذين يقوم بينهم علاقات تستند الى المساواه ، كما أن هذا الانسجام ينمي هذا البر . ولكن البر عند كنفوشيوس يختلف تمام الاختلاف عن الاحسان العاطفي الذي يبدو في بعض صور المسيحية أو حتى عن ارادة الخير للناس أجمعين عند البوذيين ، وهو في جوهره قائم على التبادل ؛ فعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به ، ولكن أدفع الشر بالشر . ويجب ألا تبدد الخير باسدائه الى من لا يستحقونه ، لوده يأمر الناس بأن يقابلوا الاساءة بالاحسان ، ولكن كونفشيوس يسأل بازدراء بماذا اذن نقابل العطف ، وهو يأمل بدلا من ذلك بأن نقابل الاساءة بالعدالة ، وكانت عدالة عصره في كثير من الأحيان في الأخذ



أداة كانت تستعمل في عهد كنفوشيوس

كانت الأدوات البرونزية التي تستعمل في حفلات تقديم القرابين شائعة في عهد أسرة تشو ، وهذا الوعاء لتقديم قرابين اللحم يرجع الى ذلك العهد . والركيزة ذات الأرجل الثلاث والنيران الثلاثة على الغطاء توضح اسمها ، سان هسي تينج San Hsi Ting « ركيزة مثلثة لثلاث ضحايا ».

بالنار على الطريقة البدائية ، فالابن الذى تصبح دماء أبيه أو أمه طالبة الثأر يجب أن يصبح عزمه على ألا يعيش هو والقاتل تحت سماء واحدة ، بل يجب عليه أن يرقد فوق القش ، ويتخذ من درعه وسادة ويده على مقبض سيفه ، أليست السماء تعاملنا بنفس هذه المعاملة فتجازى الشر بالشر ٠

فعندنا اذن مثل أعلى للرجل الكامل كما يتصوره كونفشيوس ، وهو الرجل الذى أصبح صلاحه الطبيعى طبيعة ثانية بالممارسة البارعة واستقامة الغرض ، ومهما يكن نقص هذا المثل الأعلى من الناحية الروحية فانه أوفر نصيبا من الانسانية وأقرب الى الطبيعة من النمط المثالى الذى كان الرواقيون قد شرعوا فى اقامته للقدوة والاعجاب فى بلاد الأغريق ، ولم يكن هناك مندوحة عن مهاجمته ، ففى القرن الرابع قبل الميلاد قال يانج تشو فى جرأة بمذهبه فى اللذة المادية ، وأنكر أن هناك حياة بعد الموت — ويجوز لنا أن نذهب الى القول بأن رأيه فى هذا الموضوع كان مطابقا لرأى كونفشيوس الحقيقى — ولكنه استنبط من هذه المقدمة النتيجة المستهدفة للشك ، وهى أن الاستمتاع الشخصى باللذات الحسية هو غاية الانسانية الوحيدة ، وطابقت آراؤه فى ذلك آراء مدرسة شاركافا التى ظهرت بالهند فى العهد القديم وفى العصور الوسطى ، وربما كان موه تيه قد أنشأ مذهبه الذى يقول بسلطان الحب القهار متعمدا الاحتجاج على هذه العقيدة غير الجديرة بالاحترام فلو أحب الانسان جاره كما يحب نفسه لما سرق أو نهب أو قتل ، ولما هاجم الأمراء اخوانهم الأمراء أو لما احتقر أعيان الناس المساكين ، وحث موه تيه الأمراء على أن يؤثروا فى أتباعهم باتخاذ هذا المذهب مبدأ يسترشدون به فى سياستهم ٠

وكان كل من هذين المذهبين الجديدين بغيضا الى روح الكونفشيوسية الحقة أو قد قدر لمنشيوس أن يتولى تفنيدهما ، فأعلن بصراحة أن كلا المذهبين من المذاهب الفوضوية وأنهما يخلطان الحق بالباطل ، وأنهما يهبطان بالناس الى حالة البهائم فلا يدركون واجبهم نحو الملك أو الوالد ، وأنهما ينفيان الصلاح والبر من الدنيا ، وجاهد منشيوس كذلك أثناء تنقلاته من بلاط الى بلاط فاصطنع المنطق المؤثر وأخذ يغرس فى الأذهان حقيقة الخير الأصيل فى الطبيعة الانسانية ، واضطر الى مناضلة أولئك الذين كانوا يؤكدون سوء الطبيعة الانسانية الأصيل ونزوعها الى الشر شأنه فى ذلك شأن سيان كيوانج أحد معاصريه الأصغر منه سنا ، ورد على الآخرين الذين ذهبوا الى أن الطبيعة الانسانية لا تعبأ بالأخلاق وأنها متوقفة على الظروف ، كما ناضل القائلين بأن بعض الناس مطبوعون على الخير والبعض أشرار بطبيعتهم ٠ لما يتفق أحيانا أن يكون ابن الرجل الصالح شريرا سافلا ، وأصر منشيوس

منشيوس المصلح المتعقب للزندقة

على أن الانسان تتغشاه المشاعر الاخلاقية كالعطف والشفقة والخجل والاشمئزاز والاحترام والاجلال والاستحسان والاستهجان ومن ثم ينشأ الصلاح والاستقامة والفطنة والمعرفة وهى تبعا لذلك لم تكن فضائل مكتسبة وانما هى فضائل كامنة فى العقل الانسانى ، على أنه يصر أيضا على فائدة التهذيب الأخلاقى فى تنمية هذه البذور الطبيعية وتحقيق قيمة الانسان الكاملة ٠

ويظهر أن منشيوس لم يكن راغبا فى الاقتداء بكونفشيوس فى السعى الى وضع مبادئه السياسية موضع الاختبار العملى ، ولكنه يكشف عن حصافة وزكانة فى تلك النصيحة التى يزعمون أنه قدمها للأمراء الذين زارهم ، والمحاورات المختصرة التى وصلت الينا تذكرنا بطريقة سقراط كما دونها زينو فون بجلاء ، وهو يشير على الأمير أن يبعد عن عقله فكرة الانتفاع فى معاملة رعيته ، لأن مثل هذا التصور اذا أخذ به الغير أدى الى المنافسة والخراب ، وأن يستعيض عنها بالاعتماد على مأثور الأقوال فى البر والصلاح ، ومن ثم فان منشيوس يزودنا بصورة اجمالية عن مذهب سليم وان يكن ينقصه الخيال ٠

ويجب على الحاكم فى رأى منشيوس أن يحقق السلام فى الخارج والنظام فى الداخل وان لا يضايق الناس بتكليفهم بالعمل فى المنافع العامة التى تضطرهم الى هجر ديارهم واهمال حرث حقولهم ، والا يثقل عليهم بالضرائب الكبيرة المعقدة ، وانما عليه أن يجاهد بكافة الوسائل لترقية الزراعة التى كان يقوم عليها رخاء ولايات الصين فى ذلك الوقت وبعده بزمن طويل ، وهو يندد أشد تنديد بالحكام الذين يثيرون الفتن بأعمالهم مصالح الشعب الاقتصادية ، وهو يؤكد فى جرأة حق الأمراء والوزراء فى معارضة الحاكم الذى يسىء الحكم ، فاذا عجز عن اصلاح شأنه خلعوه عن العرش ، وهو أقوى منطقا من كونفشيوس ، ومن ثم نجح نجاحا ظاهرا فى نشر آراء أستاذه ، وضرب المثل فى السعى الى تنمية النظر السياسى على أساس المبادىء الأخلاقية لهذا المذهب ، ومما يدل على سعة نظره أن المصلحين من المحافظين أو الاشتراكيين فى الأزمنة المتأخرة كانوا يزعمون أنهم يقيمون مذاهبهم على أساس مذهبه ٠

جدول بتواريخ حوادث الخبر الخامس

تشير التواريخ الى حوادث العالم اليوناني . اذا كانت رؤوسها بالبسط الثقيل

ق . م

٤٧٩ الأثينيون والايونيويون يفتحون ستوس ـ الزعامة الاسبرطية فى اليونان ـ الزعامة الأثينية فى البحر .

٤٧٨ اعادة تحصين أثينا (تمستوكليس) . هيرون يخلف جيلون طاغية على سرقوسه .

الصين : وفاة كونفوشيوس .

٤٧٧ ـ ٦ دسائس پوزانياس .

٤٧٧ تكوين الحلف الديلوسى (أرستيديز) .

٤٧٤ **ايطاليا** : هيرون يسحق الأسطول الاتروري فى كومى ـ صلح أربعين السنة بين رومة وڤيى (الاترورية)

٤٧١ تمستوكليس ينفى .

رومة : الحروب بين الفولسكيين والأكويين .

٤٧٠ انشقاق ناكسوس عن العصبة الديليوية .

٤٦٨ اخضاع ناكسوس والغاء حقها فى الانفصال .

ميلاد سقراط .

٤٦٧ انتصار كيمون برا وبحرا عند اليوريميدون .

٤٦٦ تهاية الحكم الاستبدادى فى سرقوسه ـ وبدء الحكم الديمقراطى .

٤٦٥ **فارس** : ارتقاء أرتخشرشا الأول العرش

٤٦٤ الثورة المسينية (هيلوت) على أسبرطة حصار ايتوم .

٤٦٢ اصلاحات افيالتيز وبيركليس الديمقراطية فى أثينا ـ الاسبرطيون يقصون كيمون من أيتوم .

٤٦١ ابعاد كيمون ـ صعود نجم بيركليس فى أثينا ـ اغتيال افيالتيز .

٤٦٠ **مصر** : ايناروس يثور على الفرس ويلتمس المعونة من أثينا .

٤٥٩ ميجارا تنضم الى أتينا ـ الحرب مع كورنثة وايچينا ـ سقوط ايتوم ـ الأثينيون يسكنون المسينيين فى نوپاكتيس .

ق . م

مصر : الحملة الأثينية تحتل ممفيس .

٤٥٧ الأسوار الطويلة تتم تحصين أثينا .

الأثينيون يفتحون بووطية وان هزمهم الأسبرطيون فى تاناجرا ـ الاسبرطيون يعودون أدراجهم .

الأثينيون يفتحون ايچينا .

٤٥٥ **مصر** : الفرس يعيدون فتح مصر بقيادة ميجابازوس

٤٥٤ النهاية المفجعة للحملة المصرية .

نقل خزانة العصبة الديليوية الى أثينا .

٤٥١ معاهدة خمس السنوات بين أثينا وأسپرطه ؛

سيمون فى أثينا ؛ ميلاد ألسبيادس .

رومة : هيئة الحكام العشرة الأولى ـ الألواح العشرة .

٤٥٠ وفاة سيمون ـ معركة (كپريونه) سلاميس .

رومة : الألواح العشرة تزيد الى أثنى عشر

٤٤٩ **رومة** : سقوط هيئة الحكام العشرة ـ خرافة ڤرچينيا ـ انشقاق العامة الثانى ـ قوانين ڤاليريو ـ هوراشيوس تشد من أزر اجتماع العامة .

٤٤٨ البلپونيزيون يرفضون الاقتراح الأثينى بعقد مؤتمر لجامعة الشعوب الهيلانية لاصلاح المعابد .

٤٤٧ معركة كورونيا ـ أثينا تفقد بووطية .

صلح (كالياس) مع فارس وهل وضع حدا للحرب الفارسية .

٤٤٦ ثورة ميجارا وايوبيا ـ اعادة ايوبيا الى ما كانت عليه .

٤٤٥ سلم ثلاثين السنة ـ أثينا تفقد فتوحها فى اليونان الأصلية ـ ميلاد أرستوفان .

رومة : القانون الكانيوليوى يبيح الزواج بين العامة والأشراف .

٤٤٣ مستعمرة تورى Thurii المختلطة (پيركليس) .

ابعاد توسيديديز ، بن ملبسياس .

ق . م

رومة : انشاء الرقابة .

٤٤١ فتنة ساموس .

٤٣٩ اعادة ساموس الى حدودها القديمة .

٤٣٨ البارتينون ـ العصر الذهبى لفيدياس .

رومة : نهاية الهدنة الاتروورية ـ الحرب مع فيى .

٤٣٧ المستعمرة الاثينية فى أمفيبوليس .

٤٣٥ الحرب بين كورنثه وكوركيرة .

٤٣٣ التحالف بين أثينا وكوركيرة ـ معركة سوبوطة .

٤٣٢ انتقاض بوتيدايا على أثينا ـ قانون بيركليس الميجارى .

مؤتمر البليبونيز .

٤٣١ الهجوم الطيبى على بلاتايا .

الغزو الأسبرطى لآتيكا ـ حرب البليبونيز .

أول غزوة (سنويه) لميجاريد .

رومة : هزيمة فولسكى وأكوى عند جبل آلجيدوس .

٤٣٠ الغزو الاسبرطى الثانى ـ الطاعون فى أثينا ـ الحملات على بيركليس ـ فورميو فى نوپاكتوس ـ استسلام بوتيدايا ـ ميلاد أفلاطون ؟ .

٤٢٩ وفاة بيركليس ـ كليون زعيم حزب الحرب ـ جيوش لاكديمونيا . يحاصر بلاتايا .

٤٢٨ ثورة ميتيليه .

٤٢٧ سقوط ميتيلينه وبلاتايا ـ حرب كوركيرا الأهلية .

حملة لا خير العقيمة الى صقلية .

٤٢٦ ديموستين فى ايتوليا .

رومة : ضغط الغالة على اتروريا ـ الهدنة الاتروريه ـ مع رومة بعد هزيمة فيى وفيدانيه .

٤٢٥ مذبحة الأقلية الحاكمة فى كوركيرا ـ ديموستين فى پيلوس ـ استسلام الأسپرطيين فى سفاكتيريا .

فارس : وفاة آرتخشرشا الأول ـ أخشويرش الثانى ، يخلفه دارا الثانى .

ق . م

٤٢٤ الغزو الأثينى لبووطيه والهزيمة عند دليوم ، سقراط ينقذ حياة ألسبيادز .

براسيداس فى تراقية ـ ثورة أمفيبوليس .

مؤتمر جيلا ، بزعامة هرموقراطس ، يرفض تدخل صقلية فى شئون دول اليونان الأصلية أو بواسطة احدى هذه الدول .

ايطاليا : السامنيوميوس يستولون على كاپوا فى غزوتهم كامپانيا .

٤٢٢ مقتل براسيداس وكليون أمام أمفيبوليس .

٤٢١ صلح نيقياس بين أثينا وأسپرطة ، ورفض الحلفاء لشروطه .

٤٢٠ تحالف أثينا مع آرجوس (التى كانت فى حرب مع أسبرطة) .

٤١٨ هزيمة جيش آرجوس عند مانتينيا ـ والثورة .

٤١٦ حملة ميلوس ؛ أثينا تستولى على ميلوس .

٤١٥ سفارة سجستا الى أثينا ، ضد سلينوس .

انتهاك الهرماى ـ الحملة الصقلية تبحر بقيادة نقياس وألسبيادس ولاماخوس ـ استدعاء السبيادس ـ الدسائس ضد أثينا .

٤١٤ حصار سرقوسة ـ وصول جيليپوس ـ وفاة لاماخوس .

٤١٣ أسبرطة تعلن الحرب وتحتل ديكليا ـ ديموستين فى سرقوسة ـ استئصال القوة الأثينية ـ أسبرطة تنشىء أسطولا ـ نمو الدولة المقدونية على يدى آرخيلوس .

الهند : أسرة ناندا فى ماجادها .

٤١٢ ثورات الأحلاف الخاضعين للاثينيين يتلو بعضها بعضا .

أسبرطه تتآمر والقيلين الفارسيين .

تقدم الديمقراطية فى سرقوسة ـ ديوكليز .

٤١١ ثورة حكام الأقلية فى أثينا ـ الأسطول الموجود فى ساموس يستدعى

الكيبادس مدفوعا الى ذلك باخلاصه للديمقراطية ·
٤١٠ معركة كوزيكوس ـ عودة الديمقراطية الأثينية ·
نفي هوموقراطس من سرقوسة ·
٤٠٩ تقدم القرطاجيين في صقلية ـ هرموقراطس في سلينوس ·
٤٠٨ وفاة هرموقراطس ·
ليساندر في آسيا ـ العلائق مع قورش ·
٤٠٦ انتصار الأثينيين في ارجينوساي · زحف القرطاجيين على سرقوسة ·
روما : تجدد الحرب الاتروريه ـ حصار فيى ·
٤٠٥ ديونيزيوس طاغية سرقوسة ـ صلحه وقرطاجة ·
تحطيم الأسطول الأثيني ايجوسبوتامي ·
٤٠٤ سقوط أثينا ـ الطغاة الثلاثون · نهاية حروب البلبونيز ـ سيادة اسبرطة ·
فارس : ارتقاء ارتحشرشا الثاني أريكة الملك ·
٤٠٣ تراسيبولوس يعيد الديمقراطية الأثينية ·
٤٠١ **فارس :** ثورة قورش ـ معركة كوناكسا ـ تراجع عشرة الآلاف جندي اليونانيين بقيادة اجزينوفون ·
٤٠٠ ازدياد سلطان ديونيزيوس في صقلية ·
٣٩٩ اسبرطة في حرب مع اليس ومع القائدين الفارسيين ـ وفاة سقراط ·
٣٩٨ حرب ديونيزيوس القرطاجية الأولى في صقلية ·
٣٩٧ هيميلكو يحاصر سرقوسة ـ عقد الصلح ·
٣٩٦ ايجسيلوس في فريجيا ·
روما : كاميللوس يستولي على فيى ·
٣٩٥ انتعاش أثينا ·
٣٩٤ كونون يقود الأسطول الفارسي ـ كنيدوس ـ الحرب الكورنثية ـ الانتصاران الأسبرطيان ـ في نيميا وكورونيا ·
٣٩٣ كونون في أثينا مع فارمابازوس ·
٣٩٢ الانتصارات الأثينية ـ ايفقراطس وكماته · انتصار ديونيزيوس على القرطاجيين ·

٣٩٠ ديونيزيوس في ايطاليا ـ فشله أمام ريجيوم ـ تحالف ديونيزيوس واللوكاينوس ·
روما : معركة الليا Allia ـ الغالة ينهبون روما ·
٣٨٩ معركة الليبوروس ـ المدن الايطاليوية تنضم الى ديونيزيوس ·
٣٨٧ ديونيزيوس يستولي على ريجيوم ·
٣٨٦ أسبرطة وفارس يتفاوضان ويفرضان صلح الملك أو صلح أنتالقيداس ·
٣٨٤ ميلاد أرسطو ·
٣٨٣ حرب ديونيزيوس القرطاجية الثانية ·
٣٨٢ الأسبرطيون يحمون الأكروبوليس في طيبة ·
العصبة الخلقيدية ـ بدء الحرب الأولنثية ·
٣٧٩ تحرير طيبة ـ سحق العصبة الخلقيدية ·
٣٧٨ حرب طيبة وأسبرطة ـ أثينا تنضم الى طيبة ·
٣٧٦ الأسطول الأسبرطي ينهزم في ناكسوس ·
سلطان تساليا تحت حكم جاسون ملك فريه Pherae
٣٧٥ بيلوبيداس يهزم الأسبرطيين عند أورخومنوس ·
٣٧٤ العصبة الأثينية الجديدة ·
٣٧١ انتصار ايبامينونداس عند ليوقطرا ـ سيادة طيبة ـ العصبة الأركادية ·
٣٧٠ الطيبيون يغزون البلبونيز ـ تأسيس مسينا ·
٣٦٩ تأسيس ميجالوبوليس ـ الأسكندر ملك فيريه ·
٣٦٧ ديونيزيوس الثاني يخلف ديونيزيوس الأول في سرقوسة ·
روما : الموافقة على قوانين ليقينيوس ـ المساواة السياسية بين مختلف الطبقات ·
٤٦٦ تنافس النفوذين الأثيني والطيبي في مقدونية وتساليا ·
٣٦٤ وفاة بيلوبيداس ·
٣٦٢ انتصار ايبامينونداس ووفاته عند مانتينيا ·

الخبر الخامس

المدن المتنافسة

(٤٧٨ - ٣٦٠ ق.م)

كان النضـــال العظيم الذى أوردنا ذكره فى الخبر الرابع مرحلة خطيرة فى تاريخ الترقى ، وكان ردا حاسما على من كانوا يتســـاءلون عما اذا كان نظـــام الامبراطورية الشرقية العظيمة سيمد رواقه على أوربا ، أو أن أوربا ستكون لها نظمها الخاصة .

ــ لقد بذل الشرق كل مافى طوقه فى حركته العظيمة ، ثم هزم ، وسنرى الآن أرقى جزء من أوربا ، وهو يبذل كل ما فى طاقته للقيام بحركته المضادة ، لكى يخضع الشرق لسلطانه .

والذى يلى هذا النضال ، على كل حال ، هو فترة التطور الغربى التى أدت الى الاصـــطدام الثانى . وقد برهن الغرب على أنه أهل لمثل هذه الخطوة ، ولهذه الخطوة فحسب ، من خطى الاتحاد الذى يساعده على ايقاع الهزيمة ، بكل من يحاول اخضـــاعه . وهو قد وضع حـــدا لامبراطوربة ، فارس العـــالمية . فهل يستطيع الوصول الى مثل هذه الوحدة الخليقة بأن تجعل الامبراطورية العالمية فى متناول جيوشه ؟ ، وبمعنى آخر ، هل اليونان قادرة على التماسك الســـياسى ! لقـــد حققت عبقرية قورش ودارا توحيدا عجيبا تاما بين أطراف المشرق ، ولكن هذا التوحيد كان قد بلغ حده ، وكان ينطوى على بذور انحلاله . فلو أن مثل هذا التطور الاســـتعمارى قام فى بلاد اليونان ، لنضـــاءل الأمل فى قيام تطور سياسى فى الامبراطورية الشرقية ، على نسقه ، ومناهض له .

وقد بتت معركتا سلاميس وبلاتيا فى مصير الحرب ، هذا المصير الذى أكده انتصار اليونانيين فى ميكالى ، واســـتيلاؤهم على ســـستوس ، وحسمت معـــركة هيمـــيرا الحرب بين يونان صـــقلية ، أو ــ الصـــقليين Siceliotes ، وبين القرطاجييـــين .. بل كانت معركة حاسمة لم تفتقر الى ما يؤكدها ،

معقبـــات الحرب فى الغرب والشرق

الا أنه كان لكل من الحربين معقبات يجمل أن نتنـــاولها قبل الخوض فى شـــئون اليـــونان الداخلية .

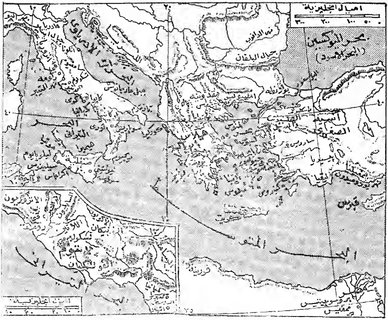
لقد هزمت سرقوسة قرطاجنة ، ولكنها لم تطردها من البحار ، وكانت هنالك دولة أخرى لا تزال تدعى السيطرة فى المياه التيرانية ؛ أما الأتروريون ، فحينماكبح جماحهم فى لاتيوم ، وحينما أدركوا الخطر الذى كانت تتهددهم به الجماعات اليونانية المزدهرة فى الجنوب ، فقد ولوا أنظارهم الجشعة الى مدينة كومى Cumae فى أقصى تخومهـــم الشـــمالية وهاجمـــوها . واســـتنجدت كومى بسرقوســـة لنصرتها على البرابرة ، فاســـتجاب هيرون Hieron دعوتهم، وكان يضطلع بالحكم فى جيلون Gelon بعد أخيه . وكان أسطول اتروريا قد تبدد شمله ، وذهبت سطوتها البحرية فى معركة كيمىCyme أو كومى فى سنة ٤٧٤ . ولعل هذه الضربة التى كالها القائد السرقوسى قد وضعت حدا لنضال آخر ، لم تكن تهتم به سرقوسة ، وهو النضال فى سبيل السيطرة على البـــلاد الأصـــلية بين الأتروريين واللاتين .

أما فى الشرق ، فقد انتهت الحرب الفارسية ، اذا ما نظرنا اليها بوصفها حرب توسع فارسى ، بمعركة حـــول جبل كيثارون M. Cithaeron ، ذلك الجبل الذى كان يسمى دائما باسم مدينة بلاتيا المجاورة له . ولما كان اليونانيون ينظرون الى

استمرار الحرب الفارسية

هـــذه الحرب بوصفها حربا تحريرية من الربقة الفارسية فلم يكن ينتظر أن تنتهى حتى تنال مدن ايونيا وجزائرها اســـتقلالها التام ؛ وكان هذا لم يتحقق بعد ، وان كانوا قد خطوا فى هـــذا السبيل خطوة واســـعة ، حتى بعـــد استيلاء الأسطول على سستوس .

أما الدور الذى نهض به الايونيويون فى هذا النضال فقد أتاح لهم حقا أدبيا قويا يخولهم مساعدة بنى جلدتهم فى أوربا ، وهو حق لم تستطع أسبرطة أن تغض عنه الطرف غضا ، بوصفها زعيمة الاغريق المعترف بها ــ ولم تكن أى من بلاد البليبونيز ترى أن تبذل أى جهد آخر فى هذا النضال بعد الذى وجدته من ضمان ســـلامتها ــ على أن اعتراف اســـبرطة بحق



العالم اليونانى الذى سعت أثينا الى انشاء امبراطوريتها فيه

انقسمت أوربا المتحضره بعد الحرب الفارسية الى عـدد كبير جدا من دول المدن الصغيرة ، الا أنه لم يكن ثمة غير ثلاث دول ، كلها دول اغريقية ، لها بعض الأهمية ، هى سرقوسة وأسبرطه وأثينا ، وقد هزم يونانيو صقلية ، بقيادة سرقوسية الجيش القرطاجى ، وبددوا شمل الأسطول الاتروری ؛ وكانت العصبة التى تتزعمهـا أسـبرطه هى القوة الحربيـة السائدة فى بلاد اليونان . بينما كانت أثينا صـاحبة السيادة فى بحر ايجة بوصـفها على رأس الحلف الديلوسى بحكم أسطولها

الأيونيوين المذكور كانت تشوبه مسحة من عدم الاكتراث الشديد ، حتى أنها لم تستطع أن تبدى معارضة ما حينما انضوى الايونيويون تحت زعامة أثينا الحازمة ، التى كانت سيدة الدول البحرية غـير مدافع ، فلو شبت حرب لتحرير ايونيا ، لكانت حربا بحرية بالضرورة ، ولو فى أول أمرها على الأقل • وقد أصبحت أثينا من فورها ، بوصفها زعيمة ، للحلف الديلوسى الجديد ، غريمة أسبرطه بالفعل لا بالاسم فى زعامة البلاد اليونانية ؛ وجملة القول فقد كانت نتيجة هـذا أن وجـد العـالم اليونانى نفسه منسـاقا للانخراط فى أحد الفريقين ، الحلف البحرى الذى تسيطرعليه أثينا ، أو الحلف البرى الذى تسيطر عليه أسبرطه • وفى الوقت نفسه كانت معظم الدول فى الاتحاد الأول دولا دورية ، أو كانت تفترض أنهـا كذلك ، بينمـا كانت معظم الدول فى الحلف الآخر ايونيوية ، وكانت الدول التى تصطفى على أثينـا أو على اسبرطه لاسباب خاصة تترك أثرها فى كل منهما كذلك •

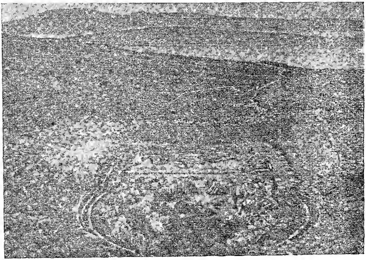
وفضلا عن هذا ، فقد كان فى كل من الدول اليونانيه تقريبا حزب ديمقراطى وحزب أقلية ، وكانت أسبرطة دائما تؤيد أحزاب الأقلية فى البلاد التى لم تكن تستطيع أن تفرض عليهـا حكم الأقلية ، أما أثينا فكانت تشجع الأحزاب الديمقراطيه ؛ وكان انتصار حزب الأقلية فى دوله دمقراطية ، أو حزب دمقراطى فى دولة يتولى الحكم فيها حزب الأقلية ، يكاد يقترن بالضرورة بانتقال هـذه الدول من حلف الى حلف ؛ وعلى هذا كانت الخلافات الداخلية فى

شتى الولايات تنذر بأن تكون دائما عاملا من عوامل التفكك ، بينما كانت كل دولة بوصفها عضوا شخصيا فى أية عصبة ، مهماكان شأنها ، متأهبة لاظهار استيائها من انتقاص حريتها غير المقيدة فى العمل ، عند ما يصدر اليها الاذن بذلك من لدن أية سلطة خارجية ·

وعلى كل ، فلم يكن هـــذا الحلف البحرى الجديد ، اذا تحرينا غرضه المباشر ، الا عصبة للسير بالحرب الفارسية حتى تتحرر بلاد اليونان كلها ، وكان لابد من سيطرة أسطول يونانى على مياه بحر ايجه الى أن تنتهى هذه الحرب ، وكان ذلك أمرا حيويا لكل مدينة أو جزيرة فى الشاطىء الشرقى لهذا البحر ، وقد أنجز كيمون Cimon أبن ملتيادس هذا العمل بالفعل فى سنة ٤٦٧ ، والظاهر أن أحشويرش يفكر مليا فى القيام بجهد عظيم فى سبيل استعادة التفوق البحرى ، وذلك ان الشاطىء الشمالى لبحر ايجه كان قد ضاع كله فى ذلك الوقت ، على أن كيمون قد جاب المياه الجنوبية على رأس أسطول كبير ضخم للاتحاد كارية وليقية وبامفيلية الدورية ، وهى مدن شاطئى آسيا الصغرى الجنوبى والغربى ، ثم بدد فى البر شمل القوات الفارسية بجوار نهر يوروميدون Eurymedon ، كما حطم فى البحر أسطولا فينيقيا مؤلفا من مائتى سفينة شراعية

الا أن انتصار كيمون لم يقلل بحال من شأن الحاجة الى الاحتفاظ بالأسطول اليونانى تحت التوجيه الأثينى ، فقد كان أسطول الاتحاد قد أصبح تقريبا هو الأسطول الأثينى ، تحقيقا لأغراض عملية اقتضت ذلك·

ولم ينشأ الانقلاب عن خطة دبرتها أثينا لانشاء امبراطورية ، وان يكن من المحتمل كثيرا أن هذا المشروع قد خطر ببال تيموستوكليس ، الذى خلق بعبقريته الأسطول الأثينى ، كما أفهم الأثينيين أن مستقبلهم هو فوق البحار ، وقد يكون تيموستوكليس هو الذى ألهمهم مشروع الاسطول ، ولكن تنظيم الاتحاد هو من عمل أرستيدبز ، ثم تولى عملياته كيمون بن



مركز الحلف الذى تكونت منه الامبراطورية الأثينية

أشتقت عصبة المدن اليونانية المعروفة باسم الحلف الدبلوسى اسمها من جزيرة ديلوس ، التى كانت مقر خزانة المالية ، وكان مجلس الحلف يجتمع فى هيكل ابوللو الذى تقدست الجزيرة باسمه للنظر فى أعماله تحت رئاسة أثينا ، ونحن نشرف هنا من مرتفعات ديلوس الوسطى نحو المضيق الذى يفصلها من رينيبيا Rheneia وفى مقدمة الصورة نرى خرائب المسرح نصف الدائرى والمبانى المجاورة له

ملتيادس – وكان الأول رجلا يثق به جميع الناس ، كما كان الثانى من أشد الأثينيين الوطنيين اخلاصا ، وهو فى الوقت نفسه من أشد أصدقاء أسبرطة ، وأكثر المعجبين بها . وقد كان الحلف فى نظر كل من هذين الرجلين هو ما قرره أعضاؤه من بعد ، أى عصبة لتحرير اليونان من طغيان العدو المشترك ، أو برابرة الفرس ، وقد جعلاه ، دون وعى منهما ، أداة لتوسيع رقعة أثينا .

وقلما يثير تفسير ذلك أية صعوبة . فالافتقار الى الوحدة لم يثمر غير النكبات ، وكان لابد من هذه الوحدة ، لا فى الغاية ، ولكن فى الوسيلة أيضا للقيام بحملة جديدة ... كما كان لابد ، لضمان النجاح ، من قيادة عليا واحدة ، ومجلس حربى مشترك . وقاعدة مرسومة لامداد الحملة بالسفن والرجال والمال كما جعل الخزانة المالية فى ديلوس ، التى تسمى الحلف باسمها . وكان يحسم القضايا ممثلون للدول الاعضاء فى المجلس ، برئاسة المندوب الأثينى ، وكان لكل دولة ، صغيرة كانت أو كبيرة ، صوت واحد ، وكانت الدول الكبيرة تقدم السفن ، أما الصغيرة فكانت تقدم الأموال التى تنفق على هذه السفن . وكان يسمح للدول الكبيرة التى تفضل الطريقة الثانية ، باتباع هذه الطريقة ، وقد تركت الدول بالاجماع وبمحض ارادتها ، تقدير نصيب كل منها لارستيديز . ولما كانت أثينا هى التى تقدم السفن التى تدفع الدول الأخرى أثمانها . والتى بقيت جزءا لا يتجزأ من الأسطول الأثينى ، فقد كانت النتيجة العملية لهذا أن الحلف كان يدفع لأثينا الأموال التى كانت تزيد بها فى حجم أسطولها .

ومن جهة أخرى ، لم يكن ثمة مناص من أن يجبر أهل الجزائر اجبارا على أن ينضموا تحت لواء الحلف ، وأن يساهموا بنصيبهم فى تدعيمه ، لأنهم مدينون بسلامته اليه . وقد كان الذين أجبرتهم الحوادث على الانضمام للحلف من بين المساهمين دائما بالأموال ، لا بالسفن . وسرعان ما ثبت مبدأ الحلف الذى كان ينكر الانشقاق ، وازداد قوة . وفى الحق ، لقد كانت الدول المساهمة بأموالها ، وهى تلك الدول التى كانت تظهر أثينا بادىء الرأى ، على الأقل ، بمظهر الدولة التى تحميها ، من الدول التابعة لأثينا ، أو الدول التى كانت تعتمد منذ البداية على السلطان الأثينى ، ولهذا كان فى مقدور أثينا دائما السيطرة على غالبية أصوات المجلس .

وقد تجلت تبعية الاتحاد التامة لأثينا ببضع سنين حينما انتقلت خزانة الحلف فى سنة ٤٥٤ من ديلوس الى أثينا . وتركت لاشرافها هى فحسب ؛ وما ان حلت هذه السنة حتى كان سلطان الحلف

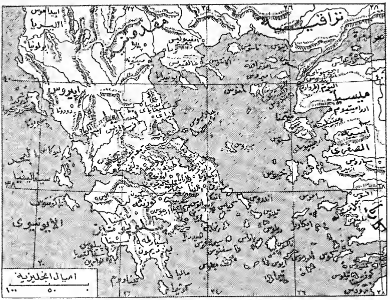
تبعية الاتحاد الديلوسى لأثينا

قد امتد الى جميع بلاد اليونان الأسيوية . ومعظم ثغور الساحل الشمالى لبحر ايجة . وجميع جزائره بما فى ذلك ايجينا التى انضمت اليه آخر الأمر . وكانت لسبوس وخيوس وساموس وحدها تتمتع بقدر من الاستقلال . وذلك لأنها لم تستبدل بنصيبها من السفن نصيبا من الأموال ، وقد جردت فى معظم الأحوال الدول التى أكرهت على الانضمام الى الاتحاد ، أو على البقاء فيه ، من الاستقلال الادارى الذى كان يسمح به الجميع فى أول الأمر .

وقد كان الحلف ، من حيث الشكل رابطة ، أما من حيث العمل فقد كان امبراطورية أثينية .

وقد تحقق الغرض المرسوم الذى أنشىء من أجله الحلف فى معركة يوروميدون . ثم وهنت الحرب مع فارس بعد تلك المعركة ، وان ظلت قائمة حتى أغرت أثينا قوتها المتزايدة على عمل جرىء من أعمال الاعتداء المباشر ضد امبراطورية البرابرة التى كانت حريصة كل الحرص على سلطانها ، اذ كانت منهمكة فى الوقت نفسه فى أعمال أخرى فى كل مكان . وكان موت أخشويرش ، واعتلاء ولده أرتخشرشا (أهاسويروس Ahasuerus) سنة ٤٦٠ مما شجع انتقاض الأمور فى الأمبراطورية الفارسية وهو ما كان يحدث عادة فى مثل تلك الظروف . وفى سنة ٤٦٠ أقلع أسطول أثينى ضخم ، بدعوة من ايرانوس اللبيى للاشتراك فى تحرير مصر .

واوغلت الحملة ايغالا شديدا ، حتى لقد استولت فى سنة ٤٥٩ على مدينة ممفيس ، وان لم تستول على قلعتها . وعلى كل ، فقد أصبحت ثمة مقطوعة عن العالم ، اذ لم يكن من الميسور ارسال الامداد اليها .. ثم وصل جيش فارسى بعد ثلاث سنين فطردها من ممفيس ، ثم



دول المدن والجزائر التى كانت خصوماتها العنيفة تمزق أوصال اليونان

لقد أمكن التغلب مؤقتا على وطنية الأهالى التى كانت تهدد تهديدا له خطره المحاولات التى كان يبذلها اليونانيون فى سبيل الوحدة القومية ؛ وقد كان الفضل فى ذلك لهذا الغزو الفارسى الذى كان محيقا بهم ، الا أنها سرعان ما عادت الى حالتها بعد وقعة پلاتايا • وكانت المصالح الأسپرطية تنحصر فى البلپونيز فحسب ، حيث كانت تستمتع بمنزلة لا ينازعها فيها أحد . ولهذا كانت المدن اليونانية الواقعة خارج دائرة نفوذها ، هى وغيرها من الجزائر تلتمس التوجيه الأثينى فى نضالها مع الفرس . وعلى هذا فقد نجم ثمة حزبان هما مجموعة الدول الأسبرطية ومجموعة الدول الأثينية •

اضطرت الى التسليم آخر الأمر بعد حصار طويل فى جزيرة بروسوبيتس (Prosopitis) ، وبعد أن أحرق الأسطول •• الا أنه سمح لها بالذهاب الى مدينة برقة Cyrene ، ومن برقة الى بلادها ، وهكذا أخمدت الثورة المصرية تماما •

ولقد كانت الحملة الاثينية كارثة غير هينة ، ما فى ذلك ريب ، الا أنها آتت ثمرتها من الشرف مع ذلك • وقد امتد هذا الفشل الى اليونان نفسها بعد ذلك بوقت قصير ، حينما استأصل أسطول فينيقى شأفة فصيلة يونانية •• ومع ذلك فقد استطاع كيمون القيام على رأس حملة أخرى لتحرير قبرس ، التى أخطأها النجاح بسبب موت الربان العظيم فحسب ، وان تبع ذلك انتصارها على الفينيقيين انتصارا بحريا عظيما سنة ٤٤٩ •• ولكن حماسة الأثينيين لمتابعة الحرب الفارسية انتهت بانتهاء كيمون ، ثم انتهت أعمال العدوان سنة ٤٤٧ ، ولعل ذلك كان بسبب التفاهم أكثر مما كان بموجب المعاهدة الرسمية ، أو صلح كالياس (Peace of Callias) • وهكذا لم يعد يخشى تجدد أى اعتداء على أى صقع من الأصقاع اليونانية من جهة فارس ، وان ظلت قبرس تحت سلطانها •

أما من حيث الشئون الداخلية لليونان ، فيجب أن نعود أدراجنا الى ما قبل قيام الحلف الديلوسى ، وحينما كان كيمون لا يزال حيا يرزق • فلما تمت معركة پلاتيا ، وانتصر فيها

استعراض التطور الداخلى

الليقد يمونيون بالفعل ، كان الدور الذى قامت به أثينا فى هذه الحرب قد أظفرها بنفوذ جديد ، اذ جعل لها المرتبة الثانية بعد أسپرطة فحسب ، ولكنها لما تزل فى المرتبة الثانية • وكانت أسپرطة لا تزال فى



جائزة نالها حلفاء أثينا

انضمت أثينا وآرجوس في الحرب ضد كورنثه ، صديقة أسبرطة وذلك بقصد تخضيد السيطرة الأسبرطية ، وقد خلد أحد انتصارات الآرجوسيين بهذه الخوذة الكورنثية التي أستولوا عليها ونذروها لزيوس .

مكان الزعامة ، لا ينازعها في ذلك أحد . وذلك لما بلغه جيشها من المزايا العسكرية العجيبة ، وتفوق أداتها الحربية التي لا تبارى ، على الرغم مما كان يعتورها من قصور . على أن طموح أسبرطة الى السيطرة التامة على البيلوبونيز كان جليا تمام الجلاء ، وذلك من وجهة نظر الداعين الى الجامعة اليونانية . وهذا ما كان يتعارض وما تطمح اليه أثينا ، وكان تحقيق فكرة الجامعة اليونانية يقتضي حربا بحرية حامية لم يكن لأهل البيلوبونيز صالح مباشر من ورائها ، ولم يكن لأسبرطة أي ميل للاشتراك فيها ، بينما كان جليا أن أثينا هي التي ستتولى قيادة هذه الحرب . وكان من شأن ذلك أن تتهيأ أثينا للسير في سبيل انشاء امبراطورية ، وهي السبيل التي كان يسوسها فيها ، منذ سنة ٤٦٠ تقريبا أشهر رجالها السياسيين ، بركليس Pericles .

وقد تنحت أسبارطة ، دون ما تبصر ، عن أولويتها ، فالدول التي كانت في طريقها الى الخضوع للسلطان الأثيني ، كانت خارج النطاق الأسبرطي ، ولم يكن بين أثينا وأسبرطة أي حالة مباشرة من حالات التنافس الصريح ، في هذا النطاق على الأقل ، الا أن نفوذها قد ضعف لسوء تصرف پوزانياس Pausanias ، المنتصر في موقعة پلاتيا . الذي لم يقنع بمنصبه في أسبرطة فتآمر مع فارس ، وانغمس في مشروعات ترمي الى توسيع أملاكه الشخصية . ثم ختم حياته بعد أن حكم عليه بتهمة الخيانة ، بالالتجاء الى حمى أحد الأضرحة ، فرارا من رسل العدالة ، حيث مات جوعا .

على أن ما انتهى اليه أمر تمستوكليز Themistocles كان أخف من ذلك وطأة . . .

وتمستوكليز هو الرجل الذي تدين له اليونان بحريتها أكثر مما تدين لپوزنياس نفسه ، بل تكاد تدين له ، بفضل قيادته الرشيدة في أثناء الأزمة الكبرى ، بكل كيانها . وقد وجهت اليه أيضا ، ان حقا وان زورا ، تهمة التواطؤ مع الفرس ، الا أنه كان أسعد حظا من پوزنياس . اذ خدع مقتفي أثره حتى فر منهم ، ومات في سعة من العيش ورغد ، ينعم بالرزق الذي أجراه عليه الشاه الأعظم ، منبوذا في منفاه من بني وطنه .

وقد حافظت أثينا وأسبرطة على ما بينهما من علاقات المودة حينا من الزمن ، بفضل نفوذ كيمون ، الجندي المحبوب ، الذي كان جم الشرف ، فلم يشأ له شرفه أن يكون دساسا ، وكان ساذج التفكير جم السذاجة حتى لم يكن من رجال السياسة ، الا أنه ورث عبقريته في الفوز بقطوف النصر عن أبيه الفائز في معركة ممراثون Marathon . وكانت أبرز مبادئه هي الاعجاب بأسبرطة ، والعداء لفارس ، والاخلاص لأثينا . وكيفما كان الأمر ، فقد انتهى نفوذه بفعله من فعال الغباوة المطلقة ، من جانب أسبرطة .

ففي سنة ٤٦٣ كانت تعاني صعوبات من جراء انتفاض خطير قام به أرقاء مسينا الذين احتلوا قلعة ايثوم Jthome حيث تحدوا جميع الجهود الأسبرطية لاخضاعهم ، وحمل هذا أسبرطة على طلب النجدة من حلفائها بما فيهم أثينا ، وقد أفلح كيمون ، بالرغم من معارضة الحزب الديمقراطي الفعالة بقيادة افيالتس Ephialtes وبيركليس في التأثير على الأثينيين حتى أرسلوا حملة تحت قيادته لنجدتهم ،

وفشل كيمون في الاستيلاء على القلعة ، ثم أنبىء في حزم أن أسبرطه لم تعد ترجو نفعا من خدمات أثينا ، وقد أدخل الديمقراطيون في الوقت نفسه بعض الاصلاحات التي تستهوى الشعب استهواء عظيما ، فقويت بها قبضتهم . وحزنت أثينا لما لحقها الاهانة في ايثوم ، وعاد كيمون ليجد أن محبة الشعب له قد تلاشت ثم أقصى عن البلاد بعد هذا بعام ، وذلك بطريق التصويت المعروف باسم النفي عن طريق الاقتراع Ostracism ، — التعبير الشائع عن السورة الشعبية العنيفة .

ووصل الاستعماريون الديمقراطيون مناعض لاكونيا الى مناصب الحكم . فاغتال افيالتس مغتال مجهول (٤٦١) . ثم أصبحت سياسة أثينا منذ ذلك التاريخ ، الى ثلاثين عاما متصلة تقريبا هي سياسة بركلس ؛ ومنذ ذلك التاريخ أيضا ، كانت الصداقة بين أثينا وأسبرطة ، في أحسن صورها ، مجرد ادعاء فارغ . وقد أخضع الثوار المسينيون آخر الأمر ، الا أن أثينا زودتهم بملجأ ومستعمرة في نوباكتوس Naupactus ، نقطتها الأمامية التي أنشأتها حديثا في الساطىء الشمالي لخليج كورنثه .

وقد أجل نفوذ كيمون وتعلق الجماهير بشخصه وقوع الفرقة بين أثينا وأسبرطه . وان يكن ابعاده قد تعجل فراق بينهما . وتحالفت أثينا مع آرجوس ، خصم أسبرطه اللدود في البليبونيز ، وسرعان ما انخرطت بعد ذلك في حرب لم تكن مع أسبرطه أول الأمر ، ولكن مع حليفتيها الدوريتين والبحريتين في الوقت ذاته ، كورنثه وايجينا ، اللتين كان يتهددهما نمو سلطان أثينا البحري بالاختناق ..



اقتراع على نفى تيموستوكليز

قضى العدد القانوني من المقترعين الاثينيين سنه ٤٧٢ ق . م ويبلغون ٦٠٠٠ بوجوب ابعاد تيموستوكليز ، غير مبالين بخدماته العظيمة لأثينا . ونرى هنا شقفة (Astrakon) نقش عليها اسمه أحد المقترعين بابعاده



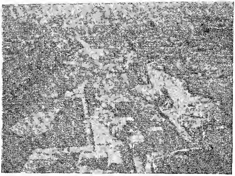
الاستعماري الأثيني العظيم

هرب تيموستوكليز ، بعد ابعاده ، الى آرجوس اول الأمر ، ثم الى الفرس . وقد عثر على هذا التمثال في مغنيسية بآسية الصغرى حيث سمح الشاه الأعظم لتيموستوكليز بالاقامة فيها ، وقد تحقق أخيرا أن التمثال هو لذلك الرجل الذي أرسى قواعد العظمة الأثينية ، وهو موجود الآن بمبونخ

فكانت هذه الحرب مقدمة لحرب البليبونيز

مقدمات حرب البليبونيز

وبدأ الخصام حينما التمست ميجارا ، التي تقع في الطرف الشمالي للبرزخ ، حماية أثينا لها ، وحصولها على هذه الحماية ، من عسف جارتها القوية كورنثه ؛ فقد كانت ميجارا ، من حيث موقعها من شبه جزيرة البليبونيز باب أتيكا والتي كانت أسوارها الخشبية ، مستحيلة الاقتحام أما وقد كانت ميجارا في يدى أثينا ، فلم يكن يمكن أن تهاجم الا من طرفها الشمالي ، من خلال بووطيا ، التي



للمحافظة على أثينا من الهجوم

عند نهاية الحرب الفارسية قوى تموستوكليز خطوط الدفاع عن أثينا حتى جعلها قلعة هي ذاتها . وكانت المدينة محوطة بسور عال محكم البنيان . نرى جانب منه هنا . وقد اعيد بناء تحصينات الاكروبول التى دمر الفرس جانبا منها

تهيمن عليها طيبة . ثم هاجمت كورنثة ميجارا فاسرعت أثينا لنصرتها ؛ وانضمت ايجينا الى كورنثة ، الا أن العمليات الحربية الأثينية بلغت من النجاح شأوا لم يكن من شأنه المحافظة على ميجارا فحسب ، بل حصدت شوكة ايجينا فاستسلمت استسلاما تاما ، وأجبرت على الانضواء الى الحلف الديلوسي بوصفها حلفا تابعا لأثينا ، وذلك قبل مضى عامين . فى سنة (٤٥٧) . بيد أن أثينا كانت فى اللحظة نفسها ، التى بدأ فيها النضال ، قد أرسلت قواتها البحرية بسبيل مغامرتها المصرية التى روينا قصتها آنفا ، فلم تستطع أن تستخدم قواتها الكاملة فى أحد من الميادين ، وذلك لانعزال حملتها الكبيرة فى مصر ، بينما كانت قواتها الأصلية ، منهمكة فى المعركة قريبا من الوطن ـ وفى الوقت الذى كان كيمون ، قائدها العظيم ، فى المنفى ، ومع هذا فقد كان ما أحرزته فى هذه الظروف عجبا أى عجب .

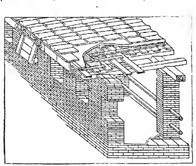
ثم دخلت أسبرطة فى المعترك سنة ٤٥٧ ، ولم يكن موقفها صريحا أول الأمر ، الا أنه كان واضحا أنها دخلتها بوصفها عدوة لأثينا وقد وجدت ما يبرر ارسال قوة ذات بأس الى بووطية ، وهى تنوى فى الواقع اعادة تنظيم العصبة الطيبية ، وكان من نتائج عودة هذه القوة غزو أرض أتيكيه ، موقعة تاناجرا . Tanagra التى حارب فيها أتباع كيمون فى صفوف الشجعان كما يحارب أصدق المواطنين ـ وكيمون هو الذى عرض خدماته على المدينة التى كان دائما يفى لها كل الوفاء فرفضتها ـ كما كان من نتائجها هذا الانتصار الفنى الذى كان هزيمة فعلية لجيوش البليبونيز . واختلفت الآراء فيما اذا كان بركليس قد نجح فى ذلك الحين فى استدعاء كيمون الذى تفاوض فى عقد هدنة مع أسبرطه ، واستمرت أثينا على التحقيق ، فى اجبار بووطية . باستثناء طيبة . على الانخراط فى الحلف الديلوسى .

وواضح أن أثينا كانت فى أوج سلطانها بين سنتى ٤٥٦ ، ٤٤٨ ، فكانت تسيطر على كلا شاطىء خليج كورنثة ، وكانت صاحبة النفوذ فى ميجارا وفى معظم بووطيه ، وقد نقل اليها من ديلوس خزانة الحلف الديلوسى . وعاد اليها آنئذ كيمون فكانت له شخصيتان . شخصية العامل على السلام فى علاقاتها مع أسبرطة ، وشخصية قائد الأساطيل والجيوش الذى لا يشق له غبار ، وقد عاد اليها وهو لا ينطوى على شىء من الحقد ، لا لاسبرطة ولا لمواطنيه أنفسهم . وعندما توفى كان ما تطلبته الحرب الفارسية من جهود طويلة قد انتهى ، على ما ذكرناه آنفا .

وفى هذه اللحظة المبشرة بالخير حينئذ ، أى فى سنة ٤٤٨ . وضع بركليس اقتراحه (ان كان قد وضع اقتراحا حقا) الذى يفصح عن المسالمة المنطوية على نزعة الى توسيع أثينا فى الاستعمار ؛ وقد قامت البلاد اليونانية (هيلاس) بواجبها فى ذلك الوقت بحالة تشبه العمل الجمعى ، وذلك فقط بدافع من الحاجة عبر الحافية الى دفاع مشترك ضد خطر ساحق مشترك . فالآن وفى وقت السلام المستتب الذى كان هذا البربرى أبعد فيه من أن يعنيه هذا الأمر . نراه قد دعا جميع البلاد اليونانية الى الاجتماع فيما يشبه مؤتمرا امبراطوريا تكون وجهتهم فيه العمل المتحد للغايات المشتركة التى تعود بالخير على بلاد اليونان كلها ، وفى مقدمة هذه الغايات استعادة المعابد التى

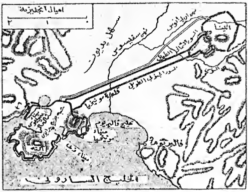
يحترمونها جميعا ، وحمى المعابد الموجودة فى الأقاليم التى اجتاحها البرابرة ، ثم القضاء على أعمال القرصنة التى عانت منها الأمرين تجارة اليونان جميعا .

وقد كان مثل هذا المؤتمر حريا بأن يتمخض عن احتمالات لا حد لها من حيث تقدم الجامعة اليونانية الا أنه مما لا مشاحة فيه أنه كان حريا كذلك بأن يتمخض عن زعامة أثينية — وفضلا عن هذا ، لم يكن الفرس قد اجتاحوا بلاد البليبونيز ، ولم يرق هذا الاقتراح فى نظر أسبرطة ، أو فى نظر بقية أهل البليبونيز ، فرفضوه ، وكان بيركليس حرا فى الرجوع الى خطته من الاستعمار الأثينى ، ولم يكن بد من أن تقف فى وجه روح النوسع عند تلك الدولة البحرية الديمقراطية العظمى جميع جيوش حكومات الأقليات العسكرية صفا واحدا ، بزعامة أسبرطة — لا جيوش الاستعمار الأسبرطى ، لأن الدولة الأسبرطية ، بالرغم من شجاعة جنودها ، لم تكن من سرعة الخاطر ، والاقدام



للأحراس والرماة

كان السوران الطويلان فى أثينا منشيدين من الحجارة تشييدا مكينا ، وكان يرقى اليها بدهليز من الآجر ، ذى كوى ، مسقوف بالقراميد — كما يرى فى هذه الصورة المجددة — فكان قمنا أن يحمى الحراس حماية تامة .



تدابير دفاعية أحكم تخطيطها

كانت أثينا محصنة تحصينا كافيا لصد هجمات الأعداء ، بفضل هذه التحصينات التى أنشئت بايعاز من تمستوكلز . الا أن سلامتها لم تصبح مضمونة حقا حتى ربطها بيركليس بمنطقة بيريه (Piraeus) بالسورين العظيمين ؛ فقد جعل هذان الخطان المحصنان تحصينا قويا المواصلات بين أثينا وبين الميناء سليمة عمليا

فى حلبة السياسة بحيث نفكر فى تحمل المسئوليات الامبراطورية .

وفى الوقت نفسه كانت أثينا ذاتها ، مدينة التاج البنفسجى الحقيقية ، قد أصبحت أقدر بكثير على الاستخفاف بالهجوم العسكرى مما كانت فى الماضى . وكان بيز ستراتوس فى العصور الغابرة قد جرد سور المدينة القديمة من وسائله الدفاعية ، راميا بذلك الى تحقيق مآربه الشخصية وعند ما وصل الفرس الى مراثون ، ثم الى ترموبيلى ، Thermopylae ، بعد ذلك بعشر سنين ، كانت أثينا غير محصنة ، وكان الأكروبول ، وهو القلعة الحقيقية ، هو الموقع الوحيد الذى أمكن أن يثبت للحصار لمدة أسبوع . فلما وضعت الحرب أوزارها ، وعاد الأثينيون الى المدينة ، أقام تمستوكل Themistocles ، بالرغم من اعتراضات أسبرطة الودية سورا جديدا ، وحصن ميناء بيريه العظيمة ، التى كان لا يزال من المحتمل — مع ذلك — أن تنقطع الطريق بينها وبين العاصمة نفسها التى تبعد عن بيريه بأربعة أميال ، وفى عصر بيريكلس فحسب تم تشييد تحصينات الميناء ، ومد الأسوار الطويلة الشهيرة ، من

المدينة الى الثغر ، بحيث أصبح ذلك كله ، من الوجهة الحربية ، مدينة واحدة عظيمة محصنة .

الا أن السنين التى تلت صلح كالياس Calias مباشرة كانت درسا أفاد منه الأثينيون أن مد ممتلكاتهم برا كان غلطة ترتكبها الدولة التى تركز قوتها فى أسطولها ، فقد تلاحقت الفتن ، نتيجة لما كانت تدبره الأقليات عادة من مؤامرات ، ثم انفصلت بوطية Bocotia واستردت طيبة سطوتها ، وانفصلت ايوبويا Euboea ، الا أن الثورة أخمدت فيها ، وانفصلت ميجارا ، وأبت على كل الحامية الأثينية فيها ، وانضمت الى عصبة البلبونيز . وانكمشت حدود آتيكا البرية كلها . فأصبحت مهددة بالغزو مرة أخرى ، وان تكن بلاتيا Plataea الصغيرة ، قد تمسكت بالمحالفة معها تمسكا لا انفصام له . وفى سنة ٤٤٥ ختمت أثينا التى كانت تحدق بها الاخطار . سنى السلام الثلاثين بينها وبين أهل البلبونيز المحالفين بالتنازل عن جميع ما أحرزته حديثا تقريبا فى بلاد اليونان الأصلية .

وليس من اليسير البتة معرفة حال أثينا على وجهها الصحيح فى هذه المرحلة . لأنها حال لم يكن لها نظير من حوادث الماضى .. انها لم تكن حال تفوق عالمى معترف به ، مرتكز على سطوة عسكرية مقررة ، كما كان شأن الزعامة الأسبرطية .. فلم تكن أسبرطة تدعى أى حق فى فرص مشيئتها على حلفائها بما لها من الزعامة عليهم . ولكن الحلف الديلوسى كان يدعى فى عهد قديم جدا الحق فى اجبار الدول البحرية على الانضمام اليه ، وعلى البقاء فيه بعد هذا الانضمام ، وكان لسان الحلف منذ نشأته هو لسان أثينا من الوجهة العملية ، وكان الأسطول أسطولها فيما عدا هذه الفرق المشتركة فيه من ثلاث من الجزائر .. وحينما كان يفرض الاجبار كانت أثينا هى التى تفرضه ، فكانت تحدد قيمة الاشتراكات بالقوة ان لم يكن حسب الأصول الرسمية ، وكانت هى وحدها التى تهيمن على المصروفات ، وحينما كانت تفرض مشيئتها كانت تصحب ذلك بشىء من تهضم استقلال البلد الذاتى ، فتم خسارته لاستقلاله المعترف به فى معاهدة اعترافا شكليا . ولم تكن أثينا من حيث العمل رئيسة لعصبة من الدول المتساوية ، بل سيدة لعدد من الدول التابعة التى يدعم خراجها الأسطول الأثينى .

واستحدث بيركليس ، فضلا عن هذا ، نظاما جديدا للاستعمار عبر هذا النظام ، اذ أنشأ فى بلاد الحلفاء مستعمرات للأهالى الأثينيين الذين ظلوا مواطنين أثينيين . تحت الحكم الأثينى ، والمراد منها فى الواقع أن تكون بمثابة حاميات أثينية . ولم تكن أراضى هذه المستعمرات تغتصب من ذويها ، بل كانت أثينا تعوضهم عن ذلك عادة بشىء من التخفيض فى الخراج . وقد صادف هذا النظام استحسان الأثينيين ، فقد أتاح مهاجرا طيبا للفائض من السكان ، وبلا مقابل من جانب الخزينة الأثينية من الوجهة العملية ، كما أنه عاون الأثينيين على نشر تجارتهم ، ولم يكن حلفاء أثينا يرضون عن هذا النظام رضاء الأثينيين عنه ، الا أنه كان قمينا بأن يبقيهم تحت الاشراف الأثينى ؛ وقلما كانت الروابط التى تربطهم بالأثينيين روابط ناعمة سليمة مما يعكر صفوها .

وقد زعزعت المصائب التى أسفرت عن هذه الحالة التى تشبه الهوان ، والتى كانت ثمرة سلام الثلاثين عاما،من جاذبية بيركليس العظيمة التى كان يتمتع بها فى قلوب الشعب الأثينى ، وان لم تقض عليها . فقد كان انتصاره يعود الى شخصيته مذ رفض رفضا باتا أن يأخذ بوسائل زعماء الرعاع الدنيئة ، فترفع عن الجماهير ، واحتفظ بمقاليد الحكم لأنه كان ينتزع الثقة من مواطنيه حتى وهو يواجه الهزيمة ، والمعارضة التى لا شك فى صدورها عن روح الشعب بخاصة ، وان قام على رأسها زعيم معروف بنزاهته الممتازة ، هو تيوسيديدز بن ملسياس (وهو غير تيوسيديدز المؤرخ) ، الذى كان يغريه بيركليس ارتيابه فى مبتدعاته التى كانت تروج لدى الجماهير ، وأشد من ذلك عدم رضاه عن معاملته الاستبدادية للحلفاء . الا أنه حينما تحداه تيوسيديدز للوقوف معه أمام الشعب وجها لوجه ، وذلك بعد ابرام معاهدة السلام بثلاث سنوات كان هو نفسه ، لا بيركليس ، الذى حكم بنفيه .

وكان تيوسيديدز يمثل فى أذهان الجماهير حزب الأقلية الحكومى . المناهض لحزب الأكثرية وهذا فى الوقت الذى كانت فكرة التوسع

الاستعمارى تستهوى تفكير ذلك الحزب ؛ وكان الجمع بين أرقى الوسائل الديمقراطية ، وبين هذا الترفع الذى يشـبه ترفع أرباب الأولمب ، والمثالية الاستعمارية شيئا لا يمكن مقاومته ، اذ لم يكن للفسـاد أو الارهاب أى شأن فى دعم سلطان بيركليس ، فقد كان فى واقع الأمر ملكا غير متوج ، قصارى ما يقال فى سبب اضطلاعه بشئون الحكم ان الاهالى الأثينيين قد صمموا على اختيـاره بوصـفه الرجل الوحيـد الذى كان يستحوذ على ثقتهم .

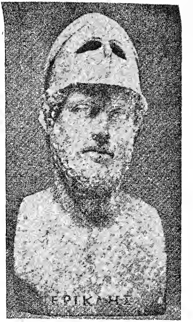
وكان تعميم بيركليس للمبادىء الديمقراطية هو السمة الظاهرة فى سياسته الداخلية ؛ وهو ما ضـمن تعلق الجمـاهير به . فقـد كان يرى وجوب تساوى جميع المواطنين أمام القانون . وقد وصـل الى منصة الحكم بوصفه بطل تلك الحـركة التى حـدت من امتيـازات هيئـة الآريوبيجس Areopagus ، ولما قام به من نقل اختصاصات هذه الهيئة الى هيئة أخرى للجمهور حق التقدم الى عضويتها (والآريوبيجس هى هـذه الهيئة العتيقة التى خلع الزمان عليهـا مهابته ، والتى كانت أغلبية الشعب محرومة من عضويتها على الدوام لصرامة دستورها) .

ولم يكد يستقر السلطان فى يدى بيركليس حتى عمم مبـدأ دفع أجر للنهـوض بجميع الوظائف العامة الصغرى التى لم يكن المواطن العادى يستطيع بدون هذا النظام أن يوفر من وقته ما يتسع للنهوض بها ، وقد جعل القيام بهـذه الوظائف جزءا كاملا من واجب المواطن نحو الدولة . ولم يكن ثمـة منصب سـياسى لا يطمع أى مواطن الى الوصـول اليـه ، اما بالانتخاب أو بالاقتراع ؛

سياسة بيركليس الديمقراطية

وخفف العبء الاقتصادى الناجم عن زيادة السكان بالاستفادة من مذهبه فى الاستعمار ، واقرار السـكان الفائضين فى تلك المستعمرات أوال «Cleruchies» التى تكلمنا عنهـا من قبل ... وبهذا أيضا زاد فى تعلق الجمهور الأثينى بمذهبه هذا فى الاستعمار .

وقد كان من العوامل الهامة التى أحرز بها بيركليس نفوذه هـذا البهـاء الذى أشاع روح الزهو فى نفوس الأثينيين بمدينتهم وببيركليس نفسه . فلقد رفضت اليونان ، عن بكرة أبيها ،



ملك أثينا غير المتوج

كان بيركليس ، لشـدة ما كان يثق به الديمقراطيون الأثينيون ثقة لا تتزعزع ، لا يلجأ الى اسـتعمال الوسـائل السياسية المراوغة ، وقد حقق المبـادىء الديمقراطية فى بلاده ، الا أنه كان فى الشئون الخارجية استعماريا لا يعرف المساومة .

كما رأينا ، المساهمة فى ترميم المعابد المهدمة التى كانت العناية بهـا فرضـا له قداسة فى نفوس اليونانيين جميعا . وبهذا وقع العبء كله على كاهل أثينا ، فكان العمل الذى قامت به ، بفضل توجيه بيركليس ، ميراث البشرية الباقى على وجه الزمان . فقـد كان من داب أثينا أن تنفق من مالهـا عن سعة اذا كان جيبها عامرا بهذا المال ؛ وآية على ذلك أن الدول التابعة لها لم تتحمل من نفقـات ترميم المعـابد غير جزء ضئيل .

وكانت أثينا تهيمن ، عن طريق حامياتها أو الدول التابعة لها ، على الدردنيل والبسفور وقد لا نعدو الحق اذا جزمنا بأن بيركليس كانت له أحلام يمتد رواقها الى البحر الأسود ، فقد

قوى قبضة الأثينيين الى درجة كبيرة على الشاطىء الشمالى لبحر ايجة ، وان أصبحت فيمـا بعد مستعمرته أمفيبوليس مصـدرا من مصـادر الضعف ، أكثر مما كانت سـببا من أسـباب القوة ، فقد كانت تهيمن فى الغرب على مدخل خليج كورنثة ، لوقوع نوپاكتوس فى شاطئها ، وكانت كوركيرا مستعمرة كورنثيـة ، الا أن العلاقات بينها وبين العاصمة كانت من السوء دائما بحيث كان من الممكن لأثينا أن تعتمد على صداقتها من هذه الناحية .

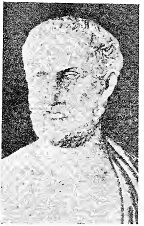
وكان العنصر الدورى غالبا غلبة عظيمة فى ايطاليا وصـقلية ، الا أن پيركليس حاول هنا أيضا خلق أسباب للتدخل الأثيني عن طريق انشـاء مستعمرات الجامعـة الهيلانية ، فأنشأ أول الأمر مستعمرة سيباريس الجديدة ثم مستعمرة ثورى Turii فى ظل النفوذ الأثينى ، وان لم يصب من النجاح الا قدرا محدودا فحسب .

وقد دل على الضعف الذى كان خليقا أن يعتور استعمارا مثل هذا الاستعمار الأثينى ، انتقـاض كل من بوزنطـة وساموس التى كانت احدى الدول الثـلاث التى تقدم اشتراكها لأثينـا سـفنا . هذا وان انتهى كلا الانتقاضين سنة (٤٣٩) دون تدخل من جهـة البليبونيز . ثم أصبحت ساموس دولة خاضعة .

دمدمات قبل العـاصفة

ومهما كان من اضطغان أسبرطة على أثينا فقـد كانت الأولى من الخيـلاء ، والثبـات ؛ والاسـتعداد لأن تعتمـد فى هدوء على قوتها وحدها بحيث آثرت ألا تتخذ الخطوة الأولى ضد غريمتها ، بل انتظرت حتى يبدأ غيرها باتخاذ هذه الخطوة ، ذلك أنها كانت محرومة حرمانا تاما من روح الاقدام والمبادأة الى تمتـاز بهـا أثينا ، على أنها كان يساورها الشك فى أن تقوم بتلك الخطوة الدولة الدورية التى كانت ترى أن غريمها القوى واقف لها بالمرصاد ، يعرقل كل ما تعـوم به من نشـاط بحرى . وما تصبو اليه من أطماع تجارية .

وكانت الأساطيل الأثينية تهيمن على الخليج الساروني وخليج كورنثه ، وكانت تغزو أملاك كورنثة فى الغرب ؛ أما فى خالقيـديس فقـد اندمجت پوتيديا ، احدى مستعمرات كورنثة ، فى الحلف الأثينى . فلو قد أتيحت لـكورنثة فرصة اثارة غضب أسپرطة الكامن ضـد أثينا ، واثارته الى درجة توقع الحرب بينهما لكان من المحقق أن تفيد من ذلك الى آخر حدود الافادة ، وعنـدئذ تتسـاوى الكفتان بدخـول قـوات الحلف البليبـونيزى كاملة ، أما أسـبرطة فقـد تضـاعف خطورتها حينما تشعر بأنها قد انغمست فى هذا النضال بحكم مالهـا من الزعامة — أما پيركليس فلم يكن ليخدعه شيء عن هذا .



أول مؤرخ كتب بالطريقة العلمية

معلوماتنا عن حرب البليبونيز مشتقة الى حد كبير من توسيديديز الذى لم يكن بمتعصب فى رواية الحـوادث أو تفسيرها بالرغم من كونه أثينيا — وهذا التمثال النصفى فى هولخام هول، بنورفولك ، هو من أحسن التماثيـل الباقية لهـذا المؤرخ

ثم حـدثت طائفـة من الحـوادث المتفرقة فأتاحت الفرصـة المنشـودة . فقد حدث فى بادىء الأمر ، وذلك فى سـنة ٤٣٥ أن تنازعت كل من كورنثة ومستعمرتها كوركـيرا عـلى مسـتعمرة لكوركيرا تدعى ايپدامنوس ، ثم انتصرت كوركيرا التابعة ، على كورنثـة المتبوعة ، فى معـركة بحـرية ، فشرعت كورنثة التى كان حلف البليبونيز يسـندها ، تستعد لتأديب كوركيرا ، التى فزعت الى أثينا تطلب محالفتها حينما وجدت أنها لا نصير لها ؛ فى حين أخذت كورنثة تضغط على أثينا لتقف عـلى الحياد ، وربما كان هـذا التحالف معجلا بوقوع حرب فى البليبونيز ، الا أن الأسـطول الكوركيرى فى هذه الحالة قد تكون له فائدته . ولم توافق أثينا على مساعدة كوركـيرا الا اذا هاجمتهـا كورنثة . وفى صـدام بحـرى عند سوبوطا أنقذت عمارة بحرية أثينية الأسـطول الكوركيرى من نكبة ماحقـة (٤٣٣) . فكان

هذا الحادث مسألة خلافية جعلت كورنثة تتهم أثينا بنقض صلح ثلاثين السنة ·

ثم ثارت پوتيديا فى السنة التالية حينما أمرتها أثينا بطرد حكامها الكورنثيين وتقويض أسوارها · وضلع نصف شبه الجزيرة الخالقيدية مع پوتيديا بتحريض بردكاس Perdiccas ملك مقدونية الذى كان يضطغن على أثينا أضطغانا خاصا شخصيا · وفى سنة ٤٣٢ هزمت قوة أثينيــة قائد بوتيــديا الكورنثى ، ثم حاصرت المدينة ، فطلبت كورنثة معونة أسبرطة ، فرد بيركليس على ذلك باصدار أمر بمنع دخول أى ميجارى فى أى ميناء تحت السيطرة الأثينية ، ومعنى ذلك القضاء على تجارة ميجارا · وذلك لمساعدتها كورنثة فى سوبوطا ·

واقتنعت أسبرطة بوجوب معاونة كورنثة لما كان يظاهرها من دول البلپبونيز الأخرى ، الا أنها ، كما هو شأنها دائما ، كان يعوزها الوقت لتأخــذ أهبتها ، فأثارت بعض المســائل التى لا علاقة لها بهذا الأمر ، والتى غض النظــر عنهــا بطبيعــة الحـــال ، ثم دقت ساعــة العمل · ولعل الحرب كانت ناشبة ان لم تطلق أثينا أيدى أولئك الهيلانيين الذين كانوا يخضعون لها · وكان جوابها على ذلك أنها ستتحدى مثال أســبرطة اذا هى أطلقت أيدى الهيــلانيين فى دائرة نفوذها · ولما كان هذا هو آخر ما تفكر أسبرطة فى الاقدام عليه ، فان موقف أثينـــا معناه أنها قــد قبلت راضيــه مطمئنه .

كيف شبت الحرب آخر الأمر

الرهان الذى تبدته أســبرطه بعــد التردد ·

وكانت الحرب التى نشبت فى ربيع سنة ٤٣١ نضالا من أجل السيطرة بين امبراطورية بحرية ودولة ذات جيوش برية تسود غيرها من الدول ، أضف الى ذلك ما كان لأتيكا من الحدود البرية الطويلة التى لا يمكن الدفاع عنهــا . بينما لم يعــد لهــا فى البر أى صديق ذى بال غير دولة پلاتيا الصغيرة ، وان كانت أساطيلها تشمل أساطيل خيوس ولسبوس ·

وكانت هذه الحرب فى نظر مؤرخها الكبير ثيوسيديدز أهم بمالا يقاس من أى حرب فى تاريخ البشر ، بينما ينظر اليها بعض المؤرخين المحــدثين شزرا ، فهى لا تعدو عندهم شجارا تافه الشأن بين دولتين صغيرتين · وقد كانت نتيجتها الوحيدة التى لا نزاع فيها ، هى بلا شك اختفــاء أى احتمال قد يكون ظهر من قبل عن توحيــد هيلاس ، ذلك التوحيد الذى نظن أنه ربما كان نتيجة الانتصار الأثينى الذى لم يكن نتساهله · ولعل هيلاس الموحدة الكلمه من الناحيه الســياسيه كانت حلما من أحــلام بيركليس . الا أن الحرب فى الواقع لم تساعد على تحقيقها مطلقا ، وكانت ، لهذا السبب عبثــا لا غناء فيــه · فالتوحيد لم يكن يتلاءم وفكرة اليونانيين عن وجود كيان خاص لكل من دول بلادهم ، تلك الفكرة المتأصلة فى أفهامهم · ولكن تاريخ تلك الحرب قد كتبــه ثيوســيديدز ، وسواء بالغنا فى تقدير قيمة هذا التاريخ او غضضنا من شأنه فهو أثر من الآثار العالمية الرائعة ·

وقد أدرك بيركليس من أول الأمر تلك الحقيقية الجوهرية التى مؤداها أن قوات العــدو البرية كانت متفوقة تفوقا ساحقا ، وأن أتيكا ، التى تحتلف من مدينة أثينــا بمواتيها ، كانت غير صالحة للدفاع عنها . وكانت جيوش البلپبونيز تجتــاح أتيكا سنة بعــد أخرى دون أن تلقى مقاومة جدية · وفى السنة التالية (٤٣٠ ق·م) كادت أثينــا تخر جاثية بسبب ظهور الطاعون الدملى داخل المدينــة ، هــذا الطاعون الذى لم



على ظهر سفينة حربية أثينية

كانت السفن الحربية التى استعملت عادة فى حــرب البليپونيز من طراز الترايريم Trireme ، وهو نوع ثقيل سريع من أنواع القوارب التى تدفعها مجاريف مصفوفة فى ثلاثة صفوف ــ ولم ينجح الفحص الآثارى ، الذى يعتمد على النقوش البارزة الأثينية اعتمادا كبيرا ، فى البت بتا أكيدا ، فى الطريقة التى رتبت بها هذه الصفوف

تحط حدود المدينة نفسها . وان ذهب بربع سكانها .. وذلك فى الوقت الذى كانت أثينا فيه تضيق بأهل الريف الذين تكدسوا خلف سورها ؛ وقد انتهزت الأحزاب المناهضة للديمقراطية والأحزاب ذات النزعات الاستعمارية المغالية هذه الفرصة لمهاجمة بيركليس ، الذى وجد أن من أشق الامور اقناع الأثينيين بأن يلقوا بالهم الى ما يحل بأملاكهم خارج أسوار المدينة من دمار ؛ الا أن نفوذه لم يتلاش ، وان كان قد زلزل زلزالا عظيما . لكنه توفى فى السنة التالية (٤٢٩) . وانتقلت زعامة الاستعماريين الديمقراطيين الى رجال آخرين .

وكانت سياسة بيركليس الحربية قائمة على ما كان يعتقده من أن محاولة لقاء جيوش البليبونيز الرئيسية فى البر لا يمكن أن تعود على أثينا بأى جدوى ؛ بل ربما كلفتها كثيرا . وكان ينبغى أن يكون الرد على هجوم أعداء اتيكا عليها هو التضييق على دول البليبونيز بقوة بحرية لا يمكن دفعها . فتقتل تجارتهم ، وتناوش سواحلهم من حين الى حين بغارات تنغص حياتهم ، وللوصول الى هذه الغاية كانت



جندى شاب فى طريقه الى ساحة الوغى

كانت قوة الجيوش اليونانية تتركز فى مشاتها المدججين بالسلاح ؛ الذين كان يطلق عليهم الـ Hoplites أو الكماة وقد كان لدى اسبرطة أكفأ فيلق من هؤلاء ، وقد كان الكمى المثالى الذى يخوض لظى المعركة يزود بدرع لصدره ودرعين لساقيه وسيف فضلا عن قباء وبيضة مقونسة ، ورمح ومجن من نحاس كما نرى فى هذا الرسم الذى يرجع الى حوالى سنة ٤٥٠ ق.م

الهيمنة على البحر الغربى أمرا لا معدى عنه . أما السيطرة على بحر أيجه فكانت قد تمت من قبل .

وكان المرسوم الذى صدر ضد ميجارا بعد الحرب مباشرة يتضمن تلك السياسة ، وقد بادر بيركليس الى استجابة ما تقدمت به مدينة ليونتينى الصقلية من طلب التحالف مع أثينا ، وذلك لتوهين الروابط بين كورنثة وسرقوسة . ولم يجد ذلك كثيرا فى هذا الوقت . الا أن أثينا فى أثناء هذه السنوات الاولى قوت مركزها فى الجزائر الغربية وفى الساحل الأكرنانى ؛ ونالت بعض الانتصارات الباهرة على عمائر بحرية أكبر عددا من العمائر الأثينية ، وذلك بقيادة أمير البحر القدير فورميو الذى كانت حياته ، على كل حال ، قصيرة لسبب لا نعلمه . وقد استمر حصار بوتيدايا فى شبه الجزيرة الخالقيدية الى نهايته . وطرد البوتيديون ، واحتل الأثينيون المكان . وأصبحت ايجينا مصطبغة بصبغة أتيكا تماما ، وذلك فى السنة الاولى بعد اجلاء الايجينيين عن بكرة أبيهم منها ... وهم الذين كان الأسبرطيون قد ثبتوا أقدامهم فى تلك الأرض اللاكونية .

ولا نستطيع أن نلمس تقدما ملحوظا اصابه أى من الجانبين فى السنين التى تلت موت بيركليس مباشرة ؛ الا أن ثلاثا من الأحداث الهامة التى طار ذكرها لما أودعه فيها كاتبها ثوسيديدز من بيانه الساحر تنتسب الى هذه الحقبة .

وكانت الشرارة التى أشعلت نار الحرب محاولة قام بها الطيبيون ليضعوا أيديهم على بلاتايا خدعة ، وقد حبطت هذه الخدعة فى ظروف يمكن أن نعدها من قبيل النكث بالعهد من جانب أهل بلاتايا الذين استنجدوا بأثينا، فسحبت الاهالى غير المحاربين ، ثم تركت بالمدينة حامية قوامها أربعمائة من البلاتيين وثمانين من الأثينيين . على أن أثينا لم تبذل شيئا غير هذا بالرغم من وعودها لبلاتايا التى حاصرتها جيوش البليبونيز فى السنة الثالثة بعد أن رفضت حاميتها فى أنفة أن تستسلم .

وفى السنة الخامسة أحدقت الجيوش بالمدينة احاطة تامة ، وبقوة جعلت المحاصرين على شفا الموت جوعا ، وان ذهبت أدراج الرياح كل المحاولات التى بذلها أعداؤهم لاقتحام خطوط الدفاع وذلك لحسن ما أبداه المحاصرون من براعة وثبات · ثم استطاع نصف الحامية أن يشقوا الحصار وأن يصلوا الى أثينا ، أما النصف الآخر فاستسلموا بعد ذلك بمحض اختيارهم فأعدموا جميعا بحجة « أنهم لم يصنعوا شيئا ليساعدوا اللبقديمونيين هم وحلفاءهم »

أما الحادث الثانى فهو الثورة على العصبة الأثينية فى جزيرة لسبوس الحرة (باستثناء ميثمنا الموالية لهذه العصبة) التى كانت تتزعمها ميتولينة وكان أهل البليبونيز هذه المرة هم الذين وعدوا بارسال أمدادهم ولكنهم لم يفعلوا شيئا ، فاضطرت ميتولينة الى الاستسلام ، تاركة مصيرها تحت رحمة أثينا · وقد بلغ سخط الديمقراطية أقصى حده على الثائرين ، وهو سخط لا يمكن رده فى هذه الحالة الى طغيان الأثينيين ، فقد حكمت الجمعية التى كان يرأسها فى ذلك الوقت كليون الشهير ، أو القبيح السمعة ، باسترقاق السكان جميعا ، أو بموتهم جميعا ؛ وقد أرسلت سفينة تحمل هذا القرار ، ولحسن حظ المحكوم عليهم لم تغذ السفينة سيرها ، فلما وصلت فى الوقت الذى كان الحكم فيه على شفا التنفيذ ، اذ بمركب حربى يسرع الى الميناء يحمل أمرا بارجاء التنفيذ ، وقد دعيت الجمعية الى اجتماع خاص آخر فألغت الحكم الفظيع . وشمر المجدفون عن سواعدهم وبذلوا من الجهد ما وسعهم دون أن يضيعوا لحظة ما ، كأنما كانوا هم المحكوم عليهم ، فوصلوا فى الوقت المناسب تقريبا ، اذ لم يكن قد بقى على تنفيذ الحكم غير أربع وعشرين ساعة · وكان لهذه المناقشة أهمية كبيرة فى الجمعية على نحو ما قرره ثيوسيديدز ، لأن مسئلة الانسانية فيها لم تدر لأحد فى خاطر ، وكان القرار ينصب انصبابا تاما على الخطر السياسى الذى ينجم عن تنفيذ حكم معدود فى ذاته حكما ظاهر العدالة والصحة ·



أسلحة المحاربين اليونانيين وشكتهم

يرجع هذا الرسم الى سنة ٤٦٠ ق.م ، وهو وان كان يعالج احدى الأساطير ـ ذبح الأمازونات ـ الا ان تفاصيله تعيننا على تصور شكة جنود ذلك العصر ، فبينما لم يسلح كل من هؤلاء الأبطال الا ببعض السلاح فقد زودوا جميعا بعدة الحرب التى يتزود بها الجندى العادى الموزعة بينهم .

كان هذا فى العامين الرابع والخامس ، وفى العام الخامس أيضا بدأ حادث الثورة الكوركيرية التى يتخذها المؤرخ اليونانى مصدرا يستخلص منه أحكامه العامة العميقة على ما ينشأ عن الثورة من توتر ؛ وكانت كوركيرا تشبه باريس حد الشبه فى أيام الارهاب ، مع ما هنالك من الفوارق الواضحة فى مجريات حوادث المأساة · لقد حاول حزب الأقلية المشايع لكورنثة أن يحدث انقلابا ، ثم نال جزاءه كاملا بعد اخفاقه ، وقد قامت عمارة بحرية أثينية كانت فى طريقها الى صقلية ، بدور محزن فى المشهد الأخير من هذا النضال بعد حوالى عامين من ابتدائه ·

وبموت بيركليس يختفى المثل الأعلى للجامعة الهيلانية الذى كان لنا ما يبرر نسبته اليه · واذا كنا قد فهمنا رأيه فهما صحيحا فقد كان يرى أن تكون من هيلاس بلاد موحدة بحيث ينبغى ان تكون أثينا منها بموضع السيادة بحكم تفوقها الأدبى والذهنى ، لقد كان واجبا أن تكون أثينا من اليونان بمكانة بيركليس من أثينا ، ولا نعنى بذلك أن تكون أثينا طاغية

تفرض بالقوة ما يحولها ، بل أن تكون مليكة بحكم ما اجتمع لها من كل ما فى هيلاس من محاسن • وقد تم لها هذا ، لما كان يتمتع به أهلها من الحرية الشخصية التى لم يتمتع بها أحد فى أى مكان • فاذا كا نلزعامها أن تظفر بالقبول وجب أن يتم لها السلطان ولكن السلطان كان وسيلة لتحقيق المثل الأعلى •

ولم يكن ثمة بيركليس آخر تستطيع الديمقراطية أن تضع فيه ثقتها ، فالذين شغلوا مكانه كانوا ديمقراطيين ومستعمرين ، الا أن ديمقراطيتهم كانت معادية للطبقة التى تدين بنفوذها لحسبها وثرائها ، وكانت تشيع فى روحها الاستعماري شهوة الحكم ، وكل الصور التى وصلت الينا عنهم من تصوير أعدائهم ، الذين لا يمكن أن ينسبوا اليهم أى فضيلة . اذ أن اتهامهما بالغدر والعجز التام شىء لا يؤبه له كثيرا ؛ الا أنه ليس من الميسور أن نعثر عندهم على علامات تدل على حسن تدبيرهم للأمور بل ليس من الميسور أن نجد ذلك عند خصومهم ال « الأفاضل » ـــــ وهى لفظة لعلها تعبر أكثر مما تعبر أية لفظة أخرى عن معنى ذلك اللقب الذى انتحلوه لأنفسهم • ولم نعد ثمة مسائل معلقة ذات خطر • فلم يكن حزب الحرب يريد الا أن يوسع أملاك أثينا ، ولم يكن حزب السلم يبتغى الا أن يعوق طريق حزب الحرب ، بينما كان أهل البليبونيز يريدون بخاصة اذلال « طغاة البحار » •

فاذا خيلنا ميدان السياسة جانبا ، وجدنا أثنين من قادة الحروب ، على شىء من الاصالة والاقدام ، كلا فى أحد الجانبين المختصمين،هما : ديموستين الأثينى ، وبراسيداس الأسبرطى .

وكان النظام الاسبرطى يرمى الى القضاء على هاتين المزيتين فى نفوس الجيوش الاسبرطية قضاء تاما ، بيد أنه قد يلاحظ أنهما كانتا من المزايا التى كثيرا ما كان يبديها الأسبرطى المشتغل بالأمور الخارجية •

وقام ديموستين بتوجيه أشد الضربات مفعولا بالنيابة عن أثينا • اذ احتل بأسطوله ، الذى عاقته رداءة الجو بعيدا من ساحل مسينا ، بيلوس وحصنها ، وبيلوس هذه هى التى تقع على خليج نوارين الحديث ، وقد حاول أهل البليبونيز أن ينتزعوها منه ، الا أنهم لم يفلحوا الا فى انزال قوة أسبرطية صغيرة فى جزيرة سفاكتريا ، وهذه ضيق عليها بدورها تضييقا لم تكن تملك معه الا أن تختار بين الموت والاستسلام • واستسلم الأسبرطيون •• الأمر الذى أدهش جيرانهم دهشا شديدا •• وان لم يكن أحد فى مثل مركز الاسبرطيين يستطيع أن يتردد لحظة واحدة فى الاستسلام • وقد أوقف اللقديمونيون اجتياحهم السنوى لأتيكا طوال المدة التى كان الاسبرطيون فيها أسارى •

وقد ادرك بيركليس . عندما عقدت هدنة ثلاثين السنة ، ولم يغب عن باله ما أدركه قط ، أن الفتوح التى كان اليونانيون يحاولون القيام بها فى البحر كانت سياسة غير رشيدة ، ومع هذا فقد حاول الديمقراطيون مرتين اخضاع بووطية ، ثم اخفقوا فى المرتين جميعا • وقد اقترنت المحاولة الثانية بكارثة عسكرية منكرة فى معركة دلبوم ، حيث أنقذ الفيلسوف المبين سقراط ، حياة الكبيباديس الشاب • وفى السنة نفسها (٤٢٤) أرسلت أسبرطة براسيداس على رأس فرقة صغيرة من الجنود غير النظاميين لمساعدة الساخطين من أهل الساحل التراقى وخلقيديس الذين قاموا بثورة عامة ضد أثينا .

وما ان حل هذا الوقت حتى كان ثمة حزب قوى يدعو الى السلم فى كل من أثينا وأسبرطة ، وفى سنة ٤٢٣ عقد صلح بالفعل ، الا أنه نقض ثانية • وكان براسيداس الذى كان يعمل براعة لحسابه الخاص فى الشمال فى ذلك الوقت ، هو وكليون فى أثينا ، يقصدان استمرار الحرب ، ولم ينجح حزب السلم الا بعد مقتل كل من هذين الرجلين فى معركة أمام أمفيبوليس (٤٢٢) ، فانتهى الطور الأول من أطوار الحرب بصلح نيقياس . (الكاهن الأثينى الأعلى ذى الاعتبار) ، وهو صلح أرضى الى حين كلا من أسبرطة وأثينا رضاء ، الا أنه ترك كورنثة ، وميجارا وبووطية غاضبة محنقة ولم يكن يحمل فى ثناياه عوامل الاستمرار •

وكانت شروط الصلح تشتمل على رد الفتوح ، بكل أنواعها ، من كلا الجانبين ، وقد رفض حلفاء أسبرطة تنفيذ هذه الشروط ، ولم تستطع أسبرطة أن تجبرهم على تنفيذها ، وبناء على هذا رفضت أثينا أن تنفذ ما يخصها فى هذه التسوية ، وكانت أحزاب الحرب وأحزاب

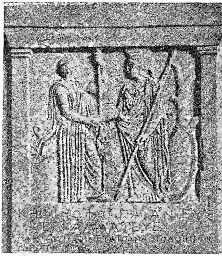
السلم تتناوب الحكم فى الدول المختلفة ، وكانت الخصومات المحلية تنشب فى جهات شتى ، وكانت اتحادات عربية تقوم ثم تنفرط ثم تقوم مرة أخرى فى تتابع يحير الألباب ، حتى اذا كانت سنة ٤١٥ ق . م ظهر تصميم أثينا على أن تبدأ مغامرتها الكبرى التى قدر لها أن تكون آية فنائها .. ألا وهى حملتها الصقلية .

وقد كانت العلة الظاهرة لهذه الحملة اجابة طلب معونة وصلها من حلفائها الصقليين — من سيجستا لمعاونتها ضد سلينوس ، ومن ليونتينى لانقاذها من سرقوسة .. أما السبب الحقيقى فكان ضم صقلية الى الامبراطورية الأثينية ، وكان المحامى العظيم عن هذه الحملة هو ألكبيادبس اللوذعى ، الشاذ الذى لا مبدأ له ، الأرستقراطى الذى يبدو فى ثوب القائد الديمقراطى حينما يحلو له ذلك . أما معارضة هذه الحملة فكان يتزعمها نقياس . وقد وافق الأثينيون فى حماسة على الافتراح بالرغم من ضخامة نفقاته والمخاطر الكبيرة التى كان ينطوى عليها ، ثم عينوا نقياس والكبيادبس لقيادتها ، نقياس الجبان المتحوب القلب ؛ والكبيادبس الغيور المغامر ؛ اللذين كان قيام التعاون الصادق بينهما مما لا يمكن تصوره ، لاستحالة الجمع بينهما فى شئ ؛ وقد ضموا اليهما الجندى المقتدر لاماخوس الذى لم يدع يوما أنه من رجال السياسة . والذى لم يكن له شأن ما غير ما ذكرنا .

وقد ظلت صقلية وايطاليا حتى ذلك الوقت خارج النضال الناشب فى شرق هيلاس . وقد دالت دولة الحكومات الاستبدادية وحل محلها بوجه عام حكومات ديمقراطية قبل أن ينتصف القرن وذلك بعيد وفاة هيرون Hieron فى سنة ٤٦٧ ، ثم تلت ذلك فترة طويلة من الرخاء العام ، بينما استمرت سرقوسة محتفظة بموقف السيطرة ؛ ولم يكن بيركلس ينشد شيئا أكثر من نفوذ أثينا قليلا نحو الغرب . وقد أغرت المدن الايونبوية فى تلك الأصقاع أثينا بالتدخل بسبب الغيرة من تفوق سرقوسة ، على أنه فى الوقت الذى كانت الحرب البلبونيزية فى اشدها . عقد مؤتمر من الدول الصقلية تحت تأثير هرموقراطس السرقوسى القوى الحجة .. فقرر قرارا واضحا لا لبس فيه أن تنأى هذه الدول بنفسها عن ذلك الاشكال ، وأن التدخل الخارجى فى شئونها قد بتر استنكارها .

الا أن الاستعمار الأثينى فى أشنع صوره بغيا واستطالة كان فى أعلى درجات الحمى ، نظرا للفتح الظاهر الذى لا مسوغ له مطلقا ، ولضم جزيرة ميلوس فى سنة ٤١٦ ، فى الوقت نفسه الذى تاحت فيه فرصة العدوان فى صقلية ، وقد انتهزت أثينا هذه الفرصة ودفعت ثمنها غاليا .

وكانت الحملة التى ابحرت من أثينا فى سنة ٤١٥ على نطاق لم يسبق له مثيل ، وقد تبع قيامها شغب لم يكن المقصود منه الا منع ابحارها ، وذلك حينما شوهت تلك التماثيل المقدسة المعروفة باسم هرميه Hermae ، وما راج بين الشعب من تلك الاشاعة التى أحكم تدبيرها



وثيقة سياسية منقوشة فى الصخر

لم يكن لأثينا بعد كارثة ايجوسبوتامى سنة ٤٠٥ صديق غير ساموس الديمقراطية التى عرضت عليها أن تساعدها كى تستمر فى حربها ضد أسبرطة . وقد نقشت المعاهدة التى تمت بين الدولتين على هذه الكتلة الرخامية المحلاة بربتيهما الحارستين ؛ أثينا وحيرا ؛ من نقوش الأكروبول .

والتي حصرت وزر تدنيس هذا المكان المقدس في شخص ألكيبياديس المعروف بطيشه والحاده مما حدا به الى رفع الأمر للقضاء على الفور . ولما كان هذا قد يقضي تعويق الحملة فقد تأجل التحقيق .

ولما وصل قادة الحملة الى صقلية ، وجدوا أن الوعود المالية والعسكرية التي كانت أثينا تعتمد عليها لا تقوم على أساس مادي . وقد أصر لاماخوس ، بوصفه جنديا صريحا على القيام بهجوم مباشر على سرقوسة ، ربما كان من الممكن أن يكتب له النجاح ، في حين استحسن نيقياس القيام بمظاهرة يتلوها الانسحاب من الميدان ، أما ألكيبياديس فكان من رأيه أن تتقدم السياسة على القتال .

الحملة الأثينية على صقلية

وقد أيد لاماخوس رأى الكيبيادس بعد أن لم يؤخذ بخطته هو . ثم ضاعت فرصة الحرب ، وبعد ذلك أخفقت الخطة السياسية برمتها حينما استدعى ألكيبياديس الى أثينا ليمثل امام المحكمة — وهي مؤامرة صريحة دبرها له أعداؤه في الوطن ، الذين كانوا يستغلون تعلق الشعب بالخرافات .

وترك زميليه لاماخوس ونيقياس . وبدأ رحلته الى الوطن ، الا أنه لما رأى ألا أمل في محاكمة عادلة فر وهو في طريقه اليه ، فحكم عليه غيابيا بالموت ومصادرة أملاكه ؛ وقد صار بعد ذلك ألد أعداء الديمقراطية الأثينية ، وأملاهم حقدا عليها ، لما أنزلت به من هذا الظلم ، ولم يحد أية مشقة ، وهو في وضعه الجديد ، في اقناع أسبرطة بما يبغي عليها من القيام بكل ما في مقدورها مرة أخرى لمصاولة أثينا ، التي كانت مصرة أكثر من ذي قبل على مواصلة مغامرتها في صقلية .

ولعل تلك المغامرة قد كانت لا تزال مرجوة النجاح لولا تعلق الأثينيين تعلقا أساسه العاطفة بقيادة نقياس الورع ، الذي لم يكن على شيء من الكفاية ، وذلك بالرغم من رغبته هو نفسه في اعتزال القيادة ، وقد حاصر الأثينيون سرقوسة بعد أن أخفقت جهودهم السياسية ، وكان أسطولهم قادرا تمام المقدرة على اغلاق الميناء ، ولم تكن ثمة الا ثغرة صغيرة واحدة في خطوط الحصار التي كانت تجعل المدينة بمعزل عن داخلية البلاد ، حينما قتل لاماخوس الذي كان أكثر الفضل يرجع اليه في ذلك كله . وقد أهمل نيقياس في سد تلك الثغرة فكان لذلك الاهمال عاقبته الوخيمة ،لأنها ساعدت جيليبوس — الذي يكاد يكون براسيداس آخر وان كان دونه مقدرة — والذي أرسلته أسبارطة لمساعدة أهل سرقوسة ، في شق طريق الى المدينة ، وقد تغير الموقف كله بوصوله اليها . وقد اضطر نقياس في رسائله الى التصريح بأن الاعمال الحربية كلها في هذه الجهة ينبغي أن تتوقف الا اذا أمكن ارسال حملة ثانية من أثينا تشبه في عظمها الحملة الأولى .. وقد قال ذلك في وقت كان النصر فيه يبدو بعيدا .

وكانت أثينا آنئذ قد أحدق بها حلف البلبونيز القديم جميعه ، وكانت أسبارطة قد استولت على ديكيليا Deceleia من أراضي أتيكا ، وأقامت بها حامية من الجند ، وذلك بايعاز الكيبياديس ، ومن ثم فقد أصبح في مقدورها ارسال غزاتها الى أية جهة شاءت . وفي أية لحظة ، الا أن أثينا لم تكن لتسلم بالهزيمة ، بل لم تكن لتسمح لنقياس باعتزال منصبه ، بيد أنها أرسلت ديموستين ويوريميدون على رأس قوة كبيرة جديدة ، وذلك بوصفهما زميلي نقياس .

وقد وجدت الحملة الثانية التي وصلت في ميئوس منه بالفعل ، فالقوات الأثينية قد اوهن

ميئوس منه بالفعل ، فالقوات الأثينية قد أوهن

عزيمتها طول ما لقيت من الاخفاق والهزائم ، وقوات سرقوسة قد ملأتها الثقة لبراعة قادتها ، ولسيطرتها على كل من الميناء الكبير (أنظر الخريطة ص ٣٥٣) وخطوط الحصار . وقد أخفقت المحاولات

الكارثة التي حاقت بالأثينيين أمام سرقوسة

اليائسة التي بذلت لاستعادة الموقف في البر والبحر اخفاقا ذريعا ، فقد حبس الأسطول الأثيني بعد نضال رهيب في الميناء الذي سدت فتحته الى البحر ؛ ثم سحقت حركة مستيئسة للفكاك من هذا الموقف سحقا تاما ؛ ثم لم يعد الأثينيون يملكون الا ان يتراجعوا في البر الى أرض صديقة ، طالما أن الزمن لا يزال يسمح لهم بذلك التراجع ، الا أنهم قبل أن يتمكنوا من ذلك ، كانت كل ثغرة من ثغرات الهرب قد سدت عليهم وملئت بالكمائن والأرصاد .

ولم يحدث أن أستطاع كاتب من الكتاب قط

تصوير « الحنان والفزع » اللذين هما جوهر المأساة بأحسن من هذا الأسلوب المثير الذى دبج به توسيديدز هذه الصفحات العجيبة التى روى فيها قصة تلك الأيام الأخيرة ، فكل الذين نجوا من الجحافل الأثينية التى كانت تعتمد فيما سلف بأنفسها ، وسلموا من مجازر ذلك التقهقر الفاجع وآلامه ، قضوا بقية حياتهم فى ذل العبودية بدار المنفى ٠٠٠

وكان استئصال الحملة الصقلية خاتمة الامبراطورية الأثينية . صحيح انه لم يكن من الأمور الجلية حينئذ أن الامبراطورية كانت موشكة على نهايتها٠ فقد ظلت أثينا صامدة فى حومة النضال تسع سنوات آخر ، الا أنها لم تكن تملك بعد من الاحتياطى ما تركن اليه عند الحاجة ، ولم يكن لديها ذلك القائد الموثوق به ، الذى كان يمكن أن يطمئن اليه الأثينيون ، وأن تكون له سياسة مرسومة واحدة ٠ وكان ألكبياديس ، وهو الرجل الوحيد الذى لعله كان يملك القدرة اللازمة ، تنقصه الصفات التى كان الموقف يفتقر اليها أكثر من أى شىء آخر نقصا تاما ، وكانت الشيعة بعد الشيعة فى أرض الوطن ، تهتبل الحكم الناقص المقلقل فلا تلبس فيه الا قليلا : ومما لا يكاد يرقى اليه الشك أن الخيانة كانت ذات سوق رائجة على الدوام ، وكانت التجارب التى يبذلونها لاصلاح الدستور يتلو بعضها بعضا فى تتابع سريع ، الا أن عزم الأثينيين على مواصلة الحرب حتى النفس الأخير لم يتزعزع قط ، وان تكن منازعاتهم قد أصبحت لا يكاد يكبح جماحها شىء ٠

وما ان مضى عام واحد على تلك الكارثة الصقلية حتى كانت الثورة على أثينا الطاغية قد عمت جميع أرجاء ايونيا ، التى غاب عنها أنها اما أن ترضى بالطغيان الأثينى ، واما أن ترضى بالخضوع لفارس خضوعا لم يكن منه مفر فى تلك الآونة ؛ ثم لم يبق على ولائه لأثينا غير ساموس ٠ وكان القيلان الفارسيان فى الغرب ، وهما تيسافرنيس والى سارديس ، وفارنابازوس والى داسكوليوم متنبهين للموقف



فارس ممن حاربوا أسبرطة

خلد اشتراك الفرق الحربية الأثينية فى الجيش الكورنثى فى حربه مع أسبرطة سنة ٣٩٤ بهذا النصب المقام فى اثينا تكريما لدكسيليوس Dexileos الذى قتل فى معركة كورنثة التى انتصر فيها الأسبرطيون — وقد كان أحد فرسان خمسة لم تعرف أسماء بقيتهم — اشتهروا ببطولتهم ٠

غاية التنبه ، وان كان لكل منهما هدفه الذى يسعى اليه ٠ أما أسبرطة فلم يحدث أنها حفلت بأمر ايونيا من قبل قط ، وكانت على استعداد تام لمساومة القيلين على حساب ايونيا ، بسبيل القضاء على أثينا ، وبخاصة من أجل المال اللازم للاحتفاظ بعمارة بحرية متأهبة للعمل ، وسرعان ما وجدت أيضا فى شخص ليساندر جنديا وسياسيا كان فى وسعه أن يتجاهل التقاليد المرعية ، وأن ينتهز الفرصة اذا سنحت له ، ويتصرف على مسئوليته ، ثم يختلف من معظم الأسبرطيين فى أنه لم يكن ممن يقبلون الرشوة ٠

وكان ألكبياديس الذى شجر النزاع بينه وبين الأسبرطيين ، والذى لعله كان يهدف الى اقامة نفسه حاكما بأمره ، يحيك خيوط دسائسه فى أثينا ليعود الى مركزه السابق بوصفه زعيما للديمقراطية ٠ وكان القيلان

يكيد كل منهما لأخيه ، اما عند الكبياديس **واما عند ليساندر . وكان العامل الدائم الوحيد** فى الموقف هو اشتراك أسپرطة مع أحد هذين الحاكمين الفارسيين ، أو معهما معا ، وهما اللذان كانا يرميان ، بمعاونتها ، الى استعادة سيادتهما الفعلية فى ايونيا • أما أعظم سمات هذه الظروف كلها اثارة للدهشة فهو هذا المدى الذى استمرت أثينا فيه مالكة لزمام أمورها حوالى ثمانى سنوات بالرغم من خلافاتها الداخلية التى لم تنقطع ، ثم ما نالته خلال ذلك من هذا النصر المشهود فى أرجنيوسبه Arginusae (سنة ٤٠٦) •

وظلت أثينا مستعصية على الفتح بالرغم من أنها كانت ضعيفة مقصوصة الجناح ، حتى أتاح قائدها البحرى فى مياه بحر مرمرة ، باهماله الذى يوشك أن يكون اهمالا لا يصدقه العقل ، فرصة لم يفلتها خصمه ليساندر الذى استولى بسببها على أسطولها كله بالفعل ، بينما كان بحارته فى البر عند ابجوسپوتامى وذلك فى سنة ٤٠٥ •

ولم تكن أثينا لتستطيع ن تفعل شيئا وهى لا تملك أسطولا ذا بال ، فقد كانت محاصرة تماما فى البر وفى البحر ، وفى سنة ٤٠٤ أجبرت تحت وطأة الموت جوعا على التسليم بلا قيد ولا شرط • ولم ينجها من العدم المطلق الذى أوشك عرماؤها البلپونيزيون المحنقون أن ينزلوه بها الا نفحة نادرة عابرة من نفحات الكرم



آية من آيات انتعاش أثينا

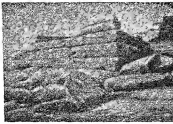
كانت تحصينات بيريه (بيرايوس) قد أصابها تخريب عظيم فى نهاية حرب البليبونيز ، الا أنها أصلحت بعد عودة كونون الظافرة من انتصاره على اسبرطة فى كنيدوس ، ويدل هذا البناء الحجرى لأحد أجزاء السورين على ما بلغه بناءو كونون من شأو فى انجازهم لهذا العمل

الأسپرطى . وقد كان فى وسع اسپرطة ان تفىء على خصومها من غيات كرمها ، ما لم يعرض هذا الكرم زعامتها السياسية للخطر ، وكان فى وسعها أيضا أن تتذكر أن هيلاس تدين بالكثير لأثينا ، التى أصبحت امبراطوريتها الآن أثرا بعد عين • وقد دكت الأسوار الأثينية الطويلة دكا . الا أن أثينا لم تزل قائمة ، دولة مستقلة ، ذات قوة كامنة من هذه القوى التى تساعد أصحابها على الانتعاش ، وهى القوة التى ساعدتها قبل مضى زمن طويل على استعادة مركزها بين زعيمات الدول الهيلانية ، بالرغم مما نالها من هوان واعياء . وبالرغم من اقتطاع البلاد التى كانت تابعة لها عنها •

التدخل الفارسى فى الشئون اليونانية

ثم عاد الفرس الى سالف اهتمامهم بالشئون الهيلانية بعد تلك الخاتمة الماحقة التى حلت بالحملة الصقلية ، وهو ذلك الاهتمام الذى كانوا قد ناموا عنه منذ صلح كالياس سنة ٤٤٧ • وقد كان بحسب فارس أن تدع جيرانها المشاغبين يدبرون شئونهم كما يحلو لهم طالما كان بحر ايجة من البحار المحرمة على الفرس بحكم هذا السلطان الأثينى البحرى فيه ، ومنذ اخماد تلك الفتنة المصرية التى اضطلعت فيها أثينا بنصيب مشئوم . ظل السلام يرفرف فى أرجاء الامبراطورية الشاسعة فى عهد أرتخشرشا الأول الذى اتسم حكمه باللين والرفق ، وفى سنة ٤٢٤ ، أى بعد وفاته ، واغتيال ولده احشويرش الثانى اعتلى العرش دارا الثانى (نوثوس) • وكان الطرفان المشتبكان فى الحرب الهيلانية يحسان نبض دارا للتحالف معه ، الا أن هذه المحاولة منهما لم تغره بالتدخل ، فقد كانت أثينا لا تزال سيدة البحار •

على أن الموقف تغير . فى سنة ٤١٢ ، كما رأينا . فقد تجددت الفرصة لأهل البليبونيز لتحدى أثينا فى ميدانها على صفحة البحر ، وكان القيلان ، بالرغم من مسئوليتهما أمام الشاه الأعظم يتمتعان بما يقرب من الحرية المطلقة فى العمل بما يتراءى لهما • وعادت الحكومة فأكدت تلك الدعوى التى طال العهد على ترك العمل بها ، والتى تذهب



التحصينات الساحلية الضخمة

كانت مرتفعات شبه جزيرة آكته تشرف على ميناءى بيريه . ولهذا حصنا بسور يبلغ ارتفاعه حوالى اثنتى عشرة قدما وسمكه ستا وعشرين وبه ستون برجا تقريبا لا تقل فى قوتها عن السور . كما يدل على ذلك هذا المثال الدارس

الى تحصيل الجزية من المدن الايونية ، ودخلت مختارة فى مفاوضات مع الاسبرطيين الذين كانوا على استعداد للتفاهم، كما كانوا على استعداد تام لخيانة قضية الجامعة الهيلانية فى سبيل قهر أثينا . وقد كان مرد كثير من الفضل فى تمكن ليساندر سنة ٤٠٥ من سحق المقاومة الأثينية العنيفة . على حساب حرية ايونيا . الى هذا التعاون المالى والسياسى الذى قام بين القبيلين .

وبعد ما سقطت أثينا ، أقامت أسبرطة حكومة استبدادية (بمعنى هذه العبارة الحديث) من قبلها . فى الولايات التى كانت تتكون منها الامبراطورية الأثينية ، وفق أصول وضعها ونظمها ليساندر ، فكانت مقاليد الحكم القديمة فى يد حكام (Harmosts) أسبرطيين ، كانوا يحكمون بيد من حديد كانت أشد ظلما بما لا يقاس من تلك « العبودية » التى كانت تدعى أنها ترفع من نيرها ، بينما كان حكمها لا يرتكز الى شىء ؛ الا الى القوة القاهرة التى كانت رهن مشيئتها ، لقد كانت أسبرطة فى ذلك الوقت تتحكم فيها شهوة الى الحكم الامبراطورى ، وان يكن جميع النظام الذى قامت عليه هيبتها يناقض مد أملاكها الى ما وراء البليبونيز .

وفى هذه اللحظة بالضبط حدثت أزمة مشهورة فى تاريخ الامبراطورية الفارسية .

فلقد كان لدارا نوثوس ولدان ، وكان ولده الأكبر أرتحزرسيس (المعروف باسم لونجيمانوس) هو المفروض أن يلى الحكم من بعده ، وان يكن ولده الأصغر قورش كان يصبو الى ارتقاء العرش من بعد أبيه . ولما رأى دارا هذه المنازعات . والغيرة الواضحة بين القيلين الفارسيين تيسافرنيز وفارنابازوس ، أرسل ولده الأصغر ، هذا الأمير ذا المقدرة الفائقة الى غرب الامبراطورية ليرقب كلا القيلين وليقوم مقامهما فى الحكم بالفعل .

وقد بادر قورش الى استغلال تفوق الجنود اليونانيين العظيم على أحسن المجندين من المشارقة ، فأنشأ علاقات شخصية وطيدة بينه وبين ليساندر الذى بلغ الأمر بقورش أن ينيبه عنه فى ولايته هو بالذات ، وذلك فى أثناء غيبة له عارضة عن مقر حكمه . ولعله كان قد صمم بالفعل على اعتلاء عرش بلاده بمساعدة أصدقائه اليونانيين ، عند ما توفى أبوه سنة ٤٠٤ ، وأصبح احزرسيس الثانى ملكا فى لحظة

زحف العشرة الآلاف

كان سكان الآكام فى أقصى الداخل يحدثون فيها القلاقل والفتن . وقد جمع قورش ، بالتآمر مع أسبرطة ، جحفلا قويا من مرتزقة الجنود



حيث كانت تنهض بوابة هامة

لم يكن احد يستطيع دخول ميناءى بيريه من جهة البر الا من بوابات فى السور المحيط بهما . وكانت أهم هذه البوابات هى بوابة آستى التى كانت تنفسح على الطريق الرئيسى الى أثينا . ونرى فى هذه الصورة الأطلال المهشمة لأحد البرجين المتماثلين على جانبى البوابة اللذين كانا يحميان كل بوابة فى حالة الهجوم عليهما

اليونانيين الذين كانت حشود كبيرة منهم ميسرة نظرا لانتهاء الحرب اليونانية ، وذلك بحجة اخماد الفتن فى بيسيديا (التى كانت يوما ما مركزا للدولة الحثية) . وقد زحف قورش بهذا الجحفل فى داخلية البلاد ، وعندئذ عالنهم بغرضه الحقيقى . وكان هذا الزحف هو حادث الأناباسيز الشهير Anabasis ، أو « الزحف الى أسوس » تلك القصة الخالدة التى سجلها بأسلوبه المنثور ، الخالى من الخيال والزخرف ، قائدمن أشهر قوادهذه المغامرة ألاوهو احزنوفون الأثينى .

وباءت هذه المغامرة بالخيبة لا لشىء الا لأن قورش وهو يمعن فى مطاردة اخيه قد قطع عليه السبيل والحملة فى طريقها الى بابل . وفى نفس اللحظة التى كان القتال فيها قيمنا بأن ينتهى بنصر حاسم عند كونجزا يحرزه اليونانيون بفضل شجاعتهم وحسن نظامهم على فوات تفوقهم عددا .. ثم قتل قورش فى ساحة الوغى ، فلما قتل لم يكن ثمة سبب للاستمرار فى الحرب . ولو قد ظفر قورش لانتشلت فارس من خمولها على يدى ملك له مثل هذه المقدرة المدهشة التى لم تعرفها البلاد منذ وفاة دارا الأكبر . أما النتائج التى كان يمكن أن تنجم عن توليته ـ لو تمت ، فلا يمكن أن يصل الى حدودها الخيال .

الا أن قورش قد قضى ، واختار اليونانيون العشرة الآلاف الذين لم يجرؤ الفرس على مهاجمتهم بطريقة مباشرة ، احزنوفون ليقودهم ثم شرعوا فى ارتدادهم الخطير المتهور ؛ بعد اذ تلقوا الدرس الذى كتب على الاسكندر بعد ذلك بسبعين سنة أن يجعل له هذا الأثر العظيم ، الا وهو أن فارس كان من الممكن اختراقها . وأن الجيوش الشرقية لم يكن لها قبل بمجالدة حملة الرماح المنظمين من جنود الغرب .

وبموت قورش ، عاد فيلا داسكوليوم ، وساردييس الى سابق نفوذهما فى الغرب ، وقد نفضت أسبرطة التى تورطت فى تلك المغامرة الكبرى يديها من شئونهما جميعا ، الا أنها ذهبت فى توطيد سلطانها الغاشم فى هيلاس بطريقة عمليه ، ولم يكن ذلك فى أملاكها الأصلية والأملاك التى انتقلت الى حيازتها من الامبراطورية الأثينية فحسب،ولكن بين حلفائها أنفسهم ، فعلا لا شكلا ، وسرعان ما ساقتها أطماعها الى الدخول فى حرب كانت بينها وبين القبليين أكثر مما كانت بينهـا وبين فارس . وقد انتهت قيادة هذه الحرب فى سنة ٣٩٦ الى يدى ملك جديد يدعى ايجيسيلوسAgesilaus كان يحلم بالفتح الذى لم تتوفر له الاسباب أو المقدرة للاخذ فيه على نطاق واسع .

أما كونون Conon . أمير البحر الأثينى القدير الذى استنقذ بقية من الاسطول الأثينى من كارثة ايجوسبوتامى ، فقد لجأ الى جزيرة قبرص هو وايفاجوراس . طاغية سلاميس . بعد اذ أذن لهما الشاه الأعظم بذلك . وقد أسندت الى كونون آنئذ قيادة الأسطول الفارسى ولم يكن له هم الا اذلال أسبرطة ، التى لم يكن فى وسعها بعد أن تحافظ على ما بلغته منذ قريب من تلك المكانة التى لم تتعودها طويلا ، وذلك بوصفها سيدة بحر ايجه.وكانت أثينا تسترجع مكانتها وشيكا ، وكان أكبر الفضل فى ذلك الى الاعتدال والتحرر من الروح الحزبى من جانب قادة الديمقراطية التى عادت الى سابق عهدها ، وكانت كورنثة وطيبة . حليفتا أسبرطة القديمتان ، تضمران غيظا منها فى ذلك الوقت .

وفى سنة ٣٩٥ نشبت الحرب بالفعل بين طيبة وأسبرطة ، وفى العام التالى وجدت نفسها امام حلف من طيبة وأثينا وكورنثة وآرجوس ودول أخرى ؛ وبهذا أصبحت حبيسة فى شبه جزيرة البلبونيز ، وظفر الأسطول الفارسى ، بقيادة أميره الأثينى ، بنصرحاسم فى كنيدوس ، وقام كونون ، بصحبة فارنابازوس . بزيارة أثينا التى كانت تحتفل لهذا بنهوضها من كبوتها ، وتؤيد هذا النهوض باستعادة بناء سورها الطويل ، ونجحت كورنثة فى الاستيلاء على حاجز البرزخ ، وكان معظم الفضل فى ذلك يرجع الى مهارة ايفيكراتيس ، هذا الجندى الأثينى ذو اللوذعية الأصيلة ، فى اعادة تنظيم الفصائل الخفيفة المعروفة باسم أل " Peltast" ، واعادة تسليحها . وكانت الى ذلك الوقت مجرد قوة مساعدة فحسب . فجعلها قوة عسكرية حديثة ذات كفاية عالية .

وقد اتفق أن ظهر ما فى النظام الفارسى من ضعف طبيعى ، لا بارتداد العشرة الآلاف فحسب ، بل كان انفصال مصر ، هذا الانفصال الناجح ، آية هذا الضعف ، ومصر هى هذا البلد الذى من دأبه دائما ألا يستنيم للحكم الأجنبى . ولعل ذلك قد حدث فى الوقت الذى

توفى فيه دارا الثانى ، اذ لا شك فى أنه مرتبط به • وجلى أن ملوك السوس Susa المتتابعين لم يكن لهم ذاك الاشراف التام على القيلين العظيمين ، ولم يمدوهما بالسند الكافى فى ذلك الوقت الذى كانت فيه سلطة الحكومة فى كفة القدر ، على أن اليونانيين كانوا قد بلغوا من الانقسام على أنفسهم درجة لم ينتفعوا معها بهذا الموقف ، وكان كل منهم ، بلا استثناء ، على استعداد للتحالف مع العاهل الفارسى ، وهو هذا التحالف الذى قد يتسع به أفق أطماعهم الشخصية •

وهكذا نجد أسبرطة الآن ، تحت ضغط هذا الحلف الجديد ، تغير من سياستها فى معارضة الفرس . فتشرك الشاه الأعظم فى النضال اليونانى بدافع مصلحتها ـ فيخضع المتحالفون لما يمليه عليهم ؛ وقد كان من نتيجة السياسة التى اتبعها آنتالكيداس الأسبرطى هذا الصلح

آثار الصلح الفارسى

الذى يحمل اسمه . أو الصلح الذى أرسله الملك . وقد ادعى فيه أرتخشرشا لفارس حق ملكية جميع المدن والأراضى الأسيوية ، بما فى ذلك جزيرة قبرس ؛ أما جزائر لمنوس وامبروس وسكوروس فقد كانت من حق أثينا ، على أن تتمتع بقية الجزائر الأخرى بالاستقلال الذاتى على نحو ماكانت تتمتع به سائر الدول اليونانية الأخرى ـ وهو ذلك الاستقلال الذى كان يدخل فيه انتهاء النفوذ الطيبى فى بووطيه • وكانت المعاهدة تشتمل أيضا على تخلى أثينا عن حليفها اڤاجوراس القبرسى الذى كان قائما بنضال جرىء فى سبيل الاستقلال • أما رعايا أسبرطة فيما قبل الحرب فكانوا لا يزالون خاضعين لها •

وكان معنى هذا الصلح عمليا أن أسبرطة كانت مطلقة اليد فى انشاء حكم ذاتى ، وأنه ، حسب تفسيرها ، كان يعنى اخضاع جميع الديمقراطيات ولما كانت بمثابة نائب الشاه الأعظم وموضع ثقته فى ذلك الحين . فقد استعملت سلطانها فى اخضاع العصبة الأولنثية أو الخلقيدية ، التى لعلها كانت ، لولا هذا . قد أصبحت حائلا جليل الأثر يحول دون اعتداء دولة مقدونيا الناشئة ، وكانت تستعمل هذا السلطان ، فى الفينة بعد الفينة ، وبطريق الخيانة والتواطؤ مع أحد الأحزاب فى طيبة لتوطيد أقدام أصدقائها فى الحكم ، وذلك بأن



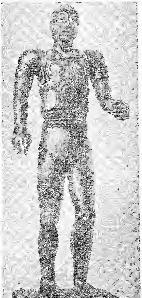
من روائع التحصينات التى أقامها مهندسو سرقوسة

بالغ ديونيزيوس فى جعل أسوار سرقوسة أسوارا عظيمة الضخامة لضمن سلامة قواته العسكرية ، هذا بينماكانت قلعة ايپيوليه مفتاح هذه التحصينات ، وهى من تصميم أرخميدس العظيم . فريدة فى قوتها • وكانت هذه القلعة مشيدة على مرتفع صخرى ، وكانت أسوارها من الضخامة بحيث تثبت لآلات التدمير الثقيلة ، فضلا عن كون آلاتها الحربية أكفأ الآلات التى عرفتها الدنيا الى ذلك التاريخ ، **ونرى فوق هذا الكلام صورة احدى** بوابات الهجوم في واحد من الخنادق الثلاثة المنحوتة فى الصخر الأصم لحماية الطريق الى القلعة ؛ ونرى الى الخلف أصداغا كانت تحمل قنطرة متحركة •

وضعت حامية لبقديمونية فى قادمايا ، احدى قلاع طيبة ، كى تحتفظ بهم ثمة ، بينما هرب **معظم الوطنيين البارزين الى أثينا التى رفضت** تسليمهم .

وكانت غلطة شنيعة ، فقد نظمت فى سنة ٣٧٩ الداخلة فى سنة ٣٧٨ مؤامرة جريئة كان بطلها بيلوبيداس أحد الرجال المنفيين . واغتيل رجال الأقلية الحاكمة ، وانضمت المدينة الى جانب المتآمرين ، ولم يسمح بالانسحاب الا للحامية الأسبرطية العظيمة وحدها . وقد كانت طيبة الكسول ، وذلك لمدة وجيزة ، تجمع فى شخصها أو فى شخص أعظم مواطنيها ايبامينونداس جوهر أجمل المزايا التى كان يتسم بها الشعب الهيلانى ؛ ومع كون ايبامينونداس وطنيا غيورا ، فهو لم يضع مصالح طيبة قط فوق مصلحة هيلاس ، ولم تتملك زمامه قط روح حزبية أو لبانة من لبانات النفس ، والظاهر أننا نجد أنفسنا فجأة ، حينما نقف أمامه ، ازاء ذلك الكائن النادر الوجود،رجل العبقرية والفارس الكامل فى وقت معا ، فقد ثقف عن عبقريته العسكرية ملك مقدونيا الناشىء ، فيليب ، دروسا فى فنون الحرب استغلها بذكائه الى أقصى حدود الاستغلال ، بل استغلها أبنه نفسه ، الذى كان أعظم من والده عبقرية .

لقد عهد الى ايبامينونداس الذى كان يتعاون سياسيا مع أصدق أصدقائه بيلوبيداس ، بتخليص قومه من الطغيان الأسبرطى ، ورفع طيبة الى مكان الزعامة فى هيلاس ، وذلك بوصف كونه صاحب الامرة على الجيوش الطيبية فى **الميدان ، ولما ناله من النصر فى معركة ليوكترا**



أحد الغزاة السامنيوميين فى شكة يونانية

أصبح السامنيوميون ، رجال الآكام الجبليون ، خطرا ماحقا على المدن اللاتينية عندما اتخذوا عدة الحرب اليونانية وبخاصة لأنهم كانوا أجرياء بطبيعتهم ومحاربين لا ينثنى لهم عود

سنة ٣٧١ . الا أنه قتل فى اللحظة نفسها التى عقدت له ألوية النصر فى معركة حاسمة أخرى فى ميدان مانتناى ، فى سنة ٣٦٢ ، بعد استشهاد بيلوبيداس فى ميدان كونوسكيفاليه Cynocsephalae بعامين ؛ وقد أصبحت طيبة بعد فقد ذينك الرجلين العظيمين غير أهل للمركز الذى اكتسبته ، ولم يعد المستقبل مقسوما لمدينة من مدن اليونان ، سواء طيبة أو أسبرطة أو أثينا ، لأن هذه المدن كلها كان يعوزها شىء ما .. بل كان المستقبل لتلك الدولة التى كانت حتى ذلك الوقت موضع الزراية بوصف كونها دولة شبه بربرية ، أو لأنها دولة مقدوح فى يونانيتها ، بالرغم من ادعاءات حكامها .. أما هذه الدولة فهى مقدونيا .

وبينما كانت الآمال فى اتحاد الدول اليونانية تتضاءل أكثر من ذى قبل ، وبينما كانت هذه الدول تسابق بعضها بعضا فى تسداد المعونة من فارس التى كانت هى نفسها تسير فى طريق التفكك بصورة أقل وضوحا ، وان لم تكن أقل تأكيدا .. بينما كان هذا يحدث ، اذا بالنضال بين اليونانيين والفينيقيين يتجدد فى الغرب . وكانت سرقوسة تبلغ من السلطان مبلغا يجعل ذوى البصيرة من المتكهنين يميلون الى القول بأنها ، لا مقدونيا ، هى التى قدر لها أن تسيطر على العالم اليونانى .

وقد كسرت سرقوسة شكيمة أثينا ، وذلك بمساعدة جولبوس الأسبرطى ، وكان على رأس قوات سرقوسة هرموقراطيس صاحب المبدأ القائل بوجوب عزلة صقلية عن خصومات اليونان الأصلية والتدخل فى شئونها ، الا أن النضال كان قد أنهك سرقوسة ، ووجدت

قرطاجنة فرصتها فى تلك الشكوى التى رفعتها اليها سيجستا ضد سيلينوس ، بعد ان لم يسفر التدخل الأثينى فى ذلك النزاع عن شىء ؛ فانقضت فجأة على سيلينوس ، ثم على هيميرا ، وبعد فوات الأوان وصل المدد من سرقوسة التى أقصى عنها هرموقراطيس بسبب المتطرفين الديمقراطيين · وهكذا حل الخراب بالمدينتين جميعا ·

والف هرموقراطيس ، الذى كان لا يزال ممنوعا من الدخول الى سرقوسة ، ما يمكن أن يسمى فريقا حرا ، من الوطنيين الصقليين ، واحتل خرائب سيلينوس ، وأعلن الحرب على القرطاجنيين لحسابه الخاص ، الا أنه قتل سنة ٤٠٨ وهو يحاول العودة بالقوة الى سرقوسة · وقد اتاحت تلك الحرب التى قصد بها هرموقراطيس مناصرة قرطاجنة ، والتى شنها من سيلينوس ، سببا لغزو آخر قام به القرطاجيون فاحتلوا أكراجاس بعد دفاع مجيد لم تضطلع فيه سرقوسة بشىء يستحق الذكر . وهنا نجد ، بمحض المصادفة ، شرذمة من مرتزقة الايطاليين ، من أهل كمپانيا تعمل فى خدمة أكراجاس ، التى تبين الآن أنها قد قدر لها أن تكون قاعدة للقرطاجيين فى فتح صقلية ·

وأتاح سوء قيادة رجال الحرب السرقوسيين الفرصة لديونيزيوس . الذى كان من قبل من شيعة هرموقراطيس المقتول ، والذى امتاز بحسن بلائه فى القتال عند أكراجاس · وقد أصبح بفضل مهاجمته هؤلاء القادة . صاحب السيطرة العسكرية التامة التى استغلها فى توطيد مركزه بوصفه حاكما بأمره ؛ ولو أنه

قيام ديونيزيوس وسياسته

كان يمارس سلطته الاستبدادية التى لا تبالى بشىء دون أن يخرج على الأوضاع الدستورية ، وقد كانت أولى خطواته بالفعل هى أن يعقد معاهدة مع الـ Himilico القرطاجى ، وهى معاهدة نزل له بمقتضاها عن نصف الجزيرة ، ولكن فى مقابل أن تضمن له قرطاجنة مركزه الشخصى بوصفه صاحب الأمر فى سرقوسة . على ن هذه لم تكن الا خطوة أولى ، فقد كان ينبغى أن يطمئن على سيادته فى سرقوسة قبل ن يكون فى مقدوره عمل شىء وراء هذا · الا أن السيطرة على سرقوسة لم تكن الا فاتحة لأعمال أخرى ·

وقد ظل ديونيزيوس يضع ستين صديق قرطاجنة الصدوق ـ وذلك بينما كاد يخمد أنفاس المؤامرات الداخلية ضد سلطانه ، وبينما كان يدخل صقلية الشرقية فى نطاق ملكه · ثم كشف قناعه ، وجدد صدامه مع الدولة البونية · وقد تعدل الاتجاه نحو الطغيان العسكرى فى صقلية ، وهو ذلك الطغيان الذى ساد هيلاس كلها ، نزولا على حكم تلك الحقيقة الواضحة ·· وهى أن آخر محرر للجزيرة من التهديد القرطاجى كان جيلون طاغية سرقوسة ، ولن يستطيع تخليص صقلية من ذلك التهديد مرة أخرى سوى جندى له مثل ذلك السلطان الاستبدادى ... وكان ديونيزيوس بما توفر له من كفايات أهلا لهذا العمل ، فقد كان يعزى الى عبقريته تطور لم يسبق له مثيل قط فى تنظيم العمليات اللازمة لتسيير دفة الحرب ، وهو تطور كان يتحاشى فيه ديونيزيوس دائما خوض المعارك التى اتخذت لها الأهبة من قبل ، هذا وان كان فى مقدوره أن يبدى مهارة عالية فى حركاته الحربية اذا تطلب الموقف تلاحما مباشرا ·

ففى الحرب القرطاجية الأولى (٣٩٨ الى ٣٩٢) حصر القرطاجيين فى ركن الجزيرة الغربى وان أمسك عن استئصال شأفتهم امساكا متعمدا ، فقد كان يسره ان يجعل سرقوسة وصقلية تشعران بأن العدو جاثم هناك ، وأنه طالما كان جاثما ثمة فلن يجسرا على الاستغناء عنه ، ولن دكتاتوريته كانت ضرورية لسلامتهما وقد اوتى من حسن البصر بالسياسة ما جعله يربأ عن أى سخيمة شخصية ، أو الصدور فى معاملة أعدائه او رعاياه عن الطيش والنزق ؛ ولم يكن ذلك منه بدافع الشهامة ، ولكن لأنه كان يرى فى ذلك تصرفا صالحا ·

وبعد أن حل ديونيزيوس قضيته مع قرطاجنة على النحو الذى يحب شرع فى توسيع ملكه فى الدول الهيلانية فى اليونان الأصلية · وكان الطريق الى ايطاليا هو ريجيوم التى سقطت فى يده بعد حصار طويل ، وقد تحالف مع قبائل ايطالية فى لوكانيا ضد مدن أخرى ، وقد كسب ولاء الكثير من هذه القبائل بما أسداه اليها لأمر فى نفسه من صنائع النخوة ،

ممتلكات سرقوسة

فمن ذلك أنه أوقع مرة قوة كبيرة فى كمين فاضطرت الى التسليم له بلا قيد أو شرط ، وحينئذ سمح لها بأن تنطلق دون أن يتقاضاها أى فدية ؛ ثم أنشأ يقيم مراكز أمامية كانت نقط

حراسة ومراكز تجارية فى وقت معا ، وذلك على شاطىء البحر الأدرياوى فى ايطاليا ، وكان يرمى بثاقب بصره من وراء ذلك الى تحسين أحوال التجارة ، وعند ما وافاه أجله سنة ٣٦٧ كان قد أصبح عاهلا أشد بأسا بمراحل كثيرة مما كانت عليه أية دولة يونانية ٠

وقد كان ملك ديونيزيوس ، فى أوسع مدى وصل اليه ، يشمل كل صقلية تقريبا ، خارج نطاق المعاقل القرطاجية فى الغرب ، وهى تلك المعاقل التى دمر منها موتايا ، احدى المدن القديمة ، تدميرا تاما اضطر العدو أن يستبدل بها قلعة ليلبيايوم الشهيرة الواقعة عبد الخليج ٠ وقد امتد هذا الملك بمحاذاة شاطىء ايطاليا الجنوبى حتى شمل تارنتوم ، وكل وعقب الحذاء الايطالى ، وساحل البحر الادرياوى حتى نتوء جبل جارجانوس ، ثم الثغرين الهامين فيما وراء هذا ، أنكونا وهادريا ٠ وكان يملك موانى قوية اسا على ساحل البحر الأدرياوى الشرقى ، وكان بينه وبين قبائل المولوسيان — بين كوركيرا وتسالية — اتفاق معمول به ؛ وكان بعض هذه الأقاليم — وأقر بها فى الأكثر — تحكمه سرقوسة ، أو أمراؤها مباشرة ٠ وكان بعضها ، المستقل داخليا ، تهيمن سرقوسة على سياسته الخارجية ٠٠ ثم كانت ثمة أقاليم أخر تحتلها هيئات اجتماعية من المرتزقة المجريين ، فكانت هذه الأقاليم من بعض الوجوه تشبه المستعمرات الرومانية ٠

وكانت هذه الامبراطورية تحكم من قلعة سرقوسة العظيمة ، وتذود عنها قوات كبيرة مرتزقة ، وأسطول مقتدر مكون منسفن حديثة الطراز ، ومزود بكل أنواع العدد الحربية ، ولا سيما أول ما عرفه العالم من المجانيق قاذفات الحجارة ٠ وكانت النفقات ضخمة ، والضرائب فادحة ، والطرق الأخرى لتدبير المال لا ضابط لها ، من تزوير للعملة ، وغارات على كنوز المعابد وما الى ذلك ٠ وقد جعلت ديونيزيوس حاجته القصوى الى المحافظة على منصبه الشخصى على رأس الأمور لا يأبه بالمصالح أو المطامح اليونانية التى كانت تتعارض ومطامحه ، ولم يقم فى سبيل نشر النفوذ اليونانى ، أو الأفكار اليونانية الا بالنزر اليسير ، على أن خدمته لليونان كانت أبسط من ذلك ، الا أنها كانت ضرورية أكثر من أية خدمة غيرها مع ذلك ، وذلك أنه على كل حال قد استطاع حصر القرطاجيين عند الخليج أكثر من جيل ، وجعل لسرقوسة مكانة ، بل أتاح لها ، أكثر من ذلك ، هيبة يسرت لأكثر من واحد من حكامها فيما بعد أن يعيدوا ، الى حد ما ، توحيد المصالح والموارد اليونانية ، واشعار المدن الغربية بشعور المصير المشترك الذى كان من شأنه أن يخفف عمل رومة آخر الامر ٠

بيد أن امبراطوريته كانت وليدة شخصيته اذ لم تكن لأسرته ولا لنظامه أية أرومة فى الماضى ، وقد كان من الممكن أن يجد خليفته ديونيزيوس الثانى أمورا عظيمة ميسرة له ، لو لم يكن من معدن آخر ، غير أنه لم تكن تتوفر فيه سجايا أبيه ، وقد تركه وزيره ديون حائرا بين عجزه وبين تلك المثالية التى كانت من دأب ديون ، فبغى فى الامبراطورية بغى الحاكم بأمره فى تحطمت امبراطوريته فى بضع سنين ٠

الأحداث المعاصرة فى ايطاليا

وفى الوقت نفسه ، كانت رومة ، تلك المدينة الواقعة على ضفاف التيبر ، تسير قدما فى الطريق الذى ينقلها خطوة فخطوة نحو تلك الغاية التى لم تكن تحكم بها من قبل ، فلم تكن تدرى أنها تطمح الى انشاء ملك ، ولعل الملك كان قد سعى اليها بخطى أسرع ، ولو فى صورة أخرى ، اذا هى لم تكن قد تحررت من نير طغاتها الأتروريين ٠

وقد جعلتها ثورتها بطلة الحركة اللاتينية المناهضة لكل من الاتروريين والسابليين ؛ أو الأوسكان الضاربين فى التلال ، الذين كانت أهم قبائلهم فى ذلك الحين هى قبيلة الأكويين Aequians الضاربة شمالى سهل لاتيوم ، ثم قبيلة الفولسكيين Volscians الضاربة فى جنوبه الشرقى وقد كانت المدن اللاتينية فى هذا السهل أحلاف مدينة رومة الطبيعيين ، وان أكلت قلوبهم الغيرة منها ٠ ومن أثر هذا كانت فىحرب مستمرة ، فاما ان تهاجمجاراتها الاتروريات : فيى (Veii) أو قبيلتىالأكويين والفولسكيين ، أو أى عدو لاتينى عارض ، واما أن يهاجمها هؤلاء ، هذا بينما آثر محالفتها الهرنيكيون الضاربون بين الأكويين

والفولسكيين ، والذين كانوا مهددين بكلبهما ، شأنهم في ذلك شأن اللاتين .

وحينما بدد هيرون صاحب سرقوسة شمل الدولة الأتروورية البحرية (أنظر صفحة ٥٥٢) ضعف خطر اترووريا ضعفا لم تقم بسببه حرب مع فيى حوا من أربعين عاما ؛ وقد تحطم سلطان قبيلتى الأكويين والفولسكيين . وكان ميزان النصر فى حروب القرن الخامس جميعا يميل فى جانب رومة وحلفائها ، وكان هذا بضمن عادة استقطاع المنتصرين رقعة من الأرض ، تذهب منها فى الواقع بنصيب الأسد رومة التى كانت تزداد على الدوام قوة بالقياس الى مدن لاتيوم الأخرى . ومذ كانت علاقة مدن العصبة اللاتينية برومة لا تختلف عن علاقات مدن عصبة البيلبونيز بأسبرطة فى القرن السادس (ق . م) — لم تكن هذه المدن حليفات فيما بينها ، ولكن كانت حليفات رومة فحسب ، وكانت قيادة القوات المتحالفة فى يدى رومة ، وفى الحق لقد أوشكت أن تكون سيدة لاتيوم الى ما قبل نهاية القرن الخامس ، فقد كانت المدن اللاتينية مستقلة استقلالا داخليا ، الا أنها كانت خاضعة لسلطان رومة .

ثم انتهت آخر حرب مع فيى بفتحها نهائيا سنة (٣٩٦) ، وقد ضمت رومة بذلك الفتح مساحة كبيرة من الأرض غربى التيبر الى أملاكها . وقد كان بعض هذا النصر الحاسم بسبب ضغط عدو جديد هو الغالة على اترووريا . وكان الغالة حتى ذلك الوقت قد اجتاحوا حوض نهر اليو عن آخره ، كما كانوا يندفقون فى اترووريا نفسها فى هذه الآونة من خلال جبال الأبنين . وقد طرد الاتروريون أيضا من أملاكهم فى كامپانيا جنوبى شرقى لاتيوم ، على أيدى السامنيوميين الذين انقضوا عليها من جبالهم ، وقد فقدت أولى فضائلهم التى قامت بهذا العمل تلك الجفوة التى يتسم بها ذوو قرباهم من سكان الجبال فى وقت قصير ، وذلك بعد أن جعلوا أنفسهم سادات السهول الكامپانية ، حتى أصبحت مدينتهم كاپوا Capua مضرب الأمثال للنعومة والرفاهية .

وعندما سقطت فيى ، كانت اترووريا قد غمرها بالفعل طوفان الكلتيين الذى فاض على رومة نفسها بعد سنوات ست من ذلك التاريخ (٣٩٠) . وقد زخرت الأساطير عن ذلك الغزو فيما بعد نروى الكثير عن أولئك الهمج الذى اقتحموا مجلس الشيوخ (السناتو) فاستولى عليهم الرعب من منظر الشيوخ الذين كانوا يجلسون صامتين وقد شاع فى مجلسهم ذاك الجلال الكريم ؛ وعن محاولة مفاجأة الكاپيتول تلك المفاجأة التى لم تسفر عن شيء بسبب أصوات الاوز المقدس المنزعج ؛ وعن تلك الفدية الثقيلة التى حدث حينما كانت توزن أن دخل رئيس الغالة برنوسBrennus فضرب بسيفه فى الكفة وهو يقذف بهذه العبارة : ويل للمغلوب Vae Victis ؛ وعما قام به البطل كاملوس Camillus من أعمال مبيرة حتى رفع الحصار عن مدينة فيى . أما الحقيقة التى لا مراء فيها والتى خلدت على وجه الزمان فهى أن الغالة ، بعد أن اكتسحوا اترووريا ، تدفقوا على رومة وانتهبوها ، ثم عادوا أدراجهم بعد ذلك الى الشمال .

ولم تشف اترووريا قط من تلك الضربة ، اما رومة فقد ترنحت تحتها ؛ وانتهز هذه الفرصة الأكويون والفولسكيون ، الذين كان يصطلع معهم بعض الاحلاف غير المستقلين ، للقيام بمحاولة أخيرة يائسة للتحلل من نفوذ رومة ، فلم يفوزوا من ذلك بطائل ، بل هزمتهم رومة باتحادها المكين هزيمة نهائية سنة (٣٨٩) . ثم أعيد تنظيم العصبة اللاتينية تنظيما جعلها أكثر اعتمادا على رومة من ذى قبل ، وانتزعت منها مدينتها الرئيسية ، تاسكولوم ، بينما منح جميع أهلها الجنسية الرومانية (٣٨٠) . وكانت رومة مليكة لاتيوم كلها ، من التلال الى البحر المتوسط ، ومن مشارف كمپانيا الى نهر التيبر وقد أخضعت لنفوذها ، بصورة نهائية جزءا كبير الأهمية من أترووريا . وقد انحسم فى ذلك الوقت على التحقيق ذلك النضال الطويل بين الأشراف (البطريشيين) والعامة (البليبيين) أى بين أهل الحسب وبين الدهماء الأحرار (أنظر الفصل ٥٥) وذلك فى صالح العامة ، اذ ألغيت تلك الامتيازات التى كانت تقصر المناصب الادارية على الأشراف .

رأينـا فى الجبر الرابع أن الحكم فى رومة عندما طردت ملوكها كان فى أيدى طائفة قليلة من ذوى الحسب كانت تحتفـظ لنفسـها بالوظائف التنفيـذية ومناصـب الحكم . كما كانت تضطلع بأعمال الكهنوت • وكانت لهذه الطائفة وحدها سلطة سن القوانين فى الجمعية العـامة ، أو الـ Comitia Centuriata التى كانت تقر هذه القوانين ، وقد وضع للتصويت

تطور رومة السياسى

فى هـذه الجمعية نظام يجـعل قـراراتها تحت سـيطرة الطبقـة العظامية عمليا . وقد غلا رجال هذه الطبقة فى اساءة استعمال سـلطانهم حتى اضطر العامة الى سحب حق تعيين وكلاء الشعب الذين كان لهم حق التدخل فى منـع أعمال الحكام التعسفية ، وان لم يكن هـؤلاء الوكلاء من رجال الحكم ـــ ولم يكن المقصود من هذا الا أنه خطوة دفاعية وكان نظام نواب العامة نظاما بالغ القبح ، وبخاصة لأن تدخل هؤلاء النواب كان يمكن أن يتخذ وسيلة لارضاء الأهواء •

وفضلا عن ذلك لم يكن الأشراف هم منفذى القـانون فقط ، بل كان الحكام انفسـهم هم السلطة الوحيدة التى كان فى وسعها تفسـير القوانين ، فكان المطلب الذى تستلزمه هـذه الحـال هو تشريع مكتوب تتـداوله الأيدى ؛ وقد عينت فى سـنة ٤٥١ لجنـة من عشرة أعضـاء ، أطلق عليهـا اسم أل Decemviri لتكون حـكومة انتقـالية خول لها حق وضع هـذا القانون الذى عرف فيما بعـد بالألواح الأثنى عشر ؛ ثم تجددت هذه الهيئة ، وحاولت أن تجعل من نفسها حكومة أهلية دائمة موطدة ، الا أن الثورة الشعبية التى تعزو اليها الراويات القديمة أسطورة فرجينيا المفجعة ذهبت بها أباديد •

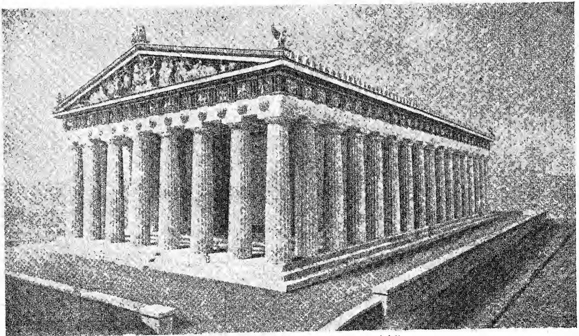
وفى ذلك الحين كانت حرب الطبقات ذات وجهين ، فقد أعلن العامة ذوو النفوذ الأوسـع ثراء سخطهم على امتيازات الأسر ذوات الحسب الاجتماعية والسياسية وتبرمهم هم أنفسـهم بما يصيبهم من ألوان القصور الناجمة عن هذه الامتيازات ؛ أما الطبقات الأشد فقرا فلم تشعر الا بأن القانون انما يرمى ـ بناء على هـذا ، الى الاضرار بهم لارضاء ذوى

حرب الطبقات

الحسب ، ولا سيما هـذه القوانين التى وزعت بمقتضـاها الأراضى التى كانت الحكومة تملكها أو تضع يدها عليها • واتحـد العامة للمطـالبة بالاصـلاح فى كلتا الناحيتين ، الا أنهم لم يكن لهم من وسـيلة لتنفيذ رغباتهم الا هذه الطريقة السـيئة فى اختيار نوابهم . والا توكيد مشاعر العامة فى القرارات الشكلية التى كانت تتخذها مجامعهم وهى تلك القرارات التى لم تكن لها من قيمـة الا من حيث كونها مجرد تعبير عن آرائهم •

وقد وحد أهل الحسب ، من حسن السياسة عـلى الأقل ، أن يتنـازلوا مـؤقتا عن بعض حقـوقهم التى كانوا يسـتطيعون أن يتهربوا عمليا من أثرها المستطير فى كثير من الأحيان ؛ وقد اضطروا منذ سـنة ٤٤٥ الى الاعـتراف بشرعيـة الزواج بين العـامة وذوى الحسب ، ولكنهم ناضلوا الى آخر لحظة ضد تبوء العامة مناصب الحكم • وفى الحق ان مشروع قانون المعروف باسم توسلات ليكينيوس Licinian Rogations والذى ربط بين مطالب العـامة الخاصة بالدستور والأراضى لم يصادق عليـه الا فى سنة ٣٦٧ ، وذلك عند ما تحقق المحارب الطاعن فى السن ، كاميللوس ، بطل المحافظين الأشراف ، أن من غير المجدى الاستمرار ــ فى ذلك النضال فى دفع ما لا بد من وقوعه • وقد كان من أيسر الأشياء ــ بمرور الزمن ــ التهرب من العمل بالجـزء الخاص بالأراضى من هـذا القانون • بيد أن التشريع القاضى بأن أحـد القناصل من ذلك الوقت فصاعدا ، ينبغى أن يكون من العامة ، كان ضربة مميتة لامتيازات الطبقة الأرستقراطية القديمة •

وقد حدث فى السنة نفسها ، كما لاحظنا ، أن توفى طاغية سرقوسة العظيم ، تاركا لابنه الامبراطورية التى كان يبدو أنه قدر لها أن تهيمن عـلى ايطـاليا ، تلك الدولة التى كانت أعظم بكثير من الجمهورية الممتدة على نهر التيبر الا أن المستقبل كان للجمهورية •



البارثينون ، مفخرة أثينا كما كان يبدو فى أيام أبهتــه

كان البارثينون ، أعظم آثار العمارة اليونانية ، مزيجا من العظمة والبساطة . ويمكن أن تكون فكرة من هــذه الصورة المستعادة عن جماله ، الا أننا لا نستطيع الوقوف على ما بلغه الذين شادوه من المراتب العلمية والحسابية العالية الا بدراسة دقائق بنائه دراسة مفصلة ، وهى هذه الدقائق التى تتجلى فى الأقواس التى لا يكاد يدركها الرائى فى السطوح الأفقية ، وفى هذا الميــل الضئيل الداخلى للخطوط العمــودية ، وفى هذا التحدب الرشيق فى الأرضية التى تبدو مسطحة . ثم يتوج جلال عمارته التى بلغت الغاية جلال فن النحت ــ من تماثيل وافريز وواجهــة مثلثــة

الحياة الإغريقية في أوجها

صورة مما كان عليه الأثينيون في القرن الخامس في عملهم وفي لعبهم في عصر بيركليس المجيد

بقلم ف . أ . ريت by F. A. Wright

أستاذ الأدب اليوناني واللاتيني بجامعة لندن

ليس رسم صورة لليونان في القرن الخامس ، شاملة لجميع التفصيلات الحاشدة للحياة اليونانية ، عملا يسيرا كل اليسر ، اذ لم تكن اليونان في أيام عظمتها وحدة سياسية أو وحدة اجتماعية . ولما كانت الدول اليونانية منقسمة ومنفصلة بسلاسل جبلية وعرة ، فلم يكن بينها وبين بعضها في احوال كثيرة الا مخالطة يسيرة ، اذ كانت تتمسك الى آخر حدود التمسك بشكل حكوماتها الخاص،وبنظمها الوطنية الخاصة .

فعندما قارن اليونانيون أنفسهم بالبرابرة الذين يسكنون خارج العالم الهيلاني أدركوا أن ثمة رابطة بعينها من روابط الأخوة فيما بينهم؛ على أنهم انما كانوا يجمعون كلمتهم كلما واجهوا غزوا أجنبيا ، أو حينما كان يتهددهم جشع احدى الدول المعتدة بنفسها من بينهم . ففي الأوقات العادية كانت تساليا وبووطيا وآرجوس وكورنثة وأسبرطة جماعات صغيرة منفصلة يعيش كل منها عيشته المنفصلة الخاصة ؛ وقد نشأ أهلوها في الأصل من سلالة واحدة، كما كانوا يعبدون آلهة بعينها ، ويتكلمون لهجات لغة مشتركة ، غير أن أوجه الخلاف بين أساليب معاشهم الحقيقية كانت كبيرة كأوجه الشبه .

وفضلا عن ذلك ، فان المدينة اليونانية التي هي أمر هام وحيوي جدا بالنسبة اليها، لم تكن قط محصورة في البلاد اليونانية الأصلية ؛ فمدن آسيا الصغرى القديمة . أفسوس وملتوس وأزمير ؛ ودول الجزائر ؛ لسبوس وخيوس وردوس؛والمستعمرات الفنية في صقلية وجنوب ايطاليا ؛ ومستعمرة نوكراتيس التجارية في مصر ؛ ومؤسسة قورينه الجديدة في افريقية الشمالية . . . كانت كل هذه البلاد في القرن الخامس قبل الميلاد . مختلفة الى حد بعيد في الموقع ، وفي المناخ ، وفي الوسط ، وفي المزايا الطبيعية ، وان كانت كلها متشابهة من حيث كونها مراكز للثقافة الهيلانية ، وان الاضطلاع بوصف سماتها الخاصة لعمل هائل يود المؤرخ الاجتماعي من صميمه لو تخلص منه .

ومن محاسن الصدف أن تحقق دولة اغريقية فحسب تلك المزايا التي لابد منها للدولة التي تصمم على أن تبوأ مكان الصدارة ، فبهذا ، وبتشجيع الأجانب على الاقامة داخل حدودها، تركزت في مكان واحد جميع المظاهر المختلفة للعبقرية اليونانية . . اما هذه الدولة فهي أثينا. فنحن اذا أمكننا أن نحصل على صورة واضحة لأثينا في أوقات العمل وفي أوقات اللعب . . . اذا نحن أمكننا مشاهدة مواطنيها اذ هم يسارعون الى الهيكل والمسرح والسوق والملعب ، اذا نحن استطعنا أن نراهم مجتمعين وسط روائع الأكروبوليس المرمرية ، ثم انصرافهم بعد ذلك لتناول غداء بسيط في منازلهم التي لا تعرف الفخامة . . لو استطعنا ذلك لحصلنا على فكرة لا بأس بها عن الحياة اليونانية .

ونحن نتصور الرجل الاغريقي القديم ؛ بناء على ماهو شائع عنه ، لديه من أوقات الفراغ ما لاحد له ، اذ يكدح العبيد في قضاء حاجياته المادية ، في حين يكرس هو حياته للسياسة والقتال والعناية بجسمه وتهذيب عقله ؛ وفي ذلك الوصف شيء من الحق فيما لو حصرنا نظرتنا في أسبرطة ، وفي الدول القلائل

التي كانت تحتذي أسلوب النظام الأسبرطي أما بالنسبة الى الجزء الأكبر من بلاد الاغريق ، فلا يمكن أن ينطبق هذا الوصف الا ببعض التحفظات الكبيرة ؛ فقد كان لغالبية الأهلين في أثينا، بوصفها مدينة حديثة ، بعض ما يشغلهم من عملهم الخاص . أما الفرق بينهم وبين سكان معظم الممالك الحديثة ، فهو أنهم لم يكونوا يسمحون لعملهم ، مهما يكن هذا العمل ، باستيعاب نشاطهم كله . ووقتهم جميعه . ولم تكن بهم رغبة ملحة في اكتناز الثراء الضخم ، وذلك أنهم كانوا يضعون المساواة فوق الثروات ؛ وكانت مطالبهم هينة ، ومما يمكن قضاؤه بدون نفقة كبيرة . وكانت ثمرة صناعتهم المعتدلة أن لم تكن بينهم طبقة من الأغنياء الكسالى ولا طبقة من الفقراء ذوى المتربة .

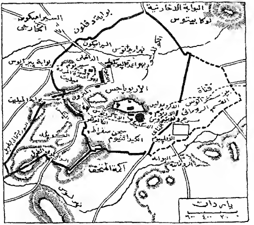
أثينا في وقت العمل

وكانت ثمة أسر قليلة عتيقة ، كأسرة الكمايونيد Alcmaeonidae، التي ينتمي اليها بيركليس ، والتي كانت ثروتها الموروثة والمستمرة في أملاك عينية تساعدها على حياة الفراغ . وكانت هنالك قلة من الصناع الموسرين ، كنقياس Nicias الذي كان فيما يظن ينعم بحياة رغيدة ، منتفعا بكدح الآخرين . الا أن الثروة ، في حقيقة الأمر ، لم تكن تعتبر عند الأثينيين مما يسوغ الترف ؛ بل كانت تهيىء لهم فرصة نكريس ما لهم ووقتهم وجهودهم لخدمة الدولة . وقد كان كل من بيركليس ونقياس ، طوال حياتهما، متفرغين للعمل من أجل مواطنيهما .

وقد كانت أقدم الصناعات الأتيكية ، وأهمها ما كان منها في النصف الأول من القرن الخامس ، هي الصناعات الزراعية . وكما قال أجزنوفون Xenophon في كتابه اوكونوميكوس Oeconomicus وهو يعمل على احياء الأيام القديمة الصالحة : « ان الزراعة أم جميع الفنون ومرضعها ، فان ازدهرت الزراعة ازدهرت كلها معها ، أما ان لم تفلح الأرض فانها تهلك جميعا ، على وجه التقريب » وكانت ملكية الأراضي امتيازا موقوفا على المواطنين الأثينيين . ولما كان نظام التأجير غير مألوف فقد كان شاغل الأرض وزارعها شخصا واحدا في العادة . وفي واقع الأمر ، كان أكثر من نصف مجموع الأثينيين الكلي ملاكا للأرض وعمالا فيها . وفضلا عن وجود عدد ضئيل نسبيا من الملاك الذين كانت مزارعهم تدار بواسطة الأجراء في منتصف القرن الخامس ، فقد كان ثمة حوالي عشرين ألفا من الزراع المشتغلين بفلاحة حقولهم هم أنفسهم ، كما كان ثمة عدد كبير من العمال الزراعيين الذين كان الكثير منهم يمتلك قطعة صغيرة من الأرض ؛ وكان هؤلاء يستأجرون ليكونوا رعاة أو قاطعي أخشاب ، مستعينين على معاشهم بتربية النحل في أعالي الهيمتوس ، أو بصنع الفحم النباتي في غابات أخارناي Acharnae .

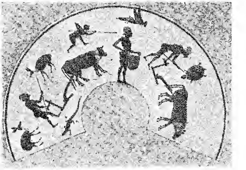
الزراعة وملاك الأراضي

وكانت المزرعة ذات المساحة العادية تبلغ الأربعين فدانا ، منها ثلاثون صالحة لانتاج الغلال والخضر ، وأربعة أو خمسة للكروم وحراج الزيتون ، والبقية لأشجار الفاكهة والرعى . فمن أمثال



تخطيط لمدينة أثينا في القرن الخامس

كان محيط أسوار أثينا كما أعيد انشاؤها تحت ادارة تمستوكليس . يبلغ أربعة أميال وثلث الميل وذلك فيما عدا السورين الطويلين اللذين كانا يربطان المدينة بيرايوس لغرها الحصين . وكان المدخل الرئيسي هو بوابة ديفلون التي كانت تمتد الشوارع منها الى الآجورا أو الى الأكروبوليس ، بمتاخمة الآريوباجوس



الطرائق الزراعية الاغريقية القديمة

المحراث البدائي ذو الخطاف الذي لم يكن يزيد على أن يكشط التربة ، والحراث يوجهه بيد واحدة ويمسك بالأخرى المنخاس لثوريه ، وقد اكسبت الرسم طابعاً شائقاً صورة هذا الطائر المرسوم بطريقة ساذجة والذي يحوم بالقرب من تقاوى القمح التي يحملها الزراع ، ثم هذا الغزال وتلك السلحفاة والسحلاة التي تتجول جميعاً في الحقل

هذه المزارع كان يأتي أولئك الريفيون الأقوياء الذين كان يعدهم ارستوفان عمود الدولة الفقري : « أبناء رجال مراثون » الذين ردوا الفرس على أعقابهم بالسيف والترس ، ومهدوا لأثينا طريق الحرية والسلام . ولما كانوا يعيشون في الريف في أحسن الأحوال الصحية ، وأطول شطر من السنة ، فقد كونوا بذلك توازنا عظيم القيمة مع سكان المدن الأقل منهم استقرارا . وقد كان دمار المزرعة المتوسطة الحجم في أتيكا من أوخم نتائج حرب البلوبونيز .

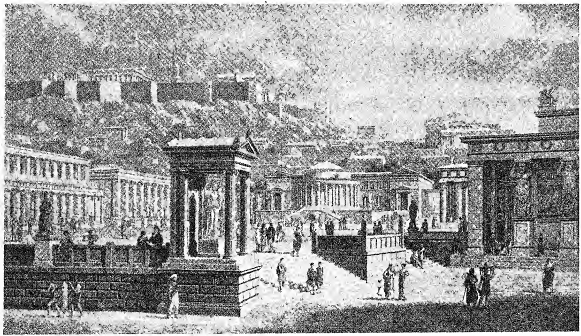
وكان السوق ــ أو الـ ــ أجورا Agora أهم بقعة في أثينا يغشاها الفلاح ، سواء كان ممن يعيشون في الريف على الدوام ، أو كان له مأوى في المدينة ، فضلا عن مسكنه (أو دواره) الريفي . وكان زيت الزيتون ، نعمة أثينا السابغة على بلادها ، يصدر الى معظم الأرجاء في عالم البحر المتوسط ؛ كما كانت التجارة في شهد هيمتوس رائجة في الخارج رواجا عظيما وذلك أن الشهد عند القدامى كان يقوم مقام السكر عندنا . وكان الفلاح الأتيكي يعتمد في الحصول على بقية مؤنته على سوق بلدته .

وكان في وسعه أن يزرع في تربة ارضه الرقيقة الصلدة ربع ما تحتاج اليه بلاده من الغلال فحسب . أما الخضر ، كالكرنب والعدس والحمص والبصل والثوم ، فكانت المدينة تحصل على جميع حاجتها منها تقريبا مما ينتجه أهلوها بأنفسهم . وكان الاقبال على الفاكهة ــ ولاسيما التين ــ مستديما ، وكذلك الحال فيما يتعلق بالورد لصنع الأكاليل اللازمة للولائم وقرابين الهياكل . ولم يكن الأثينيون من أكلة اللحوم القرمين . بقدر ما كان لحم البقر أو الضأن يرى على موائدهم . أما تلك القطعان التي كانت ترد الى السوق فكانت من الحيوانات التي تنتخب وتسمن خصيصا لتكون اضاحي للآلهة ؛ وكانوا يغلون من قيمة الماعز بخاصة من أجل ألبانها ، ومن أجل الجبن الذي كان يصنع من هذه الألبان ، كما كانوا يغلون من قيمة الغنم من أجل أصوافها ، وعلى كل فقد كان لحم الخنزير ، الطازج أو المالح بكل طرائقه . من المملح الى المقانق (السجق) ، من المناعم المحبوبة



سيدة يؤخذ مقاس قدمها في دكان حذاء

كان الحذاؤون يأخذون مقاس زبائنهم بطرق ساذجة وذلك برسم خط حول أقدامهم على الأديم ، ثم يقطعون الرسم بعد هذا بسكين معقوف . ويوضح نقش هذه الزهرية كذلك مساعدا يخيط الأديم لأجل الأجزاء العلوية ، كما يوضح القوالب والمخارز ومزق الأديم معلقة على الحائط



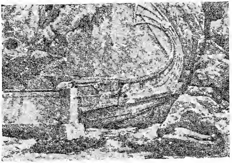
رسم مستعار للآجورا .. مركز الحياة المدنية فى أثينا

تقع الآجورا ــ أو السوق ــ أسفل الآكروپوليس والى شمالها الغربى . وعلى طول جانبها الشرقى (الى اليسار) يوجد الستواپويكيل Stoapoikile أو الرواق المنقوش ، وفى زمن أحدث من عصر پيركليس بنى أتالوس ، ملك برجاموم هذا الرواق (١٩٥ ــ ١٣٨ ق . م) . وفى الجنوب يوجد البوليناريون Bouleuterion ــ أو مجلس الشيوخ ــ وأمامه الثولوس Tholos ــ أو الروتندا (البناء المستدير ذو القبة) (فى الوسط) حيث يطعم موظفو المدينة ــ والى الغرب من هذا يوجد المترون Metroon ــ هيكل ام الآلهة ــ ويكاد يحجبه هنا رواق المردة بأسسه الراسخة (المنحوتة فى هيئة النساء) وفى الجانب الغربى يوجد الدرج وبه البيما Bema أو الروستروم Rostrum (بناء للخطباء الشعبيين تزينه أسلاب الحرب) فى الوسط

لدى الأثينيين ، وكانت له بين أطعمتهم تلك المكانة التى له بين الريفيين فى أيامنا هذه .

وكانت مؤن أجورا من جميع هـذه السلع ترد الى المدينة من الريف كل صباح ، وكانت السوق نفسها قطعـة من الأرض المسطحة قرب الأكروپوليس والأريوباجـوس ، تحيط بهـا أبنية رسمية ، وبها عرائس مفتوحة محمولة على عمد (بواك) حيث يقف المتسكعون فيقارنون بين الأسعار ويتسـقطون الأخبار . ولم تكن فيها تلك الأنحـاء المنسقة ، ولا هذه الزخارف الأنيقـة الموجودة عادة فى المدن الأيونيوية ، الا أنهـا ، عـلى حالتها تلك كانت محـور الحياة فى المدينة .

وكانت السـوق بمجرد أن تفتح أقسامها المختلفة ، ومنذ الصباح الباكر الى الظهر ، مشهدا من الهرج الدائب . وكانت بها حظائر ووشائع(1) من القصب ؛ يسـهل كنسها عند الضرورة ، للخضر والماشـية والفـاكهة والخمر ، فكانت الخنازير تقبع(2) فى ركن ، والدجاج ينق فى آخر ، وأكوام من جلود الغنم القذرة تليها سلال من الفحم النباتى الأسود . وكان الحمارون وجزارو الخنازير وتجار الجبن يعرضون سلعهم تحت الظلل ؛ ولم تكن السوق تقتصر على الأثينيين فى زمن السـلم ، ولم تكن تقتصر على المواد الغذائية . وكان زراع الفاكهة الطيبيون يجلبون الى أثينا كمثراهم وتفاحهم ، كما كان الصيادون يحضرون من كوپايس ومعهم ثعـابين السمك السمينة التى تشتهر بها بحيرتهم ؛ أما فلاحو ميجارا فكانوا يضيفون صـادرهم من الخنازير الى الأغذية الوطنية ؛ وفضلا عن المأكولات فقد كان كل ما يمكن شراؤه أو بيعه تقريبا يوجد فى الحال أو بعد قليل فى الآجورا وفى الأزقة الضـيقة المؤدية اليها ؛ وفى حوانيت صـغيرة مظلمة ، مطلة على الشارع ، ليس لها عرائس أماميـة ، كان يعرض الحلوانيون قطائفهم . والفخـاريون أكوابهم وجرارهم والحـدادون السيوف والرماح والدروع التى قد يحتاج اليها



حيزوم سفينة اغريقية مقوس مرتفع

هذا النحت الصخرى فى لندوس ، بجزيرة رودس ، يعطى فكرة واضحة عن التقوس البديع الذى تصاعد به الألواح لتؤلف الحيزوم (مقدم السفينة) ؛ وكان سمك التلويح عادة من ثلاث الى أربع بوصات ؛ وكان يستعمل فى صنعة الخشب نصف المجفف لصلاحيته للانثناء

كل أثينى يوما ما ؛ وكان الحلاقون وتجار العطور وأصـحاب المطاعم يتحلقون حول الميـدان ؛ ولم يكونوا يعدمون حرفاء فى سويعات الصباح ، وذلك أن أهم ساعات النهار فى أثينا كانت الساعة التى تبلغ السوق فيها أوجها .

وكان ذلك كله تعاملا من نوع ساذج جدا ، أما خـلال القرن الخامس ، حينما أخذت أثينا تتطور الى مدينة امبراطورية فسرعان ما اتسعت أطماعها التجارية وأطماعهـا السياسـية على السواء ، وطالما كانت تجارتها تتوقف على طرقها

أثينـا تصـبح مدينـة تجارية

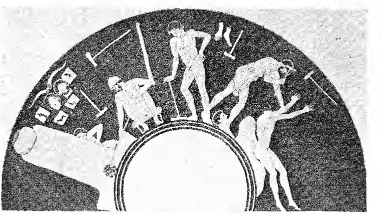
البرية . فلم يكن مستطاعا محاولة شىء على نطاق واسع ، لأن قيمة النقل لأى مسافة ، كانت كبيرة بحيث تحول دون أية فرصـة للكسب ؛ على أن البحر كان رهن اشارتهم دائما بكل امكانياته التى لاحد لها لو تيسر لهـم الميناء الصالح . وقد وجهت أثينا كل جهودها بعد الحرب الفارسية للعمل على ايجاد هـذا الميناء .

أما أقرب أجـزاء الشاطىء فهـو الخليج الفاليرى المنبسط ، الذى انصلح سيفه المنحدر الرملى لرسو القوارب الصغيرة ، فهو لا يصلح للاستعمال المستديم لتعرضه تعرضا خطرا للريح الجنوبية الغربية السائدة ، على أن ثمة

(1) الوشيعة حظيرة من قصب وفروع شجر
(2) القباع صوت الخنازير .

أبعد من هذا قليلا مياه البيرايوس — أو بيريه — (انظر ص ٥٦٠) ؛ وهي صفحة من الماء طولها ميل تقريبا ، وعرضها نصيف ميل ؛ بها أجوان في الشمال وفي الجنوب تصلح غاية الصلاح لتكون ترسانات وأحواضا . وكانت أولى خطوات النقل من فاليروم الى بيرايوس من عمل تيميستوكليس ؛ وذلك بوصفها جزءا من مشروعه العظيم لجعل أثينا سيدة البحار . وقد أصبحت بيرايوس ، بفضل رعايته

وسرعان ما أصبحت بيرايوس منذ أنشئت مركزا للتجارة العالمية ، شأن لندن اليوم تقريبا ؛ فلقد كانت ترد الى أحواضها جميع منتجات البلاد الواقعة على البحر الأسود . وكان الوكلاء الأثينيون يراقبون الدردنيل دائما. وكانت السفن الحربية التي كان غرض الحلف الدبلوسي منها محاربة فارس ، تستعمل الآن في حراسة جميع السفن القاصدة الى الغرب ، حتى تبلغ الجهات التي تقصدها . أما مؤن



سباكو المعادن الأثينيون سنة ٥٠٠ ق . م منهمكون في أعمالهم

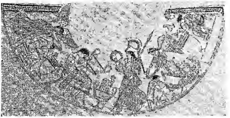
(الى اليسار) عامل يوقد الفرن لاذابة البرونز يلاحظه تلميذ تحت التمرين متكئ على مطرقه ، ثم صانع آخر يزيل الخشونة من قالب تماثيل حديث الصنع . وقد استقر رأس القالب بين قدميه . وثمة عدد مختلفة ونماذج للرؤوس والأيدي والأقدام ، ومسودات لرسوم آدمية وحيوانية معلقة على الحائط

مرسى للأسطول الحربي ؛ وبعد هزيمة اجرسيس ، وبمجرد اعادة انشاء المدينة العليا ، بدأ العمل في تحصين الميناء الجديد على الفور ؛ وقد بنى أول الأمر ، سور من الحجارة الصلبة المربعة ، يتسع لمرور عربتين كبيرتين عرضا ، وذلك على السفح المحيط بجبت الجزيرة من البحر الى البحر . ثم دعا بيركليس ، هيوداموس الملتوسي - Hippodamus of - Miletus . أعظم مخطط للمدن في العصور القديمة ، فوضع التخطيط الكلي على أحدث الأصول العصرية ؛ ثم اتصلت المدينة القديمة آخر الأمر ، والميناء الحديثة بعضهما ببعض بمشروع دفاعي بارع ؛ هو ذلك الخط المزدوج من الأسوار الطويلة التي يبلغ طولها أربعة أميال .

الغلال التي كانت حاجة أثينا القصوى ، فكانت تحصل عليها من هذا الباب ، وان استمدت حمولات أصغر من ايطاليا وصقلية ومصر ؛ ومن البحر الأسود كان يرد السمك القدد واللحم المملح الذي كان يصلح عند الأثيني المقتصد اداما مع الخبز ؛ كما كان يرد مع هذين معظم الخامات التي ينهض عليها عمل الصانع ، كالحديد والنحاس والأديم (الجلد المدبوغ) لصانع الأسلحة ، والقار والنيل والخشب للسفان (صانع السفن) ورقائق الخشب لصانع الدواليب والفتيق (النجار الدقي) . وقد كانت هذه جميعا من البضائع الثقيلة التي كان حملها الى المصنع يخلق عملا لكثير من الحمالين ؛ وكان الى جانب تلك

المواد كثير من المناعم التي يجد تاجر الجملة فائدته في تدبيرها ؛ فالسجاد من فارس ، والأواني النحاسية من أبروريا ، والعطور من بلاد العرب ، والبردى والخز Muslin والغلمان السود من مصر .

ولمواجهة هذا الفيض من الحركة كانت الحاجة ماسة الى نظام محكم كالنظام الذى تأخذ به ادارة ميناء لندن ، وكان الجانب الغربي من ميناء بيرايوس مخصصا للأسطول الحربي ، أما ترسانات الأسطول وأحواض المدرعات وأحواض التصليح فكانت بوشى الشاطىء ؛ وعلى الجانب الغربي أيضا كانت أهراء الغلال التى تستمد المدينة والأسطول منها مؤنتهما ، أما الجانب الشرقى فكان للأغراض التجارية .



آية الآيات فى الصنعة ــ نقاشو الزهريات يشرحون عملهم بأنفسهم

يتجلى شعور الاعجاب فى نفوس الفخاريين الأتيكيين بمهنتهم فى هذا النقش للنقاشين أنفسهم أثناء عملهم ، وقد جلس الفنانون الأحداث على كراسى أو مقاعد واطئة وفى أيديهم أوعية الدهان وأخذوا فى نقش الأمفورا (الطاسات) واخذت أثينا وربات النصر ذوات الأجنحة تطلع مشوقة الى تسوينها فى صورتها الأخيرة

وكانت تقدم الى احد الأرصفة زوارق المسافرين التى تذهب الى البوزيس وايجينا وكورنثه والجزائر ، بل ربما حملت حرفاءهم الى مصر والبحر الاسود لقاء دراخمتين اثنتين ؛ وكانت سفن الأخشاب ترسو عند أحد الأرصفة بينا ترسو ناقلات الفاكهة عند رصيف آخر ، فينقل حمولتها فورا جيش من عمال الميناء الى الأحواض والمخازن المجاورة ؛ وكانت الديجما Deigma تلاصق مدخل الأحواض .

والديجما هى تلك الادارة التى كانت العينات تنظم فيها وتختبر ؛ وبالقرب منها كانت الأجورا Agora حيث تباع البضائع بالجملة ؛ وفى جوارها بالجنب كانت تقوم ادارات مفتشى الميناء ومراقبى الغلال وموائد الصيارفة والمقرضين ؛ ومعظمهم أجانب من أصل سامى . اما خارج الأحواض فكانت مدينة الأعمال : الحانات ومواخر الرقيق المزدحمة بالبحارة وميناء السمك وعمال الميناء ومن اليهم من أخلاط الدهماء فى كل ميناء من موانىء البحر المتوسط .

وكان من الضرورى أن يدفع ثمن البضائع التى ترد الى بيرايوس ؛ وقد اقتضى ايجاد



صناعة سك النقود اليونانية وثمراتها البارعة

أصبحت التترا دراخمة (القطعة ذات أربعة الدراخمات) من الثبات بصفتها وحدة العملة اليونانية المقررة حتى لم يحاول أحد تغيير رسمها الفج قليلا على أن العبقرية اليونانية قد أنتجت فى دول أخرى ألوانا من العملة الفضية الجميلة الشائعة كهذه القطعة ذات أربعة الدراخمات وعليها رقس أبوللو كثانا المكلل بالغار . والستيتر Stater ــ العملة الذهبية اليونانية المقررة ، ذات الرقش المؤلف من سنبلة الشعير من ميتاپونتوم Metapontum وعليها فأر حقل ضئيل ثم القطعة ذات الدستيترين Distater ، وعليها العجل الهاجم وهى من ثورى Thurrii ، ثم القطعة ذات عشرة الدراخمات ، وعليها النسور الواقعة على أرنب ميت وهى من أكراجاس

التوازن بين الصادرات والواردات جهدا كبيرا من الأثينيين ، وما وافت نهاية القرن الخامس حتى أصبحت المدينة خلية من العمال المجدين .

يقول أرستوفان : « حالما يرسل الديك أغنية الصباح ، يهب الجميع من فراشهم : الحدادون والفخاريون والدباغون والحذاءون والحمامبون ونجار الدقيق وخراطو القيثار وصناع الدروع . فينتعلون أحذيتهم ثم يهرعون الى عملهم فى العتمة » . وكان المهاجرون الأجانب الذين كان بيركليس يشجعهم على الاقامة فى أثينا أصحاب الفضل الاكبر فى هذا التطور . وكثيرا ما كان لهم من الفضل فى نهضة بعض الصناعات مثل الذى كان للفلمنك والهيجونوت فى انجلترا . وكان العمال الأرقاء أيضا عاملا هاما ، وفى



صورة بديعة لأحد المواطنين

صان لنا أحد القبور العادية الواقعة فى جانب احد الطرق هذه الصورة المعبره أصدق التعبير عن تينيس وهو مواطن عادى من مواطنى أثينا فى القرن الخامس . ويطبع الجلال والرشاقة كل خط من خطوط الجسم المتلفع بثوبه الفضفاض الجالس على سجيته فوق الكرسى العادى البسيط

حالات كثيرة كان يستأجر احد المهاجرين الأرقاء المهرة من أحد الأثينيين مقابل اجر يومى ؛ بيد أن التيار الصناعى طالما كان يجرف طبقة المواطنين الأشد فقرا ، التى تعمل جنبا الى جنب مع الأجانب والأرقاء ؛ ولعل من الطريف أن نتأمل عن كثب صانعين أثينيين نموذجيين،أما أحدهما فالبناء الذى يزين المدينة بالمبانى التى هى أهم ما نتباهى به ؛ وأما الآخر فهو الفخارى الذى أمدنا بأحسن ما لدينا من نماذج الفن الشعبى الحقيقى .

وكانت نقابة البنائين التى لم يكن سقراط من أعضائها ذوى الجد ، من أهم النقابات فى أثينا ؛ وكانت المادة الخام التى صنعوا منها أجمل آثارهم ، من الانتاج الوطنى ، وهى مادة الرخام المستخرج من جوانب جبل پنتيليكوس ؛ وقد انهمكوا باستمرار ، طوال هذا العصر الزاهر . فى تلبية ذاك الفيض من العقود العامة ؛ وقد بنيت الپارثينون Parthenon والپروپيلاى Propylaca والأرختيوم Erechtheum جميعا بهذه الطريقة . وتمدنا قوائم الأجور التى كانت تربط للعمال ، والتى لا تزال محفوظة لحسن الحظ . على الهيكل الأخير ، ببرهان من الطراز الأول على الأحوال الصناعية فى السنين الأخيرة من القرن الخامس .

فهى توحى ، قبل كل شىء ، بما كان من بيع الصانع ما يصنعه ليس غير ؛ فكانت الحكومة تدبر كل المواد والأدوات ؛ ولم يكن ثمة نظام محكم لضبط توزيع العمل ؛ فكان يستخدم فى بعض أجزاء البناء أحد مشايخ البنائين ، بوصفه رئيسا لعدد منهم ، على أن تدفع الحكومة أجورهم اليهم بالذات ، أما الأجزاء الأخرى فكان يتعاقد عليها ، على أن يحاسب عماله بالقطعة ، آخذا على عاتقه المسئولية كلها . وكان الوطنيون يقومون بحوالى ربع العمل اليدوى ، أما الباقى فكان يضطلع به المهاجرون والأرقاء . وأخيرا . كان كل العمال ، من كبير المهندسين الى من دونه من أحقر عمال اليومية ، يأخذون أجورا متساوية ، أى دراخمة واحدة يوميا ، وذلك اذا كانت الحكومة هى التى تتولى دفع الأجور . وهذا مما يبدو غريبا فى نظرنا نحن المحدثين .

وكان كل من الفخارى والبناء يحصل على المواد اللازمة له من الحكومة ، بحيث تكون تحت

يده . وكان صلصال رأس كولياس ضروريا للفخارى ضرورة رخام بنتليكوس لزميله البناء . وحتى قبل الحروب الفارسية كانت أجمل روائعه تصدر بكميات وافرة ولاسيما الى ايطاليا . وكان المهاجرون يشتغلون من أول الأمر بالنجارة ، ويدل الكثير من أسماء نقاشى الزهريات ، مثل ديوريس وبريجوس وميس وليدوس ، دلالة واضحة على منشئهم الأجنبى ؛ ولعل رئيس الفخارين ، الذى يتبع له المصنع ، كان أثينيا فى كثير من الأحوال ، وأنه كان يستخدم الرسام الأجنبى ؛ وعلى كل فقد كان الفخارى يميل الى أن يعهد بالعمل لابنه ، طالما أن مصنعه كان عملا عائليا ، كما كان نظام التلمذة عاديا . يقول أفلاطون : « ألاما أطول ما يلقى ابن الفخارى باله الى أبيه قبل أن يمس الدوارة ! » .

وانا لنشاهد على الأوانى نفسها صورا لصغار المتعلمين وهم مكبون على عملهم ؛ وانا لنعلم ان روحا من اتقان المحاكاة ، بل بد الأصل ، كان سائدا فى جميع مصانع السراميكوس الصغيرة ، حيث كان النقاشون يعملون أو يعلمون . ولو أننا مشينا

التجار والفنانون أيضا

فى حى الفخارين ، لوجدنا مائة أو نحوها من المصانع الصغيرة التى يحوى كل منها حوالى اثنى عشر رجلا لا يتبدلون قط (أى لا يعرفون نظام الورديات) ، ولم نر ثمة بضعة من المصانع الكبيرة التى تستخدم مئات من الأيدى ، والتى تصنع السلعة نفسها . وكان المقصود من طاساته وكاساته وزهرياته الاستعمال اليومى ؛ أما عند الفخارى فكانت تعتبر طرفا من طرف الجمال . ولم يكن أليق من أن يجزى أحد الفائزين فى المباريات الباناثنيوية بغير الكأس ذات البدين (الأمفورا) . مما أبدعته يد الصانع الأتيكى ، ومملوءة بزيت أتيكى كذلك .

وكان الأثينى المثالى هو الفنان أول الأمر ، وفيما بعد ، كان هو التاجر Shopkeeper وكان كل ما يرد من معمله يحمل العلامة التى تثبت شخصيته الخاصة ، وقد صير كل حرفة فنا ، كما صير الرومانى كل فن حرفة . وكان الفيتق (النجار الدقى) يزهى بشكل كراسيه كما كان يزهى هيلهويت . ولم يكن صانع



أثينى حدث سقط فى المعركة

بين هذا الجندى الحدث ، أرستو نوتيس ، وبين المواطن الوديع فى صفحة ٥٩٠ تباين يلفت النظر . فهو يلبس الخوذة والزرد ، وعباءته (Chlamys) تهفهف فوق ترسه ، وقد صور وهو هاجم فى الحومة حيث خر صريعا

الدروع يقنع باخراج قطعة صلبة جيدة من الأديم الصالح للاستعمال والمعدن (المسقى) ؛ فحينما يكون قد أدى ما للصنعة من حق ، يبدأ فى استخدام خياله ، وربما اخترع لكل حريف نموذج درعه الخاص به دون غيره . وقد يظن أن نظام العمل بواسطة الأرقاء يؤدى بالضرورة الى نتائج آلية ؛ الا أنه ، والحق يقال ، قد حوفظ على نظام العمل بواسطة الأرقاء فى أثينا فى القرن الخامس ، فى وضعه السليم ؛ اذ كان يكفى أن يناط الى بضعة عمال فى معظم المصانع بالأعمال الأولية الغشيمة ، أما السلعة فى آخر صورها فكانت من انتاج العمال الأحرار . وكان الأرقاء يستخدمون على نطاق واسع فى صناعة واحدة فقط ؛ ولن يكون خروجا عن الموضوع ، بهذه المناسبة ، ايراد وصف لمناجم الفضة فى لوريوم Laurium

كانت مقاطعة لوريوم ، فى رأس سونيوم الصخرى ، أشبه « بمملكة سوداء »(١) تمتلكها أثينا . وكان للفضة والرصاص المستخرجين منها اهمية فى الاقتصاد الوطنى كأهمية الفحم والحديد لانجلترا ؛ ولا يهمنا الآن النظر فى مدى ما كان نجاحها التجارى متوقفا على مناجم الفضة . ومهما يكن الأمر ، فمن المحقق أن الفترة التى كانوا يستغلون خلالها الى أقصى حد كانت هى أيضا الفترة التى بلغ فيها رخاؤها أقصاه ؛ وقد كان معروفا على الدوام أن الفضة موجودة فى لوريوم ؛ ولكن ذلك لم يكتشف حتى سنة ٤٨٣ ق . م حينما وقع أحد المنقبين على تلك الثروة فجأة ، قبل غزو اجزرسيس مباشرة ، فبدأت العمليات على نطاق واسع .

وقد ادعت الدولة ملكية المناجم ، وكانت رخص استخراج المعادن تعطى بعقود لقاء ايجارات عالية . وكان الوطنيون وحدهم هم أصحاب الحق فى ذلك ؛ وكانوا ينظمون اعمالهم حسب ما يتراءى لهم ؛ وكانت لهم أرباحهم من بيع المعدن الخام ؛ وكانت تلك الأرباح طائلة فى بعض الحالات كما هو المنتظر ؛ وكانت معظم الثروات الكبيرة فى أثينا تدين بأسبابها الى هذا المصدر ؛ وكانت القاعدة المتبعة هى أن يأخذ الرجل الواحد



غالته يد المنون فى زهرة شبابه

تتجلى يد الفنان الصناع فى هذه الزهرية الجنائزية فى المتحف الاهلى بأثينا . وهى تصور روح شاب أثينى لابسا عباءته الخاصة وقد راح ينظر الى فتاة أحضرت قربانا لتضعه على رمسه الحجرى الذى أودعت على درجة قرابين من أطواق الزهر وقوارير الزيت



الطابع الانسانى فى الفن الزخرفى

تتجلى لمحة مؤثرة نوعا من لمحات الخلق القومى فى هذا النقش الزهرى لأثينى هرم يساعد ابنه فى حزن يشوبه الكبرياء فى الادراع بعدة محارب من المشاة . ويرجع تاريخ الزهرية الى حوالى سنة ٤٨٠ ق . م ؛ أى عام سلاميس

امتيازا فى رقعة صغيرة ، على أن يستأجر أو يشترى زمرة من حوالى ثلاثين من الأرقاء ، وأن يقنع بدخل ثابت معتدل مطرد . وقد كانت دار سك النقود أحسن حرفاء صاحب المنجم ، وكانت تضرب من سبائكه المنقاة مرتين القطع ذات أربع الدراخمات Tetrad-rachms الاتيكية ؛ أو «بومات لوريوم» التى لم تكن وحدة النقد فحسب ، فى القرن الخامس فى البحر المتوسط ، بل كانت أيضا من أثمن الصادرات الاتيكية .

ولم يكن ميسورا تشغيل المناجم بدون نظام العمل بواسطة الأرقاء .

نظام العمل بواسطة الأرقاء فى مناجم الفضة

وقد قدر عدد المشتغلين فيها من الأرقاء بأكثر من نصف عدد البالغين منهم فى اتيكا . وعندما كان الرفيق يجد نفسه فى لوريوم ، كان يظل مقيما بها حتى يوافيه أجله ، الذى لم يكن يتأخر طويلا فى كثير من الأحيان . وكانت

(١) كناية عن الأرض التى تكثر بها مناجم الفحم والحديد (المترجم) .

شروط العمل سيئة ، اذ كانت ساعاته طويلة : عشر ساعات من العمل يتبعها عشر من الراحة : وكان العمل نفسه مجهدا . وكانوا يحتفظون بالضعاف فوق سطح الأرض حيث يسحقون المعدن الخام فى هاونات وطواحين يدوية ويغسلونه ثم يصهرونه ؛ أما الأقوياء فكانوا يقومون بالتعدين الحقيقى فى دهاليز عرضها ثلاث أقدام فى ارتفاع مثلها . وهم ينحنون بمعاولهم وحدءاتهم(١) على ركبهم أو على ظهورهم أو بطونهم ؛ ولم تكن ثمة أية تهوية أو أية مراعاة للصحة . ولم يكن بد من أن تكون الحرارة قاسية ، وأن تكون الروائح مما لا يطاق تقريبا . ولا يزال من الميسور رؤية حلق الحديد فى الممرات التى كان يرفع العامل منها مربوطا ليلهب بالسوط ان لم يرض ملاحظة عن انتاجه . وقد كان الرجل الذى له حظ من الانسانية ، وان كان القليل من الأثينيين قساة . يؤثر ألا يزور دائرة امتباره ن لوريوم ؛ اذ كان يحسبها ضرورة فحسب ؛ فلم يكن يعيرها أقل اهتمامه .

وفضلا عن هذا ، كان يقعده عن الذهاب الى منجمه عدم توفر الوقت له ليقوم بذلك . وذلك أن الأثينى لم يكن يكل الى غيره مهمة الحكم . بل كان يساهم بنفسه بنصيب فى تصريف شئون الدولة . وكانت المساواة هى الفكرة التى تظاهر الديمقراطية عنده .. ليست المساواة فى الثروة او المنزلة الاجتماعية أو المقدرة الذهنية .. مما كان يعلم باستحالته ، بل المساواة فى الحقوق وفرص الخدمة الاجتماعية . وكان جميع الأثينيين سواسية امام القانون . وأكثر من هذا كان كل اثينى يملك فرصة المساواة بمواطنيه فى التشريع والاضطلاع بالوظائف والتربع فى دست القضاء .

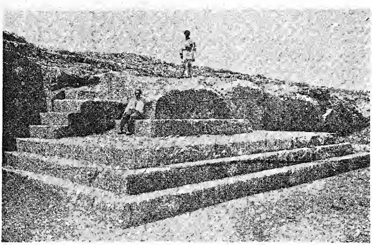
ومن الاهمية بمكان أن نذكر أنه ؛ كان ثمة عدد كبير من الوظائف وهيئات من الموظفين .. وظائف ليست ذات اهمية خاصة ؛ وأجورها طفيفة جدا . وكانت هذه المناصب انما تشغل لسنة واحدة ؛ ولم يكن يسمح بانتخاب أحد لوظيفة من الوظائف مرتين ، وكان التعيين يجرى بالاقتراع بين جميع الذين يرشحون



عروس أثينية تهيأ لحفلة الزفاف

أرباب الحب الصغار ذوو الأجنحة والذين يرفرفون هنا وهناك حول الفتيات يؤكدون معنى هذه الصورة لعروس تأخذ زينتها من أجل زفافها . فاحدى العذارى تصلح شعر العروس ، وقد وقفت فتاتان أخريان تلاحظان وتنقدان ؛ بينما اشتغلت أخريات بكل ما له علاقة بدمامها . وقد استعمل اللونان الذهبى والأبيض بسخاء فى هذه الزهرية ذات الشخوص الحمراء . وهى من الفن الأتيكى فى منتصف القرن الرابع ، وهو جدير بامعان النظر لهذه التفصيلات الدقيقة عن ملبس هذه الحقبة وأثاثها ، وذلك بصرف النظر عن جماله البديع

(١) الحدأة الفأس ذات الحدين (المترجم) .



مذبح الديمقراطية الصخرى . منصة الخطابة على هضبة البنكس

تتركز ذكريات التطور السياسى لأثينا فى الأطلال المنسعثة لهـذه المنصة المدرجـة وهى كل ما تبقى من بيما أو منصة بنكس . وكانت تنعقد الأكليسيا أو الجمعية الوطنية على هذه الهضبة طوال الفترة الزاهرة فى أثينا فى القرنين الخامس والرابع ق . م . وقد كان لكل الأهالى الذين تؤهلهم كفاياتهم لحضور الجمعية الحق فى التكلم ، وحينما كانوا يضعون أنفسهم تحت تصرف المجلس ، وكانوا يعتلون البيما ومن ثمة يخطبون المجلس

أنفسهم . وكان يظن أن أيما رجل ذى سمعة طيبة يكون أهلا لأداء العمل المطرد الذى يؤلف فى العادة مجموع الأشغال العامة . وقد أكد ذلك هذا النظام ، اذ أصبح أكبر عدد من الأهالى ملما بتفصيـلات الحكم ومسئوليات الخدمة ، أما من حيث الوظائف الأكثر أهمية ، كهيئـة القواد ، واللجنة المالية ، حيث لم تكن مندوحة عن كفـايات بعينهـا ، فكان يجرى لهـا انتخاب ــ بيـد أن مجلس الخمسـمائة ، الذى كان أقرب الخطوات التى اتخذتها أثينـا نحو نظام الحكم الحديث ، فكان يعين سنويا بالاقتراع من بين كتلة الشعب ، شأنه فى ذلك شأن جميع الموظفين الصغار ، وكان الرجل اذا أصابته القرعة لم يكن له محيض من الخدمة .

وكانت لجنـة من خمسين عضوا من أعضاء المجلس تجتمع لمدة خمسة أسابيع ، لتصريف جميع الشئون العامة ذات الضرورة الملحة ؛ وكانت تنعقد عند الضرورة وتدعو الأهالى الى جمعية عمومية أربع مرات شهريا .. وكان واجبـا محتوما على كل فرد أن يحضر هـذا الاجتمـاع . ومن حـق كل مواطن أن يطالب الدولة بنصف دراخمـة ــ حـوالى قرشـين ينقودنا ــ مقابل اشتراكه فى الجلسة . وكانت اللجنـة ترفع الى الجمعيـة الاقتراحات التى نظرتهـا من قبل ، وذلك من قبيـل المسائل الآتية : « هل يلزم أن تعلن الحرب فى الحال ؟ » ، « هل يلزم التجنيد للأسطول من أجل الحرب ؟ » ، « هل يلزم مطالبة الأهالى الموسرين باعانات مالية خاصة ؟ » . أى جميع المسائل التى لا تحتمل الا النفى الصريح أو الايجاب القاطع . أما اذا طلب الكلمة أحـد ، فكان من الممكن مناقشة الاقتراحات قبل أخذ الأصوات ، فان لم يرغب أحد فى الكلام قدمت الاقتراحات الى الاجتماع فى الحال ليجيب عنها بلا أو نعم .

وكانت الجمعية لا تنعقـد الا مرة واحـدة كل أسبوع ، وكانت اجراءاتها فى كثير من الأحيان شكلية بحتة ، بحيث لم يكونوا يعلقون عليهـا أهمية كبيرة ؛ أما الأداة الحقيقية التى بواسطتها احتفظ الشعب ، صاحب السلطة ، بمحاسبة الهيئـة التنفيذية فكانت الهليـائى Heliaea أو محاكم المحلفين . فقد كانت هـذه المحاكم

المركز الحقيقى للنظام الديمقراطى . وهى لهذا بحاجة الى وصف قائم بذاته .

لقد كان خمسة آلاف من الأثينيين . فى كل يوم من أيام العمل . يقدمون خدماتهم للدولة بوصفهم محلفين . وكانوا يتسلمون من الدولة نصف دراخمة أجرا يوميا لكل منهم .

وكانوا ينتظرون صباحا فى عشر جماعات تتألف كل منها من خمسمائة محلف . فتجلس كل منها فى مكانها المخصص لها ؛ وكانوا يأخذون أنفسهم باستجابة كل ما يصادف أكبر الهوى فى نفس الأثينى ، كبهرج الفصاحة والبراعة القانونية ، وذلك قبل ان يعطوا آخر النهار رأيهم النهائى الحاسم . وكانت كل مسئلة تقريبا من المسائل ذات الأهمية العامة تنتهى الى المحاكم آخر الأمر ؛ لم تكن القضايا القانونية الخاصة الا جزءا من عملهم فحسب ؛ ولو ان هذه القضايا كانت كثيرة كثرة هائلة فى أثينا المشغوفة بالرجوع الى القانون .

وكان اهم أعمالهم ينحصر فى الاشتغال مع الساسة والمشترعين والقضاة . فاذا نجح سياسى مثلا فى اقناع المجلس باقتراح مرسوم وامراره فى الجمعية . كان لا يزال مستطاعا اتهامه فى محاكم التحليف . من حيث المبدأ العام الصرف . بأن اقتراحه بالمرسوم يعارض روح الدستور الأثينى . ولم تكن أمثال هذه الدعاوى غريبة بحال من الأحوال ؛ ثم انه اذا اراد رجل نقض قانون قديم . أو ادخال قانون جديد . فكانت المحاكم تنظر فى ذلك بوصفها لجنة تحليفية . وكانت تستمع الى رأى كلا الجانبين . وكان المحلفون يقررون ما اذا كان من المستصوب اجراء اى تغيير . أو صرف النظر عنه ؛ أما القضاة الذين كانوا

أعمال محاكم المحلفين

يعينون عاما فعاما فكان يهيأ لهم جو من الاستقلال فى كل اجراء من الاجراءات . وكان من الممكن عقب انتخاب أحد القضاة مباشرة الطعن فى صلاحيته للوظيفة بالطرق القانونية . لما كان من الممكن فى أى وقت . أثناء العام الذى باشر فيه هذا القاضى وظيفته . ان يتهم أمام هيئة المحلفين بسوء استعماله سلطة وظيفته . وكانت أعماله تفحص شهريا



حيث يرقد موتى الأثينيين الى جانب الطريق الكبير العام

شارع المقابر ، جبانة أثينا الرئيسية . وتقع خارج بوابة ديبيلون Dipylon شمال غربى المدينة ـ وكانت القبور منتظمة صفوفا . حسب مقام العائلات فى العادة ، على كلا جانبى الطريق . أما الأنصاب فكانت نماذج من التعبير الاحساسى المكبوت . ويظهر فى هذه الصورة نصبان تذكاريان يلفتان النظر ، أما أحدهما فمتوج بعجل كبير ، وأما الآخر فبكلب مولوسوى من كلاب الصيد ـ أما هذا النصب الذى له هيئة الهيكل . والواقع أمام النصب الأول فعليه آثارات الصور شاحبة

بناء على تعليمات المحكمة . وفى نهاية العام كان عليه أن يتقدم لمحاسبته أمام هيئة من المحلفين عن جميع افعاله . وكان المحلفون يضطلعون بمسئولياتهم بمنتهى الجد ؛ وكان الحضور الى المحاكم يشغل على التحقيق شطرا كبيرا من وقت المواطن الذى نضجت سنه ؛ بينما كان الرجال الذين بلغوا سن الخدمة العسكرية ، عرضة على الدوام لاستدعائهم للخدمة فى جيوش الدولة ، فضلا عن القيام بنصيبهم فى جميع الواجبات المدنية .

ولقد أحصينا الآن معظم صنوف العمل التى كان الأثينيون يشتغلون بها . تتبعنا تقدم الصناعة فى أثينا مدى مائة من السنين تقريبا . أما الأهالى الذين كانوا فلاحين فى الغالب فى أول القرن الخامس . فقد بدأوا ، خلال الأعوام الزاهرة من حكم بيركليس ، يلزمون بيوتهم فى المدينة ، ويقللون من عنايتهم الشخصية بحقولهم . ويصرفون أوقاتهم أكثر فأكثر فى السياسة والأعمال العامة . وقد هبطت الزراعة التى كانت قوام العمل فى المملكة الى المقام الثانى ، الى درجة ما ، فما وافت سنة ٤٣٠ ق . م ، وذلك حينما أصبحت أثينا المركز المالى والتجارى

التبديل الاجتماعى الذى تم على يدى بيركليس

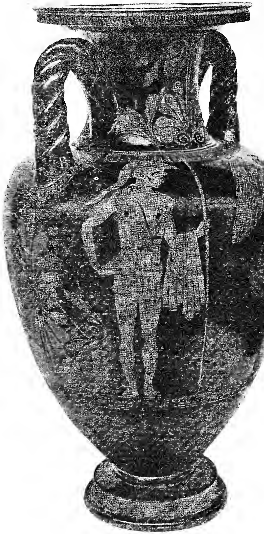
الرئيسى فى البحر المتوسط ، حتى كانت تستمد أكبر شطر من ثروتها من سفنها ومن مناجمها ثم من مصانعها . ان الثورة الصناعية التى كانت ولا تزال قائمة فى انجلترا على قدم وساق مدى قرنين من الزمان كانت قد تمت فى أثينا فى عشرات قلائل من السنين . أما أن ذلك التحول لم يكن غير مجد بالنسبة لجمهور الأهالى فنحن نعرف ذلك من حقيقة واحدة .

ففى سنة ٤٨٠ ، كان من الممكن حسبان حوالى عشرين ألفا من مجموع الأثينيين ، الذين كان يبلغ عددهم ثلاثين الفا ، من الفقراء ؛ وفى سنة ٤٣١ ، حينما ارتفع مجموع الأهالى الى أربعين الفا ، لم يكن مجموع الطبقة العاملة أكثر مما كان عليه من قبل نصف قرن ، وكانت زيادة عشرة آلاف نتيجة كلية للزيادة فى طبقة الموسرين المتوسطة . وكان أعضاء هذه الطبقة الأخيرة من طبقات الهيئة الاجتماعية ، ولو لم يشتغلوا بأى عمل يدوى ، أو بأية تجارة من تجارات التجزئة ؛ كانوا لا يزالون يحيون — كما شهدنا — حياة جد دائبة ؛ موزعين جهودهم بالتساوى تقريبا بين ادارة ممتلكاتهم من الأراضى ، ورؤوس أموالهم المثمرة ، وبين مصالح الدولة العامة . ويأتى من دونهم فى السلم الاجتماعى ، وان ساووهم فى جميع الحقوق السياسية ، العشرون الفا من المواطنين الفقراء الذين كانوا يعتمدون فى معاشهم على العمل اليدوى والحرف الحقيرة . وكانت هذه هى الطبقة التى انتفعت بأعظم الفوائد المادية من النظام الديمقراطى ، فمن أجلهم نظم بيركليس مشروعه الانشائى العظيم ، ومن أجلهم أدخل نظام الأجور على جميع الخدمات العامة ؛ وكان فى مستطاعهم اذا أرادوا شهود المسارح المطالبة بثمن الدخول ؛ فاذا أدوا عمل المحلفين أخذوا أجر ذلك ، وهو القطعة ذات ثلاثة الأوبولات ؛ أما اذا قتلوا فى المعارك ، فكان يتاماهم يربون على نفقة الدولة ، ونستطيع أن نحدس أن المساعدة التى كانوا يحصلون عليها من الدولة كانت تزيد فى كسبهم وتساعدهم فى الارتقاء فوق مستوى العوز الى حد حميد ، الا أنهم والحق يقال ، كان عليهم أن يعملوا ، وأن يعملوا فى جد . ولم تفتأ أثينا ، كما قال بيركليس فى خطبته الجنائزية ، فى عنايتها بجميع مواطنيها ، تدبر لهم الوانا عديدة من الرياضة التخفيف من رهق الحياة . ولننصرف بعد هذا الى ضروب التسلية الأثينية ، وليكن المسرح أول مشاهدنا فى ذلك .

نحن الآن فى بكرة من بكر الربيع ... سنة ٤٥٨ ق . م ، فى نطاق معبد الآله ديونيزوس ، على حيد الأكروپوليس الجنوبى الشرقى ... والمدينة مكتظة بالغرباء الذين قدموا من آسيه ومن الجزائر اما للعمل ، واما للهو . لأنه وان تكن أثينا فى حرب

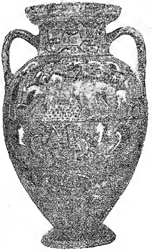
أثينا فى لهوها — المسرح

مع كورنثة وايجينا ، فان اسطولها كان لا يزال يضمن حرية البحار ، والمواطنون والغرباء على السواء يهرعون الى المسرح حيث تمثل الروايات الجديدة تقديسا للاله . ويأخذ أوائل القادمين اماكنهم بعد منتصف الليل مباشرة ، ومنذ شروق الشمس يكون ثمة فيض مطرد من النظارة يتسلقون مشارف الهضبة ، موزعين أنفسهم على مدرجات المقاعد الخشبية التى



نموذج من الرسوم الزهرية الأتيكية فى أحسن صورها التى لا تبارى

بلغت أشكال الزهريات اليونانية ورسوم هذه الزهريات أسمى صورها فى أثينا فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، حينما كان يستعمل طراز الشكل الأحمر (انظر الصحيفة التالية) فى جميع الأعمال التى كانوا يتعمدون ان تبدو قديمة . ولنلاحظ ما فى هذه الأمفورا الفخمة (الجرة الأثرية ذات المقبضين) التى تريك محاربا حديث السن يصب له اله النصر خمرا ، من صفاء الرسم فى جملته ، ورقة تفصيلاته ودقتها ، وحليته الاضافية الخالية من الهرج



جرة ذات مقبضين من أتيكا فى عهدها القديم
(جرة ذات مقبضين للتخزين)



جرة من أتيكا
(جرة ماء)



آنية شراب من أتيكا
(كأس نبيذ)



جرة ذات مقبضين
من أتيكا



راقود من أتيكا
(لمزج الأشربة)

تقدم صناعة الخزف اليونانية القديمة فى مدى قرن

اطوار واشكال ونماذج مختلفة من الزهريات اليونانيــة من أتيكا توضح التضحية بوليكسينا Polyxena وتوضح السفلى أخيل وهو يذبح بنتسليا Penthesilea المهورة باسم اجزكياس. وتوضح الكراتر Krater الراقود ، الربة أثينا وهى تلوح (عازفا على القيثـــارة) كما توضح التباين فى الأداء بين الصورة السوداء والصورة الحمراء : فالصـــورة فى الأولى تخطيـــطات خارجية ملئت باللون الأسود على حمرة الخزف . وفيهـــا التفصيلات المرسـومة بالبـــارز أو المصانة بالأبيض او الأرجوانى ; اما فى الثانية ، فالظهارة هى التى طليت بالأسود



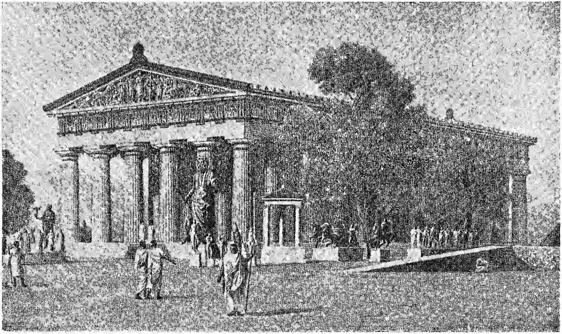
نسوة باكيات يقدمن تقدمات عند مقابر أقاربهن المتوفين : قوارير أتيكية بيضاء من القرن الخامس





آنيـة جميلة مكرسة لظـلام القبر

يختلف نوع من الأوعية الأتيكية عن الزهريات ذات الصور الحمراء والصور السوداء في كونها مرسومة بالألوان على (أرضية) بيضاء ، وهي في الجملة اما جرار ضيقة العنق وأما أوان للزيت تستعمل لمسح الموتى بالزيت ولهذا فهي توضع بكثرة في المقابر . الا أن هذه الطريقة كانت تتبع أحيانا في أوعية أخرى كما في الكيلكس (الجفنة) المدبوغة (أسفل اليسار) رسم فيها أفروديت ممتطية أوزة . أما الموضوعات المرسومة على القوارير فجنائزية . وتوضح النموذج (الى اليمين) محاربا شابا يوضع في قبره بواسطة ربة الموت والنوم



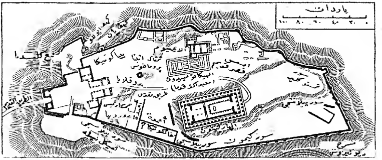
أثر ذو ألوان كانت تلطف من بهر الرخام الأبيض تحت شمس اليونان المتأججة

ان مجموعة التماثيل القديمة التى تزين متاحفنا ، وأطلال الهياكل اليونانية التى لوحها تقلب الطقس والتى لا تزال باقية ، قد فقدت كل أثارات التلوين تقريبا ، ولذا توحى بأن الفن اليونانى كان فنا « أبيض » . وهذا بعيد من الحقيقة ، فقد كانت التماثيل ملونة بألوان خفيفة ، وكانت هذه التماثيل تبدو للعيان فى ظلال طبيعية ، تلك التماثيل العالية كثيراً عن الأرض ، كما فى تماثيل الواجهة فى صورة أروع وأكثر استمساكا بالتقاليد . وكذلك كانت الهياكل نفسها تمتاز بألوانها المتلألئة . ويمكن التحقق من ذلك من هذا البناء الذى تخيل على أصله (أعلى هذا الكلام) على هيئة هيكل زيوس فى أولمبيا — على قدر العلاقة فى الشكل بينهما

يتألف منها المدرج العـام (الأوديتور يوم) . ولما يمتلىء المسرح تماما مع ذلك . فهناك متسع لعشرين الف من المتفرجين فى نصف الدائرة الفسيح ، ويداب المستقبلون فى حشدهم جنبا الى جنب فوق المقاعد الضيقة ... أما من كانوا أكثر اترافا فيحضرون حشايا ليجلسوا عليها . كما كان الاكثر عناية بأنفسهم يحضرون معهم قدرا من البندق والفاكهة ، مد كانت الحفلة تستغرق اليوم بطوله ؛ ولم يكن بد من أن يظل الانسان فى مكانه حتى آخر وقت العصر . وكان

بيد أن سكان البحر المتوسط قلما يسيغون روائع الطبيعة بمثل الحماسة التى يبديها أهل الشمال ، نظرا لما يشعرون فى الاستمتاع بها من عزاء عن سماواتهم الدكن ... اذ المنظر بالنسبة لغالبية النظارة جد عادى ، حتى لا يثير الاعجاب الذى يستحقه . وهم يؤثرون تزجية أوقاتهم بالتفرج على ما حولهم والتحدث الى جيرانهم حيث لا تعوزهم الموضوعات ، وحيث لا يسأم

الموضوعات المتداولة لهذا العهد



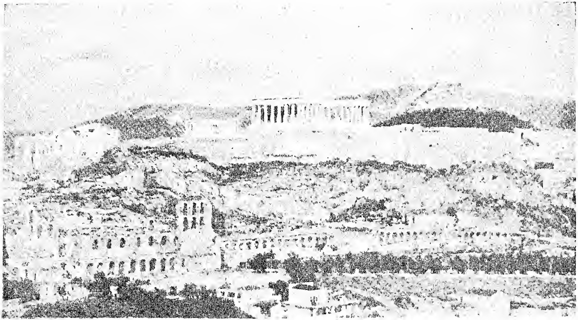
تخطيط للأكروبوليس فى الحقبة القديمة

شيد تمستوكليس سور الأكروبوليس الشمالى الموجود الى الآن بعد رحيل الفرس سنة ٤٧٩ ق . م الذين خربوا التحصينات الأقدم منه عهدا . وقد أضيف السور القائم على الجانبين الجنوبى والشرقى بعد انتصار اليوريميدون سنة ٤٦٧ ق . م وذلك بواسطة كيمون الذى مد سور تمستوكليس كذلك وعلاه ومهد الأرض حتى اخذت الرقعة المسورة شكلها ومساحتها الحاليين . وأما آثار العصر القديم العظيمة فيرجع تاريخها الى عصر بيركليس

لا يزال ثمة وقت للانتظار قبل أن يبدأ التمثيل غير أنه كان يعجل للنظارة بطبيعة الحال بمشهد من المشاهد الافتتاحية .

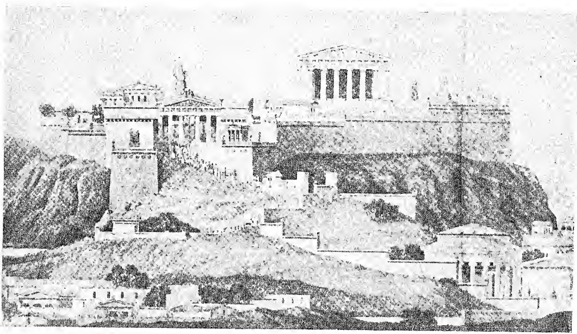
ومن الأكمة المكشوفة ، كان النظارة يستطيعون أن يشاهدوا — فى وهج الجو الأتيكى الساطع — الطريق البيضاء الممتدة عبر السهل وذلك من الأسطح السمر المنبسطة بالمدينة العليا الى البيرايوس Piraeus وفيما يلى ذلك التيه ، من الصوارى وحبال السفن المتجمعة حول الأرصفة ، كان البحر يتلألأ فى ضوء الشمس ، بينما يلوح على صفحته الزرقاء عمارة من السفن الحربية القديمة التى تباشر مناوراتها ، وتبدو كل من سلاميس بذكرياتها المجيدة ، وايجينا التى كانت بعدوانها قذى فى عين بيرايوس ، وقد بدت كلتاهما جد متلاصقتين . وفيما وراء آرجوليس — وفى لألاءة من الضوء — ترى قمة جبل كولينه على بعد ثمانين ميلا فى قلب البليبونيز .

الاثينى الأصيل من الحديث . فكان لديهم ما يتباحثون فيه من محاسن التمثيل فى الأيام الخوالى ، والتجارب التى كان يقوم بها اسخيلوس لما يزمع أداءه على مشهد من مواطنيه سحابة ذلك اليوم . ولم يكن غير شخص واحد يعرف رئيس فرقة المنشدين التى تكون قد استغرقت الأسابيع فى التلاوة ، فيؤكد لأصدقائه أن منشدا جديدا كان منهمكا فى الدور الرئيسى ، وأن الأناشيد الجديدة تبز فى بهائها وتنوع نغمها كل ما عداها ، حتى ما أنتجه اسخيلوس الى ذلك الوقت . ثم يصرح آخر بأن الروايات التمثيلية ، على ما تحققه هو — ستبلغ من الرونق ما لم يحلم به أحد من قبل . وأن واحدا من أغنى أهالى أثينا اخذ على عاتقه جميع النفقات ، وأنه لن يبالى بما تصل اليه قيمتها ؛ ويستطيع ثالث، أكثر دراية من الآخرين، تعليل هذا السخاء الجزيل ، فهو يهمس بأن ثمة بعض الأحزاب السياسية التى لها يد فى ذلك ،



منظر للاكروبوليس : لا يباريه شيء فى جلاله وروعة اطلاله

لا يزال الاكروبوليس لا يقرن به أو بأبنيته المتحطمة القديمة شيء مهما أحاطت به . كما هو الآن . البيوت الخلاوية الحديثة ذات الهندسة الكئيبة ــ ويملأ البارثنون وسط الصورة كما كان شأنه دائما ، متسلطا على الاكمة بجماله الذى يزرى ببهاء البروبيلاى الهائل . والذى يقع الى اليسار ــ والى الأسفل من هذا توجد أطلال أوديوم هيرودس اتيكوس ــ التى لم تظهر فى المخطط الوارد بصفحة ٥٨٢ ، لأنه أحدث عهدا من الحقبة التى يتناولها هذا الفصل ــ وبه سقيفة اليومينيس الممتدة الى اليمين . وفيما يلى الأكروبولس . يوجد جبل ليكابتوس الذاهب فى السماء

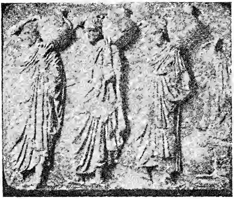


المنظر الغربى من الأكروبوليس كما استعاده راسمه فى حالته الأصلية ـ أجمل القلاع الأثرية

كانت الأكمة ذات الحصن التى تشتهر فى العالم باسم أكروبوليس أثينا ، والتى يربى ارتفاعها على خمسمائة قدم ، المركز الطبيعى لجميع المستعمرات الموجودة فى السهل الأدنى . فبعد أن خرب الفرس الأبنية القديمة سنة ٤٨٠ ق . م ، أصبح لثمستوكليس وكيمون وبركليس مؤسسى القلعة الفخمة التى استعاد الراسم صورتها هنا ، وعلى الجانب الغربى كانت توجد البروبلاى ، أو مداخل الأبهاء التى تنهض وراءها تماثيل أثينا بروماخوس البرونزية (أثينا ربة الجبهة الحربية) . وقد كان الى اليسار هيكل اركتيوس . كما كان يشرف على الجميع البارثنون الذى لا يضارعه بناء آخر

قد دابوا أخيرا على القضاء عليها . ولم يرض أهل الجاه قط بهذه الاشتراكية الحكومية الجديدة ، وسنرى منذ اليوم أن اسخيلوس هو لسان حالهم .

وهكذا ينتشر القال والقيل ، ويشتد الجدل بين الجماهير المتشوقة ؛ ويتجلى وجود أتراب اسخيلوس ممن حاربوا وانتصروا ، في مرثون ، في هذه الحفلات التمثيلية ، أكثر مما جرت به العادة ؛ وذلك أن الشباب من المواطنين يكونون بعيدين في خدمات حربية . . . فبعضهم يصحب الأسطول العظيم في مصر ، وبعضهم يذهب عند الحدود الجنوبية لصد هجوم كورنثى . . . بينما البعض الآخر يقوم على حراسة الشمال ضد تهديد بووطيا المستديم . وكان يحدث غير مرة أن يكون أشياع بيركليس أقلية في المسرح ، وعندما يظهر الأولمبي آخر الأمر ، ويستوى في مجلس الشرف ، بالصف الأمامى ، فانه يقابل بأصوات استهزاء كثيرة ، كما يحيا بهتافات الترحيب كذلك . ثم يجلس بلا حراك ، كثير



قرابين الخمر للربة أثينا

شبان يحملون القرابين ، ومن خلفهم ضابط أعلى مرتبة ، يسيرون في الموكب الپاناثنوى الكبير . فالبعض يحمل صينيات أو سلالا بها الهبات المنوعة ، والبعض ، كهؤلاء الثلاثة المصورين هنا ، يحملون جرارا كبيرة مملوءة خمرا . ويأتى من خلفهم الموسيقيون : وبكل فرقة صغيرة أربعة من الزامرين وأربعة من العازفين على القيثار

وان اسخيلوس ينتوى أن ينافح عن حقوق الآريوپيجوس(١) التى كان بيركليس وأصحابه



فرسان أحداث يستعدون للركوب في المواكب

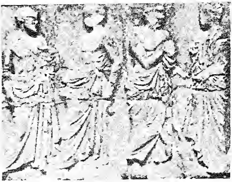
كان الكيراميكوس بجوار بوابة ديفلون المكان الذى يبدأ منه الموكب مسيره ، ومنذ أن يتنفس الصبح كان ينقلب الى مشهد من الاستعدادات الدائبة ، وكان فدياس ينتخب حوادث منفصلة من هذه لتكون موضوعات لافريز البارثينون الغربى ، فهذه اللوحة مثلا تصور أثينا حدثا ينشح برداء ركوبه القصير ، كما تصور آخر قد اتشح من قبل وهو الآن يربط درع رجليه ، ويقف الى جانبهم في رعاية أحد السواس جواداهما الصغيران القويان العاريا الظهر اللذان عنى بهما الى آخر حدود العناية

(١) Areopagus — أكمة مارس اله الحرب — وكانت تعقد فوقها محكمة أثينا العليا في العصور القديمة (المترجم) .

التفكير ، بل انه كان يذهل عن كل ما حوله تقريبا عندما ينتظم السفراء الأجانب فى مقاعدهم المحجزة لهم : وكان يرى ثمة أعيان تساليا ذوو الحلل المزركشة ، وبعوث آرجوس التى اقبلت تلتمس لها عضدا فى اليليبونيز ... اما أشد المشاهد اثارة للنفوس فكان منظر أولئك المصريين الثلاثة السمر الذين اقبلوا لاستمالة هيئة الفواد لتساعدهم ضد فارس .

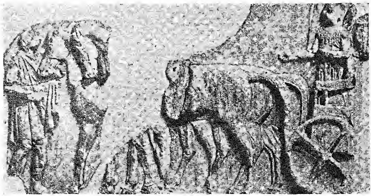
ثم يلى البعوث القضاة العشرة المنتخبون بالقرعة ، والذين سيعينون مكافأة الفوز لأحسن مجموعة من المسرحيات . . . وعندئذ يسود الصمت فى المسرح الكبير ، ويرى كاهن ديونيزوس المسن مقبلا بعد ان قدم القرابين للاله .... وانه ليمشى على مهل الى حيث عرشه فى الوسط ، ويداه مبسوطتان الى السماء . . .
ثم يدوى ناى بدور مشج ... ثم تبدأ تمثيلية أجاممنون .

اما صورتنا التالية فستكون مرة اخرى احدى تلك الصور التى يرتبط فيها المشهد بالذين ... فنحن الآن فى صبيحة من أواخر يوليو فى الكراميكوس الخارجى ... ونحن فى سنة



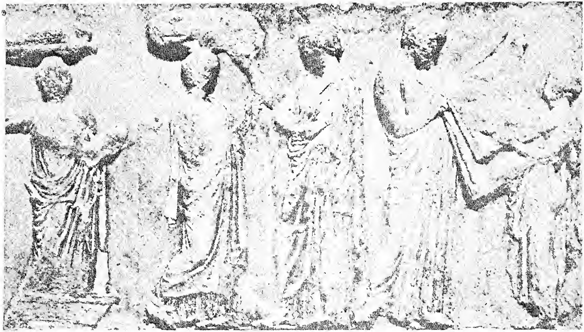
المتفرجون فى انتظار الموكب

احتشد السكان بكامل هيئاتهم من أثينا ومن الريف المحيط بها ليشهدوا ثوب الربة أثينا محمولا فى موكب مهيب من الكراميكوس الى الأكروبوليس . وهنا اربعة من الأهالى يمثلون مواطنيهم خير تمثيل كما صورهم فيدياس ، وهم منهمكون فى حديث شائق فى انتظار الموكب



مركبات الموسرين ذات الجياد الأربعة التى كانوا يتباهون بها

لم يكن غير أغنى أهالى أثينا يستطيعون اقتناء المركبات ذات الجياد الأربعة وما يلحق بهما من ال « البهلوان » الذى ترفع من شأن مستخدمه الثرى مهارته فى القفز من حصان الى حصان ، والوثب على ظهور الجياد العاربة وهى تجرى بمنتهى سرعتها فى أثناء السفر ، وما الى ذلك من أعمال الفروسية ، وكانت كل المركبات الموجودة ذات الجياد الأربعة تشترك فى الموكب الپاناثنوى بفرقهما المطهمة ، وسائقيها المزهوين بحللهم التى كانوا يلبسونها فى الأعياد



طى الثوب الجديد استعداداً لاضفائه على الربة آثينا

افريز البارثينون هو شريط متصل من النقش المحفور عرضه من ثلاث الى أربع اقدام وطوله ٥٢٤ قدما فوق البناء كله . أما موضوعه الرئيسى فهو الموكب الذى يقام بمناسبة العيد الباناثنوى ، الذى كان مظهره الأكبر هو تقديم ثوب جديد للربة أثينا . وقد كان هذا البيلوس (الثوب) وشاحا منسوجا يطوى مرة واحدة طولا ومرتين عرضا ثم يضفى على تمثال أثينا المصنوع من العاج والذهب . وتوضح هذه اللوحة على الجانب الشرقى للبارثينون كاهنا يربع الثوب بمساعدة صبى أخذ تحت أبطه بأحد أطرافه

٤٣٨ ق . م . . . وقد ظلت أثينا مدى خمسة ايام فى فورة من الهرج . . . اذ توشك ان تحتفل باعظم اعيادها . ألا وهو الباناثيناى Panathenaea

أثينـا فى لهوها العيـد

— الذى هـو عيـد أثينـا (مينرفا) — الربة الحاميـة للمدينة . . وقد اتحد الناس جميعـا لتقديس السـماء ، ولتمجيـد وطنهم وانفسهم . . . ولا جرم أن تكون الاستعدادات التى يقتضيها هذا الظرف واسعة النطاق . حيث لا يقام هذا العيد الخاص الا مرة واحدة فى كل اربع سنوات . على انه فى السنة التى يقع خلالها يكون دائمـا . والى حد كبـير . اهم أحـداث التقويم كله . وفضلا عن ذلك تحدث أمور بهذه المناسبة تزيده بهجة على بهجة .

والآن تكون عشرون سنة قد مضت منذ ذلك العام المجيد الذى مثلت فيه رواية اجاممنون لاول مرة . ذلك العـام الذى لا يزال يحتفظ برواثه فى اخـلاد الناس بذلك النصب القائم فى كيراميكوس . والذى يسجل أسـماء الأثينيين الذين قتلوا خلال هـذه الشهور الاثنى عشر فى حـومة الوغى بقبرس وفى مصر وفينيقية وهاليانز وايجينا وميجارا . وها هى ذى اثينا تجنى اليـوم ثمرة تضحيتهم . فقـد وضعت الحرب أوزارها لحظة . ثم كان الناس فى هذه الفسحة الوجيزة قادرين على أن يكرسوا جميع جهودهم لفنون السلام ولتجميل مدينتهم .

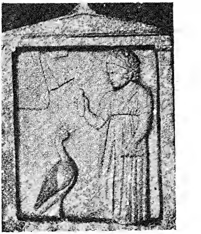
ولقد انشـأ كيمون الـكيراميكوس الخارجى ليكون منتجعا عاما . وجمـل الـكيراميكوس الداخلى بسقائف ذات تصاوير جصية وأروقة ذات عمد — وقد عدل مسرح ديونيزوس على يدى بيركليس . كما أقيم بالقرب منه بناء الأوديوم المعطى . الذى شـيد للأداء الموسيقى . وسمق الأكروبوليس فوق الجميع ليكون مناط الثروة الظاهرة ، ومركز الورع المبين . وروبق الملوكـة البهيج . وظلوا يبنون البانثيون طيلة السنوات التسع الاخيرة . وكان جيش من البنائين تحت امرة اكتينوس يكعب الأحجـار ويخطط اعمـدة المزار المستدقه . كما كانت طائفـة من النحـاتين تحت امرة فدياس تنحت اللوحات البارزة ومجموعات التماثيل للسقف Pediments والأفاريز . وقد صـنع فدياس نفسه . من العاج والذهب . صورة الربة التى قصد أن يكون البارثينون مأواها فى هذه الأرض ؛ وها هو ذا بيت البتول اليوم مستعد لتقبـل تمثال البتول . وها هى ذى أثينا كلها تخف لتشهد البتول وهى تحل فى بيتها الجديد .

وكانت المباراة تتبع المباراة . طوال الاسبوع والمهرجان يلى المهرجان . والعيد يتلو العيد . فاليـوم الأول للمباريات الموسيقية والأدبية فى الاوديوم . ثم للانشاد من هوميروس . وهذا نظام أنشأه بيزستراتوس منذ البداية ؛ وقد جمعوا اليه الآن . فى نوبة سـاخرة من نوبات القدر . الاحتفال بهذا العمل من أعمال البطولة الذى اشترك فيه هارموديوس وارستوجيتون فى ذبح هيبارخوس . أخى الطاغية هيبياس . . . ذلك الاحتفال الذى كان ينعقد فى ذكرى وفاة الطاغية . . . أما اليومان التاليان فكانا يرصدان للالعاب الرياضية من كل نوع . كما كان يجرى سباق التتابع بالمشاعل فى الليلة الثالثة . وهو مشهد من أحب المشاهد الى قلوب الجماهير . تتنافس فيه الفرق . احداها ضد الاخرى ؛



ماشية للقربان

قرابين من البقر والغنم — والأخيرة هدايا من المستعمرات — تبدو على رأس الموكب فى الجانب الشمالى من الافريز . وغاية ما انتهى الينا من العـلم أن الأثينيين لم يكونوا يقدمون الا البقر . وهى هنا يسوقها شاب



ملاهى أنوسبنس

للطفولة دائما هناؤها الخاص ، وقد كانت أعظم فتى هذه العذراء الصغيرة عروسها واوزتها الدمية ولما كان من عادتها أن تلعب بهما فقد رسما على رمسها

وهى تمر شعله ملتهبة من يد الى يد ، دون ان يسمح لها بالخروج عن الحد ، حيث ينتهى السباق لدن كهف بان الواقع خارج سور المدينة مباشرة . وكان المسابقون فى جميع هذه المباريات الرياضية يرتبون وفق أسنانهم ، الصبيان ثم الشباب ثم الرجال . وكان الفائزون يتسلمون جرارا مملوءة بزيت الزيتون ، تزينها رسوم من مناظر ألعاب القوى .

أما اليوم الرابع فكان يخصص لسباق العجلات واستعراضات الفروسية فى الهيبودروم ، قرب بيرايوس ، وكانت تقام مساء ذلك اليوم مباريات فى التجذيف بين الزوارق الحربية المستطيلة Triremes تلقاء الشاطىء . وفى النهاية ، فى اليوم الخامس ، كان يقع الحدث الاغريقى المثالى ... ألا وهو تلك المباراة الفذة فى الجمال ، وكانوا يقصرونها على ذلك الجنس الذى يعده الاغريق الجنس الأعلى ... أى الذكور ... فكانت كل من القبائل العشر التى كان القوم ينقسمون اليها تشترك بأربعة وعشرين رجلا ، وكانت الجائزة تمنح لتلك القبيلة التى يحكم لممثليها بأنهم أجمل الجميع مظهرا ، وأنسبهم سمنا من حيث الأحوال الجسمانية ، وأسماهم ذوقا من حيث هندامهم .

ولم يكن المقصود بهذه المباريات كلها ، مهما تكن مثيرة للشعور فى حد ذاتها ، الا أن تكون استهلالا فحسب للقربان المهرجانى العظيم الذى كان مقدرا أن يقام ثمة فى اليوم السادس من أيام هذا العيد ، حيث يكون الكيراميكوس مركزا للاستعدادات القائمة على قدم وساق منذ أن يتنفس الصبح ؛ فترى الماشية البيضاء ، والأغنام ذات الفراء الفضية التى أرسلتها المستعمرات أضاحى للربة وهم يسوقونها صفوفا . أما شباب أثينا الأكثر ثراء ، فكانوا يسوسون خيولهم الصغيرة القوية ، ويتدثرون بمعاطف الركوب القصيرة ، وخوذاتهم ذوات الرياش ، ودروع أرجلهم المعدنية اللامعة ... ثم ينتظرون الأوامر لينطلقوا وهم ركوب بظهور عارية ... وبالقرب منهم المركبات ذات العجلات الأربع التى لا يستطيع اقتناءها الا أغنى الأغنياء ، تقف فرقا مطهمة فخمة الى آخر حدود الفخامة ، وقد جعل سائقوها يختالون فى حللهم الزاهية ،



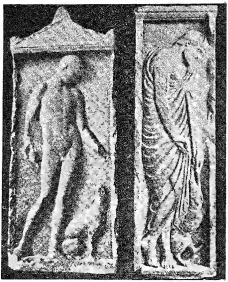
نصب تذكارى للحب الأموى

كان النساء الأثينيات يحيين حياة عزلة شديدة ، فلم يكن يتاح لهن أى نصيب من التعليم ، وكن يتزوجن وهن جد صغيرات ولم يكن أمهات جد صالحات ؛ الا أن كثيرا من كتابات الأضرحة وشواهد المقابر ــ كذلك الذى هنا ــ يشهد بما أثر عنهن من الحب الأموى

وأخذ الفائزون أماكنهم المخصصة لهم ، وعلى رؤوسهم تيجانهم المضفورة من اغصان الزيتون ، وعازفو الناى متاهبون لتحيتهم بنشيد من أنشاد النصر عند ما ينصرفون .

وكان يؤذن للأجانب أنفسهم فى المشاركة بنصيب ضئيل فى أفراح المدينة . وكانوا يحملون ، رمزا لحالهم الخاص ، كراسى صغيرة ، ومظلات للبنات الأثينيات اللائى لم يكن يتاح لهن القيام بنصيب ذى بال فى احتفال عام الا مرة واحدة فى السنة ، وفى هذه المناسبة . وقد أخذ عذارى مختارات ، ينسجن مدى شهور تحت أشراف الكهنة ، الثوب الذى يضفونه ذلك اليوم على الربة؛ وهن الآن متأهبات لمرافقته الى الهيكل . أما الثوب نفسه فيكون مربوطا على هيئة الشراع فى سفينة تتحرك على عجل فى مقدمة الموكب .

ثم ها هم منظمو الاحتفال آخر الأمر قد فرغوا من اجلاس كل رجل وامرأة فى المقعد المخصص له أو لها ، وها هى ذى الاشارة تعطى ، فيأخذ الموكب المهيب طريقه من الكراميكوس خلال رحبة السوق المزدحمة بالجماهير الهتافة . الى الفضاء الواقع أمام الأكروبوليس ... ثم يترجل الراكبون ويسلمون جيادهم لسواسهم أو للشرطة الراقيوبين الذين يبذلون جهدهم فى رد الزحام الى وراء ... وهنالك يصعدون فى صفوف متراصة فى الدرج المرمرى . حيث نكون فى انتظارهم هيئة القواد ، وعلى رأسها بيركليس ، ثم خزنة المال وكهنة الهيكل . القائمون أمام تمثال أثينا بروماخوس البرونزى . أما القرابين فتساق الى حيث يضحى بها ، فى حين يحمل الثوب الى المزار حيث تلمع أطراف التمثال الجديد العاجية فى الضوء الخافت . ليضفوه باحترام على كتفيها ، وينادى المنادى من أعلى الدرج ، أن قد تلطفت الربة فتقبلت قربانهم ، فينفض نظام الحشد الضخم من مواطنين وأجانب وأرقاء وغرباء ، وينصرفون الى حفلة شراب ختامية قبل أن يعودوا الى نصب العمل فى غد .



أصدق أصدقاء الانسان

آرجس ـ الذى خلد هوميروس ذكره ـ هو الرمز الأسمى لأمانة الكلاب . الا أن ولاءه لسيده . أوديسيوس، الذى طالت غيبته له نظيره فى كثير من البيوت اليونانية . انظر الى هذه النقوش الجنائزية من تسبيا وأورخومينوس حيث خلد الصبا والهرم مع الكلب رفيقهما الحبيب . .

وحسبنا هذا القدر للمسرحيات والأعياد السنوية ... ولنتناول الآن رياضة أثينية يومية ... ولنتخيل أمسية من أمسيات الربيع سنه ٤٢٤ ق . م . خارج أسوار المدينة

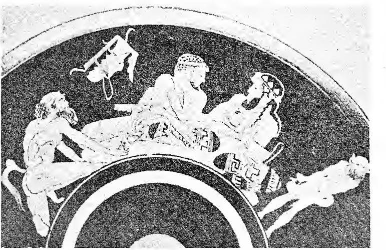
أثينا فى لهوها الجمنازيوم

فى غيضة البطل أكاديموس فها هى ذى الشمس تتألق ايما تألق . وجماعات صغيرة من الناس . منتعلة صنادل متينة . وبأيديهم عصيهم ... يمشون على هون الى ساحات الملاعب فوق ضفاف الكيفيسوس Cephisus وهو نهر صغير يغيض فى غوره الحجرى صيفا . الا أنه فى ذلك اليوم من أيام الربيع المبكرة يكون لا يزال عبابا زاخرا ، فقد كانت ثمة أمطار غزيرة فى الجبال التى ينبع منها . وهو لهذا يندفق فى عنفوان نحو البحر ، وفى وسعنا أن نقص مجراه داخل البلاد بذلك الشريط المخضل من شجر الزيتون الممتد بمحاذاة آكام كولونوس الى الشمال ، بيد أن ثمة ، بجانب مروج





لم يكن يمثل النساء فى حفلات العشاء الأثينية الا الممثلات المحترفات ، والبنات الراقصات ، والنافخات بالناى . فحسب . أولئك اللائى كن يتهمكن فى تسلية الضيوف . واحدى أولئك الراقصات مصورة على هذه الكأس (الى اليسار) وهى تدور متوثبة حول نفسها أمام رجل حدث ممسك بنايها ، وعلى الزهرية (اليمنى) رقص بارع لأحد (البهلوانات) ــ قد يكون سرقوسيا وكان كثيرا ما يقوم بألعابه فى مثل هذه المناسبات



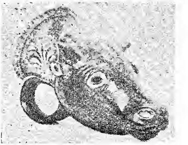
أخذ الأثينيون عن الشرق تلك السعادة المترفة ، عادة الاضطجاع عند الأكل ، اذ كان الطعام والشراب يقدمان على موائد واطئة توضع أمام الأرائك ؛ وقد ظهر ديونيزوس وهرقل على هذه الكأس ذات التصاوير الحمراء وهما يتناولان معا وليمة ظهر فيها الهان من آلهة الغابة يقومان بمهمة الخدم ؛ وقد سرق أحد هذين الندمانين الخشنين كعكة من المائدة ، ومن المحتمل أن يكون الفنان قد وجد موضوعه فى الدرامة الساتيرية التى سميت بذلك الاسم ، وهى ملهاة تتخذ من الكائنات المقدسة مادة لتضحيكها

الجانب المرح من الحياة الأثينية فى العصر الذهبى

الأكادنمية صدءا فى نضرتها الخصبة الخضراء ، كما توجد صفوف طوال من شجر الحور والدلب (Planes) ، ترويها جداول من المجرى الأصلى ، فتعطى انارة من خضرة أخف وظل أبرد .

أما الصقع الفسيح من الحدور المائل الى النهر ، فكان يزخر قبل ذلك بزمر من الرجال من جميع الأسنان : من الثمانى عشرة الى السبعين . جلس بعضهم يستجم ، وبعضهم منهمك فى مختلف الألعاب . وكلما تقدم وقت العصر ازداد عددهم ، اذ كان كل أثينى من الطبقة المنعمة الفارغة يعتقد أن من اكبر واجباته أن يأخذ نفسه بنوع ما من الرياضة العنيفة كل يوم . وكان من المستطاع رؤيتهم مارين أولا بين صفين من الأبنية الواطئة التى تواجه ساحات اللعب ، ثم يدخلون من احد الممرات الى البهو الكبير (الأپوديتريون Apodyterion) المؤدى مباشرة الى بهو العمد المحيط بالباحة الوسطى .

وهنا ، كان أول ما يعمله لاعب القوى هو أن يخلع ملابسه . اذ كانوا يمارسون جميع تمريناتهم الرياضية وهم عراة ، وكان مجرد لبس



قدح ضخم على هيئة رأس ثور

أطلقت كايريس لنفسها العنان فى عمل تصاوير كئوس الشراب المصنوعة فى كثير من الأحيان على هيئة رؤوس الحيوانات كما فى الريتون الجمل Rhyton وهو كأس على شكل رأس حيوان ذات مقبض واحد ويحوى جزؤه الأعلى نقوشا ليست بالقليلة من طراز التصاوير الحمراء

سار على الحقوين يعتبر رمزا للبربرية ... ذلك الأثر من آثار الحياء الزائف الذى سعد الأغارقة بتحرير أنفسهم منه . وبعد هذا يدهن اللاعب جسمه كله بالزيت ، ثم يدلك به



دمام السيدات فى أيام بيركليس

كانت حياة المرأة فى أثينا القديمة لا تهدف الى شىء تقريبا ، وكان دمامها (تواليت) شغلها الشاغل ، فضلا عن رعايتها الحقيقية لاطفالها وبيتها . والخادمات اللائى يصلحن شعر سيداتهن ويربطن صندلاتهن ويحضرن حليهن وعطورهن هن موضوع الزينة على كثير من صناديق حليهن . وكانت هذه الصناديق تسمى (پكسيدات Pyxidos) لأنها كانت تصنع فى معظم الأحوال من خشب الصناديق ، الا أنها كانت تصنع كذلك من الصلصال Terra-cotta ، وكانت أسطوانية عادة وذات غطاء ، وتعتمد على ثلاثة أرجل



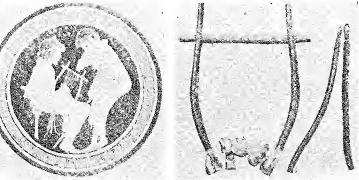
الباعة المتجولون فى أثينا القديمة

كان الباعة المتجولون يقومون بدورهم فى حياة اليونان الاجتماعية لا بالتجول من مكان الى آخر كما هى العادة . ولكن بالتردد على أسواق المدن الكبرى والالحاح على الابواب بابا فبابا . شأن الباعة المتجولين المرخصين اليوم

جلده فى عنايه . وكان كل أثينى يحمل قنينة من الزيت . كما يحمل كل منا مظله . وكانت ممارسة هذا التدليك المستمر لا تكسب أبدانهم هذا السفع الداكن الخصب الذهبى فحسب . وهو ما يعتبرونه جمال الرجولة فى أكمل صورها . بل كان وقاية لهم من قرس البرد كذلك : ونشاهد ذلك ما قاله لوسيان : « كنا اذا ذهبت طراوة شبابنا فى أيامهم الأولى . نعريهم عامدين لنعرضهم لحرارة الفصول المختلفة حتى لا تعود الحرارة تثقل عليهم . ولا يعود البرد يبرئ أبدانهم . ثم ندهنهم بالزيت لنلين عضلاتهم ولنكسبها المرونة . ومن أسخف السخف أن نلين الأديم . وهو هذه المادة الميتة . بالزيت . ليكون أطول احتمالا . ثم لا ينال الجسم الحى أيا من مزايا العملية نفسها ! » .

فاذا انتهى لاعبنا من ذلك بمسه بالزيت . انطلق بعد هذا الى الكونستريون Konisterion . وذر على نفسه التراب ذرا غزيرا . وهو ما كان يظن انه يسد مسام الجلد ويمنع افراز العرق منعا باتا . فيحتفظ الجسم بطراوته .

ثم ها هو ذا قد استعد آخر الأمر للتمرن . فاذا كان وحده فقد يقصد الى الكوريكيون Korykion ليصطرع مع الغرارة المثقلة المدلاة ثمة او بالكرات الخفيفة قبل أن ينطلق الى الخلاء لممارسة الجرى والقفز . . . بيد انه كان حريا أن يجد بطلا فيأخذ الاثنان حينئذ فى مباراة فى المصارعة أو الملاكمة — وكانت المصارعة من الالعاب المحبوبة فى أثينا . بوصفها علما وفنا . من ابتكار البطل القومى ثيديوس . وان تكن قواعدها من تشريع الربة أثينا نفسها .



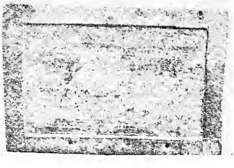
الآلات الموسيقية التى كان كل يونانى يعرف التوقيع عليها

كانت القيثارة والناى من الآلات التى يكاد يعم شيوعها بين الأثينيين . وكان الناى المزدوج فى الغالب يصنع من العاج . وكانت له براعة (مبسم) وأربعة أو خمسة ثقوب او مواقف (Stops) . أما القيثارة فكان لها سبعة أوتار مشدودة من النير الى لوحة الصوت . وكانوا يعزفون عليها جلوسا كما يبدو فى الصورة التى الى اليسار ، وكانت الأوتار (تنقر) من الخارج باليد اليسرى ثم تجذب بريشة مربوطة الى القيثارة وتمسك باليد اليمنى

ولم يكن النصر وحده كافيا ، بل كان على الفائز أن يفوز وفقا لما تقضى به التقاليد الطيبة ، والنواميس التى وضعها أئمة هذه الرياضة .

وربما أخذ الصديقان ، بعد اصطراعهما بقذفان القرص أو برميان الحربة ، أو ما الى ذلك من التمرينات التى يقصد بها الى تقوية عضلات الجسم ... تلك العضلات التى تهمل اهمالا شديدا فى الحياة الحديثة ... ولعلهما بعد ذلك يستصوبان الذهاب الى الحمام ، وهو ككل شىء فى الاكاديمية بناء بسيط جدا ، فهو عبارة عن غرفة مكشوفة ذات حوض كبير من الصخر ، على قاعدة هى كل مظهرها الأساسى . وهنالك يكشطان الزيت والتراب وسائر القذر من أعضائهما بمكشط خاص . ثم يتناوبان غسل بعضهما البعض من دلو ، حتى اذا انتهيا من حمامهما (التواليت) على هذا النحو ارتديا ملابسهما ، وانطلقا لشأنهما ثانية ، حيث يتخرطان بين المتفرجين .

ولن يعدما بعض المباهج التى تسترعى انتباههما . ففى مكان ما تستأجر زمرة صغيرة أحد الزامرين بالناى ، وعلى نغمات موسيقاه يتوانبون واحدا بعد الآخر ، وفى أيديهم صنوج خرساء ؛ وذلك فى المكان الخلفى الثانى من الملعب . وفى مكان آخر كانت جماعة من العسكر المتحمسين تتدرب فى عدة حربية كاملة من السيوف والدروع والرماح والبيض .



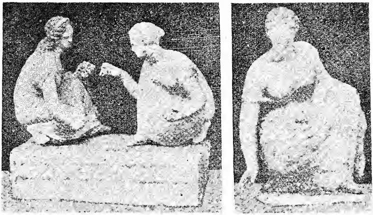
أمشق لصغار التلاميذ

ألواح تشبه ألواح الاردواز الحديثة بسطوح شمعية ، مما كان يستعمله أطفال المدارس اليونانية ، أما الاطارات فكانت تثقب حتى يمكن ربط لوحين بعضهما الى بعض بحيث تكون الأوجه الى الداخل ليكون منهما كتاب . وقد كتب النسخ فى هذا المثال بيد المعلم فى أعلى ، وقد قلدهما التلميذ مرتين ، كلتاهما خطأ

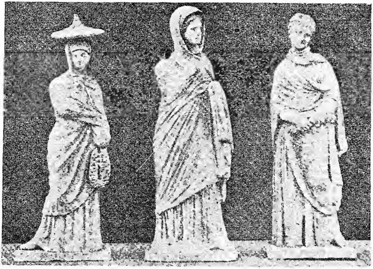


مدرسة أثينية من القرن الخامس ق . م

كانت الموسيقا جزءا هاما من المنهاج الدراسى ، وقد صور على هذه الكأس ــ وهى من مقتنيات متحف برلين ــ معلم ، اطرح الى جنب ريشة العزف يشرح لتلميذ كيفية (عفق) أوتار القيثارة ذات سبعة الأوتار باليد اليسرى ، والى اليمين تلميذ آخر يلقى قصيدة كتب نصها على طومار بيد المعلم ، وقد علقت على الحائط قيثارتان ، وعليه ناى ، وسلة لحفظ المخطوطات وكوبان يستعملها التلاميذ للشرب



التماثيل الجالسة أقل شيوعا من التماثيل الواقفة فى صناعة الصلصال اليونانية ، بيد أنهما تسموان فى سحرهما وايحائهما وذلك بتحررهما من أوضاع النحت القديمة الاصطلاحية ، وهذه تماثيل فتيات يلعبن (لعبة الكعاب) وهى توضح الطريقة المرسلة للبس المشمال (الروب) داخل المنازل كما توضح اسلوب (تسريحة الشعر) وتوضح ـ بطريقة عرضية ـ الحياة الفارغة عند النسوة والفتيات اليونانيات



برهنت تناجرا ـ فى بووطيه ـ على أنها أخصب المصادر لتماثيل الصلصال التى تمثل الحياة الريفية الخشنة (البلدى !) التى كان يهواها اليونانيون ؛ والكوريا Koria أو تماثيل العذارى ، من صناعة القرنين الرابع والثالث وهى تماثيل لا تقدر بثمن لما تصوره من حياة النساء الأغريقيات اليومية ونحن نشهد هنا طريقة التفاع الرداء (الروب) واللفاع (الملاءة) مع اعفاء الأيدى (الى اليمين) وارخاء الملاءة على لرأس (فى الوسط) ثم شدها حول الجسم مع ستر الذراعين وتظهر الى اليسار قبعة الشمس التى تلبس خارج المنزل

عادات الاغريقيات وأزياؤهن موضحة بتماثيل الصلصال

وها هم أولاء الآن منصتون الى اخصائى غاو بشرح لهم سلاحا جديدا اخترعه ، رهو عبارة عن خليط من الحربة والأحدب (السيف القصير المقوس) .

ثم ها هى ذى معركة ناشبه بين الديكة فى ركن هادىء ، كما أخذ فريقان من الشباب الذين لم ينسوا عهد الصبا بعد فى مباراة حاميه الكرة ، فوق الأرض المسنويه بجوار النهر ، بينما انهمك فريقان ممن يكبرونهم فى مباراة فى الدامة والشطرنج ، وذلك فى بهو الأعمدة الوارف الظلال . وبهو الأعمدة هو أيضا مكان المباحثات المعارف ، حيث يجمع عدد غير قليل من الناس ، شيبا وشبانا حول رجل بدين افطس ، دب الصلع الى رأسه قبل الأوان ، ثم يأخذون فى مجادله يتضح انه لا هو ولا مستمعوه يجوز أن يقال انهم يعلمون من موضوعها شيئا .

ويغشى صاحبانا كلا من هذه الفئات بدورها ينتجعان الحكمة من طريق المجادله حتى يحين برد المساء فيعودا أدراجهما الى اثينا . وهما يتحدثان — كما هو دأب الشيبة — عن كل ما فى السموات وما فى الأرض .

ثم يحدث أن يجىء فى العام التالى واحد من هؤلاء — وليكن أرسطوفان ، فيشيد بذكرى هذه الأيام فى ملهاته السحاب ، حيث يقول :

« وحينئذ تمضى فى طريق موطأ الى الأكاديميه ، وبيدك سبحتك من القصب ... فتكون بينك وبين أحد أصدقائك أو قرنائك الأفذاذ مناظرة خاطفة فى ظلال الزيتون ... حيث البرية كلها تعبق بأرج الأفنان المزهرة فى دعة شاملة ، وأزهار الليمون تطرح أوراقها ، فى حين يوسوس الدلب بالحب الى الدردار فى الحرج ، فى فصل الربيع الجميل » .

وكانت جميع الملاهى تجرى فى جو أثينا القديمة المعتدل بالنهار وفى الخلاء . ولنختم نظراتنا عن الحياة الأثينية بلمحة



أوعية للرضع : ٥٠٠ ق . م

عند ما كان يحين فطام الرضع كانوا يغذون بمرق محلى بالشهد ، الى أن يستطيعوا هضم الطعام الأكثر صلابه ، وكانت أوعيتهم — أو القوارب ذوات الحلمه — تشبه أكواب الغذاء التى تستعمل لاطعام المرضى اليوم

عن أمسية من أمسيات الخريف سنة ١٤٦ ق . م . فى منزل كالياس . فى البيرايوس .. وكالياس هو واحد من أغنى رجال اثينا ... اذ تمتد دائره أعماله التجاريه شرقى البحر المتوسط وغربيه . من البحر الأسود الى خليج ليون ؛ وبالرغم من أنه صدم صدمه قاسيه من جراء الحرب مع أسبرطه ، فقد كان يأمل أن تجتمع له ثروة جديدة من الحمله الى صقليه ، تلك الحمله التى دبر امرها هو ورصفاؤه للعام المقبل ... واستعدادا لهذا الحادث بنى لنفسه آخرا منزلا جديدا فى حى من افخم أحياء هيبوداموس .. وقد أقام هناك الليله حفله عشاء لعدد من المتعاهدين معه .

اثينا فى لهوها الولائم

وها هو ذا البيت يعبق بروائح غير عاديه ... أما زوج كالياس وأطفاله فقد أووا الى فراشهم ، واحتل المطبخ طاه مستأجر هو وطائفة من أعوانه ... وها هى ذى قدر كبيره من ثعابين السمك تغلى على منصب (١) ، وعلى منصب آخر قدر من الدجاج وأرانب الصيد المتبله تتبيلا جيدا ... أما رئيس الطهاة فيعد صفحه من أقراص الشهد ، بينما يعمل مساعده فى تهيئه بعض الخضر بالزيت والخل . وفى الوقت نفسه ينهمك رقيق الدار فى اخراج كؤوس الشراب واعداد كل ما يلزم للأكل فى غرفة الطعام .



نم ، يا صغيرى ، نم !

يقبض هذا التمثال الصلصالى ، لهذه المرضع العجوز التى تروح وتجىء لتلاطف طفلها ، بقدر من الفكاهة عظيم

(١) المنصب حامل القدور .

أما الغرفة نفسها فبسيطة جدا، حتى انها كانت تبدو كأنها خالية ، الا ان أثاثا كهذا الأثاث الذى كانت تحتويه ؛ كان فى ذاته متناسبا تناسبا شائقا. وبما أن عدد الضيوف المنتظر حضورهم هو ثمانية فقد هيئت أربع ارائك مصنوعة من الخشب الدقيق المكفت بالملبسات الملونة . والمركبات المفضضة .... وغطيت الأرائك بالحشايا . وأعدت بالقرب منها أربع موائد صغيرة ذات أرجل عاجية . أوطأ قليلا من الارائك . ووضعت فوق صوان بجانب الحجرة ثمانى من كؤوس الشراب . عليها خاتم دوريس . وسمق من فوقها الابريق الكبير الذى سوف تمزج الخمر فيه . وهو ابريق أسود ذو يدين . عليه تصاوير بالأحمر لآلهة الغاب وهى ترقص فى دائرة فوق الاناء .

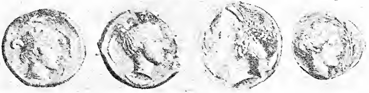
ويكون رب الدار قد وصل الآن من الملعب (الجمنازيوم) مع صديقه الحدث لسيكلير . وشرع الأضياف يتوافدون سراعا . فليسانياس . والد لسيكلير ، وهو رجل غنى مثل كالياس نفسه ، يصطحب خطيبين مصقعين يعرفان كيف يخلبان أسماع الجمعية العمومية أما هيونيكوس ، شريك كالياس فقد صمم على احضار سقراط الماء الذى نعرفه فى الاكاديمية. والذى جعلت شهرته من قبل كمحدث لا غنى عنه فى مثل هذه الاجتماعات . ثم ها هو



ذا آخر الامر ضيف الشرف نقياس ، رئيس حزب المحافظين الملكى بأثينا . والزعيم المنتظر من الآن لقيادة مشروع العام المقبل الكبير .

وعندما ينتظم الكل فى اماكنهم على الأرائك . يقبل الخدم بالماء المعطر ليغسلوا ايديهم . فليس ثمة سكاكين ولا شوك . لان الأكلة الاثينية كانت عادة مجرد جفان من الحبوب . بل حتى من الخبز الفقار والجبن . اما هذه فمناسبة خاصة . ومع ذلك فلا يزال القوم يتناولون الطعام بالاصابع وتقوم قطع الخبز اللين مقام الفوط . وبعد الفراغ من المأكولات الجامدة تغسل الايدى ثانية ثم تقدم الخمر لاول مرة . ويهراق قربان منها للآلهة . وحينئذ تبدل الموائد ويوضع عليها النقل . ثم يبدأ الشراب .

اما مجلس الشراب (السمبوزيوم) فليس بوجه من الوجوه مجرد هذه الحفلة الخمرية التى يشير اليها اسمه. حقا ان خدم كالياس قد وقفوا متأهبين ليملأوا كؤوس أضيافه بمزاج من الخمر والماء كما هو المعتاد — بيد أن الشراب فى نفسه ليس الا جزءا تافها فى برنامج الحفل . فقد حضرت فتاتان من الزامرات بالناى لتغنى لسيكلير على موسيقاهما ، مبتدئا بالأغنية الوطنية « هارموديوس » . وفى ختامها ، ينهض أحد الخطباء فى التشبيب بجمال الغلام واعتدال قده ، بينما يبوح نقياس للملا



نماذج لقص الشعر مسجلة فى روائع فنية

طرز لتمشيط الشعر وقصه حسب العادة فى سرقوسة ، مصورة فى هذه القطع من النقود ، (من اليسار الى اليمين : الشعر معقوص الى أعلى تحت شبكة الشعر (Bandeau) ولكنه مجعد الى تحت فوق الجبهة (٤٧٠ — ٤٦٠ ق . م) ؛ حصل مصففة فوق التاج (٤٦٠ — ٤٥٠) ؛ وشعر محفوظ تحت شبكة فوق الجبين ومكوم فى شبكة كبيرة الى خلف (٤١٣ — ٣٩٩ ق.م) ويوضح رأس بربنا (بروتيوم) — الى اليمين — (٤٢٥ — ٤٠٠ ق.م) شعر القذال (القفا) معقوصا على شريط من أشرطة الرأس . ويتسم الشعر ببساطة التعقيص (التسريح) فى هذا الرأس العلوى من القرن الرابع)

بدوره بأنباء مثيرة تلقاها عن ثروات صقلية .

ثم يدعو هيبونيكوس سقراط لينازله فى لعبة الكوتابوس ، حتى اذا خسر كان عليه أن يؤدى غرامة ، هى عبارة عن القاء نكتة شعرية مرتجلة مكشوفة ، من ذوات الابيات الخمسة . وما تكاد تهدأ عاصفة الضحك لدى محاولته حتى يصفق كالياس ، فيظهر بعض المرفهين المأجورين . وهؤلاء هم ممثل سرقوسى وفتاة بهلوانة ، وغلام موسيقى . اما الغلام فيعزف على القيثار . واما الفتـاة فترقص ، وتمرق خلال طوق ذى خناجر . وفى الختام يقلد الثلاثة . تقليدا هزليا ، مارس وأفروديت وقد وقعا فى الشرك الذى نصبه لهما الزوج الغيور .

وبينما المثلون يختمون تمثيلهم . اذا هتاف فى الطريق ، واذا دق عنيف على الباب الامامى . واذا صوت يصيح : « انى انا الكبيادس .. وانى ثمل قليلا .. فهل أدخل أو انصرف الى حال سبيلى ؟ » فيثب كالياس من أريكته . وبعد قليل ، ومن خلال البـاب غير الموصد . يبدو السياسى المبتدىء الحدث بوجهه المورد ، وعليه أكاليل من الزهر .. حتى ليبدو ان ما وصف به نفسه لم يكن هراء . بيد ان مرآى مشيرة الأمين سقراط يقلل من سورته نوعا ما .. وعندما يخلى له مكان فوق الارائك يجلس فى هدوء تام ، ثم يصغى الى ذلك البحث الذى يستعرضه بعض اخوانه وهو : « هل الثروة ضرورية للسعادة ؟ » وككل مباحث سقراط يستمر هذا زمنا طويلا . اما صاحبنا التاى فيستسلمان للنعاس ، اذ يريان أنه لم يعد اليهما من حاجة . وسرعان ما يحتذى الكبيادس حذوهما . وفى النهاية يقنع سقراط مستمعيه بأن الفيلسوف وحده هو الثرى حقا وهو السعيد حقا ، من حيث انه وحده هو العامر النفس المكتفى بذاته . وعلى هذا النحو ينفض السمبوزيوم ، أو مجلس الشراب .

وقد يلاحظ أنه ندر ما ورد شيء عن المرأة . أو الحياة المنزلية فى خبر جاء فيه وصف لاحوال أثينا الاجتماعية . أما السبب فى هذا فهو ان الأثينى قلما كان يحفل بالمرأة ، وقلما كان يخالطها . وأن الحياة المنزلية كما نعرفها قلما كانت قائمة عندهم . أما بالنسبة الى هؤلاء الاشخاص القلائل الذين كانوا يحبون الجماعة النسائية ، فقد كان لديهم « الحظايا » أولئك النسـوة الأجنبيات السافرات اللائى قدمن الى المدينة متكلات على جاذبيتهن الشخصية ، أو دعين اليها بواسطة احـد المعجبين المواطنين ممن كن يلذن بهم لحمايتهن ، الا ان الحظية من النساء كانت منعمة فادحة التكاليف . وقد كان عدد الحظايا فى اثينا فى القرن الخـامس قليلا . كمـا كان مقامهن الاجتماعى ضئيل الشأن . اما العصر الذى شهد انتعاش احوال الحظايا ذوات الشأن من امثال تاييس وجليكيرا وفرين ومن اليهن فهو العصر الهيلانى .. وذلك أن النساء فى ذلك العهد كن قد بدأن يلعبن دورا مساويا لدور الرجال فى مرافق الحياة . وقد جعلت الثروات المتدفقة من آسيا فى جيوب اليونانيين كل لون من الوان الاسراف محتملا ، وكان معظم النسـاء فى أثينا فى القرن الخامس اما زوجات واما اماء . ولم يكن الرجل يعتبر أيا من الصنفين غاية من الغايات التى توائم هواه .

ولم يكن فرق ما بين الرجل اليونانى القديم والرجل الانجليزى الحـديث بوجـه ما لافتا للانظار كمـا كان الحال من حيث تصوراتهما المتباينـة لالتزامات الانسان العامة والتزاماته الخاصة . فالانجليزى العادى هو والد شفيق وزوج ودود نوعا وصـاحب أعمال منصف الى حد ما كذلك . بيد أنه قلما يمكن ان يقال انه مدنى طيب ، فهو يدفع ضرائبه غير راض ، بل هو يدفعهـا فى استنزار ، وهو ينقم أيما نقمة على الايام القلائل التى ينفقها فى محاكم التحليف ، والتى تقتضيها منه الوطن فى بعض الاحيان . اما من حيث تثقيفه نفسه فى زمن السلم حتى يستطيع أداء ما ينبغى على المواطن اداؤه فى زمن الحـرب فهو يستهجن مجرد التفكير فى ذلك استهجانا .

أما من حيث محبتـه لوطنـه وعـدم مبالاته بالحكومة ، فانه فى كلتا الحالتين يناقض الرجل اليونانى مناقضة تامة ، فلقد كان اليـونانى وطنيا غيورا بحيث يكون كل وقته وماله وحياته رهن اشارة بلاده ، وقد كان يزهى بالمحافظـة على نفسه ليكون أبدا لائقا للجندية العامـلة حتى يبلغ سن الستين . الا انه كان أبا عديم المبالاة ، وكان يغضى بمحض ارادته عن مساوىء الرق . ولم تكن تعنيـه بحـال علاقاته الزوجية .

ان الوظائف الاجتماعيـة فى معظم الممـالك الحديثة ينظمها النساء من أجل النساء . ويتوقف نجـاح الرجل فى المجتمع الى درجة كبيـرة على شخصية زوجته ، بقدر ما يتوقف على شخصيته

هو ، والزوجة السوم هي رفيقة زوجها في مضمار الجولف (كرة المضرب) وفي حلقة التنس ، ثم هي تشاركه في لعبة البردج ، كما تشاركه في الجد من مهام الحياة ، وكانت كل أنواع الرياضة في أثينا ينظمها الرجال من أجل الرجال ، ولم يكن يسمح للنساء بالمشاركة فيها بأكثر مما كان يسمح لهن بأدارة الممتلكات فالزوج يبرح المنزل ، أما الزوجة فتقر فيه ، والزوج يخالط من يشاء من رفاقه الذكور ، أما الزوجة فنادر ما كانت ترى رجلا غير أقاربها ، فكانت تنفق حياتها بين جدران أربعة ، سجينة في حريم الدار .

بل لم تكن تستمتع بشيء من تلك المناعم التي كان من المفروض أن تلطف لماما من ضجر حياة الحريم ، وقد كان المنزل الذي تنفق فيه أيامها يفتقر تقريبا الى كل ألوان الراحة التي نعدها نحن من الأمور الأساسية ، وكان يتألف في العادة من طابق واحد ولم تكن له نوافذ في كثير من الأحيان ، وكانت واجهته المطلة على الشارع عبارة عن جدار غليظ من اللبن المجفف في الشمس ، وكان بالجدار باب واحد يظل مغلقا بعناية ، ويدخل من الزوار الذين ندر ما كانوا يفدون اليه الى باحة مكشوفة ، يحيط بها طنف ، وتفتح عليها جميع غرف المنزل ، وتستمد منها الضوء والهواء .

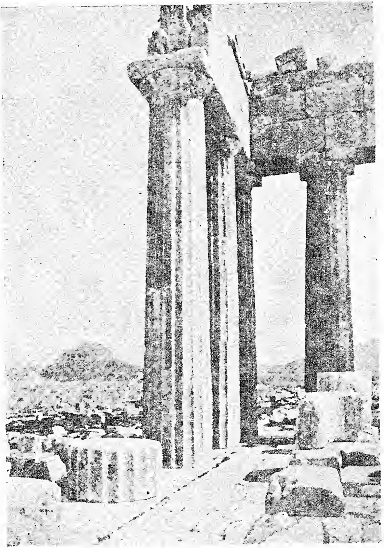
ولم تكن ثمة أي تراكيب للماء ولا مواسير من الرصاص أو من أي نوع كان . ولم تكن ثمة مجار ولا أدوات صحية ، كما لم تكن ثمة مدخنة لموقد المطبخ ، ومع أنه كان مفروضا أن يجد الدخان منفذا في السقف ، فقد كان مفضلا بوجه عام أن يظل بالداخل ، وكان الجهاز الوحيد الذي يخفف من برد الشتاء يزود بمدافيء نحاسية من ذوات الأرجل السلالة ، مملوءة بفحم نباتي متأجج ، يمكن حملها الى حيث تكون الحاجة اليها أشد . وكان لهب مصباح زيت الزيتون الكابي هو الذي يضيء في الليل .

وليس مما يثير الدهش أن مسكنا من هذا القبيل لم يكن يستعمله صاحبه الا مأوى لنومه خاصة ، وكانت زوجته تبقى داخل الدار في صحبة من بها ، أما أطفالها ومربيتهم فيلعبون في فناء المنزل ، وأما الاماء الخمس أو الست اللائي كن يؤلفن هيئة العمل في منازل الطبقة الوسطى فكن يكببن على عملهن اليومي من غزل ونسج وجلب ماء وطحن قمح وشراء زاد وتهيئة طعام . وكان من المعتاد أن يوجد الزوج في كل مكان الا تحت سقف بيته ، فقد يوجد في شأن له بالسوق ، وقد يكون في زيارة بعض المعامل التي يساهم في أرباحها ، وقد يكون في المحكمة أو الجمعية الوطنية ، وقد يكون متجولا أو متسكعا في الشوارع ، لكنه ندر أن كان يوجد في داره .

ولا بد من الاعتراف بأن الزوجات الأثينيات كن يفتقرن الى السحر الذي هو في العادة مزية جنسهن الطبيعية ـ وربما كان من أسباب ذلك تزويجهن في سن مبكرة جدا ، متوسطها حوالى الخامسة عشرة ، وكانت نتيجة هذه الزيجات المبكرة أن الزوجة تكون قد بلغت سن الرشد ، وتكون بذلك رفيقا ذا بصيرة لزوجها ، أما جمالها فيكون قد ذهب في الغالب وتكون هي نفسها قد رثت وأصبحت عجوزا قبل الأوان .

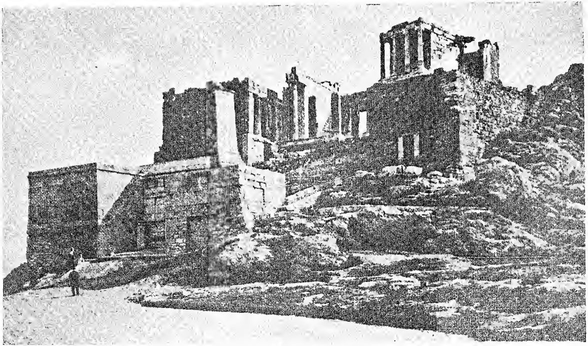
ولم يكن تعليم البنات معدودا من الأمور الضرورية ، فكن خلال طفولتهن يبقين في عزلة كأمهاتهن ، وكانت كل قيمتهن هي من حيث صلاحيتهن للحمل بالأطفال الشرعيين ، وكانت الاحتياطات البالغة المعروفة بين علماء تحسين النوع البشرى تتحرى على ما يظهر قبل الزواج بيد أنهن ، حتى وهن أمهات كن لا يقمن بواجباتهن على الوجه الأكمل ، وذلك لضيق حياتهن وشظف عيشهن ، وكانت بنيتهن من مرتبة دنيا جدا . وكان من الميسور وجود المراضع الأجيرات في معظم العائلات ، وكما تستقدم الفتيات البريطونيات الى باريس ، فكذلك كانت ربات المنازل الأثينيات اللائي في مقدورهن دفع تلك الأجور ، يستأجرن المراضع اللقدامونيات ، ليحللن محل الأمهات ، وكان بونيوس يجد في أسبرطة فحسب ، حيث البنات يعشن في الخلاء ويتصارعن ويتسابقن مع الشباب ، أنموذجه لربة النصر ، بقدمها الطائرة ، وخصرها النحيل . وأعضائها الممشوقة الملفوفة (انظر ص ٥١٨) .

وكان العثور على مثل هذا الطراز في أثينا من الصعوبة بمكان عظيم ، وقد يساورنا قليل من الشك في أن انحطاط المرأة الأثينية الجسماني والأدبي ، وهو النتيجة المباشرة لحياتهن المكبوتة كان أحد الأسباب الرئيسية لفساد الحكومة الأثينية المتواصل كله .



أعمــدة دورية فخمة من أعمــدة البارثينون ضاربة فى سماء أتيكا

يصور لنا هذا المنظر خير تصوير ذلك التواؤم البارع بين البارثينون والمناظر الطبيعية الرائعة التى حوله ، وكيف كان يسيطر على هذه المناظر ، وهو يوحى ببراءة اليونانيين من تهمة عدم المبالاة بمناظر الطبيعة للدرجة التى اتهموا بها أحيانا. والمنظر يقع تجاه ليكابتوس من الزاوية الشمالية الشرقية



حيث كان الحجاج يصعدون الى كعبة الشـــعب الأثينى الدينية الرائعة

المدخل الفخم الى اكروبوليس اثينا (عدد من السقائف والأروقة من بناء منسكليز Mnesicles ويطلق عليها اسم البروبيلاى Propylaeas) وهو عمل مبـين من اعمـال العمـارة الملائمة لما حولها . فلم يكن من الممكن اتباع خطة متناسقة لما كان فى ذلك من الاضرار ببعض الأماكن المقدسـة . وقد كان من الالهامات الموفقة أن يتوج أحد أبراج الحصون القديمة (الى اليمين) ـ وهى أضخم من أن تزال ـ بمزار الربة نيقه آبتيروس الصغير الأيونيوى الرائع ـ واسمه (النصر يكتب له الخلود)

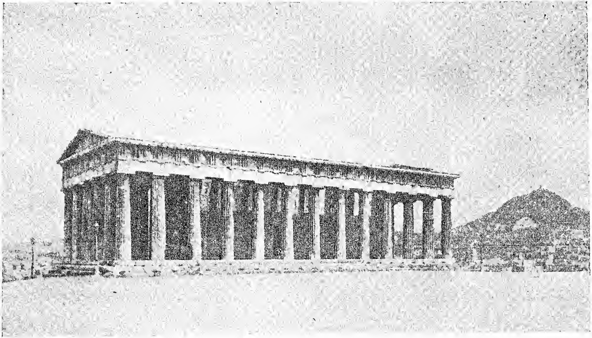


يمتد طريق من البروبيلاى حول البارثينون الى هذه الواجهة (الشرقية) . وهو المدخل الرئيسى الذى تنسكب منه الشمس فى البكور على تمثال اثينا المصنوع من العاج والذهب . وقد ظل البناء سليما الى سنة ١٦٨٧ . حينما أسقطت رصاصة بندقية البارود التركى الذى كان مخزونا فيـه .



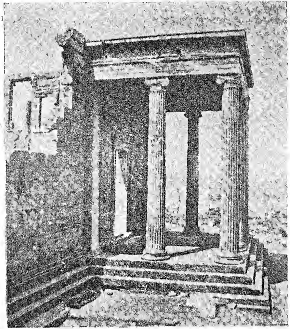
هذا هو منظر البارثينون الذى كان يسترعى نظر الاثينى القديم كلما مر فى البروبيلاى المرمرى الضخم . أما الطلل الخلفى فيحجبه الجدار الغربى من بناء الهيكل . ذلك الجدار الـذى لا يزال قائما ، ونستطيع أن نتخيل التماثيل التى كانت منحوتة فى الصخر والتى لا يزال لدينا الكثير منها .

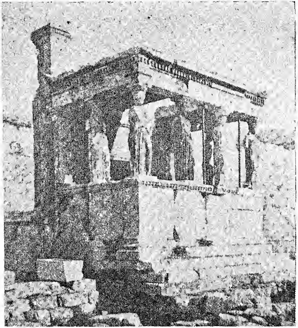
ماذا أبقت الأيام والحروب من البارثينون



هيكل من أحسن الهياكل الباقية فى هيلاس كلها

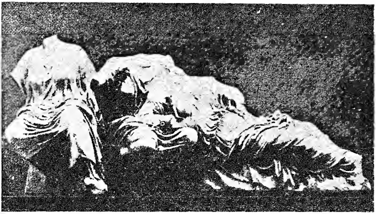
الثيزيوم الذى سمى بهذا الاسم لأن بعضا من المسافات الواقعة بين فرجه المثلثة الفتحات تصور مغامرات ثيذيوس وأغلب الظن أن هذا الهيكل الدورى الفخم ، المعاصر للبارثينون قد أقيم لهيفاستوس ، وكان ، هو والبارثينون ، يستعملان كنيسا فى العصور الوسطى ، وهذه هى المصادفة التى يدين لها ببقائه ، وليس ثمة دليل على أنه قد حول الى مسجد كذلك كما وقع للبنية المجاورة له ، وكما حولت الأرختيوم (Erechtheum) المقابلة له الى حريم تركى



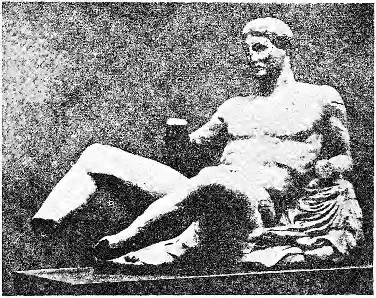


عذارى مصابرات وأعمدة أيونيوية تحمل فى رشاقة مداخل الأرختيوم

يقوم شمالى البارثينون هيكل من أعجب الهياكل الأيونوية التى ربما كانت تدين بشكلها الفذ للضرورة التى اقتضت ضم مزارات أكثر قدما ، وذات قداسة أزلية ، ثم تجنب مزارات أخرى ، وقد سمى الأرختيوم لأن جزءا منه كان على وجه التحقيق حرما لأرختيوس ، الا أن سقيفة الكارياتيديز (الى اليسار) كانت ـ على ما يظهر ـ تؤدى الى مقبرة ككروپس ، وهو ملك آخر من ملوك الاثينيين الأسطوريين ، بينما كان جميع البناء مكرسا باسم أثينا پولياس ، أما السقيفة الشمالية فموجودة الى اليمين



الصفحة الشرقية تمثل ميلاد أثينا من رأس زيوس . الا أنه لا توجد تماثيل في الوسط . وهذه المجموعة البديعة . المأخوذة من الزاوية اليمنى ، هي ما تسمى عموما ربات القضاء الثلاث ، ومهما تكن فيبدو أنها كانت انما تستمع الى الانباء السارة ، لاحظ أن الفنان أخذ يبرز غايته كلما اتجه نحو اليسار .

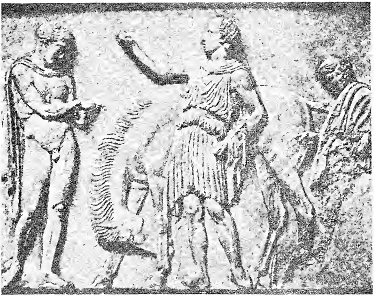


تدور مناقشات كثيرة حول نقوش صفة البارثنون . فاعادة تكوينها ومحتوى القطع الباقية غير جليه . على التحقيق ، وهذه القطع مأخوذة من الواجهة الشرقية . والتمثال الجليل فى الصورة السفلى يسمى أحيانا ثيديوس ، كما يتخذ أحيانا رمزا للطبيعة

أفخم الكسر الباقية من صفة البارثينون



كان الافريز يحيط بالجزء العلوى من جدران الهيكل الاصلى . داخل الأروقة ذات العمد Colonnade وفى أقصى الجزء العلوى مما دون السقف — مكتنفا راويه من زوايا الرؤية نابية الشكل . وقد تغلب النحات على هذه الصعوبة بزيادة تعميق النقش البارز من أسفل الى اعلى . مما تظهره هذه المجموعة من الفرسان المتوثبين بصورة تثير الاعجاب



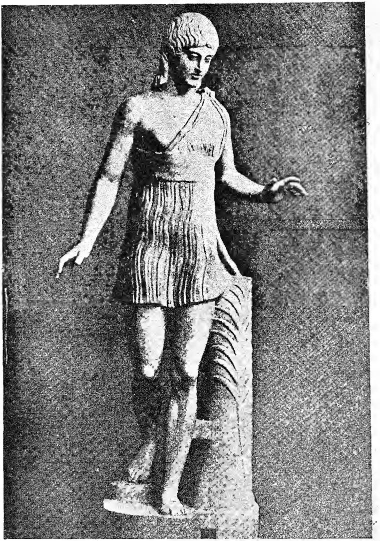
الموكب الباناتنوى الكبير . كما خلد فى افريز البارثينون ، قد وصف فى الصفحات ٦٠٣ ، ٦٠٤ ونحن يعنينا هنا أكثر جودة التصور والاخراج الفنى . كما يبدوان مثلا فى التوازن المحكم لهذا المنظر الذى يصور هؤلاء الرجال وهم يتهيئون للركوب .

صنعة لا يعلى عليها تجلت بسخاء فى الافريز البارثنوى



احدى روائع فنان غير معروف صنعها من البرونز

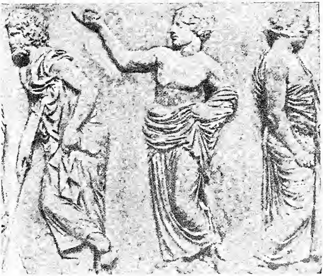
من أندر التماثيل البرونزية اليونانية الأصيلة القليلة تمثال السائس الذى عثر عليه فى دلفى ، فهذه الوقفة الرائعة ، وثنايا الثوب التى تبدو حادة وان لم تشذ عن الطبيعة فى شىء ، ثم هذه الملامح الهادئة التى انصرفت الى سوس الجياد فى غير انفعال ... كل هذا يمثل الفن فى القــرن الخامس خير تمثيل



مثال للفتيات الاغريقيات اللائى كن فخار أسبرطة

نالت صناعة التماثيل خلال القرن الخامس حرية أوسع فى الانطلاق من القيود الا أنها فقدت قليلا من دقتها ، وكانت العناية لا تزال تركز فى الجسم أكثر مما تركز فى الوجه ، وهذه الفتاة المتبارية فى احدى الالعاب ، التى هى نسخة من أصل برونزى ، هى نمـوذج فخم للأنوثة الصحيحة اليافعة





صورة جليلة تمثل الشيوخ وأصحاب السلطان

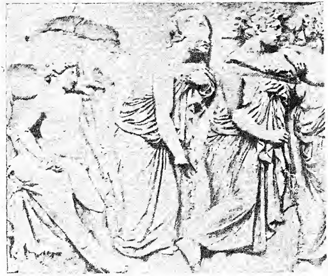
لا يملك الانسان الا أن يشعر بأن نحات الافريز — أو نحاتيه — كانوا يرون كل التروية ، وبكل ما فيهم من شغف ، في نحت شباب الفرسان الأثينيين ، الذين كانوا زهرة المدينة . بيد أنه كان يظن أن جل اهتمامهم انما كان موجها الى الجانب الشرقي حيث كان الپپلوس — الثوب — يهدى الى الربة أثينا في حضرة عيئة من الآلهة . ومن المؤكد أن قدرا من الصنعة في أبرع صورها قد استنفد في تصوير هذا الحادث . ونرى هنا جماعة من ذوى الأمر أو من أعيان القوم منهمكين في حوار حاد بينما هم ينتظرون مقابلة رئيس الموكب ؛ فالى اليسار ، وبنفس مقياس الرسم ، يوجد الهان من الآلهه التى تضفى الروحانية على المنظر ثمة أفروديت وولدها ايروس (كيوپيد) ، ثم خليط من البشر ومن سكان السماء المتحابين الاوداء ، كما جرى على ذلك المثل الأعلى للعبقرية اليونانية ، والعبقرية اليونانية فحسب ! وقد صور ايروس تصويرا ساحرا وهو يحمل مظلة .

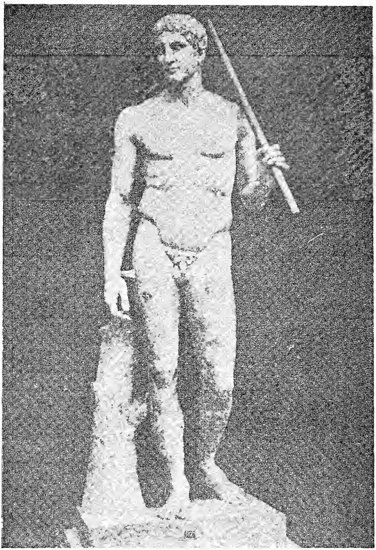
شباب أثينا فى صور رائعة

كانت المهارة التى نسج بها النحات تهاويل عدد من السطوح المنحنية فى امتداد بوصة أو بوصتين مزية مدهشة من مزايا النقش اليونانى البارز سواء كان تذكاريا أو صورا دقيقة كما فى النقود ؛ الا أن ذلك كله لا يتجلى فى مكان ما كما يتجلى فى افريز البارثينون ؛ ففى الجزء من الموكب الذى تشغله الفرسان تهجم الجياد وراكبوها فى فرق يتكون كل منها من خمسة أو أكثر متكاتفين تقريبا ، وثمة ستة من هؤلاء ظاهرون على الكسر الموجودة الى اليسار . ومع ذلك فهذه المجموعة من المنظور التى تختص نسبيا بعشرين قدما بالضبط مخصصة لكل جواد بثلاثة ألواح على الاقل ، قد نقشت بالنقش البارز الذى لا يزيد عن بوصتين ونصف بوصة سمكا ـ وهى لذلك عمل عظيم حقا .

ويقترن بهذا ذلك التعديل البصرى الذى ورد ذكره فى ص ١٩٥ ـ ثم لاحظ هذا التنوع الذى لا حد له فى أوضاع الراكبين وجيادهم الاتيكية الصغيرة القوية ، بصرف النظر عن الأصول الفنية .

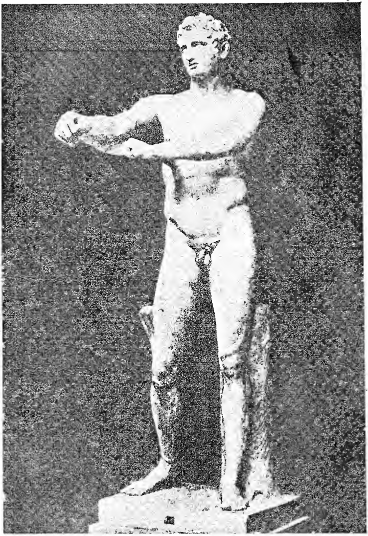






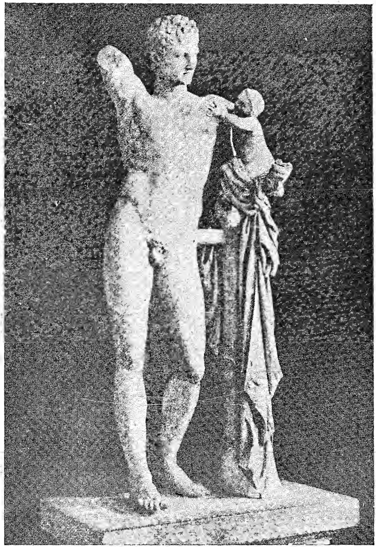
المثل اليونانى الأعلى لكمال الذكورة : قانون بوليكليتوس

جسم بوليكليتوس . من المدرسة الآرجوسية (القرن الخامس ق · م) (قانونه) فى كمال الذكورة فى تمثال برونزى وسمه باسم (الدوريفوروس Doryphorus أو حامل الحربة ، وهو التمثال الذى كان سببا فى صنع نسخ كثيرة من الحجر تتفاوت فى قيمتها ، ونحن نكون منها فكره عن الاكتناز الكثيف فى العضل وان تكن تبدو فى وضع منسق مريح



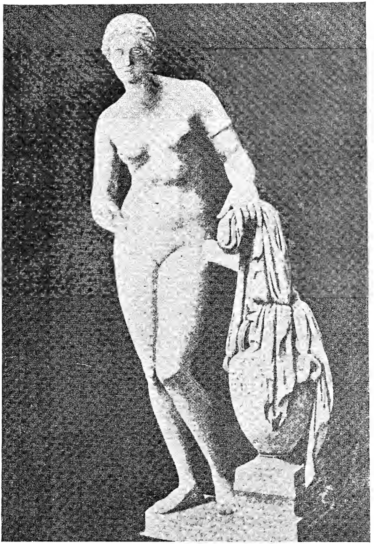
التقدم الفنى فى القرن الرابع : الأپكسيومينوس

زاد لِسِپوس — السيكيونى — فى القرن الرابع فى تحرير فن النحت ، وبمقارنة هذه النسخة من تمثاله البرونزى : أپوكسيومينوس ، أو لاعب القوى وهو يستعمل المفركة Strigil ، بالقانون (بالصحيفة المقابلة) نلاحظ تكوينا أكثر رشاقة وهيئة أكثر انطلاقا ، وبدلا من الاسترخاء نرى حركة فى الجسم وحيوية فى الملامح .



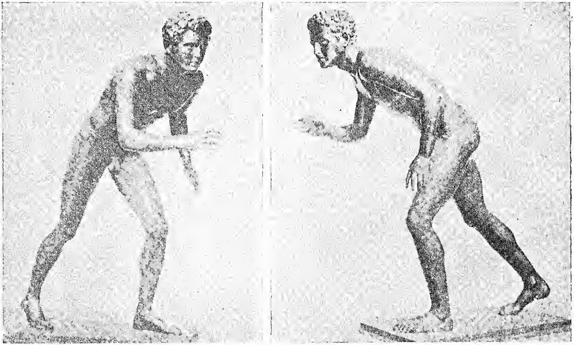
أثر أصيل لامام أثينى من أئمة النحت

لما كان پراكسيتيليس لا يزال نحاتا أكثر ذوقا من ليسيبوس فقد نفخ فى تماثيله روحا من الرشاقه النيرة وقد اكتشف فى أولمبيا التمثال الأصلى المصنوع من المرمر الپاريوى الذى وصفه لنا پوزانياس : هرمز الشفيق الأكبر التام النمو ، حاملا الرضيع ديونيزوس ، ومدليا عنقودا من العنب



المثـــل الأعلى للأنــوثة كما يتخيله براكسيتليس

تأخر الفنانون اليونانيون زمنا طويلا فى تناول الجسد العارى للمرأة ، الا أن براكسيتيليس قـــد مهر فى نحت أجســـاد نصفها انسانى ونصفها سماوى من حيث تناسبها السائق ، وقد كان تمثاله ــ أفروديت كنيدوس·أعجوبة عصره · وتكتسى هذه النسخة المعروضـــة الآن فى الفاتيكان لفاعا من المعدن



لاعبو القوى الذين ألهموا مثالى اليونان القدامى أبدع آياتهم

ألعاب القوى هى التى أوحت الى الفنانين بمعظم موضوعات النحت التى نرى صورها فى الصفحات الست عشرة المتقدمة ، والألعاب هى تلك الرياضة التى كانت تظهر فى أثنائها جسوم الذكور عارية فى البالاسترا أو الملعب ، فسائق العربة يلبس الثياب لنقيه الريح ، الا أن التمثال مع ذاك ، يخلد ذكرى انتصار فى سباق الخيل ؛ والفتاة العداءة ، بالرغم من كونها أنثى ، كانت تشترك مع اللاعبين فى حفل دورى ؛ على أن تمثالى المصارعين البرونزيين (أعلى هذا الكلام) تجتمع فيهما هذه الناحية من نواحى الفن اليونانى

الفصل الثاني والأربعون

عبقرية الفن اليوناني وعلاقتها بألعاب القوى

كيف أزهر التصوير وفن النحت هذا الازهار العجيب الناشىء عن القدرة على تصور المثل الكامل للجسم الانساني

بقلم پرسي جاردنر الدكتور في الآداب والقانون

أستاذ كرسي امرتوس لعلم الآثار اليونانية والرومانية بجامعة أكسفورد ، ومؤلف : مبادىء الفن اليوناني ، وفصول جديدة في التاريخ اليوناني الخ ...

تناولنا في الفصل الخامس والعشرين ثقافة سكان اليونان وجزائر بحر ايجة وفنونهم قبل غزو الهيلانيين الذين وردوا على هذه البلاد من الشمال وأخذوا يجلون الأهالي القدامى أو يدمجونهم فيهم شيئا فشيئا : وثمة فترة من عدة قرون بين ذينك العهدين اللذين نسمى أحدهما العصر المينوى Minoan أو الميسيني ، والآخر العصر القديم لبلاد الاغريق .. ثم ينزل ستار ... فاذا ارتفع ثانية وجدنا أنفسنا ازاء قوم يختلفون من أناس ما قبل التاريخ في الجنس وفي اللغة وفي وسائل الحياة .

ويتناول هذا الفصل فنون الجنس الهيلاني المقيم في مدن اليونان الكبرى الذين استوطنوها في الأصل منذ القرن التاسع (ق . م) على الأقل . والذين انتشروا في القرن الثامن في الأصقاع الايجية من ايطاليا الى آسيا الصغرى ، بما كان لهم من حضارة متجانسة على درجة عظيمة من الكمال . وقد كان الايونيون والدوريون هما الفرعان الرئيسيان للعنصر الهيلاني . أما الأيونيون فقد أقاموا في آسية الصغرى وفي تراقيا ، كما أقاموا في أتيكا وفي ايوبويا ، وأما الدوريون فكانت مراكز سكناهم مدائن البليبونيز (المورة) ، مثل آرجوس وسكيون وأسبارطة وغيرها . وكان الفرعان يختلفان جد الاختلاف في سجاياهما ، فالأيونيوى مرح ذو سليقة فنية ، الا أنه يميل الى الترف والدعة ميلا قتالا ؛ أما الدورى فكان من رأيه النظام والتنسيق ، وقد ضرب كلاهما بسهم كبير في اعلاء شأن الحضارة اليونانية التي انتشرت بالتدريج في جميع الممالك المحيطة بالبحر المتوسط ، وكانت أساسا لجميع العلوم والفلسفة والفنون في العالم الغربي .

ولابد من كلمة موجزة في منشأ الفن اليوناني الذى تتنازعه نظريتان ربما كان الحق وسطا بينهما . فبعض علماء العاديات يميلون الى القول بأن فن العصر الايونيوى استمر الى حد ما ، خلال أيام الفتح الهيلاني المضطربة ، بل هم ينظرون الى فن اليونان القديم على أنه نهضة لذلك الفن . ولا ينهض اليوم برهان ذو بال على هذا الرأى الذى يبدو على شىء من الوجاهة . اذ لم يكن يعثر على شىء يصل المؤثرات المينوية بالتاريخ اليوناني ، فان لم يكن السكان الأصليون قد أفنوا ، بل اندمجوا في الغزاة ، لبقيت الميول الفنية التى تشهد بها آثار القدامى ممن كانوا يقيمون ثمة قبل التاريخ كامنة قرب السطح في الغالب ، متربصة بالفرص التى تتاح لها لتبرز الى الضوء من جديد .

أما المدرسة الأخرى من علماء العاديات الذين يملكون براهين أكثر يحتجون بها ، فيصرون على أن الفن المينوى كان قد انتهى بحذافيره في زمن الغزوات الهيلانية وأن جميع النشاط الفنى كان قد اختفى مدى قرون عدة ، ثم عاد الفن فنحا نحوا جديدا بمضى الزمن على هذا الغزو ، وهم يؤكدون أن ما حفز السكان هذه المرة جاءهم عن طريق ما كانوا يستوردونه من صناعات شعوب الشرق المثقفة ، كالمصريين والبابليين والفينيقيين .

أصول الفن اليوناني



رسم هولة فى صورة جديدة

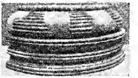
اقتبس اليونانيون من مصر صورة أبى الهول الا أنهم أضفوا عليهــا طبيعة جديدة وشكلا جديدا فغدت مخلوقا له رأس امرأة وأجنحة وجسد سبع ،كما نرى فى رسم هذه الزهرية التى تصور أوديب وأبا الهول

الا أنه من الجلى تماما أن اليونانيين ، منــذ القرن السادس (ق · م) كانوا يعملون وفقا لأساليب وطنية أصيلة ، كائنة ما كانت أصول نشاطهم الفنى ، وكائنا ما كان الموضــع الذى نقل عنه الفنانون الاغريق نمــاذجهم الأولى · فكما انهم استعاروا صور أبجديتهم من شعوب اخرى · واستخدموها بحيث تعبر عن خلجاتهم الخاصة · فكذلك نجدهم قد بادروا الى صــور الفن البدائية التى اقتبسوها عن غيرهم فطبعوها بطابع جديد وطنى ·

وهكذا جاءهم شكل أبى الهول الفنى عن مصر حيث كان مستعملا من قديم الزمان ، الا أن اليونانيين وصلوه ، حينما قبسوه عن المصريين ، بأسطورة أوديبوس الطيبية ، وغمروه بهــذا الجمال المشـــجى المعهــود فى آثارهم المهيبة . ونرى فى آثارهم فى أقدم الأزمنة آلهة تشبه آلهة الاناضول يمســـك كل منهــا فى يده بسبع أو هولة رمزا لقــوته ، الا أنه لم يمض زمن طويل حتى زالت هــذه الرمزية الفجــة ، ثم أخذ الفنــانون يبرزون خصـــائص الآلهة من امثـــال أبوللر وأرتميس فى صور الآلهة أنفسهم من غــير أن يســـتوحوا صــفات أجنبيــة يضفونها عليها ·

وتتجلى فى تاريخ نشوء الفن اليونانى سمتان يغلبان على غيرهما ، هما قيام المعابد مراكز للفن الدينى ، ثم قيام فن النحت الذى يصور ألعاب القوى ، وهو ذلك الفن الذى يعد من أبرز الثمرات التى أبدعتها الروح الانسانية · وفى وسـعنا أن نعد الفن الذى يمثل ألعاب القــوى دورى النشأة ، وذلك لأن أعظم مدارسه القديمة قــد أينعت فى آرجوس وفى سيكيون وفى ايجينا خاصة · وان علا شأنها فى آثينا وفى مدن أخرى كذلك ، كما يسعنا أن نعد عمـــارة المعـــابد ايونية الى حد كبير ، وذلك لأن أقدم الهياكل وأعظمها قد نشأ فى ميلتوس وفى غيرها من مدائن الشاطىء الايونيوى الجنوبى،وان وجدت فى اليونان ، وفى جنوب ايطاليا معابد دورية قديمة كذلك ، وقد بلغ فن التصوير هو الآخر أوجه فى الزمن القديم فى ايونيا · الا أن بناء المعابد ، وفن تماثيل ألعاب القوى،وفن المطلمات (الصور الحائطية) وفن الرسم على الزهريات ــ وهو ذلك الفن العظيم ــ كل هذه الفنــون وصلت ذروة كمالها فى القرن الخامس ق · م · وكان الأثينيون فى مكان الصدارة منها جميعا فى العصر الذهبى ، وان نافستهم آرجـــوس حينئـــذ فى فن المثالة الرياضية ، وســـيكيون فى التصــــوير ، وسرقوسة فى فن العمـــلة ونقش الجواهر ·





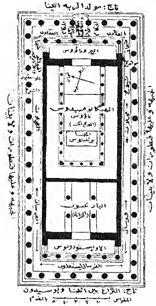
كسر تشهد بتقوى الملوك

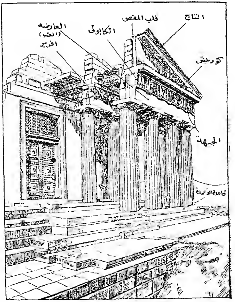
من الشواهد البارزة على عبقرية الايونيويين الفنية ذلك الحطام المتخلف من معبد أرتميس الشاسع الأرجاء فى انسوس وهو من أبرع الأمثلة على فن النحت القديم ؛ وتبدو هنا آثار بدن العمود الذى نذره كوسوس الليدى للمعبد ، ونرى فى الصورة التى الى اليمين قاعدة العمود وهى القاعدة التى سجل عليها النذر

وقد بلغ فن اليونانيين الايونيويين الضاربين فى شواطىء آسيا الصغرى شأوه الرفيع فى القرن السادس ق ٠ م ٠ فكانت المعابد التى بنيت فى هذه الآونة فى ساموس وافسوس وملتوس تقام على مساحات ضخمة ــ فهيكل أرتميس فى افسوس مثلا ، وهو الهيكل الذى نقب عنه ج ٠ ت ٠ وود لحساب المتحف البريطانى ، كان يشغل مساحة تبلغ أربعة أضعاف المساحة التى يشغلها البارثينون ، وكان أكبر من أعظم كاتدرائياتنا ، ويقدر وود ابعاد هذه المساحة بـ ٣٤٢ قدما طولا و ١٦٣ قدما عرضا ، وكان يحيط به حشد يشبه الغابة من العمد التى يبلغ عددها المائة ، ويبلغ ارتفاع كل منها خمسا وخمسين قدما ٠ وتحدثنا بعض النقوش على أحدها أن بعضها قد تبرع باقامته كرويسوس ملك ليديا الموسر ، وقد كانت معابد ساموس وميلتوس ومدائن أخرى بهذا القدر من الضخامة ، وكانت تفيض بروائع الفن والنذور اللائقة بورع محبى الفنون من الأيونيين ٠

وشيدت فى هذه الحقبة نفسها معابد أقل حجما ، وذات طراز أكثر جدا ، فى دلفى وأثينا ومدن أخرى فى اليونان الأصلية وفى اليونان الكبرى جنوبى ايطاليا ٠

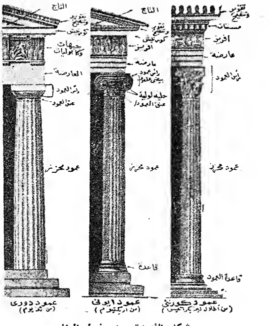
ولا نستطيع أن نجزم بشىء عن نشأة الهياكل اليونانية ، وحسبنا أن نقول انها ، منذ نشوئها الى أن عفى الزمان عليها ، كانت تتضمن أخيلة يونانية ، كما أنشئت على أساس واحد ٠ فكانت ال سللا Cella ، هى النقطة الأساسية ،





تفصيلات معمارية عن أفخم معابد أثينا ••

تتجلى البساطة المتناهية فى العمائر الدينية اليونانية ، بصورة بارزة ، فى هيكل أثينا القائم فوق ربوة الأكروبوليس وهو يتألف ، كما يبدو فى هذا المخطط ، من بناية مركزية كانت تشمل (المذبح الكبير) والخزانة ، التى كانت تسمى البارثينون ، والتى كان المعبد كله يسمى باسمها ، ثم السقائف والأعمدة ، وفى القطاع الجزئى لأحد أطراف الهيكل تفصيلات عن الأعمدة ونظامها والرواق الذى يتكون منها ٠ وعن العريش الواقع بينه وبين مستوى السطح .



شكل الأعمدة يحدد نمط البناء

كانت أعمدة الهياكل وأروقتها الفريدة تميز كلا من الطرز الثلاثة لهـذه الهياكل ، فالطراز الدورى يشعر بالبساطة والجلال الغـامر والايونيوى بالرقة والبهاء • وكان هـذان الطرازان يستعملان على التعاقب قبل أن يحل الطراز الـكورنثى المنحط ، الـكثير الزخرف محل الذوق الرومانى

أو مركز الهيكل كله ، وهى مأوى الاله ، أو مأوى تمثاله الذىهو ممثله ، أما ما عدا هذا فملحقات، أو مجرد أبنية لتجميل الضريح المقدس •

وسيوضح هـــذا لنـــا تمام التوضيح خطة أســاس البارثينون وهو المعبــد المعروف لدى الجميع • فالمركز الأســاسى لهـذا المعبد هو الضريح – أو أل ســـلا ، المســمى هيكــا تومپيدوس Hecatompedos ، بسبب طوله الذى يبلغ مائة قـدم ، وكان يحوى تمثـال الربة أثينا العظيم ، أحد روائع فدياس ، وكان تمثالا منتصـبا يحمل فى احـدى يديه رمز النصر وفى الأخرى رمحا ودرعا • وكان هذا التمثال محور الديانة الأثينية ، وهو الصورة المجسمة لصاحبة السلطة الالهية فى المدينة ،

وتقع خلف التمثال الحجرة المسماة « البارثينون » تمييزا لهـــا عن غيرها ؛ وكانت تكظ بالنفـائس النـابعة للربة ، وكانت سقيفتان تنتهيان بالزائر الىمدخل التمثال ، احداهما أمامه ، والأخرى خلفه • وكان هـذا كله محوطا بعــدد من العمــــد التى تحمل الســـقف ، وبداخلها ممشى يدور حول الضريح نفســه ، ولم يكن يضارع فخامة الهياكل اليونانية الا بساطتها ، فقد كان كل جزء من أجزاء المعبد مشيدا بحيث يؤدى غرضا بعينه ، فالأعمدة ضخمة وقريبــة بعضها من بعض لتحمل ثقل السقف ، أما الجـدران فكان يقصد بها الى فصـــل الغرف بعضــها عن بعض أكثر من حملالسقف وأما الأساس فكان كتلة من الحجر المتين مرساة على الصخرة الصماء التى تتحدى الزمان • وقد استعملت طائفة من الرسوم التى تسيغها العين ، والتى كانت تضفى على البنـاء الضخم مسـحة انسـانية وذلك تحاشيا للجمود الشديد الذى يصدم عين الناظر الى البناء فى جملته •

ولا جرم أن العمود هو مفتاح فن المعمار اليونانى ؛ وهو يبدو فى واحــد من ثلاثة أشـــكال . فالعمــود الدورى مــكين وضــخم ولا قاعدة له ، الا أن له بروزا فى أعلى ليمهد للعــارضة الأفقيــة التى فوقه • أما العمــود الأيونيوى فأقل سمكا ، وله قاعدة وفى أعلاه حليــات لولبية ، والعمود الكورنثى هو نوع من العمود الايونيوى ذو تاج من أوراق شجرة شوك اليهود مكان الحليات اللولبية ، وجميع الأعمــدة محفورة عادة حفـرا رأسـيا لتتجه بالأنظار نحو السقف • وتشبه هذه الأنماط الثلاثة المفـاتيح الموسيقية التى تسـيطر على النغم • أما قواعد البنـاء الأساسية فعلى حــد كبير من البساطة ، حتى أنه يسهل اعادة بناء أى هيكل لم تكتشف منــه الا آثار قليلة ؛ ومع هـذا فثمة اختلاف كبير بين الجزء الكامل من عمود وعمود آخــر لا يستطيع أن يدركه غير الرياضى الاخصائى وحده •

وقد تركت جميع أجزاء البناء التى تحمل ثقلا ، والتى قصـد بها الى غرض تقـوم به ، كالأعمدة والـكرانيش والجـدران ، دون أية حليـة فأكسـبها ذلك جـلالا لا كلفة فيه ٠ أما فراغا (الجملون) من أمام ومن خلف ، وخطوط الواجهات مما يلى السقف ، وهى التى تختص بهـا الهياكل الدورية ٠ والتى كانت فى الأصل مواضع خالية ، فكانت تنحت نحتا بارزا ، أو كانت تملأ باشـكال أشـخاص فى طول المحيـط ، وبهـذا كانت تتـاح الفرصة للمثالين لتصوير المنـاظر التى تصف بعض ألوان النشاط فى حياة الاله ، أو المواكب التى كانت تقام له ٠

ويدخل فى زخرفة الهيـاكل قسم كبير من بقايا التماثيل اليونانية التى وصلت الينـا ٠ ولم تكن تلك الآثار عادة مما صنعه أيدى المثالين العظماء انفسهم ، بل هى مما صنع مرؤوسوهم ومساعدوهم ٠ وكانوا ينظرون الى هذه التماثيل على أنها مجرد توابع للتماثيل الفخمة المصنوعة أحيانا من العاج والذهب ، والتى كانت تشرف على أجزاء المعابد الداخلية ٠ لقد كان السائح بوزانياس فى فهرسه عن روائع الفنون التى كانت موجودة فى اليونان فى عصور البراطرة الانطونيين يوجز فى ذكر هـذه التماثيل الثـانوية ، فلا يخصـها بأكثر من سـطر أو سـطرين ، وقد لا يذكرها على الاطلاق ، بينمـا كان يدقق تدقيقـا عجيبـا فى وصف التماثيل العظيمة المقامة للآلهة ٠

ومع هذا ، فيبدو أن تلك التماثيل الثانوية الاقل أهمية ، ذات قيمة جليلة القدر بالنسبة الينا ، بل نحن نعد التماثيل التى كانت تزين البارتينون فى أسمى المراتب من روائع فن المثالة والأسلوب الذى اتبع فى رسم خطة هذه التماثيل والتى نحتت وفقا له كان أسلوبا فذا فكانت موضوعاتها تختار أحيانا بحيث تومى الى الاله الذى قصد بها الى تزيين معبده ! وكانت تؤخذ أحيانا أخرى من المعين العـام للأساطير اليونانيـة ، أما فى حالة البارتينون ، حيث نجد صـنعة أرقى مما ألفنـاه فقد بسـعدنا الحظ بالعثور على شىء أشبه بتاريخ متصل ٠ ويجب أن نتذكر أن التيجان المثلثة كانت تملأ الجدران الجانبية المثلثة من فوق الأعمـدة ومن تحت



الهيكل الفخم الذى خلدت ذكراه عمده المهشـمة

كان هـذا المعبد العظيم ، القائم عـلى ربوة سامقة مشرفة على جزيرة ايجينا ، والذى شـيد حوالى ٥٠٠ ق٠م ، باسم الربة المحلية آفايا فيما يحتمل ،ينهض نموذجا شائقا جدا للعمـارة الدورية ، ومع أن موقعه ، وأرضيته المصنوعة من الحجارة المنحوته التى أقيم عليها قد تزيدان فى جلال البناء فقد كان داخل الهيكل يبز خارجه فى اتسـاق جمـاله ، وكان الضريح ــ أو السللا ــ بهى التنسيق ، وذلك لأن الأعمدة كانت تقسمه ثلاثة أجنحة ٠



مجموعة من تماثيل الهياكل مكونة على النسق القديم

كان المثالون اليونان يهتدون في تنظيم منحوتاتهم بروح تمثيلية حقة ، وذلك ليكسبوها حيوية فوق حيويتها ؛ ففي هذه الصورة المستعادة للجدار الجانبي المثلث لمعبد آفايا في ايجينا ، يظن أن نظام القوالب الملونة هو نظام التماثيل الأصلية ، ويعتبر الآن نظامها الذي نراه في الصورة السادسة من الفصل التالي غير صحيح

الطنف (الرفرف) . وكانت الفجوات ذات التماثيل الثانوية تتعاقب والفجوات المضلعة تضلعا فنويا . وكان الأفريز يحيط بأعلى جدار الضريح من داخل صف الأعمدة .

ونبدأ القصة ، في التاج المثلث الشرقي ، بميلاد الربة أثينا ، التي لا نكاد نميز بينها وبين مدينة أثينا نفسها . والتي تصور الغرض الألهي من انشاء هذه المدينة . وفي هذه القصة القديمة الأجنبية أن أثينا قد برزت بكامل عدتها الحربية من رأس أبيها زيوس ، وأخذت مكانها بين الآلهة مباشرة ؛ وهي القصة التي حاكاها ملتون في الفردوس المفقود ، وقد وردت هذه القصة في التاج المثلث تلميحا فحسب ، وقد وقفت أثينا شاكية السلاح في الاجتماع الأولمبي ، وراحت الآلهة تنظر اليها في عجب . أما في الجدار الغربي فتؤكد أثينا ملكيتها لمدينة أثينا بخلقها شجرة الزيتون ، التي لم يكن الأثينيون يفضلون عليها شيئا من آلاء الآلهة ، تلك الآلاء التي كانوا يقدرونها حق قدرها . فقد كان الأثينيون يستعملون زيت الزيتون في الطبخ والاضاءة وتخضيب أجسامهم . ويظهر بوسيدون الذي كان يدعي المدينة كذلك ، وقد انقلب على عقبه محسورا خائب الرجاء ، ونستطيع أن نرى في هذه القصة نبوءة تقول انه وان تك أثينا ربة عظيمة في البحر الا أن الحكمة والفنون وآلات الحرب هي المصدر الأساسي لشهرتها .

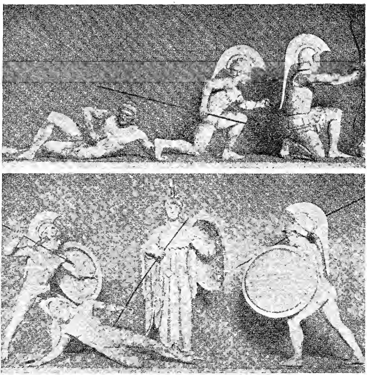
أعمال النحت في البارثينون

ثم نجد في سلسلة الفجوات ذات التماثيل الثانوية عجالة عن نمو المدينة التي كان لأثينا شأن كبير فيه ، وقد صور عظماء الرسامين المحدثين نفس الموضوع بالمظلمات الشهيرة في بعض الأبنية الحديثة ، كالقصر الملكي في درسدن ومتحف الفنون في بوسطن ، ومجلسي البرلمان في لندن ، الا أن الأفكار اليونانية تختلف من أفكارنا ، فالطريقة الحديثة لتناول الموضوع تتوخى اعطاءنا سلسلة من النقوش التي تصور حوادث التاريخ والتي تظهر لنا كيف رقت الطباع وتهذبت الأوضاع بالتدريج . أما الطريقة اليونانية فتعني بعرض انتصارات الاسلاف الأثينيين على أعدائهم الهمج المتوحشين في عدد من المجاميع : كانتصار الآلهة على التيتان (الجبابرة) ، وانتصار



الأبهة المعمارية ترد الى الحياة

كان الاغريق يستعملون التصوير والمثالة كما يحلو لهم في زخرفة أبنيتهم كما هو ظاهر في الصورة المستعادة (ص ٥٩٨) ؛ وهذه صورة قائمة على الخيال وان اعتمد في تصويرها على أصول أكيدة ، وهي للواجهة الشرقية لهيكل أفايا ، وتصور لنا نصيب الأشكال المنحوتة في مشروع زخرفة الواجهة



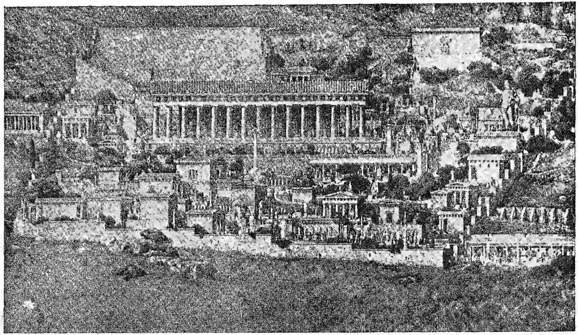
الحيوية والتأنق فى تكوين أشكال الأبطال

مهما يكن من نزوع التماثيل اليونانية الى المثل الأعلى ، أنهـا تمتاز بدقة التفاصيل . كما تبدو لنا فى تلك الاشكال التى تشتمل صورة المعبد المستعادة المواجهة لتلك الصحيفة على عـدد منهـا ، وهى من الجـدار المثلث الغربى لمعبد ايجينا . وتزيد فى بهاء الأفايا الطريقة الدقيقة الجليلة التى تتـاول بهـا الفنـان عمل أسجافها ، ولكل من المحاربين جسم الرجل الرياضى الممدود على خير وجه، بل لقد كان الفنان أمينا غاية الأمانة فى ابراز كل عضلة وكل ايماءة ابرازا التزم فيه الطبيعة التزاما دقيقا

الاغريق على السنتور والأمازون (١) ، واحتلال طـروادة للثـأر من أهلهـا بسبب اختطاف هيلين .

ثم نشاهد آخر الأمر فى الافريز مشهد الهدى. وهو هذا الموكب الذى كانت تختتم به الألعاب البانائينية Panathenaic Games والذى كان يتقدم النساء والأبقار المرسلة من المستعمرين الأثينيين باسـم أثينـا . كذلك كان يصـحب المـوكب المنتصرون من لاعبى القوى الذين كانوا يكللون بأكاليل الغار أمام البارثنون مكافأة لهم عـلى فوزهم . وكانت طائفة من آلهة الأولمب تصور ، جالسـة ، فى الافريز ، فوق باب الهيـكل الرئيسى ، المواجه للمشرق ، وذلك لكى تحيى الموكب ولتبـارك الأضـاحى . وكان المـاضى والحاضر يرتبطان بشـارة الربة الحارسة . وكان النضـال والقتـال ينتهيان الى احتفال

(١) السنتور أو القنطور Centaurs خيول خرافيـة لهـا جذوع ورؤوس آدمية ، والأمزون قبيل من النساء المحاربات كن لا يخالطن الرجال ولا يتزوجن (المترجم) .



هيكل أپوللو بآثاره الجليلة الحاشدة فى دلفى عند ما كان لايزال قدس الأقداس فى اليونان جميعا

كانت الدويلات اليونانية تزين دلفى وتجملها حتى أصبحت مستودعا للفنون كما تشهد بذلك هـذه الصورة ، وقد كانت هذه الدويلات تفعل ذلك لكون دلفى مركزا دينيا عظيما مكرسا لأپوللو الذى كانت الكهانة المشهورة ذات الأثر المتزايد فى حياة اليونانيين تمارس فى هيكله ، فكان كل شيء متجمعا حول هيكل أپوللو الدورى الفخم ، الذى نرى تمثاله الضخم سامقا ، قريبا من الهيكل ، ويوجد المسرح الذى يشغل أحد أركان الموضع (الزاوية العليا إلى اليسار) وراء الهيكل . ويوجد تمثال أل ـ أوريجا ـ Auriga ـ أو سائق العربة بين الآثار ومجموعات التماثيل التى تفوق العد ، وهو التمثال الذى ترى صورته فى ص ٦٢٦ . كما توجد الخزانة الأثينية وغيرها من خزائن المدن والجماعات الأخرى المتجمعة حولها فوق الحدور ، أدنى عمود المعبد الأيسر مباشرة ، كما هو موضح بالتخطيط المقابل لهذه الصحيفة

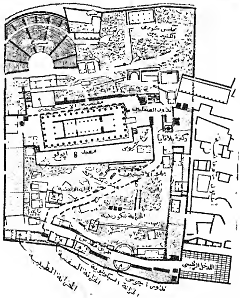
دينى ، ويمكن أن تدرس جميع أعمال النحت هذه فى المتحف البريطانى ٠

وثمة هيكل من نوع مغاير ، يوضح اتجاهات الفن الدورى أكثر مما يوضح اتجاهات الفن الايونيوى ٠٠ هو هذا الهيكل الذى شاده أهل ايجينا تكريما لربتهم أفايا Aphaea فى زمن الحروب الفارسية ، وقد كشف عن هذا الهيكل كشفا تاما ، والصور المحفورة التى كانت تزين تيجانه وفراغاته المثلثة محفوظة فى ميونخ ، وهى تصور الملاحم التى خاضها أبطال الشعب الايجينى الذائعو الصيت ضد طروادة ٠ ويبدو فيها المحاربون أقل نوعا من الحجم العادى ، عراة وان أدرعوا بالخوذ والدروع وسلحوا بالرماح ٠ ومنظرهم مثير للعجب من حيث دقة تكوينهم والقوة والرشاقة المتجليان فى صورهم ٠ وتبدو الأوجه الخالية من التعبير الكثير ، فى عيون أهل الجيل الحاضر ، دون الأطراف والعضلات بشوط بعيد ، الا أن هذا أمر طبيعى فى الفن الرياضى الخالص ٠

اما من الداخل ، فكانت الهياكل تكظ بالقرابين ، وبكل نوع من أنواع النذور الجليلة من جميع العصور ٠ وينسخ من الشرائع والمعاهدات وتماثيل المحسنين ٠ ولم تكن العبادة الجامعة معروفة لديهم — وهى تلك العبادة التى كانت تمارس فى كنائس اليهود فى زمن أحدث — الا أن المزارات فى الأعياد والاحتفالات السنوية الكبرى كانت تغص بأولئك الذين يجيئون للصلاة ، وتقديم الهبات ، والنذور ، وكانت المواكب والتراتيل وما اليها ، تجرى فى نطاق المعبد الخارجى ، أكثر مما تجرى داخله ، وكانت الأضاحى لأسباب لا تخفى ، تذبح عادة فى المذابح الكبيرة خارج البناء ٠

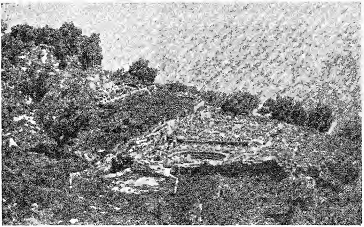
ويمكن تقدير ثروة الهياكل وخصب الفن اليونانى الدينى على أحسن وجه بالتأمل فى أحد المواضع الدينية التى اكتشفت فى السنين الأخيرة ، ولبكن هذا الموضع دلفى مثلا ، وقد كان هذا المكان ، الذى ذاع صيته فى العالم القديم على أنه مأوى أبوللو وموضع كهانته وأعياده المقدسة ، مطمورا تحت قرية قذرة من قرى العصر الحديث ، فكان من حسن الحظ أن تم الاتفاق بين الحكومة اليونانية والمعهد الفرنسى على ازالة تلك القرية وتعويض أهاليها عن منازلهم بطبيعة الحال ٠ وهكذا حفر الموضع على أيدى المستكشفين الفرنسيين الذين وفقوا الى أنفع النتائج ٠

وقد كشف القناع عن تخطيط بناء دلفى ، كما تبينت معالم أطلال الهياكل ، والخزائن والملاعب ، بما فى ذلك الصفوف الطويلة لقواعد تماثيل الفائزين فى مباريات ألعاب القوى ، والانصاب التذكارية التى أقامتها الدول الفائزة ، ونسخ من المراسيم والمعاهدات وما اليها ؛ ولم يسلم من يد العفاء بطبيعة الحال ، طوال هذه الاحقاب الطويلة ، غير أسس الأبنية ، الا أنه عثر على عدد من التماثيل الجميلة ، وزخارف هيكل أبوللو المنحوته ،

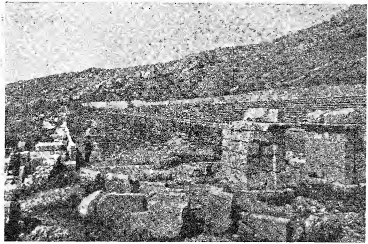


موئل عبادة أبوللو

جعلت تقوى الدويلات اليونانية معبد دلفى العظيم واحدا من أغنى المنشئات الدينية ٠ وكانت خزائن هذه الدويلات تقوم على جانبى الطريق المقدس المؤدى اليه من المدخل الرئيسى الى حدود المعبد ٠ وفى هذه الخزائن كانت تحفظ أسلاب المعارك المنذورة باسم أبوللو — لتكون تذكارات حربية وأقداسا



لم يكن الملعب (الجمنزيوم) فى المدن اليونانية مجرد معهد تعلم فيه التداريب الرياضية ، بل كان شأنه شأن أنديتنا العصرية التى تجذب اليها الناس من الطبقات المختلفة ، ومن ذوى الميول المختلفة ، وكان الناس يجدون فيه كلَّ ضروب التيسير للتـدريب الرياضى ، كما كان الرياضيون يستعدون للمباريات فى المضمار الملحق به · ونرى أعلى هـذا أطـلال الملعب فى دلفى ·



لم تكن مسافات العدو وغيرها من المباريات الرياضية تجرى فى أعياد جامعة الدول اليونانية فحسب ، بل كانت تجرى فى كل الأوقات · وكان لدلفى ، التى كانت تجرى بهـا الألعاب البيثية التى تلى الألعاب الأولمبية فى الأهمية ، مضمارها العـام الواقع شمال غربى المدينة · ولا تزال توجد أطلال يعتد بها لهذا المضمار ،كما نرى فى تلك الصورة ، الا أنه لم يعد ثمة أثر للمقاعد الرخامية التى كان المضمار مجهزا بها يوما ، على ما ذكره أحد المؤرخين القدامى ·

المكانة العظيمة التى كانت للألعاب الرياضية فى الحياة اليونانية

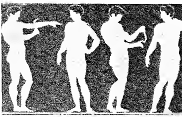
ومخازن الكنوز بما اشتملت عليه من مئات الطرف الصغيرة من البرونز والصلصال .

وكان الزائر يدخل الى سياج المعبد من البوابة التى ترى فى التخطيط الموجود فى صفحة ٦٤١ ، ثم يرقى الحدور بواسطة طريق لولبى ينتهى الى واجهة المعبد . ولعله كان يمر بين مخازن الكنوز والنذور التى لا يزال لدينا عنها فهرس فى الدليل الذى وضعه السائح بوزانياس فى عهد البراطرة الأنطوانيين . وكان المسرح ، حيث كانت التمثيليات تؤدى فى الهواء الطلق بطبيعة الحال ، يشرف من عَلٍ على الهيكل ، كما كان يشرف عليه ميدان السباق وبناء أنشأه أهل كنيدوس لنقوش الفنان الايونيوى العظيم بوليجنوتوس Polygnotus المائية الحائطية . وقد وفقنا توفيقا كبيرا الى كشف الكثير من الآثار المنحوتة . وتمثال سائق العربة البرونزى (ص ٦٢٤) ومجموعة تماثيل لاعبى القوى من صناعة المثال العظيم ليسيبوس (Lysippus) وهى هذا التراث الذى لا يقدر بثمن .

وكيفما كان الأمر فنحن لا نقصد هنا أن نتناول فن المثالة اليونانى من وجهتيه الدينية والأسطورية خاصة ، بل من حيث ناحيتاه الرياضية وجمال تكوينه الانسانى . وفى وسعنا أن نصرح بأنه لولا اعجاب اليونانيين بأجسام الشباب الرياضى الصحيحة الممشوقة لما أمكن أن يبلغ المثل الأعلى للمثالة اليونانية شأوه ، بل فى وسعنا أن نذهب الى ما هو أبعد من ذلك فنقول اننا ، نحن المحدثين ، ندين لليونان ببصرنا بجمال الفن الانسانى وحسن تقديرنا اياه ، مذ كان تخيل المثل الأعلى للجسم الانسانى مما نفردت به اليونان القديمة نفردا تاما .

ولقد مارست جميع الأمم فن المثالة وفن التصوير وكان بعضها ، كالصين واليابان ، وكالهند بصفة عامة ، تمارسهما دون أن تخضع للمثل اليونانية ، الا أن هذه الممالك لم ترتفع بحال الى تقدير المثل الأعلى لجمال الجسم الانسانى وحسنه الفنان قدره الصحيح ، وقد كان أسلافنا ، فى العصور الوسطى ، وبعد أن اختفت معالم الفن اليونانى الى حين ، أدنى من اليونانيين بمراحل شاسعة فى تناولهم الجسم الانسانى ، وان كانوا قد أنشأوا كاتدرائيات أكثروا فى زخرفتها بالتماثيل .

ولنتناول فن اليونانيين ووسائلهم فى التربية الرياضية فى عصرهم الذهبى ، وقد يبدو ، للنظرة الأولى ، أن الموضوعين لا يرتبطان بعضهما البعض ارتباطا وثيقا . ولا جرم اننا فى عصرنا الحديث ، لا ننتظر أن تكون ثمة علاقة بين الالعاب الرياضية وبين الفن ، ولا أن يعنى الفنانون عناية فائقة بالالعاب الرياضية ، الا أن الفن والالعاب الرياضية كانا متصلين بعضهما



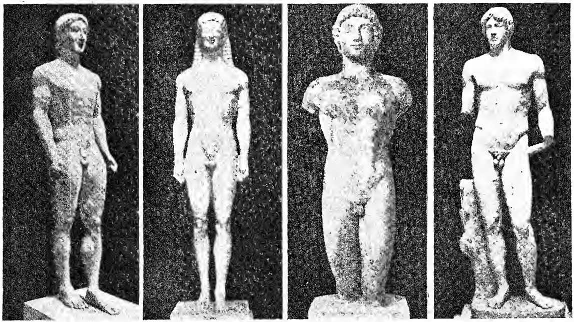
ازالة آثار التمرين الرياضى

كان المستحمون يستخدمون المكشط فرجونا لفرك جلودهم كما كان يستعمله الرياضيون لكشط ما علق بهم من التراب والزيت . وكان يوجد على ما يظهر فى جملة أدوات الزينة عند الرجال والنساء ، ونصور لنا هذه الزهرية وظائف المكشط العادية ، بما فيها تنظيف الأظافر



من مستلزمات الرياضى اليونانى

لما كان الشباب اليونانيون يضمخون أنفسهم قبل التدريب الرياضى تضخيما كليا بالزيت ثم يغطون أجسامهم بالتراب ، فقد كانوا يعدون المكنسط ضروريا لتنظيف أبدانهم عقب هذه التداريب الرياضية ، وكان يصنع عادة من البرونز أو الحديد ، ولما كانت نماذجه متنوعة فانا نعرض فى هذه الصورة أكثرها شيوعا

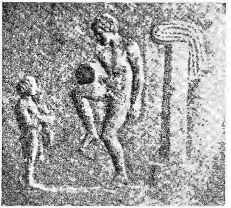


التقدم فى المعارف الفنية الذى يبدو فى جمال التماثيل الرياضية واقترابها المطرد من الطبيعة

كان الاغريق الذين يستلهمون ملهم الفنية من المضمار الرياضى أول فنانى الدنيا الذين درسوا جسوم الذكور العارية وأبرزوها ابرازا بارعا ، ولا تزال ثمة تماثيل كثيرة لشباب أحداث يطلقون عليها اسم أبوللو بدون وجه حق ، والتماثيل القديمة تصور لنا الأساليب المصرية التى تجرى على منوال واحد ٠ فالتمثال الذى من ايجينا (الى اليسار) والتمثال الذى يرجع الى ما بين القرنين السابع والسادس ق٠م ، المدعو أبوللوتيسى ، (وهو الذى يليه) هما تمثالان فيهما هينة التماثيل المصريه ، الا أن ما فيهما من دقة التفاصيل التشريحية شاهد على مقدرة الفنانين اليونانيين الأصيلة ، وقد انتجت ايجينا طائفة كبيرة من تماثيل الرياضيين ٠ أما تمثال أبوللو ستراتحفورد ، (وهو التمثال التالى) فيحتمل أن يكون أحد هذه التماثيل التى أثر جمالها فى فن اليونان الأصلية ، وبينما تحمل التماثيل الثلاثة الأولى سمات العهد القديم ، نجد أن التمثال الرابع (الذى نرى صورته أعلى هذا الكلام) وهو تمثال أبوللو (Choiseul-Gouffier) لا يحمل شيئا منها

اتصالا وثيقـا فى اليونان القديمة ، وفى الحق ، ان فن المثاله قد نشأ الى حـد بعيـد من ممارسة اليونانيين للألعاب الرياضيه ، وهـذه الحقيقة هى التى ترسم لنـا المنهـاج الذى سنتبعه فى تناول موضوعنا ، ويجب أن نتكلم عن الالعـاب الرياضيه أولا ان كلا من الفن والألعاب الرياضـية صورة مجسمة للعبقرية اليونانية ·· فعندهم أن الفن عنوان للجمال ، وأن الرياضة عنوان لسلامة القوى العقلية ، وقد نتجت عن محاولتهم الوصول الى هـذين الهـدفين فى أول الأمر تلك العناية بالتربية البدنية التى ظهرت بعد ذلك فى روائع الفن التى كانت ثمرة لهذه التربية ·

لقد كانت محبة الألعاب الرياضية متأصلة فى الشعب اليونانى ، وكانت على أتمها فى العصر الذهبى المستغرق لأواخر القرن السادس وللقرن الخامس قبل الميـلاد · ولم يكن اليونانيون يمارسونهابفكرة التسلية أو الصحه ، بل كانت مظهرا طبيعيا للروح اليونانى ، كما كانت قبضا لنشاط هـذا الروح الجم ، وكان السـلوك القـويم اللائق بالرجال ؛ والأطـراف



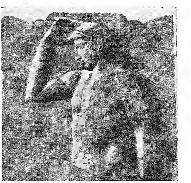
تدريب عنيف بواسطة الكرة

بينما نملك الدليل الـكافى على أن اليونانيين كانوا يلعبون أنواعا كثيرة من الكرة ، فاننا تنقصنا التفاصيل عن كيفية هذه الألعاب فغرض الشباب الذى نراه فى تلك الصورة مثلا عرض غامض ، ووقفتـه تشعر بأن الكرة التى يوازنها على فخذه ربما تكون قد ثقلت واستعملت كرة طبية ·

المعقوله ، وقوة الجسم ونشاطه من ألزم الصفات لغطاريف الرجال ، مثلها فى ذلك مثل التواضع وضبط النفس والفطنة ··· فمن هنا نشـأة تربية الرياضية ، فكانت الرياضة والموسـيقا تدخلان فى تربية الأطفال ، وفى حياة الرجال ، الرياضة للجسم ، والموسيقا للروح — الموسيقا بمعنـاها اليونانى الذى يتضـمن كل معـانى التهذيب الذهنى ·

والألعاب الرياضـية التى تمارس على أنهـا مجرد وسيلة من وسائل الصحة والـتربية البدنية تكون شيئا جامدا باعثا على الكآبة الى حد مؤلم · فلابد من المباريات التى تكون حافزا على هذه الألعاب وغرضا لها ·· لابد من المناضلة بين الرجل والرجل ، وقـد وقف الأصـدقاء والمتبارون ينظرون ويتشوفون ·

وقـد تؤدى التربية البـدنية باحدى طـرق ثلاث : أولاها بالتدريب العسـكرى كما هى الحال فى ألمانيا وفرنسا ، وثانيها بالمباريات بين فرق الألعاب ، كالكريكت (كرة المضرب) والتجذيف ، وكرة القدم ، كمـا هى الحال فى انجلترا وأمريكا،وثالثها بمباريات ألعاب القوى

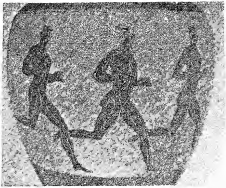


رمز للرياضى الهاوى

كان الظافر فى الألعاب اليونانيه يتسلم فى أول الأمر اكليلا من الغار جائزة له لا يعطى جائزة غيرها · ويصور لنا هذا النقش البارز الذى عثر عليه فى صـونيوم شابا أنيكيا أوشك أن يضع على رأسه شارة الظفر (وقد اختفى الاكليل الأصلى من يده)

على حسب ما تسمح به طاقاتهم ·
وهذا مما يؤسف له أسفا شديدا ، لأن أولئك الذين ليسوا صالحين على الوجه الأكمل للمشاركة فى الألعاب الرياضية هم غالبا أولئك الذين قد يستفيدون منها أكبر فائدة ·

لقد أنشئت ملاعب عظيمة بعد عهد الاسكندر الأكبر ، فى جميع المدن اليونانية ، وكانت هذه الملاعب تضم عددا ضخما من الغرف الصالحة لجميع أنواع التمرينات ، كما كانت تحوى على ميادين الجرى وأجهزة الألعاب الرياضية وحمامات الماء الساخن والبارد ، وغرف التضميخ بالزيت وما شابهها · الا أن تركز العناية فى الوسائل الرياضية كان أقل من تركيزها فى الغابات ، فى زمن أقدم من ذلك الزمن ، وأكثر منه سذاجة ، وذلك قبل أن يظهر الاحتراف وقبل استحداث مناهج التدريب العنيفة · فكان كل ناشىء من أهل المدينة يقضى بضعة ساعات فى الصباح فى احدى لعب الكرة ، أو الجرى ، أو القفز أو رمى القرص ، ثم يعود أدراجه الى منزله فيستحم ويتناول غداءه ، وحتى متوسطو الأعمار كذلك

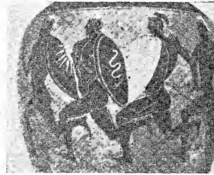


مراعاة الدقة فى تصوير حركات الجسم

تلاحظ خبرة الفنانين اليونانين الشديدة بالمضمار الرياضى ومضمار السباق فى أعمالهم المفصلة تفصيلا دقيقا ، فرسوم هؤلاء الرياضيين تشعرنا بطريقة بارعة بالخطوة البطيئة المنظمة ، الخليقة بسباق المسافات الطويلة ، وليس ما نرى من عربهم اصطلاحا فنيا ، اذ لم يكن اليونانيون يلبسون أية ملابس حين يشتركون فى الألعاب

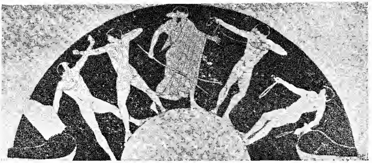
والتنس ومسابقات الجرى ، وهما من العاب زماننا هذا ، من النوع الأخير · الا أن مباريات السباق منقولة بأكملها من الأصول اليونانية ، وكانت مثل هذه الألعاب تحتل مكانة عالية فى أذهان الشعب ، وبلغ تقدمها لديهم مبلغا لم يبلغه عند أى من الآمم الأخرى ·

ومما لا شك فيه أن كرة المضرب « الكركت » وكرة القدم تخلقان الروح الرياضى العالى وتشجعانه كما تثيران فى الشخص الرغبة فى تضحية نفسه فى سبيل فريقه تشجعان عليها · ومن هذه الوجهة كانت الالعاب الحديثة أرقى من الالعاب اليونانية ، الا أن اليونانيين يمتازون بمزايا معينة ، بميزتين بعينهما بوجه خاص ، وأولى هاتين الميزتين هى الشمول ·· هى أن تشمل الالعاب جميع الأفراد الذكور بقدر المستطاع ، لقد جرت العادة بيننا بالتدريج فى الأيام الأخيرة أن يقف الشبان الذين ليست لهم كفايات رياضية خاصة جانبا ، ليشاهدوا المباريات ، بدل أن يشاركوا فيها



اختبار دقيق لطاقة العدائين

كان السباق فى العدة الحربية · وهو من المباريات التى كان على كل متنافس فيه أن يلبس خوذة ويحمل على ذراعه اليسرى درعا ، مما تضمنته برامج الألعاب اليونانية فترة ما من الزمان ، وتشعر هيئة العدائين الموضحة فوق هذا ، وفى رسوم زهرية أخرى بأن هذا السباق كان سباقا قصيرا سريعا



الملاكمة رياضة يونانية محببة

كانت الملاكمة في اليونان القديمة تخضع لمجموعة من القواعد وكانت المهارة والرشاقة تقدران في الأيام القديمة على الأقل بأعلى مما تقدر القوة البهيميه • وكانت أيدى المتلاكمين تربط وهم في الحلبة بسيور من الجلد لحمايتها ، كالتى نراها على أيدى المتلاكمين الحقيقيين فى يسار الصورة ، والتى يحملها الشابان الصغيران الى اليمين ، وهما اللذان يستعدان للنزال • أما الشخص الذى فى الوسط فهو مدرب الملاكمة ، أو أستاذ المضمار الرياضى وفى يده عصا الأستاذيه

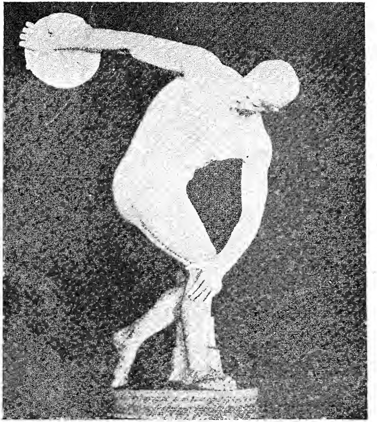
كان لهم أن يستمروا فى مزاولة التدريب ، لأن الخدمة العسكرية كانت فرضا على الجميع ماخلا المسنين ، وكان يجب على كل فرد أن يكون على أهبة الاستعداد للتمرس بمتاعب حملة أو غارة على الأعداء • ولما كانت هذه الواجبات الحتمية تنتهى الى التحام يأخذ فيه الانسان بتلابيب الانسان ، لم يكن يسمح لأحد بأن يكون ضخم الجثة أو قصير النفس •

وكان من سمات التربية البدنية عند الاغريق أن يخلع اللاعبون جميع ملابسهم ، وأن يضمخوا أنفسهم بالزيت • وكان كل منهم يذهب الى الملعب مرة على الأقل كل يوم فيتعرى ثم يدعك جسمه جميعا بالزيت ، ثم يرش التراب أو مسحوقا ما على الزيت ، ثم يزيل هذا وذاك بمكشطة تدعى strigil وهى آلة محناة ذات طرف حاد •• وتلى ذلك التمارين التى قد يليها الحمام ، أو تزييت آخر • وكانت كميات هائلة من الزيت تستخدم فى الملعب • وكانت بساطة الملبس القديم لا تجعل هذه العادات من العادات القذرة ، ومقدار الملابس



الألعاب التى كانت وسيلة بارعة من وسائل التدريب العسكرى

كان اليونانى يدعى الى الجندية من حين الى آخر • وكان لقدرته على متابعة الهجوم الى مسافات كبيرة مدججا بالسلاح قيمة عظيمة من وجهة الحركات الحربيه • كما نهض الدليل على ذلك فى مرثون • ولذا كان سباق الجرى الذى يتسابق فيه العداؤون وهم يحملون أسلحتهم ، اعدادا قيما للخدمة الحربيه ، كما لاحظ ذلك أفلاطون • وقد حمل العداؤون المشاهدون فى هذه النقوش على أحدى الزهريات الدروع المستديرة وطرز الخوذات التى كانوا يلبسونها عادة ، ثم أخذوا يقومون بحركات عنيفة كالتى يقوم بها المتبارون اليوم

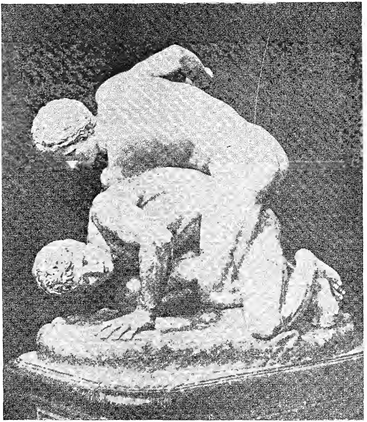


تمثال من الحجر يخلد الرشاقة الفائقة فى حركة أحد الرياضيين

يدين تمثال الـ دسكوبولوس ، قاذف القرص ، بالشيء الكثير للعلاقة الوثيقة بين الفن اليوناني وبين الألعاب الرياضية ، وهذا التمثال هو واحد من أجمل دراسات الجسم الانساني التى قام بها أحد فى جميع العصور . ولم يستطع فنان قط أن يبتكر وضعا خيرا من هذا الوضع ، لاظهار التناسب التام بين أجزاء جسم هذا الشاب اليافع .. هذا التناسب الذى يبدو به جسمه يهم برمى القرص دون أى تكلف .. وهذه رياضة تشترك كل الأعضاء فى ادائها ، كما أن الحركة الرشيقة المنسجمة من ضروراتها

التى يلبسها الرجال أو النساء هو الى حد كبير مسئلة تعود . ويستطيع الانسان أن يتعود كثرة الملابس أو قلتها ، الا أن اليونانيين كانوا يؤمنون ايمانا تاما بأن لبس أى لباس فى أثناء التمرينات الرياضية ممالا يخلق بالرجال ، وأنه من العادات التى لا تجمل الا بالهمج ومناخ البلاد اليونانية هو بالطبع أدفأ من مناخ بلادنا بمراحل .

وسمة أخرى من سمات الرياضة عند اليونانيين ، هى تهذيب شكل الجسم ، أو ما كانوا يسمونه ، الاتزان ؛ اننا نحن المحدثين ننظر الى النتائج فحسب .. هذا اللاعب قطع هذا الميل فى كذا من الدقائق وكذا من الثوانى .. وذاك قفز قفزة طولها كذا قدما ؛ أما الاغريق فكانوا يعلقون أهمية كبيرة على الكيفية وعلى النتائج فى وقت واحد ، وكانوا



تمثال يصور تصويرا رائعا المجهود الذى يتطلبه نضال عنيف شاق

كان للاغريق ، فضلا عن الملاكمة والمصارعة ، لون ثالث من ألوان الجلاد الرياضى ، هو هذا البانكراتيوم ، الذى كان يسمح فيه بالمسك واللكم فى وقت معا . وكانت المباراة لا تنتهى الا اذا اعترف أحد المتباريين بالهزيمة . وقد أتاح لاعبو البانكراتيوم بجسومهم الرائعة ، وبأوضاعهم التى كانوا يضطرون اليها أثناء ملاحمهم ، فرصا ليس كمثلها فرص للمثالين الذين كانوا يستغلونها لفنهم على أتم الوجوه ، كما نرى فى هذا التكوين الذى يعد آية من الآيات (وقد جدد تجديدا كبيرا)

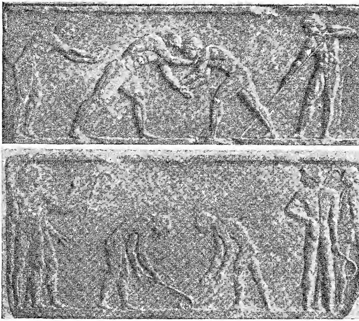
يتهامسون باللاعب الفج كما نتهامس نحن بالممثل الردىء . وكان من الشائع عند أولئك الذين يشتركون فى التمرينات الرياضية أن يمارسوها على نغمات الناى .

ولقد كانت الألعاب العظمى تحمل طابع القومية وديانة اليونان العليا عندما كانت تجرى هذه الألعاب فى أولمبيا مقر زيوس ، وفى دلفى ، مقر أبوللو ، وفى الاتموس (البرزخ) ، فى نطاق بوسيدون ، انه لم يكن ثمة شىء يعمل على نمو القومية اليونانية والحضارة اليونانية مثل هذه الاجتماعات الجليلة .. لقد كان الناس يهرعون من كل أصقاع العالم اليونانى ، الى أولمبيا أو دلفى .. من جنوب ايطاليا ، ومن صقلية ، ومن جزائر الشاطىء الأسيوى ، بل لقد كانوا يقدمون من المستعمرات اليونانية فى القرم وفى افريقية ، وكان بعضهم يقدم لزيارة

الأضرحة المقدسة ، كما كان البعض يقصد الى لقاء أصدقائه أو لتسقط الأخبار .

بيد أن المباريات الرياضية كانت المظهر العظيم لهذه الأعياد . فقد كان اللاعبون يتبارون ، أحدهم مع أحدهم الآخر ، في كل الألعاب الرياضية ، طبقا لقوانين صارمة ، وبعد تمرين جدي ، مدى ثلاثين يوما . وكان الفائزون الذين كانت جوائزهم لا تعدو أكاليل الغار ينالون من صنوف التكريم وألوان الشرف ما يكاد يذهب بألبابهم ، فاذا عادوا الى أوطانهم اجتمع أهالي المدينة طرا لتحيتهم ، وكان من حقهم في بعض المدن أن يتغدوا مع رجال الحكم في ندوة المدينة ؛ وكانت أسبرطة تميزهم بهذا الامتياز الأسبرطي ، من حيث صفهم حول المليك في ساحة الوغى ، كما كانوا يسبغون الشرف الخالد على منازل آبائهم ، وكان كبار الشعراء ينظمون الأهازيج لتنشد اشادة بذكرهم ، ومن تلك الأهازيج طائفة من نظم الشاعر پندار لا تزال موجودة الى الآن . وكان أعاظم المثالين يفخرون بنحت التماثيل لهم . .

على أنه مما يشدهنا ألا نسمع شيئا تقريبا عن الخاسرين من اللاعبين ، ويظهر أنهم كانوا يتوارون عن الانظار من غير أن يحس بهم أحد ، ودون أن يلقوا تكريما من أحد ، الأمر الذي يلفتنا الى فقدان الشعور بالفروسية ، واحترام الفشل الشريف ، في زحمة هذه السجايا الرياضية العالية المدهشة جميعا : وهي السجايا التي لم تنتعش الا في ظل المسيحية فحسب .



ألوان كثيرة من النشاط الرياضي كانت تجتمع كلها في الملعب

وجدت هذه الألواح مبنية في قاعدة سور أثينا وهي من الأمثلة الشائقة من نقوش أواخر القرن السادس البارزة ، وكان المتبارون يتقابلون وجها لوجه طبقا لقوانين المصارعة اليونانية ، وذلك كما هو مشاهد في اللوحة العليا ، وكانت المصارعة على الأرض محظورة ، وكانت هزيمة اللاعب تتم بالقائه على الأرض ثلاث مرات ، ويبدو أن اليونانيين كانوا يلعبون نوعا من الهوكي كما يظهر من اللوحة السفلى . وتومىء صورة الشخصين الأوسطين بشكل قاطع الى وضع الابتداء في لعبة الهوكي

وجلى أننى لا أستطيع أن أستعرض هنا تفصيلات التمرينات التى كان يمارسها اليونانيون كلها ، وثمة بيان بارع عنها فى رسالة الدكتور نورمان جاردنر المسماة « ألعاب الاغريق الرياضية » ، «Greek Athletic Sports» والمؤلف عالم متمكن ، وله المام تام بطرق المحدثين فى مزاولة الألعاب الرياضية ، وذلك ما يجنبه الكثير من الاخطاء التى تشين مؤلفات من سبقه من العلماء •

وكان الرقص ولعب الكرة من الرياضات التى لعلها كانت تعد تمهيدا للألعاب الأصلية • وكانت فكرة الاغريق فى الرقص تختلف عن فكرتنا فيه ، فلم يكن الجنسان يراقص أحدهما الآخر ، أزواجا ، كما هى العادة الآن؛ وكان رقص الرجال يقوم على المحاكاة عادة ، فيقوم الرجال فيه بحركات يحاكون بها حركات المحاربين أو حركات رجال الصيد والطراد ، ولكن فى لطف وتؤدة ، لا فى عنف وصرامة ، صادرين فيها على صوت مزمار • ومن هنا كان رقصهم أشبه بالرقص الشعبى الحديث •

أما لعب الكرة فكان على أنواع جد مختلفة بيد أننا لا ندرى عن أنواعها الا قليلا ، وكان يزاولها كل من الرجال والنساء، وكان الاسكندر الأكبر مولعا بها، مما يذكرنا بولع ملوك الانجليز والفرنسيين بلعبة (التنس) •

وبعض رياضات الاغريق ، مثل الجرى والقفز والمصارعة، هى من أبرز ضروب المباريات الرياضية فى كل مكان • وثمة رياضات أخرى كانت وقفا عليهم • مثل قذف القرص ورمى الحربة ، وسباق السلاح ، وسباق المشاعل ، وان أحيا الناس بعضا من هذه الألعاب فى العصور الحديثة متأثرين بهؤلاء اليونانيين القدامى •

وكان طول سباق المسافات القصيرة هو طول ميدان السباق فى أولمبيا ، وهو أقل قليلا من مائتى ياردة ، أما سباق المسافات الطويلة فكان يتضمن الجرى بطول ميدان السباق ، ثم الدوران حول سارية ، والعودة ثانية •• وربما تكرر ذلك عدة مرات• وتصور رسوم الزهريات التى سنتكلم عنها حالا ، المتسابقين فى المسافات الطويلة وقد ثنوا أذرعهم الى جوانبهم ، أما فى المسافات القصيرة فتصورهم وهم يؤرجحونها



دراسة لأحد المتبارين على جائزة

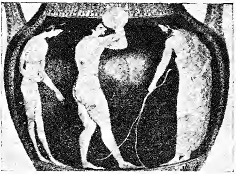
كانت الأشرطة الجلدية التى تلف حول يدى الملاكم تقوى فى العهود الأخيرة بسيور متينة كتلك التى لفها هذا الملاكم حول أصابعه ، وتصور لنا أذنه القرنبيطية مقدار التلف الذى كانت تحدثه هذه (القفازات)

أماما وخلفا لتزيد فى سرعتهم • وقد أثبت التصوير الشمسى السريع أن هذه لا تزال عادة عدائينا الى اليوم • وكانت تحفر فى الحجر ، فى خط الابتداء نقر يضع فى احداها كل من العدائين على ما يظهر احدى قدميه ، مما لا يزال يشاهد فى ميادين السباق بأولمبيا ودلفى •

وكان من أنواع السباق نوع يجرى فيه العداءون وهم شاكى السلاح ، فكانوا يلبسون خوذا على رؤوسهم ، ودروعا على أذرعهم اليسرى وكان هذا النوع من السباق من الألعاب المحببة جدا الى اليونانيين ، وليس هذا بعجيب ، اذ كان اعدادا مباشرا للهجوم فى ميادين القتال ، وقد جرى الأثينيون فى هجومهم على جيش الفرس فى مرثون (وذلك حسب ما ذكره هيرودوتس على الأقل) أكثر من ميل فوق أرض غليظة ، مما أدهش أعداءهم من اندفاعهم دهشا جعلهم يستوثقون من انتصار اليونانيين ، وثمة نوع

وكانت المصارعة من النوع المعروف عندنا اليوم باسم المصارعة القانونية(١) Upright فكان المتباريان يقفان وجها لوجه ، وقد طلى جسماهما بالزيت ، والفائز هو الذى يصرع خصمه ثلاث مرات صرعا قانونيا لا لبس فيه . أما المصارعة على الأرض فيبدو أنها كانت تنحصر فى نوع آخر من الألعاب كانوا يدعونه (بانكراتيوم) وهو نوع يجمع بين المصارعة والملاكمة . وكانوا كثيرا ما يعدون هذه الرياضة رياضة خشنة وحشية لأنه كان يسمح للمباريين بأن يضرب أحدهم الآخر ويصرعه ويرضه حتى يسلم احدهما بالهزيمة . الا أنه قد تبين أنها تشبه المصارعة اليابانية من وجوه كثيرة ، تلك المصارعة التى يدعونها (ال ـ جوجتسو) والتى يعترف فيها أحد المتباريين بالهزيمة بطريقة رفع اليد . ولم يعترف فى وقت من الأوقات بوحشية هذا النوع من أنواع النضال ، وان كان من مستلزماته اتباع نظم صارمة .

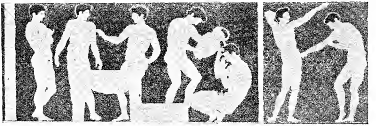
وكانت الأيدى فى الملاكمة فى الأزمان القديمة تلف فى سيور طويلة من الجلد ، لم يكن يقصد منها الى تلطيف اللكمة بقدر



ارشادات فى قذف القرص

كان الاغريق يقدرون الاسلوب تقديرا عاليا جدا فى جميع أنواع الألعاب الرياضية ففى هذا الرسم الزهرى ، المحفوظ الآن بمتحف ميونخ ، نرى مدربا ذا لحية من مدربى المضمار ، وفى يده عصاه المتشعبة ، يرى شابا كيف يضع قدمه حينما يقذف القرص الذى كان صفحة مستديرة ثقيلة تصنع عادة من الحديد أو البرونز

آخر من أنواع العدو المحببة ، هو سباق المشاعل الذى كانت تنقل فيه الشعلة ، على ما هو معروف عندنا فى سباق التتابع ، من يد الواحد من أعضاء الفريق الى يد واحد آخر حتى تصل الى نقطة الانتهاء آخر الامر ، وكان هذا النوع من السباق يقتضى حذرا شديدا حتى لا تنطفىء الشعلة بحال .



وسائل بدائية للاغتسال فى الملعب ، الا أنها وسائل فعالة

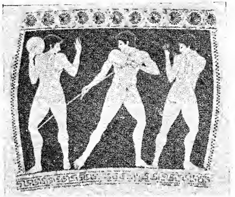
لم يكن الحمام فى اليونان القديمة هو هذه المنشأة الهامة التى كانت فى رومة بعد ذلك ببضعة قرون . ولا يعنى ذلك أن اليونانيين لم يكونوا يعنون بالنظافة فى ألعابهم الرياضية ، فقد كان رجالهم يغتسلون كثيرا عقب تمريناتهم الرياضية اليومية التى ترفع الحرارة وتسيل العرق . ونرى هنا ثلاثة من الشبان مجتمعين حول حوض الاغتسال فى الملعب . بينما يستمتع آخر بالماء يصبه عليه أحد الرفاق عفوا ، أما الصورة اليمنى فلشابين منهمكين فى دعك جسميهما

(١) التى يلتزم فيها المتصارعان أصولا بعينها وهى ضد المصارعة الحرة التى لا قانون لها

ما كان يقصد الى حماية اليد ، وكان يتخذ لهذا الغرض الأديم الصلب الذى قد يحدث الجروح البليغة ، وذلك فى العصور الهيلانية المتأخرة . وكانت القفازات Caestus فى العصر الرومانى تثقل بالحديد والرصاص . ويقع بين مباراة الملاكمة التى وصفها هومر ، والمباراة التى وصفها فرجيل ، فترة طويلة من التغيرات حلت فيها ملاكمة الاحتراف محل ملاكمة الهواية ، كما حلت الوحشية محل الرياضة الكريمة .

وكان الوثب يقدر بطول الوثبة لا بارتفاعها . ويظهر أن المبارى قد وجد أن استعمال الأثقال - كالأثقال الحقيقية مثلا (Dumb-bells) ، كان يساعده على الوثب اما من موضع الوقوف ، أو بعد أن يجرى بضع خطوات ، الا أن الوثب لم يكن من المباريات المستقلة بنفسها بين الألعاب ، بل كان حلقة من المجموعة Pentathlon أو المباراة ذات الحلقات الخمس .

وفى البنتاتلون ، يجب أن يقهر المبارى خصومه فى ثلاث حلقات من خمس : هى العدو ، والوثب ، وقذف القرص ، ورمى الحربة ،



التدريب الرياضى فى عنفوانه

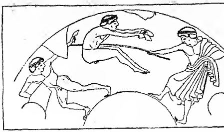
لما كان اليونانيون يعتقدون أن الرشاقة والمهارة فى الألعاب ، المتحصلة من التخصص ، هما من الأهمية فى المكان الأول ، فقد كان التدريب الرياضى لا ينقطع فى الملعب أو المضمار ، وفى هذه الصورة نرى قاذف القرص وهو يهم للقذف . ورامى الحربة وهو يشرع فى التجربة الأولى ، ثم ملاكما هاويا يقوم ببعض حركات الملاكمة على ما يظهر

والمصارعة . وكانت هذه الرياضات تمريناً لجميع أجزاء الجسم ، فالجرى يمرن الأرجل ، ورمى الحربة يمرن الذراعين ، والمصارعة تمرن الجذع ، وكان الذين يتفوقون فيها يعتبرون



شبان يستعدون للسباق وهم يحملون الأسلحة

كان اليونانيون يعدون الألعاب الرياضية عنصرا بعيد الأثر من عناصر التربية . ولهذا كان مدرسو الألعاب مربين أكثر مما كانوا مدربين رياضيين . ونرى فى هذه الصورة الزهرية مدرسا يلقى نصائحه على تلاميذه الذين يتدربون على سباق الجرى مع حمل الأسلحة . والى يساره شاب انتهى كما هو ظاهر من شوط تدريبى مجهد ، والى يمينه شاب آخر يوشك أن يبدأ الشوط ، ثم شاب ثالث ، من الجلى أنه جاء فيما بعد ، يشتمل دروته ، وقد وضع ترسه وخوذته جانبا



الرشاقة في اداء حركة الوثب الطويل

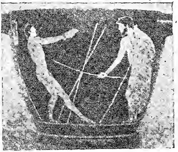
كان للوثب نصيبه في المباريات ، وكان الفائز هو من يثب أطول مسافة ، ويقال ان الرقم القياسي كان خمسا وخمسين قدما ، الا أن هذا مما لا يمكن تصديقه . وكان الواثبون يحملون أوزانا خفيفة لتكون لهم منها قوة دافعة وكانوا يبدأون الوثب عادة من مرتفع قليل

أكمل لاعبي القوى ، وكانت صورهم البرونزية بالحجم الطبيعي ، تشـاهد بكثرة في الأماكن اليونانية المقدسة : وكان قذف القرص يتضمن حركات موسيقية لجميع الأعضاء ، أما القرص فصفحة مستديرة من المعدن تزن من ثمانية أرطال الى اثنى عشر رطلا ، وقد خلد ذكرها المثال العظيم ميرون Myron بتمثاله الرائع : رامي القرص ، ولقد أدخلت هذه اللعبة منذ عهد قريب في دورات الألعاب الأوليمبية الحديثة التي عادت سيرتها الأولى في هذه الأيام .

ولدينا دليل عن بعض المنقوشات الحجرية الأثينية على أن سباق الزوارق كان سمة من سمات بعض الاعياد ، الا أن الزوارق المستعملة لم تكن الـ Trireme : كما جاء في رواية فرجيل ، ولا زوارقنا الحديثة النهرية الخفيفة (اذ لم تكن ثمة أنهار كبيرة في بلاد الاغريق) .. انما كانت زوارق بحرية تسير بالمجاذيف بأيدي الشباب الأثينيين الذين كان يطلق عليهم اسم افيبي Ephebi ، وبما أن أن جميع ألوان القتال البحري في اليونان كانت تجري في قوارب تسير بالمجاذيف ، فيجب اعتبار مباريات زوارق السباق هذه من الرياضات العسكرية .

الألعاب الرياضية على الزهريات

وثمة نوع جميل جدا من الزهريات الاثينية المصورة تسمى الزهريات ذات الرسوم الحمر ، لأن الاشكال مرسومة باختصار على صلصالها الأحمر الذي صنعت منه ، بينما طليت الأرضية بصباغ أسود . وهذه الزهريات من منتجات العصر الذهبي للفن اليوناني (٥٢٠ – ٤٤٠ ق . م) وهي أمثلة عجيبة من أمثلة الظرف والدقة في الرسم (أنظر ص ٥٩٥ – ٩٦) وثمة أيضا نوع من القدور ذوات المقبضين التي ترسم أشكالها في صور جانبية تخطيطية باللون الأسود على أرضية حمراء . وكانت هذه القدور تمنح جوائز للفائزين في أثينا في المهرجان الرياضي المسمى « باناثنايا Panathenaca » الذي خلد ذكره بالنقش التذكاري في جزء من افريز البارثينون ، محفوظ في المتحف البريطاني ، وتوجد نماذج كثيرة لهذين النوعين من الزهريات في جميع متاحفنا الكبرى . والرسوم الموجودة بهذه الزهريات تنقلنا في وضوح وجلاء الى صميم الألعاب الرياضية الاغريقية وصميم الاعياد التي كانت هذه الالعاب من سماتها البارزة ، وهي ترينا الشباب الأثيني في ملاعبهم يستحمون ويضمخون أنفسهم بالزيت ، أو يباري بعضهم البعض في الجري والملاكمة والألعاب الأخرى التي كانت معروفة في زمانهم ، وستعطي القارىء صورنا التوضيحية التي نقلناها عن هذه الزهريات فكرة أكثر وضوحا عن الألعاب اليونانية من كثير من الصفحات التي نصف فيها



حركات يقوم بها الرياضي قبل الوثب

كان اليونانيون يمارسون نوعين من الوثب الطويل ، ففي أحدهما كان الواثب يجري مسافة قصيرة قبل الوثب ، وفي الثاني كان يبدأ الوثب من مكان الوقوف : وكانت (الدفاعات) أو الأثقال تستعمل في كلا النوعين ، فكان اللاعب يؤرجحها قبل بدء الوثب ثم يسقطها اذا وثب

(١) هي نوع من الزوارق القديمة اليونانية لها ثلاثة صفوف من المجاذيف على كل من جانبيها

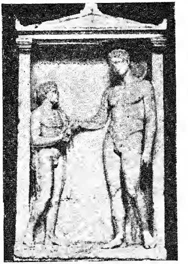
هــــذه الالعاب وصـــــفا من العسير بالضرورة تتبعه ٠

ولم تكن المباريات الرياضية وحدها هي التي تجرى في الأعياد اليونانية ، وان تكن حقا طابع الألعاب الكبيرة الأساسي ٠ فقد كانت تجـرى ثمة كذلك مباريات في الموسيقا والغناء ، وفي انشاد الشعر ، ولا سيما في دلفي وأثينا ، وكان ذوو اليسار ممن نحول طبيعة تركيب أبدانهم دون البراعة في الحركات الجسمانية ينبـــارون بواسطة الخيل ــ وذلك بأن يتسابقوا في عربات تجر كلا منها جياد أربعة ، وهكذا كان يزداد الاحتفال بهاء وروعة ، وهكذا كانت الانتصارات التي ينــالها أصحابها عن طريق الانفاق المالي السخي تقع من نفوس اليونانيين ذلك الموقع السامي الذي تقعه الانتصارات التي يفوز بها أصحابها لما أوتوه من بأس وقوة ، وذلك ما يتفق تمام الاتفاق والطبيعة البشرية ، وكان الفرق بين هذين الضربين من المباريات هو أنه بينما كانت مســـابقات الخيل انما تساعد على انتاج



شهيد الرياضة

كانت الأعيــــاد الرياضية العظمى تثـــير من الحماسة ما يجعل متبارين كثيرين يحملون قدرتهم الجسمانية ما لا تطيق ، وقد سقط لاداس ــ وهو رياضي اسپارطي ميتا بعـــد فوزه بســـباق الأربع وعشرين لفـــــة ، ويصور لنا هــذا النصب عداء يموت عقب حادث مماثل



تخليد ذكرى لاعب

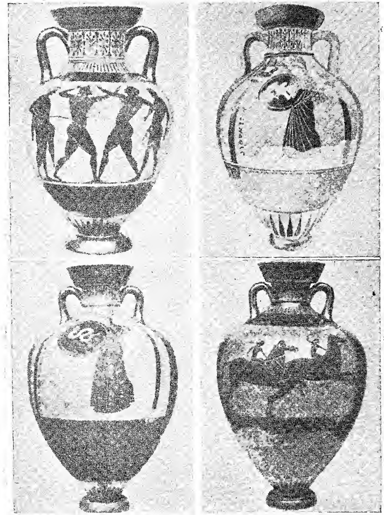
صورت لنـــا طرق تكريم الرياضيين عنــد اليونانيين تصــــويرا شاحبا في النفوس وفي بعض الآثار التي من قبيـــل هـــذه اللوحة الجنائزية ذات النقش البـــارز ، التي نرى فيها شابا يتسلم زهرية من تابعه ٠

أنسال الجياد الحسنة ، كانت الألعاب الرياضية ترفع من مستوى الجمال والكفاية عند الرجال ٠

وليس لدينا كثير مما نذكره عن ألعاب النساء الرياضية ، فقد كانت المرأة الأثينية المحجبة تتسلى بألعـــاب الــكرة ، ولم يكن الفيلسوف زينوفون يرجو من الزوجة الــــكاملة الا أن تنفق كثيرا من وقتها في تنظيم ملابس الأسرة النيلية وطبها ، وهو عمل لا يشغلها طويلا ، الا أنهم يذكرون أن الفتيات الأسپرطيات كن يقمن بنفس التـــداريب التي كان يقوم بهـــا الشبان ٠

وكان الفتيات يشاركن في سباق الجرى في أولمپيا ، في عيد هيرا Hera ، وان كانت المسافة التي يقطعنها تقصر بالقيـــاس البهن ، كما هي الحال اليوم في سباق الجولف ٠

ولا بد من الاشـــارة الى ما أصاب الألعــــاب الرياضية اليونانيــــة من تدهور وانحــلال ، والحديث عنذلك يكون فصلا من أحسن الفصول

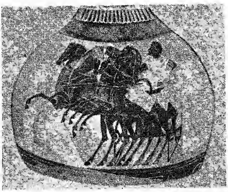


كيف كان فن نقش الزهـريات نفسه متأثرا بالألعـاب الرياضية

كان لهذه الزهريات قيمة فائقة فى أعين أصحابها لأنها أعطيت لهم جوائز فى ألعاب أكبر الأعياد الأثينية ، مع انها قد لا تكون من الوجهة الفنية من أرقى الأنواع . ونرى فوق زهريتين منها صورة أثينا العسكرية التى كان يعتقد أنها تراس العيد ، واحدى هاتين الزهريتين (العليا الى اليمين) كانت جائزة نالها لاعب أسبرطى . أما الزهريتان الأخريان فتزدان احداهما بصور ندب فيها الحياة لسباق بين الجياد ، وتزدان الأخرى بمباراة فى الملاكمة

فائدة فى التاريخ القديم جميعا · لقد رأينـا ما كانت عليه هذه الألعاب فى أوجها ، فى أزمان الحروب الفارسية ، وفى عهـد الامبراطورية الأثينيـة فى القرن الخامس ·

لقـد كان أحـكم حكماء اليونانيين يشغفون بالقولة المأثورة ، لا خير فى تجاوز الحد Nothing in Excess ، اذ كانوا يحبون الاعتدال والتناسب فى الأشياء جميعا ، وكانوا يرون ألا بد من اتساق الجسم فى أجزائه . فلا يرتقى عضـو على حساب عضو آخر · ولا يرتقى الجسم بحاله ما على حساب العقل أو الروح · وكانت أول علامة من علامات انحلال الألعاب الرياضية التى بدت قبل نهاية القرن الخـامس هى تجاوز الحـد فى التخصص الرياضى ، وقدلاحظ سقراط أن العدائين يغلب أن تكون لهم أرجل تجاوزت حد النمو ، وجذوع واهية ، بينما تكون الأجزاء العليـا من جسوم الملاكمين مكتنزة العضلات ·



تخليد ذكرى فوز رياضى

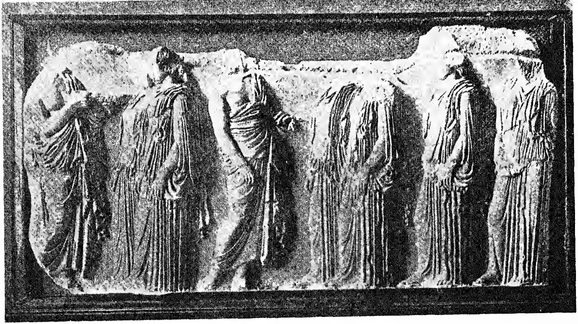
كان رسم كل زهرية تمنح جائزة فى عيد الألعاب الأثينية الأكبر يتناسب والرياضة التى تمنح للفوز فيها · فهذا الجانب الذى نراه من تلك الجائزة التى نالها أحد اللاعبين الأسبارطيين محلى بصورة مثيرة لعجلة ضئيلة تجـرها جياد متوثبة

والاكتشاف الهام الذى انتهوا اليه هو أن الرياضى كان يوجه نماء جسمه الى أجزاء خاصة بواسطة تدريب مجهد وتمارين متكررة حتى يصبح ذلك الجزء شديدا صالحا لبعض المباريات المعينة ، الا أنها أقل تناسبا وأدنى من الوجهة الصحية ـ لقـد كان هذا اكتشافا مشئوما ، لأن خير ما يؤدى الى النجاح هو النجاح نفسه ؛ والرياضـيون الذين كانوا يتخصصون على مدربيهم لم يكن من الميسور أن يقف أحد بسبيلهم، الا أنه عنـدما أصـبح من الضرورى أن يكرس الملاكم حياته كلها للملاكمة ، أو العداء للعدو . وذلك ضمانا للنجـاح ، كان ذلك مدعاة لأن يحتقر الملاكمة والعدو كل من عنده مسكة من الادراك وحسن الفهم ·

والتخصص يؤدى مباشرة الى ما نسميه الآن الاحتراف ، والرياضيون النـاجحون ينقلبون بين حفلة رياضيـة وحفلة رياضيـة أخرى ، تحـدوهم الرغبـة فى ضرب رقم قيـاسى ، أو المحافظة على سـبقهم الذى أحرزوه بها من قبل . ولم يكن يمكن ممـارسة ما نسميه اليوم ، مسابقة لمجرد الحصول على الجوائز Pot-Hunting ، فى بلاد اليونان ، لأن الجائزة الرياضية لم تكن تتعدى الاكليل من الزهر أو أغصان الشجر ، وذلك الى زمن متأخر جدا فى التاريخ اليونانى . ومع هذا ، فالانتصارات فى الألعاب ظلت تخول صـاحبها شرفا رفيعـا ومنافع كبيرة ، فربمـا مكنه ، اذا أراد أن يكون ممرنا ، من الاشتغال بعمل مربح يدر عليه أخلاف الرزق ·

ومما نتبينه بوضوح فيما أنشـأه الكتاب اليونانيون فى أواخر القرن الخامس تلك المبادىء الخطرة التى اعترت التدريب الرياضى ، فقدكان من دأب اليونانيين ألا يأكلوا كثيرا من اللحم ، وكان غذاؤهم يتألف على وجه خاص من الخبز والسمك والجبن والفاكهة واللبن . وكان بحسب رياضيى العصـور القـديمة العظماء ، أمثـال ثيجين Theagenes وميلو Milo وفيللوس Phayllus أن يتناولوا هذا الغذاء ، غير أنه وجد مدربان ، هما درومبوس الاستمفالوسى ، وفيثا غوراس الساموسى ، اكتشفا أن أنجح المتقدمين للمباريات الرياضية الأكثر مشـقة وجهـدا ، كالملاكمـة والمصارعة والبانكراتيوم (١) هم أولئك الذين دربوا على أكل اللحم ، ذلك الغـــذاء الذى لا يلائم طبيعة المناخ فى بلاد الاغريق ، ولهذا كانوا يطعمون تلاميـذهم كميـات كبيرة من

(١) لعبـة يونانيـة تجمع بين المصارعة والملاكمة فى وقت معا (المترجم) ·



بعض عابدات الربة أثينا يعرضن منظرا جليلا من مناظر المواكب فى افريز البارثينون

كان اليونانيون قبل القرن الرابع (ق . م) يعدون من غير اللائق تصوير المرأة بدون ملابس ، وذلك فى الوقت الذى كانوا ينتجون فيه عددا لا يحصى من التماثيل والنقوش البارزة والصور التى تمثل الرجل عاريا . وكيفما كان الأمر فقد برهنوا على أنهم أساتذة فى فنهم وذلك فى طريقة تصويرهم الأبراد النسائية فكانوا يضفون عليها نفس الرونق الذى يضفونه على ماينحتون أو حين يصورون جذع أحد الرياضيين وكانت الثنيات الطويلة وما تشير اليه من الجوارح التى تخفيها تتيح أحسن الفرص المثال لاظهار عبقريته . وكذلك كان الانسجام التام بين تقاسيم الجسم وبين الأردية يهيىء لدراسات النسوة المتجلببات الجمال الرائع الذى يتجلى فى هذا الافريز

اللحم ، ثم يأخذونهم بحياة يتعاقب فيها الكسل والنمرين لكى يهضموا ما أكلوا ، وذلك لكى يضمنوا لهم أجســاما كبيرة الجرم ، وعضـلات مكتنزة بارزة ·

ومنذ ذلك الوقت انحطت سمعة الرياضيين انحطاطا سريعا ، ويقول زينوفون أن ســقراط كان يستهجن التخصص فى الألعاب الرياضية بوصفه مفســدا لروح الرياضيين ؛ وقد ظفر أفلاطون فى مبـاريات المصارعة فى دلفى وفى البرزخ ، الا أنه يتكلم فى مؤلفاته بامتعاض عن حالة الرياضى المتخصص الذى هو عرضـة دائما للمرض اذا اختل نظامه يوما ما ·

وقد هجر الرياضة البدنية ، الوطنى الطيبى الذى يحتذى به ، ايپامينوداس ، عندما دعاه داعى الحرب ، ليتـدرب التداريب التى تنبغى لرجل الحرب الحقيقى ·

وقد كانت لدى الاســكندر الأكبر كذلك فكرة سيئة جدا عن كفاية الرياضيين العسكرية ، فكان يعدهم على درجة كبيرة من الطراوة التى تباعد بينهم وبين مشاق الحملات العسكرية ·

وكان كتاب جوامع الكلم لا يفتأون يسخرون بالرياضيين ، وبما لهم من عضل كبير مكتنز ، وأحلام تافهة ، وبشهيتهم التى لا تنفك تحلم بالطعام ، وبميلهم الى النوم ، وايثارهم الخمول ·

ولما قلت عناية الشباب الأثينى برياضتهم اليومية ، وأخــذوا يقنعون بمجرد التفـرج بالمباريات الرياضية بين المحترفين بدلا من أن يتباروا هم فيما بين أنفسهم بدأ الانحلال يدب الى بنيتهم · وقد صور لنا أرستوفانز فى ملهاته السحاب صورة تظهرنا على التباين بين شاب من الطراز القــديم ، بديع التكوين ، ينفح جسمه المتورد صحة وعافية لطول تعرضه للهواء ، حتى أصبح نموذجا للرشاقة واعتدال الخلق ·· ثم شاب من شباب الجيل الجديد ، أصفر الوجه ، ضيق ما بين المنكبين ، يقضى وقته متبطلا فى سوق المدينة ، غارقا فى ظلال النعيم والترف ·

فاذا كانت العصور الهيـلانية المتـأخرة والرومانيـة ، كنـا ازاء طور ثالث من أطوار الألعاب الرياضية يجوز تسميته الطور العلمى ، أو طور الادراك الذاتى ؛ وقد صــور لنــا هذا أحسن تصــوير وأبدعه ، الطبيب العظيم جالينوس Galeno ، الذى وصــلت مصــنفاته الطبيـة مستوى أرقى كثيرا مما وصلت اليـه أية مصنفات حـديثة حتى قيام الطب المنهجى بعد عصر النهضة . فما ان وافى عصر جالينوس حتى استقر استقرارا تاما فرق ما بين الرياضى المتخصص ، المتدرب تدريبا عاليا ، والرياضى العــادى الحـدث ·· وكان رأى جالينوس فى الرياضى المتخصص رأيا سيئا جدا ·· فلم يدع الاخصائية الرياضية حرفة ، لأنها عنده لا ترمى الى تحسين الحياة ·



لطف استخدام الأردية

عــرف اليونانيــون معرفة جيــدة كيف يستخدمون الأردية فى اضــفاء مسحة من الجلال على ما ينحتون من تماثيل ؛ ولكنهو هذه الصــورة القديمة لامرأة من صــنع أنتينور (القرن السادس ق . م) مهـابة قدسـية فائقة ترجع الى درجة كبــيرة الى ملابسها المزركشة

كما كان يرى ألا نصيب للاخصائيين الرياضيين في نعمة العقل والادراك ٠٠ فهو يقول :

ان أرواحهم ترزح تحت لحومهم المكتنزة ، ودماغهم الثقيلة ، كما ترزح تحت حمأة من الوحل ، بل انهم لا ينعمون حتى ببركات الجسد ، فهم ينفقون حياتهم في ارهاق أنفسهم بالتمرين وبالأكل وبالنوم ، مطرحين القانون الصحي القديم الذي يوصي بالاعتدال في كل شيء ٠٠ وهم لا صحة لهم ، ولا جمال ، بل انه لا فائدة من قوتهم التي يباهون بها ويختالون ٠

وجالينوس ، بالرغم من نفوره من الرياضة التي تتخذ حرفة ، يقدر مزايا التربية البدنية الحقة ، حق قدرها ، وقد أنشأ رسالة عن لعبة الكرة التي لابد أنها كانت قد بلغت من الرقي قدرا فائقا ، وذلك بما كان لها من الشأن العظيم في أسبارطة ٠ فهو يقول انه كان من الممكن أن نمارس بأية درجة من الاعتدال ٠ أو الحماسة ، ثم انها تمرن جميع أجزاء الجسم ، من الأرجل الى الأيدي ، الى الأعين على حد سواء ، بينما هي تشغل الفكر في الوقت نفسه ؛ وجلي أن الكرة كانت تحتل في اليونان القديمة نفس المكانة التي تحتلها الآن بيننا الجولف والتنس ٠ ويلخص الدكتور نورمان جاردنر التاريخ الرياضي لليونان في العصور الأخيرة في عبارات يصح أن تكون نذيرا لنا ٠٠ حيث يقول :

ليس ثمة شيء يتجاوز فيه الحد فيكون خطرا أكبر الخطر كالألعاب الرياضية ، ويجب ألا يعمينا سحر الشعر وفنون الفنون عن ذلك العامل من عوامل المبالغة الذي يكمن في عبادة البطولة في شخص الرجل الرياضي ، والتخصص هو الهة النقمة الكامنة في تجاوز الانسان حده في الألعاب الرياضية ، فالتخصص يؤدي الى الاحتراف ، والاحتراف هو كأس المنون التي تقضي على الروح الرياضي الصحيح » ٠

لقد نشأ شعورنا بجمال الجسم الانساني ، واعجابنا به مقترنا بنظرتنا الى الشباب من الذكور ، أما تقديرنا لمفاتن النساء أو الشباب أو الحيوان فقد جاء بعد ذلك ، وهذا هو ما لابد أن يفهمه تفهما تاما كل من يتصدون للنظر في آثار الفن الاغريقي في تسلسلها التاريخي ، فأقدم التماثيل تصور الشبان اليوافع عراة ممشوقين ذوي عضلات فولاذية ٠

وليس ثمة أروع من تمثالي كليوبيس وبيتون (ص ٢٩٩) اللذين عثر عليهما المنقبون الفرنسيون في دلفي ٠ وقد أقامهما أهل آرجوس تخليدا لذكرى عمل من أعمال القوة والتقوى قام به الشابان ، بجرهما العربة التي كانت تحمل أمهما لتشهد عيدا في آرجوس وتسترعي انتباهنا بساطة التمثالين كما تسترعيه بنية البطلين القوية المبينة ٠ وكان المثال الذي صنع التمثالين من أهل آرجوس ٠ ويصح وضع تمثاله بين أقدم تماثيل الأبطال الرياضيين التي تزين الأماكن المقدسة للألعاب الرياضية ، وأسواق المدن ٠

ويرجع تاريخ هذه التماثيل الى حوالي سنة ٦٠٠ ق ٠ م ٠ ومنذ هذا الوقت نجد بين أيدينا سلسلة متصلة من تماثيل الرياضيين ، وكثير منها موجود في متاحفنا ، وهي تتدرج في سحرها وفي درجة دبيب الحياة فيها ، ثم لا نلبث أن نرى القوة العضلية تحل محل الجمود ، والمرونة محل الأوضاع المتصلبة ٠٠ ثم تصبح الخطوط أكثر استدارة وظرفا حتى تصل آخر الأمر الى فن الالعاب الرياضية الرفيع في العصر الذهبي ٠

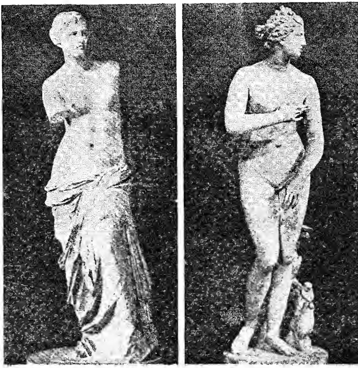
واذا نحن حاولنا اكتشاف الباعث النفسي الذي كان يلهم الفنانين في صنع هذه السلسلة من التماثيل ، لم يكن أيسر علينا من ذلك ٠ وانما تحيا على الاعجاب ، والأمل ، والحب ، وجميع الآثار الفنية ان هي الا تجسيم الخواطر التي تضطرب في سويداء الانسان بواسطة المواد المختلفة ، وقد كان الاعجاب بالجمال الانساني ، والرغبة في تخليد تذكاراته متغلغلين في أذهان اليونانيين الى أقصى حدود التغلغل ٠ بل كانا أقوى عندهم منهما في أي مكان آخر ، حتى في ايطاليا نفسها ابان النهضة ٠

وكيفما كان الأمر ، فلم يكن من الميسور أن يبرز هذا الباعث الى حيز الوجود ، ما لم يكن وليد الملاحظة الطويلة ٠ والالمام بكل ما يجري في المعاهد الرياضية من رياضة وما اليها ، فلم يكن المثال اليوناني يصنع ما يصنعه المثالون المحدثون اليوم ، من اختيارهم أحد الرياضيين فيجلسونه أمامهم ، ليكون نموذجهم ، بل كان ينفق أيامه في مشاهدة الحمامات ، وملاحظة ما يقوم به شباب المواطنين من تداريب ، حتى انه لا يني ينمو نموا مستمرا في الجسم

أثر الجمنازيوم

يملىء وعيه بمظاهر أبدانهم فى جميع أوضاعها فى مختلف الرياضات وفى مختلف الحركات ، وقد تصبح هيئاتهم من الأمور العاديه عنده ، ويكون مثله فى ذلك مثل سواس الخيل ومربى الكلاب فى طول التمرس بهيئاتها وأحوالها . فاذا خامر الجمال الفنان ، وامتزج بدمه ، وجد أنه لا ينى ينمو نمـوا مسـتمرا فى الجسـوم المهذبة الذى يتدفق فى بردها ماء الحياة ، وهكذا نجد أن فن النحت ، وما اليه من فنون التصوير قد نشأت وتأصلت فيما جرى عليه اليونانيـون فى ممارسة الالعاب الرياضيه .

وجلى ان الروح الحديث ، والروح اليونانى ، جد مختلفين فى هذا الأمر . فنحن عند ما نتكلم عن الجمال الطبيعى . فاننـا نقصـد بوجه عام جمال المناظر الطبيعيه الخالية من الحيـاة .. كالغابة والجبل والسماء .. وعند ما نتكلم عن جمال الأحياء . فأول ما يتبادر الى أذهاننـا صور الأزهار المونقه والحشرات الشائقه ، أو صور المخلوقات المتوحشة ، وألوانها ، وعندما نفكر فى الجمال الانسانى . قصرنا تفكيرنا فى الوجوه والأيدى .. لا فى جمال الجسم كوحدة كاملة ..



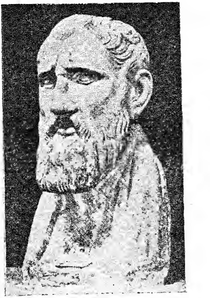
المـذهب المثـالى والمـذهب الطبيعى فى نحت تماثيل النساء

قار الفن بسلسلة طويلة من الدراسات الجميله عنـدما تحول المالون اليونانيـون الى نحت التماتيل العارية للنساء ، ونلاحظ فى هذه التماثيل اتجاهين ، أما الأول فمحاولة الفنانين اعطاء المذهب المثالى الخيالى تعبيرا فنيا ، وأما الثانى فرغبتهم فى مجرد ابراز الجمال الأنثوى . مثال ذلك ، تمثال (أفروديت ميلوس ـ القرن الثانى ق . م) الذى نرى فيه أثرا لمحاولة الفنان اضفاء صفات مثالية على جسم امرأة ، بينما نرى فى التمثال الثـانى الذى يدعونه : فينوس مديشى روح التمجيد للجمال الشهوانى

وعكس هــذا تقريبــا هو ما كان يدور فى خلد الرجل اليونانى ، فصورة الجمال الانسانى فى ذهنه كانت تشمل الرأس ، ولكنها لم تكن تقتصر عليها ، فنحن عندما نرى رجلا عريانا عريا تاما ، نجد أن الرأس ، كما لاحظنا ذلك فى كثير من الأحوال ، لا يبدو الا على أنه جزء صغير من البنيــة كلهــا · وكان اليونانيون ينظرون الى جمال الطبيعة ، ســواء أكان هذا الجمال حيــا أم جامدا ، بوصــفه مجرد ظهارة للجمال الانسانى ، ولأفلاطون فى ذلك الموضوع عبارة نجلوه ونزيده بيانا ، حيث يقول :

عندما يصور لنا المصور جبلا أو نهرا أو غابة أو ســماء ، فحسبنا منــه ما توحيه صورته من ذلك المعنى :

وبما أننا لا نملك معلومات جازمة عن مثل هــذه الأشياء ، فلن يكون فحصنا لصورها ،



نجاح اليونانيين الباهر فى تصوير الأشخاص

لم يبلغ المثـــالون اليونانيون درجة العبقرية فى تصوير الأشخاص الا فى زمن متأخر نوعا . وكيفما كان الأمر ؛ فهـــذا التمثال النصفى للفيلسوف الرواقى زينـــو (٣٤٠ — ٢٦٠ ق . م) يبين بطريقـــة عجيبة حذقهـــم فى توضيح السمات

ونقــدنا اياها فحصا دقيقــا أو نقدا وثيقا . وحسبنا فى مثل هذه الحال التصوير الغامض الخــداع ، بيــد أنه اذا حاول فنــان أن يصور أجسامنا ، تجلت أخطاؤه لأعيننا جلاء شديدا . وبنــاء على ملاحظتنا الدقيقة المستديمة نصبح نقــادا قساة لا نرحم ذلك الفنان الذى لا يتقن رسم صورنا فى كل دقائقها ·

وقد يبدو هذا الكلام منافضا بعضه بعضا فى نظر ناقد الفنون فى العصر الحـــديث ، الا أنه يصور لنـــا وجهة نظر اليونانيين على حقيقتها ·

وقد يظن القارئ العجلان أن أفلاطون انما كان يفكر فحسب ، فى الصور الانسانية التى كانت أجــلى خصــائصها بطبيعة الحال أنهــا رسم مطابق للشخص المرسوم ·

عنايتهم بالشكل الانسانى

والشخص العادى ناقد أنفذ بصرا فى نقد صور أصــدقائه منــه فى نقد ما عداها من الصور ، الا أن قول أفلاطون لا يقتصر على مجرد صــور الأشخاص · بل هو يشــمل جميع الأشــكال الفنية ·· لقد كان اليونانيون يعنون بالصور الانسانية أكثر من عنايتهم بغيرها من الأشياء المادية ·

ومن هنا ما عسانا نلاحظه من التطور العجيب فى فن القرن الخامس ، وهو هذا التطور الذى يبــدو أكثر ما يبــدو فى تماثيل الرياضيين . والآلهــة الشــباب ، مثل هرمز وأبو للو · ونستطيع أن نرى كيف يزداد جمال التخطيط والأوضاع فى كل حقبة من الزمان لا تتجاوز السنوات العشر ، فننتقل من التماثيل الجامدة ذات التخطيط الصــارم الجامد ، المنتصبة على قوائمها ، والتى تحدق فى عين من يشاهدها ؛ الى تماثيل من طراز ما صــنع بولــكليتوس (ص ٦٢٨) وفــدياس ، حيث يرتكز جــل ثقل الجسم على رجل واحدة ، وحيث يستدير الوجه جانبا الى حد ما ، بينما يحل التناسب التــام محل صرامة التخطيط القديم ·· ذلك التنــاسب الذى لا يضحى الفنان فى سبيل الوصول اليــه بما يبــدو فى تصويره لضبط النفس من مهابة ورجولة · ثم نرى كيف تتحول التماثيل الجامدة فتصبح رشيقة رقيقة فى القرن الرابع · وتبــدأ الأوضاع التى تصــورها لنــا التماثيل توحى بالدعة والطمأنينة ، كما يشاهد

ذلك فى تمثالى براكسيتيليس : الساتير ، وهرمز (ص ٦٣٠) .. ذينك التمثالين اللذين تحل فيهما النعومة محل الفحولة الساذجة .

وبعد هـذا ، فى القرن الثالث تظهر آثار دراسة التشريح فى فن التماثيل : فالفنانون علماء ، ولا ينحصر علمهم بالجسم البشرى فيما تنحصر فيه الصورة الظاهرية التى تقع عليها عين الرجل العادى . بل تتعدى ذلك الى أشكال العضلات الحقيقية تحت الجلد ، والطريقة التى يؤثر توترها بواسطتها فى سطحه .

لقد استطاع المثالون بالتدريج أن يصلوا الى تصوير الجسم الانسانى تصويرا كريما حقا ، وقد وجهوا عنـايتهم أول الأمر الى الأقـدام . ثم رقوا بعـد ذلك فتجلت آيات تبريزهم فى تفصيلات الأجزاء العليا ، ولم يأت القرن الخامس حتى كانت أقـدام التماثيل وأرجلهـا وأذرعها تنحت بنجاح كبير ، وفى النصف الثانى من هذا القرن كان فهم المثالين لسمات الجسم الانسانى فهما راقيـا ، فزالت الأوضاع الجامدة الجافية المأثورة عن الفن القديم ، وحلت محلها أوضاع أكثر جلالا وتنوعا .

وكان الرأس آخر ما درس من أجزاء الجسم دراسـة ناجحة .. والى أواخر القرن الخامس كان ينحت الفم ، والعينـان والشَّـعر . من أجزاء الرأس ذاته حسب الأصول القديمة الى حد كبير ، وفى افريز البارثينون نفسه لا تبدو العيون فى وضعها الجانبى الصحيح .

أما الجمال الأنثوى فلم يفطنوا اليه الا بعد أن فطنوا الى جمال الذكور ، ولا شك فى أن معظم السبب فى هذا كان نتيجة لعادات البلاد بوجه خاص . فلقد كان النساء ، وفى ايونيا بخاصة ، محجبـات الى حـدما ، ولم يكن المرأة المهـذبة المحتشمة تذهب الى الحمامات العامة .. ولذلك كان من الضرورى أن ينحت المثـالون تماثيلهم النسوية كاسية لا متجردة ، سواء أكان التمثال لربة أم لامرأة ، وقد فتح ذلك للمثالين ميـدانا جـديدا ـ هو التوفيق بين الأشكال الجميلة والوشائح المرتبة ترتيبا جميلا .. وقد نجح الفنان اليونانى فى هذا الميدان نجاحه فى أى ميدان آخر .

الجمال الأنثوى وتأخر تقديرهم له

وثمة شىء جد فتان فى ذلك المزيج من الأناقة والبساطة فى ثياب كثير من التماثيل المنسوبة المذدورة من صناعة القرن السادس ، مما عثر عليـه فى حفائر الأكروبوليس بأثينا . ومما يلحظه الجميع فى نسـاء افريز البـــارثينون وتيجانه المثلثة ، اختـلاط الأشـكال السفلى والوشائح اختلاطا يكون مجموعا كليا عجيبا .

وقدكان براكسيتيليس Praxiteles هو الذى نار فى القرن الرابع على العرف القديم ، فعرض لنـا لأول مرة تقريبا جسم المرأة عاريا حلالا كشىء جـدير بالاعجاب وانعـام النظر من أجله هو . لا من أجل شىء آخر . وقد آثار تمثاله ، أفروديت ربة كنيـدوس Cnidus ، موجة من عبادة الجمال اكتسحت اليونان كلها . وغيرت مجرى الذوق العام . ثم تلته سلسلة من تماثيل الجمـال العـارى لا عـدد لها ، جاء بعضها على طراز كريم فخم ، كتمثـال أفروديت ربة ميلو (ميلوس) . وبعضها هو مجرد عرض لجمال الجسد كتمثال أفروديت لمديشى .

لقد كان المذهب الطبيعى والمذهب المثـالى يفعلان فعلهما باستمرار ، ويؤثر أحدهما فى الآخر على الدوام ، وهذا هو الذىكان بوجه الفن الاغريقى فى نشأته ؛ وقد أصبحت خصيصة هـذا الفن فى كل أحواله التى تتعلق بالجسم الانسانى ذلك الالتزام الدقيق الذى كان يتجلى فى تصويرهم للرياضيين ، وذلك أن كل فنان وجـد ناحية جـديدة يصورها وناحية قبيحة يتحاشاها . وحـدث فى الفن ما يحـدث فى الطبيعة بالضبط ؛ وذلك أن الطبيعة تتخلص من كل ما يطرأ على الحيوان أو النبات من تغييرات قبيحة فيتلاشى ويختفى ، وهـكذا اختفت من ميـدان الفن تلك المحاولات الشاذة القجة فى تصوير الأشياء ؛ وكان الفنان يحاول دائما أن يصـل ، عن طريق تصوير الأفراد ، الى المثل الأعلى ، أو الفكرة التى أبدعها الروح الخالق ، ذلك الروح الذى لا يمكن للصور التى نعبر عنه الا ان تكون أصداء ناقصة عابرة .

والصراع الذى يدور فى نفس الفنان بين مثله الأعلى وبين الواقع يتجلى على أشـده فى تصوير الأشـخاص ، ففى فن مصر العظيم ، اذا استثنينا العهود المنـهودة ، يكاد يضيع الفرد فى المثال ، الذى لا يختلف الا قليلا فى تصوير الملوك والآلهة ، أما الفن اليونانى العظيم

فكان أرقى منه وأكثر تنوعا الى حد بعيد ؛ اذ كان مثالو الأشخاص يميلون ميلا تاما الى محاكاة جسوم أصحاب التماثيل ورؤوسهم ·

لقد كان الفلاسفة الاغريق يصفون المثالة على أنها فن تقليد ومحاكاة ، غير أن أبسط أعمال المثالة لا يمكن أن يكون مجرد محاكاة ؛ اذ ينبغى أن يوجه الهدف الانسانى ، والشخصية الانسانية منحت المثال · ولهذا ، لم يكن ممكنا أن يساعدنا فى القرن الخامس على استكناه ما وراء الشخص المصور .

المثالية فى تصوير الأشخاص

بالقياس الى نزوع الفنانين نزوعا شديدا الى المثل الأعلى ، وكان أفلاطون يقول : أنه يمكن أن يقال ان المثال لا يصور الفرد انما يصور الفكرة التى أبدع الفرد وفقا لها · بل ان آرسطو لا يختلف من أفلاطون فى رأيه ذاك اختلافا كبيرا · فالطبيعة عند آرسطو . كما يقول بوتشر ، ليست هى هذا العالم الخارجى عالم الأشياء المخلوقة . انما هى القوة الخالقة ، المصدر المبدع فى هذا الكون ؛

واذا أنعمنا النظر فى صورة بركليس العظيم وهى أصدق صورة من صور الأشخاص التى وصلتنا من هذا العصر (ص ٥٦٢) رأينا



أرشق الأشكال الفنية

بلغ الفنانون اليونانيون فى رسم صور النقود درجة فائقة من النبوغ لا تقل عما بلغه اخوانهم منها فى أى فرع من فروع الفن ... وليلاحظ القارىء جمال الرؤوس والعربات التى تجرها الجياد المنقوشة فوق هاتين القطعتين من عملة صقلية ، وفوقها

أن الفنانين الاغريق فى القرن الخامس ، كانوا يعملون فى واقع الأمر حسب هذه الأصول ، وان كان محتملا أنهم لم يتعمدوا ذلك · الحق أننا لا نملك أصول روائعهم ، بل ما وصل الى أيدينا هى نسخ لهذه الروائع من العهد الرومانى · وللناقد الحديث أن يقول : ان هذه ليست صورة شخص بحال ، لأنها لا تحوى شيئا ما من سمات الفرد ، وقد يكون ذلك صحيحا من حيث الواقع وان لم يخل من بعض المبالغة ، ففى الصورة بلا ريب شىء من بيركليس الرجل ، بيد أننا قد لا نستطيع الجزم بمقدار ذلك الشىء · وكيفما كان الأمر ، فالذى يشدهنا هو ما تشتمل عليه من خصائص زمانها وقومها ، حتى لا يكاد يكون فى تمثيلها للمثل الأعلى للأب الأثينى ، أو السياسى الأثينى شىء من عدم التجانس ·

وبعض هذا النزوع الى المثل الأعلى ·· بعض هذا البحث عن المثل الأعلى المستكن وراء الفرد ، هو من خصائص صور الاشخاص العظيمة فى جميع العصور ، وقد لا يرتضى ، الا الفنان المادى أن يستعبده تصوير الشكل الحقيقى ، اذ لا ينقل لنا عند ذاك الا قناعا ميتا لا روح فيه ؛ الا أن ما ظهر فى العصر الحديث من جنوح الى الذاتية وافتقار الى أسباب الوقار جعل الخصائص الذاتية تغلب على المثالية فى تصوير الأشخاص·

والدليل على حيوية الفن الاغريقى ومرونته العجيبتين ما وصلنا من العصر الهيلانى المتأخر من روائع تماثيل الأشخاص التى تصور خصائصهم تصويرا بلغ أسمى المراتب،فتماثيل فلاسفةالعهدالأخير ، أمثالزينو ويوسيدونيوس هى تماثيل عجيبة من حيث الشخصية التى تعبر عنها ، ومن حيث أنها صور واقعية · وهاتان الميزتان تساعداننا فى الواقع على دراسة ما كتبه هذان الفيلسوفان · وقد يزعم الناقد الحديث أن التماثيل النصفية تمثل الرجال أنفسهم تماما بالتمثيل ، ونعود فنقول ان هذه مبالغة ، لأن هذه التماثيل لا ينقصها قط النزوع الى المثالية ، أو الى تصوير الاشخاص على حقيقتهم ؛ وتصوير الاشخاص بما يبرز خصائصهم فى عصرنا الحديث قد جنح الى الشطط حتى أصبح قمينا أن يكون كاريكاتورا ! ولم يذهب الفن اليونانى هذا المذهب قط ·

ان أضوأ شعاعة من النور كان الفنانون يهتدون بهديها فى العصر الذهبى للفن اليونانى هى تحريهم الشديد الذى لا ينى للمثل الأعلى ·· وهو هذا الروح الانسانى الذى يرى كل سمة من سمات الطبيعة فى ضوء الصفات الانسانية والعنايات الانسانية ، ولن يفهم الفن اليونانى أولئك الذين لا يأبهون بالمثل الأعلى ، ولا يقدرونه قدره · فالمثل الأعلى هو العامل المهيمن فى كتابة الرواية التمثيلية وفى أدائها ، وفى بناء الهياكل وتزيينها بروائع النحت ، وفى عمل تماثيل الآلهة ، وتصوير المناظر الأسطورية أو التاريخية ·· وقد تناول الفن اليونانى الأرباب والربات على أنهم أناس أعلون ، رجالا ، واناثا ، فزيوس ، الأب السماوى ، أكثر جلالا وأوفر خيرا من أى من آباء البشر · وهرمز الرياضى ، أكثر نشاطا وأرشق حركة من مجرد فتى عداء فحسب ، وحيرا ، الزوجة الالهية ، وأفروديت التى تجسم فيها الجمال كما يحلم به الانسان ، الا أنه لن يتشخص فى جسد هكذا قط ·

وكان الفنانون يميلون فى تصوير مناظر حصار المدن بالنقش البارز الى محاكاة حصار طروادة العظيم الذى صورته الالياذة مثلا أعلى خالدا على طول الزمان لحصار المدن ؛ وفى منظر

الفن والأساطير

لموكب عرس ، نرى ابوللو ، اله الموسيقا ، حاضرا فى كثير من الأحيان ، ليشيع فى المنظر عنصر الغناء ، وقلما يبدو نابيا فى الصور ، وقد عدل بعض الفنانين فى صورة له عن صيد الخنزير كانت لا تكاد تميز بين أطلانطا وبين أرتميس ، وذلك على أساس ما وصله من أخبار تلك الأسطورة فأشرك مع أطلانطا أبطال العصور الأولى : ثيذيوس وكاستور وبوللكس Pollux وميلياجر ·

ومن السمات الأخرى الشائعة فى الفن اليونانى الانسجام والاتزان والاعتدال ؛ فقد عنى الفنانون فى كل تمثال لبطل أو رياضى بتكييفه تكييفا يظهرنا على اتزان الهيئة — وقفة كانت أو جلسة — والأشكال فى النقش البارز أو الرسم بالألوان ، مرتبة من حيث علاقة أحدها بالآخر ، بحيث تعطى نوعا من النموذج الذى يحتذى ، فلا يمكن حذف أحد الأشكال دون أن يتلف انسجام الصورة بوصفها كلا يتجزأ · ومن الواضح أنه اذا بولغ فى تناسق الصورة من حيث الظاهر حتى تصبح شيئا آليا أو مطردا ، كانت النتيجة افتقار الصورة الى الحياة والشخصية · الا أن هذا لا يقع فى نقوش الطور القديم البارزة ، لأن تنسيق هذه النقوش واتزانها لم يجيئا بطريقة آلية ، بل كانا من تأليف الفنان الملهم ، الذى كان ينظر اليها على أنها شروط ان لم تتوفر فى عمله فقد هذا العمل سحره · وتراعى هذه السمات الثلاث تمام المراعاة فى نقوش الزهريات ·

لقد أصبحت روائع التماثيل اليونانية معروفة مألوفة بيننا ، الا أن القليلين مما يعرفون الكثير عن التصوير اليونانى ، ومع هذا ، فقد كان المصورون يتمتعون بالشهرة التى كان يتمتع بها المثالون فى البلاد اليونانية ، كما كان اليونانيون ينظرون اليهم على أنهم أندادهم ونظراؤهم · وكانت الصور الحائطية سمة عظيمة من سمات الأبنية التى من قبيل أبهاء المدن وباحاتها ذوات الأعمدة · فكانت تلك الصور تزخرف جدران هذه المبانى على نطاق كبير ، وكانت فى كثير من الأحيان من تصوير أكفأ مصورى القرن الخامس ، الذين كانوا يتخذون موضوعات صورهم من الأساطير اليونانية ، وان كانوا يصورون أحيانا بعض أحداث التاريخ الواقعى ، مثل معركة مرثون واونوى Oenoe ، وكان مجلس الكنيديين فى دلفى يحتوى على عدد من المناظر التى قام بتصويرها پولیجنوتوس Polygnotus العظيم ، حيث صور منظر سقوط طروادة على أحد الجدران ، وعلى جدار آخر منظر نزول أودسيوس الى العالم الثانى (عيدز) ، وهما المنظران اللذان لم يبق منهما الآن الا آثارات البهاء الموات ، وهكذا — ويا للأسف — اختفت صور اليونان القديمة الحائطية العظيمة · ولم تبق الا شواهد قبور فحسب تحمل صورا قام بها مصورون من مرتبة أدنى · بل لقد أوشكت ألوان هذه الصور نفسها تنطمس ويعفو أثرها ·

نحن مقسورون على أن نستمد آراءنا عن التصوير اليونانى من الزهريات المنقوشة التى

طابع التصوير اليونانى

سنتكلم عنها الآن ، ثم من المنقوشات البارزة ، لأن هذين النوعين وسط بين النحت على المنحنيات وبين التصوير · ولم تكن النقوش البارزة ملونة عادة فحسب ، بل كانت تشبه المصورات جد الشبه فى تأليفها ، ومما

لا ريب فيه أن التصوير اليوناني كان بسيطا في طابعه • فكان رسم المناظر يؤدي بطريقة فطرية ساذجة ، ولم يكن الفنانون يحاولون خلق المؤثرات الجوية والمناظر الطبيعية لتكون ظهارة لصورهم . ويجب ألا تضللنا تصاوير بومبي وروما التي تشبه التصاوير الحديثة حد الشبه وفضلا عن ذلك فقد جاءت هذه التصاوير في عقابيل فترة طويلة من التطور • وكانت الرسوم في القرنين الخامس والرابع تصور أشكالا منفصلة في أوضاع هادئة ، وكانت هذه الأشكال فرادى في الغالب ، على أنها كانت أحيانا تصور لنا سلسلة منها ، وقد وقف كل منها الى جانب الآخر •

والزهريات الاغريقية المصورة تشغل مكانا عظيما في جميع متاحفنا ، وهي تملأ غرفة بعد غرفة في المتحف البريطاني ، وهذه الزهريات موضوع للدرس جد شائق ، ولما كانت موضوعاتها أكثر ، وأشد تعقيدا من موضوعات المثالة ، كان ما تلقيه من الضوء على مجموعة الأساطير اليونانية ، وعلى الألعاب الرياضية، بل على الحياة اليومية أكثر وأشد ، الا أنها تفتقر الى ايضاحات أطول كثيرا ، ويندر أن نجد في أبهاء المتاحف روادا يفحصونها بالعناية التي تستحقها • واذا تركنا خزفيات العهد المبسيني جانبا ، وهي تلك الخزفيات التي لها أسلوبها الفنان الخاص . وان تكن مع ذلك عبر اغريقية البتة ، وجدنا سلسلة متصلة الحلقات من الآنية ، من القرن الثامن الى القرن الثالث ، توضح الأفكار الدينية المعاصرة توضيحا عجيبا ، وتصور الأعياد والعادات •

بيد أنه لابد من شيء من التدريب ، قبل استخدام النقوش الزهرية في القاء الضوء على الحياة اليونانية القديمة • والكتب التي تتناول التاريخ اليوناني والآثار اليونانية تعرض علينا رسوم هذه الزهريات دون أي شرح في الغالب ، فيأخذ القارىء في تفسيرها بطبيعة الحال طبقا لمعلوماته عن التصاوير والمنقوشات الحديثة • ولابد للانسان من أن يزن العناصر الانسانية والعناصر الباطنية السائدة في هذه النقوش قبل أن يستطيع فهمها فهما حقيقيا • فمصور الزهريات يبدأ بتخطيط الرقعة التي سيشملها رسمه ثم باختيار الموضوع المناسب لهذه الرقعة ، فاذا كانت الرقعة مستديرة أو مربعة كانت أنسب الصور لها تلك التي تتألف من شكل أو شكلين أو ثلاثة ، فاذا كانت مستطيلة اقتضى الأمر اشكالا أكثر •

ويمكن تقسيم الزهريات الاغريقية على وجه التقريب الى نوعين ، الزهريات ذوات الأشكال الحمراء ، والزهريات ذوات الأشكال السوداء وكانت الأشكال ترسم بالاسود رسما تخطيطيا على أرضية الزهرية الحمراء أو البرتقالية الطبيعية ، وذلك في الزهريات ذوات الأشكال السوداء • وهي تلك الآنية الخزفية التي كانوا يصنعونها في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد ؛ وكانت الصورة تزود بعد ذلك بلمسات بيضاء وحمراء لتنويع التأثير ،

كيف كانوا يزينون الزهريات

كما كانت الاشارات التشريحية وغيرها توضع على الاشكال بواسطة حزوز مستقوقة في الصلصال بآلة دقيقة حادة • أما في الزهريات ذوات الأشكال الحمراء التي أخذ اليونانيون يصنعونها في أواخر القرن السادس ، فبدلا من هذه الأشكال السوداء القائمة في أرضية حمراء . كانت ترسم الأشكال فتظل حمراء بينما تطلى الأرضية كلها باللون الأسود • وهكذا تقوم الأشكال بلونها الأحمر في أرضية سوداء كلها ، فاذا كان ثمة اشارات أخرى عملت بفرشاة دقيقة جدا ممتلئة بطلاء أسود أو غامق ، وهذه الاشارات هي في الغالب آيات عجيبة جمعت بين الرقة والدقة • ويرى القارىء نماذج من هذين النوعين في تلك الصفحات . وفي الصفحتين ٥٩٥ ــ ٥٩٦ نماذج أخرى •

وكان المصور يرسم ، في الدوائر أو المربعات أو المستطيلات التي كانت تعد للتصوير كما ذكرنا آنفا ، بعض قصص الميثولوجيا المألوفة ، أو بعض أبطال الحروب ، أو حادثة ما من حوادث الكفاح •• ولعله كان يصنع ذلك بدون أن يقصد الى محاكاة أية مجموعة من مجموعات الصور أو النقوش البارزة التي يعرفها ويحيط بها ، الا أنه كان يصنع ذلك أيضا دون أن يبذل أية محاولة تنم عن الأصالة • ولهذا كان ثمة تنوع كبير في الصور التي وصلتنا عن أي حادثة من حوادث الملاحم أو الوقائع المفجعة ، أو من حوادث الأساطير الشعبية ، أو أنباء الأماكن المقدسة الجديرة بالذكر ، الا أن هذا التنوع محدود في حدود معينة ، فأشكال الآلهة

المنقوشة على الزهريات تختلف فى تفصيلاتها ، الا أنها تحتفظ بطابعها الأصلى . أما أشكال الرياضيين فبسيطة وأنموذجية . وأما صور الأشخاص أو صور المناظر الطبيعية الحقيقية المباشرة فمنعدمة ؛ ويبدو الفنان أحيانا أنه كان فى هذه الصورة أو تلك يضمر صورة من هوميروس أو هسيود . أو منظرا من اسكيلوس أو يوريبيدز ، وذلك فى العصور المتأخرة . الا أنه كان يهتم بجمال التكوين ورشاقة التفصيلات أكثر من اهتمامه بالمعنى الحقيقى للمجموعة التى يرسمها .

ولا بد لنا من كلمة قصيرة أخرى فى موضوع التأليف والتجميع فالصور التوضيحية التى وضعناها بين يدى القارىء كافية جدا لتريه كيف كان الفنانون اليونانيون يحافظون بعناية على قوانين الاتزان والتناسب ، فكانوا يرسمون كل شكل محافظين على صلته بكل من الأشكال الأخرى ، بحيث لا يمكن تعديل شكل دون الاضرار بالرسم فى مجموعه ، وعلى العموم ، فقد كان يراعى التناسب فى شقى الرسم اللذين كان يقسمهما فى منتصف الصورة خط عمودى وهمى كما نرى ذلك فى صفحتى ٦٤٣ ، ٦٤٧ . وكل رسم اغريقى هو كل منتظم .. هو نسق وليس فوضى !

وليس بين آثار العادات الاغريقية شىء هو أجمل ولا أمنع من العملة . فهى ، بالرغم من حجومها الصغيرة حسنة فى خطة رسمها ، شائقة فى طريقة ابراز هذه الرسوم . ثم هى ، تبدو ذات علافة أقرب الى التاريخ مما يبدو فى فى أى من الآثار الفنية الأخرى ، اذ يمكن ردها الى المدينة التى كانت تتعامل بها ، والى الزمان الذى كانت تستعمل فيه ، فى حدود المعالم الضيقة التى تحملها ، فهى تدلنا على آلهة المدينة،كما أنها ذات صله فى كثير من الأحيان بالأحداث والتقلبات

عملة المدن الاغريقية الشائقة

السياسية ، ثم أنها أيضا كانت الوسيلة الضرورية للتعامل التجارى مذ كانت أوراق النقد والأوراق المالية غير معروفة فى البلاد اليونانية . وهى تدلنا على العلائق التجارية بين المدن ، وذلك بمعايير أوزانها . ثم هى تكشف لنا في بعض الأحوال عن وجود اتحادات تجارية ونقدية للدول كانت تتعامل بعمله مالية واحدة .. تلك الاتحادات التى كان ما ذكره لنا المؤرخون القدامى عنها قليلا أو قل انهم لم يذكروا عنها شيئا .

وقليل من الناس من لديه أى فكره عن تعقد العملة اليونانية . ففى العصر الذهبى كانت كل مدينه مستقلة ذاتيا ، من حيث عملتها ، ولا تقف عند ضابط ، فكانت تختار معيار عملتها وأشكالها حسب ما يعن لها ، فمنذ فجر التاريخ اليونانى الى نهاية هذا التاريخ كانت قرابة الفين من المدن اليونانية تسك نقودها ، وكان بعض هذه المدن يسك النقود طوال تاريخه باستمرار تقريبا . وفى جزيرة صقلية التى اصطبغت بالصبغة اليونانية اصطباغا شديدا كان حوالى خمسين مدينة تصدر عملتها الخاصة بها . وكان يوجد فى جزيرة زيا Zea (كيوس) ومساحتها نصف مساحة جزيرة وبت ثلاث دور لسك النقود ... وهكذا .

ومن هنا يسهل علينا أن نتصور لأول وهلة تلك الثروة الهائلة من العملة المعدنية التى تقدمها العملة للمؤرخين .

أما من حيث الفن فيمكن اعتبار العملة من قبيل النقوش ذات الشكل المستدير . وكانت صورها تختار وترتب حسب الأصول نفسها التى كانت تراعى فى صور واجهات المعابد ، مع المحافظة التامة على الاتزان والتناسب . وكانت أكثر الطرز شيوعا هى ما كانت تحمل على أحد وجهيها رأس اله . وعلى الوجه الآخر بعض خصائص اله مشهورة . كقيثارة أبوللو ، أو بومة أثينا ، أو صاعقة زيوس .. الى آخر هذه اللازمات الالهية .

ونحن نضع بين يدى القارىء هنا نموذجين لقطعتين من العملة الصقلية ذوات جمال منفرد صورت عليهما عجلات من عجلات السباق . وكيفما كان الأمر ، فقد يكون من المحال أن نعطى القارىء أيةفكرة عن جمال العملة اليونانية وعن قيمتها التاريخية .. لما تبلغه هذه العملة من التنوع والتعدد . ومن شاء التدرب على ادراك ما فى الفن اليونانى من سحر . لم يجد خيرا من قضاء أطول ما يستطيع قضاءه من الوقت فى معرض العملة الرائع بالمتحف البريطانى .

الفصل الثالث والأربعون

الأدب اليوناني والمسرح

روائع العبقرية اليونانية التي لا نظير لها في عالم الشعر والنثر والرواية المسرحية

بقلم جلبرت نورود GILBERT NORWOOD

استاذ اللاتينية بجامعة تورنتو ومؤلف « كتاب الاغريق » . . . . الخ .

يكاد كل فرع من فروع الأدب اليوناني يشغل مجلدا ضخما على حدة .. هذا الأدب الذي يرجع الى نحو خمسة وعشرين قرنا .. الا أن دراستنا لن تشمل بالضرورة الا جزءا قليلا من هذا الأدب ؛ وذلك أن قدرا هائلا من الأدب اليوناني قد عفا واندرس منذ زمان طويل . هذا من جهة . ومن جهة أخرى ، فان معظم الادب الذي أنشىء بعد وفاة الاسكندر الأكبر ، وان كان هاما في ذاته في معظم الاحوال ، أقل بكثير في قيمته من حيث الابداع الأدبي ، ومن حيث الروح اليوناني أيضا .

ويمكن تعريف هذا النوع بأنه حقيقة وجدانية ذات أصداء متعددة .. أصداء روحية وحسية وذهنية وجسمانية .

ـ أما من حيث الفن ، فالفطرة هي التي تعبر عن مثل هذه الحقيقة في شكل مشرق ملموس . وقد أشير الى شيء من ذلك في عنوان هذا الفصل « الأدب اليوناني والمسرح » ؛ فعند الشعراء الفلسفيين مثل شلي ووردزورث . يستحيل كل شيء حتى الأشخاص أنفسهم ، الى كائنات أثيرية تصف آدمية أقرب الى السحب والرياح . أما في الأدب اليوناني فالأمر على العكس من ذلك ، فالاغريق لم يبتكروا المسرحية بالسليقة . ولم يرتفعوا بها الى الذروة التي لم يعل عليها فحسب ، بل ان هذه السليقة المسرحية ، السليقة التي تشكل الحياة وأحداثها بمواجهة الشخصيات المعتركة بعضها ضد بعض ، هي منذ فجر الحياة اليونانية عنصر توجيهي من عناصر تلك الحياة . فهو ميروس غني بمناظره البراقة التي تواجه فيها شخصية فخمة شخصية فخمة أخرى في موقف ثائر من مواقف النضال أو النسك أو الأمل أو الفزع أو الأخوة .

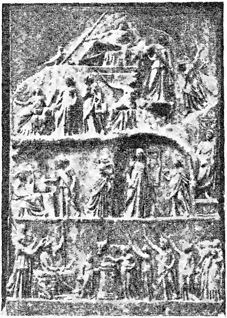
بل ان المؤرخ العلمي توسيديدز نفسه متأثر أيما تأثر بالمأساة التمثيلية في عصره حتى لينظر الى قصته الخالدة عن الحملة الصقلية كأنها مسرحية عظيمة . وكذلك كان افلاطون . هذا الفيلسوف المتعمق . يرسل كتاباته ، مهما بلغت من التعقيد والدقة . في أسلوب حواري .

وتتضمن القصائد الهومرية ملحمتين ، هما الالياذة والأوديسة ، ثم مجموعة من التراتيل لأرباب مختلفة . وقد خص تاريخ الملحمتين ببحوث عظيمة (تجد تحليلا لمثل هذه البحوث مع تقرير للنتائج العامة المتفق عليها في الفصل التاسع والعشرين) . فيا ترى هل كان ثمة

ملاحم هومر وعبقريته

شخص بهذا الاسم ، هومر ؟ وهل كتب الملحمتين شخص واحد بعينه ؟ وأين كتبت كل منهما ومتى ؟ وهل أنشئت كل منهما في هذا النسق الذي نعرفه اليوم ؟ فان لم يكن قد حدث شيء من ذلك . فهل أنشأ شاعر ما من الشعراء قصيدة طويلة . زيد فيها بعدئذ في هذا الموضع او ذاك . أو أنه ضم مقطوعات شعرية قديمة وقصيرة فجعل منها جميعا كلا متصلا ؟ ليس ثمة اتفاق تام على واحد من هذه الأسئلة ، الا أنه من المعلوم على وجه الاجمال أن الالياذة هي في معظمها من انشاء شاعر عظيم بمفرده ، وكذلك الأوديسة ؛ هذا ، وان كان من المحتمل أن كلا منهما من نظم شاعر بعينه يختلف عن الشاعر الآخر . ومن المحتمل أيضا أن تكون الملحمتان قد أنشئتا في ايونيا (غربي آسيا الصغرى) ، وذلك على وجه التقريب ، حوالى ألف سنة قبل ميلاد المسيح ، ونحن انما نقول أنشئتا ، ولا نقول كتبتا ، لأنه من غير المحقق الى حد بعيد ، هل كانت الكتابة قد استعملت في هذا العهد السحيق في ذلك الصقع (ومع هذا . فعليك بالفصل التاسع والعشرين) .

وتتناول كلتا الملحمتين تلك الطائفة المتلاحقة من الأقاصيص التي تدور كلها حول طروادة ، المدينة القريبة من الدردنيل • وقد كان لبريام ملك طروادة القوى الثرى ، أبناء عـــديدون ، أبرزهم هكتور البطل الصنديد ، وباريس ذو الرواء • وقد وفد باريس الى اليونان فنزل ضيفا على منلوس ملك أسبرطة ، فلم يلبث أن سرق هيلين ، زوجة منلوس ، وانطلق بها الى طروادة • أما منلوس ، فقد جرد هو وأخوه أجا ممنون جيشا عرمرما استولى به على طروادة بعد حصار دام عشر سنوات ، وذلك بخدعة الحصان الخشبي ، فدمر المدينة وعاد الى وطنه بهيلين • وتروى الالياذة حوادث القتال لبضعة أيام من السنة العاشرة ، تلك الحوادث التي تبلغ أوجها



تأليه هوميروس

هوميروس ، جالسا على العرش • تتوجه ربة الزمان وربة الدنيــا بينما وقفت ربات التــاريخ والأساطير والشعر والمأساة والملهاة تحييه بالهتاف من المذبح (المحراب) ؛ ويحتــل زيوس وأبوللو وعرائس الفنــون التسع الجزء العلوى . ويرجع تاريخ هذه اللوحة المشهورة التي نحتها أرخيلوس الـبريانى Archelaus - of - Priene الى القــرن الثالث (ق . م)

بذبح هكتور على يدى أخيل ، البطل اليونانى . أما الأوذيسة فهي قصة أودسيوس ، أو أوليسيز أدهى دهاة اليونانيين • • • قصــة تجـوالة ومغامراته مدى عشر سنوات فى كلتا عدوتى البحر المتوسط ، ثم عودته الى موطنه ايثاكا رقيق الحال رقة بالغة ، لا يكاد يعرفه أحد ثم ظفره النهائى ، ثم تلك المجزرة التي بطش فيهـــا بالأمراء من بنى جلدته ، الذين كانوا يتنصبون زوجته بنلوب •

ولقد شادت جميع العصور باسم هوميروس ، ولم تفتأ تردده بوصف كونه واحدا من أعظم كتاب الدنيا ، وشاعرا مجيدا من أفحل شعراء الملاحم ، ولعل أبرز ميزاته التي تستلفت الأنظار هي قدرته التي لا حد لها فى سرعة التنقل فى عظمة وبهـــاء ؛ فهــو يكتب عن أى موضوع ، مهمــا يكن هــذا الموضوع مقطعا أو خــلابا أو تافها ، بانسجام شائق ، وفى قصد الى الهدف من أقصر الطرق • وعنــدما يصف لك وليمــة أو غرفة غسيل ، فاننا لا نشعر منه مطلقا بأيمــا وهن ، بل لا نجــد أيما أثارة من أثارات التعب حتى فى أقطع ما يصــفه من مســاظر معركة أو غرق سفينة ، أو فيما يروى من مغامرات أودســيوس فى عالم الموت مثــلا • وقد اعترض أحــد النقــاد على ترجمة بقلم صموئيل بطلر لأنه أورد على احدى الصــفحات نفســها التي بها الترجمة صورة أولمب ، موطن الآلهــة ، وقول نوزيكا : « يا أبى العزيز انك بحاجة الى قميص نظيف (!!) » •

يقول الناقد : انه لا يمكن أن يكون كلاهما فى الوضع الصحيح • . وهذا مثال هام يوضح لنا قيمة هومر ، كما يوضح لنا معنى « اليونانية » ، وذلك لأسباب منها أن الغلطة لم تكن غلطة بطلر ، اذ الذى كتبــه هو ما كتبــه هومر (مع التسليم بالتفاوت بينهما فى الفصــاحة اللســانية) فالــكلمة « بابا » موجــودة بالذات فى الأصــل اليونانى • ومنهــا أن هومر يكتب عن كل من الأولمب ، وعن يوم الغسيل ، بطريقة متباينة ، لأنهما شيئان مختلفان •

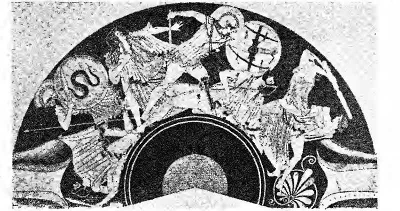
ومنهـا ، ذلك الافتراض الذى ، دام عـدة أجيال ثم أطرح حـدينا اطراحا تاما ، والذى يزعم أن الشعر بطبيعته الحقيقية ، ينبغي أن يرتفع فوق بعض الأشياء التافهة التى يخلق ألا يتناولها الشعراء تناولا مباشرا • فمثلا ، كان تنيسون اذا قصـد أن يذكر شـارب الملك أرثر رأى من الأحرى أن يقول : « هذا النماء النبيل الذى كان يوشى شفتيه » ، وهى أوضاع لم يكن هومير يلجأ اليهـا ، فهو اذا قال فانما يقول الذى يرى من واجبـه أن يقـال ، ثم هو يقوله فى مقـدرة لا يتطرق اليهـا العجز وفى أسلوب رائع سهل لا تعمل فيه أيضا » •

بيد أنه ، بالرغم من سـهولته تلك ، لم يترجم الى لغة أخرى ترجمة تدنو من الأصل اطلاقا،وذلك لأن من مزايا هومر الرئيسـية مـرونة أسـلوبه ومـيزانه الشـعرى وحسـن انتقـائه لألفاظـه فترجماتنا النثريه ـ وبعض ترجماتنا المنظومه ـ بطيئـة ، ومنفـلة الى درجـة لا تحتمـل ، والترجمات الشـعرية مهمـا بلغت من المرونة والتدفق تافهة الى حد بعيد : انها (تخرخش) !



هكتور يتسلح للمعركة

يرى هنـا بريام وهـكبوبا وهما يساعدان ابنهما الأكبر فى استـعمال عدته الحربية . وكان هكتور أعظم أبطال الطرواديين . ويقدمه لنا هوميروس بوصفه فارسا سويا دمث الخلق ؛ ووصفه لافتراق هكتور من هكبوبا ، وبكاء هيلين على جثمانه هما من جواهر الأدب



ويل للمغـلوب : مناظر التقتيل عند سقوط طروادة

كان آركتينوس الملتوسى الذى اشـتهر حوالى سنة ٧٤٤ ق • م من أقدم الشعراء أصـحاب مجموعات الملاحم (١) ،. الذين كان ظهورهم أول دليل على تأثيرهوميروس فى الأدب اليونانى ، وقد كتب آركتينوس ملحمتين : الأثيوبيز Acth iopis ، وتواصل قصص هوميروس من ختام الألياذة ، ثم الأليوبرسيز Iliuperis) ، أو سلب طروادة،وتروى قصة الحصان الخشبى ، والاستيلاء على المدينة ، ثم رحيل اليونانيين ، وقد وضح بريجوس أقاصيص من هذه الملحمـة الأخيرة بالرسم على هذه الزهرية الأتيكية المحفوظة بمتحف اللوفر •

(١) Cyclic Poets هم الشعراء الذين ضمت أعمالهم إلى مجموعات الملاحم القديمة فى الأدب اليونانى Epie Cycle ومن الخطأ تسميتهم (شعراء الملاحم) (أنظر جلبرت مرى ص ٤٥) وقد تترجم شعراء مدرسة الملاحم . (المترجم)

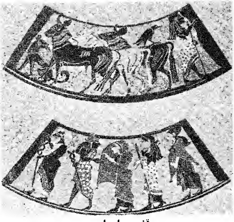
فبوب Pope مثلا ليس الا مجرد جعجاع متفيهق اذا قورنت ترجمته لهومر بشعره الاصلى وليس لذلك الا سبب واحد هو أن پوب ، كأى شخص آخر تقريبا ، يريدنا دائما على أن نقتنع ببراعته ، فعندما نقرأ شيئا من ترجمته ، كمآثر ديوميدز فى الجزء الخامس من الالياذة ، نرانا نصيح معجبين : « ألا ما أبدع ما يكتب ! » وعندما نقرأ هذا الجزء نفسه فى هومر ، نرانا نرتعد مشفقين من أن يهجم علينا المحارب من ثنايا السطور ، ثم اذا ثاب الينا رشدنا ، وأفقنا من رعبنا ومن نشوتنا جميعا ، فاننا نهتف : « ألا ما أروع هذا الشعر ! » وما سبب ذلك الا هذا الأسلوب الالقائى الدقيق ! ·

وطريقة هومر فى تناول مادته وترتيبها هى أن يبلغ بها حد الكمال ، وان يسمو بها الى المثل الأعلى الذى ينبغى توفره للملحمة · فهو يختار قصة ما من قصص المغامرات ، ثم هو يرويها فى نسق رفيع على لسان طائفة قليلة ممتازة من التشخصيات المؤثرة ، يصورهم لك فى بساطة ويسر ، يظاهرهم عدد ضئيل من الأشخاص والحوادث الأقل شأنا ··· وعمله ذلك يتفق وما يصنعه مبحائيل أنجلو فى التصوير ، اذا ما قورن بأعمال ترنر · وقد يشاهد مثل هذا فيما ينشئه بعض الكتاب



يزجيان ساعة

يقال ان لعب الدامة كان أحد أسباب اللهو عند الاغريق عندما كانوا فى أوليس ينتظرون ريحا رخاء تحملهم الى طروادة ، وقد صور بطلان منهمكين فى اللعب فى نفس هذه الزهرية المنسوبة الى آندسيدز



قضـــاء پاريس

مما يعزوه الناس الى ستاسينوس القبرسى انه مؤلف القبرسية · وهى من المنظومات التى تنسب الى مدرسة الملاحم . وتبدأ بقضاء پاريس · وتصور هذه الزهرية الفاخرة من صنع القرن السادس والمحفوظة فى متحف ميونيخ ــ قطعان بريام على جبل ايدا (أعلى) ، وارعاه ، وپاريس ، فى صورة حكم بين ربتين

الانجليز . وان أعوزتهم مرونة هومر وتدفقه ، أيما اعواز · والفردوس المفقود مثل جلى لذلك ··· وان كان بعض الروائيين يبدى تلك الميزة كذلك . وفى مقدمتهم جميعا بلاكمور Blackmore فى لورنا دون Lorna Doone

ولهذه البساطة جانب آخر . فهومر هو أقل الشعراء الكبار عمقا ، كما أنه أعظمهم وضوحا ، وهذه هى السمة الوحيدة من سمات السبق فى أعماله ، فهو قلما يتعمق تحت سطح الأشياء ، بينما هو يمضى فى قوة رائعة فوق هذا السطح الباهر الغامر ، ولا غرو ، فهو فى الغالب خبير بانفعالات الظروف الانسانية . كما فى وداع آندروماك لزوجها ، هكتور · وكما فى خطبة شبح أخيل فيما يتعلق بالموت ··· الا أن الرائع فى ذلك كله هو التعبير عن مثل هذه الخلجات . فى حين أن الافكار عادية جدا . ولا جرم كان الرجل اليونانى قادرا على أن يعى ما حوله . وأنه بدأ يفكر ، الا أنه لم يكن يستطيع أن يفكر بطريق الاستدلال ولا أن يكون جريئا فى تفكيره . بل انه لم يتعمق فى فحص الاشياء ذلك التعمق الذى لا مفر منه . ان كان لابد من

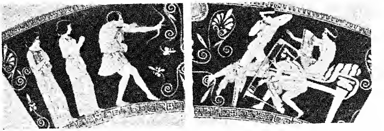
قيام المسرحية العظيمة أو القصص العظيمة كذلك ·

ولم يبق من آثار القرون الخمسة التى غبرت بين هومر والحقبة المجيدة فى تاريخ أثينا الا عدد يسير فقط من آيات الأدب ؛ ولا علم لنا ، الا أيسر العلم ، بالملاحم الأخرى ·

ولعل أهم أسباب اختفائها هو أنها كانت تنزع نزعة دينية أكثر مما كانت تنزع الالياذة والأوذيسة ، ويتجلى ذلك فى (الطيبادة) Thebaid المفقوده ، تلك الملحمة التى تروى حوادث الحملة التى كان يقودها الأبطال السبعة ضد طيبة ، وسط بلاد اليونان ، وربما ساعدتنا هذه الحقيقة الملموسة على تفهم اسخيلوس ، وقد شهدت هذه الحقبة نشوء الشعر الغنائى الى أن بلغ هذا الشعر أوجه ، كما شهدت ألوانا أخرى · كشعر المراثى وشعر الأمثال أو جوامع الكلم ، وشعر الهجاء · وقد دون صولون ، السياسى الأثينى العظيم اصلاحاته فى منظومات خلد بعضها الى اليوم وتيوچنيس الميجارى ، وهو شاعر سياسى أيضا ، شاهد قوى على احساسات أعضاء حكومات الأقليه Oligarchs نحو الطبقات الدنيا التى تقابلهم فى الناحية الاخرى بمشاعرها وسلطانها الآخذ فى الازدياد · وآرخيلوخوس الهجاء وأستاذ البحر الايامبى السلس العظيم ، انما تمثله لنا اليوم طائفة يسيرة من غرر الشعر الملتهب ؛ أما سافو فتخلد فى قصيدتين من قصائد الحب وفى مجموعة من المقتطفات التى تصورها لنا فى صورة الفنانة التى لا نظير لها من حيث بساطتها العاطفية ·

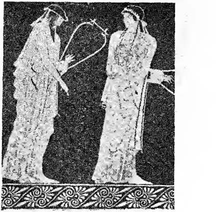
ومما يؤسف له أننا لا نعرف شاعرا غنائيا اذا استثنينا بندار ، الا من ثنايا ما وصلنا من النتف العاطفية المشجية ، ونحن ما زلنا نستشعر تلك الحرارة الايطالية فى أشعار ابيكوس (من شعراء ريجيوم جنوبى ايطاليا) أما أشعار الكمان Alcman وأنا كريون Anacreon فتشف عما فيها من هذا الجمال الشخصى المرح الذى عاص معينه فى الشعر اليونانى حتى جاء ثيوقريط · ولا بأس من أن نذكر هنا الأغنيات القليلة الشائعة التى وصلتنا من ذلك العهد · فمنها : الهارموديوس التى كان يغناها الأثينيون على أنها نشيد قومى ، وهى تخلد ذكرى مقتل الطاغية هيپارخوس · ومنها أيضا أغنية السنونو (الخطاف) الرودسية التى كان يغناها الأطفال فى تطوافهم بين البيوت فى فصل الربيع ، والتى ترجمها ج · ا · سايموند ترجمة شائقة :

هى ذى هنا ، هى ذى هنا ، هذه السنونو
بأويقات الصفاء التى تبشر بمستقبل سعيد
ببطنها الأبيض
وظهرها الأسود كظلام الليل
من عشك الوثير
هلمى الينا
بالكعك ، والخمر ، والجبن
فان لم تتيسر هذه
فبخبز الشوفان وأقراص الشعير
فلسوف تتلطف السنونو بالقبول



أوديسيوس يثأر من عشاق پنلوب

الأجزاء الاربعة الأولى من أجزاء الأوديسة الاربعة والعشرين أجزاء تمهيدية تصف مجريات الأمور فى أرض الوطن خلال غياب أوديسيوس ، وتتناول الثمانية التالية عودته من جزيرة كاليپسو الى بلاد الفاشيان Phaeacians وتتضمن سرده لمخاطراته ؛ أما الاثنا عشر الأخيرة فتتناول وصوله الى ايثاكا وملاحاته للعشاق ثم فتكه بهم ومعرفة پنلوب له آخر الأمر ·



ألكيوس يتصبى سافو

كان كل من ألكيوس (الى اليسار) وسافو العروس العاشرة للفنون (الى اليمين) من أهالى لسبوس حيث كانا النجمين اللامعين فى كوكبة الشعراء الذين ارتقوا بالأغانى الفنية فى اللهجة الايوليوية فى القرن السادس ق٠م

ترى ماذا يكون لديها ؟ أم ينبغى أن ننصرف من هنا ؟

انا لشاكرون لك ان وهبت ، فان لم تفعلى فسنعرف كيف نقتصك

ستحمل باب بيتنا من هنا
والوصيد أيضا ، فلن ندعه وراءنا
وسننزع زوجك من عقر دارها
انها ضئيله جدا
وسيكون انتزاعها أمرا هينا علينا

فأيا ما تعطين ، فاجعليه منة حلالا

البدار البدار ! تفتحى ! استجيبى لنداء السنونو !

اننا لسنا كهولا عبوسين ، بل يوافع مرحون !

وعلى كل ، فثمة ثلاثة من الكتاب الذين بقيت مؤلفاتهم بقدر وفير الى حد ما ؛ فمن هؤلاء هسيود Hesiod ، الذى جاء بعد هومر بثلاثة أجيال ٠ وقد اشتهر بأنه صاحب قصائد ثلاث ، أولادها الثيوجونية Theogony وهى عبارة عن مختصر (لشجرة) أنساب الآلهة الاغريقية ٠ وثانيتها (الأعمال والأيام) (Works & Days) وهو كتيب فى الفلاحة ودليل للملاحين — ثم هو توجيه دقيق من حيث تفصيلات العمل والعدد والتواريخ ، الا أنه مطرز بكثير من نتف النصائح التقليدية الحصيفة كما يشمل أيضا فصولا ضافية عن مصائر الانسانية ٠ وهكذا نطالعنا فيه قصة « جرة پندورا ، كما نجد تلك الأقصوصة المتعلقة بأحقاب العالم الأربعة : الحقب الذهبى والحقب الفضى والحقب البرونزى ثم الحقب الحديدى ؛ وهى تلك الأقصوصة التى كان لها أبلغ الآثار فى أفكار الاجيال التالية ٠ وجميع ما أنشأ هسيود ، مهما كان نافها ، أنشأه نظما ، اذ كان النظم هو الوسيلة التقليدية للأداء فى ذاك الزمن ، وذلك لان المنظوم أيسر استظهارا من المنثور ؛ ومع أنه أدنى مرتبة من هوميروس فى الشعر ، فأنه قلادة لا تقدر بثمن على صدر شاعر الالياذة ، اذ أنه يضع فى الجانب المقابل لتلك الحياة المجيدة ، حياة الأمراء المحاربين ، حياة الفلاح الذى يعيش فى وسط بلاد الاغريق ، تلك الحياة الشاقة المتشاكلة التى تجرى على نسق واحد لا يتغير ٠

ويختلف بندار اختلافا تاما من هسيود ، فبندار هو آخر عظماء الشعراء الذين اقتصر انتاجهم على الشعر الغنائى ٠ ولدينا من أشعاره الأجزاء الأربعة المشتمله على أناشيده الأبينشيوية Epinician Odes وهى الأناشيد التى نظمت اشادة بذكر الانتصارات الباهرة

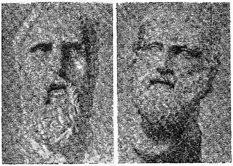
أناشيد بندار الغنائية الرائعة

فى أعظم مباريات ألعاب القوى الأربع التى كانت تقام فى الأولمب ، وفى بيثو (دلفى) وفى نميا ، وفى برزخ كورنثه ٠ وقد كانوا يطلبون اليه نظم الأوراد الجنائزية وأناشيد النصر وغير ذلك من القصائد فى كثير من الأغراض العامة ، ونقول العامة لأن ما هية أشعار بندار تختلف جد الاختلاف من أشعار أولئك الغنائيين الأسيويين : ألكايوس وسافو وممنرموس ٠ ونحن نعنى بالشاعر الغنائى اليوم Lyrist الشاعر الذى يترجم عن ميوله وأحاسيسه الشخصية ٠٠٠ وشاعر الحب قبل أى شاعر آخر فى هذا الوجه ٠ الا أن الاغريق كانوا يعنون به الكاتب الذى ينشىء للموسيقا الوترية والصوتية سواءكانت أغانى من نظم ألكيوس نفسه أو أغانى غرامية يؤديها مغن مفرد ، أو أناشيد للأداء العمومى تلقيها فرقة من المنشدين (الخورس Choreutac

وهم أولئك الممثلون الذين ينشدون ويرقصون فى وقت معا ··· أو منظومة تترجم عن مشاعر مدينة بأكملها ··· وأنشودة تينيسون فى وفاة دوق ولنجتون هى مثل عصرى للطراز الأخير · وتكاد جميع اشعار بندار الموجودة بأيدينا تكون من قبيل هــذه المنظومات العــامة التى لهــا مظاهرها الدالة على شخصية الشاعر ، وان نثر فى أطراف منها بعض خوالجه الخاصة ·· وهو ما لم يأته تنيسون قط ·

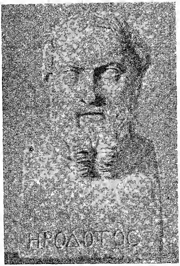
وقد كان بندار يكتب لعظماء عصره كما كان يصنع هوميروس ·· ومن هؤلاء العظماء هيرو طاغية سرقوسه الداهية ، الذى كان انتصاره فى سباق العجلات فى أولمبيا سببا فى انشاء منظومة (الأولمبى الأول) الشائقة التى تفتتح ديوانه والتى تبتــدىء بالمثل الســائر المشهور المــاء هو الأحسن : Water is best · وكان النبلاء الدوريون Dorians فى اليونان القديمة ، أى أمراء اليونان الجديدة فى صقلية ، هم رعاته العــاديين ··· وكان يعبر عن نفسه فى مقدرة رائعة . وفى انسجام تام بينه وبين هؤلاء الرعاة حول ما كانوا يعتقدون بأنه خير ما فى الحياة . ألا وهو الــكدح الصارم والاعمال المجيدة فى الحروب وفى ألعاب القوى على السواء ·

ولا جرم أن بندار هو سيد الشعراء فى كل



شاعران مكرمان فى اليونان القديمة

يمثــل التمثال النصفى الرخامى (الى اليسار) شــاعرا لا يعرف اسمه اليوم وقد تفرجت شفتاه من غناء الارتجال تكافحان البديهة ــ أما أناكريون (الى اليمين) فقد عاش من ٥٦٣ الى ٤٧٨ ق . م وتمتاز النتف الباقية من أغانيه الأيونيوية برقتها وسحرها ، الا أنه قد وضع اسمه على ضرب بأكمله من الأغانى فى الأقل مرتبــة من هــذه بكثير

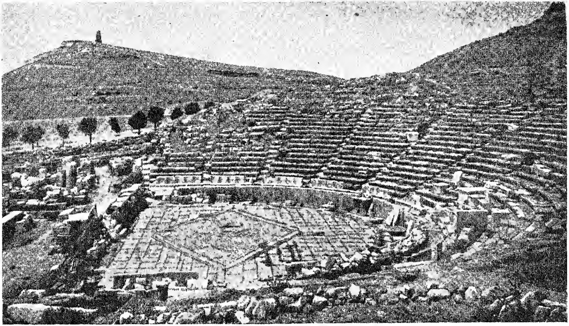


أبو التاريخ

كان هــيرودوتس المولود فى هالبكارناسس حــوالى (٤٨٤ ــ ٤٢٥ ق·م) أول كاتب فهم التأليف التاريخى حسب الأصول الفنية التمثيلية الموجــودة · لقــد أدرك واجبــات المؤرخ الحق وجعــل التــاريخ دراسة أكثر جاذبية

ما هو ملهــم وكل ما هــو رائع من صــنوف الشــعر ··· فى الموسيقا والألوان ، وفى الجمــال الذى يخلب اللب . الكائن فى الخمر وفى الذهب وفى البحر ··· ثم فى تلك الأجسام الــناعمة ، وفى الأعمال البارعة ··· متسق هــذا كله ومكيف طبقا لأصول الذوق اليونانى . كما أنه واضح فى أوزانه وضوحا يثير الاعجاب ·

وبنــدار مثل هومر من حيث قلة العمق ، على أنه أعمق نوعا من هومر ، وأكثر منه تأثرا بأشــجان الانسانية وآلامها ، فكان ينحرف ناحيته ، وهو فى صــميم بعــض ما يصــف من الانتصارات البــاهرة ، ليتــأمل فى رخاوة الســعادة الانســانية ، الا أن عصر التعقل لم يكن قد آن أوانه فى الشعر بعد ·



مسرح ديونيزوس فى أثينـــا : مركز الفن الممثلى فى اليونان

كان مسرح ديونيزوس يقع جنوبى شرقى الأكروبوليس بأثينا وضمن حدود الهيكل بالفعل ، وقد أكمل هـذا البناء الحجرى الذى خلف البناء الخشبى الأقدم عهدا حوالى سنة ٣٤٠ ق٠م ، ولو أن تركيبة منصة التمثيل التى ترى بقاياها الى اليسار لم تكن أضيفت الا بعد هذا التاريخ — وكان التيميل ، أو مذبح ديونيزوس يقع فى وسط الباحة نصف الدائرية ، كما كانت تنهض خلف هذه الباحة فى حلقات ذوات مركز واحد مدرجات المقاعد ، وكلها من الحجر الجيرى ماخلا الصف الأوطأ الذى نحت من المرمر البنتبلى والمخصص لذوى الحيثيات

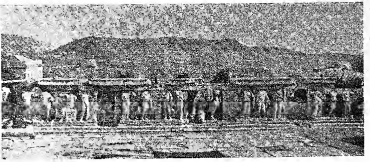
وعلى كل ، فقد ظهر (هذا) فى النثر ، فى كتابات الفلاسفة ، وفيمـا أنشـأ هيرودوتس المؤرخ ، وثالث الـكتاب الثـلاثة الذين ظهروا قبل عصر العظمة الأثينية ، والذين مر ذكرهم . (وهيرودوتس معاصر لهذا العهد الأثينى المجيد ، الا أن بينـه وبين العصور الأكثر قدما وشائج قوية ، ثم هو كان يكتب بلغـة يونانية أكثر قـدما كذلك) .

هيرودوتس أبو التـاريخ

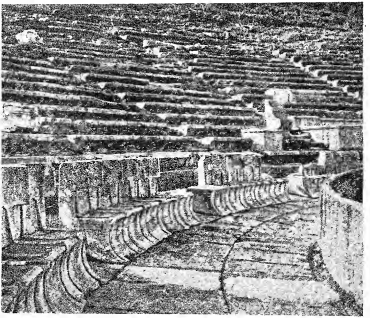
وقد جرت العـادة على اعتباره (أبا التـاريخ) بوصـفه رجلا ظريفا شقشاقا ضعيف الذاكرة طاعنا فى السن يروى قصصا عجيبة ، وهـذا كله سـوء فهم لهيرودوتس . منشـأه سـببان ، أولهمـا أن هيرودوتس هو بلا شك كاتب ظريف ، كما هو كاتب سار الى درجة يستطيع بها الاستحواذ على المشاعر .. وثانيهما أننـا ندرس تاريخ بلادنا فى كتبنا المدرسية بطريقة فيها رجعة الى الوراء ، أى عن طريق ماكولى ثم جبـون ثم تاسـيتس ثم ثيوسيديدز ؛ فالتدرج هو من اليسـير السهل الى ما هو أكثر منه صعوبة وعسرا ؛ ونلاحظ أنه كلما كان كتاب ما من كتب التاريخ الانجليزى أدق من غـيره وأقطع ، فهو هذا الكتاب الذى لا يطيل فى الكلام عن تلك الموضوعات التى من قبيل « ألفريد والـكعك ؟ » . أما هـيرودوتس فيقص كثيرا من هـذه القصص ، ونحن من جهتنا نقرر أنه مؤرخ قليل الخطر ، اذ الحقيقة أن التاريخ كان لا يزال فى أول نشأته فى ذلك العهـد ، وأن هيرودوتس انما قدم لنا مزيجا حلاما من انشاد الشاعر الهوميرى الذى يروى لـنا أحسن القصص ، من أجل القصص نفسه ومن علم العالم الذى يعنى بالحقائق وتفسيرها وربطهـا وعرض ما لديه من ذلك العـلم على الآخرين ، فهو يقف فى منتصف الطريق بين هومر وجيبون : فهو مغرم غرام ذلك الشاعر القـديم بالقصص ، وقد كتب تاريخـه بفكرة القـائه على الملأ ، ومن وجهة أخرى فهو يدرك ادراكا أكيـدا واجبات المؤرخ الثبت على النحو الذى كان يدركها عليه أخلافه تماما ؛ ولم يكن ، على الدوام ، يؤدى هذه الواجبات على الصورة التى كنا نصبو اليهـا ، الا أن هـذا كان أمرا طبيعيا ، فقد كان يرضيه تفسير لاهوتى لمسئلة لا نقنع نحن اليوم بصحتها الا اذا توفرت فيها شروط اقتصـادية . وثمـة أثر آخـر من آثار هومر فى هيرودوتس ، هو هذا الروح التمثيلى . فالحوادث تروى بالصـبغة التى تجعلها تدور دائمـا حـول الشخصيات الهامة ــ والحروب الفارسية هى الى حد بعيد مغامرات شخصية قام بهـا أخشويرش Xerxes وتيمستوكليز Themistocles وبوزانيـاس Pausanias ــ والخطب الرسـمية المهيـأة التى هى بمثابة كلمات تشـخيصية تلقى بالتنـاوب ، هى من المشاهد المحببة .

وربمـا كان ثيوسـيديدز Thucydides (أنظر ص ٥٦٣) ، الذى قص فى كتبـه الثمانية معظم حوادث البليبونيز ، أعظم مؤرخى العـالم . كما أنه مثال جليل من أمثلة الروح الأثينى ، فهو يمثل ذلك العصر الذى ساد فيه المـذهب العقلى ، حينمـا كان التفكير العلمى يسـتخدم فى اقتـدار وبصر فى كل الشئون بما فيها علم السلوك . وقد كان اليونانيون فى الحقبة الوسطى يعبدون آلهة ثلاثة : الجمال ، والحق ، والدولة . فكان هيرودوتس وبندار يضـعان الجمال فى مقـدمتها ، وكان أفلاطون يضع الدولة فى هذه المقدمة .. أما ثيوسيديدز فكان يضع فيها الحق ..

ويقص علينـا ثيوسـيديدز قصصا جليلا الا أنه قصص صـارم جـد صارم ، لا يحابى قط ، جميل الى آخر حـدود الجمال ، الا أنه جمـال لم يأته من بهرج المحسـنات ، بل من الجاذبيـة المطلقة التى لادراكه العظيم ، ومن بعد نظره الذى يجلو به طائفة معقدة من الحوادث المثيرة ، فهو يكشف الغطاء عما حفز الناس اليها ، ولكن فى غـير حذلقة ولا ادعاء . وهو يتنـاول الاتجـاهات السـياسية والحـركات التدريجية الأخرى باهتمام عميق ، وهو لا يصنع ذلك بتلك المهارة التى ترتبط فيهـا البراهين بعضـها ببعض ، ولـكن بالتوحيد بين نوقد ذهنـه وبين القضـية التى يرغب قارئه فى معرفتها . وعلى هـذا فثيوسيديدز يشبه ديفو من هـذه الوجهة ، فهو يروى الحـوادث التى يتجلى فيها عنصر التهييج أكثر مما فى غيرها فى قوة من التفصيل المؤثر الدال على معناه ، قوة لا يعتورها النقص من بين يديها ولا من خلفها .. وذلك كما فى قصته البارعة عن هجوم براسيدس على بيلوس ، والتقهقر الخالد من سرقوسـة .. تلك القصة التى هى بلا شك أجمل الآيات فى

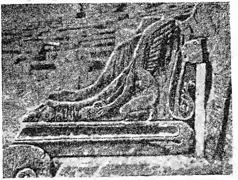


من المحتمل جدا أنه لم يكن ثمة منصة للتمثيل بمعناها الصحيح فى المسرح اليونانى القديم ولكن كانت تقام فى العهد اليونانى الأخير دكة أو لوچيون Logeion للممثلين باعتبارهم منفصلين عن المنشدين · وكانت واجهة هذه الدكة فى مسرح ديونيزوس بأثينا محلاة بنقوش نصف بارزة لمناظر من حياة هذا الاله وسطها صيلينوس منحن محملا الدكة



كان حدور الروابى يختار دائما لمدرج المسرح فى اليونان ، وكان يجهز بمقاعد حجرية موضوعة فى صفوف متصاعدة مقسمة بممرات الى مجموعات اسفينية الشكل · وكانت أحسن المقاعد هى القريبة من الباحة من الصف السفلى · وكان من ضمنها عروش رخامية مخصصة بطريقة مميزة للموظفين الرسميين من دينيين ومدنيين · والكراسى ، أو المقاعد القائمة الزوايا التى نرى هنا هى من آثار الحقبة الرومانية الأخيرة

تفصيلات بنائية من مسرح ديونيزوس



عرش كاهن ديونيزوس

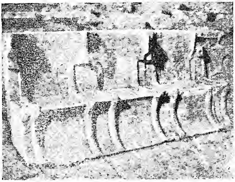
كان كاهن ديونيزوس يحتل المقعد الأوسط فى الصف الاول ، وذلك بصفته ممثلا للاله الراعى للمسرح ؛ الذى كانت تقام الأعياد التمثيلية السنوية تمجيدا له ؛ وكان عرشه فى أثينا من المرمر البنتيلى ، وبه نقوش بارزة لايروس مجنح مع ديكة قتال

عالم الأدب المنور المحرك للعاطفة المثير للأشجان .

ونقول « المثير للأشجان » ونحن نعنى ما نقول ، وذلك لأنه لا يكاد يكون ثمه شئ من الشك فى أن تأثر ثيوسيديدز بمعاصريه من كتاب الروايات التمثيلية قد أقنعه بأن يتناول مادته كما تتناول هذه الروايات . ففى الحملة الصقليه لم يكن العامل الرئيسى ، فى نظره هو ، شخصا من الأشخاص ، بل كان هذا العامل هو أثينا نفسها ، وثيوسيديدز يسهب فى مهارة . فى وصف الصورة الوحشيه التى حطمت بها أثينا ميلوس ، تلك الدويله الصغيره من دويلات الجزائر ، وذلك ليجعل من هذا الوصف استهلالا ، ثم يأخذ بعد هذا فى تصوير تلك العمارة البحريه الهائله المقلعه من البيرايوس Piraeus وسط منظر يبهر اللب من الأبهة ، والقوة ، والآمال التى لا تقف عند حد ... لفتح غربى البحر المتوسط . فترى أثينا تنجح نجاحا وئيدا بادئ الأمر ، ولكنه نجاح ثابت ، حتى يقنط السرقوسيون : الا أن جليوس Gylippus الأسبرطى يدخل فى الوقت المناسب بامدادات الى المدينه المحاصرة ومن هذه اللحظة يأخذ نجم أثينا فى الأفول حتى يقضى على جميع جيشها وأسطولها العظيمين قضاء مخزيا . وقد ساق ثيوسيديدز هذه الأحداث كما يسوقها الكاتب المسرحى ، وذلك بدون أن يزيف أيا من تفصيلاتها .

مؤرخون أحدث من ثيوسيديدز

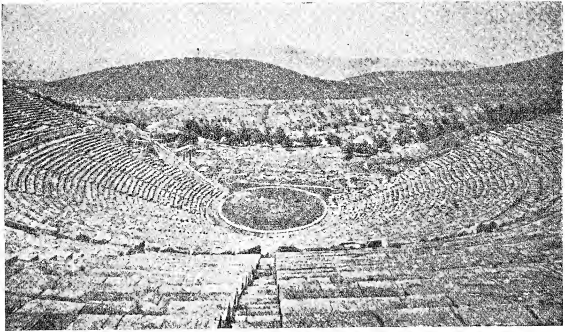
وقد واصل زينوفون Xenophon هذا الكاتب الرقيق ، فى موسوعته (الهيلانيه) Hellenica أحاديث ثيوسيديدز ، الا أن أشهر مؤلفاته هو الـ (أنا باسيز) الذى يصف (تقهقر عشرة الآلاف) ذلك الجيش اليونانى من الجنود المرتزقه الذين كانوا يرابطون على الساحل وسط الامبراطوريه الفارسيه والذين نجحوا فى هزيمة قوات الشاه العظيم بأجمعها ، وشقوا طريقهم الى الوطن ، عبر تلك الجبال المخيفه



كراسى مصونة فى أثينا

كان فى الصف الأمامى من صفوف الأوديتوريوم (المدرج) فى أثينا سبعة وستون كرسيا رخاميا نقش على كل منها اسم الموظف الرسمى الذى كان الكرسى محفوظا له ؛ وكانت هذه الكراسى الثلاثة مخصصه (للسموثيتيه أو رؤساء الحكومة أو الآرخون(١)) . وكانت تخصص كراسى أخرى للرؤساء الدينيين وغيرهم من كهنة ديونيزوس وأبولو الذين كانوا يقومون بالطقوس الدينية

(١) اللفظتان يونانيتان والآرخون تسعة رؤساء كانوا يتولون الحكم بعد الغاء الملكيه (المترجم) .

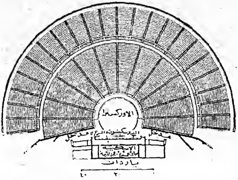


(أجمل مسارح اليونان القديمة المحتفظة بحالتها وأحسنها)

كان پوزانياس يصرح بأن مسرح أپيدوروس من رسم پوليكليتوس كان جديرا بالمشاهدة ،وتؤيد أطلاله اليوم هذا الثناء ، ويكاد كل مقعد أن يكون على ما كان عليه ، ولم يختل تناسق الأوديتوريوم (المدرجات) الا عند الجناحين حيث سقطت الجدران الفاصلة · وقد زود المسرح بمقاعد تتسع لستة عشر ألف شخص على الأقل · وكانت التنظيمات الاسماعية عجيبة جدا لدرجة أن الشخص الذى يتكلم بصوت عادى من منصة التمثيل كان من المستطاع سماعه من جميع أجزاء المدرج ؛ ولم تبق الا أسس المنصة فقط وراء الباحة

والقسائل المتوحشة ، وقد أنشأ زينوفون عددا طيبا من الكتب الأخرى، في الفلسفة (ولا سيما كتابه المشهور Memorabilia أو مذكرات سقراط :

وفى التراجم (اجسيلوس) Agesilaus وفى الفن (فى الفروسية مثلا) • وفى عهد الحكم الرومانى هذبت دراسة التاريخ وتدوينه فى عناية وجد ، وخير المصنفات باليونانية هو ما صنفه پولبيوس الذى ترك لنا ثبتا لا يقدر بثمن عن الحروب البونيه • أما يوسيفوس فقد كتب تاريخ الحروب اليهوديه بناء على اقتراح من الامبراطور تيتوس •



تخطيط لمسرح ايبدوروس

مسرح ايبدوروس نسيج وحده فى الاحتفاظ بشكل باحته الأصلية الدائرى ؛ والأوديوريوم (المدرجات) أكثر قليلا من نصف دائرة ؛ وقد خططت بحيث يطلع منها النظارة فى الجناحين على منهد واضح لمنصة التمثيل . وقد اضيفت منصه التمثيل (البروسكنيون) وأبنية المنصة (سكين Sckne) فى عصور متأخرة

بيد أنه قد حان الوقت الذى نعود فيه الى معاصرى ثيوسيديدز العظام ، وهم كتاب المآسى الذين عاونوا – كما رأينا – فى تكييف تاريخه النفيس ، فهومر كان لا يزال يتلى ويدرس، ويقبل عليه اقبالا شديدا ، الا أنه كان ينشد لملوك العالم الأخيوى القديم أنصاف المبربرين ؛ وكان الشعراء الغنائيون ، أشباه سافو ، وبندار موضع الاعجاب ، الا أن سافو كانت تنشىء عن احساس شخصى ، في حين كان بندار يقف نفسه على طبقة أصحاب الضياع من الأشراف الذين دالت دولتهم ، وكانت الحاجة ماسة الى طراز جديد من الشعر لتلبية النهضة الشاملة ، للديمقراطية العظيمة التى تبعت الاضطرابات فى أثينا ، والانتصارات النهائية فى الحروب الفارسية •

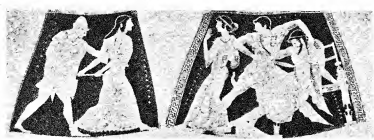
ولم تكن مدينة أثينا على شيء من الشهرة قبل أن ينزل جيش دارا الى البر عند مرثون ، بينما أصبحت بعد ذلك باثنتى عشرة سنة ، وعندما افتتحت آخر قلعة من قلاع الشاه العظيم فى سستوس ، دولة عالمية ، كما أصبحت بطلة اليونان المتألقة ذات المجد ، التى تجيش بفيض من الكبرياء والشجاعة والأمل لا حد له ، مصدره هذه الأيادى التى أدتها للمدينة فى فى مرثون وفى سلاميس (أنظر كذلك الفصل السادس والثلاثين) ولقد كانت أثينا دولة ديمقراطية ، ففى خلال تلك السنين ، من سنى التوسع المثير للعجب ، فى السياسة ، وفى التجارة ، وفى شئون الروح والعقل ، أخذ يزدهر لون من ألوان الأدب بالغ غاية الكمال ؛ فكما رفع هذا الروح المتولد من هزيمة الأرمادا فى انجلترا من شأن المسرحية ، فقد هيأت هزيمة الفرس لسلسلة من الانتصارات فى المأساة والملهاة الأثينيتين •

وتثير مصادر المسرحية اليونانية طائفة من الأسئلة قد تختلف الآراء بصددها اختلافا كبيرا ، وذلك لما لها من الأهمية • والتأويل التقليدى هو أنها انتشرت بوصفها عملا تعبديا ، و تشخيصا طقسيا ، لتقديس ديونيزوس ، اله الحيوانات المتوحشة ، والمملكة النباتية ، ولا سيما الكرم • فكان فريق من المنشدين (الخورس) يرقص ، وينشد مقطوعة غنائية وذلك ابان الربيع ، حول مذبح القرابين الخشبى ، ثم لا يلبث الأداء أن يقف فى الفينة بعد الفينة ليلقى أحد المنشدين أقصوصة مستقلة عن حياة ديونيزوس الأرضية • وقد يمثل بنفسه بعض الشخصيات الأخرى فيما بعد فى قصته هو ، وذلك بواسطة وجه تنكرى وكسوة ثانية ثم يدخل خيمة فيغير فيها بزنه ليمثل شخصية أخرى فى القصة نفسها • فهذه

المـراوحة بين الشـخصيات هى التى ربمـا أسبغت على القصـة روحا يجعلها أشبه شيىء بالمسرحية ، حيث شخصية تجد فى طلب أخرى ولن تدركها أبدا ...

وكما كان هـذا الممثل المفرد هو البـذرة الأولى للمسرحيات الكبيرة .. من مثل أوديبوس تيرانوس ، والضفادع .. فكذلك كانت هذه الخيمة رمزا للمسرح .. وكانت تستعمل غرفة للدمام والملبْس ؛ ومرادف الخيمه باليونانيـة هو Skēnē (ومنها الكلمة الانجليزيه Scene ـ أى منظر) ولم تكن لهـا أول الأمر صـلة أساسية بالرواية أكثر من صلة المظلة بمباراة الكركت (كرة المضرب) .

ونحن الى هنا لا نزال على هامش المسرحيه . فأول كاتب مسرحى ، سواء أكان تسبيس أم آريون ، قد أنشأ نوعا ساذجا من الأوراتوريو ـ أو النشيد الدينى الذى يوقعه مغنون على آلات موسيقيه ، تتخلله فى الغينـة بعد الغينه خطابات مهيـأة ؛ وقد تدرجت هـذه الأسس الأوليه من غير شك ، فى مهارة وفى تنويع ، فلم تلبث الخيمه أن صـارت جزءا لا يتجزأ من الرواية ، وكان يطلق عليها عادة اسم خيمـة ليكورغوس Lycurgus وليكورغوس هو عـدو ديونيزوس . وقد كانت هذه التمثيليات تنال الاستحسـان العـام باستمرار . ثم أنشىء مسرح عظيم على المنحـدر الجنـوبى الشرقى للاكروپوليس ، وكان النـاس يجلسـون فى مقـاعد مصفوفة حـول المنحـدر ، بينما كان المنشدون . أو الممثلون ـ (الخورس) يؤدون أدوارهم أمامهم فوق أرضية المرقص المنبسطة (الأوركسترا) أمام الخيمه ، أوال Skēnē التى أصبحت بناء مستديما تحفظ به المناظر التى تنـاسب الرواية الفرديه (١) . وكانت تمنح جائزة لأحسن الشعراء الثلاثة المتبارين ، وكان كل منهم يقدم أربعة روايات تتألف من مجموعة من ثلاث مآس (وكانت هذه المآسى الثـلاث سلسلة متصلة أول الأمر ، وان لم تكن كذلك فى العهـد الأخير) ، ثم مسرحية سـاتيرية . وكانت هذه خليطا من المأساة ومن الملهاه ، وكان فيها دائما فريق من المنشدين يتكون من آلهة الغابات ، أتباع ديونيزوس ، أنصاف الحيوانات المضحكين . أما شـخصياتها الأخرى فكانت شـخصيات مبجله ، كأپوللو مثلا فى رواية (القائفين) (٢) لسوفوكلس ، والتى اكتشفت حديثا ، أما أقـدم كتاب المآسى العظام فهو فرينيخوس Phrynichus ، الذى فاز بأولى جوائزه ، على ما يقال ، سنة ٥١٠ ق.م . وحتى فى خلال القرن الخامس ، وبالرغم من روايات الأساتذة الثلاثة : اسخيلوس وسـوفوكلس ويوريپيدز فقـد ظلت روايات فرينيخـوس



(أورست يقتل ايچستوس بمرأى كليتمنسترا)

وجد كتاب المآسى الاغريق فى الأساطير التى كانت تدور حـول أورست موضوعا ملهما الى أقصى حد . وقد بنى عليها كل من اسخيلوس ويوريپيدز (٣) ثلاثيتين تمثيليتين ، وتناولها سوفوكلس فى تمثيليته الكترا ؛ واتخذها النقاشون مادة لفنونهم الرفيعة كما فى هذه الزهرية التى تصور أورست مستأنيا فى تسديد الطعنة الى ايجسـتوس لـيرقب أمه كليتمنسترا التى تهدده ببلط ينتزعه منها تالثيبوس . ولم تكن تفصيلات القتل الدموية تمثل قط على المنصة اليونانيه

---

(١) أى التى يقوم بالتمثيل فيها ممثل واحد (المترجم) .
(٢) الشرطة السريون من قاف (المترجم) .
(٣) لم يكن يوريپيدز او سوفوكلس من كتاب الثلاثيات (المترجم) .

مذكورة محببة ، وكانت المؤاخذات انما توجه الى أغانيه لا الى موضوعاته وتصويره لشخصياته ·

وقد أدخل اسخيلوس ممثلا ثانيا . وهو بعمله هذا صار أول مسرحي حقيقي في أوروبا ، لأن الأسلوب المسرحي هو أن نجعل شخصين ، بحيث يواجه أحدهما الآخر ويساجله، وينبغي أن نتذكر هنا أن استعمال الأقنعة التنكرية كان يساعد هذين الممثلين في القيام بتمثيل شخصيات مختلفة ؛ وكان الممثل الرئيسي يسمى بطل الرواية Protagonist ، وقد أنشأ اسخيلوس ما يقرب من مائة رواية ، لدينا منها سبع فقط ، فضلا عن نتف كثيرة ·

ولروايه (النسوة المتضرعات) التي أنشأها سنة ٤٩٠ ق·م ، خورس يتألف من خمسين ابنة من بنات دانوس ، يلجأن الى أرجوس فرارا من أبناء عمهن الذين يقتفون أثرهن من مصر ليبنوا بهن . ويحرض الآرجوسيين ملكهم ، ومعه دانوس ، على حماية المتضرعات . ويجد قائد مصري أولئك النسوة وحدهن فيوشك أن يسوقهن الى سادته في الوقت الذي يكون فيه ملك الآرجوسيين عائدا فيمنعه ، مستخفا بالتهديد بالحرب · وهذه الرواية قديمة كما يتجلى لنا ذلك ، فالحوادث محصورة في حدود ضيقة ، والحوار جامد . والأغاني وان تكن غنية في لاهوتها ولغتها ، تعوزها الليونة والرقة ·

اما روايته التي عنوانها (الفرس) (حوالي ٤٧٠ ق·م) فتصور هزيمة أسطول الملك أخشويرش في سلاميس ، والمعركة مروية في أقاصيص بارعة على لسان رسول ، ويعلق عليها الخورس بأناشيده ، كما يعلق عليها شبح الملك دارا أيضا بمراثيه ونبوءاته : وهذه فقط هي الرواية اليونانية التاريخية الباقية ، وهي تعتبر سندا هاما ، فقد حارب اسخيلوس في سلاميس كما حارب في مرثون · ونلاحظ فيها تقدما كبيرا عما شهدناه في المأساة السابقة ، فالحوادث تدل على قسط أوفى من



أورست وربات الانتقام التي سكت عنها الغضب

يصور نقش هذه الزهرية ، من صناعة القرن الخامس . أورست الذي طهر الآن من الاثم بعد أن برأت محكمة الآريوبيجوس ساحته بينما تنام ربات الانتقام دون أن يقلقهن طيف كليتمنسترا الذي لا يزال يصيح طالبا الثأر ؛ وقد استرضيت ربات الانتقام بشعيرة جديدة من شعائر الدين يعبدن فيها بوصفهن اليومينيديات (الرؤوفات)

القوة ومن المطابقة للواقع من حوادث النسوة المتضرعات ؛ وثمة أيضا تحسن ملحوظ في بنائها الذي هو أكمل على كل حال مما في روايه فرينيخوس التي أنشأها في نفس الموضوع ·

أما روايته – سبعة ضد طيبة (٤٦٧ ق·م) – فتدور حول هجوم الأبطال السبعة على طيبة في وسط بلاد اليونان . وحول ردهم على أعقابهم على يد الملك اتيوكليس Eteocles . وهي روايه استعراضية A Pageant فخمة الى حدما ، أكثر منها روايه تمثيلية · فالخورس المكون من الفتيات الطيبيات يوضح في أنشودة أنيقة ما في الحصار من ألوان المخاطر وصنوف الاستفزاز ، ومن العناصر اللطيفة في الرواية هذه الطائفة من الخطب التي تصف على التعاقب أحد الغزاة السبعة ثم أحد الطيبيين الذي اختير لملاقاته ·

وقد لا نكون – بروميثيوس المصفد – أعظم روايات اسخيلوس ، الا أنها أنبل ما وصل اليه خياله · فعندما يعتزم زيوس ملك الآلهة أن يبيد البشر ، يثور بروميثيوس ، وينقذ الناس بأن يحضر لهم من السماء ، النار (١) التي يتعلمون بها الصناعات ،

(١) رواية الأسطورة على هذا النحو فيها قلب لها ، والمأثور أن بروميثيوس بعد أن فرغ من خلق الانسان أراد أن يهدي اليه هدية عظيمة فسرق له جذوة من النار المقدسة ، وكانت وقفا على الآلهة فقط ، فغضب زيوس كبير الآلهة وأقسم لينتقمن من بروميثيوس ، وليبطشن بالانسان ، وبالفعل قبض على بروميثيوس وسمره في صخرة بجبال القوقاز ، وأحال عليه نسرا كبيرا ينوشه ويعذبه . . . الا أن زيوس خشي من القضاء على بروميثيوس وعلى البشر لأن بروميثيوس كان يعرف سرا يقضي به على السموات والأرض · (المترجم)

ويهتدون الى المدينة ، وهكذا ينتشلون أنفسهم من وهدة التعاسة ـ فمن أجل هذا (وهنا تبدأ الرواية) يُسمَّر بروميثيوس بواسطة خدم (١) زيوس فوق جبل القوقاز حيث يسلط عليه نسر يقاسي منه أحقابا عدة . وهو يحتمل هذا كله في اباء وشجاعة عظيمين ، ملقيا على الخورس المؤلف من عرائس البحر قصة (خلاص الانسان) ومواسيا الأميرة القلقة (يو) بنبوءاته . متكهنا لها عن منقذه (الذي سيكون من ذراريها) والذي سوف يخلع زيوس من عرشه . وتذهب محاولات الجميع التي يحاولون بها أن يروى لهم كيف يمضي زيوس هذا كله أدراج الرياح ، حتى حينما يرسل زيوس رجفة هائلة تخسف الأرض ببروميثيوس .



سوفوكلس : أستاذ المأساة

ظفر سوفوكلس (٤٩٦ ـ ٤٠٦ ق . م) بأولى جوائز المأساة سنة ٤٦٨ ق . م ، وقد جاء اسكيلوس في المرتبة الثانية في تلك السنة ؛ ثم أصبح سوفوكلس بعد ذلك أهم الشخصيات المحبوبة في المسرح الأثيني ؛ وقد ظفر بالجائزة الأولى عشرين مرة

والروايات الثلاث الأخرى تؤلف ثلاثية Trilogy موضوعها مقتل أجاممنون ، والثأر الذي يأخذه له ولده أورست ، ثم تبرئة أورست مما اقترف من قتل والدته . وتصور أولى هذه الروايات المسماة (أجاممنون) عودة ذلك الملك من طروادة بعد تدميرها ، كما تصف المؤامرة التي دبرتها ضده زوجته الملكة كليمنسترا وعشيقها ايجستوس واضطراب الشيوخ الضعفاء الذين دب في قلوبهم الريب من المؤامرة وجزعهم، وسورات المكاشفة المبرحة التي كانت تنتاب كاسندرا الطروادية التي تنبأت بمقتل الملك ومقتلها هي ، وبالمذبحة ، وبالظفر المتسبب الذي يحظى به المتآمرون ويظن أن هذه الرواية هي على العموم أعظم المآسي في اليونانية ، وذلك لأن عناصرها الباهرة كانت هذه الأناشيد التي تترجم بطريقة عجيبة جدا عن الانفعالات النفسية الناجمة عن الحرب والثكل ، (ثم ذلك المنظر المرعب الذي يتجلى فيه لكاسندرا شبحها الدامي وهي تهذي) .

أما (حملة السكيبة) ـ Choephoroe فقد اشتق اسمها الاغريقي من العذارى اللواتي يحضرن قربان الخمر الى قبر أجاممنون ، وتصف عودة أورست من منفاه ، وقتله أمه كليمنسترا والذعر الذي يغشاه حينما يبدأ ربات الانتقام (The Furies) هجومهن المفاجئ عليه . وفي (اليومنيدز ـ الرؤوفات) (من الأسماء التأدبية التي تطلق على ربات الانتقام) ، نرى أورست هائما على وجهه ، وهذه المنتقمات تتبعه ، الا أن الاله أبوللو يواسيه ، أبوللو الذي كان القتل بمقتضى نبوءته . وتعرض القضية على محكمة آريوباجوس برئاسة الربة أثينا . ويبرأ أورست ، وتهدأ سورة ربات الانتقام بمنحهن شرف السكنى في أثينا ، بينما يأخذ أعضاء محكمة آريوباجوس على عواتقهم مهمة حفظ العدالة .

تعاليم اسخيلوس في مآسيه

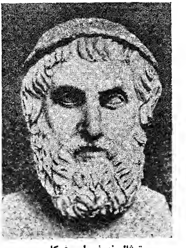
وتتألف عظمة اسخيلوس قبل كل شيء من ميزتين : القوة الروحية غير المحدودة ، ثم القوة المسرحية غير المحدودة ، وقد أوتي من دون اليونانيين قاطبة أعمق أنواع الشعور الديني .

---

(١) وعلى هذا تكون سرقة النار هي السبب في الخصومة بين زيوس وبروميثيوس ، ولم تكن النار كما ذكر نور وود ، وسيلة لانقاذ البشر والذي تولى تسميره هو فلكان ابن زيوس واله النار وليس خدمه . انظر (جلبرت مرى ـ الأدب اليوناني ـ وجربرز ـ أساطير اليونان والرومان) (المترجم)

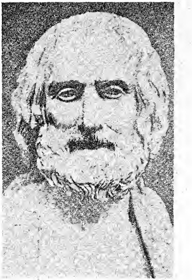
(٢) أكمة قرب أثينا (المترجم)

فوجدانه العميق السريع الغضب ، لا للآلهة فحسب، بل لله ، وتحقيقه المتأجج للاثم ، وللعنة الأدبية الدائمة ، وما فطر عليه من النظر الى العالم بوصفه الحومة التى تحترب فيها الروح • كل ذلك يجعله نسيج وحده بين مواطنيه ، ففى « النسوة المتضرعات » نراه يحمل لله هذا الطابع الغالب بوصفه الكائن الوحيد الذى يوجد حقيقة ، وفى « الفرس » لا يذكر اسم أحد ما من الاغريق الذين شاركوا فى تحرير الوطن ، ولكن « الله » أى « زيوس » هو الاسم الذى يتكرر بلا انقطاع ، أما « برومثيوس » فكاد بهاؤها اللاهوتى والأدبى أن يكون مضرب الأمثال حتى فى زمننا هذا • ويبدو فى الثلاثية كلها التى لم يبق منها غير هذا الجزء (١) أن زيوس الذى بدأ بوصفه طاغية شابا ، قد تعلم الحكمة والحنان عن عدوه (٢) العظيم بالتدريج ، وهكذا يأخذ مكانه آخر الأمر بوصف كونه صديقا للانسانية



تمثال نصفى لسوفوكلس

قد يكون التمثال الموجود فى الصحيفة المقابلة « نسخه » من تمثال مهدى من ليكورجوس سنة ٣٣٠ ق•م ، فى مسرح ديونيزوس وهذا التمثال النصفى من عصر أحدث ، الا أنه يصور بطريقة عجيبة هيبة الكاتب المسرحى العظيم الرزينة



يوريبيدز : ملهم شعراء المسرح

كتب يوريبيدز (٤٨٠ — ٤٠٦) أكثر من سبعين تمثيلية وقد كان ملهما محبوبا لكثيرين من أعظم شعراء العالم ، وذلك بوصفه أستاذا فى رقة الشعور واثارة العواطف ، وقد احتفظ بشهرة واسعة طول العصور

فهذه الفكرة الجريئة لدرجة تبعث على الانذهال ، الا وهى أن الله نفسه انما يبلغ الكمال بالتدريج ، (وبالتدريج وحده) هى الفكرة التى تقوم عليها ثلاثيتنا الوحيدة الباقية • فربات الانتقام على حق فى ديونتهن لأورست ، ولو أن قتله أمه كان أمرا أمر به زيوس وتلقاه أورست على طريق أبوللو (٣) •• ومع هذا فزيوس على حق ، لأن قتل كليمتنسترا زوجها وملكها لابد أن يلقى قصاصه ، وليس الحل هو مجرد تهدئة ربات الانتقام ، بل هو تهذيب السلطان الأدبى الذى يحكم بمقتضاه زيوس العالم •

أما ميزة اسخيلوس الأخرى فسليقته المسرحية فالمأساة العظيمة هى فى المقابلة بين الأشخاص ذوى الاعتبار ، المؤثرين بأنفسهم الذين هم أيضا حملة الأفكار أو القضايا ، أو

(١ ، ٢) يقصد (برومثيوس) •

(٣) ليس فى أصل ثلاثية الأورستية ما يشير الى هذا ، (المترجم) •



كيف كان الخورس (المنشدون) يتزيون وهم على منصة التمثيل الأثينية

لماكانت التمثيلات اليونانية قد نشأت من الطقوس الدينية التى كانت تقام للاله ديونيزوس فليس مما يدعو للدهشة أن تكون أقدم الملاهى الأتيكية مطبوعة بشىء من الحرية المفرطة التى كان يستبيح التمتع بها المنغمسون فى الملاذ من أهل الريف فى الأحتفالات الباخوسيه ، ومع أنها تشترك الى حد ما فى طبيعة الملهاة فان المسرحية التى يطلق عليها اسم الدرامة الساتيريه (أى التى يقوم بالتمثيل فيها جنيات الحراج) التى أنشأها خويريلوس الأثينى وپراتيناس الفلبوسى حوالى سنة ٥٣٥ ق.م كانت تشبه المأساة شكلا وموضوعا ، وان اختلفت برقص منشديها ، وان قام بالتمثيل فيها جنيات الحراج ؛ وكانت التمثيليات الساتيرية يؤلفها شعراء المآسى ، وتمثل مقترنه بالمآسى

الميول المشتركة ، التى تهم البشر على الدوام فبدون الأولى نجد انشاء مزخرفا مبهما كالذى فى « بروممبوس الطليق Prometheus Unbound لشلى ... وبدون الثانية نجد « المسرحية » (أو الروح المسرحى) الذى نجده فى (هنرى الخامس) لشيكسبير (وان يكن فى مستوى أعلى) ، أو (فى مستوى أدنى) كما فى درامه (الملك القضى) لولسن بارت • ونجد فى كل عمل عظيم كلا من العاطفه الفردية والعاطفة العامة جلتين تمام الجلاء الا أن احداهما تظهر على الأخرى عادة أما فى آثار اسخيلوس الناضجه فهما متساويتان تماما •

أما كاتب المأساه العظيم الثانى «سوفوكلس» فمشهور فى الغالب بأنه تسبح وحده بين جميع الكتاب المسرحيين القدماء ، وهو غير عميق ولا متدين بالفطرة كأسخيلوس ، بيد أنه ما من سبب يدعو أن يكون كاتب الروايات التمثيليه كذلك ، وان نهضت الحجج على غير ذلك،مع العلم بأن شيكسبير كان أقل تدينا من ملتون ؛ واذا جاز أن نقول هذا دون أن نسىء الى أحد ، فان فى سوفوكلس من العمق والدين ما كان يلائم هوى الجماهير الدائم • وهو الى حد بعيد أحسن مثال للأديب النبيل الحق الذى أوتى كل السجايا المرغوب فيها •• السجايا التى تسمو كل منها الى أرفع الدرجات الممكنه اذا لم يعق هذا الارتفاع سائر السجايا الأخرى ، وسوفوكلس فياض بالحنان الذى ينسجم وما لتأثيره العام من العذوبة الوافرة • ثم هو يسيطر على لغته الأنيقه حتى ليدنو بها الى الكلام العادى دون أن يبدو عليها التكلف أبدا ثم هو يتأمل غرائب الكون مليا ، لدرجة أنه يهز القلب دون أن يبرح به ، فها هنا رجل كان ، ولا يزال ، يدخل السرور على نفس كل انسان ، الا أنه لم يكن يصنع ذلك قط بحاشيه رائقه ، أو بتنازله عن أسمى ما كان ينطوى عليه .



أحد ممثلى المآسى

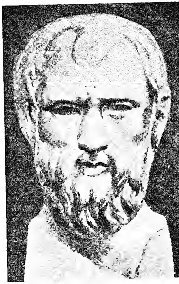
كانت الخفاف العاليه النعال والشعر المكوم عاليا فوق القناع التنكرى ، كما يرى فى هذا التمثال الصغير الجميل تكسب ممثل المأساة اليونانى ارتفاعا يبلغ نحوا من ستة أقدام وست بوصات

وقد كان سوفوكلس ذروة الكمال فى العصر الأثينى ؛ واذا نحن فضلنا عليه هومر فذلك لأننا نفضل العمل على الفكر ؛ واذا فضلنا عليه شيكسبير ، فذاك أننا نعنى بالمظهر أكثر مما نعنى بالجوهر ، واذا فضلنا عليه جوته ، فهذا لأننا نقدر البصيرة أكثر مما نقدر العاطفه ، فاذا فضلنا عليه دانتى فذاك لأن الله فى نظرنا أكثر حقيقه من الانسان •• أما مميزات سوفوكلس الثلاث الرئيسيه فهى هذا التوازن بين مزاياه ، ثم ألفاظه الفخمة وحاسته المسرحيه الفائقه •

تحليل عبقرية اسخيلوس

ولا يمكن أن نقدر ألفاظه دون الالمام وثيق باللغة اليونانيه ؛ الا أنه من المعلوم جيدا •• أن سوفوكلس بوصفه رجلا من رجال المسرح هو أمهر من الكتاب القدامى الذين نعرفهم ؛ وذلك لأنه لابد من أن نجعل فارقا هاما بين الكاتب المسرحى والاخصائى فى الأعمال المسرحيه . فسمسون أجونستس Simson Agonistes (المكافح) هى تمثيلية جميلة ، الا أن ملتون لم يكن متخصصا فى المسرح • وكان ساردو اخصائيا بالغا حد الكمال . ومع هذا ، فقد أوشك اليوم ينسى ، ولو لم يكن سوفوكلس عبقريا . فقد كان ممكنا أن نحصل على (خورس) •• أى أنه كان يسمح له فى دخول المباريات العامه ، وكانت قد بقيت له الى اليوم روايات كامله ، وان كانت ــ بلا شك ــ أقل من الروايات السبع الموجوده •

ونعنى بالحاسة المسرحيه سليقة ادراك المؤثرات ، التى ان لم تكن كبيرة الخطر ، أو كانت ذات أثر معتدل أثناء القراءة فانها مع ذلك تثير عين المشاهد المشوف وعواطفه ، والاخصائى المسرحى هو الكاتب الذى يستخدم مناظره تماما ، واليك مثالا فجا ، وان يكن مثالا عاديا: يقول زيد لعمرو : حدثنى عن ذاك السحر الذى يتوقف



أحد أساتذة الملهاة

كان أرســـطوفان (٤٤٥ - ٣٨٥ ق٠م) أعظم ممثلي الملهـاة القـديمة ٠ وفضلا عن كونه عبقريا مضحكا رفيع الدرجة ذا فكاهة ساحرة وذكاء باهر فقد كان شاعرا عظيما تصح مقارنته بشكسبير في جمال الشعر الغنائي وروعته

عليـــه الشيء الـكثير ٠ فيجيب عمرو : انى لن أخبرك الآن ٠ فهـذا هو الفن المسرحي ، ان لم يكن السبب الذى أدى الى صمت عمرو شيئا الا رغبة المؤلف فى أن يظل النظـارة مشوقين دائما ، فاذا كان الجواب معقولا من وجهة نظر عمرو كان هذا فنا مسرحيا جيدا ٠ وفى ختام (الكترا — وهى تمثيليـــة من نوع « حاملات السكائب » لاسخيلوس فى الموضوع نفسه) نجد واقعـة من صـميم الفن المسرحي ٠ فأورست قد قتـل كليتمنسترا فى الداخل ؛ ثم يصل — ايجستوس الذى كان يظن أن أورست قد قتل فيأمر باحضار الجثة اليه فاذا كشف عنها عرف خطـأه وعرف مصيره كذلك ، وقد حرر هـذا المنظر ببراعة ، الا أنه لم تتطلبه الأحـداث السابقة أو اللاحقة ، وهو لهذا كان مفاجأة عنيفة مباشرة ، ثم هو أقرب مثال للمذهب الحسى الخالص فى أدب سوفوكلس ٠

ومع هذا فانا نجد فى المسرحية نفسها أثرا بارعا لهذه الحاسة المسرحية ، فهذا رجل غريب يحضر لالـكترا وعاء جنـائزيا Urn يقول ان به الرماد المتخلف عن جثمـان أورست بعـــد احراقه ، فترثيه الـكترا بمرثية مشـجية ٠٠٠ بينا نعرف نحن النظارة أن هذا الرجل الغريب هو أورست نفسـه ، الا أنه اضـطر الى هـذه الخدعة لأنه كان فى حضرة أعدائه ٠ وفى الحق ان أورست لم يكن يدرى أنها أخته حتى دل عليها كلامها الحزين ٠

ويظهر كذلك أن سوفوكلس هو مبتـــدع « الدسيســـة Intrigue » أى المؤامرة التى يدبرها أشـخاص الرواية أنفسهم ، كالخدعة التى دبرها هملت فى الرواية التى قام هـو بتمثيلها ، وخدع ياجو ، وآلاف الوقائع التى من هـذا القبيل ٠ حقـــا ان ، فى (حاملات السكائب) لاسخيلوس فريقـا من المنشدات (خورس) راح يغرى المرضع بتزوير رســالة لمساعدة أصدقائهن ، الا أنه ربما يكون قد تأثر فى ذلك بسوفوكلس ، الذى كانت ســـنه فى ذلك الوقت أربعين سنة تقريبا ٠٠ ومهما يكن فان الشاعر الأصغر هو نسيج وحده فى هذا المضمار ، والفيلوكتيتس هى أبدع أمثلة ذلك ، اذ يحتال فيها أوديسيوس ، بطريقة بارعة على اخضـاع فيلوكتيتس لســـلطانه ، وذلك باستغلال الذعر العميق الذى كان يملأ روعه من أوديسيوس ٠

ويبرز سوفوكلس فى بدائعه الفنية المثالية تبريزا لا مزيد عليـه ، فهو يصطنع فى كل أجزاء المسرحية حوادث صادرة عن الشخصية قبل كل شيء ، بحيث لا يدع للصدفة الا نصيبا ضئيلا ٠ ومن حيث هـــذا التبريز فأوديبوس تيرانوس هى أعظم التمثيليـات اليونانيـة ، اذ يسعى أوديبوس الى حتفـــه قـدما بسبب طبيعته وفضائله واخطائه على السواء ٠ فشرف عزيمته وشـجاعته ، ومزاجه السريع التـأثر كل أولئك من مســـتلزمات هـذا الوحى الذى ينزل عليه ٠ ولو لم يكن كريون ، ولو لم تكن الأمـيرة ما كانا ، فى مسرحيتـه أنتيجونى ، لما قضت الأميرة وغيرها نحبهم ٠

وثمـة تباين ظاهر بين طريقتى سوفوكلس ويوربيدز ، ثالث الأسـاتذة الثلاثة ، فى

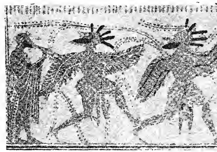
تنـاول الشخصيات ؛ اذ تصطرع الآراء في سوفوكلس ، باصطراع الشخصيتين المصورتين تصويرا بسـيطا ، مثل أنتيجونى وكريون ، وفيلوكتيتس ونيوپتولیموس ، وديانيرا وهرقل ؛ أما يوريبيدز فهو لدقته المتزايدة في التحليلات النفسية ينزع الى توضيح أن الصراع انما ينشب في رأس شخص بعينه : مثل ميديا أوفيدرا • فاذا قابنـا بين سوفوكلس واسخيلوس وجدنا أن سوفوكلس يعنى بالطبيعة الانسانية أكثر مما يعنى باللاهوت . الا أنه يرفض كل ما يخرق الطبيعة اطلاقا • ورواياته ملأى بالأثر الألهي الذى لوحظ أن يأتي بالضبط عنـد النقطة التي يعمل فيها ما كان أولى أن يكون من الأعمال الانسانية ، وأعنى بذلك نبوءات الآلهة •

وقد درس يوريبيدز في أيامنا هذه دراسة وافيـة ، وذلك لما حظيت به ترجمات الأستاذ جلبرت مرى من اعجـاب • وهى ترجمـات ان تكن ملحوظة الجمـال في ذاتها ، فانها أكثر من الأصـل زخرفة وشـاعرية • على أن هـذه الترجمات ليست السبب الوحيد لتلك الشهرة . فالشـاعر متجـاوب مع عصرنا ذاته ، لأنه هو أيضـا كان يحيى خـلال حرب وان تكن جـد ضئيلة بالقيـاس الى حربنا فقـد هزت العالم اليونانى من أساسه . وقد احتفلت به الأجيال المتأخرة في العصور القديمة هي الأخرى أيما احتفال : فلدينا تسع عشرة تمثيلية منسوبة اليه ،مقابل سبع لاسخيلوس وثمان لسوفوكلس، أما مزاياه العظيمه فذوقه السريع التأثر بجمال الأماكن الغريبه . وبراعتـه الخارقة ثم بقظة روحه وعقله البالغة الفاحصه •

وطريقتـه على ما يبدو هي طريقة أسلافه ••• وهى أن يتنـاول قصة قديمة من طراز ساحر بواسطة تفاعل الشـخصيات المعروفة ، مقسـما موضوعه الى أقاصيص نفصـلها فقر غنـائيه ؛ الا أن الروح مختلف جـد الاختلاف وذلك من وجهتين هما : أولا أن لهجـة حـواره أخف وأكثر مرونة : لهجة ليست دارجـة عادة ، الا أنهقد جعلها أكثر حيوية ، وأسلس وأقل جـزالة • وقـد قابل ج • ا سـيموندس J. A. Symonds بين الأسـاتذة الثلاثة وبين ميخـائيل أنجلو ورفائيل وكوريجيو ، وهذا حسن ، الا أن فيه تجاهلا للمحات يوريپيدز الفكاهية الخاطفة ؛

أما الفرق الرئيسي الآخر فمـا في موضـوعات مسرحياته من التعقيد • فالموضوع في ظاهره يهـدف الى النتيجة التهـذيبية ــ أو العادية على الأقل ــ المفهومة من الأسطورة التي يتناولها ، أما في الواقع ، فالأثر الذى يثبت في روعنـا هو أن الآلهة أنذال ، أو بلهاء ، أو لا وجود لهم بوصفهم أشـخاصا ، وأن مظـاهر البطولة في الأسطورة هي مظاهر آدمية بحتة ، عليها طابع الجريمة الدنيئـة أو الضعف الذى يرثى له • وهـذا هو السبب الذى من أجـله يسـتعمل يوريپيدز بكثرة (العامل الألهي ــ أو القضاء والقـدر) . أو ما يسـمونه باللاتينيـة Deus - ex - machina فاذا كان لابد من انتهاء القصة ، كما يعرضها هو ، الى النهاية الطبيعية المسلم بهـا ، فلا محيص من حـدوث خارقة معاكسة على خط مستقيم •

تقول امرأة يحشـونة . في احـدى روايات أرسطوفان : « وهذا الرجل ــ أى يوريپيدز ــ قد حاول اقناع الناس في مآسيه بعدم وجود الآلهة » الا أنها تبدو بكثرة ، فطريقة يوريپيدز هي « البرهـنة على زيف العقـائد باستنتاج بطلانها استنتاجا منطقيا » : Reductio ad absurdum كما تتجـلى هـذه الطريقـة على



رقصة الطيور يقوم بها خورس اغريقى

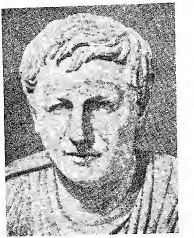
أنشـأ أرسطوفان « رواية الطيور » سنة ٤١٤ ق•م ، وهي قطعة ذات هذر ممتع مرصعة بفقر غنائية ذات جمال شـائق • ويمكن تكوين فكرة عن ملابس ممثليهـا من نقش هـذه الزهرية ، وهوأقـدم من الملهاة بنحو من سبعين سـنة ، وهو يمثل فريقـا من المنشدين مكتسيا بزة طير ذى أجنحة وجلد مغطى بالريش

أحسن صورها فى تمثيلته ايون ، التى يصر فيها أپولو على جعل ابنه غير الشرعى ايون (وفى ذلك الوقت أحد سدنة هيكله فى دلفى) أميرا على أثينا ، وذلك بأن يتسبب فى أن يعترف اجزوتوس زوج الأميرة الأثينية كريزا بأن ايون ابنه هو ، الا أن المؤامرة تفشل ، وتسعى كريزا (وهى أم ايون الحقيقية التى لم تعترف به ، والتى عرضته للخطر عند ولادته رجاء أن يموت) ، فى قتل ايون ، خوفا من أن يكون لأجزوتوس ولد ، بينما هى قد فقدت ولدها ؛ وتحبط هذه المحاولة ، وتساعد ايون كاهنة أپوللو على معرفة أمه باعطائه تذكارات ميلاده ويقطع عليهم الفتى جدلهم بسؤاله : « من ابى ؟ » وتجيبه كريزا : « انه أپوللو » فيعرف من فوره أن الأله « أپوللو » قد كذب على اجزوتوس ؛ ثم يلح فى دخول الهيكل ليستوحى الكاهن ، لولا أن يذوده طيف أثينا فى خشونة ، ثم يغطى المسألة جميعا بقوله : « لقد أحسن أبوللو فى كل ما صنع » • وهكذا يكون فى يوريبيدز عنصر هام هو الدليل على أن الآلهة التقليدية غير موجودة وهو عنصر — يتصل ، بل يتغلغل فى الحالة التى سلم فيها بوجودها فى أزمان أشد سذاجة من زمن يوريبيدز •



الشعبذة المسرفة فى الملهاة القديمة

يدل رسم هذه الزهرية على ضآلة التبدل فى التشخيص الا يمائى فى ٢٤٠٠ سنة ، ولا يمكن ذكر ما أوحى بفكرة هذا الرسم بادىء الأمر ، ولكن ربما ظهرت روايه الفرسان لأرستوفانز بعد هذا التاريخ بعدة سنوات على المنصة بواسطة ممثلين اكتسوا على هذا النحو وكانوا يمتطون ركائب مشابهة لما فيه



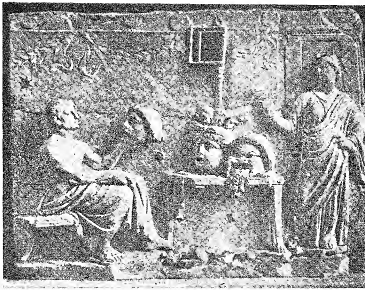
منشىء الملهاة الحديثة

يمثل مبناندر (٣٤٢ — ٢٩١ ق٠م) المدرسية التى تسمى مدرسة الملهاة الحديثة أو ملهاة السلوك التى هى فى الواقع ملهاة العصر الحاضر • ويقال انه كتب خمسا ومائة ملهاة وانه ظفر بالجائزة ثمانى مرات

ولكن هناك ما هو أعظم من اللاهوت ، فلم يكن يوريبيدز مفكرا فحسب ، بل كان شاعرا ، شاعرا قلقا ، بل شاعرا معذب النفس وقد أثمر هذا القلق ثمرتين زكيتين هما تلك الأغانى الحلوة الفياضة بالتأمل ، التى تلطف تلطيفا عجيبا ، مما فى روائعه : ميديا والباخوسيات وهيبوليتس من ائم وأشجان ••• ثم هذه المشاركة فى العواطف التى لها طابعها فى تصوير أشخاصه التى تناولتها الأسطورة تناولا فجا أو لم تتناولها قط • وفضلا عن فهمه الكبير المشهور للنساء (اللائى كن مهملات أشد الاهمال فى أثينا) ، فكثيرا ما نجد مزارعين وأرقاء لا خطر لهم ، لا يصورون فى رواياته أناسا لهم وجودهم الفعلى وسيماهم الخاصة ، وتجاربهم الشخصية فى الحياة فحسب ، بل أناسا يطبعون الموضوع بطابعهم ويكيفونه أيضا • أما الشخصيات الكبيرة فتبدو بطريقة

غريبة معابره كلما انسكب الضوء من ركن جديد ؛ فيصبح الآثم الشديد الاثم ، مثل كليتمنسترا ، امرأة بسيطة ، سوقية نوعا ما ، محببة الى حد ما • وينقلب بطل قاهر مثل أخيل رجلا معتوها يستثير الرثاء ــ ويوريبيدز ملئ بالبطولة الشاذة التى توقع الاضطراب بين وجهات النظر ؛ وهو محبوب أبدا ، وان وجد الخطأ فى جانبه دائما •

وما نعرفه عن الملهاة اليونانية أقل مما نعرفه عن المأساة ، وذلك لانه ليس لدينا الا مؤلف عظيم واحد ، مقابل ثلاثة من كتاب المأساة : هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لأن آرسطو نفسه كان قليل الالمام بأوضاعها القديمة ، (وهذا لأن الملهاة ظلت لمدة طويلة شعبية غير رسمية) (١) • وقد قسم العلماء الأقدمون كتاب الملهاة الى قدامى ووسيطين ، ومحدثين ، وكانت الطبقة الثانية ولا تزال أقل الطبقات خطرا فقد كانت طورا عقيما الى حد ما ، متداخلا فى الطور القديم وفى الطور الحديث ، اللذين يختلفان اختلافا جسيما وأهم كتاب الملهاة القديمة هم كراتينوس Cartinus ويوپوليس Eupoli ثم أرستوفانز Aristophanes وهم الذين يبدو أنهم كانوا يشاكلون اسخيلوس وسوفوكلس ويوريبيدز على التعاقب فى سعة مداركهم وأمزجتهم ؛ ولم يبق مما أنشأ الأولان غير جذاذات ، ولدينا من ارستوفانز



أحد كتاب الملاهى فى غرفة دراسته

يصور هذا النقش البارز . وهو نسخة رومانية عن أصل يونانى ، أحد شعراء الملاهى ، لعله ميناندر ، وهو يعمل فى غرفته ناظرا الى قناع تنكرى وقد كانت شخصيات مذخورة معينة تعود الى الظهور على الدوام فى الملهاة الأثينية فى القرنين الرابع والثالث (ق•م) ، وفى الملهاة الرومانية المشتقة منها ، وكانت تتجلى شخصياتهم فى ملامح وجوههم التنكرية المبالغ فيها ــ فى الفم المفغور والأنف الأفطس والخدود التى خددها الضحك والجباه ذات الأسارير وهلم جرا

(١) كانت الدولة تحتضن التمثيل وتشمله برعايتها الرسمية ، وذلك فيما يتعلق بالمأساة فقط ، أما الملهاة فكان يقوم بها الأفراد حتى شملتها الدولة برعايتها كذلك حوالى أيام أرسطوفان (المترجم) •



الخطابة مجسمة

كان ديموستين (٣٨٣ ـ ٣٢٢ ق٠م) أعظم الخطباء في كل العصور • وقد كانت الوطنية المتأججة تنفخ في سلوكه وتلهب خطبه المصقولة التي تستعمل دون كدر الى اليوم ، والبدان والرق هما يدان ورق مجددة وقد كانت اليدان في التمثال الأصلي متشابكتين

لذة فائقة وروح عربيد فكه ، وسحر غنائي لم يفقه فيه أي شاعر يوناني ، ثم قدر كبير من الأفحاش الذي يجيء اتفاقا ، عادة ، ثم قوة ابتكار جليلة ، انه يذكر بشيكسبير أكثر مما يذكر به أي كاتب قديم آخر .وبخاصة من حيث قوته التي لا تعمر ، وحلاوته الموسيقية التي لا تغيض ؛ والفرق الملحوظ بينهما هو تفوق شيكسبير في تناول الشخصيات النبيلة ، وتفوق أرستوفانز في المواقف الهزلية التي تثير الضحك وشخصيات أرستوفانز ان هي الا طراز ، أو بالأحرى ، أمساخ مسلية•

وهو ينهج في جميع رواياته نهجا واحدا ، فهو يعرض ، أولا ، فكرة شاملة طنانة تقلب الدنيا رأسا على عقب ، وعند ما تكون هذه الخطة قد تركت أثرها بواسطة البطل يأخذ الخورس (المنشدون) في القاء الـ « باراباسز » ـ أو خطبة طويلة ـ على النظارة باسم الشاعر صراحة ثم يلي ذلك عدد متتابع من المشاهد ـ وهي مسرحيات بدائية ـ تبسط نتائج عمل البطل ، ثم تنتهي الملهاة بعدها بمشهد استعراضي عن فوز البطل •

وجميع هذه العناصر ممثلة تمثيلا حسنا في ملهاة « السلم » ، فهذا تريجايوس Trygacus الفلاح الأثيني الذي امتلأ وطابه بالبؤس والتقزز من جراء حرب البلبونيز الطويلة ، يعرج الى السماء على ظهر جعل هولة ليحتج على زيوس ، رب الأرباب ، بيد أنه يجد جميع الآلهة قد رحلوا الا هرمز الذي يقوم بدور الأمين (ملاحظ الدار) وقد أنابت الآلهة عنها (روح الحرب) الذي يرى وهو يمزج في هاونه ، في توحش ، كامخا (سلاطة) من جبن (رمزا الى صقلية) وشهد (رمزا الى أتيكا) وكرات (رمزا الى پرازيا) وبصل (رمزا الى ميجارا) وقد فشل في سحق الجميع ليجعل منها لبابا (عجينة) وذلك لضياع المدقين ـ كناية عن وفاة كل من براسيداس عظيم أسپرطة ، وكليون عظيم أثينا زعيمي الحزبين الحربيين • ثم يختفي شبح الحرب ، وعندما يعلم تريجايوس من هرمز أن روح الحرب قد دفن ربة السلام في كهف ، فانه يهيب بدول اليونان أن تجمع كلمتها عسى أن تنجو • وفي مشهد مقطع من مشاهد الجلاد والانذار والثلب ، تجذب (أي ربة السلام) آخر الأمر فتكون في وضح النهار حيث يحييها خورس من الفلاحين فرحين • ويبين تريجايوس كيف نشبت الحرب ، ثم تفيض الخطبة في محاسن أرستوفانز ، متبعة ذلك بأغنية هزلية ، ثم يؤخذ في تهيئة وليمة

قربانية وسط تهليل عظيم ، بينما يدخل كاهن فيحلف فى أن يؤتى نصيبا من الضحية لكنه يداد عنهـا ؛ ويلى ذلك خطبـة ثانيـه ، ثم يجىء مقـاطعون آخرون ، من أولئك النجـار الذين حروا مغنما أو حاق بهم خسار بسبب استقرار السـلام ؛ وتنتهى الرواية بمهرجان لزواج تريجايوس من الربة .

وتوجد أمثال هذه الابتكارات الهزلية الهائلة فى جميع الروايات ؛ ففى (الطيور) يغـرى أثينى متذمر الطيور باماتة الآلهة جوعا ببنـاء مدينـة فى الهواء ؛ وفى (الضـفادع) يذهب ديونيزوس وقد عاف كتاب المآسى الاحياء الى هيدز (الدار الآخرة) ليعود بيوريبيدز المتوفى الا أنه يعود باسخيلوس ؛ وفى (البلوتوس) ؛ اله الثروة الأعمى ؛ الذى يهب اليسر غـير مستحقيه ، يرتد الى هـذا الاله بصره بعقاقيل مشجية . ومن أعمال أرستوفانز الباهرة الأخرى تلك الأغانى البهجة السـاحرة ، مثل أغنية « ابتهال البلبل » التى نقتطف منها المقطوعة التالية نقلا عن ترجمة روجر :

استيقظ يا زوجى
وانفض الكرى عن جفونك ، واطلقى أمواه
غنائك البهج من عقالها ، خلال عسالبج
اللبلاب المورقة الناضرة ، فصوتك الصافى
يصعد الى العرش السماوى حيث يردده
فوبوس الآله ذو الشعر الذهبى على أوتار
قيثارته العـاجية ، مصبحا الى شـكواك
المرة التى تتردد هنـاك ، حتى يرقص
مشتـدى السماء ، ونستجيب له آلهة
الخلد العلوية فتردد شـفاهها المبـاركة
أنغام شدوك الساحر .

ونجد فى أخرى رواياته الباقية تغيرا هاما : فالبلوتوس (الثروة) تجه اتجاها كبيرا شطر الملهاة الحديثة وتختلف هذه من الملهاة القديمة حتى ليتحرج الانسان من وضعهما تحت عنوان واحـد . وتختلف روايات مينـاندر من معظم روايات أرسـتـوفانز كما يختلف كونجريف من شيكسبير ، فبدلا من الاستمتاع الصخاب الخليع المستهتر ، والنكات الخاطفـة ، والهجاء الشخصى ، وقلة الاحتشام ، والبراعة الشعرية التى تميز كتاب الملهـاة القدماء ، نجد أن أهم ما يستحق الذكر من مميزات الكتاب المحدثين هو الأسلوب الهادىء المتكلف ، غير الطبيعى . وقصـارى القول فقد خلفت ملهاة الشـعبدة ملهاة السلوك ، فالملهاة الحديثة تلجأ الى العقل خاصة حيث كانت الملهاة القديمة تلجأ الى قوة العارضة .

وقد كانت لدينـا دائما فكرة واضحة عن حوار ميناندر ، كوناها من مجموعة كبيرة من النتف الصـغيرة . فقـد كان يفترض عادة ، وذلك من مزاياه فى الموضـوعات ورسـم الشـخصيات ، أن مـلاهى تيرانس Terence اللاتينية الست كانت ترجمات عن مينـاندر وآخرين ، وفى وسـعنا اليوم أن نقـرأ أجزاء كبيرة من روايات عدة لمينـاندر وجـدت أخيرا مطمورة فى الصحراء المصرية فى القرن الماضى . ومن السـهل ادراكه أنه كان يشـبه موليير وكونجريف بقدر ما يصح أن يشبههما شاعر يونانى ، فشـخصياته أنماط تخيلت (نخيلا يثير الأعجاب) لكنها لم تتخيل بوصفها أفرادا . أما موضوعاته فدقيقـة ، وأكثر تعقيـدا من موضـوعات أرسـتوفانز ، وهى لاتعتمد على الشخصيات فحسب ، بل على المفاجئات كذلك ، مفاجئات المقـابلات وسوء التفاهم التى تكثر بوجه خاص اذا تركت شرذمة صغيرة من الناس وشأنها ، وفى عزلة تامة عن الهيئة الاجتماعية العـامة ، وذلك كما يحـدث دائمـا فى ملهاة السلوك ، وعلى نحو ما نرى فى قصص ميردث — فالحوار مرن وظريف الى آخر حدود الظرف — ثم هو فكه وان كان لا يثير الضحك .

ولقد قلنا ان أرستوفانز نفسه كان ينحو هذا النحو ؛ والبلاتوس توضح الطريق من ملهاة (الطيور) الى ملهـاة مينـاندر « الفتاة ذات (الشعر المقصوص الى الكتفين) Girl with Bobbed Hair. أو الشعر المقروط » . وكانت حرب البلبونيز هى السبب فى هذا التغيير ، فقد هزمت أثينا هزيمة ساحقة بعد نضال دام سـبعة وعشرين عاما وبعـد انكشاف عشاوة غرورها المتزايد فغـدا روحهـا أقل قوة وأكثر تمويها ، وغدا طابعها الرئيسى زكانة نال منها شىء من الجهـد ، وقد اسـتجاب كاتب الملهـاة القديم ، كما استجاب كاتب القصة فى العصور الحديثة ، لهذه التغيرات ، بأسرع مما استجاب لها أى فنان آخر ، وهكذا بدأ أرستوفانز هذا التغيير .

الا أن كاتبا آخر ، هو يوريبيدز ، قد ساهم فى كتـابة الملهاة الحـديثة . فحوار مينـاندر يدين بكثير من أسـلوبه الى هـذا الأسـلوب اللطيف المرح الذى يماثله فى المـآسى من نوع ال « هيلينـا » . وللمرة الأولى فى الروايات

اليونانية نجد أفكارا حديثة في المفاجئات الواردة في موضوعات يوريبيدز ، وذلك مثل معرفة الأطفال الذين طال فقدهم بواسطة علامات الولادة والتعاويذ • وفضلا عن هذا فان لقريحته النفاذة تأثيرها القوى في كتاب الملهاة المتأخرين • وثمة صلة مباشرة تنحدر من يوريبيدز الى ميناندر ، الى ترنس Terence الى موليير ، الى كونجريف ، الى الكتاب المسرحيين الاجتماعيين أمثال هنري آرثرجونس وسترو Sutro

ومن أعجب الأشياء أن أفلاطون لم يكن يقتبس من الشعراء فحسب ، مع ما كان يشجر بينه وبينهم ، بل كان يجرى على أسلوب مسرحي الى حدما في كتاباته الخاصة • فهي جميعا ، ما عدا الخطابات ، مصوغة في قالب محاورات ؛ وهذا الطابع الشخصي وان كان ضئيلا وعاديا في بعض من أعمق مؤلفاته فهو ملحوظ في بعضها الآخر ، صادر عن درايه ودقة • فالصياغة ، وتصوير الشخصيات ، في الكتاب الأول من الجمهورية ، وفي السمبوزيوم (سلسلة المقالات) ، وفي البروتاجوراس (١) مجودان ممتعان • فصور السمبوزيوم مثلا ، حفلة غداء أقامها شاعر المأساة أجاثون ، ويكون من أضيافها أرستوفانز وسقراط ، فيتفقان على أن يؤنسا أنفسهما لا بهذه الموسيقا المكتراه ، ولكن (بتبادل ثمرات) البديهة ، فيقول كل منهما بدوره مدحة في ايروس ، اله الحب ، ومن سلسلة المدائح هذه جاء الاستعمال الحديث لكلمة السمبوزيوم •

ويجرى أفلاطون لسان كل ضيف بخطاب مضطرب من نمط مختلف ، وكان الخطاب الذي أجراه على لسان أرستوفانز محاكاة له حقيقية عجيبة ، لا من حيث أسلوبه الأدبي ، ولكن من حيث قوة ابتكاره الخصبة الظريفة — (وذلك كقوله) أن الكائنات البشرية كانت مزدوجة ، بادىء الأمر ، ذات رأسين وأربع أذرع •• وهلم جرا ، وأن الله قد شق كلا منهم نصفين ، شقا عموديا لما شجر بينه وبينهم ، •• وان كلا من النصفين منطلق في هذه الدار باحثا عن شاكلته • فأرستوفانز الكامل هو هذا المزيج من الجمال والحنو والاسفاف •

ولا يزال خطاب سقراط أكثر هذه الخطابات شهرة ، وهو يروى قصة مولد ايروس التي روتها له على حد قوله ديوتيما Diotima — وهي امرأة من مانتينيا Mantinea — علمته فيما علمته وظيفة الحب الحقيقية ، وهي أن يجيء النسل « جميلا » ، وهو انما يعنى النسل من الوجهة الروحية لا من الوجهة الجسمانية •

وعندما يفرغ سقراط من كلامه تأتي ثلة من العرابيد فيضطرب حبل الحفلة ، ويكون على رأس الجماعة آلكيبيادس الجليل الثمل السيء الطالع ، الذي أسرت الخمر لبه ، وقد أخذ يلح في المساهمة في المناقشة بمدحة من عنده في سقراط لا في ايروس ، وهي خطبة من أفصح الخطب وأجملها وأجرئها في الأدب اليوناني بل في أي أدب آخر •

•• أما من جهتي أيها السادة ، فاني ان لم أخش أنكم ربما ظننتموني ثملا أي ثمل ، لأقسمت لكم على ما تركه كلمات هذا الرجل في نفسي دائما • ان قلبي ليخفق عندما أصغي اليه ، وان دموعي لتنهمر أغزر مما تنهمر من اضطراب الأعصاب الديني • انني عندما كنت استمع الى بركليس ، وغيره من الخطباء المصاقع كنت أشعر بالاعجاب نحوهم •• ولكنه لم يكن شعورا من هذا النوع •• ان نفسي لم يكن يملأها التحسر على خطيئتي ، بيد أن سقراط ، هذا الذي يبدو غريب التكوين ، طالما استحوذ على حتى حبل الى ألا قيمة للحياة بلا هداية » •

على أنه ينبغي ألا ينزلق الانسان الى بيان عن تعاليم أفلاطون ، اذ ليس هنا مكان تقدير مقالاته المدهشة في الفلسفة (أنظر الفصل السابع والأربعين) ، ومع هذا ، فهو من الناحية الأدبية أيضا من أعظم الكتاب وأقدرهم في جميع البراعات النثرية •• من الصورة التي صورها للخالق في مقالته تيمايوس Timaeus الى الحب الرفيع للطهر في مقالته فيدو Phaedo الى هذا الجمال الشائق في مقالته خارميدس Charmides ، ثم ذاك الهزل الذي في مقالته يوثيديموس • ويلحقه أسلوبه الحواري بالكتاب الاثنين المسرحيين ، ولكن بطريقة غير مباشرة ، وقد أخذه عن الروايات الصقلية الهزلية ، وهي النمط المسرحي الفطري الذي يرد اليه آرسطو نشأة الملهاة الأتيكية ، والتي تعتبر أصلا لتلك الخلاصات الموجزة التي كتبها هيروداس في العصر الاسكندري • ويستعمل

(١) كتاب لأفلاطون وصف فيه رجال عصره وصفا لاذعا (جلبرت مرى — تاريخ الأدب اليوناني — ص ١٦١) المترجم •

أفلاطون هذا الأسلوب ليضفى على عمله المقصود به قراء تعودوا شهود الروايات التمثيلية رواء ممتعا ، ومن جهة أخرى لكى يعيد طريقة التثقيف الشفاهية التى كان يجرى عليها سقراط المحدث الرئيسى فى جميع المحاورات تقريبا ·

ولا بد من صرف النظر هنا عن آرسطو الى حد كبير ، لأن كتاباته التى تعتبر أدبا بحق لا تلك الا قليلا ؛ هذا وان تكن فلسفته وعلمه من الأهمية فى المكان الأول ·

وكان من معاصريه الاسكندر الأكبر ، وديموسنين أبدع خطباء العصور القديمة ، والذى تدور أشهر خطبه : الفليبيات The Philippics والأولنثيات Olynthiacs ، وفى التاج On the Crown حول النضال الطويل ضد تلك الدولة الناهضة ، دولة ، ملك مقدونيا ، وأبى الاسكندر وقد حاول عبثا ايقاظ الأثينيين ليدركوا الخطر المحدق بهم ، وليبرهنوا على أنهم أحرياء بأثينا التى سحقت فارس ، والتى صمدت بما يشبه المعجزة مدى تسع سنوات فى الوقت الذى كان يبدو أن كل شيء قد ضاع فى صقلية ، فقد ذهبت الروح القديمة ، وخلف الطاعون ، وهذه السنون السبع والعشرون من الحروب المشئومة ، شعبا متوقد الذكاء ، مبرزا فى الفنون أيما تبريز ، الا أنه لم يعد هذا الشعب المرح المقتدر فى فنون تدبير الملك ·

وقد أصبحت اللفظة « فليبى Philippic » اسما تقليديا للخطبة من خطب السباب المقذع : وفى تسمية خطب شيشرون ضد أنطونى بهذا الاسم شيء من الغرابة · لكن خطب ديموستين نفسه هى شيء أكثر من هذا ، اذ فضلا عن كونها حطا من شأن المقدونى (١) . وكشفا عن نواياه لليونان فان بها قدرا كبيرا من التحريض الذى يشبه التعنيف موجها الى الأثينيين ، ومن الفلسفة السياسية السليمة التى صاغها فى لغة يسيرة الفهم باهرة البيان ·

ولا يقتصر الامر على اللغة وحدها ، ولا على الخطابة فحسب ، فقد تركت الغالبية ، حتى من الخطباء المصاقع ، حصا أنشئت على هذا المنوال لدرجة لا نملك معها الا أن نهتف معجبين : « يا لهذه من مادة باهرة ! » · ونستطيع أن نتخيل أنفسنا ونحن نتلو منها فقرا بلذة على حبس جبل ، ومع ذلك فلم يكن أى ولد يتلو شيئا من هذه الخطب فى أى عيد مدرسى ، لأنه كان يعتبر عيبا وخرقا · ويبدى ديموستين من القوة الهائلة والصدق الذى يخز الشعور ما يجعل الحوادث نفسها نابضة بالحياة فى ثنايا جمله ، حتى لنوشك أن نهتف بمستمعيه الذين قضوا منذ عهد بعيد ، ونحن نقرأه : « دعوا تصفيق الاستحسان ، وافعلوا ما يأمركم ! » ··

ومعظم خطبه هى شرح رائع للحوادث أو المطامح ، وكلمات ديموستين تعبر شكل الحوادث وتصير هى نفسها جزءا من التجارب الانسانية · ولا يوجد مثل هذا الأثر عادة الا فى العبارات المتفرقة الصادرة عن الالهام ، ومنها فى ذلك كمثل ما ورد فى القصص عن تقديم ادورد الأول ابنه الحدث لزعماء ويلز فى كارنارفون حيث قال : « هاكم رجلكم ! » · أو عند ما أوقف ص· تلبماك مظاهرات المقتلين بهتافه من وسط الحومة · « هل لكم فى دماء ! فها هو ذا دم المسيح ! » وديموستين يستخدم هذه القوة الكهربائية طوال خطبه بأكملها . وليس له ند سوى برك Burke فى قدرته على ربط القصص بالحجج ، بالانفعال ، بالزجر ، بالتحريض ، وجعلها قذائف متصلة بعضها ببعض بحيث تتبدد ازاءها الضعة ، والحرق ، والظلم والجبن :

انكم تضطربون فى السوق يسائل بعضكم بعضا عن قيل جديد ، « هل قضى فيلبب ؟ « كلا والله ، بل انه مريض » فما أنتم وذاك ؟ وحتى اذا مات فسرعان ما تقيمون فيليبا غيره ، ان كان ذلك هو مبلغ عنايتكم بشئونكم ·

فمن السهل أن يصاغ هذا الكلام خيرا من ذلك ، الا أن ديموستين استطاع أن يشعرنا مع ذلك بما فى عبارته من لذع خلال ثلاثة وعشرين قرنا ·

ولا بد من ذكر ايسخينس Aeschines ند ديموستين العنيد ، وعضد فيلبب ، بين خطباء اليونان الأقل مرتبة ، كما يجب ذكر ايسوقراط Isocrates الذى أنشأ رسائل فى شكل خطب أثرت فى أسلوب شيشرون تأثيرا عميقا ، كما أثرت عن طريق شيشرون فى الخطابة الحديثة ·

وقد توفى ديموستين وآرسطو والاسكندر فى زمن واحد تقريبا ، ويمكن القول بأن الروح الاغريقى قد خبا بموتهم ، ثم تلت ذلك حقبة

---

(١) يقصد الاسكندر (المترجم)

متشابهة فى الطول ظهر خلالها قدر من الأدب كبير ، كثير منه جيد ، وكثير منه عظيم الشأن ، الا أنه لا يدل على كثير من العبقرية اليونانية المتميزة . وقد أنشأ يوسفيوس قصصه بالعبرية بادىء الأمر ، ثم نقله بعد ذلك الى اليونانية ، ونحن حينما نقرأ بلوتارك نرى أنه أشبه بكاتب فرنسى أو انجليزى حديث منه بثيوسيديز — Thucydides ، وفى الحق ان فتوح الاسكندر

الأدب اليونانى فى العصور الأخيرة

العظيمة قد وضعت حدا للعالم اليونانى الأصلى . وذلك بتحطيم قوى دويلات المدن القديمة من جهة ، وبفتح الشرق الأوسط على مصراعيه للحضارة اليونانية من جهة أخرى ، وكان أن تلا ذلك ذيوع واسع لهيلانية مخففة ؛ ونشأت فى عهد البطالمة ، فى الأسكندرية ، تلك المدينة العظيمة التى أسسها الفاتح ، مدرسة متميزة من الكتاب الذين اتسموا بالبراعة والتفقه والتصنع .

وكان ثيوقريطوس . الشاعر الريفى ، أكثر هؤلاء اصالة وشهرة ، وأناشيده ، صور صغيرة هى صور بارزة للحياة فى عصره ؛ وهى أحيانا صور شمسية ، وأحيانا تبدو صورا جميلة خلال حنانها الصادق ، واسلوبها الشائق الذى له طلاوته ؛ وتتناول صوره الريفية حياة الرعاة والزراع اليومية — فهو يتحدث عن قطعانهم وعشيقاتهم وآمالهم الساذجة ومشاجراتهم وهمومهم .. وقد اقتطف بلاكمور نتفة من شعرهم الشائق بمثابة شعار للورنا دون Lorna Doone ، وهذه النبذة تعطيك فكرة عامة عن ذلك :

أنا لا أطلب أملاكا شاسعة ولا كنزا من ذهب ، ولا سرعة الريح عبر المرج
هنا أجد متاعى
فى ظل هذه الهضبة الذى يفيء عليك
فألاحظ غنمى المرتعى فى أوقات فراغى
وأغنى لك يا بحر صقلية .

وقد نشر س . ص كالفرلى ترجمة شعرية مدهشة بالانجليزية للمجموعة كلها ، وللقارىء أن يستمتع فيها بهذه الطائفة القليلة من الروائع كالنشيد الخامس عشر الشهير الذى يعرض علينا امرأتين من نساء الاسكندرية تحكيان

روائع أناشيد ثيوقريطوس

الاشاعات عن الخدم والأزواج والملابس ، بعيد شهودهما وليمة فى السراى عقب رحلة مثيرة فى الشوارع المكتظة بالسياح والفرسان الملكيين ؛ أو النشيد الثامن والعشرين وهو خطاب مثير وجهه الى احدى السيدات ، وأرسله اليها مع مغزل من العاج ؛ أو النشيد الثانى الذى نرى فيه فتاة تحاول استرداد حبيبها غير الوفى بواسطة الرقى ؛ أو النشيد السابع وهو أبدع قصائد اليونان فى العصور الأخيرة ، ويصور عيد الحصاد الغنى بجماله الوسنان فى بواكير الربيع .

هجعنا هنا لك
نصف مدفونين فى فراش من القصب الذكى الرائحة وعساليج الكروم الغضة ... ألا من هو سعيد مثلنا ! تتمايل من فوقنا هذه الوفرة من الدردار والحور حين يترقرق هذا النبع المقدس ذو الخرير فى هون ومن غيران الحور ، وفى الأفنان الغائمة غرد الزيز الشمجى فى دؤوب .
وكانت موسيقا ضفادع البر المختبئة فى شجيرات العوسج النائية تسمع من بعيد : وكان القبر ذو الأعراف يغنى مع الحسون ، فى حين أرسلت السلاحف أنينها
وصف النحلة الذهبية فوق النبع
كل أولئك ترشف من خيرات الصيف
وكل أولئك ترشف من ثمر الخريف ،
الكمثرى عند أقدامنا . والتفاح يتدحرج عن كثب ؛ والأغصان تترنح فوق الأرض مثقلة بالاجاص .

وقد قلد النشيد الأول الذى يتضمن مرثية دافنس الشائقة مرات عدة . وكتب بيون Bion (هو منشىء أناشيد آخر) رثاء لأدونيس . كما كتب موسخوس رثاء لبيون؛وليسيداس من نظم ملتون من الطراز نفسه برغم ما بها من مجازات؛ وأدونيس للشاعر شلى : وثرسيز Thyrsis أرنولد ، على ما بهما من بهاء وجدة هما من وحى الفكرة الثيوقريطية كما تدل على ذلك أسماؤها اليونانية ان لم يدل عليه شىء آخر .

وقد شمل العهد الاسكندرى — كما سنرى — نهضة عظيمة لما نسميه الرومانس Romance أو القصص التخيلى . ومع ذلك قد مضى ردح من الزمن طويل قبل أن تظهر رواية ما بمعناها الحقيقى ؛ فقد شملت ملحمة أبوللو نيوس روديوس أمارات كثيرة من أمائر الرواية ، ولا سيما فى هذه الصورة الرائعة التى تصور هيام ميديا بالبطل الغريب جاسون . وقد كان المتأخرون من رجال الادب اليونانى يهتمون

أعظم الاهتمام بالأدب اليونانى القديم ـ بدراسة ماضيه الباهر وشرحه •

وبلوتارك من أعظم المؤلفين شهرة ، ونحن نعرف عن طريقه أكثر مما نعرف عن طريق أى رجل آخر عن تاريخ أوروبا القديمة وروحها • وقد اكتسب كتابه سير الأكفاء من علمه الواسع واكبابه الشديد ، ثم أسلوبه المونق وحبه الفطرى الجميل لكل ما هو نبيل ، مكانا ملحوظا بين الكتب غير الدينية • وقد جرى فيه على انشاء تراجم مزدوجة من شخصيتين احداهما يونانية ، والأخرى رومانية تتشابه حياتهما الى حدما ، مثل كوريولينص وألكبيادس ، ثم يتبع ذلك بمقارنة بينهما • وقد كتب بلوتارك أشياء كثيرة أخرى فى شكل رسائل فى موضوعات أخلاقية ودينية وأدبية وموسيقية مجموعة كلها تحت اسم (موراليا) (مجموعة مقالات أدبية) •

وكان لوسيان وريثا عظيما آخر للثقافة اليونانية الرومانية الكاملة ، وهو كاتب جذاب سهل الأسلوب الى حديث يثير الاعجاب ، كتب قطعا قصيرة مليئة بدراسات مسلية انتقادية عن الآلهة والرجال والنساء ، وقد أوحى أحسن كتبه المعروفة « محاورات بين الموتى » بمحاكيات عديدة حديثة بارعة ، وقد أنشىء فى العهد نفسه أعظم كتب النقد فى العصور القديمة ، ألا وهو « فى المثل الأعلى » On the Sublime الذى نسب خطأ الى لونجينوس ، وهو دراسة دقيقة بارعة حافلة بالمعلومات للتهذيب فى أسلوب أدبى ، أفضل مما ذهب اليه برك Burke فى رسالته عن المثل الأعلى •

ورثة الثقافة اليونانية الرومانية

والقصة Novel عنصر قليل الشأن جدا فى الأدب اليونانى ، ولربما كان مجرد تصور وجود القصة مما يثير دهشة رجال ذلك العصر المجيد ، لأنهم وان كانوا يعنون بأمور حياتهم وبأحاسيسهم الشخصية مثلنا فأنهم كانوا يدركون أن الأدب انما ينبغى أن يتناول الشئون العامة دون الشئون الشخصية ؛ ومع أن ثمة شخصيات لامعة فى الملحمة اليونانية وفى الشعر اليونانى الا أنها توجد مندمجة باحكام فى شئون وطنية ، وفضلا عن ذلك ، فالقصة « عندهم ! » هى من الأشياء ذات الوقائع غير الصحيحة كلية ، وكانوا لا يرون قيمة لما لم يكن صحيحا الا ما كان من قبيل المجاز أو من قبيل السياسة ، ولم تصبح شئون الفرد العادى على ما يبدو موضوعا أساسيا للأدب الا بعد اندماج العالم اليونانى فى العالم الرومانى ، والا بعد أن تركزت شئون الحياة العامة • وكانت القصة ، حتى فى ذلك الوقت ، دون القصة الحديثة من كل وجه ، الا فى المواقف المثيرة ، وقد كتب هليودوروس ال (اثيوبيكا) « قصة عن أفريقية » المليئة بمخاطرات عاشقين وحوادث هروبهما ؛ والدافنيس The Daphnis و خلو Chloe للنجوس Longus أقل استفزازا للعواطف وان كانتا أكثر جمالا •

وقد ساعدت هذه الأسباب نفسها نمو ، ان لم نقل نشأة ، تلك المجموعة الكبيرة المعروفة باسم « أنثولوچى » (اكليل الزهر) وهو ديوان من القصائد القصار يطلق عليها فى الغالب اسم « جوامع الكلم » فى الحب والموت والفن ، وكل ما من شأنه أن يسترعى انتباه الناس على الدوام • والكلمة الجامعة من هذه الجوامع هى فى الأصل قصيدة موجزة فى غرض بعينه ، فقد تكون كلمة تذكارية على شاهد من شواهد القبور ، وقد تكون لطيفة من اللطائف • والمعنى الحديث لهذه الكلمة هو من وضع كاتب الجوامع اللاتينى مارتيال الذى كان ينظم مثل هذه القصائد ذوات « الحمة فى ذيلها » •

جوامع الكلم اليونانية

ولمعظم هذه الأعمال الدقيقة مشخصاتها المشتركة :وهذه هى عدم الاسراف فى الأسلوب، والصراحة ، والبساطة فى التفكير والاعتقاد ثم تحديد الموضوع • وكثير منها هو من أجمل الآثار الأدبية فى اليونانية ، ثم هى تلائم الفن اليدوى لنقش الجواهر ، ويترتب على هذا صعوبة ترجمتها برغم سهولتها • بيد أن شلى نفسه قد ترك ترجمة لاحداها من نظم أفلاطون ، ولو أنه هو أيضا اضطر الى حذف احدى نقطها ، وكان اسم المتوفى آستر ، ومعناه : نجم : ـ

لقد كنت نجم الصباح بين الأحياء
قبل أن يمحى ضوؤك الخافت
والآن ، وقدقضيت ، فانك مثل هسپيروس
تضفى الجلال على الأموات !

الفصل الرابع والأربعون

ديانة اليونانيين

كيف كانوا يتصورون موضوعات عبادتهم ويبرزونها فى الفن

بقلم لويس ر. فارنل Lewis R. Farnell

الدكتور فى الآداب وعميد كلية اكستر باكسفورد ، ومؤلف « عقائد الدول اليونانية الدينية ، وموجز فى فى تاريخ الديانة اليونانية ... الخ

كان لعلماء الجيل الحاضر ، والاجيال السابقة لهذا الجيل مباشرة ، الفضل الاكبر فى تقدير الديانة اليونانية قدرها الحق ، وتفسيرها التفسير الصحيح ؛ وقد ساعدهم أيما مساعدة نماء علم الأديان المقارن ، الذى هو دراسة منظمة لأديان البشر العليا ، وعلم الانسان الذى يتناول الظواهر الدينية لدى الاجناس البدائية ، كما ساعدهم بوجه خاص ، كشف الحضارة المسماة الميسينية التى تقدمت فجر الحضارة الهيلانية ؛ وانجازهم هـذا العمل هو الذى نستطيع به الآن معرفة الشأن الحيوى الذى كان للديانة فى حياة هيلاس الأخلاقية والسياسية ؛ وفى تكييف الأدب الهيلانى والفن الهيلانى • وهو الذى أمكننا بواسطته أن نرى فى هذه الديانة خواص معينة مميزة ، مطابقة للمزاج الهيلانى المميز ، والذى نستطيع به أن نتتبع أثرها فى الديانة النصرانية الأحدث منها عهداً •

ومصادر معرفتنا بهـذه الديانة مختلفة ، وافرة فى أكثر نواحيها ، لأنهـا مصادر أدبية وفنية ونقوش آثارية • ومجموعة النقوش التى انتهت الينا عن عبادة الأفراد وعبادة الجماعات والتى تكشف عن شعائر العبادات والادعية ، ونظام العبـادة ، هى مجموعة ضـخمة تزداد سنويا ؛ الا أن الأدب اليونانى والفن اليونانى ، من بين هذه المصادر المختلفة ، يعاوناننا أكثر من غيرهما على التعمق فى ادراك الشعور الدينى ، ومثل الرجل الهيـلانى المتعلم ؛ على أن جميع الآثار الفكرية اليونانية سواء فى ميدان الخيال ، أو ميـدان العلم والتعلم ، هى التى ينبغى أن ينقب عنها للالمام التام بهذا الموضوع •

ومن الآثار القـائمة على التصور ما يتناول الدين بطريق مبـاشر ، مثل ترانيم القـرنين الثامن والسـابع (ق٠م) الهوميرية ، والكثير من الشعر الغنـائى ، ما دمنـا ندرج فى هذا النوع العـام الترانيم التى أنشـأها الشعراء الفطاحل . والتى قصد أن ينشدها الجمهور فى صلاته العامة • ومنها ما يعنى بالدين بطريق غـير مباشر . وان كان هـذا الاتصـال بالدين لا يقل عن الترانيم السابقة ، فمن ذلك الملاحم الهوميرية ، واناشيد بندار فى الاشادة بذكر الظافرين من لاعبى القـوى ، وجميع المـآسى الأتيكية . وذلك لما كانوا يمزجون به قصصهم الدنيوى ، وموضـوعاتهم التمثيليـة من قوى الهية ، وتأمل عميق فى الشخصيات المقدسة ، وتصاريف القدر مع الناس • وتدور موضوعاتها فى الغالب حول ما نسميه نحن بالميثولوجيا — التى تعنى سرد أفعـال الأبطـال والبطـلات ، والارباب والربات أو تمثيلها تمثيلا مسرحيا • ولا بد لنا من بادىء الأمر أن ننتبه الى العلاقة بين الديانة اليونانية والميثولوجيا اليونانية والى الفرق بينهما ، تلك العلاقة وهذا الفرق اللذان غفـل الجيل السابق من العلماء ورجال الأدب فى ادراكهما •

ان لكل ديانة أسـاطيرها التى قلما تعادل فى كل تفاصيلها عقيدة العبد الراسخة •

الفرق بين الديانة والأساطير

وقد استطاعت الميثولوجيا اليونانية التى هى أجمل ما يستطيع علم الأسـاطير الشعبية المقارن تقديمه لنا اجمالا • والتى احتفظت لنا بحكايات الهيـــة جميلة معينـــة ، كحكاية دميتير وابنتها مثلا، صوغ حكايات خليعـة ماجنة ، خاصة بشخصيات الهية ، وهى حكايات تصور هذه الشخصيات فى صور الشهوانيين القساه الظلمة ،حكايات ربما أعادت

الى الذاكرة ماضيا سحيقا جاهليا ، وتفكيرا عنجهيا ، الا أنها لم تكن لنستولى على ذهن المتعبد، أو لنصرفه عن عبادة آلهته متى أراد ، بوصفها قوة ذات عدالة وقسط ورحمه ، وذلك أن هذه الآلهة لم ترد فى كتب مقدسه تفرض على المؤمنين المتمسكين بسنن دينهم الايمان بما فيها . وقد كان فى مقدور كل انسان أن يطرح تلك الأساطير ، بوصفها أقاصيص شعراء الحماسة الخبيثة المؤذية ، على حد تعبير يوريپيدز . ومع هذا ، فمن المهم أن ندرك أن دراسة الميثولوچيا اليونانية دراسة جديه تلقى ضوءا فياضا على التصورات الدينيه الشائعة لدى العامه ، والمزاج الدينى العام ، ومما له قيمته المباشرة هذا الجزء من أجزائها الذى ربما دعوناه « كهنوتيا » وهى عبارة ربما كانت خاصة بهذه الأساطير ، وهى قل من الكثير الذى يجلى الطقوس الدينيه ، أو الذى اخترع لتفسيرها ، والذى قد نجمع منه بطريق الاتفاق شاهدا عن بعض الطقوس ، كالتضحية البشرية مثلا ، التى كانت سائده فى حقبة مما قبل التاريخ .

وتعد الخطب العامة والخاصه التى بقيت من خطباء أثينا المصاقع مما يدخل فى أدب اليونان الرفيع عادة . وكثيرا ما تعطينا هذه الخطب لمحات عرضيه عن ايمان الأثينى العادى وشعوره الدينى فى القرن الرابع، وذلك لأن الخطيب ناطق أكثر ثقه بلسان الرجل العادى ، من الشاعر ومن الفيلسوف .

مصادر معلوماتنا

أما فيما يتعلق بالآثار الفلسفية ، فهى ذات أهمية فائقة ، بسبيل معرفة تاريخ الفكر الأعلى فى بلاد اليونان ، بينما هى لا تفيدنا الا النزر اليسير فى معرفة الديانة الشائعة الحقيقية ، وان كان من الميسور جمع كثير من هذه المعلومات من قوانين أفلاطون ، وجمع كثير من المعلومات عن أيام الوثنية الأخيرة ، مما كتبه بلوتارك . ولا يمكن هنا أن نتناول الآراء الدينيه فى مدارس الفلسفه الرئيسيه ، لكننا تناولناها بما هى جديرة به فى الفصل السابع والأربعين .

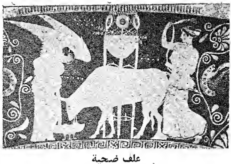
ثم يأتى الفن الاغريقى آخر الأمر ، ذلك الفن الذى يشبه الأدب ، على الأقل ، فى انارة بصائرنا عند تقديرنا لتصور اليونانيين الدينى وفى وسعنا أن نؤكد ، موقنين ، أن ديانة من ديانات العالم ، لا تدين للفن الذى يجسمها ، كما تدين الديانة اليونانية للفن اليوناني، وذلك لما كان ثمة من توافق قريب وعميق بين الادراك الدينى عند الرجل اليونانى ، وبين غريزته الفنية ، وسنضرب الأمثال على ذلك فيما بعد .

تلك الأمثال التى تدل على مقدرة الفنان فى اضفاء رواء النبل على شخصياته الوثنية والتمكين لها فى قلوب الناس .

ومن العسير أن نقدم بين يدى القارىء موجزا مقتضبا يكون فى الوقت نفسه شاملا عن ديانة هيلاس فى جميع نواحيها ، وذلك لوفرة موضوعات هذه الديانه ، والتشعب غير المحدود المحتمل وقوعه فى أصقاع العالم الهيلانى وأوساطه المختلفة . الا أننا نستطيع من فورنا أن نصف أمارات عامة لهذه الديانة تميز كلا من أنموذجها وطابعها الخاص بها حسب ما كان يتصوره الناس فى عصر هوميروس ، وحسب ما حافظ الناس على صورته تلك الى نهاية تاريخ هذا العصر . انها وثنية منظمة تتألف من مراتب من الآلهه ذكرانا واناثا ، وثنية نظامها أكثر احكاما من الوثنية الفيديه أو البابليه أو المصريه أو التيوتونية ، تجتمع فيها الآلهة فئات ذات درجات ، تحت سلطان زيوس ، الاله الأكبر .

والآلهة موصوفه وصفا دقيقا ، وهى ذوات مجسمة قائم كل منها بنفسه ، فله مميزاته المعنوية الخاصة ، وله فى الكثير من الأحوال محاسنه ووظائفه الخاصة ؛ ثم هى متخيله من حيث صفاتها البشريه فى نطاق أوسع مما فى أى من الديانات الرفيعة الأخرى . ومعنى هذا أنها ليست مجرد « أرواح مقدسة Numina » ان جاز أن نستعمل العبارة التى تصف الأشخاص فى ديانه رومه القديمه ؛ أو قوى ليست متحققه تحققا تاما ، ولا يمكن ادراكها باللمس أو بالوعى ، بل لا يمكن وصفها ... فهى لما تصبح بعد أرواحا نقية ، بل هى كائنات مجيدة ذوات نفوس خالدة وجسوم لا تبلى ، ثم هى أقوى من الناس ، وأكثر مجالا وحكمه ، وهى تدعى تيوى Theoi ، أى أشخاصا الهيه مجسدة ، ولم يكن أپوللو فيما يدور فى روع اليونانيين ، أقل من أخيل ، من حيث كونه فردا حقيقيا معينا ، وينطبق هذا الوصف أحسن الانطباق على الآلهه الرئيسية الأرفع شأنا ، أمثال زيوس ، ويوسيدون ، وحيرا ، وأثينا ، وأپوللو ، وأرتيمس وأفروديت ، فنحن لا نستطيع أن نفهم هؤلاء على أنهم قوى طبيعية ، أو أرباب ماديون ، تطورت سجاياهم عن أى عنصر أو فرع من فروع العالم الطبيعى .

صحيح أن اليونانيين كانوا فى جميع العصور يذكرون أن الههم الأعلى ، زيوس ، كان فى العصر الآرى هو الاله السماء ، أو السماء الالهية ، المجردة ، الصافية الأديم ، الا أنه صور



علف ضحية

كان اليونانيون — كما هو المنتظر من شعب رواعي — يحافظون على تضحية الحيوانات الأليفة لأن ذلك كان من شعائر ديانتهم الهامة وكانوا ينذرون العجول لآلهة كثيرة — ولعل العجل المرسوم أعلى هذا الكلام — وهو من نقش زهري من عصر بيركليس — قد رسم احياء الذكرى انتصار في عيد من أعياد ديونيزوس

في صورة أكبر من ذلك بكثير، قبل هذا، في الملاحم الهومرية؛ ويوسيدون نفسه، وهو الذي فيه من صفات العناصر أكثر من غيره، كان أكثر من اله ماء، فقد كان الى ذلك باني المدن، ومؤيد النظم القبلية، أو النظم القائمة بين القبائل.

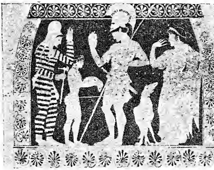
الآلهة الاغريق ليست أرواحا طبيعة محضة

أما الآلهة الأخرى المذكورة سابقا، فلم تكن بينها في الحقبة الأقدم عهدا رابطة قرابة يمكن كشفها، بل لا نستطيع اكتشاف المصدر العنصري الذي يمكن افتراض نشوء هذه الآلهة عنه.

— وليس ثمة من سبب يدعو الى التصديق بأن أبو للو كان في الأصل ربا للشمس، أو أن أرتميس كانت ربة للقمر، اذ الشمس والقمر دخيلان حديثا العهد في عباداتهم وفي أساطيرهم. ولقد كان من سوء حظ العلم في القرن التاسع عشر، الذي كانت تهمين عليه الى حد ما آراء مكس مللر التعسفية، أن تذهب دراسة الأديان القديمة (الكلاسية) سدى، سعيا وراء تفسير كل من الشخصيات الوثنية بوصفها تجسيما لأحد فروع الطبيعة، كالسماء أو الفجر، أو الليل أو الرعد، أو البرق، أو الريح. فقد جهل هؤلاء احتمال أن يكون الهيلانيون

سواء قبل دخولهم البلاد اليونانية، أو بعد دخولهم وانتشارهم فيها، قد اتخذوا آلهة كثيرة، بوصفها آلهة مجسدة كاملة ذاتية لم يعرف منشؤها ولم يستقص عنها.

وذلك أن الوثنية اليونانية المتشعبة النواحي لم تكن ارثا هنديا جرمانيا خالصا بحال من الأحوال، لأن تعبد الشعوب الناطقة باللسان الهندي الجرماني في أوطانها الأصلية لآلهة ذاتية مسئلة لا تهمنا هنا. فنحن على الأقل موقنون أن أهل الشمال من هذه المجموعة، الذين كانوا يأخذون سبيلهم في البلقان قدما، في ألف السنة الثاني قبل ميلاد المسيح، ومن البلقان الى تلك البلاد التي نسميها اليونان والذين كونوا هذا المزيج السعيد المعروف بالهيلانيين، بعد امتزاجهم بعنصر موهوب، وأكثر منهم حضارة من عناصر البحر المتوسط التي وطئت أقدامها ثمة من قبل، قد جلبوا معهم آلهة معينة، أما أن تكون آلهتهم في الأصل، أو تكون آلهة بعض الشعوب الغريبة عنهم الضاربة على طريق هجرتهم، حتى اذا استقر بهم القرار في بلاد اليونان، اتخذوا الكثير من ديانة الشعب الأقدم منهم عهدا.



الاعتماد الخرافي على الفأل

ترعرعت عقيدة بدائية في الكهانة والفأل الى جانب الثقافة الذهنية الراقية التي بلغتها اليونان القديمة. فكانت تمارس الكهانة على ضحايا الحيوانات كما كان الحال في أرض الجزيرة واتروريا. ونرى هنا محاربا يفحص بعض الضحايا ليقف على ما خبىء له قبل ذهابه الى الحرب

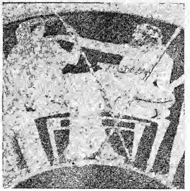
والأكثر منهم تقدما ، وقد يجوز أن ندعو هؤلاء ، الأخيرين « المينوبين المبسينيين » ، وتتكشف لنا ديانتهم ، فى صورتهـا الاجمالية على الأقل ، فى مكتشفات السير آرثر ايفانز خاصة ، تلك المكتشفات المثيرة التى عثر عليهـا فى كريت (انظر الفصل الخامس والعشرين) .

ونلاحظ أنهـا كانت من طراز العقيـدة التشخصية بوجـود الله ، تقـوم فى معظمها على التجسيد ، كما نلاحظ أن الربة ، فيما كان يذهب اليه خيال الكريتيين الدينى ، وولاؤهم للآلهة ، كانت متغلبة على الاله تغلبا واضحا ، ويقدم لنا ذلك وسيلة واحدة نستطيع بها تحليل عبادة اليونانيين للآلهة المتنوعة فى العهود المتأخرة . والتمييز بين العناصر الشمالية الآرية . والعناصر المينوية ، وذلك لأن أهل الشمـال قد جاروا الشعوب الرئيسية الهندوجرمانية الأخرى ، فنظموا ديانتهم على أساس العائلة التى لا يتزوج ربها غير زوجة واحدة ، حتى يكون صاحب السلطة العليا فى أمور الدنيا والدين كليهما ذكرا لا أنثى . وفى الحق انه ليس ثمة أى أثر على سيادة أية ربة سيادة مطلقة ، وذلك فى حدود ما وصـلنا من آثار أى شعب من الشـعوب الناطقة باللسان الهندوجرمانى مما يمكن أن نتخـذه أساسا للحكم فى هـذا الموضوع .



الاله المثلث الصور

كانت لزيوس هيئات متبادلة مذ كان الاله الأعلى للعالم المادى . وهو مرسوم هنا على هذه الزهرية ، الذى عثر عليه فى خيـوزى chiusi على أنه هيدز اله العالم السفلى ، وپوسـيدون اله البحار وذلك بما تحمـل الأشـكال الـثلاثة من رمـز البرق الذى فى أيديهـا



رمز التآلف الدينى

ابقت اليونان الهيلانية على عبـادة حـيرا ، الربة المينـوية الميسينية بمـا اكسبتها اياه أسـطورة زواجهـا من زيوس اله الأقطـار الشمالية من التأييد الروحى . ويوضح لنا هذا النقش الزهرى هذين الزوجين جالسين على متكئهمـا الزوجى

ونستطيع أن نصرح على ضـوء هـذا الأثر ، وبفضل الشواهد اللغوية وغيرها بأن زيوس وپوسـيدون وأپوللو وآرس وديونيزوس وديون ، زوجة زيوس الحقيقية ، وهستيا ربة المدفأة ، وديمتر ربة الأرض أم ربة الشعير كانت من أصل شمالى ، بينما كانت أثينا وأفروديت وأرتميس ، ورها ، وهيفستوس الاله الحداد ينـتمون الى سـلالة من سـلالات البـحر المتوسط مما قبل السلالات الهيلانية . فأسماء هذه الآلهة الأخيرة لا تتصل بصلة ما ، اكيدة أو محتملة . بأية من اللغات المعروفة ، واللغة المينوية لا تزال مجهولة ، ثم هى أسماء آلهـة سائدة فى البلاد التى غلبت عليها الثقافة المينوية الميسينية مثل أتيكا وبووطية والپليپونيز وكريت وقبرص .

وقد رضيت الهيئة الاجتماعية فى كل هذه البـلاد بالفعـل ، بالاله الشـمالى زيوس . وسلمت له نظريا بوصفه صاحب العزة الالهية العليا ، الا أن مدينة أثينا ومقاطعة أتيكا كانتا فى جميع عصورهما تدينـان بالولاء من صميم قلبيهما لربتهما مينرڤا (أثينا) — راعية الدولة . كما كانت آرجوس المدينـة الأحدث

عهدا التى ورثت كل السنن الميسينية تتعلق بمثل تلك الحمية وهذا الاصرار بربة بلادها التى ترجع الى ما قبل العصر الهيلانى ، والتى كانوا يدعونها حـيرا ــ وهو اسم طريف ؛ هو المثل الوحيد لاسم هيلانى غير مشكوك فيه ينطبق على الربة الميسينية المينـوية التى ترجع الى عصر ما قبـل الهيلانيين لأنهـا كانت تفسر ، دون ما تعمل،بوصفها ذات صلة بالكلمةالاغريقية « هيروس » ويكون معنـاها لذلك « عظيم » وهو نعت من نعوت الاحترام كان يخاطب به أهل الشمال ربة بلادهم رفيعة الشأن ، ومن هنا تسميتهم لها ب « الربة العظيمة الشأن » . وهكذا جعلوها زوجة زيوس الشرعيـة كيما يرضـوا ضمائرهم الآرية . أما اسم شريكـه حياته الحقيقى فهو « ديون » ، وهو اشتقاق أنثوى من اسم زيوس ، كانت تعرف به دائما ، كما كان الناس يعبدونها به فى دودونا ، وقد نشأ على الأسـاس نفسه الذى نشـأت عليه بعض الأسماء العديدة لتسمية زوجات الآلهة . الا أن حيرا ، ربة آرجوس لم تنال بزيوس كثيرا ، بل غلبت منزلتـها منزلته فى قلوب عبادها من الآرجوسيين ، وان كان من واجبها مع ذلك أن تقوم نحو زوجها ببعض الطقوس الزوجية المقدسة ، وعلى هذا فقد ورث اليونانى كثيرا من ديانة كريت وميسينى ، كما ورث كثيرا من فنهما .

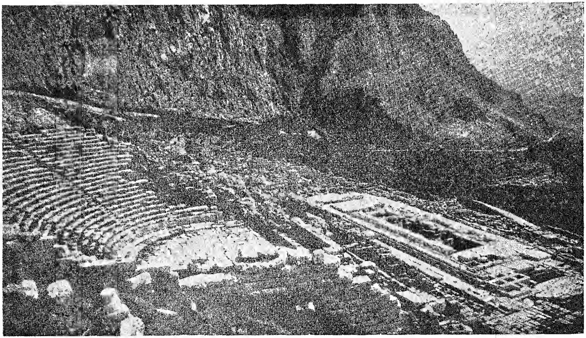
ويأتى فى المرتبة الثانية لعبادة الآلهة العليا المشخصية هذه حشد من ظواهر ديانة أحط من الأولى وأقل منها تطورا تصورت فيها القوة الالهية فى صورة مبهمة تعتمد أكثر من الأولى على القول بأن لكل مادة روحا ؛ فحينما يلاحظ أرستوفان ارتقاء اليونانيين على الأعاجم بما يذهب اليه من عبادة هؤلاء للشمس والقمر ،بينما كان اليونانيون يعبدون آلهة لها ذوات كالبشر تماما أمثـال زيوس وهرمز وأبوللو ، فان هذا الذى يقرره ينطوى على كثير من الحق ، وان لم ينطو على الحق كله ، فحينما وجهنا الطرف ، وبالغا ما بلغ بصرنا بعصر ما قبل المسيح، نجد أن الرحل اليونانى على شيء من شعور الاحترام للشمس والقمر وللرياح المختلفة . بل لعل عددا قليلا من هيئات المجتمع كان يعبـد نجما بعينه ، كالشـعرى اليمانية مثلا . وكانوا جميعا ميالين من سويداء قلوبهم لعبادة الأنهار . وكانت محبتهم لأرض الوطن ترتبط بهـذه العبادة ارتبـاطا عظيما ، ثم نحن نجـد عبـادة الحوريات فى كل مكان ، كما نجد عبـادة العرائس أو كائنـات ما فوق الطبيعة الغامضة التى تكمن فى البرية والمراعى والغاب . مستخفية أو مبدية أحيانا ، تلك الكائنات الخطرة فى بعض الأحيـان غير أنهـا مما يسهل اكتساب عطفها فتهب عندئذ الخير والبركة ، ويظهرنا نفس هذا الاسم « العرائس » ، أو « النساء اليوافع » على ما كان يميل اليـه اليونانيون من القول بالتجسيد .

وشعور اليونانيين الدينى نحو الأنهار يبين لنا



مليكة الأولمب فى حفـلة عرسـها

كان يعداتحاد زيوس وحـيرا المقدس الحادث الأول للزواج من زوجة واحدة وهو الزواج الذى يقيس عليه أهل الأرض ، اذ كان يحتفل به فى المعابد بطقوس ملائمة . ونرى هنـا صورة ذلك الاتحاد المقدس فى رسم بارز جميل جليل (ربما يرجع عهده الى القرن الخامس ق . م) من معبـد سلينوس ؛ لاحـظ خمـار العرائس الذى تلبسه حـيرا

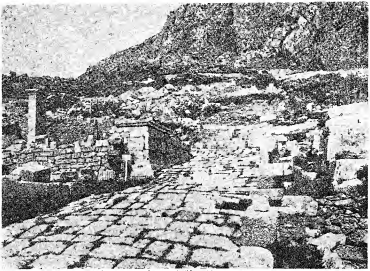


مقر الكهنوت فى أوج تمامه ، حيث كانت تصدر نبوءات دلفى

كانت عبادة أبوللو اله دلفى أعمق العبادات أثرا فى اليونان ، وذلك بسبب تلك الغازات البركانية التى كانت تنطلق من فجوة فى جانب الأكمة فكانوا يستغلونها استغلالا بارعا للترويج لهذه العبادة ، اذ كانوا يعتقدون أن الخمار الذى تحدثه هـذه الغـازات فيمن يستنشقها ان هو الا وحى مصدره الاله نفسه ، يشبه الوحى الذى ينزل على الأنبياء ، وكانت وصيفات المعبد ـ العذارى البيثيات يتعرضن بانتظام لتأثير تلك الأبخرة البركانية حينما كان مختلف طبقات رجال الكهنوت المقيمون يؤولون هذياناتهن ؛ وكان المصدر الواضح الذى يستقى منه الكهنة اجاباتهم على أسئلة السائلين ، واللباقة التى كانوا يجيبون بها على هذه الأسئلة مصدر ثروةلهم وقوة ، كما كان لها أثر عظيم فى مجريات الشئون اليونانية ـ وقد بنى معبد فخم حول الفجوة التى كانت الغازات تنطلق منها .. وترى صورته هنا ادنى المسرح .

أجلى بيان مراحل الادراك الدينى المختلفة ، تلك المراحل التى يمكننا أن نميز بينها فنجعلها مراحل سفلى ومراحل عليا ؛ وربما أظهرتنا عبارة هسيود التى ينصح بها الغريب اذا ما كان يجتاز مخاضة خطرة أن يركع ويبتهل « فى الماء المقدس » ؛ على المرحلة الأولى من مراحل هذا الشعور . فهذا هو الذى كانوا يطلقون عليه « حيوية المادة » ، أى الشعور بأن الماء نفسه هو كائن ذو ادراك . كائن حى ، والهى من بعض الوجوه ، وفى هذه المرحلة ، كانوا اذا تقربوا الى الماء بالقرابين لم يروا خيرا من القذف فيه بالحيوان ، ثورا كان أو حصانا ، وهو على قيد الحياة ، ليستخلص العنصر الشعورى على النحو الذى يراه . وعندما أصبح خيالهم أكثر تحديدا ، كان يستطيع تصور روح ثاوية فى الماء نافذة فيه ، مسيطرة عليه ، وربما جعل هذا الخيال ، لتلك الظاهره ، أو هذا الكائن الالهى المبهم ، شخصية لا تزال تكبر ثم تكبر ، حتى تبرز منها آخر الأمر شخصية اله من آلهة الأنهار له صفات بشرية تختلف قلة وكثرة ؛ فهذه هى عقيدة حيوية المادة التى تحور فتكون عقيدة بوجود اله ذى ذات؛ثم يستطيع اله النهر، حينما يبلغ هذه المرتبة أن يترك عنصره المائى فيأتى الى مذبح مقام على شاطئه . ينسل ذرارى بشرية . ويدخل فى حياة الناس السياسية . ونجد صدى هذه الطرق المختلفة فى تخيل آلهة الأنهار وعبادتها فى أقدم منظومات الشعر اليونانى .

ثم نحن نكتشف شعورا بدائيا دينيا حينما ندرس عبادة هستيا وشخصيتها . ويدل هذا الاسم ، المكون من جذر هندى جرمانى على « الموقد » وهو المكان الدائم للنار المنزلية ، التى كان يجهلها المينويون ، والتى كانت من ضرورات الحياة عند أهل الشمال ، وبناء على ذلك ، يجب أن نترجم الكلمة هستيا ، بمعناها الدينى بـ « الموقد المقدس » مادام أن الموقد نفسه

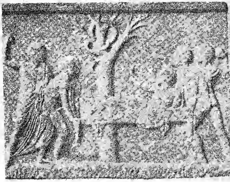


طريق مقدس وطئته أقدام حجاج لا عدد لهم

لم يكن ينقص دلفى شيء مما كان يمكن أن يساعد على خلب ألباب زوارها العديدين . فقد كان ثمة طريق مبلط ممتد من المدخل الى حرم أبوللو الى الهيكل العظيم الذى كانت تقيم فيه هيئة الكهنة على الدوام . . وكان الطريق لولبيا الا أنه كان يسير بكل من يسلكونه وسط معالم هذا المكان المقدس الجليلة . وكان المذبح الكبير شاهدا على ماابلغته هذه الجهة من الفخامة . وترى هنا أطلالة ، الى يسار الطريق المقدس . أنظر أيضا صورة هذا الأثر على ما تخيلها الفنان ، ثم رسم الأساس فى صحيفتى (٦٤٠ - ٤١)

كان يعتبر بهذه المكانة من التقديس والسمو ؛ وربما بسبب هذا الشعور البدائى فيما يتعلق بعنصر النار السحرى . ولهذا ، فهستيا ، أو « الموقد المقدس » ترعى المبتهل أو الغريب ، كما تحفظ أطفال المنزل . ولهذا أيضا ؛ وجب أن تلقى بضع صغيرة من القربان المخصص للآلهة العليا فى الموقد بوصفه القوة المركزية الأصلية للعائلة التى تعيش تحت سقف بيت واحد ؛ وحينئذ يعمل دافع التجسيد على هذا الأساس فيبدع ربة جميلة عذراء ؛ لا يمكن أن تتزوج ــ لأنها على الرغم مما ذكرنا ، هى هذا الموقد ، الصافى من حيث جوهره ــ الا أنها تتلقى من زيوس ، عوضا عن هذا الزواج ، الحق فى الأضحيات الأولى ؛ ولقد بذل الشعراء والفنانون اليونانيون ما فى وسعهم لابراز شخصية هذه الربة ؛ الا أنهم لم يفلحوا قط فى توطيد معالم هذه الشخصية فى خيال الشعب ، ولا فى عقيدته فهى لا مكان لها فى الأساطير اليونانية ولا فى قصة الانسانية . وقد ظلت قوة مع ذلك لقداسة الموقد المنزلى ، ولسبب آخر أقوى من ذلك ، هو احتفاظ المدينة بموقد عام كان رمزا لحياتها المستمرة، الا ان عبادتها تتبع عقيدة حيوية المادة أكثر مما تتبع عقيدة وجود اله له صفات البشر ؛ وهى أكثر صلة بالربة الرومانية فستا .

وثمة عوامل أخرى فى عالم الديانة اليونانية تتبع مستوى دون مستوى الآلهة العليا ، فمن بينها عبادة الآلهة أو أل « ديمون » التى يمكن تسميتها بالآلهة « الوظيفية » لما تقتصر عليه قوتها ونشاطها من أداء عمل بعينه لا تتعداه الى غيره ، حتى أن الاسم الذى ابتكره لها يوصنر Usener والذى يمكن أن نترجمه « بالآلهة



رمز القوة الشافية

بينما كانت ديانة أسكليبوس تشجع الطب والجراحة كان العلاج بالوسائل الاعتقادية من صميمها كذلك . وقد احتفظت لنا هذه اللوحة التذكارية التى يحتمل أن تكون قد أهديت الى الاله شكرا على ما أضفى على المريض من العافية ، باحدى هذه الطرق العلاجية ، والأفعى المحوية التى وقفوا بالمريض أمامها هى رمز الاله أسكليبوس . انظر أيضا الى الثعبان الموجود تحت المحفة



الطبيب الالهى ومعه ابنته

كان الاله أسكليبيوس ، بوصفه رب الشفاء ، راعى الأطباء . وكانت معابده مستشفيات ، وكان كهنته على شىء من الدراية بالطب المشوب بالعقائد السحرية وتصور لنا هذه اللوحة النذرية الاله أسكليبيوس ، وفى صحبته هيجييا Hygieia ربة الصحة ، وتعتبر ابنته عادة ، وهما يستقبلان بعض عبادهما

الاخصائية » هو اسم لائق . ومن سبيل ذلك بطل سكة المحراث « اكتلوس » Echetlus الذى نعرفه فى منظومة برونتيج،و «بونوستوس» بطل المحصول الطيب ؛ وبطل الفول الذى يرعى غلة الفول ؛ وبطل الطاحون الذى يشرف على طحن الغلال . والظاهر ان رجل الشعب كان لا يهتم اهتماما شديدا بهذا النوع من الآلهة التى كان لها عدول فى الديانة الرومانية ، اذا أمكن أن نأخذ برأى القديس أوجستين وڤارو . ومن الظريف ان نلاحظ كيف ان الخيال اليونانى فيما يتعلق بنسبة الصفات البشرية للآلهة . وهو هذا الخيال الذى يختلف اختلافا عريضا من الخيال الرومانى قد اهتم ببعض هذه الشخصيات المضطربة التى لا تقدم ولا تؤخر ، فراح ينسب الى يونوسوس مثلا حكاية شخصية جياشة بالحركة من حكايات الحب المهان ، ويخصص لبطل المحراث سطرا من فعال البطولة فى موقعة مرثون .

ثم هنالك طوائف معينة مبهمة من القوى هى أشد اضطرابا وغموضا من هذه الآلهة الوظيفية . لا يعرف لها اسم ولا شخصية فردية ، الا انها تحمل اسم طائفة مختصة فحسب ، نحو طائفة ال تيوى ميليخيوى Tneoi Meilichioi وهى تلك القوى الالهية التابعة للعالم السفلى التى كان ينبغى على مرتكبى جرائم سفك الدماء أن يترضوها . وقد يصح حسبان بعض هذه الطوائف جماعات بدائية لا أسماء لذواتها ، أو قوى موهومة ، يحسنونها ولا يدركونها الا قليلا ... قوى هى مخلفات فكرة دينية أكثر سذاجة يمكن أن ندعو حاصلها « تعدد الآلهة » . وفى أحوال أخرى قد تكون جماعات مفهومة بجلاء ، أو طوائف من آلهة حقيقية محدودة المعالم .

ولا نستطيع أن نلمح ، فى حالة ما ، وفى حدود تاريخ الجنس اليونانى ، النشأة العامة للآلهة ذات الصفات البشرية من أشكال أدنى . فنحن نعرف الآلهة ذات الصفات البشرية فى ذلك التاريخ آلهة مليئة بالحياة ، قوية ، وفى حالات كثيرة آلهة تامة التكوين منذ نشأتها . ان نشوء الديانة اليونانية يتألف فى الغالب من تلك الثروة الدائمة الازدياد من الصفات والوظائف التى تضطلع بها الآلهة العليا والتى تكون بها على اتصال أدنى بحياة الدولة والأسرة والفرد ، فهى آلهة جنس تقدم فى خلال قرون ، وتقدمت هى بتقدم أهلها ، الا أن هذا التقدم لم يتطلب الامحاء الذريع للعناصر الأكثر انحطاطا وفجاجة ، كما لم يتطلب أى انقطاع بينه وبين الماضى . كما تطلبت المسيحية الانقطاع بينها وبين الوثنية . فلم يكن فى الديانة اليونانية نبى قوى أومصلح دامغ الحجة،وربما أدخل أرفيوس وغيره فى هذه الديانة ، فى الفينة بعد الفينة — ، الهاجديدا أو رأيا دينيا مبتكرا . الا أنه لايناقض والعبادة التقليدية . فالآلهة القديمة المنحطة تبقى الى جانب الآلهة الأعلى والأكثر تهذيبا منها دون ان تحدث فى روع الناس أى أثر للاضطراب . فاذا ما صدمت الضمير الأدبى الأعلى عادة ما ، كالتضحية بالبشر مثلا ، فانها لا تلبث أن تتلاشى تدريجيا حتى تكون مجرد أسطورة أو طقسا زائفا .



رب السماء والجحيم

كان اليونانيون يعبدون زيوس على أنه سيد الآلهة والناس واله الموتى . وتتجلى جلالته وجبروته فى هذا التمثال الذى يصوره لنا وقد استوى على عرشه . يحرسه أحد الأنسر ، ثم سيربروس — الكلب الحارس — الذى يحمى بوابات هيدز

وعلى هذا فتاريخ الديانة اليونانية لا يهتم أصلا بمنشأ الآلهة ، ويجب أن يتناول أكثر موجزاته اختصارا صفات الآلهة الرئيســـية ووظائفها المختلفة ، فى المناحى والمرافق المتباينة التى تعمل فيها للانسان ، ويمكن تقسيم هذه كما يقسم عالم الطبيعة المشتمل عـــلى النبات والمجتمع الانسانى فى أشكاله المختلفة ، وعالم الاخلاق ، وعالم الفنون ، ثم النفس الانسانية آخر الأمر ، ولما كان ذلك كذلك ، فانا نجد أن بعضا من هذه الآلهة الكبرى ، وبخاصة زيوس وأبوللو ، موجود وجودا فعالا فى جميع هـــذه العوالم ؛ ويوجد معظمها فى أكثر من عالم واحد بينما تقتصر الآلهة الصغرى فى حقيقة الأمر على ناحية واحدة .

وبطبيعةالحال تشتمل عبادةالطبيعةعلى عبادة الظواهر العالمية العظمى للقوى . نحو الشمس والقمر والنجوم ، وسرعان ما نكتشـــف ضآلة الجزء الذى تشغله هذه الآلهة فى عبادة هيئات المجتمع اليونانى ، مما يؤيد صحة ما ذهب اليه أرسطوفان فى العبارة التى اقتبسناها سابقا . ان صورة « هليوس » أو الشمس ، لم ترق الى مرتبة اله كريم للدولة الا فى جزيرة رودس ، ولعل هذا كان مرده الى التأثر القوى المستديم لأحد تقاليد ما قبل العصر الهيلانى ، ولا يوجد فى اليونان شئ يضارع التدرج المعروف الذى كان لعبادة اله الشمس فى أرض الجزيرة وفى مصر ، ويبـــدو بالفعل أنه كان من قوانين السيكلوجية الدينية عند الرجل اليونانى أن فى وسعه اكمال الفكرة الروحية والاخلاقية العليا للربوبية فيما يتعلق بتلك الآلهـــة التى لا تدل أسماؤها على عنصر مادى أو حقيقة مادية ، فلم يمكن أن ترتفع جى ، الأرض الام ، التى كانت أعلى مكانة فى العبادة من النيرات السماوية ، الى المرتبة العليا من مراتب الدين حتى أطرحت اسمها المادى وظهرت باسم ديميتير وكورا ، هاتان الشخصيتان المتألفتان الكريمتان اللتان استطاعت أسرارهما الطبيعية ارضاء المطامح الدينية العليا .

ومع هذا ، فقد كانت كل الآلهة العليا مرتبطة بنماء الغلات أو رعاية القطعان . وبالأحرى ، العين التى تكلأ الانسان فى كل ما يجنيه من ثمرات ، وذلك للدور الكبير الذى لعبته الحياة الزراعية والرعوية فى اقتصاد الدول اليونانية بالرغم من اتساع التجارة ، حتى أبوللو الذى يمثل الفكر والفن فى اليونان ، والذى كان فى فجر حياته الها للصـــيد فى الغاب ، قد احتفظ دائما باهتمامه بالشـــاء والنعم ، وكان يعبد على أنه حامى المحصولات من العفونات والجرذان .

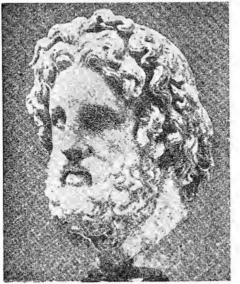
وبامعان النظر فى عبادات الطبيعة المسجلة فى الآثار الأدبيـــة والفنيـــة تدهشنا حقيقة واحدة ذات أهمية عظيمة تشير الى اتحاد معين فى ادراك القـــوة الالهية التى تلوح من تبـــاين الأشخاص تباينا متعدد الصـــفات ، ونعنى بذلك أن هذا الاله « الآرى » الأولى ، زيوس ، رب السماء ، لم يكن يقتصر سـلطانه وأفعاله على الســماء



ملامح تثير الاحترام الممزوج بالرهبة

اشتهر تمثال (زيوس سيد الأولمب) الضخم لفـــدياس فى عالم الآثار بجلاله وقوة تأثيره فى المتعبدين . وقـــد اختفى التمثال الأصلى ، الا أن شيئا من عظمته يتجلى فى ذلك الرأس الكبير لزيوس ، يظن أنه أنمـــوذج له من العهد اليونانى الرومانى عثر عليه فى برقة

وحدها ، بل كان يشمل أيضا الأرض بصفته ربا للأشجار والنبات ، بل كان يشمل كذلك ما تحت الثرى بوصفه الاله الذى يهب الحياة وينبت الحب . الاله الذى قد يكون هيدز ، الاله غير المرئى ، قبضا من قبوضاته ، وكان لزيوس سلطان حتى على البحر وأعماقه ، وكان اسم « پوسيدون » الذى كان منذ القدم الها منفصلا وان يكن ناشئا عن أصل واحد ، يعنى من أول الأمر ، اله فى البحر ، وذلك بناء على أن الاشتقاقات ، والرسم الموجود بصحيفة ٧٠٠ ، نقلا عن زهرية خيوزى Chiust هو رسم تعبيرى شائق لفكرة الوحدة فى التثليث فهو يصور لنا أوجه الآلهة الثلاثة ، زيوس وهيدز ويوسيدون ، كما يظهرنا على قرابتهم أو وحدتهم التى تبينها العلامة المميزة لزيوس خاصة ، وهى هذه القبضة من البرق فى أيدى ثلاثتهم جميعا ؛ وربما ساعد مثل هذا الادراك الدينى الموجود عرضا فى سجل العبادة اليونانية للطبيعة على نشوء اللاهوت التوحيدى وفكرة وحدة الوجود الفلسفية .



جلال سيد الآلهة الذى لا تشوبه شائبة

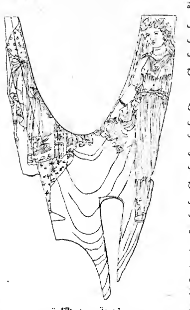
كانت مثالية اليونانيين وعبقريتهم الفنية تجتمعان فى محاولتهم اضفاء الجلال الفائق الذى يتجلى فى منحوتاتهم الباقية ، على تماثيلهم للاله زيوس ، ولعل شيئا منها لا يدل على تصويرهم الرفيع لالهم الأعلى دلالة فائقة أكثر مما يدل عليه هذا الرأس الذى يمثل زيوس أسكليبوس — وهو من آثار ميلوس

وثمة خصيصة أخرى تدل على نمو هذه الفكرة نلمحها فى عبادة الطبيعة اليونانية ، هى الجمع بين عالم الظلمة تحت الأرض والقوى الخامنة فيه وبين الحياة التى تنبع فى الثمار والأزهار ؛ ولهذا استطاع ذلك العالم أن يشعر الحياة الدنيا بأهواله ، وأن يحدث معتقدا صوفيا أرفع من السعادة والسلام .

الا أن الجمع بين الدين وبين كل عمل من أعمال الحياة وفروعها الاجتماعية والسياسية كان خصيصة اليونانى المتميزة ، لأننا لا نجد عند أى شعب آخر ما نجده عند الشعب اليونانى من ارتباط الآلهة هذا الارتباط الشديد بكل جزء من كيان الدولة ، ولا نجد فى أى مكان آخر ما نجده هنا من انعكاس الكثير من جوانب حياة الأهالى ومطامحهم فى صفات كبار الآلهة وفى سجاياهم ، ومع ذلك ، فلم يكن ثمة قوم أبعد من أن يخضعوا لحكومة دينية من الأقوام الهيلانيين ، لأنهم لم يسمحوا للدين قط أن يكون مهيمنا عليهم ، بل كانوا ينظرون اليه نظرتهم الى أكثر خدامهم وحلفائهم نفعا ؛ وكانت دولة المدينة أوال (Polis) تقوم على فكرة صلة الدم ، وذلك أنه قد تمثل فيها الاتحاد فى أصفى صوره ، أعنى الأسرة أو العشيرة أو القبيلة ، ثم تضامت هذه الجماعات كلها بعضها الى بعض بفضل المذاهب الدينية التى كانت بعض ألقابها الخاصة المعبرة عن الحقيقة الاجتماعية تتصل بالآلهة ، وكانت الأسرة هى أبسط وحدة فى دولة المدينة ، وكان الاتحاد القائم على عدم تعدد الزوجات الذى كانت تقوم على أساسه يحتفل به احتفالا دينيا

وكانوا يعتقدون أن زيوس وحيرا يدعمانه .. زيوس وحيرا الها الزواج الرفيعا الشأن اللذان كان زواجهما بين الآلهة يقابل الزواج بين البشر، والذى كانت دويلات المدن اليونانية تقيم طقوسه فى حفل علنى . كما كان الزوج والزوجة يحتفلان به احتفالا خاصا فيما بينهما . ويصور لنا أثر من اطار من احدى الهياكل فى سلينوس Selinus بصقلية ، وزهرية ترجع الى القرن الخامس موجودة بالمتحف البريطانى (ص ٧٠٠ - ١) زيوس وحيرا بوصفهما الالهين الأعلين لفكرة الزواج من واحدة .

وكانت الاسرة تجتمع للعبادة حول مذبح زيوس فى فناء دارها ، وذلك فى عصور ما قبل هوميروس والأحقاب الأحدث عهدا ، وأصبح زيوس «الفناء» حامى حمى آداب العائلة ، فكان هو الذى يؤيد حقوق الأطفال وواجباتهم نحو والديهم ، والأخ نحو أخيه . وكان أثر الدين قويا فى هذه الدائرة والآداب التى كانت قوة فعالة متأصلة فى وعى العالم اليونانى . وكانت هذه العبارة (وقر أباك وأمك) قانونا راسخ الأساس فى هيلاس كما كان فى بنى اسرائيل .



زوجة سيد الآلهة

كانت حيرا - زوجة زيوس - تختص بالجلال الخلق بملكية الآولمب وهكذا - تبدو وعلى طلعتها سيماء الملكية بكل معانيها فى هذه اللوحة العاجية المنحوتة من (القرن الرابع ق . م) وان صورها لنا الفنان رشيقة القد ، بل يكاد يكسوها الخفر

وكانت الآلهة العليا ، ولا سيما زيوس وأثينا تشرف أيضا على الجماعات الأكبر عددا ، التى تجمع بينها وشائج القربى ، كالبطن أو الحى أو ما يدعونه ال (جينو Geno) و « الأخوة » أو ما يدعونه ال Phratria ، ومن هذه الأسماء كانوا يخلعون على أنفسهم ألقابا توسلية (Invocative) ، نحو الأخ فى الحى أو الأخ فى القبيلة . وأحيانا كانت تنتهى النظرية التى تزعم بأن المدينة كانت فى أول أمرها جماعة من الأنسباء بعقيدة أن الاله كان بمعنى لغوى وطبيعى جد الشعب ، وفى هذه الحالة كانوا يخلعون عليه نحوا من هذه الالقاب « الجد » و « الوالد » و « واهب النسل » . وهكذا كان زيوس - الرب الوالد - للدوريين وللايكديين شعب ايجمنا ؛ وكان أبوللو الرب الوالد للايونيين ، وبوسيدون للمينيين ، وكانت العقيدة القائلة بعذرية أثينا حائلة من أن تكون هذه الربة من الوجهة اللفظية جدة للاثينيين ، الا أنها اختصت نفسها من أجل مدينتها الحبيبة بلقبها اللطيف « البتول » وذلك لأنها كانت مربية سلفهم البطل ارختيوز .

وسواء أكان اليونانيون يعدون آلهتهم العليا أسلافا لهم أو لم يكونوا ، فقد احتلت هذه الآلهة مكانا هاما فعالا فى حياتهم السياسية . من حيث أنها كانت تدعم القوانين والنظم ، وتهدى الى الرشد ؛ وكان زيوس، وأثينا ، وأبوللو من الآلهة البارزة دائما فى هذه الدائرة ، وكان الالهان الأولان فحسب ، الاله الأعلى وأبنته ، هما اللذان كانا يعبدان ويبتهل اليهما بالدعاء ، بواحد من هذين اللقبين الهامين : الراعى ، والراعية ، أو حاميى المدينة ، ويعرفان بلقب مشابه يستعمل لكليهما - بولايوس Boulaios وبولايا Boulaia - بوصفهما القوتين الحاصلتين على مجلس الدولة ، واللتين تلهمان الناس طريق الهدى . وقد تخيل هوميروس من قبل أنه ربما كان للربة أثينا

اهتمام خاص بأولئــك الذين لهم قدم عاليــة في الحكمة والمهــارة الحرفيــة ، وكان هــذا الجمع الوثيق بين الآلهة العليا ، والكثير من الآلهة الدنيا ، وبين الشئون السياسية يكسبها أحيانا القــابا غريبة ، ويضعها في مواضع غريبة كذلك ، وكان الأثينيون يتدبرون أساسا دستيا لديمقراطيتهم بدعاء ربتهم «أثينا الديمقراطية أو أثينا ربة الديمقراطية (١) » ، (كأنما تجسدت فيهــا الديمقراطيــة) ونحن نجــد زيوس وهو يأخــذ أحد القابه من منصة الخطابة . وهي هذا الموضع الذي لا يهيمن عليه الدين في حكوماتنا الحديثة ؛ وانتخب أبوللو ذات مرة حاكما في احدى مدن آسيا الصغرى ، واله الريح الوحشي نفســــه « بورياس » الــذي منح لقب – مواطن – في نوري Thurii وهي مستعمرة أثينية في جنوب ايطاليا .



حيرا ذات العينين اللتين تشــبهان عيــون المهى

قصد المثال الذي صنع هذه الصورة الجانبية لحيرا (على قطعة من نقود آرجوس) الى تحقيق وصف هوميروس لحيرا من أنها كانت ذات عينين تشــبهان أعين المهى فجعــل عينهــا هــنا كبيرة بارزة .

ويقتضــينا توضيح ذلك الجانب الذي كان يشغله الدين في تاريخ اليونان الخـــارجي ، وتاريخها الداخلي توضيحا كاملا يكون له أثره في النفس ، الكلام عن تاريخ الكهانة في دلفي ، ذلك التاريخ الذي كشفت عنه الاســتكشافات والبحوث الحديثة الشيء الكثير ؛ وتدلنا أشعار هومر على أن هذه الكهانة كانت قد بدأت تكون ذات أثر فعال في الحياة العــــامة ، وبين أهل مستعمرات العالم اليوناني القديم في زمنه ، وثمة من الاسباب ما يدعو الى تصديق الاسطورة القائلة بمواكبة الــكهانة لتاريخ الفتح الدوري لشبه جزيرة البلبونيز ، وقد استوحى دلفي المشترعون القدامى واستأنسوا بها في وضــع دســاتير المــدن اليونانية ، ويقال انها كانت ملهمتهم في ذلك ، وكانت هي المصدر الطبيعي الذي يرجع اليه في الامور المتعلقة بالطقــوس أو التبديلات التي تتناول النظم الدينية،الا أنها كانت ، فوق كل شيء ، الحــــافز الــرئيسي للاستعمار اليــوناني . والموجه الأساسي لهـــذا الاستعمار الذي كان الجــانب الهــام من جوانب حضــارة الــبحر المتوســـط في العصـــــور الأخــيرة نتيجة له ، اذ كان من الاعتقادات الــسائدة أنه لا يمكن أن يفلح استعمار جديد ما لم يدفع اليه أبوللو اله دلفي او ما لم يباركه هذا الاله ؛ وفي مستطاعنا في واقع الأمر ان نعد كهــانة دلفي أفعــل الأســباب الاســتعمارية التي أتيحت لأية هيئة من هيئات المجتمع الانســاني التي تشرف على الهــجرة . . . تلك الكهــانة التي كان يتولاها بمهارة كهنـــة أبو للو الذين كانوا على اتصال بجميع أجزاء العــالم المتمدين المعروف اذ ذاك . وقد دأبت دلفي على أن تكون لها تلك الوظيفة الدينية الهامة ، بوصفها هادية لضمائر الأفراد ، وذلك عند ما استقرت الامــــور في بلدان البحر المتوســط نهائيــا وبعــد أن بلغ



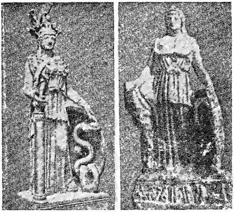
ملكية السموات

كان مقام حيرا السامي لا يعزب عن البال قط ، وان تكن قد كانت ربة منزلية أكثر منها مدنية ، اللهم الا في آرجوس . ففي هذا الرسم على أحد الآنية الأثرية المحفوظة في متحف ميونخ نراها وقد لبست عباءه وتاجا وأمسكت بصولجان الملك

(١) الديمقراطية في العبارة الأولى صفة ، وفي الثانية اسم (المترجم)

استقلال هيلاس غايته . وتذكر دلفى فى بعض الأحيان بالبابوية الكاثوليكية على نطاق صغير ، من حيث نفوذها السياسى ؛ الا أنها لم تطمح الى الطغيان قط ، أو على الأقل لم يسمح لها بذلك . وكانت مشوراتها على وجه العموم فى جانب الحق والاعتدال .

ان الدين الذى يكون فى جوهره دينا قبليا أو مدنيا أو وطنيا هو دين لا يخلو من بعض المساوىء التى ربما حالت دون أرقى أنواع الاصلاح الدينى ، وحينما ترتبط حياة الاله ارتباطا كليا بالمدينة فقد تكون النتيجة المحتومة أن يتلاشى هذا الاله بتلاشى المدينة ؛ وكان هذا هو ما يقع فى اقليم أرض الجزيرة ، وهو مالم يقع قط فى بلاد اليونان، وذلك لما كان سائدا فى المجتمعات اليونانية من اعتقاد فى أبدية الآلهة العليا على مبلغ علمنا ، وما كان يعبد به كل من الأرباب الرئيسية من طرق شتى ، أو على الأقل بأكثر من طريقة واحدة ؛ ولهذا كانت اذا درست احدى المدن أبقت مدينة غيرها على عبادة اله المدينة الدارسة .



نسخ لا قيمة لها من تمثال شهير

كانت الصورة المثالية لأثينا التى كان الاغـــريق جميعا يعتمدونها هى هذه التى صنعها لهم فيدياس وأودعها تمثاله الضخم من العاج والذهب . وقد تهشمت هذه التحفة الفنية منذ عهد بعيد ، الا أن نسختين منها فجتين تحملان بعض سيماها ، وصلتا الينا والنسخة التى الى اليسار تعد أكثر اتقانا



شواهد حقيقية وشواهد زائفة على عبقرية فيدياس

لعل الخيال يستطيع تصور ما كان عليه تمثال أثينـا العظيم من جلال تصورا سديدا ، ذلك التمثال الذى صنعه فيدياس ، حيث اكتشفت فى أثينا نسخة من رخام للرأس ، من صنع المثال نفسه ، صنعت بهيئة تحاكى العاج والذهب (الى اليســـار) ، وان لم يحـاك أى من التمثالين الصغيرين ملامح الربة محاكاة صادقة ، أما الجلال الظـاهر فانه لاجرم فدياسى ، والنسخة الرومانية المنحطة (الى اليمين) بحسنها الناعم ، ان هى الا محاولة لتهذيب الأصل

بل نحن لا نجد في مفهومات الربوبية اليونانية ذلك الروح القبلي الصارخ ؛ أو تلك الحماسة القومية البالغة التى كانت تصيب اله بنى اسرائيل فى أول شأنه · ولم تنته الحروب العديدة بين المدن الافريقية الى حروب بين الآلهة Theo-mechy ، ولا الى صراع فى السماء قد يعكر صفو السلام في الاولمب · بل نحن لا نجد أى دليل على أن الاله اليوناني زيوس قد كره بطبيعة الحال آلهة مصر أو آلهة آسيا أو أنه كان في نزاع معهم · وفي الواقع كان زيوس فيما قبل زمن هومر أكثر درجة من اله قبلي ، بل أكثر من اله قومي ولا بد أن تكون العبارة « أبو الآلهة والناس » ، التى كانت تصحب اسمه على الدوام قد فسرت تفسيرا روحيا ، لا تفسيرا لفظيا أو ماديا ، ويتلاءم مع هذه الفكرة ما وجد من رعاية زيوس الهومرى للطرواديين والآخيين على السواء · ونلمس في ذلك بذرة تلك الديانة الانسانية العالمية التى تجاوز حدود الأسرة أو القبيلة أو المدينة الضيقة · هذا وان تك لا تزال بعض الحدود الموجودة بالفطرة فى الديانة القديمة المدنية باقية بالفعل · انه لم يكن ثمة مذهب دينى اغريقى خالص سائد على غيره من المذاهب · وكان الغرباء ممنوعين بالقانون من المشاركة فى العبادة ، بل من شهودها ، حتى لقد كان من عبارات آرسطو الجارية قوله « انه ينبغى الا يعبد الآلهة الا المواطنون فحسب » ، ومع ذلك ، تظهرنا هذه الديانة على نوع الروح الاغريقى المتزايد الذى يستطيع أن يتسع اليه مدى التصور الدينى بالرغم من مظهر هذه الديانة السياسى — المدنى الصارخ ·



أثينا مصورة تصويرا جليلا

صنع هذا التمثال على مثال تمثال أثينا البارثى بما لا مثار فيه للشك · وان لم تكن نسخة مطابقة له وهو بالتأكيد يذكرنا بجماله التمامى المثالى

والعلاقة بين هذه الديانة وبين نظم البلاد التشريعية والأخلاقية هى أكثر أجزاء هذه الدراسة تعقيدا ، بل تكاد تكون أكبرها أهمية ، فمعظم المذاهب الدينية التى لدينا سجل عنها تصور لنا الآلهة فى صورة حماة العدل والقانون وقد اتفق أن نظرت الهيئات الاجتماعية الاكثر تقدما الى العدالة والخير بوصفهما من ضروريات المثل الأعلى للربوبية ؛ ومع ذلك فاله الشر هو شخصية معروفة فى تاريخ الديانات ، ومن الطريف لهذا السبب أن نلاحظ أنه ليس فى أقدم صور الديانة اليونانية التى نعرفها ، وهى الصورة التى رسمها لنا هومر اله كهذا الاله ، ولعل فيما أورده هومر فى الرواية المتعلقة ببوسيدون ، ذلك الاله الذى كان ينقم على الفياشيين Phaeacians مهارتهم ، وحميتهم فى انقاذ من يتعرضون للخطر فى البحار ، أثرا ضعيفا لصورة من صور هذا الاله ، وهذه هى روح التشاؤم فى تاريخ الخرافات الهيلينية . ان آلهة البحار قد بلغها اغراق الناس ، وبالرغم من قصة البطولة ، ومن الاسطورة المألوفة ، اللذين ربما صورا الاله الفردى فى صورة اله منتقم متهور . فقد كان ينظر الى الآلهة فى العصور المتقدمة من تاريخ الفكر اليونانى الدينى خلال العهد الهومرى بوصفها أربابا حيرة صديقة للاخيار ، تنتقم من الذين يصمون آذانهم عن دعاء الملهوفين · ونستفتح الأوديسية بالفكرة القائلة بأن الآلهة لا تصيب الناس بالشر ، بل تنعم عليهم بالخير فحسب ، وأن ما يصيب الناس من سوء فمن أنفسهم ، ولم تكن عقلية الشعب تستطيع أن تسيغ هذا المثال الرفيع من مثل الفكر على الدوام ،

الا أنه مما يسرنا أن ندون نبأه هنا ؛ وقد نسى أفلاطون ، باستبعاده المنظومات الهوميرية من جمهوريته الفاضلة ، بسبب قصصها التى لا تنسى عن الآلهة ، أن ما ذهب اليه من نسبة الخير المحصن الى الله تعالى قد دار فى روع هوميروس الى حد ما ، من قبل ٠

واذا تركنا الأدب الى العبادة الفعلية ، وجدنا أن أفكارا أخلاقية معينة ، كالعدل والرحمة ، كانت تخطر فى بال عباد زيوس ٠ وكانت الديانة الأبوللوية فى كريت ودلفى وأثينا تأخذ بذلك الرأى الراقى ذى المغزى الأخلاقى والتشريعى ، المتعلق بالقتل وتدبعه بين الناس ، ويمكن القول بأن صلوات الهياكل كانت جليلة وجميلة فى كثير من الأحيان ٠ حقيقة ان رموزا معينة من الرموز التناسلية ، كشعار الجهاز التناسلى مثلا ، الذى يبدو بكثرة فى الطقوس الاغريقية البدائية قد تصدم الذوق الحديث بصفة كونها رموزا معيبة الا أنه ليس ثمة ما يدعو الى اعتبارها رموزا فاجرة ، فهى لم تكن مما تشمئز منه مشاعر أرقى الناس ثقافة فى العالم اليونانى ٠ ولا يكاد يوجد أى أثر من آثار الدعارة الهيكلية ، أو هذه الطقوس الدنسة المعروفة فى ديانة أرض الجزيرة والأناضول ٠ فى أيما معبد يونانى أصيل ، وتؤيد أساطير مختلفة فزع الرأى العام من وقوع أى دنس جنسى فى نطاق الهيكل المقدس ، ويقسو الآباء المسيحيون على أفروديت حين يعدونها ربة فاجرة ، الا أنها كانت تعبد فى العصور الاولى على الأقل للديانة الاغريقية بطقوس صارمة بوصفها ربة عظيمة للدولة وللأسرة ٠

ومما لا شك فيه أن الديانة اليونانية تتخلف كثيرا عن الديانة العبرية بوصفها قوة أخلاقية تلزم أتباعها سلوكا أخلاقيا ، ولم تتضمن فى أى وقت من الأوقات هذا المثال الدينى الحديث لمحبة الخير للناس كافة أو خدمة النوع الانسانى ، ولكن طالما كانت هذه الديانة تنبض بالحياة ، وطالما كانت المجتمعات اليونانية تنعم بالحرية ، فقد كانت تغذى فضائل المواطن الحقة ، كالوطنية والشجاعة والاحساس بالواجب نحو الأسرة ، والأهل والمدينة ، وواجب المحافظة على الايمان والقيام على حقوق الغرباء ، بل لقد



أبو للو ٠٠ الجميل الصارم

كان أبوللو ، بوصفه راعيا للفنون والطب ، يعد الشاعر والمفكر الالهى ٠ ففى هذا الرأس البرونزى من مجموعة شاتسويرث ، الذى يرى أعلى هذا الكلام نجد أن المحيا الشاب قد صب فى قالب صارم لابراز طبيعة الاله المتصفة بالحساسية والزكانة



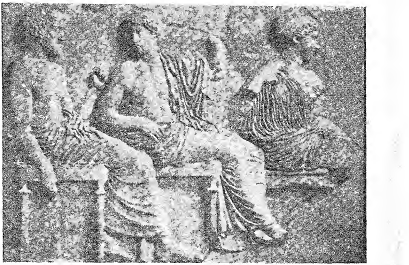
ربة الحكمة والحرب

للصورة التى تصورها فيدياس لأثينا سناء يخلب اللب ألقاه عليها بصورة مصغرة من رأس التمثال البارثنى فى النوط الذهبى الذى عثر عليه فى روسيا الجنوبية ٠ وخوذتها الكبيرة المزركشة هى فى نفسها طرفة من طرف الفن المزخرف

أمكنها تحسين حال الأرقاء ، ولم تبشر هـذه الديانة بشيء من التنسك أو انكـار الذات ، ولا بمثل انسـانية عليـا ، ولـكنها قررت في الأذهان اجمـالا ذلك ال Sôphrosyne أو الاعتدال في العمل والشعور ، وهو ما استطاع أرسطو أن يتخذه قاعدة لمذهبه في الأخـلاق ·

وتشمل الطقوس العـامة للدول الاغريقية « صلاة ارهابية » كان الناس يجهرون فيهـا بأشـياء معينة مما يسيء الحكومة أو الأفراد ، الا أنه بوجه عام لم تكن ثمة فرصة في الصلاة العامة للتبشير بآداب أعلى . وكيفما كانت الحال فقد كانوا يتداركون تلك الثلمة في نظامهم الديني بواسـطة كهـانة دلفي التي لا ينبغي أن تقلل من قيمة تأثيرها في الأخلاق العامة ، لأننا نجد أن آثار العهد الأخير على الأقل تعزو الى كاهنة أپوللو ، التي كان الاله يوحي نبوءاته بلسانها أقوالا كثيرة تشعرنا بما كان عليه الفكر الأخلاقي الفلسفي في بلاد اليونان من رقي ·

الا أن الديانة اليونانيـة قد ضربت بأكبر سهم في الميدان الفكري للفنون والعلوم أكثر مما سـاهمت في عالم الشرائع والأخـلاق ؛ وكانت فورة الفلسـفة الأيونيوية العجيبـة في القرن السادس مدينة بطريق غير مباشر لانعدام أي تحكم أو هوى ديني ممـا كان حريا أن يعوق سبيلها ؛ وكان العالم اليوناني يمتاز بأنه لم يكن له كتب مقـدسة مما يمكن أن يفرض عليه ايمانا محتوما أو عقيدة محدودة في الأمور التي هي من صميم العلوم الطبيعية أو موضوع النظر العقلي ، ولهذا لم يكن ثمة رغبة متأصلة في ذلك المجتمع الى مثل ذلك الصراع بين الدين والعلم . ذلك الصراع الذي اعطش تقدمنا الذهني والديني وعرقل خطاه ، ولم يكن أحرار الفكر اليونانيون يتعرضون للخطر الا في حالة جهرهم بعـدم ربوبية أحد الآلهة . وعلى العموم . فقد كانوا أحرارا في اذاعة ما يستطيعون كشفه من أصول الأشياء ومن حركات الاجرام السماوية .



صور فخمة لكائنات الهية على الافريز البارثنى

كان أپوللو ، رمزا لمثل كبيرة جليـلة الشـأن فضلا عن ارتباطه بالفنون ، وكان يعتقد أنه يلهم التنبؤ ، وهو هنا في وسط هذه المجموعة مصور في صورة شاب حدث فائق الجلالة عظيم المهابة (ويقال أحيانا ان الشكل الذي في الوسط هو شكل يمثل ديونيزوس ، وهو قول لم تقم عليه الحجة) ، وله هذا المحيا الذي يعبر عن كلتا القوتين الشعرية والفكرية ، وقـد جلست أمامه أفروديت ، واستدار هو ليكلم پوسيدون اله البحر الملحي

وفضلا عن هذا فقد كان الناس كثيرا ما يذهبون ، في الحقبة الأخيرة على الأقل ، الى أن الحياة الذهنية كانت لها قداستها لما تحظى به من رضا الآلهة ، واستحسان أبو للو خاصة ، الاله المفكر غير مدافع ، ولا مشاحة فيما أداه أبوللو — عن طريق ولده آسكلبيوس لترقية الطبابة في أوربا ، وقد كان آسكلبيوس قد أصبح أحب الآلهة وأهمها في عصر الوثنية اليونانية الأخير . وذلك أنه اذا كانت الهياكل الاسكلبيوسية التي تؤدي عمل المستشفيات في العالم اليوناني الروماني ، كهياكل أبيدوروس وكوس وبرجاموم وروما لم تكن خدماتها الطبية خالصة من آثار السحر والشعبذة ، الا أنها كانت تعرف الجراحة

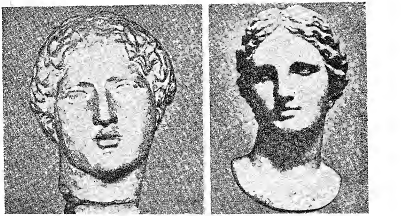


ربة الربيع

صورة كورة على هذا النوط السرقوسي تصويرا رائعا يظهرها صغيرة السن ذات فتنة ناضرة وقد رشقت في شعرها أفنانا غضة رمزا للربيع .

وتأخذ بالآراء الطبية الراقية ، ما في ذلك ريب .

واذا كان الجمهور قد سلم بأن الحياة الفلسفية مشمولة بالرعاية الالهية ، وأن الآلهة هي الملهمة لهذه الحياة ، فان الفلاسفة هم الذين لقنوهم هذا . ثم ان الشعب قد اكتسب ادراكه لمصدر الشعر والفن والهامهما الالهيين عن طريق تجاربه الدينية العاطفية بخاصة ، وقد كان الالهان الرفيعا الشأن ، أبو للو وأثينا هما الها الصدارة في هذا الميدان الا أن هذه الذوات الالهية المعروفة باسم عرائس الفنون لا تزال تحظى بالقبول ، وكانت آلهة ذاتية حقيقية في عالم الوثنية القديم ، وان أصبحت الآن من الخرافات الأدبية التقليدية ، التي تشهد أكثر من أي شيء آخر بقوة الشعور



جمال مثالي مما تصوره المثالون لربة الحب

كانت عبادة فينوس اجمالا عبادة أخلاقية جد صارمة بالرغم مما كان الناس يعدون هذه الربة رمزا للحب بنوعيه الشهواني والروحي . ويتبدى ذلك في هذين الرأسين الخاليين مما يثير العواطف والشهوات ، ولكليهما هذا الجمال الخالص الذي يشعرنا بقداسة فينوس ، وتبدو أفروديت في رأس متحف اللوفر (الى اليسار) كمن تدرك مقامها ادراكا شديدا ، أما في الرأس الآخر (وهو من مجموعة ليكونفيلد في بتورث) فتعبر عن المثل الأعلى للحب دون اثارة الشهوة

بالجمال في الذهن اليوناني العام ، ذلك الشعور الذى استطاع أن يصور لعيون المؤمنين مثل هذه الشخصيات ، وتكاد عرائس الفنون هــــذه تكون فريدة في تاريخ العالم الديني .

ويكون التفـــاعل المشترك بين الفن والدين واحدا من أمتع الفصول في تاريخ الديانة الاغريقيــة الحــافل . فلم يؤت شـــعب مشترك آخر مثل تلك البـــديهة الحــاضرة من حيث نبوغ المثـــالين والمصـــورين في الخلق والتخيل . لأنه عندما كانت الفنونالعجينية والتصويرية تتدرج نحو القوة والتعبير قبيل القـــرن السادس ، كانت الطرز المقدسة المختلفة قد نبتت في روع الشـــعب وأذكيت وتهذبت حواشيها ، على نحو ما وردت في أشعار الملاحم والشعر الغنائي ، مزودة بلمســات من هــذه الفردية المــرموقة والانسانية الجذابة اللتين اســـتطاعت مهــارة الفنــان الناضجة أن تجعل منها مثالا تتجلى فيه عقيدة الفنان . أما فيما يتعلق بآلهــة الأولمب على الأقل فلم يكن ثمة شيء من هــذه الصوفية المبهمة التي من شأنها أن تطمس المعالم الواضـــحة مما كان يمكن أن يبلبل الفنان أو يغطش خياله ، وقد استطاع مثالون مثل فدياس وسكوپاس وپراكسيتلس ، بل نقاشو النقود وصــناع أدوات الصـــيد والقنص ونقــاشو الزهريات في القرن الخـامس ومصــــورو القـــرن الرابـــع العظـــام ابراز شـــخصية الاله أو الربة الأخلاقيـــة أو العــاطفية ، في المــلامح الالهيـــة وأوضاع النشـــوء دون أى تشـــبيه لاهوتي ، وهـــكذا استحدث الذهن اليوناني ، بتجسيده الطبيعي للآلهة ، أكمل أنواع الفن الديني .

وكان تمثـــال فدياس الذي نحتــه لزيوس ســـيد الأولمب من العاج آية فن المثالة الدينية في العالم كله ، فقد جزم كتاب العصور الأخيرة اليونانيون والرومانيون أن جمــاله وفخامتــه



جمال ربة الأرض الصبوح

كان اليونانيون يتصورون شخصية ديميتير Demeter القدسية ، ربة الأرض وواهبة الخصـــب ، تصـــورا روحيا ، وكانت الديانة التي كانت ديميتير قطب رحاها ذات أهمية شاملة ، وقد اجتمع في تمثالها هذا ، وهو من كنيـــدوس ، القرن الرابع ق . م كل ما في دينهـــا من جلال وجمال وسمو

قد بلغا ذلك الحد الذي يزيد شيئا ما في تلك الديانة المنزلة ، وأنه اذا رآه أحد مرة لم يستطع أن يتصور الله في غــير تلك الصـــورة ، وأن منظره بلسم لمــا يحزب الانســـان من الهم ! . الا أنه لم تصلنا لسوء الحظ أية نسخة لهذا التمثال ، من أية مادة ، ولأى فنان موهوب ، الا أن رأسا عثر عليها في ميلاس ، موجودة في المتحف البريطــاني (ص ٧٠٧) ، ســـواء اســـميناهازيوس ، أســـكليبوس ، أو زيوس



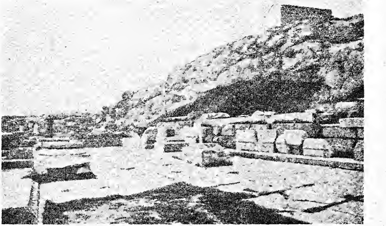
ربات ذوات قربى يعتمــد الناس عــلى جودهم فيما تنبت الأرض من ثمر

كانوا يجمعون عادة بين ديميتر وابنتها « البتول » كوره ، التي تدعى أيضا پرسيفونيه ، وكوره هي ربة الربيع التي كان سلطانها يتجلى في النباتات اذ هي صغيرة ، وخاصة نبات القمح الذي لم تشتد سوقه بعد ، وكانت الربتان تعبدان مع بعضهما غالبا ، ونرى صورة كليهما في كل من هاتين اللوحتين البارزتين من آثار البوزيس ، ونرى ديميتير في اللوحة الأقدم (الى اليسار) وقد توحت واستولت على عرشها ، وأمسكت بالصولجان وأعواد القمح ، بينما وقفت أمامها كوره في أدب واحترام ، ممسكة شعلة في كل من يديها ، وفي اللوحة الأخرى نرى شبها تاما بين الأم والأبنه ، وقد صورتا واقفتين مع الشاب تريپتوليموس ، وهو اله من آلهة الأرض المحلية منذ الأصــل ، الا أن الناس عبدوه في العصور الأخيرة وقد جمعوا بينه وبين ديميتير ، على أنه حارث الأرض المقدس وموزع القمح الالهي .

أسكليبيوس ، تقدم لنا أجل الأمثال المصورة التى كان المثال اليونانى فى أعظم العصور يستطيع أن يصور بها محيا كبير الآلهة (لله ما أبرع هذا السمو فى التفكير والعمق فى الادراك ممزوجين باللطف الساحى ·· لطف الاله العفو الغفور المنحى الودود) ·

أما صورة حيرا المثالية فى أبدع ما وصل اليه الفن اليونانى ، بوصفها مليكة ربات الأولمب وزوج زيوس ، والتى تجدد عذريتها سنويا ، على ما يذهب اليه أحد آثار آرجوس ، فتستأثر باللب أكثر مما تستأثر به صورة هوميروس لها · ونرى هنا صورتين شهيرتين من صورها ، فالأولى (ص ٧٠٩) صورة منقولة عن آنية فى مجموعة ميونخ ، وتصور الربة فى وضع جليل ، وعلى رأسها تاج ذهبى ، يغدودن تحته شعرها الأصفر فى نمط عذرى برىء ، بينما الوجه ممتلىء فى مثل أوجه الأمهات وسخى رخى لا صرامة فيه ·

أما الصورة الثانية فمنقولة عن منظر يمثل فضاء باريس ، محفور على لوحة عاجية كانت يوما من مقتنيات دير سنت بيترزبرج (لننجراد) ، وقد صورت الربة حيرا فى هذه اللوحة فى أوضاع تجعلها فى عذريتها قريبة الشبه من الربة أثينا ، الا أنها ذات قسمات أملا ، فجمال الشكل ممتزج بجلال الملكة من جهة الوضع ، وتعبير العينين والمحيا تعبير بليغ عميق ، ويرجع تاريخ هذه الصورة الى أوائل القرن الرابع حينما كانت أثارات من الفن الفدياسى لا تزال باقية ، ونستطيع أن نضم الى هذه الروائع تلك القطع من العملة الآرجوسية (ص ٧٠٩) ، وهى من أجمل أنواع العملة فى الدنيا كلها ، وقد ضربت فى الشطر الثانى من القرن الخامس ، وقد عولجت الاعين بحيث ترمز الى تلك الكنية الهوميرية المألوفة : « حيرا ذات العينين كعيون المها » انما قيمة هذا المحيا هى فى ذاك البهاء الذى يضفى عليه سناءه ولألاءه · فحيرا هنا ليست



حيث كانت تمارس طقوس عبادة ديميتير السرية

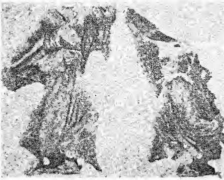
كانت تعبد ديميتير وكوره فى اليوزيس ، حرمهما المقدس ، بواسطة طقوس رمزية تعرف باسم الطقوس السرية الاليوزية ، ويبدو أن هذه الطقوس كانت ذات طبيعة غامضة راقية تبهر الألباب حتى عند أولئك المثقفين ثقافة عالية · ونرى أعلى هذا قواعد الاعمدة المهشمة لمعبد هذه الطقوس السرية الاليوزية ، ونرى خلفها غار هيدز ، زوج برسيفونيه واله العالم السفلى

هى تلك الربة الصارمة التى تتفحمها العين ، والتى تصفها لنا الملاحم الهوميرية ، بل هى عذراء آرجوس البتول البشوش ، كما صورها پولیکلینوس مثال آرجوس العظيم ، فى طرفته الهائلة من الذهب والعاج ، التى ربما تكون قد ألهمت ، الى حد ما ، الفنان الذى صنع تلك العملة .

وكان أعظم تماثيل آتينا ، ربة الحرب والحكمة البتول ؛ وعذراء مدينة أثينا ، طرفة فدياس التى صنعها من الذهب والعاج ، والتى سماها : أثينا پارتينوس ، أى تمثال أثينا لمعبد الپارثينون ، ولم تصلنا أى نسخة كاملة أو ذات قيمة لهذا التمثال ، اللهم الا نموذجان محتلفان يظهراننا على شكله الكلى ؛ غير أنه قد عثر على أثرين (ص ٧١٠) يعطياننا صورة مناسبة للمحيا والرأس ، وأحدهما رأس من المرمر بالحجم الطبيعى وجد فى أثينا . يصور لنا رغبة المثال فى معالجة الرخام ليضفى عليه رونق اللحم العاجى ، وبهاء الشعر الذهبى .. ولا غرو قد نجح هذا الفنان فى معاونتنا على استشفاف ما يجيش به التمثال الأصلى من حياة ، ويمكن أن يقال مثل ذلك عن الأثر الثانى ، وهو ذلك الوسام الكبير الذى عثر عليه فى مقبرة فى جنوب روسيا ، وأودع فى دير سنت پيترزبرج ، ويعرض لنا هذا الوسام خوذة الپارثينون الفدياسى العجيبة الحافلة بالصور ، فوق ذلك المحيا ذى الجد الصارم والقوة المنطامنة . وقد كان مثال الرأس الرخامية وحفار الوسام فنانين أتيكيين أصليين ؛ ألهمهما طرفة فيدياس المثالية .

ولعل أحسن صورة وصلتنا عن عبقرية أبو للو ، الاله الزكن ، والموسيقار الالهى ، ورب الطهارة الحدث ، كما كانوا يتصورونه فى أسمى أخيلة الشعر والفن اليونانية هى رأس شاتسورث البرونزية ، وتلك اللوحة المنتزعة من الپارثينون ، حيث يرى وهو يتحدث الى پوسيدون الاله الأكبر (١) منه سنا

أما تمثال پراكسيتيليس الكندى (نسبة الى جزيرة كندية) ، وهو ذلك التمثال المثالى لأفروديت (أنظر ص ٦٣١) ، الذى يأتى فى المرتبة بعد تمثال زيوس سيد الأولمب أشهر تماثيل العالم القديم ، فلا نعرفه الا عن طريق النماذج التى صنعت له ، غير أنه توجد قطعتان ربما أظهرتانا على ما كان فى وسع المثال اليونانى الدينى أن يبدعه فى تناوله هذا النوع من التماثيل .. واحدى هاتين القطعتين هى رأس الربة المحفوظ فى متحف اللوفر ، وهى من المدرسة الفيدياسية وتشبه الطراز الپارثينونى تمام الشبه . أما الأخرى فهى رأس أفروديت ، وهو من ضمن مجموعة پتورث Petworth ، التى استعارها المتحف البريطانى ذات مرة ، وهى احدى روائع المثالة الأتيكية التى يحتمل أن تكون من صنع أبناء المثال پراكسيتيليس . ولكل من الطرفتين مزيتها الروحية العالية ، وان كانتا من طرازين مختلفين ؛ فهما تصوران خصيصة ربة الحب ، وعاطفة الحب بوصفها قوة الهية .



عذارى البحر المقدسة

كانت عذارى النيريد الخمسون مثالا للآلهة الدنيا الكثيرة التى يعترف بها اليونانيون ، وكانوا يتصوروهن على أنهن عرائس البحر المتوسط الفاتنات ، ويتحقق ذلك التصور الشاعرى فى هذين التمثالين من تماثيل اجزانتوس اللذين يصوران لنا العذارى بثيابهن الهفهافة رمزا للموج

(١) پوسيدون هو عم أبو للو فى الميثولوجيا اليونانية (المترجم) .



رقصة الوجد الديني

كانت عبادة ديونيسوس تبعث ثورة عصبية في تابعاته العبورات (المساديات Maenads) وقد صورت احداهن في هذه اللوحة وهي تدور على نفسها في رقصة عنيفة وقد أمسكت باحدى يديها شلوا من حيوان حي

ويجب أن نعد التمثال المدعو (ديميتير ربة كنيديه Demeter-of-Cnidus) والمحفوظ بالمتحف البريطاني بين روائع التماثيل الدينية في العالم ، وهو تمثال يظهرنا على أسلوب المدرسة الأتيكية في القرن الرابع ، ولا ضير من اعادة ما كتبه كاتبنا المعاصر في مصدر آخر بصدد هذا التمثال قال : « ان أستاذية الفنان لتتجلى في رأس هذا التمثال ، وان خصيصة ديميتير وقصتها لتتجليان بقدره عجيبة على التخيل في الوجه حيث يبدو للمرء ، حينما يطالع ذلك المحيا الذي يفيض بالرشاقة ويغمر القلوب بالدفء ، أنه يفيض على ومصة من لألاء حقل من الحنطة تنطلق عنه تلك الأسارير البشرية ، الا أن ملامحه تحمل طابع تجاربها في الحياة ، ومثل ظل أحزانها الذي يحلل تلك الملامح مثل السحابة

التي تحللها أشعة الشمس . واذا كان لنا أن نسميها (المادرا دولوروزا - The Madre Dolorosa) فلن نكون قد قررنا أكثر من نصف الواقع .. وهي أيضا رمز خصوبة الأرض وجمالها .

ولا يقل عن مستوى ذلك الفن الروحي ما وصل اليه فنان العملة المجهول الذي صنع رأس « كوره » ابنة ديمتير بوصفها ربة الربيع البتول ، على وسام سرقوسي من القرن الخامس (ص ٧١٤) وهو قطعة فذة من فن السكوكات يمتزج فيه حسن الربيع بلمسة من الحزن في طرفي الفم الذابلين .

وربما كان بحسبنا هذه الآثار القليلة المختارة لبعض كبار الآلهة المألوفة لتوضيح أثر الفن الاغريقي في الديانة الاغريقية . ولما كان الفنان يتخذ موضوعاته من القصص الديني الشعبي فقد ارتفع بها وهذبها ونفخ فيها الروح الانساني مفسحا لها من غير شك في طول العمر .

وتظهرنا الوقائع التي صورت على هذا النطاق الواسع على الجانب الأسنى من الديانة



اله الطبيعة الخليع

كان ديوسيروس محور ديانة تبعث في النفوس شعورا الهيا .. ديانة غامضة على الخصوص ، وان انحطت بها بعض العناصر السحرية ، ويشعرنا هذا الرأس المهيب بطبيعته الروحية ، الذي ربما كان نسخة لأصل اغريقي اكتشف في بيت خلاوي روماني

اليونانية ، الجانب الذى نتبعه على الخصوص الآلهة الأولمبية بعقائدها المدنية والاجتماعية تلك الديانة التى تحفز الى المدنية وتساعد على نموها ، وان لم نقترن بتلك الصوفيه أو بما نسميه « الحياة الأخرى » .

وكيفما كان الأمر ، فليست هذه هى صورة الديانة اليونانية جميعا ، فثمة جانب آخر يسمى « البرزخية (Chthonian) » متصل بعبادة آلهة الظلمة والخوف منها ، وهى تلك الآلهة التى تكمن فى العالم التابى تحت الأرض ، مع الايرينيس Erinyes (ربات العذاب) اللائى يلبين دعاء المظلومين ، ولا سيما دعاء الذين قتلوا ظلما ، ومع عالم من الأشباح ، وربما من الأرواح المنتقمة التى قد تنشر الخبث أو الريح اللافحة المبيدة بين الأحياء ، وتحدث تلك التخلجات وألوان الفزع التى هى مصدر الجنون . ومن الواجب توفى هذه بطقوس زاربة - Apotropaeic مقبضة ؛ ويجدر بنا أن نلم بهذا العنصر البرزخى فى جملته ، وان لم يجدر بنا أن نبالغ فى تصويره .

ويظهر أن اليونانيين فيما بعد التاريخ كانوا أملا بالخوف من تلك الأشباح من يونانيى العهد الهومرى ، وقد كان لهذا الخوف قيمته الاجتماعية لما كان له من النفع فى تزكية الحياة الانسانية ، وماكان له من الأثر فى تطور القانون الخاص بجرائم القتل فى مختلف الدول ؛ ونحن نجد مثل هذه العناصر فى جميع ديانات العالم . على أننا اذا وازنا بين اليونانى قبل حقبه انحطاطه بغيره من الشعوب الأخرى التى كانت تدين بدين من أديان الشرك الراقية ، كالهنود وأهل الجزيرة والمصريين ، فسنجد أن هواه وشعوره العادى نحو هذه الأمور هو بالقياس اليهم شعور متزن صحيح . وقد أنتجت المخاوف من عالم الأشباح ، وهذا الجو الذى تتخلله قوى الشر ، لدى شعوب معينة ، ولا سيما فى أرض الجزيرة وفارس شريعة تطهيرية ، أو نظاما طقسيا من نظم التطهر لطرد أشباح الدنس التى تنوء بها حياة الأفراد والتى تحول دون رقيهم ، الا أن نظامهم الطهرى كان خفيف الوطأة على اليونانيين ، ولم يكن عائقا لتمدينهم . ثم ان الاعتقاد بالأرواح أو الأشباح الشريرة اذا خامر النفس مخامرة مفرطة ، يمكن أن يتحول الى مباحث فى الجن صعبة الاحتمال مؤذية للروح الانسانية . الا أن المباحث اليونانية التى من هذا النوع لم تكن يوما مسئلة ذات خطر ، ولم نستطع أن نخرج لنا شيئا من قوى الشر المثيرة للعواطف كالشيطان أو أهرمان أو جهنم التى لا تبقى ولا تذر مثلا ، بل لم تكن الفلسفة اليونانية العليا ، أو النظر العقلى الدينى يعنى بمسئلة الشر الى درجة التعمق .

وكان فى ديانتهم ما يساعدهم على ذلك ؛ فان أحط تخيلات العقلية العامة التى تتجه نحو مباحث الجان هى مباحث مرتبطة بالعالم السفلى . وكانت الأم الأرضية (ربة الأرض) جى Ge ، أو جايا Gaia هى بخاصة التى تسيطر على هذا العالم دون أن يشركها فى ذلك أحد من الآلهة الذكور فيما يذهب اليه خيال اليونانيين الدينى ، وكانت مملكتها المعين الحيوى للخصب والنضاره ، وان ظن أنها تنطوى على أرواح عفريتية مفزعة ، ولما كانت العقلية اليونانية تهتم نوعا ما بهذه الناحية من ذلك العالم فقد استطاعت تهذيب ذات ربة الأرض هذه ، حتى لم تعد تعبد الا على أنها منتجة جميع الثمار والزهر وعائلة الأطفال الرؤوم ؛ وكان أعظم ما تم من عملية اضفاء الصبغة البشرية هذه على الأرباب اليونانية هو ذلك الجزء الذى أدى الى انبعاث طائفة من الربات الأخر ، مثل ديميتر Demeter وكوره ، من ربة الأرض جى ، أولئك اللائى كن فى الوقت نفسه حارسات عالم الأرواح ، بناء على نشأتهن الأرضية .

وتتصل العقائد المتعلقة بالعالم السفلى ، وبمصير الروح بعد الموت فى صميمها بمسئلة الغيبيات اليونانية وبانتشارعبادة ديونيزوس، والبصر بهذا مما لا غناء عنه لدارس الديانة اليونانية منذ القرن السابع فما بعده . وكانت الطقوس السرية اليونانية التى كان يمكن تنظيمها بواسطة أسرة بعينها أو قبيلة أو بواسطة الدولة تختلف من العبادة العامة فى سريتها خاصة ، وذلك أنه لم يكن يسمح بممارستها الا للأعضاء أو المرشحين لعضوية الطريقة السرية ، وكان الترشيح لها يشمل تطهيرا خاصا ، وأحيانا كان يتطلب اختبارات بعينها ، ونستطيع أن ندرك سبب ذلك عندما

نلاحظ أن كل العبادات السرية فى بلاد اليونان كانت ملحقة بالآلهـة السفلية التى كان الأعضاء يرغبون فى مخالطتهم مخالطة خاصة ؛ كذلك كان تمام كماله رؤية بعض الأشـياء المبـاركة أو الأمـور المقدسـة التى كان منظرها يجعل العضو فى حالة وثام مع هـذه القوى ، أو فى حالة اتصال روحى بها . ولذا كان ثمة خطر مزدوج ، فلقد كان الجو داخل النطاق المقدس جوا سـفليا . ولهـذا كان جوا مخوفا ممتلئا بالأشباح . وكان مثل هذا الاتصال الوثيق بمثل هذه الأرواح خطيرا فى ذاته ، وكان المبتدئون فى تلقى مبـادىء هـذه الطقوس بحـاجة الى ما يقيهم من التـأثيرات التى قد تلفح الدخيل الطارىء أو الذى لم يأخذ لهذا الأمر أهبته .

وكانت طقوس اليوزيس Eleusis السرية أعظم الطقوس اليونانية اعتبارا ، وربما كانت فى أول نشـأتها مجرد طقوس ريفيـة ، ثم اكتسبت تلك القيمـة الأخـروية التى تمنح معتنقيها السـعادة بعـد الموت ، وذلك قبل سـنة ٦٠٠ ق.م ، وهو الزمن الذى يبدو أن الدعوة لهذه الطقوس راجت فيه فى أرجاء العالم اليونانى كله . وكان تأثيرها فى تصورات العالم الدينية عظيما جـدا ، وظل قويا حتى أواخر عهـد الوثنية . ولم يكن سر هـذا التأثير سرا مقدسا كما كان يظن ، وان كان شىء من ألوان السر المقدس البسيط من بين أولياته الظاهرية . بل كان افشـاء أشياء معينة ذات قداسة تهز النفس، وكذلك مشهد التمثيلية الرائعة المؤثرة ، أو الرواية العاطفية التى تتضمن قصـة كورة ابنـة ربة الأرض البتول ، وحـزن ديميتـير والبحث عنها ، والمصالحة ، أو هذا الزواج المقدس ولعله الميلاد المقدس ، وكان يحس كل من لهم حق مشاهدة تلك الأشياء كأنهم اتصلوا بقوى عالم الأشباح المهيب اتصالا شخصيا ، ولذلك فلهم أن يرتقبوا الخير والحظوة العاجلين عندما تدخل أرواحهم العالم السفلى ، وليس من دليل على قيام أية دعوة دينية ، أو أخلاقية أسمى من ذلك فى اليوزيس ، الا أن من المحتمل أن يكون تأثير هذه الطقوس السرية على الحياة الأخلاقية قد كان تأثيرا طيبا .

وكانت الطقوس الاليوزية السرية ــ فيمـا وصل اليه علمنا ــ طقوسا نشأت نشأة يونانية خالصة ، بينما كانت الطقوس الاورفيه السرية أجنبية النشأة ، وهى تلك الطقوس التى كانت لها نفس الأهمية ، وان تكن قد كانت تابعـة دائما للديانة الخاصة ، أكثر من تبعيتها للدين العام.وكانت هذه الطقوس مرتبطة بديونيزوس اله ترافيا الوحشى العربيد الذى كان يشـق طريقه الى اليونان بالفعل فى هذه الآونة فى القرن العـاشر ق.م . وكانت عبادته بطبيعتها السحرية ، وبما فيها من وجد صادر عن انكار الذات ، وبما تعرضه من المشاركة الالهيـة ، تباين ديانة اليونان المدنية المعتدلة تباينا غريبا . الا أنه لم يكد يبدأ القرن السابع حتى استوعبتها هذه الديانة الأخيرة بعد أن نظمت وهـذبت بعض التهذيب ؛ وقد أورثت أوربا ، جانب هذه الديانة المدنى ، فن المأساة المسرحية التى لا تقدر بثمن ، الا أن أغلبية المتزمتين الاورفيين الـذين كانوا يعدون أورفيوس رسولهم ، ــ وهو بالفعل من منشئى المـذاهب الدينيـة ــ والذين كانوا يحظون بمركز قوى فى اليونان فى القـرن السادس وكان لهم أثر كبير حتى أواخر أيام الوثنية ، قد أيدوا تعاليم هذه الديانة السرية الحماسـية التى لعلها غاضـت فى جـو الـ Polis ــ أو المدينـة الاغريقيـة ، ونشروها . وكانت الديانة وعلم اللاهوت اللذان يبشرون بهمـا يحتويان على كثير من الأفكار البديعـة المليئة بالمعانى ، التى ربما يكونون قد وجدوا جرثومتها فى مذهب ديونيزيوس التراقيوى القـديم . فمن ذلك ، موت الاله ونشـوره ، والمنشأ الالهى للروح الانسانية ، وتقلبها فى سـلسلة من أطوار التناسخ فى هـذا العـالم والعـالم الثـانى ، والايمان بالسعادة الأبدية والعذاب الأبدى المرتبط بفكرة التطهير ، وقدرة النفس الانسـانية على الاتحاد التـام بالله عن سـبيل التطهير ، والتزام الفرائض المقـدسة . لقد كانت تحصر همها كله فى « الحياة الآخرة » ، كما كانت أولى الديانات القـائمة على الدعوة التى عرفتها أوربا ، وذلك لان انتشارها لم يكن يقف عند حـدود المدينة أو الطائفة أو الأسرة أو الجنس .

وتتميز أحقاب الوثنية القديمة من أحقابها الحديثة بفترة انحلال الديانة القديمة المدنية والسياسية الواقعة بينهما ، وبنماء هذه

نحو الديانة الخاصة

الجمعيات الدينية الخاصة المدعوة « ثياسوى Thiasoi » التي كان في وسع أفراد مخصوصين أن يطلبوا الانضواء اليها بمحض اختيارهم ، والتي كانت تؤاخي بين أعضائها عن طريق المؤاكلة ، وبتعهدهم بالولاء لاله بعينه ممن يقع عليه اختيارهم فيظلون متصلين به اتصالا ممتازا ، فاذا كان هذا الاله أحد آلهة العالم السفلي ضمن لهم مركزهم منه السعادة بعد الموت — وذلك أن اليوناني في العصور المتأخرة كان قد أخذ اهتمامه يزداد بخلاص روحه ، واتفق أن كانت جميع الطقوس السرية المألوفة تعنى بذلك . ثم هو ، حينما شاعت عبارة أسكلبيوس في عهدها الأخير ، كان قد أخذ يألف فكرة الاله الناسوتي الذي احتمل الآلام ومجد بعد موته . وانا لنرى في هذه الظواهر ارهاصات الدين الجديد الذي كتب له أن ينتصر وشيكا على ما عداه .



عابدات ثياسوى مجتمعات حول صورة الكهن

كان ديونيزيوس يكرم في أحد أوصاعه على أنه رب النبات ، فكانت تعقد الاحتفالات باسمه أمام شجرة مقلمة علق عليها نقاب وأقمشة تصور الاله الجليل ونرى في هذا النقش الاتيكي رسم الطقس الذي كانت تقوم به الميناديات أمام الصورة المرسومة على هذا النحو ، وفيها اثنتان من عابدات الاله منهكتان في رقصة جنونية ، وثالثة تدق بالدف بينما تغترف رابعة الخمر ، التي لا بد منها في ديانة ديونيزوس ، من اناء فوق المذبح

الفصل الخامس والأربعون

الامبراطوريتان الاسبرطية والأثينية

وكيف تطورتا من دولتين من دول المدن الى دولتين واسعتين من الدول السياسية الرئيسية ، وأسباب سقوطهما

بقلم و . ر . هاليداى W. R. Halliday

عميد كلية الملك بلندن : وأستاذ التاريخ القديم فى رانبون ـ بجامعة ليفربول سابقا ومؤلف كتاب « نمو دول المدن » الخ ·

موضوع هذا « البحث » هو من بعض الوجوه تاريخ اخفاق الاغريق فى التوفيق بين مثلهم السياسية ، وبين ما يتطلبه اتحاد سياسى يفتقر فى تطبيق تلك المثل الى أكثر مما تتطلبه دولة من دولات المدن · ولقد نجح الاشوريون والفرس فى تكوين امبرطورين منتظمين فسيحتى الأرجاء ، كانت تدير دفة الأمور فى كل منهما سلطة واحدة ، تتركز فى فرد واحد حاكم بأمره ، أما هذه الأداة المحكمة والمركزة تركيزا عاليا ، فقد يسرت الاحتفاظ بما كسبه التفوق العسكرى والهيمنة عليه ، وحكمه بكفاية كبيرة ، كما كان الحاكم بأمره لشعب من الغزاة قادرا على فرض ارادته على مجموعة متباينة من الأمم الأجنبية · ولكن الاغريق ، كما بينا فى الفصل السادس والثلاثين باشروا ، من نقطة ابتداء مختلفة مشكلة تكوين دولة على نطاق كبير يكفى لأن يبدو أثره فى السياسة الدولية ·

ولست أقصد أن ألقى فى روع القارىء أن الاغريق أنفسهم كانوا يتصورون المشكلة عن وعى ، لأنهم لم يتصوروها على هذا النحو ؛ الا أن المؤرخ ، وهو يستعرض تطور الحضارة الأوربية ، من نقطة صالحة على مدى عدة قرون بينه وبينها ليستطيع أن يرى أن هذه ، فى الواقع ، كانت هى المشكلة التى فرضتها عليهم الظروف فى القرن الخامس قبل الميلاد · فلو قد أرادت الحضارة اليونانية أن تحتفظ بكيانها لاحتاجت أن تجدمن بين النظم السياسية نظاما أضخم كثيرا ، وأبعد أثرا من الوجهة المادية من نظام دول المدن الصغير المتواضع ، وذلك أن هذه الحرب الفارسية قد برهنت نتيجتها على صلاحية المثل السياسية لدولة المدينة ، ولكنها أثبتت فى الوقت نفسه أن هذا الأسلوب من أساليب الحكم لا يصلح للتعبير عن هذه المثل تعبيرا عمليا باقيا على الزمان ·

وقد اقتضى دفع الغزو فعلا أن تؤلف المدن فيما بينها حلفا سياسيا مؤقتا،كما أن الاحتفاظ بالحرية التى نالها اليونانيون بفضل هذا الحلف قد اقتضت فيما اقتضته تكوين رابطة أوثق عرى ، هى هذه الامبراطورية الأثينية · ولقد أخفق الاغريق حقا لأنهم لم يقدروا هذه النظرة الواسعة الى المشكلة ، والحق أن الذى حافظ على الحضارة اليونانية بوصفها القوة الدائمة المهيمنة على تطور الحضارة الأوربية ، هو الأسكندر وخلفاؤه أول الأمر ، ثم الرومان من بعد ، وذلك لأن المقدونيين والرومان تشبعوا بالثقافة اليونانية ، ونجحوا من حيث أخفق اليونان فى تحقيقها فى الوحدات السياسية التى نظموها على نطاق واسع له آثاره من الوجهة العملية ·

ولقد ذكرنا أن الاغريق باشروا المشكلة من نقطة ابتداء تختلف من النقطة التى ابتدأت منها الممالك الشرقية · حيث تجد ملوكا أقوياء ذوى أطماع لهم السلطان الأعلى بين شعوبهم ، وكانوا يتشوفون الى الأبهة واهتبال المغانم

بتوسيع نفوذهم عن طريق الفتح . وكانت المشكلات الأساسية لدى الأمبراطوريات الشرقية تتصل بالفتح وحكم الشعوب الأجنبية . أما هنا ، أى فى العالم

الامبراطوريات الشرقية والاغريقية

اليونانى ، فقد كانت العمليات الحربية دائما فى نطاق ضيق ، وكانت تقوم بها تشكيلات مستقلة غير كبيرة العدد ، وهذا صحيح حتى فى حقبة الهجرات ، لأن الغزوات التى اجتاحت شبه جزيرة البلقان كانت فى جوهرها غزوات قبلية .

وعندما انتشرت الحركة وراء البحار ، كان قوامها فصائل من أفراد من المغامرين يقومون بغزوات محلية ، فلم تذهب مطامعهم ، ولا كان فى مقدورهم أن يتعدوا هذا الحد ؛ صحيح أن العالم اليونانى كان قد انتهى فى هذا الوقت الى انشاء حضارة فريدة متميزة ، الا أنها كانت حضارة موزعة بين عدد صغير من الوحدات السياسية التى كانت تعض بالنواجذ على استقلالها بعضها عن بعض ، وان كانت تتوزع أسباب هذه الحضارة بنصيب سواء .

وبناء على ذلك ، لم يكن أحد يسيطر على هذا الانتشار الجديد للشعب اليونانى الذى سببه اكتظاظ المدن اليونانية بالسكان ، وهو ذلك الانتشار المعروف بالحركة الاستعمارية فى القرنين الثامن والسابع ؛ بل لم يكن أحد يوجه هذا الانتشار من مركز سياسى واحد ، فكان لا يزال أقل من أن يكون صادرا عن طمع قومى فى وراثة الأرض ، أو عن رغبة فرد فى مجد أو سلطان أو « Pleonexia » أو ما يعرف « بأخذ ما هو أكثر مما يحق لك أن تأخذ » ، الأمر الذى كان نقاد الطغاة الشرقيين من الكتاب اليونانيين يعدونه هدف الجشع الاستعمارى ، وبالاحرى لقد كان عددا من الحركات

تشاكل العالم اليونانى

المنفصلة صادرة عن عدد من الدول المستقلة سياسيا ، جرت بها فى وقت واحد الظروف المشتركة بينهم جميعا .

ثم ان السبب الذى اضطر الاغريق آخر الأمر ، شاؤا أو لم يشاؤا ، أن يبحثوا لهم عن نظام سياسى أوسع من نظام دولة المدينة هو ، كما قدمنا ، المحافظة على مركز الحضارة اليونانية فى عالم من الصراع الدولى . وستكون مشكلات الاستعمار اليونانى ، لهذا السبب ، مختلفة من مشكلات الامبراطوريات الشرقية فى ذلك أيضا ، ستنحصر صعوبات اليونانيين الحقيقية فى اخضاع اليونانيين لليونانيين ، لا فى علاقة الحكومة بالأجانب ؛ وقد كان العامل الأول فى الحركة الاستعمارية فى القرنين الثامن والسابع ، بخاصة ، هو اكتظاظ دول مدن اليونان الأصلية بالسكان ، بينما كانت العوامل المساعدة هى هذا القلق الاجتماعى والسياسى الذى كان سائدا فى ذلك العصر ، وقد ولد انتشار التجارة البحرية ، والتوسع الاستعمارى حافزا متبادلا بينهما بطبيعة الحال، ومن الميسور التمييز بين حالتين من الاستعمار اليونانى أحداهما أصيلة ، والأخرى ثانوية ؛ ففى المراحل القديمة كان الحافز الأساسى هو هذا الافتقار الى الأراضى الصالحة للزراعة ، ولهذا كانوا يختارون المواقع تبعا لما يحتمل أن تغله من الزراعات بخاصة ؛ أما فى المراحل التالية فقد كانوا يفضلون المواقع ذات القمة التجارية . وكانت الدول المستعمرة تستبق الى اقامة المستعمرات على الطرق الرئيسية للتجارة اليونانية .

الا أن صبغة المستعمرة اليونانية ظلت هى نفس الصبغة طوال حقبة هذا الاستعمار . وكانت تختلف من مستعمرات عهد الهجرة لأن المستعمرين كانوا يؤلفون هيئة كانت الدولة الأصلية تنظمها تنظيما دقيقا وترسلها لتنشىء مدينة جديدة فى موقع محدود مختار . وكانت تختلف ، بالطبع ، اختلافا كبيرا من المستعمرة الرومانية ، أو ال Colonia التى قد لا نعدو الصواب اذا شبهناها بحامية وراثية من المدنيين الرومان موضوعة فى نقطة ذات أهمية استراتيجية عظيمة فى خطوط المواصلات الرئيسية . وكانت المستعمرة اليبركلية ، أو أل « Cleruchy » أقرب المستعمرات شبها بالمستعمرة الرومانية وسنتناولها بالكلام فيما بعد ، فيما له صلة بالاستعمار الأثينى ؛ ونعود فنقول ان المستعمرة اليونانية لم تكن كهذه المستعمرات البريطانية التى رفع فيها المستكشفون أعلام بلادهم بوصفها أرضا

جديدة تبعث التاج بطريق الولاء ودانت بالطاعة لحكام أرسلتهم المملكة الأصلية ، وذلك أن أن المستعمرة اليونانية العادية كانت مستقلة استقلالا تاما عن الدولة الأصلية ·

انشاء مستعمرة يونانية

وكان ما جرى به العرف دائما ، عند انشاء مستعمرة يونانية ، هو أن يذهبوا الى دلفى ليستخيروا الاله فيما ينبغى أن يباشروه من ذلك ، وقد كان لاجازة أبوللو من الوجهة العملية قيمة محدودة حقيقة ما فى ذلك شك ، فقد كان هيكل النبوءات فى دلفى قبلة الحج الرئيسية فى العالم اليونانى · وكان الحكام الأجانب ، كملوك ليديا ومصر ، يجدون أن تنمية أواصر الصداقة مع دلفى هو أحسن الوسائل لاستيفاء الصلات السياسية بالعالم اليونانى ؛ ولما كانت معلومات هؤلاء الكهنة الجغرافية والسياسية عن بلاد البحر المتوسط تزداد بازدياد ما ينشأ من المستعمرات فى رعاية أبوللو ، أو بالأحرى فى رعاية كهنته · وقد ترتب على هذا أن كانت دلفى بحق المكان الذى يجد فيه من شاء من المستعمرين أحسن المعلومات ، كما وكيفا ، فى أى وقت شاء ، وكانت الدولة الأصلية تعين حينئذ قائدا ، أو (Oecist) للبعثة الاستعمارية ، كى ينظم أحوال المجتمع الجديد ، فكان يأخذ معه قبسا من الموقد العام فى المدينة الأصلية ليشعل منه موقد المستعمرة · وكانت تنشأ مدينة يونانية فى الموقع المختار ، يخططونها عادة على أرض مربعة تشقها شوارع متقاطعة قائمة الزوايا ، ثم تقسم الأرض الصالحة للزراعة بين المستعمرين بعد استبعاد أجزاء منها لتحبس على الآلهة · وتظل المستعمرة مرتبطة بالمدينة الأصلية برباط روحى قوى ، كان من المألوف أن يترجموا عنه بارسال مندوبين يصحبون قرابين معلومة ، واضحيات عامة للاسهام فى أعياد عامة بعينها من أعياد دولة المدينة الأصلية واضحياتها ·

وكان أمرا عاديا ، اذا أنشأت مستعمرة ناجحة أخرى بدورها ، أن تطلب من الدولة الأصلية ارسال ال Oecist ، أو قائد المستعمرة الجديدة · وعندئذ كان من المحقق أن تقوم الروابط الوثيقة بين الدول التى كانت ترتبط بعلاقة الأم والابنة ، وهى تلك الروابط التى ربما بررت المعونة المتبادلة ضد الدخلاء اذا اقتضى الأمر · الا أن هذه الروابط كانت عادة روابط عاطفية فحسب ، فلم تكن الدولة الأصلية تدعى أن لها سلطة الاملاء على مستعمراتها ، أو الهيمنة عليها ، فكانت المستعمرة وحدة سياسية مستقلة ، لها مطلق الحرية فى حكم نفسها ، وادارة أعمالها ، ولا ترتبط بالدولة الأصلية ·

استثناء كورنثة

ويبدو أن كورنثة وبعض مستعمراتها كانت المثال البارز الذى شذ عن هذه القاعدة · فالظاهر أن الطاغيين الكورنثيين كپسيلوس Cypselus وپرياندر Periander حاولا أن يستحدثا نظاما لا يختلف عما ندعوه الامبراطورية الاستعمارية ، وذلك بانشاء طائفة من المستعمرات على طول الطريق التجارى الغربى من اليونان الى ايطاليا ، وتنصيب أعضاء من البيت المالك لحكمها ، ولم تستمر هذه السياسة طويلا بعد عهد الطغاة ، بل لم تسفر عن نجاح ما ، ولم تسفر محاولة برياندر فى حكم كوركيرا حكما مباشرا الا عن توتر العلاقات بين هذه المستعمرة الهامة وبين كورنثة · وعلى هذا لم تكن كوركيرا من ثمة فصاعدا مستقلة فحسب ، بل كانت عدوة لدودا لدولتها الأصلية ، وهكذا أصبح لها المركز الملحوظ بين المستعمرات اليونانية · وكيفما كان الأمر فقد دأبت كورنثة فى بعض الحالات على أن يكون لها ، الى حد ما ، بعض الهيمنة السياسية على مستعمراتها التى كانت ، كما كانت كوركيرا ذات مركزا ملحوظ فى العالم اليونانى ، فنجد من أمثلة ذلك أن كورنثة كانت ترسل سنويا حاكمين مدنيين الى پوتيدايا Potidaea التى كانت سنة ٤٣٢ ق . م فى هذا المركز المبهم الذى كان يجعلها فى وقت واحد مستعمرة لكورنثة وعضوا فى الأمبراطورية الأثينية ·

على أننا ينبغى ألا نعول كثيرا على هذه الاستثناءات ، فلقد جرت عادة المستعمرة اليونانية بأن تقر للدولة الأصلية بروابط روحية ، جد حقيقية ، على أن تكون لها فى الوقت نفسه حريتها التامة ، واستقلالها الذاتى

الكامل فلا تمتد اليها يد التدخل السياسى • وقد ضاعفت حركة الاستعمار لهذا السبب عدد الدول الاغريقية ، ونشرت الحضارة اليونانية فى دائرة شاسعة الا أنها لم تنشىء امبراطورية اغريقية ، ولا أدت الى دولة اغريقية أكبر من دولة المدينة •

وعلينا الآن أن نوجه اهتمامنا الى نظام من الحكم ليس بحال ما من النظم الامبراطورية ، ولكنه من نظم هذه الجامعات السياسية التى ترتبط فيما بينها برباط أخف من الروابط الامبراطورية ، والتى قدر لها أن تنهض بنصيب هام فى بلاد اليونان خلال القرن الخامس •

عصبة دول البليبونيز

فهذه أسبرطة الدورية ، التى أنشئت فى سهل لاكونيا الخصيب، قدأجبرتها الظروف على استحداث لون خاص من ألوان الحكم تفردت به • فقد أنزل الدوريون فى أسبرطة ، كما فعلوا فى أى مكان آخر ، بعض السكان الأصليين الى منزلة الأرقاء • وبينما كان الرقيق المشتغل بالزراعة فى آرجوس وكورنثة وسكيون وفى الدول الدورية الأخرى بشبه جزيرة البليبونيز يمارسون حقوقهم السياسية فى آخر الأمر ، وكانوا يمتزجون فى قبيلة ثانوية غير دورية ، ظل الرقيق فى أسبرطة ، أو أل « هيلوت » كما كانوا يسمون ، عبيدا للحكام الذين كانوا من حيث العدد دونهم قوة •

وقد عالجت أسبرطة بطريق الفتح ، هذا الضغط الاقتصادى الذى عالجته الدول الأخرى بالتوسع التجارى والاستعمارى •

وفى القرن الثامن عبر الأسبرطيون سلسلة جبال تايجيتوس Taygetus وفتحوا سهل مسينيا الغنى ، وأنزلوا الأهالى منزلة الأرقاء ، وأجبروهم على حراثة أنصبتهم من الأرض التى حصلوا عليها بهذه الطريقة ، ولم ينجح الأهالى فى تلك المحاولة اليائسة التى قاموا بها فى القرن السابع لخلع النير الأسبرطى • غير أن الجهود التى بذلتها أسبرطة بعد ذلك فى سبيل التوسع فى جهات أخرى قد كبحتها آرجوس شرقى البليبونيز ، وتيجيا فى أركاديا ، وهذه الخيبة التى منيت بها اسبرطة قد أدت بها فى النصف الأول من القرن السادس الى أن تعيد تنظيم المجتمع والدولة تنظيما رجعيا بعيد المدى ، مما يقضى به رد الفعل •

ومنذ ذلك الوقت ضحّت النظم الاسبرطية جميع الاعتبارات الأخرى ، من فنية وعقلية وتجارية ، فى سبيل غاية واحدة هى تكوين جيش كفء • وأصبح المواطنون الأصليون طبقة عسكرية صغيرة تحكم بالقوة رعية ناقمة مغلوبة على أمرها ، تفوق حاكميها عددا • ولم يكن لأسبرطة أسوار ما ، كالذى كان لغيرها من دول المدن ، فكانت تتكل على جيشها الذى كان يتوقف عليه وجودها المستديم كل التوقف ، وذلك بسبب ما كان يتهددها به على الدوام عدوها الداخلى ، وبسبب ما كانت تخشاه من أى من أعدائها فى الخارج •

وكان الولد الأسبرطى يؤخذ من موطنه فى سن مبكرة فينشأ فى جماعة أو « سرب » من الصبيان الآخرين ، وكانوا انما يتوخون فى تدريبه تنمية قوى الاحتمال الجسمانى والفضائل العسكرية ، وكان يتعلم أول ما يتعلم ، اطاعة الأوامر ، ثم يلقن بعض

خصائص الحياة الاسبرطية

مسئوليات القيادة فيما بعد • فاذا أصبح رجلا شغلت وقته أعمال الجندية ، على أن ينهض عنه بأعمال أراضيه الثابتة الأرقاء الذين كانت تكفل بهم الدولة لهذا الغرض ، والذين كان عليهم أن يخصصوا له من المحصول شطرا يقيم به أوده ، أما هو فكان يعيش مع زملائه فى ثكنة عسكرية وعلى هذا فقد كان المواطنون الأسبرطيون فى واقع الأمر جيشا من الجنود المحترفين ، محرما عليهم امتلاك النقود أو استعمالها ، ممنوعين بقدر المستطاع من مخالطة الأجانب الذين كانوا غير مرغوب فى زيارتهم أسبرطة وممنوعين من الاقامة فيها •

وكان لهذه التغييرات الرجعية أثرها المطلوب فى الحال • وكان الجيش الأسبرطى الوطنى ، الذى كان جيشا من المحترفين ، فى الوقت الذى كانت القوات المحاربة عند الدول الأخرى مجرد حرس أهلى من القوة بحيث حافظ على ما بيده من السيطرة على الرعايا المحكومين ، وكان كذلك أضخم قوة محاربة فى بلاد اليونان بحيث لم تكن دولة أخرى بمفردها تأمل أن توقع الهزيمة

بأسپرطة فى معركة يتعادل فيها الطرفان فى ميـدان مكشوف ۰ فكانت مكانة أسپرطة من السيادة فى العـالم اليونانى ترتكز الى تفوق جيشها غـير العادى، والى ما اشتهرت به من المنعة ۰

ولم تعد تفكر أسپرطة الجديدة فى توسيع رقعتها بالفتح أو بالحاق أراض جديدة ، فقد كان هـذا خليقا أن يبدد قوتها تبديدا خطيرا ، الا أنهـا لم تتخل عن أطماعها السـياسية لهذا السبب ۰ ففى آخر القرن السادس كان الطغاة فى شمال الپليپونيز موشكين على أن ينفرط عقدهم ، وكانت أسپرطة تمد يد المعونة الى المدن كى تتحرر من الطغـاة ، حريصـة على أن تعهد بالحكم فى كل مدينة محررة فى كل من هذه الأحوال الى العناصر المحافظة التى قد تنسجم وأسپرطة المحافظة والتى قد لا تنسى آخر الأمر أنها كانت تعتمـد على المعونة الاسپرطية ضد خصومها المحليين ۰ وبهـذه الطريقة احتفظت أسپرطة بامرتهـا على أهم دول الپليپونيز ، باستثناء واحد فريد هو آرجوس التى ظلت مستقلة ، شديدة الغيرة لا تفتأ تناصبها العداء

فاذا كانت نهـاية القرن السادس فانا نجد عصبة الپليپونيز قد برزت الى الوجود ، ويعود الفضل فى نجاحها الى أن الروابط التى كانت تربط بين أعضائها لم تكن روابط وثيقة ، فقد كانت تسـتعمل فى الواقع على جميع دول



النظامان السياسيان المتنافسان اللذان شطرا البلاد اليونانية

كانت الشئون السياسية فى بلاد اليونان الأصلية بين الحرب الفارسـية وسقوط أثينـا على درجة كبيرة من التعقيد فلم نثبت هنا الا الأعضاء الدائمين لعصبة دول الپليپونيز ؛ حاذفين حلفاء أثينا ، كما يتضح من دول الحلف الديلوسى البحرية ۰ وعلى العموم فقد كان هوى جزائر كوركيرا وسيفالينا وزاكنثوس الغربية ، ودول لوكريس وأوزولبس وأكارنانيا وتساليا مع أثينا ۰ وكانت پلاتيا حليفا مخلصا لها طوال هذا العهد ۰ وكانت آرجوس تحالفها فترة ما ، وأجبرت بووطيه على الانخراط فى الحلف ۰

البلبونيز فيما عدا آرجوس ، ودول آخايا ، وكان من أعضائها كذلك فيما وراء برزخ كورنثة ، ميجارا وبووطيه ، وقد كانت أسبرطة تأمل فى وقت من الأوقات أن تضم أثينا الى العصبة الا أن هذه الخطة قد حبطت عام ٥٠٦ ق٠م من جراء موقف الصلابة الذى وقفته أثينا ، ومن جراء الخصومات السياسية الداخلية فى أسبرطة نفسها ، واحجام كورنثة عن مساعدة أسبرطة حتى لا تصبح أقوى مما ينبغى فى اليونان الوسطى ٠

ومن حيث السياسة ،كانت عصبة البلبونيز اتحادا فضفاضا يتمتع كل عضو من أعضائه ، باستقلاله الذاتى الكامل ، فيما يتعلق بأموره الداخلية ، أما فى الواقع فقد كان استقلالهم الذاتى محدودا الى حد أن أسبرطة كانت تحرص

طريقة العمل فى العصبة

من الوجهة العملية على أن تظل حكومات الأقليات بفضل ميلها الى أسبرطة ، فى مناصب الحكم فى مختلف الدول ٠ وربما ظهر الى ذلك ، أن أسبرطة كانت تستطيع التوسط لفض الخلافات بين أعضاء العصبة ، الا أن أهميتها فى محيط الشئون السياسية اليونانية كانت تتركز فى التكفل بأمر الأعمال الحربية المتعددة ، لأنه لم تكن ثمة قوة حربية برية فى بلاد اليونان ، قبل نهوض مقدونية ، كان يمكن بأى حال أن تقارن ، من حيث البأس بجيش عصبة البلبونيز ٠

واذا كانت الاجراءات التى أتبعت عند نشوب حرب البلبونيز اجراءات مألوفة ، وليس لدينا من سبب يدعونا الى الشك فى ذلك ، لكانت العصبة خليقة بأن تعمل متى بادر أحد أعضائها الى العمل ؛ أما اذا لم يكن العضو البادىء هو أسبرطة ، فيجب اقناع أسبرطة أولا ؛ فاذا وافق المجلس الأسبرطى على الحالة التى تبينت صحتها لقيام العصبة بعمل حربى ، ففى هذه الحالة كانت أسبرطة تدعو الى عقد مؤتمر من الأعضاء ، حيث تتولى أسبرطة ، وليس العضو الشاكى الأصلى ، عرض الحالة ، وكان لكل عضو صوت واحد ٠

واذا أقر المؤتمر وجوب القتال واعلان الحرب كان لأسبرطة السلطان المطلق فى ادارة العمليات الحربية ، وكانوا يخولونها أن تطلب فصائل من المقاتلة وميرة من جميع أعضاء العصبة ٠ على أن يكون أقصى ما تطلبه من الجند فى كل حالة هو ثلثا مجموع القوات المحاربة فى الدولة ٠

وكان ضباط أسبرطيون يتولون القيادة فى هذه القوات المتحالفة ، كما كانت القيادة العليا ، وادارة الحملة كلها فى أيدى أسبرطة ٠

وقد كان نظام العصبة السياسى ذو القيود الفضفاضة من أسباب دوامها ، وذلك لأن ما عرف عن الاغريق من تعشقهم لاستقلالهم السياسى لم يعتد عليه بنظام يحتفظ لأعضاء العصبة الشخصيين بحقوقهم المطلقة ٠ وكان سلطانها لا يساميه سلطان بوصفها أداة حربية كان لأسبرطة فى تحريكها درجة من الهينمة لم تكن للأعضاء الآخرين ، فقد شهدنا أن المؤتمر لا يمكن أن يدعى الى الانعقاد الا اذا وافقت أسبرطة على ذلك ؛ وكانت أسبرطة هى التى تتولى تحريكها ، فاذا استقر رأى العصبة على العمل كان لأسبرطة السلطان المطلق فى تنفيذ خطة العصبة من الناحية العسكرية ، وليس من العسير أن نفهم أن هذه الآلة العسكرية الضخمة قد جعلت لأسبرطة سلطانا منفردا بين دول اليونان ، وذلك قبل قيام غريمتها الامبراطورية الأثينية التى كانت تتألف من جماعة من الدول البحرية ٠

ولقد كان أول ما برزت أثينا الى الصف الأمامى من دول الاغريق فى عهد بيزستراتوس Pcisitratus ٠ وكانت السياسة الخارجية والاستعمارية لهذا الطاغية الداهية تنم عن الخطوط الرئيسية لسياسة أثينا الخارجية بعد الحرب الفارسية : فالصداقة الوثيقة مع آرجوس وتساليا فى اليونان ؛ وتشجيع مطامح أثيكا فى الخارج بوصفها بلاد الأيونيين

دخول أثينا فى معترك السياسة اليونانية

الأصلية ، وذلك لتأييد ما كانت تصبو اليه من السيطرة على السيكليد (الكيكلاديز) Cyclades الأثينية على الدردنيل ابتغاء الهيمنة على الطريق التجارى الذى كان يرد القمح الروسى بواسطته الى بلاد اليونان ، واستغلال موارد اقليم ستريمون Strymon الطبيعية ،كل هذا سنلمسه

مرة أخرى فى السياسة الأثينية الاستعمارية : بعد قرن من الزمان · ولكن طرد عمال بيزستراتوس ، والشغب الذى نجم فى ايونيا ، وما تحبه الفرس من أطرافها ، والغزوات المتلاحقة التى قام بها الفرس على اليونان ، كل ذلك عرقل استمرار أى تقدم مساير لخطوط هذه السياسة ·

وفى الوقت نفسه ، أى بين حملة مرتون ، وغزوة احزرسيس التى وقعت بعد ذلك بسنوات عشر ، ازداد الأسطول الأثينى الى ثلاثة أضعاف حجمه ، نتيجة لسياسة تمستكليز البعيدة المرامى ؛ ومع أن أحدا لم يكن ينازع أسبارطة فيما كانت تتمسك به من قيادة القوات الوطنية ، فقد برهنت معركة سلاميس على أهمية القوة البحرية ، وقد كان المقاتلة الأثينيون،لا الأسپرطيون،فى الأسطول نفسه أكبر عددا ، وأكثر كفاية · ولما كانت معركة بلاتايا Plataea التى حدثت فى سنة ٤٧٩ ق·م تكمل أثر سلاميس فى بلاد اليونان الأوربية ، فقد عبر الأسطول بحر ايجة اجابة لدعوة اليونانيين المقيمين فى جزائره · ولأن روح البحرية الفارسية كانت قد تحطمت فى سلاميس ، فقد رفض أسطولها خوض غمار المعركة ، وألقى مراسيه فى ذلة وانكسار ، ليكون فى ظل جيش برى عند شاطىء ميكالى Mycaleالا أن اليونانيين تعقبوه ، ثم نزلوا الى البر ، وظفروا بمعسكر الفرس ظفرا مبينا ·

وكان لا يزال أمام المنتصرين من الأعمال ما يجب أن يؤدوه ، وان انهزم الفرس · فقد قرروا الاتحاد مع دول الجزائر فى شاطىء آسيا الصغرى ليحرروا غيرهم من اليونانيين الأسيويين ، ولهذا أبحر أسطولهم بعد ميكالى الى الدردنيل حيث حاصر سستوس Sestus ولم يبد الأسپرطيون كبير ميل ولا تحمس فى متابعة هؤلاء المغامرين فى عرض البحار ، لأنهم كانوا يركزون قواهم الحربية ، وأطماعهم السياسية فى بلاد اليونان الأصلية وعلى هذا فقد عادت الفصائل الأسپرطية الى أوطانها ، أما الأثينيون فقد بقوا مع حلفائهم الأيونيويين ، بالرغم من قرب انتهاء الفصل الصالح للعمليات الحربية ، وظلوا يحاصرون الحصار حتى انتهوا به الى غايته الظافرة (أنظر الحبر الخامس) ·

وكانت هذه ، فى الواقع ، نقطة تحول نفسانية · فقد أرسلت أسبرطة ملكها فى السنة التالية لتولى قيادة قواتها الوطنية التى كانت لا تزال تعمل فى بحر مرمرة ، الا أن صلف پوزانياس الذى ثمل بنشوة انتصاره فى پلاتايا ، وسع شقة الخلاف بين أسپرطة ، وبين اليونانيين الأسيويين ، ثم انتهز أمراء البحر الأثينيون الأكبر حنكة فرصة هذا الصلف،فاستغلوه لصالحهم · ففى سنة ٤٧٧ ، أرسلت أسپرطة خلفا لپوزنياس ، فأبى الحلفاء الاقرار له بالسلطة ، وتكون اتحاد محدد بين الأثينيين واليونان الأسيويين ، لم تدع أسپرطة لتكون عضوا فيه ·

وكان الغرض من الحلف الديلوسى الذى كان يسمى هكذا نسبة الى هيكل أبوللو فى ديلوس Delos وهو مركز قديم جدا من مراكز العبادة عند الأيونيويين ، هو انجاز الحرب مع فارس ، وذلك بطرد القائد الفارسى من الاستحكامات التى كان لا يزال مستوليا عليها فى شواطىء بحر ايجة ، واعداد الضمان الممكن الوحيد لاستغلال الدول اليونانية

الحلف الديلوسى

السياسى الموجودة فى شطئان الأناضول وهو الضمان الذى كان يحمى ظهورهم بواسطة أسطول يونانى مسيطر على البحر ، غير مدافع فيه · وكان ثمة لتحقيق هذه الغاية ، مطلبان ضروريان ، هما السفن والمال ، وكان لا بد من اجراء بعض الترتيبات للحصول عليهما ·

وبعد ، فقد كانت نتيجة العصيان الأيونيوى غير الناجح ، الذى حدث قبل ذلك منذ عشرين عاما ، هى تدمير القوات البحرية للدول الأسيوية ، ولم يكن الكثير من هذه الدول فى مركز يساعدها على اعداد وحدات بحرية · ولا جرم أنه كان اجراء عادلا أن يساهم بالمال الأعضاء الذين انتفعوا بجهود الحلف ، ولم يكن فى مقدورهم أن يمدوه بالسفن : وعلى هذا كان ثمةمن أول الأمرطبقتان منالأعضاء ، أولئكالذين يشتركون بالوحدات البحرية ، وأولئك الذين يشتركون بالمال ، وبمضى الزمن كان من شأن

أعضاء الطبقة الأولى أن تنخرط في صفوف الطبقة الثانية ، حتى لم يبق الا طبقتان أو ثلاث ثابرت على امداد الحلف بالسفن .

ولقد وجدوا أنه أهون عليهم أن يدفعوا مبلغا من المال من أن يزودوا قوة بحرية بالعتاد والرجال. وقد كان الأسطول المتجانس بطبيعة الحال أداة أكفأ من حيث العمل من أسطول ملفق من عمائر صغيرة كثيرة ، أعدتها بلاد مختلفة. الا أن النتيجة السياسية لهذا العمل ، أى ترك أثينا تتولى اعداد أسطول تنفق عليه مما يدفعه الأعضاء الآخرون ، كانت اعطاء أثينا الهيمنة المطلقة على قوات الحلف المحاربة ، فهى ، وان كانت لم تتول غير الادارة فى أول الأمر ، لم تلبث أن تولت القيادة أخيرا ، وما كان نصيبا اختياريا تدفعه الدول لخزانة عامة لجماعة حرة ، انتهى الى اعتباره جزية تدفعها هذه الدول لأثينا . وقد كانت أثينا ، بفضل سيطرتها على الأسطول سيدة الموقف من جميع الوجوه ، وصار من الهين عليها أن تخفض من عدد الأعضاء المشاكسين الذين لم يكن أحد منهم ندا ، اذا وقف وحده ، لما كان لدى الأسطول الذى كان الحلف يموله من موارد .

وكانت أساطيل الحلف تستعمل فى أول الأمر فى وجهها الظاهر ، أى فى اجلاء الفرس عن شطئان بحر ايجة . ويمكن تبرير فتح سكيروس فى سنة ٤٧٣ ، وهى جزيرة كانت مأوى للقرصان ، ثم ارغام كارستس فى السنة نفسها على الانخراط فى سلك الحلف ، بأن ذلك كان يدخل فى الأغراض المشتركة لعصبة من الدول التجارية البحرية . ولكن حدث فى سنة ٤٦٩ ، عندما أرادت ناكسوس الخروج من الحلف ؛ أن حاربتها

أغراض الأسطول المشروعة

أثينا فى الحال ؛ وأخضعتها ؛ وأخذت سفنها منها ؛ وفرضت عليها الجزية ؛ كما ألزمتها بدفع غرامة حربية ، ووضعت فى الجزيرة خمسمائة من جنود الاحتلال الأثينيين ، أو من ال Cleruchs كما كانوا يسمون . وقد تعرضت تاسوس Thasos لمثل هذا المصير عندما حاولت أن تترك الحلف فى سنة ٤٦٥ .

وقد دلت هذه الأحداث الهامة على أن الحلف لم يعد هذه الجامعة التى تصدر عن مطلق ارادتها . وقد اتخذ اخفاق احدى الحملات على مصر سنة ٤٥٤ (أنظر صفحة ٥٥٥) ذريعة معقولة لنقل خزانة الحلف من ديلوس الى أثينا ، وذلك بحجة أن ديلوس لم تصبح فى مأمن من فارس ؛ ومن ثم ، فقد ظلت فى أثينا هذه الخزانة التى كانت تتولى ادارتها هيئة قوامها عشرة من الموظفين الأثينيين تدعى Hellenotamiae.

وكانت العملية التى تحول الحلف بواسطتها بالفعل ، الى امبراطورية ، عملية تدريجية ، ولم يكد يكون منها بد بحكم الظروف التى كانت تلم بها ؛ أما كيف تبدل الموقف فى الحقيقة تبدلا كليا فدل عليه لغة الرسائل الرسمية نفسها ، اذ توجد فى النقوش التابعة لأقدم أيام الحلف اشارات الى « أثينا وحلفائها » ؛ وفى الفترة السابقة لحرب البلوبونيز مباشرة نجد اشارات الى « المدن الخاضعة » أو ، بتعبير ألطف « المدن » والمعنى هنا مفهوم وان لم يصرحوا به .

الحلف يصير امبراطورية

لقد رأينا كيف هيأت لأثينا سيطرتها على الأسطول سلطانا لا مفر منه أعظم من سلطان أى عضو بارز فى حلف يسوى بين أعضائه ؛ كما ساعدت ظروف أخرى فى رفع شأن أثينا على حساب أولئك الذين كانوا حلفاءها فى أول الأمر ، فقد كان للحلف اتجاه تجارى منذ نشأته ، اذ كان يشمل معظم الدول التى كان لها شأنها فى تجارة البحر ، وكانت كورنثة من البلاد الهامة التى تستثنى من ذلك ، فقدكانت لها فى الغالب مصالحها الخاصة فى طريق التجارة الغربية الى ايطاليا ، أما من جهة ايجينا Aegina ، فقد استغلت أثينا الأسطول المنقطع النظير ، الذى أمدها به الحلف لطرد هذا العدو الجزائرى الخطر (فى سنة ٤٥٧) اذ كان منظر جزيرته العام يبدو من جهة البيرايوس Piraeus حاجزا يعلو فى الأفق .

وقد قام الحلف ، بوصفه رابطة تجارية عظمى ، بعمل مُجْدٍ فى سبيل القضاء على القرصنة ، وقد تمتع شرقى البحر المتوسط فى ظل الامبراطورية الأثينية باحدى دوراته

القصيرة فى التبادل التجارى الآمن . ولا بأس من العودة مرة أخرى للتحدث عن المظهر التجارى للحلف لتبرير القوة التى استعملت فى سبيل قهر الدول البحرية على الاتحاد ، وعلى هـذا الأساس ثم ضم كارستوس Carystus فى ايوبوا Euboea بالقوة . ويخبرنا ناقد الديموقراطية الاثينية فى القرن الخامس ، وهو الذى وصلتنا رسالته ضمن ما كتبه اجزنوفون Xenophon ، أن أثينا استعملت الضغط الاقتصادى مع كثير من الدول البحرية الصغيرة

وكان لتوحيد النقد مزاياه الواضحة بالنسبة الى حلف تجارى . وقد جعل النقود الأثينية مقبولة أكثر من غيرها من نقود أعضاء الحلف الآخرين ما كان معروفا من أن أثينا كانت تضرب عملتها المسماة (بومات = جمع بومة) Owls (أنظر الشكل فى الفصل الواحد والخمسين فقرة (الحاجة الى النقود المعدنية) من هذا الصنف الفائق من فضة لوريوم Laurium ، الأمر الذى جعلها جديرة حقا بقيمتها الاسمية كنقد معدنى ، وقد حرصت أثينا على استغلال هذه المزية من أول الأمر ، ولم تكن تشجع الدول على سك نقودها بنفسها .

مزايا النقود المشتركة

وفى منتصف القرن الخامس أصبحت من القوة بحيث أمكنها أن تخطو خطوة أبعد مدى ، فألغت العملة المحلية الأخرى . وانتهت الحال باعتماد الموازين والمقاييس الأثينية ، كما اعتمدت النقود الأثينية فى جميع أنحاء الامبراطورية .

أما مسئلة التشريع ، فقد كان ثمة ميل الى توحيده ، ذلك التوحيد الذى كان كله فى صالح أثينا ، فقد كانت سعيدة الحظ بامتلاكها شريعة صولون ، التى كانت تعتبر بحق أفضل القوانين المدنية فى بلاد اليونان . وأتخذ الاحتياط اللازم لتنظيم الوسائل لفض المنازعات التجارية ، فعقدت سلسلة من الاتفاقات فى أوقات مختلفة بين أثينا وأعضاء الحلف وكانت محتويات هذه الاتفاقات تختلف بحسب الظروف الخاصة لكل حالة ، وتاريخ عقد كل اتفاق . الا أنه ، منذ سنة ٤٦٦ ، تقرر فى الاتفاق مع كيوس Chios وهى واحدة من أقوى الدول التابعة للحلف وأكثرها استقلالا ، المبدأ الذى فحواه « أن جميع القضايا الناشئة عن عقود العمل التى أجريت فى أثينا يجب أن تفصل فيها المحاكم الأثينية » وبمضى الزمن ، اشتد الميل الى ضرورة احالة عدد متزايد من قضاياهم التجارية الى المحاكم الأثينية ؛ وفى بعض الأحوال لم تكن محاكم الحلفاء تستطيع الفصل الا فى القضايا التى يدور النزاع فيها حول مبالغ ضئيلة جدا . وقد وصل الأمر بأثينا أن احتكرت لنفسها ، بالفعل ، ممارسة القضاء المدنى ، وهو ماكان موضع حنق رعاياها العظيم .

ولم تكتف أثينا بذلك ، بل اعتمدت بمثل هذا ، فى دائرة القضاء الجنائى ، على الحقوق المطلقة للدول التابعة ، ففى سنة ٤٤٦ صدر حكم أثينى يسمح لأهالى خالقيس Chalcis أن يرفعوا فى محاكمهم دعاوى ناشئة عن مثل هذه الحوادث الاجرامية التى لا يترتب عليها أحكام بالنفى أو الاعدام أو الحرمان من الحقوق المدنية . فكل دعاوى «الدرجة الأولى» هذه يجب أن ترفع أمام المحاكم الأثينية وقد ترتب على هذا ، على حد ما ذكر الخطيب الأثينى أنتيفون Antiphon أنه لم يعد ممكنا أن يحكم على أحد بالموت فى احدى الدول التابعة بدون موافقة أثينا .

وفى الوقت الذى كان الاسبرطيون يؤيدون فيه حكومات أقليات منسجمة مع نظام حكومتهم فى الدول التى كانت أعضاء فى عصبة البلوبونيز ، كانت أثينا تعاضد الاحزاب الديمقراطية فى الدول الخاضعة لها . وقد غذى هذا التأييد المفتعل للديمقراطيين المتربعين فى كراسى الحكم فى كثير من المجتمعات شعورا عظيما بالظلم ، بل لم تكن أثينا لتحجم ، لو تاحت لها الفرصة ، عن فرض الحكومة التى تريد .

فقد حدث أن قامت قلاقل سياسية ، سنة ٤٥٥ فى اريترای Erythrae ، فساعدت أثينا الديمقراطيين على اخراج الحكام من رجال

الأقليات ، ووضعت فى المدينة حامية من الجنود الأثينيين ، وأرسلت وكلاء أثينيين مدنيين (Episcopi) لتنظيم شئون هذه البلاد ، وليفرضوا عليها دستورا جديدا ، على أن يتولى الوكلاء ، وقائد الحامية الأثينى اجراء الانتخابات المباشرة للمجلس الديمقراطى الذى سيشرف على الحكم ، وبعد ذلك يتولى اجراء هذه الانتخابات المجلس الذى انقضت مدته ، وقائد الحامية الأثينى ، وعلى هذا فقد كانت الحامية باقية على الدوام ، وفضلا عن ذلك فقد كان على المجلس أن يؤدى يمينا على على ألا يحاول اجراء أى تغييرات دستورية الا اذا وافقت عليها أثينا .

تعضيد أثينا للديمقراطيات

ولقد رأينا كيف كان الاتحاد يعامل كل من حاول الانسحاب منه معاملة الثائر عليه ، فيخضعه بالقوة ويعاقبه ، وكان من النتائج المألوفة انشاء ضيعة يملكها الأهالى الأثينيون فى الولايات الخاضعة لهـا . ومعنى كلمة cleruch مالك نصيب من الأرض . فقد كانت الأراضى تصادر فى الدولة التى يدور حولها البحث ، وتقسم الى أنصبة ، ثم توزع على الأثينيين ، وهناك من الأدلة ما يثبت أن هؤلاء الملاك لم يكونوا يتولون العمل فى هذه الأنصبة التى كان الأهالى يزرعونها بالنيابة عنهم .

لقد كانوا ، فى الواقع ، طائفة من الأثينيين يقيمون فى الدولة التابعة لتأمين السيطرة الأثينية عليها ـ أى أنهم كانوا حامية أثينية تقريبا . وكان الملاك الأثينيون يبقون مواطنين أثينيين ، وكانوا ، لهذا ، لا يدفعون اتاوة ، وكانوا يحاربون فى الجيش الأثينى ، فى فصائلهم الخاصة ، ولكن أسماء قبائلهم كانت تسجل على أنصاب عشيرتهم الأثينية . وقد تطورت سياسة زراعة الضيعات تطورا عظيما بعد سنة ٤٥٤ ، فلقد خدمت غايتين مفيدتين من الغايات التى كان يهدف اليها بيركليس ، اذ قوت قبضة أثينا على امبراطوريتها من جهة ، وفرجت عن الفقراء من أهالى أثينا من جهة أخرى .

ثم تبقى مسئلة الاتاوة . ففى أوائل تكوين الحلف الديلوسى كان لابد من تقويم المبلغ الاجمالى الذى لا معدى عنه لتحقيق أغراضه تحقيقا فعليا ، ولقد قرر أرستيديز Aristides هـذا المبلغ برقم اعترف الحلفاء اذ ذاك بأنه ضريبة عادلة لمقتضيات الظرف الذى كانوا يمرون به ، وذلك لأنه يكاد يكون محققا أن أرستيديز منح لقبه « العادل » لاقتناعهم بعدالة هذا المبلغ . فقد كان الاشتراك السنوى ، وقدره أربعمائة وستون وزنة أقل بكثير جدا مما كانت الدول المتعاقدة تدفعه سنويا جزية لفارس . وكانت أثينا راضية بهذا المبلغ الاجمالى ، وتدل النقوش على أنه لم يزد الا مرة فحسب ، فى هذه الفترة المالية التى تلت الكارثة المصرية مباشرة ، سنة ٤٥٤ ق.م ، حينما فقدت أثينا أسطولها فمست الحاجة مؤقتا الى رفع المبلغ المطلوب الى أربعمائة وخمس وتسعين وزنة (٢٢٧٠ درخمة) . وقد كان هذا المبلغ فى جميع الفترات المالية التى لدينا عنها مستندات تاريخية يقل عن الرقم الذى قدره أرستيديز ؛ ويمكن أن نلاحظ زيادة على ما تقدم أن الامبراطورية تزداد اتساعا ، وان ظل مجموع الاشتراكات أقل من الحد الثابت ، ونتيجة لذلك كان العبء الملقى على كاهل كل دولة بذاتها آخذا فى النقصان .

ضريبة أرستيديز

وكان يجرى تعديل الضريبة الاجمالية على كل دولة بذاتها كل أربع سنوات . ولم تكن طريقة فرض الضريبة ثابتة لا تتغير ، على أنهم كانوا يجرون فى ذلك على قاعدة مسح الأرض مسحا محليا تتولى ضبطه هيئة من المرطفين الأثينيين يدعون « تاكتاى » Tactae كانوا يعينون لهذا الغرض ، ولكن يبدو أن أثينا كانت تسمح للدول بتقويم ضريبتها فى بعض الأحيان ، ومهما يكن الحال فقد كان ينبغى أن يوافق على هذه التقديرات المجلس الأثينى (بوله Boule) الذى كان يتولى بنفسه تقويم الضرائب قانونا ، وكان من حق الدولة التى تعد نفسها مظلومة فيما فرض عليها من ضريبة أن ترفع فوق هذا استئنافا الى المحاكم الأثينية .

وكانت كل دولة تجمع الأموال بالطريقة التى تناسبها ، وذلك حينما يتقرر مقدار نصيبها ، ثم تدفعه الى صندوق الضرائب

البـــونانى Hellenotamiae فى أثينـا ، وذلك فى عيـــد الديونيزيا الأكـبر Great Dionysia فى شهر ابريل ، وكان من واجب الصندوق أن يقيد المبالغ كتابة ، ويراجعها بعد ذلك مراجعو حسابات الـدولة الرســـميون ، أو Logistae الثلاثون . وكان جزء ، من ستين جزء ، من المجموع يدفع لخزانة أثينا ، ربة مدينة أثينا وحاميتها (ونحن نستمد معلوماتنا عن قوائم الضرائب من تقرير المبالغ الرسمية التى كانت تنقش على الحجر) ، أما البـاقى فكان يتصرف فيـه رجال صندوق الضرائب (Hellenotamiae) وكان موظفون أثينيون يدعون Ecloges يتولون جمع المبـالغ المتـأخرة من الدول التى كانت تحتجن شـيئا مما عليها . وكان هذا التدبير الضرورى ، على ما ذكره ثيوسيديديز سببا لاحتكاكات كبيرة بين الحلفاء .

أثينا وضريبتها

ثم أصبح الحلف امبراطورية واضحة المعالم واصبحت الاشتراكات المالية الاختيارية اتاوات صريحة سـافرة ، فأخـذ الاحـكام يتجلى فى السجلات الرسمية ، وأنتهى الأمر فى سنة ٤٤٣ أن قسمت الدول المشتركة الى خمسة أقسـام جغرافية تنفيذا لأغراض عملية تقدير الضرائب — هى ايونيا ، والجزائر ، وبحر مرمرة ، وتراقية ، وكاريا ؛ وعلى كل حال فقدهزت ثورة ساموس ، سنة ٤٤٠ ، قواعد الامبراطورية ، اذ فقـدت أثينـا بسببها نهائيا كثيرا من الدول الخاضعة لهـا ، وان تكن قد أخمـدت الثورة نفسها ؛ وقد اختفى من قوائم الضرائب ذكر القسم الـكارى ، وكانت المـــدن التى لم تزل فى الامبراطورية من هذا القسم يرد ذكرها فيما يتعلق بشئون الضرائب ، منذ ذلك الوقت ، فى قوائم القسم الايونيوى .

وثمة موضوعان يحسن تناولهما بالايضاح قبل ترك موضوع الاتاوات . فلا يزال يتردد بكثرة ذكر حالتين تدل على بطلانهما الحسابات الرسمية الحقيقية الواردة فى النقوش . أما أولى هاتين الحالتين فهى ان شـطرا من الاتاوة كان يستعمل فى الانفـاق على البـارثينون Parthenon ومبانى أثينـا الـكبيرة البيركليسية الأخرى ، ولدينا الآن مقدار كبير جـدا من النقوش التى تسجل حسابات المنصرف ، على المبانى العظيمة ، والمصـادر التى كانت تسحب منهـا الأموال الضرورية ، وتدل هذه النقوش دلالة تامة على أن برنامج المبـــانى لم يكن يمول من الاتاوة بخاصة ، بل من أموال أثينا الاحتياطية .

وكان ما ينفق بصفة مباشرة من المال الذى يقوم عليـه رجال الصـندوق على غـير الأغراض الاستعمارية مبلغا تافها ، وذلك زيادة على ضريبة صـغيرة هى ضريبـة ثلاثة الأخماس فى المائة من هذا المال وهى الضريبة التى كانت تؤدى بانتظام الى الربة ، وبالأحرى الى خزانة الدولة الأثينية . والحق أن موضوع الجدل كان فى الوقت نفسه قائما حول مد الامبراطورية للديمقراطيـة الأثينيــة بالمـال بصفة غـير مباشرة ، وذلك أن هذا التمويل لم يفرض على الأثينيين حمل عبء ضريبة التسليح التى كانت الديمقرطيـات تتبرم بهـا منتهى التبرم . ومن هنـا كانت الديمقراطية الأثينية استعمارية صـارخة على عكس الديمقراطيات الأخرى . فلو لم تكن هذه الاتاوات لما كان ثمة هذا الاحتياطى الذى يسمح بالانفاق على الشئون الأخرى .

بطلان الدليل الآن على سوء الادارة الحكومية

أما الرواية الباطلة الثانية فهى هذا القول الذى يلغطون به أحيـانا ، من أن أثينـا كانت ترفع باستمرار قيمة الاتاوة . وقد رأينا من قبل أن هـذا غير صحيح ، لأن الرقم الاجمالى ظل أقل من ضريبة أرستيديز الأصلية الا فى فترة مالية واحدة . على أن المجال يسمح مرة أخرى بشيء من الايضـــاح ، فالاتاوة لم تكن ترمز الى مجموع الايرادات المالية الاجمـالى ، المباشر وغير المباشر ، الذى كانت الامبراطورية تجلبه للاثينيين ولأثينا .

وقـــد خلقت الامـبراطورية لكل فرد من الأثينيين ، كمـا لاحظ ذلك اجزنوفون المزعوم Psuedo — Xenophon عـــددا من المنـــاصب الرسمية ذات الرواتب ، فتركيز التقـاضى فى الامبراطورية فى المحاكم الأثينية أتاح عمـــلا للقضاة الأثينيين ، وجلب المال الى أثينا ، وهكذا انتفع ، بطريق غير مباشر عدد كبير من المواطنين من جميع الطبقات من مؤجرى منازل السـكنى

فمن فوقهم ، ونعــود فنقــول ان سـياسة الديمقراطيين الأثينيين المالية فى فرض ما يمكن فرضه من الغرامات على خصومهم الأغنياء ، وذلك بواسطة قرارات ، لم تكن خالية دائما من الغــرض خلوا تاما ، كانت تطبق على الأغنياء والمحافظين فى الدول الخاضعة ، وتعود بالفائدة على الخزانة الاثينية ٠

الا أنه ، بصرف النظر عن هذه الفوائد غير المباشرة ، كانت أثينـا تحصل على ايرادات أخرى من الامبراطورية فضلا عن الأتاوه ٠

وقــد قــدر ثيوسـيديديز Thucydides الاتاوة فى أول نشــوب حرب البليبــونيز بســتمائة وزنة ، وكانت الاتاوة الفعلية من واقع الأرقام الدقيقة ، كما رأينا ، هى أقل من أربعمائة وستين وزنة ٠ وربماكان ثيوسيديديز يتكلم على وجه الاجمال عن مجموع الايراد الذى كانت تحصــل عليه أثينا من الامبراطورية ، ونحن لا نعلم بالتفصيل من أين جاء الفـائض الذى يمثله الفرق بين هذين المبلغين ، ولكن ربما كان جزء كبير منه مستمدا من الضرائب المفروضة على التجارة ، ومن المكوس والرسوم المختلفة التى كانت تفرضها أثينا ، لأن الحلف ، فى صيرورته امبراطورية لم يفقد ما كان ينسم به من الرابطة التجارية ٠ وقد كان الرد الأثينى العملى عـلى تدخل البليبونيز فى بوتيــدايا Potidaea هو هــذا المرســوم الميجارى (أنظر صـحيفة ٥٦٤) ، الذى عجل نشــوب حرب البلبونيز ، وقد سد ذلك جميع الأســواق الواقعة فى الامبراطورية الأثينية فى وجــه المتاجر الميجارية (وكانت ميجارا تعتمد تجاريا على صادراتها من الملح ومصنوعاتها من الأقمشة الصوفيه) ٠

وفى سنة ٤٣٢ نشبت حرب البليبونيز ، وقد تقــدم الكلام فى الخبر الخامس عــلى الظروف التى تعجلت وقوع الأزمة الحادة ، والتحالف الدفاعى بين أثينا وكوركيرا ضــد كورنثه ، والتــدخل الكورنثى ضــد أثينا فى بوتيدايا ، فلا نعيد ذكرها هنا ٠ انها لم تعد أن تكون مثل حادث سيراجيفو الــذى وقعت بسببه الحرب العظمى ، أما الأســباب الحقيقية فأعمق من ذلك ٠ وقد ذهب بعض العلماء الذين كانت تستهويهم النظرية الحديثة فى تفسير التاريخ تفسيرا اقتصاديا الى التماس هذه الأسباب فى المنافسة التجارية بين كورنثة وأثينا ، بل الى محاولة مزعومة من جانب أثينا للتضييق على كميات القمح الأجنبى ٠

الأسباب الكامنة للحــرب

ومما لا شك فى صحته أن المصالح التجارية وسلامة موارد الطعام كانت من عوامل هــذا الموقف السياسى المعقد ، الا أنه من مجانفــة الحق المغالاة فى تقدير أهميتها ٠ وقد تكون أوجه هذا الأسباب أسبابا سياسية ، وهــذا هو رأى ثيوسيديديز ، وأنا شخصيا لا يخامرنى شك فى أنه على حق ، فالأسباب التى من أجلها أصبحت الحرب شيئا لا مفر منه هى ؟ أولا : هذا التحاسد ، وهذا التنافس ، اللذان لم يكن منهما بد ، بين عصبة البليبونيز والامبراطورية الأثينية ، وثانيا : ميل الدول التابعة لها ، وميل الرأى العام اليونانى على العموم ، نحو « نظام الحكم الاستبدادى » ٠

فمن حيث السبب الأول ، قد كان حتما هذا التحاسد بينالدولة التى كانت صاحبة السلطان فى العالم اليونانى قبل الحرب الفارسية ، وهذه الرابطة الجديدة ، بل الرابطة الأقوى سلطانا ، من الدول التى ظهرت فى الوجود بعد الحرب مباشرة وكان يزيد ما بينهما من تلك الريبــة والتحاسد الطبيعيين موقف كل منهما تلقاء الأخرى ، بوصفهما تمثلان مبادىء سياسية متعارضة ــ أسبرطة التى تمثل مبادىء حكم الأقليات ، وأثينا التى تمثل الديمقراطية ، واستطاعت كذلك أسبرطة الدورية ، ثم أثينا الايونيوية أن تستغل الأهــواء الجنســية التقليدية ، التى برهنت دائما على قوتها فى الابقاء على العداوات الدولية مهما كانت هذه الأهواء أهواء وهمية ٠

وفضلا عن هذا ، فقد استعملت أثينا قوتها المستحدثة فى اخضــاع غرمائها التجاريين فى بلاد اليونان ؛ فتحطمت أجينا تحطيما تاما ، وأصيبت التجــارة الـكورنثية بأضرار بالغة ، كما قام النزاع بينهــا وبين كورنثة على طريق التجــارة الغربى الذى كانت تحتكره الثــانية

لنفسها ، بل حاولت أثينا أن تبسط سلطانها المطلق على بوطية واليونان الوسطى ، فكانت المحاولة أكثر مما تكفله لها قوتها ، ثم كان فشل الحملة المصرية التى لم تنرو أثينا فى أمرها نقطة تحول فى مصائرها ، فقد كان عليها ، بموجب صلح الثلاثين عاما ، سنة ٤٤٥ ، أن تنزل آخر الأمر عما كانت تطمح اليه من انشاء امبراطورية برية فى بلاد اليونان ، وأن تقبل من أهل البليبونيز شروطا لا مصلحة لها فيها ، الا أنه من السخف أن نظن أن أعضاء عصبة البليبونيز قد نسوا ما ابتلوا به فى هذه السنين الثلاثين من أعمال العدوان والمخاوف والأضرار ، وان يكن الصلح قد عقد رسميا ، وقد كان السبب الأول فى أن العصبة لم تنتهز فرصة انتقاض ساموس على أثينا للقيام بعمل حربى هو أن كورنثة لم تكن قد استعدت بعد ·

الأطماع الأثينية فى بلاد اليونان

أما السبب الثانى فهو ، فى رأينا ، ما كان محتملا فى أية حالة أن ينتهى اليه السخط المتزايد من الحكم الأثينى من انهيار الامبراطورية الأثينية التى كانت تغلى فيها مراجل الثورة ، وقد وضحنا من قبل كيف انتهت أثينا بالتدريج الى القبض على أزمة الحكم ، فى الوقت الذى كانت مدعوة فيه الى تولى القيادة ؛ وكانت المظالم التى ربما شقت مرائر رعاياها ، الذين كانوا يدركون تمام الادراك أن مشيئة أجنبية هى سبب ما ارتكسوا فيه من عجز ، كانت هذه المظالم هى دفع الجزية ، وعدم الرضا عن تقديم قضاياهم الى المحاكم الأثينية التى لم يكن شك فى عدالتها ، ووجود ضيعات أثينية كثيرة فى بلادهم ، وفى بعض الأحوال ، هذا التأييد المصطنع للأحزاب الديمقراطية المتربعة فى مناصب الحكم · ثم كان مرد الخصومة الحقيقية آخر الأمر الى تشوف الأغارقة الى الحرية ، وعدم ارتضاء أية جماعة يونانية السماح بالغاء حقوقها فى السلطان ، وكان هذا الحد من الاستقلال الذى يتمثل فى تلك الأمور التى من قبيل تحديد التقاضى ، ووقف دور سك النقود المحلية ، ووجود بعض الحاميات الأثينية فى بعض الأحوال ، أو تنظيم الدساتير بواسطة مبعوثين من الأثينيين المدنيين ، كان هذا الحد من الاستقلال يختلف جد الاختلاف من تلك

الشكاوى من الدولة الطاغية

الحرية التى تضمنها الارتباطات الهينة التى كان على أعضاء عصبة البليبونيز أن يرتبطوا بها ·

وعلى الجملة ، فقد كان الرأى العام اليونانى فى جانب الحلفاء ، وكان هناك مايبرر اعتبار أثينا دولة طاغية تستغل المحكومين لصالحها الخاص ، وتحكمهم فى ظل القوة المفروضة عليهم ، ومن هنا ما كان من هذا التجاوب الدائم بين المحافظين فى أثينا نفسها ، وبين أصحابهم فى الدول التابعة ، وما كانوا يرونه من أن الامبراطورية آية من آيات الظلم · وكان رد بيركليس الوحيد على هؤلاء هو قوله : « دعونا ننظر الى الحقائق ، فلا تستهوينا أعمال البطولة ، ان لنا امبراطورية ، وربما كان احرازنا لها قد حدث بطريقة غير عادلة ، الا أن سلامة أثينا الآن تتوقف على المحافظة عليها » ·

وتطابق حرب البليبونيز الحرب العظمى مطابقة عجيبة ، ولكن فى نطاق أصغر · فالعالم اليونانى كان منقسما الى مجموعتين متنافستين متعاديتين ، تمثلان مثلا ومبادىء سياسية متفاوتة ولم يكن أى من الحزبين أول الأمر ، متحققا من مدى هذا النضال ، ولا المدة التى يحتمل أن يستغرقها · وقد اتسع نطاق الحرب بالتدريج حتى شمل بلاد الناطقين باليونانية جميعا ، وكان صراعا طويلا كانت نتيجته أن بدد أوهام هذه الأحزاب كلها ، وأنهك قواها المادية والاقتصادية ، ثم جاءت ساعة الفصل ، آخر الآخر ، عن طريق تدخل دولة أجنبية عظمى ، هى فارس ، التى التزمت خطة الحياد فى أول الأمر ، والتى حصدت وحدها الثمرة المادية لهذه الحرب ·

لقد بلغت حرب البليبونيز سنة ٤٠٥ مرحلتها الحاسمة حينما ظفر ليساندر Lysander فى معركة ايجوسبوتامى Aegospotami وأغلق الدردنيل من دون أثينا ، وقطع عليها خط تموينها بالطعام ، وذلك بواسطة الأسطول الذى بناه بالخشب الفارسى والنقود الفارسية · وكانت النتيجة تحطيم الامبراطورية الأثينية ، الا أنه لم يتحقق ذلك المثل الأعلى للاستقلال الذاتى للدول اليونانية ، ذلك المثل الذى كان القوام الروحى لخصوم أثينا ، اذ أن أسبرطة وجدت نفسها

أسبرطة تحل محل أثينا

فى المكان الذى كان فيه خصمها • وكان هذا الوضع أكثر ملاءمة لأطماع ليساندر ، ولأطماع أسپرطة ، وكان ثمة ما يبرر ذلك فى الواقع أيضـا ، ذلك أنه اذا كان للعـالم اليونانى أن يحتفظ بكيانه فى النضال من أجل الحيـاة مع الدول الكبرى ،كان ضروريا أن يتوسل الى ذلك بلون من ألوان الاتحاد أضخم من دولة المدينة ، الا أن أسپرطة قد فشلت فى ذلك أشد ممـا فشلت أثينا ، وكان أقصى ما وسعها هو النجاح فى تأخير تفكك عرى العـالم اليونانى ، الذى أخذ يندفع فى هـذه السبيل فى خلال القرن الرابع ، الى أن لم شـعثه مرة أخـرى ، وعلى أساس جديد ، قيام الدولة المقدونية •

وكانت سياسة أسپرطة سياسة الطغاة ، فقد كان سلطانها على الدول التى كانت أبعـد من أن يصل اليها جنودها بطريق مباشر ، أقل من سلطان أثينا • ولم تستطع أسپرطة يوما أن تكون دولة بحرية ، بل لم يكن فى مقدورها أن تكون ، ونتيجة لذلك لم تعد السيطرة اليونانية على البحار ذات بال ، فعادت القرصنة الى البطش بالتجارة البحرية ، ولم يكن بد من أن تؤول الدول اليونانية آخر الأمر الى قبضة الفرس ، وذلك بمجرد استمساك الشاه الأعظم بمطالبه • ولعله كان من حسن حـظ اليونان أن فارس القوية التى كان رأسـها دارا ، ثم اجزرسيس لم يعد لها وجود بعد ، وأن ذراريهما الضعفاء ، والأشـد منهمـا بلبلة ، كانوا قانعين بهـذه السيطرة السياسية ، اذ تظهر لنا فى وضوح تلك العـلائق المتبدلة ، بين اليونان وفارس ، فى ذلك الصلح الذى يسمونه صلح أنتا لكيداس Antalcidas ، أو صـلح الملك ، فى سنة ٣٨٧ ، عندما أملى ملك الملوك (الشاهنشاه) شروط الاستعمار بين الدول اليونانية •

وقد أسـلفنا أن أسپرطة حاولت أن تحكم حكم طغيان ، فليساندر هو الذى شرع سياسة وضع الحكم فى الدول التابعة ، فى أيدى أقليات ضـئيلة العدد جـدا ، تدعى Decarchies ، أو لجان العشرة ، كانت تستند الى التأييـد الأسبرطى ، وكانت أسبرطة كذلك ، تعين موظفين ، أو Harmosts ، لحكم الدول التابعة لها ، وكان تدخلها فى الحرية السياسية ، فى صورة أكثر سفورا وشدة مما كانت تتهم به أثينا ، يغذى العداوة والبغضاء فى كل مكان ، وكان يضاعف هذا الشعور بالكراهية السلوك الذى لا يطاق ، الذى كان يسلكه الأسبرطيون فى الدواوين كأفراد ؛ وذلك أن مزايا التدريب الأسبرطى المحدودة قد أفسدها النجاح ، وكان من شأن الحكام أن يكونوا متعجرفين وأخساء وفسدة •

وقد عانت أسبرطة نفسها من هذا التبديل فى أحوالها ، فمعاهدها ، كما رأينا ، كانت من نوع مغرق فى التخصص ، قصدوا به المحافظة بطريقة غير طبيعية على لون فج من ألوان المجتمع العسكرى • وكانت الأحوال الجديدة ، والمسرح الأكبر الذى دعيت أسبرطة لتمثل فوقه الدور الرئيسى ، ضارين ضررا بالغا بالمحافظة على نظامها ، فالمساواة ونظام الاشتراكية العملية فى ظل الطبقة الحاكمة لم يعد يمكن المحـافظة عليهما فى هـذا الوقت الذى أصـبحت فيه لأسبرطة مصالح استعمارية خارج شبه جزيرة البلبيونيز ، اذ أن مزايا النظام الأسـبرطى الخاصة ، والخلق الاسبرطى ، لم تكن توائم تلك الظروف التى تختلف جد الاختـلاف من الظروف التى نشأت فيها •

الظفر يفسد أسبرطة

ثم ماذا كانت الحال فى العالم اليونانى ، فى ذلك الوقت نفسه ؟ لا جرم أن الحـرب العظمى قد جعلت بعض المثاليين يحلمون أحلاما سعيدة بيونان متحدة ، ولم يفتأ اسقراط طوال حياته يدعو الى الرأى القائل بعصـبة الأمم اليونانية ، بوصفها سياسة عملية ، الا أن الحرب فى واقع الأمر ، لم تنه فى ذلك الوقت مرارة الخصومات السياسية ، كما لم تنه هـذه الخصـومات فى العصر الحـديث ، ولم تقل كراهية الدول اليونانية بعضها لبعض من جراء ما نالها من أعياء ،وفى خلال القرن الرابع بعثرت هذه الدول القليل الذى نبقى من مـواردها المالية والعسكرية فى الحروب المستمرة ، التى اتصلت فلم تبلغ نهايتها الحاسمة بسبب ضعف المتحاربين واعيائهم جميعا على وجه التحقيق • وقد حافظت أسبرطة ، بفضل تفوق جيشـها الدائم على جيش أية من الدول الأخرى ، على مكان الصدارة حتى عام ٣٧١ ضد عالم يونانى

متضعضع لم تجتمع كلمته على شيء الا في عداوته لها ، وقد هزم ايبامينونداس Epaminondas الجيش الأسبرطي سنة ٣٧١ في حومة الوغى عند ليوكترا Leuctra وبهذه الهزيمة انتقلت المنزلة الأولى الى طيبة المنتصرة ٠

وكان مكان الصدارة قد انتقل من أثينا الى أسبرطة ، ثم انتقل الآن من أسبرطة الى طيبة ، التي كانت لا تزال ، من حيث الكفاية السياسية ، أقل استعدادا للاضطلاع بهذا العبء ، ثم لم يكن بد من انتقاله بدوره ، من طيبة ، الى اللصوص الفوكيين (انظر الخبر السادس) الذين استولوا على خزائن الهيكل في دلفي ، والذين كان في مقدورهم ، طالما واتاهم المال ، أن يحتفظوا بجيش من المرتزقة يكفي بعدده الضخم لالقاء الرعب في قلوب اليونان ٠ وكان هذا انتكاسا خطيرا في مجرى الحضارة ، اذ لم يأت خلفاء أثينا بفكرة ايجابية في مشكلات الاستعمار ، وكان لسياسة ايبامينونداس ، القائد الطيبي ، هدف رئيسي واحد ، هو القضاء على أسبرطة قضاء مبرما ، وقد نجح في هذا ، وأنشأ في بلاد البليبونيز دولتين مستقلتين ، في مسينيا وأركاديا ، لكبح جماح أسبرطة على الدوام ٠

وبتحطيمه عصبة البليبونيز على هذه الصورة ، طبق في شبه الجزيرة سياسة تفتيتها الى وحدات صغيرة متنازعة ، الا أنها لا حول لها ، وقد أصبحت رمزا لأمثالها من سائر البلاد اليونانية ٠ ومهما خالجنا من الشعور بالعطف على وطنية ديموستين وشجاعته ٠٠٠

آثار الانتصار الطيبي

ديموستين الذي أساء تقدير قوة أثينا ، ومواردها الحقيقية في أيامه ، بسبب ما كان لا يزال يرن صداه في الأذهان من أمجاد ماضيها الاستعماري ، فقد كانت البلاد اليونانية تنتحر وهي تمزق نفسها في القرن الرابع ، من جراء هذه الفردية التي هي الضد من تعشق اليوناني للحرية ٠ ولم يكن ثمة حل يمكن أن يكون حلا ناجحا لهذه الحال ، غير هذا الحل الذي ارتآه فيليب ملك مقدونيا ٠

وثمة تجربة استعمارية أخرى ، قد ينبغي ذكرها ، وهي تلك التجربة التي أجراها ديونيزيوس الأول Dionysius I في صقلية (٤٠٥ ــ ٣٦٧) ، حيث أنشأ هذا الرجل ذو الشجاعة التي لا تنال منها الحوادث ، والهمة التي لا تفتر ، والقدرة العظيمة على التنظيم ، امبراطورية شملت الجزء اليوناني من صقلية والطرف الجنوبي من ايطاليا ٠ وقد تهيأت لديونيزيوس فرصة ذلك ، وأسعفه المبرر له عند ما انتابت البلاد تلك الملمة الوطنية ، وهي غزوة القرطاجيين صقلية ، ثم ساعدته طرفه الاستبدادية الخالية من الرحمة في تركيز ما يكفي من السلطة في يديه القديرتين لانقاذ الجزيرة من السيادة البونية . وقد جعلت ضرورات الأزمة الحالية تلك الطرق الأوتقراطية شيئا لا بد منه ، واقتضت النفقات الضرورية الضخمة فيما اقتضته أن يقتر على رعاياه ، وأن يلزمهم المغارم ٠ وعندما مات ديونيزيوس ، كان قد

أهداف ديونيزيوس الاستعمارية

تأجل وقوع الخطب القرطاجي المدلهم ، وذلك بفضل جهوده ٠ وكيفما كان الأمر ، فلم تكن امبراطوريته تقوم على أساس أرسخ من هذه الأزمة القومية ، التي أمكنه حينئذ أن يتفادى شرها ، ثم على مقدرة الحاكم الذي طواه الردى ، وقوة شكيمته ٠ أما ابنه فكان أضعف منه ، وكان أعجز من أن يحافظ بنجاح على الحكم الاستبدادي الذي اتضح أن مبرراته الحقيقية قد زالت ٠

وعلى هذا ، فالامبراطورية الأثينية هي أهم محاولة قام بها اليونانيون ، في سبيل انشاء وحدة سياسية ،أكبر نطاقا من دولة المدينة ، ثم هي أقل هذه المحاولات اخفاقا ، وذلك كله قبيل قيام الدولة المقدونية ٠ صحيح أن عصبة البليبونيز برهنت على أنها أمتن بنيانا ، بيد أن هذا كان مرجعه الى مرونة نظامها السياسي الذي لا يسمح لنا بأن ننعت هذه العصبة

بالدولة . وقد أدت الامبراطورية الأثينيــة خدمتين لم يكن معاصروها يقدرونهما حق قدرهما . أما أولاهما فانهــا ، والحق يقــال ، قد قامت بمــا تبقى من الحرب الفارسية بهذه السيطرة الاغريقيــة التى أرست قواعدها فى بحر ايجـة ، وبمــا كان أسـطولها يــذود عن حريات اليونانيين فى الأناضول ضد السيادة الفــارسية ، وهى تلك الحــريات التى لم يكن مناص من أن يفقدوها عندما سقطت الامبراطورية . أما الخدمة الثــانية فهى قضاؤها على القرصنة وتأمينها البحار للتجارة .

الا أن الامبراطورية الأثينية لم يطل أجلها ، وكتب عليها الانهيار السريع بسبب هذه الشرور التى كان وجودها نفسه يلحقها بالمثل اليونانية السياسية . وخليق أن تنشــأ أدق مشكلات الاستعمار جميعا ، وأكثرها صعوبة ، حينما يحاول الناس أن يحكموا أناسا آخرين لهم مثل حضــارتهم ، لأنه اذا كان لا بد لمثـــل هـــذه الامبراطورية من أن تعم ، فلا منــاص لها من أن تصطنع سياسة الأخذ والاعطاء . وكما هى الحال فى الدول الصــغرى ، يجب أن يكون الحكم لصــالح المحكومين ، لا لصــالح الحاكم الشخصى ؛ ويجب أن تقوم سلطة الحاكم على رضا الناس ، لا على القوة الغاشمة التى تطبق تطبيقا استبداديا .

أما فى حالة الامبراطورية الأثينية ، فيرجع اخفاق كلا الجانبين فى ادراك هذه الأمور الجوهرية الى أن الســياسة العملية اليونانيــة ، والفكر الســياسى اليونانى كانا محصــورين فى أفق دولة المدينة الصغيرة . وكان اليونانى لا يكاد يتصــور وجــود مجتمع أكبر من مجتمعه ، كما كان يــرى من الأمــور الغريبــة المضحكة نزول دولة تابعــة ، طائعة مختــارة ، ولمجرد الزهو بعضويتهــا فى جماعة سياسية أكبر منهــا ، عن حقوقها الاستقلالية المطلقة التى هى من شئونها الخاصة .

التعامى عن الحقائق الجوهرية

ومن جهة أخرى ، فان أثينــا لم يبد عليها ما يدل على أنها أدركت أن مثل الدولة السياسية فى نطاقهــا الضيق يجب أن تتحقق بصــورة من الصور فى الدولة فى نظامها الواسع ، اذا أريد لهذه الدولة أن تبقى . وكانت حياة التكافل عند الأثينيين هى أن يقوم مجتمع المدينة لصالح مواطنيها العام ، وأن يكون من واجب كل فرد ومن حقــه أن يكون له شــأن فعال فيه ، وأن يسهم بنصيب فيه .

أما الآراء القــائلة بجعــل الرعايا شركاء ، أو التى تتصور الامبراطورية كائنــا عضــويا ينبغى أن يكون فيهــا هؤلاء الرعايا المواطنون والأثينيون أعضـــاء متساوين فيه ، فقد كانت آراء غريبة جد الغرابة على فكرة الامبراطورية الأثينية .

وانى لا أعرف الا بادرة واحدة من بوادر هذه الفكرة ، وردت فى احدى ملاهى أرستوفان ، حيث يزعم النســاء للرجال أن فى وســعهن ، لو أعطين حق الانتخاب ، اصلاح أحوال العالم :

« خــذوا الفروة أول كل شىء ثم اغسلوها ، ثم خلصوها من العقــد ... وبهــذه الطريقة تتخلصون من أعضــاء الدولة اللــدين لا غنــاء فيهم .. ثم اندفوا الصوف فاجعلوه فى سلة كبيرة واحدة من العزيمة الصالحة ، واخلطوا به « الغرباء » والأجانب من ذوى مودتكم ، وكل شخص نافع للدولة ، ثم امزجوهم فيه بعضهم ببعض ، بما فيهم الدول التابعة ، واجعلوا الجميع كرة واحدة معدة للغزل » .

وكانت الفطرة التى فطر الله عليها تلك الدول التى ألفت اليها الظروف بمقاليد حكم الشعوب الأخرى ، هى محاولة حكمهم حكما استبداديا يقوم على السلطان العسكرى . وحينما يكون الرعايا من جنس واحد ، وأهل حضارة واحدة تتجلى الصعوبة فى المحافظة على دوام مثل هذه العلاقة بين الحاكمين والمحكومين ، وتزداد هذه الصــعوبة اذا تولى يونانيون حكم يونانيين ، وذلك لهيام مهم بالحرية السياسية التى أصبحت جزءا من الخلق اليونانى ، وربما نلاحظ ، فضلا على ما تقــدم ، أنه لم توجــد بعــد تلك الأداة

السـياسية التى يمكن اعدادها بحيث تهيىء لرعايا الدولة عضوية حقيقيةفيها ، ونصيبها فى حكومتها فديمقراطية دول المدن كانت حكومة مباشرة بواسطة الشعب ، بواسطة المواطنين ، وبالأحرى ، بواسـطة الموجودين بالفعـل فى المدينة للادلاء بأصواتهم · ولم تكن ثمة حاجة الى تفويض من يبـاشر السلطة السياسية فى نطاق المدينـة الصغير ، ولم يكن هنـاك نظام تمثيلى ، ولهذا لم تكنعندهم أداة عملية نستطيع دولة حرة ، ذات نطاق أوسع من نطاق المدينة ، أن تطبقها فى ادارة مرافق البلاد ·

وقد نلاحظ آخر الأمر أنه اذا كانت أثينـا لم تدرك الأصول الوحيدة التى يمكن أن تقوم عليهـا امبراطورية عظمى ، فتعمر ، فان أمتين أخـرين فحسب همـا الرومان والانجليز ، قد نجحتا فيما فشلت هى فيه · ولم يكن من السهل عليهما ، هما أيضا ، حفظ ذلك الدرس، بل تعلمته كل منهمـا عن طريق المرانة المرة ، فقـد اقتضى من الرومانيين تلك الحـرب الأهلية سنة ٩٠ ق · م كى يتعلموا أنه ينبغى للايطاليين أن يندمجوا ، بوصفهم مـواطنين ، فى كيان الدولة الرومانية ·

نجحوا فيما فشلت فيـه أثينا

ولم يدرك كل ما انطوى عليه هذا الدرس من مغزى كامل الا شخص واحد من رجالى الجيل التالى ، هو يوليوس قيصر ، وذلك لأن يوليوس قيصر كان فذا بين رجال عصره من حيث تكهنه بحلول ساعة يصبح فيها من المتحتم أن يكون أهل الأقاليم ، لا الايطاليون فحسب ، مواطنين فى امبراطورية عظمى ·

« تم المجـــلد الثانى »

فهرس

المجلد الثاني

الفصل السادس والعشرون

الأقوام الجدد

بحث فى حركات الشعوب

بقلم ر ٠ ا ٠ س ماكلستر

دكتور فى الآداب ودكتور فى القانون

وأستاذ علم الآثار الكلتية فى كلية الجامعة بدبلن

الفصل السابع والعشرون

اسرائيل فى ضوء التاريخ

بقلم تيودور ه ٠ روبنسن

الدكتور فى اللاهوت

وأستاذ اللغات السامية فى كلية الجامعة بكارديف

الفصل الثامن والعشرون

اليونان فى عصر البطولة

بقلم ١ ٠ ١ ٠ ا جادرنر

الدكتور فى الآداب

وأستاذ كرسى بيتس للأبحاث الأثرية فى جامعة لندن

الفصل التاسع والعشرون

طروادة

منزلتها فى التاريخ والأدب

بقلم ا ٠ ج ٠ ب ٠ ويس

مدير مدرسة الآثار البريطانية بأثينا سابقا

الجزء الثالث

الصبح

(٩٠٠ ـ ٥٥٠ ق.م.)

الفصل الثلاثون

نشأة الثقافة فى أوروبا الهمجية

بقلم ف . جوردون تشايلد

العضو فى جمعية العاديات

وأستاذ كرسى أبركرومبى للآثار فى جامعة ادنبره

الفصل الحادى والثلاثون

حياة نينوى وبابل فى عهدهما الامبراطورى

بقلم ر . كامبل طومسن

دكتور فى الآداب

وزميل فى كلية مرتن ـ أكسفورد

الفصل الثانى والثلاثون

الفتح الدورى والهجرات الايونيوية

بقلم و . ر . هاليداى

رئيس كلية الجامعة بلندن

الفصل السابع والثلاثون

الفرس وامبراطورية الشاه الأعظم

بقلم ج . ب . جرندى

دكتور فى الآداب

وزميل كلية جسد المسيح بجامعة أكسفورد

الفصل الثامن والثلاثون

الأتروريون والقرطاجيون

أصلهم وتكاثرهم

بقلم ج . ل . ميرز

الفصل التاسع والثلاثون

المثل العليا اليونانية وخصائص الشرق

الانقسام الكبير

بقلم و . ا . ل كوبلاند

المحرر المساعد لتاريخ العالم

الفصل الأربعون

الأديان الناشئة فى الشرق الأقصى

بقلم ا . بريديل كيث

دكتور فى القانون المدنى ودكتور فى الآداب

وأستاذ الكرسى الملكى للسنسكريتية وفقه اللغة

المقارن بجامعة أدنبره

الخبر الخامس

المدن المتنافسة

٤٧٨ – ٣٦٠ ق . م

الفصل الحادى والأربعون

الحياة الاغريقية فى أوجها

بقلم ف . ا . ريت

أستاذ الأدب اليونانى واللاتينى بجامعة لندن

الفصل الثاني والأربعون

عبقرية الفن اليوناني وعلاقتها بألعاب القوى

بقلم پرسی جاردنر

دكتور في الآداب والقانون

أستاذ كرسي امرتوس لعلم الآثار اليونانية والرومانية بجامعة أكسفورد

الفصل الثالث والأربعون

الأدب اليوناني والمسرح

بقلم جلبرت نورود

أستاذ اللاتينية بجامعة تورنتو

الفصل الرابع والأربعون

ديانة اليونانيين

بقلم لويس ر . فارنل

الدكتور في الآداب

وعميد كلية اكستر بأكسفورد

الفصل الخامس والأربعون

الأمبراطوريتان الأسپرطية والأثينية

بقلم و . ر . هاليداي

مصادر مختارة

الفصل الثالث والعشرون
امبراطورية الحيثيين

COWLEY, A., The Hittites 1918

GARSTANG, Prof. J., The Land of the Hittites, 1910

SAYCE, Prof. A. H., The Hittites : the Story of a Forgotten Empire, new ed., 1925.

WESTHEIN, P., Hetitische Kunst, 1921.

WRIGHT, W., The Empire of the Hittites, 1886.

الفصل الرابع والعشرون
الانقلاب الدينى فى مصر

BREASTED, J. H., Ancient Records of Egypt, Vol. II, 1906-7

History of Egypt, 2nd ed., 1909.

Development of Religion and Thought in Egypt, 1912. (1903-8

DAVIES, N. de G., Rock Tombs of El Amarna.

ERMAN, A., The Literature of the Ancient Egyptians, trs. A. M. Blackman, 1926.

PEET, T., E., and Woolley. C.L., The City of Akhenaten, 1923.

WEIGALL, A. E. P., The Life and Times of Akhnaton, 2nd ed., 1911.

الفصل الخامس والعشرون
المينيويون والميسينيون : بلوغ الحضارة أوربا

BAUD-BOVY. D., and Boissonas, F., Des Cyclades en Crète, 1919.

BOSSERT, H. T., Altkreta, 1923.

BRITISH SCHOOL AT ATHENS, Palaikastro Exploration, Part I. 1923.

DUSSAUD, R., Civilisations préhelléniques, 1914.

EVANS, Sir A., The Palace of Minos, 1921.

FURTWAENGLER, A., Mykenische Vasen, 1886.

GLOTZ, G., The Aegean Civilization, trs.

M.R. Dobie and E. M. Riley, 1925.

HAWES, HARRIET BOYD, GOURNIA, 1908. Crete the Forerunner of Greece, 1909.

MOSSO, A., The Palaces of Crete, 1907.

SCHLIEMANN, H., Mycenae, 1878; Tiryns, 1886.

WACE, A. J. B., Excavations at Mycenae (Annual of the British School at Athens, Vols. XXIV. XXV, 1922, 1925)

الفصل السادس والعشرون
الأقوام الجدد
بحث فى حركات الشعوب

BREASTED. J. H., Ancient Records of Egypt. Vol. IV 1906-7 (1925.

BUXTON, L. H. DUDLEY, The Peoples of Asia,

HALL, H. R., The Ancient History of the NEAR EAST, 6th ed., 1924.

The Oldest Civilization of Greece, 1901.

MACALISTER, R. A. S., The Philistines (Schweich Lectures), 1913

PEET. T. E., Egypt and the Old Testament. (1922.

PETRIE, Sir FLINDERS, Egypt and Israel, 1923.

PUMPELLY. R., Explorations in Turkistan, 1904.

RIDGEWAY, Sir W., Early Age of Greece, 1901.

WINCKLER, HUGO, The Tell el-Amarna Letters, transliteration with English trans 1896.

الفصل السابع والعشرون
اسرائيل فى ضوء التاريخ

BAIKIE, JAMES; Lands and Peoples of the Bible, 1914.

BAYNES, N. H., Israel Among the Nations, 1927.

BERTHOLET, A., Kulturgeschichte Israels, 1919. trs. by A K. Dallas under title: A History of Hebrew Civilization, 1926.

BURNEY, C. F, Israel's Settlement in Canaan (Schweich Lectures). 3rd ed., 1921:

CLARENDON OLD TESTAMENT, Vol. III, 1926.

DRIVER, S. R., Modern Research as illustrating the Bible, 1909.

MACALISTER, R.A.S., A Century of Exacavation in Palestine, 1925.

MALLON, ALEXIS, Les hébreux en Egypte, 1921.

WARDLE, W. L., Israel and Babylon, 1925.

الفصلان الثامن والعشرون والتاسع والعشرون
عصر بطولة طروادة

ALLEN, T. W., Homeric Catalogue of Ships 1921.

DOERPFELD, W., Troja und Ilion, 1902.

HOMER, Iliad : trs. A. Lang, W. Leaf. and E. Myers. 1919 (1910

Odyssey : trs. S. H. Butcher and A. Lang.

LANG ANDREW, World of Homer, 1910.

Leaf. WALTER, Homer and History, 1915.

Troy, a Study in Homeric Geography. 1912.

SCHLIEMANN, H., Atlas Trojanischer Alter tümer, 1874; Ilios, 1880; Troja, 1884.

SCHMIDT, H., Schliemann's Sammlung Trojanischer Altertümer, 1902.

SCHUCHHARDT, C., Schliemann's Excavations, trs. E. Sellers, 1891.

SEYMOUR, Prof. THOMAS DAY, Life in the Homeric Age, new ed., 1914.

TSOUNTAS, C., and MANATT, J. I., Mycenaean (Age, 1897

الخبر الثالث
الصبح
(٩٠٠ – ٥٥٠ ق٠م٠)

BREASTED, J. H., History of Egypt, 1909

BURY, J.B. History of Greece. 1922

CAMBRIDGE ANCIENT HISTORY, Vol. III, 1925.

MASPERO, Sir G., The Passing of the Empires, The Struggle of the Nations, 1910 (1900.

OLMSTEAD. A. T., History of Assyria, 1923.

ROGERS, R. W., A History of Babylonia and Assyria. 6th ed., 1915

ROSTOVTZEFF, M. I., The Orient and Grece, trs. J. D. Duff. 1926.

الفصل الثلاثون
نشأة الثقافة فى أوروبا الهمجية

BERTRAND, A., and Reinach. S., Les Celtes dans les vallées du Po et du Danube, 1894.

BURKITT, M. C., Our Early Ancestors, 1926.

CHILDE, V. GORDON, The Dawn of European Civilization, 1925.

The Aryans, 1926.

DECHELETTE, J., Manuel d'archéologie primitive, 1908.

HOERNES, M., Urgeschichte der bildenden Kunst, 3rd ed., 1925

MINNS, E. H., Scythians and Greeks, 1913

PEAKE, H. J., The Bronze Age and the Celtic World. 1922.

ROSTOVTSEFF, M. I., Iranians and Greeks in South Russia, 1922.

الفصل الحادى والثلاثون
حياة نينوى وبابل فى عهدها الامبراطورى

BUDGE, Sir E. A. W., By Nile and Tigris, 1920

KING, L. W., Babylonian Religion, 1899 (1900

KOLDEWEY, R. Das Ischtar-Tor in Babylon, Das Wieder erstehened Babylon, 1925.

LANGDON, S., The Babylonian Epic of Creation, 1923

LAYARD, Sir A. H. Monuments of Nineveh,

JASTROW, M., The Civilization of Babylonia and Assyria, 1915

THOMPSON, R. Cambpell, Devils and Evil Spirits of Babylonia, 1900

Reports of the Magicians and Astrologers of Nineveh and Babylon, 1900

Late Babylonian Letters, 1906; Semitic Magic 1908.

A small Handbook to the History and Antiquities of Mesopotamia. 1918

الفصل الثانى والثلاثون
الفتح الدورى والهجرات الأيونيوية

BILABEL, F., Die Ionische Kolonisation, 1920

BOTSFORD, G. W., Hellenic History, 1923

CURTIUS, E., History of Greece, Vols. I-IV. 1886

HOGARTH, D. G., Ionia and the East, 1909

JARDE., A., The Formation of the Greek People trs. M. R. Dobie, 1926

الفصل الثالث والثلاثون

AUTRAN, C., Les phéniciens, 1920.

BREASTED. J. H., History of Egypt, 2nd ed., 1910.

CAPART. J., L'art égyptien, Vol. II, 1911

HALL., H. R., Ancient History of the Near East 5th ed., 1920.

MASPERO, G., Studies in Egyptian Art. 1913.

MORET, A., Rois et dieux d'Egypte, 1911

QUIBELL, A., A., Egyptian History and Art, 1923.

Rawlinson, GEORGE, Phoenicia, 1885.

الفصل الرابع والثلاثون
اليونان قبيل بلوغ أوج عظمتها

CARPENTER, Rays, The Greeks in Spain, 1925

CASSON, S., Ancient Greece, 2nd ed., 1924

HALL, H. R.,, Aegean Archeology, 1915

HARRISON. JANE ELLEN, Primitive Athens, 1906.

MURRAY, G., The Rise of the Greek Epic, 1906

SELTMAN, C.T., Athens : its history and coinage before the Persian invasion, 1924

ZIMMERN. A. E. The Greek Commonwealth, 4th ed., 1924

الفصل الخامس والثلاثون
الحروف الهجائية

CLODD, EDWARD, The Story of the Alphabet, 1913.

EVANS, Sir Arthur, Scripta Minoa, Vol. I. 1909

GARDINER, A. H., and PEET, T. E., The Inscriptions of Sinai, 1917

JENSEN, HANS, Geschichte der Schrift, 1925

KARLGREN, BERNHARD, Sound and Symbol in Chinese, 1923.

LOCKE, L., LELAND, The Ancient Quippu or Peruvian Knot-record, 1923

SETHE, K., DER Ursprung des Alphabets, 1929

TAYLOR, ISAAC, History of the Alphabet, 2 vols. 1899

الجزء الرابع
الصدام بين فارس واليونان
٥٥٠ ــ ٤٧٨ ق · م

BURY. J. B. History of Greece, 1922.

CAMBRIDGE ANCIENT HISTORY, Vol. IV, 1926

CURTIUS, E., History of Greece, Vols. I-IV, 1886

DARMESTETER, J., Coup d'oeil sur l'histoire de la Perse, 1885

GRUNDY, G. B., The Great Persian War and Its Preliminaries, 1901

HERODOTUS, History, trs. A. D., Godley (Loeb edition). 1920

Rawlinson, G., The Five Great Monarchies of the Ancient Eastern World, 1871

ROSTOVTZEFF, M. I., The Orient and Greece, 1926

SYKES, Sir P. M., History of Persia, 1921

الفصل السادس والثلاثون
دول المدن الاغريقية قبيل الحرب الفارسية

BUSOLT, G., Griechische Staatskunde, 1920

FOWLER, W. W., City - State of the Greeks and Romans, 1895

HALLIDAY, W. R., The Growth of the City State, (1923.

ZIMMERN, A. E., The Greek commonwealth, 4th ed., 1924

الفصل السابع والثلاثون
الفرس وامبراطورية الشاه الأعظم

DIEULAFOY, MARCEL, L'art antique en Perse, 1884-89

HASTINGS, J., Encyclopedia of Religion and Ethics, 1908-12

HUART, CLEMENT, Ancient Persia and Iranian Civilization, trs. M. R. Dobie, 1927

LEVY. R., Persian Literature, 1923

MOULTON. J. H., Early Zoroastrianism. 1913

SARRE F., Die Kunst des Alten Persien 1923.

الفصل الثامن والثلاثون
الأترووريون والقرطاجيون

AUTRAN, C., Les Phéniciens, 1920

CAVAIGNAC, E., Histoire de l'antiquité, Vol. III. (1914.

CONTENAU, G., La civilisation phénicienne, 1926

DEECKE, W., Etrusker, 2 vols, 1877

DUCATI, PERICLE, Etruria Antica, 2 vols., 1925

GSELL, S., Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, Vols. I and II, 1913

MONTELIUS, Oscar, La civilisation primitive en Italie, 1895

PAIS, E., Ancient Italy, trs. C. D. Curtis, 1908

PIETSCHMANN, R., Geschichter der Phoenizier 1889

POULSEN, H., Etruscan Tomb Paintings, 1922

RANDALL MacIver, D., Villanovans and Early Etruscans 1924.

TAYLOR, L. R., Local Cults in Etruria, 1919

WEEGE, FRITZ. Etruskische Malerei, 1921.

الفصل التاسع والثلاثون
المثل العليا اليونانية وخصائص الشرق

BINYON, LAURENCE, The Flight of the Dragon, 1911

DICKINSON, G. LOWES, The Greek View of Life, 7th ed., 1909.

GILES, HERBERT ALLEN, The Civilization of China, 1911

History of Chinese Literature, 1901

MOORE, GEORGE FOOT, History of Religions Vol. I. 1914

RADHAKRISHNAN, SARVEPALLI. Indian Philosophy Vol. I. 1923

ROSES, JOHN, The Original Religion of China. 1909

SOOTHILL, W. E., The Three Religions of China 2nd. ed., 1923.

WIEGER, LEON, Histoire des croyances religieuses et des opinions philosophiques en Chine, 1922.

الخبر الخامس
المدن المتنافسة
٤٧٨ – ٣٦٠ ق • م

BURY. J. B., History of Greece. 1922

CAMBRIGE ANCIENT HISTORY, Vol. V. 1927

GILBERT. G., Constitutional Antiquities of Sparta and Athens, 1895

GROTE, G., A History of Greece, New ed., 1888

GRUNDY. G. B., Thucydides and the the History of his Age, 1911

ROSTOVTZEFF, M. I., The Orient and Greece, 1926

THUCYDIDES, History of the Peloponnesian War. trs. B. Jowett, 2nd ed., 1900

WHIBLEY, L., Companion to Greek Studies, 1916

XENOPHON, Anabasis, trs. J. S. Watson, 1888 Hellenica, trs. C. L. Brownson, 1918-21

الفصل الحادى والأربعون
الحياة الاغريقية فى أوجها

ABBOTT, E., Pericles and the Golden Age of Athens, 1897.

GLOTZ, GUSTAVE, Ancient Greece at Work, trs. M. R. Dobie, 1926

GILES, LIONEL., Taoist Teachings, 1912

HUNTINGTON, E., The Pulse of Asia, 1907

LIVINGSTONE, R. W., The Greek Genius and Its Meaning to Us, 2nd, ed., 1924

LIVINGSTONE, R. W., and others, The Legacy of Greece, 1921.

THOMSON, J.A. K., Greeks and Barbarians, 1921.

See also Bibliographies to relavant chapters

الفصل الأربعون
الأديان الناشئة فى الشرق الأقصى

BLOOMFIELD, M., The Religion of the Veda, 1908.

CHAUANG TZU, Musings of a Chinese Mystic, 1920

CHU HSI, The Philosophy of Human Nature, trs. J. Percy Bruce, 1922.

DREUSSEN, P., The Philosophy of the Upanishads, trs. A. S. Geden, 1906

GILES, HERBERT ALLEN, Confucianism and its Rivals, 1915.

GILES, LIONEL, The Sayings of Confucius, 1920

GLASENAPP, HELMUTH VON, Der Jainismus, 1925

Hopkins, E.W. The Religion of India 1895.

GROUSSET, RENÉ, Histoire de la philospohie orientale. 1923.

KEITH, A. BERRIEDALE, Buddhist Philosophy in India and Ceylon, 1923.

Religion and Philiosophy of the Veda and Upanishads, 2 vols 1925

LA VALLEE POUSSIN, Louis de, Le bouddhisme, 1909

La morale boudhique, 1927.

LEGGE, JAMES, The Religions of China. 1880

NETTLESHIP, R., L., Lectures on the Republic of Plato, 2nd ed., 1901.

NORWOOD, G. GREEK TRAGEDY, 1920.
The Writers of Greece, 1925

Rose, W. D., Aristotle, 1923

SHEPPARD, J. T., Greek Tragedy, 1920

VERRALL, A. W., Euripides the Rationalist, (1895.

الفصل الرابع والأربعون
ديانة اليونانيين

CORNFORD, F. C., Greek Religious Thought from Homer to the Age of Alexander, 1923

FRANELL, L. R., Cults of the Greek States, 5 vols. 1909
Greece and Babylon, 1911
Greek Hero Cults and Ideas of Immortality. 1920
Higher Aspects of Greek Religion, 1911

HARRISON, J. E., Prolegomena to the Studyof Greek Religion 1908

MURRAY, Gilbert, Five, Stages of Greeks Religion, 1925

Nilsson. N. M. P., A History of Greek Religion, trs. F. J. Fielden, etc. 1925

الفصل الخامس والأربعون
الأمبراطوريتان الأسبرطية والأثينية

GILBERT, G., Constitutional Antiquities of Sparta and Athens. 1859

GLOVER, T. R., From Pericles to Philip. 3rd ed., (1919

GRUNDY, G. B., Thucydides and the History of His Age. 1911

PICKARD-CAMBRIDGE. A W. Demosthenes and the Last Days of Greek Freedom. 1914

GULICK, B., The Life of the Ancient Greeks, 1909.

TUCKER, T. G., Life in Ancient Athens, 1906.

WRIGHT, F. A., The Arts in Greece, 1923
Greek Social Life, 1925

الفصل الثانى والأربعون
عبقرية الفن اليونانى وعلاقتها بألعاب القوى

FURTWAENGLER, A, Masterpieces of Greek art trs. E. Strong 1895

GARDINER, E. NORMAN, Greek Athelitic Sports and Festivals, 1910
Olympia, its History and Remains, 1925

GARDNER, E.A. Handbook of Greek Sculpture, 1920

GARDNER, P., The Principles of Greek Art, 1914.

MARQUAND, A., Greek architecture, 1909.

POULSEN, F., Delphi, trs. G. C. Richards, 1920.

SMITH, A. H., The Sculptures of the Parthenon 1910

WALTERS, H. B., Art. of the Greeks, 2nd ed., (1922

الفصل الثالث والأربعون
الأدب اليونانى والمسرح

DAVIES, J. LL, & VAUGHAN, D. J., Translation of Plato's Republic, 3rd ed., 1866

FRERE, J. H., Translations of Aristophanes

JEBB, R. C., The Attic Orators, 2 vols., 2nd ed., 1893.

MACKAIL, J. W., Lectures on Greek Poetry, (1910,

MURRAY, GILBERT, Ancient Greek literature, 3rd. ed., 1911
Translations of Euripides: Medea, 1906, Trojan Women, 1905, Iphigenia in Tauris, 1901 Alcestis, 1915, Electra, 1905

مطبعة مصر
شركة مساهمة مصرية
بالقاهرة